جَامِعَة القِدّيس يوسُف
كلية الآداب والعلوم الانسانية
فرع الآداب العربيــة
بيــروت

تيمورلنك

عصره ، حياته ، اعماله

اطروحة دكتوراه « دولة » اعدها مظهر شهاب

واشرف عليهــا

الاستاذ الدكتور نقولا زيادة

١٩٨١

المحتـــوى

الفصــــل الثانـــي

تأمـين الحـدود الشمالية والغربية

الـبـــاب الخـامـــس

حلـــم الـســيطرة على العالــم

الفصـــل الأول

احتــلال إيــران واجتياح جورجيا

٧٨٢ ـ ٧٨٩ هـ (١٣٨٠ ـ ١٣٨٧م)

الفصــــل الثـانـــي

حـروب تيمور في بلاد الجتا وبـلاد القبجاق

٧٨٩ ـ ٧٩٣ هـ (١٣٨٧ ـ ١٣٩١ م)

ثبت بمصادر البحث ومراجعه



- دخول تيمور الى سمرقند بعد عودته منتصراً في إحدى حروبه -
منمنمة في إحدى مخطوطات ظفرنامة لشرف الدين يزدي رسمت في شيراز حوالي ١٤٣٤م محفوظة في معرض فرير Freer للفنون في واشنغطن برقم ١٨ر٤٨ نقلاعن :
Gray: La Peinture Persane. Genève 1961 P. 97

مقـــــــدمــة

تيمورلنك هو آخر سلسلة الفاتحين الغزاة الذين أنجبتهم قارة آسية خلال العصر القديم والعصر الوسيط، بعد آتيلا وجنكيزخان وهولاكو . والبحث في حياة تيمورلنك وعصره وأعماله تستوجبه اعتبارات عديدة، تأتي في مقدمتها أن لهذا الفاتح التركي شخصيةً فذة، أثارت إعجاب أو حقد المعاصرين لها، قد أن تلفت أنظار الباحثين في الوقت الحاضر إليها فضلاً عن عامة الناس . لقد استطاع تيمورلنك أن يجوب على ظهر جواده غازياً ومقاتلا في قلب آسية وشرق أوربا، وتوغلت جيوشه شوطاً بعيداً في الصين شرقاً وبلغت حتى موسكو وإلى دمشق غرباً . ولم تقف أمام تيمور صحارى بلاد القبجاق، ولا جبال الهند ولا أنهرها . ولم تُضعف من عزيمته جيوش الدولة العثمانية، ولا هالة العظمة التي كانت تحيط بدولة المماليك. ولم يقض هذا الفاتح السنين الإحدى والسبعين التي عاشها، بين أهله وعشيرته في سمرقند وما وراء النهر، حيث رغد العيش وأبهة البلاط وبريق السلطة، بقدر ما قضى من هذا العمر على ظهر جواده يطوي البلاد ويسترق العباد .

ولذلك فإنه يبدو من المهم للباحث في الوقت الحاضر، أن لا يكتفي بكتابة سيرة تيمور وجمع أخبار غزواته وحروبه، بل عليه بعد أن ينتهي من ذلك، أن يعمل للغوص في أعماق نفس هذه الشخصية الفذة، للتعرف على سماتها الأصلية والوقوف على الدوافع الحقيقية التي كانت وراء الأعمال التي قام بها، وإيضاح المبادئ الأساسية والمنطلقات الأولية التي تملي عليه أعماله وتصرفاته، ومعرفة إذا كان تيمور يصدر في هذه الأعمال عن فلسفة سياسية معينة وتصور مبدئي لأمور الحكم والادارة والحرب والسلم ...

ويأتي بعد هذا الدافع الأول للبحث، عن تيمورلنك وفي أعماله، دافع آخر مرتبط باعتباري المكان والزمان . ولعله من الواضح أن تاريخ الجزء الغربي من العالم الإسلامي (شبه الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وشمالي افريقية) وقد لقي من عناية الباحثين، أكثر مما لقيه تاريخ الجزء الشرقي من هذا العالم (إيران وما وراء النهر ومنطقة السند). ويصدق هذا الحكم - على الأقل - على الأبحاث التي كتبت باللغة العربية . ويظهر أيضاً أن جل الاهتمام كان منصباً على البحث في تاريخ القسم الأول من العصر الوسيط، بين ظهور الإسلام في مطلع القرن السابع الميلادي إلى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، عندما كان زمام المبادرة في تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي بيد الجزء الغربي من العالم الإسلامي، حيث ظهر الإسلام، وانطلقت جيوش الفتح العربي إلى أقصى الغرب حتى الاندلس، وشرقاً إلى ايران والهند وما وراء النهر وحتى حدود الصين. وأصبحت أقطار هذا الجزء ولايات تابعة، تحكم من دمشق أو بغداد. ولم يحظ تاريخ القسم الثاني من العصر الوسيط بين منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (منتصف القرن السابع الهجري) ومطلع العصر الحديث إلا بنصيب أقل من اهتمام الباحثين .

ولذلك، وانطلاقاً من هذين الاعتبارين - اعتباري المكان والزمان - فقد أقدمت

على البحث في تاريخ "الدولة الايلخانية والحضارة في عهدها" وهي الدولة التي أسسها هولاكو، وحكمها من بعده أبناؤه وأحفاده . وشمل حكمها إيران والعراق وآسية الصغرى . وقد امتد حكم الايلخانيين قرناً من الزمن، بين منتصف القرن السابع إلى منتصف القرن الثامن الهجري (بين منتصف القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي)[1]. وأتابع الآن البحث في تاريخ تيمور الذي يبدأ من حيث ينتهي تاريخ الايلخانيين .[2]

إن توجيه اهتمام الباحثين في التاريخ الإسلامي لدراسة تاريخ الجزء الشرقي من العالم الإسلامي في القسم الثاني من العصر الوسيط له ما يبرره ، فهو بالإضافة إلى توفر عنصري الجدة والارتياد فيه ، فإنه بحث في تاريخ هذا الجزء في حقبة من الزمن انتقل فيها زمام المبادرة إليه ، خلال المرحلة المتبقية من العصر الوسيط وخلال جزء من العصر الحديث . وأصبح من الضروري لإدراك وفهم تاريخ الجزء الغربي من العالم الإسلامي في تلك الحقبة ، الاطلاع على تاريخ الجزء الشرقي منه ، كما كان الأمر ضرورياً لإدراك وفهم تاريخ الجزء الشرقي من العالم الإسلامي في القسم الأول من العصر الوسيط ، الاطلاع على تاريخ الجزء الغربي منه في تلك المرحلة . لقد طفق الايلخانيون — حكام إيران — خلال قرن من الزمن ، يحاولون انتزاع بلاد الشام من أيدي حكامها المماليك الذين اقتصر دورهم على مجرد الدفاع ضد غارات هؤلاء . وقام تيمورلنك من "ماوراء النهر" يكمل سياسة الايلخانيين بالتوجه نحو الغرب. وكانت غاراته أوسع مدى وأكثر عنفاً ، واستطاعت أن تصل إلى أبعد مما وصلت إليه محاولات الايلخانيين . وجاء العثمانيون بعد ذلك — وهم قوة نبتت أصلاً في مشرق العالم الإسلامي — ليفرضوا سلطتهم على مغرب العالم الإسلامي ، لحقبة طويلة خلال العصور الحديثة .

إن أهمية الدور الذي لعبه تيمور في التاريخ ، هذا الدور الذي تجاوز أقطار العالم الإسلامي إلى غيرها من الأقطار ، قد لفت أنظار المؤرخين المعاصرين له . فأكثروا من الحديث عنه في مؤلفاتهم ، أو كتبوا عنه مؤلفات خاصة . ويتصف بعض هذه المؤلفات بأنها مؤلفات مطولة . وكان عدد كبير من هذه المؤلفات قد كتبها أصحابها بعد ملازمتهم للفاتح التركي كأفراد في حاشيته ، أو من الذين كانوا ضحايا تشريد القوات التيمورية ، أو ممن أتيح لهم مجالسة تيمور ومناقشته والتحدث معه . ولم يتوفر — فيما أعلم — لشخصية من شخصيات التاريخ من المصادر التاريخية التي قصرت حديثها عن تلك الشخصية ، أو كانت كتابتها عنها بعد احتكاك مباشر بها ، كما حدث لتيمور .

---

(1) : كان بحث الدولة الايلخانية والحضارة في عهدها "الرسالة التي قدمتها لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ من الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٤م .

(2) : أشار إلى هذا الاتساق التاريخي بين نهاية حكم الايلخانيين وانبثاق العصر التيموري حافظ آبرو أحد المؤرخين التيموريين عندما أشار إلى وفاة السلطان أبي سعيد الايلخاني (آخر السلاطين الايلخانيين الأقوياء) وولادة تيمور في العام نفسه، وهو عام ٧٣٦هـ (١٣٣٦م) فقال : إن عام ٧٣٦ هـ الذي شاهد أفول نجم السلاطين الايلخانية بوفاة السلطان أبي سعيد فقد شاهد طلوع شمس السلطنة البرلاسية (برلاس قبيلة تيمور) بولادة الأمير صاحب القران (أحد ألقاب تيمور) . انظر : حافظ آبرو : زبدة التواريخ تحقيق نا ورص ١٨٧ .

وعلى الرغم من غزارة ماكتب عن تيمور من مؤلفات معاصرة ، فإن مهمة الباحث في الوقت الحاضر في حياة تيمور وأعماله ، تبدو مهمة عسيرة ، بسبب انقسام من كتب عن الفاتح التركي في مواقفهم إلى فريقين . وبينما يرى الفريق الأول تيمور ليس إلا ملكاً كريماً ووليّاً صالحاً، يصدر في أعماله عن وحي من الله الذي يلهمه تلك الأعمال، ليعيد الحق إلى نصابه، فهو المبعوث على رأس المائة الثامنة مهجرة ليصلح الدين ويجدد الشريعة ، فإن الفريق الثاني من المؤرخين لايرى في تيمور إلا أنه شيطان رجيم ومجرم أثيم وداهية آفاق ، جرت على يديه الويلات والمصائب ، وسالت دماء الأبرياء ، وأقيمت أبراج الرؤوس البشرية . ولذلك وأمام هذه الحال كان على من يقبل على البحث في حياة تيمور وأعماله، أن يكون يقظاً خلال مراحل عمله حتى لاتدفعه الكتابات المتعارضة إلى الانزلاق والانحراف عن الموضوعية ، التي إذا افتقدها أي بحث تاريخي أضحى عملاً لاقيمة له ولافائدة منه .

ولذلك فقد دفعني حرصي على الموضوعية إلى أن أسعى خلال مراحل البحث ، في تفاصيل الحياة الغنية لتلك الشخصية ، إلى مقابلة ماجاء في المصادر التاريخية التي تعبر عن وجهة نظر الإدارة التيمورية ، مع ماذكرته كتابات المؤرخين في البلاد الأخرى التي غزاها تيمور . وتجدر الإشارة هنا إلى ماكتبه المؤرخون العرب في الشام ومصر وإلى كتابات المؤرخين الأتراك العثمانيين والسريان والأرمن والروس والهنود، وهم الذين وصلت جيوش تيمور إلى بلادهم ، والذين اعتمدت على كتاباتهم في إجراء هذه المقابلة. ثم سعيت للوقوف على وجهات النظر المختلفة للمؤرخين في الوقت الحاضر ـ وجُلّهم من المؤرخين الأوربيين ـ من سلسلة الأحداث التي تعاقبت خلال حياة تيمور . وقد أعانني كل ذلك على تصور هذه الأحداث تصوراً واضحاً قبل أن أقوم بتسجيلها في هذا البحث.

وعلى كل حال ، فإن المصادر الرئيسية التي كتبت عن تيمور كانت المصادر الفارسية التي كتبها مؤرخون كانوا في بطانة تيمور، أو بطانة أولاده وأحفاده . وتتصف هذه المصادر بأنها كانت ترجمات مطولة عن حياة الفاتح التركي ، وردت فيها معلومات مستفيضة ومتسلسلة وعلى قدر كبير من الدقة عن تيمور وعصره وأعماله . ولكنها كانت في الوقت نفسه تعبر فيما كتبته عن وجهة نظر تيمور ، ويصح أن تعتبر وهي بهذا الوصف مصادر رسمية . وأول هذه الترجمات تلك التي كتبها "نظام الدين شامي" المتوفى عام ٨١٤ هـ (١٤١١م). وكان قد التحق بحاشية تيمور عام ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م). ويدعى كتاب شامي الذي ألفه بين عامي ٨٠٤و٨٠٦هـ(١٤٠٢ــ١٤٠٤م): "ظفرنامه" (كتاب الظفر) . وقد أورد فيه المؤلف وقائع حياة تيمور وأعماله خلا السنة الأخيرة منها . وكان تيمور قد وضع تحت تصرف نظام الدين شامي بعض الوثائق الرسمية والبيانات ليستعين بها. وقام المؤلف بعد مدة قصيرة بإجراء تنقيحات وتعديلات على كتابة . وقدمه إلى حفيد تيمور عمر بن ميرانشاه . ومخطوطات الكتاب في الوقت الحاضر نادرة، منها النسخة المحفوظة في استامبول ، ويرجع تاريخ كتابتها إلى عام ٨٢٨ هـ (١٤٢٥ م) ، وهي من الإنجاز الأول الذي قدم إلى تيمور . وقد ارتكب الناسخ فيها كثيراً من الأخطاء الإملائية التي يرجع بعضها إلى قلة الانتباه . وتوجد نسخة

اخرى من مؤلف شامي محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني يرجع تاريخها إلى عام ٨٣٨ هجري (١٤٣٤ م) ، وهي من الإنشاء الثاني الذي قدمه المؤلف لحفيد تيمور (عمر بن ميرانشاه) .[١]

وقام المستشرق التشيكي " فيليكس تاور " (F. Tauer) بنشر مؤلف شامي عام ١٩٣٧ في بيروت ، حيث قامت مطبعة الجامعة الأميركية فيها بطباعته . وقد اعتمد تاور في نشر كتاب ظفرنامة على نسخة استامبول ، ولكنه كان يستعين في عمله من وقت إلى آخر بنسخة المتحف البريطاني[٢] . وكانت طبعة بيروت هذه ، هي التي رجعت إليها . ويظهر في كتابات شامي إشارات تفيد أنه كان يرافق تيمور في عدد من أسفاره وحروبه في العراق والهند وبلاد الشام وآسية الصغرى . ولذلك فقد قام بوصف أعمال الفاتح التركي في هذه البلاد وصف شاهد عيان ، مما جعل لكتابه أهمية بالغة .

وهناك مؤلف آخر وضع لتيمور ترجمة ثانية مطولة هو " حافظ آبرو " . وكان قد رافق الفاتح التركي أيضاً في أغلب حملاته وشاهد وفاته . ودخل حافظ آبرو بعد ذلك في خدمة " شاه رخ " بن تيمور في هيرات . وكان أحد ندمائه . ثم عُين أميناً لسجلات بايسنقر بن شاه رخ .[٣] وقد مكنه قربه من تيمور واشتراكه معه في أسفاره وحروبه ، ثم اطلاعه على السجلات الرسمية بحكم منصبه ، من الوقوف على كثير من خفايا الأحداث وبواعثها الأساسية . وكان كتابه الذي سماه " زبدة التواريخ " والذي تحدث فيه عن حياة الفاتح التركي " ، جزءاً من الربع الرابع لمؤلفه الموسوعي " مجمع التواريخ " . وكان حافظ آبرو قد بدأ بكتابة مجمع التواريخ منذ عام ٨٢٦ هـ (١٣٢٣ م) ، بناء على أمر تلقاه من بايسنقر ، في عهد شاه رخ بن تيمور .[٤] وتوجد من الكتاب في الوقت الحاضر ثلاث مخطوطات ، يحتفظ مسجد الفاتح في استامبول بإحدى هذه المخطوطات . ويقول عنها تاور إنها النسخة الرئيسية المبيضة التي اعدت لشاه رخ . وقد كتبت بخط نسخي واضح أنيق . وربما تم إعداد هذه النسخة بإشراف المؤلف نفسه وتدقيقه . وقد أدخل على نصها بعض تعديلات وإضافات .[٥] وهي النسخة التي اعتمدها تاور عند تحقيق الكتاب وطبعه عام ١٩٥٦ في " براغ " كجزء ثان ملحق بكتاب ظفرنامة لنظام الدين شامي . وأما النسختان الأخريان من مخطوطة زبدة التواريخ فترجعان إلى تاريخ متأخر عام ١٢٧٢ و ١٣٠٦ هـ (١٨٥٨ و ١٨٨٨م) . وهما موجودتان في مكتبة " كتب خانة " في طهران .[٦]

ويقول تاور إنه لما طبع كتاب زبدة التواريخ ، فإنه حذف الإضافات والملاحظات التي زيدت على النص الأصلي ، كما حذف من متن الكتاب الاستطرادات الشعرية لاعتقاده بعدم علاقتها الوثيقة بالنص من ناحية المعلومات التاريخية . وأشار إلى أنه وجد من

(١): Tauer: Zafarnama: Histoire des conquetes de Tamerlan Préface P. XV - XVI

(٢): Tauer: ibid.

(٣): Bayani: (edit. et tradu.) Hafiz-i-Abru. Chronique des Rois Mongols Iran. Préface P. X

(٤): الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٢٠

(٥): Tauer: ibid.

(٦): Tauer: op.cit. Préface P. XII

الضروري أن يدخل على النص الأصلي تعديلات وإكمالات استمدها من مراجع أخرى أشار إليها في أماكنها ، كظفرنامة لشامي و"ظفرنامة" الآخر ليزدي و"مطلع سعدين" لسمرقندي .(١) وقد رجعت إلى طبعة براغ لعام ١٩٥٦ من كتاب "زبدة التواريخ" التي أصدرها تاور .(٢)

وأما ثالث الترجمات المطولة لحياة الفاتح التركي التي اعتمدتُ عليها ، فهي تلك التي أعدها " شرف الدين علي يزدي " . وكان المؤلف قد عاش ردحاً من حياته يتعاطى التدريس ، ثم التحق بحاشية شاه رخ في هيرات كواحد من ندمائه أيضاً ، ثم بحاشية ابنه إبراهيم الذي أمره بكتابة تاريخ لجده تيمور .(٣) واستقر المطاف بشرف الدين يزدي أخيراً في بلده الذي نسب إليه " يزد " . وأقام في ضاحيتها في قرية تدعى " تافت " إلى وفاته عام ٨٥٨هـ (١٤٥٤م) ، وقبره معروف اليوم .

دعي شرف الدين مؤلفه " ظفرنامة " أيضاً . وأنجز تأليفه بين ٨٢٢ و ٨٢٨ هجري (١٤١٩ و ١٤٢٥م) . وعلى الرغم من أن يزدي قد اعتمد بدرجة كبيرة على مؤلف شامي . وقد أشار إلى ذلك في مواضع عديدة من مؤلفه ، فإنه قد اطلع أيضاً على وثائق ومدونات أخرى ، دون أن يعطي إيضاحات عن هذه المدونات والوثائق ، سوى أن بعضها كان باللغة التركية وبعضها الآخر كان باللغة الفارسية .(٤) وقد جُمعت هذه الوثائق بناء على أمر إبراهيم بن شاه رخ من جميع أرجاء الدولة . وقامت ثلاث مجموعات من الباحثين بقراءة هذه الوثائق وتصنيفها ، وترجمة النصوص التركية منها إلى الفارسية .(٥) وأشار يزدي نفسه ، إلى أنه استطاع الاتصال بعدد من الأشخاص من الذين كانوا على صلة مباشرة بتيمور ، وحضروا معه الحروب وشاركوه في تنفيذ بعض الأعمال ، أو كان لهم اطلاع خاص على بعض الحوادث . واستمع من هؤلاء إلى ما شاهدوه أو ساهموا في إحداثه حتى أصبح ما كتبه يزدي – كما قال هو عن مؤلفه – كأنه تاريخ كتب في عهد تيمور .(٦)

ووضع شرف الدين علي يزدي لكتابة مقدمة مطولة سماها " تاريخ جهانگير " (تاريخ مسالك العالم) . ، بحث في هذه المقدمة في تاريخ المغول والعالم ، وأنساب السلاطين الجغتائيين حتى ظهور تيمور .(٧) ولا تزال هذه المقدمة مخطوطة ولم تنشر بعد – كما ذكر محمد عباسي محقق طبعة عام ١٣٣٦ هجري شمسي من كتاب "ظفرنامة" .(٨)

ويمتاز عمل يزدي الذي تحدث فيه عن حياة الفاتح التركي من مولده عام ٧٣٦ هجري (١٣٣٦م) إلى وفاته عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٥م) عن عمل شامي وحافظ آبرو ، بأنه أكبر حجماً منهما ، ويحتوي على تفصيلات وجزئيات لا تصادف في المؤلفين السابقين ، كما وردت فيه

(١) : Tauer: Ibid. (٢) : سيرد المزيد من المعلومات عن هذين المؤرخين وكتابيهما عند البحث في الحياة الفكرية في عصر تيمور باعتبارهما معاصرين له .

(٣) : Browne: A Literary History of Persia V.III P. 363-364

(٤) : Tauer: op. cit. Preface P. XV

(٥) : Blochet: Introduction à l'histoire des Mongoles P.84-85

(٦) : يزدي: ظفرنامة تحقيق محمد عباسي طهران ١٣٣٦ هجري شمسي ج ١ ص ٢٠

(٧) : Blochet: op. cit. P. 84

(٨) : Browne: op. cit. V.III P.363, يزدي: مقدمة محمد عباسي ص ١٠

ملاحظات مهمة عن الأحوال الاجتماعية والفكرية والاقتصادية في ماوراء النهر وفي الأجزاء الأخرى من الامبراطورية التيمورية · ولكن المؤلف أكثر – بل أفاض – في استخدام المحسنات اللفظية والتشابيه والاستعارات والكنايات، ورصفه بالمقطوعات الشعرية القصيرة والقصائد الطويلة التي يصل عدد أبيات بعضها إلى مائتين وثلاثين بيتاً ·[1] وأكثر من مدح تيمور والإشادة بأعماله بشكل يدعو إلى القرف والاشمئزاز – على حد تعبير براون –[2] ولكنه كان يتحدث أيضاً عن مذابح الفاتح التركي وأبراج الرؤوس التي كان يقيمها ، في البلاد التي وصل إليها مع قواته ·

أصاب كتاب يزدي من الشهرة والانتشار أكثر مما أصابه كتابا شامي وحافظ آبرو ، ونسخت منه نسخ أكثر مما نسخ من الكتابين الآخرين · ويعلل تاور ذلك بطلاوة عبارة الكتاب، وإكثاره من الاستشهاد بالشعر ·[3] وكتاب ظفرنامة ليزدي هو كما يرى بعض الباحثين في الوقت الحاضر، خير الترجمات الثلاث التي حررت باللغة الفارسية عن حياة تيمور ·[4] وكان مصدراً لعدد من المؤرخين من الذين جاؤوا بعده ، ككمال الدين سمرقندي وميرخوند وغيرهما ·[5]

ترجم كتاب ظفرنامة في القرن السابع عشر إلى اللغة التركية ·[6] ونقله المستشرق الفرنسي "بيتي دولاكروا" (Petis de La crois) إلى الفرنسية عام ١٧٢٢م · وظهرت ترجمته إلى اللغة الانكليزية عن النص الفرنسي في العام التالي على يد "جون دربي" (John Derby) . وكانت هاتان الطبعتان الفرنسية والإنكليزية سبباً في زيادة انتشار الكتاب وإطلاع الباحثين الأوربيين على حياة الفاتح التركي ·[7] أما الأصل الفارسي للكتاب فقد طبع طبعة رديئة في كلكوتا عام ١٨٧٨ م ·[8] ثم طبع طبعة أخرى في طهران ١٣٣٦ هجري شمسي بإشراف محمد عباسي في جزأين ·[9] وهي الطبعة التي اعتمدت عليها ·

وهنالك في مقابل الترجمات الفارسية المطولة الثلاث عن حياة الفاتح التركي ، والتي تنطلق بصورة عامة من وجهة نظر الإدارة التيمورية ، ترجمة رابعة كتبها بالعربية مؤرخ دمشقي معاصر لتيمور ، هو "أحمد بن محمد بن عربشاه" ، الذي اضطرته غارة هذا الفاتح التركي على دمشق عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١م)، لأن يغادر المدينة مع أسرته وهو طفل في الثانية عشر من العمر (ولد عام ٧٩١ هـ) ، إلى الأناضول · وشهد هناك مع بقية أفراد أسرته النكبة التي حلت بالسلطان العثماني بايزيد الأول (١٣٨٩–١٤٠٢م) وبالدولة العثمانية على يد تيمور في معركة انقرة ، عام ٨٠٤ هـ (١٤٠٢م)، واستقرت أسرة المؤرخ أخيراً في سمرقند حيث اتقن ابن عربشاه هناك الفارسية والتركية والمغولية إضافة إلى لغته العربية ، ولذلك لقب "ملك اللغات الثلاث" أو "ملك العرب" (عرب شاه) · وقام هذا المؤرخ الدمشقي الأصل،

(١) : انظر القصيدة في يزدي: ج ١ص ٥٢٢–٥٢٤ (٢) Browne:op.cit.V.III P. 87

(٣) : Tauer:op. cit. Preface P. XVI (٤) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة احمد سعيد سليمان ص ٢١٤ ويزدي: مقدمة محمد عباسي ص ١٠ و Tauer:op. cit Perface. P. XV (٥) : يزدي: مقدمة محمد عباسي ص ١٢

(٦) : يزدي: مقدمة محمد عباسي : ص ٨

(٧) : Stewart: The Mulfuzat Timury. Preface P. VII

(٨) : يزدي: مقدمة محمد عباسي ص ٢٣ (٩) : يشتمل الجزء الأول من كتاب يزدي على ٥٨٠ صفحة والثاني على ٥٢٤ صفحة ·

لما بلغ مبلغ الشباب بجولات واسعة في بلاد الجتا (المغول) وبلاد القبجاق . وأقام في آسية الصغرى في بلاط السلطان العثماني محمد الأول (١٤٠٣–١٤٢١م) بن بايزيد الأول ليعمل في ديوان الإنشاء لمدة عشر سنوات . واطلع خلال هذه المدة بحكم عمله على كثير من الوثائق المهمة، ولا سيما تلك التي توضح علاقة العثمانيين بتيمور، وبالظروف التي أحاطت بمعركة انقرة . وعاد ابن عربشاه عام ٨٢٥ هـ (١٤٢٢م) إلى بلاد الشام، فأقام في حلب ثم في دمشق . وانتهى به المطاف إلى مصر عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م) وتوفي في القاهرة بعد عامين .[١]

ألف ابن عربشاه كتابه عن الفاتح التركي – كما ذكر هو في مؤلفه – عام ٨٤٠هـ[٢] (١٤٣٦م) خلال إقامته في دمشق التي كانت لاتزال في ذلك التاريخ تعاني من آثار الغزو التيموري . وسماه "عجائب المقدور في أخبار تيمور" . وكتاب ابن عربشاه صغير الحجم بالمقابلة مع الترجمات الفارسية المشار إليها . ولكنه يمتاز بأنه الترجمة الوحيدة لحياة الفاتح التركي كتبت باللغة العربية . وهو لا يعرض الوقائع عرضاً متسلسلاً، كما يلاحظ عند كل من شامي ويزدي . كما يختلف عنهما أحياناً في ترتيب الأحداث . ومع ذلك فهو دقيق، ويشير إلى حوادث حياة تيمور الأولى بروح المتشكك في صحتها . ويورد أحيانا للقصة الواحدة روايتين أو ثلاث . ويعزو هذا الغموض إلى مضي الوقت وتبدل الأحوال .[٣] ويحتمل أن يكون المؤرخ خلال إقامته في سمرقند، قد اطلع على بعض الترجمات الفارسية لحياة تيمور .[٤] والأمر اللافت للنظر في كتاب ابن عربشاه شدة نقده لتيمور، وشتمه له بأنواع السباب، فقد نعته بالإجرام والغدر والاحتيال وشبهه بالأفعى والكلب . ويرى براون أن ابن عربشاه قد ذهب في شتائمه للفاتح التركي إلى أبعد مما ذهب إليه يزدي في مدائحه له، مما دفعه إلى الاشارة إلى أنه من الضروري أن يقف الباحث من كتابات ابن عربشاه موقف الحذر .[٥] ومن الواضح أن حقد هذا المؤرخ الدمشقي على تيمور يرجع إلى اضطراره لمغادرة مدينته مع أسرته بسبب غارة تيمور عليها، وما حلّ بها على أيدي القوات التيمورية . ومع ذلك فإن حقد ابن عربشاه على الفاتح التركي لم يمنعه من أن يشير إلى العديد من المزايا التي رأى أن تيمور يتحلى بها، فوصفه بالشهامة والرزانة وحب الصدق والشجاعة .[٦]

التزم ابن عربشاه أسلوب السجع الذي يضعف أحياناً قوة العرض التاريخي .[٧] ولكنه في الوقت نفسه لا يخلو من رونق وجمال يضفي على هذه الكتابة قيمة أدبية، فضلاً عن القيمة التاريخية .

طبع كتاب ابن عربشاه طباعة حجرية في مصر مرتين، الأولى عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨م) والثانية في عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨م) . ولكنه طبع في أوربا في تاريخ أسبق، عام ١٦٣٦م (١٠٤٦هـ) في ليدن مع ترجمة له إلى اللغة اللاتينية، قام بها "غوليوس" (Gaulius)[٨].

(١) : السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : بيروت مغفل تاريخ الطبع ج ١ ص ١٢٨
(٢) : ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور . القاهرة ١٣٠٥ هـ ص ٥٦
(٣) : فهو على سبيل المثال يورد رأيا أول في مسألة والد تيمور، فيقول عنه إنه من الأوباش (ص ٤) ثم يورد رأيا ثانياً فيقول عنه إنه أمير مائة (ص ٥) ثم يورد رأيا ثالثاً على أنه من أركان دولة السلطان حسين (ابن عربشاه ص ٦) (٤) : انظر حديث ابن عربشاه عن ذلك في مؤلفه : عجائب المقدور : ص ٦
(٥) : Browne : op.cit.T.III P. 181 (٦) : ابن عربشاه : ص ٢٠٩
(٧) : عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ١٢٥
(٨) : Stewart: op. cit. Preface P. VII

كما طبع مرة ثانية في فرانكفورت بين عامي ١٧٦٧ م (١١٨١ و ١١٨٦ هـ) مع ترجمة لاتينية أخرى وتعليقات للمستشرق "مانجر" (Manger)[١]. ويقول العزاوي إنه قد ترجم أيضاً إلى اللغة التركية.[٢]

وهناك عدد من المصادر أورد مؤلفوها معلومات عن تيمور في سياق ماحوته هذه المصادر من أحداث. وكانت المعلومات التي أوردوها نتيجة احتكاكهم المباشر بتيمور ويأتي في مقدمة هؤلاء "محمد بن محمد بن الشحنة"، قاضي حلب ومؤرخها المتوفي عام ٨١٥ هجري (١٤١٢م)، الذي أشار في كتابه "روضة المناظر" إلى مقابلته لتيمور عند قدومه إلى حلب عام ٨٠٣ هـ، حيث صلى وكتفه إلى كتفه. ودارت بينه وبين الفاتح التركي مناظرات ومناقشات.[٣] ثم المؤرخ التونسي ابن خلدون الذي قابل تيمور في دمشق مرات عديدة، فتحدث عن هيئة الفاتح التركي، ونقل لنا رأيه فيه وفي ثقافته، في كتابه "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً".[٤]

وكان من مصادر هذا البحث أيضاً كتاب "الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية" الذي ألفه مؤرخ دمشقي آخر هو "محمد بن محمد بن صصرى" الذي كان يعيش في دمشق خلال الآونة التي قدم بها تيمور إلى المدينة.[٥] وأرخ ابن صصرى في كتابه أحداث دمشق في السنوات التسع بين ٧٩١–٧٩٩ هـ (١٣٨٩–١٣٩٨م)، أي في خلال الحقبة التي سبقت قدوم تيمور إلى المدينة. وتناول الحديث أحوال الحياة العامة وحال الحكام فيها، والآثار التي كانت تحدثها حركات تيمور العسكرية في الأقطار المجاورة لبلاد الشام (العراق وآسية الصغرى)، كما أشار إلى الاستعدادات التي كانت تتخذها السلطات المملوكية في دمشق تحسباً من قدوم تيمور على رأس قواته. وكان حديثه عن هذه الأحداث، كما يقول ناشر كتابه "بريئر" (Brinner) حديث من عاش هذه الوقائع بحكم وجوده في المدينة في تلك الحقبة.[٦]

وإذا لم يتسنَّ لمؤرخ دمشق وقاضيها أبي بكر بن أحمد بن محمد (٧٨٩–٨٥١ هـ/ ١٣٧٧–١٤٤٨م) الذي اشتهر باسم ابن قاضي شهبة، أن يقابل تيمور كما حدث لقاضي حلب ومؤرخها ابن الشحنة، فإنه قد شاهد أعماله وأعمال جيوشه التي وقعت في المدينة. واعتمد فيما نقله عن محنة دمشق، في مؤلفه الذي دعاه "الإعلام بتاريخ أهل الاسلام"[٧] على مشاهداته ومشاهدات أصدقائه الذين وصفهم بأنهم شهود عدول.[٨] وتم نشر القسم الثالث من الجزء الأول من هذا المؤلف مؤخراً في دمشق وهو القسم الذي يتحدث عن تاريخ الوقائع بين ٧٧٠ – ٨٠٠ هـ (١٣٦٨ – ١٣٩٨م)[٩] وأعطي عنواناً هو "تاريخ ابن قاضي شهبة"

(١) : عبدالله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية القاهرة ١٩٣١ ص ١٢٢ و
(٢) Fiey: Assyrie Chretiènne V.II P.500 (٢) : العزاوي : التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص ٢٣١
(٣) : ابن الشحنة: "روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر" على هامش "الكامل في التاريخ" لابن الاثير مغفل مكان الطبع وزمانه ص ٢١٢–٢١٩
(٤) : ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً . تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ص ٢٨٢–٢٨٣
(٥) : Brinner (edir) Chronicle of Damascus 1383 -1397 Perface P XII
(٦) : Brinner : ibid . (٧) : السخاوي : ج ١١ ص ٢٢
(٨) : ابن قاضي شهبة : مخطوطة الإعلام بتاريخ أهل الاسلام بقلم المؤلف مكتبة أسعد أفندى استامبول رقم ٢٤٠٥ ورقة ٢٠٢ ب ٢٠٣ ب (٩) : قام بالتحقيق عدنان درويش عام ١٩٧٧ م .

هذا وقد استطعت الحصول على صور لمخطوطة ابن قاضي شهبة ، تلك التي تتحدث عن وقائع عام ٨٠٣ هـ ، وهو العام الذي كان فيه تيمور في دمشق . وقد فرّقت في الإشارة إلى قسمي كتاب ابن قاضي شهبة المطبوع منهما والمخطوط ، عند الاقتباس من أحدهما .

ولابد من الإشارة إلى عدد آخر من المؤرخين المعاصرين لتيمور ، الذين أوردوا قدراً كبيراً من المعلومات في مؤلفاتهم الموسوعية عن الفاتح التركي وأعماله . ومن هؤلاء المؤرخين ابن الفرات المتوفى عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٤م) ، والمقريزي المتوفى عام ٨٤٥ هجري (١٤٤٢ م) والعسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٩ م) . وأما ابن تغري بردي المتوفى عام ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) فقد عاصر مرحلة تأزم العلاقات بين سلطنة المماليك وأبناء تيمور .

وتوخياً للموضوعية والدقة والحقيقة ، فقد وجدت من المفيد الرجوع إلى مؤلفات الجيل الثاني من المؤرخين التيموريين ، لتلافي ما قد يكون مؤرخو الجيل الأول (شامي ، حافظ آبرو ، يزدي) ، قد اضطروا للوقوع فيه من مجانبة للحقيقة محاباة لتيمور ، واتقاء لغضبه وسعياً وراء مغنم منه ، لأنه كان من الواضح أن خلفاء تيمور قد خفت وطأتهم على الناس بصورة عامة . ومن أجل ذلك فقد رجعت إلى مؤلف "كمال الدين عبد الرزاق سمرقندي" وهو "مطلع سعدين ومجمع بحرين" . وكان هذا المؤرخ قد عاش في كنف شاه رخ بن تيمور وسفره إلى الهند والصين ، ثم انتقل إلى خدمة عبد اللطيف بن الغ بيك بن شاه رخ بعد وفاة هذا الأخير ، كما خدم غيره من الحكام التيموريين .(1) وبدأ بتأليف كتابه عام ٨٧١ هـ (١٤٦٧م) . وقدمه للسلطان التيموري حسين بايقرا ، وأرخ فيه الحقبة الممتدة من ولادة السلطان أبي سعيد الايلخاني عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) إلى عام ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) . وسار سمرقندي في كتابه على طريقة الحوليات . وصرح ــ كما أشار إلى ذلك بلوشيه ــ بأنه سيكتب بطريقة حيادية .(2) وحاول أن يطبق ذلك بالفعل بالإقلال بدرجة ملحوظة من كيل المديح للفاتح التركي بالمقابلة بما كان عليه الحال في كتاب ظفرنامة ليزدي . وتوفي سمرقندي عام ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) .

ومن مؤرخي الجيل الثاني الذين رجعت إلى مؤلفاتهم "محمد بن خاوند شاه المشهور بميرخوند" المتوفى عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٨م) . وكان قد عاش في كنف السلطان حسين بايقرا ووزيره "ميرعلي شيرنوائي" . ويقع كتابه "روضة الصفا" في سبعة أجزاء ،(3) تحدث في الجزء السادس والجزء السابع منه عن تيمور وخلفائه ، حتى عام ٨٧٣ هـ (١٤٦٨م) .

هذا وقد اهتم بعض الأوربيين المعاصرين لتيمور بالكتابة عنه ، ووصلنا من كتابات هؤلاء تلك التي كتبها القس البافاري "شيلتبرجر" (Schiltberger) الذي كان قد قام بسلسلة من الرحلات والمغامرات السياسية والعسكرية في أوربا وآسية وافريقيا بين عامي ١٣٩٦ و ١٤٢٧م . ونُشرت أخبار رحلته لأول مرة باللغة الألمانية عام ١٨٥٩ م ثم قام "بوتشان ترفر" (Buchan Terfer) بترجمتها إلى الانكليزية ونشرها في لندن

---

(1) : سمرقندي : مطلع سعدين ومجمع بحرين . قسمت اول به اهتمام دكتر عبد الحسين نوائي طهران ١٣٥٦ هـ . ش مقدمة المحقق ص ١١

(2) : Blochet: op. cit. P. 86

(3) : الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين : ص ٢٣١ ــ ٢٣٢

عام ١٨٧٩ م . وجاء في المقدمة التي وضعها ترفر أن القس شيلتبرجر الذي ولد في ميونيخ عام ١٣٨١ م ، وغادر مسقط رأسه وهو في الثالثة عشر من العمر (عام ١٣٩٤ م) . والتحق في بادئ الأمر بقوات الملك الهونغاري "سيجيسموند" (Sigismond) ،واشترك بعد عامين (عام ١٣٩٦م) ، في معركة نيكوبوليس على نهر الدانواب ، وهي المعركة التي هُزم فيها الملك الهونغاري أمام السلطان العثماني بايزيد الأول . وأُصيب القس في هذه المعركة بجروح عانى منها لمدة طويلة خلال أسره لدى الأتراك العثمانيين . ولم يلبث أن دخل في خدمة السلطان بايزيد، وأضحى أحد أفراد حاشيته المقربين . وحضره معركة انقرة عام ٨٠٤هـ (١٤٠٢ م) .ولكنه وقع في أسر القوات التيمورية .ودخل في خدمة تيمور إلى وفاة الفاتح التركي عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م)،وكان قد رافقه في بعض غزواته إلى بلاد الكرج . وانتقل شيلتبرجر بعد ذلك إلى خدمة شاه رخ بن تيمور . والملاحظ على الأخبار التي يوردها هذا القس البافاري عن تيمور وعن الأحداث التي شاهدها أو سمع بها ، أنه يميل إلى المبالغة فيها بعض الشيء. وعلل ترفر ذلك بأن القس الذي يشبه في ذلك كتّاب العصر الوسيط ، كان يكتب أحياناً عن أحداث شاهدها منذ زمن بعيد ، ويكتب عنها مما علق بذاكرته .[1] ومع ذلك فإن كتابات شيلتبرجر لا تخلو من الفائدة ، بحكم قربه من شخصيات ذلك الوقت البارزة التي كان لها دور رئيسي في الأحداث التي أشار إليها هذا القس . ومن الكتاب الأوربيين الذين قابلوا تيمور السفير الاسباني "كلافيجو" (Clavijo) مبعوث الملك هنري الثالث (١٣٧٩_١٤٠٦) ، ملك ليون وقشتالة . وكان كلافيجو قد سافر إلى سمرقند موفداً من قبل الملك الاسباني إلى البلاط التيموري ، وحيث مكث بضعة أشهر قابل فيها تيمور مرات عديدة . ثم عاد إلى بلاده بعد غياب استمر ثلاث سنوات ، بين ١٤٠٣ و ١٤٠٦ م . ووضع هذا المبعوث الاسباني عن رحلته إلى سمرقند كتاباً ترجم إلى الانكليزية عام ١٩٢٨م ، وتحدث فيه عن مشاهداته ومقابلاته للفاتح التركي حديثاً شهد له أحد الباحثين في الوقت الحاضر بالدقة والانصاف .[2] وقد تمكنت من الإطلاع على رحلة كلافيجو من ترجمتها الانكليزية التي قام بها "لوسترانج Le Strange)"[3] بعد مراسلة المكتبة البريطانية التي زودتني بصور لبعض صفحات هذا الكتاب .

هذا وقد استفدت من مؤلفات عدد من المستشرقين الذين عرف عنهم الاهتمام بتاريخ ماوراء النهر وأواسط آسية وإيران . من هؤلاء المستشرق الروسي "ڤلاديمير بارتولد" (١٨٦٩ _ ١٩٣١ م) الذي انصبت دراساته على تاريخ المنطقة الممتدة من بحر قزوين حتى منغوليا ، ووضع في ذلك معظم مؤلفاته .

(١) : Terfer: (transl. and edit.) The Bondage and Travels of Johanne Schitberger in Europe-Asia and Africa 1396-1427. Preface P. XV-XVIII

(٢) : Prawdin: L'Empire Mongol et Tamerlan P.243.

(٣) : وظهرت رحلة كلافيجو بالانكليزية بالشكل التالي :

Le Strange (editor) : Narrative of the Spanish Embassy to The Court of Timour at Samarkand in The Year 1403 - 1406 . London 1928

ومن هؤلاء ايضا المستشرق الفرنسي "ادكار بلوشيه [E. Blochet] (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧ م) الذي كتب كتابه القيم : "مدخل إلى تاريخ المغول"[(١)]. وعكس من خلاله وبحكم اطلاعه على اللغة الصينية رأي المصادر التي حُررت بهذه اللغة في كثير من نواحي تاريخ المغول والتيموريين ، والتي أكثر من الاستشهاد بها والاقتباس منها في مؤلفه هذا . ومنهم أيضاً المستشرق الانكليزي "ادوارد براون" (E. Browne)(١٨٦٢ـ١٩٢٦م) في مؤلفه الضخم "التاريخ الأدبي لإيران" والذي يقع في أربعة أجزاء ، ثم المؤرخ الفرنسي "رونه غروسيه [R. Grousset] (١٨٨٥ ـ ١٩٥٢ م) ، وغيرهم كثير وقد أشرت إلى أسمائهم ومؤلفاتهم في ثبت المصادر والمراجع .

ومن المهم أن أشير إلى أنني استفدت من مقالات "دائرة المعارف الاسلامية" من طبعتها الفرنسية الحديثة المعدلة والمزيدة.ولكنني اضطررت للعودة إلى الطبعة القديمة منها التي صدرت عام ١٩١٣ م في الأجزاء التي لم تصدر بعد من الطبعة الحديثة. وأعانني التصنيف الذي أعده "بيرسون" (J. Pearson)لمقالات التاريخ الإسلامي المنشورة في مختلف النشرات الدورية المهتمة بالدراسات التاريخية والأثرية المتعلقة بالتاريخ الإسلامي والذي أطلق عليه اسم " Index Islamicus " فقد هداني إلى العديد من المقالات المتعلقة ببحثي عن تيمور وتاريخ ماوراء النهر .

ومن المهم أيضاً أن أشير إلى أنه كان من مصادر هذا البحث "المذكرات" التي تنسب كتابتها إلى تيمور نفسه . وسوف أؤخر الحديث عنها لما لها من علاقة مباشرة بتيمور إلى متن البحث .[(٢)]

لقد اقتضت دراسة حروب تيمور معرفة جغرافية البلاد التي قاتل فيها:كما كان من الضروري أيضاً تحديد خط سير الجيوش التيمورية ، وتحديد المواقع التي ورد ذكرها ، ومعرفة الأسماء التي كانت تُعرف بها في العصر التيموري ، ومقابلتها بالأسماء التي تعرف بها اليوم . وكان عليّ أن التمس ذلك فيما كتبه الرحالة الذين زاروا هذه المناطق في تلك الحقبة ، وفيما ذكرته كتب البلدانيين عن هذه الناحية . وعلى الرغم من أن الرحالة المغربي ابن بطوطة قد جاس في ماوراء النهر ، ومر من "كيش" التي ولد تيمور في قرية في ضواحيها ، قبل مولد تيمور بعامين ، إلا أن ابن بطوطة كان منصرفاً فيما كتبه عن رحلته ، إلى تصوير النواحي الاجتماعية أكثر من النواحي الجغرافية . وقد استعنت بما أورده هذا الرحالة المغربي عن أخلاق سكان ماوراء النهر وعاداتهم ونظام معيشتهم ، لتحديد سمات المجتمع التيموري . وأما أقرب البلدانيين زماناً إلى العصر التيموري فهو حمد الله مستوفي قزويني المتوفي عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩م) . وكان قد انهى تأليف كتابه "نزهة القلوب" عام ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) ، عندما كان تيمور طفلاً في الرابعة من العمر . وتحدث مستوفي قزويني عن جغرافية المناطق التي أضحت بعد مرحلة وجيزة ، أجزاء من الامبراطورية التيمورية . وقد اعتمد فيما ذكره عن ذلك كما يقول لوسترانج الذي ترجم كتاب

(١) : Blochet: Introduction à l'Histoire des Mongols

(٢) : انظر الفصل الثالث من الباب السادس .

"نزهة القلوب" من الفارسية إلى الانكليزية عام ١٩١٩ ،على ماجمعه من معلومات من خلال عمله مدة طويلة ،كمحاسب في الإدارة الايلخانية ،حيث كان يطلع على قوائم إيرادات الضرائب التي كانت ترد إليه من مختلف مناطق إيران وآسية الصغرى . كما اعتمد أيضاً على ملاحظاته ومشاهداته الشخصية .(1) وكانت المعلومات التي أوردها عن جغرافية إيران وآسية الصغرى في ذلك الوقت ،على درجة كبيرة من الأهمية .

وكان عليّ بعد ذلك أن أرسم مصورات لتحديد ه: بالمواقع التي و. ت الإشارة إليها في هذا البحث . وكان هدفي أن أُحكم الربط بين متن بحث وما يرد فيه من مواقع وبين هذه المصورات . وأشرت في كثير من الأحيان إلى المواقع بمسمياتها التي كانت تعرف بها في العصر التيموري إلى جوار المسميات التي تعرف بها في الوقت الحاضر .

هذا ولابد من الإشارة أخيراً إلى أنني قصدت من تأريخ الوقائع بالتأريخين الهجري والميلادي الوصول إلى مزيد من التحديد والتسهيل على المطالع ،فيما إذا كان يتابع تسلسل هذه الوقائع حسب أحد هذين التأريخين أو بكليهما معاً ،كما أنني عمدت إلى الاشارة إلى مراجع ومصادر البحث حسب الترتيب الهجائي لأسماء مؤلفيها .واعتمدت في هذا الترتيب على الجزء الرئيسي من اسم المؤلف ،كالألقاب والكنى .

وبعد فإنني أعتقد بعد الجهد الذي انفقته خلال السنوات السبع الماضية ،في تحضير هذا البحث ،والسعي وراء مصادره ومراجعه التي حُمل إليّ بعضها من إيران وانكلترة وفرنسة ،بأنني استطعت الوصول إلى كثير من الحقائق الهامة فيما يتعلق بحياة الفاتح التركي وأعماله ،والعصر الذي عاش فيه . فقد تمكنت من بيان أسباب التناقض الظاهر في أحوال مجتمع ماوراء النهر وأخلاقه ،في العصور الإسلامية الأولى ،تحت الحكم العربي وفي عصر السيادة الفارسية ،وبين أحوال هذا المجتمع في عصر السيادة المغولية وفي العصر التيموري . وأوضحت كيف ساهمت الأحوال المضطربة لذلك المجتمع ،في أن تكون لتيمورلنك تلك السمات النفسية والمزاج اللذين عرف بهما . وكذلك فقد وفقت إلى إلقاء الضوء على أصول تيمور وحقيقة منبته . وقد ساعدني ذلك على تحليل شخصيته والتعرف على تكوينه الداخلي ،وعلى ماانطوت عليه نفسه من سمات وما اختزنته من رغبات وطموح . وقد أفادني كل ذلك في التعرف على بواعث فلسفة تيمور السياسية والعسكرية ،وعناصرها ومراحل تكونها في نفسه ،هذه الفلسفة التي دفعته للقيام بهذه الأعمال ،التي أشقت قطاعاً واسعاً من الإنسانية ،خلال مدة تزيد عن ثلاثة عقود ونصف من السنين ،هي المدة التي قضاها تيمور يحكم ماوراء النهر وإيران ،وكان يتطلع خلالها لحكم العالم . وختمت بحثي ببيان المرتبة التي يحتلها في قائمة الفاتحين بمقابلته بالفاتح المغولي جنكيزخان . وكانت أطرف الحقائق الجديدة التي وصلت إليها تحديد مواقع نزول تيمور في دمشق "عند غارته عليها" عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) . وكان لابد من أن أحاول أن أقدم صورة على أشد مايستطاع من الوضوح ،للحالة

(1): Le Strange: (tranlator) The Geographical Part of Nuzhat-Al-Qulub. composed by Qaszwin. Preface P. IX

التي كانت عليها الأقطار العربية التي غزاها تيمور (العراق وبلاد الشام) ، وللأعمال التي قامت بها قواته في تلك البلاد . وكان عملي ، في هذه النقطة على ما أعتقد - مساهمة في إيضاح جزء من تاريخ البلاد العربية في مرحلة لاتزال غامضة نسبياً ، ولاتزال تحتاج إلى مزيد من جهد الباحثين لإخراجها إلى النور .

ويحتم عليّ العرفان بالجميل والوفاء ، أن أقدم جزيل شكري للمشرف على هذا البحث ، الأستاذ الدكتور نقولا زيادة ، الذي كان لتوجيهاته وملاحظاته التي استفدت منها فائدة كبيرة ، فضل عميم في إنجاز هذا العمل .

وفي الختام إنني أدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت في عملي ، فإليه أكل أمري وإليه أنيب .

بيروت ٢/ ٩/ ١٩٨١

مظهر شهاب

توطئة

أغار المغول على العالم الإسلامي في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي (مطلع القرن السابع الهجري)، وكانت غاراتهم على شكل ثلاث موجات متلاحقة، قاد الموجة الأولى الفاتح المغولي جنكيز خان. وحدثت الثانية في عهد ابنه وخليفته "اوكداي". وقاد الثالثة وهي أهم هذه الموجات، هولاكو حفيد الفاتح المغولي. وقد نجم عن الموجة الثالثة التي أوغلت بعيداً في العالم الإسلامي، القضاء على الخلافة العباسية في بغداد عام ١٢٥٨م (٦٥٦هـ). ولما تقدمت القوات المغولية بعد ذلك إلى بلاد الشام، استطاع المماليك إيقافها بعد هزيمتها في عين جالوت في فلسطين، في معركة حاسمة.

وكان جنكيز خان قبل وفاته عام ١٢٢٧م (٦٢٥هـ) قد قسم امبراطوريته الواسعة التي كانت تمتد من الصين إلى نهر الفولغا، بين أولاده الأربعة. وكان هذا التقسيم سبباً لظهور عدد من الدول المغولية، يهمنا أن نشير هنا إلى دولتين منها، الأولى هي الدولة التي حكمها جغتاي بن جنكيز خان (ثاني أبناء الفاتح المغولي) وأولاده وأحفاده من بعده، وكانت تشتمل على مناطق من وسط آسية تمتد من نهر إميل شرقاً إلى ضفاف جيحون غرباً، شاملة ماوراء النهر. والدولة الثانية هي التي أسسها هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان في إيران، والتي استطاعت أن تمد نفوذها إلى العراق وآسية الصغرى، وقد دعيت "الدولة الايلخانية".

سببت حركة المغول باتجاه الغرب اندفاع العديد من القبائل التركية التي رافقت الغزو المغولي، من أماكن نزولها الأولى في قلب آسية باتجاه الغرب أيضاً. وأخذ بعض هذه القبائل يستقر في ماوراء النهر بالتدريج. واستطاع الأتراك بسبب كثرة عددهم، بالمقارنة مع المغول ومع سكان البلاد الأصليين، أن يفرضوا الصبغة التركية على البلاد (ماوراء النهر). وكان قسم كبير من السكان الأصليين قد اضطر إلى مغادرة ماوراء النهر إلى خراسان وإيران وغيرها من بلاد العالم الإسلامي، هرباً من الغزو المغولي. وكان الفارون في غالبيتهم من العناصر الفارسية والعربية التي كانت قد استقرت في ماوراء النهر منذ أيام الفتح العربي لهذه البلاد، والعصور التالية له.

وتناولت حركة التترك التي حدثت في ماوراء النهر المغول بالدرجة الأولى. وقد ترافق ذلك مع خروج السلطة من البيت المالك المغولي (أبناء وأحفاد جغتاي بن جنكيز خان)، إلى أيدي الأمراء الاقطاعيين الأتراك. وقدر لتيمورلنك أن يخطو تلك الخطوة الحاسمة، وأن يكون تحول السلطة بصورة نهائية إلى الاتراك على يده.

ولما وصل تيمور إلى حكم ماوراء النهر عام ١٣٧٠م (٧٧١هـ)، كانت الدولة الايلخانية في إيران قد لفظت أنفاسها الأخيرة منذ أمد قصير. وقامت على أنقاضها دويلات متعددة، لم تلبث أن اخذت تنضوي بالتدريج. تحت حكم تيمور، الذي كان يمثل القوة العسكرية والسياسية الجديدة التي اعقبت الايلخانيين في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي.

واندفع تيمور يترسم خطى جنكيز خان، في السعي لإقامة دولة تحكم العالم كله.

لائحة بأهم الأحداث في خلال حياة تيمور

٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م	ولادة تيمور (٢٥ شعبان / ٩ نيسان) .
٧٤٢ / ١٣٤٢	التحاقه بالمدرسة .
٧٤٣ / ١٣٤٢	غارة حسين كرت على ماوراء النهر .
٧٤٦ / ١٣٤٥	ثورة قازغن الأولى على قازان خان .
٧٤٧ / ١٣٤٦	ثورة قازغن الثانية ومقتل قازان خان .
٧٤٨ / ١٣٤٧	وصول تغلق تيمور خان إلى الحكم في جغتاي الشرقية .
٧٤٩ / ١٣٤٨	تنصيب دانشماندجه خاناً في سمرقند .
٧٥١ / ١٣٥٠	وفاة الخان دانشماندجه وتنصيب بيان قولي خاناً جديداً .
٧٥٤ / ١٣٥٣	وصول شاه ولي إلى حكم مازندران .
٧٥٧ / ١٣٥٦	التحاق تيمور بحاشية قازغن — زواجه بأولجاي توركان آغا — حملة قازغن على هيرات .
٧٥٩ / ١٣٥٨	اغتيال قازغن — تولي ابنه عبد الله الحكم — بدء مرحلة التحرم والمغامرة في حياة تيمور .
٧٦٠ / ١٣٥٩	اقتسام تيمور الحكم ماوراء النهر مع حاجي برلاس وبيان سلدوز — ولادة جهانگير .
٧٦١ / ١٣٦٠	مقتل الخان بيان قولي — تنصيب تيمور شاه اوغلان خلفاً له — الثورة على عبد الله وفرازه — سيطرة حاجي برلاس وبايزيد جلاير على الحكم — تقدم تغلق تيمور خان إلى ماوراء النهر — تعيينه تيمور أمير تومان في كيش — محاولة بايزيد وحاجي اغتيال تيمور .
٧٦٢ / ١٣٦١	حملة تغلق تيمور الثانية على ماوراء النهر — مقتل حاجي برلاس في خراسان .
٧٦٣ / ١٣٦٢	حادثة اختطاف المغول للفتيات — بدء ثورة تيمور على الحكم المغولي — تحالفه مع الأمير حسين — أسره في ماخان — اختفاؤه في منزل أخته بسمرقند لمدة ثلاثة وأربعين يوماً .
٧٦٤ / ١٣٦٣	مغامرة سيستان وإصابة تيمور بالجراح التي أدت إلى عرجه .
٧٦٥ / ١٣٦٤	العبور من خراسان إلى ماوراء النهر — تراجع الجتا إلى بلادهم — حلول الياس خواجا محل أبيه تغلق تيمور خان على عرش جغتاي الشرقية — خانية كابل شاه في سمرقند .
٧٦٦ / ١٣٦٥	عودة الجتا إلى ماوراء النهر — مقتل الخان كابل شاه — حلول عادل سلطان محله — هزيمة تيمور وحسين أمام الجتا على ضفاف شيرشاك في الشمال — انتشار الوباء بين خيول الجتا وانسحابهم — بدء النزاع بين تيمور والأمير حسين .

تابع لائحة بأهم الأحداث في خلال حياة تيمور

٧٦٧ / ١٣٦٦ مؤامرات الأمراء لزيادة الخلاف بين تيمور والأمير حسين .
٧٦٨ / ١٣٦٦ وفاة زوجة تيمور أولجاي ـ فرار تيمور إلى خراسان ـ انقضاضه على قارشي ـ اضطراره للعودة إلى خراسان .
٧٦٩ / ١٣٦٧ المصالحة بين تيمور والأمير حسين ـ ح تيمور بتفريق حملة للجتا بقيادة القائد قمر الدين .
٧٧٠ / ٦٨ـ١٣٦٩ سقوط حكم أسرة يوان المغولية في الصين وقيام حكم أسرة مينغ (١٣٦٨) ـ حسين يسعى لاقامة دولة في بلخ (١٣٦٩) .
٧٧١ / ١٣٧٠ مقتل الأمير حسين ـ تنصيب تيمور (١٢ رمضان / ١٦ أيار) حاكماً لما وراء النهر ـ تنصيب سيورغتمش خاناً ـ مقتل إلياس خواجا ـ استيلاء قمر الدين على الحكم في جغتاي الشرقية .
٧٧٢ / ١٣٧٠ رحلة استطلاع إلى حدود بلاد الجتا (الحملة الأولى) ـ الحملة الثانية إلى بلاد الجتا .
٧٧٣ / ١٣٧٢ الحملة الأولى على خوارزم .
٧٧٤ / ١٣٧٣ الحملة الثانية على خوارزم .
٧٧٥ / ١٣٧٤ زواج جهانگير بن تيمور بخان زاده من آل صوفي الحاكمين في خوارزم .
٧٧٦ / ١٣٧٥ الحملة الثالثة على بلاد الجتا .
٧٧٧ / ١٣٧٦ وفاة جهانگير ـ حملة تيمور الثالثة على خوارزم ـ حملتا تيمور الرابعة والخامسة على بلاد الجتا ـ لجوء توقتميش إلى تيمور .
٧٧٨ / ١٣٧٧ حملة إلى الحدود الشمالية مع بلاد القبجاق لنصرة توقتميش ضد اوروس .
٧٧٩ / ١٣٧٨ استقرار توقتميش في حكم بلاد القبجاق ـ ولادة شاه رخ .
٧٨٠ / ١٣٧٨ حملة تيمور الرابعة على خوارزم .
٧٨٢ / ١٣٨٠ الحملة الأولى على خراسان .
٧٨٣ / ١٣٨١ احتلال هيرات .
٧٨٤ / ١٣٨٢ الحملة الثانية على خراسان ـ وصول برقوق إلى الحكم ـ احتلال توقتميش موسكو .
٧٨٥ / ١٣٨٣ الحملة الثالثة على خراسان ـ تسيير حملة تأديبية (الحملة السادسة) إلى بلاد الجتا .
٧٨٦ / ١٣٨٤ الحملة الرابعة على خراسان ـ غارة توقتميش الأولى على اذربيجان .
٧٨٧ / ١٣٨٥ مفاوضات للتحالف بين توقتميش وبرقوق .
٧٨٨ / ١٣٨٦ حملة تيمور على إيران الغربية ـ الإجتياح الأول لبلاد الكرج .
٧٨٩ / ١٣٨٧ اكتشاف المماليك شبكة تجسس تيمورية في حلب ـ دخول تيمور تبريز ـ مذبحة اصفهان ـ غارة توقتميش على اذربيجان ـ غارته الأولى على ماوراء النهر .

تابع لائحة بأهم الأحداث في خلال حياة تيمور

٧٩٠ / ١٣٨٨ وفاة سيورغتمش وتنصيب ابنه محمود ـ الحملة الخامسة على خوارزم وتهديم اورگنج ـ غارة توقتميش الثانية على ماوراء النهر .

٧٩١ / ١٣٨٩ حملة تيمور الكبرى على بلاد الجتا حتى مدينة قراشهر (الحملة السابعة) ـ وصول البعثة الصينية الأولى إلى ـ تند .

٧٩٢ / ١٣٩٠ حملة تأديبية إلى بلاد الجتا بقيادة بعض قواد تيمور (الحملة الثامنة) .

٧٩٣ / ١٣٩١ الحملة الواسعة على بلاد القبجاق ومعركة قندورجة (الحملة الأولى) ـ اقتراح السلطان العثماني بايزيد الأول التحالف على المماليك ـ تعيين بير محمد (حفيد تيمور) على كابل وغزنة ـ وصول البعثة الصينية الثانية .

٧٩٤ / ١٣٩٢ بدء مرحلة حروب السنوات الخمس ـ قتال فرقة الحروفية في مازندران ـ إعمار بناكث وتسميتها شاه رخية .

٧٩٥ / ١٣٩٣ مقتل شاه منصور المظفري ـ احتلال بغداد الأول ـ رسالة تيمور الأولى لبرقوق ـ تعيين ميران شاه لحكم تبريز .

٧٩٦ / ١٣٩٤ احتلال الموصل ـ مقتل عمر شيخ ـ رسالة تيمور الثانية ورد برقوق الأول ـ رسالة تيمور الثالثة ورد برقوق الثاني ـ البعثة الصينية الثالثة ـ الحملة الثانية على بلاد الكرج .

٧٩٧ / ١٣٩٥ حملة تيمور الثانية على بلاد القبجاق حتى ضواحي موسكو ـ تهديم سراي ـ البعثة الصينية الرابعة .

٧٩٨ / ١٣٩٦ حادثة سقوط ميرانشاه ـ وقوع اتلاميش في أسر المماليك ـ معركة نيكوبوليس ـ نهاية حروب السنوات الخمس ـ مسير البعثة الفرنسية الأولى لمقابلة تيمور .

٧٩٩ / ١٣٩٧ رسالة تيمور الرابعة لبرقوق ـ حملة بير محمد الاستطلاعية للهند ـ البدء ببناء قبة أحمد يسوي ـ تعيين شاه رخ لحكم خراسان ـ البعثة الصينية الخامسة .

٨٠٠ / ١٣٩٨ خروج تيمور لحملة الهند .

٨٠١ / ١٣٩٩ مذبحة دلهي ـ البدء ببناء المسجد الجامع في سمرقند ـ استيلاء بايزيد الأول على سيواس ـ وفاة السلطان الظاهر برقوق ـ حلول الناصر فرج في عرش سلطنة المماليك .

٨٠٢ / ١٤٠٠ بدء حروب السنوات السبع ـ الاجتياح الكبير لبلاد الكرج (الحملة الثالثة) ـ رسالة تيمور الأولى لبايزيد .

٨٠٣ / ١٤٠٠ـ١٤٠١ احتلال سيواس (المحرم) ـ رسالة تيمور الأولى للسلطان فرج (المحرم) ـ احتلال تيمور حلب (ربيع الأول) ـ رسالة تيمور الثانية لفرج (جمادى

تابع لائحة بأهم الأحداث في خلال حياة تيمور

الأولى) ــ دخول تيمور دمشق (جمادى الأولى) ــ بعثة بيبسق الشيخي المملوكية تقابل تيمور بدمشق (جمادى الثانية) ــ مقابلات ابن خلدون لتيمور في دمشق ــ الانسحاب من دمشق (شعبان) ــ الحملة الرابعة على بلاد الكرج ــ احتلال بغداد الثاني .

٨٠٤/١٤٠١ـ١٤٠٢ الحملة الخامسة على بلاد الكرج (المحرم/آب ١٤٠١) ــ بعثة تيمور إلى الجنويين في بيرا (حوالي جمادى الأولى / كانون الاول ١٤٠١م) وفد جنوي بيزنطي يقابل تيمور في قراباغ ــ تيمور يقابل البعثة الفرنسية الأولى في قراباغ ــ الحملة السادسة على بلاد الكرج (رجب / أيار ١٤٠٢) ــ رسالة تيمور الثالثة إلى فرج يحملها أحد أتباع الظاهر عيسى حاكم ماردين (ذي القعدة /حزيران ١٤٠٢) ــ وصول البعثة الاسبانية الأولى لمقابلة تيمور (ذي الحجة / تموز ١٤٠٢) ــ معركة انقرة (ذي الحجة / تموز ١٤٠٢) .

٨٠٥/١٤٠٢ـ١٤٠٣ بعثة تيمورية تصل باريز (المحرم / آب ١٤٠٢) ــ البعثة تتابع سفرها إلى لندن ــ رسالة تيمور الرابعة إلى فرج حملها إلى القاهرة أحد سكان ازمير (صفر / ايلول ١٤٠٢) ــ رسالة تيمور الخامسة حملها إلى القاهرة مسعود الكججاني (ربيع الاول / ايلول ١٤٠٢) ــ مفاوضات القاهرة واعتراف فرج بتيمور كأب له (جمادى الاولى / تشرين الثاني ١٤٠٢) حصار ازمير (جمادى الأولى / كانون الاول ١٤٠٢) ــ إطلاق سراح اتلمش وسفره مع وفد مملوكي إلى تيمور في آسية الصغرى (جمادى الاخرة/ كانون الأول ١٤٠٢) ــ رد فرج المطول الأول على رسائل تيمور (جمادى الآخرة / كانون الثاني ١٤٠٣) ــ موت السلطان بايزيد الأول العثماني (شعبان / آذار ١٤٠٣) ــ الملك الفرنسي شارل السادس يحرر رسالة جوابية لتيمور (ذي القعدة / حزيران ١٤٠٣) ــ الملك الانكليزي هانري الرابع يحرر رسالة جوابية لتيمور .

٨٠٦/١٤٠٣ـ١٤٠٤ حملة الكرج السابعة (المحرم / تموز ــ آب ١٤٠٣) ــ وصول بعثة تيمورية إلى القاهرة (بعثة الكججاني الثانية) تحمل رسالة تيمور السادسة إلى فرج (المحرم / تموز ١٤٠٣ ــ إعمار بيلقان ــ هجوم أبي بكر بن ميرانشاه بن تيمور على بغداد واحتلالها (ربيع الاول / ايلول ١٤٠٣) ــ عودة بعثة الكججاني من القاهرة إلى سمرقند ومعها وفد مملوكي برئاسة منغلي بغا حاملاً رد فرج المطول الثاني (رجب ٨٠٤ / شباط ١٤٠٣) ــ تحرك تيمور من قراباغ نحو سمرقند (رمضان / آذار ١٤٠٤) .

تابع لائحة بأهم الاحداث في خلال حياة تيمور

٨٠٧ / ١٤٠٥ وصول بعثة كلافيجو إلى سمرقند (البعثة الاسبانية الثانية) – تحقير البعثة الصينية السادسة – زحف تيمور إلى الشمال لغزو الصين – وفاة تيمور في اوترار (١٧ نيسان / ١٨ شباط).

ثبت بمواضـع المصورات والرسـوم

البـــــاب الاول

المــدخل الجغرافي والتاريخي للعصر التيموري

تمهيـــد :

ان البحث في البيئة الطبيعية التي احتضنتا لمجتمع الذي نشأ فيه تيمورلنك أمـــر ضـــروري لدراسة العصر التيمـــوري • وكذلك فإن للتقاليد الاجتماعية المتوارثة عن الأجيال السالفة من جهة ثانية ، أثر بالغ في تكون ذلك المجتمع الذى كان يعيش في ماوراء النهر خلال القرن الرابع عشـــر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) ، وهو مجتمع كان ــ كما سنرى ــ يقيم وزنا لهذه التقاليـــد ويرى في الحفاظ على ما انحدر إليه من أجداده ، أمراً فائق الأهمية ، وأن قيمة الفرد تتحدد بقدرته على إثبات عراقة أصله وصحة نسبه ، خلال الأجيال المتعاقبة •

وللوضع السكاني في ماوراء النهر ، شأن خاص ، بعد تتالي الغزوات المغولية عليها ، وما رافق هذه الغزوات أو جاء بعدها من حركة للقبائل التركية التي جاءت واستقرت في تلك البلاد ، جنبـا الى جنب مع السكان القدماء •

لقد اتضح بعد مرور مدة منا لزمن ــ وسنثبت ذلك في مستقبل البحث[1] ــ أن جماعـــات السكان القدماء لم تستطع أن تتمثل القادمين الجدد بتقاليدهم البدوية • وظل كل من الطرفـــين ينشبث ــ الى حد ــ بتمايزه العرقي والحضاري ، على الرغم مما حدث بينهما من احتكاك وتبادل في مجالات عديدة ، أبرزها الدين والثقافة • فكان الاسلام هو الدين الذي اعتنقه الجميع ، والثقافـــة الاسلامية هي التي انتشرت بين الفئات المختلفة للسكان ، مع الأخذ بعين الاعتبار ما أحدثته العوامل المحلية كالبيئة الطبيعية والتقاليد المتوارثة من مؤثرات في مظاهر الحضارة المختلفة •

لذلك كان عرض الواقع الجغرافي لما وراء النهر ، يفيدنا من ناحية أولى ، في التعرف علـــى الخصائص الجغـــرافية للمنطقة ، وما استطاع أن يؤثر به الواقع الجغرافي فيها ، على الحياة الانسانية من ناحية التطور التاريخي ، ويمكّننا من ناحية ثانية من التعرف على المعالم الجغرافية والمسميـــات التي سوف يرد ذكرها في المستقبل • ولذلك لن يقتصر بحثنا على المنطقة الصغيرة التي نشأ فيهـــا تيمورلنك ، بل سيتعدى تلك المنطقة الضيقة إلى دراسة ماوراء النهر بكاملها ، وهي المنطقة التي حلت بها قبائل الترك والمغول ، الذين كوّن أحفادهم مجتمع الأتراك الجغتائيين ــ مجتمع مــاوراء النهر في العصر التيموري ــ الذي أصبح يرى أن ماوراء النهر هي المجال الذي ترعرع به فغدا في نظر أفراده ، وطناً لهم[2] •

---

(١) : انظر الفصل الثالث من الباب الثاني •
(٢) : يزدي : ظفرنامــه ج ١ ص(٣٩٨) . الذي أشار إلى أن تيموركان يشعر بالارتياح الشديد عندما يــؤوب من غزواته ويعبر نهر سيحون وعندها يشعر بأنه قد أضحى في وطنه •

وتقتضي دراسة التقاليد المتوارثة ، دراسة التطور التاريخي للوقوف ، من خلال ذلك ، على أسس القواعد والتقاليد التي كانت قائمة في المجتمع . ولذلك فان الذي يعنينا من دراسة الماضي التاريخي إنما هو التعرف على الوضع السكاني للمنطقة وما طرأ عليه ، خلال العصور المتعاقبة ، من تطورات من ناحية الأجناس والعناصر التي كانت تكونه ، ثم اللغة التي كان يتحدث بها أبناؤه ، والديانة التي كانوا يعتنقونها . ولن نهتم بعرضنا لأحداث السياسية ، الا بالقدر الذى يوضح الأمور التي أشرنا اليها . وسنرى أنفسنا مضطرين للحديث ، أحيانا ، عن تاريخ أحداث وقعت في أجزاء أخرى من آسية الوسطى — غير ماوراء النهر — عندما يكون لهذه الأحداث تأثير على تطور تاريخ هذه البلاد . وسوف يتضح من خلال هذه الدراسة ، أن هذه القواعد والتقاليد ، التي كانت قائمة في مجتمع الأتراك الجغتائيين ، إنما انحدرت إليه ، عبر القرون والأجيال ، من أجداده الذين كانت لهم تقريباً هذه العادات والتقاليد نفسها ، وأن توالي السنين لم يستطع أن يغير منها إلا قدراً ليس كبيراً جدا .

الفصـــل الاول

جغرافية ماوراء النهر ــ التضاريس

النسمية ــ الحدود الجنوبية ــ الحدود الشمالية ــ الحدود الشرقية والغربية ــ المناطـــق الطبيعية ــ المنطقة الصحراوية ــ المنطقة الجبلية ــ وادي الصغـد ــ حوض كشقاداريـــا ــ فرغـــانة ــ وادي الشاش ٠

ماوراء النهر هو الاسم الذى أطلقه أغلب المؤرخين والجغرافيين العرب على تلك البلاد التي

التسمية

تلي نهر جيحـون من ناحية إيران الشمالية الشرقية ٠ وقد عرفتعند بعضهم بتسمية أخرى هـــي " بلاد الهيطل "٠[1] نسبة الى شعب آسيوى يحمل هذا الاسم قدمت بعض جماعات منه الى المنطقـة واستقرت فيها ٠ ويشير ياقوت الحموى الى أن تسمية بلاد الهيطل هي التسمية التي كانت شائعـــة قبل بلوغ الفتح العربي تلك المنطقة وانتشار الإسلام فيها[2] ٠ واستعمل المؤلفون الفرس إلـى جانب هذه التسمية التي أخذوها عن العرب تسمية أخرى هي " بلاد توران " (توران زمـــين)[3]. واستعمل يزدى هذا التعبير في ظفر نامـه في مواضع كثيرة ٠ وكان استعماله له يأتي في الغالـــب عند المقارنة بين بلاد توران وايران[4] ٠ وورد تعدد اللفظة (توران) في ملفوظات تيمور كمـــا اس.. لمنها ا ..اه[5] وقال ياقوت في تعريفها انها اسم لبلاد ماوراء النهر بمجموعها[6] ويبدو أن ..ه اللف.. معروفة منذ ظهور الترك في القرن السادس الميلادى[7] ٠ ويرى "مينورسكي " (..ky) أن .. اللفظة فارسية الأصل ، وربما اشتقت من اللفظة الفارسية " تور " ، التي تعني " سجاع "

هذ.. وأطلق اليونانيون ، منذ القديم ، على هذه البلاد اسم " ترانس ــ أوكسيانا " (Trans-Oxina)[9] ، واشتقوا اسمها من إسم نهر جيحون ، الذى كان يدعى عندهم نهر " أوكسوس" (Oxus) ٠ ولا تزال التسمية اليونانية متداولة إلى اليوم ، في اللغات الاوربية ٠

وقصرت تسمية " ماوراء النهر " بعد الفتح المغولي ، على المناطق القريبة من نهر جيحون[10] وهي مناطق الصغد وفرغانـــة والشاش وخوارزم والاراضي الواقعة عند المجرى الأعلى لهذا النهر[11] وهي المناطق التي ظلت متحضـرةً من حوضي جيحون وسيحون بعد موجة الإعصار المغولي[12] ٠

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص٢٦٠ و ٢٨٤ وياقوت : معجم البلدان ج٥ ص٤٥ و، أبو الفداء : تقويم البلدان ص٤٨٤ ٠

(٢) : ياقوت نفســه

(٣) : Kavaliski : Les Turcs dans le Sah-namé P. 86
هذا و (زمين) لفظة فارسية تعني أرض أو بلاد ٠

(٤) : انظر مثلا ص٤٢٤ ج ١ من كتاب يزدى ظفر نامــه

(٥) : ابن عربشاه : عجائب المقدور ص١٥, Stewart : The Mulfuzet Tumury P. 133

(٦) : ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٧ ٠ (٧) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص٨٥ ونقل عنه ابو الفدا : تقويم البلدان ص٤٨٣ والقلقشندى: صبح الاعشى ج ٤ ص٤٢٩ ٠ (٨) : انظر المقالة في Encyclopedie de L'Islam T.IV P.P. 924-930

(٩) : Stewart: op. cit préfacep VII (١٠) : Wilber: Iran past and Present P. 58:

(١١) لوسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص٤٧٧ (١٢) Barthold :Turkesn down The Magnol Invasion P. 65

وأطلق منذ ذلك العصر على ماتبقى من بلاد توران ، اسم " تركستان " وهي لفظة فارسية أيضا تعني " أرض الاتراك " وكانت تضم بالإضافة إلى ماوراء النهر المناطق الأخرى التي سكنها الأتراك ، وتمتد الى ماوراء نهر سيحون (١) . وهي كما ذكرها ابن الأثير كاشغر وبلاد بلاساغون (حوض نهر جو حالياً) وختن وطراز وغيرها مما يجاورها (٢) وكان الراهب الفرانسيسكاني غيوم روبروك (Guillaum Robruk) قد أطلق على هذه المنطقة من قلب آسية عند ما عبرها في منتصف القرن الثالث عشر اسم سكيثيا (Scythie) نسبة الى شعب " السكيث " الذى انساح في هذه المنطقة في العصر القديم . وجاءت الإشارة الى تركستان على أنها منطقة مستقلة عن ماوراء النهر ، في مواضع كثيرة من مذكرات تيمورلنك .

وتتحدث بعض الدراسات الحديثة عن " ماوراء النهر " عند حديثها عن جغرافية الاتحاد السوفييتي . وتطلق عليها مع المناطق المجاورة تعبيرات مختلفة ، مثل : " آسية الوسطى " التي تمتد من بحر قزوين في الغرب الى حدود الصين في الشرق ، شاملة بلاد القيرغيز على المجرى الاعلى لنهر ايرتيش (Irtych) حتى حدود سيبيريا في الشمال ، وتطل في الجنوب على أفغانستان وإيران (٣) ، ويعتبر البعض الآخر من الدراسات الحديثة ، ماوراء النهر من المناطق الملحقة بآسية العليا ، التي تشتمل في نظرهم على منغوليا وتركستان الصينية والتيبت (٤) ، والتي تمتد الى جهة الغرب حتى تقف عند شواطئ " نهر جيحون " .

وعلى الرغم من قوة الصلات التي كانت قائمة ، خلال مراحل التاريخ المختلفة ، بين ماوراء النهر والمناطق المجاورة لهما ولاسيما بينها وبين خراسان وأفغانستان فقد كان لهذه البلاد حدود واضحة من الناحية الطبيعية سارت معها ، تقريبا ، الحدود العنصرية واللغوية خلال العصر المغولي والعصر التيموري الذى تلاه .

الحدود الجنوبية

وتمتد هذه الحدود من الناحية الجنوبية على شواطئ " نهر جيحون الذي تعتبره أغلب الأبحاث الحد الفاصل بين توران وإيران (٥) . ويضيف بارتولد إلى ذلك " أن النهر هو حد من الناحية العنصرية واللغوية بين الشعوب التي هي من أصل ايراني وبين الشعوب التي تتكلم اللغة

---

(١) : Barthold : op. cit. P. 64

(٢) : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٩ ص٢ وذكر التحديد نفسه لمنطقة تركستان نقلا عن ابن الاثير كل من : ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص٢٣ والقزويني : آثار البلاد ص٤١٤، وابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ، ص٨٤٥ .

(٣) : D'Almida : Etats de La Baltique et Roussie . Geographie universelle T.. V) P. 267. Shabad: Geography of U. S. S. R. P. 364

(٤) : Perroy : histoire générale des civilisations T. III P. 79

(٥) : Merges : peoples Languages and Migrations in Central Asia P. 82. Codrington: ageographical inlroduction to the history of Central Asia (Geographical Journal (104)1944P.P.27.40)p.31 هذا وفي العهد الساساني مثلا، كان جيحون الحد الفاصل بين أملاك كسرى انوشروان (٥٣١ ــ ٥٧٩ م) وبين أملاك الخاقان التركي وأشار الجغرافيون في العهود الإسلامية إلى مثل ذلك فيقول الاصطخرى : في تحديد إقليم ماوراء النهر " وجنوبه نهر جيحون من لدن بذخشان الى بحر خوارزم " انظر الاصطخرى: كتاب مسالك الممالك ص٢٨٧ وردد ابن حوقل والقلقشندي القول نفسه . انظر ابن حوقل : صورة الارض ص٣٨١ والقلقشندي : صبح الاعشى

التركية خلال العصر المغولي (١) . وكان كلا فيجو سفير ملك اسبانيا هنري الثالث الذى عبر النهر عام ١٤٠٣ م قاصدا بلاط تيمورلنك في سمرقند ، قد شعر بالاختلاف اللغوى القائم بين ضفتي جيحون وأشار الى أن لغة السكان كانت الفارسية في خراسان ثم أصبحت اللغة المسموعة هي التركية بعد عبوره الى ماوراء النهر (٢) . وكان قد أشار الى شيء مثل ذلك ماركوبولو فقال إن حدود فارس الشمالية تنتهي عند مدينة " بلخ " (٣) التي تقع في نقطة قريبة من ضفة جيحون الجنوبية .

الحدود الشمالية

أما الحدود الشمالية فتسير في جزء منها مع شواطيء نهر سيحون حتى مصبه في بحر خوارزم (بحر آرال الحالي)، وكانت هذه الحدود تتقدم إلى الأمام باتجاه تركستان أو تتراجع الى الوراء نحو ما وراء النهر من ناحية الشمال الشرقي ـ عبر المنطقة الجبلية ـ على مر الأيام مع انتشار الاسلام متوغلاً في أراضي الترك ، أو غارات القبائل الوثنية على الحدود الاسلامية . ولعل السبب في عدم استقرار خط الحدود في هذه الناحية يرجع إلى أن الحدود هنا لم تكن بين عالمين مختلفين ـ كما كان الحال في الحدود الجنوبية ـ من الناحية العنصرية واللغوية ـ فقد كان للأتراك ولغتهم التركية السيادة في هذه المناطق . وتصور جغرافيو القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجري) أن خط الحدود يمر بسلسلة من المدن التي كانت تعتبر ثغوراً المسلمين يُقاتل منها الأتراك الوثنيون . وكانت مدينة " أوزكند " أول هذه المدن وتقع على المجرى الاعلى لنهر سيحون ، ويدعوها ابن حوقل بـ " باب الترك " (٤) وعلى الرغم من تغير أوضاع الحدود بعد القرن العاشر بسبب انتشار الإسلام فيما وراءها الى الشمال حيث قامت الدولة القره خانية في تركستان حول حوض نهر " جو " الحالي ، فقد ظلت أوزكند التي اتخذها القره خانيون في حقبة من تاريخهم عاصمة لهم (٥) ، تعتبر مدينة حدودية حتى في العصر التيموري . وكانت تنطلق منها الغزوات نحو بلاد المغول (٦) .

ويمتد خط الحدود بعد ذلك الى مدينة " طراز " (٧) (أوليا آتا الحالية) الواقعة في أحد الممرات الجبلية في جبال تيان شان الشمالية (جبال اسكندر حاليا) ثم يتقدم الى " اسفيجاب " الواقعة على أحد روافد نهر سيحون الشمالية ، وهو نهر آريس الحالي ، ليتقدم بعدها إلى مدينة " اوترار " الواقعة عند التقاء هذا النهر بنهر سيرد اريا (٨) ، والتي كانت تعتبر أيضا مدينة حدود في العهد التيموري ، وقد تجمعت فيها قوات تيمور للإغارة على الصين ، لولا وفاته التي كانت في

=: ج ٤ ص ٤٣٢ . وقد أورد بلوشيه نصاً فارسياً مقتبساً من القسم الاول من تاريخ "ظفرنامه" ليزدى الذى لايزال مخطوطا ذكر فيه المؤرخ الفارسي أن جنكيز خان كان يعتبر نهر جيحون حداً فاصلاً بين إيران وتوران انظر لذلك أيضا :

Blochet : introduction a l'histoire des Mongols P.P. 63-64

Barthold : ibid

(١) : Le Strange: (trans.and edit.)Narrtive of the Spanish Embassy P. 12

(٢) : Bergeron : Voyages en Asie . T. II P. 808

(٣) : Barthold : op. cit P. 157

(٤) : ابن حوقل : صورة الارض ص ٤٢١

(٥) :

(٦) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ براغ ١٩٥٦ ص ٣٠

(٧) : ابن حوقل : صورة الارض ٤١٩ .

(٨) : ذكر القزويني (ص ٥٤٨) عن فاراب بأنها بلد على تخوم الترك

هذه المدينة . وذكر ابن حوقل — كدليل عن أن هذه المناطق هي مناطق حدود — أن الترك الوثنيين ، كانوا يأتون في عهده (القرن العاشر الميلادى) الى المدن الواقعة على نهر سيحون للتبادل التجارى وإجراء المفاوضات مع السلطات الإسلامية [(١)] . وكان تيمور قد تنازل عام ١٣٧٥م (٧٧٧ هـ) ، عن اثنتين من المدن الواقعة عند المجرى الأوسط لسيحون — هما صبران وسغناق — لتوقتاميش خان القبجاق — [(٢)] ويدل هذا التصرف على أن تيموركان يعتبر خط هذا النهر الحد الشمالي لبلاده — ماوراء النهر — وكان يزدى قد أشار الى أن تيمور كان يشعر بالمزيد من السرور عندما يعبر النهر عائداً من غزواته ، لانه كان يشعر بأنه قد عاد الى وطنه [(٣)] .

الحدود الشرقية والغرب...

وتقوم على الحدود الشرقية لما وراء النهر مجموعات جبلية ، تبدأ من ذرا جبال "هندوكوش" التي كانت تعرف بهذا الاسم في العهد التيمورى . وكانت قممها وشعابها معاقلاً للثائرين ومصائداً للجيوش الحكومية ، في ذلك العصر [(٤)] ويمتد خط الحدود بعد ذلك الى هضبة " بامير " (فامر) كما دعاها كل من الاصطخرى وابن حوقل [(٥)] . وقد دعيت في العصر التيمورى "بدخشان" ويتقدم الخط شمالاً عبر شرقي وادى فرغانه الى جبال تيان شان . وتحصر الحدود من هذه الجهات الثلاث مع الحد الرابع من جهة الغرب ، وهو بحر خوارزم ، منطقة أرضية تقدر مساحتها (٧٢٠) ألفاً من الكيلومترات المربعة تقريباً . تشكل حوضة مغلقة ردمتها الرواسب والمجروفات الهابطة اليها من المرتفعات المحيطة بها .

المناطق الطبيعية

ويُميز في منطقة ماوراء النهر بين منطقتين رئيسيتين من الناحية الجغرافية . تسيطر المنطقة الأولى على غربي وشمالي البلاد وهي صحراء واسعة . وتقع المنطقة الثانية في الجنوب والشرق . وتتألف من مرتفعات جبلية . وتنحصر بين المنطقتين الرئيسيتين ، منطقة ثالثة تتألف من مجموعة من الوديان الخصبة والواحات ، وهي أكثر ملاءمة للاستقرار والزراعة من المنطقتين السابقتين [(٦)] .

المنطقة الصحراوية

تقدر نسبة مساحة المنطقة الرئيسية الأولى الصحراوية ، إلى المساحة العامة بثلاثة إلى أربعة [(٧)] ، وتنحدر باتجاه نهر سيحون وبحر آرال ، وتغطي سطحها مساحات واسعة من الرمال ، كأنها بحر غير متناه . ويغلب على هذه الرمال اللون الأحمر ، ولذلك دعيت بصحراء " قزيل كوم" (Kyzyl-Kum) [(٨)] وتنتشر في صحراء قزيل كوم مئات التلال التي تستخدم سفوحها كملاجئ عند هبوب الرياح الشديدة ، وكان باستطاعة هذه الرياح أحيانا أن تقلب البدوي عن ظهر جمله وتقذف بأمتعته إلى مسافات بعيدة . وقد ساهمت الرياح في إعطاء الصحراء شكلها الحالي فأقامت فيها الموائد الصحراوية ، وحفرت بعض المنخفضات وهي لا تزال تحمل كثبان الرمال وتنقلها من مكان إلى آخر [(٩)] وتتناثر في

---

(١) : ابن حوقل : صورة الارض ص ٤١٨ .
(٢) : شامي : ظفر نامه ص ٧٥ ويزدي : ظفر نامه ج ١ ص ٢٠٤ : (٣) : يزدى ج ١ ص ٣٩٨ .
(٤) : خافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ١٥ و Stewart : op. cit. P. 121
(٥) : الاصطخرى : كتاب المسالك والممالك ص ٢٨٧ وابن حوقل : صورة الارض ص ٣٨١
(٦) : بوكشينيفسكي : جغرافية الاتحاد السوفييتي ص ٢٤٠
(٧) : Hooson : the Soviet Union P. 276 (٨) : قزيل : لفظة تركية تعني أحمر وكوم لفظة مغولية تعني رمال انظر: لامب : جنكيز خان ص ٨٠ .
(٩) : D'Almida : op. cit. P. 310

الصحراء بعض البحيرات والآبار التي يتجمع في قيعانها الغرين الناعم [١]، كما تظهر في بعض المناطق يفع من أصل بركاني .

وتطلق بعض المراجع على هذه الصحراء ، الاسم التاريخي " توران " [٢]، لأن الصفات المميزة لبلاد توران ، إنما تتوفر في هذا الجزء ، أكثر من توفرها في الأجزاء الأخرى ، من هذه البلاد . وتحدث عنها تيمورلنك في مذكراته . فوصف رمالها الناعمة وتكلم عن إقامته مع بعض أتباعه ، بجوار أحد الآبار عندما كان مطاردًا من أعدائه ، عام ١٣٦٢ م / ٧٦٣ هـ . كما تحدث عن قطعان الماعز ، التي كانت تسرح مع الرعاة في أطراف هذه الصحراء [٣] .

وتختلف صحراء " قزيل كوم " عن صحراء " قراكوم " التي تقع إلى الجنوب منها ، عبر نهر جيحون إذ تتميز صحراء قراكوم بلون رمالها الأسود ، وبانخفاض سطحها [٤] .

المنطقة الجبلية تتألف المنطقة الطبيعية الرئيسية الثانية ، والواقعة في شرق وجنوب ما وراء النهر ، من جبال تتصل اتصالاً مباشراً ، بالجبال الممتدة إلى الصين ، وبالجبال الممتدة إلى الهند . وتشكل ربع المساحة العامة تقريباً [٥] . وهي بشكل عام سلاسل التوائية ، تتجه من الغرب إلى الشرق بشكل متواز . تفصل بينها وديان الأنهار . وأهم هذه الكتل الجبلية ، جبال " تيان شان " في الشمال . وقد ظلت هذه الجبال تعرف حتى أيام المؤلف الجغرافي " مستوفي القزويني " الذي كتب كتابه " نزهة القلوب " عام ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م بـ " جبال جدغل " [٦]. وتشرف سفوح جبال جدغل الشمالية ، على المنخفض الذي تقوم فيه بحيرة " ايسيق — كول " (Issik-Kul) أي البحيرة الدافئة ، لأن مياهها لا تتجمد شتاء إلا في بعض الخلجان . وتقدر مساحتها بـ ٦٢٠٥ كم [٧] . وكانت طرق التجارة بين الصين وآسية الغربية تمر من جنوبها . وقد جاست الجيوش التيمورية شواطئ البحيرة مرات عديدة ، وكان تيمور على رأس عدد من هذه الغزوات ، وأقام على إحدى الجزر القائمة فيها قلعة ، كان يسجن بها العصاة والثائرين عليه [٨] . وأورد يزدي اسم البحيرة في كتابه " ايسي — كول " [٩] .

---

(١) : Hooson : ibid .

(٢) : Shabad: op. cit. P. 364 .

(٣) : Stewart: op. cit P. 61 ; 148 .

(٤) : Hooson : op. cit P. 277 and Shbad : op. cit. P. 364 .

(٥) : Gergory and Shave : the U.R.S.S geographical survey P. 400 and Hooson : op. cit. P. 276 .

(٦) : مستوفي القزويني : نزهة القلوب ص ٢١٧

(٧) : D'Almida : op. cit. p.282.

(٨) Barthold et spuler : Issik-kul (E.I.T.IV P.P.222-223)P. 222

(٩) : يزدي : ظفر نامه ج ١ ص ٢٠٣ ، و ٣٥٤

وينبجس من سفوح جبال جدغل الشمالية ، نهر "جو" (Chu) الذي ينتهي إلى بحيرة "سومل – كول" (Saumel-Kul) الصغيرة ، الواقعة جنوب بحيرة ايسيق – كول . وقامت في حوض هذا النهر ، دولة الأتراك القره خانيين ، ما بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين ، (الرابع والسادس الهجريين) . وكانت تقوم في نقطة على هذا النهر ، عاصمتهم الرئيسية "بلاساغون" [1] وتنحدر من سفوح هذه الجبال الغربية الروافد العليا لنهر سيحون - سيرداريا – التي تتغذى من ثلوج القمم الجبلية [2] .

وتوازي جبال جدغل (تيان – شان) من ناحية الجنوب ، جبال آلاي (Alay) التي كانت تعرف بالاسم نفسه في العهد التيموري [3] . ويفصل بين الكتلتين سهل فرغانه الخصيب . وتتفرع سلسلة آلاي باتجاه الغرب إلى ثلاثة سلاسل جبلية متوازية فيما بينها هي من الشمال الى الجنوب جبال "تركستان" "زرفشان" "حصار" وقد دعى الجغرافيون المسلمون هذه الجبال جميعها في العصور الوسطى بجبال "البتم" [4] . وميزوا بين البتم الأعلى (جبال تركستان) والبتم الأوسط (جبال زرفشان) والخارج (جبال حصار) . ووصف أبو الفداء جبال البتم بأنها جبال شاهقة منيعة [5] . وتغذي الثلاجات القائمة في هذه الجبال ، الأنهار التي تجرى منها إلى منطقة الصغد [6] التي تقع في غربها ، وتأتي إلى الجنوب من سلسلة آلاي ، سلسلة أخرى تسير على موازاتها ، تسمى اليوم جبال "ترانس – آلاي" (Trans-Alay) ويفصل بين السلسلتين ، وادي يجرى فيه نهر "وخش آب" (قزيل صو Kyzyl-Su اليوم) [7] ، وتتصل سلسلة ترانس – آلاي في الجنوب بهضبة "بامير" (بدخشان) التي تنحدر من سفوحها الغربية بعض روافد نهر جيحون [8] ، في مجراه الأعلى . وتتالى إلى الغرب منها طيات جبلية التوائية تنساب من خلالها الروافد الأخرى لهذا النهر ، أهمها جبال "ختلان" وجبال "صغانيان" وتنتهي الجبال بسفوح شديدة الانحدار على الصحراء في الغرب . ويقع في أحد هذه السفوح الممر الجبلي الشهير "باب الحديد" الذي يمر فيه الطريق القادم من خراسان عبر ترمذ الواقعة على نهر جيحون ، في الجنوب إلى سمرقند

---

(١) : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص ٧٩ Huart: Documents de L'Asie Centrale (J.A. II ser (1844) P.P. 607 - 627) P. 608

(٢) : Hooson : op. cit. P. 277 (٣) : Stewart : op. cit. P. 123

(٤) : Bartold : op. cit. P. 83 ولجبال حصار تسمية أخرى حديثة هي جبال "تشابدار" (Tchabadar) انظر كل من Barthold : op. cit. P.134 وهذه التسمية تحريف للتسمية التي ذكرها كل من الاصطخرى في كتاب مسالك الممالك ، ص ٣٢١ وابن حوقل في كتاب صورة الارض ص ٤١٠ وهي جبال "الشاوذار" .

(٥) : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٦ والاصطخرى : المرجع السابق ص ٣٢٨ وابن حوقل المرجع السابق ص ٤١٥ .

(٦) : ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٤٨٤

(٧) : D'Almida : op. cit P. 284

(٨) : Barthold : op. cit. P.66

شمالا[١] . وقد أشار إليه يزدي باسم "قهلغه" أو "دربند آهنين". ووصفه كلافيجو، عندما عبره في طريقه إلى بلاط تيمور في سمرقند، قادماً من خراسان . فقال عنه : إنه مضيق جبلي لا يتسع لأكثر من جملين يعبرانه معاً في آن واحد، وتشرف عليه الجبال من جانبيه، من ارتفاع مائتي متر[٢].

أما المنطقة الطبيعية الثالثة، التي تقع بين المنطقتين الرئيسيتين، الصحراوية والجبلية، فإنها تشكل — كما ذكرنا — شريطاً يسير في محاذاة الجبال، ويبلغ متوسط عرضه (١٥٠ كم)[٣]. وتتشكل تربة هذا الشريط السطحية في الغالب من تراب ناعم (Loess) وأهم أجزاء هذا الشريط منطقة "الصغد" وهي الحوض الذي يسير فيه النهر الذي كان يحمل الاسم نفسه، (ويعرف النهر اليوم بـ "نهر زرفشان Zeravashan")[٤]. ويتصف وادي الصغد بالخصب والنضارة . وقد أفاض الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى في الحديث عن نضرته، وكثرة أشجاره ذات الأغصان المتشابكة، التي تحجب بخضرتها كل شيء . وتكلموا عن تواصل القرى والمزارع فيه[٥]. وقدّر زكريا القزويني أبعاد هذا الوادي بستة وثلاثين فرسخاً عرضاً وبستة وأربعين فرسخاً طولاً . ويقطع المسافر الوادي الذي يجري فيه نهر الصغد من شرقه حيث منابع النهر في جبال البتّم الأوسط، إلى مصبه في المناقع التي تقع في الطرف الجنوبي الغربي من الوادي، في خمسة أيام[٦]. وتقع على نهر الصغد مدينتا ماوراء النهر الرئيسيتان : سمرقند وبخارى .

وادي الصغد

ويمتد إلى الجنوب من حوض الصغد، حوض آخر يسير فيه نهر موازٍ لنهر الصغد، ولكنه أصغر منه، ويتألف من اجتماع عدد من الروافد، ذكر منها ابن حوقل أربعة، لعل أهمها نهر "خشك"[٧] أو "خشكا" كما دعاه يزدي الذي يطلق اليوم اسمه على كامل النهر الأصلي، وهو نهر "كشقاداريا Kashkadaria" . ويقع هذا النهر، الذي ينتهي إلى مناقع على طرف الصحراء، مدينتان أولاهما "كيش" التي كانت مسقط رأس تيمور في قرية تقع في جوارها، ولذلك كان تيمور يحب كيش، ويقضي فيها فصل الشتاء في بعض الأحيان، وبنى فيها لنفسه قصراً، دعاه "آق سراي" (القصر الأبيض)، لاتزال آثاره قائمة إلى اليوم .[٨] وجاء في مذكرات تيمور أن

حوض كشقاداريا

(١) : Barthold: op. cit. P. 73
(٢) : يزدي: ج ١ص٣٨ و Lamb: La vie de Tamerlan P. 14
(٣) : D'Almida: op. cit. P. 290
(٤) : Barthold: op. cit. P. 82 ويذكر بارتولد أن اسم النهر الآري هو ناميك وتعبير زرفشان لم يعرف من قبل القرن الثامن عشر .
(٥) : وقد أجمع أغلبهم على أن وادي الصغد هو أحد منتزهات الدنيا الأربعة وهي : غوطة دمشق وشعب بوان، وابلة البصرة، وصغد سمرقند . انظر: كل من ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٣ص ٢٢٢ وزكريا القزويني : آثار البلاد ص٥٤٣ وأبو الفداء: تقويم البلدان ص٤٨٤ والقلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ص٤٣٣
(٦) : زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص٥٤٣ — ٥٤٤ .
(٧) : ابن حوقل : المرجع السابق ص٤١٣ ويزدي: ج ١ص ١٦١ و "خشك" لفظة فارسية تعني "جاف" وعلى هذا يكون اسم النهر الحالي كشقاداريا : النهر الجاف لأن "دريا" الفارسية تعني ماء أو بحر .
(٨) : بارتولد : المصدر السابق ص ٢٢٩ .

كيش قد دعيت منذ ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م " شهري سبز " (المدينة الخضراء) [١]، لأن أرض المدينة كانت تكتسي في فصل الربيع حلة من المروج الخضراء، توشحها الأزهار لكثرة المياه التي تنساب إليها من الجبال المجاورة [٢]. وكان ابن بطوطة قد مرّ بها عام ١٣٣٣م/ ٧٣٣هـ قبل مولد تيمور بثلاثة أعوام، وقال عنها إنها مدينة صغيرة تحف البساتين والمياه بها [٣].

والمدينة الثانية التي تقع على نهر كشقادريا، هي " نسف" كما دعاها الجغرافيون الذين كتبوا بالعربية أو " نخشب " كما سمّاها الجغرافيون الفرس [٤]. وترجم شهرة المدينة إلى أن الخان الجغتائي " كبك " [٥] (١٣١٨–١٣٢٦م/ ٧١٨– ٧٢٧هـ) قد اتخذها عاصمة، وبنى على بعد فرسخين ونصف منها قصراً، ولذلك فقد غلب اسم " قارشي " الذي يعني بالمغولية " قصر " على اسم المدينة، منذ ذلك الوقت، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى الوقت الحاضر [٦].

ويقع إلى الشمال الشرقي من حوض الصغد، وادي " فرغانة " الخصيب، ويمتد بين جبال آلاي في جنوبه وجبال جدغل في شماله (تيان شان) [٧]. وأرضه سهل منبسط [٨]، يخترقه نهر سيحون (سيرادريا) وروافده النازلة إليه من الشمال والجنوب. ويصل طول السهل بين الشرق والغرب، إلى (٣٣٥) كم [٩]، ووُصف بأنه إقليم كثير الخيرات وافر الغلات، يصادف في أرضه كثير من المعادن، كالذهب والفضة والحديد والنحاس والزئبق [١٠]. وكانت عاصمة فرغانة في أيام مستوفي قزويني مدينة " انديجان " التي أسسها أحد أحفاد جنكيز خان في منطقة غير بعيدة من جنوب النهر من جنوب النهر [١١] هو دوابن بوراق حفيد جغتاي. ولا تزال المدينة تحمل الاسم ذاته إلى اليوم. ومن مدن المنطقة الشهيرة في العهد التيموري " خُجند " التي تقع على مبعدة من جنوب النهر، عند انعطافه إلى الشمال، ومن مدن المنطقة أيضاً في عهد مستوفي " اوزكند " التي تقع على النهر في أقصى الشرق [١٢].

ويمتد إلى الشمال الغربي من وادي فرغانة حوض آخر، هو وادي " الشاش ". ويبدأ جنوباً من منعطف نهر سيحون الكبير نحو الشمال. ويساير من ناحية الشرق، السفوح الغربية لجبال جدغل، وهي سفوح مغطاة بالمراعي [١٣]. وتحد الوادي من ناحية الغرب رمال صحراء قزيل كوم. ويخترق نهر سيحون وادي الشاش، من الجنوب إلى الشمال. ويقدر أبو الفداء طول الوادي بمسيرة ثلاثة أيام. وتقوم فيه خمس وعشرون مدينة [١٤]. أشهرها " طاشقند " (تاشكنت كما دعاها يزدي) والتي تقع في جنوب وادي الشاش، في مكان غير بعيد من يمين النهر. ثم مدينة

فرغانة

وادي الشاش

---

(١) : Stewart: op. cit. P. 49 : هذا وتعبير " شهري سبز " فارسي أيضاً : شهر: مدينة وسبز: خضر.

(٢) : Prawdin: L'Empire Mongol et Tamerlan P. 173

(٣) : ابن بطوطة: المرجع السابق ٣٥٤ وكان مرور ابن بطوطة بكيش قبل مولد تيمور بثلاث سنوات.

(٤) : الاصطخري: ص ٣٢٥ وابن حوقل ٤١٢ وياقوت: ج ٥/ ص ٢٨٥ وأبو الفداء: ص ٤٩١.

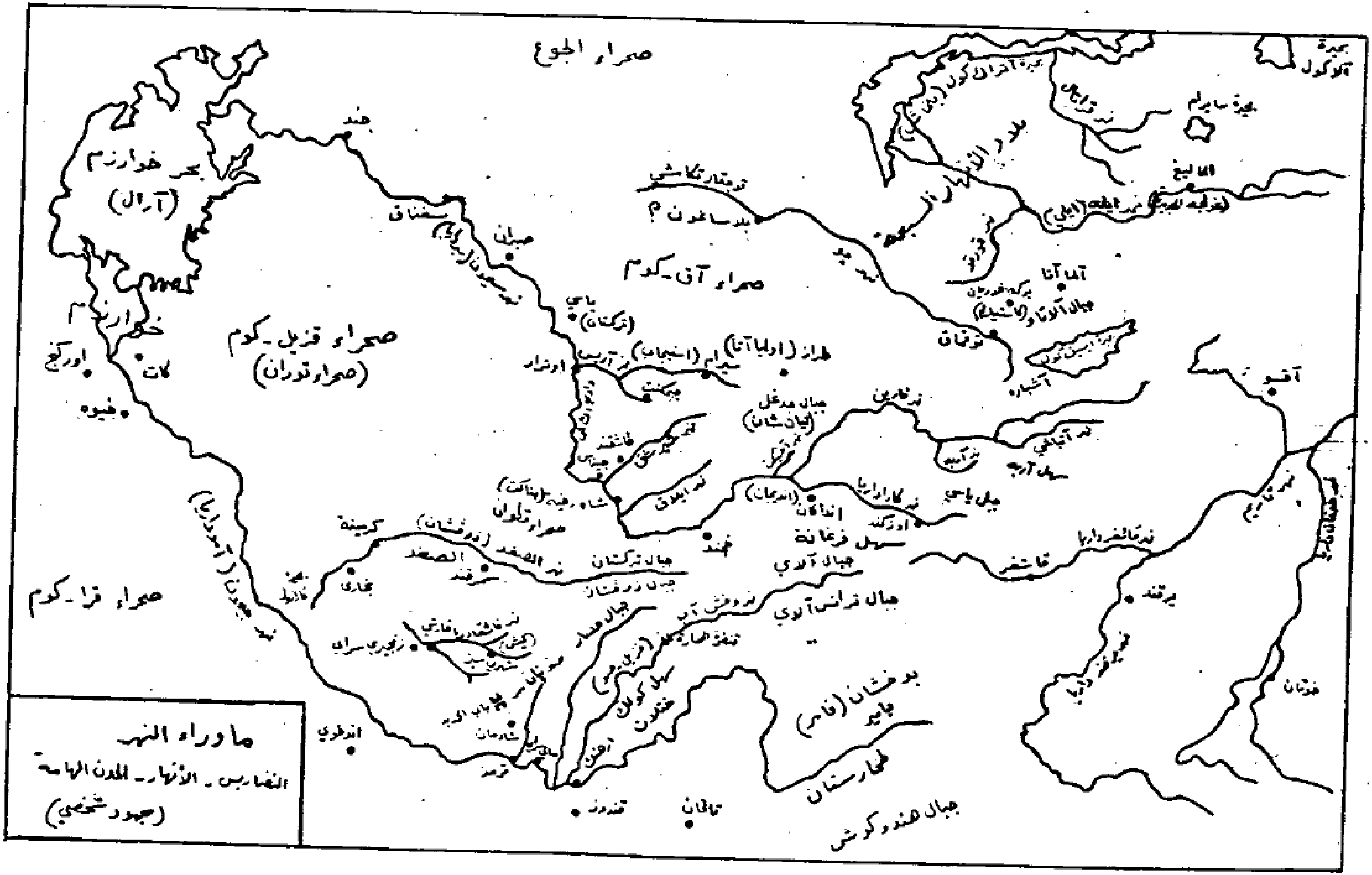
(٥) : وهو الخان الجغتائي الرابع عشر من أحفاد جغتاي بن جنكيز خان، وقد ضرب نقوداً ذهبية ظلت متداولة في العهد التيموري انظر: Barthold: Ulugh Beg P. 8

(٦) : Barthold: turkestan down .... P. 136

(٧) : Shabad: op. cit. P. 366 (٨) : ابن حوقل ص ٤٢٠ وأبو الفداء: ص ٥٠٣

(٩) : لوسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٢٠ (١٠) : الاصطخري: ص ٣٣٤ وزكريا القزويني ص ٦٠٣ والقلقشندي ج ٤ ص ٤٣٣ (١١) : مستوفي قزويني ص ٢٤٦

(١٢) : مستوفي قزويني: ص ٢٠٧ (١٣) : ابن حوقل: ص ٤١٨ (١٤) : ابو الفداء: ص ٤٩٥.



ما وراء النهر
التضاريس - الأنهار - المدن الهامة
(جهود شخصي)
صحراء الجوع
بحر خوارزم
(آرال)
صحراء قزل-كوم
(صحراء توران)
صحراء آق-كوم
صحراء قرا-كوم
خوارزم
كات
اورگنج
خيوه
سغناق
صبران
اوترار
طراز (اوليا آتا)
سهل فرغانة
جبال آلاي
جبال تركستان
جبال ترانس آلاي
بدخشان (فارس)
بامير
طخارستان
جبال هندوكوش
كاشغر
يرقند
ختن
آقسو
توقماق
آلما آتا
بحيرة سايرام
بحيرة آلاكول
بخارى
سمرقند
ترمذ
قندوز
طالقان
اندخوي
خجند
اندكان
اوزكند

" بناكت " التي تقع على النهر نفسه إلى الجنوب من طاشقند . وقد جدد تيمورلنك المدينة عام ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م ، ودعاها " شاه رخية " نسبة إلى ابنه شاه رخ [١] . ومن مدن المنطقة أخيراً " أوترار " ، والتي كانت تدعى سابقاً فاراب [٢] وكانت تقع على نهر سيحون في المكان الذي يرفده فيه نهر " آريس " .

وسيلي في الفصل القادم الكلام عن المناخ والمياه في ماوراء النهر للوصول بعد ذلك لعرض الميزات الجغرافية الخاصة ، التي كان لها تأثير على تطور تاريخ هذه البلاد .

(١) : يزدي : ج ٢ ص ٤٥١
(٢) : بارتولد : المصدر السابق ص ١٤٢

الفصـــل الثانـي

جغرافية مــاوراء النهـــر ـ المنــاخ والميــاه

المناخ ـ المياه ـ النباتات ـ اثر الظواهر الجغرافية في الحياة البشرية ٠

المناخ إن بعد ماوراء النهر الشاسع عن البحار ، يلعب دوراً كبيراً في إعطاء مناخ المنطقة صفاته البارزة ٠ فهي محرومة من وصول المؤثرات البحرية إليها ، كما أن المسطحات المائية القريبة منهـا لاتلعب دوراً ذا أهمية في تلطيف المناخ، بسبب ضآلة مساحتها بالنسبة للمنطقة[(١)] ٠ ولكن الجبـال العالية التي تمتد في جنوب وشرق البلاد تقوم باحتجاز ماتبقى من الرطوبة في الرياح القادمـة من البحيط الهندى من الجنوب والبحر المتوسط[(٢)] في الغرب.ومنطقة ماوراء النهر مفتوحة في بعض أجزائها من الجهـة الشمالية ، أمام هبوب الهواء القطبي عبر سيبيريا ، مما يجعل المناخ بـــارداً جداً في فصل الشتاء ويؤدى إلى تساقط الثلوج بغزارة ولاسيما على المناطق الجبلية،ويسبب تجمد مياه الأنهار ٠ وقد لفت هذه المظاهر نظر الرحالة الذي مروا بالمنطقة ، في حقب مختلفة مـــن التاريخ[(٣)] ٠ وتنخفض الحرارة في بعض المناطق الجبلية الشمالية إلى (ـ ٣٠°) ثلاثين تحت الصفر. ويبدأ الثلج بالتساقط منذ شهر كانون الأول ، ويستمر حتى آخر شباط ولكنه يبدأ بالذوبان فـي وقت مبكر[(٤)] ٠ ووصف تيمور شتاء بلاده ، فقال عنه : إنه شتاء عاصف[(٥)] ٠ وأربكته ، في إحـدى المرات عاصفة ثلجية ، هبت في شتاء عام ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٦ م بصورة مفاجئة ، عندما خرج للصيد فضلّ طريقه بسبب سماكة الثلج الذي تراكم على الأرض[(٦)] ٠ واضطرته الثلوج مرة أخرى في شـتاء عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م، إلى إيقاف العمليات العسكرية ، عندما كان يلاحق أحد خصومه ، فـــي

---

(١) : Shabad : ibid and Gregory and Shave : op. cit. P. 412

(٢) : Hooson : op. cit. P. 277

(٣) : من هؤلاء الرحالة الصيني " هيوان تسانغ " Hiwan-Tsang الذى زار ماوراء النهر عام ٦١٠ م وأشار إلى ثلوج الجبال التي تظل متراكمة حتى أواسط فصل الصيف (أنظر: لامب : جنكيز خان ص١٠١)وكذلك فقد أشار الرحالة ابن فضلان الذى عبر جيحون في مطلع القرن العاشر الميلادى ٩٢١ م (٣٠٩ هـ) في رحلة إلى بلاد البلغار،فأشار إلى تجمد ميـاه النهر وذكر أن سماكة الجليد بلغت سبعة عشر شبراً(أنظر : رسالة ابن فضلان ص٨٣ ٠) وأما الرحالة " بلانوكاربيني "(Plano Carpini) الذى عبر قلب آسيا عام (١٢٤٥ م مبعوثاً من قبل البابا اينوسانت الرابع) في محاولة لتحويل المغول إلى المسيحية،فقد أشار إلى العواصف الشديدة والصواعق التي تقتل الناس والثلوج التي تحول دون سير الخيول أنظر : Bergeron: op. cit. T. II P. 26

(٤) : Shabad : ibid

(٥) : Stewart : op. cit. P. 104

(٦) : Stewart : op. cit. P. 37

وادى سيحون ، وسمح للجيش بالتفرق ، خوفاً من أن يدفن الجند تحت الثلوج الكثيفة ، التي كانت تسقط بغزارة (١) .

هذا ويكون الانتقال من برودة الشتاء إلى حرارة الصيف مفاجئاً . وتساعد حرارة شهر أيار المرتفعة على انضاج الحبوب والفواكه في وقت مبكر . ويبدأ من هذا الشهر — أيار — صيف طويل تصل الحرارة فيه — في بعض المناطق — حتى خمسين مئوية (٥٠ْ)، وتستمر الحرارة مرتفعة حتى أيلول ، حين تبدأ بالانخفاض مرة ثانية ، مشيرة إلى حلول الخريف ، الذي يعتبر أهم فصول العام (٢) . ويلاحظ أن تغيرات درجة الحرارة كبيرة بين الارتفاع والانخفاض خلال وقت قصير (٣) .

وتؤدى الرياح الشمالية التي تهب على البلاد ، قادمة من المناطق القطبية ، عبر السهوب السيبيرية ، إلى انخفاض الحرارة وتجمد المياه — كما ذكرنا سابقاً — شتاء ، ويؤدى تدفق هذه الرياح صيفاً إلى ارتفاع الحرارة نتيجة ارتفاع حرارة المناطق السيبيرية ، بسبب مناخها القاري وتمتاز هذه الرياح بسرعتها ، التي تبلغ ٩٠ كيلو متراً في الساعة أحياناً (٤) ، وتكون عادة محملة بالرمال والغبار الذى يحجب الرؤيا ، ويسبب هبوبها أضراراً بالغاً للنباتات (٥) ، كما أنها تعبث بعنف بتضاريس الصحراء فتحمل الكثبان من مكان إلى آخر فيها ، فضلاً عن أنها رياح جافة .

وأما الرياح المسببة للامطار ، فتأتي من جهة الغرب والجنوب الغربي ، قادمة من البحر المتوسط والمحيط الهندى (٦) . وتقوم المرتفعات الجبلية التي تمتد في جنوب وشرق ماوراء النهر فتستدعي إليها — بحكم ارتفاعها — بقايا رطوبة الرياح القادمة من المحيطات والبحار البعيدة ، حتى قيل عن هذه الجبال ، إنها جزيرة رطبة وسط بحر من الصحراء الجافة (٧) .
والأمطار قليلة بصورة عامة ، ومعدل كمية الأمطار السنوى ، لايتجاوز (١٢٥ مم) في معظم المناطق.
ويرتفع هذا المعدل إلى (٤٠٠ مم) في السفوح الجبلية ، والمناطق القريبة منها . وتهطل الأمطار في فصل الصيف ، فتساعد على عدم جفاف النباتات (٨) في هذا الفصل . بسبب ارتفاع الحرارة .

وتشكل بلاد ماوراء النهر حوضاً مغلقاً ، لأن معظم مياهه تنصرف إلى بحر مغلق هو بحر قزوين . ولا يصل شيء من هذه المياه ، إلى المحيطات الخارجية . والثروة المائية الأولى في البلاد تتمثل في نهرى ، سيحون وجيحون (سيرداريا وآموداريا) العظيمين وروافدهما (٩) ، ثم بنهري الصغد وكشقاداريا . والموازنة بين سيحون وجيحون تظهر أن جيحون هو أطول النهرين

المياه

---

(١) : Stewart : op. cit. P. 113
(٢) : Shabad : ibid
(٣) : D'Almida : op. cit. P. 307
(٤) : بوكشيشيفسكي : المصدر السابق ص ٢٤
(٥) : Shabad : ibid
(٦) : D'Almida : op. cit. P. 278
(٧) : D'Almida : ibid
(٨) : Shabad : ibid
(٩) : Shabad : op. cit. P 365

(١٨٥٠ كم و ١٥٠٠ كم) . ولكنه أقل غزارة وعمقا منه ، ولذلك فهو أقل منه فائدة [١] .

هذا وقد دعي النهران بأسماء شتى على مر العصور ، وكان أشهر هذه الأسماء : سيحون وجيحون ، وقد شاع استخدامهما عند أغلب الجغرافيين والكتّاب المسلمين . وسمى بعضهم النهرين بأسماء المدن التي كانا يمران منها ، فأطلقوا على جيحون (نهر بلخ) [٢] ودعوا سيحون (نهر الشاش) والشاش هي التسمية القديمة لمدينة طاشقند [٣] — وإن كانت لا تقع على ضفة النهر تماماً .

ويقول " لوسترانج " (Le Strange) في أصل تسمية النهرين ، إنها ربما كانت من أصل توراتي ، حيث ورد في سفر التكوين الإصحاح الثاني عدد : ١١ و ١٣ ذكر لنهري كيحون (Gihon) وبيسون (Pison) [٤] . وعرف نهر جيحون ، في العهد الآري ، السابق للفتح الإسلامي ، بنهر " واخشو " (Vakhshu) [٥] ، وهذه التسمية ، هي التي نراها اليوم ، لأحد روافد هذا النهر ، هو نهر الوخش (وخش — آب) . وربما كانت تسمية " واخشو " هذه أصلاً لتسمية (Oxus) التي أطلقها اليونانيون على جيحون كله . أما في العصر التيموري فقد استعملت فيه تسمية " جيحون وتسمية أخرى ، هي نهر " آمو " . فقد أوردت مذكرات تيمور كلا التسميتين . ويقول لوسترانج : إن تسمية " آمو " أو " آمويه " هو اسم لمدينة قديمة صغيرة ، كانت تقع على جيحون أُطلق اسمها على النهر كله ويتابع لوسترانج قوله : إن تسمية نهر آمو التي كانت مستعملة في العصور القديمة ظلت شائعة حتى حلت محلها تسمية " جيحون " عند الفتح العربي لهذه البلاد [٦] . وقد استعمل الكتاب الذين كتبوا بالفارسية ، أمثال يزدي وحافظ آبرو ، كلا التسميتين [٧] .

وأما نهر سيحون ، فكانت أقدم تسمية عرفت له هي " إكزارات " (Yxarates) . وكان اليونانيون هم الذين استعملوها [٨] ، ولا تزال هذه التسمية محفوظة في التسمية الصينية (Yo-shu) ، وربما كانت تسمية " خشرت " التي أوردها ابن خرداذبه في عدة مواضع من كتابه هي تحريف للتسمية اليونانية هذه ، التي انحدرت بدورها من أصل آري قديم [٩] . وذكر مستوفي قزويني أن اسم النهر في العصر المغولي كان " گل زريان " [١٠] . أما التسمية الحالية للنهر (سيرداريا) أو (سيرصو) ، وتعني نهر السير ، فهي أحدث عهداً من تسمية

---

(١) : Shabad : ibid

(٢) : اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٩١

(٣) : لوسترانج : المصدر السابق ص ٥١٩

(٤) : لوسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٧٧

(٥) : Barthold : op. cit. P. 65

(٦) : لوسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٧٧ — ٤٧٨ .

(٧) : يزدي : المرجع السابق ج ١ ص ٣٤ و ١١٠ وحافظ آبرو المرجع السابق ص ١٣

(٨) : D'Almida: op. cit. P. 234 and Barthold : op. cit. P. 155

(٩) : Barthold : op. cit P. 155 N. 9

(١٠) : مستوفي قزويني : نزهة القلوب ص ٢١٧ .

سيحون ، التي استعملت من قبل كتاب العصر التيموري ، مثل يزدي وشامي [١] .

ينبع جيحون من هضبة بامير [٢] ، من منطقة " وخان " وتقع في شرقي بدخشان ويتجه النهر من الشرق الى الغرب ، ثم ينعطف إلى الشمال مطوقاً بدخشان من جنوبها وغربها ثم يتابع التقدم باتجاه الغرب ، يرفده في هذا الجزء من مجراه عدد من الروافد أهمها وأطولها ، نهر " وخش آب " ، الذي يدعى في الوقت الحاضر ، نهر " قزيل صو " (Kyzyl- Su) [٣] ، أي " النهر الاحمر " لأن كلمة Su تعني بالتركية أصلاً (ماء) . وينبع هذا الرافد من جبال آلاي [٤] . وقد أدى انحلال الحجر الرملي من صخور هذه الجبال بمياه النهر إلى تلون هذه المياه باللون الأحمر ، ولذلك دعي بهذا الاسم [٥] . ويمر نهر " الوخش " قبل أن يصل إلى جيحون بمضيق جبلي دعاه ابن حوقل " قنطرة الحجارة " [٦] ، وسماه يزدي " پول سنگين " [٧] ، وهو جسر من الحجارة لا يزيد طوله عن بضع خطوات معلق بين صخرتين ناتئتين ، يجري من تحتهما النهر محصوراً بين جبلين عاليين شديدي الانحدار . ولا يتجاوز عرض الفجوة التي يمر بها النهر ثلاثين خطوة ، ويحدث مرور الماء عندها هديراً هائلاً [٨] . وقد خاض تيمور عند هذه القنطرة كثيراً من المعارك بسبب موقعها الحربي الممتاز ، منها معركة في عام ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م ضد المغول الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت ماوراء النهر [٩] .

يسير جيحون في هذا الجزء ، في مجرى جبلي شديد الانحدار ، ووصفه ابن عربشاه بأنه نهر ذو تيار زاخر وماء عجاج [١٠] . وبعد أن يتجاوز النهر مدينة " ترمذ " يدخل في صحراء ، لا يرفده فيها رافد . ويمر جيحون في الجزء الأخير من هذه الصحراء في ممر ضيق ، دعاه مستوفي بمضيق " فم الأسد " (تنك دهن شير) ، وهو ممر قائم بين جبلين يقتربان من بعضهما لمسافة تقل عن مائة ذراع (١٠٠) في بعض الأحيان . ويندفع الماء هنا أيضاً ، بهدير هائل ، ويختفي خلالها أحياناً في مجرى تحت الارض مسافة ميلين ، لا يظهر منه شيء وحيث تسود الرمال [١١] . ولما يصل النهر إلى مجراه الأدنى ، يتفرع إلى فروع كان عددها في أيام ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) ثمانية ، ثم ينتهي إلى بحر خوارزم [١٢] . ولكن مستوفي قزويني الذي كتب كتابه في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، يذكر أن عمود النهر الأصلي يقترب من بحر خوارزم ، حيث تصب بعض فروعه فيه ،

---

(١) : يزدي : ظفر نامه ج ١ ص ٢٠٤ وشامي : ظفر نامه ص ٧٥
(٢) : Shabad : op. cit. P. 365 هذا ويجعل مستوفي قزويني : نزهة القلوب ص ٢١٤ وابن رسته : كتاب الأعلاق النفيسة ص ٩١ منابعه من هضبة التبيت .
(٣) : D'Almida :op. cit. P. 301
(٤) : Shabad : op. cit P. 365
(٥) : D'Almida : op. cit. 285
(٦) : ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٩٣ .
(٧) : يزدي ظفر نامه ج ١ ص ٦٥ وهو تعبير فارسي يعني قنطرة بالعربية .
(٨) : لوسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٢ .
(٩) : Stewart : op. cit. P. P. 76-78
(١٠) : ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٨
(١١) : مستوفي قزويني : نزهة القلوب ص ٢١٣
(١٢) : ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٩٦ .

ثم يبتعد النهر عنه ويتجاوز المنطقة كلها إلى الغرب ، لينتهي إلى بحر قزوين في موقع يدعى " خلخسال "(١).

يتجمد نهر جيحون خلال فصل الشتاء(٢) . وعلى الرغم من أن دور النهر في الإرواء والزراعة ليس كبيراً ، بسبب سرعة مياهه وشدة انحداره في مجراه الأعلى ، وسيره في صحراء رملية في مجراه الأوسط ، ثم لتغييره لمجراه في مجراه الأدنى(٣) فقد وصف بأنه نهر صالح للملاحة في بعض أجزائه(٤) . وقال عنه كلافيجو - كما ذكر سايكس - عندما عبره من خراسان إلى سمرقند بأنه نهر من أنهار الجنة(٥) .

أما النهر الثاني الهام في هذه البلاد فهو " سيحون " وينبع من الأجزاء الشمالية لجبال جدغل(٦) ، ويسير بعد ذلك النهر في مجرى متعرج ، نحو الغرب والجنوب . ويطلق عليه اليوم في هذا الجزء من المجرى نهر " نارين " (Naryn) .ويلتقي نارين عند انعطافه ثانية نحو الغرب ، برافده القادم من جبال فرغانة (وهي الجزء الجنوبي من جبال جدغل (تيان شان) المطل على وادي فرغانه من الشمال) وهو نهر " كارادريا "(٧) (Karadarya) . ويتشكل من التقاء النهرين نهر عريض ، يخترق وادي فرغانه من شرقه إلى غربه ، ويصل عرضه عند خجندة إلى مائة وثلاثين متراً (١٣٠ م)(٨) . يرسم سيحون بعد ذلك منعطفاً كبيراً نحو الشمال ، ماراً بمنطقتي ايلاق والشاش ، ويلتقي هنا بعدد من الروافد ، تهبط إليه من السفوح الجبلية من الناحية

---

(١) : مستوفي قزويني : المرجع السابق ص٢١٤ هذا وكان جيحون قد غير مجراه بين خوارزم (آرال) وقزوين مرات عديدة . ويذكر لوسترانج أن جيحون كان يصب في قزوين في القرن الرابع قبل الميلاد ، في عصر الاسكندر وخلال حروبه في الشرق ، وذلك حسب ماورد من إشارات لدى الكتاب اليونانيين . ولا يعلم السبب الذي أدى إلى تغيير النهر لمجراه ، ولا متى كان هذا التغيير . لاتزال آثار المجرى القديم ماثلة حتى الآن ، وتمتد من جنوب آرال حتى شرق قزوين ، وقد ارتاده عدد من الرحالة والمغامرين في العصر الحديث (انظر : بلدان الخلافة الشرقية تأليف لوسترانج تعريب فرنسيس بشير وكوركيس عواد ص٤٩٨ - ٤٩٩) وأشار ابن حوقل إلى تحول مجرى النهر من وقت لآخر (انظر : ابن حوقل : صورة الارض ص٣٩٦) و وأورد المقدسي في تعليل تحول مجرى النهر قصة غير محددة التاريخ ، ملخصها أن أحد ملوك الشرق قد غضب على أربعمائة من أتباعه فأنزلهم في موضع " كاث " في جنوب بحر خوارزم وكان جيحون ينتهي في ذلك الوقت إلى خراسان ، خلف مدينة " نسا " ، فسمح ملك هذه المدينة بشق ترعة ، إلى بحيرة خوارزم ، تبدأ من نسا (انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص٢٨٥) . وتعتبر إشارة كل من ابن حوقل والمقدسي ، دلالة واضحة على تحول مجرى هذا النهر من مصب إلى آخر ، وربما كان هذا التحول من قزوين إلى خوارزم .

(٢) : ابن فضلان : رسالة ابن فضلان ص٨٣ وقزويني : نزهة القلوب ص٢١٤

(٣) D'Almida : op. cit. P.P.365-366

(٤) : الاصطخري : المرجع السابق ص٣٠٢ وابن حوقل : المرجع السابق ص٢٩٢ .

(٥) : Sykes: History of Persia. T.II.P. 131

(٦) : ابن حوقل : صورة الارض ص٤١٧ وقزويني : نزهة القلوب ص٢١٧ .

(٧) Shabad:op.cit.P366 D'Almida:op.cit.P294 هذا ويرى بارتولد أن المنبع الاصلي لسيحون هو نهر كارادريا وليس نهر نارين إلا رافد انظر Barthold : op.cit.P.155

(٨) : D'Almida ibid

الشرقية ومن هذه الروافد نهر " شيرشاك " الحالي الذى ذكره يزدى باسم «باد ام» وقد دارت على ضفاف هذا النهر معركة بين تيمور والمغول [١]. ويتحول سيحون في الجزء الأخير من مجــراه نحو الشمال الغربي ، حيث يدخل في منطقة صحراوية يخسر فيها الكثير من مائه بسبب التبخـــر ، الناجم عن ارتفاع الحرارة [٢] . وينتهي الى بحر خوارزم (آرال) . .

هذا وقد لفتت نضارة النباتات وكثافتها في هذه البلاد ، أنظار الجغرافيين والرحالة فأكثروا من الحديث عن ذلك وذهبوا في بعض الأحيان إلى حد المبالغة.فيقول الاصطخرى ، في هــذا الشأن : « وسائر ماوراء النهر من الأشجار الملتفة والثمار الكثيرة والرياض المتصلة مالا يوجد مثله فـي سائر الأمصار ، وبفرغانه في الجبال الممتدة بينها وبين بلاد الأتراك ، من الأعناب والجوز والتفــاح وسائر الفواكه مع الورود والبنفسج وأنواع الرياحين ، مباح ذلك كله » [٣] . وأشار ابن حوقل الـــى امتداد المراعي على مساحات واسعة في سفوح الجبال المطلة على وادى سيحون من الشرق ، بين ججنسدة وفاراب (اوترار) [٤] . ويظهر أن حال الحيـاة النباتية لم يطرأ عليه تغيير كبير ، بعــد القرن العاشر الميلادى ، على الرغم مما طرأ على البلاد من مصائب خلال الغزو المغولي ، الذي استهدف المدن والمباني أكثر من النباتات والأشجار . ويفهم ذلك من عبارة أوردها ابن بطوطـة ، عند زيارته لبخارى قادماً من خوارزم فقال : "إنه قضى يوماً كاملا يسير في ربض المدينة الذى يتألف من بساتين نضرة . ولما بلغ المدينة نفسها لفت نظره آثار التخريب الذي حاق بالمدينة ، عند اجتياح جنكيز خان لها" [٥] ، على الرغم من مرور أكثر من قرن على هذا الغزو . وتتردد الأقوال نفسها عن كثافة النبات ونضرته عند الجغرافيين الآخرين الذين كتبوا بعد الغزو المغولي أمثال زكريا القزويــني وأبي الفداء ، ومستوفي قزويني [٦] .

والنبــات ، في تلك البلاد ، شأنه في ذلك شأن سائر المناطق الأخرى ليختلف في شكله من منطقة إلى أخرى ، ففي صحراء قزيل كوم يسود النبات الذى يقوى على تحمل الحرارة المرتفعـــــة والجفاف ، خلال فصل الصيف الطويل . فالنباتات هنا شوكية أو ذات الياف وجذور طويلة ، تساعدها على التشبث بالارض في وجه الرياح العاتية . وتكون أوراقها لحمية سميكة تختزن الماء في أنسجتها . ويطرح بعض هذه النباتات مادة صمغية كريهة الرائحة، تزيد من قدرتها على مقاومة الرياح . وتنمــو في المسطحات الطينية ، التي تنتشر بين الرمال ، بعض النباتات الموسمية ، خلال فصلي الربيــع والصيف ، كالنباتات البصلية والأشواك .

النباتا

---

(١) : يزدي ج ١ ص٧٨ .

(٢) : D'Almida : ibid

(٣) : ا الاصطخرى : المرجع السابق ص٢٩٥ ورد و ابن حوقل القول ذاته في صورة الارض ص٣٩٦

(٤) : ابن حوقل : صورة الأرض ص٤١٨

(٥) : ابن بطوطة : الرحلة ص٣٥٢ .

(٦) : زكريا القزويني : آثار البلاد ص٥١٠ وأبو الفداء: تقويم البلدان ٤٨٤ ، ومستوفــي قزويني : نزهة القلوب ص٢٤٧ و ٢٦٢ .

هذا ، وتعتبر ضفاف الأنهار والبحيرات مكانًا صالحًا لنمو أدغال من القصب ، يرتفع إلى أربعة أمتار في بعض الاحيان ، وكان سكان البلاد ولايزال وأحفادهم في الوقت الحاضر يستعملونه لصناعة الحصر وأسقف المنازل [١] . وقد سمحت كثافة القصب في بعض المواقع على نهر جيحون بإخفاء بعض جند تيمورلنك ، عن أعين أعدائهم عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م [٢] .

أما الغابات فلا تشاهد إلا في سفوح الجبال ، مثل منحدرات جبال جدغل الشمالية والغربية [٣] ، وترى على نطاق محدود في المناطق الأخرى . وأشهر أنواعها الصفصاف والزيتون البري ، ثم الجوز والفستق والمشمش .

وتنتشر أعشاب المراعي على مساحات واسعة في السهول والمنحدرات الجبلية عندما تتوفر الرطوبة ، ولا تنتهي إلا عندما تبدأ مناطق الثلوج . وتوصف مراعي البلاد بأنها غنية تشبه في امتدادها ونضرتها المراعي الألبية في أوربا [٤] وقد استطاعت هذه المراعي خلال مراحل التاريخ المختلفة أن تقدم العشب اللازم لخيول فرسان التوارنيين وأحفادهم الأتراك فيما بعد .

ويظهر أن أول عامل جغرافي لعب دورًا هامًا في تاريخ البلاد ، هو موقعها المتوسط بين الصين وبقية أجزاء آسية الوسطى ، في شمالها وشرقها ، وبلدان آسية الغربية في جنوبها وغربها [٥] . وكانت خلال مراحل التاريخ المتعاقبة البوابة التي كان يطل منها عالم الصين وآسية الوسطى على العالم العربي والإسلامي في آسية الغربية . وتلاقت على أرضها العناصر البشرية ، والنماذج الحضارية لكلا العالمين [٦] . ومن المهم أن نشير إلى أن تأثير الصين الحضاري قد انتقل ، خلال العصر الوسيط إلى ماوراء النهر بصورة غير مباشرة ، وذلك عن طريق قبائل المغول والترك البدوية، وكان هؤلاء قد تأثروا بإشعاع تلك الحضارة، ولذلك فان تلاقي شعوب شرق ووسط آسية ، مع شعوب آسية الغربية ، على أرض ماوراء النهر ، ظل يأخذ طابع تلاقي عالمين مختلفين في طبيعة الحياة الاجتماعية ، فهناك الطابع الزراعي المستقر المتحضر ، المتمثل بحملة الحضارة العربية الإسلامية من العناصر الفارسية والعربية ، وهناك الطابع البدوي المتنقل البدائي الحضارة ، المتمثل بقبائل المغول والترك ، وساعد على أن يكون الاحتكاك بين هذين العالمين ، شديدًا ومؤثرًا ويحمل طابع الاستمرار ، أن طبيعة ماوراء النهر تحتوي على مناطق تساعد كلاً من العالمين على أن يحتفظ بعاداته المتوارثة وتقاليده الحضارية ، فهنالك المناطق الخصبة الزراعية الوافرة المياه ، التي تمكّن العناصر الإيرانية ثم العربية المتحضرة القادمة من مناطق آسية الغربية من الاستمرار في حياتها القائمة على الزراعة والاستقرار ، وهناك الصحراوات والبراري ذات التربة الطينية ، التي تقدم المراعي والتي تمكن العناصر البدوية (الأتراك والمغول) القادمة من قلب آسية من أن تستمر

---

(١) : Shabad : op. cit. P. 367
(٢) : Stewart : op. cit. P. 108
(٣) : بوكشيشفسكي : المصدر السابق ص ٢٤٠ و Shabad : ibid
(٤) : Shabad : ibid
(٥) : Codrington : op. cit. P. 31 .
(٦) : راجع الفصل التالي : تاريخ ماوراء النهر في العصر القديم ومطلع العصر الوسيط .

في حياة البداوة والرحلة والرعي التي اعتادت عليها . وزاد في حدة الاحتكاك بين العالمين في ماوراء النهر أن الاراضي التي يقوم عليها كلا النظامين كانت متجاورة تنعدم بينها الحدود والحواجز الطبيعية ، وتجعل الانتقال من عالم البداة الى عالم الحضارة لا يشعر به في كثير من الأحيان[١].

لقد اتضحت هذه الصورة بدرجة كبيرة خلال العصر التيموري . فقد ظل المجتمع يعاني من انقسام واضح إلى فئتين متقابلتين ، قبائل الأتراك التي تمثل عنصر البداة ، والعناصر الفارسية والعربية — من سكان ماوراء النهر قبل الغزو المغولي — التي تمثل العنصر المستقر .

إن التنوع والتعقيد في مظاهر الحياة البشرية التي خلقته الظروف السابقة ، يمكن أن يضاف الى عنصر عدم الاستقرار والثبات في الظواهر الجغرافية ، ليفسر لنا جانبا آخر من جوانب الحياة البشرية ، في هذه البلاد . فالهزات الارضية التي لا تزال تنتاب المنطقة من وقت لآخر[٢] وماينجم عنها من كوارث وتبدل مفاجيء لمعالم الحياة على سطح الارض، ثم الأثر التدميري العنيف للرياح التي تعصف بشدة فتعبث بتضاريس الصحراء . ويضاف إلى ذلك أيضا التغيرات المناخية المفاجئة ، ولاسيما من ناحية درجة الحرارة ، بين يوم وآخر . إن كل ذلك قد أدى الى إعطاء سكان الصحراء الذين كان منهم أولئك الذين ساروا خلف تيمور ، فيما بعد ، فكرة التغيير والتحول وعدم الاستقرار ، ورسخت في أذهانهم انطباع القسوة والمعاناة والثبات أمام أي نوع من الغوائل التي يتعرضون لها . لقد بدت هذه القسوة في أعمالهم عندما تداعت أمامهم مدن من العالم المتحضر ، كبغداد ودوبلهي ودمشق . وظهرت قدرتهم الفائقة على احتمال المكاره ، وهم يقطعون صحراء الجوع[٣]، وفيافي القبجاق وراء اعدائهم . لقد غرس عالم الصحراء الممتد الصامت في نفوسهم إحساس الحذر والترقب ، وجعلهم يشعرون بالمزيد من عدم الثقة في كل طاريء يدخل على حياتهم ، أو زائر يدلف إلى عالمهم ، وجعل الأخبار والشائعات تسري بسرعة في عالم البراري المقفر ودفعهم الى الاعتقاد بأن من يعبر الصحراء لابد أن يأتيهم بشر مستطير ، فهو ما أمير قوي يريد أن يفرض عليهم سلطته ، أو طريد يلاحقه أعداؤه ، وعليهم في كلا الحالين الامتناع عن تقديم أي عون له ، حتى لا يجعلوا من أنفسهم وعيالهم ومنازلهم هدفاً للأذى[٤] . وهكذا كان موقف سكان الصحراء في أيام تيمور الاولى ، عندما كانت ظروف الصراع على السلطة في ماوراء النهر تضطره أحيانا إلى الفرار من أعدائه إلى هناك، فقد جاء في مذكرات تيمور أنه تعرض في عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦٢ م ، عندما كان يعبر الصحراء في قلة من أتباعه ، لأن يسرق اللصوص بعض خيولهم خلال الليل ، ولم يبق معهم منها إلا أربعة رؤوس، وكانوا سبعة رجال . ولما اقتربوا من مضارب قبيلة تركمانية كانت في طريقهم ، أبت مساعدتهم وكادت أن تفتك بهم ، لولا أن واحداً من أفرادها عرف تيمور ، لأنه كان صديقاً قديماً له[٥] .

(١) : D'Almida : op. cit. P. 268 (٢) : سجل في عام ١٨٩٣ (٧٣) يوما وقعت فيها هزات عدا عن الهزات المتفرقة كهزة عام ١٩٠٢ في فرغانة وهزة عام ١٩٠٧ في جنوب جبال حصار أنظر: D'Almida : op. cit P. 273

(٣) : Prawdin op. cit P. 210 (٤) : Prawdin: op. cit. P. 181

(٥) : Stewart: op. cit P. 62

إن حياة الصحراء بتقاليدها القائمة على تمجيد القوة الجسمية والفروسية واتقان استخدام مختلف الأسلحة ، قد أدت بسكانها إلى الشعور بنوع من الزهو والخيلاء • وقد دفع هذا الشعور أولئك السكان إلى الاعتقاد ، على الرغم مما يعانونه من شظف الحياة ، بأنهم أرفع منزلة من المزارع المستقر في أرضه ، أو قاطن المدينة في مدينته ، وأن الفضائل الإنسانية المتمثلة بالرجولة والشجاعة إنما هي قاصرة عليهم دون غيرهم ، فهم متكبرون قساة متعصبون لعالمهم وتقاليدهم ، ويرون أن الخارج على هذه التقاليد والعادات إنما يأتي عملا مستهجنا [1] • ولذلك فان حضارة العالم المتمدن لم تستطع أن تغري أتباع تيمور ، للتخلي عن هذه العادات ، خلال غاراتهم عليه ، بل ظلت الصحراء بما كان يقوم فيها من تقاليد ، تمثلت بشريعة "الياسا" التي وضعها جنكيزخان من قبل ، تشدهم إليها • وتمنعهم من التحول إلى عالم الحضارة الذى ظل يبدو لهم عالما غريبا عن طبيعتهم •

(1) : Lamb : op. cit. P. 55

* الفصل الثالث *

ماوراء النهر في العصور القديمة ومطلع العصر الوسيط

العصور الحجرية ـ الساكاسكيث ـ التأثير اليوناني ـ الهيونغ نو و الطوخاريون ـ الدولة الكوشانية ـ الهياطلة ـ الصغد ـ الأتراك التوكيو ـ الصغد تحت الحكم التركي الديانة ـ المسيحية .

العصور الحجرية

تشكل بلاد ماوراء النهر اليوم ـ كما نعلم ـ جزءاً من الاتحاد السوفييتي ، ولذلك كانت المنطقة تقع في مجال اهتمام علماء الآثار السوفييت ، في الوقت الحاضر . وقد دلت التنقيبات الأثرية ، التي قام بها هؤلاء ، أن بلاد حوض البحر المتوسط ، قد مارست عبر إيران وبلاد القفقاس ، تأثيراً حضارياً على بلاد ماوراء النهر ، خلال العصر الحجرى القديم . واكتشفت في الجزء الشمالي الغربي من البلاد بقايا حضارة ، يرجع تاريخها إلى مابين ٥٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ ق . م ، تبرز فيها عناصر حضارية ، لبلاد البحر المتوسط . واستمر سكان آسية الوسطى ، (ومنها ماوراء النهر) يعملون بالصيد وجني الثمار ، خلال العصر الحجرى المتوسط والعصر الحجرى الحديث[١] . وظل الرعي يشكل الحرفة الرئيسية للسكان ، حتى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، إلى جانب استعمال المعادن ، الذى يُرجّح أنه جاءهم من إيران[٢] . ومنذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد يظهر أثر اللغات الهندية الاوربية[٣] . وكان أقدم من عرف من سكان البلاد العناصر الفارسية ، التي أُطلق عليها بارتولد ،، العناصر الإيرانية الأولى[٤] ، (Preo-Iranians) . وكان من أبرز هذه العناصر شعب بدوى يدعى شعب الـ" ساكا " (Çaka)

الساكاسكيث

الذي يعزى إليه إقامة أول حكومة في تاريخ ماوراء النهر في حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد . ويظهر أنه من المتعذر في الوقت الحاضر ، تحديد المناطق التي كانت تسكنها ، في ذلك الوقت ، عناصر تنتمي إلى الأصل التركي ، والمناطق التي كانت تسكنها عناصر ترجع إلى الأصل الفارسي[٥] . ويلح غروسيه ، على أصل الساكا الآري ، ويدعوهم بـ " ساكا ـ سكيث " (Çaka-Scythe) ، ويقول إن هؤلاء قد حملوا معهم ، عندما قدموا إلى ماوراء النهر ، بعض مظاهر الحضارة الآشورية ـ البابلية[٦] . وعلى الرغم من أصلهم الآري ـ إذ يصنفهم علماء اللغات حالياً بين الشعوب الإيرانية فإن طراز حياتهم كان يشبه طراز حياة القبائل التركية والمغولية ، بسبب الخضوع إلى ظروف طبيعية متماثلة ، كانت تسيطر في مختلف مناطق آسية الوسطى ، الممتدة من قزوين حتى منغوليا[٧] . وظل القسم الأعظم من الساكا ـ سكيث يقيم في أجزاء آسية الوسطى المختلفة ، بينما اندفعت موجات منهم بين ٧٥٠ ـ ٧٠٠ ق . م نحو سهوب سيبريا الغربية . وذكر هيرودوت أن الملك

(١) : Helena Kouzmina : Nouvelles decouvertes archeologiques en Asie Centrale (Revue Historique (497) 1971) P.6-7

(٢) : Kouzmin : op. cit. P. 10-11

(٣) : Kouzmina : op. cit. P. 11

(٤) : Barthold : Four Studies on the History Of Central Asia P. 1

(٥) : Barthold : ibid

(٦) : Wilber : op. cit. P.26

(٧) : Grousset : L'Empire des Steppes P. P. 34-36

كورش قد غزا بلادهم حوالي ٥٢٩ ق.م [١] . ويقول بارتولد : إن الطابع الآري كان واضحاً في جنوب ماوراء النهر ، حيث ظل يتعزز بقدوم العناصر الآرية من إيران ، وأضحى هذا الطابع قوياً في مناطق بخارى وسمرقند وفرغانه ، حيث قامت مع مرور الأيام في هذه المناطق ، زراعة متقدمة ومدن عامرة بالسكان ، وقد تكلمت المصادر الصينية ، التي ترجع إلى مابعد القرن الثاني قبل الميلاد عن زراعة الكرمة وصناعة الخمر [٢] . وزال التأثير الآري من الشمال الشرقي للبلاد بسرعة ، وأخذت الصبغة التركية بالظهور في تلك المنطقة نتيجة تسرب القبائل البدوية التركية إليها . واتخذ زحف هذه القبائل على ماوراء النهر اتجاهاً ، من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب [٣] .

ويضيف بارتولد ، إن الحفريات الأثرية تؤيد ذلك ، إذ ثبت أن شرقي تركستان لم يكن أصلا آهلا بالأتراك ، ولكنه تترك على مر الايام ، وكان بروز الطابع التركي وتحضر الأتراك البداة ، يسيران جنباً الى جنب في تلك المناطق ، في اتجاه واحد من الشرق الى الغرب [٤] . وقد تركت هذه الحركة أثراً فيما كتبه الباحثون المسلمون في العصر الوسيط ، فقد أشار ابو بكر النرشخي ، وهو من كتاب القرن العاشر الميلادى (توفي ٩٥٩ م / ٣٤٨ هـ) إلى ارتباط هاتين الحركتين اللتين وقعتا في العصور القديمة ببعضهما، فقال إن الناس قد أقبلوا في الماضي إلى موقع بخارى من ناحية تركستان ، وكانوا أول أمرهم يقيمون في الخيام ، ثم تجمعوا وارتقت حالهم فبنوا العمائر [٥] .

التأثير اليوناني

وتعرضت ماوراء النهر منذ آخر القرن الرابع قبل الميلاد، لهجوم اليونانيين بقيادة الاسكندر المكدوني الذى أخضع المنطقة لحكمه ، وانتقل النفوذ فيها من بعده إلى خلفائه السلوقيين . وأقيمت في العهد اليوناني ـ السلوقي عدة مدن في ماوراء النهر ، تحمل اسماء يونانية كالاسكندرية وانطاكية وسلوقية . وأقيم بعض هذه المدن على ضفاف سيحون ، ليكون ثغورا للدفاع ضد غارات القبائل البدوية التورانية . وكانت سياسة الحكم اليوناني ـ السلوقي في ماوراء النهر ، قائمة على تقليل نفوذ الحكام المحليين ، الذين كانوا يمارسون سلطانهم ، من حصونهم الخاصة . ولم تلبث البلاد أن خرجت من نفوذ السلوقيين ، في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، وقامت فيها مملكة يونانية أسسها أحد قواد الاسكندر ، وكانت عاصمة هذه الدولة الجديدة مدينة " بلخ " ، التي دعيت في ذلك الوقت " بكتيريا " ودعيت المملكة ذاتها بالاسم نفسه . وامتد نفوذ مملكة بكتيريا اليونانية إلى سمرقند وبخارى ، وكانت نهاية هذه الدولة على يد بعض القبائل البدوية الزاحفة من الشرق خلال القرن الثاني قبل الميلاد [٦] .

الهيونـ... والطوخا...

وتبدأ ، اعتباراً من هذا التاريخ المصادر الصينية ، بإمدادنا بالمعلومات عن تاريخ آسية الوسطى وما وراء النهر . ويعتبر ذلك العصر ـ القرن الثاني قبل الميلاد ـ عصر نشاط للقبائل الآسيوية . وقد ترتب على حركة هذه القبائل في ذلك التاريخ ، إعطاء الأساس للوضع البشرى الحالي في تلك المناطق من قلب آسية [٧] . وتشير المصادر الصينية التي لفتت نظرها تلك الحركة

(١) : Grousset: op. cit. P. 37 (٢) : Barthold : op. cit. P. 4

(٣) : Codrington : op.cit.P.36 and Barthold : op. cit. P. 1

(٤) : بارتولد : تاريخ الترك ص٣٦ (٥) : ابو بكر النرشخي : تاريخ بخارى ص١٩ـ٢٠

(٦) : Barthold : op. cit. P. 34 (٧) : Spuler : Les Mongols dans l'Histoire P.12

إلى تقدم هذه القبائل على شكل موجات متلاحقة . وقد أطلقت هذه المصادر على هذه القبائل البدوية ، اسماً عاماً هو ، " هيونغ ـ نو " (Hiong- nou) . وتردد هذا الاسم في الحوليات الصينية ، ووصف الهيونغ ـ نو في هذه المصادر بأنهم جماعات من البرابرة يجاورون الصين من ناحية الغرب [١] . وفي الواقع فإن الهيونغ ـ نو كانوا بدوًا رحلاً ، يربون البقر والجمال والخيول والأغنام ، ويتجولون مع حيواناتهم بحثاً عن الماء ، ويسكنون الخيام ، وقد جاوروا حدود الصين الغربية منذ ٧٥٠ ق.م . ولما أخذت قوتهم بالازدياد ، قام الصينيون ببناء سور الصين العظيم في آخر القرن الثالث قبل الميلاد ، في عهد أسرة " تشين "(chin) اتقاءً لشرهم فاندفعوا نحو الغرب طاردين من أمامهم الشعوب الرعوية ، التي كانت قد اندفعت في تاريخ أسبق ، من إيران عبر ماوراء النهر إلى وسط آسية ، فأجبرتها على الارتداد ثانية نحو الغرب [٢] . ويرى غروسيه أنه كان من بين هؤلاء الآريين ، الذين عادوا إلى ماوراء النهر ، الطوخاريون " كما دعتهم الكتابات اليونانية ، وعدتهم من مجموعة الشعوب الآرية ـ الهندية الأوربية ـ ، ويتابع غروسيه حديثه إن شعب اليو ـ ت ـ شه " (Yue-t-ché) كما دعته المصادر الصينية ، هو شعب الطوخاريين نفسه [٣] ، الذي دعاه الصينيون ، أيضا ، فيما بعد " تا ـ هيا " (Ta-Hia) وهي اللفظة التي يرى " جب Gibb " أنها تقابل لفظة طوخاري اليونانية [٤] . وعلى هذا ، يكون شعب الطوخاريين ، قد دُعي من قبل الصينيين باسمين مختلفين ، في وقتين مختلفين [٥] . واستقر الطوخاريون في منطقة تقع إلى الجنوب من نهر جيحون حملت اسمهم فعرفت بـ " طخارستان " ، وقد ظلت هذه التسمية متداولة في العصور الإسلامية [٦] .

رافق قدوم القبائل البدوية من شرق ووسط آسية إلى ماوراء النهر ، عمليات تدمير لمعالم الحضارة هناك ، فخربت أقنية المياه التي كانت تستعمل للري ، وقُتل السكان بوحشية [٧] . ثم لم يلبث أن أخذ هؤلاء بتمثل بقايا الحضارة الهلنستية ، بعد انهيار مملكة بكتيريا اليونانية [٨] .

الدولة الكوشانية

وتمكن إحدى القبائل الطوخارية في منتصف القرن الأول الميلادي من تأسيس سلالة حاكمة دعيت بالسلالة الكوشانية . حكمت امبراطورية امتد نفوذها إلى الصغد شمالاً ، وبعض أجزاء من الهند جنوباً ، ولكن هذه الامبراطورية الكوشانية تنهار في نهاية القرن الثالث الميلادي ، بعد سلسلة من الأزمات السياسية والعسكرية تعرضت لها ، بسبب غارات البدو المتلاحقة على حدودها الشمالية [٩] وقامت على أنقاض الدولة الكوشانية حكومات محلية هنا وهناك [١٠] .

(١): D'Ohsson: Histoire des Mongols depuis ... T. I. P. 2

(٢): Gibb : Arab Conquests in Central Asia . P. 1

(٣): Grousset: op. cit 63

(٤): Gibb: op. cit P. 2

(٥): Grousset: ibid .

(٦): Barthold : Four Studies .P. 5

(٧): يوكنيشيفسكي : المصدر السابق ص ١٤١ .

(٨): Gibb : ibid .

(٩): Oumniakoo et Aleskerou: Samarkand P.15

(١٠): Grousset : op. cit. P. 69 et Gibb: ibid .

وتبدأ في هذا الوقت محاولات الفرس الساسانيين في إيران ، لفرض نفوذهم على ماوراء النهر ، ولكنهم في الغالب لم يوفقوا في ذلك ، لأبعد من بلخ ، إلا في أحيان نادرة[1] ، بسبب ماكان يجمع الحكومات المحلية من روابط جعلتها تقف مجتمعة أمام الأخطار لحماية طريق تجارة الحرير الدولي ، الذى يمر من أراضيها والذي كان يبدأ من الصين وينتهي في بلاد اليونان[2] .

وتتجدد في منتصف القرن الخامس الميلادى ، حركة القبائل البدوية الآسيوية وتندفع في هذا التاريخ قبائل " الهيطل " ـ كما دعتهم المصادر العربية أو "الهفتاليت" "Hephtalites" الهياطلة كما وردت تسميتهم في المصادر اليونانية والبيزنطية[3] ـ من حدود الصين نحو ماوراء النهر وغيرها من مناطق آسية الوسطى ، كما ظهروا في أوربا ، وسمتهم المصادر الأوربية " الهون " (Huns) وربما كان الهفتاليت فرعاً من فروع الهيونغ ـ نو ، الذين اختفوا كشعب ولكن بقوا كزعماء ومؤسسين لبعض السلالات الحاكمة في آسية الوسطى[4] . وكان الهيطل شعباً بدوياً ذا تنظيمات عسكرية[5] ، اخضعوا لحكمهم في ماوراء النهر ، المناطق التي كانت خاضعةً لحكم امبراطورية الكوشان سابقاً . وكانت عاصمتهم مدينة " تالاس " التي ذكرتها المصادر العربية باسم " طراز "[6] . وهي اليوم مدينة " أوليا آتا " التي تقع إلى الشمال الشرقي من بلاد ماوراء النهر[7] . وكان وادى الصغد من المناطق التي خضعت لحكم هؤلاء ، فاحتلوا سمرقند أحدى مدنه الرئيسية ، عام ٤٤٠ م[8] . وتجاوز نفوذهم نهر جيحون إلى الجانب الآخر ، فامتد إلى هيرات ومرو في خراسان وبلغوا من القوة حداً أجبر الساسانيين على دفع الجزية لهم . وتعهد أحد ملوكهم وهو فيروز الاول (٤٥٩ ـ ٤٨٤ م) بعدم مهاجمة بلادهم ، ولكنه لما نكث بعهده وباد لقتالهم ، عام ٤٨٤ م ، لقي حتفه مع عدد كبير من رجاله في المعركة ، وأسرت إحدى بناته ودخلت في حريم خان الهياطلة[9] . وظل الساسانيون يدفعون الجزية للهياطلة ، مدة من الزمن ، إلى أن نجح " كسرى انوشروان " (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) بالقضاء على دولتهم ، بين عامي ٥٦٣ و ٥٦٧ ، مستغلا الظروف الصعبة التي كانت تعانيها بسبب غارات القبائل التركية[10] .

---

(١) : Gibb : ibid .

(٢) : Barthold : Four Studies .. p. 6 and Gibb : op. cit. P. 5

(٣) : Barthold : ibid

(٤) : Cordier : Turks et byzance P.23 et Grousset:op. cit. 110

(٥) : Gibb : P. 3

(٦) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص٥٨ هذا وقد ذكر الأب انستاس كرملي أن عاصمتهم كانت مدينة " ورغجن " التي ذكرها ياقوت الحموى وقال عنها إنها من قرى نسف جنوب ماوراء النهر (أنظر مقالته الهياطلة في مجلة الشرق " العدد ٧ شباط ١٩٠٧ ص١٢٤ ـ ١٢٧) .

(٧) : Barthold : ibid. and Gibb: ibid .

(٨) : Grousset: op. cit. P. 111

(٩) : كريستنس : إيران في عهد الساسانيين ترجمة الخشاب ص٢٧٩ ـ ٢٨٠

(١٠) : كريستنس : المصدر السابق ص٢٨٣ و ٣٠٨ .

المغـــد

إن تتابع غارات القبائل البدوية الآسيوية ، على ماوراء النهر_ اعتبارا من القرن الثاني قبل الميلاد _ لم يؤثر على العناصر ذات الأصل الإيراني ، التي كانت موجودة في هذه البلاد والتي ظلت تتشبث بالأماكن التي كانت تسكنها . وربما كانت جماعات الصغد الذين حلوا في المنطقة التي حملت اسمهم ، وهي حوض نهر زرفشان الحالي _ بين بخارى وسمرقند _ باعتبارهم عناصر إيرانية ، أحفادا للسكيث الآريين الذين كانوا قدموا الى ماوراء النهر ، منذ منتصف الألـــف الثالثة قبل الميلاد . فقد أشار " ولبر " (Wilber) إلى أن السكيث والصغد ، هما من جنس واحد ، وأن كلا الشعبين يرجعان إلى أصل واحد هو الأصل الآري(١) . ولا يحدد بارتولد ، في مقالته عن الصغد في الموسوعة الإسلامية تاريخ ظهورهم في ماوراء النهر(٢) ، ولكنهم كانوا فـي جملة الأقوام التي خضعت لأحد ملوك الفرس الأخمينيين ، وهو " داريوس الاول "(٥٢١_٤٨٦ ق.م) ويظهرهم أحد النقوش الغائرة الموجود على قبره بين شعوب آسية الوسطى التي كانت تخضع للحكم الفارسي آنذاك . وكان لهؤلاء في الماضي دورا في مملكة بكتيريا اليونانية(٣) . وتعرضوا فـي القرن الثاني قبل الميلاد لضغط شعوب اليو_ت_شه ، التي أغارت على ماوراء النهر(٤) . ويرد ذكر الصغد ، بين الشعوب التي خضعت لحكم الامبراطورية الكوشانية . وقد ساهم هؤلاء في تقويض صرح هذه الامبراطورية، ولذلك تهدمت بسبب ذلك أسوار سمرقند ، مدينة الصغـــد الرئيسية ، وأعيد بناؤها من جديد(٥) . وخضع الصغد في القرن الخامس الميلادى لحكم الهياطلة الذين حلوا في ماوراء النهر، واستمروا في نشاطهم التجارى الذى اتسع نطاقه تحت حكم هـؤلاء فوصل الى أوربة . وأصبحت اللغة الصغدية ، وهي لهجة قريبة من الفارسية ، عرفت بلغة إيــران الشرقية(٦) ، لغة دولية في مناطق آسية الوسطى المختلفة مابين سور الصين العظيم وسمرقنــد ، اعتبارا من القرن الاول الميلادى(٧) .

الأتراك التوكيـو

وتجتاز ماوراء النهر خلال القرن الأول من قرون العصر الوسيط مرحلة هامة، وذلك عنـــد قيام أول دولة للأتراك امتدت حدودها من تخوم الصين إلى البحر الأسود ، شاملةً ماوراء النهر . ويعتبر الأتراك أحفاد الهيونغ_نو(٨) . وكانوا قد استقروا بعد مغادرتهم تخوم الصين الغربية ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، في أحد أجزاء جبال ألتاي الآسيوية ، حيث عرفوا هناك باســم جديد ، هو " توكيو " (Tou-Kiou)وتعني هذه اللفظة في لغتهم (الخوذة) ، لأن المكان

(١) : Wilber: op. cit. 26

(٢) : Barthold : Soghed . (E. I. T. IV P.P.493-494) P. 493

(٣) : Barthold : Four Studies .. P.P. 2 - 4

(٤) : Gibb : op. cit. P. 2

(٥) : Oumniakoo et aleskerou _ op. cit. P. 15

(٦) : Gibb : op. cit. P. 1

(٧) : كريستنس: المصدر السابق ص٣٣ _ ٣٤

(٨) : هذا ويرى هوورث أن الهيونغ _ نو ليس إلا الاسم الآخر للترك، انظر مؤلفه :

Howorth: History of the Mongols . Part I P. 31

الذي حلوا به في تلك الجبال كان على هذا الشكل . ويبدي بارتولد تحفظاً في تفسير كلمة توكيو ، على أنها تعني الترك ، ويقبل بكلمة "توركوا" (Turkoi) ، الواردة في المصادر البيزنطية ، على أنها أحد الأشكال القديمة للفظة الترك[1] .

وتلحق الأبحاث التقليدية التي تأثرت بما روته التوراة الأتراك ، بأبناء يافث بن نوح ، فأشار ميشيل السوري في الكتاب الرابع عشر من التاريخ الذى ألفه ، إلى أصل الأتراك فقال : "شعب "توركايه" (Turkaye) هو من سلالة يافث من أبناء نوح ، انحدروا من أبناء يافث المدعو" ماغوغ " (Magog) وانتشروا في هذه الأرض التي تقع إلى الشمال الشرقي"[2] ، دون أن يحدد المنطقة بشكل كامل ويبدو أنها إلى الشمال الشرقي من سوريا بلد المؤرخ ، وأشار إلى مثل ذلك ابن خلدون ، فقال : إن الترك من أولاد يافث بن نوح ، وكانوا يسكنون المناطق الشمالية . ولكنه أخذ يتساءل عن مدى صحة هذا النسب[3] . ويذكر الأب لويس شيخو في إحدى مقالاته[4] ، إن الأتراك من العنصر اليافثي ، وهم أخوة الشعوب الأوربية ، ويضيف بأن لفظة التوكيو التي تعني الترك ، هي لفظة صينية الأصل ، وقد جاءت على هذا الشكل ، لأنه لا يوجد في اللغة الصينية حرف "الراء" .

وفي الواقع فإن الأبحاث الحديثة تشير إلى التشابه بين الترك والمغول ، في المراحل الأولى لظهورها على مسرح التاريخ ، لدرجة جعلت التفريق بينهما في تلك الآونة ، أمراً صعباً[5] ولكن الاختلافات أخذت تظهر بين الطرفين بالتدريج على مر الأيام[6] .

عاش التوكيو في أماكنهم الجبلية في آلتاي حياةً صعبة . ولكنهم لم يلبثوا أن اندفعوا في حركة جديدة نحو المناطق الزراعية في مطلع النصف الثاني للقرن السادس الميلادى . وكانت هذه الحركة مناسبة لقيام أول امبراطورية تركية معروفة في التاريخ[7] . وقد تضافرت عدة عوامل على دفع الأتراك إلى مغادرة منازلهم في جبال آلتاي ، منها شظف العيش في هذه المنطقة الفقيرة من قلب آسية وتكاثر أعدادهم على مر الايام ، ثم ماكانوا يلاقونه من ظلم بعض

---

(١) : بارتولد : تاريخ الترك . ص ٣ .

(٢) : Cordier: op. cit. P. 24

(٣) : ابن خلدون: كتاب العبر م ٥ ص ٦ والتعريف بابن خلدون ص ٣٥٤ .

(٤) : الأب لويس شيخو : النصرانية بين قدماء الترك والمغول مجلة الشرق العدد العاشر تشرين الأول عام ١٩١٣ صفحات ٧٥٤ — ٧٧٢ .

(٥) : Howorth ibid .

(٦) : Spuler : op. cit. P. 11

(٧) Perroy et sescompagnons: P. 80 وأشير إلى السبب المباشر لحركة الترك أن الجوان جوان عام ٥٤٦ م طلبوا مساعدة التوكيو ضد أعدائهم ولما قام التوكيو بما طلب منهم طلبوا يد إحدى أميرات الجوان جوان لأميرهم "بومين" (Boumin) فرفض الطلب ولذلك تزوج بومين عام ٥٥٠ م من إحدى أميرات البيت المالك الصيني وأغار بتشجيع الصين عام ٥٥٢ م على الجوان جوان وسحق رئيسهم انظر :

Cordier : op. cit. P. 24-25 et Gibb : op. cit. P. 3 .

حكامهم[١] • وكانت المناطق الزراعية تغريهم على القدوم والإقامة فيها بسبب ما استطاعت هذه المناطق أن تحققه من رخاء للجماعات الزراعية المستقرة فيها • وقد بلغ هذا الرخاء حداً أضعف معه قدرة هذه الجماعات المستقرة عن الدفاع بسبب ميلها إلى حياة التراخي.ولم تلبث بلاد ماوراء النهر أن اضحت جزءاً من هذه الامبراطورية التركية البدوية بعد أمد قصير •

ويقدم لنا مؤرخ صيني مجهول وصفاً لهؤلاء الأتراك ، في نص كتب عام ٥٨١ م — أي بعد انطلاقهم من آلتاي بواحد وثلاثين عاماً — فيقول : "إنهم يتركون شعورهم مسترسلة ، وينامون في خيام مصنوعة من اللباد وينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والمرعى ، وعملهم الرئيسي الصيد وسلاحهم السهام ذات الصفير والدروع والرماح والسيوف ، ويتمنطقون بأحزمة مزخرفة بزخارف مفرغة • وكان يحلو لهم الموت في ساحات القتال • ويخجلون من أن يموتوا من المرض"[٢] • ويوصف الأتراك أيضا ، بأنهم كانوا لا يوقرون الكبير وقد انطوت نفوسهم على كثير من الخبث والمكر ، وليس لديهم إحساس بالعدالة ، ولا يتأخرون عن ارتكاب الأعمال الوحشية المخيفة، على الرغم مما يحيطون به أنفسهم من مظاهر التحضر[٣] • وسوف نجد أن هذه الصفات التي ذكرت لقدماء الأتراك ، قد كانت أيضا لأحفادهم الأتراك الجغتائيين ، من أتباع تيمور •ويصدق هذا الحكم على كل من الصفات الخلقية ، والمظهر الخارجي ولاسيما عادة ترك الشعر مسترسلا[٤] حتى الكتفين •

امتدت حدود الامبراطورية التركية هذه ، مابين بيزنطة والصين • ونقلت أخبارها إلينا المصادر الصينية ، والفارسية الإسلامية ، وكذلك المصادر البيزنطية[٥] • ونجح الصينيون، الذين أخافهم ازدياد قوة جيرانهم الجدد ، ببذر بذور التفرقة بسرعة بين الأتراك • فلم يلبث هؤلاء أن

---

(١) : كان الأتراك يخضعون عند إقامتهم في جبال آلتاي لحكم دولة الجوان جوان (Jouan - Jouan) وهم فرع من القبائل المغولية انظر:

Perroy et ses compagnons: op. cit. III P. 80

(٢) Perroy et ... : op. cit.TIIIP.P.83-64 هذا وقد أورد اليعقوبي في كتابه "البلدان" وصفاً لهؤلاء الأتراك ، ينطبق إلى حد بعيد على ما أورده المؤرخ الصيني • فقال : "ولكل جنس من الترك مملكة منفردة ويحارب بعضهم بعضاً ، وليس لهم منازل ولا حصون وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة ، ومساميرها سيور من جلد الدواب والبقر، وأغشيتها من لبود ، وهم أحذق قوم بعمل اللبود لأنها لباسهم وليس بترك استان زرع الا الدخن وهو الجاورس ، وإنما غذاؤهم ألبان الحجور (أناث الخيول) ويأكلون لحومها ، وأكثر ما يأكلون لحوم الصيد ••" انظر : اليعقوبي كتاب "البلدان" ص٢٩٥ •

(٣) : Cordier : op. cit. P. 24. et Perroy et...T III: ibid .

(٤) : يقول "بيروا" (Perroy) إن هؤلاء الأتراك ليسوا بدواً تماماً لأن ملوكهم كانوا يقيمون في عواصم مستقرة ، قائمة في مناطق ينابيع المياه والمراعي ، وبيوتهم خيام اللباد. ثم ينقل على لسان أحد الرحالة الصينيين يدعى "سونغ — ين" (SOng-yun) أن ملوك الترك كانوا يلبسون ثيابا حريرية ويجلسون على أسرة من الذهب ، وكذلك فإن زوجة الملك الكبرى تلبس الحرير أيضاً ، وتسحب وراءها ذيلاً ، ويسير وراءها شخص مكلف برفع طرف هذا الذيل •• انظر : Perroy et .... : op. cit. T. III P. 8

(٥) : Barthold : Four Studies ... P. 7

انقسموا على أنفسهم ، وإنفصل الأخ الأصغر للخاقان " بومين " ويدعى " استمي "[١] (Estemi) الذى حمل في بادئ الامر لقب " يابغو (Yabghou) " أي أمير ، وأخذ يعمل مستقلا عن أخيه ولذلك انقسمت امبراطورية الترك إلى قسمين : دولة الترك الغربية التي قامت نتيجة الحروب التي قام بها استمي في الغرب ، ودولة الأتراك الشرقية . ولكن الصلات لم تكن مقطوعة بين الدولتين . وبعد أن وطد استمي نفوذ الأتراك في حوضي نهري ايلي وتشو[٢] أصبحوا يجاورون مملكة الهياطلة في ماوراء النهر . ولما كان الفرس الذين كانوا يجاورون الهياطلة من ناحية الجنوب والاتراك الذين اصبحوا يجاورونها من ناحية الشمال الشرقي يطمعون في أراضي هذه المملكة ، ولذلك فقد دارت المفاوضات بين الخان التركي استمي وكسرى انو شروان ملك الفرس (٥٣١ ــ ٥٧٩ م) وانتهت بالتحالف بين الطرفين ضد الهياطلة ، وتأكيداً لهذا التحالف فقد تزوج أنو شروان من ابنة استمي[٣] وقام الفرس والترك بغارات مشتركة بين عامي ٥٦٣ ــ ٥٦٧ م وانتهت بتقويض ملك الهياطلة ، واقتسم المنتصرون أملاكهم واصبح نهر جيحون منذ ذلك التاريخ الحد الفاصل بين توران الخاضعة للحكم التركي وإيران الفارسية[٤] .

---

(١) : Cordier : op. cit. P. 25 هذا وتدعو المصادر الصينية استمي بهذا الاسم (Che-tce-mi) انظر Grousset : op. cit. P.177 أما المصادر البيزنطية فتدعوه انظر Gibb : op.cit.P.3 وورد اسمه عند الطبري سنجيبو انظر الطبري ج ١ ص ٥٢٦ .

(٢) : Gibb : ibid .

(٣) : Cordier : ibid

(٤) : Grousset: op.cit.P. 127 et Gibb : ibid .
هذا وقد لعبت دولة الأتراك الغربيين التي كانت ماوراء النهر تخضع لحكمها ، دوراً هاماً في السياسة الدولية في ذلك الوقت . وساهمت في الصراع الذى كان مستعرا بين الفرس الساسانيين والبيزنطيين وأرسل استمي مبعوثيه إلى البلاط البيزنطي ، كما استقبل في مقر إقامته الصيفي في جبال تيان شان مبعوثي الامبراطور البيزنطي . وبناء على طلب البيزنطيين أغار استمي عام ٥٧٠ م على إيران ، ولكن حليفه القديم كسرى انو شروان تمكن من صده . واستمرت الحروب بين الفرس والبيزنطيين مدة طويلة بين عامي ٥٧٢ ــ ٥٩٠ م وساهمت هذه الحروب في إضعاف الدولتين مما جعلهما بعد أقل من نصف قرن لا تقويان على الدفاع أمام زحف الجيوش العربية ، بعد ظهور الاسلام . وتوفي استمي الذى يعتبر جد الأتراك الغربيين عام ٥٧٦ م وقام ابنه " تاردو " (Tardou) باجتياز جيحون وقاتل الفرس واستولى على طخارستان وبلغ هيرات عام ٥٨٨ ــ ٥٨٩ م وحاول في عام ٥٩٩ توحيد دولتي الترك الغربية والشرقية في دولة واحدة . ولكنه لم يفلح بسبب دسائس الصين . وأضعفت الحروب التي قامت بين الأتراك الغربيين والشرقيين كلا الدولتين . وانفرط عقد دولة اتراك الغرب عام ٦٣٠ م بقتل ملكها ، فتفرقت الى قبائل . وخضع الأتراك الشرقيون في التاريخ نفسه لحكم الصين في عهد أسرة " سونغ " (Soung) . ولم يلبث الأتراك جميعاً . أن تخلصوا من حكم الصين وتولت زعامة الأتراك الغربيين منذ آخر القرن السابع الميلادي ، قبيلة التركش " (Turguesh) " التركية وحمل شيوخها لقب خاقان الأتراك الغربيين ولم يلبث الاتراك الشرقيون أن اغاروا على خانية الأتراك الغربيين واستلحقوها بنفوذهم مابين : ٧١ ــ ٧٢٠ م وسيعود الأتراك الغربيون بعد الى استقلالهم هذا التاريخ انظر لكل ذلك :

Grousset:op.cit.129-136, Cordier: op. cit. P. 27 et
Barthold : Turkestan down The MongolInvasion P. 192 .

وبدأت منذ ذلك التاريخ هجرة الأتراك إلى ماوراء النهر ، ويقول " جب " عن هذه الهجرة أنها كانت في الغالب على شكل جماعات صغيرة ، تتسرب مع قطعانها باتجاه الجنوب والغرب بحثا عن المراعي ، ووصلت بعض هذه الجماعات إلى مابعد بوابة الحديد ، في الجزء الجنوبي الغربي من ماوراء النهر[١] ، ولذلك فإن تترك البلاد لم يكن تاما وواضحاً في ذلك الوقت[٢] .

وظل الصغد يشكلون العنصر الغالب والمتحضر بعد أن ذابت عناصر الهياطلة في مجموع السكان . وكانت منطقة إقامة الصغد الرئيسية، وهي التي تحمل اسمهم ، تقع بين بخارى وسمرقند، كما سكن الصغد أيضا وادي فرغانة الخصيب[٣] . وكانت البلاد من الناحية السياسية تخضع لحكم حكام محليين يسمون " بالدهاقين " ، تنتقل سلطاتهم بالوراثة ، ويخضعون لأكبرهم سلطة ، كأمير سمرقند أو أمير فرغانة ، اللذين كان كل منهما يحمل لقب " اخشيد " وكان صغار الدهاقين يعيشون في إماراتهم الصغيرة في حصون يمارسون منها سلطاتهم على المناطق المحيطة بهم ، باعتبار أنهم ملاك لهذه الاراضي . ويضم الجميع اتحاد للدفاع عن البلاد ، أمام الاخطار الخارجية[٤] وكان أمير سمرقند يتزعم هذا الاتحاد في أغلب الاحيان . وقد كشفت الحفريات الأثرية مؤخراً عن بقايا قصر أمير سمرقند الصغدي في هذه المدينة ، ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن السابع الميلادي[٥] .

وتذكر المصادر الصينية أنه كان على الإمارات الصغدية أن تعلن طاعتها للخاقان التركي وأن تدفع له الضرائب ، وكان الجيش التركي يقوم من وقت لآخر بجولات في المناطق الصغدية ، لتأكيد سلطة الخاقان فيها . كما كان الحكام الصغد يطلبون مساعدة المرتزقة الأتراك ، وكان هؤلاء يعيثون في الأرض فساداً ، وكان الحكام الصغديون — في بعض الأحيان — يرتبطون برباط المصاهرة مع الخاقان التركي . وتضعف سلطات هؤلاء الحكام أحيانا ، ليستحيلوا إلى موظفين لدى الإدارة التركية ، حتى أن بعض الإمارات كان يحمل اسماً تركية، مما يوحي بقوة النفوذ التركي فيها[٦] . وكان الحكام المحليون يعمدون لبناء الأسوار حول مدنهم لحمايتها من غارات المرتزقة الأتراك ، كما اشار الى ذلك المسعودي[٧] .

وتقدم المصادر الصينية والبيزنطية كما نقل بارتولد ، معلومات قيمة عن حياة الصغد ونشاطهم الزراعي ، فتتحدث عن شبكات الري في حوض نهر الصغد ونهر كشقاد ريا إلى جنوبه ، وفي فرغانة ولما مر السائح الصيني " هيوان تسانغ " (Hiuan-Tsang) عام ٦٢٩ — ٦٣٠ م ، في بلاد الصغد استرعي انتباهه امتداد المزارع والمدن العامرة بالسكان[٨] .

: (١) Gibb : ibid .

: (٢) Barthold : Les Turks, (E. I. T. IV P.P. 947-956) P. 954

: (٣) Barthold : Four Studies .... P. 10 .

: (٤) Barthold : op. cit. P. 10-11 .

: (٥) Kouzmina : op. cit. P. 18 .

: (٦) Gibb: op. cit. P.P. 4-6 .

: (٧) المسعودي : التنبيه والاشراف ص٥٧ .

: (٨) Barthold : op. cit. P. 7 .

إن دخول ماوراء النهر وسكانها الصغد ، في نطاق امبراطورية تركية واسعة ، كان دافعاً لهؤلاء ، لاستغلال سعة هذه الامبراطورية لتوسيع نطاق نشاطهم التجاري ، ولاسيما في تجارة الحرير ، فانتشرت لذلك المستعمرات التجارية الصغدية على طول الطريق من الصين عبر منغولية حتى إيران والامبراطورية البيزنطية[١] . وعثر في الصين على وثائق تجارية حررت باللغة الصغدية ترجع إلى تلك الحقبة[٢] . وكان "مانياش" (Maniach) أمير سمرقند الصغدي ، رئيس البعثة التي أرسلها الخاقان التركي ، إلى بلاط الامبراطور البيزنطي "جوستان الثاني" (٥٦٥ — ٥٧٨ م) حيث دارت المفاوضات من أجل فتح الأسواق البيزنطية لتجارة الحرير الصيني الذي كان يحمله التجار الصغديون من الصين بعد إغلاق الفرس أبواب بلادهم في وجه هذه التجارة[٣] . وذكر هيوان تسانغ ، أنه أطلق على باب سمرقند الشرقي باب الصين ، وتحدث عن اتساع رقعة المدينة وبراعة أهلها في الأعمال التجارية[٤] . وتكلم "في — تسه" (Vei-tsé) الذي كان سفيراً لبلاده الصين في سمرقند ، وقد زارها في وقت أسبق وأقام فيها مدة طويلة مابين ٦٠٥ — ٦٤٧ م ، أن الأطفال في هذه المدينة كانوا ينكبون على تعلم القراءة والكتابة منذ سن الخامسة تمهيداً لممارسة التجارة بشكل عملي[٥] . وقد شوهدت على جدران قصر حاكم سمرقند الذي تم اكتشافه حديثاً ، مشاهد استقبال السفراء القادمين من المستعمرات التجارية الصغدية ، المنتشرة في أواسط آسية[٦] .

الديانة

هذا وكانت البوذية أقدم ديانة معروفة في ماوراء النهر ، وقد نفذت إليها من الهند في عهد الامبراطورية الكوشانية . واعتنق الصغد البوذية منذ ذلك التاريخ ولكنهم أدخلوا عليها تغييرات وتعديلات تلائم طبيعة حياتهم[٧] ، وربما كان هؤلاء ممن حملوا هذه الديانة إلى أواسط آسية ، فقد عثر في الحفريات الأثرية التي جرت في بعض أماكن من تركستان ، على نصوص بوذية

---

(١) : Frye : The Heritage of Persia P. 245 .

(٢) : Barthold : Four Studies ... P. 7 .

(٣) : Cordier : op. cit . P. 26 .

(٤) : Oumniakoo et Aleskerou : Samarkand. P. 16 .

(٥) : Oumniakoo et Aleskerou : ibid .

(٦) : Kouzmina : ibid . هذا وبلغ نفوذ الصغد الصين نفسها ، حيث سمح لهم بالانخراط في جيوشها . واستطاع أحد ضباط الجيش الصيني من أصل صغدي أن يعلن الثورة على الامبراطور الصيني عام ٧٥٥ م في منطقة "فان — يانغ" (Fan - Yang) وكاد هذا الضابط الثائر أن يفتك بالامبراطور بمن انضم اليه من انصار من ابناء جنسه ، ولكن الامبراطور طلب مساعدة الايغور وبذلك استطاع النجاة . وقد عثر في صيف ١٩٤٨ في منطقة (Severy - Somon) الواقعة على حدود صحراء غوبي ، خلال تنقيبات بعثة أكاديمية العلوم السوفييتية على نصب نقشت عليه كتابة صغدية ، تمت قراءتها عام ١٩٦٩ تشير الى الأحداث السابقة انظر لذلك :

Kljastornyjs. G. et Alivsic : Une Inscription inedite Turque et Sogdienne (J. A. CCLIX) 1971 P. 11-20

(٧) : Gibb: op. cit. P. 2 .

كتبت باللغة الصغدية[(١)] . ولكن الزردشتية القادمة من إيران أخذت تحل محل البوذية في ماوراء النهر . وكان الانتصار النهائي للزرادشتية على البوذية ، قبيل قدوم الإسلام الى هذه البلاد مع الفتح العربي . ولما مر السائح الصيني هيوان ـ تسانغ عام ٦٣٠ م من سمرقند ، لم يشاهد في بلاد الصغد معابد بوذية ، ولكنه شاهد ديرين بوذيين في سمرقند وكانا خاليين . وكان أتباع الزردشتية في المدينة يمنعون الرهبان البوذيين من الاجتماع بهما، وكانوا يقذفونهم بقطع الحطب المشتعل[(٢)] .

أما الأتراك في أواسط آسية فكانوا يعتنقون الشامانية وهي أول ديانة معروفة اعتنقها هؤلاء . وكانت الشامانية ديانة بدو قلب آسية حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، اعتنقها جنكيز خان وأولاده وبعض أحفاده من أيلخانات إيران . وتقوم الشامانية على الاعتقاد بإله قادر عظيم، ولكن الصلوات لا تؤدى له ، بل إلى آلهة الشر لاتقاء شرها[(٣)] . ولم يلبث الأتراك أن اعتنقوا البوذية الوافدة اليهم من الهند ، موطن نشوئها الأول . وأخذت المانوية ـ وهي الديانة الزردشتية التي أدخل عليها ماني ، أحد المصلحين الفرس / في القرن الثالث الميلادي ، بعض الاصلاحات، تنتشر بين الترك ، اعتبارا من أواخر القرن السابع الميلادي[(٤)] . وكانت المانوية قد انتشرت ، قبل ذلك ، بين الصغد في ماوراء النهر . وتعكس نقوش أورخون الشهيرة[(٥)] ، تعاليم المانوية التي تحرم قتل الانسان وأكل لحوم الحيوانات . وقد ورد في هذه النقوش أن الأمة التي تأكل اللحم ستأكل الأرز ، والبلد الذى يسود فيه القتل سيسود فيه ، فيما بعد ، الأمر بالمعروف[(٦)] . وقد أشار الجغرافيون والبلدانيون المسلمون فيما بعد، الى انتشار المانوية بين الاتراك[(٧)] . وذهب بعضهم إلى أن هذه الديانة هي الغالبة بين هؤلاء[(٨)] .

هذا وكانت المسيحية من الديانات التي عرفها سكان ماوراء النهر ووسط آسية . وقد سبقت الإسلام في الوصول إلى هذه المناطق . ووردت لدى الجغرافيين المسلمين إشارات إلى وجود

المسيحي

(١) : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص ٤١ .

(٢) : بارتولد : تاريخ الترك ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) : أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ٢، ملحق الترك والمغول ص ٣٢٩ . هذا وكان هولاكو مؤسس الدولة الايلخانية وابنهما باقليد يدينان بالشامانية، وأما بقية ايلخانات إيران فكانوا يعتنقون البوذية، إلا أحمد تاكودار فقد اعتنق الإسلام، وأعلن محمود غازان الإسلام دينا رسميا للدولة عام ١٢٩٥ م / ٦٩٤ هـ .

(٤) : بارتولد : المصدر السابق ص ٤٨

(٥) : نقوش أورخون : هي مجموعة كتابات أثرية تعتبر أقدم أثر حفظته الأيام باللغة التركية، كتبه الأتراك عن أنفسهم، ويرجع تاريخ هذه النقوش إلى مابين ٧٣٢ ـ ٧٥٠ م وتتحدث عن تاريخ نصف قرن بين ٦٣٠ ـ ٦٨٠ م اكتشفت هذه النقوش عام ١٨٨٩ عند منابع نهر أورخون في منغولية انظر : Barthold : Four Studies ....P. 8

(٦) : بارتولد : المصدر السابق ص ٤٨ ـ ٤٩

(٧) : المقدسي : البدء والتاريخ ج ٤ ص ٦٥ والقزويني : آثار البلاد ص ٥١٥ .

(٨) : الهمذاني : مختصر تاريخ البلدان ص ٣٢٩ .

مسيحيين بين الأتراك [١] . ويرجع ابن العبري تاريخ دخول المسيحية إلى أرض الترك إلى عهد الامبراطور قسطنطين الكبير (٢٧٤ — ٣٣٧ م) [٢] . ويورد الأب لويس شيخو إشارة ، للفيلسوف والكاتب المسيحي يوستينيوس النابلسي ، (١٠٠ — ١٦٥ م) ، تفيد بأن المسيحية قد انتشرت منذ ذلك التاريخ ، عند بعض عناصر السكيث في أواسط آسية [٣] . ويشير ابن حوقل إلى أنه كان في منطقة الشاش ، في ماوراء النهر ، قرية للنصارى، ويذكر أنه كان لهم أيضا في جنوب سمرقند ، مجمع كانت تقوم فيه قلايات ومساكن [٤] حسنة نزهة . وقال بإن المسيحيين المقيمين في هذه المناطق قد جاؤوا أصلاً من العراق [٥] . ويتفق هذا الرأي مع الأبحاث الحديثة التي ترى أن المسيحية قد نفذت إلى الترك ، عن طريق ماوراء النهر منذ القرن الثالث الميلادي ، على يد بعثات من النساطرة ، قدموا من بلاد الشام [٦] . ويشير الاب شيخو إلى أن جاثليق النساطرة الكلداني بين (٥٤٠ — ٥٥٢ م) ، أنشأ في سمرقند أسقفية ، في منتصف القرن السادس الميلادي ، ويضيف أن المسيحية لم تنتشر على نطاق واسع ، وأن جهد التبشير ظل قائماً على جهود النساطرة دون غيرهم [٧] . هذا ولما نفذ الإسلام إلى ماوراء النهر في مطلع النصف الأول من القرن السابع الميلادي قادماً مع الفتح العربي أدخل البلاد في مرحلة جديدة من تاريخها .

---

(١) : المقدسي : البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٢ وقد قال : " وفيهم [ويقصد الترك] بعض النصارى " . والقزويني : آثار البلاد ص ٥١٥ وقد ذكر أن " من الترك من يدين بالنصرانية " .

(٢) : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٧٩

(٣) : الأب لويس شيخو : النصرانية بين قدماء الترك والمغول " مجلة المشرق العدد العاشر تشرين الاول عام ١٩١٣ صفحات ٧٥٤ — ٧٧٢ .

(٤) : القلايات : شبه الصوامع انظر مقالة حبيب زيات : الديارات النصرانية في الاسلام مجلة المشرق العدد الثالث تموز ايلول ١٩٣٨ ص ٢٨٩ — ٣١٨ .

(٥) : ابن حوقل : صورة الارض ص ٤٠٨ و ٤١٠ و ٤١٦ .

(٦) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٣ .

(٧) : الأب لويس شيخو : المصدر السابق .

الفصـــل الرابـــع

ماوراء النهر في عهـد السيادة العربية
٨٧ـ٢٠٥ هـ (٧٠٦ـ٨٢٠ م)

سمات الفتح العربي ـ العمليات زمن الراشدين ـ الفتح في العهد الأموي ـ ماوراء النهر في العصر الأموي ـ تدخل الصين ـ ظهور القارلوق والغز والطغزغز ـ ماوراء النهر في العصر العباسي ـ ثورة رافع بن الليث .

سمات الفـ العربـــ

كان للفتح العربية في ماوراء النهر ، التي بدأت منذ منتصف القرن السابع الميلادى ، أثر كبير في تاريخ هذه البلاد ، والبلاد التي تليها في وسط آسية . حيث كانت تقوم امبراطوريتا الأتراك الشرقية والغربية . ولم يقتصر عمل العرب على إخراج ماوراء النهر من دائرة النفوذ التركي لحقبة طويلة من الزمن ، بل كان لهذا العمل تأثير واضح على امبراطوريتي الأتراك في قلب آسية ، واضطر الأتراك الشرقيون ـ بسبب الفتح العربي ـ للانسحاب من ميدان الصراع ونفضوا أيديهم من محاولات العمل على إرجاع ماوراء النهر لنفوذهم ـ ولم تلبث أن انهارت امبراطورية الأتراك الغربيين بعد الهزائم التي حلت بها خلال محاولاتها لإيقاف التقدم العربي في ماوراء النهر، وانحلت إلى قبائل متفرقة نزلت على طول حدود ماوراء النهر التي اخضعها العرب لحكمهم . وفضلا عن ذلك فقد أحدث انضواء ماوراء النهر تحت الحكم العربي، تعديلاً واضحاً في عناصر السكان في مجتمع تلك البلاد ، بسبب ماسبق الفتح العربي أو رافقه أو تلاه ، من هجرات للعناصر الفارسية والعربية ، من إيران وغيرها من مناطق الامبراطورية العربية للإقامة في ماوراء النهر . ورافق ذلك أيضا انتشار الإسلام بالتدريج بين سكان البلاد ، وتراجعت أمام هذا الدين العقائد الدينية الأخرى التي كان يدين بها أهل البلاد .

كانت موجة الفتح العربية ثاني موجة غازية تأتي إلى ماوراء النهر من الناحية الغربية ، بعد حملة الاسكندر في العصر القديم (١) . وقد اصطدم العرب عند قدومهم إلى هذه البلاد بعدوين هما : الصغد الذين كانوا يسكنون الوديان الخصبة ، والأتراك الذين كانت لهم السيادة على البلاد . واتصفت عمليات الفتح العربي بالبطء ، بسبب وعورة البلاد التي منحتها حماية طبيعية ، وبسبب المقاومة التي أبداها كل من الصغد والترك في وجه العرب ، ثم بسبب الخلاف الذى كان ينشب أحيانا بين القواد والحكام العرب ، نتيجة لتغير السياسة العامة للدولة ، فيما يتعلق بأساليب الفتح ومعاملة سكان البلاد (٢) . وقد بدأت عمليات التمهيد للفتح العربي منذ العصر الراشدي، وبلغت هذه الفتوح ذروتها في العصر الأموي . واقتصر عمل العرب في ذلك العصر على فتح وادي الصغد وفرغانة وبلاد الشاش، وهي الأجزاء التي كانت أكثر تحضراً من غيرها ، لأن غالبية سكانهـا

(١) : Barthold : op.cit. P. 11 .

(٢) : Barthold : Turkestan down The Mongol Invasion P. 182

كانت من الصغد . والتزم العرب بعد ذلك بسياسة الدفاع ضد الترك ، فقاموا بحفر الخنادق وبناء الأسوار حول المدن الرئيسية القائمة وسط السهول الزراعية الخصيبة، والتي لاتزال بعض آثارها ماثلة إلى اليوم (١) . واستمر العرب في موقف الدفاع ، إلى أن استلم السامانيون الفرس حكم البلاد في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) . ولما لم يبدِ المؤرخون المسلمون اهتماماً كبيراً بالكلام عن التطورات السياسية الداخلية التي وقعت في امبراطوريتي الأتراك الشرقية والغربية ، والتي كان لها تأثير على سير الصراع العربي التركي على ماوراء النهر (٢) . لذلك كان لابد من التماس ذلك في المصادر الصينية، ولذلك أيضاً كانت مهمة الباحث عسيرة : في التوفيق بين ماذكرته المصادر العربية والمصادر الفارسية مع المصادر الصينية ، في موضوع هذا الصراع الذى وقف فيه العرب في مواجهة الصغد والترك ثم الصين . ويجد الباحث نفسه مضطراً في كثير من الأوقات ، للخوض في تاريخ أتراك وسط آسية ، في سبيل استكمال رسم صورة الصراع الذى قام بينهم وبين العرب على ماوراء النهر .

كانت ظروف القتال بين العرب والفرس في إيران هي التي أوصلت الجيوش العربية إلى ضفاف جيحون عام ٦٤٢ م / ٢٢ هـ ، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، عندما كانت تلاحق " يزدجرد " ملك الفرس الهارب من وجه العرب . وعارض عمر بن الخطاب عبور النهر والجواز إلى ماوراءه (٣) . وربما كان ذلك سبباً لأن يستجيب الترك لطلب المساعدة الذي جاءهم من يزدجرد ، وأغراهم بالعبور مع الصغد إلى خراسان ، حيث كان لقاؤهم الأول مع العرب . ولم يلبث الترك أن انسحبوا عائدين من حيث أتوا خوفاً من العرب - كما ذكر الطبري - (٤) .

عمد العرب في مطلع العصر الأموي إلى القيام بين وقت وآخر بغارات مفاجئة عبر النهر ، استهدفت جمع الغنائم ومنع الترك من التجمع وتهديد الحكم العربي في الضفة الثانية للنهر (في خراسان) . وتخطت بعض هذه الغزوات المدن الكبرى كبخارى وسمرقند إلى وادي فرغانة (٥) في الشمال .

وتدخل عمليات الفتح العربي لهذه البلاد مرحلة جديدة بوصول " قتيبة بن مسلم الباهلي " عام ٧٠٥ م / ٨٦ هـ إلى ولاية خراسان . قد اتخذ قتيبة من مرو ، عاصمة الولاية ، منطلقاً لجيوش الفتح . ويمكن أن تقسم أعماله وغزواته في المنطقة إلى المراحل التالية (٦) : تم في المرحلة الأولى ، التي استغرقت عاماً واحداً ، هو عام ٧٠٥ م (٨٦ هـ) ، القضاء على ماكان للأتراك من

---

(١) : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص٣٩ وقد أشار النرشخي (ص ٥٥ - ٥٦) إلى أن المهدى العباسي أمر بناء سور حول بخارى.

(٢) : بارتولد : المصدر السابق ص٤٥ .

(٣) : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢٤٦ الذى ذكر أن عمر بن الخطاب كتب الى قائده هناك قائلاً : " أما بعد فلا تجوزن النهر واقتصر على مادونه "

(٤) : الطبري : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤٨ وقد نقل الطبري عن الخاقان التركي قوله : "مالنا في قتال هؤلاء خير" وأضاف ابن خلدون أن انسحاب الترك كان تشاؤماً لمقتل بعض حراس الخاقان على أيدي العرب . انظر ابن خلدون كتاب العبر ص ٩٨٦ م ٢ .

(٥) : البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٨١ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠٤ .

(٦) : Gibb : op. cit. P. 31

نفوذ جنوبي جيحون ، في منطقة " طخارستان " ؛ واستطاع في المرحلة الثانية التي امتدت ثلاث سنين بين ٧٠٦ — ٧٠٩ م (٨٧ — ٩٠ هـ) ، فتح بخارى ، إحدى مدن ماوراء النهر الرئيسية ، بعد أن قضى على حكم أسرة صغدية كانت تحكمها ، وانتصر على الجيوش التركية التي قدمت للدفاع عنها . وتشير المصادر الصينية إلى أن خاقان الأتراك الشرقيين " موتشـو " (Mo-tch-ou) الذي كان في ذلك الوقت قد استلحق بأملاك خانية الأتراك الغربيين ، بعد أن أسر خانهم ، قد وجه لنجدة بخارى جيشاً ، قاده ابن شقيقه "كول — تگين " (Kul-tegin) ولكنه هُزم ، واضطر إلى الارتداد على أعقابه (١) . وتم في المرحلة الثالثة التي امتدت بين عامي ٧١٠ — ٧١٣ م (٩١ — ٩٤ هـ) ، والتي تعتبر أهم المراحل ، فتح ماتبقى من وادي الصغد ، وفيه سمرقند المدينة الرئيسية الثانية في البلاد . وكان كول — تگين قد عاد إلى ماوراء النهر ثانية ، عام ٧١٢ م / ٩٣ هـ ، فاجتاح وادي الصغد ، ووصل الترك في تقدمهم — كما تشير بذلك نقوش أورخون — حتى ممر باب الحديد الواقع في جنوب غربي الصغد (٢) . ولم يبقَ بيد العرب إلا مدينة سمرقند . ولكن قتيبة استطاع ، في العام التالي ، أن يجبر الأتراك على التراجع مرة ثانية عن البلاد . واضطر " غوريك " (K ourek) ملك الصغد في سمرقند ، أن يسلم بالتبعية للحكم العربي ، بعد أن كان يأمل بالانتقاض عليه (٣) .

وقام قتيبة ، في أثر ذلك ، بالتقدم إلى وادي فرغانة وبلاد الشاش ، حيث تم له الاستيلاء عليها ، بين عامي ٧١٣ — ٧١٥ م / ٩٤ — ٩٦ هـ ، في آخر مرحلة من مراحل عملياته في ماوراء النهر ، وكانت رداً على غارة الأتراك الأخيرة (٤) . وجاءت وفاة الخاقان التركي " مو — تشو " عام ٧١٦ م / ٩٨ هـ سبباً لبعض التغيرات المهمة في آسية الوسطى ، فلم يعد الأتراك الشرقيون في موقف يمكنهم من إعاقة التقدم العربي في بلاد ماوراء النهر نحو الشمال ، وتخلوا عن ذلك للأتراك الغربيين ، الذين عادوا إلى الانفصال عنهم . وقام " سولو " (Sulu) سيد قبيلة التركش (turgech) فأسس دولة جديدة ، بسطت نفوذها على كل المناطق الغربية من آسية الوسطى ، وأخذت تسعى بدورها للعمل على استرجاع ماوراء النهر من أيدي العرب (٥) .

أطلق العرب على خاقان الأتراك الغربيين " سولو " ، لقب أبي مزاحم ، لسعيه لإخراجهم من المناطق التي احتلوها من ماوراء النهر (٦) . وقد حاول ذلك بإثارة سكان البلاد على الحكم

---

(١) : Barthold : op. cit. P. 176 and Grousset : op. cit. P. 166
وقد أشار الطبري إلى هذه الواقعة بأنها قد جرت في موضع رامثنة وكان الترك بقيادة ابن شقيق ملك الصين ويدعى " كوربغانون " وكانوا يعدون مائتي ألف مقاتل . انظر الطبري المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٢) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٣٨

(٣) : Barthold : op. cit. P. 187 and Grousset : ibid .
هذا وقد أورد الطبري أسم ملك الصغد غوريك غوزك . انظر : الطبري ج ٥ ص ٢٤٢ ويجعل الدينوري احتلال سمرقند شبيهاً باحتلال اليونانيين لطروادة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقال " وحاصرها [يقصد سمرقند] شهراً ... فأتى قتيبة بصناديق ووضع فيها رجال، وطلب إيداعها سمرقند وتظاهر بالسير إلى الصغانيان [منطقة في ماوراء النهر] . وقام الرجال وقتلوا حراس الأبواب وفتحوا المدينة ..) انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٤) : Barthold : ibid .

(٥) : Grousset : ibid .

(٦) : الطبري : المرجع السابق ج ٥ ص ٤٤٣ .

العربي ، بالإضافة إلى تسيير الجيوش ضدهم، كما تبنى سياسة بعث دولة فارسية جديدة ، بتقديم المساعدة إلى "خسرو بن يزدجرد" ابن الملك الفارسي ، الذي قضى الفتح العربي على ملكه في إيران [١] . ورفض سولو دعوة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٧٤٣ م / ١٠٦ ـ ١٢٦ هـ) له ، لاعتناق الإسلام ، ورد على هذه الدعوة ـ على مايذكر القزويني ـ باستعراض جيوشه أمام رسول الخليفة، سار فيه مائة ألف مقاتل مدجج بالسلاح [٢] . ومد يد المساعدة إلى أحد الثوار العرب، وكان قد فر إليه طالباً حمايته [٣] . وآتت سياسة سولو "ثمارها" واشتعلت ثورات الصغد على الحكم العربي في مناطق متعددة . واضطر سولو في كثير من الأحيان ، إلى السكوت عن الأعمال التي كان يرتكبها الدهاقين العصاة ، الثائرين على العرب ، والذين لاذوا به في أراضيه [٤] . وتشير المصادر العربية إلى العديد من هذه الثورات وإلى الحملات التي أرسلها سولو لدعم الثوار [٥] . ويعتبر عام ٧٢٨ م (١١٠) هـ) عام ثورة شاملة في البلاد على الحكم العربي . ولذلك تقدم سولو بقواته متوغلاً في ماوراء النهر ، حتى بلغ ضفاف جيحون في أقصى الجنوب . وثار غوريك من جديد في سمرقند . ويذكر الطبري أن العرب تمكنوا من الانتصار على الصغد والترك . واسترجعوا سمرقند في العام نفسه [٦] . إلا أن المراجع الصينية تؤخر استرجاعها الى عام ٧٣٧ م (١١٩ هـ) [٧] . وذلك إثر الانتصار الذى حققه العرب عليه في الختل ـ في الجبال الواقعة الى الجنوب الشرقي من وادي الصغد ـ ولما آب إلى عاصمته "صوياب" في حوض نهر جو على إثر هذه الهزيمة، قتله "كورصول" أحد الأمراء الأتراك من قبيلة التركش [٨] .

وتعتبر سياسة نصر بن سيار ، الذى وصل الى حكم ولاية خراسان ، عام ٧٣٨ م (١١٩ هـ) مكملةً للسياسة التي انتهجها قتيبة بن مسلم من قبل، والقائمة على التأني والسير بخطوات مدروسة فيما يتعلق بسير الفتح في ماوراء النهر [٩] . وبلغت أعمال نصر الحربية حوض نهر سيحون في الشمال عام ٧٣٩ م (١٢١ هـ) . ولما حاول "كورصول" التصدي له ، وقع في الأسر ثم قتل وصلب على شاطئ النهر [١٠] . وتشكل أعمال نصر بن سيار هذه خاتمة أعمال الفتح العربي في هذه البلاد .

(١) : الطبرى : المرجع السابق ج ٥ ص ٤٠٣ وقد أورد الطبرى أخبار غزوات لأبي مزاحم وقعت في اعوام ١٠٢ و ١٠٦ و ١٠٨ و ١١٠ هـ .

(٢) : القزويني : آثار البلاد ص ٥١٥ ويشير الطبرى في حوادث عام ١١٠ هـ الى أن شخصاً يدعى ابو صيداء قدم ماوراء النهر للدعوة إلى الاسلام وربما كان هو الذى قصد خاقان الترك لهذا الغرض أيضا .

(٣) : وهو الحارث بن سريج الذى كان في عداد من أتى للعرب والفتح في ماوراء النهر، ثم نقم على ولاة بني أمية وأعلن الثورة عام ١١٦ هـ / ٧٣٤ م . ويفهم من كلام الطبرى أن ثورته كانت لأنه كان يرى رأي المرجئة، وأن لجوءه إلى خاقان الترك كان اضطراراً، ولكن الأمويين ظفروا به وقتلوه عام ١٢٨ هـ / ٧٤٤ م انظر : الطبرى ج ٥ ص ٤٢٨ ـ ٤٣٢ ج ٦ ص ١١ .

(٤) : Grousset : op. cit. P. 167 : (٥) Barthold . ibid .

(٦) : الطبرى : المرجع السابق ج ٥ ص ٤١٢ ـ ٤١٤ .

(٧) : Grousset: ibid .

(٨) : Barthold : op. cit. P. 191

(٩) : Barthold : op. cit. P. 192

(١٠) : الطبرى : المرجع السابق ج ٥ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ .

وعلى الرغم من أن العرب نجحوا في إخراج ماوراء النهر من سلطة الأتراك وفي إخضاع القسم الأعظم من هذه البلاد لحكمهم المباشر ، فإنهم لم يستطيعوا التوغل في بلاد الترك ، للوصول الى مقر الخاقان الذى كان يقع بجوار نهر جو . ولكن مقتل الخاقان التركي عام ٧٣٩ م (١٢١ هـ) على أيدى العرب بعد هزيمته وأسره ، أدىّ إلى ظهور الفتن والقلاقل في خانية الأتراك الغربيين وانتهى الأمر إلى انحلالها ، وهجرة القبائل التي كانت تنضوي تحت لوائها ، إلى مناطـــق جديدة ، أقامت فيها لنفسها حكماً مستقلاً . واستمر التوزع الجديد للقبائل التركية على طول حدود ماوراء النهر الشمالية الشرقية والشمالية ، حتى قدوم المغول بقيادة جنكيز خان إلى المنطقة في مطلع القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . وكان من أبرز معالم هذا التوزع الجديد بعد انهيار خانية الأتراك الغربيين ، أن حلت قبيلة (القارلوق) — وهي من قبائل أتراك الغرب — محل قبائل الغز في حكم حوض نهر جو ، منذ عام ٧٦٦ م / ١٤٩ هـ ، وأجبر الغــز بدورهـم إلى التقدم نحو الغرب ، فأسسوا لأنفسهم على الصفة اليمنى للمجرى الأدنى لنهر سيحون [١] ، دولة أشار الجغرافيون المسلمون في القرن العاشر الميلادى [٢] إلى وجودها، دون أن يذكروا لها اسماً محدداً .

وقد أوهنت انتصارات العرب التحالف الذى كان قائماً بين الإمارات الصغدية وخانيـــة الأتراك [٣] . ووجد أغلب حكام هذه الإمارات أن من الأفضل لهم الانضواء تحت الحكم العربـي واعتمد الحكام العرب على هؤلاء في بعض نواحي الإدارة . وكان الولاة العرب أحيانا يستشيرون دهاقين الصغد فيمن يجب أن يتولى سلطة جميع الخراج في مناطقهم . وكانت هذه السلطة تسند في بعض الأوقات إلى الدهاقين أنفسهم ، على الرغم من أن أغلبهم ظل على ديانته الاصلية [٤] . ولذلك فقد ظهر أن هنالك شكلاً من الاتفاق الضمني في المصالح المالية — في بعض الأحيان — بين الإدارة الأموية والحكام المحليين — الدهاقين — في مسألة الاستمرار في جباية الجزية ممـن أسلم من سكان البلاد [٥] . وقد ترددت السياسة الأموية في هذا الموضوع ، بين إسقاط الجزية عمن أسلم من سكان البلاد ، كما تنص على ذلك تعاليم الإسلام [٦] ، وبين إبقائها عليهم حماية لدخل الدولة من التناقص . وكانت هذه المسألة تسبب استياء السكان الأصليين وثوراتهم في بعض الأحيان. وكان بعض العرب يقفون إلى جانبهم ويؤيدونهم [٧] . ولذلك ولها ولي نصر بن سيار ولاية خراسان

---

(١) : بارتولد : المصدر السابق ص٧٩ .

(٢) : انظر : ابن حوقل : صورة الارض ص٤١٩ .

(٣) : Frye : Heritage of Persia . P. 246 .

(٤) : الطبرى : المرجع السابق ج ٥ ص٣٥١ — ٣٥٢ .

(٥) : الطبرى : ج ٥ ص٣٩٨ .

(٦) : أوصى عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠ م / ٩٩ — ١٠١ هـ) الخليفة الأموي الــذى اشتهر بالحرص على تطبيق تعاليم الاسلام ، عامله في ماوراء النهر بالامتناع عن أخذ الجزيـة ممن أسلم من سكان البلاد ولذلك سارع الناس إلى اعتناق الإسلام . انظر الطبرى ص٤١٣ ج ٥ .

(٧) : الطبري : ج ٥ ص٣٩٧ — ٣٩٩ .

أصلح نظام جباية الخراج ، وأسقط الجزية عمن أسلم[1] وأبرم عام ٧٤٠ م / ١٢٣ هـ اتفاقاً مع الصغد سمح لهم بموجبه بالعودة إلى مساكنهم التي هجروها - خلال حوادث الصراع الماضية - وعفا عن كل من كان مسلماً ثم ارتد عن الإسلام[2] . ويشهد الطبري بأن البلاد قد عمرت في عهده عمارة لم تعمر مثلها من قبل[3] . وكان هم الإدارة الأموية - بصورة عامة - تألف قلوب السكان ، وتقدم البلاد والمحافظة على ثرواتها[4] . وقد سُمح للسكان المحليين في بعض الأحيان بالانخراط في ساقة (مؤخرة) الجيش ، على الرغم مما عرف عن الأمويين من تعصب للعنصر العربي وعدم السماح لغير العرب بالانخراط فيه[5] .

لقد أحدث الفتح العربي تعديلاً على عناصر السكان ، في مجتمع ماوراء النهر . فاندفعت أعداد كبيرة من الفرس من إيران ، إلى ماوراء النهر هرباً من الحكم العربي[6] في أيام الفتح الأولى ، ثم لحق بهم العرب . وأمر قتيبة جنده عام ٩٦ هـ (٧١٥ م) بأن يصطحبوا معهم عيالهم لسكنى سمرقند[7] . وتشدد على جنده في ذلك إثر موت ولي نعمته الحجاج وموت الخليفة الوليد، وخوفه من انتقام الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك الكاره للحجاج ورهطه . وأقام على ضفاف جيحون أحد أتباعه ليمنع عودة أي أحد من جماعته إلى خراسان[8] . ولما كتب بعد ذلك عمر بن عبد العزيز إلى واليه في خراسان ، لينقل من استقر من الأسر العربية في ماوراء النهر إلى مرو في خراسان،[9] أبى هؤلاء وأصروا على الإقامة في مواطنهم الجديدة[10] . وتفيد إشارة لليعقوبي،[11] أن العرب لم يقصروا إقامتهم على منطقة دون أخرى في هذه البلاد ، بل نزلوا في جميع المدن . وفي أيام الاصطخري (القرن العاشر الميلادي - الرابع الهجري) كانت تنزل في ضواحي سمرقند جماعات من قبيلة بكر بن وائل العربية، وكانت قد دخلت البلاد في وقت سابق ، وكان لهم في سمرقند

---

(١) : الطبري : ج ٥ ص٤٩٣ .
(٢) : الطبري : المرجع السابق : ج ٥ ص٥٠٨ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤ صفحة ٢٥٠ وقد علق بارتولد على هذا الاتفاق بأن نصراً قد أذعن لكل ماطلبه الصغد انظر :
Barthold : op. cit. p. 192 .
(٣) : الطبري : ج ٥ ص٤٨٠ .
(٤) : من أمثلة ذلك : الصور التي أوردها الطبري كإطلاق القواد سراح الأسرى دون مقابل ج ٥ ص٣٥٦ وإفساح المجال للعدو عند ملاحقته كي يفر وينجو بنفسه ج ٥ ص٣٥٥ والنص على شروط عمارة الأرض ودفع الخراج عند إبرام الصلح مع الثائرين ج ٥ ص٣٦٠ .
(٥) : الطبري : المرجع السابق ج ٥ ص٣٦٨ .
(٦) : Frye : ibid .
(٧) : ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص١٣٥ .
(٨) : الطبري : المرجع السابق ج ٥ ص٢٦٨ .
(٩) : كانت ماوراء النهر تعتبر من الناحية الإدارية تابعة لولاية خراسان ، وعاصمتها مرو ، وكان ولاة خراسان يرسلون إلى مختلف مدن ماوراء النهر من يحكمها باسمهم . ولكن ضرورات العمل العسكري ومتابعة أعمال الفتح في ماوراء النهر ، أدت إلى نقل عاصمة ولاية خراسان من مرو إلى بلخ القريبة من جيحون . انظر الطبري ج ٥ ص٤٤٢ .
(١٠) : الطبري : المرجع السابق ج ٥ ص٢٥٨ .
(١١) : اليعقوبي : البلدان ص٣٠١ .

ذانها دور للضيافة[١] . وفي مقابل هذه العناصر الفارسية والعربية الجديدة ، التي جاءت بها موجة الفتح العربي إلى المنطقة ، اندفعت موجات من سكان البلاد الاصليين ، باتجاه المناطق الشمالية ، فأقصيت أغلب العناصر التركية التي كانت تنزل المناطق الجنوبية نحو الشمال[٢] ، وهربت أعداد من الصغد ممن رفض الخضوع للحكم الجديد أو اعتناق الإسلام بهذا الاتجاه[٣] . وتجاوزت بعض هذه العناصر نهر سيحون للإقامة في مناطق جديدة في أواسط آسية . وكانت أغلب هذه العناصر من الصغد أو الفرس[٤] . وترتب على هذه الحركة السكانية نتائج مهمة ، فيما يتعلق باللغة التي كان يتحدث بها السكان . فحلت الفارسية محل لغة الصغد ، في التحدث في مدن ماوراء النهر[٥] ، وأضحى انتشار الفارسية في هذه البلاد عاماً في أيام المقدسي (القرن العاشر الميلادي أو الرابع الهجري) ، في بخارى وسمرقند وغيرها . وكانت من أرقى لهجات الفارسية تلك التي تدعى بـ "اللغة الدرية"[٦] . ولاحظ المقدسي أنه لايزال للصغد في بعض النواحي لسان خاص بهم ، وأن هذا اللسان هو مفهوم عند من يتكلم الفارسية[٧] . ويضيف بارتولد أن لغة الصغد أخذت تتلاشى أمام اللغة الفارسية التي أُطلق عليها اسم تاريك[٨] . في حين ظلت العربية لغة الإدارة والحكم والقضاء يتكلم بها حكام البلاد .

---

(١) : الاصطخري : المرجع السابق ص٣٢٣ .

(٢) : Barthold : Turkestan ... (E. I. T. IV P. 942-945) P. 943

(٣) : الطبري : المرجع السابق ج ٥ ص٣٦١ .

(٤) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص٤٢ .

(٥) : Frye : ibid .

(٦) : نسبةً إلى لفظة (در) الفارسية التي تعني (باب) بالعربية . ودعيت اللهجة بالدرية لأنه كان يُخاطب بها الحكام والأمراء عند ما يُوقف ببابهم ، وتتصف بالجودة والبلاغة . أنظر المقدسي ص٣٣٥ وابن حوقل ص٤٠٣ .

(٧) : المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٣٣٥ .

(٨) : يقول بارتولد في تفسير معنى هذه اللفظة ، أنها اشتقت من اسم قبيلة طيء العربية . وكان أول من استخدمها الفرس ، وأطلقوها على العرب ، لأن منازل قبيلة طيء ، كانت أقرب المنازل العربية إلى إيران . وقد شاع استعمال هذه الكلمة كثيراً في العصر التيموري ولكن طرأ على مدلولها بعض التعديل . وسنعود لبحث ذلك في المستقبل (انظر : بارتولد تاريخ الترك في آسية الوسطى ص٤٢) . ويبدي بارتولد في موضع آخر شكه ، في أن العرب عند فتح ماوراء النهر ، استطاعوا التمييز بين اللغتين التركية والفارسية . وقال إن العرب قد أطلقوا على لغة العناصر الإيرانية ، من سكان ماوراء النهر ، اسم اللغة التركية . وواقع الأمر أن العرب استطاعوا منذ ذلك الوقت المبكر ، أن يفرقوا تفريقاً تاماً بين اللغتين ، كما فرقوا بين عنصري السكان الترك والصغد . فذكر الطبري في حوادث ١١٠ هـ / ٧١٩ م ، أن الوالي الأموي أشرس بن عبد الله السلمي ، لما أوفد إلى أهالي سمرقند ، يدعوهم إلى الإسلام ، قال له أحد اعضاء الوفد ، وهو صالح بن طريف : لست ماهراً بالفارسية ، فضم أشرس إلى الوفد من يتقن هذه اللغة . وفي العام نفسه ، كما يذكر الطبري أيضاً في موضع آخر ، حُصر جماعة من العرب في قصر قريب من بخارى ، من قبل جيش من الترك . ولما طلب الترك المفاوضة مع المحاصرين ، أدلي من سور القصر يزيد بن سعيد الباهلي ، لأنه كان يتقن التركية بشكل جيد . (انظر لذلك بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص ٥٧ والطبري : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص٣٩٧ و ٤٠٣) .

ومن المسلم به أن من جملة الدوافع لحركة الفتح العربي كان نشر الاسلام • وقد أولى القواد العرب هذه المسألة اهتماماً كبيراً • فقام قتيبة على أثر سيطرته على سمرقند ، عام ٧١١ م/ ٩٣ هـ بإحراق الأصنام الموجودة فيها ، وأمر ببناء مسجد كخطوة مبدئية ، في سبيل نشر الإسلام • ودخل أهل البلاد بأعداد كبيرة في هذا الدين ، كما يقول البلاذرى والطبرى منذ أيام قتيبة(١) ، ولكن إسلام أكثرهم كان إسلاما ظاهرياً ، ولم يلبث بعضهم أن ارتد وأظهر العصيان ، بعد ابتعاد الجيوش العربية (٢) • ولذلك فقد أقام قتيبة المراقبين والجواسيس ، لمراقبة حديثي العهد بالاسلام • وطلب من المسلمين أن ينزلوا في بيوت سكان بخارى ، وأن يقيموا معهم ليطلعوا على أحوالهم ويلزموهم بالتمسك بتعاليم الدين (٣) • وكان قتيبة يتألف قلوب حديثي العهد بالإسلام بالمال ، فأمر أن يدفع لمن يحضر صلاة الجمعة درهمين ، وسمح للناس بتلاوة القرآن باللغة الفارسية كما يقول النرشخي (٤) • وكان يحرص على مراقبة من بقي على دينه من سكان البلاد • فأوصى عامله على سمرقند أن يراقب دخول هؤلاء إلى المدينة خوفاً من القيام بأعمال الشغب والعصيان • فكان الداخل منهم يختم بخاتم من طين طرى ، وعليه أن يخرج من المدينة قبل أن يجف ، ومن يعثر عليه بداخلها مساءً ، بعد إغلاق الباب يقتل (٥) • وذكر الطبرى أن الحكام الأمويين كانوا يحرصون على معرفة أن اعتناق السكان للإسلام لم يكن هرباً من دفع الجزية • وكانوا يتحققون من صدق من اعتنق الإسلام عن طريق التدقيق فيمن اختتن منهم ، وعرف إقامة الفرائض واستطاع تلاوة سورة واحدة من القرآن (٦) • ورغم هذه الجهود فقد ظل انتشار الإسلام بطيئاً في العهد الاموى (٧) • ويشير النرشخي إلى أن غالبية سكان بخارى كانوا من أهل الذمة يدفعون الجزية حتى عهد الوالي أسد بن عبد الله الذى توفي في عام ٧٣٧ م / ١٢٠ هـ ، بعد ثلاثين عاماً من الفتح العربي للمدينة(٨) •

تدخل ا ... وتعود الأحداث السياسية في نهاية العصر الاموى ، لتفرض نفسها على الحياة العامة في ماوراء النهر • وكان منطلق هذه الأحداث من رغبة الصين التي رأت ، في عهد اسرة " تانغ " (Tang) في تضاؤل شأن امبراطورية الأتراك الشرقيين ، بعد فشلهم في الصراع أمام العرب في ماوراء النهر ، وانهيار امبراطورية الأتراك الغربيين بسبب هذا الصراع ، سبباً لتتولى مهمة العمل

---

(١) : البلاذرى : فتوح البلدان ص٥٩٢ ــ ٥٩٣ والطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص٢٥١
(٢) : النرشخي : تاريخ بخارى ص٧٣ •
(٣) : النرشخي : المرجع والصفحة ذاتها •
(٤) : النرشخي : ص ٧٣ ــ ٧٤ •
(٥) : الطبرى : المرجع السابق ج ٥ ص٢٥٨ •
(٦) : الطبرى : ج ٥ ص٢٠٢ • وقد تجاوزت جهود الأمويين لنشر الاسلام ماوراء النهر إلى تركستان • ويذكر القزويني أن هشام بن عبد الملك قد أرسل الى ملك الترك رسولا يدعوه للإسلام • ويبدو أن مهمة هذا الرسول لم تكلل بالنجاح • وأجاب ملك الترك (وربما كان الخاقان سولو) قائلا : إن من بين أتباعي لايوجد لاحجام ولا خياط ولا إسكاف ومن أين مأكلهم اذا التزموا بشرائط الإسلام • أنظر القزويني : عجائب البلاد ص٥١٥ •
(٧) : ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ص٢٤٣ •
(٨) : النرشخي : تاريخ بخارى ص٨٦ •

لانتزاع ماوراء النهر من أيدي العرب . وقد أغراها بالتدخل إلحاح الحكومات الصغيرة التي قامت في براري تركستان ، على حدود ماوراء النهر الشمالية الشرقية على إثر انهيار امبراطورية الأتراك الغربيين . وكان حكام هذه الحكومات قد دأبوا على إرسال سفرائهم ، إلى البلاط الصيني لطلب المساعدة[1] ، لاعتقادهم أن إقحام الصين في الصراع مع العرب ، هو الوسيلة الوحيدة المتوفرة للتخلص من نفوذ هؤلاء بعد انهيار المقاومة التركية[2] . وزاد في رغبة الصين في التدخل ، ما لمسته من مظاهر الاضطراب المؤقت التي بدت في الإدارة الأموية في ماوراء النهر ، في إثر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥ م / ٨٦ ـ ٩٦ هـ) ، وبسبب السياسة سار عليها شقيقه وخليفته سليمان بن عبد الملك (٧١٥ ـ ٧١٧ م / ٩٦ ـ ٩٩ هـ) ، ورغبته بالانتقام من قواد أخيه ومنهم قتيبة بن مسلم والي خراسان . وتشير المصادر الصينية إلى أنه على إثر مقتل قتيبة عام ٩٦ هـ / ٧١٥ م اضطر حاكم بخارى الصغدي المعين من قبل العرب إلى الاعتراف بالتبعية للصين ، وأرسل أخاه لطلب المساعدة من البلاط الصيني عام ٧١٨ م / ١٠٠ هـ ، وحذا حذوه حاكم سمرقند الصغدي "غوريك"[3] . واستغلت الصين الأحداث الداخلية التي كانت الدولة الأموية تمر بها ـ مرة ثانية ـ في أواخر أيامها . فأغار جيش صيني عام ٧٤٨ م / ١٣٠ ـ ١٣١ هـ على مدينة "سوياب" العاصمة السابقة لخانية الأتراك الغربيين ، والواقعة في حوض نهر جو . فاستولوا عليها وهدموها . وقدم هذا الجيش في العام التالي بناء على استدعاء اخشيد فرغانة السابق له ، إلى ماوراء النهر ، وقتل حاكم منطقة الشاش المعين من قبل العرب[4] . ولم تشر المراجع العربية إلى هذه الأحداث ، ويعلل بارتولد سكوت هذه المراجع بانشغالها في تلك الآونة بالحديث عن الدعوة العباسية ، والثورة التي قادها أبو مسلم الخراساني ضد الأمويين[5] . ولكن الطبري يشير في أحداث عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م بشكل غير مباشر فيقول : إن ملك الختل قد أجبر من قِبَل الإدارة العربية على الفرار مع دهاقينة إلى فرغانة ، ومنها عبر أرض الترك حتى نزل على ملك الصين[6] . وهذا يفيد أن الصين كانت تمارس دوراً نشيطاً في الصراع الذي كان دائراً مع العرب في ماوراء النهر في ذلك الوقت . وكان ختام التدخل الصيني ـ على مايظهر ـ في إثر الهزيمة التي حلت بأحد الجيوش الصينية عام ٧٥١ م / ١٣٤ هـ على يد القائد زياد بن صالح[7] الذي قدم والياً على الصغد في العام ذاته ، من قبل والي خراسان الجديد أبي مسلم الخراساني[8] .

ظهور القارلو... والغز والطغز...

وقد سمح انسحاب الصين من ميدان الصراع مع العرب ، وانشغال هؤلاء في إثر قيام الدولة العباسية بالأحداث الداخلية، للقبائل التركية في وسط آسية من التجمع مرة ثانية ، وقامت على حدود ماوراء النهر ، الشمالية الشرقية والشمالية مملكتان تركيتان جديدتان . وشملت أملاك المملكة الأولى ، المناطق الشمالية الغربية من بحيرة "ايسيق ـ كول" والمجرى الأعلى لنهر سيحون ، وهي

(١) : Barthold: op. cit. p.195

(٢) : Grousset: op. cit. P. 166

(٣) : Grousset ;op. cit. P. 166

(٤) : Barthold : ibid .

(٥) : Barthold : op. cit. p. 196

(٦) : الطبري ج ٦ ص ١١٢

(٧) : Barthold; op. cit. P. 210

(٨) : الطبري ج ٦ ص ١١٦

مملكة القارلوق • وقامت المملكة الثانية وهي مملكة الغز ، عند المجرى الأدنى لنهر سيحون • كما أقامت قبائل تركية تعرف بقبائل "الطغزغز" على الحدود الشرقية لما وراء النهر • وكان القارلوق والغز والطغزغز ، من القبائل التركية التي كانت تشكل خانية الأتراك الغربيين قبل انهيارها (١) • وكانت ثورات هذه القبائل من الأسباب الداخلية التي أدت الى انهيار هذه الخانية (٢) • وقد أشار المؤرخون والرحالة والجغرافيون المسلمون في القرن العاشر الميلادى ، (القرن الرابع الهجرى) ، إلى هذه المجموعات القبلية التركية في هذه المواقع الجديدة ، التي حلت بها منذ القرن الثامن الميلادى (القرن الثاني الهجرى) فذكر الطبري أن غزوات الطغزغزية ، كانت تأتي دائما إلى ماوراء النهر من ناحيتها الشرقية (٣) • وحدد الاصطخرى منازل كل من الغز والقارلوق ، فقال عن الغز إنهم كانوا ينزلون في الأراضي التي تلي نهر سيحون من الشمال ، مابين بحر خوارزم حتى ناحية اسبيجاب ، (وهي مدينة تقع إلى الشرق من جيمكه نت الحالية (Tchimkent) وتمتد مابين اسبيجاب إلى أقصى حدود فرغانة ، منازل الترك الخرلخية (وهم القارلوق كما سماهم المؤلفون المسلمون) (٤) •

ماوراء النهر في العصر العباسي

أما في ماوراء النهر ذاتها ، فقد رغب سكان البلاد بالتخلص من الحكم الأموي ، وأيدوا الدعوة العباسية ، وانخرطوا في جيش أبي مسلم الخراساني ، داعية العباسيين، وقدموا معه عندما زحف على العراق (٥) • واتخذ الولاة العباسيون سمرقند عاصمةً لهم • وكانت العاصمة تنتقل أحيانا إلى الشمال ، لتستقر في احدى مدن منطقة الشاش أو فرغانة ، لإحكام الدفاع عن البلاد في وجه غارات الأتراك (٦) • واتبع العباسيون أساليب الإدارة الساسانية • وعلى الرغم من أن الإدارة العباسية كانت تعاني أيضاً من ثورات الدهاقين وحلفائهم الموجودين في البزاري — عبر الحدود — فقد سمح للعناصر الصغدية والتركية بالانخراط في الجيش العباسي (٧) • وقد بلغ هذا الأمر حداً كبيراً ، في أيام المعتصم بن هارون الرشيد • ولجأ العباسيون في سبيل

---

(١) : Barthold : ibid . وينقل هوورث رأيا لرشيد الدين في أصل كلمة قارلوق فقال إنها تعني رجال الثلج • انظر Howorth : op. cit. T. II P.19

(٢) : Grousset : op. cit. P. 142 . (٣) : الطبري: المرجع السابق ج ٥ ص ١٩٥ و ٢٠٥ •

(٤) : الاصطخرى : المرجع السابق ص ٢٩٠ وقد تكلم الرحالة مسعر بن المهلهل الذى إرتحل إلى الصين ، عن طريق ماوراء النهر ووسط آسية ، في مطلع القرن العاشر (٩١٣ م) عن هذه القبائل في وصفه الذى أورده له ياقوت الحموى في معجمه (ج ٣ ص ٤٤٢ ومايليها) • وكان مسعر بن المهلهل قد مر في طريقه على عدد من الشعوب فقال عن الغز أنه كان لهم مدينة مبنية من الحجارة ووصف الطغزغز بأنهم كانوا يعبدون الخيل ، وأن الحمص والعدس هو غذاء الخرلخ (القارلوق) وقال عن هؤلاء ان الزنى والقمار كانا منتشرين عندهم • ونعت المسعودى المتوفى عام ٩٥٦ م الخرلخية بالجمال وحسن الصورة وطول القامة ولكنهم أشد أنواع الترك، وفيهم الخاقان الذي تنقاد له سائر الترك (انظر المسعودى: مروج الذهب ج ١ ص ١٥٠.) ووصف المقدسي المتوفي عام ٩٨٥ م الطغزغز بأن لهم أخلاق البهائم والسباع • (انظر المقدسي : البدء والتاريخ ج ٤ ص ٦٤) وردد زكريا القزويني المتوفى ١٢٨٣ أقوال المسعودى وقال عن الخرلخية إنهم في غاية من حسن الصورة رجالا ونساء ولكنهم أهل بغي وظلم وزنى وقمار • (انظر القزويني : آثار البلاد ص ٥٨٤)•

(٥) : حسن أحمد محمود : الاسلام في آسيا الوسطي ••• ص ١٥٦ •

(٦) : الاصطخرى: المرجع السابق ص ٣١٥ • (٧) : Barthold : op.cit. P.197-198

استقرار الأوضاع في البلاد ، إلى الإقلال من عزل وتعيين الولاة • وانتهى الأمر إلى ابتكار أسلوب الولاية الوراثية [١] ، التي كانت تمهيداً لخروج حكم البلاد من أيديهم ، على النحو الذي سيأتي تفصيله في الفصل التالي •

وانصرف العباسيون في المجال الخارجي إلى رد غارات الترك ـ الذين كانوا يتمتعون دون ريب بتأييد الصين ـ وعلى الرغم من الانتصارات ، التي حققها العباسيون في مطلع العصر العباسي ، على الجيش الصيني عام ٧٥١ م / ١٣٤ هـ ، فقد وجدوا أن من المناسب أن يتخلوا عن بعض المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر شيرشاك (أحد روافد سيحون في مجراه الأوسط) وقاموا ببناء عدد من الحصون للدفاع في وجه غارات الترك • ولا تزودنا المصادر العربية أو المصادر الصينية كما يقول بارتولد إلا بمعلومات نادرة ، عن العلاقات والحروب التي قام بها العباسيون ضد الحكام المتمردين في ماوراء النهر ، وضد خانات القارلوق أو الغز في شمال سيحون [٢] •

ومن الأخبار النادرة هذه ، مايورده النرشخي ، أن كفرة الترك قد أغاروا على بخارى وبلاد الصغد ، في أيام الخليفة المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥ م / ١٥٩ ـ ١٦٩ هـ) ، وكانت غارتهم عام ٧٨٢م/ ١٦١ هـ ، ولذلك طلب كبراء الصغد من الوالي العباسي اتخاذ التدابير لمنع تكرار هذه الغارات ، فامر الوالي ببناء سور حول المدينة [٣] • ويفيد اليعقوبي أن المهدى نفسه أرسل إلى ملك الخلخية وإلى غيره من ملوك الترك يدعوهم إلى الطاعة [٤] • ولما شك المهدى بحسن نية حاكم بخارى الصغدى أمر بقتله • وكانت التهمة الموجهة إليه هي اشتراكه بحركة الزندقة التي تزعمها رجل لقب بالمقنع ، واتخذ من كيش إحدى مدن ماوراء النهر ، مركزاً لأعماله [٥] •

ولعل أهم الأحداث التي وقعت في ماوراء النهر في العصر العباسي هي ثورة رافع بن الليث ـ بن نصر بن سيار ـ • وتنعكس من خلال هذه الثورة ، صورة الوضع السكاني في البلاد بمضمونا نه العنصرية والدينية في ذلك العصر • ولا نجد فيما كتبه الطبري عن هذه الحادثة ، تفاصيل كافية كالتي وردت عند ابن الاثير • لقد ثار رافع حفيد القائد الأموي نصر بن سيار ، عام ٨٠٦ م/ ١٩١هـ في عهد الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩ م / ١٧٠ ـ ١٩٤ هـ) ، بسبب امرأة متزوجة تركها زوجها وأقام في بغداد واتخذ فيها الجوارى • واقترح رافع على المرأة أن لا سبيل للخلاص من زوجها ، إلا أن تشهد عليها قوماً أنها قد أشركت بالله ، فينفسخ لذلك نكاحها ، ثم تتوب إلى الله فتحل للأزواج مرة ثانية • وفعلت المرأة ذلك ، وتزوجها رافع • وشكا زوجها السابق أمرها إلى الرشيد • فأرسل الخليفة إلى واليه في خراسان ، أن يفرق بين الزوجين ، ويعاقب رافع بإقامة الحد عليه والتشهير به وسجنه • ولكن رافع فرّ من سجنه ، وأعلن الثورة [٦] • وتكاثر مؤيدوه من أهل البلاد وكان منهم أهل نسف [٧] ، الذين أرسلوا اليه بالطاعة ، وسألوه أن يوجه اليهم من

ثورة رافع بن الليث

---

(١) : حسن محمود : المصدر السابق ص ١٩ (٢) : Barthold : op. cit. P. 201

(٣) : ابوبكر النرشخي : تاريخ بخارى ص ٥٩ ـ ٥٦ (٤) : اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧ ولم يحدد اليعقوبي تاريخ هذه الحادثة • (٥) : اليعقوبي تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٠٤ •

(٦) : ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٢٢ (٧) : الطبرى : المرجع السابق ج ٦ ص ٥١١

يساعدهم على قتل والي خراسان نفسه ، واستجاب رافع لطلبهم • ونجح أهل نسف في قتل ابن الوالي [١] • ويقول الطبري : إن القوات التركية التي أرسلها صاحب الشاش هي التي قتلت ابن الوالي [٢] • واستفحلت ثورة رافع بن الليث بسبب تأييد سكان البلاد له ، مما اضطر الرشيد ، أن يسير بنفسه للقضاء على هذه الثورة ، رغم مرضه مرضاً خطيرا ، أودى بحياته وهو على الطريق قبل أن يصل الى غايته [٣] • ويبدو أن بارتولد لم يكن مطلعاً إلا على ماكتبه الطبري عن هذه [٤] المسألة لتساؤله عن السبب الذي دفع الأهالي ، إلى تأييد رافع في ثورته على السلطة العباسية ويدرك سبب هذا التأييد فيما كتبه ابن الاثير عن قصة هذه المرأة • ومن المؤكد أن سكان البلاد الذين كانوا فيما سبق يكرهون الحكم الأموي أن لا يؤيدوا حفيد أحد قادة الفتح الأموي المشهورين الا لما شعروا به من إغضاء لعقيدتهم الدينية الذي ظهر في معاملة تلك المرأة التي تركت الإسلام وعادت لعقيدتها الأصلية ، هذه العقيدة التي كانت غالبية سكان البلاد لاتزال تدين بها حتى ذلك الوقت ، وأن الاسلام كما يقول ارنولد كان لايزال يعاني من بعض الصعوبات التي ظلت تجعله ينتشر ببطء [٥] •

ويورد الطبري في أحداث عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م ، أن رافعاً بن الليث ، لما حوصر في سمرقند من قبل جيش عباسي ، أرسل يستنجد بالترك فأتوه ولكنهم لم يلبثوا أن انصرفوا [٦] • ونجد فيما نقله بارتولد تفصيلات أخرى عن هذه الحادثة • فيقول إن هؤلاء الأتراك المغيرين على ماوراء النهر في عهد الرشيد ، كانوا من القارلوق وكان يقودهم ملكهم "جابغو" (Jabghu) ، وتصدى لهم قائد عباسي يدعى عمر بن جميل تمكن من ردهم على أعقابهم [٧] • ويفهم من كل ذلك أن مملكة القارلوق التركية الجديدة سارت على السياسة نفسها ، التي كانت تسير عليها خانية الأتراك الغربيين السابقة ، بالعمل على إزعاج الحكم العربي على الأقل في ماوراء النهر ، بمد يد المساعدة للعصاة والثائرين عليه ، طالما لم يعد بإمكانهم إخراج العرب نهائيا من هذه البلاد •

وتبدأ في عهد الخليفة المأمون بن الرشيد (٨٣٣ — ٨٤٢ م / ٢١٨ — ٢٢٨ هـ) مرحلة جديدة في تاريخ ماوراء النهر • وقد دفع الخليفة المأمون قلقه عليها من غارات الترك إلى تعيين قائده الفارسي طاهر بن الحسين عام ٨٢٠ م / ٢٠٥ هـ ، والياً على خراسان وما وراء النهر • ولم يلبث طاهر أن أعلن الانفصال عن السلطة المركزية في بغداد • وبدأ به حكم امتد قرنين من الزمن خضعت فيه بلاد ماوراء النهر ، لحكم ثلاث أسر حاكمة فارسية •

---

(١) : الطبري : المرجع السابق ج٥ ص١٢٧ (٢) : الطبري المرجع السابق ج٦ ص٥١١
(٣) : ابن الاثير : المرجع السابق ج٥ ص١٢٧ (٤) :
(٥) : ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص٢٤٤ •
(٦) : الطبري : المرجع السابق ج٦ ص٥٥١ •
(٧) : Barthold: op. cit. P. 202 وقد أورد اليعقوبي اسم ملك القارلوق جيغويه (انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص٣٩٧) ويقول بارتولد في مكان آخر أن هذا اللقب هو لفظ تركي قديم ويعني أمير •(انظر : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص٣٨ — ٣٩)

الفصل الخامـــس

مـاوراء النهر في عهـد السيادة الفارسية

٢٠٥ ـ ٣٨٩ هـ(٨٢٠ـ٩٩٨ م)

الطاهريون والصّفّاريون ـ السامانيون ـ انتشار الإسلام في عهدهم ونتائجـــه ـ صـــورة المجتمع في عهدهم ـ التجارة والرحلات في وسط آسية ـ حروبهم مع الترك ـ نهايـــة السامانيـــين .

الطاهريون والصفاريون

تشمل حقبة السيادة الفارسية على ماوراء النهر ، القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (من مطلع القرن الثالث الى نهاية القرن الرابع الهجريين) . وكانت البلاد خلال القسم الأول من هذه الحقبة جزءاً من الدولة الطاهرية ثم الدولة الصفارية ، ثم لم تلبث أن اضحت كيانـــاً سياسياً مستقلاً ، تحت حكم السامانيين .

ويعتبر التقليد الذى منحه الخليفة المأمون لقائده الفارسي طاهر بن الحسين عام ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م ، كما أورده الطبري "من مدينة السلام إلى أقصى عمل الشرق"[1] ، شاملاً لبلاد ماوراء النهر وإشعاراً ضمنياً بقيام هذه الدولة . والطاهريون هم أول أسرة فارسية تستأثر بحكم خراسان وما وراء النهر في ظل الإسلام . وحُكمت هذه البلاد في عهدهم من مرو في خراسان . واستطاع الطاهريون خلال مدة حكمهم القصيرة[2] ، مابين ٨٢٠ و ٨٧٣ م / ٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ ، أن يحققوا استقراراً مكّنهم من تنفيذ بعض الإصلاحات ، ولاسيما في مجال الزراعة والري . واهتموا بنشر التعليـــم والثقافـــة[3] . وأمّ البلاد في عهدهم الناس من مختلف أرجاء الامبراطورية العربية ، للمشاركة في الجهاد ضد الترك[4] . وزاد انتشار الاسلام بين السكان ، ولاسيما في منطقة "أشروسنة" التي تقع إلى الغرب من وادي فرغانة ، وهي المنطقة التي جاء منها قائد الخليفة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢ م / ٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ) "الأفشين"[5] .

ولم يلبث حكم الطاهريين أن لفظ أنفاسه على يد أسرة فارسية أخرى ، هي الأسرة الصّفّارية.[6] وجاء الصفاريون من منطقة سجستان في إيران الشرقية . ولم يتمكن عمرو بن ليث الصفّار ـ ثاني حكام الأسرة ـ من الاحتفاظ بحكم ماوراء النهر ، على الرغم من تأييد الخليفة العباسي له ، فهزمه

---

(١) : الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٧ ص١٥٦ وورد أبو الفداء العبارة ذاتها . انظر: المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص٢٩ لأبي الفداء .

(٢) : حكم الطاهريون مدة ٥٥ عاما وظهر منهم خمسة حكام . انظر : اليعقوبي : البلـــدان ، ص٣٠٧ ـ ٣٠٨ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص٢٠٤ ومابعدها .

(٣) : Barthold: op. cit. P. 212-213

(٤) : محمود : ص١٦٦ هذا وقد ذكر ابن الأثير أن غزوة لبلاد الترك قادها طلحة بن طاهر . انظر : الكامل في التاريخ ج ٥، ص٢٠٥ .

(٥) : Barthold: ibid .

(٦) : اليعقوبي : البلدان ص٣٠٨ الذى ذكر أنه في عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م صُفِد آخر الحكـــام الطاهريين ، وسُجن مع أفراد أسرته بقلعة في كرمان ، على يد يعقوب بن ليث الصفـــار رأس الأسرة الصفارية .

حاكم هذه البلاد إسماعيل بن أحمد الساماني ، عام ٩٠٠ م (٢٨٧ هـ) • ثم أرسل اليه ينصحه أن يترك له حكم هذا الثغر[١] •

كانت الأسرة السامانية أشهر الأسر الفارسية الثلاث التي حكمت ماوراء النهر • واقتصر حكم السامانيين على ماوراء النهر وكانت تضم إليهم خراسان أحيانا • واتخذ هؤلاء بخارى عاصمة لهم[٢] • وجاء السامانيون في الأصل من مدينة بلخ[٣] • وادعوا صلة النسب بالأسرة المالكة الساسانية[٤] • ويقول النرشخي : إن جدهم سامان ، وهو أول من دخل الإسلام منهم ، كان من نسل حكام هذه البلاد قبل الإسلام • ثم انحطت حال والد سامان ، فاشتغل حمالاً ثم عياراً[٥] • واستمرت الأسرة تحكم ماوراء النهر زهاء قرن وربع ، بين ٨٧٥ — ٩٩٨م/ ٢٦١ — ٣٨٩ هـ[٦] • وظهر منها اثنى عشر حاكما[٧] • وكان السامانيون أول أمرهم حكاما تابعين للدولة الطاهرية في خراسان • ولما سقط حكم الطاهريين ، استقل إسماعيل بن أحمد الساماني في بخارى وماوراء النهر ، ورفض الخضوع لحكم الصفاريين •

اعتمد السامانيون في الإدارة الأساليب الإدارية الساسانية التي سار عليها الولاة العباسيون في السابق • ولم تكن علاقاتهم حسنة بطبقة الارستقراطية المحلية (الدهاقين) ، على الرغم من أن هذه الطبقة كانت تمت بصلة إلى الأصل الإيراني أيضاً[٨] • ويرى ابن الأثير أن الدولة السامانية كانت من أعظم الدول نظاماً في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)[٩] • وشملت إصلاحاتهم الزراعة والصناعة والتجارة والأمن[١٠] •

وكثرت في عهد السامانيين هجرة الإيرانيين الفرس ، زراعاً وتجاراً ، للاستقرار في ماوراء النهر • ونشأت في هذا العهد ثلاث مدن إسلامية على المجرى الأدنى لنهر سيحون الذي كان يشكل خط الحدود مع مملكة الأتراك الغز في شماله • وكان هؤلاء لم يعتنقوا الإسلام حتى ذلك الوقت • وذكر ابن حوقل أسماء هذه المدن وهي "جند" ، "خواره" ، "القرية الحديثة" (ده نو بالفارسية) ، ويفهم من كلامه أن هذه المدن خضعت لحكم خان الغز ، وأصبحت القرية الحديثة "المقر الشتوى للخان التركي" • ومع ذلك فقد ظل المسلمون يقيمون فيها وفي غيرها من مدن الحدود ، حيث كانت تجرى بين السامانيين والأتراك مفاوضات الهدنة والصلح ، وتعقد الصفقات التجارية بين المسلمين والغز[١١] • ويدل هذا على أن كلا العالمين : التركي غير المسلم ، والإسلامي أخذ يتصور أنه

(١) : الطبرى : المرجع السابق ج ٨ ص١٩٩ — ٢٠٠ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٦ ص٩٥ •
(٢) : ابن حوقل : صورة الارض ص٣٩٨ •
(٣) : النرشخي : تاريخ بخارى ص٨٦ •
(٤) : بارتولد : المصدر السابق ص٨٣ •
(٥) : النرشخي : المصدر السابق ص١٢٨ •
(٦) : النرشخي : المصدر السابق ص١٤٨ و القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص٤٤٧ •
(٧) : زامباور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج٢ ص٣٠٦ •
(٨) : بارتولد : المصدر السابق ص٨٢ — ٨٣ •
(٩) : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٧ ص١٩٧ •
(١٠) : حسن محمود : المصدر السابق ص١٦٩ •
(١١) : ابن حوقل : المرجع السابق ص٤١٩ •

بالإمكان أن تنشأ بينهما علاقات سلمية عادية على الرغم مما كان بينهما من اختلاف . وكان من نتائج نشاط هجرة العناصر الفارسية إلى ماوراء النهر أن قوي تأثير المدينة الفارسية الإسلامية على الأتراك المقيمين في هذه المنطقة . وبدأ بعض هؤلاء يتكلم اللغة الفارسية إلى جانب لغتهم التركية ، التي أخذت تكتب بالحروف العربية وتستغني عن استعمال الكتابة الاويغورية بالتدريج[1] .

انتشار الإسلام ونتائجه

وكان من البدهي أن يستفيد الإسلام من هذه الظروف ، فزاد انتشاره بين سكان البلاد . ولعل من أسباب هذا الانتشار أيضا ، نشاط الدعاة الفرس الذين قدموا من إيران ، مع حركة الهجرة والانتقال الى ماوراء النهر . وسعى بعض هؤلاء الدعاة إلى إقامة المدارس . وقد ساعد هذا الأسلوب في زيادة انتشار الإسلام بين الناس[٢] . وتجاوز الإسلام حدود ماوراء النهر الشمالية ونفذ إلى تركستان . وبلغ حوض نهر "جو" حيث يقع مقر خانية الاتراك القارلوق ، مع تدفق المهاجرين المسلمين الفرس ، باتجاه هذه المناطق[٣] . واعتنق بعض الأتراك الغز هذا الدين ، وقبلوا الدخول في خدمة السامانيين ، وتعهدوا في مقابل المراعي التي منحت لهم ، أن يدافعوا عن حدود الدولة السامانية ضد الأتراك ــ من أبناء جنسهم ــ الذين لم يعتنقوا الإسلام[٤] . وأشار ابن حوقل إلى أنه كان في جيوش السامانيين كثير من الأتراك[٥] .

ومع ذلك فقد ظل بعض جيران السامانيين ، من الأتراك الذين كانوا ينزلون بعض جهات الشرق والشمال على المانوية ، التي كان يدين بها الأتراك قبل وصول الإسلام إليهم . كما ظل بعض سكان ماوراء النهر نفسها ، يدين بالزردشتية (المجوسية كما تسميها المراجع العربية المعاصرة) . وأشار الاصطخري وابن حوقل إلى وجود جماعات من المجوس في سمرقند ، كانوا يعملون فيها كمراقبين لنهر الصغد الذي يمر بالمدينة[٦] . ونقل بارتولد عن ابن النديم ــ صاحب الفهرست ــ أن أحد الحكام السامانيين أحب أن يجبر هؤلاء السكان وغيرهم ممن كانوا يعتنقون المانوية على اعتناق الإسلام ، فأرسل إليه أمير الطغزغزية يقول له : إن المسلمين المقيمين في بلاده أكثر من المانويين المقيمين في بلاد الإسلام ، وأنه سوف ينتقم من المسلمين المقيمين ببلاده ، إذا مس

(1): Samolovitch : Les Langues Turques (E. I. T. III P.P. 957-963) تنسب الكتابة الاويغورية إلى الاويغور ، وهم قوم من الترك كانوا ينزلون في منتصف القرن التاسع الميلادي (حوالي ٨٦٠ م) ، في منطقة بش ـ باليق (المدن الخمسة) الواقعة في شرق تركستان الصينية الحالية ، وأقاموا هنالك لأنفسهم دولة عاشت حتى أيام حركة المغول في القرن الثالث عشر الميلادي بقيادة جنكيز خان . وقد استخدموا أبجدية مشتقة من احدى الأبجديات السامية القديمة ، التي نفذت إليهم بواسطة الصغد والابجدية الصغدية . وقد طلب جنكيز خان من المغول تعلم الخط الاويغوري ، وأصبح على مر الأيام الكتابة الرسمية للدول المغولية في وسط آسية والدولة الايلخانية في إيران . وفي العصر التيموري كان في حاشية تيمور عدد من الكتاب الذين كتبوا بهذا الخط . (انظر لذلك مقالة صموئيلوفتش السابقة في المكان المشار إليه وبارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٣٦ وفؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص ٢١) .

(٢) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٥٨ .

(٣) : بارتولد : المصدر السابق ص ٤٢ .

(٤) : بارتولد : المصدر السابق ص ١٠٤ . (٥) : ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٩٠ .

(٦) : الاصطخري : المرجع السابق ص ٣١٧ وابن حوقل : المرجع السابق ص ٤٠٦ .

السامانيون بسوء[1] .

ويظهر من كتابات المعاصرين ، أن المذهب الذي كان سائداً بين سكان البلاد المسلمين ، هو المذهب السني الحنفي ، وهو مذهب الأسرة الحاكمة السامانية[2] . ولكن السامانيين كانوا يحترمون بقية المذاهب . ويذكر ابن الأثير أنه لما قدم على إسماعيل بن أحمد الساماني أحد فقهاء الشافعية وقف له اجلالاً[3] . ومع ذلك فقد أشار المعاصرون أيضاً إلى نشوب المشاحنات المذهبية في بعض الأحيان ، ولا سيما بين الأحناف والشافعية[4] .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا العصر ، أن انتشار الإسلام بين سكان البلاد ، وكثرة انتقال الفرس المسلمين من إيران للإقامة في ماوراء النهر ، وما رافق ذلك من انتشار المدنية الإسلامية بين الترك فيها ، واستعمال هؤلاء اللغة الفارسية إلى جانب لغتهم التركية ، التي أخذوا يكتبونها بالحروف العربية ، ثم شغفهم بالآداب الفارسية شغفاً كبيرا[5] ، قد ساعد على تقليل الشعور بالفروق العرقية إلى حد كبير بين السكان ، أو إلى عدم الاحتفال بها . وأخذ الكتّاب المعاصرون يطلقون على جميع السكان ، كلمة " مسلمين " وهم يقصدون من هذه الكلمة ، تلك الجماعات المتحضرة التي كانت تسكن ماوراء النهر ، والتي كانت تدين بالإسلام وتعيش في ظل المدينة الإسلامية ، بغض النظر عن أصول هذه الجماعات العرقية ، سواء كانت صغدية أم تركية ، فارسية أو عربية . وأصبحت كلمة " الترك " تؤدي معنى آخر ، يقصد به جماعات البدو التي تعيش في البراري — براري تركستان — والتي كانت تدين بعقائد وثنية — من وجهة النظر الإسلامية — وأصبحت هذه الكلمة (الترك) لاتذكر إلا مقرونة بالكفر أو الحرب أو البعد عن الإسلام في كتابات الجغرافيين المسلمين المعاصرين . فيذكر الاصطخري مثلا أنه : " ليس في الإسلام دار حرب من هم أشد شوكةً من الترك "[6] . وقال المسعودي : عن السفن التي تجري في سيحون نحو بحر خوارزم ، إنها تمر على مدينة للترك يقال لها المدينة الجديدة " وفيها مسلمون والأغلب من الترك[7] ، ولذلك يقول مينورسكي ، عن الجغرافيين المسلمين في القرن العاشر الميلادي أنهم كانوا يتحدثون من الترك ، بوصفهم أجانب وأعداء للإسلام ، وأنهم ذهبوا إلى اعتبار أن بلاد الترك تبدأ شرقي نهر

---

(١) : بارتولد : المصدر السابق ص٥٢ .
(٢) : المقدسي : المرجع السابق ص٣٣٩ .
(٣) : ابن الاثير : المرجع السابق ج ٦ ص٣ .
(٤) : المقدسي : المرجع السابق ص٣٣٦ .
(٥) : الساداتي : المصدر السابق ص١٣٤ الذي أضاف أنه رافق اقتباس الترك الكتابة العربية دخول العديد من الألفاظ والمصطلحات الفارسية والعربية إلى لغتهم، أما ظاهرة الشغف بالآداب الفارسية من قبل الترك ، فسوف يكون لها شأن هام في العصر التيموري ، وسنرجع لبحثها في موضعها .
(٦) : الاصطخري : كتاب مسالك الممالك ص٢٩١ .
(٧) : المسعودي : مروج الذهب ص١١٦ — ١١٧ هذا وقد استمر هذا المفهوم لكلمة الترك عند كتاب القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) فيقول ابن الأثير عن نهر سيحون بأنه نهر فاصل بين بلاد الترك والإسلام . انظر له : الكامل ج ٩ ص٣٣١ وذكر ابن العبري أن جنكيز خان أوفد في عام ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م إلى بلاد خوارزم وفداً يتألف من مائة وخمسين تاجراً " فيهم المسلم والنصراني والتركي " انظر له : تاريخ مختصر الدول ص٢٣٠ .

سيحون ولاتشمل ماوراء النهر[١] .

ويصبح من الممكن ، بناءً على ماقدمناه ، فهم الصورة التي رسمتها لنا كتابات جغرافيي القرن العاشر الميلادي ، عن حالة السكان في مجتمع ماوراء النهر ، في ظل حكم السامانيين ، وسوف يساعدنا ذلك على إدراك مدى التطورات ، التي طرأت على هذا المجتمع فيما بعد ، خلال القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) في العصر التيموري . ويتضح من هذه الصورة أن مجتمع ماوراء النهر في ظل حكم السامانيين ، بلغ درجة من التوازن والاستقرار ظهرت في إنتفاء التمايز العنصري وبعدم قيام الهزات الاجتماعية بشكل لم يتحقق له مثل هذا التوازن والاستقرار فيما مضى في ظل السيادة العربية والجزء الاول من الحكم الفارسي ، وذلك بسبب عمليات الفتح وما رافقها من غارات الترك وجيوش الصين . ولن يتحقق هذا التوازن والاستقرار لذلك المجتمع في المستقبل بسبب ماسوف تتعرض البلاد له من غارات أصناف الترك ، كالغز السلاجقة والقره خانيين ، ثم بسبب العنف والتخريب الذي رافق موجات الغزو المغولي لها ولغيرها من أجزاء العالم الاسلامي ، وأخيرا بسبب ماصاحب هذا الغزو أو جاء بعده ، من انتقال للقبائل التركية والمغولية البدوية وعلى نطاق واسع ، للإقامة في ماوراء النهر وغيرها . لقد حفظ هذا الاستقرار والتوازن الاجتماعيين في ماوراء النهر ، ذلك السد العسكري والحضاري الذي استطاع السامانيون إقامته ، في وجه بدو الأتراك الوثنيين في أواسط آسية[٢] . ولما استطاع السلاجقة الغز والقره خانيون اختراق هذا السد ، ثم تلاهم الخطا والمغول ، فإن الاستقرار والتوازن الاجتماعيين في مجتمع تلك البلاد ، قد اصيبا بهزه عنيفة .

ونستطيع أن نقف على حالة التوازن والاستقرار في مجتمع ماوراء النهر في كتابات الجغرافيين المعاصرين كالاصطخري وابن حوقل عن أخلاق السكان وشمائلهم . وقد أفاض كل من هذين الجغرافيين ، في الحديث عن طيب أخلاق السكان ومن رغبتهم في فعل الخير ، وعن الاستجابة لمن يطلب مساعدتهم ، وأن الناس هناك كأنهم في دار واحدة ، يتنافسون على استضافة الغرباء[٣] . وقيل للاصطخري إن منزلاً في الصغد لم يغلق بابه منذ مائة عام[٤] . وكان هم الناس أن ينفقوا أموالهم في وجوه البر كإقامة الرباطات وعمارة الطرق وفي الجهاد . ويتابع الاصطخري قوله : " وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلا بها من الرباطات . . . وبلغني أن بما وراء النهر زيادة عن عشرة آلاف رباط . "[٥] . وخص ابن حوقل أهل بخارى بأنهم " يرجعون من العلم والأدب والفقه والديانة والأمانة وحسن السيرة وجميل المعاملة وقلة الشر وإفاضة الخير وبذل المعروف وسلامة النية ونقاء الطوية إلى مايفضلون به على سائر من بخراسان "[٦] .

---

(١) : Minorsky: Turan(E. I. T. IV P.P.924-930) P. 926

(٢) : Saunders: The History of The Mongol conquests P. 31 , 37

(٣) : الاصطخري : كتاب مسالك الممالك ص ٢٨٧ـ٢٩١ وابن حوقل كتاب صورة الارض ص ٤٨٣ـ٤٨٧

(٤) : الاصطخري / المرجع السابق ص ٢٨٩ .

(٥) : الاصطخري : ص ٢٩٠

(٦) : ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

التجـارة والرحلات في وسط آسـية

ومما لاشك فيه أن الصورة المشرقة التي أطنب الجغرافيون المعاصرون في الحديث عنها ، لذلك المجتمع ، تقوم على أساس اقتصادي مزدهر ينعكس أيضاً في كتابات هؤلاء الجغرافيين عند كلامهم عن تقدم الزراعة في تلك البلاد . فيصف الاصطخري وادي الصغد بأن القرى تحف به من اليمين واليسار حتى جبال البتم ، حيث البساتين المتشابكة الأشجار والرياض الخضراء والأنهار الدائمة الجريان التي تدير الطواحين(١) . ويعد النرشخي اثني عشر نهراً كانت تمر في بخارى، جميعها من حفر الناس إلا نهراً واحداً . وذكر أن المياه في سمرقند كانت توزعها أنابيب مصنوعة من الرصاص . وتكثر في هذه المدينة الفنادق والحمامات ، وكانت أرض شوارعها مفروشة بالحجارة(٢)، وتقام في أسواق المدن مواسم للتجارة ، لبيع الرقيق والمواشي والثياب بمختلف أنواعها ، ثم البسط والمصليات ، التي كانت تصنع في هذه المدن(٣) . وزاد في ازدهار التجارة ، اهتمام الحكام السامانيين بتوطيد الأمن . فاخترقت القوافل التجارية المنطلقة من ماوراء النهر أواسط آسية إلى الصين . وقد وصلت إلينا من ذلك العصر أخبار رحلتين هامتين ، إلى الصين وإلى بلاد البلغار. وأورد ياقوت الحموي أخبار الرحلة الأولى التي قام بها مسعر بن المهلهل إلى الصين عام ٩١٣م ٣٠١ هـ .(٤) وأما الرحلة الثانية التي قام بها ابن فضلان ، عام ٩٢١م / ٣٠٩ هـ ، إلى بلاد البلغار ، فقد وصلت إلينا في رسالة وضعها ابن فضلان نفسه(٥) . وقد أفاد النشاط التجاري والارتحال عبر أواسط آسية ، الجغرافيين من أمثال ابن خرداذبة(٦) ، الذي استطاع أن يضع وصفاً صحيحاً لطريق الصين . وأدى إلى التوافق بين ماذكرته المصادر الاسلامية من معلومات عن

(١) : الاصطخري : ص٢٩٤ .　　(٢) : النرشخي : تاريخ بخارى ص٥٢ ـ ٥٣

(٣) : الاصطخري : ص٣١٤ ـ ٣١٧ .　　(٤) : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٥ ص٤٤ ومابعدها

(٥) : كان ابن فضلان في ذلك التاريخ عضواً في سفارة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م إلى بلاد البلغار (الصقالبة) ولما عاد وضع وصفاً لمشاهداته عن عبوره بلاد الأتراك الغز ولهذه الرحلة أهمية خاصة لأنها تحدثت عن عادات وتقاليد عند الأتراك البدو الذين مر بهم تنطبق على مانصت عليه تعاليم الشريعة التي أصدرها جنكيز خان بعد ذلك بثلاثة قرون وهي شريعة " الياسا " . وكان ابن فضلان قد عبر بلاد الغز الأتراك ، في طريقه الى بلاد الصقالبة وذكر أن الاتراك الذين مربهم ، كانوا يعيشون حياة بدوية في بيوت من الشعر ، يحلون ويرتحلون ، ويعيشون حياة شقاء ومعاناة لا يدينون بدين ولكنهم يسيرون على قاعدة " وأمرهم شورى بينهم " . وهم يعرفون الإسلام ويقولون لم يعربهم من المسلمين ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، تقرباً منهم . وإذا سمع التركي القرآن الكريم استحسنه وحاول تقليده . وإذا مات الرجل منهم ، تزوج ابنه الأكبر امرأته ، إذا لم تكن أمه . ولا يستطيع أحد من التجار المسلمين ، الذين يمرون بهم أن يغتسل إلا ليلاً ، حتى لايرونه . وإذا استضاف تركي مسلماً ، قدم له غنمة ليقوم بذبحها على الشريعة الإسلامية ، لأن الأتراك يضربون الشاة بالعصا على رأسها حتى تموت . وإذا مات أحدهم وكان قد قتل إنساناً ، فإنهم يضعون على قبره تماثيل خشبية عددها بعدد من قتلهم في حياته ، ويقولون عنهم إنهم خدمه وغلمانه يخدمونه في الجنة" . (انظر رسالة ابن فضلان ص٩١ ـ ١٠٠) . ويظهر التطابق فيما ذكره ابن فضلان عن عادات الترك مع شريعة الياسا الجنكيزية ، بشكل خاص ، في موضوع زواج الأبناء من زوجات آبائهم بعد وفاة هؤلاء ومنع الاستحمام بمياه الأنهار والبحيرات وفي طريقة ذبح الحيوان . انظر : (المقريزي : الخطط ج٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١) و Bouvat: Essia sur la civilisation timuride(J. A.) 1926 CCVIII P.P.193-299

(٦) : ابن خرداذبه جغرافي مؤلف كتاب " المسالك والممالك " متوفى ٩١٣ م / ٣٠١هـ .

أواسط آسية والصين ، مع ماجاء في المصادر الصينية ونقوش أورخون الشهيرة [١] .

وفي الواقع ، فإن السامانيين ، قد وُفقوا في تأمين الاستقرار والازدهار لمجتمع ماوراء النهر ، لأن زمام المبادرة في العلاقات بينهم وبين الممالك التركية عبر الحدود ، كان في أيديهم . فقد عدل السامانيون عن سياسة الدفاع التي سارت عليها الإدارة العباسية السابقة ، ولم يهتموا ببناء الأسوار والقلاع كما فعل العباسيون [٢] لمقاومة غارات البدو . ولكنهم على العكس اتبعوا سياسة الهجوم ، وأخذوا يغيرون على مناطق البراري . وكانت بعض غاراتهم تنتهي بالاستيلاء على بعض المواقع [٣] . فيشير الطبري ، المتوفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، في أحداث عام ٢٨١ هـ (٨٩٣م) التي عاصرها ، أنه ورد في هذا العام خبر يفيد ، أن اسماعيل بن أحمد الساماني والي بخارى قام بغزوة إلى بلاد الترك وأنه استولى على إحدى مدنهم ، وأسر ملكهم وزوجته ونحو عشرة آلاف منهم ، وغنم من الدواب عدداً كبيراً . وقُدّر نصيب الفارس من المسلمين من الغنائم بألف درهم [٤] . ويعلق بارتولد على هذه الحادثة ، بأن الغزوة كانت لمدينة " طراز " (أوليا آتا الحالية) ، الواقعة في إحدى الممرات الجبلية لجبال " تيان شان " [٥] .

ونجح السامانيون أمام الأتراك مرة ثانية ، عام ٢٩١ هـ / ٩٠٣ — ٩٠٤ م . إذ تمكنوا في هذا العام من صد آخر غارة كبيرة يقوم بها الأتراك الوثنيون [٦] على ماوراء النهر . ولاحقهم المسلمون إلى أماكن نزولهم حيث أوقعوا بهم مقتلةً عظيمةً ، وغنموا مغانم كثيرة وعادوا إلى بلادهم . وعلى الرغم من أن كلاً من الطبرى وابن الاثير وصاحب صلة الطبرى قد ذكروا الحادثة ، إلا أن واحداً منهم لم يذكر الجهة التي جاءت منها الحملة ولا المكان الذى بلغته جيوش السامانيين في ملاحقتهم [٧] . وينفرد صاحب الصلة بذكر أخبار غارة قام بها الأتراك عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، تمكن بها هؤلاء من أسر عشرين ألفاً من المسلمين . ولكن أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني لاحق المغيرين وأنقذ الأسرى [٨] . ومهما يكن من أمر — على مايقول بارتولد — فإن غارات السامانيين لم تمكنهم ، إلا من تثبيت أقدامهم في نقطة لاتبعد عن المنطقة الواقعة بين نهري شيرشاق (جيرجق) ، رافد سيحون ونهر تالاس [٩] (أحد الانهار الداخلية في سفوح تيان شان الشمالية الغربية) ، إلا قليلاً .

---

(١) : بارتولد : المصدر السابق ص٤٢ وحسن محمود : المصدر السابق ص١٥٥ .
(٢) : كان المهدى قد بنى سوراً حول بخارى وبنى الرشيد سوراً حول سمرقند بعد تهدم سورها القديم . انظر : النرشخي : تاريخ بخارى ص٥٥ — ٥٦ واليعقوبي البلدان ص٢٩٣
(٣) : بارتولد : المصدر السابق ص٥٩ .
(٤) : الطبرى : المرجع السابق ج ٨ ص ١٦٧ .
(٥) : بارتولد : المصدر السابق ص٤٩
(٦) : الطبرى : ج ٨ ص ٢٣٢ والقرطبي : صلة تاريخ الطبرى ص٥ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص١٠٩ .
(٧) : القرطبي : الصلة ص٣٠
(٨) : بارتولد : المصدر السابق ص ٣٩ .
(٩) : ابن الاثير : المرجع السابق ج ٧ ص ١٨٤ .

وأخذت أحوال السامانيين بالانحطاط نتيجة انقسام الأسرة المالكة على نفسها ، وعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : " واختل ملك آل سامان وضعف أمرهم ضعفاً ظاهراً ، وطمع بهم أصحاب الأطراف وزال ملكهم بعد فترة قصيرة ".[1] وفي الواقع فان قيام أول دولة تركية مسلحة ، في أواسط آسية ـ هي دولة القره خانيين ـ ثم غاراتها المتكررة على أملاك السامانيين ، كان له الدور الحاسم في إسقاط حكم هؤلاء . وكانت آخر هذه الغارات عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م على بخارى ، حيث اعتقل آخر الحكام السامانيين مع أفراد اسرته[2] .

نهاية السامانيين

ويعني استيلاء القره خانيين الأتراك على ماوراء النهر ، قيام السيادة التركية في هذه البلاد .

---

(١) : ابن الاثير المرجع السابق ج ٧ ص١٨٤ .
(٢) : ابن الاثير : المرجع السابق ج ٧ ص١٩٧ وابو الفداء المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص١٤ والقلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٤٧ .

الفصل السادس

ماوراء النهر في عصر السيادة التركية

٣٨٩ــ٦١٧هـ (٩٩٨ــ١٢٢٠ م)

القره خانيون ــ أصولهم ــ امتداد الدولة ــ اعتناقهم الإسلام ــ فتح ماوراء النهر ــ العلاقات مع الغزنويين ــ أعمال القره خانيين في ماوراء النهر ــ الخاقان إبراهيم بن نصر ــ تقاليدهم التركية ــ الأثر الإيراني ــ اللغة التركية والعربية والفارسية ــ الخطا ــ مغادرتهم الصين ــ وصولهم إلى تركستان ــ أعمالهم في ماوراء النهر ــ الصراع مع الخوارزمية ــ أعمال الخوارزمية في ماوراء النهر ــ قدوم كشلو ــ تعقب المغول له .

القره خانيون

قبل أن يقدم القره خانيون إلى ماوراء النهر ، وينهوا حكم السامانيين فيها . كانت لهم دولة في آسية الوسطى . ويرجع ظهورهم في تلك المناطق إلى مطلع القرن الرابع الهجري ، (الربع الاول من القرن العاشر الميلادي). وانتهى بقدومهم إلى ماوراء النهر ٩٩٨ م/ ٣٨٩ هـ ، عصر السيادة الفارسية في هذه البلاد . وبدأ عصر السيادة التركية الإسلامية فيها . واستمر حكمهم للبلاد حتى عام ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م)، عندما انتزعها منهم أبناء جنسهم الأتراك الخوارزميون .

وكانت " كاشغر " أول عاصمة معروفة للقره خانيين في آسية الوسطى . ثم اتخذوا "بلاساغون"[١] الواقعة في حوض نهر "جو" مقراً لهم .[٢] وتبرز بادئ ذي بدء ، مشكلة تحديد إنتماء القره خانيين إلى أي من فروع الأتراك الرئيسية (الغز ، القارلوق ، والطغزغز) . ويذكر ابن الأثير[٣] أنهم ينتمون إلى "أفراسياب" ، البطل الأسطوري الذي ذكرته الشاهنامة ، على أنه جد الأتراك . وقد قتل في حروبه مع الفرس .[٤] ولذلك فقد كان من بين التسميات التي أطلقت على الدولة القره خانية ، تسمية "الدولة الافراسيابية" . وأما ابن خلدون فيشير إلى غموض أصول البيت المالك القره خاني . ويقول إن الشعب الذي كان يخضع لحكمهم ، يتألف من عدد من القبائل منها القارغلية (ربما القارلوق) وبقايا الغز بعد أن انسحب منهم السلاجقة إلى إيران[٥] (خراسان) . وتتردد الأبحاث الحديثة في هذا الموضوع كثيراً ، فيرى رادلوف أن القره خانيين من الأويغور ، ويدعم رأيه بأنه قد ألف لهم وفي بلادهم أقدم المؤلفات الإسلامية التي وصلت الينا ، باللغة التركية وبالكتابة الاويغورية[٦] .

أصولهم

---

(١) : ابن خلدون كتاب العبر (٤) ص ٨٣١ .

(٢) : يرى بارتولد أننا لانستطيع اليوم تحديد موقع بلاساغون بالضبط في حوض هذا النهر ويرى "هوار" (Huart) أنها تقع على الشاطئ الأيمن لهذا النهر إلى الشمال الغربي من بحيرة ايسيق كول . قابل بين Barthold et Boyie: Balasaghun (E.I.T.II) وبين Huart; Doucuments de L'Asie Centrale..(J.A.) ser 4. 1944 P. 608 .

(٣) : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ص٢

(٤) : انظر ماذكره المسعودي عن افراسياب في مروج الذهب ج ١ ص ٢٤٩ .

(٥) : ابن خلدون : كتاب العبر م٤ ص ٨٤٥ .

(٦) : Barthold: La Litterature Jaghtaide (E.I.T.III P.P.963-965) P. 963

ويشير " ساوندرز " Saundres إلى احتمال انتمائهم إلى الغز[1] . ولكن بارتولد الذي يشير إلى الغموض الذي يحيط بأصل هؤلاء ويعترف بصعوبة الوصول إلى احكم قاطع في هذا الموضوع ، فيقول إن هنالك قصصاً تشير إلى انتصار الطغزغز على القارلوق ، وإلى احتلال كشغر التي كانت في منطقة القارلوق ، من قبل قبيلة طغزغزية ، تدعى قبيلة " ياغما " (Yaghma) ، وأن القرهخانيين هم من زعماء الطغزغز أو من قبيلة الياغما الذين قضوا على مملكة القارلوق[2] .

وقد عُرف حكام الدولة وأتباعهم باسم ، الترك أو الخاقانية . وعرف بعضهم بلقب " الايلك " الذي قُرئ على بعض نقودهم وقد أعطيت لهذا اللقب صيغ شتى "ايلك — ايليك — الك — اليك"[3] ودعيت دولتهم به أحياناً الدولة الايلكخانية . وحدد كل من ابن الأثير وابن خلدون المناطق التي خضعت لهم في آسية الوسطى ، وهي تركستان وقاعدتها كشغر ثم بلاساغون ويمتد نفوذهم من ناحية الشرق حتى حدود الصحراء المؤدية إلى الصين ، ويصل في الغرب إلى مناطق الشاش وطراز التي كانت خاضعة لهم أيضاً ، وأما من الجنوب الغربي فتأتي بلاد ماوراء النهر بحدودها الشمالية الشرقية لتقف عندها سلطة القره خانيين[4] . ويبدو أن الدولة كانت تتألف من إمارات متعددة ، يحكمها امراء من البيت المالك وكانت الخلافات تنشب من وقت لآخر بين هؤلاء الحكام[5] . ويستعين بعضهم على بعضهم الآخر . كما كانوا يستعينون بحكام الممالك المجاورة .

كان القره خانيون على علاقات قوية بالصين قبل إسلامهم . ولما اعتنقوا الإسلام حولوا أنظارهم نحو الغرب[6] . وكان إسلام القره خانيين نتيجة الجهود التي بذلها السامانيون ، عن طريق البعوث التي كانوا يرسلونها ، لنشر الاسلام بين القبائل التركية في أواسط آسية . ولم يستطع الاويغوريون الذين كانوا في ذلك الوقت (خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين) يعتنقون المانوية أن يقاوموا انتشار الاسلام ، رغم الجهود التي بذلوها في هذا السبيل[7] . وكان "ساتوق بغراخان" أول من اعتنق الإسلام من الحكام القره خانيين[8] . ويذكر ارنولد أن إسلام ساتوق كان عام ٩٦٠م / ٣٤٩ هـ ، على يد أحد الدعاة السامانيين هو " أبو النصر الساماني " وكان أميراً من الأسرة المالكة السامانية ، ولكنه احترف التجارة وخصص أرباحها لنشر الاسلام[9] . وأسلم مع ساتوق جميع أفراد شعبه وكانوا يعدون مائتي ألف خيمة[10] .

---

(١) : Saunders: op, cit. P. 38

(٢) : Barthold: Turkestan dowon the Mongol Ivastion P. 275

(٣) : Bosworth: Ilek-khans(E.I.T.III P.P.1140-1144)P. 1140 .

(٤) : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٦٠ وابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ص ٨٣٠ .

(٥) : ابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ص ٨٣٧ و ٨٣٨ و ٨٣٩ و ٨٤٠ .

(٦) : Huart : op. cit. P. 608

(٧) : Spuler : Bish-Balik.(E.I.T.I P.1177-1178) P. 1178

(٨) : ابن الأثير ج ٩ ص٦ وابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ص ٨٤٥ . ويورد كل من ابن الأثير وابن خلدون قصة عن إسلام ساتوق تقول إنه شاهد حلماً بأن رجلاً من السماء خاطبه باللسان التركي بما معناه أسلم تسلم في الدنيا والآخرة فأسلم في منامه ، وأصبح مظهراً إسلامه .

(٩) : ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(١٠) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص٦ وابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ص ٨٤٥ .

اعتنق القره خانيون الإسلام على المذهب السني الحنفي أيضاً . وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بشكل صريح ، عندما قال عن أحد الحكام القره خانيين ، وهو "ايلك خان افراسياب" المتوفى في ٩٩٣ م / ٣٨٣ هـ إنه "كان ديناً عادلاً حسن السيرة محباً للعلماء مكرماً لهم متشيعاً سنياً وكان موالياً لآل الرسول"[(١)] . كما ورد في صورتي وتفقيتين وصلت إلينا ، وكان أحد ملوكهم ويدعى إبراهيم بن نصر طمغاج بغراخان المتوفى عام ١٠٦٨ م / ٤٦٠ هـ[(٢)] ، قد وقفهما لإنشاء مدرسة ومكتبة ومجلس لقراءة القرآن ومستشفى في سمرقند . واشترط في الوقفية الأولى أن لا يقوم بالتدريس في المدرسة إلا من كان على المذهب الحنفي[(٣)] . ويقول بارتولد "إن القره خانيين قد عُرفوا بغيرتهم الشديدة على الإسلام وحماسهم في تطبيق أحكامه ، ولم يعرف عن أحد من حكام هذه الأسرة أنه كان يشرب الخمر"[(٤)] . وقد دفعهم حرصهم وتمسكهم بالمذهب السني على محاربة البدع الدينية التي كانت ترد عليهم من مغرب العالم الإسلامي . ويذكر ابن الاثير أنه بعد أن استولى القرخانيون على ماوراء النهر ، أوقع الحاكم القره خاني عام ١٠٤٥ م / ٤٣٦ هـ ، برسل الإسماعيلية الذين وصلوا إلى هذه البلاد ، ودعوا فيها لخليفة القاهرة المستنصر بالله الفاطمي (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م / ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ)[(٥)] .

وسعى القره خانيون بدورهم لنشر الإسلام بين القبائل التركية الأخرى[(٦)] . وأرسل أحد حكامهم ويدعى طغان خان ، المتوفى (حوالي ١٠١٧ م / ٤٠٨ هـ) ، إلى محمود الغزنوي في مسعى لإقامة هدنة بين الطرفين وليتمكن القره خانيون من الانصراف للدعوة إلى الاسلام بين القبائل التركية . وقال له : "المصلحة للإسلام والمسلمين أن تشتغل أنت بغزو الهند وأشتغل أنا بغزو الترك"[(٧)] . ونجح هذا الحاكم نفسه في صد غارة كبيرة قام بها الترك الوثنيون على بلاده كانت تضم مائة ألف خيمة (خركاه) بعد أن استصرخ المسلمين لمساعدته ، وكان ذلك عام ١٠١٧ م / ٤٠٨ هـ[(٨)] . وانتهت جهود القره خانيين في هذا المجال إلى أن اعتنق الاسلام عدد كبير من الترك ، عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ ـ ١٠٤٤ م ، ويذكر ابن الأثير الذي قدر عددهم بعشرة آلاف خيمة أن هؤلاء قبل إسلامهم كانوا يغيرون على بلاد القره خانيين ويعيثون فيها فساداً ، ولكنهم انساحوا بعد إسلامهم في بلاد المسلمين[(٩)] . وارتحل من لم يسلم إلى الصين .

---

(١) : ابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ص ٨٣٢ ويلاحظ هنا أن ابن خلدون قد استعمل لفظة (متشيع) بمعناها الأصلي وهو (النصير) وليس بمعناها الاصطلاحي .

(٢) : وكان ابن الأثير قد ذكر أن إبراهيم هذا لقب نفسه (مولى رسول الله) انظر : الكامل لابن الاثير ص ١٦١ من ج ٧ .

(٣) : Khder e , Cahen: deux Actes de Waqf d'un Qarahanide de L'Asie Centrale..(J.A.)T.CCLV(1967)F.3-4 P.P.305-334P.314,320 327

(٤) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٨٤ .

(٥) : ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١٤٠ ووصف الحادثة بأن هذا الحاكم القره خاني ويدعى بغراخان اجتهد حتى عرف زعماء الإسماعيلية ثم دعاهم إليه بحجة الميل إلى مذهبهم وقضى عليهم جميعاً وكتب بذلك إلى الأمصار لملاحقتهم . (٦) : ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٤٥ .

(٧) : ابن الاثير: الكامل ج ٧ ص ٢٩٦ وأبو الفداء : المختصر ج ٢ ص ١٥٧ وابن خلدون: العبر م ٤ ص ٧٩٣ .

(٨) : ابن الأثير الكامل ص ٢٩٦ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٧٩ نقلاً عنه .

(٩) : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٨ وابن خلدون العبر م ٤ ص ٨٣٨ .

رافق انتشار الإسلام استعمال اللغة العربية كلغة رسمية للدولة ، في مجال القضاء على الأقل . ولقد تم العثور مؤخراً في مدينة يرقند في أواسط آسية ، على ثلاثة عقود تتحدث عن بيع أراضٍ ، ويرجع تاريخها إلى الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ومطلع القرن السادس (آخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر الميلاديين) . وقد حررت نصوص هذه العقود بلغة عربية فصيحة ، يفهم منها أن السكان كانوا لا يفهمون إلا اللغة التركية ، ولذلك جرى النص في هذه العقود على أنها قد قُرئت على أصحابها باللغة التي يفهمونها . وجاء في العقد الثاني منها ما يشير إلى أن التركية ، هي اللغة التي كانت متداولة بين السكان .[1] .

ويفهم من كلام ابن خلدون أن أملاك القره خانيين "قد تاخمت أملاك السامانيين في بعض جهات نهر سيحون الأعلى ، في مطلع القرن الخامس الهجري ".[2] في الوقت الذي كان فيه الحكم الساماني قد بلغ مرحلة شديدة من الضعف ، بسبب ضعف شخصيات المتأخرين من الحكام السامانيين ، وسيطرة وشغب القواد العسكريين الذين أخذ بعضهم يحرض القره خانيين على غزو ماوراء النهر[3] . وأطمعت الحال التي وصل اليها الحكم الساماني في ماوراء النهر الغزنويين ، أتباعهم السابقين وجيرانهم في خراسان ـ بهم[4] . وكان سكان ماوراء النهر في الوقت نفسه ، لا يبدون حماسا لقتال القره خانيين لأنهم مسلمون ، وقد أفتى الفقهاء في بخارى أنه لا يجوز الجهاد إلا ضد الكفار . وفضلاً عن ذلك فإن هنالك روايات تقول إن قدوم القره خانيين إلى ماوراء النهر ، كان استجابة لطلب بعض الحكام المحليين (الدهاقنة) ، الذين كانوا يشكون من شدة وطأة حكم السامانيين[5] .

فتح ماوراء النهر

ولما لمس القره خانيون مبلغ الضعف ، الذي بلغه الحكم الساماني ساروا إليه . وأخذوا يقتطعون أجزاءً من أملاك السامانيين ويضمونها إليهم بالتدريج[6] . وكانت أول مدينة سامانية وقعت في أيديهم ، كما يقول بارتولد ، هي "اسفيجاب".[7] عام (٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) . ثم دخلوا سمرقند بعد أربع سنوات وبعدها بعامين دخلوا بخارى العاصمة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م ، حيث اعتقلوا

---

(١) : تم العثور على هذه العقود من قبل بعثة الفرنسي "بيلليو" (Pelliot) في مطلع القرن الحالي في يرقند ، وجاء في العقد الأول قوله : "بعد أن قُرئ عليهم بلسان عرفوه وفهموه" . وكان تاريخه رمضان ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م . وورد في العقد الثاني المؤرخ في شوال عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م "إن الأراضي المباعة تقع في موضع يقال له بالتركية سنماس" . وجاء في العقد الثالث ، وتاريخه الأول من ربيع الأول عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، "أنه قرئ للمذكر عليهما بلسان عرفاه وفهماه" . ويوضح ذلك أن كلا البائع والشاري كانا لا يعرفان العربية . وتوحي أسماء الأشخاص التي وردت في هذه العقود ، إسرائيل موسى بن هارون طاح ، أو كابن نتجق ، وسليمان بغراسوياشي ، وجغري صل باشي ، بأنها أسماء تركية إسلامية . انظر : Huart; op. cit. P.P. 607-623 .

(٢) : ابن خلدون : العبر م٤ ص٨٤٠ .

(٣) : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص١٩٧

(٤) : ابن خلدون العبر م٤ ص٧٧٦ .

(٥) : بارتولد : المصدر السابق ص٨٢ ـ ٨٣

(٦) : ابن الاثير الكامل ج ٧ ص١٦١

(٧) : بارتولد : المصدر السابق ص٨٢ .

آخر الحكام السامانيين مع أفراد أسرته[1] • ومما تجدر الإشارة اليه ، أنه كان في عداد الجيش القره خاني ، الذى أغار على بخارى أحد زعماء الأتراك الغز ، وهو أرسلان بن سلجوق — رأس الأسرة السلجوقية —[2] • ولما كان القره خانيون يستولون على ماوراء النهر توفي " سبكتكين " مؤسس الدولة الغزنوية ، وآل الحكم إلى ابنه محمود الغزنوى (٣٩٠ — ٤٢١ هـ / ٩٩٨ — ١٠٣٠م) الذى أعلن استقلاله عن السامانيين[3] • وتحسنت العلاقة بين الغزنويين والقره خانيين • وأرسل محمود يهنيء القره خانيين لإحتلالهم بخارى • وخطب لنفسه ابنه الايلك خان • " واتحدت الحال بين السلطانين " ثم لم تلبث أن تعكرت العلاقات بينهما بسرعة بسعي السعاة فأنجاز القره خانيون على خراسان ، ولكن محموداً صدهم عنها في معركة بلخ عام ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م[4] •

---

(١) : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص١٩٧ •

(٢) : اندفعت موجة السلاجقة الغز من خلال الصراع الساماني — القره خاني • ويعلل الراوندى حركة الغز هذه من أماكنهم ، عند المجرى الأدنى لنهر سيحون إلى ماوراء النهر بسبب الازدحام وتكاثر أعدادهم • (انظر : الراوندى : راحة الصدور ص١٤٥) • وينتسب هؤلاء إلى جدهم الأكبر تقاق ، الذى كان يقيم بجوار ملك الغزية • ولما حاول هذا الإغارة على بلاد الإسلام (ماوراء النهر) ، نهاه وتشاجر معه ، ثم اصطلحا • وولد لقاق ابنه سلجوق ، الذي عينه ملك الغز "سباشي" (قائداً للجيش) • ولما أحس سلجوق بتغير الملك نحوه • انتقل من دار الحرب إلى دار الإسلام واعتنق الاسلام وأقام بضواحي مدينة جند على ضفاف سيحون ، يغزو الكفار ويمنع ملكهم من أخذ الجزية من المدن الإسلامية ، القائمة على سيحون ، والتي كانت خاضعة لحكمه ، وتقدم أولاده بعد موته من ضواحي جند إلى ضواحي بخارى ، ولكن حاكمها الساماني أساء جوارهم ، فلجأوا إلى القره خانيين في تركستان (انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص٢٢ وابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ص٨٠٦) ، ولما غزا محمود الغزنوى ماوراء النهر عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م واحتل بخارى ، نفى أرسلان بن سلجوق سجيناً إلى إحدى قلاع الهند • والثخن في أتباعه لأنه كان يتعرض لرسله إلى ملوك الترك ، ولذلك وقع العداء بين السلاجقة والغزنويين • واستطاع فرع من السلاجقة برأسه طغرليك بن ميكائيل بن سلجوق ، أن يتقدم عبر خراسان التي كانت تحت حكم الغزنويين إلى بغداد ، حيث أقاموا سلطنة فيها ، إلى جانب الخليفة العباسي • واستطاع السلاجقة إعادة توحيد بعض أجزاء الدولة العباسية • وقدموا بعد ذلك بغزوات متتالية من خراسان إلى ماوراء النهر ، محتجين بأنهم يمثلون الخليفة العباسي صاحب السلطة العليا على كل أجزاء العالم الاسلامي • وقتل في إحدى هذه الغزوات السلطان السلجوقي ألب أرسلان عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م ، متأثراً من جراح أصابه بها أحد الجند القره خاني وقدم ابنه وخليفته ملكشاه عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م إلى ماوراء النهر فدخل سمرقند ثم تقدم إلى أوزكند ، وأجبر حاكم كشغر القره خاني على إقامة الخطبة باسمه (انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص١٤٩) •

(٣) : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص١٩٦ •

(٤) : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ وابن خلدون : العبر م٤ ص ٧٧٦ — ٧٨٨ •

أعمال القره خانيين في ماوراء النهر

ولم يقم الحكام القره خانيون في ماوراء النهر في مدنها القديمة ،كبخارى وسمرقند بل انتقوا لإقامتهم إحدى مدن الحدود القريبة من بلادهم ، هي مدينة " اوزكند "(١) . ويظهر من الفتوى التي أصدرها رجال الدين المسلمون في العهد الساماني في ماوراء النهر والقائلة بعدم جواز قتال القره خانيين لأنهم مسلمون ،أن الناس في تلك البلاد لم يعتبروا هؤلاء غرباء عنهم . وتلاقى هنا حماس السكان مع حماس الحكام القره خانيين ، لتأييد الإسلام على المذهب السني ، فلما ظهرت علائم الزندقة على حاكم سمرقند القره خاني عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ،نتيجة لأسره وإقامته مدة من الزمن في بلاد الديلم ،تآمر عليه جنده واعتقلوه ودعوه إلى قضاة سمرقند ، فحكم عليه بالموت وقتل ، وحوّل العرش لأحد أبناء عمومته (٢) .

وحمل حكام ماوراء النهر القره خانيون لقب ايلكخان في أول الأمر ،وكانوا يعتبرون تابعين لخانات كشغر . ثم لم يلبث حكام سمرقند أن اتخذوا لأنفسهم لقب " خان " ليعلنوا بذلك أنهم أضحوا مستقلين عن هؤلاء . وترد بعض الأدلة على أن الحكام القره خانيين في ماوراء النهر ، قد حافظوا على الإستقلال الإدارى للحكام المحليين (الدهاقنة) ،ويستنتج بارتولد من العثور على نقود مسكوكة في العهد القره خاني ،تحمل اسم دهقان منطقة " ايلاق " ،احتفاظ هؤلاء الدهاقين بامتيازات سياسية واقتصادية (٣) ، وتشهد نصوص الوقفيتين المشار إليهما آنفا،على مدى ماكان يبذله الحكام القره خانيون من اهتمام بأمور رعاياهم الدينية والصحية . وتتحدث الوقفية الاولى التي كانت مغفلة التاريخ وقد تم اكتشافها عام ١٩٦٧ — كما رأينا — عن أن حاكم سمرقند القره خاني (ابراهيم بن نصر طمغاج بغراخان) ،وقد عزم على إقامة مدرسة ومكتبة ومجلس لقراءة القرآن وتشير الوقفة الثانية إلى أن الحاكم نفسه قد أسس في سمرقند مستشفى للعلاج وتقديم الطعام بالمجان ،وأوقف لهذا العمل أوقافاً لينفق منها على المستشفى . وشهد على الوقفية قاضي سمرقند وهي مؤرخة في العشر الأوسط من رجب عام ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) (٤) . ويظهر من الألقاب التي منحها لنفسه في هاتين الوقفيتين مدى تمسكه بالدين ، كما يعتبر نفسه تابعاً للخليفة العباسي ، باعتباره أميراً للمؤمنين ، ونص اللقب هو " عماد الدولة وتاج الملة سيف خليفة الله تعالى أمير المؤمنين " . وكان ابن الأثير قد أشاد بزهد هذا الخان ، وشهد بتقواه ،وقال : إنه قد هم بالتنازل عن العرش ، عندما جاءه واعظ وقال له : " إنه لا يصلح للملك " لولا تدخل أهل البلد . واستطاع الخاقان إبراهيم بن نصر — هذا — أن يحسن علاقاته مع الخليفة العباسي القائم بأمر الله (١٠٣١ — ١٠٧٥ م / ٤٢٣ — ٤٦٨ هـ) . وسأله أن يتدخل ليكف السلطان السلجوقي ألب أرسلان ،عن الإغارة على أملاك القره خانيين في ماوراء النهر ،وقد حقق له الخليفة هذا الطلب (٥) .

الخاقان إبراهيم بن نصر

---

(١) : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص ٨٢ — ٨٣
(٢) : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٧٥ وابن خلدون : العبر م ٤ ص ٨٤١ .
(٣) : بارتولد : المصدر السابق ص ٨٣ .
(٤) : Kader et Cahen: op. cit. P. 320
(٥) : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٩٨ .

تقاليدهم التركية

نقل القره خانيون إلى ماوراء النهر بعض أنماط حياتهم . ويفهم مما كتبه بعض المؤرخين أن القره خانيين ظلوا يميلون إلى حياة البداوة والتنقل ، فلما حاول أحد ملوكهم عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م أن يجبرهم على الاستقرار والعمل بزراعة الأرض ثاروا عليه ، فحاربهم وأجلاهم عن مناطق بخارى وسمرقند إلى كشغر . وكان هؤلاء يشكلون طبقة متميزة مسلحة . وقد زادوا من اعتداءاتهم على السكان ، فكانوا يتجولون بأسلحتهم في المزارع والغياض ، ويمدون أيديهم إلى أموال السكان ، وينهبون ويقتلون ، فعاتبهم أحد فقهاء بخارى بأن الكفار لم يفعلوا فعلهم [١] . وعلى الرغم من اعتناق القره خانيين للإسلام وتشددهم في تطبيق أحكامه ، فقد ظلت لهم بعض العادات والأساليب المخالفة له ، إذ لما حكم مجلس فقهاء سمرقند عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) على حاكم المدينة أحمد خان بالإعدام بتهمة الزندقة والفساد . نفذ به الحكم خنقاً [٢] . تطبيقاً لقاعدة تركية قديمة كانت تحرم إهراق دماء الملوك لأنه مقدس في اعتقادهم .

الأثر الإيراني

ومع ذلك فإن تيار المدينة الفارسية الإسلامية ، ظل يتدفق عبر جيحون إلى ماوراء النهر في العصر القره خاني [٣] . فقد زعم القره خانيون أنهم من نسل افراسياب البطل التركي الأسطوري ، الذي ورد ذكره في شاهنامة الفردوسي ، وغيرها من المؤلفات الفارسية . ودعوا أنفسهم " آل افراسياب " [٤] . وربما كانت حوادث الصراع بين القره خانيين حكام ماوراء النهر والغزنويين حكام خراسان (وهم من الأتراك أيضا) ، والتي كان يُنظر إليها في إيران على أنها نوع من الصراع القومي بين الترك والفرس ، كانت سبباً في ظهور قصيدة الشاهنامة في ذلك العصر [٥] .

اللغة التركية والعربية والفارسية

تطورت اللغة التركية التي تكلمها القره خانيون ، عن اللغة الاويغورية ، التي كانت شائعة قبل دخول الاسلام ، الى وسط آسية . واستعمل القره خانيون في كتابة لغتهم الحروف العربية [٦] . وربما كانت القصيدة التي نظمها يوسف خاص الحاجب البلاساغوني — وكان يعمل حاجباً في القصر الملكي — أول أثر معروف وصل إلينا من العهد القره خاني ، وباللغة التركية التي كتبت بالحروف العربية .

(١) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٨٩ .

(٢) : وقد عرفت هذه القاعدة عند السلاجقة وقام طغرلبك بقتل أحد أقربائه خنقاً بوتر قوسه وسار على العادة ذاتها المغول في القرن الثالث عشر ، ونصت عليها شريعة " الياسا " التي أصدرها جنكيز خان . ولما أسر هولاكو الخليفة العباسي المعتصم بالله عند غارته على بغداد ، قتله ركلاً بالأقدام تطبيقاً لهذه القاعدة . (انظر : المغول في التاريخ لفؤاد عبد المعطي الصياد ص ١٧٥). وكان الايلخانيون في إيران وسلاجقة الروم في الأناضول يتبعونها في بعض الأحيان . ويبدو أن أسلوب الشنق المتبع كوسيلة لازهاق أرواح الكبراء في الدولة في أيام تيمور وقطع الرأس الأسلوب المتبع لإزهاق أرواح عامة الناس هو استمرار لهذه القاعدة القديمة . انظر : Le strange: op. cit. Introd. P. 14

Browonc: A Literary History of Persia V. III P. 200

Sykes: History of Persia T. II P. 133

(٣) : بارتولد : تاريخ الترك ص ٨٢ . (٤) : بارتولد : المصدر السابق ص ٨٥

(٥) : بارتولد : المصدر السابق ص ٨٥ أيضا . وتجعل الشاهنامة من افراسياب أحد ملوك الأتراك الأسطوريين الذين حكموا في كاشغر بطلا قام بأعمال عظيمة وأغار على إيران ثم قتل أخيراً على يد رستم أحد أبطال الفرس الأسطوريين . انظر: الشابي : الأدب الفارسي في العصر الغزنوي تونس ١٩٦٥ ص ٥٧ ، والخشاب : الشاهنامة للفردوسي مجلة تراث الانسانية ع ٤ م ٢ (١٩٦٦) ص ٥-٣٠

(٦) : Samolovich: Les Langues titques (E.I.T.III P.P.975-963) P. 959

وقد دعيت القصيدة بعنوان : " قوتادغوبيليك " ويعني بالعربية "علم الإسعاد " أو " العلم الذي يسعد "[١] والقصيدة مجموعة نصائح أخلاقية بأسلوب تعليمي ، قدمها المؤلف للخان القره خاني في كشغر . وينقل بارتولد عن مؤلف عاش في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، يدعى محمود الكشغري ، أن لغة أهل كشغر كانت أفصح لسان تركي ، ولكن ذلك لم يمنع - كما دلّت على ذلك الوثائق المكتشفة حديثًا والتي أشرنا اليها سابقا - أن تعتبر اللغة العربية لغة رسمية في مجال القضاء ، تحرر بها العقود والوقفيات . مع الاستعانة باللغة التركية والحروف الاويغورية ، إذا دعت الضرورة . فقد ظهر على ظهر أحد العقود التي أشار اليها " هوار " (Huart) في مقالته السابقة سطر بالتركية المكتوبة بالحروف الاويغورية . كما عثر على نقود قره خانية ظهرت عليها الكتابة الأويغورية .

وهنالك من يرى أن الإنتاج الأدبي الفارسي ، استمر في أراضي القره خانيين مع نمو الانتاج الأدبي التركي . أما في ماوراء النهر ، فمن المرجح أن اللغة الفارسية هي التي ظلت المتداولة في المدن الكبرى كسمرقند . وظل للأدب الفارسي والشعراء الفرس المكان الأول فيها[٢] . بحكم أن غالبية العنصر المتحضر من السكان ، ترجع في أصولها إلى العنصر الفارسي .

ولم يكد مطلع القرن السادس الهجري - (مطلع القرن الثاني عشر الميلادي) يطل ، حتى كانت جموع الخطا ، تتدفق على تركستان وغيرها من مناطق آسية الوسطى . وافتتح قدوم هؤلاء عهداً من الصراع التركي المغولي استمر حتى العصر التيموري . وقد ساهم في هذا الصراع الخطا ثم أقرباؤهم المغول من جانب ، والخوارزميون الأتراك من جانب آخر . ولم يكن نجاح الخوارزميين في هذا الصراع إلا نجاحا مؤقتاً ومحدوداً ، خلال المدة الأولى منه، عندما كانوا يواجهون الخطا ، ولم يلبث الخوارزميون أن انهارت مقاومتهم أمام العاصفة المغولية ، بعد أن تلاشى القره خانيون كقوة في آسية الوسطى خلال هذا الصراع الخوارزمي مع الخطا .

بدأ الخطا الصراع في ذلك التاريخ ، على إثر خروجهم من الصين[٣] ، وتقدمهم نحو تركستان ، حيث كان يقيم القره خانيون . ويقول ابن الأثير إنه سبق لطائفة من الخطا القدوم إلى الاراضي الخاضعة للحكم القره خاني ، والدخول في خدمة

---

(١) : Samolovich: ibid.

(٢) : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص١٢٤ - ١٢٥

(٣) : الخطا أصلا طائفة من طوائف بدو المغول ، أغاروا على إقليم منشوريا الصيني في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، واستطاعوا أن يؤسسوا سلالة مالكة حكمت الصين هي " أسرة لياو " ، وتحولوا هناك عن حياة البداوة بعد أن تمثلوا حضارة الصين ، ومالت حياتهم إلى السلم والدعة . ولم يلبث الصينيون أن طردوهم من بلادهم على يد أسرة صينية قوية هي أسرة " كين " (انظر كلا من : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص٩٦ و D'Ohsson: op. cit. T. I. P. 163 & Spuler : op. cit. P. 13

حكامهـا [1] ، في تاريخ سابق • ولكن موجه الخطا الثانية في القرن السادس الهجري بلغت بلاساغون ، وهي أحد مراكز الحكم القره خاني ، عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م واستولت عليها [2] • ولم يلبث الخطـا أن استولوا على المدينة القره خانية الرئيسية الثانية كشغر [3] • وحمل حاكـم الخطـا لقب "كورخـان" (ملك الملوك) ، واتخذ بلاساغون عاصمةً له • ولم تلبث أن نقلـت العاصمة إلى كشغر [4] • لأنها أقرب إلى ماوراء النهر التي استمرت تحت سيطرة حكامها المحليين القره خانيين • واتخذ الخطـا البوذية ديانة رسمية لهم • وكانوا قد حملوها معهم عند مبارحتهم الصيـن •

وأشعر نقل الخطا لعاصمتهم من بلاساغون إلى كشغر حكام ماوراء النهر القره خانييـن بالقلق [5] • ودفعهم سقوطُ مدينة "خجندة" الواقعة إلى الجنوب من نهر سيحون عند منعطفه الكبير نحو الشمال بأيدي الخطـا عام ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م ثم فشلهم في استرجاع المدينة ، إلى الاستنجاد بالسلاجقة في خراسان • وأسرع السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي (١٠٩٦ — ١١٥٧ م / ٤٨٩ — ٥٥٢ هـ) في عبور جيحون إلى ماوراء النهر ، للقاء الخطا الذين تقدموا نحو الجنوب ، بتشجيع من الخوارزميين الذين كانوا يخشون زيادة نفوذ السلاجقة في ماوراء النهر • ولما لم تنته المفاوضات التي دارت ، بين السلطان سنجر والخطا ، إلى نتيجة • ولم يقبل هؤلاء عـرض السلطان باعتناق الإسلام ، جرت المعركة بين الطرفين في شمال سمرقند ، في مكان يدعى صحراء قطـوان ، ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م ، وكانت معركة شديدة انهزم فيها السلطان السلجوقي وأُسـرت زوجته ، " ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أفحش قتلاً واستقرت الدولة فيما وراء النهر للخطا والترك وهم يومئذ على دين الكفر" [6] • وكان من نتائج هزيمة صحراء قطوان ، خروج أعداد من الأتراك الغز إلى خراسان [7] •

وصولهم
تركستان

طبق الخطا بعد أن استولوا على ماوراء النهر عقب معركة قطوان أسلوب الإدارة الصينية • واعتبرت في عهدهم اللغة الصينية لغةً رسمية • وساروا على قاعدة الحكم الذاتي ، ولم يخضعـوا

---

(١) : يشير ابن الأثير وغيره من المؤرخين إلى أن حركة سابقة كبيرة للشعوب الوثنية قد حدثت في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، ولكن القره خانيين تصدوا لها وردوها على أعقابها ، بعد أن بلغت مسيرة ثمانية أيام من بلاساغان (انظر ابن الأثير ج ٧ ص٢٩٦ وابن العبري ص١٧٩) وربما كانت هذه الحركة هي حركة قبائل النايمان (Naiman) المغول التي كانت تتقدم في ذلك الوقت باتجاه الغرب (انظر: Spuler ibid) أما عن وصول بعض الخطا إلى قلب آسية قبل مطلع القرن السادس الهجـري فيقدر ابن الأثير عددهم بستة عشر ألف خركاه (خيمة) دخلوا في خدمة الخان القـره خاني ، وكانوا يقفون على طريق الصين لمنع من يتطرق إلى بلاده من تلك الناحية • وغضـب الخان عليهم في إحدى السنين فمنعهم من نسائهم فثاروا عليه. ولما قدم الخطا فيما بعـد انضموا إليهم وساعدوهم على ملك تركستان (انظر : ابن الأثير ج ٩ ص٣) •

(٢) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص٣ • •

(٣) : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص١٢٢ •

(٤) : D'Ohsson: ibid (٥) : ابن الاثير: الكامل ج ٩ ص٣ •

(٦) : ابن الأثير ج ٩ ص٤ وابن خلدون : كتاب العبر م ٤ ص٤٨٨ •

(٧) : ابن الأثير ج ٩ ص٣٧ وابن خلدون م ٥ ص١٤٨ وقد أشارا صراحة إلى أن هؤلاء الغز كانوا مسلمين وينفرد ابو الفداء في ذكر أنهم كانوا وثنيين • انظر له : المختصر ٣ ص٢٦ •

لحكمهم المباشر إلا المنطقة التي كانت تقع فيها بلاساغون[١] . وظل الحكام القره خانيون في ماوراء النهر في مناصبهم. وعثر على نقود يرجع تاريخ ضربها إلى عهد الخطا ، وهي تحمل اسم خان سمرقند القره خاني . ولكن كان على هؤلاء الحكام تقديم الطاعة ودفع الجزية ، لـ "كورخان" المقيم في بلاساغون[٢] ، وذكر ابن الأثير أن هؤلاء _ الخطا _ قد عاملوا السكان بالحسنى "، فكانوا إذا ملكوا مدينة لا يغيرون على أهلها شيئاً ، بل يأخذون من كل بيت ديناراً . ومن أطاعهم من الملوك شدّوا في وسطه شبه لوح فضة ، فتلك علامة من أطاعهم "[٣] ، ويظهر في هذا الأسلوب الإدارى الذى أشار اليه ابن الأثير تأثير الأساليب الإدارية الصينية ، إذ كان الموظفون هناك يُمنحون شارةً مميزةً لهم تدعى " بايزا (Paisa) . وسار على الأسلوب ذاته المغول فيما بعد[٤] ، وعرفته الإدارة في العصر التيمورى أيضا . وكان للكورخان ممثل في عواصم الولايات يكلف بجمع الضرائب[٥] . ومن مظاهر التأثير بالإدارة الصينية فرض الجزية على أساس البيت وليس على أساس الشخص كما تنص على ذلك تعاليم الإسلام . وحاولت الإدارة في عهد الخطا توطين البدو وتعليمهم الزراعة . وكان الأتراك القارلوق بصورة خاصة يكثرون من الشغب ، كما كان حالهم في العهد القره خاني السابق . ولذلك طلب الكورخان عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م ، من حاكم سمرقند القره خاني ، أن يوجه إليه هؤلاء القارلوق الذين كان يقيم بعضهم في بخارى، ليعمل على تعليمهم الزراعة والحرف ، وليجبرهم على ترك السلاح ، ولكنهم رفضوا واعتصموا ببخارى. واستعان الحاكم القره خاني بأحد الفقهاء من أهل المدينة لإقناعهم بالعدول عن الشغب ، وخاطب هذا الفقيه وكان يحمل لقب " الصدر " وهو (محمد بن عمر بن برهان الدين عبد العزيز) الثائرين يذكرهم بالفرق ، بين ما فعله الخطا الوثنيون مع السكان عند احتلالهم البلاد ، وبين ما يرتكبونه وهم من المسلمين الغزاة[٦] . ويعلق بارتولد على محاولة توطين البدو بأنها لم تنجح[٧] . ويبدو أن الإدارة في عهد الخطا كانت تعتمد على نفوذ رجال الدين المسلمين على السكان ، وشغل بعض هؤلاء مناصب المستشارين للحكام الخطا في بعض الأحيان[٨] . ويشير بارتولد إلى قيام ثورة شبت في بخارى ، كانت دافعاً للخوارزميين للقدوم واحتلال المدينة لمدة من الزمن[٩] .

وعلى كل حال ، فإن الخطا لم يتمكنوا من ترك أثر واضح ، في الوضع السكاني في ماوراء النهر. فقد ظلوا على وثنيتهم ، ولم يعتنقوا الإسلام ، كما فعل المغول _ أقرباؤهم _ فيما بعد . ويعلل بارتولد ذلك ، بأن الخطا كانوا يختلفون عن المغول الذين وفدوا على ماوراء النهر ، وهم بدائيو الحضارة ، بينما كان الخطا لما قدموا إلى تلك البلاد ، قد تأثروا إلى درجة كبيرة بحضارة الصين ولذلك كان من الصعب عليهم اعتناق الاسلام[١٠] .

(١) : ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩١ .
(٢) : بارتولد : تاريخ الترك ص ١٢٤ _ ١٢٥
(٣) : ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩١
(٤) : بارتولد : تاريخ الترك ص ١٢٥
(٥) : ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩١
(٦) : ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٨٩
(٧) : بارتولد : تاريخ الترك ص ١٢٧
(٨) : حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٥٠
(٩) : Barthold et Frye: Bukara (E. I. T. I P.P.1133-1137)P. 1134
(١٠) : بارتولد : تاريخ الترك ص ١٣١ .

بدأت الصبغة التركية تزداد وضوحا في ماوراء النهر ، نتيجة لاستقرار العناصر التركية ، التي عبرت حدود ماوراء النهر الشمالية والشمالية الشرقية . ويمكن أن يستنتج ذلك من تغير الاسم الفارسي للبحيرة التي ينتهي إليها نهر الصغد ، وهو "سام خاش" كما ذكره ابن حوقل [(١)] (القرن العاشر الميلادى / القرن الرابع الهجرى) ، فأصبح كما يقول بارتولد "قاراكول" في القرن الثاني عشر الميلادى / السادس الهجرى) [(٢)] ، وهو تعبير تركي يعني البحيرة السوداء .

الصراع مع الخوارزمية

وتلاقت مطامح الحكام القره خانيين في ماوراء النهر ، للتخلص من الخضوع للخطا ، بمحاولات الخوارزميين للتهرب من دفع الجزية ، التي كانوا يؤدونها للخطا أيضاً [(٣)] . وأرسل خان سمرقند إلى علاء الدين (تكش) خوارزم شاه ، يحثه على القدوم لمساعدته . وتعهد بأن يدفع له مايدفعه للخطا . وصادفت هذه الدعوة قبولاً عند الحاكم الخوارزمي ، فأخذ بالاستعداد [(٤)] .

وأغار علاء الدين تكش على بخارى عام ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م ، ولكن سكان المدينة وقفوا إلى جانب الخطا . ويعلل ابن العبري هذا الموقف بحسن سيرة الخطا مع السكان [(٥)] . وقذف أهل بخارى الخوارزميين بكلب أعور – وكان تكش أعور – . وقالوا لهم خذوا سلطانكم . وكان الجند الخوارزمي يشتمون الأهالي ، وينعتونهم بالكفر وبالارتداد عن الإسلام لتعاونهم مع الخطا الكفار . ولما دخل تكش المدينة ، لم يستطع إلا أن يحسن معاملة سكان بخارى تقرباً منهم [(٦)] .

ويدخل الصراع بين الخوارزميين والخطا مرحلة جديدة بوصول السلطان محمد خوارزم شاه إلى الحكم عام ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م . وقد أراد هذا السلطان أن يكون سلطان الإسلام فعلاً ، واعتبر نفسه مسؤولاً عن حماية الإسلام والمسلمين ، من المتسلطين عليهم من الكفار [(٧)] . فأغار على بخارى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، مستغلاً ثورة قامت فيها على الخطا ، ثم تحول إلى سمرقند بناء على دعوة حاكمها السلطان عثمان القره خاني ، الذي برم بحكم الخطا . ودارت المعركة عام ٦٠٦ هـ / ١٢١٠ م بجوار طراز انهزم فيها الخطا ، ووقعت بعدها ماوراء النهر تحت حكم السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، الذي تقدم حتى بلغ أوزكند . وعين نواباً عنه في سائر

---

(١) : ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٩٩ .
(٢) : بارتولد : تاريخ الترك ص ١٥١
(٣) : يحدد المؤرخون عام ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٧ م تاريخا لقيام الدولة الخوارزمية على يد أحد أتباع السلاجقة هو محمد بن انوشتكين التركي . وكان من أسباب قدوم الخطا إلى ماوراء النهر تحريض الخوارزميين لهم لمواجهة النفوذ السلجوقي . ولم يلبث الخطا أن استغلوا العلاقات المتأزمة بين الخوارزميين والسلاجقة، وأجبروهم على دفع الجزية لهم، وأخذوا يغيرون على أملاك الخوارزميين ويتدخلون في الشؤون الداخلية لهؤلاء عن طريق استغلال الصراع بين المتنافسين على العرش الخوارزمي من أفراد الاسرة المالكة . (انظر لذلك: ابن الأثير الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٨٤ وج ٩ ص ١١٤ – ١١٥ وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٥ وأبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢١٩ ج ٣ ص ٥–٥٣ وابن خلدون : كتاب العبر م ٥، ص ٩٣ و ص ١٩٥)
(٤) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩١ .
(٥) : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٥ .
(٦) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ وأبو الفداء : المختصر ج ٣ ص ٩٣ .
(٧) : بارتولد : تاريخ الترك ص ١٤٩ .

أعمال الخوارزمية في ماوراء النهر

المدن [1] . ويقول زكريا القزويني الذي عاش بعد هذه الحقبة بقليل (توفي عام ١٢٨٣ م/ ٦٨٢هـ) إن علاء الدين عجز عن ضبط نواحي ماوراء النهر فسلط عليها عساكره فنهبوها . وأجلى السكان من بعض المناطق حتى أضحت كالجنات الخاوية [2] . وأشار إلى مثل ذلك ابن الأثير ، فتحدث عن سوء سياسة الخوارزميين وفسادهم في سمرقند ، مما أغضب سلطانها عثمان ، الذي كان قد تزوج من ابنة علاء الدين الخوارزمي حديثاً . وقد دفعه حقده على أعمال الخوارزمية ، إلى التنكيل بزوجته فحاول قتلها ولكنها احتمت ، كما يقول ابن الأثير ، مع جواريها في القلعة . ولذلك عاد السلطان الخوارزمي ثانية إلى سمرقند ، وقتل عثمان وقضى على حكم القره خانيين فيها " ولم يبق لأحد معه في البلاد حكم " [3] .

ويشير النسوي ، كاتب سيرة آخر سلاطين هذه الدولة ، وهو السلطان جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين ، إلى أن بعض عناصر الخطا ، ظلت تقيم في ماوراء النهر بعد استرجاع الخوارزميين لها من أيديهم . ودخلت هذه العناصر في خدمة الإدارة الخوارزمية . ولما قدمت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان عرض هؤلاء خدماتهم على الإدارة المغولية الجديدة [4] .

قدوم كشلو

وفي تلك الأثناء كانت الأحداث في مكان آخر من آسية الوسطى ، هي منغولية ، تتمخض عن قيام امبراطورية مغولية بقيادة جنكيز خان . وأخذت القبائل البدوية هناك تنضوي بالتدريج تحت لواء هذا الزعيم المغولي . وأخذت بعض القبائل من التي رفضت الرضوخ والدخول في طاعة جنكيز خان ، بالفرار باتجاه الغرب ، أمام تقدم المغول . وكان من هؤلاء الفارين زعيم قبيلة "النايمان" (Naïman) المغولية الذي تسميه المصادر العربية "كشلو" [5] وتدعوه المصادر الصينية "كتشلغ" (Kutchlug) [6] . واستطاع كشلو بمن كان معه من قوات ، أن يفرض نفسه حاكماً في مملكة الخطا ، في حوض نهر "جو" . ولكن المحيط البوذي الذي كان مسيطراً في مملكة الخطا تمكن من أن يجبر كشلو على الإرتداد عن المسيحية التي كان يعتنقها ، والتي كانت تدين بها قبيلته النايمان ، إلى البوذية التي تعصب لها وحاول فرضها على رعاياه المسلمين ، في الوقت الذي ظلت فيه زوجته وفية للمسيحية متحمسة لنشرها أيضاً بين السكان [7] . ووجد علاء الدين الخوارزمي في الحال التي كانت عليها مملكة الخطا ، بعد وصول الكشلو إلى حكمها فرصة مناسبة لمد نفوذه باتجاه الشرق ، والقضاء على من فر من سيوفه من فلول الخطا [8] . وتوترت العلاقات بين كشلو والسلطان الخوارزمي بسبب موقف هذا الحاكم النايماني من رعاياه المسلمين ، والاضطهاد الذي كان ينزله بهم لإجبارهم على اعتناق البوذية . وأخذ الخوارزميون يغيرون من وقت إلى آخر على أراضي

---

(١) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩٤
(٢) : القزويني : آثار البلاد ص ٥٥٨
(٣) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩٤ — ٢٩٥
(٤) : النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٦٦ و ١٠١
(٥) : ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩٥
(٦) : Grousset: op. cit.P.293 (٧) : D'Ohsson: op. cit.T.I P. 169
(٨) : ابن الأثير الكامل ج ٩ ص ٣٢١ .

دولة الخطا ، وسعوا إلى قطع سبل التجارة بين ماوراء النهر الخاضعة لحكمهم وتركستان[١] .

تعقب المغول له

ولم يمنع كشلو من الرد على أعمال جيرانه الغربيين ، سوى استعداداته لحرب المغول الذين بدأت طلائعهم تندفع نحو حدود بلاده الشرقية[١] . واستطاعت هذه الطلائع المغولية التي أرسلها جنكيز خان ، القضاء على كشلو فقتلته،وأرسلت رأسه إلى منغولية . ولكنها في الوقت نفسه ، أعادت للمسلمين حريتهم الدينية . واستقبل المسلمون من سكان كشغر ويرقند جيوش المغول بالترحيب ، وأعيد افتتاح المساجد التي كان قد أغلقها الحكم السابق ، في هذه المدن من جديد[٢] .

وهكذا اختتمت المرحلة الأولى من الصراع المغولي التركي باستقرار حكم الخوارزميين في ماوراء النهر ، في الوقت الذي كانت تجاورهم إلى الشرق أملاك المغول في وسط آسية .

---

(١) : حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص٦٥ .

(٢) : Percheron: Sur Les Pas de Gengis-khan P. 233

الفصل السابع

عصر السيادة المغولية في ماوراء النهر
٦١٧ـ٧٢٦ هـ (١٢٢٠ـ١٣٢٦ م)

جنكيز خان والغزو المغولي ـ بلاد جغتاي ـ سياسة جغتاي وخلفائه ـ الخان دوا ـ كبك والمدينة الإسلامية ـ تارماشيرين و مقابلته لابن بطوطة ـ الثورة عليه ومقتله •

جنكيزخان والغزو المغولي

يبدأ عصر السيادة المغولية في ماوراء النهر بقدوم جحافل المغول في مطلع القرن الثالث عشر الميلادى (مطلع القرن السابع الهجرى) بقيادة جنكيز خان • وقد أدى تجاور أملاك المغول مع أملاك الخوارزميين ، بعد القضاء على حكم كشلو (كتشلغ) النايماني في حوض نهر جو ، إلى تصادم سياسة جنكيز خان المتطلع إلى احتلال العالم ، بسياسة السلطان محمد علاء الدين خوارزم شاه ، الذي كان في الوقت نفسه يسعى لتزعم العالم الإسلامي ، وكان يرى أن تحرير المسلمين من نير حكامهم الكفار هو من أبرز معالم هذه السياسة في المجال الخارجي • ولم يتمكن تسرد د السفارات بين الجانبين من إزالة شعور عدم الثقة من نفسي الزعيمين الطموحين • ولذلك أقدم علاء الدين ، عام ١٢١٩ م / ٦١٦ هـ ، على قتل جميع أعضاء الوفد التجارى المغولي الكبير[1] ، الذى قدم إليه • فأثار غضب الفاتح المغولي ، الذي أرسل يهدد السلطان الخوارزمي[2] • وكانت هذه الحادثة التي وقعت في مدينة "اوترار" الواقعة على الحدود المشتركة بين أملاك الطرفين ، هي السبب الذى تذرع به جنكيز خان ، ليبدأ الزحف على ماوراء النهر وإيران الشرقية ، وليتابع أولاده وأحفاده من بعده ، السير بقافلة التخريب المغولية حتى بلغوا بغداد ، وأسقطوا الخلافة العباسية فيها ، عام ١٢٥٦ م / ٦٥٦ هـ • ولم يكتب لقافلة التخريب المغولية أن تقف إلا في عين جالوت في فلسطين ، وعلى يد سلاطين المماليك بعد ذلك التاريخ بعامين •

ضمت جيوش جنكيز خان التي اندفع بها نحو الغرب ، إلى جانب المغول الكثير من القبائل التركية[3] ، منهم القارلوق الذين كانوا يشكلون في ذلك الوقت مملكة في المناطق الممتدة إلى الجنوب الشرقي من بحيرة "بالكاش" (Bal-kash) ، حيث تقع عاصمتهم "الماليغ" Almaligh وهي مدينة "كولجه" الحالية (Kuldja)[4] • وكان هؤلاء قد تخلصوا من حكم كورخانات الخطا وكشلو النايماني[5] ، منذ وقت قريب عام ١٢١١ م / ٦٠٨ هـ • وبعد أن استولى المغول على مدن تركستان (كاشغر ـ بلاساغون)[6] ، اتجهت جحافلهم بعد ذلك إلى ماوراء النهر •

---

(١) : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٢ وقد ذكر أن عدد أفراد هذا الوفد بلغ مائة وخمسين

(٢) : النسوي : سيرة السلطان جلال الدين ص ٨٧ وابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٣١ •

(٣) : النسوي : المصدر السابق ص ٤١ •

(٤) : Howorth: op. cit. T. I P. 6 /, 24

(٥) : Grousset: op. cit. P. 299

(٦) : ابن الاثير الكامل : ج ٩ ص ٣٣١ •

غزا المغول ماوراء النهر بأربعة جيوش، كان أكبرها تحت قيادة جنكيز خان، واتجه به إلى بخارى وسمرقند. وكانت مهمة الجيوش الثلاثة الأخرى مشاغلة جيوش السلطان الخوارزمي [١]، ثم احتلال بعض المدن الواقعة على نهر سيحون. فاحتل الأول من هذه الجيوش وكان بقيادة "جوجي" أكبر أبناء جنكيز خان، مدينة "جند". واحتل الثاني، وكان بقيادة جغتاي واكداي (ثاني وثالث أبناء جنكيز خان)، مدينة اوترار. واحتل الجيش الثالث وكان يقوده ثلاثة من القواد المغول مدينة "خجندة" [٢]، في الوقت الذي كان فيه الفاتح المغولي يعبر مع جيشه أعالي سيحون نحو بخارى وسمرقند. واستطاع جنكيز خان أن يوقع في سكان المدينتين مذبحةً عظيمة، وأحرق معظم أجزائهما عامي (١٢١٩ و ١٢٢٠ م / ٦١٦ و ٦١٧ هـ) [٣]، ونفى عدداً كبيراً من أهالي سمرقند من الصناع، أسرى إلى منغولية [٤]. واستمر جنكيز خان يلاحق السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي، الذي تولى بعد وفاة أبيه علاء الدين، مقاومة الزحف المغولي، إلى أن أجبره على عبور السند، واللجوء إلى الهند [٥]. ثم عاد بعد ذلك إلى ماوراء النهر ومنها إلى منغولية.

وهكذا فقد أصبحت ماوراء النهر، جزءاً من امبراطورية كبيرة يحكمها المغول، تمتد من غرب الصين إلى أواسط إيران. ولما أحس جنكيز خان بدنو أجله، وزع امبراطوريته الشاسعة بين أولاده الاربعة. [٦]

بلاد جغتاي

كانت ماوراء النهر من نصيب جغتاي [٧]. وقد ضمت حصته أيضاً، المناطق الممتدة من جبال التاي حتى نهر جيحون، شاملةً حوض بحيرة آيسيق كول وحوض "ايلي" (Ili) [٨] وحوض نهر جو وطراز وكشغر، ومنازل الاويغور في "طُرفان" Tourfan [٩]. وأطلق اسم جغتاي، فيما بعد، على كل هذه المناطق، وعرفت ببلاد جغتاي. وتعرض فرع جغتاي إلى مشاكل، لم تظهر عند الفروع الأخرى

---

(١): Percheron: op. cit. P. 239 (٢): Grousset: ibid .

(٣): ابن العبري: المرجع السابق ص٢٣٥ وابن الأثير: الكامل ج ٩ ص٣٣٣.

(٤): Percheron: op. cit. P. 245 (٥): ابن العبري: المرجع السابق ص٢٣٦.

(٦): كان التقسيم الذي أجراه جنكيز خان في أملاكه بين أولاده، نواةً لقيام عدد من الدول المغولية بعد وفاته. وقد سار جنكيز خان في هذا التقسيم وفق التقاليد المغولية، التي تنص بأن يكون الموطن الأصلي للمغول من نصيب الابن الأصغر، وأن يعطي الابن الاكبر أقصى البلاد بعداً عن مركز الامبراطورية. وعلى هذا كان نصيب "تولوي" أصغر أبناء جنكيز خان، منابع نهري "اونون" (Onon) و "كيرولين" (Kerolen)، وهي مواطن المغول الأصلية. وكان نصيب "جوجي" وهو أكبر الأبناء، مناطق غرب ايرتيش وعبر بلاد القبجاق حتى حدود الفولغا. واشتملت حصة أوكداي على منطقة نهر "اميل" وجبال "تارباغاتاي"، شمال شرق بحيرة بلكاش. انظر: Grousset: L'Empire Mongol P. 286

(٧): اتجه جغتاي، بعد أن أتم مع أخيه أوكداي احتلال أوترار، إلى خوارزم فاحتلها أيضاً، ثم تقدم شرقاً حيث وافى أباه في سمرقند. واشترك جغتاي مع أبيه، في ملاحقة سلطان الدولة الخوارزمية المنهزم جلال الدين منكبرتي، ووقف مع أبيه على ضفاف السند يراقب عبور جلال الدين هذا النهر فاراً إلى الهند. وتوفي عام ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م. انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ جلد أول ص٤٠٩ ــ ٤١٣ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٠ و ٢٣٦. ولكن ميرخوند يجعل وفاته عام ٦٤٠ هـ. انظر له: روضة الصفا ج٥ ص٤

(٨): رشيد الدين: جامع التواريخ م١ ص٤٠٩ وخوند مير روضة الصفا ج ٥ ص٢٠.

(٩): Grousset: L'Empire des Steppes P. 398

الدين حبش العميد . ولما غضب عليه مرةً وأمر بسجنه عاد فأفرج عنه بسبب الخلل والاضطراب اللذين حلّا بالدولة .

توالى على عرش خانية جغتاي ، حتى بداية العصر التيموري ، في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) ، عددٌ كبير من الحكام من أفراد هذه الأسرة . ويظهر أن سلسلة أسماء هؤلاء الحكام وسني حكمهم ، كما يقدمها المؤرخون ، يشوبها الغموض والاضطراب ويزداد الغموض والفوضى في تاريخ وترتيب حكم هؤلاء الخانات ، في الحقبة الأخيرة من حكم هذه الأسرة ، قبيل انبثاق العصر التيموري (١) .

ولم يكن لخانية جغتاي كيان مستقل ، عن خانية المغول الرئيسية في منغولية ، خلال حكم الخمس الأوائل ، من خلفاء جغتاي ، الذين كانوا أشبه مايكون بأمراء تابعين للخان الأعظم (٢) . وظلت خانية المغول الرئيسية تمارس من قراكورم — عاصمة المغول في منغولية — ثم من بكين بعد قيام الدولة المغولية في الصين ، على خانية جغتاي نوعاً من الرقابة ، فتتدخل من وقت لآخر في شؤونها الداخلية ، وتنصر حاكماً على آخر من أفراد الأسرة . كما استطاع أمراء من أبناء أوكداي شقيق جغتاي أن يمارسوا السلطة لمدة من الزمن في بلاد جغتاي (٣) .

ويظهر أن الإقامة في المناطق الحضرية في ماوراء النهر ، بجوار التاجيك والأتراك المتأثرين بالحضارة الإسلامية الإيرانية ، لم تعجب الحكام الأوائل من هذه الأسرة وظلوا يفضلون الإقامة في مناطق الرعي ، حيث تجد قطعانهم وخيولهم العشب اللازم لغذائها (٤) . ومع ذلك فإن هؤلاء الحكام أولوا عملية إعادة إعمار ماوراء النهر — بعد الدمار الذي حل بها خلال عمليات الغزو — اهتمامهم . ويشير إلى ذلك ابن الأثير ، ويقول إن جهود المغول في هذا المجال قد قُصرت على ماوراء النهر دون غيرها من المناطق التي تعرضت للغزو المغولي (٥) .

وتُرك الحكم في ماوراء النهر منذ أيام جغتاي ، بيد تاجر خوارزمي الأصل هو محمود يلواج . وكان رئيساً لإحدى السفارات التي أوفدها جنكيز خان إلى السلطان الخوارزمي علاء الدين ، قبيل غارته على ماوراء النهر (٦) . وانتقل الحكم بعد محمود إلى ابنه مسعود الذي ظل في منصبه إلى وفاته عام ١٢٨٩ م / ٦٨٨ هـ ، رغم التقلبات التي طرأت على منصب الخان (٧) . وكانت حكومة المغول

---

(١) : انظر وقابل بين الترجمة الانكليزية لأحد أجزاء تاريخ رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ : Rashid-al-Din-Tabib: The Successors of Genghis-Khan(translated by Boyle) P. 149 - 155 مع ظفر نامه للشامي ص١٢ — ١٣ وزامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ج ٢ ص ٣٧٢ — ٣٧٣ وسليمان (د . أحمد السعيد) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ج ٢ ص ٥٠٧ — ٥٠٩ .

(٢) : Grousset: L'Asie Orientale.... P. 345

(٣) : Grousset : L'Empire des steppes P. 398. Philips: The Mongols

(٤) : Grousset : ibid . (٥) : ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٣٨٣ .

(٦) : Spuler : Les Mongols dans l'Histore P. 76 . وقد ذكر أن لفظة " يلواج " تعني بالتركية "سفير"

(٧) : Phillips : op. cit. P. 125 .

المركزية تثق بمسعود ، ولذلك دعته عام ١٢٤٦ م / ٦٤٤هـ، للاشتراك في القوريلتاي (المؤتمر) ، الذي انتخب كيوك (Kuyuk) خاناً أعظم للمغول خلفاً لأبيه أوكداي [١] . وأقره خلف كيوك وابن عمه مانغو (Mangou) في منصبه ، عام ١٢٤٨ م / ٦٤٦ هـ ، عندما تم انتخابه [٢] . واستطاع مسعود الذي اتخذ سمرقند عاصمةً له بأن ينفـذ عدداً من الإصلاحات أعادت الازدهار من جديد إلى البلاد . وأنشأ في سمرقند مدرسة دعيت "المسعودية" نسبة إليه ، دُفن فيها عند وفاته [٣] . وكان مسعود في عداد من استقبلوا هولاكو عند مروره على رأس جيش من المغول ، من ماوراء النهـر قادماً من منغولية ليغير على إيران والعراق [٤] .

تبدأ خانية جغتاي مرحلة جديدة من حياتها ، بوصول الخان "دوا" (Douwa) إلى الحكم (حوالي عام ١٢٧٤ م — ١٣٠٦ م) . ويعتبر زامباور هذا الخان هو الحاكم العاشر في سلسلة خانات جغتاي [٥] ، واستطاع دوا القضاء على ماكان لأبناء أوكداي بن جنكيز خان ، من نفوذ في أراضي خانية جغتاي . وعُينت في عهده الحدود الفاصلة بين هذه الخانية وممالك المغول الأخرى بخريطة عُثر على صورة منها ، رسمت في الصين عام ١٣٣١م / ٧٣٢ هـ [٦] . واستطاعت مدنية ماوراء النهر أن تثير اهتمام الخان ، فنقل عاصمته إلى مدينة ابتناها لنفسه ، في فرغانة ، دعيت "انديجان Andijan" . واستطاعت هذه المدينة الجديدة ان تنافس عاصمة فرغانة القديمة مدينة اوزكند [٧] . وكانت انديجان عاصمة فرغانة في ايام مستوفي [٨] الذي كتب كتابه حوالي عام ٧٤٠ / ١٣٣٩ م .

وخلف دوا على العرش ابنه الخان "كبك" (Kebek) عام ١٣١٨ م ، بعد حقبة مـن الاضطرابات ، حكم فيها شقيقه "ايسن — بوغا" (Esen-Bougha) . وسار كبك على سياسـة والده ، في تأكيد استقلال خانية جغتاي [٩] . وظل سحر مدنيَّة ماوراء النهر يستأثر باهتمـام خانات جغتاي . ولذلك نقل كبك عاصمته إلى منطقة ، أكثر توغلاً في ماوراء النهر من انديجان . وانتقى الخان منطقة تقع بجوار مدينة نسف (نخشب) في حوض نهر كشقادريا ، وبنى لنفســه هنالك قصراً ، وأطلق عليه اسم "قارشي" (Karshi) ، الذي ظل يطلق على مدينة نسف حتى اليوم . وضرب كبك نقوداً دعيت باسمه "الدنانير الكبكية" ، ربما كانت أول عملة مستقلــة تداولتها خانية جغتاي ، وقد ظلت هذه النقود ذات الشكل الفارسي متداولة حتى العصـر التيموري [١٠] . وعلى الرغم من أن كبك كان وثنياً فقد كان يعامل رعاياه المسلمين باحترام ، ويهتم

---

(١) : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٦ .
(٢) : ابن العبري : المرجع السابق ص ٢٦٢ .
(٣) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٨٦ .
(٤) : رشيد الدين : جامع التواريخ [الترجمة العربية] م ٢ ج ١ ص ٢٣٩ .
(٥) : زامباور : معجم الانساب والسلالات الحاكمة ج ٢ ص ٣٧٢ — ٣٧٣ .
(٦) : Cahun: formation terretoriale de L'Asie-Timour et Le Second Empire Mongol(Histoire Générale du IV siècle à nos jours)P.925
(٧) : Barthold : Ulugh Beg P. 8 (٨) / مستوفي قزويني : نزهة القلوب ص ٢٤٧
(٩) : Geousset : L'Asie Orientale P. 345 .
(١٠) : Saunders: op.cit.P.172. and Barthold: Four Studies.P.51-52
وقد ذكر بارتولد أن كلمة قارشي تعني قصر باللغة المغولية .

برعاية مصالحهم . وقد شهد بذلك ابن بطوطة ، الذي زار ماوراء النهر بعد وفاة كبك ، بمدة قصيرة وقال إن كبك كان كافراً ، ولكنه عادل الحكم منصف للمظلومين ، ويكرم المسلمين ويعظمهم [١] . وظلت بعض تصرفات الخان تكشف عن نفسية القسوة الفطرية عند البدو . فقد أمر مرة أن يبقر بطن أحد الامراء ليتحقق ، إذا كان هذا الأمير قد شرب حليب إمرأة كانت تبيع الحليب ، دون أن يدفع لها ثمنه . بعد أن توعد المرأة بالعقاب إذا لم يعثر على الحليب في بطن الامير [٢] ، لما جاءت تشكوه اليه .

خلف كبك بعد وفاته شقيقه "ترماشيرين" (Tarmachirin) ١٣٢٦ — ١٣٣٤ م/ ٧٢٧ — ٧٣٤ هـ واعتنق هذا الخان الإسلام ، وتمثل في أسلوب حياته المدنية الإسلامية إلى حد تجاوز ما بلغه شقيقه الخان الراحل . وأطلق على نفسه اسما إسلامياً هو علاء الدين، ونبذ اسمه البوذى تارماشيرين، وأقام بالقرب من قارشي [٣] ، حيث قابله الرحالة العربي ابن بطوطة . ولمس منه مدى سعادته باعتناق الإسلام . ووصفه بأن "ملك عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ، ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم" . وأطلق عليه لقب "سلطان ماوراء النهر" [٤] وأشار عقب مقابلته للسلطان ، إلى تواضعه وتقاه . وقال إنه صلى في المسجد في الصف الأخير حيث يضع المصلون نعالهم ، وبكى عند ما سمع إمام المسجد في إحدى عظاته . وقال عنه إنه كان يهتم بمصالح رعيته ، ويستمع إلى كل شاك منهم . وقال ابن بطوطة إن السلطان تارماشيرين كان يتكلم باللغة التركية عند ما كان يتحدث مع ابن بطوطة بواسطة المترجم. وقد سأل ابن بطوطة عن مكة والمدينة والقدس والخليل . ثم سأله عن السلطان أبي سعيد الإيلخاني ، وعن السلطان محمد الناصر (سلطان المماليك) ، وكان أفراد الحاشية والحراس يقفون خلفه وعلى جانبيه بأسلحتهم . ووقف بباب الخيمة الوزير والحاجب وحامل الأختام والمستشار . ويفهم من كلام ابن بطوطة أن إمام المسجد الذى كان يصلي فيه تارماشيرين كان رجلاً فارسياً .

خرج تارماشيرين الذي اعتنق الإسلام ، وتكلم التركية ، وأقام بجوار التاجيك ، على عادات بدو المغول . وامتنع كما يذكر ابن بطوطة خلال اربع سنوات متتالية ، عن الذهاب لتفقد أحوال الأجزاء الشرقية من خانية جغتاي ، والتي أصبحت تدعى منذ ذلك الوقت مغولستان (بلاد المغول) حيث كان أضحى لعنصر المغولي البدوى الذى يدين بالوثنية هو العنصر الغالب هناك . وقد اعتبر هؤلاء المغول أن اعتناق تارماشيرين للإسلام ، وإقامته في مناطق الحضر وامتناعه عن حضور الاجتماع السنوي (القوريلتاى) ، لأركان الدولة والأمراء لتفقد أحوال الدولة ، إنما هو خروج

---

(١) : ابن بطوطة : الرحلة ص ٣٥٥ .
(٢) : Spuler : History of Mongols P. 203 .
(٣) : Barthold: op. cit. P. 52 and Saunders : ibid .
(٤) : ابن بطوطة : الرحلة ص ٣٥٥ ووصف القلقشندي تارماشيرين بأنه حسن الإسلام عادل السيرة طاهر الذيل مؤثراً للخير محباً لأهله مكرماً لمن يرد عليه من العلماء والصلحاء وطوائف الفقهاء والفقراء . انظر له : صبح الاعشي ج ٧ ص ٣٠٥ ولعله في إشارته إلى حسن استقباله لمن يرد عليه إنما يقصد استقباله لابن بطوطة .

على تعاليم شريعة الياسا[1]، فالتفوا حول أحد أفراد الأسرة المالكة ، من أقرباء الخان تارماشيرين ، وأعلنوا الثورة عليه عام ١٣٣٣ م / ٧٣٤ هـ[2]. ويقول غروسيه إن العناصر السيحية النسطورية التي كانت تقيم في منطقة حوض ايلي ، قد ساندت هذه الثورة[3] . وزحف الثائرون نحو سمرقند وفر مقتلـه تارماشيرين من أمامهم عبر جيحون، إلى بلخ يريد اللجوء إلى غزنه ، ولكنه اعتقل من قبل أحـد أقربائه ، وأعيد إلى قارشي (نسف) حيث قتل ودفن هناك ، عام ١٣٣٤ م[4] ، قبل مولد تيمـور بسنتين . وأعيدت عاصمة الخانية مرة ثانية إلى الشرق ، واستقرت في الماليغ في حوض نهر ايلي[5] .

وتبدأ بمقتل تارماشيرين حقبة غامضة ، في تاريخ خانية جغتاى وماوراء النهر . تناقل المؤرخون أخبارها بشيء من الغموض والاضطراب ، ولما كان مولد تيمور في هذه الحقبة ، ولذلك سوف نفرد لها باباً خاصاً ، نتكلم فيه عن أحوال ماوراء النهر الداخلية والخارجية كمطلع للعصر التيموري .

---

(١) : ابن بطوطة : الرحلة ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

(٢) : Phillipis : op. cit. P. 126 .

(٣) : Grousset : L'Asie Orientale . P. 345 .

(٤) : ابن بطوطة : الرحلة ٣٥٩ .

(٥) : Barthold : Ulugh Beg . P. 8 .

البـــــاب الثانـــي

مطلع العصــــــــر التيمـــــــــوري

* تمهيـــــد :

لما كان العصر المغولي في " ماوراء النهر " هو أدنى العصور السابقة إلى العصر التيموري فقد وقعت فيه معظم الأحداث التي ساهمت في قيام هذا العصر (العصر التيموري) . ولعل أهم هذه الأحداث ــ عدا ولادة تيمور ونشأته ــ تلك التي ساعدت على تكون مجتمع ماوراء النهر ، خلال ذلك العصر ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (القرنين الثامن والتاسع الهجريين) ، لقد بدا أن هذا المجتمع يختلف في كثير من الوجوه ــ كما سيتضح لنا ــ عن المجتمع الذي تكوّن بعد الفتح العربي وانتشار الإسلام ، في العهود السابقة التي قامت في ماوراء النهر ، والتي تحدثنا عنها في الباب الاول . والتعرف على طبيعة هذا المجتمع الجديد والعوامل والظروف الـــــتي ساهمت في تكونه ، أمر مهم وضروري ، لأنه المجتمع الذي انتمى إليه تيمور ونشأ بين ظهرانيه، وساهـــم في تكوين شخصيته .

ويعتبر نصف القرن الممتد بين مطلع الرابع عشر الميلادي ومنتصفه (مطلع القرن الثامن الهجري إلى منتصفه) ، الآونة التي يتزامن فيها العصر المغولي الآخذ بالأفول ، مع العصر التيموري ، الذي كانت معالمه آخذةً بالانبثاق والظهور . ومن هنا كان تأثر أحداث مطلع العصر التيموري بأحداث نهاية العصر المغولي . ولذلك كانت دراسة تاريخ ماوراء النهر في الحقبة الأخيرة من عصر النفـــوذ المغولي ، تتمتع بأهمية خاصة .

وسنتناول تلك الدراسة التعرف على الحالة السياسية والعلاقات الدولية في العالم الإسلامي والقارة الاوربية وجنوب وشرق آسية ، ثم استعراض الوضع الداخلي في ماوراء النهر في تلك الحقبة ، الأمر الذي يمكننا أخيراً من الاطلاع على العوامل والتطورات التي أدت إلى قيام المجتمع التيموري .

الفصــــــل الاول

الحالة السياسية والعلاقات الدولية في أوربا والعالم الإسلامي وجنوب وشرق آسية بين ١٣٠٠و١٣٥٠م

البابوية وسياستها الشرقية ــ الامبراطورية الجرمانية المقدسة ــ حروب المائة عام بين فرانسا وانكلترا ــ اسبانية ــ روسية ــ الامبراطوريتان البيزنطيتان في القسطنطينية وطرابزون ــ القرم ــ مملكة إرمينية الصغرى ــ قبرص ــ المماليك ــ القبجاق ــ العثمانيون ــ الجلائريون ــ المظفريون ــ آل كرت ــ السربداريون ــ التركمان ــ الهند ــ الصين ٠

البابوية وسياستها الشرقية

استمرت الأسس والمبادئ التي كانت تؤثر على العلاقات الدولية في العصر المغولي هي السائدة في عالم القرن الرابع عشر الميلادى ٠ وظلت أوربا تحلم باستعادة نفوذها في الشرق زمن الحروب الصليبية ٠ إلا أن الأوضاع السياسية التي كانت سائدة فيها في ذلك الوقت ، لم تكن لتساعد على استئناف الحملات الصليبية إلى الشرق ٠ وكانت البابوية ، التي ظلت تبدو وكأنها تتزعم النشاط السياسي في القارة الأوربية، قد أدركت ضعف الروح الصليبية لدى الملوك والشعوب في أوربا ٠ ولذلك سعت منذ منتصف القرن الثالث عشر ــ منذ اندفاع المغول من قلب آسية نحو العالم الإسلامي ــ أن تكسب هؤلاء الوثنيين إلى صفها ، في سبيل تحويلهم إلى المسيحية ، للاستفادة من قوتهم ضد العالم الإسلامي ٠ فنشطت بعوث الباباوات من روما إلى قلب آسية ، لمقابلة خانات المغول في منغولية ، وإلى بلاط السلاطين الايلخانيين في إيران ٠ واستقبلوا في البلاط البابوي في روما ، سفراء هؤلاء وهؤلاء، من أجل تحقيق هذين الهدفين ٠ وظهر في ذلك الوقت دعاة ومبشرون ، نادوا بقصر النشاط الأوربي في الشرق على البعوث التبشيرية (١) ٠ وكثرت الإرساليات الكنسية إلى إيران ووسط آسية والصين (٢) ٠ ولم تلبث أن اعترضت الكنيسة بعض

---

(١) : Brehier : Les Croisades . P. 276 , 279 .
وقد أشار بريه إلى أن عصر البابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦ ــ ١٣٣٤م / ٧١٦ــ ٧٣٥ هـ) يُعتبر العصر الذهبي للنشاط التبشيرى ٠ فقد أكثر هذا البابا من البعوث التبشيرية إلى الشرق ٠ وارتفع في عهده عدد الكنائس في مدينة السلطانية عاصمة الدولة الايلخانية ، إلى خمس وعشرين كنيسة ، وذلك عام ١٣١٨ م ٠ وأسفرت الاتصالات التي أجراها هذا البابا مع أحد السلاطين الايلخانيين وهو السلطان أبو سعيد ، عن استقرار بعثة بابوية في العاصمة الايلخانية ، منذ الأول من نيسان ١٣١٨م/ صفر ٨١٧ هـ برئاسة "فرانكو بيروز" (Franco Perousé)

(٢) : بارتولد : تاريخ الترك في آسية الوسطى ص٢٠٩ الذى ذكر أن المبشرين الكاثوليك قد أسسوا عام ١٣٤٠ م / ٧٤١ هـ كنيسة بالقرب من الماليغ عاصمة القسم الشرقي من خانية جغتاى ، (أي بعد ولادة تيمور بأربع سنوات) ٠ وقد استطاع أحد الفرانسيسكانيين ، ويدعى "جسان دومونت كورفينو" (Jean de Mont Cortino) أن يقيم أسقفية في بكين ، وكان يعاونه عدد كبير من المساعدين ، وامتدت إقامته في تلك البلاد أربعين عاماً خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر انظر لذلك :
Boulenger : Histoire générale de L'Église T. II . Le Moyen Age v. 5 P. 470 .

الصعوبات التي منعتهـا من متابعة عملها ، فانهارت عام ١٣٦٨ م / ٧٧٠ هـ أسرة " يوان " (Yuan) المغولية الحاكمة في الصين ، وكانت معروفة بتسامحها الديني، وحلت محلها في حكم الصين أسرة " مينـغ " Ming التي أبدت كرهاً للأجانب ، مما أثر على نشاط الكنيسة هناك . ونجم عن انتشار الإسلام على نطاق واسع ، بين مغول إيران الايلخانيين ، ثم المغول في قلب آسية ، أن قطـع الطريق على انتشار المسيحية في هذه المناطق[١] .

وفي الوقت ذاته فإن الكنيسة الكاثوليكية ، لم يعد بإمكانها أن تمارس دورها القيـادي السابق الذي لعبته خلال الحروب الصليبية . فقد أخذت الحكومات الزمنية في أوربا ، والسلطات الدينية المحلية ، تعارض سلطة الكنيسة البابوية المنطلقة من روما . وزاد في مصاعب الكنيسـة ، ماتعرض له الباباوات بين عامي ١٣٠٩ ـ ١٣٧٧ م / ٧٠٩ ـ ٧٧٩ هـ من نفي إلى مدينـة " آفينيون " (Avignon) الفرنسية ، بحجة فقدان الأمن وكثرة الصخب في روما وتمرد الأقاليم البابويـة. ولم يعـد الحبـر الأعظم يمارس سلطانه من عاصمته روما . ولم تكن الحال تسمح للبابا وهو آفينيون بتوجيه حكام أوربا نحو ما يخدم أهداف الكنيسة ومراميها العالمية[٢] .

الامبراطو الجرماني المقدس

أما الحكام الأوربيون الزمنيـون ، فضلاً عن انصرافهم عن فكرة الحروب الصليبية ، فقد كانوا منغمسين ، في تلك الآونة ، في خلافاتهم الأوربية[٣] . فكانت المجادلات السياسية قائمة علـى قدم وساق في الامبراطورية الجرمانية المقدسة لتقوية السلطة الامبراطورية أو للقضاء عليها . وكانت حروب المائة عام بين ١٣٤٠ ـ ١٤٥٣ م ، بين فرنسا وانكلترة ، تستأثر طيلة هذه المدة ، باهتمام الملوك الفرنسيين من أسرة " ڤالوا " (Valois) الذين كانوا يسعون للتخليص بلادهم من نـير الاحتلال الانكليزي ، كما كانت تستحث الملوك الانكليز من أسرة " لانكاستر " (Lancaster) ، على التشبث بما كان تحت أيديهم من الأراضي الفرنسية ، وجعلت كلا الطرفين لا يستمع لنداءات البابوية لمد يد العون ، للدويلات الصليبية التي كانت تقوم في الشرق . (قبرص ، إزمير ، رودوس)[٤] .

حروب الما عام بين انكا وفرنسـ

أسبانيا

وفي اسبانيا ، فإن ممالكها المتعددة كانت تسعى لإخراج العرب المسلمين من تلـك البلاد . وحاول ملوك آراغون عقد تحالف مع المغول الايلخانيين ، عند قدوم هؤلاء إلى بـلاد الشام ، في مطلع القرن الرابع عشر[٥] وحاولت جارتها مملكة قشتالة تقوية صلاتها بالدول المعاديـة للدول الاسلامية في الشرق ، عن طريق ارسال البعثات الديبلوماسية وجمع المعلومات عن الأقطار الشرقيـة[٦] .

روسيا

أما روسيا ، فكانت مقسمة إلى إمارات متنازعة ، يسيطر مغول القبجاق على الأجزاء الجنوبية منها سيطرة تامة . وكان على أمير موسكو أن لا يمارس سلطانه ، قبل الحصول على مرسوم التقليد من

---

(١) : أرنست باركر : الحروب الصليبية مقال في تراث الاسلام ترجمة أحمد عيسى ص١٤٥ .
(٢) : Boulenger : op. cit. P. 78
(٣) : Cahun : op. cit. P. 961
(٤) : Lamb : La Vie de Timour P. 212 , 216
(٥) : مصطفى بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام طبع القاهرة مغفل التاريخ ص٦٧ .
(٦) : Sykes : op. cit. T. II P. 130

خان المغول المقيم في عاصمته " سراي " ، الواقعة على نهر الفولغا ، في الوقت الذي كان فيه البروسيون والليتوانيون ، يغيرون على الأراضي الروسية من ناحية الغرب •(١)

الامبراطورية البيزنطية في القسطنطينية وطرابزون

وكانت الدولة البيزنطية ، في ذلك الوقت قد بلغت مرحلة شديدة من الضعف • وكانت أملاكها في آسية الصغرى ، حول العاصمة القسطنطينية • تجاور أملاك الدولة العثمانية الفتية • وظلت امبراطورية طرابزون البيزنطية ، على سواحل البحر الاسود — شمال آسية الصغرى — منفصلة عن امبراطورية القسطنطينية التي ظل أباطرتها يسعون للحصول على مساعدة الدول الأوربية المنغمسة في خلافاتها(٢) •

القرم

ومنذ أن اختفت سلطة البيزنطيين من شبه جزيرة القرم ، فقد وقعت هذه البلاد تحت نفوذ مغول القبجاق • وبسبب موقع القرم الممتاز من الناحية التجارية ، إذ تنتهي إليها الطريق التجارية الآتية من الصين عبر قارة آسية ، فقد نافسهم عليها الجنويون ، الذين أقاموا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، على سواحل القرم الجنوبية الشرقية ، مستعمرتهم التجارية الشهيرة كافا (Caffa) ودارت الحروب بين القبجاق والجنويين خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ولم تجد وساطة البندقية ، عام ١٣٤٢ م / ٧٤٣ هـ ، في حسم الخلاف بين الطرفين(٣) •

مملكة أرمينية الصغرى

هذا وانتهى الأمر بمملكة ارمينية الصغرى ، التي كانت تقوم في منطقة كيليكية ، إلى الانهيار عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ، أمام هجمات المماليك الذين دخلوا عاصمتها " سيس " ، وخربوها وأسروا آخر ملوكها ونفوه إلى القاهرة(٤) • وكانت هذه المملكة الارمينية قد لعبت دوراً مهماً خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر الميلادى ، في السياسة الدولية في العالم الإسلامي • وكانت من أخلص حلفاء المغول ثم أحفادهم الايلخانيين ، كما تحالفت أيضا مع الدويلات الصليبية التي كانت قائمة في سواحل بلاد الشام • وسارت جيوشها مرات عديدة الى جانب جيوش المغول الايلخانيين في حركاتها العسكرية في بلاد الشام •

قبرص

وظل للصليبيين بعض المراكز ، حتى ذلك التاريخ ، بالقرب من سواحل الشرق الأسلامي ، أو في بعض نقاط قريبة من هذه السواحل ، كقبرص ورودس وازمير . وقد أصابت مملكة قبرص الصليبية في تلك الحقبة ثراءً وتقدماً كبيرين ، كمحطة للتبادل التجارى بين أوربا والشرق • ولعبت دوراً مهماً في سياسة شرق البحر المتوسط ، ضد الأتراك العثمانيين في آسية الصغرى ، وضد دولة المماليك في مصر والشام(٥) •

المماليك

أما العالم الإسلامي ، فكانت تقوم فيه دول كثيرة العدد ، تختلف عن بعضها بالمساحة والقوة • وكانت دولة المماليك أقدم هذه الدول وأعرقها • وتضم مصر والشام ويتبعها الحجاز الذى تقوم فيه الأماكن المقدسة الإسلامية • وكانت عاصمتها القاهرة مكان إقامة الخليفة العباسي ، ضد

(١) : Bouvat : L'Empire mongol . P. 39

(٢) : Bréhier : Le Monde Byzantin. vie et mort de Byzance P. 472

(٣) : Bouvat : op. cit. P. 38

(٤) : ابن الشحنة : روضة المناظر ص١٩٨ •

(٥) : Bouvat : op. cit. P. 37

سقوط بغداد في أيدي المغول • وشاهدت دولة المماليك عصر ازدهار خلال حكم السلطان محمد الناصر بن قلاوون ٦٩٤ ـ ٧٤١ هـ (١٢٩٣ ـ ١٣٤١ م) • فقد تمكن هذا السلطان بعد حروب طاحنة من دحر الايلخانيين وإجبارهم على إبرام الصلح ، والامتناع عن مهاجمة بلاد الشام[١].
وانتقل الحكم بعد وفاة الناصر إلى أولاده ، وتتالى على العرش ، خلال المدة الواقعة بين وفاة الناصر عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، وبين اعتلاء السلطان برقوق ، مؤسس دولة المماليك الشراكسة ، عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، ثلاثة عشر سلطاناً من أبناء وأحفاد الناصر[٢] • ووصل أغلب هؤلاء السلاطين إلى الحكم وهم صغار السن قليلو الخبرة ، فضلاً عن انشغال بعضهم بحياته الخاصة[٣].
وكانت أقاليم الدولة تعاني إضافةً إلى ذلك من وباء الطاعون الذي كان يحصد الناس حصداً[٤].
وتحدث المؤرخون المعاصرون عن الطاعون كظاهرة عامة اجتاحت أقطار الدنيا • ويشير صاحب السلوك إلى أن ابتداءه كان عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وأنه " قد عم أقطار الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وجميع أجناس بني آدم وغيرهم ، من حيتان البحر وطير السماء ووحش البر • وكان أول ابتدائه من بلاد القان الكبير [الصين] • وامتد إلى توريز وبلاد الخطا ، ثم إلى بلاد الاوزبك وبلاد اسطنبول وقيصرية الروم • ودخل انطاكية "[٥] • وقد أغرت هذه الأوضاع صغار أمراء المماليك بالثورة على السلاطين ، وشجعت دولة قبرص الصليبية على القيام بهجمات مفاجئة ، على سواحل الشام ومصر • واستمرت هذه الأحوال إلى أن تمكن أحد الأمراء المماليك هو الأمير برقوق ـ شركسي الأصل ـ من انتهاز الفرصة ، فأعلن نفسه سلطاناً عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م[٦] ، واتخذ لقب " السلطان الظاهر " فانتهى بذلك حكم السلاطين المماليك الأتراك ، وبدأ به حكم السلاطين المماليك الشراكسة[٧] • وقد عاصر الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج تيمورلنك •

القبجاق

واستمرت دولة مغول القبجاق تحكم شمال شرق العالم الإسلامي منذ العهد المغولي • وكانت حدودها الجنوبية تصل إلى سواحل بحر قزوين الشمالية الغربية وجبال القفقاس وسواحل البحر الأسود الشمالية • وكانت هذه الحدود تفصلها عن دولة المغول الايلخانيين ، حكام إيران والعراق

(١) : كانت أهم انتصارات المماليك على الايلخانيين تلك التي وقعت عام ١٣٠٣ م في " مرج الصُفّر " جنوب دمشق • وبعدها انكسرت حدة غارات الايلخانيين على بلاد الشام ثم لم يلبثوا أن وافقوا على إبرام الصلح مع السلطان الناصر عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م • انظر لذلك البحث الأول " الدولة الايلخانية والحضارة في عهدها " وهو البحث الذي أعددته لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٤ م •

(٢) : القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة • وقد ذكر أنه كان للناصر خمسة عشر ولداً تسلطن منهم ثمانيـة •

(٣) : المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ق ٣ ص ٦٧٨ •

(٤) : القلقشندي : المصدر السابق ص ١٥٦ وقد أفاد القلقشندي الذي عاش في تلك الحقبة أن الطاعون كان يقتل من سكان القاهرة يومياً ٢٠ ألفاً على حد قوله •

(٥) : المقريزي : المصدر السابق ج ٢ ق ٣ ص ٧٧٣ • وفي الواقع فإن دولة المماليك حسب إشارات المؤرخين المعاصرين كانت تعاني أيضاً من حدوث الزلازل والفيضانات وهجمات الجـراد انظر : ابن الشحنة ص ١٨٧ والقلقشندي المصدر السابق ص ١٥٦ •

(٦) : السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٥٠٤ •

(٧) : القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٠٦ وقد أشار إلى أن ابتداء دولة المماليك الشراكسة كان عام ٧٨٤ هـ وأنها استمرت حتى عام ٩٢٢ هـ وكان عدد سلاطينها ١٣ سلطاناً أولهم الظاهر برقوق

وآسية الصغرى ، السلجوقية وكانت الحدود الشرقية لهذه الدولة تصل إلى المجرى الأعلى لنهر ايرتيش . وتتجاوز حدودها في الغرب ، نهر الڤولغا الذي تقع عليه مدينة " سراي " العاصمة . وكانت دولة مغول القبجاق قد نشأت على إثر التقسيم الذي أجراه جنكيز خان في أملاكه قبيل وفاته . ودُعيت البلاد ببلاد القبجاق نسبةً إلى شعب القبجاق الذي كان يسكنها ، وهو فرع من شعوب الغز التركية[1] . وقد دأب حكام القبجاق ، الذين اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر عن الوقت الذي اعتنق به أبناء عمومتهم الايلخانيون هذا الدين ، على الإغارة على أملاك الايلخانيين عبر القفقاس وشمال أذربيجان . وكانوا في الوقت نفسه حلفاء دولة المماليك ، التي كانت تشاركهم العداء لدولة الايلخانيين ، ولذلك تبادلت الدولتان السفراء ، وعقدت بينهما معاهدات الصداقة والتحالف[2] ، ضد الايلخانيين، وتمّ الاتفاق بينهما على تبادل التجارة ، ولاسيما تجارة الرقيق الأبيض، عبر مضائق البحر الاسود ، وقامتا بضغط مشترك على الدولة البيزنطية التي كانت تمتلك تلك المضائق، لتأمين حرية مرور قوافل الرقيق الذاهبة إلى مصر[3] . واستمر ملوك القبجاق من نسل جوجي من جنكيز خان ، يتوارثون الحكم في بلادهم حتى مطلع العصر التيموري[4] ، عندما كانت الدولة الايلخانية تلفظ أنفاسها الأخيرة . فحاولوا الاستفادة من حالة الفوضى التي وصلت اليها هذه الدولة ، عقب وفاة سلطانها أبي سعيد ، عام ١٣٣٥م / ٧٣٦ هـ . ولم يلبث حكام القبجاق أن انقسموا على أنفسهم في العهد التيموري ، وفرّ أحدهم وهو " توقتميش خان " ، هارباً من قريبه المغتصب للعرش " أروس خان " إلى تيمور الذى أكرم وفادته[5] ، وقدّم المساعدات له حتى استرد عرشه .

هذا وكان ضعف الدولة الايلخانية بعد وفاة أبي سعيد، ثم سقوطها بعد ذلك بمدة وجيزة، سبباً في ظهور عدد من الدول، في المناطق التي كانت تخضع لحكم هذه الدولة ، وكان أبرز هذه الدول وأبقاها الدولة العثمانية ، التي نشأت في الأصل إمارة تابعة لسلطنة سلاجقة الروم ، في منطقة الحدود بينها وبين أملاك البيزنطيين[6] . واستطاع عثمان ، مؤسس الدولة وابنه أورخان ، اللذان حكما خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر أن يوسعا أملاكهما على حساب سلاجقة الروم والبيزنطيين والإمارات التركية الأخرى ، التي كانت تقوم في آسية الصغرى ، في ذلك الوقت . وافتتح أورخان عهد الحروب العثمانية في أوربا ، بمهاجمة البر الأوربي عبر البحر الأسود .

وكان الجلائريون ، الذين حكموا في بغداد وتبريز ، ثاني الدول التي قامت على أنقاض الدولة الايلخانية . وينتمي هؤلاء إلى الشيخ حسن جلائرى ، الذى ينتمي بدوره إلى قبيلة " جلاير " المغولية . وكان يرتبط برباط المصاهرة بالأسرة الايلخانية الحاكمة . وكان لحسن الجلائرى دور،

---

(1) : Grousset : L'Empire Mongol P. 318.

(٢) : المقريزي : المصدر السابق ج ١ ق٢ ص٤٦٥ و ٤٨٠ .

(3) : Brehier : op. cit. P. 405. et Spuler : op. cit. P. 54

(٤) : سمرقندي : مطلع سعدين ومجمع بحرين قسمت أول طهران ١٣٥٦ شمي هجري ص١٢١ .

(٥) : يزدى : ظفر نامه ج ١ ص٢٠٤ .

(٦) : القرماني : المصدر السابق ص٢٩٦ .

كبير ، في الأحداث التي وقعت في مرحلة ضعف الدولة الايلخانية . وساهم في رفع ثلاثة من السلاطين الضعفاء من الأسرة الايلخانية الى العرش [١] . ولما فشلت مشاريع الجلائرى ، استقر في بغداد عام ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م ، حيث أعلن استقلاله فيها [٢] . وتوفي الشيخ حسن عام ٧٥٧ هـ ١٣٥٦ م ، وخلفه في منصبه ابنه "أويس" الذى ضم تبريز إلى أملاكه [٣] . ولما توفي أويس استغل ابنه أحمد ، الخلاف الذى نشأ بين شقيقيه حسين وعلي على الحكم ، فاستولى على السلطة في الدولة الجلائرية عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م [٤] . وهو الذي حاول أن يتصدى لتيمور عند زحفه على العراق عام ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) .

المظفريون

نافس المظفريون الجلائريين ، على النفوذ بعد سقوط الدولة الايلخانية .وكان هؤلاء أسرة عربية الأصل ، ظهرت خلال مرحلة انحلال الدولة الايلخانية . واستطاع مؤسس الأسرة "مبارز الدين محمد" ، وكان أحد رجال الإدارة في العهد الايلخاني ، أن يستولي على "يزد" في فارس ، فاتخذها عاصمةً له ، ثم نقل عاصمته إلى شيراز عام ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م [٥] . وخلفه في منصبه ابنه شاه شجاع عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م . واستطاع تيمور فيما بعد ، الاستفادة من المنازعات التي وقعت بين أفراد الأسرة المظفرية ، ونجح في اخضاع الجميع لحكمه [٦] .

آل كرت

واستمر آل كرت ، يحكمون في هيرات وما حولها من خراسان الشرقية ، وهم في الأصل أسرة تنتمي إلى السلاطين الغوريين ، حكام المنطقة قبل العهد المغولي . وكان مؤسس الأسرة ، شمس الدين محمود كرت قد تلقى "يرليغاً" (مرسوماً) بحكم المنطقة من الخان الأعظم "مانغو" (حفيد جنكيز خان) وشقيق هولاكو . واحتفظ آل كرت باستقلالهم الداخلي ، خلال العهد الايلخاني [٧] . ولما كانت الدولة الايلخانية تلفظ أنفاسها الأخيرة ، أعلن معز الدين حسين آل كرت ٧٣٣ ــ ٧٧٢ هـ / ١٣٣٢ ــ ١٣٧٠ م ، استقلاله [٨] . ووُصف حسين هذا بأنه من ألمع شخصيات الأسرة . وقد لعب دوراً مهماً في أحداث مطلع العصر التيموري ــ كما سيرد ــ .

السربداران

واندلعت ، في الآونة الأخيرة التي أعلن فيها آل كرت استقلالهم ، ثورة أخرى في خراسان الغربية ، قادها "خواجه عبد الرزاق" ، وكان ابناً لأحد التجار ، زعم أنه من نسل علي بن أبي طالب ، واستولى على مدينة "سبزوار" عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م ، وخلفه أخوه "وجيه الدين مسعود" . وانتهى حكم هذه الأسرة التي عرفت باسم "الأسرة السربدارية" بالخضوع لتيمور عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م [٩]

التركمان

هذا وكان من آثار هجرة الغز الأتراك باتجاه الغرب ، أن أخذ فرع من هؤلاء ، دعي بالتركمان بعد اعتناقه الإسلام، بالنزول والاستقرار [١٠] في وادي الفرات الأعلى ومنطقة ديار بكر [١١] .

(١) : ستانلي لين بول : الدول الاسلامية ص٥٢٢ .

(٢) : ابن خلدون : المرجع السابق م ٥ ص١١٦٩ و Abru : op. cit. P. 132

(٣) : ابن خلدون : المرجع السابق م ٥ ص١١٧٩ والقلقشندي مآثر الخلافة ج ٣ ص١٧٦ .

(٤) : ابن عربشاه: عجائب المقدور ص٤٧ .

(٥) : Grousset: L'Emprie des Stppes P. 466

(٦) : Spuler: op. cit. P. 72

(٧) : Grousset : op. cit. 425

(٨) : Spuler : op. cit. P. 71 et Grousset : op. cit. P. 466

(٩) : ستانلي لين بول : الدول الاسلامية ص٥٢٣ (١٠) : بارتولد : تاريخ الترك ص١٠١ .

(١١) : ابن خلدون : المصدر السابق م ٥ ص١١٨٨ .

ولم يلعب التركمان دوراً سياسياً بارزاً في العهد المغولي ، ولكنهم استطاعوا تأسيس دولتين في مطلع العصر التيموري [1] دعيت الأولى منهما " بدولة الشاة البيضاء " (آق قيونلو) ، وحكمت منطقة الفرات العليا ، ودعيت الثانية " بدولة الشاة السوداء " (قره قيونلو) في أذربيجان وجنوب بحيرة وان [2] . وكانت العلاقات بين هاتين الدولتين التركمانيتين سيئة غالباً . فأيدت الشاة السوداء دولة المماليك في مصر والشام . ووقفت الشاة البيضاء إلى جانب تيمور [3] ! وهكذا ! فقد أصبح من الواضح أن الفراغ الذي أحدثه سقوط الدولة الإيلخانية وما أعقب ذلك من ظهور دويلات أخذت تتنازع فيما بينها قد جعل الفرصة مواتية لتقدم جيوش تيمور ، بعد تلك الآونة بوقت قصير للقضاء على استقلال تلك الدويلات، وضمها إلى الامبراطورية التي كان هذا الفاتح التركي يعمل على تأسيسها .

الهند وفي تلك الحقبة ، فقد استقرت في دلهي — في الهند — أسرة تركية الأصل ، هي " آل تغلق " . وحلت في الحكم عام ١٣٢١ م / ٧٢١ هـ ، محل دولة الخلجيين الأفغانيي الأصل . وقد استمر حكم آل تغلق في الهند حتى القرن الخامس عشر . وسعى حكامها لنشر الإسلام بين الهنود ، وحاربوا البراهمة . ولذلك كثرت عليهم الثورات ، ولا سيما في عهد الحاكم محمد تغلق الذي كان مولد تيمور في ماوراء النهر عام ١٣٣٦ م / ٧٣٦ هـ في أيام حكمه [4] .

الصين أما في الصين ، فقد استطاع الصينيون اسقاط حكم أسرة يوان المغولية الأصل التي أسسها قوبيلاي خان حفيد جنكيز خان ، عام ١٢٧٦ م (٦٧٥ هـ) . وقام على إثر ذلك حكم أسرة مينغ عام ١٣٦٨ م (٧٧٠ هـ) [5] . وقد حاول حكام الدولة الجدد ، بعث مجد الصين القديم . وتطلعوا إلى المناطق التي كانت خاضعة للنفوذ الصيني في السابق، وسعوا لتجديد هذا النفوذ فيها ، على شكل اتحاد فدرالي بزعامة الصين نفسها [6] . وسنرى أن سياسة الصين تحت حكم أسرة مينغ سوف تؤدي في نهاية الأمر إلى الاصطدام بحاكم ماوراء النهر القوي تيمور .

---

(1) : Barthold : les Turks (E. I. T. IV) P. 955

(2) : ستانلي لوين بول : المصدر السابق ص٥٣٦ و ٥٣٨ .

(3) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — القاهرة ج ١٢ ص١٢ هـ ٥ .

(4) : Bouvat : op. cit. P. 30

(5) : Groussetetses Compognons : Histqire de Moyen Age T. X L'Asie Orientale de l'origneou XV siecle P. 339

(6) : Cahun: op. cit. P.P. 924 - 926

هذا ويورد كاهون وصفاً لمصور يرجع تاريخه إلى عام ١٣٣١ م، يوضح حالة الدول المغولية في القارة الآسيوية، وهذا المصور جزء من مؤلف صيني يتكلم عن الأسرة المغولية الحاكمة في الصين أسرة " يوان " (Yuan) ، فيشير إلى دولة مغول القبجاق والدولة الايلخانية ودولة جغتاي .

الفصـــل الثانـــــي

التطور السياسي الداخلي في ماوراء النهر في مطلع العصر التيموري
(٧٣٤ ــ ٧٦٢ هـ (١٣٣٧ ــ ١٣٦١ م)

غموض تاريخ تلك الحقبة ــ قازان خان ــ قازغـن ــ عبد الله ــ تغلق تيمورخان
اليـاس خواجـــا ٠

غموض تاريخ تلك الحقبة

ينتاب الغموض جزءاً من تاريخ ماوراء النهر ، عقب مقتل الخان " تارماشيرين " عام ١٣٣٤م (٧٣٤ هـ) [(١)] ٠ ونلحظ هذا الغموض فيما كتبه المؤرخون ، عن تسلسل الحكام الذين تعاقبـوا على الحكم في خانية جغتاى ، وفي سنوات حكم كل منهم ٠ والمعلومـات التي وردت عند هـــؤلاء المؤرخين ، عن هذه الحقبة، قليلة بصورة عامة ٠ وقد لاحظ عدد من المؤرخين المحدثين ذلـك الغمـوض الذي أشرنا اليه ، فأضاف بارتولد ، على ذلك يقول إنه كان من المحتمل أن يستمر هذا الغموض لمراحل تالية أخرى من تاريخ ماوراء النهر ، لولم يظهر تيمورلنك الذى كان ظهـوره سبباً في تأليف العديد من الكتب التاريخية ، التي تحدثت عن تيمور نفسه وعن أعماله ٠ ولكن هذه المؤلفات لم تتطرق للحديث ، عن الحقبة السابقة إلا نادراً [(٢)] ٠ وعلى الرغم من أن مؤلفات بارتولد قد كتبت في الجزء الأول من القرن العشرين ، فإن المؤلفات التي ظهرت بعد ذلك عن تاريخ تلك المنطقـة ظلت تشير إلى ذلك الغموض [(٣)] ٠

ومن مظاهر هذا الغموض ، أننا لانعرف على وجه التأكيد الخان الذى تولى مقاليد الحكم بعد مقتل تارماشيرين ، ولا نستطيع تحديد قرابته من الخان القتيل. والمعلومات التي يوردهـا المؤرخون متضاربة [(٤)] ٠ ولكن الذى نستطيع تأكيده هو أن العاصمة ــ عاصمة خانية جغتاى ــ ،

---

(١) : انظر الفصل السابع من الباب الاول من هذا البحث ٠

(٢) : بارتولد : المصدر السابق ص ٢١٢ ٠ (٣) : انظر مثلا : Spuler ; op. cit. P. 80

(٤) : ينحصر التضارب بين المؤرخين في هذه النقطة ، في فريقين ٠ ويقول الفريق الأول : إن خليفة تارماشيرين يدعى " بوزان " (Buzan) وهو الذى تزعم الثورة على الخان تارماشيرين فـي المناطق الشرقية من خانية جغتاى ، ثم تقدم حتى دخل سمرقند ، واقتيد إليه تارماشيرين بعد فشله في الهرب إلى خراسان ، وقتل بعد ذلك في قارشي (نسف) ٠ ويقول بهذا الرأى ابـن بطوطة الذى كان في زيارة للمنطقة قبيل وقوع هذه الأحداث بقليل ، وقال : إنه سمع بمقتـل تارماشيرين واستيلاء بوزان على العرش بعد وصوله إلى الهند قادماً من ماوراء النهر ٠ (انظر رحلة ابن بطوطة ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩) ، وتتطابق المصادر الصينية مع ما ذهب اليه ابن بطوطة ويذكر بارتولد الذى ينقل عن هذه المصادر ذلك (انظر : Barthold: Four Studies..P. 51) إلا أن هذه المصادر تختلف مع ما ذكره ابن بطوطة بأن بوزان هو ابن عم تارماشيرين وتزعم بأن بوزان هو ابن تارماشيرين ويذكر الفريق الثاني من المؤرخين بأن خليفة تارماشيرين هو جنكشـي (Djenkeni) بن أبوكان شقيق تارماشيرين وقال بهذا الرأي المؤرخ التيموري نظام الدين شامي (انظر لمؤلفه ظفرنامه ص ١٣) والمؤرخ التيموري الآخر كمال الدين سمرقندي (في مؤلفه مطلع السعدين ص ٩٤) ، وقد وافق سمرقندي شامي في كون جنكشي حكم مباشرة بعد مقتل تارماشيرين وخلفه من بعده بوزان واختلف معه في نسب كل منهما ورغم أن بوزان هو ابن عم جنكشي وليس شقيقاً له ، وأشار سمرقندي إلى حسن سيرة جنكشي وميله إلى الديانة البوذيـة ومرافقته لكهنتها الذين كان يطلق عليهم الباخشي. ويتابع سمرقندي فيقول ولما مات جنكشي قتلاً دفن في نخشب (نسف ــ قارشي) . وخلفه بوزان بن دوا وكان مجنوناً ٠ وسار على ذلك النسق في ترتيب الحكام بعض المحدثين زامباور (انظر له : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فـي التاريخ الاسلامي ج ٢ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣) .

قد خرجت من ماوراء النهر ، حيث كانت تستقر في حوض نهر كشقاد ريا ، وعادت إلى «الماليغ» في حوض نهر ايلي في وسط آسية ، خلال مرحلة الصراع على السلطة ، دقب مقتل تارماشيرين . واشتدت خلال ذلك ، الحركة الرجعية المعارضة للإسلام [1] ، التي كانت تستند على دعم العناصر المسيحية النسطورية المحلية ، والعناصر الكاثوليكية التبشيرية ، التي كانت تقيم في العاصمة الماليغ [2] . ويلاحظ شيء من النشاط التبشيري في تلك الآونة ، وقد أشار ابن بطوطة إلى بعض مظاهره، وتحدث عن كثرة بناء الكنائس في الماليغ [3] . وكان البابا "بنوا" الثاني عشر (Benoit) (١٣٣٤ــ١٣٤٢م) قد أوفد إلى الماليغ أحد الأساقفة على رأس بعثة كنيسة ، ولكن غروسيه الذى أورد أخبار هـذه البعثة ، يقول إنها لم توفق في الوصول إلى غايتها [4] . ولم تلبث ، في حوالي العام ١٣٤٠ م / ٧٤١ هـ ، أن اندلعت ثورة مضادة جديدة للحركة الرجعية ضد الإسلام ، بقيادة سلطان جديد من أسرة جغتاي [5] ، يدعوه ابن بطوطة خليل بن اليسور ، بسبب السياسة التي سار عليهـا خانات جغتاي بعد مقتل تارماشيرين ، ويذكر نظام الدين شامي في جدوله الذى أورده للخانات الجغتائيين اسمه "السلطان علي" ، ويجعل نسبه يتصل بأوكداي ثالث أبناء جنكيز خان (وليس بجغتاي) [6] . وكان السلطان خليل في أول أمره ينزع إلى الزهد والتصوف ، وكان له أتباع ومريـدون يقلدونه في أقواله وأفعاله [7] . ويقول ابن بطوطة إن خليلاً قد بدأ ثورته من خراسان ، حيث كان يقيم بسبب الاوضاع التي سادت في ماوراء النهر بعد مقتل تارماشيرين . واتفق مع ملك خراسان معز الدين حسين آل كرت على أن يقدم له المساعدة . وعبر في حوالي ١٣٤٠ م (٧٤١هـ) جيحون على رأس جيوش آل كرت ، واستقبله المسلمون من سكان البلاد بالترحاب . ودارت الدائـرة على بوزان ــ حسب رواية ابن بطوطة ــ فأسر وأعدم ، على الطريقة المغولية خنقاً بوتر القـوس ، واستقر الحكم لخليل في ماوراء النهر . وتقدم بعد ذلك بقواته إلى الماليغ ، حيث دارت هنالك معركة حامية خلال ثلاثة أيام انتهت بانتصار خليل ، واشتد القتل بالمغول . وتابع خليل التقدم حـتى حـد وبالصين ، ثم قفل عائداً إلى سمرقند ، واتخذها عاصمة له . ولما كثر أتباعه واتسعت أملاكه ، أرسل حليفه القديم حسين آل كرت يطالبه بالطاعة، وأن يضرب اسمه "(خليل) على السكة ، ويدعو له في الخطبة ، فأجابه حسين بالحرب [8] ، في الوقت الذى كان فيه سكان المناطق الشرقية مـن خانية جغتاى ، مستائين من سياسة خليل الإسلامية ، لبقائهم على عقائدهم الوثنية (الشامانية أو البوذية) ، وإخلاصهم لتعاليم الياسا الجنكيزية الكارهة للإسلام [9] . ولذلك فقد انقسم البيـت

(١) : بارتولد : المصدر السابق ص٢٠٩ .
(٢) : Phillips: op. cit. P. 126 and Grousset: op. cit. P. 345
(٣) : ابن بطوطة ص٣٦١
(٤) : Grousset: L'Empiredes steppes P. 414 - 415 (٥) بارتولد ص٢٠٩
(٦) : يجمع زامبا وربين تسمية ابن بطوطة وتسمية شامي ويدعو هذا السلطان باسم علي خليل الله ويقول عنه انه من أبناء اوكداي وحكم حتى عام ٧٤٣ هـ أو ٧٤٤ وهو الحاكم الحادي والعشرون في سلسلة خانات جغتاي . انظر : زامباورج ٢ ص٣٧٠
(٧) : بارتولد : ص٢١٠ (٨) : ابن بطوطة : ٣٦١ ــ ٣٦٢
(٩) : Spuler: op. cit. P. 80, Phillips: op. cit. P. 127

المالك الجغتائي على نفسه ، ورفع إلى عرش المناطق الشرقية ، خان جغتائي حكم المناطق الواقعة حول بحيرة "ايسيق ـ كول "[1] ، في الوقت الذى استمر فيه خليل الخان الجغتائي الآخر يحكم في ماوراء النهر ، التي كانت تتعرض في ذلك الوقت لغارة الملك حسين . ويؤرخ يزدى غارة حسين عبر نهر جيحون في صفر ٧٤٣ هـ (تموز ١٣٤٢ م)[2] . وقد أحب حسين أن يمد نفوذه إلى ماوراء النهر مستغلاً حالة الفوضى التي سببتها الأحداث الماضية[3] . وعلى الرغم من النجاح الذي حققته الحملة في مراحلها الأولى ـ كما يذكر يزدى ـ فإن سكان البلاد لم يلبثوا أن اتحدوا خلف أمرائهم الأتراك ، ليتخلصوا من حكم السلطان حسين، الذي كان يمثل في نظرهم نمط الحضارة المستقرة ، التي كان تخالف طبيعة البداة الأتراك ، فحاربوه وردوه إلى خراسان[4] . وليس لدينا عن نهاية السلطان خليل إلا الرواية التي يوردها ابن بطوطة ، وهي أن السلطان حسين حاكم هيرات ، قد أسره وعاد به الى خراسان[5] .

قازان خان ويبدأ تاريخ ماوراء النهر بالوضوح بعد الحقبة السابقة المضطربة . ويذكر يزدي أنه كان يجلس على عرش ماوراء النهر عام ٧٤٣ هـ ، بعد رد غزوة حسين كرت إلى خراسان ، أحد أحفاد جغتاي ، هو" قازان خان " (Qazan) ، وأن حكم هذا الخان قد بدأ عام ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م)[6] . ويورد شامي اسم قازان في جدوله عن خانات جغتاى[7] . ويشير حافظ آبرو ـ وهو من مؤرخي العصر التيموري البارزين أيضاً ـ إلى أن حكم قازان خان قد بدأ قبل مولد تيمور[8] ، (وكانت ولادة تيمور عام ٧٣٦ هـ) . ويتفق ماورد عند هؤلاء المؤرخين مع ما ذهبت إليه المذكرات المنسوبة إلى تيمور والتي كتبت فيما بعد ، من أن القضاء على قازان خان كان عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) بعد أن استمر في الحكم خمسة عشر عاماً[9] . ويستنتج من كل ذلك ، أن حكم قازان خان قد بدأ في إثر القضاء على تارماشيرين ، أو قبل القضاء عليه بقليل ، وكانت سلطاته لاتتجاوز ـ على مايظهر ـ وادي نهر كشقا داريا ، حيث أقام فيما بعد عاصمةً له . ولما انتهت حوادث الصراع الداخلي في خانية جغتاي إلى القضاء على بوزان وجنكشي في الشرق على يد السلطان خليل ، وتم أسر هذا الأخير ونقله إلى خراسان من قبل حسين كرت ملك هيرات ، برز قازان خان الحاكم الوحيد في البلاد عام ٧٤٣ هـ[10] ، بعد عشر سنوات قضاها في حكم وادى نهر كشقاداريا فقط .

ويوصف قازان خان بأنه آخر خان هام من أبناء جغتاى ابن جنكيز خان ، وكانت ولادة تيمور في مطلع حكمه . وكانت عاصمته وتدعى "زنجير سراي " (Zanjir-Saray) في وادي نهر

---

(1) : Grousset: op. cit. P. 415 (2) : يزدى ج ١ ص ٢٤

(3) : Grousset: op. cit. 466 et Spuler : op. cit. P. 71

(4) : يزدى : ج ١ ص ٢٥ (5) : ابن بطوطة ص ٣٦٢ .

(6) : يزدى ج ١ ص ٢١ (7) : شامي : ص ١٣

(8) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ٦ (9) : Stewart : op. cit. P. 31 - 32

(10) : يجعل زامباور قازان خان الحاكم الثالث والعشرين في تسلسل الخانات الجغتائيين انظر ج ٢ ص ٣٧٢ .

كشقاد ريا وعلى مسيرة يومين الى الغرب من قارشي [١] ، عاصمة تارماشيرين ، وقد أقام لنفسه قصراً هناك . ونملك اليوم نقوداً تحمل اسم هذا الخان [٢] . ويصور المؤرخون التيموريون قازان خان على أنه حاكم طاغ متهور ، دأب على ظلم الناس والإضرار بمصالحهم [٣] . وتصف مذكرات تيمور قازان خان فتقول : " تملّك السلطان قازان بن سور اوغلان راية السلطة العليا في بلاد جغتاي ، وقبض بيد قوية على الحكم خلال خمسة عشر عاماً في بلاد ماوراء النهر ، وضغط على الرعية ، ووضع قدمه خارج طريق الإنصاف والعدالة . وكانت نتيجة هذا الطغيان أن أصبحت الرعية في حالة بائسة ، فحبسوا أنفسهم في البيوت ، وأخذوا يتضرعون إلى الله ليأذن بالقضاء عليه " [٤] . ويبدو أن قازان خان لما حاول تقوية السلطة المركزية — عقب حوادث الفوضى السابقة ، اصطدم بالامراء الأتراك الذين كانوا يشكلون طبقة ارستقراطية عسكرية ، وكان هؤلاء ينزعون إلى الإنفصال والاستقلال عن السلطة المركزية ، في المناطق التي كانوا ينزلون بها مع قبائلهم ، وكانت حوادث الصراع والفوضى السابقة قد قوت لديهم الرغبة بالانفصال ، في الوقت الذى كانت فيه امتيازاتهم آخذة بالازدياد على مر الايام ، فأصبح لهم حق نقل سلطاتهم في مناطقهم وقبائلهم إلى أولادهم ، وحق مشاركة الخان فيما يحصل عليه من غنائم الحروب ، فضلا عن المساهمة في انتقاء الخان نفسه من أبناء أسرة جغتاى ، عند شغور هذا المنصب . وكان بعض هؤلاء الأمراء يحمل اللقب التركي " بك " (Beg) ، وبعضهم الآخر يحمل اللقب المغولي " نويون " (Noyon) الذى يؤدى المعنى نفسه : " أمير " . ويحكم كل أمير منهم إقطاعة تنزل فيها قبيلته ، ويطلق على هذه الإقطاعة التعبير التركي " اولوس " (Ulus) . وكانت أهم هذه الالوسات ، الوس جلاير ، ويقع في ضواحي مدينة " خجند " ، وتنزل فيها القبيلة التي تحمل الاسم ذاته ، وبرلاس في حوض نهر كشقاداريا ، و " قاوجين " (Qautchin) في الحوض الأعلى لنهر سيحون ، وأرلات في جنوب جيحون (شمال افغانستان الحالية) [٥] .

قازغن ويبدو أن سياسة قازان خان المركزية الشديدة ، قد ولدت عليه نقمة الأمراء وساعدت على اتفاقهم ضده . وكان ذلك عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م [٦] . وانتقده أعداؤه لمخالفته تعاليم شريعة الياسا ، وتجاهله ضرورة الاستماع إلى آرائهم فيما يتعلق بشؤون الإدارة والحكم في البلاد [٧] . وكان زعيم المتآمرين أحد الأمراء الأتراك ، كان في الأصل من أسرة متواضعة وينتمي إلى اولوس قاوجين ، الذى كان الخان ينتقي منه حرسه الخاص [٨] . ويدعى هذا الامير

---

(١) : Barthold : Ulugh Beg. P. 10 (٢) : بارتولد ص ٢١٠
(٣) : يزدى : ج ١ ص ٢١ وحافظ آبرو ص ٦ وسمرقندى ص ٢١٢ .
(٤) : Stewart : op. cit P. 31 . ويرد سمرقندى القول بأن الناس كان يدعون الله في كل ليلة وعند صلاة الفجر للخلاص من قازان ومظالمه . انظر سمرقندي : ص ٢١٢ .
(٥) : Barthold : Four Studies ....P. 53
(٦) : آبرو : زبدة التواريخ ص ٦ ويزدى ج ١ ص ٢١ وسمرقندى ص ٢١١ .
(٧) : آبرو : زبدة التواريخ ص ٧ .
(٨) : بارتولد : ص ٢٢٣ .

" قازغن ".[١] . وكان قد استطاع أن يلفت أنظار بقية الأمراء إليه بشجاعته وجرأته وحسن استغلاله للأحداث ، وبراعته في عقد التحالفات وكسب الأنصار.[٢] وقد مكنه ذلك من أن يصبح أعظم الأمراء الأتراك الجغتائيين شأناً[٣] . ووصفه حافظ آبرو بالحزم وصواب الرأي وحسن التدبير.[٤] ولما تم الاتفاق بينه وبين بقية الأمراء ، في اجتماع عقدوه على خلع قازان خان[٥] . أعلن قازغن الثورة للمرة الأولى ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م ، ودارت المعركة كما يقول غروسيه في موقع يقع إلى الشمال من باب الحديد ،[٦] ولكنه لم يوفق . وكان فشل ثورة قازغن سبباً في أن يزيد قازان خان من استبداده ، واستمر يحكم البلاد من عاصمته زنجبي سراي بالقرب من قارشي . ولكن الناس كانوا يتحينون الفرصة المناسبة للعودة إلى الثورة من جديد . وزاد من كره الناس للخان ، حلول الكوارث والمصائب ، كالصواعق والسيول التي قضت على الأشجار والمواشي فانتشرت المجاعات. وجدد الأمير قازغن محاولته للثورة في العام التالي ، وتقدم مع أنصاره إلى حيث جرت المعركة الثانية بالقرب من كيش[٧] ودارت الدائرة في هذه المرة على الخان ، الذي خلع وأسر ثم قتل بعد عامين في السجن[٨] . وتفرق أتباع الخان المخلوع في الفيافي والجبال . ولما خلا عرش الخانية من حاكم من أبناء جنكيز خان ، فقد اتفق الأمراء — عندما لم يجدوا من هو أهل لإعتلاء العرش من أبناء الأسرة المالكة (أبناء جغتاي) — على تنصيب الامير " دانشمندجه " من نسل اوكداي[٩] ، وأقسم الأمراء له يمين الولاء . وقد اعتبر الخان الجديد دانشمندجه بما حدث للخان السابق ، ولذلك ترك مقاليد الحكم للأمير قازغن ، الذى سار كما يذكر المؤرخون التيموريون وفق مبادئ العدل ، فانصف العلماء (رجال الدين) وقربهم منه .وكان متمسكاً بواجباته الدينية يمضي وقته في الصلاة والعبادة من الفجر حتى طلوع الشمس،ثم يتفرغ لأعمال الدولة.وسعى لتخليص الرعية مما كانوا يعانونه من مظالم في أيام قازان خان[١٠] .فأعاد الأملاك التي استولى عليها الخان السابق بشكل غير شرعي إلى أصحابها ، وعمل على نشر الإسلام بين قبائل جغتاي التي كانت لاتزال على الوثنية[١١] . ويفيد يزدي وحافظ آبرو أن الخان دانشمندجه ، قد توفي بعد عامين من تنصيبه[١٢] ، ولكن كمال الدين سمرقندى يشير إلى أن الخان قد قتل مظلوماً بإشارة من الأمير قازغن ، بعد ما لمس من السكان تعلقهم بأبناء جغتاي بن جنكيز خان ، ورفع إلى العرش ، خوفاً من وقوع ثورة بينهم،واحداً من أبناء جغتاي ،أصحاب السلطة الشرعية ، ويدعى

(١) : ورد اسم هذا الأمير في صور عديدة بالإضافة إلى الصورة السابقة.قازغن عند شامي في ص١٤ وأورده يزدى في ج ١ ص٣٢ كما أورده حافظ آبرو قزغن زبدة التواريخ ص٦ .وغزغن عند سمرقندي ج ٣ص٢٣ ١.ورسمه بارتولد قازاغان ص١ ١ ٢ أما سيتوارت مترجم مذكرات تيمور من الفارسية إلى الانكليزية فقد أورده " كورجن " ويظهر أن تصحيفاً قد طرأ على التسمية من قبل النساخ الفرس هوالذى دفع سيتوارت إلى ايراده على هذا الشكل لأن إمكانية التصحيف بين قازغن وكورجن كبيرة .

(٢) : Cahun : op. cit. P. 927 — (٣) : Stewart : op. cit. p. 31

(٤) : آبرو ص٧ وسمرقندى ص١٢٤ ٢ — (٥) : يزدى ج ١ ص٢ ٢

(٦) : Grousset: op. cit. P. 410 — (٧) : Stewart : ibid .

(٨) : Stewart : op. cit. P. 32 — (٩) : يزدى ج ١ ص٢٢ وحافظ آبرو ص٧ وسمرقندى ص١٢٤

(١٠) : شامي : ص١٤ ويزدى : ج ١ ص٢٢ وسمرقندى ص٢١٦ و ٢٣٢ .

(١١) : Stewart : ibid . — (١٢) : يزدى ج ١ ص٢٢ وحافظ آبرو زبدة التواريخ ص٩

بيان تولي .(١) واستمر بيان تولي على عرش ماوراء النهر عشر سنوات ، كان خلالها قازغن ثم ابنه عبد الله الحاكمين الفعليين في البلاد (٢) . واستمرت الحال مزدهرة وانخفضت الأسعار ، واتسعت حدود مملكة ماوراء النهر وامتدت من السند وخراسان إلى أقصى حدود تركستان في شمال سيحون (٣) وأضحت دولةً ذات كيان مستقل ، وتأكد استقلالها عن القسم الشرقي من خانية جغتاي .

قام قازغن عام ٧٥٧ هـ / ١٣٥٧ م ، بغارة على خراسان عبر نهر جيحون ، رداً على الغارة التي قام بها الملك حسين آل كرت ، حاكم هيرات قبل أربعة عشر عاماً . وكان الملك حسين الـذي أضحى مستقلاً بعد وفاة السلطان الايلخاني أبي سعيد وانقسام الدولة من بعده ، يبدي اهتماماً بأحداث ماوراء النهر ، واستطاع أن يستغل الصراع على السلطة في هذه البلاد بين قازان خان وقازغن ، فأخذ يتحرش بجيرانه جنوبي النهر ، فأغار على السربداريين حكام سبزوار في خراسان الغربية ، وأخذ تقبيلة أرلات التركية الجغتائية ، التي كانت تنزل جنوب جيحون ، تشكو مضايقات حاكم هيرات إلى الأمير قازغن (٤) ، الذي استفزه اعتداء الفرس التاجيك على الأتراك ، فأغار بقوات كبيرة على هيرات واصطحب معه الخان بيان تولي . ولم يستطع الملك حسين بقواته القليلة أن يصمد في المعركة التي وقعت شمالي هيرات ، ففر من القتال ، واحتمى بأسوار العاصمة التي حوصرت من قبل القوات المغيرة . ولكن المفاوضات التي دارت خلال الحصار انتهت إلى الاتفاق على انسحاب الأتراك ، والتزام حسين بالهدوء ، وعلى أن يمثل بين يدي قازغن في سمرقند ، بعد شهر من انسحاب الأتراك وعودتهم إلى ماوراء النهر (٥) . وامتثل حسين وقدم إلى ماوراء النهر ، واستقبل استقبالاً حسناً ، ولا تشير المصادر التيمورية إلى ماتمّ في المقابلة بين حاكم ماوراء النهر وملك هيرات . ولما حاول بعض الأتراك الاعتداء على الملك حسين طمعاً بأمواله ، أمر قازغن بترحيله فوراً وإعادته إلى بلاده .(٦)

ويرى غروسيه أن حملة قازغن على خراسان هي المحاولة الأولى لتأكيد السيطرة التركية في مناطق فارسية (٧) ، ويرى غيره أنها مظهرٌ من مظاهر المجابهة بين التاجيك المتحضرين ، والأتراك الذين كانوا لايزالون على الفطرة البدوية والمتطلعين إلى جمع الغنائم ، ولذلك سار مع قازغن هذا العدد الكبير من الجند (٨) للمشاركة في غزو هيرات .

وانتهت حياة الأمير قازغن اغتيالاً ، بسبب مؤامرة دبرها له بعض رجال حاشيته ، عام ٧٥٩ هـ ١٣٥٨ م . وكان رأس المؤامرة ، زوج ابنة قازغن ويدعى " قتلك تيمور " . وقد كمن المتآمرون للأمير خلال نزهة صيد كان يقوم بها على ضفاف جيحون ، وتمكنوا منه وقتلوه . ونقلت جثة قازغن إلى عاصمته

---

(١) : سمرقندي ص ٢٣٢ ، (٢) : يزدي : نفسه (٣) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ٩—١٠ .
(٤) : Stewart: op.cit.P.37 ويزدي ج ١ ص ٢٣—٢٨ وسمرقندي ص ٢٤١—٢٤٦ وقد قدّر سمرقندي قوات قازغن الذي زحفت معه بثلاثين ألف فارس وأما قوات الملك حسين فلم تكن تتجاوز الـ ٤٠٠٠ فارس و ١٢٠٠٠ راجل . (٥) : يزدي ج ١ ص ٢٣—٢٨ وسمرقندي ص ٢٤١—٢٤٦ .
(٦) Stewart : op. cit. P. 37-38 (٧) : Grousset : op. cit. p. 416
(٨) : Cahun: op. cit. p. 928

بسالي سراي شمالي النهر حيث دفن هناك [١] .

ظل قازغن خلال حكمه يتخذ مظهر زعيم للبدو ، يحافظ على تقاليد الحياة البدوية للأتراك الجغتائيين ، فلم يسع لسكنى المدن القديمة التي كانت آهلة بالتاجيك ، حيث تسود التقاليد المدنية التي كان الأتراك يشعرون بالتعالي عليها [٢] . فكان يقضي الشتاء على ضفاف جيحون في عاصمته سالي سراي (سراي الحالية) ، وينتقل في الصيف الى الجبال ، ولكنه مع ذلك كان يحترم رعاياه من سكان المدن ، ولما هاجم ابنه عبد الله مدينة خوارزم دون إذن منه لامه على عمله لوماً شديدا [٣] .

لم تتجاوز سلطات قازغن الحقيقية ماوراء النهر . وتبرز أهمية هذا الحاكم في أنه أول أمير من الأتراك الجغتائيين يتولى السلطة الفعلية في ماوراء النهر من دون حكامه الشرعيين ، من أبناء جغتاي بن جنكيز خان ، الذين ظلوا — كما رأينا — يتربعون على العرش كخانات دمى ، لا يتمتعون بسلطة حقيقية ، وذلك للمحافظة بصورة شكلية على الشرعية ، في حصر رئاسة الدولة في أسرة جغتاي بين جنكيز خان [٤] . وكان وصول قازغن إلى الحكم بمساعدة زعماء القبائل الأتراك الجغتائيين الآخرين [٥] ، الذين أخذوا يلعبون دوراً بارزاً في مصير بلادهم ، بعد أن كانت مقاليد الأمور بيد المغول . ولا شك في أن العمل الذى أقدم عليه قازغن كان من جملة الأسباب التي دفعت تركياً جغتائياً آخر ، كان يعيش في حاشيته — هو تيمور — لأن يترسم خطاه للوصول إلى السلطة بعد وفاة قازغن بمدة قليلة .

اجتمع الأمراء الأتراك بعد مقتل قازغن ، واتفقوا على تحويل سلطاته إلى ابنه عبد الله ، الذي كان حديث السن قليل الخبرة في شؤون الحكم . وارتكب عبد الله عدداً من الأخطاء دفعت بعض الأمراء للتآمر عليه . فقد أحب نقل العاصمة إلى سمرقند التي كان يقيم فيها ، وكان قد أحبها لكثرة مافيها من منتزهات . ولم يستمع إلى نصائح أركان الدولة بابقاء العاصمة في سالي سراي [٦] ، كما أنه وقع في غرام زوجة الخان بيان قولي فأقدم على قتله . ويصور المؤرخون التيموريون الخان القتيل ، على أنه خرّ شهيداً ضحية أغراض عبد الله الدنيئة . وحملت جثته إلى بخارى حيث دفن بجوار قبر أحد كبار رجال الدين [٧] . وحل في عرش الخانية خان دمية آخر من أحفاد

(١) : يزدي ج ١ ص ٣٠ وسمرقندي ص ١ ٢٤ — ٢٤٣ و Stewart : op.cit.P. 41 وترد في المذكرات تفصيلات أوفى عن نهاية قازغن فتذكر أن زوج ابنة قازغن تبلك بجهو قد حاول في مرة سابقة اغتياله، ولكن محاولته فشلت بفضل تيمورلنك نفسه الذى ألقى بنفسه على المتربصين بالأمير وكانوا سبعة رجال، الأمر الذي مكّن قازغن من أن يعتلي صخرة كبيرة، وينجو من سيوف المتآمرين . ولما فرّ المتآمرون ورئيسهم تبلك تيمور تدخلت زوجته ابنة قازغن ليعفو عن زوجها ولما عفى عنه كرر المحاولة ونجح في قتل الامير .

(٢) : Barthold : Ulghbeg p. 12 (٣) : بارتولد ص ٢٢٥

(٤) Barthold : Four studies P 53 (٥) : Barthold : Ulugh Beg. P. 10

(٦) : يزدي ج ١ ص ٣٠ (٧) : يزدي نفسه وحافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ١١ وسمرقندي ص ٣٠٢ أما رجل الدين فهو الإمام سيف الدين الباخرزى، وهو من مدينة خجند وينسب إليه أنه أسلم على يديه خان مغول القبجاق " بركة " . توفي الباخرزى في بخارى ودفن بها عام ١٢٨١ م . انظر بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٧٧ .

جغتاي هو تيمور شاه اوغلان[١] . وتحرك في إثر ذلك بعض الأمراء الأتراك عام ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) فتقدم حاجي برلاس زعيم قبيلة برلاس بقواته من كيش . وانضم إلى قوات بيان سلدوز الذي تقدم من اندخود وشبورغان (جنوبي جيحون)، وألقى الحصار على سمرقند، في وقت تخلى فيه أنصار عبد الله عنه، فلم يجد بُداً من الهرب، وفر على حصانه عابراً جيحون إلى "اندراب" في جبال هندوكوش، حيث ظل إلى وفاته، بعد أن حكم البلاد سنتين وثمانية أشهر[٢] .

عادت — بعد فرار عبد الله — مظاهر الفوضى السياسية إلى البلاد. وعلى الرغم من أن أحد الأمراء المتآمرين على عبد الله، وهو بيان سلدوز، قد باشر السلطة كحكام على جميع أجزاء ماوراء النهر[٣]، فإن كل أمير قد استقل بصورة فعلية في المنطقة التي كان ينزل بها مع قبيلته. فانفرد حاجي برلاس بحكم منطقة كيش منازل قبيلة برلاس وكذلك كان حال الأمير بايزيد مع قبيلة جلاير في منطقة خجند، والأمير خضر ياساوري في ضواحي سمرقند .[٤] ويضيف المؤرخون التيموريون أسماء أخرى في مناطق أخرى من ماوراء النهر . وزاد في حالة الاضطراب والفوضى، أن اشتدت الحروب بين هؤلاء الأمراء أصحاب النزعة العسكرية المتغطرسة، مما أدى إلى عودة الحكم المغولي إلى البلاد قادماً من الشرق، حيث الشق الثاني من خانية جغتاي، الذي كان يقوم في حوض نهر ايلي والمناطق المجاورة له في وسط آسية[٥] .

تغلق تيمور خان

ففي الوقت الذي كانت فيه حوادث الصراع على السلطة، بين قازان خان وبين طبقة الأمراء الأتراك في ماوراء النهر، هذا الصراع الذي انتهى عام ١٣٤٨ م (٧٤٧ هـ) إلى مقتل الخان وتركيز السلطة بيد أحد هؤلاء الأمراء، هو قازغن، ارتقى عرش القسم الشرقي من خانية جغتاي في الوقت نفسه تقريباً عام ١٣٤٧ م (٧٤٨ هـ)، خان جديد هو تغلق تيمور خان، حفيد جغتاي بن جنكيز خان (من الدرجة الخامسة)[٦] . كان والد تغلق تيمور خان ايميل خواجه شقيقاً للخانين كبك وتارماشيرين . وكان له حكم مناطق كشغر ويرقند وأطراف منغوليا . وقد رزق عام ٧٣٠هـ (١٣٣٠ م) بابنه تغلق تيمور من إحدى حظياته وكانت تدعى "منغلي" (Mangli) وعاش تغلق تيمور أيام حياته الأولى مغموراً،[٧] إلى أن عثر عليه أحد أصدقاء أبيه، بعد وفاة والده.

(١) : يزدي ج ١ ص ٣٠ و

(٢) : شامي : ص١٩ ويزدي ج ١ ص٣١ و

(٣) : Stewart: op.cit. P.44

(٤) : شامي نفسه ويزدي نفسه وحافظ آبرو : ص١٢ وسمرقندي ص٢٠٨

(٥) : Grousset: op.cit. P. 417

(٦) : ذكر المؤرخون التيموريون نسبة شامي ص١٦ ويزدي ج ١ ص٣٢ وسمرقندي ص٢٠٣ على الشكل التالي : تغلق تيمور خان بن ايميل خواجه بن دواخان ويتابع زامباور في معجمه نسبة إلى جغتاي على النحو التالي: دواخان بن براق بن ايسن دوا بن موتوجين بن جغتاي بن جنكيز خان انظر زامباور ج ٢ ص٣٧٢ — ٣٧٣ هذا ويستنتج بارتولد من مقتل قازان خان في ماوراء النهر واعتلاء تغلق تيمور خان عرش القسم الشرقي من خانية جغتاي في عام واحد هو ١٣٤٨ وجود علاقة شبيهة على الرغم من عدم وجود أية اشارة إلى مثل هذه العلاقة في المصادر التاريخية المعاصرة انظر بارتولد ص٢١٢ .

(٧) : Bouvat: op. cit. P. 40 وقد ذكر بوفا أن زوجة ايميل خواجه الرئيسية وتدعى "ساتلميش خاتون" (Satlmich-Khatoun) التي لم تنجب ولداً ذكراً هي التي أبعدت المحظية مانغلي ووليدها ولذلك عاش تغلق تيمور في أول حياته مغموراً .

عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م)[١] . ويرى غروسيه أن الصراع بين القبائل المغولية الأصل التي تم تتركها تماماً في ماوراء النهر وبين القبائل المغولية الأخرى ، كان السبب في تنصيب خان جغتائي آخر في مغولستان . وذلك لمنافسة خانات ماوراء النهر من الأسرة ذاتها[٢] (أسرة جغتاي) الذين غدوا أقرب للأتراك منهم للمغول . وكان تغلق تيمور خان عند جلوسه على العرش في الثامنة عشر من العمر . ولم يلبث مع تقدم الأيام أن استغنى عن الحاشية التي أحاطت به ، وظهر أنه يتمتع بشخصية قوية ، جعلته يباشر أمور الحكم بنفسه[٣] . فاعتنق الإسلام وهو في الرابعة والثلاثين من العمر ، على يد داعية فارسي جاء من بخارى ، يدعى "جمال الدين" وقام ابنه اليـاس خواجة بنشر هذا الدين بين أتباعه المغول بناءً على توجيهات والده وتأييده . ويروى المؤرخون أن مائة وستين ألف رجل من المغول ، قد قصوا شعورهم في يوم واحد ، دلالةً على اعتناقهم الدين الإسلامي[٤] . وعلى الرغم من ضخامة هذا العدد ، فقد ظلت أعداد كبيرة من المغول البداة على ديانتهم الوثنية[٥] . وبسبب اعتناق تغلق تيمور خان للإسلام ، فقد حظي باهتمام المؤرخين المسلمين الذين أكثروا من الحديث عنه[٦] . فأشاروا إلى أنه زحف بقوات كبيرة إلى ماوراء النهر ، عند سماعه باضطراب أحوالها في إثر مقتل الأمير قازغن . ويحدد هؤلاء تاريخ مقدمه في ربيع الثاني ٧٦١ هـ / نيسان ١٣٦٠ م . وبلغ ضفاف سيحون من ناحية خجند، وأقام معسكره هناك[٧] . وظهر بقدوم تغلق تيمور أن الشريحة المغولية ، المتمثلة بالفرع الشرقي لبيت جغتاي ، تحاول إثبات وجودها أمام محاولات أتراك ماوراء النهر الانفصال والاستقلال .

وأحدث قدوم الخان الجغتائي اضطراباً شديداً عند أمراء ماوراء النهر ، فأسرع بعضهم إلى استقباله والدخول في طاعته ، وفضّل بعضهم الآخر الفرار والتواري عن الأنظار[٨] . وأرسل الخان من معسكره على ضفاف سيحون قواته ، لتتغلغل في ماوراء النهر، فبلغت حتى جيحون . ولكن ثورةً اندلعت على الخان في مغولستان ، أجبرته على الانسحاب من ماوراء النهر ونجا الأمراء في هذه البلاد من الخطر الذي كان ينتظرهم[٩] . وتركت ماوراء النهر مرة ثانية تحت رحمة الصراع بين هؤلاء الأمراء . وبرز من خلال هذا الصراع الأمير بايزيد زعيم جلاير ، الذي أراد أن يفرض نفسه حاكماً عاماً على البلاد ، واتخذ من سمرقند أيضاً عاصمة له ، وتحالف مع أمير آخر هو حاجي برلاس وحاول الأميران التصدي لبقية الأمراء الذين حاولوا المعارضة[١٠] .

---

(١) : Bouvat : ibid (٢) : Grousset : ibid .

(٣) : Grousset : ibid .

(٤) : ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٢٦٦ — ٢٦٧ و

(٥) : ارنولد المصدر السابق ص٢٦٨ (٦) : شامي ص١٦ ويزديج ١ ص٣٣ وسمرقندي ص٣٠٨ .

(٧) : Stewart : op. cit. P. 46 (٨) : شامي : ص١٦ ويزدي ج ١ ص٣٣ وحافظ آبرو؛ زبدة التواريخ ص١٢ وسمرقندي ص٣٠٩ و Stewart : op. cit. 46 - 47

(٩) Stewart : op. cit. P. 48 ويزدي ج ١ ص٤٠ — ٤١

(١٠) Stewart : op. cit. P. 52

الياس خواجا

ولما استتب الأمن لتغلق تيمور خان في بلاده ، تحرك من جديد إلى ماوراء النهر على رأس قواته في جمادى الثانية عام ٧٦٢ هـ (حزيران ١٣٦١ م). ونفذ في هذه المرة بنفسة إلى داخل البلاد حتى بلغ سمرقند . وأرسل قواته تلاحق العصاة من أمراء الأتراك، فقتلت بعضهم (بايزيد جلاير) ، وفرّ البعض الآخر من وجه هذه القوات إلى خراسان (حاجي برلاس) . وبلغت جيوش المغول ضفاف جيحون وسفوح هندوكوش في الجنوب ، وأمضى الخان الربيع والصيف في تلك المناطق.(1) وعين تغلق تيمور قبل عودته ابنه الياس خواجا حاكماً على ماوراء النهر ، وترك له قسماً من الجيوش التي كانت معه . واستغل رجال الإدارة المغول الذين كانوا حول الياس خواجا نفوذه وقلة خبرته، فاشتدت مظالمهم للسكان (2)، مما أدى إلى اشتعال الثورة من جديد . وحمل لواء الثورة في وجه المغول شاب في السادسة والعشرين من عمره، هو تيمور . قد قدّر لهذا الشاب الذي شاهد الأحداث السابقة تتوالى على بلاده ، وساهم — هو — بدور فعال في بعضها ، أن يصل للسلطة العليا في بلاده بعد هذا التاريخ بتسع سنوات .

(1) : يزدي : ج ١ ص ٤٥

(2) : يزدي : ج ١ ص ٤٥ وسمرقندي ص ٢١٥ .

الفصـــل الثالـــــث

تكـون مجـتمع الاتـــراك الجغتائيـين

صورة مجتمع القرن العاشر ـ الغزو المغولي وآثاره ـ سياسة علاء الدين الخوارزمـــي ـ الحالة تحت حكم بيت جغتاي ـ قلة السكان في ماوراء النهر وآثارها ـ تترك المغـــول في ماوراء النهر ومظاهره ـ الأتراك الجغتائيون ـ معارضة المغول في مغولستان للترك ـ النظام القبلي عند المغول المتركين ـ الأتراك الجغتائيون والإسلام ـ تغير أخـــلاق السكان ـ أبرز عادات المغول المتركين ـ التاجيك ـ العلاقات بين التاجيك والأتراك

صورة مجتمع القـــرن العاشـــر

كنا قد رسمنا ، في الفصل الخامس من الباب الاول من هذا البحث ، صورة لمجتمع ماوراء النهر خلال القرن العاشر الميلادى والقرون الثلاثة التي تلته . وظهر من خلال تلك الصورة ، أنه كان مجتمعـــاً يتمتع بالاستقرار ، في ظل المدنية الإسلامية التي وصلت إليه عبر إيران . ولكـــن الزحف المغولي الذي تعرضت له البلاد ، وما رافقه من تحرك للقبائل البدوية المغولية والتركية ، وكانت الغالبية العظمى لهذه القبائل لاتزال تدين بالعقائد الوثنية (الشامانية) والبوذية[1] ، قد أخلّ إلى درجة كبيرة ، في ذلك الاستقرار الذي كان يتوفر لمجتمع القرن العاشر ، وأدى إلى تغييـــر واسع في أحوال ذلك المجتمع وعاداته ونظمه ومفاهيمه الدينية ، لدرجة نستطيع القول معها ، إن مجتمعاً جديداً قد نشأ في بلاد ماوراء النهر ، في أعقاب الاجتياح المغولي لها وهجرة القبائل البدوية الوثنية التي رافقته أو حدثت بعده ، وأن المجتمع الجديد وإن كان يمت بصلة إلى مجتمع ماقبل الاحتياج المغولي ، فإن هذه الصلة كانت ضعيفة ، وإن مقدار التغيير الذي طرأ على المجتمع الجديد كان أكبر مما ورثه عن المجتمع السابق .

الغـــزو المغولي وآثـاره

لقد بدأت مظاهر الاضطراب في مجتمع ماوراء النهر المستقر في وقـــت أسبق من الاجتياح المغولي ، منذ أن أخذ الخوف والقلق ينتاب سكان البلاد الذين بدأوا يشعرون بالقلق على مصير بلادهـــم ، عند اقتراب الخطا الوثنيين منهـا فـــي القــرن الثاني عشر الميلادى (السادس الهجرى) ، ولاسيما عندما أقام هؤلاء دولة لهم إلى الشرق من ماوراء النهر[2] . وقد دفع هذا الخوف والقلـــق بعد ذلك بقليل السلطان الخوارزمي محمد علاء الدين ، الذي كان يسيطر على ماوراء النهر ، إلى تخريب مناطق كبيرة من البلاد ، عندما شعر بتهديد المغول الزاحفين نحو أملاكه من ناحية الشرق.

سياسة علاء الديـــن الخوارزمي

ويشير ياقوت الحموي إلى أن هذا السلطان قد أقدم على تخريب الجزء الشمالي الشرقي من مـــاوراء النهر ، مما اضطر سكان هذا الجزء إلى الجلاء عنه . وعلق الحموي الذي شهد هذا الحـــادث قائلا : " وانثلم من الإسلام ثلمة لاتنجبر أبداً "[3] . وأضاف زكريا القزويني الذى عاش في العصر

---

(١) : Grousset : L'Empire des steppes. P. 416 .

(٢) : Barthold : Turkestan down The Mongol Invasion. P. 323

(٣) : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ٩٠١ .

الايلخاني يصف هذه الحادثة " إن منطقة الشاش كانت من أنزه بلاد الله وأكثرها خيراً ، وخربت زمن السلطان محمد خوارزمشاه ، بسبب الحروب مع الخطا . وجلا أهلها عنها ، وظلت خاوية حتى ورود التتر "[١] . ويظهر أن تخريب البلاد كان سياسةً ثابتةً سار عليها محمد خوارزمشاه في ماوراء النهر ، ويقول ياقوت الحموي في مكان آخر : إن هذا السلطان لما استولى على ماوراء النهر ، وعجز عن ضبط أمورها ، سلط عليها عساكره فنهبوها ، وأجلوا الناس عنها " فبقيت تلك الديار التي كانت كالجنان خاوية على عروشها ، ثم أعقب ذلك قدوم التتر الذين خربوا الباقي "[٢] . وتظهر نتائج أعمال السلطان الخوارزمي بسبب هذه السياسة في الرقم الذي أعطي لضحايا إحدى الثورات التي قامت في سمرقند على الحكم الخوارزمي ، إذ يقدر ابن الأثير عدد من قتلوا في هذه الثورة بمائتي ألف نسمة ، ثم يشير إلى أن السلطان الخوارزمي أمر سكان مناطق الشاش وفرغانة واسفيجاب وما حولها بالهجرة والالتحاق بغيرها من بلاد الإسلام ، وأمر بتخريب هذه المناطق خوفاً من أن يمتلكها التتر[٣] .

ويرد عند المؤرخين المعاصرين للغزو المغولي ، الكثير من الشواهد على أن سكان ماوراء النهر سعوا إلى مغادرة بلادهم ، عندما كان إعصار الغزو المغولي يعصف بها ، فيصف ابن الأثير حالة بخارى بقوله : " وأصبحت بخارى خاوية على عروشها ... والقوا النار بالبلد "[٤] . ويضيف ابن العبري على ذلك قائلا : " أحرق جنكيز خان بخارا وتفرق أهلها متنزحين إلى خراسان "[٥] . وتصور هنا أيضاً الأرقام الضخمة التي يوردها المعاصرون لأعداد القتلى ، مبلغ التخريب الشامل الذي حاق ببخارى وسمرقند وغيرها من مدن ماوراء النهر[٦] .

وأدى استمرار تدفق موجات الغزو المغولي ، من قلب آسية ، لمتابعة غزو العالم الإسلامي إلى زيادة حالة الفوضى والاضطراب في تلك البلاد . وكان بعض الجيوش المغولية يقيم في مناطق في ماوراء النهر ، خلال مروره منها ، للاستجمام والاستعداد . ويذكر رشيد الدين - مؤرخ العصر الايلخاني الشهير - أن جيش هولاكو العظيم ، عندما قدم عام ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م لاجتياح إيران والعراق وغزو بغداد ، قد أقام أربعين يوماً في مروج سمرقند ، وانتقل بعدها إلى ضواحي كيش حيث أقام شهراً آخر[٧] ، ولا شك في أن جند المغول قد فعلوا مايحلوا لهم عندما كانوا يعبرون البلاد ، ولاشك في أن ذلك ، قد زاد في تيار السكان الفارين من ماوراء النهر إلى خراسان .

---

(١) : القزويني : آثار البلاد ص٥٣٨ (٢) : ياقوت الحموي ج ٥ ص٤٧

(٣) : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص٢٩٥ - ٢٩٦ (٤) : ابن الأثير : ج ٩ ص٣٣٣ .

(٥) : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٣٤ .

(٦) : ذكر ابن الأثير أن سبعين ألفاً من مكان بخارى أجبرهم جنكيز خان على الانتقال إلى سمرقند، ثم قتلهم على أسوار سمرقند (ابن الأثير : ج ٩ ص٣٣٣) . وذكر ابن العبرى أن المغول قتلوا من سكان سمرقند ثلاثين ألفاً (ابن العبرى ص٢٣٥) . ويعلق بارتولد على هذه العبارات فيقول : " ولا شك أن ماكان يقع في بخارى كان يقع مثله ، في غيرها من المدن لانعلم عنها إلا قليلا " . انظر بارتولد ص١٩٧ .

(٧) : رشيد الدين : جامع التواريخ جلد دوم تهران ١٣٣٨ (هـ.ش) ص٧٦٦ - ٧٦٧ .

واستمرت عملية تفريغ ماوراء النهر من سكانها القدامى ، بعد انتهاء موجة الإعصار المغولي ، واستقرار الحكم في بلاد ماوراء النهر في بيت جغتاي بن جنكيزخان .وكانت حوادث الصراع على السلطة بين أفراد هذا البيت ، تترك آثارها السيئة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد (١) .
ويذكر رشيد الدين ، أنه على الرغم من اعتراف أحد حكام البلاد ـ هو بوراق بن ايسن دوا بن مونوجين بن جغتاي ـ بما تركته الحروب والمنازعات بين الحكام ، وقال : "إن بلاد ماوراء النهر خربة جداً وقاحلة "(٢) وقرر اتخاذ بعض التدابير لحماية الأراضي الزراعية من غارات البدو ، والامتناع عن إقامة الجيوش في الأراضي المزروعة ، فإن ذلك لم يمنع هذا الحاكم من أن يأمر بمصادرة جميع دواب ماوراء النهر وأمتعة الناس وأموالهم . ويشير حافظ آبرو في هذا الصدد إلى أنه لما فشلت ثورة أحد القادة المغول في ماوراء النهر عام ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) ، واضطر إلى الفرار إلى خراسان ، أجبر سكان المنطقة الممتدة من سمرقند حتى ترمذ على نهر جيحون ، على ترك مدنهم وقراهم وعبور النهر معه . وقد سيق هؤلاء بما فيهم النساء والأطفال والشيوخ حفاة عراة تحت سطوة برد الشتاء القارس سيراً على الأقدام ، وقد هلك على الطريق منهم أكثر من مائة ألف إنسان (٣) .

وكذلك فإن الحروب التي كانت لا تنقطع تقريباً بين حكام بيت جغتاي في ماوراء النهر وبين الايلخانات من بيت هولاكو الحاكم في إيران ، تنتهي إلى تهجير قسم من سكان ماوراء النهر إلى خراسان . فلما غزا الايلخان أباقا بن هولاكو بخارى عام ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) نهب المدينة وقتل عدداً كبيراً من سكانها ، حتى جرت الدماء أنهاراً فيها ، لأن سكانها عَصَوا أمر أباقا ، ورفضوا مغادرة مدينتهم والانتقال إلى خراسان ، ولم تجل الجيوش الايلخانية عن المدينة إلا بعد أن ساقت أمامها خمسين ألفاً من السكان أسرى إلى خراسان (٤) .

وكانت نتيجة تفريغ ماوراء النهر من سكانها ، بسبب الهجرة أو التهجير ، الذي استمر حتى مطلع العصر التيموري ، أن أضحت ظاهرة قلة السكان في تلك البلاد واضحة . وتشير إلى هذه الظاهرة المذكرات في أحداث عام ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) ، فقد جاء في الرسالة التي وجهها تيمور إلى تغلق تيمور خان في ذلك التاريخ "إن الحالة ليست مستقرة في ماوراء النهر ، وكان عدد من الطغاة يضطهدون الناس الذين نفذ صبرهم ، فأخذوا يغادرون البلاد .... إن بلاد ماوراء النهر هي الآن مقفرة من سكانها ، ولا يسكنها إلا الغربان والحدءات "(٥) . وعلى الرغم مما ينطوي قول المذكرات على مبالغات ، ولكنه يشير إلى ظاهرة اجتماعية واضحة وثابتة هي ظاهرة انتقال السكان من ماوراء النهر إلى خراسان بأعداد كبيرة .

ويلاحظ أن انتقال السكان من تلك البلاد ، بسبب الاجتياح المغولي أو الاضطرابات السياسية التي تلته ، قد رافقه انخفاض في مستوى الحياة، واتساع لمظاهر الحياة البدوية على حساب حياة الاستقرار

(١) : Spuler : op. cit. P. 78
(٢) : رشيد الدين جامع التواريخ (الترجمة العربية) ترجمة الخشاب وزملائه القاهرة ١٩٦٠ ، م ٢ ج ٢ ص ٢٢ .
(٣) : Bayani (Traducteur) Hafiz-i-Abru . Chronique des Rois. P. 46
(٤) : رشيد الدين : جامع التواريخ (الطبعة الفارسية) جلد دوم ص ٧٦٦ ـ ٧٦٧ .
(٥) : Stewart : op. cit. P. 54 .

تترك المغول في ماوراء النهر ومظاهــــ

والزراعة ، ثم انتشار الخراب والدمار على نطاق واسع • وينقل القلقشندي عن رجل زار بعض المناطق في شمال شرق ماوراء النهر عقب الغزو المغولي ، فقال : إنه لم يبق في هذه المناطق إلا الأطلال الخالية من السكان ، يجوس حولها الرعاة حيث لا زرع ولا نسل ، وإنما مروج تنبت بشكل طبيعي[١]. ووردت في المذكرات إشارات إلى تلك المناطق التي تبدو للعين من بعيد أنها آهلةٌ بالسكان ولما يقترب المرء منها يجدها أطلالاً خاليةً من الناس[٢] • وقد أشار مستوفي قزويني إلى أن الشـريط الزراعي حول نهر جيحون لم يعد متصلاً خلال القرن الثامن الهجري ، مما يوضح مدى التأخـر الذي حاق بالبلاد[٣] ، بسبب ما دخل إليها من القبائل البدوية مع الغزو المغولي أو بعده •

ومن الجدير بالاهتمام التدقيق في نوع العناصر الجديدة التي استقرت في البلاد في تلك الآونة ، لأن هذه العناصر مع القلة من سكان البلاد الأصليين التي ظلت متشبثة بمواقعها ، هي التي كوّنت المجتمع خلال العصر التيموري • ولا شك في أن تغييراً اتنولوجيا ــ كما يقول سبولر ــ قد حدث في البلاد عقب الغزو المغولي ، وتكونت فيها نتيجة امتزاج العناصر الجديدة بالعناصر القديمة سلالة جديدة[٤] • وعلى الرغم من أن الغزو المغولي كان سبباً في اضطراب أحوال المجتمـع وتغير تركيبه الاتنولوجي ، فإن العنصر المغولي نفسه ، لم يكن له إلا دورٌ ضئيل نسبياً في تركيـب المجتمع الجديد .ويشير رشيد الدين إلى قلة عدد المغول الذين استقروا أخيرا في المنطقة التي خصصها جنكيز خان لابنه جغتاي،فيقول إن الفاتح المغولي لم يترك له ، سوى أربعة آلاف جندي[٥] ، في الوقت الذي ترد فيه إشارات ، إلى أنه رافق الجيوش المغولية عدد كبير من القبائل التركية ، لدى مؤرخين معاصرين للغزو المغولي • ويفهم من عبارة محمد النسوي (المتوفى ٦٣٦ هـ / ١٢٤١ م) الذي مات شريداً طريداً بسبب هذا الغزو ، أن هذه العناصـر التركية التي رافقت الغزو المغولي كانت من مستوى حضاري متدن[٦] • ويعلق بارتولد على هذه الأقوال ، بأن المغول الذين أسسوا امبراطوريتهم الواسعة لم يكونوا كثيري العدد ، وأن الأتراك الذين رافقوا المغول في اجتياحهم ماوراء النهر كانوا أكثر عدداً من هؤلاء[٧] • ولكن كلا العنصرين الأتراك والمغول كانا يتشابهان في تقاليد الحياة البدوية والعقائد الوثنية • وعلى الرغم من أن قبائل مغولية قد استمرت تهاجر فيما بعد إلى ماوراء النهر،فقد ظلت غالبية القادمين تنتمي إلـى الأصل التركي ، وظلت الصبغة التركية هي سمة السلالة الجديدة ــ كما يقول سبولر ــ واضحت ماوراء النهر بلاداً تركية تماماً وبشكل نهائي[٨] • وكان من الطبيعي ، أن تتأثر القلة المغولية على مر الأيام بالأكثرية التركية ، بسبب التجاور في الإقامة والتماثل في نمط الحياة البدوية • ولا يُشك في

(١) : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤ (٢) : Stewart : op. cit. P. 63

(٣) : Spuler : Amu-Darya . (E.I.T.I P.P.467-470) P. 468

(٤) : Spuler: Les Mongols ...P.78-79: (٥) : رشيد الدين جلد دوم ص ٤٠٩

(٦) : محمد النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٤١ .ومن المعروف أن السلطان الخوارزمي جلال الدين قد قضى خلال محاولته إيقاف الغزو المغولي كما قضى أبوه السلطان علاء الدين من قبل.أما عبارة النسوي المنوه عنها فهي " انضوى إليهم [المغول] من أوشاب الترك وأوباشها كل طامع في مال وطامح إلى منال " هذا وترد عند مؤرخين وكتاب معاصرين إشارات إلى كثرة عدد الأتراك بالمقارنة مع غيرهم من الشعوب • انظر ابن العبري ص ٣ والقزويني ص ٥١٥ •

(٧) : بارتولد ص ١٣٩ و Barthold;Ulugh..P. 2 (٨) : Spuler : ibid .

أن نسبة كبيرة من الدماء التركية ، أخذت تجري في عروق القلة المغولية ، التي جاءت لتقيم في ماوراء النهر ، وانتهى الأمر بهم لأن يصبحوا أتراكاً في محيط تركي . ويدعو يزدي — المؤرخ التيموري الشهير — الدولة التي أسسها تيمور فيما بعد — بدولة الترك (١) . وكانت المذكرات يدورها تلح على ضرورة اتباع عادات الأتراك وتقاليدهم ، وعدم الخروج عليها ، وأن انحراف الحكام عن هذه العادات والتقاليد يؤدي إلى فقدانهم احترام رعاياهم (٢) . وكان تيمور وأولاده يبدون في أنظار معاصريهم أنهم لايمتون بصلة إلى المغول . ولذلك أرسل أحد أباطرة الصين ، من أسرة "مينغ" (Ming) ، التي حكمت الصين بعد سقوط أسرة يوان المغولية ، إلى شاه رخ بن تيمور عام ١٤١٢ م / ٨١٥ هـ رسالة يعلمه فيها أن والده تيمور ظل يرفض الإقرار بالتبعية للامبراطورية الصينية حتى سقوط حكم الأباطرة المغول (٣) في تلك البلاد (الصين) . ويدل هذا على أن الامبراطور الصيني من أسرة مينغ كان يعتبر السلالة التيمورية لاتمت بصلة إلى الأصل المغولي ، لأنها لو كانت كذلك فإن هذا يفسح المجال لشاه رخ ، لرفض الإقرار بالتبعية للامبراطورية الصينية ، الجديدة ، التي قامت على أنقاض السلالة المغولية .

ويؤكد المؤرخون في الوقت الحاضر على تركية تيمور وتركية أسرته وتركية قبيلة برلاس التي ينتمي إليها . ويعتبرون وصوله إلى الحكم في ماوراء النهر بمثابة نهاية للحكم المغولي وبداية لدور كان فيه الطابع التركي هو الغالب في هذه البلاد (٤) . ويقول "كاهون" (Cahun) في هذا الشأن إن عشيرة برلاس وغيرها من العشائر التي كانت تسكن ماوراء النهر ، تبدو تركية بالروح واللغة بصورة واضحة تماماً . ويتابع قوله إننا نرتكب خطأ كبيراً إذا اعتبرنا تيمور مغولياً (٥) . ومن الأدلة القاطعة على التترك الذي أصاب القبائل المغولية في ماوراء النهر نسيان هؤلاء المغول للغتهم الأصلية بالتدريج في هذه البلاد ، حيث استعاضوا عنها باللغة التركية (٦) . وقد لوحظ أن عملية تترك لغة المغول شملت مؤسسات الحكم العليا منذ وقت مبكر . ويذكر بارتولد برهاناً على ذلك أن لفظة (أوردا) المغولية التي تعني "معسكراً" قد استبدلت باللفظة التركية (أولوغ) التي تعني "البيت الكبير" ، وأطلقت على معسكر جغتاي وأولاده (٧) . ومن الأدلة القاطعة على أهمية اللغة التركية عند المغول أنفسهم أن مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ، قد أورد في كتابه "جامع التواريخ" المصطلحات المغولية وإلى جانبها ترجمتها إلى التركية . كما يُعتبر نقل الخان الجغتائي "كبك" عاصمته من قلب آسية إلى ماوراء النهر ، رغم بقائه على الشرك ، مظهراً آخر من مظاهر التترك (٨) . ويُفهم من كلام بطوطة عن هذا الخان أنه كان يتكلم اللغة التركية (٩) . واستقبل شقيقه الخان "تارماشيرين" الرحالة المغربي بوصفه سلطان الترك ، وتحدث مع ابن بطوطة بالتركية بواسطة المترجم (١٠) .

---

(١) : يزدي ج ١ ص٣٥٢ (٢) : Stewart : op. cit. P. 128

(٣) : Blochet: op.cit. P. 245- 246 (٤) : Saunders : op. cit. 173

(٥) : Cahun : op. cit. P. 928 (٦) : بارتولد ص١٣٥ (٧) : بارتولد ص٢٠٦

(٨) : بارتولد : ص٢٠٦ (٩) : ابن بطوطة : ص٣٥٥ .

(١٠) : ابن بطوطة ص٣٥٦ — ٣٥٧ الذي أورد العبارات التركية التي خاطبه بها الخان تارماشيرين خش ميسن ، يخشي ميسن ، قطلو أيوسن ، وترجمتها كما أوردها ابن بطوطة : في عافية أنت ، جيد أنت ، مبارك قدومك .

معارضة المغول في مغولستان للـــترك

وقد لفت تترك القبائل المغولية في بلاد ماوراء النهر ، نظر المغول الذين ظلوا مقيمين في المناطق الشرقية من بلاد جغتاى ، (حوض ايلي وحوض ايسيق كول ونهر جو) ، والتي أصبحت تدعى مغولستان منذ الوقت الذى تلا حركة المغول نحو الغرب ، وكان هؤلاء (مغول وســـط آسـية) يعتقدون أنهم ، من دون مغول ماوراء النهر الذين ساروا في طريق التترك ، الممثلون الصادقون لشمائل البداوة في أواسط آسية ، فكانوا يحتقرون المتتركين ويشعرون بالتعالي عليهـم ، ولذلك أطلقوا عليهم اللفظ المغولي " قرا واناس" أي " المولدين " ، ولذلك أيضاً ، فقد أطلـق سكان ماوراء النهر بالمقابل على المغول لقب " الجتـا ــ الجتة" [1] وهي لفظة ذكرها ابـــن عربشـاه ، وقال بارتولد إن ابن عربشاه قد استعملها بمعنى اللصوص وقطاع الطرق [2] . واستخدمها مؤرخو العصر التيموري الآخرون للدلالة على سكان آسية الوسطى [3] . وأطلق سكان ماوراء النهر (الأتراك والمغول المتتركون) على أنفسهم الاسم الذى أشتهروا به ، وهو أتـراك جغتـاى [4] . وكلمـة جغتاي هنا تعني أرض جغتاي التي استمدت اسمها أصلاً من جغتاي بن جنكيز خان . وقد استخدم بعض مؤرخي الشام ومصر هذا التعبير وأطلقوه على جند تيمور عند قدومهم لغزو الشام في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي (مطلع القرن التاسع الهجري) . وأورده ابن قاضي شهبـة على شكل " الشقطية " [5] .

وقد رأينا ، أن سير بعض خانات جغتاي على سياسة التقرب من سكان ماوراء النهـر ، ونقل العاصمة إلى هذه البلاد ، قد سبب ثورة المناطق الشرقية من تلك الخانية ، وبلغت الثـورة حداً أدى إلى مقتل الخان تارماشيرين وانفصال هذه المناطق الشرقية وانتخابها خاناً آخر ، وُصف بأنه كان محبوباً من قبل المغول [6] .

الأتـراك الجغتائيون

ويكاد لايسمع بين أسماء القبائل المغولية المتتركة التي استقرت في ماوراء النهر ، اســماً واحداً كان يطلق فيما مضى على أحد الشعوب التركية ، قبل حدوث الغزو المغولي ، كالقارلوق أو القره خانيين ، وإن كان يرد اسم القبجاق على أنهم مملكة مجاورة ، يحكمها أحفاد جوجي بن جنكيز خان ، وأن هؤلاء يكونون العداء لمملكة جغتاي بحكم الجوار والمنافسة . ويرد اسم الاويغور ، على أنهم الكتّاب الذين كان يعتمد عليهم تيمور في التدوين أحياناً [7] . وفي المقابل فإن اسماء الكثير من القبائل المغولية ، قد أُطلق فيما بعد ، على بعض العشائر المغولية المتتركة المقيمة في ماوراء النهر . ويُفسَّر ذلك بأن بعض أجزاء من القبيلة الواحدة ، كان يرحل للإقامة في الأماكن الجديدة في ماوراء النهر ، مع بقاء أجزاء أخرى من هذه القبيلة في موطنها الأصلي . ولذلك كان كثيراً مايرد

---

(١) : بارتولد : ص٢١٩

(٢) : ابن عربشاه : عجائب المقدور ص٣٤ و٣٥ ثم Barthold: Ulugh Beg P. 11

(٣) : انظر مثلا : يزدي ج١ ص١٣٦

(٤) : Spuler : op. cit. P. 76

(٥) : انظر مثلا ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج١٢ ص٢٥٤ وابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص٣٦٢ وقد أورده مصحفاً جغطاي أو حقطاي ثم ابن قاضي شهبة : ذيلة على تاريخ الذهبي صور ميكروفيلم لمخطوط مكتبة أسعد أفندي في استانبول ورقة ٦ - ٢ آ .

(٦) : Grousset: L'Asie Orientale, P.345 et Phillips:op.cit.P.126

(٧) : بارتولد : ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .

ذكر القبيلة الواحدة في المناطق الشرقية من خانية جغتاى ، ويرد ذكرها أيضاً بين عشائر ماوراء النهر المتركة. ويضرب المثل على ذلك بقبيلة " برلاس " التي ينتمي إليها تيمور ، والتي ورد ذكرها في أحد المؤلفات الصينية القديمة ، على أنها إحدى القبائل المغولية(١) ، وهي في الوقت نفسه ، من شهيرات قبائل أتراك جغتاي في ماوراء النهر .

النظام القبلي عند المغ... المترك...

وعلى كل حال ، لم يعد النظام القبلي عند الأتراك الجغتائيين ، نظاماً جامداً لا يقبل التعديل ، واتضح - على العكس ، أن هذا النظام يقبل في بعض الظروف تشكل قبائل جديدة وحلّ قبائل أخرى كانت قائمةً فعلاً ، وتوزيع أبنائها على القبائل الأخرى(٢) . وقد تكونت على مر الأيام عشائر جديدة في ماوراء النهر ، حول بعض الشخصيات الهامة كالخانات أو الأمراء ، تجمّع أتباعها من الأفراد الذين قبلوا أن ينضووا تحت لواء هذه الشخصية أو تلك . وحملت هذه العشائر الجديدة أسماء زعمائها بعد موتهم ، وأصبح لها رؤساء يتوارثون الحكم فيها وأراضي تنزل بها ، وخير مثال على هذه العشائر الجديدة ، عشيرة كبك التي تنتسب إلى الخان الجغتائي كبك ، فقد ذكر بارتولد نقلا عن مخطوطة مجهولة المؤلف ، أن كبك عندما كان أميراً ، حصل من أخيه الخان " أيسن - بوغا " ، على حق جمع بعض الأغنياء حوله ، وكان هذا الإجراء سبباً في نشوء العشيرة . وتشكلت على الطريقة ذاتها عشيرة أخرى حول قائد مغولي يدعى " ياساوور " ، ضمت أتباعه وأنصاره ، وكانت هذه العشيرة تنزل في مطلع العصر التيموري بجوار سمرقند(٣) . ويعلل لنا هذا سبب اختفاء معظم أسماء القبائل التركية ، التي كانت معروفة قبل الغزو المغولي ، لأن الانتماء إلى قبيلة على رأسها أمير عريق النسب ومتنفذ، قد يغري الأفراد بالانضواء تحت لوائه وترك عشائرهم الأصلية .

الأتراك الجغتائيون والإسلام

هذا ، وكان الإسلام قد أضحى ديناً عاماً لسكان البلاد تقريباً ، منذ القرن العاشر الميلادي ، ولكن البلاد خضعت منذ القرن الثاني عشر الميلادي لحكم الخطا ، الذين كانوا يعتنقون البوذية . وكان هذا أول حكم غير إسلامي بعد انتشار الإسلام تخضع له هذه البلاد(٤) . وعلى الرغم من تسامح الحكام الخطا مع رعاياهم المسلمين(٥) ، فان الإسلام أخذ يلقي المعارضة من آخر هؤلاء الحكام الذي تعصب للبوذية . ولما حكم المغول الوثنيون ماوراء النهر تعصب الحكام الجغتائيون الأوائل لديانتهم الشامانية . وعرف جغتاي بن جنكيز خان نفسه - كما مر معنا - بتعصبه لشريعة الياسا التي سنّها والده ، فاضطهد رعاياه المسلمين بسبب ماوجده من تعارض بين الياسا والشريعة الإسلامية . وعلى الرغم من ذلك فقد كان وزيره مسلماً(٦) ، ولكن رجال الدين

---

(١) : Blochet: op. cit. P. 272

(٢) : Baethold : Ulugh Beg P. 26 الذي ذكر أن تيمور عام ١٣٧٦ م لما غضب على قبيلة جلاير أمر بحلها والحق بقاياها بالقبائل الأخرى .

(٣) : بارتولد : ص٢٢٣

(٤) : Barthold : Turkestan down the Mongol Invasion . P. 322

(٥) : Grousset : L'Empirc des steppes. p. 296 .

(٦) : رشيد الدين : كتاب جامع التواريخ " جلد دوم بسعي واهتمام ادكار بلوشيه ليدن ١٣٢٩ هـ ١٩١١ مسيحي ص١٩٧ .

الإسلامي ، كانوا لايرتاحون إلى تصرفات هذا الوزير ومصانعته للمغول الوثنيين ، وقد دارضه أحدهم ـ وهو سيف الدين الباخرزي ـ وهدده بعقاب الله في الآخرة(١) . وعلى الرغم من اعتناق أحد هؤلاء الحكام ـ وهو " بوراق " ـ الإسلام فيما بعد، فإنه قد دُفن عند وفاته على قمة جبل مرتفع ، كما تقضي بذلك عوائد المغول (٢) . ومهما لاشك فيه فإن الاتجاه المعادي للإسلام قد كان يتعزز باستمرار قدوم القبائل الوثنية إلى ماوراء النهر . وكان مقتل الخان تارماشيرين الذي أعلن اعتناقه للإسلام ، على يد ثوار المناطق الشرقية الوثنيين ، وتعيين خان وثني خلفاً له ، مظهراً من مظاهر هذا الاتجاه . وعلى الرغم من أن الحركة المعادية للإسلام لم تستطع أن تدرك نجاحاً تاماً ، وتعيد سكان البلاد إلى الوثنية مرة ثانية ، فإنها تركت آثارها على مجتمع الأتراك الجغتائيين الذي كان في طريق التكوين في تلك الآونة ، لأن هؤلاء البدو الذين اعتنقوا الإسلام واعتبروا أنفسهم مسلمين ، كان اعتناقهم له اعتناقاً سطحياً ، وظلوا متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم السابقة ، ولا سيما بشريعة الياسا ، مما دفع بعض المؤرخين لاعتبارهم أنصاف وثنيين (٣) . وكان ابن عربشاه قد أشار إلى مثل هذه الحالات فقال بوجود " كفرة وفجرة " بين الجغتائيين (٤) . وأشارت المذكرات إلى أنه كان لايزال حتى عهد الأمير قازغن ـ الذي نشأ تيمور في كنفه ـ من كان لايزال على الوثنية بين بدو الأتراك الجغتائيين (٥) . وكان حال هؤلاء شبيهاً بحال مغول القبجاق ، الذين ظلوا محتفظين بآثار كثيرة من شامانيتهم الهمجية القديمة ، على الرغم من ادعائهم اعتناق الإسلام (٦) . ويرجع السبب في ذلك إلى أن معظم السكان الأصليين ، في ماوراء النهر ، قد نزحوا عنها إلى خراسان والمناطق الأخرى الأكثر أمناً ، بعد الكوارث التي حلت ببلادهم ، ولم يبق من هؤلاء السكان إلا قلة قليلة(٧) ، لم تكن من الناحية الدينية والفكرية على درجة كافية تؤهلها لإيصال الإسلام بشكل كامل وصحيح إلى هؤلاء البدو .

وتفسر لنا هذه الحال أيضاً سبب معارضة سكان البلاد في مراحل الغزو المغولي الأولى للعادات وتقاليد المغول ، ثم إذعانهم لهذه العادات في العصر التيموري ، عندما أصبحوا قلة مغلوبة على أمرها . وقد لوحظ نزوع بعض هؤلاء في تلك الآونة إلى حياة الزهد والتعبد والبعد عن الناس(٨) ، في الوقت الذي طرأ فيه تغيرٌ كبير على أخلاق باقي السكان . إذ بعد أن كان كتّاب القرن العاشر الميلادي ، يشيدون بكرم أخلاق سكان بخارى وغيرها من مدن ماوراء النهر ، نرى الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار بخارى في الجزء الاول من القرن الرابع عشر ، (مطلع العصر التيموري يشير الى مبلغ الانحطاط الفكري والخلقي الذي وصل اليه هؤلاء فقال : " ان اهلها اذ لا وشهادتهم لا تقبل في خوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب وداعوى الباطل وانكار الحق . وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ولا من له عناية به

(١) : Barthold : op. cit. P. 468 (٢) : بارتولد : تاريخ الترك ص ٢٠٠
(٣) : Prawdin: op. cit. p. 176 et Cahun : op. cit. P. 927
(٤) : أبن عربشاة : ص ٢٣
(٥) : Stewart : op. cit. p. 55
(٦) : ويلز : معالم تاريخ الانسانية م ٣ تعريب عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٥٠ ص ٧٦٣ .
(٧) : Barthold : Ulugh Beg P. 7 (٨)

به .[١] . وظهر أن هؤلاء السكان الجدد ، لم يتأثروا بالإسلام كعقيدة وشريعة تحكم علاقات الناس وتنظم الحياة الاجتماعية ، قدر تأثرهم به من حيث أنه نمط من الحياة الراقية ، ويضرب على ذلك المثل بسلوك الخان كبك[٢] ، الذي لم يعتنق الإسلام بل ظل على ديانة المغول الوثنية ، ولكنه كان يعجب بالمدنية الإسلامية ويحترم رعاياه المسلمين ، وبسبب ذلك ، فقد أحب أن يقيم في محيط إسلامي فنقل عاصمة دولته من مدينة ألد بجانب الشمالية المتطرفة إلى قلب ماوراء النهر ، وكان على قدر كبير من الإطلاع على الثقافة الإسلامية ، فقد سأل في أحد الأيام أحد رجال الدين المسلمين : " إنك تقول إن القرآن ذكر كل شيء فهل ذكر اسمي " ، فأجابه الواعظ على الفور : إنه متضمن في قوله تعالى : " في أي صورة ماشاء ركبك " .[٣] لقد ألف هؤلاء البدو استعمال البضائع الإسلامية ، التي كان أغلبها يأتيهم عبر جيحون من خراسان وغيرها من مناطق العالم الإسلامي ، فقبلوا من الإسلام مظاهره المادية دون أن ينفذوا إلى روحه ، ويقول " كاهون " (Cahun) : إن هؤلاء الجغتائيين قد قبلوا الإسلام دون تفكير ودون مناقشة ، كأنه أمر لازم التنفيذ فأمر عسكري ، ولم يستطع رجال الدين في بخارى وسمرقند وغيرها من مدن ماوراء النهر ، الذين استمروا في عجن أدمغة الجغتائيين الفارغة لمدة طويلة ، أن يوصلوا مفاهيم الإسلام وروحه الأصيلة إلى هؤلاء[٤] .

ونستطيع بناء على ذلك ، أن نرسم مرة ثانية ، صورة مجتمع ماوراء النهر في القرن الرابع عشر الميلادي ، بعد أن مرّ به إعصار الغزو المغولي ، وما جرفه معه من قبائل بدوية وثنية مغولية أو تركية أدت إلى نزوح معظم سكانه القدماء إلى خراسان وغيرها من مناطق العالم الاسلامي . ويبدو في هذه الصورة أن غالبية السكان ، كانوا من أولئك المغول الذين تتركوا أو الأتراك الذين قدموا معهم ، وقد عُرِف الجميع باسم : " الأتـراك الجغتائيون " وكانوا في حياتهم أقرب إلى البداوة ، اعتنقوا الإسلام اعتناقاً سطحياً ، ولكن حياتهم كانت تسير ، حتى في مظهرهم الخارجي ولباسهم ، وفق تعاليم الياسا المنافية للإسلام[٥] . ويقول بارتولد : وعلى الرغم من أن الجغتائيين كانوا مسلمين ، فقد كان الإسلام كتشريع يأتي بالدرجة الثانية في مجال تقاليد الحياة البدوية[٦] . وظلت ذكريات الانتصارات التي حققها جنكيز خان وأولاده ، والتي يتقاسم أمجادها الأتراك الجغتائيون مع المغول الأصليين خارج ماوراء النهر ، تشد هؤلاء الأتراك إلى حكامهم من بيت جغتاى بن جنكيز خان وشريعة الياسا[٧] . وعلى الرغم من أنهم قد انتقلوا للحياة في ماوراء النهر في ظروف طبيعية جديدة ، فقد ظهر أن هؤلاء لم ينبذوا عاداتهم البدوية التي كان أبرزها : التعصب والقسوة والغطرسة[٨] في موطنهم الجديد . وبدا أن الأتراك الجغتائيين ، كانوا أوفر الشعوب البدوية

---

(١) : ابن بطوطة ص ٣٢٥ ويتعارض وصف ابن بطوطة هذا لسكان بخارى مع الوصف الذي وصفهم به ابن حوقل في القرن العاشر . راجع الفصل الخامس من الباب الأول من هذا البحث .

(٢) : Barthold : four studies P.5 (٣) : ابن بطوطة ص ٥٣٥ والآية هي من سورة الانفطار .

(٤) : Cahun : op. cit. P. 963 (٥) : ابن عربشاه : ص ٢١٢ .

(٦) : Barthold : op. cit. P. 54 (٧) : Cahun : op. cit. P. 935

(٨) : Lamb : op. cit. P. 155

ـنـطاً في إعادة تشييد امبراطورية جنكيزية جديدة بقيادة تيمور ، لأن اعتناقهم الإسلام — ولو بشكل سطحي — قد جعل منهم من الناحية النظرية خلفاء للجماعات القديمة المسلمة المتمدنة التي ظلت تقيم في مدن ماوراء النهر (١) ، في وجه المغول دون أن يجعل الفريقين مجتمعا متماسكا .

وظهر أنه في الوقت الذى كان ينظر فيه إلى هؤلاء الأتراك الجغتائيين ، في مغرب العالم الإسلامي ، على أنهم بداة أهل خيام بعيدون عن حياة الترف والنعيم (٢) ، كانت تقاليد حياتهم البدوية ، تُعتبر من المجد والفخار ، مثار إعجاب مؤرخي العصر التيموري (٣) ، فقد أطال هؤلاء المؤرخون في مدح أحد الأمراء الأتراك الجغتائيين — هو الأمير قازغن — لأنه لم يألف حياة المدن وظل كالبدو ينتقل بين الصيف والشتاء بين الجبال والوديان (٤) . ووصف " كلا فيجو " — كما نقل بارتولد — ، جانباً من حياة هؤلاء الجغتائيين فقال : إنهم يذهبون أينما يشاؤون مع قطعانهم ، التي ترعى أينما تشاء ، وكانوا أحراراً لا يدفعون الضرائب للملك ، لأنه كان يستخدمهم في أثناء الحرب . وكان هؤلاء يصطحبون معهم زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم (٥) .

وفي مقابل هذه الغالبية من الأتراك الجغتائيين ، كانت هنالك قلة من السكان الذين التاجيك ينتمون إلى العناصر القديمة ، التي كانت تسكن البلاد قبل الغزو المغولي . وهي في غالبيتها فارسية تداخلها بعض العناصر العربية (٦) . وكان الدين الإسلامي الذي يدين به هؤلاء والثقافة الإسلامية التي كانوا يعيشون في كنفها ، قد أزالا الفوارق العنصرية بينهم ، وجعلت منهم عنصراً واحداً إسلامياً ، ولكن الغزو المغولي أجبر سكان البلاد هؤلاء على مبارحتها إلى خراسان ، ولما هدأت الأحوال في ماوراء النهر ، عاد قسم من المهاجرين إليها ، خلال العصر التيموري . وكانت تنحصر في هذا الجزء من السكان في العصر التيموري مهـن الاشتغال بالأمور الدينية والثقافية (العلوم والآداب) . ويظهر ذلك من القائمة الطويلة التي يوردها بعض مؤرخي تلك الحقبة ، كابن عربشاه وحافظ آبرو ، لأسماء الحاشية التي كانت حول تيمورلنك . ويتضح من هذه القوائم ، أن الذين كانوا يتولون كتابة الدواوين والقضاء وإمامة الصلاة وقراءة القصص والتواريخ والطب ، قد جاؤوا من مدن إيران والعراق والشام ، كتبريز وطوس وسمنان والموصل ودمشق وغيرها (٧) . ومن المرجح أن أجداد غالبية هؤلاء كانوا من العناصر التي هاجرت من ماوراء النهر إبان الغزو المغولي ، واستقروا في تلك المدن ثم عاد أحفادهم إليها ، عند استقرار الأحوال فيها في العصر التيموري . ووُصف هذا الجزء من السكان ، بأنهم رفيعو الثقافة، وعلى قدر كبير من الاطلاع على المعارف والعلوم ، وأنهم من الجماعات الإسلامية التقية ، وربما كان هؤلاء هم المقصودون في قول زكريا القزويني وستوفي قزويني ، وهما من كتاب العصر الايلخاني ، بأن غالبية سكان ماوراء النهر كانت تعتنق المذهب الحنفي والشافعي (٨) . ولذلك فقد كانوا يكرهون شريعة الياسا المغولية ومن يدعو إليها (٩)

---

(١) : Toynbee: A Study of History V. IV P. 492

(٢) : ابن خلدون: رحلة ابن خلدون ص ٣٦٢ و ٣٧١ (٣) : شامي ص ١٩ ويزدي ج ١ ص ٤٥٣ .

(٤) : سمرقندي ص ٢٠٣ (٥) : Barthold : Ulugh Beg. P. 26

(٦) : Spuler : op. cit. P. 78 (٧) : ابن عربشاه ص ٢٢٠ — ٢٢٥ وحافظ آبرو ص ٢٠٢ .

(٨) : زكريا القزويني : ص ٥٨٣ وحمد الله مستوفي القزويني ص ٢٤ :

(٩) Prawdin: op. cit.. P. 193

وكانوا يختلفون في مظهرهم الخارجي وثيابهم – كما أشار بارتولد – عن الأتراك الجغتائيين ، وظل هذا الاختلاف واضحاً حتى أيام حكم أولوغ بيك حفيد تيمور [١] . وكان كتّاب القرن العاشر الميلادي قد أشاروا إلى أن لباس الرأس الشائع لسكان ماوراء النهر ، كان القلانس وليس العمائم كما كان الحال في بقية بقاع العالم الإسلامي [٢] . وظلت القلنسوة لباس الرأس ، خلال حكم الخانات المغول من أبناء جغتاي بن جنكيزخان ، فقد شاهدها ابن بطوطة ، على رؤوس الناس عند زيارته ماوراء النهر [٣]. وذكر كلافيجو أنه شاهد تيمور وهو يرتدي قلنسوة محلاة بأشرطة وتتدلى منها طرّة [٤] . وكانت القلانس لباس الرأس الرسمي في الجيش التيموري كما ذكر ابن عربشاه [٥] . ولذلك فإن الاختلاف في الثياب والمظهر الخارجي ، الذي أشار إليه بارتولد بين الأتراك الجغتائيين وبين بقية سكان ماوراء النهر في العصر التيموري ، يمكن تفسيره بأن بقية سكان ماوراء النهر في ذلك العصر – من غير الأتراك الجغتائيين – إنما هم من العناصر التي انتقلت حديثاً إلى هذه البلاد ، وكانت تتميز بلباسها عما ألف السكان لبسه فيها منذ ماقبل مرحلة الغزو المغولي .

ومن الأصح في بعض الأحيان ، أن يطلق تعبير " تهجير " على تلك الهجرة المعاكسة من خراسان وغيرها من مناطق العالم الإسلامي إلى ماوراء النهر ، بعد استقرار الأحوال فيها في أيام تيمور ، لأن تيمور دأب في غزواته على حمل أرباب العلوم والصنائع على ترك أوطانهم الأصلية ، والانتقال معه إلى عاصمته سمرقند [٦] . وقد أشار كلافيجو – كما ذكر سايكس – إلى ظاهرة غريبة رآها في سمرقند ، وهي أن أغلب سكان المدينة كانوا من الأسرى الذين جيء بهم من كل ناحية من أنحاء امبراطورية تيمور ، وكان يزيد عدد هؤلاء عن مائة وخمسين ألف شخص ، وهم من أمم عديدة فيهم : الأتراك والفرس والعرب والمدجنون من سكان الأندلس وفيهم المسيحيون الأرمن واليونان وفيهم الكاثوليك واليعاقبة [٧] . وكانت الأنظمة المرعية الإجراء في عصر تيمور تسمح أن يتمّ عبور جيحون من خراسان إلى ماوراء النهر دون حرج ، وفي الوقت نفسه فقد كان هنالك حرّاس على طول النهر لمنع أية محاولة لعبوره بالاتجاه المعاكس [٨] . ولقد سبب هؤلاء المهجرون إلى سمرقند مشكلة بعد وفاة تيمور ، أشار اليها القس الباڤاري " شيلتبرجر " (Schiltberger) الذي كان يعيش في ذلك الوقت في سمرقند ، وربما كان القس نفسه واحداً من هؤلاء الذين أجبروا على الإقامة في هذه المدينة ، بعد أسره في معركة انقرة عام ١٤٠٢ م / ٨٠٤ هـ . وجاء في رواية هذا

(١) : بارتولد : ص٢٣٧ (٢) : النرشخي : ص٤١٣ وابن حوقل ص٤٠٤ .

(٣) : ابن بطوطة ص٣٥٨ (٤) : Le Strangetedi: op.cit. P. 220

(٥) : ابن عربشاه ص٤ هذا ويرى بوفا أن لباس الرأس هذا (القلنسوة) من آثار التقاليد البوذية انظر Bouvat: op.cit. P. 28 ولذلك فكان مظهر الأتراك الجغتائيين بقلانسهم وشعورهم المسترسلة لافتاً لأنظار الناس في بلاد الشام عندما غزاها تيمور ، وعدوا ذلك من المظاهر المنافية للإسلام . ويذكر ابن عربشاه أنه لما لجأ إليهم خلال حصار دمشق أحد أحفاد تيمور – وهو الأمير سلطان حسين – وشاهدوا شعره الطويل وثيابه الغريبة " أزالوا جمّة الشعر التي في رأسه وألبسوه ثياباً كثيابهم " انظر : ابن عربشاه ص١٠٠ وعلى كل حال فإن استرسال الشعر عادة انحدرت إلى الأتراك الجغتائيين من أجدادهم الأتراك القدماء ، انظر الفصل الثالث من الباب الأول . (٦) : حافظ أبرو ص٢٠٢ وسمرقندي ص١١٨ .

(٧) : Sykes: op.cit. T. II P. 132 (٨) : Prawdin : op. cit. P. 229 .

القس، أن عويلاً ظل يسمع لمدة عام كامل ، صادراً عن قبر تيمور ، ولم ينفع معه توزيع الصدقات الكثيرة لخلاص روحه ، حتى أفتى رجال الدين بضرورة السماح لهؤلاء المجبرين على الإقامة في سمرقند وغيرها من المدن ، بالعودة إلى بلادهم اذا هم أرادوا ذلك . ويتابع شيلتبرجر قوله : إنه منذ أن شجع لهؤلاء بالعودة إلى أوطانهم ، فإن العويل الصادر عن قبر تيمور قد انقطع على الفور (١) .

هذا ، وقد عرف سكان ماوراء النهر الذين ظلوا فيها خلال الغزو المغولي وما انتقل للاقامة فيها خلال العصر التيموري ، باسم " تاجيك " وقد أشير إلى هؤلاء بهذه التسمية ، في كتابات المؤرخين الفرس من أمثال : رشيد الدين وشامي ويزدي وحافظ آبرو وغيرهم . ويقول بارتولد في أصل هذه اللفظة : إن الصينيين هم أول من استعملها ، وأطلقوها على العرب القادمين إلى بلادهم (٢) . ويتابع بارتولد أنها كانت تلفظ عند هؤلاء " تازيك " (٣) ، ثم انتقلت إلى الإيرانيين الذين نطقوها في أغلب الأحيان بالصورة الأولى " تاجيك " ، وأطلقوها على العرب الذين قدموا فاتحين لبلادهم . وكانت الفكرة السائدة في أيام الفتح الإسلامي الأولى ، أن الإيراني الذي يعتنق الإسلام يصبح عربياً . واستخدم اللفظة - فيما بعد - الأتراك الجغتائيون وأطلقوها على العرب والإيرانيين وغيرهم من حملة الثقافة الإسلامية الذين كانوا يقيمون في ماوراء النهر ، تمييزاً لهم عن الأتراك ، وبما أن معظم الذين قدموا من البلاد الإسلامية الأخرى للإقامة في ماوراء النهر كانوا من الإيرانيين ، فقد اختص بها هؤلاء . ويشير بارتولد إلى أنه قد أصبح لهذه الكلمة عند الأتراك الجغتائيين مدلولاً حضارياً ، يعني الاستقرار في الأرض وتعاطي الزراعة والصناعة ، في مقابل حياة التنقل التي كان يعيش عليها هؤلاء البدو في العصر التيموري (٤) . وهو يرى أن الكلمة ذات أصل عربي اشتق من اسم القبيلة العربية " طيء " التي كانت منازلها في شمال نجد أقرب منازل القبائل العربية إلى إيران والصين (٥) . وقد استخدم مستوفي قزويني لفظة " تازيان " - بصيغة الجمع الفارسية - للدلالة على البلاد التي تقع حداً لإيران من ناحية الجنوب (٦) . واستخدمها في مكان آخر ، مع أسماء بلاد أخرى تقع في شبه الجزيرة العربية كالحجاز واليمن وعُمان ، مما يؤكد على أنه يقصد بها جزءاً من بلاد العرب وليس جميعها (٧) .

---

(١) Terfer (Translator and Editor) The Bondge and Travels of Johanne Schiltberger in Europe - Asia - and Africa 1396-1427 P. 30

(٢) : Barthold : Four Studies .....P. 63 - 64

(٣) : Barthold: Tadiik (E. I. T. IV) P. 628

(٤) : بارتولد ص٢٢٦

(٥) : Barthold : ibid

(٦) : مستوفي قزويني : ص١٨

(٧) : مستوفي قزويني : ص٢٥٥ هذا واستعمل يزدي لفظة تازي لوصف الخيول التي أرسلها أحد الحكام المظفريين وهو " شاه شجاع " عام ٧٨٤ هـ هدية لتيمور كناية على أنها خيول عربية . انظر يزدي : ج ١ ص٢٥٦ ويشير جواد علي في مؤلفه تاريخ العرب قبل الإسلام ، إلى أنه كان لقبيلة طيء التي كانت تنزل في منطقة شمّر في شمال نجد مكانة خطيرة في أيام الجاهلية ويدل على ذلك إطلاق اسمها عند بعض الكتبة الكلاسيكيين وعند الفرس والسريان ويهود بابل على جميع العرب . انظر المصدر المذكور ج ١ ص١٥٧ وج ٤ ص٤٥٢ .

لذلك فقد كان كل من الترك والتاجيك عنصرين متمايزين في العصر التيموري (١) . وتتصف العلاقات بين العنصرين في الغالب بالحذر والعداء . وكثيرا ماتقع المشاكل والخصومات بين الطرفين . ويظهر التاجيك في هذا الصراع بمظهر المستضعفين المغلوبين على أمرهم (٢) ، الذين يُضطرون ، في كثير من الأحيان ، إلى قول غير مايعتقدونه خوفاً من الأتراك ـ غالبية السكان ـ الذين كانت السلطة في أيديهم ، أو تقرباً منهم . ولذلك كثيراً ما أفتى رجال الدين التاجيك بفتاوى وأتوا بآراء ، لم يُقرّهم عليها غيرهم من رجال الدين في بقية الأقطار ، فحكموا بكفر هؤلاء . وأدرك بعض من علماء بقية الأقطار حرج مواقف علماء الدين التاجيك أمام حكامهم الأتراك ، فأخذوا يلتمسون لهم الأعذار . وكان هذا حال أحد خواص تيمور " عبد الجبار بن النعمان " الخوارزمي الأصل الذي صحب تيمور في حملته على بلاد الشام ، وكان يناظر علماء الشام من وجهة نظر تيمور ، ويترجم له مايقوله هؤلاء إلى الفارسية (٣) . وقد شاهده ابن خلدون في دمشق وتحدث معه ، وشهد بذكائه وكثرة اطلاعه . ولكنه وصفه بقلة الدين ، وبأنه من الذين طافوا مع تيمور البلاد وأهلكوا العباد وأكثروا الفساد (٤) . وقال عنه صاحب الضوء اللامع إنه كان يحاول أن ينفع المسلمين في صحبته لتيمور ، ولكنه كان لايجسر على مخالفته (٥) .

ويعلل أحد المؤلفين المحدثين هذا العداء وعدم الثقة المتبادلة بين الترك والتاجيك بأنه استمرار للعداء ومظاهر الصراع القديم ، الذي تحدثت عنه الشاهنامه بين التورانيين والإيرانيين ، اذ تعدت العواطف حدود العداء إلى الاحتقار المتبادل بين الطرفين (٦) .

العلاقات بين التاجيك والأتراك

ومع ذلك فلم تكن العلاقات مفصولةً تماماً بين الترك والتاجيك فقد ظل الأتراك الجغتائيون تحت تأثير المدنية الفارسية الإسلامية (٧) . وبسبب ذلك نفذت إلى اللغة التركية المصطلحات والألفاظ الفارسية والعربية (٨) . وظلت اللغة الفارسية تعتبر لغة المشتغلين بالعلم مع بقاء اللغة التركية هي لغة التخاطب المنتشرة بين الناس ، ولذلك ولما مرّ ابن بطوطة ببخارى خلال تلك الحقبة ـ مطلع العصر التيموري ـ وحضر أحد مجالس الغناء ، سمع المغنين وهم يرددون الأغاني الفارسية والأغاني التركية (٩) . وكان الزواج أحد مجالات الاتصال بين الطرفين . وكان الجمال التاجيكي لافتاً لأنظار الأتراك الجغتائيين ، حتى أن والد تيمور حلم يوماً أنه سوف يرزق بولد ذي ملامح تاجيكية (١٠) .

---

(١) : ويتضح ذلك من كتابات المؤرخين الفرس انظر مثلاً يزدي ج ١ ص ٤٠٦ وحافظ آبرو ص ١٠ .
(٢) : Spuler : ibid . (٣) : ابن الشحنة ٢١٤ وابن عربشاه ١٠٤ .
(٤) : ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٩ .
(٥) : السخاوي : الضوء اللامع ٤ ص ٣٥ وكرر القول ذاته ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ج ٧ ص ٥٠ .
(٦) : Kawaliski : op. cit. P. 87 (٧) : بارتولد ص ٢٢١ و ٢٢٦ .
(٨) : الساداتي : ج ٢ ص ٣٤١ (٩) : ابن بطوطة : ص ٣٥٤ .
(١٠) : Prawdin : op. cit. P. 173

البـــاب الثالـــث

تيمـــور حـتى توليـه السلطـة

* الفصل الاول *

أصـــول تيمـــور

المصدران الرسميان — نقش قبر تيمور ، مذكراته — معلومات المؤرخين التيموريين : الجيل الأول :شامي ، يزدي — حافظ آبرو — الجيل الثاني : سمرقندي — ميرخوند. المصادر التاريخية السابقة للعصر التيموري ، رشيد الدين — قبيلة برلاس — رأي ابن عربشاه ومؤرخي الشام ومصر — تيمور وحاجي برلاس — رأي كلافيجو — والدا تيمور.

المصدران الرسميان

لابد لدراسة شخصية تيمور من تحديد الأصول التي انحدر منها . وليس من السهل على الباحث في الوقت الحاضر ، أن يصل إلى حقيقة هذه الأصول ، لأن المؤرخين الذين عاشوا في عصر تيمور ، والذين كتبوا له التراجم المطولة ، وأوردوا تفصيلات دقيقة عن حياته وأعماله عندما أضحى شخصيةً مشهورة ، لم يذكروا عن أصوله ومنبته إلا معلومات قليلة وغامضة[1] . ويبدو من المفيد بادئ ذي بدء استعراض الرأي الرسمي الذي كانت تتبناه الدولة التيمورية . وقد ورد هذا الرأي على نقش حجري كتب على شاهدة قبر تيمور في سمرقند . وجاء في هذا النقش الذي كتب باللغة العربية[2] سلسلة نسب طويلة ترقى بنسبة إلى شخص يدعى " تومانه خان " (Tumanah-Khan) الذي ترد الإشارة إليه في هذا النص على أنه الجد الثامن لتيمور ، والذي يلتقي به أيضاً نسب الفاتح المغولي جنكيز خان[3] . ويتابع النقش سلسلة النسب إلى أن يصل به إلى امرأة ، ذكرت عن نفسها أنها حملت بولدها — وهو الجد الثالث عشر لتيمور — من نور دخل عليها من أعلى الباب ، وتمثل لها بشرًا ، وذكر بأنه من أبناء علي بن أبي طالب .

نقش قبر تيمور

---

(١) : Barthold : Ulugh Beg . P. 14 .

(٢) : أورد بلوشيه النص بتمامه وقد جاء فيه : " هذا مرقد السلطان الأعظم الخاقان الأكرم أمير تيمور كوركان بن الأمير ترغاي ، بن الأمير بُركل ، بن الأمير ايلنكير ، بن الأمير ايجل ، بن قراجار نويان ، بن الأمير سوغوچيچن ، بن الأمير ايرد مجي بارولا بن الأمير قجولاي بن تومناي خان . وبهذا يشعب نسب جنكيز خان من هذا الأصل . وحصل إلى السلطان الأمجد المدفون في هذا المرقد غاية الشرف ، فإن جنكيز خان ابن الأمير ييسوگاي بهادر بن الأمير برتل بن قبول خان بن تومناي خان المذكور ، وهو بن الأمير بايسنغر بن قيدو خان بن الأمير توتومنن بن الأمير بوقا بن الأمير بوذنجر ، ولم يعرف والد لهذا الماجد . إلا أن أمه الانغ — غوا حكت وكانت شيمتها الصدق والعفاف ولم تك بغياً ، أنها حملته من نور دخل عليها من أعلى الباب فتمثل لها بشراً سوياً ، وذكر أنه من أبناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب " انظر لذلك :
Blochet : op. cit. P. 61 .

(٣) : أشار الشاعر الإيراني " عبد الله هاتفي " المتوفي ٩٥٧ هـ / ١٥٢١ م في ملحمة " تيمور نامه " إلى هذه القرابة فقال[؟] :

قراجار وجنكيز خان ابن عم اند. بكشور كشاى قرين هم اند
قراجار وجنكيز خان هما ابناء عم وكانا قرينين معا في فتح البلاد

و ترجمته انظر

مذكراته

ويرد الرأي الرسمي عن أصول تيمور في مصدر آخر ، هو المذكرات التي تنسب كتاباتها إلى تيمور نفسه [1] . ويقول هذا المصدر إن تيمور لما بلغ السادسة عشرة من عمره ، سأل والده أن يحدثه عن تاريخ آبائه وأجداده . وذهب ترغاي — والد تيمور — في جوابه إلى أبعد مما ورد على نقش قبر تيمور ، وذكر لابنه أن نسبه يرقى إلى يافث بن نوح الذي كان يلقب بأبي الأتراك . وقد انتشر أبناء يافث وأحفاده في تركستان ، وانقسموا فيها إلى قبائل (أولوسات) . وكان يجلس على عرش مملكة تركستان عند ظهور الإسلام أحد أحفاد يافث ويدعى "تومانه خان" الذي وردت الإشارة إليه في نقش قبر تيمور . وكان تومانه خان قد رزق بولدين توأمين هما قجولاي وقابول اللذين أشير إليهما أيضاً في هذا النقش . ولما بلغ قجولاي مبلغ الرجال ، حلم ذات ليلة أن نجمين يلمعان في صدر أخيه قابول ، ولما قصّ حلمه على أبيه ، قرر تومانه خان بعد اجتماع عقده لأركان الدولة والأمراء أن تكون الخانية (رئاسة الدولة) لمن بعده في أعقاب قابول — ابنه الأول — وأن تكون الوزارة والقيادة في أسرة قجولاي — ابنه الثاني . ونقش هذا القرار على صفيحة معدنية باللغة التركية، وحفظ في خزائن الملك. ويتابع ترغاي حديثه عن قراجار الذي ورد ذكره في سلسلة النسب على قبر تيمور ، فتقول المذكرات عنه إنه كان أول من نبذ المجوسية واعتنق الإسلام من أسلاف تيمور ، وهو الذي قاد قبيلته "برلاس" إلى سهل كيش في حوض نهر كشقاداريا ، حيث ظلت تنزل هناك إلى أيام تيمور. كما أنه قام بالدفاع عن حقوق القبيلة في موطنها الجديد ، وعمل على تأمين ماتحتاج إليه من الماء والعشب . وتتفق المذكرات مع ماورد على شاهدة قبر تيمور ، في أن قراجار هو الجد الرابع لتيمور ولكنها تجعل والد قراجار هو ايرزمجي (أو ايزد ومجين كما ورد في المذكرات) وليس جداً له كما جاء على شاهدة القبر . وتتطابق سلسلتا النسب في كلا المصدرين بعد قراجار وحتى تيمور ، عدا عن خلاف آخر هو أن المذكرات أيضاً تغفل ذكر اسم ايلنگير الجد الثاني لتيمور . ولما تابع ترغاي حديثه أشار إلى أن والده بركل (جد تيمور المباشر) ، هو أول من آثر الانسحاب من منصبه العسكري ، في دولة أبناء جغتاي بن جنكيز خان ، واكتفى بإدارة أملاكه — منطقة كيش — موطن قبيلة برلاس ، ولذلك زاد عدد أبقاره وأغنامه، وكثر خدمه وعبيده ، ولما مات آلت زعامة البرلاس إلى ترغاي نفسه والد تيمور [2] .

معلومات المؤرخين التيموريين الجيل الأ… (شامي ، … آبرو ، يز…

ويبدو أن الرأي الرسمي في مسألة أصول تيمور ، قد أثّر على ماكتبه مؤرخو العصر التيموري ، أمثال: شامي ويزدي وغيرهما ، من الذين يمثلون الجيل الأول من مؤرخي ذلك العصر . فيشير شامي إلى أن قراجار الذي ينتمي إلى قوم برلاس ، كان معاصراً لجنكيز خان [3] . ويعزو هذا المؤرخ استمرار بيت جغتاي في الحكم إلى بعد نظر جنكيز خان الذي آلف بين ابنه جغتاي وقائده قراجار [4] . ويذكر حافظ آبرو أن منطقة كيش قد اختص بها أمراء برلاس وتوارثوها أباً عن جد [5] . ويورد يزدي في هذا الصدد معلومات أوفى ؛ فهو يشير إلى تومانه خان وابنه قجولاي الذي ينعته

---

(١) : سوف نناقش نسبة المذكرات إلى تيمور فيما بعد . (٢) : Stewart: op.cit. P.28-29

(٣) : شامي : ص١٤ (٤) : شامي : ص٥٨

(٥) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص١٧ .

بالشجاع (بهادر) ويقول : إن النبوءات كانت تشير منذ ذلك الوقت المبكر إلى أنه سيظهر من أعقاب قجولاي بهادر بن تومناي خان (كما رسم يزدي الاسم) ، حاكم يكون زمانه زمان البهجة والسرور[١] . ويورد بلوشيه فقرة هامة باللغة الفارسية ، اقتبسها من القسم الأول لكتاب يزدي (ظفر نامه) ، الذي لا يزال مخطوطاً . وقد جاء في هذه الفقرة " أن جنكيز خان لما قسم أرض توران حتى ساحل جيحون ، الذي يفصل توران عن إيران ، فقد عهد بابنه العظيم [جغتاي] ومملكته وجيشه إلى قراجار نويان ، الذي كان واحداً من أبناء أعمامه . وكان جنكيز خان قد عهد إليه [إلى قراجار] بمهام كثيرة في أول أمره ، وطلب مساعدته في كل حرب لإمداده ومؤازرته "[٢] . ويتابع يزدي كلامه .. وكان جنكيز خان يلح على ابنه ليعتمد على قراجار ، لأنه كان يقدر قيمة المساعدة التي يستطيع قراجار أن يقدمها لابنه الأمير جغتاي . وقد أطاع جغتاي وصية أبيه ، فلم يتصرف خارج رأي هذا القائد ، الذي أظهر كفاءة عالية بفضل رجاحة عقله وإدارته الحازمة، كوزير لجغتاي الذي أكن له الاحترام . ويفهم من كلام يزدي أن قراجار كان الحاكم الحقيقي لخانية جغتاي في حياة جغتاي نفسه وبعد وفاته ، فكان ينصب الخانات من أعقاب هذا الحاكم ، ويعزلهم ثم يعيدهم إلى عروشهم . وظل يتمتع بهذه السلطة الواسعة إلى وفاته عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م[٣] . وتضيف المذكرات إلى كل ذلك أن قراجار كان صهراً لجغتاي ولذلك حمل لقب - غوركان - المغولي الذي يعني صهر الملوك[٤] .

وظل الاعتقاد بذلك الأصل الرفيع لتيمور سائداً عند الجيل الثاني من مؤرخي العصر التيموري . ويردد كمال الدين سمرقندي المتوفى عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م سلسلة النسب ذاتها كما وردت على قبر تيمور ، كما يشير إلى صلة النسب الجامعة بين تيمور وجنكيز خان ، والتي تستقر في تومناي خان[٥] . وتتكرر السلسلة ذاتها عند ميرخوند المتوفى عام ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م[٦] والذي دافع عن قصة حمل جدة تيمور الأولى " ألانغ - غوا " من نور دخل عليها من أعلى الباب ، ويفسر بأنها عجيبة من العجائب ، ويقول إنها تشبه قصة عيسى بن مريم الذي حملته أمه من دون أب . ويرى أن هذا الأمر ممكن الوقوع أحياناً ، لأنه قد ذكر في متون الكتب أن جزيرة في أقصى الشرق لا يعرف أهلها الزنى ، ويحدث الحمل فيها من الماء الموجود في تلك الجزيرة[٧] . وينسب ميرخوند إلى قراجار دوراً أكثر أهمية ، مما نسبه له المؤرخون السابقون . ويجعل منه أميراً نافذ الكلمة منذ أيام حكم أوكداي بن جنكيز خان الذي خلف أباه في منصب الخان الأعظم[٨] .

الجيل الثا
سمرقندي
ميرخوند

وغني عن البيان ، أن الرأي الرسمي في أصول تيمور ، وما ذكره المؤرخون التيموريون في هذا الموضوع يفتقر إلى سند يؤكده ويدعمه . ويغلب على الظن أن هذا النسب العريق قد وضع لإضفاء السمو والعظمة على الأصول التي انحدر منها تيمور لتبرير استيلائه على السلطة في ماوراء

---

(١) : يزدي : ج ١ ص ٩
(٢) : Blochet : op. cit. P. 62 .
(٣) : Blochet : ibid .
(٤) : Stewart : op. cit. 23 .
(٥) : سمرقندي : ج ٣ ص ١٢٠
(٦) : ميرخوند روضة الصفا ج ٥ ص ٣ - ٤
(٧) : ميرخوند : ج ٥ ص ٧
(٨) : ميرخوند : ج ٥ ص ٤١

النهـر[١] . ويقول بلوشيه معلقاً على ذلك : إننا لانستطيع الحصول على شيء مؤكد من هـذه السلسلة الجافة من الأنساب ، ثم يبدي تهكمه لوقوع اختيار واضعي سلسلة الأنساب هذه على قراجار ليكون جداً لتيمور . ويتابع بلوشيه قوله : إنه مما لاشك فيه أن قراجار كان سعيد الحظ بسبب ذلك ، لأن واضعي سلسلة الأنساب لم يختاروا " قراجار " آخراً ليلعب هذا الدور[٢] . وينتهي إلى القول إن قراجار قد يكون شخصية حقيقية،ولكن دوره كجد لتيمور قد جرى توسيعه من قبل مؤرخي العصر التيموري ، ارضاءً لسادتهم[٣] . وقد داخل الشك قلب شاه رخ بن تيمور في صحة هذا النسب، ولذلك قام بعد وصوله إلى الحكم ، بأبحاث واسعة للتحقق من صحته . ولكن ابحاثه لم تنته إلى نتيجة واضحة[٤] .

المصادر التاريخية السابقة للعصر التيموري

وعلى كل حال ، فانه لابد من الرجوع إلى مصادر أخرى ، غير مصادر العصر التيموري ، للاطلاع منها على مايمكن أن يكشف شيئاً من المعلومات التي يركن إلى صحتها في هذا الصدد. ويظهر بادئ ذي بدء ، أن نسبة الأتراك والمغول إلى يافث بن نوح ، التي لايمكن أن يقطع بصحتها حتى الآن ، قد انحدرت إلى كتّاب العصر التيموري ممن سبقهم من الكتّاب ، فأشار إلى ذلك الطبري[٥] المتوفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م . ووردت في كتابات ابن خلدون أيضاً[٦] . وكذلك فانه لا يمكن أن يقوم الدليل ، على انتماء تيمور إلى أحد من أبناء علي بن أبي طالب . ومن الواضح أن القصد من وراء ربط تيمور ببيت يعتبر من أعرق البيوت الإسلامية برباط النسب ، هو تعزيز لمكانة تيمور في نظر رعاياه المسلمين ، دون الخروج على تعاليم شريعة الياسا المغولية ، التي كانت قد نصت على ضرورة معاملة أبناء علي بن أبي طالب بالرعاية والاحترام[٧] .

ومن ناحية ثانية ، فإننا نجد أن بعض الأسماء التي ضمتها قائمة أجداد تيمور ، قد وردذكرها عند مؤرخين عاشوا قبل العصر التيموري ، مما يفسح المجال للاعتقاد بأنها كانت شخصيات حقيقية. ويشير مؤلف مغولي قديم يتحدث عن تاريخ المغول منذ أقدم العصور حتى عهد جنكيزخان ، إلى أن تعبير " بارولاتاى " (Baroulatai) قد أُطلق على أحد الأمراء المغول بسبب بدانته وإفراطه في تناول الطعام ، وكان لهذا الأمير ابن أخ يشبهه في حب الطعام، فعُرف بالبارولاتاى الصغير تمييزاً له عن عمه . وتحول هذا التعبير على مر الأيام إلى صيغة بارولاس (Baroulas) . ويقول بلوشيه الذى تحدث عن هذا المؤلف ، إنه قد نُقل إلى اللغة الصينية ، وكان من جملة المصادر التي اطلع عليها ، مؤرخ المغول الشهير رشيد الدين المتوفى عام ١٣١٨ م / ٧١٨ هـ ، عند كتابته لموسوعته التاريخية " جامع التواريخ " . ويتابع بلوشيه بأنه قد أُطلق على الأمير بارولاس الصغير في الترجمة الصينية لذلك المؤلف " اردمتو بارولاس (Erdemtou Baroulas) ، لأن كلمة " اردمتو " الصينية تعني صغير[٨] . ويلاحظ أنه قد أشير إلى هذا الأمير على أنه الجد

(١) : بارتولد : ص٢١٧ (٢) : Blochet:op.cit.P.64-65 (٣) : Blochet:op.cit.P.83
(٤) : Bouvat:op.cit. P. 26 (٥) : الطبري ج١ ص١٣٩ وأورد الرأي نفسه المسعودي ج١ ص١٣
(٦) : ابن خلدون التعريف ص٣٩٥ وابن خلدون كتاب العبر م٥ ص٣ وذكرها مستوفي في ص٤٢٣ وميرخوند م٥ ص٤
(٧) : المقريزي : الخطط ج٢ ص٢٢١ و ٢٢٢ .
(٨) : Blochet:op. cit P.P.202,272 et 286 ويقول بلوشيه إن المؤلف التاريخي بعد ترجمته إلى اللغة الصينية عُرف باسم : يوان ـ شاو ـ بي ـ شو Yuan-Shao-pi-Sheu

السادس لتيمور ، في النقش الحجري على قبره في سمرقند ،وجاء ذكره على أنه الجد الخامس في المذكرات • ويمضي المؤلف المغولي فيقول : إن تسمية بارولاس قد أُطلقت بعد ذلك ،على القبيلة التي ينتمي إليها اردمتو بارولاس [١] ويشير هوورث إلى قبيلة بارولاس وسيدها اردمتو بارولاس خلال استعراضه للقبائل المغولية التي كانت تعيش في منغوليا في أيام جنكيز خان [٢]. وترد الاشارة الى قبيلة بارولاس عند مؤلفين آخرين على أنها من القبائل المغولية العريقة النسب في الوقت الذي ذُكر فيه غيرها (ارلات — جلاير) على أنها قبائل من الصنف الثاني [٣] • ويقول رشيد الدين عن قبيلة " برلاس " إنها من جملة القبائل التي رافقت حملة جنكيز خان على ماوراء النهر • ولما قسم جنكيز خان أملاكه بين أولاده، ألحق بابنه جغتاي الأمير قراجار مع ألف من قبيلة برلاس وهذا العدد هو ربع العدد الكلي للجنود المغول الذين تركهم الفاتح المغولي لابنه • ويتابع رشيد الدين الذي كتب كتابه مابين ٧٠٢ — ٧١٠ هـ / ١٣٠٢ — ١٣١٠ م ، بأن بعض أفراد قبيلة برلاس ،كانوا أمراء كبار في حاشية الايلخان أباقا بن هولاكو [٤] (٦٦٣ — ٦٨٠ هـ / ١٢٦٥ — ١٢٨٢ م) • وقد ظهر على قبيلة برلاس المغولية ما ظهر على مثيلاتها من القبائل الأخرى من مظاهر التترك ، بعد انتقالها إلى ماوراء النهر التي كانت من حصة جغتاى بن جنكيز خان ، وإقامتها في محيط جديد • وتناول الـــترك في جملة ماتناوله ، اسم القبيلة ، فأضحت تدعى عند مؤرخي العصر التيموري " برلاس " (Barlas) بعد أن كان يلفظ باللغة المغولية " بارولاس " (Baroulas) [٥] • وعلى مايظهر فإنه لم ينتقل كامل قبيلة "برلاس" للإقامة في ماوراء النهر ، بعد مبارحتها منغولية ، بل إن أجزاء منها استقرت في القسم الشرقي من خانية جغتاي (حوض ايلي وايسيق — كول) ، حيث ورد اسم هذه القبيلـــة بين القبائل التي استقرت في ذلك القسم [٦] • ووصف القسم الذى أقام في ماوراء النهر بقلة أفراده ولكن هؤلاء اشتهروا بقوة الجسم وشدة البأس [٧] •

رشيد الدين

قبيلة برلاس

وإذا ثبت ،أن بعض أسماء الشخصيات التي قُرئت على شاهدة قبر تيمور في سمرقند ، هي أسماء لشخصيات حقيقية [٨] ، فإن الذي يحتاج إلى إيضاح وتأكيد هو مدى ارتباط تيمور نفسه ، بذلك النسب العريق • ويلاحظ على ابن عربشاه ، الذى كتب ترجمة لتيمور بروح تعكس الكراهيـة والبغضـاء له ،أنه يتردد في هذه المسألة بين أن تيمور كان من منشأ وضيع،فكان أبوه راعياً أو اسكافياً،فنشأ ابنه تيمور مجرماً وفقيراً حتى كاد أن يموت جوعاً وعطشاً ، وبين أنه كان من منشأ رفيـع،

(١) : Blochet : op. cit. P. 314 (٢) : Howorth: op. cit. T. I P. 41

(٣) : السيد الباز العريني : المغول بيروت ١٩٦٧ ص٣٦ و Sykes:op.cit.T. II P.120

(٤) : رشيد الدين : جلد دوم ص٢٠٩ ،هذا ومن المحتمل جداً أن يكون رشيد الدين قد شاهد بعض أمراء قبيلة برلاس لأنه التحق بخدمة ايلخانات المغول منذ عهد أباقا كطبيب في البلاط. انظر كاترومير : تقديم عن حياة رشيد الدين ومؤلفاته ترجمة محمد القصاص وزملائه (مقدمة الترجمة العربية لكتاب جامع التواريخ) القاهرة ١٩٦٠ ص١٠ — ١٥ •

(٥) : بارتولد ص٢١٧ (٦) : بارتولد ص٢١٩ (٧) : Spuler: op. cit. P. 102

Lamb. op. cit. P. 19

(٨) : أشار ستيوارت مترجم مذكرات تيمور من الفارسية إلى الانكليزية في مقدمة المذكرات أن تومانه خان " الذي ورد ذكره في المذكرات وشاهدة قبر تيمور على أنه الجد الثامن له ،هو من أحياء القرن العاشر الميلادى انظر Stewart: Preface P. XIII ويذكر هارولد لامب الذي كتب ترجمة لجنكيز خان أن القصص الشعبية التي كانت تتداولها الشعوب البدوية في آسية الوسطى تقول عن كابول خان بن تومانه خان إنه قد جرّ الامبراطور الصيني من لحيته،فكان عقابه الموت بالسم فيما بعد انظر: لامب جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ترجمة بهاء الدين نوري بغداد ١٩٤٦ ص١٠ •

فكان أبوه وزيراً أو أمير مائة عند حاكم هيرات الملك حسين كرت . ولذلك نشأ تيمور يعاشر أبناء الأمراء والوزراء[(١)] . وقال بالرأي الأول مؤرخو الشام ومصر عند حديثهم عن الأعمال التي قام بها تيمور ، عند اجتياحه بغداد وحلب ودمشق . ويرى العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م أن تيمور كان فلاحاً في أول حياته، ونشأ خامل الذكر ، مارس الإجرام والسرقة[(٢)] . أما ابن خلدون الذي شاهد تيمور في دمشق وتحدث معه ، فإنه بعد أن يتساءل عن الكيفية التي يتصل بها نسب تيمور بنسب أعقاب جغتاي، فهو يرجح أن يكون له نسباً غير نسبهم[(٣)] . وإذا عدنا إلى المؤرخين التيموريين لدراسة المسألة من خلال ماكتبوه عن تيمور في أيام حياته الاولى ، وجدنا أنهم مجمعون على أن سيد قبيلة برلاس في مطلع العصر التيموري ، كان شخصاً آخر يدعى " حاجي برلاس " وترد ذكر حاجي عندهم خلال حوادث الصراع على السلطة ، مع بقية الأمراء الأتراك المتنفذين في البلاد عقب مقتل قازغن عام ٧٥٩ هـ ١٣٥٨ م ، في الوقت الذي كان فيه تيمور لايزال شاباً في الثالثة والعشرين من العمر . ولكن هؤلاء المؤرخين يختلفون في تحديد نوع الصلة التي تربط حاجي زعيم برلاس بتيمور أحد أفراد القبيلة . ويرى شامي أن تيمور هو شقيق حاجي برلاس[(٤)] . أما يزدي فإنه يعطي حاجي برلاس نسباً يختلف تماماً عن النسب الذي أعطي لتيمور . ويظهر من مقارنة سلسلتي النسب ببعضهما أن حاجي ليس شقيقاً ولا عماً لتيمور ، ولا يلتقي نسبهما إلا في قراجار نويان الذي هو الجد الثالث لحاجي برلاس والجد الرابع لتيمور[(٥)] . وأشارت المذكرات إلى حاجي مرات عديدة فنعتته مرةً بأنه واحد من أعقاب قراجار[(٦)] . وقال عنه تيمور في مكان آخر بأنه يعتبره من عظامه الخاصة[(٧)] . وجاءت الإشارة إلى حاجي برلاس في مرة ثالثة في المذكرات بشكل صريح على أنه عم لتيمور بعد أن وضعت هذه اللفظة بين قوسين . ولكن القسم الآخر من المذكرات والذي يعرف بالتنظيمات لم يشر إلى هذه العلاقة على الإطلاق . ولكن " لانكلس (Langlès) مترجم هذا القسم إلى اللغة الفرنسية أضاف حاشية من عنده تقول إن حاجي برلاس هو عم تيمور[(٨)] . ويرجح أن تكون هذه الإشارة إلى حاجي برلاس بهذه الصفة ، والتي جاءت بين قوسين في القسم الأول من

رأي ابن عربشاه ومؤرخي الشام ومصر

تيمور وحاجي برلاس

(١) : ابن عربشاه ص٩ــ٦ . (٢) : العسقلاني : إنباء الغمر بأنباء العمر تحقيق حسن حبشي القاهرة ١٩٦٩ــ١٩٧٢ ج ١ ص١٧ وورد هذا القول كل من ابن تغري بردي المتوفى عام ٨٧٤م في النجوم الزاهرة ج ١٢ ص٢٥٥ والسيوطي المتوفى عام ١٥٠٥م في تاريخ الخلفاء ص٥٠٢ .

(٣) : ابن خلدون: كتاب العبر م ٥ ص١١٢٩ (٤) : شامي : ظفرنامه ص١٦ هذا قد تأخر اتصال نظام الدين شامي بتيمور إلى عام ٧٩٥هـ . وكان اللقاء بينهما في بغداد لأول مرة . ثم انقطع الاتصال حتى عام ٨٠٣هـ . وكلف تيمور شامي بتأليف كتاب عنه عام ٨٠٤هـ . وقد تم التأليف عام ٨٠٦هـ ، قبل وفاة تيمور بعام واحد . وعلى الرغم من قيمة مؤلف شامي إلا أنه أخطأ ولا شك في مسألة الصلة بين تيمور وحاجي برلاس . ولكن الخطأ كان لأن شامي اتصل بتيمور في وقت متأخر عن أحداث حياة تيمور في مراحلها الأولى . ويبدو أن تيمور نفسه لم يتح له أن يطلع على كتاب شامي ، بسبب كثرة أعماله في العام السابق لوفاته . ويبدو أيضاً أن شعور شامي بوجود بعض الأخطاء في مؤلفه ، قد دفعه إلى مراجعته ، فيما بعد ، لتنقيحه . والنسخة التي بين أيدينا والتي نشرها " تاور " Taeur هي من الإملاء الأول للكتاب . انظر مقدمة تاور لكتاب ظفرنامه لشامي ص XIII - XIV

(٥) : يزديج ١ ص١ ٣ وقد أورد نسب حاجي برلاس على الشكل التالي : حاجي برلاس بن بورلتي بن تمولة بن يسو منكا بن قراجار .

(٦) : Stewart ;op. cit. P.43

(٧) : Stewart: op. cit. P. 50

(٨) : انظر الحاشية [illegible] صفحة ١١٧ من Langlès, op. cit.

المذكرات،وهو القسم الذي قام ستيوارت بنقله إلى اللغة الانكليزية . وكانت هذه الإشارة بصيغة إلحاق ضمير الغائب بلفظة عم لتصبح (عمه)،هو بتأثير لانكله الذي أشار ستيوارت إلى عمله.ولا بد أن يكون قد اطلع عليه . ومن المحتمل أن تكون إشارة لانكله نفسها لحاجي برلاس على أنه عم لتيمور كان من الإضافات التي زيدت على نص المذكرات من قبل النساخ ، بعد وفاة تيمور وعند ترجمتها من اللغة التركية الجغتائية التي كتبت بها أصلاً إلى اللغة الفارسية . لأن المذكرات بقسميها (الأول الذي ترجمه ستيوارت إلى الانكليزية والثاني الذى نقله لانكله إلى الفرنسية) . دأبت على أن تستخدم ضمير المتكلم المفرد عندما كانت تريد أن تنسب الأشياء إلى تيمور . ولذلك فقد كان من الأصح أن ترد لفظة (عم) على شكل (عمي) ، إذا كانت من أصل المذكرات التي وردت على شكل ملفوظات أملاها تيمور إملاءً على الكتّاب من أفراد حاشيته .

ويعلّق سايكس على القول بأن حاجي برلاس هو عم تيمور ، بأنه قرابة يشك بها[(١)] . ونجد لشكوك هذا المؤرخ مايبررها ، عند دراسة العلاقة بين تيمور وبين حاجي برلاس ، كما تعكسها المذكرات وكتابات المؤرخ التيموري يزدي . ويتضح من هذه الكتابات أنها لم تكن علاقة بين عم وابن أخيه ، قدر كونها بين شخصين ينظران إلى بعضهما على أنهما متساويان في المنزلة . فتذكر المذكرات أن تيمور خلال الصراع على السلطة بين أمراء ماوراء النهر ، عقب مقتل قازغن ، استطاع أن يقيم تحالفاً ضم حاجي برلاس مع أمير ثالث هو "بيان سلدوز" مكّن الثلاثة من حكم البلاد قبل قدوم تغلق تيمور خان من جغتاي الشرقية إلى ماوراء النهر عام ١٣٦٠ م (٧٦١ هـ) . وتشير المذكرات إلى الحادثة فتقول على لسان تيمور : "وامتلكنا مملكة ماوراء النهر كاملة ... وهكذا فإننا ثلاثتنا حكمنا ماوراء النهر كأننا أخوة ... واقتسمنا عائدات البلاد المالية بطريقة أخوية"[(٢)] . وعلى الرغم من اعتراف المذكرات بأن حاجي برلاس هو سيد القبيلة[(٣)] فقد كان تيمور ، وهو أحد أفرادها ، يتصرف بشكل مستقل عن مشيئة سيد هذه القبيلة ، ورفض أن يرافق حاجي وقبيلة برلاس إلى خراسان هرباً من تغلق تيمور خان عند قدومه إلى ماوراء النهر[(٤)] ، ولا تعبر نزعة الاستقلال عند هذا الشاب إلا عن قوة شخصيته وطموحه وليس أكثر .

وتستطيع الشواهد السابقة أن تسمح بالاعتقاد بأن حاجي برلاس زعيم قبيلة برلاس ، هو الذي يتمتع بنسب عريق أهله كي يتولى الزعامة في القبيلة . وليس تيمور إلا واحداً من أفراد هذه القبيلة الذين يعتقدون أن نسبهم جميعاً ينتهي إلى جد قديم واحد . ويؤكد ذلك ، إشارة ترغاي للقرار الذى اتخذه توماي خان بتوزيع السلطة من بعده ، بين ولديه التوأمين قابول وقجولاى . وبموجب هذا القرار يتولى قابول وأعقابه من بعده منصب الخانية ، على أن تكون الوزارة والقيادة في أسرة قجولاي . ويلاحظ في هذا القرار أنه استعمل لفظة "أعقاب" (Descendants) عند الإشارة إلى قابول وما انحدر منه من أعقاب ، واستعمل لفظة "أسرة" (Family) عند الإشارة إلى قجولاى وما جاء منه من أحفاد[(٥)] ، الأمر الذي يعطي شعوراً بأنه قد قصد

(١): Sykes: op. cit. T. II P. 119 (٢): Stewart: op. cit. P. 43 , 44

(٣): Stewart: op. cit. P. 46 (٤): سمرقندى ص ٢٠٩ و ٢١٤ .

(٥): Stewart: op. cit. P. 28

من ذلك ، أن تيمور — والمفروض أنه ينتمي إلى أسرة قجولاي لا يرتبط ارتباطاً سلالياً مباشراً بأبناء قجولاي الذين استمروا يتمتعون بالسلطة والسيادة على رأس القبيلة ، وإنما هو من الدوحة الكبيرة التي تعتبر قجولاي رأساً لها وجَدّاً أكبر لكل أفرادها ، وغني عن البيان أن الانتماء إلى القبيلة هو أضعف من الارتباط المباشر بين الأجداد وبين أحفادهم القائمين على الحكم . ويظهر أن واضعي هذا النسب لتيمور في العصر التيموري ، قد قصدوا من تعبير "أسرة قجولاي" تبرير حصول تيمور على السلطة لأنه من قبيلة برلاس ، ولكنه ليس من أعقاب قجولاي الذين ظلوا يتمتعون بسلطة الحكم والزعامة في القبيلة . ويتضمن هذا التعبير إقراراً ضمنيا بأن تيمور لم يكن من الطبقة العليا من قبيلة برلاس . وقد حدث — كما يقول براون — ما يحدث عادة عندما يصبح رجل عادي شخصيةً مشهورةً ، إذ يسعى مدّاحو هذا الرجل ومتملقوه لإضفاء مظاهر العظمة والسمو على أصوله . ومن أجل تحقيق ذلك فقد أُدمج نسب تيمور — ذلك الرجل العادي — من خلال تراجار وأجداده بنسب أرفع بيت مالك مغولي، هو بيت جنكيز خان (١) .

رأي كلافيجو

وكان كلافيجو ، قد ذكر أنه عندما كان يمر في مدينة كيش التي ولد تيمور بجاورها ، قد سمع خلال إقامته القصيرة في هذه المدينة عام ١٤٠٣ م ، (٨٠٥ هـ) ، أن والد تيمور كان رجلاً صالحاً من عائلة طيبة ومن طبقة متواضعة ، وأنه كان يعيش في قرية ليست بعيدةً عن كيش . ويقول كلافيجو إن هذه الأخبار ترددت على مسامعه في المدن الأخرى التي مر بها . ويتابع السفير الاسباني كلامه مشيرًا إلى قدوم القبيلة في وقت سابق إلى منطقة كيش ، ويقول إنه على الرغم من أن تيمور مولود هنا ، فإنه لم يكن من أبناء منطقة كيش الأصليين ، لأنه ينتمي إلى عشائر جغتاي ، وهي عشائر من التتر كانت تقيم في "تاتاريا" ، ثم هاجرت منها إلى الخارج ، عندما اجتاحت مرابعها قبائل المغول ، بقيادة جنكيز خان (٢) .

والد ت

وتورد المذكرات بعض المعلومات عن ترغاي والد تيمور ، وتشير إلى أنه كان يقيم في ضواحي مدينة كيش بين ظهراني قبيلته ، قبيلة برلاس . وقد انقطع في هذا المكان للعبادة ، وأقام هناك تكية والتف حوله بعض التلاميذ والأتباع ، فجعل منهم جماعة دينية يتولى هو إدارتها (٣) . وقد اختط لنفسه هذا النوع من الحياة بناءً على تصميم واقتناع ، ونتيجةً لتجربته في الحياة التي رآها ذات مظهر براق مغرٍ ، ولكنها في حقيقتها غدّارة . وشبهها لابنه تيمور خلال أحد أحاديثه له بالإناء الذي توضع فيه الأزهار ، ولكنه مملوء بالأفاعي السامة ، ولذلك آثر الانسحاب بهدوء إلى هذه القرية القريبة من كيش ، لينعم بالراحة النفسية (٤) . وجاءت الإشارة إلى ترغاي فيما كتبه كلافيجو ، بأنه كان يفضل حياة الريف لما كان يلمسه من لطف السكان وبساطة حياتهم (٥) . وعلى

---

(١) : Browne : Aliterary History of Persia . T. III P. 185

(٢) : Le Strange (Edi and Trans.) : op. cit. P. 220

وأشار بريبه إلى أن تيمور هو من أصل متواضع جداً انظر : Bréhier : op.cit.P.472

(٣) : Stewart : op. cit. P. 29 هذا وقد ورد اسم ترغاي بأشكال عديدة طراغاي عند يزدي ج ١ ص٧ وطرغاي عند السخاوي : الضوء اللامع ٣ ص٤٦ ويقول كاهون أنه يظهر من طابع الاسم أنه تركي ويعني طائر القبرة . انظر : Cahun : op. cit. P. 928

(٤) : Stewart : op. cit. P. 22 (٥) : Le Strange op. cit. p. 210

الرغم من اشادة يزدي تبقى ترغاي وورعه وانقطاعه إلى العبادة ومجالسة العلماء (رجال الدين) (١). فقد كان شديد الاعتزاز والفخار بآبائه وأجداده.وكان مبعث افتخاره بهم وحماسه لهم ، أنهم جميعاً كانوا جنداً في جيش جغتاي بن جنكيز خان —(٢) على الرغم من أن جغتاي كان وثنياً وكارهاً للإسلام.

وبقي ترغاي حياً حتى عام ١٣٦٠ م (٧٦١ هـ) • ولما قدم تغلق تيمور خان إلى ماوراء النهر في المرة الاولى ،كان ترغاي على فراش الموت • ولذلك لم تتح لولده تيمور أن يهب على الفور ، لتلبية دعوة الخان له لمقابلته • ولم يلبث ترغاي أن توفي • وتم دفنه بجوار كيش(٣) • وأمر تيمور — فيما بعد — عام ١٣٧٤ م (٧٧٥) هـ ، بنقل رفاة أبيه إلى مقبرة ضخمة ،أقامها له بجوار المسجد الكبير في هذه المدينة(٤) •

ولا نعلم عن زوجات ترغاي — باستثناء والدة تيمور — شيئاً(٥) • والمعلومات المتوفرة عن والدة تيمور قليلة • وقد ذكر يزدي اسمها " تكينة خاتون "(٦) • ولم يذكر المؤرخون التيموريون شيئاً عن نسبها ، إلا أن ابن عربشاه يقول : إنه قد قرأ في كتاب فارسي أن نسبها ينتمي إلى جنكيز خان(٧). ولعل تيمور كان يقصد التلميح إلى هذا النسب ، في إحدى رسائله التي وجهها إلى السلطان العثماني " بايزيد الاول " (١٣٨٣ — ١٤٠٢ م)، قبل أن يغير تيمور على بلاده ، بأنه سليل أسرة الايلخانيين(٨) ، التي كانت تحكم في إيران والتي يرجع نسبها إلى هولاكو حفيد جنكيزخان . وكان تيمور — في مناسبة أخرى — قد ذكر لابن خلدون في محاورة دارت بينهما في دمشق ، بعد ذلك بقليل (عام ٨٠٣ هـ) أن للملك " منوجهر " على تيمور ولادة من ناحية الأمهات(٩) •ولا يمكن لهذه العبارة التي قالها تيمور، أن تلقي ضوءاً على الأصول التي انحدرت منها أمه ، لان منوجهر هو أحد الملوك الخرافيين الذين ورد ذكرهم في الشاهنامة(١٠) ، التي — ولا شك — كان تيمور مطلعاً عليها • ويؤكد هذا رأي براون — الذي أشير إليه آنفا — أن ربط نسب تيمور بجنكيزخان — سواء من ناحية أبيه وسواء من ناحية أمه — ليس إلا من تلفيق الحاشية المحيطة به(١١) •

ولا تشير الملفوظات (المذكرات) إلا مرة واحدة إلى والدة تيمور، وذلك في حوادث عام ٧٥٧هـ (١٣٥٦ م) ، وتقول إن تيمور عندما بلغ الحادية والعشرين من العمر، أخذت أمه تدعو له بالتوفيق، فيما كان يسعى إليه مع جماعة من أصدقائه يتولى رئاستها للعمل على جمع شمل قبيلة برلاس(١٢) •

ولا نزال نجهل إلى اليوم تاريخ وفاة والدة تيمور •

---

(١) : يزدي : ج ١ ص٧ (٢) : Stewart : ibid .

(٣) : يزدي ج ١ ص٣٥ و Stewart: op.cit. P47 (٤) : Barthold: Ulugh Beg P. 16

(٥) Barthold : op. cit. P. 15 (٦) : يزدي : ج ١ ص٨ (٧) : ابن عربشاه ص٦

(٨) : فريدون بيك : مجموعة منشآت السلاطين.القسطنطينية ١٢٦٤ هـ ج ١ ص١٢٥ •

(٩) : ابن خلدون : التعريف ص٣٧٢

(١٠) : علي الشابي : الأدب الفارسي في العصر الغزنوي ص٢٧ وقد ذكر أن منوجهر — كما روت الشاهنامة — هو من ملوك الطبقة الأولى الفيشدادية التي حكمت ٢٤٤١ عاماً(كذا) وحكم خلال هذه الحقبة الطويلة عشرة ملوك !•

(١١) : Browne : ibid وردد الرأي نفسه الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة القارة الهندية ج ٢ ص٣٥٠ هـ ١ •

(١٢) : Stewart : op. cit. P. 23

الفصـــل الثانـــي

مولـــد تيمـور وطفولتـــه وشبابـــه

٧٣٦ ـ ٧٦١ هـ (١٣٣٦ ـ ١٣٦٠م)

قلة الأخبار عن حياة تيمور الأولى ـ التبنؤ بظهوره ـ الطوالع الحسنة والسيئة عند ميلاده ـ تاريخ ميلاده ـ اسمه ولقبه ـ أخبار طفولته: تلقيه العلم ـ فتوته ـ في حاشية قازغن ـ في هيرات ـ زواجه ـ تحرمه ود وافعه ـ مقابلته للشيخ شمس الدين الفاخوري ـ موقفه من رجال الدين ـ محاولته جمع كلمة امـــراء البـــلاد .

قلة الأخبار عن حياته الأولى

لم تثر أخبار حياة تيمور في طفولته اهتمام أحد المؤرخين إلا بعد مرور مدة طويلة من الزمن عليها . ويبدو أن قلة الأخبار واضطرابها عن حياة تيمور في تلك المرحلة هي أمر متوقع . لأن تيمور لم يكن مشهوراً بعد في ذلك الوقت ، ولهذا السبب فإن نظام الدين شامي ـ وهو أحد الذين كتبوا ترجمة لحياة تيمور ـ لم يورد شيئاً عن حياة الفاتح التركي في أيامه الأولى . ووردت أخبار تلك الحقبة عند بقية المؤرخين التيموريين بشكل مقتضب .. كما ظهر طابع الغموض والإضطراب وعدم التأكد فيما أورده ابن عربشاه من أخبار أوليات تيمور . فهـــو يروى للمسألة الواحدة روايتين أو أكثر ، ويقلب الرأي في قضية منشأ تيمور وشخصية أبيه ومكانته ويصرح بأن اللبس والغموض في كل ذلك يرجع إلى مضي الوقت وتغير الأحوال[1] . وتحـــاول مذكرات تيمور ، من دون بقية المراجع ، أن تعطي تيمور تاريخا أكثر وضوحا وتكاملا في هذه المرحلة من حياتـــه[2] .

التنبـــؤ بظهوره

وأول ما يلفت الانتباه في احداث حياة تيمور الأولى ، تلك الأخبار التي ذكرها بعض المؤرخين عن تنبؤات تفيد بأنه سيظهر رجل عظيم وسيستولي على العالم ، وسوف يكون عهده عهد البهجة والسرور . وأضاف يزدي الذي أورد مثل هذه الأخبار ، بأن هذا الرجل سيكون من بطن قاجولي (قجولاي)[3] وجاء في المذكرات أن منجماً فارسياً ماهراً قدم إلى ما وراء النهر عام ٧٣٠هـ (١٣٣٠م) ، وقال بأنه قد جاءه من العلم عن دوران الأفلاك أن سيولد من رحم إحدى الامهات مولود سيكون فتح العالم على يديه[4] وتعدت الإشارة الى هذه التنبؤات المصادر التيمورية الى بعض مؤرخي مغرب العالم الاسلامي . فذكر ابن خلدون أن المنجمين تنبأوا بظهور "الثائر العظيم" من ناحية الشمال الشرقي ، وقال أنه سمع عن ظهور هذا الثائر منذ أن كان في المغرب ، وأنه سيظهر من أمة بدوية تسكن الخيام وينقل هذا المؤرخ التونسي قصة عن أحد مشائخ المغرب هو "أبو يعقوب البادسي" الذى يصفه بأنه كبير أولياء المغرب بأن الرجل بعد أن انتهى من احدى صلواته التفت وحدث من كان يصلي خلفه أنه في هذا اليوم ولد ذلك الثائر العظيم . ويحدد ابن خلدون تاريخ القصة بأنها إحدى سنوات العقد الرابع من القرن الثامن الهجرى[5] ، وهو العقد الذى ولد فيه تيمور . ويتابع ابن خلدون قوله فيذكر أنه لما سأل شيخه "محمد بن ابراهيم الآبلي" عن موعد ظهور ذلك الرجل فأجابه بأن أمره قريب ولا بد إن عشت أن

---

(١) : ابن عربشاه ص٥ (٢) : انظر ما يلي من هذا الفصل (٣) : يزدي ج ١ ص٥
(٤) Stewart:op. cit. P. 29 وقد أورد ستيوارت النص الفارسي لهذه الحادثة في ملاحق ترجمته الملحق رقم ـ ٨ ـ (٥) : ابن خلدون: التعريف ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

تـــراه[١] . ويحلل ابن عربشاه ، الذي أورد مثل هذه الشائعات ، سبب انتشارها ، فذكر أن تيمور قد دأب منذ حداثة سنه يروج أنه سيكون الملك المالك لرقاب العباد ، ولذلك شاع الخبر في الأمصار عن ظهور مثل هذا الملك[٢] . ويظهر أن ما ذهب اليه ابن عربشاه في تعليل انتشار الشائعات عن ظهور تيمور قبل اشتهاره ، هو أمر معقول . لأن ابن خلدون الذي أورد أقـــوال منجمي المغرب في هذا الموضوع ، أضاف أن هؤلاء المنجمين كانوا يتوقعون ظهور الثائر العاظيم في عام ٧٦٦ هـ (١٣٦٥ م) وأن أخباره سوف تنتشر عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) . ويسمح هـــذا الأمر بالاعتقـاد بأن الشائعات التي كان يطلقها تيمور بين أصدقائه في مقتبل عمره ، عن سعيـــه لحكم العالم قد وجدت لها طريقاً إلى سكان المغرب ، وسمع بها ابن خلدون وغيره عام ٧٨٤هـ ، وكان تيمور قد حقق قدراً كبيرا من الشهرة في ذلك التاريخ ، ولاسيما وأن بارتولد قد أشار إلى أن رجال الدين منذ القرن العاشر الميلادى ، وفي أيام سيطرة البويهيين ، أصحاب الميول الدينيـــة الشيعية ، على الحكم في بغداد ، كانوا ينتظرون ظهور الفاتحين المسلمين السنيين من المشرق[٣] مما يشير إلى أن الأذهان كانت مستعدةً لتقبل مثل هذه الشائعات .

وتقترن الشائعات بظهور هذا الفاتح عند هؤلاء المؤرخين ، بأخبار ولادته في أحوال فلكية ملائمة ناجمة عن اقتران كوكبي زحل والمشترى بما كان يدعوه المنجمون بالمثلثة المواتية العلوية[٤]. ويعلق حافظ آبرو على ذلك بأنه من المؤكد أن توفر هذه الأحوال الفلكية الملائمة إنما كان بتدبير سماوي[٥] . وكانت ولادة تيمور في وقت اقتران المشتري وزحل سبباً في أن يطلق على تيمور لقـــب " صاحب القران " الذى يعني صاحب الحظ السعيد . وكان هذا اللقب من أشهر الألقـــاب التي عُرف بها تيمور ، ودرج استعماله في كتب المؤرخين التيموريين الرسميين وغيرهم . ويربـــط حافظ آبرو بين سقوط دولة الايلخانيين وبين مولد تيمور اللذين وقعا في عام واحد . ويقول إن عام ٧٣٦ هـ الذي شهد في شهر ربيع الأول منه أفول نجم السلاطين الايلخانية بوفاة السلطان أبي سعيد ، فقد شاهد في شهر شعبان طلوع شمس السلطنة من أفق البروج الحرا القاهرة البرلاسية ، عندما ولد في الخامس والعشرين من ذلك الشهر الأمير صاحب القران[٦] .

وعلى العكس من ذلك ، فإننا نجد عند فريق آخر من المؤرخين من يقول أن بعض مظاهـــر الشر قد ظهرت عند ولادة تيمور ، فيذكر ابن عربشاه أن يدي تيمور كانتا عند ولادته مملوءتين دماً ، ولما سئل الكهنة وأهل القيافة عن تفسير ذلك ، تنبأ بعضهم بأن سوف يكون في مستقبل أيامه شرطياً أو لصاً أو قصاباً أو جلاداً[٧] . وأضاف ابن تغري بردي الذى نقل عن ابن عربشاه أكثر ما كتبه عـــن تيمور ، أنه ظهر في يوم مولد تيمور طائر على شكل خوذة ، وقع على الأرض فتطاير الشرر والجمـــر منـــه[٨] .

---

(١) : ابن خلدون : نفسه
(٢) : ابن عربشاه : ص١
(٣) : بارتولد ص ٨٤ .
(٤) : ابن خلدون:التعريف ص ٣٧ ويزدي ج١ ص١٠ .
(٥) : حافظ آبرو : ص ٢٠٥
(٦) : حافظ آبرو : ص ١٨٧
(٧) : ابن عربشاه ص ٤
(٨) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٥٥ .

تاريخ ميلاده

ويوافق يزدي حافظ آبرو في أن ولادته كانت في الخامس والعشرين من شعبان ، ويضيف أنها كانت في ليلة الثلاثاء[1] ، في ضواحي مدينة كيش . وينفرد ابن عربشاه بذكر اسم المكان الذي رأت فيه عينا تيمور النور لأول مرة ، وهو قرية " خواجه ايلغار " الواقعة في ضواحي تلك المدينة[2] .

اسمه ولقبه

ويرى ابن عربشاه أن اسم "تيمور" أعجمي الأصل (غير عربي) ويعني " الحديد "[3]. ويؤكد القلقشندي الذي يعطي للفظ تيمور المعنى ذاته ، بأن الكلمة من أصل تركي[4] . ويعطي بعض الأبحاث الحديثة أيضاً هذا التفسير[5] لكلمة تيمور . وتحاول المذكرات أن تجد لكلمة " تيمور " أصلاً آخر . فتروى على لسان والده ترغاى ، أنه بعد ولادة تيمور حمله أبواه إلى أحد رجال الدين ليتلقى البركة منه ، ولما دخلا عليه وجداه يتلو بصوت عال آية من القرآن ، قبل أن يسألاه شيئاً :
" أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا بها تمور "[6] ثم توقف والتفت إلى ترغاى وقال : لقد سمينا ابنك تيمور[7] . والمذكرات بذلك تحاول أن تجد لاسم تيمور أصلاً عربياً وارداً في القرآن. ولكن الواقع بأن اسم تيمور كان شائع الاستعمال كثيراً عند المغول والأتراك قبل تيمورلنك ، وحمله عدد من خاقانات المغول قبل مولده بزمن طويل ، كما كان يسمى به بعض المعاصرين له[8] . وقد يكون من المحتمل أن ابن عربشاه الذي قال بالأصل الأعجمي للاسم ، قد سمع بمثل هذا التفسير، فأشار إلى أن اللغة العربية — على الرغم من أصل الاسم غير العربي — قد خرطته في أوزانها[9].

وأما لفظة لنك التي تلحق باسم تيمور ، فهي فارسية الأصل، وتعني " أعرج " ، وقد اطلقها عليه أعداؤه بسبب ما أصابه من عرج في إثر إحدى المعارك[10] . وقال القلقشندي الذي أورد هذا الرأي بأن أعداء تيمور من الترك قد أطلقوا عليه لقب " أقسق " ، وهو لفظ تركي يؤدي معنى " لنك " الفارسي . وقد قبلت أغلب الأبحاث الحديثة هذا التفسير[11] .

---

(١) : يزدي : ج ١ ص٨ ويرى بارتولد أن هذا التاريخ الهجري يقابل التاسع من نيسان ١٣٣٦ م في التأريخ الميلادي انظر له : Barthold: Ulugh Beg. P. 13 ويرى كل من بوفا الذي كتب مادة تيمور في الموسوعة الإسلامية وغروسيه أن هذا التاريخ الهجري يقابل الثامن من نيسان ١٣٣٦ م انظر لذلك كلا من : Bouvat: Timur lang (E.I. lere edi. 1913 T.IV) P. 818
Grousset: L'Empire dies Steppes. P. 486
هذا ويذكر كل من سمرقندي : ص١٠٢ وميرخوند ج ٧ ص٤ تاريخ مولد تيمور كما ذكر يزدي ، وينفرد أحمد السعيد سليمان بجعل تاريخ ميلاد تيمور في ٢٧ شعبان ٧٣٦هـ الموافق لـ ١١ نيسان ١٣٣٦ م انظر له : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة القاهرة ١٩٧٢ م ص٥٥٩ أما مذكرات تيمور فقد أوردت في مكان أن مولده كان في عام ٧٣٠ هـ ولكنها عادت في مكان آخر فقالت أن عمر تيمور كان عام ٧٥٦ هـ عشرين عاماً مما يؤكد أن خطأ وقع بيد النسّاخ عند كتابة عام ٧٣٠ هـ لأن المقصود هو ٧٣٦ هـ انظر : Stewart : ibid .

(٢) : ابن عربشاه ص٣

(٣) : ابن عربشاه ص٣

(٤) : القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص٣٠٧ وأيد بارتولد رأيه انظر Barthold: op.cit. P.17

(٥) Grousset: op. cit. P. 468 Bouvat: L'Empire Mongol. P. 21. Sykes: op. cit. P.21

(٦) : وهي الآية ١٦ من سورة الملك

(٧) : Stewart : op. cit P. 21

(٨) : حمل الاسم — تيمور — ثاني الأباطرة المغول في الصين من أسرة يوان وهو أولجايتو تيمور وعرف به الخان الجغتائي السادس عشر دوا تيمور . انظر زامباور ج ٢ ص٣٧٢ — ٣٧٣ .

(٩) : ابن عربشاه ص٣

(١٠) : سوف نرجع لمعالجة موضوع عرج تيمور في مناسبة ثانية.

(١١) : Sykes: ibid , Spuler : op. cit. P. 102 , Barthold op. cit. P. 17 .

أخبار طفولته

ويتكلم يزدي عن أخبار طفولة تيمور باختصار شديد ، فيشير إلى مرحلة رضاعه ثم إلى بلوغه سن التمييز واتقانه الكلام [١]. ويتحدث حافظ آبرو عن شغف تيمور منذ حداثة سنه بطلب العلم والأدب ، وتفوقه على أقرانه بالفروسية واستعمال الأسلحة منذ ذلك الوقت المبكر [٢]. وترد في المذكرات تفصيلات أكثر عن طفولة تيمور الأولى . فتتحدث عن التحاقه بالمدرسة في سن السابعة حيث تعلم كتابة الحروف العربية ، ولكنها لا تشير إلى اللغة التي درسها . وإن كان يبدو أنها كانت اللغة الفارسية لأن المعلم ـ وهو الملا على بيك ـ كان على مايبدو من لقبه الفارسي " الملا " الذى يعني " المعلم " أنه من التاجيك . وتتحدث المذكرات أيضاً عن تفوق تيمور على أقرانه ، وعن ظهور علامات النجابة والذكاء المبكر عليه ، وعن ميله للزعامة والسيادة ، فكان يجلس في غرفة التدريس في مكان بارز . وكان دأبه في أوقات فراغه خارج المدرسة ، أن يلهو مع رفاقه ، فكان يقسم أصدقائه إلى جيشين متخاصمين ، يخوضان المعارك ضد بعضهما . وتتحدث المذكرات عن بروز حب الاجتماع بالناس عند تيمور منذ بلوغه التاسعة من العمر . وتقول إن تيمور منذ ذلك السن لم يجلس إلى مائدة عشاء دون أن يشاركه فيها أحد من الناس ، ولذلك أنس به الجميع ولمسوا ما كان ينطوي عليه من رجاحة العقل والكياسة ، منذ ذلك الوقت المبكر [٣] . ونجد عند ابن عربشاه فيما كتبه عن تيمور صورة مختلفة تماماً عن تيمور في تلك الآونة من عمره . فهو عنده رقيق الحال ضعيف البدن يتعاطى التلصص والسرقة ، ويلتف حوله عدد من قرناء السوء ، يسخرون منه ، ويعتقدون بحماقته عندما كان يدعي أمامهم بأنه سوف يحكم العالم [٤] .

فتوته

وإذا عدنا إلى المذكرات ، نجد أنه قد أضحى لتيمور في الحادية والعشرين من العمر ، عدد من الماشية وطائفة من العبيد منحها له والده [٥] . وربما كان هذا الأمر سبباً في خروج تيمور من وقت إلى آخر إلى الصحراء لتفقد ماشيته ، فأخذ بالتدريج ، يتعرف على عالم الصحراء الذى سيغدو في المستقبل بطلاً من أبطاله ، منذ ذلك الوقت .

في حاشية قازغن

وكانت أول بادرة تشير الى أن تيمور بدأ يمارس الأمور العامة ، وأنه بلغ مرحلة الشباب ، عندما أرسله والده عام ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) إلى حاكم البلاد الأمير قازغن في عاصمته سالي سراي ، الواقعة جنوباً على نهر جيحون ، لمراجعته في بعض الشؤون التي تهم قبيلة برلاس ـ كما تروي المذكرات ـ وكان هذا الأمر سبباً لأن يكتشف الأمير قازغن الصفات الممتازة التي يتمتع بها تيمور ، فدعاه للإقامة بجواره وأدخله في حاشيته وغمره بالهدايا [٦] . وقد صور كاهون تيمور في تلك الآونة من حياته ، فقال إنه كان يبدو مثال الفارس الذي كان يحلم به الشباب الأتراك في ذلك العصر [٧] . ولا شك في أن تيمور قد بدا للأمير قازغن إضافة إلى مزاياه الشخصية الممتازة ، أنه من أسرة متواضعة في قبيلة برلاس لاحول له ولا يُخشى منه أو من نفوذ أسرته للطمع والوصول إلى

---

(١) : يزدي ج ١ ص ١٢ (٢) : حافظ آبرو ص ٢٠٥

(٣) : Stewart : op. cit. P. 21-22 (٤) : ابن عربشاه ص ٤

(٥) : Stewart: op. cit. P. 30 (٦) : Stewart: op. cit. P. 32

(٧) : Cahun : op. cit. P. 929

مركز السلطة العليا ، إنما شجعه على تقريبه منه وإدخاله في حاشيته . وكان اشتراك تيمور في صد الغارة التي قام بها الملك حسين كرت حاكم هيرات على ماوراء النهر ، عام ٧٥٧ هـ والشجاعة التي أبداها خلال ملاحقة لجماعة من المغيرين ، واسترجاعه للأسرى والأسلاب التي كانوا يحاولون الفرار بها ، سبباً لأن ينعم عليه الأمير بلقب " بكلربيك [Begler Beg) الذي يعني قائد قبيلة . وتعزو المذكرات لتيمور دوراً نشيطاً في مجال الحياة العامة خلال المدة المتبقية من حياة قازغن . فكان في عداد جيش ماوراء النهر الذي أغار على هيرات في العام نفسه ، بقيادة ذلك الأمير . وهو الذي اقترح على قازغن مكان المعركة ضد الملك حسين . وعاد تيمور بالملك حسين إلى سمرقند بعد انسحاب قازغن بقواته من هيرات ، حسب ماتم عليه الاتفاق . وهو الذي عاد بالملك حسين ثانية ، إلى بلاده ، وأعانه على استرداد عاصمة ملكه — هيرات — من الذين استولوا عليها في غيابه[١] . ولما بدت علائم التقدم بالسن والمرض على قازغن ، كان له تيمور خير مستشار ، واستطاع أن ينجيه بذكائه وحضور بديهته وشجاعته[٢] ، مرتين من المؤامرات التي كان يحيكها ضده الأمراء الآخرون . ولكن تيمور — كما يرد في المذكرات — كان يسعى في عمله وراء مجده الشخصي قبل كل شيء ، وليس بدافع الإخلاص للأمير حاكم البلاد . فلما عزم هذا الأمير على إنفاذ تيمور على رأس حملة إلى خوارزم ، وأدرك تيمور مبلغ الصعوبات التي سوف يلاقيها في هذه المهمة ، اقترح على الأمير إنفاذ ابنه عبد الله بها ، وكان يرمي من اقتراحه كما ورد في المذكرات أن يتفادى هزيمة محققة سوف ينزلها الخوارزميون به ، فرأى أن يسبقه عبد الله في الإغارة على تلك البلاد ، ثم يلحق به تيمور ليكون شرف النصر النهائي له .[٣]

وتشير المصادر التيمورية إلى أن أول زواج عقد لتيمور كان في ذلك العام ، (٧٥٧ هـ) ، على إحدى حفيدات قازغن ، وتدعى " أولجاي — توركان — آغا " Uldjai-Turkan Agha[٤] . وهي تمت بصلة نسب من ناحية والدتها إلى قبيلة جلاير[٥] . ويشير بارتولد بمناسبة هذا الزواج إلى احتمال أن يكون تيمور قد تزوج قبل ذلك التاريخ من نساء أخريات إلا أن أخبار هذه الزوجات لم تصل إلينا[٦] . ويفهم من إحدى عبارات المذكرات ، أنه في عام ٧٥٧ هـ نفسه وقبل أن يلتحق تيمور بحاشية قازغن ، عندما كان مشغولاً مع أصحابه في إحدى مناوراته العسكرية التدريبية ، لاحتلال

---

(١) : Cahun : op. cit. P. 929 وقد صورت المذكرات دور تيمور في صد المغيرين على ماوراء النهر عام ٧٥٧ هـ على لسان تيمور : " تبعت العراقيين [كذا] ثلاثة وعشرين فرسخاً وقمت بهجمة قوية عليهم في منتصف النهار . وانقسم الأعداء إلى قسمين . وقام أحد القسمين بحماية الأسلاب ، وتهيأ القسم الآخر كله لمقابلتي . ونصحني ضباطي أن أهاجم الأسلاب . ولكني قلت دعونا نهزم القسم المقاتل ، فإن الآخرين سرعان مايفرون . وأعطيت الأوامر بالهجوم ، ونخزت حصاني بالمهماز واندفعت . وقف العراقيون في أرض المعركة ليتفاخروا ... وبعد كرات قليلة على كل جانب فروا وتركوا الأسلاب " انظر Stewart ;op.cit.P.33 وقد ترجم ستيوارت لقب بكلربيك بقائد قبيلة .

(٢) : في أولى هاتين المرتين لما أحدق المتآمرون بقصر قازغن ، أشار تيمور عليه أن يرسل لهم مبلغاً كبيراً من المال ليتقاسموه حسب رتبهم مما أدى إلى اختلافهم وتفرقهم انظر Stewart : P.38 وأنظر لمعرفة ثاني المحاولتين الفصل الثاني من الباب الثاني ص ٨٧ هـ ١ من هذا البحث .

(٣) :

(٤) : يزدي ج ١ ص ٥٠

(٥) : Cahun: ibid

(٦) : Barthold : op. cit. P. 15

أحد التلال المجاورة ، أن أخته قتلغ توركان آغا ـ وكانت أكبر منه سناً ـ كانت تشرف على رعاية أهل بيتـه ، الأمر الذي يوحي بأن تيموركان متزوجاً في ذلك الآن[١] . ويرد بعد ذلك في المصـدر ذاته أن والد تيمور قد خطب له ابنة أحد رجال قبيلة برلاس ، هو الأمير " جاكو " ، ولم تشر المذكرات إلى أن هذه الخطبة قد انتهت إلى الزواج[٢] . وعلى ذلك ، فإن زواج تيمور من اولجاي حفيدة قازغن هو الزواج الثاني أو الثالث على الأقل . وقد تغنى المؤرخون بجمال أولجاي ـ توركان ـ آغـا ، ووصفت بطول القامة وأن قوامها يشبه شجرة السرو ، وكانت ذات وجه جميل يشبه القمر[٣] . ولا شك في أن زواج تيمور من إحدى حفيدات حاكم البلاد ، قد منحه ـ كما يقول بارتولد ـ شيئا من الامتياز وزاد من قدره في نظر أقرانه[٤] .

ويبدو واضحاً ، أن أحوال تيمور تدهورت بعد اغتيال قازغن عام ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) ، ودخول البلاد في صراع مرير بين الأمراء على السلطة . ولعل الصورة التي تعكسها كتابات ابـن عربشـاه تصدق على تيمور في هذه الآونة من حياته ، ولاسيما وأن مثل هذه الأقوال قد وردت عند كاتب آخر معاصر ، يستبعد أن يكون قد تأثر بابن عربشاه أو أثر به ، هو " كلافيجو " . إذ يذكـر هذا السائح الإسباني الذي زار ماوراء النهر قبيل وفاة تيمور بمدة وجيزة ، أنه حسب الروايـات التي سمعها في كيش والمدن الأخرى التي زارها في ماوراء النهر ، أن تيموركان في فتوته ميـالاً إلى الغزو . وكانت له جماعة من أصدقائه كانت تتألف في أول الأمر من أربعة أو خمسة أشخـاص يطيعونه طاعة عمياء . وقد سرق في أحد الأيام غنمة ، وفي مرة أخرى استولى مع أصحابه علـى نور من قطيع جيرانه ، وأولم تيمور بهذا الثور وليمة كبرى لأصدقائه ، ظهر فيها على أنه رجل كريم . وظل أتباعه يتكاثرون حتى بلغ عددهم ثلاثمائة فارس . كان يخرج بهم إلى الأرياف ويقوم هنـاك بأعمال السلب والنهب ، فيسرق كل مايصادفه في طريقه ، ويفرض الأتاوات على التجار الذيـن يصادفهم . ولما كثرت أعماله السرقات وقطع الطرقات ووصلت إلى مسامع السلطات في سمرقند ، أصدر الحاكم أمره بملاحقة تيمور وأتباعه وقتل من يقع في أيدي السلطات منهم . ولكن بعض أصدقـاء تيمور توسطوا له فعُفي عنه[٥] . وعلى مايظهر فإن أقوال كلافيجو هذه تصور أيضاً حالة ماوراء النهر وحالة تيمور خلال السنوات التي أعقبت مقتل قازغن على حد قول بارتولد[٦] ، عندما كان تيمور في حوالي الرابعة والعشرين من عمره ، وكانت البلاد قد انقسمت من جديد بين عدد من الأمراء ، وأصبح من الصعب على فتى ناشئ من أسرة متواضعة ـ كتيمور ـ على الرغم مما يتمتع به من صفات شخصية ممتازة وكفاءة عالية ، أن يكوّن لنفسه مركزاً مرموقاً في خضم الصراعات التي كانت تجتاح البلاد من خلال الاتصالات التي كان يجريها مع الأمراء المتنفذيـن . وكانت المنطقة التي نشأ فيها تيمور (كيش وما حولها) تحت حكم أمير قوي ـ هو حاجي برلاس ـ معترف بإمارته من قبل باقي أمـراء البلاد ، وقد ورث الحكم في قبيلته ـ قبيلة برلاس ـ بشكل شرعي عن آبائه وأجداده . ولذلك فإن ظروف البلاد والفوضى التي خلقتها صراعات الأمراء كانت خير مشجع على أن يقوم الطامحون بمثـل

(١) : Stewart : ibid (٢) Stewart : op. cit. P. 32
(٣) : Barthold : op. cit. 17 (٤) Prawdin : op. cit. P. 175
(٥) : Barthold : op. cit. P. 13 (٦) Le Strange: op. cit. P. 211

مانُسب إلى تيمور القيام به من أعمال السرقة والتجريم ، والتي كان يقوم بها ليس بقصد السرقة والتجريم لذاتهما ، وإنما بقصد الدفاع عن الناس المضطهدين[١] . ومساعدتهم في هذه الأوضاع المضطربة التي تجتاح البلاد . ولا شك في أنه كانت تقع بين الوقت والآخر بعض أعمال القسوة والسرقة التي كانت لاتتوافق مع الأهداف التي كان تيمور يسعى لبلوغها . ويعلل سكوت المصادر التيمورية الرسمية عن إيراد مثل هذه الأخبار بميلها إلى محاباة تيمور .

مقابلة للشيخ شمس الدين الفاخوري

وكانت حياة المغامرة التي كان يحياها تيمور في تلك الآونة ، وما تنطوي عليه من قلق وتوتر هي التي دفعته لأن يسعى وراء راحة النفس وهدوء الضمير ، لدى رجال الدين . وتصور مقابلته للشيخ شمس الدين الفاخوري في كيش ـ التي أورد ابن عربشاه والمذكرات أخبارها ، والتي يرجح أنها قد تمت في هذه الآونة ـ وبكاء تيمور أمام هذا الرجل ورجاؤه له أن يدعو له بالتوفيق ـ[٢] مدى ماكان تيمور يعانيه من ظروف نفسية ومادية صعبة .

موقفه من رجال الدين

ولا شك في أن تيمور في سعيه للتقرب من رجال الدين ، فقد كان يرى فيهم السلطة الوحيدة التي كانت تتمتع بصفة الثبات والاستمرار في تلك المرحلة المضطربة ، وبالنفوذ على عامة الناس . وكان رجال الدين بدورهم يبحثون ، في ذلك الوقت ، عن شخصية قادرة تعينهم على تثبيت سلطانهم المعنوي على الناس ، وتساعدهم على نشر الإسلام بين البداة الأتراك الجغتائيين ، الذين لاتزال أعداد كبيرة منهم على ديانتها الوثنية[٣] . وكان حصول تيمور على ثقة رجال الدين ـ وكان الشيخ شمس الدين الفاخوري قد دعا لتيمور بالتوفيق والنجاح وبشره بالنصر المرتقب ـ كافياً في نظره على الأقل ليجعل منه مساوياً لبقية الأمراء الذين تستند سلطاتهم إلى مايملكونه من قوات تدعم نفوذهم . وعلى مايظهر فإن المسلك الذي اختطه تيمور لنفسه بالتقرب من رجال الدين ، قد جعله في نظر المضطهدين من الناس في ذلك الوقت ، البطل الذي تنتظر البلاد الخلاص على يديه[٤] .

محاولته كلمة الا...

وكان الهدف المباشر الذي أعلن تيمور أنه يسعى للوصول إليه ، هو رغبته بالانتقام من قتلة قازغن . ولذلك حاول التفاهم مع اثنين من أمراء البلاد ـ كما تذكر المذكرات ـ هما حاجي برلاس وبيان سلدوز ، للعمل على الانتقام من قتلة ذلك الأمير ، فأغار الجميع على سمرقند واحتلوها[٥] . في الوقت الذي كان فيه أمراء آخرون يحكمون في مناطق أخرى من البلاد . وكان كل أمير منهم يسعى للكيد للأمراء الآخرين[٦] . وظهر أن الأمير بيان سلدوز المدمن على تعاطي الخمر ، كان أشد ضعفاً مما تستوجبه أوضاع البلاد[٧] . وبدا حاجي برلاس بالإضافة إلى ضعف شخصيته قليل الاكتراث بمستقبل البلاد ، على الرغم مما يبدو عليه من علائم العظمة في منطقة حكمه في كيش[٨] . ولم تجد

---

(١) : Prawdin: op. cit. P. 179 (٢) : ابن عربشاه ص٤ـ٥ و Stewart:op.cit.P.30
(٣) Prawdin: op. cit. P. 176 (٤) : Cahun : op. cit. P. 931
(٥) : Stewart : op. cit. P. 43 ويورد يزدي في هذه الأحداث في ج ١ ص ٣ ولكن لايشير إلى اشتراك تيمور فيها . (٦) : يزدي : ج ١ ص ٣٢
(٧) : يزدي ج ١ ص ٣١ (٨) : Grousset : op. cit. P. 418

محاولات تيمور لجمع كلمة بقية الأمراء ورسائله إليهم لنبذ الخلافات ، ثم دعوته لهم للاجتماع ودراسة أحوال البلاد ، وإن رد جميع هؤلاء الأمراء على دعوة تيمور رداً ودياً [١] . وكانت حالة الفوضى والاضطراب التي وصلت إليها البلاد ، من الأسباب الرئيسية التي دعت تغلق تيمور خان للقدوم من جمتاي الشرقية ، وكان قدومه إلى ماوراء النهر (عام ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م) يعني بدء مرحلة جديدة من حياة تيمور ، الذي كان في ذلك الآن في الرابعة والعشرين من عمره .

(١) : Stewart : op. cit. P. 44

الفصـل الثالـث

تيمـور وتغلـق تيمـور خـان

٧٦١-٧٦٢هـ (١٣٦٠-١٣٦١م)

قدوم تغلق تيمور خان - فرار حاجي برلاس - مقابلة تيمور الأولى للخان المغولي - انسحاب تغلق تيمور والمغول - عودة حاجي من خراسان - محاولة اغتيال تيمـور - استدعاء تيمور للخان المغولي - السعي للقضاء على نفوذ الأمراء الأتـراك - تعـيين ابنه الياس خواجا نائباً في ماوراء النهر .

قدوم تغلق تيمـور

أخاف قدوم تغلق تيمور خان الأمراء الأتراك المتنفذين في ماوراء النهر . ووجد بعض هؤلاء كـ " بايزيد " زعيم قبيلة جلاير في " خجنـد " ، أن من الأسلم له أن يقدم خضوعه للخان المغولي[١]، على أنه الحاكم الشرعي للبلاد وحفيد جغتاي بن جنكيز خان[٢] . ووجد البعض الآخر من أمـراء البلاد ، أن من الأفضل لهم الفرار من وجهه إلى خراسان ، وكان هذا حال " حاجي برلاس " زعيم قبيلة " برلاس " ، الذي أخذ يشعر في الوقت نفسه بازدياد شعبية تيمور بين شباب القبيلـة ، بعـد فرار أغلب أمرائها أو تواريهم عن الأنظار بسبب الخطر المحدق المتمثل بقدوم جيش مغولي كبير مع الخان من جغتاي الشرقية . وكان لحوان تيمور وأصدقاؤه من المعجبين بجرأته يزدادون يوماً بعد يوم ، ويزداد تعلقهم به[٣] . وزاد في تعزيز مكانة تيمور ما كانت تتعرض له زعامة حاجي برلاس للقبيلة من منافسة في شخص زوجه أبيه الطموحة ، التي كانت تعمل للقضاء عليه . حتى اضطر حاجي لقتلها، بعد اكتشافه لمؤامرة دبرتها ضده، لأنها كانت تنوي أن تحلّ محله في زعامة القبيلة[٤] .

فرار حاجي بـرلاس

وأجبرت الظروف التي كانت تمر بها قبيلة برلاس والبلاد بسبب تقدم المغول، على أن يتناسى كل مـن تيمور وحاجي برلاس التنافس والاختلاف - ولو بصورة موقتة - فتم الاتفاق بينهما على أن ينتقـل حاجي بالجزء الأكبر من القبيلة إلى خراسان[٥] ، وعلى أن يظل تيمور في كيش يراقب الموقـف، ويحاول أن يستجلي عن كثب نوايا المغول القادمين ، ويسعى في اللحظة المناسبة مستعيناً ببراعته السياسية لحماية المنطقة من خطر الاجتياح . وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق بين تيمور وحاجـي ينطوي على مخاطر كبيرة لتيمور وأتباعه القلائل ، إلا أنه ينطوي في الوقت نفسه على قدر كبير مـن المغامرة التي كان تيمور يتوق إليها ، كما تحقق لحاجي الخلاص بالقسم الأعظم من القبيلة من خطـر المغول ومنافسة تيمور . ورافق تيمور المنسحبين إلى خراسان مسيرة يومين أو ثلاثة ثم عاد أدراجه إلى كيش[٦] . ويذهب حافظ آبرو إلى أن مرافقة تيمور قبيلة برلاس المتراجعة إلى خراسان ، كـان لغرض الانسحاب أيضاً ، ولكنه - وهو في الطريق - ظهر له خطأ هذا التصرف ، ومبلغ ما ينطوي عليه من جبن وتقاعس في الدفاع عن البلاد ، ولذلك عاد لينتظر الأحداث[٧] .

(١) : Stewart: op. cit. P. 47 ويزدي ٢٣ ج ١ وشامي : ص١٦
(٢) : Cahun : op. cit. P. 930 (٣) : Cahun : op. cit. P. 935
(٤) : Stewart : op. cit. P. 46 (٥) : شامي ص١٦ ويزدي ج ١ ص٢٣ و ٢٤
(٦) : Stewart : op. cit. P. 47 (٧) : حافظ ابرو ص١٢ ويذهب سمرقندي إلى أن تيمور لما سار مع حاجي برلاس قد عبر جيحون إلى خراسان، وعاد من هناك معتبراً طاعة الخان واجبـة حسب أوامر السماء وشريعة جنكيز خان انظر : سمرقندي ص٣٠٩ .

مقابلة تيمور الأولى للخان المغولي

ومهما يكن من أمر فإن فرار حاجي إلى خراسان في هذه الظروف قد أساء إلى مركزه، كما يقول يزدى كزعيم للقبيلة ، في الوقت الذى انهمك فيه تيمور في المنطقة التي أصبحت الآن تحت سلطته - وهي منطقة واسعة تمتد من مدينة كيش إلى ضفاف جيحون - يجمع العساكر ويستعد لمواجهة الموقف (١) . وكانت طلائع قوات المغول عند عودة تيمور إلى كيش قد بلغت ضواحي المدينة، وأخذت تقوم بأعمال السلب والنهب هناك . وتقول المذكرات إنه أمام خلو البلاد من زعماء يستطيعون الدفاع عنها في وجه الغزو المغولي ، فقد دعى عامة الناس ورجال الدين تيمور ليتولى حكم البلاد، والدفاع عنها ، ولكنه لم يقبل . وتورد المذكرات أيضاً على لسان تيمور سبب رفضه لتسلم الحكم ، على الرغم من رغبته في ذلك وهو أن دعوة الناس له لتولي السلطة كانت بدافع الخوف المحدق بهم ، ولم تكن بدافع المحبة والولاء له ، وتسليماً بمقدرته وجدارته بحكم البلاد . ويتابع تيمور كلامه بأنه ليس من الحكمة في شيء أن يسعى لمقاومة جيش المغول الكبير بقوات هزيلة ، وأنه لن ينجم عن هذه المحاولة إلا وقوع المزيد من المصائب بالبلاد والسكان . ولذلك برر لنفسه أن يدخل فيما دخل فيه زعماء البلاد الآخرون ، الذين كانوا يفوقونه مكانة ، ويمضي بناء على الدعوة التي تلقاها من الخان نفسه للقدوم عليه والدخول في طاعته (٢) . ولكن مرض والده (ترغاي) ، وكان على فراش الموت ، واضطراره للبقاء إلى جانبه ، حال دون أن يلبي دعوة الخان بسرعة ، ولذلك وجد أن التودد إلى قواد المغول الذين وصلوا إلى ضواحي كيش ، ودعوتهم لتناول الطعام على مائدته ، وتقديم الهدايا لهم ، يعتبر أول مراحل هذه السياسة التي عزم على أن يسير عليها (٣) . ويصف " برافدان " (Prawdin) مسلك تيمور في تلك المرحلة بأنه نصر سياسي كبير يفوق أي نصر يمكن تحقيقه بقوة السلاح (٤) . ولذلك ، ولما توفي والد تيمور ووري التراب ، هبَّ تيمور لتلبية دعوة الخان ، وكانت دعوة ثانية قد وصلت منه تستحثه للمثول بين يديه . واجتمع تيمور بوجوه البلاد في منطقته ، وبين لهم أنه من المفيد للبلاد والسكان النزول عند رغبة الخان وعدم إغضابه على أن شر لا بد منه (٥) . وزوده رجال الدين بأموال من الأوقاف التي كانوا يشرفون عليها ، لتمكينه من شراء الهدايا للخان والحاشية ، وتأمين الرشاوى التي قد يدفعها للقواد المغول وهو في طريقه لمقابلة الخان ، ليحول دون رغبتهم بتخريب البلاد ونهب السكان (٦) . وضم الوفد الذي رافق تيمور عدد من أتباعه المخلصين وعدد آخر من وجوه البلاد . واستطاع الوفد أن يقنع القواد المغول الذين كان يجتمع بهم خلال رحلته إلى الشمال ، بالتوقف عن الزحف والتوغل في البلاد بسبب ما كان يدفعه لهم (٧) . واستطاع تيمور عند مقابلة الخان له أن يحظى بإعجابه وتقديره، فضمّه إلى طائفة المستشارين في حاشيته. ولما كان تغلق تيمورخان يسعى للقضاء على نفوذ الأمراء الأتراك المتنفذين في ماوراء النهر ، فقد بدا تيمور في نظره أيضاً ، بسبب ما كان يتمتع به من مميزات شخصية جيدة ، لعل أهمها كما قال كمال الدين سمرقندى ، أن تيمور كان يعتقد أن طاعة الخان أمر واجب حسب أوامر السماء وشريعة

(١) : يزدي : ص ٣٧ — (٢) : Stewart ibid .
(٣) : شامي : ص١٨ ويزدي ج ١ ص٣٦ — (٤) : Prawdin : op. cit. P. 177
(٥) : Stewart : ibid . — (٦) : Cahun : op. cit. P. 931
(٧) : Stewart : op. cit. P. 48

جنكيز خان [١] ، وقد لمس الخان منه هذا الاستعداد . وفضلاً عن ذلك فإن تيمور لم يكن ذلك الأمير القوي الذي يُخشى من مطامعه ، فهو ليس من أفراد الطبقة العليا من قبيلة برلاس، وكان حب عامة الناس وتأييد رجال الدين له ، ثم خبرته في الإدارة التي حصل عليها من ملازمته للأمير قازغن حاكم البلاد السابق ، وأخيراً صلة المصاهرة التي تجمعه بإحدى قبائل ماوراء النهر الرئيسية — وهي قبيلة جلاير — من العوامل التي جعلت الخان يقدم على ضمه إلى حاشيته [٢] للاستفادة من خبرته ونشاطه .

انسحاب تغلق تيمور

واستطاع تيمور والوفد المرافق له أن ينقل للخان المغولي مخاوف الناس في ماوراء النهر ورجال الدين فيها ونقمة هؤلاء من الأعمال التي قام بها قواده خلال تغلغلهم في البلاد ، ونجح في أن يوغر صدره على هؤلاء القواد، بحجة امتداد أيديهم إلى الهدايا والأموال التي كان يحملها إليه خلال الطريق ، ولذلك أمر تغلق تيمور خان باسترجاع تلك الأموال من هؤلاء القواد وإيداعها في خزائنه ، وبإخراج كل من تناول رشوةً منهم من ماوراء النهر . ولكن القواد المبعدين لم يلبثوا أن أعلنوا الثورة ونهبوا خلال انسحابهم المناطق المتاخمة لنهر سيحون . ولما استشار الخان تيمور في طريقة القضاء على ثورة قواده ، زيّن له أن يسير على رأس جيشه لتحقيق ذلك [٣] . واقتنع الخان بصواب رأي تيمور وعينه قبل انسحابه أمير تومان (أميراً على عشرة آلاف جندي) في منطقة كيش، حيث كانت تقوم منازل قبيلة برلاس . [٤]

وكان من شأن الدور الذى لعبه تيمور في حث الخان المغولي على الانسحاب مع جيشه ، أن ذاع صيته وزادت شعبيته بين سكان البلاد . وصورت المذكرات ذلك بالعبارات التالية :

" وكانت نتيجة ذلك [تصرف تيمور] أن عموم الناس : العظماء والحقراء والمحاربون وغير المحاربين اعتبروا أنفسهم مدينين لمعروفي وتقدموا إلي بالشكر ودعوا الله لي بالنجاح والتوفيق" [٥] . ويصور يزدي السلطة التي منحها الخان لتيمور بأنها تشمل جميع البلاد ، وجعلت منه نائباً للخان فيها . ولذلك هرع إليه الجميع لتقديم الاحترام بما فيهم بايزيد جلايرى ، الذي كان يُعدّ من أكبر أمراء البلاد [٦] . وعلى الرغم من كل ذلك ، فإن الفوضى عادت إلى البلاد في إثر انسحاب تغلق تيمور خان ، وعادت مطامع الأمراء تصطدم ببعضها ، ونزل إلى حلبة الصراع أمير جديد هو الأمير حسين حفيد قازغن ، وكان في الوقت نفسه شقيق زوجة تيمور (أولجاى) ، وكان حسين خلال المرحلة السابقة يحكم منطقة خارج ماوراء النهر هي كابل وما حولها في بلاد الافغان . وعلى مايبدو فإن التسليم لتيمور بالسلطات التي يخولها له منصبه الجديد ، لم يكن تسليماً جدياً ، فعصى بايزيد جلايرى أمراً موجهاً إليه من تيمور [٧] . وزاد موقفه سوءاً عندما سمع بخبر عودة حاجي برلاس من

عودة حاجي برلاس

(١) : سمرقندي ص ٣٠٩ — (٢) : Cahun : op. cit. P. 932

(٣) : Stewart : ibid . وجاء في المذكرات على لسان تيمور جواباً لسؤال الخان :

" في ذهابكم بشخصكم إلى الصحراء هناك خطر واحد، هو خطر وقوعكم في الأسر ، ولكن في حال إرسال جيش وعدم ذهابكم بشخصكم لملاقاة الثوار ، يوجد خطران . هما : خطر انهزام الجيش أمام الثوار وخطر تحالف بعض المتمردين من أتباعكم مع الثوار " .

(٤) : شامي ص ١٨ ويزدي ج ١ ص ٣٦ وحافظ ابرو ص ١٢ و Stewart : ibid وسمرقندي ص ٣٠٩

(٥) : Stewart : ibid . (٦) : يزدي : ج ١ ص ٣٧

(٧) : شامي : ص ١٦ ويزدي ج ص ٣٧ وحافظ ابرو ص ١٣

خراسان ، وبأن بايزيد جلايرى قد التقى به واتفق معه على مساعدته في انتزاع كيش من تيمور [١] . وتشير المذكرات بأنهما قد انتزعاها فعلاً [٢] . ولكن المعركة التي دارت بعد ذلك في موقع قريب من كيش ، عقب انسحاب بايزيد إلى سمرقند ، انتصر فيها تيمور على حاجي برلاس وأجبره فيها على الفرار لاجئاً إلى حليفه في سمرقند . ولما زحف تيمور بعد انتصاره في هذه المعركة على سمرقند فإن قسماً من قواته ــ من قبيلة برلاس ــ قد تركته على الرغم من أنه كان المنتصر ، ولجأت إلى المعسكر الآخر متأثرة ــ كما يقول غروسيه ــ بالتقاليد القبلية المتوارثة [٣] ، لأن حاجي برلاس هو في نظرهم صاحب السلطة الشرعية في القبيلة . واستقبل بايزيد جلايرى حليفه بالترحاب ، وأعلن نفسه حاكماً عاماً على البلاد . وأرسل الحليفان إلى تيمور رسالة يستحثانه فيها على الاتفاق معهما للاشتراك بحكم البلاد ، وتقدمت قواتهما من جديد إلى ضواحي كيش [٤] التي عاد تيمور إليها .

محاولة ا
تيمـ

ويبدو أن تيمور قد وثق في بادئ الأمر بأقوالهما ، وتقدم بقواته إلى حيث كانا يعسكران في ضواحي المدينة وحيث استقبله بايزيد جلايرى استقبالاً حاراً وأخذه من يده ، ويتابع تيمور كلامه بالمذكرات " وأدخلني إلى الخيمة العامة (داركاه) ثم قال : بما أننا سوف نجري محادثات سرية والوقت قصير ، فلنذهب إلى الخيمة الخاصة (خركاه) وجعل يرشدني إلى الطريق ، ولما دخلت الخيمة الخاصة ، رأيت سجادة قد مُدَّت في إحدى الزوايا، ولما تقدمت ظهر لي أنه يوجد هناك بئر [تحتها] ، وضع عليه غطاء من لباد. وساور الشك فكري فتباطأت عن الجلوس، وتبين لي أنها مؤامرة مقصودة ، وقد جلس بايزيد دوني عن يميني ، وحاجي برلاس عن يساري ، فادعيت أن رعافاً قد حدث من أنفي ، وأخرجت منديلي ووضعته عليه وسرت فوراً ، من الخيمة الخاصة إلى الخيمة العامة ، وتقدمت منها إلى أن وجدت نفسي بين أنصاري وقوادي ، وكانوا مسلحين بصورة جيدة ، وقُرع الطبل وانصرفت إلى معسكري ." [٥] . ولما فشلت مؤامرة التخلص من تيمور ، دبَّ الخلاف بين الحليفين (جلايرى وحاجي) ، فانسحب بايزيد إلى خجند في الشمال ، وظل حاجي في مدينة كيش ، في الوقت الذي وجد تيمور نفسه فيه بدون مستقر يأوى اليه .

ولذلك فقد تقدم تيمور جنوبياً بمن كان معه إلى ضواحي مدينة " ترمذ " الواقعة على جيحون . وكتب من هناك إلى الامير حسين يعرض عليه التحالف [٦] . ولكنه لما كان لا يأمن له ولا يثق به ويخشى من نفوذه ، فقد أرسل إلى الخان المغولي تغلق تيمور خان ، الذي زين له الخروج من ماوراء النهر قبل عام ، يحرضه على العودة إليها . ويعرض عليه الحالة التي وصلت إليها البلاد ويصف

---

(١) : شامي : ص١٧ ويزدي ج ١ ص ٤٠ وحافظ أبرو ص ١٢ (٢) : Stewart:op.cit.P.50

(٣) : Grousset:op.cit. p. 419 . (٤) : يزدي ج ١ ص ٤٢ ــ ٤٣ و Stewart:op.cit.P.52

وقد أورد ستيوارت فقرات من رسالة بايزيد وحاجي جاء فيها : " .. نقتسم ثلاثتنا مملكة ماوراء النهر بطريقة أخوية ، وأيّ كان من القواد وإن كان مذنباً ولكنه يخضع لنا يجب أن نعامله بكل لطف وأيّ كان منهم يريد أن يعارضنا يجب أن يُقضى عليه " .

(٥) : Stewart : op. cit. p. 53 (٦) : يزدي : ج ١ ص ٤٣ ــ ٤٤

له ظلم الحكام لعامة الناس ، واضطرار هؤلاء بسبب الظلم إلى مغادرة البلاد التي أضحت " الآن مقفرةً من السكان ولا يسكنها إلا الغربان والحدأات "(١) . وتتابع المذكرات قولها : إنه لم يمض على استلام الخان المغولي لرسالة تيمور وقت طويل إلا وكان يقف على رأس قواته على شواطئ سيحون في جمادى الثانية ٧٦٢ هـ (أيار ١٣٦١ م) .

وأسرع أمراء البلاد — مرة ثانية — إلى معسكر الخان في خجند ، لتقديم الخضوع وتجديد الولاء . وكان بايزيد جلايرى من الذين قدموا لذلك الهدف .(٢) وكان بايزيد سابقاً قد أعلن نفسه حاكماً عاماً على البلاد ، ولذلك أمر الخان بقتله وحمل رأسه إلى سمرقند (٣) . وتعطي المذكرات سبباً آخر لقتل بايزيد ، هو تباطؤه في تسليم مفاتيح سمرقند (٤) . ومن الممكن أن يكون لتيمور دور في تحريض الخان عليه ، فقد كان من أكبر المنافسين له ، ولا شك في أن القضاء عليه كان تجاوزاً لصعوبة هامة كانت تقف في وجهه . ولما بلغت أخبار مصرع بايزيد حليفه حاجي برلاس ، وكان يستعد للسير شمالاً لمقابلة الخان ، قرر الفرار ثانية إلى الجنوب ، إلى خراسان بعد أن أبدى أسفه وندمه لتيمور بسبب تصرفه السابق ، وسأله أن يصفح عنه . وهكذا فإن مسلك حاجي برلاس هذا ، وهو زعيم قبيلة برلاس ، أمام أحد أفراد القبيلة ، قد عزز من مكانة تيمور وساعده على التأكيد على حقه في حكم القبيلة ، بعد انسحاب زعيمها الشرعي هرباً من المغول إلى خراسان ، ومكنه من أن يلعب في المستقبل دور البطل التركي المنقذ للبلاد ، من عودة الحكم المغولي إليها (٥) . ومع ذلك ، فإن عواطف تيمور وولاءه لقبيلة برلاس ، دفع المؤرخين التيموريين فيما بعد إلى تصوير انسحاب هذا الجزء من القبيلة مع حاجي برلاس إلى خراسان بشكل بطولي ، وتتحدث هذه المصادر عن الشجاعة الفائقة التي أبداها " تشوغام برلاس " أحد أفراد القبيلة ، عندما أدركت طلائع قوات المغول القبيلة وهي تعبر جيحون . وتقول إن بطولة تشوغام برلاس مكنت القبيلة من العبور بأمان إلى خراسان ، ثم وقع على الارض مضرجاً بدمائه (٦) . وحل حاجي مع من سار معه في منطقة بجوار مدينة سبزوار ، وسلك مع السكان هناك مسلكاً فظاً ، واشتط في جمع الضرائب وابتزاز الأموال . ولذلك فقد اغتاله أحد السكان ، ولما حاول أخاه أن يخلفه كان مصيره القتل أيضاً . ولما قدم تيمور فيما بعد إلى خراسان ، نكل بسكان المنطقة التي قتل فيها حاجي برلاس (٧) وشقيقه انتقاماً لهما .

وكان تغلق تيمور لما بلغ ضفاف سيحون ، قد أرسل يستدعي تيمور لاستشارته في الوسيلة التي

---

(١) : Stewart : op. cit. P. 54 (٢) : يزدي ج ١ ص ٤٤

(٣) : شامي ص ١٨ ويزدي ج ١ ص ٤٤ وحافظ أبروص ١٤ و Stewart: op. cit. P. 55

(٤) سمرقندي ص ٣١ . (٥) : Stewart: ibid Grousset: op. cit. P. 483

(٦) : يزدي ج ١ ص ٤٤ و Stewart: op. cit. P. 55

(٧) : شامي ص ١٨ ويزدي نفسه و Stewart : ibid هذا ويلاحظ أن ستيوارت مترجم المذكرات إلى الانكليزية عندما يشير إلى الجزء من قبيلة برلاس الذى سار مع حاجي برلاس هرباً من المغول يستعمل اللفظة الانكليزية Horde التي تقابلها اللفظة العربية (عشيرة) في الوقت الذى كان يشير فيه إلى قبيلة برلاس في مواضع أخرى باللفظة الانكليزية Tribe التي تقابل اللفظة العربية (قبيلة) . وربما كان الغرض من ذلك إظهار أن الخان المغولي لم يكن غاضباً إلا على أتباع حاجي برلاس المباشرين ، وليس على كل القبيلة انظر : Stewart : ibid

يجب اتباعها في حكم البلاد . وقد حمل الرسالة إلى تيمور أحد رجال الحاشية ويدعى الأمير حميد ، وكان صديقاً قديماً لترغاي والد تيمور (١) . وكان الأمير حميد قد حثّ الخان على الاستفادة من خبرة تيمور واستغلال إمكانياته لمواجهة أمراء البلاد كثيري العدد وشديدي الاختلاف (٢) . ولذلك ولما وصلت دعوة الخان إلى تيمور أرسل إلى وجوه البلاد ومخاتير القرى وزعماء القبائل يطلب الأموال من أجل الدفاع عن حياة السكان وحماية الأملاك من الإحراق أو الإتلاف ، على يد جيوش الجتا (المغول) (٣) . وصادفت دعوة تيمور ترحيباً عند هؤلاء ، وحملوا إليه مبالغ كبيرة من المال عدا الهدايا التي أضاف عليها تيمور كل ما كان يمتلكه . وسار إلى مقابلة الخان من جديد في معسكره على ضفاف سيحون . وكان الخان المغولي يسعى لتقليص نفوذ الأمراء الاتراك في ماوراء النهر (٤) . وكان هؤلاء يسعون بدورهم للاستقلال والانفصال عن السلطة المركزية ، معتمدين على ثرواتهم المالية الطائلة (٥) ، التي كانوا يودعونها في المدن الحصينة الواقعة تحت نفوذهم ، ولذلك فقد نصح تيمور الخان أن يفرض على هؤلاء حصصاً معينة من الأموال على أن تراعى في فرضها شروط العدالة ، وعلى السلطة المركزية أن لاتتهاون في عقاب من يرفض دفع ما فُرض عليه ، وعلى الخان أن يأخذ الأشرار بشرهم ، وأن لاينسى في الوقت نفسه ، أن يثيب الأخيار على أعمالهم وإخلاصهم (٦) .

السعي للق... على الامراء

وتقدم تغلق تيمور خان بنفسه — في هذه المرة — إلى داخل البلاد . للقضاء على ثورة أشعلها في هذا الوقت في منطقة " بدخشان " ، شقيق زوجة تيمور الأمير حسين حفيد قازغن (٧) . وكان حسين هذا قد نجح في إثر القضاء على نفوذ عمه عبد الله بن قازغن في سمرقند أن يؤسس إمارة في بلاد الافغان ، شملت كابل وبلخ وكاندوز (٨) . ولما حاول أن يوسع أملاكه شمالاً إلى ماوراء النهر (٩) . فقد سار إليه الخان المغولي وأجبره بعد معركة جرت بالقرب من ممر " باب الحديد " في جنوب سمرقند على الفرار إلى خراسان ، واتبع الخان انتصاره بحملة تأديب قاسية شملت عشائر المنطقة خلال ربيع وصيف ذلك العام (١٣٦١ م / ٧٦٢ هـ) . ويتمثل — في إصرار الخان المغولي على إلحاق الهزيمة بالامير حسين ، وإجباره على البقاء بعيداً عن ماوراء النهر — خوفه من أن حسين كان أشد خطراً على النفوذ المغولي في البلاد من دون بقية الأمراء الأتراك — بما فيهم تيمور — لأنه حفيد الأمير قازغن الذي نجح في تحويل السلطة لأول مرة في ماوراء النهر من أحفاد جغتاي بن جنكيز خان الحكام الشرعيين الذين يمثلون النفوذ المغولي إلى الأمراء الأتراك .

وعاد الخان المغولي إلى سمرقند في الخريف ، وأمر بقتل أمير تركي آخر هو [illegible] حسين الياس وكان هذا قد حاول في وقت سابق — كما مر — أن يفرض نفسه أيضاً حاكماً على البلاد ، وهكذا [illegible] خوجا نايب

(١) Grousset: op. cit. P. 488 (٢) Stewart: op. cit. P. 15

(٣) : Barthold: Four Studin..P. 57 (٤) Stewart: op. cit. P. 56

(٥) : Stewart: ibid . (٦) : Stewart: op. cit. P. 56

(٧) : ذكر يزدي نسبه على النحو التالي : حسين بن مسلا بن قازغن انظر يزدي : ج ١ ص ٣٢ ولفظ ميرخوند اسم مسلا (صلاي) انظر له روضة الصفا ج ٦ ص ٢٣ . وظن غروسيه خطأ أن حسين هو ابن عبد الله انظر : Grousset : op. cit. P. 419

(٨) : (٩) Grousset: op. cit. P. 463 : يزدي : ج ١ ص ٤٠

أضحت ماوراء النهر خاضعة من جديد للحكم المغولي . وأعلن الخان ابنه الياس خواجا نائباً عنه في البلاد ، وترك له حامية كبيرة من جيوش الجتا ، وحاشية ضخمة من الأمراء والقواد المغول. ولا يعلق كل من شامي ويزدي شيئا على هذا الاجراء (١) ، ولكن المذكرات تصوره على إنه اخلاف لوعد سابق أُعطي لتيمور بمنحه هذا المنصب (٢) . ولكن المذكرات نفسها ترجع في موضع آخر لتشير إلى أن تعيين الياس خواجا بن تغلق تيمور خان في هذا المنصب ، لم يكن إلا إجراءً شكلياً ، فقد جاء فيها قول تيمور عن الخان المغولي " وأعطاني السلطة الكاملة لتدبير أمور ماوراء النهر ولكنه عين ابنه الياس خواجا حاكماً اسمياً " (٣) . ومهما يكن من أمر فإن هذا الإجراء كان مخيباً لآمال تيمور الذي سار في ركاب الخان المغولي، واضطر إلى السكوت على أعمال التنكيل التي قام بها جيش المغول ضد عشائر البلاد وسكانها، على أمل أن يفوز بذلك المنصب . وتلتمس المذكرات سبباً آخراً لهذا التصرف ، هو أن تعيين ابن الخان المغولي في منصب الحاكم العام لما وراء النهر وتعيين تيمور مستشاراً له ، هو إحياء لذلك القرار القديم الذي اتخذه الجد الأعلى المشترك لجنكيز خان وتيمور " تومناي خان " ، بأن تكون رئاسة الدولة لابنه الأول كابول - وهو الجد الذي انحدر منه جنكيز خان - وأعقابه من بعده ، وأن تكون الوزارة وقيادة الجيش ، لابنه الثاني قجولاي - وهو الجد الذي انحدر منه تيمور - وأسرته من بعده (٤) . وفي الواقع فإن تغلق تيمور خان الذي سعى بجهده لأن يحقق مرة ثانية وحدة خانية جغتاي بشطريها الشرقي والغربي ، بنجاحه بضم ماوراء النهر إلى سلطته وقضائه على أغلب الأمراء الأتراك فيها ، هؤلاء الذين كان يخشى من نزعتهم إلى الانفصال ، كان غير مستعد لتسليم البلاد إلى فتى ناشيء طموح مثل تيمور، الذي وجد فيه بعض سمات شخصية قازغن ، ذلك الأمير التركي الذي استطاع أن يقتل أحد الخانات من أبناء جغتاي بن جنكيز خان (وهو قازان خان) الذي كانت تتمثل فيه السلطة الشرعية ، وأن يقضي لحقبة من الزمن على النفوذ المغولي في البلاد . ولا شك في أن تغلق تيمور خان قد استطاع أن يستغل مواهب تيمور وإمكاناته الشخصية كالجرأة والحماسة والخبرة في أحوال البلاد وأحوال أهلها ، وأحب أن لا يكون خروج ماوراء النهر من خانية جغتاي مرة ثانية على يد ذلك الفتى الذي لم يتجاوز السبعة والعشرين عاماً (٥) .

وعلى الرغم من أن ذلك الإجراء الذي اتخذه الخان المغولي ، الذي جعل من تيمور أحد رجال الحاشية الملحقين بابنه الياس خواجا ، إلا أن هذا التصرف لم ينل من عزيمة تيمور وطموحه وثقته بنفسه للوصول إلى ذلك المنصب ، فتظاهر باللامبالاة، وظل يظهر الاخلاص للخان المغولي، ويتكلم من موقع الخبرة والدراية في الأمور التي يستشيره فيها الخان. وظل يعتمد على ذكائه وحيلته وحسن تصرفه وقدرته على استغلال الأحداث الطارئة . ولذلك ولما طلب الخان رأيه في الطريقة

(١) : شامي : ص١٩ ويزدي : ج ١ ص٤٥ .
(٢) : Stewart: op. cit. 11
(٣) : Stewart: op. cit. P. 58
(٤) : Stewart: op. cit. P. 11-12
(٥) : Cahun : op. cit. P. 933

التي يجب اتباعها للقضاء على الثورة التي شبت في بلاد القبجاق ، تلك الثورة التي تقول عنها المذكرات أن العناية الإلهية كانت ورائها ، زين تيمور للخان مرة أخرى أن يسير بنفسه للقضاء عليها . وهكذا استطاع تيمور الذى جاء بالخان وقوات المغول إلى ماوراء النهر ، أن يخرجه منها للمرة الثانية[1] .

(١) : Stewart : op. cit. P. 57

الفصل الرابع

ثورة تيمور على الحكم المغولي
٧٦٣ـ٧٦٦هـ (١٣٦٢ـ١٣٦٥ م)

منصب تيمور الجديد ـ أسباب الثورة ـ حادثة الأسرى ـ مع حسين في خوارزم ـ مع التركمان ـ الأسر في ماخان في ضواحي بخارى ـ في سمرقند ـ في سيستان ـ في أرصوف ـ معركة شمالي بلخ ومحاولة العبور الأولى ـ معركة قنطرة الحجارة والعبور معركة قبي متن ـ ملاحقة الجتا ـ تنصيب كابل شاه ـ غارة الجتا ٧٦٦ هـ .

كان انسحاب تغلق تيمور خان من ماوراء النهر، وابتعاد جزء من قوات المغول معه عن هذه البلاد من الأسباب التي جعلت تيمور يفكر بالثورة على الحكم المغولي الأجنبي . وقد امتدت ثورته مدة تقارب سنوات أربع، هي أعوام ٧٦٣ و ٧٦٤ و ٧٦٥ و ٧٦٦ هـ (بين ١٣٦٢ ـ ١٣٦٥م) وقد اتصفت هذه المرحلة من حياة تيمور بأنها مرحلة مليئة بالمغامرة، أورد المؤرخون أخبارها بشكل روائي مثير، وصوروا تيمور كالفارس التائه بين الجبال والصحارى، تقلبت فيه الأحوال من رئيس لعصابة صغيرة من المغامرين، إلى أسير في غرفة مظلمة، فقائد لجيش كبير . وكان الهدف الأول الذى حدده تيمور لنفسه في تلك الآونة هو تخليص البلاد من حكامها الأجانب (المغول) الذين كانوا يتدفقون عليها من الشمال . وكان دوره هذا يقابل دوره في الماضي عندما كان يناضل في كنف الأمير قازغن، لتخليص البلاد من أعدائها التاجيك الذين هاجموها من الجنوب[(١)] .

منصب تيمور الجديد

هذا، ولم يحدد المؤرخون التيموريون على وجه الدقة، نوع الوظيفة التي أسندت لتيمور بعد انسحاب تغلق تيمور خان، واكتفوا بالإشارة إلى أن تيمور كان في حاشية الياس خواجا ومخصوص بعنايته واحترامه[(٢)] . وانفردت المذكرات بالإشارة بشكل صريح إلى أن تيمور قد عُين مستشاراً لالياس خواجا[(٣)] . وذكرت في مكان آخر، أنه قد أُسندت إليه قيادة الجيش، وأن تغلق تيمور خان قد أصدر أمره إلى القوات المغولية التي تقرر أن ترابط في ماوراء النهر، بالامتثال لأمر قائدها الجديد تيمور[(٤)] . وعلى كل حال، ومهما كان نوع المسؤولية التي أسندت لتيمور مدنية كانت أم عسكرية، فقد كان في الواقع دون سلطات حقيقية . وظهر منذ البداية اختلاف كبير في المنهج والهدف، بين مايسعى إليه تيمور وهو الدفاع عن مصالح السكان، وبين ماكانت تحاول القوات المغولية القيام به من نهب السكان والعودة إلى بلادها[(٥)] . وكان تيمور ـ وهو المعتز بكرامته الشخصية ـ يعامل في بعض الأحيان بشيء من الازدراء والاحتقار من قبل الحاشية المغولية المتغطرسة التي كانت تحيط بالياس خواجا، وكان من أبرز شخصيات هذه الحاشية قائد يدعى " بيكجيك "، وقد اشتهر بالظلم والعتو في معاملة السكان[(٦)] . وتصور المذكرات الياس خواجا

أسباب الثورة

---

(١) : Sykes : op. cit. T. II P. 122 , Cahun : op. cit. P. 940

(٢) : شامي : ص١٩ ويزدي ج ١ ص٤٥ وسمرقندي ص٣١٥ .

(٣) : Stewart : op. cit. P. 58 (٤) : Stewart : op. cit. P. 11

(٥) : Prawdin : op. cit. P. 179 (٦) : يزدي ج ١ ص٤٧ .

حاكماً قليل الخبرة[١] ، ليس له من القوة ما يمكّنه من كبح جماح قوات المغول ومنعها من التعرض بالأذى للفلاحين وسكان المدن على السواء ، ولذلك كان السكان يلجأون إلى تيمور ويطالبونه بالتدخل لحمايتهم من أعمال الجتا القاسية . وكان تيمور بدوره يرسل إلى تغلق تيمور خان ، ليطلعه على الأعمال التي كانت ترتكبها قواته ، ويستحثه على استخدام سلطاته لمعاقبة المسؤولين عن هذه الأعمال . ووقعت في تلك الآونة عدة أحداث حاسمة بشكل سريع ومتعاقب ، هزت مشاعر السكان . اذ اختطف المغول مائة من بنات سمرقند العذارى ، وتعرضوا لسبعين من رجال الدين في مدينة ترمذ . وقام رجال الدين الآخرون ينددون بهذه الأعمال ويدعون الناس لمقاومة قوات الياس خواجا ، وتخليص الفتيات المسبيات . ولمّا لم تجد المساعي السلمية التي بذلها تيمور لدى القائد بيكجيك ، أولاً ومع الياس خواجا نفسه ثانياً ، للإفراج عن الفتيات ، ثارت ثائرة تيمور ، وقام مع عدد من أتباعه المخلصين بتحرير الفتيات بالقوة . وكان هذا أول عمل عنيف يقوم به في وجه السلطات المغولية الحاكمة[٢] . ولكن القواد المغول في ماوراء النهر نجحوا في الرسالة التي أرسلوها إلى الخان المغولي ، في إظهار تيمور بمظهر الثائر على سلطة الخان نفسه ، واتهموه بأنه يسعى لقتل ابنه الياس خواجا والاستئثار بحكم البلاد . واستصدروا من الخان أمراً بالقضاء عليه . ويُفهم من المذكرات أن تيمور قد اطلع على هذا الأمر — وربما كان ذلك بواسطة جواسيسه — ولذلك اضطر إلى الفرار إلى احد الجبال في جنوب سمرقند[٣] . واستطاع تيمور بهذا الموقف أن يظهر أمام الملأ على أنه المدافع الأول عن المظلومين ، والمنفذ الصادق لمشيئة رجال الدين[٤] .

وظل تيمور في مخبئه في الجبال ومعه زوجته وعدد قليل من الأصحاب ، ثمانية أيام ، إلى أن وصله كتاب من أحد رجال الدين في كيش هو شمس الدين كيلال ، يطلب منه التوجه إلى خوارزم[٥] ، وكان الأمير حسين يهيم في تلك المنطقة على وجهه في إثر الهزيمة التي أنزلها به الخان المغولي قبل مدة بالقرب من ممر " باب الحديد " . وربما كانت رغبة تيمور بالانضمام إلى حسين في ذلك الوقت ، لاعتقاده بعدم قدرته على أن يلعب بمفرده دور المنقذ للبلاد من الاحتلال الأجنبي[٦] . ولذلك فضل أن يضمّ جهوده إلى جهود الأمير حسين بعد أن نفض يده من إمكانية التعاون مع المغول ، ليحقق رغبته في الوصول إلى حكم البلاد . ولما كان الأمير حسين هو وريث أول حاكم تركي مستقل (قازغن) ، فإن هذا الأمر يعطي لأعمال تيمور وثورته على المغول نوعاً من الشرعية . وظهر اهتمام تيمور بتوثيق علاقاته بالأمير حسين منذ وقت مبكر ، بموافقته على الزواج من أولجاي تركان آغا شقيقة الأمير حسين[٧] . وتقول المذكرات إن حسيناً هو الذي أرسل لتيمور عام ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) يعرض عليه التحالف ، وجاء في رسالته قوله : " بما أننا مشردان كلانا ، فإنه من المستحسن أن نتحد

(١) : Stewart: op. cit. P. 12

(٢) : Stewart:op.cit. P. 58 وقد جاء في المذكرات أن أحد رجال الدين أرسل إلى تيمور يطري عمله ويبشره بأنه سوف يصل إلى حكم البلاد كلها .

(٣) : Stewart: op. cit. P. 55 (٤) : Cahun: op. cit. P. 934

(٥) : Stewart : ibid . وقد ذكر ابن عربشاه اسم الشيخ شمس الدين كيلال الوارد هنا باسم شمس الدين الفاخوري انظر : ابن عربشاه ص ٤ .

(٦) : Grousset: op. cit. P. 487 (٧) : Barthold : Ulugh Beg P. 17

ونوحد جهودنا (١). وخشي تيمور إن طال مكوثه في الجبال أن يؤدي ذلك اكتشاف السلطات المغولية مخبأه،مما يؤدى إلى وقوعه في الأسر . وكذلك فإنه لم يلتحق به — كما كان يأمل — عدد كاف من الأنصار يمكنّه من متابعة الثورة في المكان الذى يختبيء فيه (٢). لذلك مضى تيمور إلى خوارزم ، وكان اجتماعه بحسين في المكان المتفق عليه عند أحد الآبار في الصحراء . ولما لم يكن للحلفين سوى ستين مقاتلاً ، ولذلك فقد قررا السير إلى حاكم مدينة "خيوق" (خيوه) في خوارزم، ليعرضا عليه الاشتراك معهما في ثورة على المغول (٤). ولم يكتف "توكيل بهادور" حاكم خيوق برفض الانضمام إليهما ودعوتهما لنبذ فكرة الانتقام من المغول ، بل سعى للغدر بهما واعتقالهما ، ولذلك فقد اضطرا إلى الفرار ليلاً بقواتهما الهزيلة باتجاه "أوركنج" (المدينة الثانية الهامة في منطقة خوارزم) عند اكتشافهما لحقيقة نواياه . وتعقبهما توكيل بألف من فرسانه . وبعد معركة جرت في سفوح أحد التلال في الصحراء بين خيوق وأوركنج ، تمكن حسين وتيمور من التخلص والفرار من ملاحقيهما بعد معركة قُتل فيها أغلب أتباعهما ، وتعرض فيها حسين نفسه للقتل ، لولا إنقاذ تيمور له بهجمة جريئة وتخليصه من بين الأعداء الذين أحاطوا به . واضطرت زوجة حسين "دلشاد آغا" أن تنزل عن الحصان الذي كانت تمتطيه ، لتعطيه لزوجها الأمير حسين الذي فقد حصانه خلال القتال ، وشاركت دلشاد آغا اولجاي زوجة تيمور ظهر الحصان الذى كانت تركبه (٤). وتوغل الجميع في الصحراء، ولم يبق من أتباعهما الستين إلا ثلاثة أفراد (٥). مع التركمان وانضم إليهم خلال السير ثلاثة خراسانيين من بلخ ، وكانوا مشاة ، لكنهم فروا خلال الليل بعد أن سرقوا ثلاثة خيول ، واضطرت اولجاي ودلشاد — أن تتابعا الطريق مشياً على الأقدام في الصحراء (٦). وكاد موكب تيمور أن يضلّ الطريق ، لولا الاستعانة بأحد الرعاة الذي قادهم إلى قرية تركمانية قريبة . وأوشك سكان القرية على أن يأسروا تيمور ومن معه ، ولكن أحد السكان ، وكان ممن يعرف تيمور ، حال دون ذلك .

وزود هذا الصديق تيمور بما كان يحتاجه موكبه من خيول وطعام لمتابعة المسير . وأوى ركب تيمور الصغير إلى خرائب إحدى القرى المهجورة ، حيث أقام شهراً أملاً في تلاحق أتباعه به، عندما يسمعون بوجوده هناك . واضطروا إلى نبش الأرض بحثاً عن الماء . ولما سمع أحد زعماء القبائل التركمانية ، وهو "علي جون غرباني" بخبر تيمور ، أسر عليه واعتقله مع أنصاره (٧) ، وساقهم أسرى إلى أحدى القرى القريبة من مرو في خراسان تدعى "ماخان" (٨). وألقي بتيمور الأسر في ماخان

(١) : Stewart: op. cit. P. 60 (٢) : Cahun: op. cit. P. 935

(٣) : شامي : ص١٩ ويزدي ج ١ صفحة ٤٧ و Stewart : ibid .

(٤) : شامي ص١٩ — ٢٠ ويزدى : ص٤٨ ج ١ وحافظ آبرو ص١٦ و Stewart: op. cit. P. 61

(٥) : يدعو حافظ آبرو تلك الصحراء باسم صحراء ساري تولانجي ص١٦ وتدعوها المذكرات صحراء المحمودي ص٦٢ وهي جزء من صحراء قراكوم التي تلي جيحون إلى الجنوب .

(٦) : شامي : ص٢٠ ويزدي ج ١ ص٤٨ وحافظ أبرو ص١٦ .

(٧) : يصف يزدي علي هذا بسوء السيرة وبأنه معتاد على القيام بالأفعال القبيحة ص٥١ ج ١ ويقول عنه كاهون إنه قاطع طريق انظر :

(٨) : يقول بارتولد في تحديد موقع ماخان إنها بالقرب من مرو انظر Barthold: op. cit. P. 47 ويجعلها ستيوارت مترجم المذكرات على ضفة نهر ذاهب إلى قزوين ماراً من شمال غرب مرو انظر المصور .

وزوجته في حظيرة للثيران تعج بالبراغيث والحشرات الأخرى مدة شهرين · وكانت أيام الأسر صعبة على تيمور الذى اعتاد على الحرية[1] · وحاول الفرار ولكنه لم ينجح لذلك فقد فكر بالانتحار وتخلص تيمور من الأسر بسبب تدخل شقيق علي جون غرباني الأكبر ويدعى محمد بيك، الذى لام أخاه على تصرفه مع تيمور وجماعته وأجبره على اطلاق سراحهم · وافترق الحليفان بعد ذلك ، فسار حسين الى مواطن قوته الأولى — بلاد الافغان — وظل تيمور يضرب في الصحراء الى الجنوب من جيحون الى أن استقر رأيه على عبور النهر مع جماعته الصغيرة[2] · وتقدم الى الشمال ومر من ضواحي بلدته الأولى كيش· ثم اتجه الى بخارى، فترك في احدى القرى القريبة منها زوجته وانطلق من هناك الى العشائر البدوية الضاربة في المنطقة ، يدعوها للثورة على الحكم المغولي[3] · ودفعته جرأته الى الدخول في احدى الليالي متنكرا الى سمرقند ، مقر الحاكم المغولي الياس خواجا · واختبأ هناك في منزل أخته " قتلغ توركان " مدة ثمانية واربعين يوما ، يخطط للقيام بعملية خاطفة ضد المغول · ولكن بعض العامة من أهالي سمرقند علم بوجوده في المدينة ، وأخذت الألسن تتناقل أخباره · فخشي افتضاح أمره فاضطر لمغادرة المدينة ليلا الى كيش، ومنها الى جيحون حيث عبر الى الضفة الجنوبية وأقام في احدى القرى القريبة من النهر[4] · وأمضى تيمور في ذلك المكان شهرا للاستجمام والتدريب · وأخذ أنصاره خلال تلك الآونة يوافونه الى هناك ، وأخذوا يزدادون يوما بعد يوم ، حتى بلغ عددهم زهاء ألف رجل ، وكانوا من فئات اجتماعية متباينة ، فكان فيهم الأمراء والفرسان وسائقو العربات والبدو ، وهم وان كانوا من عناصر متعددة : الأتراك الجغتائيون والتاجيك الفرس، فقد كانت نسبة كبيرة منهم من أبناء قبيلة برلاس[5] · وكان يجمع بين الجميع الطموح وحب المغامرة وكراهية الحكم المغولي · وكان يعقب التحاق كل جماعة من

في ضواحي بخارى

(١) : Prawdin: op. cit. P. 182 وتذكر المذكرات على لسان تيمور أنه قرر بينه وبين نفسه خلال مدة الاسر بأنه اذا وصل الى حكم البلاد فلن يسجن أو يكبل أحدا ولو كان مذنبا انظر:

(٢) : يزدي ج ١ ص٥٣ و Stewart: 64، Stewart: op. cit. P. 63 الذى ذكر أن افتراق حسين عن تيمور كان بغير رأى تيمور وأنه كان غلطة من الأمير حسين ·

(٣) : تركت أعمال تيمور ومغامراته أثرا في الأدب الشعبي لشعوب اسيا الوسطى حتى قدوم الاحتلال الروسي لتلك المناطق في القرن التاسع عشر · وقد تغنى بهذه البطولات أقوام القيرغيز والتتار السيبيريون · وتظهر بعض الأغاني الاسطورية لهذه الشعوب المليئة بالحنان عمل زوجة تيمور الشابة الجميلة في حريم اعداء زوجها ، وتتحدث عن المحنة التي يقع فيها الفارس اليائس — وتقصد تيمور — وزوجته الأميرة التي يلقيها الحاكم الخبيث — كما تقول الأسطورة — في البحر في صندوق ولكن زوجها الشاب الفارس البطل يستطيع انقاذها انظر كلا من :
Prawdin: op. cit. P. 183, et Cahun: op. cit. P. 938

(٤) : يلاحظ اختلاف ما ورد في المذكرات وبين ما ذكرته المصادر التيمورية الاخرى عن تنقل تيمور بين جنوب النهر وشماله منذ اطلاق سراحه من ماخان وحتى اجتماعه بالامير حسين وما ذكرناه في المتن هو ما جاء في المذكرات St. P. 65 · أما المصادر الأخرى فتروى الخطوات على الشكل التالي: ترك تيمور اثر عبوره جيحون من الجنوب الى الشمال زوجته في ضواحي بخارى ، ثم عاد من هناك الى جيحون حيث أمضى شهرا في مكان يدعى ريكستان · وهناك وافته زوجته ونصاره · ثم ترك زوجته في ذلك المكان ، وعبر الى شمال النهر · وأقام معسكرا هناك لمدة شهر آخر ، ومن هناك انطلق الى سمرقند حيث مكث ثمانية واربعين يوما في منزل اخته ، ولما خشي افتضاح أمره انطلق من سمرقند الى كيش، ومنها الى قرية أجغي التي تقول عنها المصادر أنها تقع شمالي النهر ، وأمضى هناك ثمانية واربعون يوما آخر ومن هناك انطلق للقاء الأمير حسين · أنظر شامي ١٦ ويزدي ج ١ ص٥٣ — ٥٤ وسمرقندى ص٣١٧ — ٣١٨) ·

(٥) : يزدي : ج ١ ص ٦٠ و Stewart: op. cit. P. 72

هؤلاء بمعسكر تيمور عادة ، احتفالات وأفراح ، ويقوم تيمور باستقبال هؤلاء وتحيتهم فرداً فردا ، فيوزع عليهم أشياءه الشخصية كهدايا ، فيعطي أحدهم حمالة سلاحه ، ويعطي آخر نطاقه ، ويهدي إلى ثالث قلنسوته[1] . وأخذ تيمور يعاني مع ازدياد أتباعه بالتدريج من مشكلة تأمين مايحتاجونه من طعام وتجهيزات . ولما استشار كبار قواده استقر الرأي على أن يتوجهوا إلى الأمير حسين الذي كان ينزل في قندهار ببلاد الافغان[2] . وعند اجتماع الحليفين من جديد، كان عدد قواتهما يناهز الستة آلاف من الرجال .

في سيستان

ولما شبت ثورة في بلاد سيستان عام ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) على حاكمها المدعو " جلال الدين محمود " ، استنجد هذا الحاكم بحسين وتيمور اللذين كانا يرتزقان على ما يبدو في ذلك الوقت من القتال . وتعهد جلال الدين محمود أن يدفع لهما مبالغ من المال لقاء هذه المساعدة . وعاد حاكم سيستان فندم على استدعائه لهذين المغامرين مع قواتهما إلى بلاده . وفضل أن ينزل عند رغبة رعاياه الثائرين مقابل أن يقفوا معه ضد قوات حسين وتيمور . وفي المعركة الجديدة التي دارت بين جلال الدين وبين المتحالفين أصيب تيمور في أثناء القتال بسهمين،استقر احدهما في ذراعه وأصابه الثاني في قدمه ، ولكنه لم يشعر بمبلغ خطورة جراحه ، إلا بعد انتهاء القتال وانسحابه إلى موضع بجوار بلخ يدعى " أرصوف " . وأضطر تيمور إلى الأخلاد إلى الهدوء مدة من الزمن لمعالجة جراحه[3]. وفي الواقع ، فإننا لانستطيع تحديد مدى خطورة جراح تيمور[4] . ففي الوقت الذي يذكر فيه شامي ويزدي أن تيمور قد أصيب بسهم واحد فقط في يده ، وأنه سرعان ماتماثل إلى الشفاء[5] ، تشير المذكرات وابن عربشاه إلى أنه قد أصيب بسهمين في ذراعه وقدمه (أو فخذه كما ذكر ابن عربشاه)[6] .

في أرصوف

وعلى كل حال ، فإن تيمور الذي بلغ الثامنة والعشرين من العمر لم ينسَ هدفه الأصلي على الرغم مما حلّ به ، وهو تخليص البلاد من حكم المغول . ولذلك ومنذ أن أخذ يتماثل للشفاء في وادي أرصوف ، بدأ يعيد تنظيم قواته ويعدّها للقتال ، وكانت هذه القوات في تزايد مستمر بما كان يلتحق بها من عناصر جديدة ، بعد أن زاد المغول من طغيانهم في ماوراء النهر وازدياد هجرة السكان من تلك البلاد عبر جيحون الى خراسان[7] . وسعى تيمور من أجل سد حاجات جنده الى الطعام والعتاد ، إلى مد نفوذه إلى المناطق المجاورة ، ولكنه كان يحرص في الوقت نفسه على عدم الاضرار بمصالح السكان المحليين ولاسيما المزارعين . ولما أنس هؤلاء بتيمور وجنده ، أخذوا يجلبون إلى معسكره جميع ماتنتجه مزارعهم من محاصيل[8] . ووافاه إلى وادي أرصوف الأمير حسين الذي كان قد انفصل عنه بعد

(١) : Cahun : op. cit. P. 937 , et Prawdin: op. cit. P. 185
(٢) : Stewart: op. cit. P. 65
(٣) : Stewart: op. cit. P. 68 (٤) : Spuler: op. cit. P. 102
(٥) : شامي : ص ٢٢ ويزدي ج ١ ص ٥٦ ; (٦) : Stewart: ibid وابن عربشاه ص ٧
(٧) : يزدي ج ١ ص ٦٠ و Stewart: op. cit. P. 72
(٨) : يزدي ج ١ ص ٥٨ و Stewart: op. cit. P. 70

مغامرة سيستان ، وسار بقواته إلى باقلان الواقعة في شمال بلاد الافغان .

وكان اجتماع الحليفين من جديد مشجعاً لهما ، على خوض عدد من المعارك ضد بعض الحكام المحليين الذين كانوا يوالون الحكم المغولي . وتمكن الحليفان في النهاية من بسط سيطرتهما على منطقة بلخ جنوبي النهر [١] . وظل تيمور في تلك الأثناء يستطلع أخبار الجتا (المغول) ، عن طريق بث الجواسيس وإرسال الطلائع عبر النهر إلى الشمال .

معركة شمال بلخ

ولما اطمأن إلى استعداداته سمع بتقدم جيش للمغول يبلغ عدده عشرين ألفاً لاجتياح منطقة ترمذ شمالي النهر [٢] . وكان قد انضم إلى هذا الجيش الضخم عدد من الحكام المحليين الذين رفضوا الانضواء تحت لواء تيمور . وتعهد بعض هؤلاء الحكام لالياس خواجا ، بأن يسلموه تيمور وحسين مكبلين بالجديد . وتقدمت قوات الجتا وحلفائهم إلى ضفة النهر في مواجه المنطقة التي كان تيمور يعسكر فيها مع قواته التي كانت لاتتجاوز ربع قوات الأعداء [٣] . ولم يلبث المغول أن أخذوا يعبرون النهر إلى ضفته الجنوبية حيث دارت معركة في شمالي بلخ ، انتهت إلى انتصار تيمور وحليفه وارتداد الأعداء عبر النهر إلى الشمال [٤] . ويعزو تيمور سبب انتصاره على الرغم من تفوق اعدائه العددي إلى نوعية قواته الجيدة ، والتي كانت تمتاز على أعدائها بشجاعتها وإخلاصها [٥] .

وقام تيمور على إثر انتصاره بعبور النهر مع قواته على زوارق من معبر بالقرب من ترمذ ، وأرسل طلائعه من هناك لتعقب الجتا واستطلاع أخبارهم . ويبدو أن إحدى هذه الطلائع قد ارتكبت شيئاً من التهاون وعدم الحيطة ، فلم تنتبه إلى تقدم جيش جديد للأعداء كان الياس خواجا قد دفعه إلى الجنوب ، عند سماعه بالنصر الذى حققه تيمور على قواته في شمال بلخ . وتمكن جيش الأعداء الجديد من مفاجأة تيمور وهو على الضفة الشمالية ، واضطر تيمور الذي لم تنفعه الشجاعة وإخلاص الأتباع في هذه المرة [٦] ، أن يقاتل متراجعاً عبر النهر إلى الضفة الجنوبية ، كما أصدر أمره على الفور لإحراق الزوارق حتى لاتقع في أيدي الأعداء . واضطر هو نفسه أن يعبر النهر على خشبة [٧] . ولما بلغ الجتا ضفة النهر ، ظل الطرفان يراقب أحدهما الآخر من خلال النهر شهراً كاملا ، دون أن يتجاسر أحدهما على العبور إلى الطرف الآخر للقتال . ووجد تيمور وحسين بعد هذه المواجهة أنه من الأفضل لهما الابتعاد عن النهر ، والتوغل جنوباً إلى السهول المحيطة بمدينة « خلم » (شرق بلخ) للراحة والاستعداد [٨] . وكان تيمور في تلك الأثناء يدرك أن الوقت يمضي لصالحه ، فالجيش المغولي الذي كان يقف على ضفاف جيحون ، لن يلبث أن ينسحب ولن يترك نفسه مسمراً في مكانه ، وهو الذى جاء - في الأصل - للسلب والنهب [٩] .

محاولة العبور الأولى

---

(١) : يزدي ج ١ ص ٦٠ - ٦١ (٢) Stewart: op. cit. P. 71-72

(٣) : يزدى ج ١ ص ٥٩

(٤) : يزدى ٦٠ - ٦١

(٥) : Stewart: op. cit. P. 73 (٦) Prawdin : ibid

(٧) : Stewart: op. cit. P. 75

(٨) : يزدى ج ١ ص ٦٠ - ٦٢ و Stewart: op. cit. P. 74 - 75

(٩) : Prawdin : op. cit. P. 186

معركة قنطرة الحجارة

ولما شاهد تيمور فشل محاولته الأولى للعبور إلى ماوراء النهر قرر أن يتجه شرقاً لجمع المزيد من الأنصار وللبحث عن معبر جديد مناسب ينفذ منه إلى الشمال . ومر في طريقه من ضواحي مدينة قندوز حيث دخل حاكمها في طاعته ، وانضمت العشائر التي كانت تنزل حولها إلى قواته . وتوغل تيمور مع قواته في إقليم بدخشان الجبلي ، حتى بلغ مدينة " تلخان " الواقعة في أقصى شرق هذا الإقليم. وقدم له حكام المنطقة برهاناً على صدق تأييدهم ألفين (٢٠٠٠) من الخيول[١] . وقرر تيمور على إثر ذلك أن يجدد المحاولة لعبور جيحون . وتقول المذكرات إن المحاولة الثانية هذه قد حدثت عام ٧٦٥ هـ (١٣٦٣م). وقد سار من تلخان باتجاه الغرب فمرّ على مدينة " ارهنك " وعبر جيحون من مكان يقع بين هذه المدينة ومدينة سالي سراي (سراي الحالية) ، ثم عاد باتجاه الشرق فعبر نهر الوخش ونزل إلى سهل " كولك " ، حيث تقوم اليوم في وسط هذا السهل مدينة تدعى " كولشوزاباد " (Kolchozabad)[٢] . وجاءته الأخبار بأن جيشاً للجتا يبلغ عدده ثلاثين ألفاً ، يعسكر قرب ممر " قنطرة الحجارة " (پول سنگين) . وتم الاتفاق بين تيمور وحسين على خطة للعمل. وقبل حسين أن يشاغل بقواته الجزء الرئيسي من جيش الأعداء ، ليهتم تيمور بطليعة ذلك الجيش التي يبلغ عددها ستة آلاف جندي ، وكانت بقيادة اثنين من الأمراء الأتراك، وكانا قد انضما بقواتهما إلى المغول ، هما " كي خسرو " و " تغلق تيمور " . واستطاع تيمور أن يغري طليعة الأعداء بعبور النهر (نهر الوخش) إليه ، وتراجع من أمامها إلى داخل خُتّلان (المنطقة التي تقع على يسار النهر) ، ثم فاجأها بهجوم خاطف بألفين من فرسانه عند غروب الشمس فأجبرهما على التراجع عبر القنطرة ، ولكنه استطاع أسر قائديهما (الأول كيخسر والثاني تغلق تيمور) وغنم تيمور أعداداً كبيرة من الخيول . ولما حُمل الأسيران إليه أحسن تيمور استقبالهما. وأوقف تيمور جزءاً من قواته عند رأس القنطرة لمنع الأعداء من محاولة العبور مرة ثانية[٣] . وبعد استراحة قصيرة لعدة أيام في ذلك المكان ، عبر تيمور النهر سراً في إحدى الليالي مع قلة من جنده . وقدر شامي ويزدي عدد جند تيمور الذين عبروا معه بألف وخمسمائة جندي . وترك عند القنطرة قوة أخرى بمثل هذا العدد[٤] . ولما شاهد جند المغول من الضفة الثانية للنهر قوة تيمور التي تعسكر عند القنطرة ، اعتقدوا أن الباقي موجودون في كمين في مكان قريب، فامتنعوا عن مهاجمتهم . وفي الليلة التالية شاهد المغول نيراناً قوية تشتعل على التلال العالية خلف ظهورهم[٥] ، مما أوهمهم بأنهم قد أصبحوا من أمامهم وخلفهم محاصرين ، ولذلك قضى جند المغول ليلتهم دون أن يغمض لهم جفن[٦] ، وفي الصباح أمطر جند تيمور من التلال التي كانوا يعتصمون بها جيش الأعداء المتعب بوابل من السهام . ولما كان الياس خواجا يجهل العدد الحقيقي لأعدائه ، فقد فضل الانسحاب مع جيشه الضخم بعد أن أخذ الغضب منه كل مأخذ ، وقد أقسم بأنه سوف يرجع لقتال تيمور

(١) : يزدي : ج ١ ص ٦٣ و Stewart: op. cit. P. 75 - 76

(٢) : يزدي : نفسه وشامي ص ٢٤ و Stewart : op. cit. P. 76

(٣) : Stewart:op.cit.P.76-77 (٤) : يزدي ج ١ ص ٦٥ وشامي ٢٥

(٥) : يزدي نفسه (٦) : Prawdin: op. cit. P. 79

إلى أن يتمكن من أسره .

معركة قبي متن

وأخذت قوات المغول تنسحب باتجاه كيش (شهري سبز)[١] ، لتعسكر في مكان يبعد عنها بأربعة فراسخ (٢٤ كم) سماه يزدي " قُبي متن "[٢] ، ويقع على الطريق بين كيش وسمرقند . وكان على تيمور أن يتحرك بسرعة بعد أن اكتشف الأعداء ضآلة قواته . وقد تلاحق به عدد من أتباعه حتى بلغ مجموع ما معه ألفين من الفرسان ، فاتجه بهم نحو باب الحديد . وانتقى من هؤلاء وهو في الطريق ستمائة جندي ، جعل قيادتهم لأحد أقربائه وهو سليمان برلاس . وأمرهم بالتقدم إلى كيش . ولما بلغ هؤلاء ضواحي المدينة ، أخذوا يطوفون حولها وهم يسحبون على الأرض أغصان الأشجار ، فأثاروا غباراً كثيفاً مما أوهم الحاكم المغولي في المدينة بضخامة عدد المهاجمين ، فترك المدينة مع جنده على عجل[٣] . ولما بلغ تيمور ضواحي كيش قادماً من باب الحديد ، كان حسين الذي عبر جيحون أيضاً مع قواته بانتظاره هناك . ووجد تيمور — وهو في هذه الظروف — متسعاً من الوقت لتوثيق التحالف مع الأمير حسين أمام قبر الشيخ شمس الدين في كيش ، حيث أقسم كل منهما أمام القبر على الإخلاص والتعاون[٤] . وأسرع المتحالفان إلى موقع " قبي متن " ، حيث كان يحتشد المغول . وأخذ أنصار تيمور وحسين يتزايدون بعد أن أخذ المجندون من أهل البلاد في جيش المغول بالفرار والالتحاق بقوات الأميرين المتحالفين .

وأراد الياس خواجا بعد أن اكتشف قلة عدد أعدائه ، أن يستغل تفوقه العددي . ولكن المعركة التي دارت في ذلك المكان دارت الدائرة فيها على الجتا مرة ثانية ، واستطاع تيمور أن يحرز النصر على أعدائه بفضل الهجمات التي كان يقودها بنفسه ، عندما يلحظ بوادر الهزيمة في صفوف مقاتليه ، مما كان يلهب حماسهم ويضاعف من قدرتهم على الصمود . وانتهت المعركة — في هذه المرة — بأسر الياس خواجا نفسه ، مع أغلب قواده كالأمير حميد وبيكجيك وغيرهم .

وأمر تيمور بإطلاق سراح الياس خواجا على الفور بعد أن عامله باحترام ، وأبقى القواد الآخرين في الأسر[٥] . ويعلل يزدي اطلاق سراح الياس خواجا بطبيعة تيمور المركوزة على الوفاء[٦] التي عرفها بها الأتراك بصورة عامة . وفي الواقع وإن كان غروسيه يقول بأن الياس خواجا قد فرّ من الأسر[٧] ، فإن تيمور هو الذي أمر بإطلاق سراحه خوفاً من أن يكون

---

(١) : يزدي ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ و Stewart : op. cit. P. 79

(٢) : ذكر شامي قبي متن على شكل : قُباي متان (ص ٢٦) وترجمها ستيوارت إلى الانكليزية ورسمها (Kopy)(ص ١٨١) . وقالت المذكرات عنها إنها قرية . وقال عنها يزدي إنها موقع في سهل يدعى سهل (تاش أريغي) (ص ٦٧ ج ١) وقال عنها غروسيه إنها بين كيش وسمرقند . (Grousset : L'Empire des Steppes P. 488)

(٣) : يزدي ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ . (٤) يزدي ج ١ ص ٦٨ و Stewart : op. cit. P. 81 وربما كان هو الشيخ شمس الدين الفاخوري الذي سبقت الاشارة إليه . انظر الفصل الثاني في هذا الباب (الباب الثالث) .

(٥) : شامي ص ٢٦ ويزدي ج ١ ص ٧٠ — ٧١ و Stewart : op. cit. P. 79

(٦) : يزدي ج ١ ص ٧١ : (٧) Stewart ، P. 80 Grousset : ibid

أسره دافعاً لاستقدام المزيد من قوات الجتا إلى ماوراء النهر ، وتعريض البلاد إلى المزيد من أعمال التنكيل ، وأعطى تيمور — في الوقت نفسه البرهان على أنه لايزال يحترم الشرعية التي تتجسم في بيت جغتاي — حكام البلاد الأصليين — وأن ثورته لم تكن إلا ضدّ القواد المغول ، الذين كانوا يسيئون إلى أهالي البلاد ، بما كانوا يرتكبونه من أعمال الخطف والسلب والنهب . وربما كان للخبر الذي حمله اثنان من أمراء الجتا إلى الياس خواجا قبيل معركة قبي متن ، بموت والده تغلق تيمور خان خلال غزوته لبلاد القبجاق ، ودعوته لاستلام العرش[1] ، أثر على جعل تيمور يتصرف هذا التصرف النبيل مع الياس خواجا الذي آثر بسبب هذه الظروف الجديدة أن ينبذ فكرة الانتقام من تيمور موقتاً ، ليعود إلى عاصمته "الماليغ" لاستلام العرش قبل أن يحل به أحد المغتصبين[2] الطامحين .

ملاحقة الجتا

وأعقب إحراز النصر على جيش الجتا في معركة قبي متن ، أقامة أفراح وولائم في المخيم الذي أمر تيمور بإقامته لهذا الغرض . وحضر الاحتفالات القواد ورؤساء العشائر والأمير حسين . وخلال هذه الاحتفالات جيء بالقواد المغول الأسرى وفيهم بيكجيك الذي كان من أشد هم عداوةً لتيمور ، ولكن تيمور أحسن استقبالهم ، وأطرى شجاعتهم وإخلاصهم في طاعة سيدهم الياس خواجا ، وأمر بإكرامهم ثم عرض عليهم الانخراط في صفوف قواته ، ولكنهم لم يقبلوا ، ولذلك أمر باطلاق سراحهم على الفور . ويبدو أن تيمور كان يهدف من وراء هذا التصرف هو العمل على كسر حدة عداء المغول ، وحتى لايجد هؤلاء أنفسهم مضطرين لتوجيه جيوش أخرى لمقاتلته ، إذا ما أساء معاملة القواد الأسرى[3] .

وأصدر تيمور أمراً إلى بعض قواده بالتقدم بسرعة نحو سمرقند[4] . واندفع هو بالجزء الأكبر من قواته ومعه الأمير حسين نحو الشمال ، في إثر الياس خواجا وقوات الجتا المنسحبة التي كانت تتجمع على ضفاف سيحون الجنوبية في نواحي خُجند . واضطرت هذه القوات إلى عبور النهر والابتعاد عنه عندما علمت بتقدم تيمور وحسين في إثرها . ولما بلغ تيمور ضفاف النهر لم يجد لهذه القوات أثراً . ويشير يزدي إلى أن تيمور عبر النهر وخيم في ضواحي طاشقند[5] . بينما تقول المذكرات إن تيمور ظل على ضفاف النهر الجنوبية إلى أن اطمئن إلى تراجع الجتا إلى بلادهم[6] . وأصيب تيمور في هذه الآونة بالمرض بسبب ماكابده من

(١) : يزدي ج ١ ص٦٧ و Stewart: P. 80 (٢) Prawdin: ibid, Grousset: ibid

(٣) Stewart: op. cit. P. 83 وقد صورت المذكرات الحوار الذي دار بين تيمور وبين الأسرى ، وخاطب أحد هؤلاء ويدعى اسكندر اوغلان قائلاً : "لقد خاطرت بحياتك لتنقذ حياة سيدك" ثم خاطب البقية : "ماذا تعتقدون أني فاعل بكم ؟ أجابوا : إذا قتلتنا فإنك لم تنقص جيش الجتا ، ولكن ستكسب لنفسك آلاف الأعداء ... ولكن إذا عفوت عنا واطلقت سراحنا ، فإنك بذلك تقدم لنا جميلاً ستقدرك عليه قبائلنا وتعتبره فضلاً منك ، فتغدو صديقة وحليفة لك ، وسوف تكون ، سموك ، حكماً وقاضياً بينك وبين نفسك للتفريق والاختيار بين صداقتنا وعداوتنا . وليس لدينا نحن بالنظر لحالتنا ، أي فرق بين أن تقتلنا أو لا ، لأننا قد وطدنا أنفسنا وشهرنا سيوفنا ونحن نعتبر أن دماءنا مراقة وأجسامنا ممزقة" .

(٤) : يزدي ج ١ ص٧٢ و Stewart: op. cit. P. 84 ويشير يزدي أن هذه الأحداث وقعت في شهور عام ٧٦٥ هـ (١٣٦٤ م) ، دون أن يذكر اسم الشهر بالتحديد . ويفهم من سياق الأحداث في المذكرات أنها وقعت في آخر عام ٧٦٥ هـ لأن المذكرات تنتقل بعد ذكرها مباشرة إلى ذكر أحداث العام التالي ٧٦٦ هـ .

(٥) : يزدي ج ١ ص٧٢ (٦) : Stewart : ibid

جهد ، وبسبب ارتفاع الحرارة،ولكنه لم يلبث أن تماثل إلى الشفاء بعد عدة أيام ، فعاد إلى سمرقند . وتخلل العودة إلى سمرقند الأفراح والولائم وحفلات الصيد . ولما أشرف موكب تيمور على المدينة خرج سكانها إلى الضواحي لاستقباله . وأرسل تيمور يستدعي إليه زوجته أولجاي(١) .

ومنذ أن زال خطر المغول عن ماوراء النهر ، وجدت خلافات الأمراء الأتراك فيها ورغبتهم بالانفصال عن الحكومة المركزية ، طريقها إلى الظهور . وكان بعض هؤلاء الأمراء قد أدرك طموح تيمور وسعيه للانفراد بحكم البلاد ، فوطدوا العزم على أن يحولوا دون تحقيق رغبته في ذلك . وأخذ هؤلاء يرددون بأن عرش البلاد لا يعطى إلا لواحد من أفراد أسرة جغتاي بن جنكيز خان ، أصحاب الحق الشرعي في ذلك . وحزم الأمراء أمرهم ورفعوا إلى العرش أحد أفراد تلك الأسرة وهو "كابل شاه" . وكان تنصيبه عام ٧٦٥ هـ (١٣٦٤ م) . وكان كابل شاه في أول حياته ـ على ما رواه يزدي ـ زاهداً يلبس ثياب الدراويش ، ومولعاً بقرض الشعر ، ولم تكن له خبرة بشؤون الحكم والقيادة(٢) . وكان بحياته السابقة المتواضعة وشخصيته الضعيفة ، الرجل المناسب ليلعب دور الخان الدمية الذي لا يتمتع بسلطة حقيقية(٣) . وبينما يشير شامي ويزدي إلى أن انتقاء الخان كان بعد اجتماع (قوريلتاي) ضم تيمور وحسين وبقية الأمراء(٤) ، فإن المذكرات تعرض موقفاً معاكساً لتيمور، وتذهب إلى أن تيمور ـ الذي كان كما يقول غروسيه أيضاً ـ يطمع بالوصول إلى منصب الخانية نفسه، ولكنه كان في تلك الآونة لا يجسر على أن يتخطى بيت جغتاي(٥) ـ فقد عارض في بلوغ كابل شاه منصب الخانية ، وأعلن عن معارضته بالانسحاب مع أنصاره من سمرقند إلى كيش(٦) . ولم يثنه عن موقفه السلبي هذا إلا سماعه بظهور تهديدات المغول من الشمال من جديد .

تنصيب كابل شاه

وعلى الرغم من أن الهدف من تنصيب أحد أفراد بيت جغتاي بن جنكيز خان على العرش في ماوراء النهر ، كان منع الياس خواجا ـ الذي أضحى الآن خاناً على القسم الشرقي من خانية جغتاي ـ من التدخل في شؤون تلك البلاد ، عندما يشاهد أن قريباً له يتربع على ذلك العرش . إلا أن ذلك لم يمنع خان القسم الشرقي أن يتوجه إلى ماوراء النهر عندما سمحت له ظروفه بذلك(٧) ، مع حلول فصل الربيع في عام ٧٦٦ هـ (١٣٦٥ م) . ولذلك تحرك تيمور على رأس قواته مرة ثانية إلى الشمال، وعبر سيحون بالقرب من خجند إلى الضفة الثانية . وتقدم شمالاً إلى أن أقام معسكره في المساحة الأرضية الصغيرة ، الكائنة بين مدينتي

غارة الجتا عام ٧٦٦هـ

---

(١) : Stewart: ibid ويزدي ج ١ ص٧٢ الذي ذكر أن استدعاء أولجاي كان منذ أن كان تيمور على ضفاف نهر سيحون وقبل أن يصل إلى سمرقند .

(٢) : Stewart: op. cit. P. 85 ويزدي ج ١ ص٧٣ وقد ذكر يزدي أن كابل شاه هو حفيد الخان دوا وبذلك يكون ابن شقيق الخان تارما شيرين .

(٣) : Barthold: op. cit. P.13, Sykes: op.cit. II P.122, Cahun: op.cit. P. 944

(٤) : شامي ص٢٧ ويزدي ج ١ ص٧٣ ونقل عنه من المحدثين Grousset: op. cit. P. 489, Sykes : ibid.

(٥) Grousset: op. cit. p. 493 : (٦) Stewart: op. cit. P. 85

(٧) : Grousset : op. cit. P. 480

طاشقند وخيناز • وجاءه جواسيسه بأن الجتا يعسكرون بأعداد كبيرة على ضفة نهر "بادام"[١] (وهو نهر شيرشاك الحالي)[٢] • وكانت أخبار تحرك الجتا قد بلغت أيضا الأمير حسين، فاندفع هو أيضا بقواته شمالاً ، وعبر سيحون وتقدم حتى نزل على ضفاف ذلك النهر • ورفض حسين الخطة الحربية التي اقترحها تيمور بإقامة تنسيق بين قواتهما لمقابلة الأعداء ، وعبر النهر إلى الضفة الثانية مغتراً بقوته ، وسرعان ما أطبقت عليه قوات الأعداء ، وفاجأته بهجوم ضار زعزع ثقة قواته بنفسها ، وأوقع الفوضى في صفوفها ، وسقط الأمير حسين على الأرض، وتخلى عنه حرسه[٣] • وكان الياسخواجا نفسه يراقب المعركة ، ولذلك ولما رأى انهيار قوات الأمير حسين ، أمر على الفور بتوجيه ضربة مماثلة إلى قوات تيمور الذي ثبت في مواقعه مما اضطر المهاجمين إلى الفرار • وأردفه تيمور بهجوم فوري قصد به الوصول إلى قلب جيش المغول، على الرغم من تفوق الأعداء العددي • وأرسل تيمور على إثر الفوز الذي استطاع أن يحققه إلى حسين يستحثه على النهوض واستئناف القتال، لأن النصر النهائي قد أضحى وشيكاً • ولكن حسين رفض بغضب تلبية طلب تيمور، وكانت علامات الانهيار بادية عليه • واضطر تيمور أمام ضغط الأعداء إلى الانسحاب لإعادة تنظيم قواته ، واضطر لأن ينام تلك الليلة في ميدان المعركة مفترشاً سرج حصانه ، يحيط به قواده على شكل دائرة لحراسته من هجوم مباغت[٤] • وتقول المذكرات إن الأمير حسين أدرك متأخراً مبلغ الخطأ الذي وقع فيه ، بإحجامه عن العودة إلى القتال مع تيمور ، ولذلك أرسل إلى تيمور يعتذر عن سوء تصرفه، ويبدي له حزنه على ما بدر منه[٥] • ولم يجدِ الثبات والشجاعة التي أبداها تيمور وجنده في القتال الذي دار في اليوم التالي ، في ظروف مناخية قاسية ، فقد هطلت الأمطار وهبت العواصف وامتلأت أرض المعركة بالطين والمستنقعات • ولم يبق مع تيمور من الستة آلاف جندي الذين بدأ بهم المعركة في اليوم السابق سوى ألف في مساء ذلك اليوم • لذلك وبعد مداولة بينه وبين قواده تم الاتفاق على الانسحاب باتجاه كيش[٦] • ويقدر يزدي خسائر تيمور وحسين في تلك المعركة ، التي دارت في الأول من رمضان ٧٦٦ هـ (حزيران ١٣٦٥ م) بعشرة آلاف جندي[٧] • واضطر حسين للتراجع بدوره بعد انسحاب تيمور فاتجه إلى سالي سراى ، ومنها عبر جيحون إلى موضع بجوار بلخ • وانهمك كل منهما بإعادة تنظيم قواته، وجمع المزيد من الأنصار[٨] • وفضل تيمور ترك كيش التي كان منهمكاً في تحصينها ، والتقدم لعبور جيحون إلى الضفة الجنوبية ، في إثر سماعه بأن قوات الجتا التي كانت تتعقبه ، قد بلغت ضواحي

(١) : شامي ص٢٨ ويزدي ج ١ ص٧٧ و Stewart: op.cit. P.86 وسمرقندي ص ٣٢٦ •
(٢) Barthold: op.cit. P.12 ونهر شيرشاك هو أحد روافد نهر سيحون •
(٣) : يزدي ج ١ ص٧٨ و Stewart : ibid وسمرقندي ص٣٢٨ وقد ذكرت المذكرات بعض تفاصيل خطة تيمور عندما قال لحسين : "سوف أتقدم وأهاجم الأعداء بقواتي، إذا أنت وعدتني بصدق بحماية مؤخرتي، وإذا اخترت أن تهاجم فإنني سوف أحميك"
(٤) : Stewart: op. cit. P. 87 وسمرقندي ص٣٢٨ (٥) : Stewart: ibid
(٦) : يزدي : ج ١ ص٨٢ و وسمرقندي : نفسه
(٧) : يزدي: نفسه وذكر الرقم نفسه سمرقندي ص ٣٣٠ (٨) : يزدي : نفسه •

سمرقند [١] . واصطدم جيش الجتا الذي ألقى الحصار على العاصمة بمقاومة اتخذت شكل حركة شعبية بين سكان المدينة [٢] . وقام رجال الدين يحرضون الناس على المقاومة ، وأخذ أحد هؤلاء وهو "مولانا زاده" بالقاء الخطب في مسجد سمرقند ، يحث الناس على القتال . ووقعت اشتباكات عديدة بين السكان وبين الجتا [٣] . إلا أنّ تفشي الوباء بين خيول المغول وهلاك القسم الأكبر من هذه الخيول ، شلّ حركة هؤلاء . واضطرتهم قلة هذه الحيوانات إلى رفع الحصار والانسحاب . ويقول يزدي إنه كان يشاهد في بعض الأحيان أربعة من جنود المغول يمتطون جواداً واحداً . ولما هرع تيمور لنجدة أهل المدينة الذين أرسلوا يطلبون العون منه ، شاهد الكثير من جند الجتا وهم يسيرون على أقدامهم ، ويحملون أمتعتهم على ظهورهم ، خلال انسحابهم إلى الشمال [٤] . وأرسل تيمور أفواجاً مع قواته لمتابعة المنسحبين الموبوئين ومطاردتهم، وإجبارهم على مغادرة البلاد بسرعة ، بسبب ما يحملونه من وباء . كما أرسل أفواجاً أخرى للدخول إلى سمرقند .

هذا ، وكان شتاء عام ١٣٦٥ م (٧٦٦ هـ) قد حلّ ، ولذلك فضل تيمور قضاء هذا الفصل في قارشي القريبة من كيش (شهري سبز) ، في إثر الخلاص من الحكم المغولي الأجنبي . ولما بلغ قارشي أصدر أمره بالسماح للجند بالذهاب إلى أسرهم وبيوتهم [٥] .

---

(١) : يزدي ج ١ ص ٨٣ و Stewart: op. cit. P. 83
(٢) : Barthold : op. cit. P. 12
(٣) : يزدي ج ١ ص ٨٤ وحافظ آبرو ص ٢٠ وسمرقندي : ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ .
(٤) : Stewart: op. cit. P. 90
(٥) : يزدي نفسه و Stewart: ibid .

الفصل الخامس

الصراع بين تيمور والامير حسين

٧٦٦ - ٧٧١ هـ

١٣٦٥ - ١٣٦٩م

صفات هذا الصراع - أسبابه : اختلاف الأمزجة ، انعدام الثقة حنث اليمين ، تناسي الوعود ، محاولة حسين الانفراد بالحكم ، سوء تصرفه ، الاختلاف بالنهج السياسي والعسكري ، دور الأمراء ، وفاة زوجة تيمور - مراحل الصراع : في سمرقند ، محاولة التفريق بين تيمور وأتباعه ، الفرار إلى خراسان ، استرجاع قارشي وبخارى ، في مرجكجك ، في خراسان ثانية ، الفرار إلى طاشقند ، الحروب جنوب سيحون ، في طاشقند ثانية ، توسط العلماء والصلح ، رد الجتا ، في بدخشان ، ضد كيخسرو وزميله ، عزم حسين إعلان نفسه سلطاناً رفض تيمور الانتقال إلى بلخ ، في ترمذ ، معركة بلخ ، استسلام حسين محاولته الفرار ، محاكمته ، مقتله ، تحليل شخصية حسين .

صفات هذا الصراع

كان لانسحاب الجتا من ما وراء النهر عام ٧٦٦هـ (١٣٦٥م) ، أن أضحى تيمور والأمير حسين أكبر شخصيتين في البلاد . وكان من المتوقع حسب تقاليد عالم البداة - كما يقول براقدان - أن ينشب الصراع بينهما بعد زوال خطر الجتا . وكان كل من تيمور والأمير حسين يطمح في استلام السلطة العليا والانفراد بحكم البلاد . وقد توفرت في ذلك الوقت عوامل وظروف جعلت الاصطدام بينهما أمراً لا مفر منه[1] ، وقد امتدت حوادث الصراع بين الأميرين خمس سنوات بين ٧٦٦-٧٧١هـ (١٣٦٥-١٣٦٩م) ، وانتهت أخيراً بفوز تيمور واستلامه الحكم .

لقد بدا الأمير حسين في مراحل الصراع الأولى ، أنه أقوى من تيمور[2] . فهو بالإضافة إلى نسبه العريق بالنسبة لنسب تيموره إذ يرقى إلى الأمير قازغن أول حاكم تركي للبلاد ، فقد كان يحكم منطقة واسعة جنوب جيحون ، تضم مدن بلخ وقندوز وكابل ، وتؤيده أغلب عشائر البلاد وتعترف له بالخضوع والطاعة[3] . وعلى العكس فإن تيمور بدا في أول مراحل الصراع مع حسين أنه الأضعف وقد اضطرته ظروف الصراع أحياناً لأن يغادر البلاد ، وأن يهيم مشرداً في صحراوات خراسان . ولكن بعض العمليات الفذة التي تستحق أن تسجل - كما يقول سايكس - كقصة شائقة[4] سرعان ما جعلت تيمور يظهر بمظهر المغامر المقدام ذي الشخصية القوية ، الذي يستند بقوة على أرض بلاده ، ويدعمه أهله وعشيرته ، ويستمد العون من عامة الناس من سكان البلاد ومن رجال الدين ، ويسعى لكسب التأييد عن طريق توزيع الأموال وكل ما يملك - حتى الأمتعة الشخصية - على أنصاره[5] ،

(١) Prawdin : op. cit. P. 187 - 188

(٢) Grousset: op. cit. P. 490

(٣) يزدي: ج ١ ص ١٢ الذي ذكر أن كل من عشائر: جلاير وسلدوز وايبوردي وبرعمائهم كانوا معه .

(٤) Sykes : op. cit. II P. 122

(٥) Grousset : ibid .

ويقود قواته بنفسه ويشارك جنده في حياتهم، في الوقت الذي ترك فيه الأمير حسين مباشرة القتال مع تيمور، إلى عدد من قواده في أغلب الأحيان.

أسبابه: اختلاف الأمز[جة]

لقد ظهر اختلاف الأمزجة واضحاً بينهما، منذ أن كانا رفيقي سلاح، يقاتلان لدفع خطر الجتا عن بلاد هما، وللزود عن الإسلام في وجه الوثنية. وعلى الرغم من اتفاقهما في الوسيلة والهدف في النضال ضد العدو المشترك (المغول)، فقد كان كل منهما عدواً للآخر في داخله[1]. وكانت أسباب النزاع بينهما تتراكم منذ أمد بعيد خلال الحروب التي خاضاها ضد المغول. وكانت تصرفات وأعمال كل منهما — خلال تلك الحروب — يُساء فهمها في أغلب الأحيان، وتُحدث رد فعل سلبي في نفس الطرف الآخر، ويشير إلى انعدام الثقة بينهما. وينطبق هذا الوصف على موقف تيمور من الأمير حسين أكثر مما ينطبق على موقف الأمير حسين من تيمور. لقد اتضح من مراحل الصراع أن زمام المبادرة كان في الغالب بيد تيمور، رغم أنه كان في الموقف الأضعف. وظهر أنه كان أشد كرهاً من حسين لإبقاء التحالف بينهما[2]. ولذلك كان — كما يقول كاهون — يختلق الأحداث ثم يعمل على استغلالها، في سبيل تشويه موقف حسين والإقلال من قدره في نظر أتباعه، وإظهاره بمظهر العدو الذي يخالف العهود ويحنث بالأيمان، ويظهر من الصداقة غير ما يبطنه من الغدر والخيانة والحسد[3]. وترد في أكثر من موضع فيما كتبه المؤرخون التيموريون، الكثير من الشواهد التي تؤكد عدم ثقة تيمور بالأمير حسين، فكان من وقت لآخر يطالبه بأن يقسم له على المصحف على الإخلاص والوفاء. وكان حسين — في أحيان أخرى — يتبرع من تلقاء نفسه لأداء مثل هذه الأيمان[4].

انعدام الثق[ة]

ولذلك أيضاً، فقد سعى تيمور لإيصال جواسيسه إلى حاشية الأمير حسين، ليزودوه بأخباره وأخبار المؤامرات التي كان يحيكها ضده، في الوقت المناسب، ليتخذ الاحتياطات لحماية نفسه[5].

حنث اليمي[ن]

وقد منح حنث الأمير حسين بأيمانه بشكل متكرر، تيمور فرصة إضفاء مسحة دينية مقدسة لصراعه مع الأمير حسين، فهو لا يعارضه بسبب سعيه للاستئثار بحكم البلاد، أو لإلحاحه على إلحاق الأذى به (بتيمور)، بل لأنه حانث بيمينه الذي أقسمه على المصحف، وعليه (على حسين) أن يتحمل مسؤولية ذلك الحنث والخيانة. ويحق لتيمور بسبب ذلك الحنث — وهو الذي يتمتع بثقة رجال الدين ويحظى ببركة دعواتهم له بالتوفيق والنصر — أن يفعل كل ما يستطيع لكشف

---

(١) Grousset : ibid . (٢ Prawdin : ibid

(٣ Cahun : op. cit. P. 941

هذا وقد جاء في المذكرات على لسان تيمور عن علاقته بحسين قوله: "وأجبرته على القدوم الى قبر الخواجا شمس الدين، واقسمنا على المساعدة المتبادلة والصداقة. وأجبرته على الموافقة على أنه في حالة ما إذا أراد أن ينكث في عهده، فإنه يقبل أن أعاقبه وأن اعتقله" Stewart: op. cit. P. 81

ويعلق كاهون على هذه الفقرة بان حنث حسين بأيمانه قد وهب تيمور حرية التصرف Cahun: ibid

(٤) انظر مثلا: شامي: ص٣٧ ويزدي: ص٦٨ و١٢٧ — ١٢٨ و Stewart: op. cit. P. P. 81 - 95 - 115 ويعلق تيمور في موضع آخر من المذكرات على المرات الثلاث التي أقسم فيها حسين على الصداقة مع تيمور: "لقد أقسم ثلاث مرات على المصحف وأعطاني وعوداً مؤكدة وحنث الآن بقسمه" انظر: Stewart: op. cit. P. 125

(٥) Stewart: op. cit. P. 113

ذلك الآثم الحانث بقسمه والاقتصاص منه بفضح عداوته لتيمور [١] ، وإخلافه للوعود التي يقطعها له، لقاء المساعدات التي كان تيمور يقدمها له للقضاء على الثورات التي كانت تقوم على الأمير حسين بين وقت وآخر [٢] . ولم يكتف حسين بتناسي وعوده لصهره تيمور، ثم بإحجامه عن مكافأته نظير الخدمات التي كان يقدمها له ، لإصراره على ان يظل زوج شقيقته في مرتبة أدنى منه [٣] ، بل أخذ يسعى لإقامة ملك شخصي له في بلخ التي أخذ يرمم أسوارها وقلاعها، ويجبر فئات من سكان ما وراء النهر على ترك مواطنهم للاقامة في عاصمته الجديدة [٤] . وبلغت به الرغبة في إكثار عدد سكان العاصمة حداً دفعه إلى السعي لإجبار قبيلة تيمور بنفسها - قبيلة برلاس - على النزوح إلى خراسان [٥] .

تناسي الوعود

وفي الوقت الذي تصوّر فيه المصادر التيمورية حسين بأنه كان ينظر إلى تيمور بعين الحسد والغيرة ، ويضمر له الغدر والمكر [٦] فان هذه المصادر تصف تيمور بحسن النية وخلوص الطوية . وكانت المذكرات أكثر هذه المصادر الحاحاً على ذلك . وقد جاء فيها على لسان تيمور في إحدى المناسبات قوله : " إن شعوري نحوه [نحو حسين] هو الصداقة ولكنه كان لا يصدقني، بل كان يضمر لي الحقد والعداوة والكراهية " [٧] . وجاء في موضع آخر منها قول آخر لتيمور عن حسين: "لقد اختار الآن أن يكون عدوي وسوف يجدني عدواً له " [٨] . وقد بلغت العداوة التي كان يكنها الأمير حسين لتيمور - كما تصورها هذه المذكرات - حداً دفعه إلى التصريح بأنه "طالما أن تيمور على قيد الحياة فإن سلطتي وأملاكي في خطر" [٩] .

محاولة حسين الانفراد بالحكم

وكان تيمور يشعر بأن بعض الأعمال التي يأتيها الأمير حسين ، تلحق به أضراراً بالغة وتفوت عليه فرص النصر على الأعداء ، فهو يتهمه بالتهاون خلال المعارك التي كانا يخوضانها في "سيستان" عام ٧٦٤هـ (١٣٦٣م) . وكانت نتيجة هذا التهاون ، أن أصيب تيمور بجراح في يده وقدمه ، وتعرضت حياته للخطر . وقد ورد اتهام تيمور للأمير حسين في ذلك صريحاً ، عندما خاطبه في إثر اصابته بتلك الجروح : " وبعد العودة إلى معسكراتنا قلت للأمير حسين: إن جميع

سوء التصرف

(١) Stewart: op. cit. P. 117-118 (٢) Stewart: op. cit. P. 125-126

هذا وتشير المذكرات في هذا الموضع إلى أن حسين قد وعد تيمور عام ٧٦٨هـ عندما قامت عليه ثورة في كابل ، أن يقتسم مع تيمور عائدات هذه المدينة المالية إذا قام تيمور بالقضاء على الثورة فيها . ولما تم له ما أراد ، تناسى وعده لتيمور وعيّن على المدينة أحد أتباعه . وتقول المذكرات إن تيمور قد خجل أن يذكّر حسين بوعده . وتضيف المذكرات إن حسين عرض على تيمور مرة أخرى عام ٧٦٩هـ، أن يمنحه حكم سمرقند إذا ساعده في صد غزوة الجتا للبلاد في ذلك العام، ولكن تيمور أجاب حسين محتداً بعد أن برم بإخلافه الكثير من الوعود السابقة : "لن أقبل سمرقند منك وسوف آخذ المدينة من الأعداء بقوة سيفي " انظر: Stewart: op. cit. P. 120

(٣) Stewart: op. cit. P. 119 (٤) Prawdin : op. cit. p. 174

(٥) Stewart: op. cit. P. 124

(٦) شامي : ص٢٨ و٣٥ و٥٦ ويزدي : ص٨٨ و١٤٢ (٧) Stewart: op. cit. P. 93

(٨) Stewart: op. cit. P. 125

(٩) Stewart: op. cit. P. 123

ما صادفني من سوء الحظ/[ويقصد الجراح] كان بسبب رغبتك بما ليس لك "[١] وكذلك فإن تيمور رأى أن احجام حسين عن العودة إلى القتال خلال المعركة التي كانت تدور بينهما وبين الجتا عام ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م ، على ضفاف نهر شيرشاك، قد حرم تيمور من أن يحقق نصراً بات وشيكاً ، وأحبط خططه وأوقعه في الحيرة مما اضطره إلى الانسحاب [٢] . ويعلق يزدي على تصرف حسين خلال تلك المعركة قائلاً : إن بوادر أفول سلطة الأمير حسين قد بدأت منذ ذلك اليوم، بعد ما بدر منه من سفاهة اللسان والتجبر والاستبداد والتهديد والوعيد، خلال مخاطبته لرسل تيمور الذين جاؤوا يطلبون منه العودة إلى القتال [٣] . وتضيف المذكرات في تعليقها على الحادثة، وتصف الأمير حسين ، بأنه أحمق أبله وذو رأس عنيدة ، إذ اساء فهم المقصود من رسالة تيمور التي تدعوه للنهوض ومتابعة القتال ، عندما اعتقد بأن تيمور يتهمه بالجبن والفرار من وجه الأعداء [٤] .

الاختلاف في النهج

لقد ظهر على مر الأيام خلاف بين تيمور والأمير حسين في النهج السياسي والعسكري ، فزاد من اتساع الهوة التي كانت تفصل بينهما . وقد حدث أن تيمور عقب الانتصار الذي أحرزه مع حسين على الجتا في معركة قباي متان (قبي متن) عام ٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م وأسره لعدد من قواد الأعداء البارزين، وبعد أن أمر بإطلاق سراح هؤلاء دون التعرض لهم بأذى [٥] . وكان تيمور يرمي من عمله هذا — كما ذكر آنفاً — أن يحول دون تسيير حملات جديدة من قبل المغول إلى ما وراء النهر للانتقام . ولكن الأمير حسين، كما يقول يزدي ، أمر بقتل هؤلاء جميعاً [٦] .

دور الأمراء

ولا شك في أنه كان في صالح بعض أمراء البلاد ، أن تظل العلاقات بين تيمور والأمير حسين، وهما في نظر هؤلاء الأمراء الأوفر حظاً للفوز بالسلطة العليا — عدائيةً ومتوترةً ، الأمر الذي يمكن باقي الأمراء من الاحتفاظ باستقلالهم ، في المناطق التي كانت تحت حكمهم . ولذلك فإن هؤلاء الأمراء بالإضافة إلى تنقلهم في ولائهم بين المعسكرين المتنافسين ، حسب ما كانت تمليه عليهم مصالحهم الخاصة ، وكانت نتيجة ذلك أن طال أمد الصراع بين الفريقين ، وجعله يسير دون خطة استراتيجية عامة [٧] ، فإنهم سعوا إلى إفساد العلاقة بين تيمور والأمير حسين بالدس

---

(١) Stewart: op. cit. P. 68

(٢) وتضيف المذكرات أن الأمير حسين قد أدرك متأخراً مبلغ الخطأ الذي ارتكبه بعدم تلبية طلب تيمور في الوقت المناسب، فأرسل إليه يعتذر عن سوء فعله، ويعلن عن استعداده لمتابعة القتال . فبعث إليه تيمور مجيباً: " لقد أضعنا فرصة طيبة .. إنهم [الأعداء] قد اجتمعوا ونظموا صفوفهم وإنه من غير المفيد الآن القيام بأي هجوم"
انظر: Stewart: op. cit. P. 87

(٣) يزدي : ج ١ ص ٨٠ وورد الحادثة نفسها والحكم ذاته سمرقندي : ص ٣٢٨-٣٢٩

(٤) Stewart: ibid

(٥) Stewart: op. cit. P. 83 . انظر الفصل السابق

(٦) يزدي : ج ١ ص ٧٢ و ٧٥

(٧) Prawdin : op. cit. P. 187-188

والوقيعة [1] . ويذكر في هذا المجال الدور الذي لعبه الأمير موسى بن بايزيد جلايري ومعه أمراء آخرون . وكان هؤلاء حاقدين على الأمير حسين لبخله وطمعه الزائد عن الحد ـ على حد تعبير المذكرات ـ وأخذوا يسعون لإيجاد شرخ في العلاقات بين الطرفين فكتبوا عام ٧٦٧هـ (١٣٦٦م) رسالة إلى الأمير حسين جاء فيها : " ياصاحب الرأس العنيدة، استيقظ من نومك. إن الأمير تيمور هو عدوك المبين. إنه قد تمنطق بحزام الحقد . ومنذ وقت قصير اجتمع مع رجالك، وسوف يسحقك ويجعل منك أسيراً له , مثل ملك الشطرنج " [2] . ولما بلغت الرسالة حسيناً ثارت ثائرته، وأرسل يعلم تيمور بالأمر . وعلى الرغم من أن الأمير موسى وشركاءه قد فروا إلى حجند عند استدعائهم للتحقيق معهم ، وكان فرارهم ، كما تقول المذكرات ، خير دليل على إدانتهم، فإن نفس الأمير حسين لم تهدأ، وظلت نار الحقد تغلي في صدره على تيمور [3] ، وتتابع المذكرات فتقول إن تيمور فكّر عقب ذلك بطريقة لتبديد شكوك الأمير حسين في إخلاصه ، ولما استشار لهذا الغرض أميراً آخر هو " شير بهرام " ، فإذا بهذا الأمير يكشف لتيمور عن العداوة المريرة التي كان يضمرها للأمير حسين وقال لتيمور : " إن حسيناً ليس فقط عدوك الأول، بل هو عدوي أيضاً وإنه يتحين الفرصة المناسبة الأكيدة ليعمل على القضاء علينا كلانا " [4] .

وفاة زوجة تيمور

ودخل العلاقات بين تيمور والأمير حسين في طور جديد عام ٧٦٨هـ(١٣٦٦م) ، عند وفاة " اولجاي توركان آغا " زوجة تيمور وشقيقة حسين . ويشير المؤرخون إلى أن رباط المصاهرة الذي كان يقرب بين الأميرين قد انقطع بوفاة اولجاي [5] ، ويرى يزدي في هذه الحادثة " مطلع مأتم دولة حسين ومبدأ انهدام بنيان رفعته " [6] . وتضيف المذكرات على ذلك ، إن حسيناً قد اضحى منذ ذلك الوقت أكثر حساسية في موقفه تجاه تيمور . وغدا يظهر من التصلب نحوه أكثر مما كان يظهره في السابق [7] . ونجد عند ابن عربشاه ، الذي يختلف في موقفه من تيمور عن بقية المؤرخين التيموريين ، تصويراً آخر للعلاقة بين تيمور وزوجته ـ شقيقة حسين ـ وعلى الرغم من ضآلة وغموض المعلومات التي أوردها عن تيمور ، في الحقبة التي سبقت تنصيبه على عرش ما وراء النهر، فإنه يشير إلى زواج تيمور من شقيقة السلطان حسين، وهو وإن لم يذكر اسم هذه الزوجة ، إلا أنه يعطي للعلاقة بين تيمور وزوجته صورة سيئة . فقد اختصم معها مرة ، فعيرته بوضاعة أصله، فشهر سيفه فقتلها وتوارى عن الأنظار . وكان هذا ابتداء ثورته على السلطان

---

١) شامي : ص٥٦ ويزدي ج ١ص ٧٨ و ٩٣
(٢) Stewart: op. cit. P. 92
(٣) يزدي ج ١ ص٨٧ـ٨٨ وسمرقندي : ص ٣٣٦
(٤) Stewart : op. cit. P. 93
(٥) يزدي ج ١ ص٩١ وسمرقندي : ص ٣٧٤ و Stewart : op. cit. P. 94
(٦) يزدي : نفسه
(٧) Stewart : ibid

حسين _ كما يلقب ابن عربشاه الأمير حسين _[1] . ويعكس ما يذهب إليه ابن عربشاه عن علاقة تيمور بزوجته ، مدى سوء العلاقة التي كانت قائمة بين تيمور والأمير حسين ، وكانت زوجة تيمور كما يروى ابن عربشاه تقف في النزاع بين الطرفين إلى جانب شقيقها ضد زوجها .

مراحل ال... في سمرقند

وعلى الرغم من تلك الحرب الباردة التي كانت تدور بين تيمور والأمير حسين ، فإن بركان الصراع السافر قد انفجر بينهما ، في ربيع عام ١٣٦٦م (٧٦٧هـ) ، قبل وفاة اولجاي توركان آغا بعام واحد ، عندما كان تيمور يتقدم على رأس قواته من قارشي ، حيث أمضى فصل الشتاء نحو سمرقند ، حسب الاتفاق الذي تم بينه وبين الامير حسين في العام الماضي ،[2] وبعد انسحاب الجتا من البلاد . وقد تعرض قواد تيمور الذين أرسلهم قبله لتحديد المواقع التي ستحل بها قواته في ضواحي سمرقند ، لمضايقات الأمير حسين الذي كان قد وصل إلى المدينة قبل تيمور قادماً من " سالي سراي " ، واتخذ لقواته مواقع في داخل سمرقند . وقد أخذ يلح في مطالبة السكان بالأموال ، وتعرض لرجال الدين فيها ، وكان هؤلاء قد برزوا كزعماء لحركة المقاومة الشعبية التي أبداها سكان المدينة في وجه جيوش الجتا في العام الماضي - ورفض أن يعطي تيمور شيئاً من الأموال التي جمعها ، بل على العكس ، أخذ يلح عليه ليدفع له مبالغ أخرى ، واضطر تيمور أمام إلحاح حسين أن يدفع له ثلاثة آلاف دينار وأعطاه حُليّ زوجته اولجاي ، وقد أخذها حسين وهو يعلم أنها تخص أخته[3] وأثارت أعمال حسين غضب تيمور وأتباعه ولذلك فضّل الانسحاب والعودة من حيث أتى (٤) . وأخذ هناك ينظم قواته استعداداً للاصطدام الذي بات منتظراً مع الأمير حسين . وكان تيمور لا يزال يطمع في سمرقند ، ويتطلع لأن يتخذها عاصمة له ، ولذلك خرج في العام التالي ٧٦٨هـ(١٣٦٦م) على رأس جيش كبير بعد انضمام إحدى عشائر الأتراك الجغتائيين إليه ، وهي عشيرة " ياساوور " . ولما بلغ ضواحي سمرقند ، خرج إليه أهالي المدينة لاستقباله والترحيب به ، وسألوه أن يعين أحد أتباعه حاكماً فيها ، وبلغه وهو هناك نبأ وفاة زوجته اولجاي ، وكان قد تركها مريضة في قارشي.[5]

محاولة ال... بين تيمور...

وكان تيمور قد رفض عرض الأمير حسين للصلح ، عندما كان يخترق ممر باب الحديد في طريقه إلى سمرقند وكان حسين قد أرسل إليه ابنه عبد الله يحمل رسالة منه يقول فيها : " إنها مفاتحة تنطلق من القلب وليس من اللسان ، لأنه [الأمير حسين] هو أكثر اخلاصاً مني لنفسي [لنفس تيمور] " وتقول المذكرات إن تيمور رفض قراءة الرسالة ولم يعرها أي اهتمام ، لأنه كان يدرك أن حسيناً لم يسع إلى مصالحة تيمور ، إلا من أجل إيقاع الشقاق بينه وبين ذلك العدد الكبير من الأمراء الذين تركوا صفوف الأمير حسين وانضموا إلى تيمور . ولذلك فقد استطاع تيمور بموقفه الحاسم ورفضه الحازم

(١) ابن عربشاه : ص٩ (٢) _ يزدي : ج ١ ص٨٤ و Stewart: op. cit. P. 91

(٣) شامي : ص٣٣ ويزدي : ج ١ ص٨٤ وسمرقندي : ص٣٢٥ و Stewart: ibid
ونقول المذكرات إن تيمور قال : " وأحببت أن أشهر له سيف العداء ، ولكن الاحترام لذكرى علاقاتنا الماضية ، واعترافاً بفضل أسرته لذلك كبحت غضبي وابتلعت كل ما قاله أو فعله " . انظر :
Stewart: ibid

(٤) يزدي : ج ١ ص٨٧ Stewart: op. cit. P.94

(٥) يزدي : ج ١ ص٩٠ وسمرقندي : ص٣٧٤ و Stewart: ibid

للانصياع إلى مطالب حسين، أن يبدد مخاوف هؤلاء القواد على مصائرهم من صلح قد يتم بين الأميرين، وما قد ينجم عنه من تمكن حسين من الانتقام منهم، ولا سيما وأن أخبار جواسيسه كانت تشير إلى أن الأمير حسين يواصل استعداداته الحربية في سالي سراي[١] . ولذلك فقد فضّل تيمور العودة بعد أن جاءه خبر وفاة زوجته وهو على أبواب سمرقند إلى قارشي بانتظار الأحداث في الوقت الذي تقدم فيه حسين بقواته إليه ، ولما بلغ ضواحي قارشي، أرسل إليه مصحفاً زعم أنه قد أقسم عليه على أنه لا يضمر لتيمور أية عداوة ، ويقترح عليه أن يجتمعا في أحد الممرات الجبلية القريبة وهو شِعب (جكجك) ، لحل جميع الخلافات وتبديد شكوك تيمور في إخلاصه له[٢] . ووافق تيمور على طلب الأمير حسين على الرغم من شكه في نواياه غير السليمة ، ولكنه أراد — كما يقول يزدي — أن يضع حسيناً أمام محك الواقع[٣] . ولذلك فقد اتخذ بعض الاحتياطات وطلب إلى مجموعتين من أنصاره أن تكمنا عند طرفي ذلك الشعب . وكان حسين قد أعد خطة لحصر تيمور في ذلك الممر الضيق واعتقاله . ولكن القوات التي أوكل إليها تحقيق هذا الهدف ، واجهت تدخلاً فورياً من أنصار تيمور ، ودارت معركة قاسية في الشعب ، انتهت إلى هزيمة أتباع حسين الذي كان يقف عند طرف الشعب، يتلهف لرؤية تيمور مكبلاً بالحديد ، ومرمياً عند أقدامه[٤] . ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى الفرار بعد انفضاح نواياه، وعاد تيمور إلى قارشي من جديد[٥] .

الفرار إلى خراسان

وأراد حسين إثر فشله هذا القضاء على تيمور في معركة حاسمة، فحشد لذلك جيشاً كبيراً (١٢ ألف حصان) ، وضع على قيادته الأمير موسى جلايري، الذي عاد من خجند ، وكان قد فر إليها بعد انفضاح خطته للإيقاع بين تيمور والأمير حسين، وأمره بالاتجاه إلى قارشي . وبعد مشاورات سريعة بين تيمور وقواده ، تم الاتفاق على الانسحاب من وجه هذه القوات الضخمة إلى الجنوب ، لعبور جيحون واللجوء إلى منازل إحدى القبائل التي كانت تقيم في ماخان في خراسان، حيث تقرر ترك أسر الجند في حماية هذه القبيلة (وتدعى قبيلة سنجر). ومكن انسحاب تيمور من قارشي الأمير موسى من دخولها دون مقاومة ، وأرسل المخبرون إلى حسين يعلمونه بذلك[٦] . واتجه تيمور مع نخبة من أنصاره إلى الصحراء يتسقط أخبار اعدائه . وظل يهيم على وجهه مدة شهرين ونصف . وأخذ أتباعه يصطادون الحيوانات لتأمين غذائهم . وكان حلفاؤه من قبيلة سنجر يرسلون له بعض المعونات التي كان يتقاسمها مع أتباعه . وكذلك بعث إليه صديقه القديم (الملك حسين)

---

(١) يزدي : ج ١ ص٩٢ و Stewart: op.cit. P. 95 ويظهر أن تيمور قد قرأ فيما بعد رسالة حسين حتى ذكر منها بعض فقراتها في المذكرات . (٢) شامي : ص٣٧ و يزدي: ج ١ ص٩٣

(٣) يزدي : نفسه . ويُفهم من كلام يزدي أن الممر يقع قريباً من قرية خزار في ضواحي قارشي .

(٤) Stewart: op. cit. P. 96

(٥) يزدي : ج ١ ص٩٥

(٦) يزدي : ج ١ ص٩٥ وسمرقندي : ص٣٧ و Stewart: op. cit. P. 96 - 97

آل كرت حاكم هيرات أسلحة وتجهيزات وزعها على أتباعه أيضاً ، ولم يحتفظ لنفسه إلا بسيف وقوس [(١)] .

استرجاع قارشي وبخارى

واستطاع تيمور خلال جولته في الصحراء أن يحصل على بعض المعلومات عن الأمير موسى في قارشي ، من القوافل التجارية التي كانت تمر به ، وعلم أن موسى قد تلقى من حسين نجدات عسكرية جديدة ، وأنه منهمك بإقامة الحفلات والولائم وموائد الخمر [(٢)] . ولذلك سعى تيمور لإيصال معلومات إلى الأمير موسى ، بواسطة جماعة من التجار ، تقول إن تيمور بعد عبوره جيحون إلى خراسان قد ذهب للالتحاق بالملك حسين آل كرت في هيرات . ولما بلغت هذه الأخبار مسامع موسى ، خرج بقسم كبير من قواته (٧٠٠٠ رجل) إلى أحد السهول المجاورة لإقامة المزيد من الحفلات ، ابتهاجاً بابتعاد خطر تيمور ، وأقام في المدينة ابنه محمد بيك نائباً عنه . وانتقى تيمور من أتباعه ثلاثمائة وأربعين رجلاً (ويجعلهم يزدي مئتين وثلاثة وأربعين) ، من المشهود لهم بالجرأة والشجاعة [(٣)] وعبر بهم على وجه السرعة جيحون باتجاه قارشي . ولما أضحى على مسافة قريبة منها انتظر حتى أرخى الليل سدوله ، ثم اقترب من أحد المواقع الذي كانت ترابط فيه مجموعة من جنود الأعداء ، فاستطاع أسرهم جميعاً ، وعاد بهم إلى حيث كان يكمن مع بقية جنده . وطفق تيمور يقوم مع جنده بغارات ليلية مفاجئة على مخافر الأعداء خلال ثلاث ليالٍ متتالية ، بينما كانوا يقضون نهارهم مختبئين في الغابات المنتشرة حول المدينة ، يصنعون من ألياف وأغصان الأشجار الحبال والسلالم التي سيستخدمونها لتسلق أسوار المدينة وقلعتها . وتقدم تيمور مع أربعين من جنده ، في الليلة الرابعة إلى نقطة قريبة من الأسوار ، وكانت ليلة ظلماء لا بدر فيها ، وأمر رجاله بانتظاره هناك . وانطلق مع واحد منهم يدعى عبد الله ، حتى بلغ حافة الخندق المحيط بالأسوار ، فوجده مملوءاً بالمياه ، ولما كان تيمور يتفحص الأجزاء الأخرى من الخندق ، عثر فيه على لوح خشب طافٍ فترجل عن حصانه وسلم زمامه إلى عبد الله . واتكأ على سيفه وعبر الخندق على ذلك اللوح إلى الطرف الملاصق للسور . ثم تابع السير حول جدران السور ، حتى وصل إلى البوابة فقرعها ، ولما لم يجبه أحدٌ استنتج أن حراس البوابة نائمون . وأخذ تيمور يتفحص الجدران القريبة من البوابة بكل عناية ، حتى عثر بين حجارتها على خرق صالح لتثبيت سلالم الحبال فيه ، ثم عاد مسرعاً إلى عبد الله وسار معه إلى حيث كان جميع أفراد المفرزة ينتظرونه وكانوا مسلحين تسليحاً جيداً ومعهم قدر كبير من سلالم الحبال التي صنعوها بأيديهم وقد تلاحق إلى المكان جميع أفراد المفرزة التي جاءت معه من خراسان ، ولما علم هؤلاء بما قام به قائدهم تيمور التهب حماسهم ، وتقدموا على صهوات جيادهم وسيوفهم مشرعة بأيديهم باتجاه الأسوار . وتخلف منهم أربعون لحراسة باقي الخيول التي كانت معهم ، وعبر أتباع تيمور الخندق من الموضع الذي عبر منه تيمور واحداً بعد آخر دون أن يشعر بهم أحد وثبتوا السلالم التي كانت معهم على أسوار القلعة وأخذوا بالصعود .

(١) يزدي ج ١ ص ١٥ – ١٦ و Stewart: op. cit. P. 98
(٢) يزدي ج ١ ص ١٦ و Stewart: op. cit. P. 98-99
(٣) يزدي ج ١ ص ١٨ وكان من بين هؤلاء الأمير سيورغتمش الذي سينصب خاناً دمية ، والأمير داود وهو زوج شقيقة تيمور .

وتمكن أربعون منهم كان يقود هم تيمور نفسه من السيطرة على أحد أبراج السور، في وقت كان فيه باقي الجند يوالون صعود الأسوار. وأرسل تيمور ثلةً من الجند احتلت البوابة وفتحتها. وأمر على إثر ذلك بقرع الطبول، مما أحدث اضطراباً وخوفاً بين سكان المدينة النيام، فصعدوا أسطحة منازلهم لاستجلاء الخبر. وكذلك فعل محمود بيك بن موسى جلايري حاكم المدينة، في الوقت الذي كان فيه جند تيمور يطوقون منزله ويضرمون النار فيه. مما أجبر أسرته على الخروج بعد قليل طالبةً النجاة. ولم يلبث محمود بيك أن وقع في الأسر. ولما اقتيد إلى تيمور عامله بلطف وهدأ من روعه ودعاه بابنه. وأرسل بقية أفراد أسرة موسى إليه، وكان يمرح مع جنده في السهول المجاورة لقارشي. وقام الجند على وجه السرعة بمصادرة محتويات القلعة من أسلحة وذخائر ومؤن، وجرى توزيعها على الجميع بالتساوي. وقام تيمور بعد سيطرته على المدينة بهذه العملية السريعة، بتوزيع قواته القليلة على أبواب القلعة وأبراجها، استعداداً لزحف موسى المنتظر مع قواته عندما سيسمع بما فعله تيمور في قارشي. وكانت خطة تيمور لمقابلة موسى مع قواته الضخمة (٧٠٠٠) رجل، تعتمد على الحيلة والمباغتة. فأمر أن تظل أبواب القلعة مفتوحةً لإيهام الاعداء بكثرة أعداد أتباع تيمور في داخل المدينة. ودأب خلال الليلتين التاليتين لقدوم موسى وقواته وحصارهم قلعة قارشي، على إرسال مفارز من قواته لمباغتة الأعداء، وقتل أو أسر من تصل يدها إليه منهم. وتمكنت إحدى هذه المفارز من الوصول في إحدى غاراتها الجريئة إلى خيام الأمير موسى، وأسر بعض حراسه. كما عادت مفارز أخرى بغنائم وخيول. ولم تنفع محاولات الأمير موسى اقتحام أبواب القلعة، وتمكن جند تيمور من صد تلك المحاولات بعد أن أمرهم بإغلاق الأبواب.

وأدرك تيمور بعد ثلاثة أيام من القتال صعوبة البقاء في القلعة بهذا العدد القليل، في الوقت الذي كان موسى يتلقى نجدات جديدة. فجمع تيمور مائة من قواته وخرج للأعداء في هجمة جريئة، وتقدم موسى نحوه بجيش كبير (٤٠٠٠ حصان)، وأرسل قوة كبيرة أخرى (٠٠٠ حصان) لمهاجمة الأسوار من الناحية المقابلة. وكان حظ تيمور كبيراً عندما أصيب الأمير موسى بسهم في جبينه، جعله يترك القتال ويلوذ بالفرار إلى معسكراته، ولحقت به قواته التي أخذ جند تيمور يطاردونها حتى بلغت حدود شعب جكجك الجبلي، كما تمكنت قوات أخرى لتيمور كانت تدافع عن القلعة من الناحية المقابلة من صد القوات المهاجمة وردها على أعقابها (١) .

وفي الوقت الذي يلح فيه يزدي على صحة الوقائع التي أوردها عن عملية استرجاع تيمور لقارشي، وقوله إن بعض الناس ممن شاهدوا المعركة بأم أعينهم قد كتبوا عنها، وكان وصفهم لما حدث خالٍ من المداهنة وإلقاء الكلام الجذاف، كما فعل الفردوسي في الشاهنامة (٢) ، نرى ابن عربشاه يصور عملية احتلال قارشي، على أنها غارة سلب ونهب، قام بها تيمور وجماعته، بعد وصولهم من خراسان ملاحقين من قبل غياث الدين بن الملك حسين آل كرت حاكم هيراته بسبب ما ارتكبوه من الموبقات هناك. وبعد أن عبر هؤلاء جيحون في ظروف صعبة على ظهور خيولهم

(١) شامي ٣٨ ـ ٤٠ ؛ ويزدي : ج ١ ص ٩٨ ـ ١٠٢ ؛ و Stewart : op. cit. P.100-104

(٢) يزدي : ج ١ ص ١٠٣

أغاروا على قارشي وسرقوا خيول وأسلحة الأمير موسى ، وردوا النجدات التي أرسلها السلطان حسين ، وتمكنوا من الاستقرار في المدينة ، وبلغ عددهم بعد أن تلاحق بهم بعض المغامرين ثلاثمائة رجل [(١)] .

قرر تيمور أن يقضي فصل الشتاء الذي أخذ يقترب في قارشي نفسها ، ولكنه أرسل أحد أتباعه إلى بخارى لاحتلالها . وكتب إلى بقية أنصاره ليوافونه إلى قارشي ، وأرسل جنده يستدعون أسرهم التي تركوها في خراسان . وأخذ تيمور وهو يقيم حفلات الصيد والولائم ، يدرس الحالة التي انتهت إليها علاقاته مع الأمير حسين [(٢)] ، ولاسيما وأنه لم يستطع أن يحقق على قواته نصراً حاسماً .

في ممر جكجك

ولم يلبث حسين بعد أن استرد أنفاسه بعد هزيمة قواته في قارشي ، أن انطلق من عاصمته سالي سراي ، بقوات ضخمة من جديد (١٠ آلاف حصان) ، وجعل على مقدمة هذه القوات الأمير موسى نفسه . ولما علم تيمور بذلك ، تقدم إلى ممر (جكجك) الواقع إلى شمال باب الحديد مع قوات هزيلة (٢٠٠ شخص على ماذكر يزدي و ٣٠٠ حصان حسب ماجاء في المذكرات) ، وفاجأها هنالك ، عندما كانت تعبر هذا الممر الجبلي وتنزل إلى سهل "جكد اليك" المجاور . وتمكن من اختراق صفوفها من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وأوقعها في ارتباك كبير [(٣)] . ولكن تيمور لما لمس من أعدائه التصميم على الثبات والقتال ، فضّل الانسحاب على الفور والعودة إلى قارشي ، واتجه منها دون توقف إلى بخارى .

في خراسان ثانية

وهنالك ، وبعد مشاورات أجراها مع قواده ، قرر الانسحاب والعودة إلى خراسان من جديد ، بعد ان ترك في المدينة قوة للدفاع عنها [(٤)] . واستطاع الأمير حسين الذي كان يزحف بقواته على بخارى بعد استرجاعه قارشي ، أن يؤلب سكان المدينة على أتباع تيمور فاعلنوا الثورة عليهم ، وأجبرهم على مغادرة المدينة ، والالتحاق بتيمور في ماخان [(٥)] ، وحاول تيمور أن يطلب مساعدة الملك حسين آل كرت في هيرات ، وكان قد ساعده على استرجاع ملكه في تلك المدينة قبل اثنتا عشرة سنة (عام ٧٥٧ هـ) ولكن تيمور كان لا يأمن غدرة منه ، على الرغم من أن الرسول الذي أرسله إليه ، قد عاد وهو يحمل رسالة من الملك حسين ، تفصح عن المحبة والإخلاص . واكتفى تيمور بأن يبقي العلاقات الودية مع آل كرت في هيرات ، دون أن يسعى إلى الإكثار من مخالطتهم .

وخشي أن يلقى المصير الذي لقيه قبل اثنين وسبعين عاماً ، الأمير الايلخاني " نوروز " عندما لجأ

---

(١) ابن عربشاه ص٨ـ٩

(٢) يزدي : ج ١ ص١٠١ و Stewart: op. cit. P. 105

(٣) يزدي : ج ١ ص١٠٢ و Stewart : ibid

(٤) يزدي : ج ١ ص١٠٨ Stewart: op. cit. P. 105-106

(٥) يزدي : ج ١ ص١٠٩ـ١١٠ و Stewart: ibid

إلى آل كرت في هيرات (١) . ولذلك أرسل تيمور إلى الملك حسين يرد على رسالته رداً ودياً ويعلمه أنه قد وضع ابنه محمد جهانگير (٢) وأسرته في قرية ماخان تحت حمايته. وتقدم تيمور مع ستمائة من أتباعه شمالاً وعبر جيحون ، وبعد استراحة قصيرة على ضفة النهر الشمالية ، تابع السير إلى الشمال حتى بلغ ضواحي قارشي . وانقض من هناك فجأة على الأمير موسى بقواته في قارشي ، فتمكن من تمزيقها وأسر عدد كبير من أفرادها (٣) . ولما حاول الأعداء تنظيم صفوفهم للمقاومة لم يكن نصيبهم سوى الهزيمة في المعركة التي دارت في موقع "توزي" — جنوب قارشي — (٤) . وتقدم تيمور يلاحق الأعداء حتى سهل جكداليك ، ثم اتجه شرقاً إلى كيش (شهري سبز) فاحتلها ، وعين عليها حاكماً ، ثم انعطف شمالاً إلى سمرقند (٥) . ولم يقبل حاكم المدينة الذي عينه حسين الانضمام إلى تيمور وحالت أسوارها بينه وبين اقتحام المدينة ، فابتعد عنها ، واخذ يتنقل في ضواحيها. وكان حسين قد علم بأعمال تيمور في قارشي وكيش وحول سمرقند ، فتقدم بقواته مرة ثانية ، وبعد أن استرجع قارشي وكيش (٦) ، زحف على سمرقند لإنقاذها من تهديد تيمور . وتردد تيمور مدة بين ملاقاة حسين وبين الانسحاب إلى الشمال (إلى خجند) ، ولكنه فضل أخيراً الرأي الثاني ، وسمح لمن يرغب من الجند أن يرجع إلى أهله . ولما استعرض ما تبقى من قواته ، وجدها تبلغ الألف حصان ، يقودهم ستمائة رجل ، فسار بهم إلى ضفاف سيحون . وسمع هناك أن اثنين من أمراء البلاد ، هما كيخسرو حاكم ختلان وبهرام جلاير ، وكانا قد فرا من جيش الأمير حسين ، يقفان الآن مع قواتهما البالغة سبعة آلاف حصان في ضواحي طاشقند ، فعبر تيمور النهر إليهما ، حيث تم الاتفاق على أن يقف الجميع ضد الأمير حسين . وأراد تيمور أن يدعم تحالفه مع كيخسرو فخطب ابنته " رقية خانيكه " إلى ابنه جهانگير (٧) .

واستمرت إقامة الحلفاء الثلاثة في طاشقند شهراً كاملاً ، وصلتهم خلال ذلك أخبار تحركات

الفرار إلى طاشقند

الحروب في جوار سيحون

---

(١) يزدي : ١١٢ — ١١٣ و Stewart:op.cit.P.107 وأما نوروز فهو أحد أمراء الدولة الايلخانية البارزين في عهد السلطان غازان (٦٩٤ — ٧٠٣هـ/ ١٢٩٥ — ١٣٠٣م) ، عينه غازان في منصب نائب المملكة ، وأطلق يده في تصريف شؤون الدولة. ثم عاد فغضب عليه ولاحقه ، ففر إلى هيرات عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م ، لاجئاً إلى حاكمها فخرالدين كرت ، عم الملك حسين آل كرت المعاصر لتيمور ، فسلمه إلى قوات غازان التي قدمت تلاحقه إلى هيرات ، فقتل . وكان نوروز في وقت سابق عام ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤م ، قد توسط لفخرالدين لدى أبيه ركن الدين آل كرت الذي كان يسجنه في إحدى القلاع منذ عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م ، لثورته عليه واستدعى نوروز فخر الدين آل كرت إليه في العاصمة تبريز ، وزوجه من إحدى قريباته ، وقدمه إلى السلطان غازان وسهل له الجلوس على عرش آل كرت ، عند وفاة والده ركن الدين عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م . انظر البحث الأول (الدولة الايلخانية والحضارة في عهدها) ص ٩٨ و٩٩ هـ ٣ .

(٢) كان تيمور قد رزق بولده محمد جهانگير (القابض على الدنيا) عام ٧٦٠هـ انظر: Stewart:op.cit.P.108

(٣) يزدي ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ و Stewart:op.cit.P.45

(٤) يزدي : ج ١ ص ١١٥ و Stewart:op. cit. P. 109

(٥) يزدي : ج ١ ص ١١٧ و Stewart: op. cit. P. 110

(٦) يزدي : ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ و Stewart: op. cit. P. 110-111

(٧) يزدي : ج ١ ص ١٢٠ و Stewart: op. cit. P. 120

الأمير حسين ، وأنه قد بارح شهري سبز مع عدد كبير من الأمراء ، وتقدم إلى ضواحي سمرقند ، وأرسل من هناك الأمير موسى مع قوة تقدر بأحد عشر ألف حصان إلى الشمال ، ومرّ موسى على سمرقند ثم عسكر على ضفاف نهر بيلانغور (ربما كان نهر الصغد أو أحد روافده) . وأطلق من هناك طليعتين لتسقط أخبار تيمور . وبعد دراسة الموقف بين تيمور وحليفيه، تقرر أن يهاجم تيمور الطليعتين أولاً،ثم يتقدم لقتال موسى . فترك طاشقند وعبر سيحون،وتمكن من هزيمة القوتين كل واحدة منهما على حدة ، وأجبر أفرادهما على الفرار والانسحاب جنوبا إلى معسكرات الأمير حسين في جنوب سمرقند [١] . واندفع حسين بقواته شمالاً للانتقام، ولذلك انسحب تيمور من أمامه وعبر سيحون ثانية إلى الشمال باتجاه طاشقند . ولما كانت مقدمة قوات حسين تعبر النهر في إثر قوات تيمور، كانت الثلوج تتساقط عليها بغزارة فشلّت حركتها وأجبرتها على التوقف . وتفرق الجند لاتقاء خطر الثلوج الكثيفة والبرد ، في الوقت الذي بلغ فيه تيمور مع قواته طاشقند [٢] . وأمضى تيمور شتاء عام ١٣٦٨ م هناك . ويقول يزدي إن حليف تيمور الأول بهرام جلاير لم يعجبه المقام في هذه المدينة فانسحب بقواته إلى "سيرام" الواقعة على نهر آريس [٣] . وفكر تيمور أن يطلب مساعدة خان الجتا على الأمير حسين . وتشير المذكرات إلى أن قواد تيمور وافقوا على ذلك لما كاشفهم به [٤] . وانطلق على الفور ثلاثة من الرسل من طاشقند يحملون الهدايا إلى "المالبغ" في حوض نهر ايلي ، لمقابلة خان الجتا هناك.ولكن الأمير حسين الذي عاد إلى سمرقند أزعجه ذلك [٥] . وسعى لإثارة الرأي العام في البلاد على تيمور ، وأرسل إلى رجال الدين في بعض المدن (طاشقند ، خجند ، انديجان) يحرضهم عليه . ولكنه عمل في الوقت نفسه على أن يستغل نفوذ هؤلاء للتقريب بينه وبين تيمور، من أجل قيام الصلح بين الطرفين، وأعلن عن استعداده لأن يقسم على المصحف أمام رجال الدين وكبار رجال الدولة والقواد ،على أن يتمسك منذ الآن بصداقة تيمور .

في طاشقند ثانية

وعقد رجال الدين في هذه المدن الثلاثة مؤتمراً في طاشقند ، وحملوا إلى تيمور المصحف الذي أقسم عليه الأمير حسين قسم الإخلاص وإصلاح ذات البين، ورجى العلماء تيمور أن يتجاوز عن اساءات حسين السابقة ، التي ارتكبها بحقه، وعلى الرغم مما ادعاه تيمور من عدم ثقته بالقسم الذي أداه حسين ، إلا أنه اضطر أمام إلحاح العلماء وضغطهم ،أن يستجيب لطلب الصلح ، ولاسيما عندما استفتح المصحف فخرجت له الآية : "وإن طائفتان من المسلمين اقتتلوا فأصلحوا بينهما" [٦] . وتشير المذكرات إلى أنه كان من أسباب موافقة تيمور على الصلح، أن استقدام الجتا إلى ما وراء النهر سوف يسبب الكثير من الأذى لسكان البلاد،فضلاً عن عدم وجود ضمان لانسحابهم عندما يُطلب منهم ذلك [٧] في المستقبل . وأرسل تيمور رُسُلاً من قبله ليتقنوا على مدى جدية حسين في طلب الصلح . وتم الاتفاق على أن يتم الاجتماع في سمرقند .ولذلك

توسط علماء والصلح .

(١) يزدي : ج ١ص ١٢١ــ١٢٢ (٢) Stewart:op.cit.P.112-113 يزدي ج ١ص١٢٣ و Stewart:op.cit.P. 114 (٣) يزدي ج ١ص١٢٤ (٤) Stewart:op.cit.P.113
(٥) يزدي :ج ١ص١٢٥ و Stewart: ibid (٦) شامي ص١٤ ويزدي ج ١ص١٢٥ و Stewart :ibid . (٧) Stewart:op.cit.P.115

عبر تيمور سيحون من جديد ، ولكنه لما بلغ موكبه ضواحي المدينة بصحبة العلماء ، سمع بشائعة تقول بوفاة الأمير حسين . وأظهر تيمور عدم الاكتراث بهذا الخبر، ولكنه تحول عن الدخول إلى سمرقند وتقدم جنوباً إلى مدينة شادمان . وأرسل من هنالك أحد أتباعه إلى سالي سراي حيث يقيم الأمير حسين ، للاطلاع على حقيقة الأمر . وظل تيمور يتجول في المناطق المحيطة بسمرقند ومعه رجال الدين، حتى عاد رسوله من سالي سراي ومعه الخبر اليقين ، بأن حسيناً سليم معافى هناك ، وأنه على استعداد ليتعهد بالتمسك بالسلم والصداقة ، وسوف يقسم على ذلك[١] . وتُعلّق المذكرات على شائعة وفاة الأمير حسين ، بأنها كانت خدعة أراد بها حسين أن يتعرف على حقيقة نوايا تيمور، وليورطه للقيام بتصرف يتناقض مع ما كان يعلنه على الناس فيما يتعلق بالعلاقات مع الأمير حسين[٢] . وبعد أن ترددت الرسل بين الطرفين ، تم الاتفاق النهائي على أن يكون اللقاء أمام قبر أحد الأولياء، ويدعى "آبا علي" الكائن في قرية "كمش كنت" القريبة من سمرقند . وفي ذلك الاجتماع أقسم حسين وهو يضع يده على المصحف أن يظل ثابتاً على صداقة تيمور، وأقسم تيمور على الاخلاص له إذا ما ظل متمسكاً بتعهده ولم يحنث بيمينه[٣] وتقرر ان يتناسى الاميران الماضي وان تفتح صفحة جديدة للعلاقات بينهما . وتقول المذكرات إن أكثر ما كان يثير قلق حسين هو استقدام تيمور لقوات الجتا إلى البلاد . ولذلك ذكر لتيمور أنه لم تعد هناك ضرورة للاستعانة بقوات غريبة ولكن تيمور أجاب على الفور : " إن هؤلاء الغرباء إذا كانوا أصدقاء فسوف يرحب بهم[٤]

وتدخل العلاقات بين تيمور والأمير حسين بعد هذا الصلح في مرحلة جديدة ، حاول خلالها حسين أن يستغل كفاءة تيمور وخبرته العسكرية ، في سبيل القضاء على خصومه فأرسله لرد هجوم الملك حسين آل كرت عن بلخ ، (وهو صديق تيمور القديم) . ثم وجهه إلى كابول للقضاء على ثورة شبت هناك.

رد الجتـ

وأغارت ، في تلك البرهة ، قوات الجتا من الشمال عام ٧٦٩هـ(١٣٦٧م)[٥] . ولعل ذلك كان استجابة لرغبة تيمور قبل إنجاز الصلح مع حسين. وكان على قيادتها في هذه المرة "قمر الدين" الذي سيره الياس خواجا بعد أن استقر على عرش الخانية في الماليغ . وبعد أن مرّ الجتا على طاشقند، أوقعوا بقوات الأمير موسى الذي أرسله حسين لصدهم ، وهي تعبر نهر سيحون وأجبروها على التراجع . ولذلك نهض حسين من بلخ وقدم على تيمور وهو يقيم في كيش، يستنهض همته ليهب

(١) يزدي : ج ١ ص١٢٧ ــ ١٢٨ و Stewart: ibid.
(٢) Stewart: op.cit. P. 116 (٣) Stewart: ibid. أما يزدي فيقول إن اللقاء قد تم بين تيمور وبين مندوبين عن الأمير حسين هما الأميران موسى وأولجاتيو، وعقب الاتفاق على تجديد المودة والصداقة أقيم احتفال لهذه المناسبة وتوجه تيمور على إثر ذلك إلى كيش . انظر يزدي ج ١ ص١٢٩
(٤) : Stewart : ibid.
(٥) يزدي : ج ١ ص ١٣٢ .

للدفاع عن البلاد ، وعلى الرغم مما تذكره المذكرات أن هدف حسين من وراء الاستعانة بتيمور هو دفعه ليتلقى الهزيمة على يد هؤلاء ، ويكون ذلك طريقًا للخلاص منه[1] ، فإن تيمور قد قبل المهمة على الفور، وانطلق شمالاً إلى ضفاف سيحون . وهناك استطاع بحنكته أن يوقع المنافسة والشحناء بين اثنين من قواد الجتاه ، فانقسم الجيش على نفسه، ودارت المعارك الدامية بين المتنافسين الذين فضلوا الانسحاب من وجه تيمور والعودة إلى بلادهم [2] .

في بدخشان

قامت في هذه الأثناء على الأمير حسين ثورة في منطقة بدخشان ، بسبب سوء سياسته، فاستنجد كالعادة بتيمور ، وتضرع وبكى ، ولذلك سار تيمور إلى ذلك الإقليم الجبلي ، واستطاع أن يقضي على جماعات الثوار التي كانت تحتمي بشعاب المنطقة ، وتمكن بحكمته أن يستميل أهالي المنطقة ورجال الدين فيها إليه ، فطلبوا منه أن يظل مقيماً بينهم . وكان حسين قد أرسل ابنه (جهان ملك) على رأس قوات جديدة إلى المنطقة . ولكن الثوار حاصروه في أحد شعاب جبال هندوكوش ، إلى أن تمكن تيمور من إنقاذه . واضطر تيمور أن يتأخر مدة من الزمن في بدخشان، بعد القضاء على الثورة ، ليعمل على إصلاح أحوالها، وإقامة التفاهم والصلح بين أمرائها . ولكن الأمير حسين الذي ارتاب في نوايا تيمور، وخشي أن يعلن عليه العصيان هناك ، فأخذ يستحثه على العودة إلى سالي سراي بحجة انفجار ثورة جديدة [3] ، يقودها اثنان من كبار الامراء .

ضد كيخسرو وزميله

وفي الواقع فقد أقدم الشيخ محمد بن بيان سلدوز وكيخسرو ختلاني على إعلان الثورة في منطقة جنوبي جيحون لم يذكر المؤرخون اسمها . وأرسل الثائران إلى تيمور، وكان لا يزال في بدخشان، رسالة يستحثانه على الانضمام إليهما [4] ، وجاء في الرسالة قولهما : "إننا خائفان من قسوة الأمير حسين ومراوغته ، ونرى أن سموك غير مشتبه به الآن وبعد قليل سوف تسقط ضحية حيله وخداعه ، ونحن نتكلم الآن وقد رفعنا صوتنا بصراحة الأتراك".[5] ويقول يزدي إن حسيناً ظل يظهر الصداقة لتيمور ، واستقبله لما عاد من بدخشان بكل ترحاب وبشاشة في مدينة "ارهنك". وأما تيمور فقد ظل أيضاً على إخلاصه ووفائه والتزامه بالقسم الذي أداه للأمير حسين[6] ، في الوقت الذي كان فيه الأمير حسين يبطن الغدر لتيمور ، وتتطابق في ذلك أقوال يزدي والمذكرات.[7] ومع ذلك فقد قبل تيمور طلب حسين لمساعدته ضد الأميرين الثائرين. وكان أحدهما (كيخسروختلاني) حليفاً لتيمور قبل مدة وجيزة ، وسار مع حسين بقواته إلى حيث كانا يعسكر الثوار على ضفاف جيحون، بعد أن رفض الأمير موسى — قائد الأمير حسين المفضل — عبور النهر، بحجة الإرهاق الذي كان يعاني جنده منه [8] . ولكن تيمور الذي قبل رجاء حسين وعبر النهر، وأجبر الثوار

(١) Stewart: op. cit. P. 120

(٢) يزدي : ج ١ ص ١٣٣

(٣) يزدي: ج ١ ص ١٣٤ — ١٣٥ و Stewart: op. cit. P. 121 - 122

(٤) يزدي : ج ١ ص ١٣٧ (٥) Stewart : op. cit. P. 122

(٦) يزدي : ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨

(٧) يزدي : ج ١ ص ١٣٨ و Stewart : op. cit. P. 123

(٨) Stewart : ibid .

على الفرار . فاتجه كيخسرو إلى جبال آلاي ، وفرّ الشيخ محمد بن بيان سلدوز شمالاً إلى خجند ثم منها إلى اوترار وعاد تيمور بعد ذلك إلى كيش (١) .

عزم حسين على إعلان نفسه سلطاناً .

واتضح من سير الأحداث _ كما يقول يزدي _ إن تيمور قد اقتنع في هذه المرة أن الأمير حسين لا يزال مصراً على الإيقاع به ، على الرغم مما يظهر له من اللين والبشاشة التي لم يكن دافعها إلا استغلال مقدرة تيمور وخبرته للقضاء على الثورات التي تنشب عليه هنا وهناك (٢) . لأن الأمير حسين عقب قضاء تيمور على ثورة كيخسرو ختلاني والشيخ محمد بن بيان سلدوز وعودته إلى كيش ، عاد يظهر مطامعه ويعلن عزمه على إعلان نفسه سلطاناً على خراسان وتوران معاً . وأرسل إلى تيمور يعلمه بذلك ويطلب منه أن يوافيه إلى بلخ التي أراد ان يتخذها عاصمة له (٣) . ولكن أحد اصدقاء تيمور وكان من أعضاء مجلس الأمير حسين _ كما تقول المذكرات _ (وربما كان من جواسيس تيمور) ، أرسل إليه يعلمه أن حسيناً يبيت لتيمور من وراء استدعائه إلى بلخ مؤامرة جديدة . وأدى رفض تيمور لاستدعاء حسين له إلى عودة العداء العلني بين الطرفين . وسارع حسين لإرسال قوات يقودها اثنان من أتباعه إلى كيش ، لإجبار قبيلة برلاس التي تحل في منطقتها على الهجرة بالقوة إلى بلخ (٤) . وكان نتيجة ذلك أن الصراع بين تيمور وحسين على السلطة في البلاد ، قد تجاوز نطاق المطامح الشخصية ، إلى أنصار تيمور وأتباعه من أبناء قبيلة برلاس ، الذين ازدادوا إخلاصاً وتأييداً له ، فهرعوا إليه عندما كانت قوات حسين تزحف على منازلهم ، وأعلموه أنهم ليسوا على استعداد لمغادرة منطقتهم كعبيد مقيدي الأيدى والأعناق للأمير حسين ، للإقامة في خراسان (٥) . واضطر تيمور أن يقسم لأتباعه الثائرين ، على أنه لن يقدم على عمل دون أخذ موافقتهم عليه ليهدئ من ثائرتهم . وانصرف بعد ذلك يهيء قواته ويستعد ، وجمع إليه رجال الدين المقيمين في منطقته ، وشرح لهم ظروف الخلاف الجديد مع الأمير حسين ، وطلب منهم الفتوى في مشروعية خروجه على الأمير حسين . وكان جواب هؤلاء "بما أنه كان هو [الأمير حسين] البادئ بحنث الوعود ، وتجاسر على إنكار قسمه بالذات ، فإنه من غير ريب ، سوف يقع في قبضة سموك (٦) " . واستطاعت قوات تيمور أن تصدّ القوات المغيرة التي انضم قسم منها إلى قوات تيمور ، ولذلك قرر أن يغير على بلخ ذاتها . ولم يكد ينتشر خبر حركة تيمور حتى أخذ الكثير من الأمراء الحانقين على حسين ، يعلنون انضمامهم إليه . وكان من أبرز هؤلاء الشيخ محمد بن بيان سلدوز وكيخسرو ختلاني ، اللذين كان كل منهما يهيم على وجهه في الصحراء منذ فشل ثورته السابقة (٧) .

رفض تيمور الانتقال إلى بلخ

---

(١) شامي : ص ٥٧ ويزدي ١٣٩_١٤٠ و Stewart: op. cit. P. 123

(٢) يزدي : ج ١ ص ١٤٢

(٣) Stewart: op. cit. P. 124

(٤) يزدي ج ١ ص ١٤٢ و Stewart: ibid

(٥) يزدي : ج ١ ص ١٤٣_١٤٤ و Stewart: op. cit. 125

(٦) Stewart: ibid

(٧) Stewart: op. cit. P. 125

في ترمذ

وتقدم تيمور عام ٧٧١هـ (١٣٧٠م) على رأس قواته إلى ممر باب الحديد، واتجه من هناك إلى ترمذ حيث استقبله فيها رجال الدين، وكان على رأسهم "السيد ابو البركات" الذى تقول عنه المذكرات أن نسبه يرقى إلى آل البيت، ووصفه يزدي بأنه من أعظم أشراف مكة(١). وقد خرج أبو البركات ورهطه إلى خارج ترمذ ترحيباً بمقدم تيمور، وسلّمه راية وطبلاً ذكر أنهما للأمير حسين، لأن الرسول قد ظهر له في الحلم وأمره بتسليمهما إلى تيمور(٢). وكان الأمير موسى وهو من أكبر أعوان الأمير حسين قد ملّ من تصرفات سيده المتقلبة، فتركه وعاد أدراجه إلى سمرقند(٣). ولما عبر تيمور بقواته جيحون انضمت إليه بعض القبائل الجغتائية القاطنة جنوبي النهر، منها قبيلة "ابيورد" التي قدمت من "شبورغان" القريبة من بلخ. ويرى يزدي بانضمام الأمراء والقبائل إلى تيمور، أن جميع الوس جغتاي قد أظهر الطاعة إلى الأمير صاحب القران(٤).

معركة بلخ

ولما بلغ تيمور السهل المحيط ببلخ، كان حسين ينتظره على رأس قواته هناك، ودارت معركة دامية استمرت يومين، اشترك فيها "عمر شيخ" بن تيمور وكان في السادسة عشرة من عمره، وأظهر فيها شجاعة وجلادة فائقة على الرغم من الجروح التي أصيب بها(٥). وأجبرت قوات حسين في نهاية الأمر على التراجع إلى داخل المدينة التي حوصرت من كافة جهاتها، ووجد الأمير حسين أمام ضراوة الهجمات التي كانت تقوم بها قوات تيمور، أنه لا طاقة له على المقاومة. ولذلك أرسل في الليلة التالية رسالة إلى تيمور، يعرض عليه الاستسلام في.

استسلام حسين

ويعترف له بانه لم يهنأ لحظة في حياته منذ أن جهر بالعداوة له. وتابع قوله "إنني مقر بأن كل معارضة لك لن تسبب لي إلا التعاسة. وقد برهنت التجارب أنك مؤيد من العناية الإلهية، وأن هذا نال حسن وازدهار سينتظرك، في الوقت الذي ستطبق فيه على عنقي النكبة والتعاسة، سامحني واتركني أغادر هذه البلاد، لأذهب للحج إلى مكة"(٦) وتقول المذكرات إن تيمور قد وافق على طلب حسين، وأرسل إليه يطلب أن يبعث بأحد أبنائه ليعمل على إقناع قواد القبائل والعشائر الذين أثار حسين سخطهم. وامتثل حسين للطلب وبعث بأكبر أبنائه وتعهد له تيمور في اجتماع عام ضم القواد وزعماء العشائر، أن حسيناً إذا أراد النزول من بلخ والذهاب لأداء الحج في الأراضي المقدسة فإنه سوف يقدم له كل ما يطلبه من الحماية، وسوف يجهزه بكل ما يحتاج إليه في رحلته إلى الديار المقدسة(٧).

محاولته الفرار

وبينما كان تيمور منهمك بتقديم التعهدات والضمانات للأمير حسين، وتسهيل سفره، كان حسين في بلخ يعد العدة للفرار والإفلات من الحصار الذي كانت تفرضه قوات تيمور حول المدينة. وتقول المذكرات إن حسيناً تنكّر بثياب ناسك، وخرج ليلاً دون أن يعلم أحداً من أهله أوخاصته

---

(١) يزدي: ج ١ ص ١٤٥ و ، Stewart: ibid وقد ذكر ابن عربشاه واسمه: "السيد بركه" وذكر عن أصله أنه حجّام مغربي، أقام في مصر ثم جاء إلى سمرقند وتسيد فيها وأشار أيضاً إلى أنه قيل في أصله أنه من مكة أو المدينة. انظر: ابن عربشاه ص ٥.

(٢) يزدي: نفسه و Stewart: ibid (٣) يزدي: ج ١ ص ١٤٤

(٤) يزدي ج ١ ص ١٤٨ (٥) يزدي: ج ١ ص ١٤٩ و Stewart: op. cit. P. 128

(٦) Stewart: op. cit. P. 129 (٧) يزدي ج ١ ص ١٥٠ و Stewart: ibid

وحمل معه أحسن ما عنده من الجوهرات ، وأوى إلى سلم مأذنة أحد المساجد ليختبيء هناك[١] خوفاً من افتضاح أمره عندما يقبل النهار . ولما حان وقت أذان الفجر أبصره المؤذن عندما أراد أن يصعد المئذنة . وحاول حسين — كما تقول المذكرات أن يرشو ذلك الرجل الفقير بعقد من اللؤلؤ الثمين ، ليكتم خبره . ولكن المؤذن خاف عاقبة الأمر وأسرع إلى معسكر تيمور ومعه العقد ، وأعلمه بالقصة كاملة[٢] . ولما علم بعض الأمراء من الحانقين على حسين بعزمه على الهرب ، أحاطوا بالمسجد وتمكنوا من اعتقاله . وأصدر تيمور أمره على الفور لإطلاق سراحه ووضعه في عهدة أحد القضاة تمهيداً لمحاكمته أمام مجلس يضم رؤساء القبائل والعشائر . وأرسل تيمور إلى حسين رسالة جدد له تعهده بأنه لن يحنث بيمينه الذي أقسم والتزم به بأن لا يسيء إليه. ولكنه تابع قوله له في الرسالة : " إنه انتقام القرآن الذي يحيق بك . . . ولا استطيع إنقاذك من أيدي الرؤساء"[٣].

محاكمته

ولم ينفع حسيناً استجداؤه وطلبه الرحمة . وعلى الرغم من محاولة المذكرات إظهار تيمور في موقف المحايد ، فإنها لم تستطع أن تخفي عاطفة التشفي التي كانت تتأجج في نفس تيمور ، وعندما خاطب الأمير حسين خلال محاكمته أمام المجلس دون لقب : "حسين لقد ظهر عيب قسمك وازدرائك الذي جلب لك هذا الموقف الذي يرثى له . إنني أشكر الله تعالى على أنني لست مثلك ، لأنني لا أستطيع أن أكون مذنباً بحنث اليمين ولا أجروء على إغضاب الله ورسوله"[٤] .

وركع خلال المحاكمة كيخسرو ختلاني على ركبتيه ، يرجو تيمور أن يسلمه حسين لينتقم منه لقتله شقيقاً له يدعى كيقباد عام ٧٦١هـ(١٣٦٠م)[٥] . وتتالت من الأمراء الحاضرين طلبات مماثلة[٦] . حتى استحال المجلس إلى صخب وضجيج . وتذكر تيمور — كما يقول يزدي صلة النسب التي تربطه مع الأمير حسين[٧] . ولكنه لم يستطع إقناع الحاضرين بالتجاوز عن الأعمال المفجعة التي اقترفها الأمير حسين . ووجده الحاضرون مذنباً بجرائم عديدة : كالقتل واعتقال الأبرياء والطمع بمال الغير ، وقرروا أنه لا يمكن التغاضي عن هذه الأعمال ، ولاسيما وأن ورثة من قتلهم حسين يطالبون بالاقتصاص منه[٨] . وتقول المذكرات : إن تيمور لما فشل في إنقاذ حسين ، أخذ يطالب بتأجيل تنفيذ حكم الموت ، وكان يأمل بذلك أن يكسب بعض الوقت ليتمكن من إقناع بعض الأمراء بالعفو عنه " ولكن الإرادة الإلهية لم ترغب ببقاء الأمير حسين حياً"[٩] ، وقام

مقتله

ثلاثة من الأمراء الذين كانوا يحقدون على الأمير الأسير ، على رأسهم كيخسرو ختلاني واختطفوا حسيناً من المكان الذي كان يعتقل فيه ، وذهبوا به إلى مكان بعيد حيث قتلوه . ولما عادوا قتلوا أربعة

---

(١) يزدي ج ١ ص١٥٢ ، Stewart: ibid

(٢) Stewart op. cit. P. 129-130 (٣) Stewart: op. cit. P. 130

(٤) Stewart : ibid (٥) يزدي ج ١ ص١٥٣

(٦) اتهم حاكم بدخشان حسيناً قائلا : لقد كان السبب في القضاء على أسرتي وفي جعل كل أيام حياتي مرة . وصاح الشيخ محمد بن بيان سلدوز : إن الآلاف من قبيلة سلدوز قد طردوا إلى الصحراء بسبب مظالم الأمير حسين الذي نهب القسم الأكبر من ماشية القبيلة وأملاكها . انظر : Stewart : ibid . (٧) يزدي : نفسه

(٨) Stewart : op. cit. P. 131 (٩) Stewart: ibid

من أولاده ، وهرب اثنان من أبناء الأمير حسين إلى نواحي الهند (١) . وفي الوقت الذي يقول فيه يزدي إن هذا العمل كان بدون معرفة تيمور (٢) . فإن ابن عربشاه يصرح بأن مقتل الأمير حسين كان بإشارة منه.وكان ذلك في شعبان عام ٧٧١هـ(نيسان ١٣٧٠م) (٣) . وتمضي المذكرات في نفي مسؤولية تيمورعن مقتل الأمير حسين، فتقول إن تيمورحزن للمصير الذي انتهى إليهحسين وذهب ليلقي النظرة الأخيرة على جثته، ثم أمر أن تدفن بكل مظاهر الاحترام (٤) . ولكن كل ذلك لم يمنعه من إصدار الأمر بمصادرة أموال وكنوز الأمير الراحل، وتوزيعها على أتباعه وأنصاره (أتباع تيمور) ، في الوقت الذي خص تيمور نفسه بأربع من زوجات الأمير حسين ، ووزع باقي الزوجات على قواده (٥) .

تحليل شخصية حسين

ويبدو من الضروري — بعد إشارة برافدان إلى اختلاف الأمزجة بين تيمور والأمير حسين، ذلك الاختلاف الذي كان من أسباب الصراع بينهما — أن نتعرف على معالم شخصية الأمير حسين وسماته النفسية . ولكننا لانستطيع ذلك إلا من خلال المصادر التيمورية التي كانت تعبر عن وجهة نظر تيمور . وكان من المنتظر أن يأتي ابن عربشاه — بحكم موقفه من تيمور — بأخبار جديدة عنه . ولكنه — كما رأينا — لم يتحدث عن هذه الحقبة من حياة تيمور ، وصراعه مع الأمير حسين إلا حديثاً موجزاً وغامضاً . فهو عنده سلطان جليل القدر خطير الشأن ، يمتد نفوذه من تخت ملكه في بلخ ليشمل كل بلاد ماوراء النهر وحتى أطراف تركستان (٦) . وقد اعترفت المذكرات لحسين بالشجاعة والجرأة في وقفته عام ٧٦٢هـ أمام جيوش الامبراطور تغلق تيمورخان ، وشهد تيمور لحسين أمام الخان بالشجاعة الفائقة (٧) . ولكن المذكرات في مواضع أخرى كما في غيرها من المصادر التيمورية، تنعت حسين منذ أن أخذت علامات الخلاف بينهما بالظهور ، بمختلف أنواع النعوت الدنيئة المزرية . فتصفه بالطغيان الذي يصل إلى حد الكفر (٨) . وتقول عنه إنه عصبي المزاج ومغرور ومتكبر ، وينطوي على طبع متقلب ومراوغ (٩) . وهو لا يعرف أن يسلك مع أصدقائه وأتباعه سلوكاً ناجحاً يجعله يكسب مودتهم واحترامهم . فينتقد فيه تيمور البخل الشديد والطمع بأموال الناس وتكديسها في خزائنه . فهو لم يتورع عن أخذ أقراط أخته اولجاي زوجة تيمور (١٠) . وهو بالإضافة إلى ذلك حسود جداً ، ويدفعه حسده أحيانا إلى أن يتمنى زوال النعمة حتى عن أتباعه وخدمه الذين كان هو السبب في نعمتهم (١١) . وهو إذا أراد شيئاً ألحّ عليه وألحف في طلبه ،

(١) يزدي: ج ١ ص١٤٥ و Stewart: ibid (٢) يزدي : نفسه .

(٣) ابن عربشاه : ص٧

(٤) Stewart:op.cit. P. 132 وتنقل المذكرات قول أحد رجال الدين عند مقتل حسين يخاطب تيمور: "إن الله قد قدّر عليه هذا المصير،ونحن لانستطيع أن نحول دون تنفيذ ماقدّر عليه ولذلك فلم أنت حزين؟" انظر: Stewart: ibid

(٥) يزدي : ج ١ ص١٥٩ وقد ذكر يزدي أسماء الزوجات التي خص تيمور نفسه بهن: سراي ملك خانم بنت الخان الجغتاي قازان خان والوس آغا بنت الأمير بيان سلدوز وإسلام آغا بنت الأمير خضر يسوري وطغى تركان خاتون .

(٦) ابن عربشاه : ص٩ (٧) Stewart:op. cit. P. 57

(٨) Stewart: op. cit. P. 127 (٩) يزدي : ج ١ ص٩٣ و ١٤٢

(١٠) شامي : ص٥ ويزدي ج ١ ص٨ وسمرقندي: ص٣٣٩و Stewart:op. cit. P. 91

(١١) Stewart:op. cit. P. 120-121

وقد يدفعه إلحاحه أحياناً إلى البكاء والتضرع، ولكنه عندما يحصل على ما يريد ينقلب نمراً، ويتباهى كأنه قد أضحى بطلاً، ولذلك كان أتباعه يكرهونه ويسعون إلى الانضمام إلى أعدائه.(١)

ومهما يكن من أمر النعوت التي ألصقتها المصادر التيمورية بالأمير حسين، فإنه بالمستطاع أن تُستشف من خلال ما ذكرته هذه المصادر، الطباع التاجيكية في شخصيته، ولعل هذه الطباع كانت في جملة الأسباب التي أدت إلى الصراع، بينه وبين تيمور الذي ظل يمثل في شخصيته الطباع التركية الجغتائية. فقد انتقى حسين لإقامته مدن سالي سراي وارهنك التي تقع في جنوبي لبلاد، في المناطق القريبة من خراسان حيث يسكن التاجيك الفرس. ودفعته طباعه التاجيكية آخر الأمر، إلى نقل عاصمته إلى بلخ التي تقع في جنوب جيحون في منطقة تاجيكية صرفة. ويظهر روح الصراع التقليدي بين الأتراك الجغتائيين والفرس التاجيك في تمسك أفراد قبيلة برلاس بمنازل قبيلتهم حول كيش، ورفضهم النزول عند رغبة الأمير حسين، والانتقال للإقامة في بلخ، واعتقادهم أن ذلك الانتقال إنما هو استعباد لهم.

وتعكس بعض أعمال قام بها الأمير حسين أنه في تفهمه للإسلام أكثر دقة وعمقاً من تيمور. فقد بدا أنه كان مستعداً دائماً للتصدي لهجمات المغول (الجتا) الذين كانوا يغيرون من وقت إلى آخر على ماوراء النهر لأنهم وثنيون. وكانت نظرته إلى هذا التصدي على أنه نوع من الجهاد الإسلامي ضد الوثنية.(٢) وقد دفعه ذلك مراراً إلى أن يتجاوز خصومته مع تيمور ويتناسى خلافاته معه فيهرع لمصالحته، ويستعين لتحقيق هذه المصالحة برجال الدين الذين كان يوفدهم إليه. واتضح من هذه المواقف أن الأمير حسين كان مؤمناً بالمبدأ القائل إنه مهما بلغت الخلافات بين الحكام المسلمين فإنه لا يجوز لأحدهم أن يستعين بالكفار الوثنيين على منافسيه من أبناء دينه. ويقابل هذا الموقف من الأمير حسين، موقف تيمور الذي كان لا يرى غضاضةً في طلب المساعدة من هؤلاء الكفار الوثنيين لنصرته على الأمير حسين.

وتؤكد مواقف حسين من الإسلام الشخصية التاجيكية لهذا الأمير على الرغم من نسبه التركي الأصيل. فقد كان من الواضح أن التاجيك كانوا أفضل إدراكاً لهذه الأمور من الأتراك الجغتائيين.

---

(١) Stewart : op. cit. P. 127

(٢) Grousset : L'Empire des Steppes P. 491

الباب الرابع

السنوات العشر الاولى
٧٧١ ـ ٧٨١ هـ
١٣٧٠ ـ ١٣٨٠م

تمهيد :

حاول تيمور خلال السنوات العشر الأولى من حكمه ، وقبل أن يباشر مخططه الواسع للسيطرة على العالم ، أن يوطد حكمه داخل ماوراء النهر ، عن طريق كسب ود الاهالي وتأييدهم ، ثم بالقضاء على الذين حاولوا الوقوف في وجهه ، أو الذين كان يخشى مطامعهم لمنافسته على الانفراد بالحكم . وسعى تيمور ، في الوقت ذاته ، أن يفرض هيبة دولته الجديدة على جيرانه في بلاد الجتا (المغول) وبلاد القبجاق وخوارزم . وكانت غايته تأمين حدود دولته من تلك النواحي ، والقضاء على احتمال انضمام حكام المناطق المتاخمة لهذه الحدود ، إلى الدول المجاورة ، أو الانفصال عن دولة تيمور في ماوراء النهر. ولذلك فقد قام في تلك الحقبة بأربعة حروب لضم مقاطعة خوارزم ، كما زحف خمس مرات على بلاد الجتا . ونجح بالقضاء على محاولة قبيلة "جلاير" للانقضاض على الحكم . وكانت الأحداث التي وقعت لتيمور خلال الحقبة الأولى من حكمه مناسبة لاختبار مقدرته على الحكم والقيادة ، تمهيداً للمهمة التي نذر نفسه لتحقيقها في مستقبل حياته ، وهي السعي للسيطرة على العالم . وعلى الرغم من كثرة مشاغله فقد وجد متسعاً من الوقت ليباشر بتحقيق العديد من الاصلاحات .

ولذلك اعتبرت السنوات العشر الاولى من حكم تيمور حقبة متميزة بعض الشيء عن الحقبة اللاحقة من حكمه ، لأن جهود سيد ماوراء النهر كانت في تلك المرحلة منصبة على توحيد هذه البلاد ، والقضاء على النفوذ الأجنبي فيها والمتمثل بمطامع حكام القبجاق بمنطقة خوارزم ثم بالدفاع عنها ضد الاعداء الخارجيين الطامعين بها ، ولا سيما الجتا في أواسط آسية . لقد اتصفت أعمال تيمور في هذه المرحلة بأنها تمهيد للمراحل المقبلة ، ضد الداخل الايراني المتحضر ، الخطوة الأولى في مخططه الطموح .

الفصـــــل الاول

تيمـــور سـيد ماوراء النهــــــر
(٧٧١ـ٧٨١هـ(١٣٧٠ـ١٣٨٠ م)

منافسـو تيمور ـ مساعي، أبي البركات ـ تنصيب تيمور ـ ألقاب تيمور ـ حـدود الدولة ـ إعلانه عفواً عاماً ـ انتقاله إلى سمرقند ـ التنظيم الإداري ـ تنصيب خان من أحفاد جنكيز خان ودوافعه ـ سيورغتمش ـ محمـود ـ موقف تيمور من الثورات المعارضة له ـ القضاء على كيخسرو ، شيخ محمد بن بيان سلدوز ـ العمران والاصلاح في سمرقند ، في كيش .

منافسو تيمور

كان القضاء على الأمير حسين بتعاون عدد من أمراء البلاد ، يأتي تيمور في مقدمتهم، ولذلك فقد كان عدد من هؤلاء الأمراء يطمع بالوصول إلى منصب السلطة العليا . وتـــرى المذكرات أن ثلاثة من الأمراء كانوا ـ أكثر من غيرهم ـ يتطلعون إلى منافسة تيمور على ذلك المنصب ، وهم " محمد شاه " حاكم بدخشان و " كيخسرو " حاكم خُتّلان و " شيخ محمد بن بيـان سلدوز " زعيم قبيلة " سلدوز ". وكان الأول قد انضم بقواته إلى تيمور قبيل معركة بلخ التي انهـارت على إثرها مقاومة الأمير حسين وطلب الاستسلام ، واستند الثاني في تطلعه إلى منصب السلطة العليا إلى أنه كان زوج إحدى قريبات الخان الجغتائي في جغتاي الشرقية، وأما الثالث فكان يتزعم إحدى كبريات قبائل الأتراك الجغتائيين التي كانت تتألف من عدة آلاف من الأسـر (1) .

مساعي أبي بركـات

وكان تيمور ـ وهو في ذلك الوقت أحد الأمراء ـ يستند إلى تأييد رجال الدين، وكان عدد من هؤلاء يلازمه في حاشيته ، بالإضافة إلى ماكان له من دور فعال في التخلص من الأمير حسين ، يفوق دور أي أمير آخر . وتشير المذكرات إلى أن دعوةً للاجتماع لدراسة أحوال البلاد وجهها أحد رجال الدين من الذين كانوا في حاشية تيمور، هو السيد أبـو البركات . وقد التأم الاجتماع في بلخ وحضره عدد كبير من رجال الدين والأمراء . ووقـف أبو البركات بالحاضرين خطيباً، وطلب منهم أن " يحمدوا الله على أن كامل أرض توران هـي الآن نظيفة من كل المشاغبين " ثم تابع قوله " وإذا أنتم اتحدتم وانتقيتم شخصاً على أنـه أخ أكبر فإن اتحادكم سوف يحقق الازدهار ، ولكن إذا اختلفتم وانقسمتم إلى ممالك فـإن الجتا الكفار سيسحقونكم في وقت قريب جداً " . ولم يقبل أبو البركات خلال المناقشة الـتي دارت عقب إلقائه خطابه اقتراح محمد شاه بتقسيم البلاد إلى أربعة ولايات بحجة " أن تعدد الحكام هو مناسبة للشجار والشقاق " ثم تابع كلامه : " وبما أنني انتسب إلى الحسين بن علي حفيد الرسول ، وبالاتفاق مع جميع سادة مكة والمدينة فإننا نعتبر الأمير تيمور نائبــاً للخليفة في منطقة توران " . وطالب كيخسرو الذي كان يحضر الاجتماع بإجراء قرعة بين الامراء الاربعة المتنافسين . ولما وُوفق على الاقتراح كتبت السماء المرشحين على أربع رقـاع من الورق ، ووضعت تحت سجادة . وسحب أبو البركات إحدى الرقاع ، فخرجت القرعة علـى

(1) : Stewart: op. cit. P. 133

تيمور[١] . ولا تصادف مثل هذه التفصيلات في المراجع التيمورية الاخرى .

ولا يشير كل من شامي ويزدي إلى وجود منافسين لتيمور على منصب السلطة العليا . وفي الوقت الذى يتحدث فيه يزدي عن ذلك الاجتماع ، الذي حضره الأمراء الثلاثة الآخرون الذين تذكرهم المذكرات بأنهم كانوا ينافسون تيمور ، فإنه يقول : إن جميع الحاضرين قد وافقوا على اقتراح أبي البركات بلسان واحد وقلب واحد ، على مبايعة تيمور بالسلطة من أجل نصرة الدين وتيسير أمور المسلمين وتطبيق أحكام الشريعة . ويضيف يزدي أنه قد روعيت عند جلوسه المراسيم المتعارف عليها عند جلوس السلاطين ، فأُلبس التاج الملكي المرصع بالجواهر واليواقيت ، وكان ذلك في يوم الأربعاء الموافق للثاني عشر من رمضان عام ٧٧١ هـ (١٦ أيار ١٣٧٠)[٢] . وكان تيمور عند ذلك في الخامسة والثلاثين من العمر[٣] . وتضيف المذكرات على ذلك بأن أبا البركات قد انتقى بعد دراسة وتمحيص وقتاً ميموناً ، وأخذ تيمور مع أربعة آخرين من السادة من يديه وأجلسوه على العرش الذي كان على شكل مصطبة بيضاء ، بينما كان جميع الحاضرين يركعون على ركبهم ، ثم نهضوا ورفعوا أصواتهم بالدعاء له بالنجاح والتوفيق[٤] . ويصف كاهون مراسيم التنصيب بأنها جرت وفق العادات والتقاليد التركية القديمة[٥] .

تنصيب تيمور

هذا ولا يشير شامي إلى اجتماع أو حفل لتنصيب تيمور . ويورد أخبار استلام السلطة بشكل عابر ، ولا يعطيه مظاهر التعظيم التي تشاهد في المذكرات أو فيما كتبه يزدي . فهو يقول عن ذلك : وبما أن قضية الأمير حسين قد وصلت إلى نهايتها ، وأصبحت مملكة بلخ تحت تصرف تيمور ، وأضحت المغانم كثيرة ، وانتشر خبر هذا النصر بين العالمين ، وأصبحت قصة صاحب القران شائعة في كل مكان ، فقد انتقل من بلخ إلى كش ومنها إلى سمرقند . وانشغل بعمارة القلاع والقصور . وأصبحت المملكة تحت تصرف الأمير صاحب القران باتفاق الأمراء . وكان على سرير الملك البادشاه سيورغتمش الذى جددت له البيعة[٦] .

---

(١) : Stewart: op. cit. P. 134 (٢) : يزدي ج ١ ص ١٥٧ _ ١٥٨

(٣) : زعم بوفا أن ١٢ رمضان ٧٧١ هـ يقابل ١٠ نيسان ١٣٧٠ م والأصح ما ذكر أعلاه . هذا Bouvat: (E.I.)T. IV P.818 ويزعم غروسيه أن عمر تيمور كان عند جلوسه أربعة وأربعين عاماً انظر : Grousset: op. cit. P. 493

(٤) : Stewart: ibid . وتورد المذكرات تفاصيل أخرى عن تنصيب تيمور فتقول إنه في اليوم التالي لتنصيب تيمور قدم كبار الأمراء إلى خيمة تيمور وبعد تقديم التهاني له قام أبو البركات خطيباً فقال " ... إن الرسول قد قال : لقد تركت لأمتي شيئين هامين الأول الكتاب المقدس [كذا] والثاني أعقابي . وهذا الإرث الآن بيد الأمير تيمور . إن الذين سيطيعونه سيكونون سعداء في هذا العالم والعالم الآخر . ثم رفع القرآن الذي كان موضوعاً أمامي [أمام تيمور] ووضعه على رأس كل شخص قائلاً : دع هؤلاء الذين اختاروا الدخول في هذا الميثاق يأتون، والذين اختاروا أن يسقطوا خارجاً دعهم يسقطون " وردد كل شخص من الحاضرين " سمعنا وأطعنا ،

(٥) : Cahun : op. cit. P. 934 (٦) : شامي ص ٦١

ويتضح مما أوردته المذكرات وذكره يزدي ، أن تيمور رغب في أن يحيط مراسيم تنصيبه بهالة مقدسة . فهو نائب عن الخليفة في منطقة توران ، وأجلسه على العرش أحد أعقاب الرسول ، وكان تنصيبه من أجل رعاية مصالح المسلمين وتسيير أمور الدين .

وأعقب تيمور مراسيم جلوسه على العرش – حسب ماترويه المذكرات – بتوزيع الأموال والهدايا بكرم وسخاء على أتباعه من الضباط والجند ، ثم على العامة من الناس الذين احتشدوا خارج المكان الذي تم فيه التنصيب (١) .

ألقاب تيمور

وليس هناك مايشير بالتحديد إلى اللقب الذي أطلق على تيمور بعد تنصيبه حاكماً على البلاد . وقد جاء في الخطبة التي ألقاها خطيب مسجد بلخ ، صباح أول أيام عيد الفطر ، الذي أعقب تنصيبه بأقل من عشرين يوماً ، قول الخطيب عن تيمور : " السلطان العادل والخاقان الراشد والباديشاه الشهير والأمير المجيد " (٢) . وعلى الرغم من أن يزدي يقول عن تيمور في هذه المناسبة ، إنه " سلطان ممتاز من سلاطين العصر " ، فليس هناك فيما كتبه ، مايشير إلى أن تيمور قد اتخذ لقب سلطان ، أو غيره من الألقاب التي عرف بها فيما بعد (٣) عقب تنصيبه مباشرة . ويذهب بوفا إلى القول إن لقب سلطان قد اتخذه تيمور لنفسه عام ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) بشكل رسمي ، عقب وفاة صنيعته السلطان سيورغتمش . وقد انتهى مع وفاة هذا السلطان الدمية تردد تيمور في حمل هذا اللقب ، وخوفه من إثارة غضب خانات جغتاي الشرقية (٤) .

وعرفت لتيمور ألقاب أخرى ، كانت أقل شهرة واستعمالا في كتابات الكتاب والمؤرخين من لقبي " صاحب القران " (٥) و " السلطان " . فقد أشار ابن عربشاه إلى أن أتباع الفاتح التركي كانوا يطلقون عليه أحياناً لقب " أمير " (٦) ، ويقول إن ابن خلدون قد استعمل هذا اللقب في مخاطبة تيمور خلال مجالساته له في دمشق عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) (٧) .

ومن الألقاب الأخرى غير الشائعة الاستعمال التي أطلقت على تيمور لقب " گورگان " (Gurgan) الذي أشار اليه كل من ابن عربشاه ويزدي وإن اختلفا في رسمه . فقد رسمه ابن عربشاه " كوركان " (٨) ورُسم في إحدى نسخ تاريخ يزدي " كورگان " (٩) . ويقول بلوشيه إن اللفظ المغولي الأصل ، ويعني «صهر الحاكم» ، وهو يعادل في المعنى تعبير " فو – ما " (Fou-Ma) الذي أطلقته المصادر الصينية على تيمور (١٠) . ويقول ابن عربشاه في سبب إطلاق هذا اللقب على تيمور هو دأبه على الزواج من بنات الملوك (١١) .

(١) : Stewart : op.cit. P. 136 وقد صورت المذكرات هذا السخاء والكرم فقالت على لسان تيمور : " لم يبق لي إلا حصان واحد وسيف واحد وترس واحد ودرع واحدة وجعبة واحدة مع قوسها وسهامها " . ولما ذكره أحد خدمه أنه لم يبق في مخازنه أي شيء أجابه تيمور : " إذا كنت ملكاً فإن كل أموال العالم هي لي . وأي شيء يمتلكه رعاياي لي . إنهم مخازني وحسب وإذا لم أكن ملكاً فإن أي شيء أمتلكه الآن لن يدوم " : انظر : Stewart : ibid

(٢) Stewart : op.cit. P. 137 : (٣) : يزدي ج ١ ص ١٥٧

(٤) Bouvat : L'Empire Mongol 47 (٥) : انظر ماورد بشأن هذا اللقب الفصل الثاني من الباب الثالث . (٦) : ابن عربشاه ص ٧٢ و ٢١٨ (٧) : ابن عربشاه ص ٢١١

(٨) : ابن عربشاه ص ٦ (٩) : يزدي ج ١ ص ٣٠٨ وهـ ٣ من الصفحة ذاتها .

(١٠) : Blochet : op.cit. P. 243 (١١) : ابن عربشاه ص ٦

ضفاف نهر خشك (كشقاداريا) (١) • وكان على تيمور عقب وصوله إلى سمرقند وبعد فراغه من مراسيم الاستقبالات والتهاني التي أحاطه بها سكان المدينة ، أن يباشر بتنظيم أحوال الدولة فأصدر مجموعة من التعليمات على شكل مرسوم عام لتتخذ أساسا في التعامل والاجراء في المجال الإداري المدني وفي الجيش (٢) • واتبع ذلك بسلسلة من التعيينات في المناصب الهامة — في العاصمة (٣) — المدنية والعسكرية • وشملت التعيينات أقرباءه وأتباعه من أفراد قبيلة برلاس • ويعلق يزدي على هذه التعيينات بأنها كانت تتناسب مع قابليات واستعدادات من شغلوا هذه المناصب • (٤)

التنظيم الإداري

كان تيمور حريصاً على التمسك بشكل ظاهري بالشرعية التي تتمثل بوجود أحد أحفاد جغتاي بن جنكيز خان على رأس الدولة • وكان عرش خانية جغتاي في سمرقند قد شغر بمقتل الخان كابُل شاه عام ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥ م ، على يد بعض الأمراء في محاولة لتوحيد الكلمة أمام غزوة الجتا التي تصدت البلاد في ذلك التاريخ • وكان وصول كابل شاه إلى العرش في العام الماضي (٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م) ، قد أوقع الخلاف بين هؤلاء الأمراء وانقسموا بين مؤيد ومعارض لهذا الخان (٥) • ولا يشير أي من المراجع التيمورية الأخرى ، إلى ذلك المصير المفجع الذي انتهى إليه كابل شاه ، ولا إلى الكيفية التي حل بها خلفه بالعرش الخاني • إلا أن شامي يورد اسم "عادل سلطان بن محمد" في قائمته التي أوردها لخانات جغتاي ، بعد اسم كابل شاه مباشرة ، وهما عنده الخانان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون في هذه القائمة (٦) • وتتوافق أقوال المذكرات وشامي ويزدي وحافظ آبرو خلال عرضهم أحداث الصراع بين تيمور والأمير حسين في أنه كان يشغل عرش خانية جغتاي في سمرقند عام ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ — ١٣٦٨ م عادل سلطان الذي عينه الأمير حسين لأنه من ذرية جنكيز خان (٧) •

تنصيب خان من أحفاد جنكيز خان ود وافعه

وعلى الرغم من أن عادل سلطان قد وصل إلى عرش الخانية بدعم من الأمير حسين ، فقد انضم إلى تيمور وأرسل إليه رسالة يحذره من مكائد الأمير حسين ، وقد اضطره هذا الموقف أخيراً إلى الفرار من حسين واللجوء إلى تيمور • ولا نعلم شيئا عن المصير الذي

---

(١) : شامي ص ٦١ ويزدي ج ١ ص ١٦١

(٢) : Stewart : op. cit. P. 139 وسنرجع لدراسة هذه التعليمات بالتفصيل مستقبلاً •

(٣) : ينفرد ابن عربشاه بذكر أن تيمور عقب قدومه من بلخ إلى سمرقند ظل متمسكا باتفاق سابق مع حاكم سمرقند الذي كان قد عينه الأمير حسين ويدعى "علي شير" وكان هذا قد انحاز إلى تيمور قبل أن يزحف على بلخ ليخوض المعركة النهائية ضد الامير حسين • وكان هذا الاتفاق يقتضي باقتسام الحكم في المدينة بينهما • (انظر ابن عربشاه ص ١١ — ١٢) ويتابع ابن عربشاه فيقول : إلا أن تيمور بعد عودته من حروبه في بلاد القبجاق وإثر خلاف وقع بينه وبين علي شير قتله وانفرد بالحكم (ابن عربشاه ص ١٣) •

(٤) : يزدي ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢ و Stewart : op. cit. P. 139 - 140

(٥) : Stewart : op. cit. P. 85 (٦) : شامي ص ١٤

(٧) : Stewart : op. cit. P. 123 هذا ولا يذكر زامباور في معجمه كل من كابل شاه وعادل سلطان في سلسلة خانات جغتاي الذين وصلوا إلى العرش وبالتالي فهو لا يحدد لكل منهما تاريخاً لاستلام العرش وتاريخاً آخر للوفاة ولكنه يشير إليهما على أنهما من أسرة جغتاي انظر زامباور ج ٢ ص ٣٧٢ — ٣٧٣ وانظر أيضاً شامي ص ٥٩ ويزدي ج ١ ص ١٢٨ وحافظ آبرو: زبدة التواريخ ص ٢٦ •

ويرى ستيوارت في مقدمته التي كتبها لـ "مذكرات تيمور" أن استعمال هذا اللقب قديم . فقد حمله " قراجار" أحد زعماء قبيلة " برلاس" للسبب نفسه ، وذلك عندما تزوج من ابنة جغتاي بن جنكيز خان (١) . وكان لقب كوركان من جملة الألقاب التي أطلقت على الفاتح التركي في إحدى الخُطب في مسجد بلخ عقب تنصيبه مباشرةً (٢) ، عام ٧٧١ هـ .

وأشارت المذكرات في مكان آخر ، إلى أن تيمور اتخذ عام ٧٧١ هـ (١٣٧٠ م) نفسه لقباً آخر هو " قطب " . ووُصف بأنه لقب ملكي . وورد هذا اللقب في الرسالة التي وجهها شاه شجاع المظفري إلى تيمور عام ٧٨٦ هـ (١٣٨٥ م) ، على شكل " قطب الحق والدنيا والديـن (٣) " . وأورده زامباور في معجمه على شكل " قطب الدين " مع لقب گوركان (٤) .

حدود الدولة

وعلى الرغم من الإشارة التي وردت في خطاب أبي البركات ، بأن دولة تيمور كانت تضم بلاد توران ، فقد اتضح أنها تضم مناطق تتجاوز الحدود المعروفة لبلاد توران من ناحية الجنوب والشرق . ومن الممكن تحديد الحدود التي كانت لدولة تيمور خلال المرحلة الأولى من حكمه ، من تلك الرسالة التي وجهها تيمور إلى حكام القلاع التي كانت تنتشر على حدود الدولة ، والتي أشارت إليها المذكرات . ويتضح من هذه الرسالة التي قصد بها تيمور إعلام هؤلاء الحكام باستلامه منصب السلطة العليا في البلاد ، أن خط الحدود كان يمتد في الجنوب ، من موقع شادمان إلى "قندوز" و " كابلستان " اللتين تقعان في جنوب نهر جيحون. وأما من جهة الشرق فان نفوذ تيمور كان يصل إلى كاشغر ، ومنها يتجه إلى انديجان وطاشقند وخجند. ويساير خط الحدود بعد ذلك نهر سيحون المعتبر خط الحدود الشمالي لما وراء النهر مع بلاد القبجاق ، ثم ينعطف الحد نحو الغرب تاركاً منطقة خوارزم خارج حدود الدولـة (٥) .

إعلانه عفواً عاماً

وقد حاول تيمور منذ الأيام الأولى لاستلامه الحكم ، أن يحدد للناس بعض المبادئ السياسية التي سيعمل على تطبيقها في الدولة ، من خلال تصريح أعلنه على الملأ . وقد نص في هذا الإعلان على أنه يمنح الأمان ويعفو عن جميع من شهروا السلاح في وجهه وناصبوه العداء في الماضي، في سائر المناطق الخاضعة لحكمه . وهو يعتبر أن جميع الناس هم أصدقاء له . وأنه قد محى من نفسه كل عداء أو رغبة بالانتقام . وأنه يعلن عن تنازله عن أي شيء كان له وفقده أو سُلب منه خلال مدة الاضطراب الماضية . وأنه يؤكد بشكل خاص على منح العفو لجميع أتباع الأمير حسين ، فهم آمنون منذ الآن (٦) .

انتقاله إلى سمرقند

بعد أن حضر تيمور صلاة عيد الفطر في مسجد بلخ ، غادر المدينة في اليوم التالي بعد أن عين عليها أحد أتباعه حاكماً (٧) . وعسكر في طريقه إلى سمرقند بجوار كيش ، على

---

(١) : Stewart: op.cit. Preface PXVI (٢) : Stewart: op. cit. P. 137
(٣) : يزدي ج ١ ص ٣٠٨ (٤) : زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ ج ٢ ص ٤١٠
(٥) : Stewart : ibid (٦) : Stewart: op. cit. P. 136
(٧) : يزدي ج ١ ص ١٦٠ و Stewart : op. cit. P.137

ضفاف نهر خشك (كشقاداريا) (١) . وكان على تيمور عقب وصوله إلى سمرقند وبعد فراغه من مراسيم الاستقبالات والتهاني التي أحاطه بها سكان المدينة ، أن يباشر بتنظيم أحوال الدولة فأصدر مجموعة من التعليمات على شكل مرسوم عام لتتخذ أساسا في التعامل والاجراء في المجال الإداري المدني وفي الجيش (٢) . واتبع ذلك بسلسلة من التعيينات في المناصب الهامة — في العاصمة (٣) — المدنية والعسكرية . وشملت التعيينات أقرباءه وأتباعه من أفراد قبيلة برلاس . ويعلق يزدي على هذه التعيينات بأنها كانت تتناسب مع قابليات واستعدادات من شغلوا هذه المناصب . (٤)

التنظيم الإداري

كان تيمور حريصاً على التمسك بشكل ظاهري بالشرعية التي تتمثل بوجود أحد أحفاد جغتاي بن جنكيز خان على رأس الدولة . وكان عرش خانية جغتاي في سمرقند قد شغر بمقتل الخان كابل شاه عام ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥ م ، على يد بعض الأمراء في محاولة لتوحيد الكلمة أمام غزوة الجتا التي قصدت البلاد في ذلك التاريخ . وكان وصول كابل شاه إلى العرش في العام الماضي (٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م) ، قد أوقع الخلاف بين هؤلاء الأمراء وانقسموا بين مؤيد ومعارض لهذا الخان (٥) . ولا يشير أي من المراجع التيمورية الأخرى ، إلى ذلك المصير المفجع الذي انتهى إليه كابل شاه ، ولا إلى الكيفية التي حل بها خلفه بالعرش الخاني . إلا أن شامي يورد اسم "عادل سلطان بن محمد" في قائمته التي أوردها لخانات جغتاي ، بعد اسم كابل شاه مباشرة ، وهما عنده الخانان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون في هذه القائمة (٦) . وتتوافق أقوال المذكرات وشامي ويزدي وحافظ آبرو خلال عرضهم أحداث الصراع بين تيمور والأمير حسين في أنه كان يشغل عرش خانية جغتاي في سمرقند عام ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ — ١٣٦٨ م عادل سلطان الذي عينه الأمير حسين لأنه من ذرية جنكيز خان (٧) .

تنصيب خان من أحفاد جنكيز خان ودوافعه

وعلى الرغم من أن عادل سلطان قد وصل إلى عرش الخانية بدعم من الأمير حسين، فقد انضم إلى تيمور وأرسل إليه رسالة يحذره من مكائد الأمير حسين ، وقد اضطره هذا الموقف أخيراً إلى الفرار من حسين واللجوء إلى تيمور . ولا نعلم شيئا عن المصير الذي

(١) : شامي ص٦١ ويزدي ج ١ ص١٦١

(٢) : Stewart: op.cit. P. 139 وسنرجع لدراسة هذه التعليمات بالتفصيل مستقبلاً .

(٣) : ينفرد ابن عربشاه بذكر أن تيمور عقب قدومه من بلخ إلى سمرقند ظل متمسكا باتفاق سابق مع حاكم سمرقند الذي كان قد عينه الأمير حسين ويدعى "علي شير" وكان هذا قد انحاز إلى تيمور قبل أن يزحف على بلخ ليخوض المعركة النهائية ضد الامير حسين . وكان هذا الاتفاق يقتضي باقتسام الحكم في المدينة بينهما . (انظر ابن عربشاه ص١١ — ١٢) ويتابع ابن عربشاه فيقول : إلا أن تيمور بعد عودته من حروبه في بلاد القبجاق وإثر خلاف وقع بينه وبين علي شير قتله وانفرد بالحكم (ابن عربشاه ص١٣) .

(٤) : يزدي ج ١ ص١٦١ — ١٦٢ و Stewart: op. cit. P. 139 - 140

(٥) : Stewart : op. cit. P. 85 (٦) : شامي ص١٤

(٧) : Stewart: op.cit.P.123 هذا ولا يذكر زامباور في معجمه كل من كابل شاه وعادل سلطان في سلسلة خانات جغتاي الذين وصلوا إلى العرش وبالتالي فهو لا يحدد لكل منهما تاريخاً لاستلام العرش وتاريخاً آخر للوفاة. ولكنه يشير إليهما على أنهما من أسرة جغتاي انظر زامباور ج ٢ ص٣٧٢ — ٣٧٣ وانظر أيضاً شامي ص٥٩ ويزدي ج ١ ص١٣٨ وحافظ آبرو: زبدة التواريخ ص٢٦ .

انتهى إليه عادل سلطان ولا عن التاريخ الذى شغر فيه عرش الخانية . ولكن العرش كان خالياً عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م ، ولذلك كان على تيمور أن يبحث عن شخص مناسب لمـــلء هذا المنصب ، بتمثل فيه الشرعية بنوع خاص ، لأن تطبيق الشرعية برفع أحد أحفاد جغتاي بن جنكيز خان إلى العرش ، قد يضعف مركز تيمور كحاكم فعلي للبلاد أمام الحاكم الشرعي . ولذلك وجد تيمور أن من المناسب أن يرفع إلى هذا المنصب أحد الأمراء من بيت جنكيز خـــان ولكنه ينتمي إلى فرع آخر من فروع هذا البيت ، هو فرع أوكداي ثالث أبناء الفاتح المغولي ، وهو الأمير " سيورغتمش " بن دانشماندجه . وكان والده دانشماندجه قد رفع إلى العـــرش سيورغتمش ليلعب دور الخان الدمية نفسه ، في أيام الأمير تازغن عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، ولكنه لـــم يلبث أن قتل بعد عامين خوناً من نقمة الناس ، لأنه لم يكن من أحفاد جغتاي بن جنكيزخان[١] ولكن ثقة تيمور بنفسه دفعته لأن يتخطى العقبة التي وقف عندها الأمير قازغن ، فاستدعـــى سيورغتمش ابن الخان القتيل دانشماندجه لتسلم العرش . ويقول كل من شامي ويزدي إن تنصيب سيورغتمش سلطاناً ، كان عندما كان تيمور يزحف من سمرقند إلى ترمذ ومنها إلـــى بلخ لخوض المعركة النهائية ضد الأمير حسين . وقد أُقيم احتفال لذلك في موقع " اريـــوز " القريب من بلخ[٢] . وقد تجاسر المؤرخ كمال الدين سمرقندي الذى كتب تاريخه بعـــد مدة من وفاة تيمور ، على الإشارة إلى أن المحتفلين بتنصيب سيورغتمش ظلوا يحتسون الخمر طيلة ذلك اليوم[٣] . إلا أن ابن عربشاه الذي يشير إلى تنصيب سيورغتمش يقول إن ذلـــك التنصيب كان بعد عودة تيمور من بلخ إلى سمرقند[٤] . ومما لاشك فيه أن تيمور أراد مـــن وراء تنصيب الأمير سيورغتمش سلطاناً ، أن يكسب نفسه صفة المدافع عن الشرعية في صراعه المنتظر مع الأمير حسين في معركة بلخ . ويعلق شامي على عمل تيمور قائلاً بأن الجند من كافـــة الأنحاء هرعوا إلى تيمور والتفوا حوله عقب سماعهم بالمناداة بالأمير سيورغتمش سلطاناً[٥] .

استطاع تيمور برفع أحد الأمراء من بيت اوكداي بن جنكيز خان ، أن يحقق فوائد أخرى ، بالإضافة إلى تدعيم مركزه كحاكم فعلي للبلاد ، أمام سلطان عريق النسب لا يسلم فريق من الناس بأحقيته بالجلوس على عرش خانية جغتاي ، لأن ميراث فرع أوكداي هو في خارج ماوراء النهـــر . لذلك فقد يفتح هذا الحال أمام تيمور مجال المطالبة بحق حكم المناطق المخصصة لأبنـــاء أوكداي ، في مناطق أخرى من الامبراطورية المغولية الواسعة[٦] ، في الوقت الذى لا يخشـــى فيه منافسة الخانات أنفسهم ، بسبب الضعف الشديد الذى وصل اليه أفراد هذا الفرع مـــن بيت جنكيز خان (فرع أوكداي)[٧] .

(١) : انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا البحث

(٢) : شامي ص٨٥ ويزدي ج ١ ص٩ ٢٤٩ (٣) : سمرقندى ص٤١٧

(٤) : ابن عربشاه ص١٢ (٥) : شامي نفسه (٦) : Prawdin: op. cit. P. 192

(٧) : سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ص٤٧٢ هذا ويعلل سمرقندي إعطاء عرش الخانيـــة إلى أحد أحفاد اوكداي من دون أصحاب الحق الشرعيين أحفاد جغتاي بأنه لـــم يكن بين هؤلاء من كان أهلا لهذا المنصب . انظر سمرقندي ص٤١٧ .

وكان الخان الجديد الذى نصبه تيمور ، في أول أمره أميراً في حاشية تيمور ، واشترك معه في عدد من العمليات العسكرية ولاسيما خلال مراحل الصراع مع الأمير حسين (١) . وزوجه تيمور عام ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) من إحدى شقيقاته (٢) . ولكنه لما رفعه إلى عرش الخانية ، أحاطه بكل مظاهر العظمة والاحترام ، فقد قُرئت خطبة الجمعة باسمه الذي ضرب على النقود أيضاً (٣) . وكان تيمور يُرى في الأعياد والمناسبات الرسمية وهو ينحني أمامه (٤) . ويعلل بارتولد كل هذه المظاهر برغبة تيمور بإظهار احترامه للعادات والتقاليد الإدارية المغولية ، في الوقت الذي كان فيه لا يكن أي احترام لشخص ذلك الخان الدمية (٥) .

امتد عمر السلطان سيورغتمش حتى أواسط عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، عندما أصيب بالمرض ، لما كان في بخارى . وعلى الرغم من العناية التي أحاطه بها تيمور ، وتخصيص عدد من كبار الأطباء لملازمته والإشراف على علاجه ، فقد وافته المنية وحمل جثمانه من بخارى إلى كيش حيث دفن هناك (٦) .

وكان تيمور عند وفاة السلطان سيورغتمش في إحدى غزواته إلى خوارزم . ولما عاد نودي بمحمود بن سيورغتمش " سلطاناً في أواخر ذلك العام . ويقول شامي إنه قد تم ارتقاء الباديشاه محمود عرش جغتاي ، في احتفال روعيت فيه المراسم المغولية ، وبعد أن تشاور تيمور مع الأمراء من أجل تأمين مصالح الرعايا ، ولرعاية حقوق الخان الراحل . وكذلك فقد ضُربت السكة باسم السلطان الجديد الذي تمتع بعيش رغيد في سمرقند (٧) . ويضع شامي اسم الخان محمود في آخر قائمة الخانات الجغتائيين ، وهو عنده الخان الحادي والثلاثون . ويُشفع ذكره بعبارة " خلد الله ملكه " مما يفيد أنه كان حياً عندما كتب شامي مؤلفه (٨) .

محمود

ومن المؤكد - كما يقول ابن عربشاه - أن سيورغتمش ثم ابنه محمود ، لم يكونا يتمتعان بأية سلطان حقيقية . وكانا عند تيمور كالأسيرين . ويشبه ابن عربشاه حالهما بحال الخلفاء العباسيين المعاصرين - لابن عربشاه - مع سلاطين المماليك (٩) . وقد صور بعض مؤرخي مغرب العالم الاسلامي العلاقة بين تيمور والخان على أنها علاقة بين أتابك مستبد وسلطان صغير السن (صبي) مغلوب على أمره . ويقول هؤلاء المؤرخون إن تيمور قد تزوج من أم السلطان محمود بعد وفاة زوجها بحكم سيطرته على الخان (١٠) . ويورد ابن خلدون العبارة التي صور بها تيمور أمامه العلاقة القائمة بينه وبين السلطان محمود ، في المقابلة

(١) : شامي ص٣٨ (٢) : يزدي ج ١ ص٩٨، Stewart: op. cit. P.99

(٣) : Prawdin: op. cit. P. 191 (٤) : Cahun: op. cit. P. 952

(٥) : Barthold: Ulugh Beg P. 25 (٦) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص٦٩

(٧) : شامي ص١١١ - ١١٢ ويزدي ج ١ ص ٣٣٠ - ٣٣١ وحافظ آبرو: زبدة التواريخ ص ٦٩

(٨) : شامي ص١٤ .

(٩) : ابن عربشاه ص ١٢ وقد صور العلاقة بين تيمور وسيورغتمش بالعبارات التالية : " هو في أسره كالحمار في الطين وشبيه الخلفاء في هذا الزمان إلى السلاطين " .

(١٠) : ابن خلدون كتاب العبر م٥ ص١١٢٩ وابن خلدون : التعريف ص٣٦٤ و٣٨٢ والعسقلاني ج ١ ص٢٢ و٣٠٢ والسخاوي ج ٣ ص٤٦ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٣ ص٣٢ والحنبلي : الشذرات ج ٧ ص٦٣ .

التي تمت في دمشق بين تيمور وابن خلدون ، وكان محمود قد قدم مع تيمور في حملته ، فقال عن نفسه إنه نائب من نواب صاحب التخت وهو هذا وأشار إلى حيث كان يجلس السلطان محمود[(١)].

ومما يؤكد ضعف سلطة الخان ما ذكره المؤرخون أن تيمور قد اتخذ لنفسه لقب " سلطان " بشكل رسمي ، منذ عام ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) ، بُعيد وفاة السلطان سيورغتمش ، وفي الوقت الذي كان فيه محمود يحمل اللقب ذاته[(٢)] .

اشترك محمود في كثير من المغامرات الحربية التي قام بها تيمور ، في بلاد الجتسما وبلاد القبجاق والهند والعراق بالإضافة إلى حملة بلاد الشام . وقد توفي عقب معركة انقرة بوقت قصير عام ٨٠٥هـ[(٣)] وكان بعض مؤرخي الشام ومصر قد ذكروا أن وفاته كانت في ذلك العام (٨٠٥ هـ)[(٤)] ١٤٠٣ م .

موقف تيمور من الثورات المعارضة له

وكان من المتوقع أن يبدي أنصار وأعوان الأمير حسين شيئاً من المعارضة لسلطة تيمور في أول عهده بالحكم . وعلى الرغم من أن تيمور استطاع أن يسحق كل هذه الثورات وأن يظفر بأسر قادتها ، فإنه عفا عنهم ، وحاول أن يتألف قلوبهم بالجوائز والمناصب لأنه كان يدرك عدم أهمية هذه الحركات وضآلة شأن من قاموا بها . وقد أطلقت المذكرات على حركات هؤلاء تعبير " ازعاجات " لتؤكد على أنها لم تصل إلى قدر من الخطورة لتطلق عليها تعبير " ثورات "[(٥)]، على الرغم من أن بعض هذه الأعمال كان يستهدف الاعتداء على حياة تيمور وتدبير المؤامرات لاغتياله[(٦)] ، لأن تيمور كان يرى أنه من الأفضل له كحاكم جديد ، أن يظهر لرعاياه بمظهر الحاكم الرؤوف ، الذي يفضل العفو رغم مقدرته على البطش . فعفا عن موسى جلاير ، قائد جيوش الأمير حسين ، الذي لاحق تيمور في الماضي مرات عديدة في طول البلاد وعرضها ، وأجبره على مبارحة ماوراء النهر أكثر من مرة . وكان موسى قد اشترك في مؤامرة لاغتيال تيمور ، بعد أن عفا عنه بسبب أعماله السابقة[(٧)] . وعلل تيمور عفوه عنه بأنه يرتبط معه برباط المصاهرة[(٨)]. وعفا تيمور عن شريك موسى الأول في المؤامرة ، وهو أحد رجال الدين ويدعى " أبو الموالي " لأنه زعم بأن نسبه يرجع إلى الرسول[(٩)] . وعفا عن الشريك الثالث وهو " زنده حشم "[(١٠)] حاكم موقع " شبورغان "[(١١)] في أيام الأمير حسين ، بعد أن أخذ منه عهداً بالطاعة وبالسعي

---

(١) : ابن خلدون: التعريف ص٤١٦ (٢) : Bouvat: op. cit. P. 47
(٣) : يزدي ج ١ ص٣٣٢ (٤) : العسقلاني ج ٢ ص٢٢٦ والسخاوي ج ١ ص١٥٠ وابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ١٣ ص٣٢ (٥) : Stewart: op. cit. P. 140,141,143
(٦) : شامي ص٦٤ و Stewart: op. cit. P. 143 - 144
(٧) : شامي ص٦١ ويزدي ج ١ ص١٦٣ و Stewart: op.cit. P.140 (٨) : كان تيمور قد تزوج عام ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م من ساراي ملك خانوم شقيقة موسى وأرملة الأمير حسين Stewart: P.144
(٩) : Stewart: op.cit. P.143-144 (١٠) : شامي ص٦٤ أورد ستيوارت اسمه زنده خشم " Zinde Khushm " بالخاء بينما رسم شامي ويزدي اسمه بالحاء مما يشير إلى أن تصحيفاً طرأ على كتابة الجزء الثاني من اسمه قلب الحاء خاء . انظر لذلك وقابل بين شامي ص٥٨ و٦٢ و٦٣ ويزدي ج ١ ص١٦٣ وبين Stewart: op. cit. P. 140
(١١) : شبورغان بلدة بالقرب من بلخ ذكرها ياقوت انظر معجمه ج ٣ ص٢٢١ وذكرها يزدي بالرسم ذاته ، وكذلك فعل شامي ولكن ستيوارت رسمها (شيرغان) (Shyrghan) مما يشير الى أن تصحيفاً آخر وقع عند رسم اسم الموقع في أعمال ستيوارت انظر مرجعه (من هذه الصفحة .

لإلحاق عشيرته في طاعة تيمور [١] .

ويفسر موقف اللامبالاة الذي كان يتخذه تيمور من هذه الحركات ، إيمانه بأن زمام المبادرة لعلاجها وحسمها هو ملك يديه ، وبأن العفو الذي يمنحه لهؤلاء العصاة الصغار يساعد على تشجيع غيرهم من العصاة على القدوم على تيمور وطلب العفو [٢] . وقد جاء في تعليق لتيمور على إحدى هذه الحركات قوله : " ومنذ أن علمت بهذه الحادثة عصيان زند حشم في شبورغان لم اتخذ لها أية أهمية ، وتظاهرت بكثير من الجهل " [٣] . ولما حضه معاونوه على اتخاذ إجراء حاسم ضد هذا العاصي وأنصاره أجاب قائلا : " اذا تقدمت ضدهم بنفسي فانني أكون قد أعطيتهم قدراً من الأهمية في أعين رعيتي " [٤] .

القضاء على كيخسرو ختلاني

وأمام سياسة اللين التي كان تيمور يبديها لبعض العصاة الذين شهروا السلاح في وجهه ، فانه على النقيض من ذلك ، فقد سار على سياسة الشدة والبطش مع أشخاص لم يجهروا له بالعداء الصريح ، ولكنه كان يخشى منهم بسبب سعة نفوذهم بين الناس ، أو مطامعهم التي تدفعهم إلى منافسته على السلطة . وقد وصل الحال بتيمور أحياناً إلى حد الغدر بهؤلاء واختلاق التهم لهم للتخلص منهم . وينطبق هذا الوصف على كيخسرو ختّلاني الذي كان يتقاسم مع شقيقه كيقباد حكم مقاطعة ختّلان ، في أيام الأمير حسين . وقد بلغ اتساع نفوذ الأخوين آنذاك حداً دفع الأمير حسين إلى قتل كيقباد واجتياح ختلان واجبار كيخسرو على الفرار لاجئاً إلى خان الجتا في جغتاي الشرقية عام ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م [٥] .

وتذبذب كيخسرو بعد ذلك في ولائه بين الأتراك والمغول الذين حالفهم وأصهر إلى خانهم تغلق تيمور خان ، وتزوج من إحدى قريباته، وتولى قيادة أحد جيوش الجتا للإغارة على ماوراء النهر. ولكنه لم يلبث أن وقع في أسر الأمير حسين الذي عفا عنه. ولكن كيخسرو عاد فثار عليه ، واضطر إلى الفرار هائماً على وجهه في الجبال عند فشل ثورته ، وانحاز أخيراً إلى تيمور الذي كان يناضل ضد الأمير حسين ، ويسعى للبحث عن حليف يقف بجانبه في هذا النزاع . ولذلك وبسبب صلة المصاهرة التي كانت تربط كيخسرو بخان الجتا فقد خطب تيمور ابنة كيخسرو وتدعى " رقية خانيكه " لابنه محمد جهانكير [٦] . وقد تزوج جهانكير رقية خانيكه هذه فيما بعد [٧] . ووقف كيخسرو إلى جانب تيمور في معركة بلخ الحاسمة التي قرر الأمير حسين على إثرها أن يستسلم لتيمور . وكان من أكبر المنادين بضرورة التخلص من الأمير حسين . وتم القضاء على الأمير الأسير (الأمير حسين) عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م على يده [٨] .

ولكن طمع كيخسرو دفعه لمنافسة تيمور على منصب السلطة العليا ، وأخذ يبدو على أنه منافس

---

(١) : شامي ص٦٣ ويزدي ج ١ ص١٦٤ـ١٦٨ و Stewart: op. cit. P. 140 - 142

(٢) : يزدي ج ١ ص١٦٦ و Stewart : P. 141 (٣) Stewart:op.cit. P. 140

(٤) : Stewart : ibid وهذا كان حال ثائر ثالث على تيمور في هذه الآونة يدعى كبك تيمور ثار عام ٧٧٢ هـ في الشمال في منطقة تقع على ضفاف سيحون . انظر يزدي ج ١ ص١٦٩ و١٧٠ و Stewart:P. 49 (٥) : يزدي ج ١ ص١٢٠ و Stewart:op.cit.P.42-43

(٦) : يزدي نفسه Stewart:op.cit.P.112 (٧) : حافظ آبرو زبدة التواريخ ص٤٠ و

(٨) : يعلل ابن عربشاه شدة عداء كيخسرو للأمير حسين بأقدام حسين في وقت سابق على اعتقال أحد أبناء كيخسرو ضماناً لولائه ثم أمر بقتل الولد على مرأى من والده . انظر ابن عربشاه ص١٠ ـ ١١ .

خطير لحاكم البلاد الجديد ، وقد أشارت المذكرات إلى ذلك بشكل صريح (١) .

وتنسب المصادر التيمورية إلى كيخسرو أنه أقدم عام ٧٧٣ هـ (١٣٧٢ م)، عندما كان مع سيد البلاد الجديد (تيمور) في غزوة لخوارزم على مراسلة "حسين صوفي" حاكم تلك البلاد سراً ، ونصحه بأن لا يثق بوعود تيمور وشجعه على المقاومة ، وأعلمه أن أي صلح أو اتفاق مع تيمور لن يكون في صالحه (٢) . وأعقب ذلك بإرسال مندوب عنه قابل حسين صوفي وعقد معه اتفاقاً ، تعهد كل منهما بموجبه للآخر بالعمل معاً للقضاء على حاكم ماوراء النهر. وعلم تيمور في وقت مبكر بحركات كيخسرو وبالمراسلات وبالاتفاق. وأخذ ينتظر الفرصة المناسبة لمحاسبة كيخسرو على فعلته زهاء عام ، إلى أن قدمه للمحاكمة أمام مجلس من الأمراء ورجال الدين بالقرب من قارشي عام ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م). وفاجأه أمام الحاضرين بنسخة المعاهدة السرية التي عقدها مع حسين صوفي ممهورة بخاتمه الخاص . وأخذت المفاجأة من كيخسرو - على حسب تعبير المصادر التيمورية -(٣) ، واعترف بما جنته يداه ، وخاطب تيمور قائلاً : "إنني مستحق لأي عقاب تفرضه سموك" (٤) ومن الغريب أن يضيف يزدي إلى قائمة اتهام كيخسرو جريمة قتل الأمير حسين (٥) ، الذي قتل قبل ثلاثة أعوام ، في الوقت الذي أبقى فيه شامي بعض الابهام في تلك القائمة ، عندما قال عن كيخسرو إنه دعى حسين صوفي إلى المخالفة والحرب، وثبتت عليه قضايا أخرى (٦) . ومهما يكن من أمر فإن تيمور بتوجيه تهمة قتل الأمير حسين إلى كيخسرو والقضاء عليه ، قد أصاب هدفين بآن واحد ، فقد تخلص من منافس خطير ، وأزال شيئاً من غضب أقرباء الأمير حسين عليه (٧) .

شيخ محمد بن بيان سلدوز

وانتظر تيمور حتى عام ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ - ١٣٧٥ م)، إلى أن سنحت له فرصة مناسبة أخرى ، مكنته من القضاء على المنافس الثاني وهو شيخ محمد بن بيان سلدوز . وحول زعامة قبيلة سلدوز إلى أحد أنصاره (٨) .

العمران والاصلاح في سمرقند

إن اتخاذ تيمور سمرقند عاصمة له دفعه إلى الاهتمام بالمدينة من الناحية العمرانية، فأمر - في هذه الحقبة من حكمه - ببناء مسجد كبير فيها ، ورباط للزهاد ينقطعون فيه للعبادة (٩) . وعين للإشراف على أعمال البناء عدداً من مساعديه. وقد هدف تيمور من أعماله في المدينة إزالة ما حل بها من خراب خلال حوادث الصراع مع الجتا (١٠) .

ويتحدث ابن عربشاه عن قمع تيمور لمجموعات الدعار والمصارعين الملاكمين الذين كانوا يقيمون في سمرقند . وكان هؤلاء حزبين متنافسين . وكثيراً ما كانت تقع المصادمات بينهما ،

---

(١) : Stewart: op. cit. P. 147 وجاء فيها على لسان تيمور عن كيخسرو : "إن روحه الطموحة تدفعه إلى أن يتطلع إلى السلطة العليا".
(٢) : شامي ص٦٧ وحافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ٣٣ .
(٣) : شامي ، نفسه ويزدي ج ١ ص ١٨١ و Stewart: op. cit. P. 147
(٤) : Stewart: ibid . (٥) : يزدي نفسه (٦) : شامي : نفسه
(٧) : Barthold: op.cit. P. 18 (٨) : يزدي : ج ١ ص ١٩٣
(٩) : شامي : ص٦١ ويزدي ج ١ ص ١٦٢ و Stewart: op. cit. P. 138
(١٠) : يزدي : ج ١ ص ١٦٢

ولا سيما عندما يكون تيمور خارج المدينة • ويقول إن شاغبات هؤلاء وثورانهم قد تكررت في سمرقند مرات عديدة ، مما اضطر تيمور للتفكير للتخلص منهم • ولذلك دعى إلى حفل عام يقام في المدينة حضره السكان ، وكان من جملة من حضر هؤلاء الملاكمون الذين كان يستدعي كل واحد منهم على حدة ، بحجة الانعام عليه،ثم يرسل به إلى ناحية معينة وهنالك كان يتلقاه أنصار تيمور ويحملون على القضاء عليه على الفور (١) .

في كيش

اهتم تيمور في تلك الفترة من حكمه بالعمران خارج عاصمته سمرقند فأمر عام ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) بإقامة قصر في شهري سبز (كيش) ونقل لعمارته المهندسين والصناع من خوارزم ودعي القصر بـ " آق سراي " (القصر الأبيض) (٢) • ولا تزال بقايا آق سراي قائمة إلى الوقت الحاضر (٣) .

---

(١) : ابن عربشاه ص ١٣ ـ ١٤

(٢) : يزدي : ج ١ ص ٢٢١

(٣) : بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٢٢٩ .

الفصل الثاني

تأمين الحدود الشمالية والغربية

الغاية الأولى من الحروب ـ ذرائع الحروب ضد خوارزم ـ الاتصالات السلمية ـ الحملة الأولى عام ٧٧٣ هـ ـ الحملة الثانية عام ٧٧٤ هـ ـ زواج محمد جهانگير بن تيمور من خان زاده ـ الحملة الثالثة عام ٧٧٧ هـ الحملة الرابعة عام ٧٨٠ هـ ـ أسباب حروب تيمور في بلاد الجتا ـ خانية قمر الدين ـ الحملة الأولى عام ٧٧٢ ـ الحملة الثانية ـ الحملة الثالثة عام ٧٧٦ هـ ـ الحملة الرابعة ٧٧٧ هـ ـ الحملة الخامسة ٧٧٧ هـ ـ لجوء توقتميش إليه ـ الانتصار على القبجاق ـ هجوم جلاير والقبجاق على سمرقند .

الغاية الأولى من الحروب

ترتبط حروب تيمور في خوارزم وبلاد الجتا خلال السنوات العشر الاولى من حكمه برغبته بتأمين حدود ماوراء النهر الشمالية في وجه الجتا، والحدود الشمالية الغربية مع بلاد القبجاق[1] ، حيث كان يحكم فرع آخر من فروع بيت جنكيز خان هو فرع جوجي أكبر أبناء الفاتح المغولي . وبما أن الحدود بين أملاك ولدي جنكيز خان جوجي وجغتاي لم تكن واضحة[2] ، فقد انحدرت إلى تيمور الذي نصب نفسه مدافعاً عن حقوق بيت جغتاي في منطقة خوارزم ، مشاكل النزاع التي كانت في الماضي محتدمةً بين أبناء الأسرتين الحاكمتين في كل من بلاد القبجاق وبلاد جغتاي . وتؤكد المراجع التيمورية على أن خوارزم هي من الحصة التي خصصها جنكيز خان لابنه الثاني جغتاي[3] . وهي تشكل أقصى أملاكه من ناحية الغرب[4] ، كما أنها كانت مرتبطة من الناحية الإدارية بالوس جغتاي[5] . وكانت الضرائب التي يدفعها سكانها تدخل في خزانة خانيته[6] . واتضح أن السيطرة على هذه المنطقة كانت مسألة أساسية بالنسبة لتيمور ، حتى أن بعض المؤرخين يعتبرون أن حكم

ذرائع الحروب ضد خوارزم

ماوراء النهر لم ينتظم ولم يستقر إلا منذ أن أخضع هذه المنطقة لحكمه[7] . وكانت تحكم خوارزم في تلك الآونة أسرة آل صوفي التي تنتمي إلى قبيلة مغولية متركة هي قبيلة غوتكرات[8] ، وقد تخلصت هذه الأسرة حديثاً من حكم القبيلة الذهبية[9] . ولكنها ظلت على علاقات طيبة معها ، وقد لعب اختلاف المستوى الحضاري بين الأتراك الجغتائيين في ماوراء النهر ، وبين منطقة خوارزم ، دوراً في إذكاء العداء بينهما ، لأن آل صوفي

---

(١) : Cahun : op. cit. P. 949 et Grousset : op. cit. P. 500

(٢) : Barthold et Boyle : Batu (E.I.)T, I P. 1139
انظر ايضا الفصل السابع من الباب الأول والفصل الأول من الباب الثاني من هذا البحث.

(٣) : شامي ص٦٥ و(٤) Stewart: op, cit. P.144 : ميرخوند : م٥ ص ٤٢.

(٥) : يزدي ج ١ ص ١٧٣ (٦) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ٣١

(٧) : السخاوي: الضوء اللامع ٣ ص ٤٦ و

(٨) : يزدي نفسه (٩) : بارتولد ص ٢٢٩ هذا وقد ذكر بارتولد في مؤلفه ـ في مكان آخر ـ أن منطقة خوارزم كانت خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر أكثر ارتباطاً بمناطق حوض الفولغا منها بمناطق حوض سيحون. انظر بارتولد تاريخ الترك ص ١٦٧

استطاعوا أن يتمثلوا المدنية الإسلامية بدرجة أكبر مما كان عليه الحال لدى الأتـــراك الجغتائيين في ماوراء النهر[1] . وقد انعكس ذلك في حديث مؤرخي مغرب العالـــم الإسلامي عن مؤسس الأسرة وهو "حسين صوفي" الذى وصل إلى الحكم عام ٧٦١ هـ/١٣٦٠م خلال الآونة التي كانت ماوراء النهـر تعاني فيها من وطأة الاحتلال المغولي[2] ، والذي انفجر النزاع بين أسرته وبين تيمور في عهـده ، فينعت ابن عربشاه حسين بأنه رجل صالـح[3] ، ويلقبه صاحب الضوء اللامع "بالحاج حسين" .[4] وكان تيمور وأتباعه ـ الأتراك الجغتائيون ـ في الوقت نفسه يظهرون في نظر سكان خوارزم على أنهم وثنيون . وقد خاطب حسين صوفي موفد تيمور إليه قائلاً "إن بلادكم دار حرب وإن مجاهدتكم فرض على المسلمين"[5] . وكان من الصعب على تيمور أن يترك آل صوفي يتمتعون باستقلالهم في منطقة قريبة من الأراضـي الخاضعة لحكمـه ، وهم أسـرة ـ كآل تيمور ـ من الممكن أن تنافس تيمور على الحكـم[6] . وقد اظهر هؤلاء رغبتهم في مزاحمة تيمور على النفوذ في ماوراء النهر عندما استغلوا حالـة الفوضى التي كانت سائدة في البلاد ، خلال الصراع على السلطة بين الأمير حسين ـ حفيد قازغـن ـ وتيمور ، فضموا إليهم مدينتي "كات" و"خيـوق" (خيوه اليـوم)[7] القريبتين من المجرى الأدنى لنهر جيحون . ولذلك فقد صورت المذكرات حسين صوفي بأنه رجل طاغية ، ظلم السكان الذين أرسلوا يستحثون تيمور "لينقذهم من أيدي هذا الظالم" الذى استولى على الحكم عندما لم يجـد من يردعه عنه ، ولم يتورع عن شن الغارات بقصد السلب والنهب . كما أن تيمور كان يلحظ نظرات الحقد والكراهية التي كانت ترتسم على وجهه ، عندما كـان يتردد على مجلس تيمور[8] . ويرى بارتولد أن حروب تيمور في خوارزم كانت جزءاً من مخططه الذى يستهدف السيطرة على البلاد المغمورة بالحضارة الإيرانية[9] . وكان من الطبيعـي أن يبدأ بخوارزم أقرب هذه البلاد اليه .

الاتصالات السلمية

ويشير المؤرخون التيموريون إلى أنه سبقت عمليات تيمور الحربية في خوارزم ، اتصالات سلمية ومراسلات بدأت في وقت مبكر ، عام ٧٧٢ هـ (١٣٧١ م) ، عندما أرسل تيمور يذكـر حسين صوفي بالعلاقات القديمة التي كانت تربط خوارزم بالوس جغتاى ، ويطالبه بالتمســك بالمودة والصداقة. ولكن تيمور لم يتلق إلا رداً جافاً ينطوي على التعالي والرفض . وذكر حسين في رده أن حكمه لخوارزم يستند إلى قوة سيفه المستعد دائماً للدفاع . ويتضح من صيغة رد حسين هذا أن تيمور كان قد طلب منه الإقرار بالتبعية له . وأرسل تيمور في العالم التالـي إلى خوارزم بعثة جديدة برئاسة أحد رجال الدين لنصح حسين وليحقن دماء المسلمـين ولكن حسين أقدم على اعتقال الوفد[10] .

---

(١) : بارتولد ص٢٢٩ (٢) Grousset: op. cit. P. 498 (٣) : ابن عربشاه ص١٦

(٤) : السخاوي ج ٣ ص٤٦ (٥) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص٣٢

(٦) : بارتولد نفسه (٧) : Grousset : ibid .

(٨) : Stewart: op.cit. P. 144 (٩) : بارتولد نفسه

(١٠) : شامي : ص٦٥ ويزدي ج ١ ص١٧٣ وحافظ آبرو ، زبدة التواريخ ص٣٢

ولما لم يكن تيمور مستعدا للرضوخ أمام هذا التحدي ، وهو الذي يعتبر نفسه ممثلاً للخان الجغتائي ونائباً عن الخليفة في بلاد توران [١] ، فقد اعتبر إقدام حسين على اعتقال وفده سبباً كافياً للإغارة على خوارزم .

الحملة الاولى عام (٧٧٣هـ)

وتقدم على رأس قواته في ربيع ١٣٧٢ م (٧٧٣هـ) عبر صحراء قزيل-كوم ، التي قضى فيها آماداً طويلة من حياته السابقة مشرداً ، ونجح في الاستيلاء على أول مدن منطقة خوارزم وهي مدينة "كات" . ولما حاول حسين التقدم من عاصمته "اورگنج" لصد المغيرين ، أجبرته جيوش تيمور على الارتداد عبر أحد فروع جيحون ، يدعوه يزدي "نهر قارون" ، وعبرت قوات تيمور النهر غير عابئة بالمياه على ظهور الخيول . ودارت بالقرب من العاصمة معركة ضارية كان جند تيمور خلالها يغيرون على أعدائهم وينتزعونهم عن ظهور خيولهم . وقضى الشعور بالهول من الهزيمة على حسين فمات . وأسرع شقيقه يوسف صوفي الذي خلفه في الحكم إلى استرضاء تيمور، وعرض عليه أن يزوج ابنة شقيقه وتدعى بلقب "خان زاده" من أحد ابناء تيمور ، تأكيداً لحسن النية ، ورغبة بالتمسك بالصداقة [٢] . ولكن تيمور اشترط لقبول العرض أن يحكم يوسف صوفي خوارزم منذ الآن ، بصفته وكيلاً عن محمد جهانگير بن تيمور ، الذي رشحه والده لهذا الزواج. وقبل على إثر هذا القدر الذي حققه من تبعية آل صوفي إليه بالعودة إلى سمرقند .

الحملة الثانية عام (٧٧٤هـ)

ووجد تيمور نفسه مضطراً ، بعد عام واحد ، للعودة إلى خوارزم على رأس حملة ثانية (رمضان ٧٧٤هـ/ شباط ١٣٧٣م) ، على إثر ما شعر به من عدم إخلاص يوسف في تعهده ، وذلك من خلال وقائع محاكمة كيخسرو ختلاني واعترافاته . ولكن ظهور تيمور على رأس جيوشه في خوارزم ، أجبر يوسف على الرضوخ وطلب الأمان [٣] ، وأرسل ابنة أخيه الأميرة خان زاده محملة بالهدايا ، كبرهان على عزمه على إتمام الزواج المقترح . ونعتت المذكرات الأميرة بالفصاحة واللباقة والبراعة الفاتنة . وأوردت بعض العبارات التي خاطبت بها تيمور ليعفو عن عمها فقالت له : "إن البادشاه هو الذي يسامح الملوك كما يسامح الشحاذين تماماً . وهو لا يحاسبهم بقسوة على أعمالهم وإن كان هؤلاء مذنبين وجانحين ، بل يسامحهم ويعفو عنهم اختياراً ، لأن العدو إذا سأل الصفح فإنه يجب ألا يعتبر عدواً . وكذلك فإن الحكومة العظيمة عندما ترفع أي إنسان فإنها لا تهوي به مرة ثانية إلى الأرض ، ومهما يكن قد فعل فلا تجوز العودة عليه . وهو [البادشاه] لا يقيم أي تعويل على صداقة أي شخص ، كما أنه لا ينظر بحقد لعداوة أي إنسان ، بل يعتبر أن كلا الشخصين متساويان في عدم الجدارة بالاستحواذ باهتمامه [٤] . وقرر تيمور على إثر ذلك العودة إلى سمرقند .

كانت "سوين بيك" (الاسم الأصلي للأميرة) فضلاً عن أنها إحدى أميرات البيت

---

(١) : Cahun : op. cit. P. 950

(٢) : شامي ص٦٧ ويزدي : ج ١ص١٧٨-١٧٩ وحافظ آبرو: زبدة التواريخ ص ٣٤ و Stewart: op. cit. P. 145 - 147

(٣) : شامي ص٨٦ ويزدي: ج ١ص١٨١ - ١٨٢ و Stewart: op. cit. P. 147

(٤) : Stewart: op. cit. P. 148

المالك في خوارزم ، وأبوها "آق صوفي" شقيق حسين ويوسف صوفي ، فهي في الوقت نفسه حفيدة خان الاوزبك من ناحية والدتها (١). وقد أرسل تيمور في شوال عام ٧٧٥هـ (نيسان ١٣٧٤ م) وفداً من ثلاثة من أمرائه محملين بالهدايا إلى خوارزم ، لمصاحبة الأميرة العروس إلى دار زوجها في سمرقند. وأحسن يوسف استقبال الوفد، وسمح له بعد عدة ايام بالعودة بصحبة ابنة أخيه. ولما اقترب موكب خان زاده من ضواحي سمرقند ، كان عدد من السيدات من قريبات تيمور ومعهن عدد كبير من الأمراء في استقبال الموكب ، بناء على توجيهات من تيمور. وعقد قران محمد جهانكير على الأميرة بمظاهر الشرف والتعظيم ، وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، وبحضور عدد كبير من رجال الدين والقواد والأمراء (٢).

زواج محمد جهانكير بن تيمور من خان زاده

ولا يذكر المؤرخون سبباً لسير تيمور للمرة الثالثة على خوارزم ، في ربيع عام ١٣٧٦ م (٧٧٧هـ)، وكان يرافقه في هذه المرة ابنه محمد جهانكير (٣). ويقول شامي إنه لما بلغ "كات" إحدى المدن الرئيسية في خوارزم ، جاء الخبر من حاكم سمرقند بأن جماعات من قبيلة "جلاير" تحاول الإغارة على سمرقند ، فأعاد تيمور ابنه على رأس قوة لاعتراض المغيرين ، وعاد في إثره إلى سمرقند (٤).

الحملة الثالثة عام (٧٧٧هـ)

وأعقب ذلك حقبة سلم طويلة نسبياً ، انشغلها تيمور لشن الحملات على بلاد الجتا. ولكنه وجد نفسه مضطراً للعودة مرة رابعة إلى خوارزم ، عام ٧٨٠هـ (١٣٧٨م) ليفرض سلطته على يوسف صوفي ، الذي عاد إلى سياسة التعالي ، وحاول ان يستغل انشغال تيمور بصد غارات القبجاق عن بلاده في العام الماضي. وربما كان لوفاة محمد جهانكير قبل ذلك الوقت ١٣٧٥ م (٧٧٧هـ)، واعتقاد يوسف صوفي بانقطاع الصلة التي كانت تربطه بسمرقند ، أثر في دفعه إلى التطاول إلى حد دفعه إلى سجن موفد تيمور ، وكان قد جاء ليذكره بضرورة التمسك بالاتفاق الذي كان قائماً بينه وبين تيمور (٥). ودفعه غروره كما يقول يزدي إلى الاغارة على بخاري (٦). فسار إليه تيمور على رأس قواته من زنجير سراي ، في شوال ٧٨٠هـ (شباط ١٣٧٩م) وكان ظهوره بالقرب من اوركنج سبباً في أن يتراجع يوسف صوفي عند عناده ، عندما رأى جيوش تيمور تجتاح بلاده ، تسلب وتنهب وتأسر الرجال وتسبي النساء (٧).

الحملة الرابعة عام (٧٨٠هـ)

ويقول يزدي إن يوسف صوفي عرض على تيمور حقناً للدماء ولتجنيب البلاد الخراب والدمار المبارزة ، ووافق تيمور ولكنه لما تقدم إلى أسوار اوركنج في الموعد المتفق عليه، لإجراء المبارزة ، جبُن يوسف عن اللقاء ولم يحضر (٨). ويشير المؤرخون التيموريون إلى كثرة ضحايا الطرفين ، في المعركة التي وقعت بالقرب من أسوار المدينة ، وتمكن التيموريون في النهاية من

---

(١) : شامي : ص٦٧ ويزدي : ج اص ١٨٠ وحافظ آبرو : زبدة التواريخ ص٣٤. والاوزبك نسبة إلى أوزبك خان وهو احد خانات مغول القبجاق، حكم بين ١٣١٣ ـ ١٣٤٠، أطلق اسمه منذ القرن الخامس عشر على الشعوب التي كانت تسكن بلاد جوجي (القبجاق). انظر بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص١٨٠ (٢) : شامي : ص٦٨ ويزدي : ج ١ ص١٨٧ و (٣) Stewart: op. cit. P. 148 : يزدي: ج اص ١٩٤
(٤) : شامي : ص٧١ ـ ٧٢ (٥) : شامي: ص٧٩ ويزدي : ج اص ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٦) : يزدي : ج اص ٢١٥ (٧) : شامي: ص٨٠ (٨) : يزدي: ج اص ٢١٦ ـ ٢١٨

فرض الحصار عليها ، وقصفوا قصر يوسف صوفي بالمنجنيقات ، واستمر الحصار مدة طويلة (ثلاثة أشهر وستة عشر يوماً). وتمكن التيموريون أخيراً من اقتحام المدينة ، وجعلوا أعاليها أسافلها ـ على حد قول يزدي ـ وقاموا بأعمال القتل والنهب على نطاق واسع [1]. ويشير كل من شامي ويزدي إلى وفاة يوسف صوفي بعد احتلال المدينة بأيام قليلة ، متأثراً بعارض نفسي بسبب ما حلّ به من الخوف والضجر خلال الحصار . ويؤكدان أن الوفاة كانت بتقدير إلهي ، ولا دخل لتيمور في ذلك [2]. وأرسل تيمور عقب سيطرته على المدينة أعيان السكان إلى كيش أسرى ، وعاد هو إلى سمرقند [3].

إن حرص تيمور على حماية حدود دولته الجديدة دفعه إلى القيام بسلسلة أخرى من الحروب ضد جيرانه الجتا ، خلال هذه المرحلة الأولى من حكمه . وإذا انتهت حروبه في خوارزم إلى الاستيلاء على عاصمتها وتهديمها ، فإن حروبه في بلاد الجتا لم تنته إلى نتيجة مماثلة خلال تلك المرحلة ، على الرغم من الحملات الخمس التي سار على رأسها والغزوات التي أرسلها بقيادة أبنائه وقواده . وكان الجتا قد دأبوا خلال مدة طويلة في الماضي ، على القدوم إلى ماوراء النهر بقصد السلب والنهب ، وراء ستار من رغبتهم في مد سلطان الخان الجغتائي الشرقي على ماوراء النهر التي تشكل في نظرهم الجناح الغربي لهذه الخانية .

وفي الوقت الذي حاول فيه تيمور أن يظهر بمظهر المدافع عن حقوق بيت جغتاي الحاكم في ماوراء النهر في حكم خوارزم ، فقد سعى لأن يعطي حروبه ضد الجتا معنى الجهاد الإسلامي ضد الوثنية [4]، والذي قد يخفي وراءه بعض معاني العداء القومي بين المغول في جغتاي الشرقية (مغولستان) والأتراك الجغتائيين في ماوراء النهر [5]. وكان يغذي هذا العداء الاختلاف في المستوى الحضاري الذي أضحى واضحاً بين المغول والأتراك في أيام تيمور . وكان من المؤكد بالنسبة لتيمور ، أن ماوراء النهر ذات الحضارة الراقية والمدن الغنية والاقتصاد المزدهر ، ستكون هدفاً لغارات بدو الجتا والقبجاق ، الذين يتقنون فن الغارات المفاجئة ، للقيام بأعمال السلب ، ثم الانسحاب إلى سهوبهم عند إحساسهم بالمقاومة ، ولذلك فقد اندفع تيمور الذي كان على علم بعادات وتقاليد عالم البداة ، ليحمل الحرب إلى بلاد هؤلاء ، وليحول في الوقت نفسه دون خراب ماوراء النهر [6]. وكانت براري مغولستان لاتزال تذكي عند تيمور روح المغامرة ، بعد أن أضحى حاكماً لما وراء النهر ، ولم يستطع المنصب الجديد أن ينسيه شخصيته القديمة ، شخصية زعيم عصابة من المغامرين [7].

هذا وكانت الأوضاع في خانية جغتاي الشرقية ، قد تبدلت خلال المرحلة التي كانت الأحداث في ماوراء النهر ، تنجلي عن استقرار تيمور في منصب السلطة العليا . وقد استطاع أحد

---

(١) : يزدي : ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ . (٢) : شامي : ص ٨١ ويزدي : ج ١ ص ٢١٩

(٣) : يزدي : ج ١ ص ٢٢٠ (٤) : Stewart : op. cit. P. 149

(٥) : بارتولد : ص ٢٢

(٦) : Prawdin : op. cit. P. 207 et Grousset : op. cit. P. 500

(٧) : Cahun : op. cit. P. 949

أفراد قبيلة "دوغلات" ويدعى "قمر الدين" أن يستأثر بالحكم لنفسه وأن يحمل لقب الخان، بعد أن قتل الخان الشرعي الياس خواجا بن تغلق تيمور خان [1]، عام ٧٧١هـ (١٣٧٠م) [2]، وكان لقبيلة دوغلات المغولية المتركة دور كبير في تسيير الأمور في خانية جغتاي الشرقية، منذ أيام تغلق تيمور خان، بسبب نشاط زعمائها واتساع نفوذها [3]. وفي الوقت الذي يؤكد فيه يزدي على أن قمر الدين ينحدر من قبيلة دوغلات [4]، ترد الإشارة في المذكرات على أنه من أصل رقيق [5]. وعلى الرغم من أن هدف تيمور الأصلي من حروبه في بلاد الجتا خلال السنوات العشر الأولى من حكمه، هو رد غارات هؤلاء عن بلاده، إلا أنه وجد في الوقت نفسه، أن هذا الهدف لن يتحقق إلا بالخلاص من قمر الدين. ولذلك ألح في ملاحقته، وحاول أن يظهر نفسه أنه في هذه الحروب إنما يقف إلى جانب الحكام الشرعيين، أحفاد جغتاي بن جنكيزخان، في وجه هذا المغتصب المعتوه ذي الأصل الوضيع [6]. وتأتي أهمية حروب تيمور في بلاد الجتا من أنها وقعت في بلاد شاسعة وعرة المسالك، وضد عدو لا يمكن حصره وأسره، بسبب سرعته في الحركة وإتقانه فن الكر والفر والاختفاء، مستفيداً من وعورة البلاد وكثرة جبالها وغاباتها التي كانت تقدم له ملاجئ آمنة [7]. وعلى الرغم من أن تيمور وصل في ملاحقته لقمر الدين إلى مناطق بعيدة في وسط آسية، فبلغ ضفاف بحيرة "إيسيق - كول" وشواطئ نهر "ايلي"، فإنه لم يحصل من عدوه في نهاية هذه المرحلة من الحروب سوى أن يتزوج من إحدى بناته.

الحملة الأولى عام (٧٧٢هـ)

وكانت حملة تيمور الأولى على بلاد الجتا عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠-١٣٧١م، حملة استطلاع لأحوال الحدود الشمالية، ولتأكيد سلطته على العشائر النازلة في تلك المناطق - على حد قول يزدي [8] - إلا أن المذكرات تشير إلى أن سبب تحرك تيمور في ذلك التاريخ، كان لاقتراب قمر الدين من حدود ماوراء النهر، بناء على تحريض وصلة من بعض الأمراء - الأميرموسى وزنده حشم - لغزو ماوراء النهر والقضاء على تيمور. ولكن سرعة تيمور في التحرك من سمرقند باتجاه الحدود الشمالية أقنعت الجتا بالانسحاب [9].

الحملة الثانية

ولم تذكر المصادر التيمورية تاريخاً محدداً للحملة الثانية على بلاد الجتا. ويفهم من يزدي أن ذلك كان عقب الحملة الأولى بمدة وجيزة، في خلال المدة المتبقية من ذلك العام (٧٧٢هـ) أو في مطلع العام التالي (٧٧٣هـ). وقد نفذ تيمور من ماوراء النهر إلى تلك البلاد من موقع مدينة "سيرام" [10] القائمة على أحد روافد سيحون (نهر آريس)، حين تقدم منها إلى "تالاس" (اولياأتا الحالية) [11]. وأجبر القبائل التي تسكن تلك المناطق على الفرار،

---

(1): Barthold et Spuler : Dughlat (E.I.T. II P.P. 637 - 638)
P.637 et Grousset : ibid .

(2): زامباور: ج ٢ص ٢٧٠ (٣): يزدي: ج ١ص ١٨٩

(4) Barthold et Spuler : ibid (5) Stewart : ibid

(6): Stewart : op. cit. P.P.143,149 (7): Grousset : ibid

(8): يزدي: ج ١ص ١٦٩ (9): Stewart:op. cit. P. 143 .

(١٠) سيرام: هي اسبيجاب التي ذكرها جغرافيو القرن العاشر الميلادي. انظر: الاصطخرى: ص ٢٩١ وابن حوقل ص ٣٨٧. وطغى اسم سيرام عليها منذ العصر المغولي. انظر: فرنسيس رعواد: بلدان الخلافة ص ٥٢٧

(11): Grousset : ibid .

ونشر نفوذه وسطوته – كما يقول يزدي – حتى مسيرة شهر، وعاد محملاً بالغنائم الوفيرة (١) .

الحملة الثالثة [...] وانتظر تيمور مدة طويلة نسبياً ليقوم بحملته الثالثة إلى بلاد الجتا في شعبان ٧٧٦هـ (كانون الثاني ١٣٧٥م) وهي أهم حملاته الخمس في تلك الآونة من حكمه . ولا يعطي يزدي عام (٧٧٦هـ سببا معينا لهذه الحملة ، في الوقت الذي تقول فيه المذكرات إن تيمور أراد القيام بهذه الحملة ليقضي على مطامع قمر الدين ، في مد نفوذ خانية جغتاي الشرقية على ماوراء النهر . وتنقل المذكرات على لسان قمر الدين قوله : " سآخذ مملكة ماوراء النهر بقوة سيفي من الأمير تيمور (٢)" . وكذلك ، وفي الوقت الذي يقول فيه يزدي إن تيمور اضطر للعودة من موقع قطغان (قطوان كما ذكرها شامي) (٣) إلى سمرقند بسبب شدة البرد ليعاود الزحف بعد شهرين (٤) ، أي في شوال من ذلك العام (آذار ١٣٧٥م) ، فإن المذكرات تقول إن تيمور ظل رغم قسوة برد الشتاء وهطول الثلوج الغزيرة ورجاء قواده كله بالعودة ، يقاوم قسوة الطبيعة ، ولم يتوقف بسبب ذلك سوى أربعة أيام ، تابع بعدها السير لأنه يعتقد أنه " إذا عزم الملك على أي أمر فيجب عليه أن لا ينحرف عن غايته " ، وهو لن يرجع إلا بعد أن يوقع قمر الدين أسيراً في يده (٥) . وأمر تيمور ابنه محمد جهانكير أن يتقدم بجزء من القوات ، بغية الإسراع في ملاحقة قمر الدين ، الذي اتبع اسلوب البداة في القتال، وآثر الانسحاب من وجه القوات الغازية من مكان لآخر . وكان جهانكير قد سلك طريق الحملة السابقة نفسه، فنفذ من سيرام إلى تالاس (٦) ، ومنها إلى " توقماق " الحالية القائمة عند المجرى الأدنى لنهر تشو (٧) ، وربما كانت " جارون " التي أشار إليها كل من يزدي والمذكرات (٨) ، حيث توفرت له بعض المعلومات عن مكان وجود قمر الدين من أسير وقع في يده ، ولذلك اندفع جهانكير بقواته إلى مكان تدعوه المصادر التيمورية بـ" بركة غوريان " (٩) . ويقول عنه غروسيه إنه يقع عند المجرى الأعلى نهر ايلي في السفوح الشمالية لجبال " آلاتاو " (Ala-Taou) ، وإلى الشمال الغربي من بحيرة ايسيق – كول قريباً من مدينة " كاستيك " (Kastek) الحالية (١٠) . وهو ممر جبلي حصين، حيث دارت هناك معركة ثبت فيها قمر الدين خلال النهار ، ولكنه لم يلبث أن فرّ أثناء الليل . وكان تيمور قد غذ السير في إثر ابنه ولما أدركه عند بركة غوريان ، كانت قوات الجتا قد لاذت بالفرار . وأمر تيمور بعض قواته بملاحقة الأعداء في هذه المنطقة التي تشكل قلب خانية جغتاي الشرقية ، إلى ان بلغت ضفاف نهر ايلي ، حيث غرق فيه أحد قواد تيمور (١١) . وتقول المذكرات إن قمر الدين استطاع النجاة

---

(١) : يزدي: ج اص ١٧٠–١٧١ (٢) : Stewart: op. cit. P. 148
(٣) : قطوان : موقع شمال سمرقند على بعد خمسة فراسخ منها انظر: ياقوت الحموي : المعجم ج ٤ ص ٣٧٥ (٤) : شامي: ص٦٩ ويزدي: ج اص ١٨٨ (٥) : Stewart: op. cit. P. 149
(٦) : تالاس هي طراز كما سمّاها جغرافيو القرن العاشر الميلادي انظر:
Heyd: Histoire du Commerce au Levant au Moyen Age T. II P. 239
وقد ذكرها يزدي باسم " ينكي " ج اص ١٣١ انظر أيضاً Crousset : ibid .
(٧) : Grousset : ibid (٨) : يزدي : ج اص ٨٩ او Stewart : ibid
(٩) : يزدي : نفسه و Stewart: ibid .
(١٠) : Grousset : op. cit. P. 501 (١١) : يزدي : نفسه و Stewart: ibid

مع سبعة من جنده بعد أن أوشك أن يقع في أسر القوات المغيرة [١] ، واختفى في أحد الكهوف.[٢] وانتظر تيمور في موقع " باي — تاق " ، في الوقت الذي كان فيه ابنه محمد جهانكير يتابع اجتياح مناطق أخرى من خانية جغتاي الشرقية ، فتمكن من الوصول إلى منازل الجتا في " أوج قرمان " وأن يأسر أسرة قمر الدين ، وكان من بين الأسرى زوجة شقيقه شمس الدين وتدعى " بويان آغا " وابنة قمر الدين نفسه وهي " دلشاد آغا "[٣]. ويرى غروسية أن هذين الموقعين يقعان — على ما يظهر — عند المجرى الأعلى لنهر " نارين " (Narin) الرافد الرئيسي لنهر سيحون [٤]. وعاد جهانكير إلى والده محملا بالغنائم الوفيرة [٥]. وقرر تيمور النزول عند رغبة أتباعه والعودة إلى سمرقند وقال معلقاً : " إننا أخمدنا النار وسوف نترك الشرر "[٦]. واجتاز تيمور نهر " آت باشي " أحد روافد نارين ، الذي لا يزال يعرف بالاسم نفسه حتى الوقت الحاضر ، إلى سهول " اربه — يازى " ، حيث أمضى فيها مع قواته وقتاً للاستجمام لمدة شهرين ، أحسن خلالها حاكم المنطقة استقبال تيمور ومن معه . وتم في هذا السهل ذي المناظر الخلابة عقد قرانه على دلشاد آغا بنت قمر الدين [٧] . ثم عبرت جيوش تيمور جبال " ياسي " باتجاه مدينة اوزكند ، حيث كانت أخته قتلغ توركان آغا وعدد كبير من الأمراء في انتظاره. وتقدم منها إلى سمرقند ماراً بمدينة خجند [٨] .

هذا ولما لم يتمكن تيمور من القضاء على مقاومة قمر الدين بصورة نهائية . وكان اثنان من الأمراء من أتباع تيمور " عادلشاه جلاير " و " ساريوغا " قد فرّا إلى قمر الدين، وأخذا يحرضانه للإغارة على ماوراء النهر ، ولذلك فقد أغار قمر الدين بقواته عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥ م على " اندكان " (انديجان الحالية) إحدى مدن فرغانة الرئيسية القائمة على نقطة إلى جنوب نهر سيحون ، وكانت تحت حكم ابن تيمور الثاني " عمر شيخ " . ولما كان الهجوم مباغتاً فقد اضطر عمر الشيخ

الحملة الرابعة عام (٧٧٧هـ)

---

(١) : تصوز المذكرات نجاة قمر الدين من الوقوع في الأسر فتقول : " وسار الامير [جهانكير] واقترب من نبع ماء ، كان قمر الدين يتمدد على الأرض بالقرب منه ، ويضع رأسه على حجر ، ولكنه كان مستيقظاً ومعه بعض أتباعه. وعند اقترابهم [جهانكير ومن معه] منه، وكانوا على وشك اعتقاله ، فإن شاباً فتياً من أتباعه ، كان يشبهه لدرجة كبيرة، صاح قائلاً : " أنا قمر الدين " وكانت النتيجة أن تركوا السيد واعتقلوا الخادم والمرافقين الآخرين. وأفلت قمر الدين ... ولما عاد ابني المجيد منتصراً مع أسيره إلى معسكري وجاؤوا به إلى حضرتي، فإن عدداً من أتباعي الذين كانوا يعرفون قمر الدين، قالوا إن هذا ليس هو رغم أنه يشبهه تماماً " انظر : Stewart : op. cit. P. 150

(٢) : Stewart : ibid . (٣) : يزدي : ج ١ ص ١٨٨ — ١٩٠ و Stewart : ibid

(٤) : Grousset : ibid ويرى بارتولد ان المنطقة تقع في تركستان الشرقية انظر: Barthold :four..P. 140 (٥) : يزدي : نفسه (٦) : Stewart : ibid .

(٧) : يزدي : ج ١ ص ١٩١ . هذا ويصور ابن عربشاه زواج تيمور بدلشاد آغا بنت قمر الدين أنه كان إنجازاً لوعد سابق قطعه قمر الدين له بأن يصهر إليه . انظر : ابن عربشاه: ص ١ . ويرجح أن سهول اربه — يازي تقع في سفوح الجبال التي لاتزال تحمل الاسم نفسه إلى اليوم وعند مجرى نهر نارين الحالي . انظر المصور . (٨) : شامي : ص ٧٠ ويزدي ج ١ ص ١٩٢ وابن عربشاه : ص ١٥ و Stewart : ibid

إلى ترك المدينة والاعتصام بالجبال المجاورة ، (وربما كانت إحدى قمم جبال آلاي الحاليـــة) ، ولذلك فقد تمكن قمرالدين من اجتياح المدينة ونهبها . ولما وصلت تيمور أخبارُ الغارة علـــى اندكان وهو في سمرقند ، تحرك من فوره على رأس حملته الرابعة إلى بلاد الجتا . وسلك فـــي هذه المرة طريقاً جديدة غير التي سلكها في حملاته السابقة ، فانطلق شمالاً بشرق عبر ســـهول فرغانة إلى حيث انضمت إليه قوات عمر شيخ ، في المناطق التي تعتصم بها في الجبال ، وتقدمـــا في إثر قوات قمر الدين التي آثرت الانسحاب عندما علمت باقتراب تيمور منها . وبلغت القوات التيمورية في ملاحقتها قمر الدين قرية آتباشي ، القائمة على النهر الذي يحمل الاسم نفســه . وأمر تيمور ابنه أن يتقدم بالجزء الأعظم من الجيش لملاحقة قوات الجتا المتراجعة . ولم يبق تيمور معه أكثر من مائتي جندي وثلاثمائة حصان [١] . وظهر قمر الدين فجأة من كمين أعده قرب آتباشي على رأس أربعة آلاف من الجتا . ولم يجد تيمور — كما يقول غروسيه — أفضل من الاعتماد علـــى شجاعته الشخصية [٢] ، وشهر سيفه واستعد لقتال الأعداء بهذه القوة القليلة . وتصف المذكرات على لسان تيمور حالة أتباعه فتقول : « وشهرت سلاحي ، ولما رأى أتباعي ذلك مني ، وقد قررت الموت أو النصر أصبح الجميع لذلك قلباً واحداً » [٣] وثبت الجميع في أرض المعركة . ولما حاول قمر الدين الاقتراب من تيمور ليطبق عليه ، استقبله تيمور بضربة على خوذته أجبره في إثرها علـــى الفرار ، واضطر جنده إلى أن يلحقوا به [٤] . ولما عاد تيمور إلى سمرقند وجد ابنه جهانگير قـــد فارق الحياة . وكان قد تركه مريضاً قبل مغادرته المدينة [٥] .

الحملة الخامسة عام (٧٧٧هـ

وأغار تيمور للمرة الخامسة على بلاد الجتا في العام نفسه (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) ، لعلـــه يظفر في هذه المرة بقمر الدين . ويقول يزدي في سبب هذه الحملة إن قوات تيمور عادت مـــن الحملة السابقة بكميات كبيرة من الغنائم المختلفة ، مما شجعها على القيام بحملة جديدة [٦] . وتشير المذكرات إلى أن الحملة كانت أيضاً لتأديب قمر الدين لمحاولته الانتقام لهزيمته في المرة السابقة ، وظهوره على رأس جيش كبير على حدود ما وراء النهر الشمالية [٧] . وسار تيمور على الطريق الشمالية ، وعبر سيحون متجهاً إلى منطقة بحيرة آيسيق — كول حيث دارت بينه وبين قمر الديـــن معارك في الشعاب الجبلية [٨] ، التي تقع إلى الغرب من البحيرة [٩] ، ولحق به حتى "قوجقار تكامشي" المجرى الأعلى لنهر "تشو" حسب قول بارتولد [١٠] ووصلته هنا أنباء من سمرقند تقول إن "توقتميش" أحد أمراء البيت الحاكم في بلاد القبجاق ، قد قدم إلى سمرقند فاراً من أروس

(١) : يزدي : ج ١ ص ٢٦٧ و Grousset : ibid : (٢) Stewart : op. cit. P. 151

(٣) : Stewart : ibid

(٤) : تصور المذكرات نهاية الاشتباكات بين تيمور وقمر الدين فتقول : " وأعطيت الأوامر لتطويق قمر الدين ، ولكنه تابع الفرار وتراجع مع سبعة من جنده ظلوا معه . وبما أن جواده كـــان جريحاً ولم يستطع أن يحصل على جواد آخر ، لذلك نزل عنه واختفى بعض الوقت في أحـــد الكهوف . وفي الصباح التالي جُلب حصانه إلي ، ولكننا لم نجد الهارب . وقال قوادي جميعاً إنه بالتأكيد قد انتقل إلى العالم الآخر ، ولكنني لم أوافقهم . وأمرت أن تستمر الملاحقة على كل الجهات ، وبما أننا لم نستطع أن نعثر له على أثر ، فقد صممت على الرجوع إلى سمرقند " انظر Stewart : ibid (٥) : يزدي : ج ١ ص ٢٦٧ — ٢٦٩ وشامي : ص ٧٢ و Stewart ;

(٦) : يزدي : ج ١ ص ٢٠٢ (٧) : Stewart : ibid هذا وتجعل op. cit. P. 152 المذكرات أيضاً تاريخ الحملة الخامسة عام ٧٧٧هـ ويرى ستيوارت أنها تقابل عام ١٣٧٥م (الجزء الأول من ذلك العام) (٨) : يزدي : ج ١ ص ٢٠٢ (٩) : Grousset : ibid

(١٠) : Barthold : Ču (E. I. T. I) P. 902

خان حاكم البلاد (بلاد القبجاق) . ولذلك اضطر تيمور إلى الرجوع إلى عاصمته عن طريق اوزكند (١) . وترك ملاحقة قمر الدين إلى ابنه عمر شيخ الذي لاحقه إلى مكان تدعوه المذكرات سهل "كوراتو" (Kuratu) (وهو مجرى نهر كورتو الحالي أحد روافد نهر ايلي في مجراه الأدنى) . واضطره إلى الفرار إلى الصحراء . وتتابع المذكرات القول " . . . ولا يعلم أحد ماذا حدث بعد ذلك ولكن كامل جيشه [جيش قمر الدين] قد تفرق (٢) . وعاد عمر شيخ بعد ذلك إلى سمرقند .

لجوء توقتميش إليه .

وتعكس عودة تيمور من غزوته لبلاد الجتا على هذا الشكل — بسبب قدوم الأمير توقتميش عليه ، ثم أحاطته الأمير اللاجئ بكل مظاهر الاحترام والإكرام — اهتمامه بالنتائج المرتقبة من هذا اللجوء ، الذي سوف يتيح لتيمور مدّ نفوذه إلى بلاد القبجاق ويحقق له اتقاء أخطار الغارات — وهو يعاني منها الآن من ناحية بلاد الجتا — التي يمكن أن تأتيه من هذه البلاد ، فيما إذا كان الحكم معادياً له هناك (٣) ، فضلاً عما ينطوي عليه لجوء أحد أمراء البيت الحاكم من أحفاد جوجي بن جنكيز خان إلى تيمور من تعزيز لمكانة تيمور نفسه في ماوراء النهر كحاكم لهذه البلاد .

وتشير المصادر التيمورية إلى اتصالات سابقة تمت بين تيمور وتوقتميش (٤) . وتتحدث هذه المصادر عن مظاهر الحفاوة التي أحاط بها تيمور ضيفه ، وعن الحفلات والاستقبالات التي أقامها له والهدايا التي قدّمها إليه وإلى مرافقيه (٥) . ويظهر من منح تيمور توقتميش حكم مدينتي "صبران" و"سغناق" الواقعتين على نهر سيحون مقدار اهتمام تيمور بتأمين حدود بلاده مع بلاد القبجاق ، بإقامته حكم موال له عند الحدود الفاصلة بين الدولتين . وعلى الرغم من عدم نجاح توقتميش في توطيد حكمه في صبران وسغناق وارتداده مهزوماً أمام ابن منافسه قتلق بوغا بن أروس خان ، وإقامته في بخارى حتى شفي من جراحه التي أصيب بها خلال المعركة ، فقد جهزه تيمور بقوات جديدة ، ورفض طلباً لأروس خان لتسليمه له . واضطر آخر الأمر أن يزحف على رأس قوات إلى الشمال ، ويخوض معركة ضد قوات خان القبجاق في مكان على سيحون يقع بين سغناق وأوترار انتهت إلى انتصاره .

الانتصار على القبجاق

وتعزو المصادر التيمورية نجاح توقتميش في ضم شطري القبجاق الشرقي والغربي ، تحت حكمه — فيما بعد — بشكل لم يحدث لحاكم من نسل جوجي بن جنكيز خان قبله ، إلى ذلك النصر الذي أحرزه تيمور على اروس خان (٦) . ومما لا شك فيه أن تيمور الذي عاد من هذه الحملة إلى سمرقند عام ٧٧٨هـ/ مطلع ١٣٧٧م) ، إنما كان يردّ على غارة القبجاق مع حلفائهم من قبيلة "جلاير" على سمرقند في العام الماضي .

(١) : يزدي : نفسه (٢) Stewart : op. cit. P. 153 (٣) Prawdin P. 200

Cahun : op. cit. P. 952, Toynbee : op.cit. T. IV P. 492 .

(٤) : شامي : ص٧٤ ويزدي : نفسه و Stewart : op. cit. P. 153-154

(٥) وقد جاء في المذكرات قول تيمور : " وهيأت له مأدبة عظيمة ، وجمعت القواد والسادة والعلماء لاستقباله ، وقدمت لأعضاء المجلس الطعام والشراب ووزعت المجوهرات والخيول على كل واحد من أتباعه " انظر : شامي : نفسه ويزدي : نفسه و Stewart : ibid .

(٦) شامي : ص٧٥ — ٧٧ ويزدي ج ١ص ٢٠٤ — ٢٠٩ وحدث عند وفاة جوجي بن جنكيز خان أن انقسمت دولته بين أولاده الثلاثة ، الأكبر ويدعى "اوردا" وله الجناح الشرقي وعرفت دولته بـ "آق اوردو" (الخيام البيضاء) ، والأوسط "باتو" وله الجناح الغربي ودعيت دولته بـ "التون اوردو" (القبيلة الذهبية) ، والأصغر شيبان وحكم المناطق الواقعة في الوسط بين نهري ايلي وسيحون . انظر بارتولد : ص ١٦١ و ١٦٧ — ١٦٨ .

هجوم جلاير والقبجاق على سمرقند

وكما استفاد آل صوفي حكام خوارزم من العداء القديم بين حكام القبجاق وحكام ماوراء النهر ، للاحتفاظ باستقلالهم مدة من الزمن ، فإن قبيلة جلاير[1] التي كانت تنزل في منطقة خجند الحدودية في الشمال ، سعت لأن تستغل الوضع المضطرب على الحدود ، في تلك المرحلة من حكم تيمور ، وحاولت تأليب حكام الجتا وحكام القبجاق على دولته الناشئة في ما وراء النهر ، من أجل الحصول على قدر أكبر من ميراث العهد المغولي المنصرم من هذه البلاد ، وتحقيق قدر أعلى من الاستقلال والسيطرة . وكان زعماء هذه القبيلة منذ أيام بايزيد جلاير ، ينكرون على تيمور أن يستأثر بهذا الميراث كله[2]. ويقول يزدي إن تيمور قد أعطى زعامة القبيلة (قبيلة جلاير) عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م إلى "عادلشاه" بعد وفاة والده "بهرام جلاير"[3]. وقد اشترك عادلشاه في عدد من العمليات العسكرية التي قام بها تيمور وابنه جهانگير ضد الجتا . ولكن تيمور لاحظ ، عند ما كان يمر بخجند ، علامات الحقد والكراهية على وجه عادلشاه ، وكان تيمور عائداً من حملته الثالثة على بلاد الجتا[4] . وكانت شكوك تيمور في إخلاص عادلشاه في محلها عندما دبّر — هذا الأمير — بالاشتراك مع حكام القبجاق هجوماً على سمرقند في العام التالي (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) . وكان تيمور في ذلك الوقت غائباً عنها ، في حملته الثالثة على خوارزم . ولكن تحرك قوات تيمور عائدة من خوارزم بقيادة جهانگير على وجه السرعة ، وإدراكها المغيرين عند مدينة "كرمينة" (لاتزال المدينة تحمل الاسم نفسه إلى اليوم) الواقعة على الطريق بين بخارى وسمرقند ، حال بين المتآمرين وبين تحقيق رغباتهم ، بالاستيلاء على عاصمة تيمور ، وأجبرهم على الفرار لاجئين إلى بلاد القبجاق . وانتهز تيمور مناسبة تمرد قبيلة جلاير وثورتها عليه ليقضي عليها ، فأصدر أمره بحلها وتفريق عشائرها وأسرها على القبائل الأخرى . وعين ابنه عمر شيخ حاكماً على انداكان المتاخمة لبلاد الجتا ، لإجراء وقائي ضد غارات هؤلاء ، يعني به وضع منطقة الحدود تحت إشرافه المباشر . ولما لمس عادلشاه جلاير الغدر من أروس خان ، غادر بلاد القبجاق إلى قمر الدين ، وعمل على تحريضه على تيمور . ولذلك فقد أغار الجتا على انداكان في ذلك العام (٧٧٧هـ)[5]. وحاول عادلشاه الحصول على عفو تيمور بعد سنة من التشرد بين بلاد القبجاق والجتا ، ولما أرسل إليه تيمور عفوه وطلب منه القدوم إلى سمرقند ، خشي أن يغدر به ، وظل يضرب على وجهه في منطقة الجبال الشمالية إلى أن قضى عليه بعض الأتراك النازلين في تلك المنطقة[6].

---

(١) : قبيلة مغولية متتركة عاصر أصولها جنكيز خان ، انظر Howath: op. cit. T. III P. 25

(٢) : Cahun : op. cit. P. 148 (٣) : يزدي : ج ١ ص ١٨٩

(٤) : شامي : ص ٧٠ ويزدي : ج ١ ص ١٩٢ (٥) : شامي : ص ٧٢ ويزدي : ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧

(٦) : يزدي ج ١ ص ٢٠٢ و Stewart: op. cit. P. 152

الفصـــــل الأول

احـتلال إيـــران واجـتياح جورجـيا
٧٨٢ – ٧٨٦ هـ (١٣٨٠ – ١٣٨٧ م)

الأسباب العامة – حالة إيران – العلاقات مع آل كرت – غزوة تيمور الأولى لخراسان ٧٨٢هـ: مقابلة الشيخ زين الدين، خضوع علي بك حاكم كيلات، خضوع علي السربداري، العلاقة مع شاه ولي – غزوة تيمور الثانية ٧٨٤ هـ: خضوع علي بك ثانية، احتلال ترشيز، مصانعة شاه ولي، ترحيل علي بيك وآل كرت، مقتلهم – الغزوة الثالثة ٧٨٥هـ: احتلال سبزوار، اجتياح سيستان – غزوة تيمور الرابعة ٧٨٦هـ: ملاحقة شاه ولي، احتلال مازندران والـــري والسلطانية – أسباب توجه تيمور إلى ايران الغربية – احتلال تبريز – اجتياح جورجيا – خضوع شروان – قتال تركمان الغنمة السوداء – القضاء على استقلال المظفريين واخضاع فارس.

الأسباب ال

كان التفات تيمور نحو عالم التاجيك في إيران، مرتبطاً بالنتائج التي استطاع أن يصل إليها من غزواته المتلاحقة، إلى بلاد الجتا وخوارزم، خلال حقبة السنوات العشر الأولى مـــن حكمه. وقد أشار إلى ذلك بشكل صريح شامي عندما قال: "وقد توجه إلى خراسان منذ أن فرغ باله من خوارزم"(١). كما أشارت المذكرات إلى أن غزواته لتلك المنطقة (خوارزم) لم تكن إلا تمهيداً لما كان سيقوم به في خراسان(٢). إذ لما اطمئن تيمور إلى أنه لم يعد هنالك أي خوف من هجوم يأتيه من الشمال، قرر السير إلى إيران حيث يقيم التاجيك وتشع المدنية التاجيكيـــة إغراءاتها اللامعة، التي جذبت في الماضي البداة المغول المتدفقين من قلب آسيا، ولا تـزال حتى أيام تيمور تجذب الأتراك الجغتائيين المقيمين في ماوراء النهر، إلى مدنها العامـــرة وأراضيها الزراعية الخصبة، التي يمكن توزيعها على الأمراء الأتراك، وتساهم عائداتها في زيادة دخل الدولة التي أقامها تيمور(٣). وكنا قد رأينا مدى رغبة تيمور في احتلال مناطق مغمـــورة بالحضارة التاجيكية، منذ حروبه في خوارزم، أقرب المناطق المغمورة بهذه الحضارة إلى ماوراء النهـــر.

ويمكن أن تكون حروب تيمور في إيران، مرتبطة بحركة تقدم التترك من الشرق إلى الغرب، مع العشائر والقبائل التركية والأفراد الأتراك، لأنه يبدو طبيعياً – بعد تقدم عاصمة الاتراك مـــن المالبغ في قلب آسيا إلى سمرقند في ماوراء النهر، في أيام تيمور، وما رافق هذا التقدم من انتقال الأتراك أفراداً وجماعات إلى خراسان والمناطق الإيرانية الأخرى – أن تعقب ذلك حركة تقـــدم للأتراك بشكل أكثر عنفاً وإلحاحاً بقيادة تيمور(٤). ويمكن اعتبار ما قام به تيمور – كأمير تركي – إنما هو تتمة لما قام به سلفه الأمير قازغن، عندما أغارت قواته، التي كان تيمور في عدادها عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٧م على آل كرت في هيرات(٥).

---

(١): شامي: ص٨١ (٢): Stewart : op. cit. P. 144
(٣): Cahun : op. cit. P. 950 (٤): Cahun : op. cit. P. 950-951
(٥): Grousset: op. cit. P. 505 انظر تفصيل ذلك في الفصل الثاني مـــن الباب الثاني من هذا البحث.

حالة إيران

كان قدوم تيمور إلى إيران ، بعد سقوط الدولة الايلخانية الحاكمة فيها بمدة وجيزة . وقد أدى سقوط هذه الدولة إلى فراغ سياسي وعسكري كبير تجلى في قيام عدد من الكيانات السياسية الصغيرة ، التي لم تكن على وفاق فيما بينها ، مما جعل مهمة تيمور في اقتناص هذه الكيانات الواحد بعد الآخر مهمة سهلة ، بالنسبة لما كان عليه الحال عندما قدم جنكيز خان قبل مائة وستين عاماً ، إلى المنطقة نفسها ، وعندما وقفت تقاوم تقدمه قوة واحدة ، هي الدولة الخوارزمية . وعلى الرغم مما يقوله توينبي عن حروب تيمور في إيران ، بأنها كانت من ألمع حروبه وعملياته العسكرية [1]، فقد ساهمت (هذه الحروب) في تثبيت فكرة السعي للسيطرة على العالم عند تيمور ، من ناحية أولى ، وأدت إلى تركيز تلك الهالة المظلمة حول هذا الفاتح التركي ، وأعطته صفة جزار للانسانية ومدمرة للحضارة من ناحية ثانية [2].

وانصرف تيمور خلال المرحلة الأولى من حروبه في إيران بين عامي ٧٨٢ـ٧٨٦/١٣٨٠ ـ١٣٨٤ م ، للاستيلاء على القسم الشرقي من هذه البلاد . وقد تم له ذلك بعد أربع غزوات لخراسان ، كان يرجع عقب كل غزوة منها إلى عاصمته سمرقند . وتمكن تيمور خلال المرحلة الثانية من هذه الحروب بين ٧٨٧ـ٧٨٩هـ/ ١٣٨٥ـ١٣٨٧م من الإغارة ـ خلال غزوة واحدة ـ على غربي إيران (اذربيجان وفارس) وبلاد الكرج وارمينية .

العلاقات مع آل كرت

وكانت خطوة تيمور الأولى ـ في عالم التاجيك ـ نحو هيرات ، وضد حكامها آل كرت الذين استطاعوا المحافظة على استقلالهم ، خلال قرن من الزمن ، خضعت فيه بقية المناطق الإيرانية لحكم الدولة الايلخانية التي أسسها هولاكو . وحاول آل كرت في عهد الملك معز الدين حسين ـ سابع حكام هذه الأسرة وألمع شخصياتها (٧٣٢ـ٧٧١هـ/ ١٣٣٢ـ١٣٧٠م) ـ أن يمدوا نفوذهم إلى ماوراء النهر ، مستغلين حالة الفوضى والنزاع على السلطة بين الأمراء الأتراك في هذه البلاد ، إبان الاحتلال المغولي لها [3] . وقد استطاع الملك معز الدين حسين ـ على الرغم من فشله في ضم ماوراء النهر إلى مملكته ، بسبب ما كان يتمتع به من مرونة سياسية فائقة ـ أن يقي بلاده من شرور احتلال الأتراك الجغتائيين لها ، في غارة عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٧م . ولكن ابنه "غياث الدين بيرعلي" الذي خلفه في الحكم عام ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م ، لم يكن في مستوى والده في هذه الناحية [4] . على الرغم من أنه قد أرسل عقب حلوله في عرش هيرات ، رسولاً إلى تيمور يعلمه بذلك ، وحمل له بهذه المناسبة الكثير من الهدايا ، وعاد رسوله الذي قابل تيمور وهو يهم بعبور جيحون عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م في بدء غارته الأولى على خوارزم ـ بالخلعة وبرسالة يعزيه فيها بوفاة والده ويهنؤه بجلوسه على عرش هيرات ، وكانت لهجة كل من المذكرات ويزدي اللذين أوردا هذه الأخبار تفصح عن رضى تيمور عن غياث الدين وعن "شموله له بعواطفه ومراحمه" [5].

(١) : Toynbee: op.cit. T.V P.494 (٢) : Prawdin : op. cit. P. 198
(٣) : Spuler: op. cit. P. 71, Grousset: op. cit. P. 466
(٤) : Grousset: ibid.
(٥) : يزدي : ج ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ و Stewart: ibid.

ولم يلبث أن بدأ الشك يداخل قلب تيمور في إخلاص حاكم هيرات الجديد ويشير يزدي إلى أن أحد أمراء تيمور ، ويدعى سيف الدين ، قد مرّ على هيرات عام ٧٧٩هـ (١٣٧٨م) في طريق عودته من أداء فريضة الحج ، واطلع على أحوال الممالك الإيرانية [١] ، وقد يكون سيف الدين قد شاهد مادعاه يزدي — في مكان آخر من مؤلفه — جرائم اقترفها غياث الدين ، ولكن تيمور غضّ الطرف عن محاسبته ، وقبل أن يتزوج حفيده "محمد سلطان" بن جهانگير ابنة غياث الدين ، وأرسل إليه يطالبه بالتزام جانب الأدب [٢] . ويورد ابن عربشاه ما يوضح — بشكل أكثر — سبب سوء العلاقة بين تيمور وغياث الدين . ويقول : إن تيمور قد أرسل إلى غياث الدين يطالبه بالإقرار بالتبعية له ، وبإرسال الأموال المرتبة عليه كتابع لسيد ماوراء النهر ، وعلى الرغم مما كان لغياث الدين من فضل على تيمور (حسب رواية ابن عربشاه) ، عندما كان يهيم مشرداً في خراسان في حقبة سابقة من حياته [٣] ، فقد أعلن عن موافقته على دعوة تيمور التي وصلته في عام ٧٨١هـ (١٣٧٩م) ، لحضور "القوريلتاي" (الاجتماع الكبير) الذي قرر تيمور عقده لقواده وامرائه ، خلال فصل الربيع القادم في سمرقند وابلغ هذا القرار إلى موفد تيمور الذي حمل إليه الدعوة ، وأعاده إلى سمرقند معززاً مكرما ، ولكنه عزم في سره — كما تقول المصادر التيمورية — على رفضها ، وأقدم على تحصين عاصمته [٤] ، لأنه وجد أن حضوره ذلك الاجتماع (القوريلتاي) يعني الإقرار بالتبعية لسيد ماوراء النهر [٥] . وعزم تيمور في إثر اطلاعه على نوايا غياث الدين ، على أن يرسل له حملة تأديب يقودها ثالث أبنائه — ميرانشاه — الذي كان في ذلك الوقت في حوالي الخامسة عشرة من العمر [٦] . وأمضى ميرانشاه خريف وشتاء ذلك العام (١٣٧٩م) في منطقة بلخ ، ولما أخذ يتقدم على رأس حملته نحو هيرات ، قرر تيمور القدوم بنفسه إلى خراسان ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي بها إلى هذه البلاد بعد تنصيبه حاكماً لما وراء النهر . ولما عبر تيمور جيحون اتجه إلى "مرو" حيث قدم له "الملك محمد" حاكم "سرخس" ، وشقيق غياث الدين خضوعه . وعلل تيمور قدومه بنفسه إلى خراسان بازدياد غرور غياث الدين ، الذي تجاسر وأغار على مدينة نيسابور التي كانت تحت حكم السربداريين ، وهم الأسرة التي كانت تحكم في سبزوار ، وكانت علاقة تيمور بها حتى الآن لاتزال حسنة .

غزوة تيمور الأولى لخراسان عام (٧٨٢هـ)

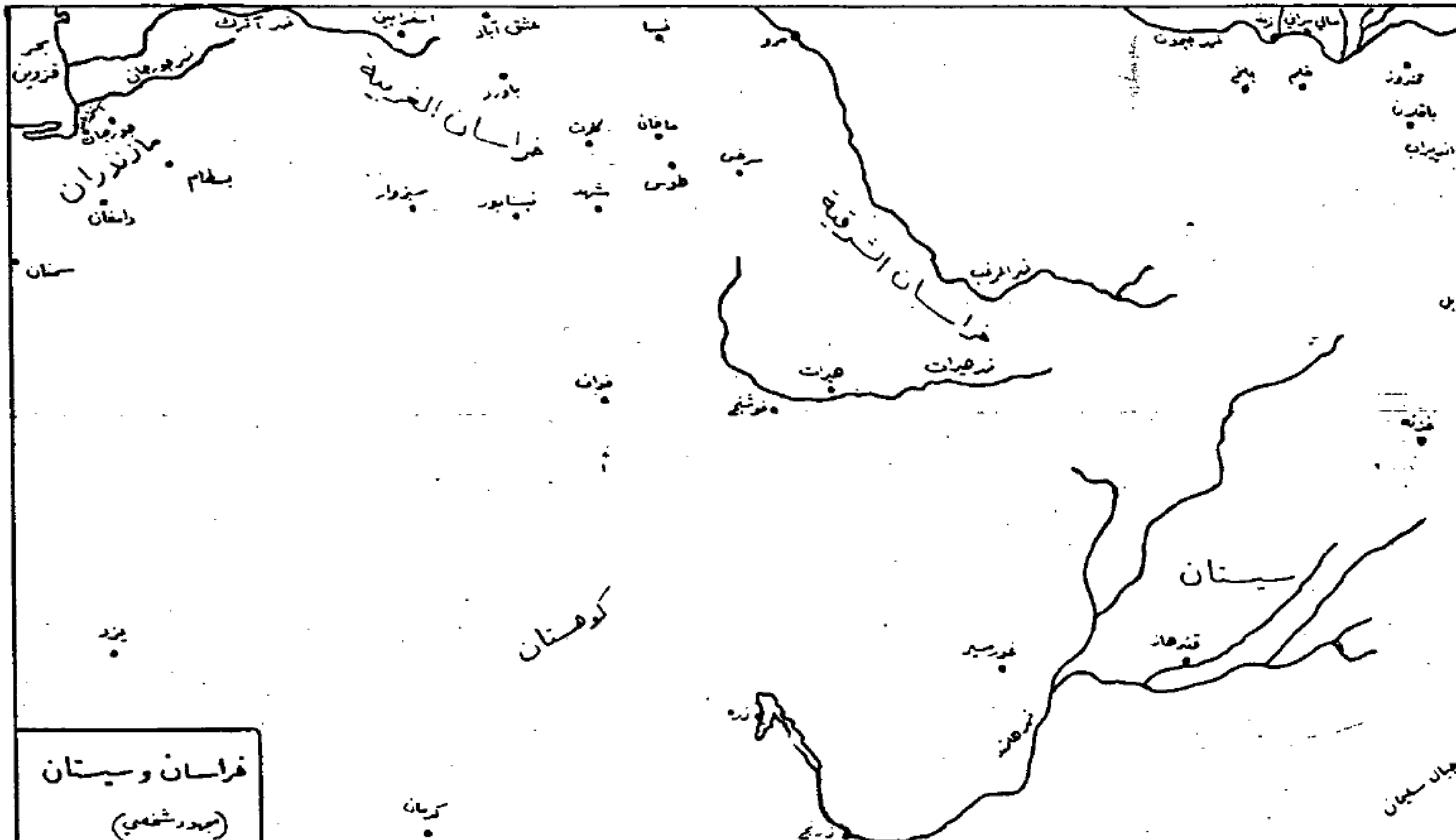
وربط تيمور — على عادته — قدومه لاحتلال إيران بأهداف دينية ، وقصد أن يظهر غياث الدين بمظهر الطاغية المكروه من رعيته [٧] ، وأن قدومه إلى خراسان (قدوم تيمور) وقتاله لآل كرت ، إنما كان بناء على طلب رجال الدين في المنطقة . ويقول يزدي إن تيمور

(١) : يزدي : ج ١ ص ٢١٥ (٢) : يزدي : ج ١ ص ٢٢٤

(٣) : ابن عربشاه : ص٦ ، وقد ذكر ابن عربشاه في مكان آخر أنه لما حمل تيمور جريحاً ، بعد فشل محاولته لسرقة غنمة في سجستان إلى الملك معز الدين حسين ، أمر بصلبه ، ولكن غياث الدين بن الملك حسين طلب العفو له ، فأجيب إلى طلبه ، وعولج من جراحه حتى شفي . ثم دخل في خدمة غياث الدين . ابن عربشاه ص٧—٨ (٤) : شامي : ٨٢ ويزدي : ج ١ ص ٢٢٣

(٥) : Prawdin: op. cit. P. 197

(٦) : شامي : ص ٨١ ويزدي : ج ١ ص ٢٢٥ (٧) : Cahun:op. cit. P. 951


خراسان وسجستان
(مجهود شخصي)
مازندران
خراسان الغربية
خراسان الشرقية
كوهستان
سجستان
قزوين
دامغان
بسطام
سمنان
سبزوار
نيسابور
مشهد
طوس
سرخس
باورد
ماجان
مرو
هراة
نهر هراة
بوشنج
قاين
يزد
كرمان
زرنج
قندهار
بلخ
قندوز
كابل
غزنة
جبال سليمان
نهر جيحون
نهر المرغاب
نهر هلمند

مقابلة الشيخ زين الدين

لما كان يزحف على هيرات مرّ في طريقه على قرية "تاباد" ، وقابل هناك الشيخ "زين الدين ابو بكر تيابادي" ، أحد أكابر العلماء المتورعين . وقد بذل العالم لتيمور النصيحة التي تقبلها "بنية صافية وطوية خالصة"(١). ويشير ابن عربشاه إلى هذه المقابلة أيضاً ، ويقول إنها قد تمت في مدينة "خوّاف"(٢) وقد سأل تيمور الشيخ زين الدين قائلاً : " يا سيدي الشيخ لم لا تأمرون ملوككم بالعدل والانصاف " . فأجابه الزاهد : " أمرناهم وتقدمنا بذلك إليهم فلم يأتمروا فسلطناك عليهم "(٣) . وتضيف المذكرات التي أشارت إلى تلك المقابلة ، إن الشيخ زين الدين قد ذكر لتيمور أن الملائكة قد وضعت مفتاح خراسان في يده ، وقال له : " سوف تخلّص هذه الإمارة من طغيان السلطان غياث الدين "(٤) .

احتلال هيرات

واستولى تيمور وهو في طريقه إلى هيرات على حصن "فوشنج" الواقع إلى الجنوب الغربي من هيرات ، على مقربة منها(٥) . ولم يقو غياث الدين على المقاومة ، وتسلق جند تيمور أسوار المدينة . وتمّ احتلال هيرات في المحرم ٧٨٣هـ(٦) (نيسان ١٣٨١م) . ويفهم من كلام ابن عربشاه أن تيمور نقل غياث الدين مباشرة بعد احتلال المدينة أسيراً إلى سمرقند(٧) . إلا أن يزدي يشير إلى فرار غياث الدين إلى مدينة مجاورة . ولم يلبث تيمور أن قبل اعتذار غياث الدين لسوء تصرفه ، وعفى عنه وأعاده إلى حكم مدينته(٨) . وقد يكون الدور الذي لعبه غياث الدين في إجبار أصغر أبنائه "غوري" — الذي استمر في المقاومة من إحدى القلاع القريبة — على الاستسلام ، سبباً لاتباع تيمور مع غياث الدين هذه السياسة المعتدلة(٩) . وعلى الرغم مما تذكره المصادر التيمورية عن أن تيمور قد عفا عن سكان هيرات ، لوقوفهم على الحياد خلال الحرب ، واجتماعه بالأئمة والعلماء فيها ، وأمره بأن لا تمتد أيدي الجند بأذى إلى السكان اذا ما دفع هؤلاء ما دعاه بـ (أموال الأمان) ، إلا أن هذه المصادر تشير إلى استيلاء

---

(١) : يزدي : ج ١ ص ٢٢٩ . (٢) : خواف : ذكرها مستوفي وقال إنها من مدن خراسان ص ١٥٤ . (٣) : ابن عربشاه : ص ١٨ ، هذا وقد أشار بارتولد إلى هذه المقابلة فيما كتبه عن تيمور في موضعين وقال عن قرية تاباد إنها تقع في المقاطعة التي تدعى اليوم " كوشان " (Kuchan) . وقال إن مقابلة تيمور للشيخ زين الدين كانت المقابلة الوحيدة وقد تمت عام ١٣٨١م ، عندما كان تيمور يزحف على هيرات انظر لذلك:
Barthold: Four Studies P. 59, Barthold: Ulugh Beg P. 20-21
ويوحي هذا القول بالاعتقاد بأن بارتولد عندما كتب ذلك لم يكن مطلعاً على "المذكرات" التي أشارت إلى أن مقابلة أخرى قبل هذه المقابلة ، قد تمت قبل أربعاً وعشرين عاماً بين تيمور وذلك الشيخ . وقد أوردت عنها المذكرات معلومات ضافية . وقالت إنها كانت عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٧م ، عند قدوم تيمور في جيش الأمير قازغن للاغارة على هيرات . وتضيف المذكرات على ذلك أن الشيخ زين الدين أبو بكر لما أذن لتيمور بالمثول بين يديه أحس تيمور أنه قد نسي كل همومه ، وشعر بسلوى عظيمة . واستقبله الشيخ بلطف وألبسه ثوبه الخاص وحثه على المواظبة في أداء الصلوات في أوقاتها . وتتابع المذكرات ذكر بقية وصية الشيخ على لسان تيمور : "وأنه مهما يكن من صعوبة تعترضني فعلي أن أقدم تضرعاتي إلى محمد وذريته ..." وقال الشيخ : إنك مدعو من أمير المؤمنين علي . لقد أمر أحد أتباعه لينتظرك . إنك لن تعرفه للوهلة الأولى ، ولكن سوف تتعرف عليه في آخر الأمر"
انظر : Stewart: op. cit. P. 41 , Stewart: op. cit. P. 36
(٥) : ربما كانت فوشنج مدينة "غوريان" الحالية . انظر : عواد : بلدان الخلافة ص ٤٤٩
(٦) : يزدي : ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٦) : (٧) : ابن عربشاه : ص ١٧ .
(٨) : يزدي : ج ١ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ (٩) : Grousset: ibid .

تيمور على كميات كبيرة من الأموال والكنوز التي كان ملوك الغور قد كدّسوها طيلة العهود السابقة ، وتم نقل هذه المنهوبات إلى سمرقند [١] . وغدت هيرات على إثر ذلك مدينة تشكو الفقر الشديد ، وفقدت قدراً كبيراً من مكانتها السابقة [٢] .

خضوع علي بك حاكم كيلات

وتقدم تيمور بعد ذلك إلى خراسان الغربية ، وتقبل خضوع "علي بك جاوني غرباني" في مدينته "كلات" (كالات ـ نادري اليوم) . وانتقل منها إلى "طوس" حيث أعلن حاكمها "علي المؤيد" ـ وهو من الأسرة السربدارية ـ وكان قد أرهبه قدوم تيمور بقواته إليه [٢] دخوله في طاعته [٣] . ووجد أن خضوعه لتيمور ينجيه من تهديدات ومطامع جاره "أمير ولي" الحاكم في مازندران [٤] .

خضوع علي السربداري

واندفع تيمور ، بعد ذلك ، إلى مدينة "اسفرايين" وكانت تحت حكم أكبر إمارات خراسان الغربية التي كان يحكمها أمير ولي ، من عاصمته "استراباد" في مقاطعة مازندران (جنوب شرق قزوين) . وكان هذا القائد المسن قد وصل إلى الحكم ، عام ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) على إثر مقتل السلطان الايلخاني "طغاي تيمور" [٥] على يد السربداريين . واستطاع أمير ولي فيما بعد من بسط سلطته على بعض مدن خراسان الغربية (بسطام ، دامغان ، سمنان ، فيروزكوه ، بالإضافة إلى استراباد) [٦] . وفي الوقت الذي تدعو فيه المصادر التيمورية هذا الحاكم بلقب "أمير" ولي فإن مؤرخي مغرب العالم الإسلامي الذين كانوا يعطفون عليه ، بسبب مقاومته لتوسع تيمور ، يطلقون عليه لقب "شاه" ولي [٧] . ويشير ابن عربشاه إلى أن "شاه ولي" قد أرسل إلى الجلائريين حكام اذربيجان والعراق ، والمظفريين حكام فارس يطلب إمداده بالمساعدة ليتمكن من إيقاف تقدم تيمور نحو الغرب ، على إثر الرسالة التي وجهها تيمور إليه ، عقب قدومه إلى خراسان وقبل أن يزحف على هيرات ، يطالبه بالدخول في طاعته . ولكن شاه ولي الذي رفض طلب تيمور لم يتلق رداً مشجعاً من جيرانه حكام اذربيجان وفارس [٨] . ولذلك اضطر إلى السكوت عن اجتياح تيمور لاسفرايين ، واحتفى برسوله ، وأظهر له الطاعة والانقياد [٩] . واكتفى تيمور بالقدر الذي حققه من الانتصارات من حملته الاولى ، وعاد إلى سمرقند ، مصطحباً معه الملك محمد حاكم سرخس وشقيق الملك غياث الدين حاكم هيرات ـ الذي أصبح دون سلطات حقيقية ـ كرهينة على ولاء اخيه . وترك ابنه ميرانشاه في

العلاقة مع شاه ولي

(١) : شامي : ص٨٢ ـ ٨٤ ويزدي ج ١ ص٢٣٥ ـ ٢٣٧ ـ
(٢) : Sykes:op. cit. T.II P.123 (٣) : يزدي : ج ١ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨
(٤) : Grousset:op. cit. P. 506 (٥) ـ نودي بالسلطان طوقاني تيمور عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م في خراسان ويرجع نسبه إلى اوتكين شقيق جنكيز خان ـ في عصر ضعف الدولة الايلخانية ، وفي وقت كان فيه سلطانان ايلخانيان آخران في تبريز وبغداد ، ولما فشل في الاستيلاء على تبريز ارتد إلى بسطام في خراسان حيث قتله السربداريون . انظر الفصل الرابع من الباب الرابع من بحث الدولة الايلخانية .
(٦) : Minorsky: Tugha-Timur(E.I.T.IV) P. 864
(٧) : ابن عربشاه : ص ٢٤ والعسقلاني : ج ١ ص٣٦ والسخاوي : ج ٣ ص٤٦
(٨) : أورد ابن عربشاه رسالة شاه ولي إلى الجلائريين والمظفريين (أحمد جلاير وشاه شجاع المظفري) بعبارته المسجعة فقال : «أنا ثغركما ، وإن انتظم أمري انتظم أمركما ، وإن نزل بي منه بائقة فإنها بملككما لاحقة ، فإن ساعدتماني بمدد ، كفيتكما هذا النكد ، وإلا فتصيران كما قيل (شعر) : من حُلقت لحية جار له فليسكب الماء على لحيته» ابن عربشاه : ص٢٤ ـ ٢٥ (٩) : شامي : ص٨٥ ويزدي : ج ١ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩

سرخس ليراقب الوضع في خراسان عن كثب [١] .

وقدم تيمور في غزوته الثانية إلى خراسان ، بعد استراحة قصيرة في سمرقند ، في شتاء عامي ١٣٨١ـ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) . وقد أجبرته أخبار الاتفاق بين شاه ولي وعلي بيك حاكم كلات على نبذ طاعة تيمور ، وعزمهما على الإغارة على سبزوار وهي من أملاك علي المؤيد السربداري الذي ظل على ولائه لتيمور ، على الرغم من حزن حاكم ماوراء النهر على ابنته التي توفيت حديثاً . فقد اتجه تيمور إلى كلات وألقى الحصار عليها ، ووافاه إلى هناك كل من ابنه ميرانشاه من سرخس ، وغياث الدين من هرات . ولما اشتد الحصار على علي بيك اضطر للخضوع وطلب العفو في ربيع الأول ٧٨٤هـ (نيسان ـ أيار ١٣٨٢م) [٢] . وأقام تيمور في المدينة أربعة عشر يوماً . وبعد جولة في المنطقة اتجه جنوبا إلى قلعة " ترشيز " ذات الموقع الحصين [٣] ، وتمكن من اقتحامها على الرغم مما كان يبديه غياث الدين من شكوك في إمكانية احتلالها ، بسبب ماكانت تتمتع به من حصانة طبيعية [٤] . وعاد تيمور بعد ذلك إلى الشمال وجاس في أملاك شاه ولي ، وأثار ظهور تيمور في هذه المناطق مخاوف هذا القائد المتقدم في السن ، فأسرع إلى إرسال الهدايا والأموال وإلى إعلام تيمور بأنه لا يزال على الإخلاص والطاعة . وثبّت علي المؤيد السربداري في حكم طوس وسبزوار [٥] . وتابع تيمور التقدم نحو الشمال يريد العودة إلى ماوراء النهر ، عبر وادي نهر " آترك " . وأصدر أمره وهو في الطريق لحمل غياث الدين ـ حاكم هيرات ـ وآله وعلي بيك وعشيرته ـ عشيرة جاوني قرباني ـ إلى سمرقند . وعمل تيمور عقب وصوله إلى عاصمته وعلى تفريق أسراه ـ حكام خراسان السابقين ـ فأبقى غياث الدين وابنه الكبير بير محمد في سمرقند ـ وكان بير محمد زوجاً لإحدى بنات تيمور ـ وأرسل غوري أصغر أبناء غياث الدين ومعه عمه الملك محمد إلى ابنه عمر شيخ في انديجان . ونفى علي بيك جاوني قرباني إلى طاشقند [٦] . ويتحدث يزدي عن ثورة قامت في هيرات على الحكم التيموري في أواخر عام ٧٨٤ هـ . وتمكن الثوار وغالبيتهم من الجند الغوريين ، من السيطرة بصورة مؤقتة على المدينة . ولكن سرعة ميرانشاه في الزحف على هيرات أجبرت الثوار على الفرار . وانتقم ميرانشاه من سكان المدينة لتأييدهم الثائرين . وأقام منارة من رؤوس القتلى . ولما بلغ خبر الثورة إلى مسامع تيمور في سمرقند ، أمر بقتل من لديه من الأسرى من آل كرت وألحق بهم علي بيك جاون قرباني [٧] .

غزوة تيمور الثانية (٧٨٤هـ)

خضوع علي بيك ثانية

احتلال ترشيز

مصانعة شاه ولي

ترحيل علي بيك وآل كرت

مقتلهم

ولم يتمكن تيمور من العودة إلى خراسان ـ مرةً ثالثة ـ إلا في منتصف عام ٧٨٥ هـ (أيلول ١٣٨٣م) لوفاة زوجته دلشاد آغا بنت قمر الدين ، ووفاة أخته الكبرى قتلغ توركان أغا

الغزوة الثالثة عام ٧٨٥ هـ

(١) : يزدي : ج ١ ص ٢٤١ (٢) : شامي : ص٨٧ـ٨٨ ويزدي : ج ١ص٢٤٣ـ٢٥١ وحافظ آبرو : زبدة التواريخ ص٤٦ (٣) : Sykes: op. cit. T. II P.123 وقد زار سايكس المنطقة وأشار إلى حصانتها الطبيعية . أما ترشيز فهي موقع يقع إلى الشمال الغربي من مقاطعة قوهستان . انظر : عواد : بلدان الخلافة ص ٣٩٤

(٤) : شامي : ص٨٨ ويزدي : ج ١ص٢٥١ـ٢٥٤ وحافظ آبرو : زبدة التواريخ ص٤٧

(٥) : شامي : ص٨٩ ويزدي : ج ١ص٢٥٥ـ٢٥٧ (٦) : يزدي : ج ١ص٢٥٧ـ٢٥٨

(٧) : يزدي : ج ١ص ٢٥٨ وحافظ آبرو : زبدة التواريخ ص٤٩ ـ ٥١

في وقتين متقاربين. وكان السبب المباشر لقدوم تيمور إلى خراسان في هذه المرة، هو رغبته في الإغارة على أملاك شاه ولي، الذي كان لا يطمئن إلى إخلاصه. وعبر تيمور بقواته جيحون من معبر بالقرب من ترمذ، وتقدم إلى ضفاف نهر المرغب. وجاءته الأخبار بأن السربداريين في سبزوار وأهالي سيستان قد خلعوا الطاعة. ولذلك وجه تيمور أحد قواده إلى أطراف مازندران (أملاك شاه ولي). وتحول هو إلى سبزوار عن طريق هيرات، في رمضان ٧٨٥هـ[1] (كانون الأول ١٣٨٣). ولما تمكن تيمور من اقتحام المدينة، عمد إلى تكديس ألفين من الأسرى الأحياء فوق بعضهم البعض ووضع بينهم الطين والآجر، وأقام من هذا الخليط أبراجاً، ليظهر — كما قال يزدي — سطوته لمن توسوس له نفسه بالثورة[2]، وإلى أي حدٍ يمكن أن يصل بالنهم انتقام تيمور في مثل هذه الحالات[3]. ويورد يزدي في أحداث عام ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) خبراً عن النهاية التي انتهى إليها علي المؤيد السربداري، ويقول إنه قد أصيب في إحدى المعارك بجروح وتوفي متأثراً بجراحه فيما بعد[4].

احتلال سبزوار

وتوغل تيمور بعد احتلال سبزوار في الجنوب إلى بلاد سيستان[5]، وتمكن فرسانه من اجتياح المنطقة. وجرت المعركة الرئيسية حول "زرنج" عاصمة البلاد، حيث ساهم تيمور بنفسه في عمليات اقتحام المدينة. وقد صنع التيموريون أبراجاً خشبيةً عالية، وقفزوا منها على أسوار المدينة. ولما تمكنوا من زرنج قتلوا السكان دون تفريق — كما يقول يزدي — بين نساء ورجال أو بين صغار وكبار. ونُقل حاكم المدينة ويدعى "قطب الدين" أسيراً إلى سمرقند. ويؤرخ يزدي احتلال عاصمة سيستان في شوال ٧٨٥هـ (كانون الثاني ١٣٨٤م)[6]. ومضى تيمور يتجول في ربوع المنطقة، ويتقبل خضوع مختلف العشائر والقبائل النازلة فيها. واجتاح قواده القلاع المنتشرة هنا وهناك حتى بلغوا حدود "جبال سليمان" في أقصى الجنوب[7]. ويرى كل من شامي ويزدي أن حروب تيمور في هذه المنطقة قد أمنت له السيطرة على منطقة سيستان وزابلستان بكاملها[8]. (زاولستان كما رسمها يزدي)، وقفل عائداً إلى سمرقند. واستغرقت عودته أربعة عشر يوماً. وجرى له عند دخوله العاصمة استقبال كبير. وأقيمت الأفراح بسبب ما أحرزه من انتصارات.

اجتياح سيستان

وبعد استراحة لمدة ثلاثة أشهر في العاصمة سمرقند، عاد تيمور عام ٧٨٦هـ (١٣٨٤م)

---

(١) شامي: ٨٦ ويزدي: ج ١ص ٢٦١ — ٢٦٢ (٢): يزدي: ج ١ص ٢٦٢—٢٦٣

(٣): Prawdin: op. cit. P. 198 (٤): يزدي: ج ١ص ٢٨٨

(٥): سيستان: هي سجستان التي ذكرها الجغرافيون الذين كتبوا بالعربية. انظر: ابن عربشاه ص ١٩ والقلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٤ و ٣٩٨ وقال عنها ياقوت إن عاصمتها "زرنج" وتقع جنوب هيرات على مسيرة عشرة أيام انظر: ياقوت الحموي: ج ٣ ص ١٩٠

(٦): ذكر سايكس الذي زار سجستان (سيستان) إن بعض آثار التخريب منذ أيام تيمور لا تزال باقية إلى اليوم. انظر: Sykes: op. cit. T.II وأضاف غروسيه إن بعثة للتنقيب الأثري زارت سيستان عام ١٩٣٦م ولما عثرت عن بقايا إحدى المدن القديمة وجدتها مغطاة بتلال من الرمال بسبب التدمير والتخريب الذي لحق بالموقع في عهد تيمور انظر: Grousset: op. cit. P.507 (٧): شامي: ص ٩٣—٩٤ ويزدي: ج ١ ص ٢٦٤—٢٧٤ (٨): زابلستان: مقاطعة جنوب بلخ وطخارستان قصبتها غزنة. ياقوت: ج ٣ ص ١٢٥.

— للمرة الرابعة — إلى خراسان . وكان في حملاته الثلاث السابقة قد استطاع أن يقضي بالعنف والقتل على كل حكام المنطقة السابقين . ولم يبق من هؤلاء الحكام القدامى إلا شاه ولي الذي اضطر إلى اعلان ولائه لتيمور ، وأرسل إليه الأموال والهدايا مرات عديدة . إلا أن تيمور كان لا يرتاح إلى إخلاصه [١] . ولذلك كان الهدف الرئيسي لعبوره الرابع لجيحون . هو القضاء على حاكم مازندران . وتقدم تيمور إلى نهر مرغب عن طريق بلخ ، ثم تابع تقدمه إلى سرخس و " باورد " ولكنه عاد شرقاً إلى " نسا " ، باتجاه الأطراف الشرقية لأملاك شاه ولي ، الذي كان يتوقع من تيمور هجوماً بين وقت وآخر . ولذلك ولما كان قد صمم على المقاومة ، فقد حشد قواته على حدود أملاكه الشرقية ، حيث كان يتوقع إغارة القوات التيمورية . وأقام في أحد الحصون في تلك الناحية — ويدعى حصن " دورون " . الذي ذكر عنه مينورسكي أنه يقع في منتصف الطريق بين مدينتي " عشق آباد " و " قزيل أرفات " الحاليتين (شرقي خراسان) [٢] — قوات كبيرة وجرت بالقرب من هذا الحصن معركة كبيرة ، انتصر فيها قواد تيمور واضطر شاه ولي إلى إخلاء الحصن والتراجع ، بعد مقتل عدد كبير من جنده . وتعقب تيمور عدوه حتى عبر نهر جورجان — الذي يصب في جنوب شرق بحر الخزر — وحل بموقع " شاسمان " قريباً من النهر [٣] . ودارت هناك معركة ثانية استمرت عشرين يوماً ، انتصر تيمور في نهايتها ، واضطر شاه ولي إلى التراجع مرة ثانية بعد أن وقع عدد كبير من جنده في الأسر . وعلى الرغم من احتياطات الحراسة التي أمر تيمور جنده باتخاذها بحفر الخنادق وإقامة أسوار من الخشب حول المعسكرات ، فقد استطاع شاه ولي القيام بغارة ليلية مفاجئة على رأس قوة من الجند من أبناء مقاطعة مازندران ، ولكن الشجاعة والجرأة التي أبداها في هذه الغارة لم تفده بشيء [٤] . واضطر إلى التراجع إلى دامغان ، أمام تيمور الذي أظهر أنه يقبل التحدي ، وأنه على استعداد دائم لمتابعة القتال . واحتل تيمور عاصمة شاه ولي " استراباد " في شوال ٧٨٦هـ (كانون الأول ١٣٨٤هـ) . وحوّل الحكم فيها إلى " لقمان " بن السلطان الايلخاني طغاي تيمور ، الذي كان شاه ولي في حاشيته سابقاً . وتابع تيمور ملاحقة عدوه الذي أودع أهله وأبناءه في أحد الحصون المجاورة (حصن گردركوه) ، وتابع التقهقر نحو الغرب . ودخل تيمور مدينة " الري " وسار منها عندما حل فصل الربيع إلى السلطانية — إحدى عواصم الدولة الايلخانية السابقة — وكانت تحت حكم الدولة الجلايرية . واضطر أحمد جلاير عند اقتراب جيوش تيمور منها إلى مبارحتها إلى تبريز — توريز — حيث وصل إليها شاه ولي أيضاً . وبلغت تيمور وهو في السلطانية ، أنباء وفاة شاه شجاع المظفري حاكم شيراز ، وحلول ابنه زين العابدين في محله في حكم المدينة . وقد أرسل الحاكم الجديد يعلم تيمور باستمراره على الولاء والطاعة . ولذلك قفل تيمور عائداً من السلطانية إلى ماوراء النهر في منتصف عام ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م [٥] ،

غزوة تيمور الرابعة عام ٧٨٦هـ

ملاحقة شاه ولي

احتلال مازندران والري والسلطانية

(١) : شامي : ص٩٤ وقد نعت شامي " أمير " ولي بقلة الوفاء (٢) : Minorsky: ibid
(٣) : شاسمان : موقع جنوب نهر جرجان أقام فيه تيمور فيما بعد قصراً (بعواد : بلدان الخلافة ص ٤١٩) (٤) : Prawdin: op. cit. P. 199
(٥) : شامي : ص٩٥—٩٧ ويزدي : ج ١ ص٢٧٤—٢٨٦ وحافظ آبرو : ص٥٤

ونجت تبريز من تنكيل سيد ماوراء النهر ، بسبب ما دفعته من أموال الأمان (١). وعين على حكم المدينة حفيده محمد سلطان .

واندفع تيمور بقواته نحو الشمال إلى ضفاف نهر "أرس" (اراكس الحالي) ، حيث تقع مدينة "نخجوان" (Nakhchevan الحالية) ، أول مدن بلاد الكرج (جورجيا) . واتجه منها شمالاً بغرب الى "قارص" ولما تمّ له احتلال المدينة رغم مناعة أسوارها ، اتجه إلى "تفليس" التي عجز ملكها "بقراط" (وهو Bagrat V الخامس ١٣٦٠ - ١٣٩٥) في الدفاع عنها ، ووقع في أسر تيمور (٢) ومنح كون سكان بلاد الكرج يدينون بالمسيحية إمكانيةً لتيمور لأن يعطي حروبه في هذه المنطقة صفة الجهاد المقدس (٣) . ولما غادر بلاد الكرج كان في ركابه الملك الأسير ، فمرّ على شروان وتقبل خضوع حاكم المنطقة الشيخ إبراهيم (٤) وانحدر من هناك إلى "قراباغ" المنتجع الذي يقع بين المجرى الأدنى لنهر "كر" (كورا الحالي) والمجرى الأدنى لرافده "نهر" ارس" . ودعى تيمور في قراباغ أسيره بقراط لاعتناق الإسلام فأسلم ، وأطلق سراحه، ووصفته المصادر التيمورية بأنه من المؤلفة قلوبهم (٥). وأمضى تيمور شتاء ذلك العام (١٣٨٧م) في ذلك المنتجع ، ثم تحرك منه إلى "بردع" (٦) في الشمال، وفوجىء تيمور وهو في هذه المنطقة من بلاد الكرج، بهجوم توقتميش خان القبجاق الجديد، عبر بوابة دربند . وكان الهجوم ردًا على استيلاء تيمور على اذربيجان التي كان خانات القبجاق يعتبرونها جزءاً من أملاكهم . وقبل تيمور التحدي على الفور ، وعبر نهر كر إلى ضفته الشمالية ، وأجبر خان القبجاق على الفرار والعودة إلى بلاده . وعاد تيمور ليتابع تقدمه بعد ذلك في أراضي إرمينية الشرقية . وكانت بعض العشائر التركمانية قد حلت في هذه المنطقة ، وتمكنت من إقامة دولة دعت نفسها بدولة الغنمة السوداء (قراقيونلو) ، وادعى تيمور أن هؤلاء دأبوا على الاعتداء على قوافل الحجاج التي تمر من بلادهم ، ولذلك انطلق إليهم من نخجوان، فاستطاع الاستيلاء على سلسلة القلاع المنتشرة هناك ، وكانت أهمها قلعة "اونيك" (٧) . ثم تقدم حتى نزل بجوار مدينة أرضروم، وأرسل إليه حاكم مدينة "ازرنجان" المجاورة ويدعى "طهارتن" بخضوعه . وبعث تيمور ابنه ميرانشاه في إثر "قرامحمد تورمش" حاكم دولة الغنمة السوداء ، الذي فرّ من وجه تيمور، واحتمى مع عدد من أتباعه في شعاب أحد جبال المنطقة (٨) . ويفهم من كلام المقريزي أن هذا الشعب كان بجوار مدينة "ملطية" (٩) . وتقدم تيمور بعد ذلك إلى الجنوب

اجتياح جورجيا

خضوع شروان

ملاحقة الغنمة السوداء

---

(١) : يزدي : ج ١ ص ٢٩٠ (٢) : شامي : ص ٩٩ - ١٠١ ويزدي : ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩٢

(٣) : Minorsky: Tiflis(E.I.T. IV)P.796, Grousset: op.cit. P.509

(٤) : يزدي : ج ١ ص ٢٩٧ وابن عربشاه : ص ٥٤ الذي أضاف بأن الشيخ إبراهيم هذا الذي يرجع نسبه فيما قيل إلى كسرى انو شروان قد أعد الهدايا التي سيقدمها إلى تيمور من كل نوع تسعة - حسب العادة - ويطلق على هذه التقدمات اسم "التقوزات" نسبة إلى العدد تسعة وهو "دقوز" باللغة التركية . ولكنه أعد من العبيد ثمانية، ولما سئل عن التاسع أجاب : أنا هو العبد التاسع فسرّ منه تيمور . (٥) : شامي : ص ١٠١ ويزدي : ج ١ ص ٢٩٧ (٦) : بردع : أشار إليها ابن حوقل والقلقشندي والقزويني. بلد في شمال اذربيجان وقصبة منطقة "أران" لاتزال خرائبها قائمة إلى اليوم . بلدان الخلافة لعواد : ص ٢١١ ابن حوقل : ص ٣٣٧ والقلقشندي ج ٤ ص ٣٦١ (٧) : اونيك: قلعة حصينة تقع على قمة جبل في منطقة ارزن الروم (ياقوت ج ١ ص ٢٨٣) بالقرب من منابع نهر اراكس (بلدان الخلافة ص ١٥٠) والقزويني : ص ٥١ (٨) : شامي : ص ١٠٢ - ١٠٣ ويزدي : ج ١ ص ٣٠٤ (٩) : المقريزي : السلوك: ج ٣ ق ٢ ص ٥٦٣ وأضاف بأن الخبر بذلك بلغ القاهرة في جمادى الثانية ٧٨٩هـ .

للسيطرة على المناطق المحيطة ببحيرة " وان " فاحتلت قواته مدينة " خلاط " الواقعة على سواحل البحيرة الشمالية الغربية، ونهبت مدينة " موش " المجاورة ، تحت شعار القضاء على أعمال الشقاوة وقطع الطرقات التي تدعي المصادر التيمورية ممارسة تركمان الغنمة السوداء لها . وسار تيمور بعد ذلك لحصار مدينة " وان " التي تقع على شاطئ البحيرة الجنوبي الشرقي . ووافاه خلال الحصار رسول طهارتن حاكم ارزنجان ، ليؤكد له من جديد ولاء سيده . ولما سقطت وان سار عبر " سلماس " في مقاطعة كردستان . ومر على " مراغة " إلى الشرق من بحيرة اورمية في اذربيجان . ونزل أخيراً في مقاطعة جيلان على السواحل الجنوبية لبحر الخزر (١) .

ولم يبق في إيران الغربية إلا آل المظفر الذين لم يقروا بالتبعية المباشرة لتيمور . وكان شاه شجاع المظفري قد أرسل منذ وقت مبكر ، في عام ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) رسولا محملا القضاء على ا ستقلال المظفر
بالهدايا ، يعلم تيمور بإخلاص سيده له . وأجاب تيمور برسالة ضمنها عواطفه، واقترح أن واخضاع فارس يتزوج حفيده " بير محمد بن عمر شيخ " بابنة شاه شجاع ، لتأكيد المودة بين الطرفين (٢) . وتم هذا الزواج في العام التالي في بلخ عند قدوم تيمور الثالث إلى خراسان (٣) . ويشير ابن عربشاه إلى هذا الزواج ، ويقول إنه قد انتهى إلى الفشل بسبب تدخل السعاة (٤) . ولكن العلاقات ظلت طيبة بين تيمور وشاه شجاع حتى وفاة الأخير في (٢١ شعبان عام ٧٨٦ هـ/ ٨ ايلول ١٣٨٤م) ، وانتقال الحكم لابنه زين العابدين . ووجد شاه شجاع – قبيل وفاته – أن من مصلحته وليجنب بلاده خطر اجتياح الجيوش التيمورية لها، أن يرضي تيمور ، بالاضافة إلى الاقرار له بالتبعية (٥) ، بوضع ابنه زين العابدين تحت حمايته . وقد أشار إلى ذلك في وصيته التي أرسل يبلغ تيمور بنصها ، وقد جاء في هذا النص أيضاً – كما أورده ابن عربشاه – أن شاه شجاع قد أوصى أن يحكم شقيقه أحمد منطقة " كرمان " ، ويُعطى ابن شقيقه الأول يحيى مدينة " يزد " ، ويُعطى ابن شقيقه الثاني " شاه منصور " مدينة اصبهان (٦) ، ولا يذكر يزدي من وصية شاه شجاع إلا الجزء الأخير منها ، الذي يشير إلى وضع زين العابدين تحت وصاية تيمور (٧) . وربما كان إغفال يزدي بقية أجزاء الوصية ، إنما كان ليبرر تدخل تيمور في شؤون الدولة المظفرية ، بسبب الخلافات التي قامت بين أفرادها عقب وفاة شاه شجاع ، وعلى إثر محاولات شاه منصور – الذي أظهر كرهه لتيمور – لمضايقة ابن عمه – زين العابدين – وسعيه لضم جميع أملاك الأسرة إلى بعضها تحت سيطرته (٨) ، مما جعل تيمور يرى نفسه أنه يقف أمام " شاه ولي " آخر في غرب إيران .

(١) : شامي : ص١٠١ – ١٠٤ ويزدي : ج ١ص٣٠٢ – ٣٠٨ وحافظ آبرو : ص٦١
(٢) : يزدي : ج ١ص٢٥٥ وشامي : ص٩٥ (٣) : يزدي : ج ١ص٢٧٧ ويجعل العسقلاني أن ابن شاه شجاع هو الذي تزوج ابنة تيمور (العسقلاني ج ١ ص٢١)
(٤) : ابن عربشاه : ص٢١ وقد أشار إلى أن الزواج كان بين ابنة شاه شجاع وابن تيمور وليس حفيده ولم يذكر اسم الابن (٥) : Grousset: op. cit.P. 510
ويفهم من أقوال ابن عربشاه أن اتباع شاه شجاع لهذه السياسة ، كان بسبب تهديد وصله من تيمور يقول فيه، بعد أن أتم تيمور احتلال خراسان : " .. قد رأيت وسمعت ، فإن أجبت وأطعت فيها ونعمت وإلا ... " ابن عربشاه ص٢١ (٦) : ابن عربشاه : ص٢٣ و٢٧
(٧) : يزدي : ج ١ص٣١٠ (٨) : ابن عربشاه : ص٢٣

وعلى الرغم من أن زين العابدين لم يَحِدْ عن سياسة والده في مصانعة تيمور[1]، فقد أحب تيمور، بعد أن فرغ من حروبه في بلاد الكُرج والقبجاق وارمينية، وفرض سيطرته على أذربيجان، أن يستغل وصية الأب الراحل، الذي منحه حق الوصاية على ابنه زين العابدين، فأرسل إليه من جيلان رسولاً يذكره بالتحالف والصداقة التي كانت قائمة بينه وبين والده، وأنه من الضروري الآن، وبعد وفاة شاه شجاع، أن يتجدد هذا التحالف، ولذلك فسوف يقبل موكب تيمور على ممالك المظفريين ليظهر للناس مقدار ما يكنه من عواطف لزين العابدين[2]. ولكن زين العابدين اعتقل موفد تيمور الذي اتخذ من هذا العمل ذريعة للاغارة على أملاك المظفريين[3].

تقدم تيمور في خريف ١٣٨٧م (٧٨٩ هـ) من جيلان، ومر على همذان وتقدم منها إلى اصفهان، وعسكر في ظاهر المدينة. وخرج إليه أعيانها وعلماؤها لاستعطافه، وتعهدوا بدفع ما طلبه من أموال الأمان. ولما كان قواد تيمور يقومون بجمع الأموال المفروضة، أغار بعض السكان خلال الليل بسبب ما ارتكبه الجنود التيموريون من أعمال الفساد والطغيان ـ كما يقول ابن عربشاه[4] ـ على هؤلاء واشتبكوا معهم. ووجد تيمور في صباح اليوم التالي أن ثلاثة آلاف من جنده وضباطه قد قضي عليهم خلال تلك الليلة. وكان الجزاء المناسب الذي رأى تيمور فرضه على المدينة هو إعلان القتل العام فيها. وأمر كل فرقة من جيشه أن تحضر من الرؤوس البشرية عدداً يساوي عدد أفرادها. وعمد بعض الجند إلى شراء بعض الرؤوس من زملائهم، وبلغ سعر الرأس ديناراً واحداً، ولما كثرت الرؤوس انخفض السعر إلى نصف دينار للرأس البشري الواحد ـ على حد قول المصادر التيمورية[5] ـ. ويقول ابن عربشاه إن بعض أتباع تيمور استعطفه ليعفو عن الأطفال، ولكن تيمور الذي وقف ساكتاً برهة أمامهم أمر رجاله فأغاروا عليهم بالخيول[6] ـ ويتابع يزدي وصفه لما حدث في اصفهان فيقول: إن جند تيمور جمعوا في ظاهر المدينة ما يقارب من سبعين ألف من الرؤوس الآدمية، وتمّ بناء ثمان وعشرين برجاً منها. ويؤرخ يزدي هذه الذبحة بيوم الأحد الخامس من ذي القعدة عام ٧٨٩هـ (١٧ تشرين الثاني ١٣٨٧م)[7].

مذبحة اصفهان

ولما توجه تيمور على إثر ذلك إلى شيراز، هرب زين العابدين منها لاجئاً إلى ابن عمه ـ شاه منصور ـ في تستر (في خوزستان). ولكن شاه منصور اعتقل ابن عمه وصفده بالقيود. واكتفى تيمور بالوقوف في ظاهر المدينة في ذي الحجة ٧٨٩هـ / كانون الأول ١٣٨٧م حيث تقبل خضوع بقية الأمراء المظفريين، وعاد بعد أن أخضع فارس محملا بالغنائم[8] إلى سمرقند، بعد وصول أخبار تحرك توقتميش خان من جديد نحو ماوراء النهر.

(١): Sykes: op. cit. T. II P.123 (٢): يزدي: ج ا ص ٣٠٨
(٣): يزدي: ج ا ص ٣١١ (٤): ابن عربشاه: ص ٣٣ (٥): شامي: ص ٥ ؛ ويزدي: ج ا ص ٣١٢ وحافظ آبرو: زبدة التواريخ ص ٦٢ (٦): ابن عربشاه: ص ٣٤
(٧) يزدي: ج ا ص ٣١٤ ويؤرخها حافظ آبرو بأواخر شوال من ذلك العام، ص ٦٢ أيضاً.
(٨): يزدي: ج ا ص ٣١٥ ـ ٣١٦ وحافظ آبرو: ص ٦٢

الفصـــل الثانـــي

حـــروب تيمـــور في بـــلاد الجـــتا وبـــلاد القبجـــاق

٧٨٩ ـ ٧٩٣ هـ (١٣٨٧ـ١٣٩١م)

المميزات العامة للصراع مع القبجاق ـ القبجاق في عهد توقتميش ـ أسباب النزاع ـ غارة توقتميش الأولى على ماوراء النهر ٧٨٩هـ ـ غارته الثانيـــة ٧٩٠هـ ـ أسباب سير تيمور على بلاد الجتا ـ حملة تيمور على بلاد الجـــتا عام ٧٩١هـ ـ حملة ٧٩٢هـ وموت قمر الدين ـ المصالحة مع خضر خواجا ـ حملة على القبجاق عام ٧٩٣هـ : الدوافع ، وفد توقتميش، الطريق ، معركة قندورجة ، احتفالات النصر ـ محاولات تنظيم الإدارة ـ الانسحاب ـ إعادة توقتميش تنظيم دولته ·

المميزات العامة للصـــراع مـــع القبجـــاق

قام تيمور في هذه الآونة بغزوة كبيرة إلى بلاد القبجاق ، أراد بها الرد على تحرشات توقتميش خان به ، وعلى غاراته على ماوراء النهر والمناطق الخاضعة للحكم التيموري · ومهـــد الفاتح التركي لهذه الغزوة الكبيرة ، بغزوتين إلى بلاد الجتا ، هدف منهما أن لا يقوم هؤلاء (الجتا) بأي تحركات تزعج مؤخرة جيوشه ، عندما سيزحف على بلاد القبجاق · وتعتـــبر حروب تيمور في بلاد القبجاق وبلاد الجتا في هذه المرحلة من أهم أعماله الحربية وأكثرهـــا مغامرة · وترجع أهمية هذه الحروب إلى أن الفاتح التركي كان يقاتل في هذين البلدين ضد أعداء عنيدين مصممين على متابعة القتال ، استطاعوا أن يستغلوا بصورة ناجحة اتساع بلادهم وامتداد الصحارى أو الغابات فيها ، لشن غارات كرّ وفرّ على قوات تيمور ، استنزفت طاقـــة هذه القوات ·

وظهر من خلال المراحل الأولى من حروب تيمور مع خان القبجاق أن زمام المبادرة في هذه الحروب كان بيد توقتميش ، الذى بدا أنه ينطلق في أعماله السياسية والعسكرية ، من اعتقاده بأنه الممثل الوحيد للسلطة الشرعية في "الامبراطورية المغولية" المترامية الأطراف ، وهي السلطة التي انحدرت إليه من جده الأعلى جنكيز خان ، في الوقت الذى تلاشت فيـــه قوى الفروع الأخرى التي انقسم إليها بيت الفاتح المغولي ، واستطاع أن يغتصب السلطة من أحفاد هذه الفروع حكام متسلطون ، لا يمتون بصلة إلى البيت الجنكيزى العريق · ووجـــد توقتميش نفسه أنه المسؤول عن إعادة توحيد الامبراطورية المغولية ، وأن غاراته على ماوراء النهر لم تكن إلا غارات على أحد أجزاء هذه الامبراطورية للقضاء على أحد هؤلاء الحكام المغتصبين المتسلطين ، وهو تيمور [1] ·

القبجاق في عهد توقتميش

لقد أبدى الفاتح التركي منذ احتكاكاته الأولى بخان القبجاق ، تأييده له في النزاع الذى قام على السلطة بينه وبين المغتصب للعرش هناك "أوروس خان" · وظل تيمور يقدم لتوقتميش المساعدات على الرغم من هزائمه العسكرية المتكررة [2] · ولما توفي اوروس خـــان عام ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) ، كان ابنه وخليفته "تيمور ملك" ، بسبب إدمانه على الخمر [3] ، شـــخصاً

(١) : Saunders: The History of The Mongol Conquestes P. 166

(٢) : انظر الفصل الثاني من الباب الرابع (٣): شامي : ص٧٧ ويزدي ج ١ص ٢١٣

وقد دهش تيمور عام ٧٨٩هـ ، وهو يقف في " برذع " شمال اذربيجان عند ماكان عائداً من أولى غارته على بلاد الكرج ، من أن يفاجئه توقتميش بهجوم عبر بوابة " دربند " بين بحر قزوين وجبال القفقاس ، كردعلى استيلاء تيمورعلى اذربيجان . ويصور يزدي هذا الهجوم بأنه عقوق يقابل به خان القبجاق عواطف تيمور ومراحمه [١] . واضطر تيمور أن يقبل التحدي وعبر نهر " كر " (كورا الحالي Kura) بالقوات القليلة التي كانت معه لرد الهجوم . ولم يلبث ميرانشاه أن لحق به على رأس قوات كبيرة ، إلى ساحة المعركة التي دارت شمالي النهر ، وانتهت بفرار توقتميش . وظلت قوات ميرانشاه تلاحقه حتى البوابة (دربند) ، وهي تقتل وتأسر من قواته [٢] . وعامل تيمور أسرى المعركة بالحسنى على غير المألوف منه ، وأمر بإطلاق سراحهم بعد تجهيزهم بما يحتاجونه . وأرسل إلى توقتميش رسالة عتاب وود ، مزج فيها بين الغضب وبين الحزن . وذكره بأنه له عليه حق الوالد على ولده . وأضاف بأنه سوف يتغاضى عن فعلته ويستمر على عهد الوفاء [٣] . ولكن غارة توقتميش هذه أثارت في نفس تيمور المخاوف من أن يقوم خان القبجاق بالهجوم على ماوراء النهر نفسها [٤] .

غارة ... الأولى على ماوراء النهر عام ٧٨٩ هـ

ووقع ماكان تيمور يخشى منه ، عندما أغار توقتميش في العام نفسه ٧٨٩هـ (١٣٨٧م.) على ماوراء النهر ، مستغلاً غياب تيمور في إيران . واجتازت القوات المغيرة سيحون بالقرب من مدينة " سغناق " وحاصرت " صابران " ولكن القوات التيمورية المرابطة فيها استماتت في الدفاع عنها . وأحسن حكام المناطق الأخرى في ماوراء النهر التصرف في غياب تيمور ، فأرسل حاكم سمرقند نجدات عسكرية إلى الشمال . وتحرك عمر شيخ بن تيمور من عاصمته انداكان على وجه السرعة على رأس قواته للاشتراك في صد المغيرين . وعبرت القوات التيمورية النهر إلى ضفته الشمالية . ودارت المعركة مع القوات المغيرة عند صحراء " جوكلك " شرق اوترار على مسافة خمسة فراسخ . ولمس عمر شيخ من الأعداء عناداً وتصميماً على القتال ، واضطر إلى التراجع إلى انداكان بحجة جمع الجند . وزاد في سوء الموقف تحرك قوات من بدو المغول (الجتا) من ناحية الشرق ومهاجمتها " سيرام وطاشقند " حيث عاثت فساداً فيهما . واضطر عمر شيخ أن يطلب المساعدة من حامية مدينة " اوزكند " لأن تتقدم إلى ناحية خجند للعمل على صد الهجوم من تلك الناحية . ولكن المغيرين استطاعوا عبور سيحون وإلقاء الحصار على انداكان نفسها . واضطرت القوات التيمورية أن تقاتل متفرقة على مسافات واسعة على امتداد النهر ، مما مكّن قوات القبجاق بعد أن اجتازت سيحون إلى الضفة الجنوبية ، أن تتقدم في ماوراء النهر جنوباً إلى أن حاصرت بخارى ، ونهبت " زنجير سراى " . وبلغت طلائعها ضفاف جيحون في أقصى الجنوب [٥] . وخرج زمام الأمر من يد عمر شيخ بسبب ما أشار إليه يزدى من قلة عدد قواته بالنسبة للقوات الغازية من القبجاق والجتا في آن واحد . وبقي ينتظر بقوات قليلة بالقرب من نهر صغير يرفد سيحون بالقرب من انداكان ، يدعى نهر " اخسيكت " ، بعد أن أرسل

(١) : يزدي : ج اص٢٩٨ (٢) : شامي : ١٠١ــ١٠٢ ، ويزدي : ج اص ٢٩٩ــ٣٠٠
(٣) : يزدي : ج اص٣٠٠ (٤) : Grousset: op. cit. P. 517
(٥) : يزدي : ج اص٣١٧ــ٣٢٠

فرقًا من قواته لتعقب الأعداء الذين تغلغلوا بعيداً في أنحاء ماوراء النهر [١] المختلفة .

وكان تيمور بعد أن تمكن من صد هجوم توقتميش الأول في شمال اذربيجان ، قد مضى نحو جنوب إيران . وكان يقف على أبواب شيراز عندما بلغته أنباء غارة القبجاق الجديدة على ماوراء النهر ، فاضطر إلى الرجوع فوراً وعلى وجه السرعة ، في مطلع عام ٧٩٠ هـ (شباط ١٣٨٨ م) ، ويقول براڤدان إن القوات التيمورية كانت تقطع في اليوم الواحد ما يقطع عادة في أسبوع . وهلكت في الطريق أعدادٌ كبيرة من الخيول من شدة التعب [٢] . وكان ظهور تيمور غير المتوقع على رأس قواته في ماوراء النهر مفاجأة كبرى للقوات المغيرة ، ألقت الرعب في قلوب أفرادها ، ولذلك فضل هؤلاء الفرار ، وحذا توقتميش نفسه حذو جنده . وتفرقت القوات المغيرة . واحتمى بعضها بخوارزم ، ممن لم يتمكن من الوصول إلى سيحون وعبوره للعودة إلى بلاد القبجاق [٣] وأرسل تيمور قواته من سمرقند في كافة الاتجاهات لملاحقة المغيرين ، وتطهير البلاد ممن بقي منهم فيها [٤] .

غارته الثانية عام ٧٩٠ هـ

وأجرى تيمور بعد الانتهاء من تعقب الأعداء ، تحقيقاً في الملابسات التي أحاطت بمعركة صحراء جوكلك ، وقصد أن يعرف حقيقة دور عمر شيخ ، وهل كان لأعمال ابنه وتصرفاته خلال المعركة دور في المصير الذي انتهت إليه المعركة ، وما حدث بعد ذلك من تمكن القوات المغيرة من تجاوز سيحون والتوغل في البلاد . وتقول المصادر التيمورية إن التحقيقات أثبتت عدم صحة ما نسب إلى عمر شيخ من إهمال أو خوف من مواجهة الأعداء ، وعاد عمر شيخ يتمتع بثقة والده وتقديره [٥] .

ولمس تيمور من " سليمان صوفي " حاكم خوارزم بعض التعاون والتعاطف مع القوات المغيرة ، ولذلك اتجه إليها في العام نفسه (٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨ م) ، مما اضطر حاكمها الى الفرار إلى القبجاق ، واحتل تيمور العاصمة " اوركنج " وهدمها كلها ثم أحرقها ، واستبقى مئذنة المسجد الرئيسي فيها . ونقل جميع سكانها إلى سمرقند [٦] ولم يسمح تيمور بإعادة بناء المدينة إلا بعد ثلاث سنوات . ويقول بارتولد إن المدينة الجديدة لم تصل إلى ربع مساحة المدينة الأولى . وجعلها تيمور مركزاً للدفاع ضد غارات البدو الذين يغيرون على ماوراء النهر ، من جهة الشمال والشمال الغربي من وقت لآخر [٧] .

وعاد توقتميش لتجربة حظه مع تيمور مرة ثالثة في آخر عام ٧٩٠ هـ نفسه (١٣٨٨م) . ونفذ إلى ماوراء النهر من نقطة جديدة تقع إلى الجنوب الشرقي من صابران وسغناق . فعبر النهر من مكان قريب من خجند ، يدعوه يزدي " آجوك زرنوق " [٨] . واستغل توقتميش ـ كما

حملة تيمور على الجتا عام (٧٩١هـ)

---

(١) : يزدي : ج ١ ص ٣١٨ (٢) : Prawdin: op. cit. P. 205 وقد قدر براڤدان المسافة بين شيراز وسمرقند بـ ٢٥٠٠ كم . (٣) : يزدي : ج ١ ص ٣٢١

(٤) : يزدي : نفسه . (٥) : شامي : ١٠٦ ـ ١٠٨ ويزدي : ج ١ ص ٣٢٢ ، وقد ذكر يزدي أن تيمور أمر بحلق شارب أحد قواده ووضع على رأسه غطاء كما صبغ وجهه بالأصباغ الحمراء كما تفعل النساء ثم طيف به بشوارع سمرقند لاتهامه بالإهمال (٦) : شامي : ١٠٧ ـ ١٠٨ ويزدي : ج ١ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ (٧) : Barthold: Four....P. 61

(٨) : يزدي : ج ١ ص ٣٣٢

يقول براقدان ـ برد الشتاء القاسي وثلوجه الكثيفة التي كانت تعرقل حركة خيول الفرسان الخراسانية من جيوش تيمور ، ولا يجد الأتراك الجغتائيون في الوقت نفسه المرعى اللازم لحيواناتهم . أما خيول القبجاق فقد كانت مدربةً على أن تضرب الجليد بحوافرها لتبحث عن غذائها تحته[1] ويظهر أن تيمور أُخذ في المرة أيضاً على حين غرة ، ومع ذلك فقد نهد على رأس قوات قليلة إلى الشمال بعد أن أصدر أوامره إلى حكام المناطق لإرسال نجدات عسكرية سريعة ، وهدد بتوقيع العقوبة في حال التأخر . ولم يقبل تيمور نصيحة قواته بالتريث حتى تصل إليه القوات التي أرسل يطلبها ، وفضل أن يخوض القتال بالقوات القليلة التي كانت معه ، وبمن أرسلهم إليه ابنه عمر شيخ من انداكان القريبة . ولكنه انتظر قليلا وترك توقتميش ليعبر النهر إلى الجنوب ، وليتمكن من حصره بين قواته من الأمام والنهر من الخلف واستطاع الانتصار عليه بعد أن قتل أعداداً كبيرة من جنده ، وأسر أعداداً أخرى ، وأجبر الباقي على الارتداد إلى الشمال عبر النهر[2] ولما تلاحقت النجدات بميدان المعركة وكان بعضها قد وصل من خراسان بقيادة ميرانشاه ، أمر تيمور ابنه الآخر عمر شيخ بعبور النهر في ربيع الأول ٧٩١هـ (كانون الأول ١٣٨٩ م) إلى الضفة الشمالية في محاولة لنقل الحرب إلى بلاد العدو . واضطرت قوات توقتميش التي كانت تحاصر ياسي (مدينة تركستان الحالية) ، إلى رفع الحصار والفرار . وأخذت الدوريات التيمورية تجوب المناطق الواقعة شمال سيحون لتطهيرها من الأعداء . وعادت محملة بالغنائم التي أمر تيمور بتوزيعها على الجند فوراً[3] .

أسباب سير تيمور إلى بلاد الجتـ

وجد تيمور أنه قد أضحى من الضروري ، منع توقتميش من إعادة الكرة على ماوراء النهر ، وصمم على أن يقوم بحملة على بلاد القبجاق . ولكنه وجد نفسه أنه لا يستطيع أن يقاتل توقتميش بقلب مطمئن ، إلا إذا كان واثقاً من أن الجتا لن يقوموا بإزعاج قواته عندما سيقدم على اجتياح تلك البلاد الواسعة ، أو يغيروا على بلاده خلال غيابه عنها . وكان تيمور يخشى أن يقوم جند القبجاق ــ الذين فروا على إثر غارتهم الأخيرة على ماوراء النهر إلى بلاد الجتا ــ بتحريض هؤلاء للتحرك من جديد إلى هذه البلاد[4] ولذلك قرر سيد ماوراء النهر أن ينتهز فرصة وجوده في شمال البلاد ، وبعد أن تلاحقت به النجدات العسكرية من كافة المناطق ، وبعد فرار القبجاق ، أن يعيد الكرة من جديد على بلاد الجتا ، ليقضي على مقاومتهم بشكل نهائي ، ويمنعهم من التفكير بالعودة إلى قتاله ، ويحول دون أن ينقلب عداؤه للجتا

(1) : Prawdin: op. cit. P. 206 (2) : شامي : ص١١٢ـ١١٣ ويزدي : ج ١ ص ٣٣١ ــ ٣٣٢ هذا وقد اورد ابن عربشاه أخبار الحروب بين تيمور وتوقتميش بشكل غامض ومتداخل وقد لاحظ ذلك غروسيه انظر له : Grousset: L'Empire des Steppes P.520 M 4 وربما كان ماذكره ابن عربشاه عن هذا الموضوع من أن علائم الهزيمة عندما ظهرت على جيش تيمور في إحدى المعارك بين الفريقين ، التجأ إلى السيد بركة ، وهو أحد رجال الدين الذين كانوا يرافقون الحملة ، فنزل الرجل عن حصانه وأمسك بحفنة من التراب وأذراها باتجاه الأعداء ، وصاح بالفارسية : " ياغي قجتي " أي : (العصاة انهزموا) . ثم رد جند تيمور الصيحة وراءه وثبتوا في القتال ، إلى أن تم لهم النصر ، كان المقصود منه هذه المعركة . ويقوي احتمال ذلك أن صاحب النجوم الزاهرة يروي القصة ذاتها ويضيف عليها أنها قد حدثت بجوار خجند ، حيث ذكرت المصادر التيمورية أن المعركة قد وقعت هناك (انظر : ابن عربشاه ص١٢ ـ ١٣ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص : ٢٥٨ ـ ٢٥٩) (٣) : شامي : ١٣ ويزدي : ج ١ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥ (٤) : يزدي : ج ١ ص ٣٤٤

والقبجاق إلى تحالف بين الفريقين يكون موجهاً ضده[1].

وكان تيمور في غمرة انشغاله بغزو إيران ، قد أرسل حملات تأديبية عام ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) إلى بلاد الجتا . وذكر يزدي إن سبب ذلك كان عودة قمر الدين إلى الظهور ثانية . بعد أن أجبرته حملات تيمور المتتالية سابقاً على الفرار إلى إحدى الصحراوات . ولكنه عاد من جديد إلى دفع أشرار الجتا - على حد قول يزدي - للتعرض للدوريات التيمورية التي كانت تجوب مناطق الجتا ، ويقيم الكمائن لهذه الدوريات : وبلغت إحدى هذه الحملات في ذلك العام ١٣٨٣م (٧٨٥هـ)، إلى ما بعد بحيرة ايسيق كول ، في محاولة للقضاء على قمر الدين ولكنها لم تفلح في تحقيق غايتها، واضطرت إلى العودة إلى سمرقند[2].

وقد تكون هنالك علاقة سببية بين سير تيمور عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩م) من جديد على بلاد الجتا ، وبين وصول "خضر خواجا" بن تغلق تيمور خان إلى عرش خانية جغتاي الشرقية في ذلك العام . وكان هذا الخان الجغتائي الجديد قد توارى عن الانظار منذ أن نجح المغتصب قمر الدين بقتل شقيقه الخان الياس خواجا عام ٧٧١ هـ (١٣٧٠م) ، وبالاستئثار بحكم الجناح الشرقي من خانية جغتاي ، في الوقت الذي نجح فيه تيمور بالوصول إلى حكم الجناح الغربي من هذه الخانية . وأمضى خضر خواجا مدة من الزمن يقيم في المناطق الجبلية بين كاشغر وبدخشان ، ثم تقدم بعد ذلك نحو الشرق حيث نجح في أن يقيم لنفسه حكماً امتد بين "خوتان" وضفاف بحيرة "لوب - نور"[3]. وعمل الخان الجغتائي على تحويل بقايا الأويغور المقيمين في "تورفان" (Tourfan) من المسيحية إلى الإسلام[4]. وأمضى خضر خواجا في مقامه الثاني مدة أحد عشر عاماً ، قبل أن يفكر بالاتجاه نحو الغرب مرة ثانية .

وكان ظهور الخان على مسرح الأحداث في قلب آسية ، على إثر الهزائم التي حلت بالمغتصب قمر الدين على يد قوات تيمور . وقد أثار هذا الظهور مخاوف تيمور الذي وجد في خضر خواجا منافساً خطيراً تتجسد فيه الشرعية الجنكيزية ، فهو سليل بيت جغتاي بن جنكيز خان ، ويحق له أن يضم إلى أملاكه في جغتاي الشرقية حكم الجناح الغربي من هذه الخانية ، وهو ماوراء النهر حيث يحكم تيمور[5].

حملة عام ٧٩٢هـ وموت قمر الد[ين]

ولما استقر رأي سيد ماوراء النهر على السير بحملة جديدة إلى بلاد الجتا ، أرسل جزءاً من القوات التي تجمعت لديه إلى سمرقند لحمايتها من غارة محتملة جديدة قد يقوم بها توقتميش ، ثم اتجه بمن بقي معه إلى مناطق الجتا في قلب آسية . وعلى الرغم من الصعوبة التي يشير إليها بارتولد في تتبع الطريق التي سار عليها تيمور في هذه المرة ، كما ذكرها يزدي وتحديد المواقع التي مر بها تيمور والتي أشار إليها هذا المؤرخ التيموري[6] ، فإنه يبدو أن تيمور بعد انطلاقه من موقع "آل توشون" القريب من ضفة سيحون في نقطة لاتبعد كثيراً

(1): Grousset: op. cit. P. 502, Barthold: ibid.

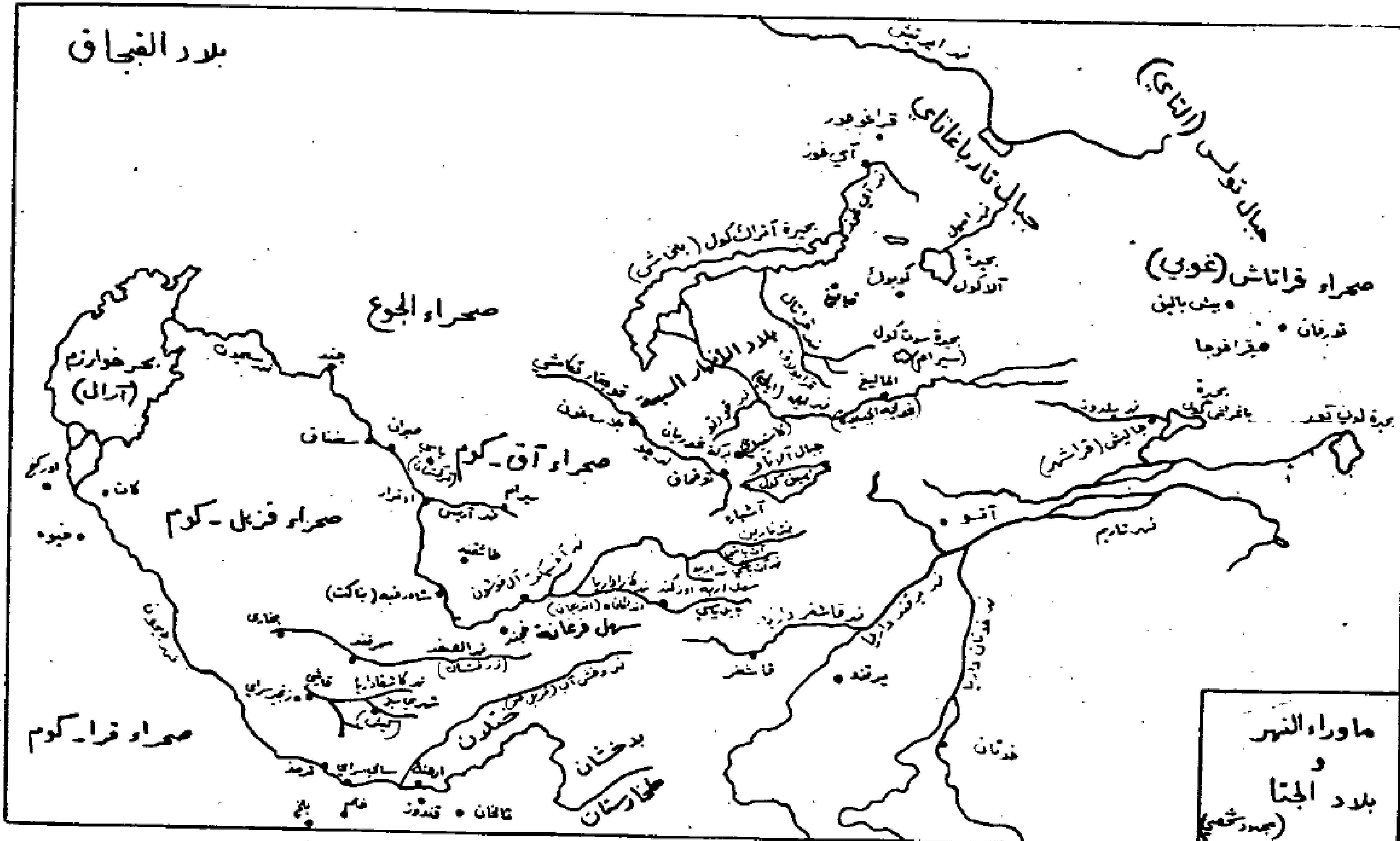
(2): يزدي: ج ١ ص ٢٦١

(3): Barthold: op. cit. P. 141

(4): Grousset: ibid.

(5): Grousset: ibid.

(6): Barthold: op. cit. P. 142 N. 1


ماوراء النهر
و
بلاد الجتا
(جهود شخصي)
بلاد القبجاق
صحراء الجوع
صحراء آق - كوم
صحراء قزيل - كوم
صحراء قرا - كوم
صحراء قراتاش (غوبي)
جبال تاربا غاتاي
بحر خوارزم
(آرال)
سهل فرغانة
بدخشان
طخارستان
ختلان
نهر تارم
آقسو
يرقند
قاشغر
ختن
سمرقند
بخارى
ترمذ
بلخ
قندوز
طالقان
كاث
خيوه
اترار
صبران
جند
سغناق
توقماق
بحيرة ايسيق كول
بحيرة آلاكول
بيش باليق
قراخوجا

عن خجند ، فإنه قطع سلسلة من المواقع التي يظهر من حديث يزدي عنها ، أن بعضها كان مواقع صحراوية . فهو يشير إلى قلة المياه فيها ، ويذكر أنه على الرغم من أن الوقت كان صيفاً في شهر تموز ، فقد هطلت الأمطار وتساقطت الثلوج الغزيرة في أحد هذه المواقع (وهو موقع باتقين سوري كما يسميه يزدي) ، عندما كانت القوات التيمورية تمر به ، مما دفع تيمور إلى الاعتقاد بأن هذه الأمطار كانت مظهراً من مظاهر الكرم الإلهي . وتابعت القوات الزاحفة تقدمها إلى أن بلغت موقع جبار (اشبارا Ashppara اليوم) الذي حدد بارتولد موقعه إلى الجنوب الغربي من بحيرة أيسنيق — كول [1] ومما لا شك فيه أن تيمور قد قصد من وراء عبور هذا الطريق ، أن يخفي تحركات قواته عن أعين عدوه المتربص به ولذلك فمن المرجح أن يكون جزء من هذا الطريق يمتد على الأطراف الجنوبية الشرقية لصحراء "آق — كوم" الحالية ، حيث تقع هذه المواقع التي أشار إليها يزدي . وكان على تيمور الذي انطلق من سواحل سيحون بالقرب من خجند ، ليصل إلى صحراء آق — كوم أن يقطع جبال "تيان شان" من جنوبها إلى شمالها . ولا شك في أن هذا الجزء الجبلي من الطريق الذي لم يسلكه تيمور في غزواته السابقة إلى بلاد الجتا ، يؤمن له أيضاً ما كان يريده من إخفاء خط سيره عن أعدائه . ويتابع يزدي حديثه فيقول إن جند تيمور خلال عبورهم الصحراء فقد كانوا يقومون باصطياد الحيوانات ، ولما بلغوا موقع جبارا ، اجتمعوا بطليعة من قوات العدو تعد ألف رجل ، فأسروا بعض أفرادها وانهزم الباقي . وحصل تيمور من الأسرى على معلومات عن أحوال عدوه [2].

وتابعت القوات الزاحفة التقدم من موقع جبارا . ويرجح أنها قد اضطرت — في سبيل الاختفاء عن مراقبة أعدائها — إن ترجع غرباً وتسلك طريقاً غير بعيدة عن الضفة اليسرى لنهر "تشو" الحالي باتجاه الشمال الغربي ، حتى المجرى الأعلى لهذا النهر ، ولتنعطف بعد ذلك باتجاه الشمال الشرقي ، مبتعدة عن شواطئ بحيرة بلخاش الشمالية ، ولتظهر أخيراً في موقع "أي گوز" الذي ذكره يزدي ، وحيث تقوم اليوم مدينة تحمل الاسم نفسه [3] في مكان غير بعيد عن شمال شرق البحيرة .

وانطلق تيمور من "آي گوز" إلى موقع يقع إلى الشمال ، يدعى "قراغوجور" ، ويعتقد بارتولد أنه يقع في نقطة إلى الغرب من جبال تارباغاتاي [4] . وأقام تيمور مركز قيادته هناك . وأخذ يرسل من قراغوجور حملات عسكرية إلى مختلف الاتجاهات . وطفق القواد التيموريون يرسلون ما يحصلون عليه من غنائم وأسرى وسبايا إلى مركز القيادة . ولما كثرت الغنائم أمر تيمور بتوجيه قسم منها إلى سمرقند . وكانت حملة عمر شيخ التي اتجهت جنوباً من أهم هذه الحملات ، فقد اجتمع بقوة معادية يقودها أحد قواد خضر خواجا بموضع "قوباق" في وادي نهر أميل [5] . فتمكن من الانتصار عليها ووضع يده على كميات كبيرة من الغنائم . واستطاع

(1): Barthold: Four.... P. 61 (2): يزدي ج ١ ص ٣٣٨ (3): يزدي: نفسه .

(4): Barthold: op. cit. P. 142 (5): Barthold: turkestan... P. 393 فقد أشار إلى نهر "كوبوك" (Kobok) الذي قال عنه إنه يجري ونهر أميل في منطقة واحدة ، وربما كان كوبوك هو موضع قوباق الذي ذكره يزدي (يزدي : ج ١ ص ٣٣٩) .

بهذا النصر _ كما تقول المصادر التيمورية ، أن يسترد ثقة أبيه به بصورة فعلية بعد أن تزعزعت على إثر الحوادث الماضية [1]. وخرجت من مركز قيادة تيمور في قراغوجور حملة أخرى بقيادة اثنين من القواد سارت نحو الشمال الشرقي حتى بلغت ضفاف المجرى الأعلى لنهر "ارتيش"، وعادت بالغنائم الوافرة أيضا. وغادر تيمور قراغوجور إلى " سراي اوروم " [2] مقر الخان الجغتائي خضر خواجا [3]. وتقع في حوض نهر " ايميل ". ويرى كل من شامي ويزدي في حلول تيمور في هذا المكان " مقر حركة وسكون قوم الجتا " أنه قد سيطر سيطرة كاملة على ألوس مغولستان [4]. وبدا الفاتح التركي أمام نفسه أنه قد أضحى خليفة جنكيز خان بصورة فعلية [5].

وعقد تيمور في العاصمة الجديدة لجغتاي الشرقية مجلساً حربياً (قوريلتاي) لقواده، لوضع خطة جديدة لمتابعة الحرب ضد قوات الجتا المنتشرة هنا وهناك. وتقرر في هذا الاجتماع الخروج بحملات جديدة إلى كافة الاتجاهات ، ثم العودة للاجتماع بتيمور في موقع على نهر " يلدوز " [6] الذي يصب في غرب بحيرة " باغراش كول " [7]. واندفع عمر شيخ من جديد شرقاً حتى بلغ قصبة " قراخوجا " القريبة من مدينة تورفان الحالية [8]. وقدرت المصادر التيمورية بعد قراخوجا عن سمرقند بمسيرة ثلاثة أشهر [9]. وانطلقت قوات أخرى نحو الغرب لملاحقة قوات الجتا عند منابع نهر قراتال الذي يصب في بحيرة بلخاش (بالكاش). وفضلت القوات المعادية المرابطة في قرابولاق (في منابع قراتال وتعرف حالياً بالاسم نفسه)، الفرار أمام القوات المغيرة [10]. أما الأرتال التي انطلقت نحو الجنوب فقد اشتبكت مع الجتا بجوار بحيرة " سوت كول " (بحيرة سيرام الحالية في جنوب بلخاش) [11] بمعارك ضارية ، شعر قواد الجتا على إثرها أن متابعة القتال ضد القوات التيمورية لن يكون في مصلحتهم ، ولذلك طلبوا عقد الصلح. ويقول يزدي إنه قد أجيب هؤلاء على طلبهم وعُقد الصلح بشروط وعهود مؤكدة دون أن يشير إلى هذه الشروط. وربما كان للصعوبات التي صادفتها القوات الغازية والمقاومة الشديدة التي أبداها الجتا في هذه الناحية والتي أشار إليها يزدي [12]، دور في موافقة قواد تيمور على مصالحة الجتا في هذه الناحية من جبهات القتال. وتحرك تيمور إلى يلدوز ليجتمع بقواده حسب الموعد المتفق عليه. وقد جاء هؤلاء إلى مكان الاجتماع يسوقون أمامهم أعداداً كبيرة من الأسرى والخيول والجمال والأغنام.

ولما لم يتمكن تيمور من الظفر بالخان الجغتائي خضر خواجا ، فقد اضطر من أجل الوصول إلى ذلك لأن يتقدم نحو الشرق ، حتى بلغ موقع " جاليش " قرب مصب يلدوز في بحيرة

---

(١): شامي: ص١١٤ ويزدي ج ١ ص٣٣٩ (٢): شامي: ص١١٥ ويزدي: ج ١ ص ٣٤٠ _ ٣٤١ (٣): Barthold: Four...P. 142 (٤): شامي: ص١١٥ ويزدي: ج ١ ص٣٤٢ (٥): Grousset: op. cit. P. 503 (٦): شامي: نفسه ويزدي: نفسه. (٧): Grousset: op. cit. Carte de P. 536 (٨): Barthold : Turkestan...P. 362 (٩): شامي: ص١١٥ ويزدي: ج ١ ص ٣٤٢ (١٠) يزدي: ج ١ ص٣٤٦ (١١): Barthold: Four.... P. 142

(١٢): يزدي: ج ١ ص٣٤٤

ولما كان قد مضى على انطلاق الحملة من سمرقند قريب من ستة أشهر - ونفذ ماحمله الجند معهم من مؤن - وأضحى هواء تلك المناطق بارداً ، ولذلك قرر قادة الحملة العودة عن طريق "كوركه" وهي "كوفيرج الخالية" (Kuverge) - على مايرى بارتولد -[1]، ثم عبروا بحيرة "اتراك - كول" (بلخاش الحالية) ، وغزوا السير من هناك نحو سمرقند . ويقول بارتولد إن قمر الدين لم يرجع بعد ذلك إلى مغولستان . وقد عانى في آخر أيامه - حسب ماتذكره المصادر المغولية - من مرض الاستسقاء، وقضى نحبه لاجئاً إلى إحدى غابات آلتاي[2].

نهاية قمر ال

هذا ولم تسمح الأحداث على الطرف الغربي والشمالي الغربي من امبراطورية تيمور، للفاتح التركي أن يرسل حملات جديدة إلى قلب آسية، مما ساعد خضر خواجا على أن يستمر في حكم أطراف مغولستان الشرقية . ولم تلبث أن تحسنت علاقاته بتيمور ، وأرسل عام ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) ابنه "شامي جاهان" سفيراً إلى بلاط الفاتح التركي في سمرقند ، وخطب تيمور ابنة الخان الجغتائي وتدعى "توكول آغا" زوجة له . وتم الزواج[3]. وعرفت الزوجة الجديدة بلقب "السيدة الصغيرة" (كجك خانوم)[4]. وحقق تيمور بهذا الزواج هدفاً سياسياً هاماً ، وهو ارتباطه برباط المصاهرة ببيت جغتاي صاحب الحق الشرعي في الحكم في خانية جغتاي بجناحيها الشرقي والغربي[5]. وقد عزز هذا الزواج مكانة تيمور أمام توقتميش، خان القبجاق ذي الأرومة الجنكيزية[6]. وقد أشار ابن عربشاه إلى حدوث هذا الزواج ، ولكنه لم يذكر اسم الزوجة ولا اسم أبيها، واكتفى بالقول بأنها ابنة أحد ملوك المغول غير قمر الدين ، وأنها كانت تلقب "بالملكة الصغرى"[7].

المصالحة خضر خواج

وعلى كل حال ، فقد ظل احتمال قيام خان القبجاق بغارة جديدة على ماوراء النهر، مصدر قلق لتيمور الذي كان يشعر في الوقت نفسه ، بضرورة الانتقام من توقتميش، بسبب غاراته المتكررة على أملاك الدولة التيمورية . وأحب تيمور أن يقوم بعمل حربي ضد القبجاق مستغلاً حالة الاستقرار الذي استطاع أن يحققه في علاقاته الحدودية مع بلاد الجتا خلال عامي ٧٩١ و ٧٩٢ هـ (١٣٧٩ - ١٣٨٠ م). ووجد سيد ماوراء النهر نفسه أنه لا يستطيع أن يتابع فتوحه في إيران التي كانت مدنيتها التاجيكية تجذبه إليها، مالم يكن مطمئناً إلى حال حدود بلاده مع جيرانها من ناحية الشمال الغربي[8].

حملة على القبجاق عام (٧٩٣هـ) الدوافع

ولذلك انطلق تيمور في آخر ذلك العام (٧٩٢ هـ خريف ١٣٩٠م) إلى طاشقند ، على رأس قوات من الأتراك والتاجيك[9]، بلغ عددها مائة ألف رجل[10]. واضطر للتوقف مدة أربعين يوماً هناك بسبب مرضه . ويبدو أن المرض كان خطيراً ، لأنّ ميرانشاه حضر من

---

(١) : Barthold : ibid . (٢) Barthold : ibid .

(٣) : يزدي : ج ٢ ص١٦ (٤) : Barthold : op. cit. P. 143 - 144

(٥) : Grousset: op. cit. P. 503 (٦) : Prawdin : op. cit. P. 208

(٧) : ابن عربشاه : ص٣٥

(٨) : Toynbee : A Study of History T. IV P. 493

(٩) : حافظ آبرو : ص٩٢

(١٠) : Prawdin : op. cit. P. 212.

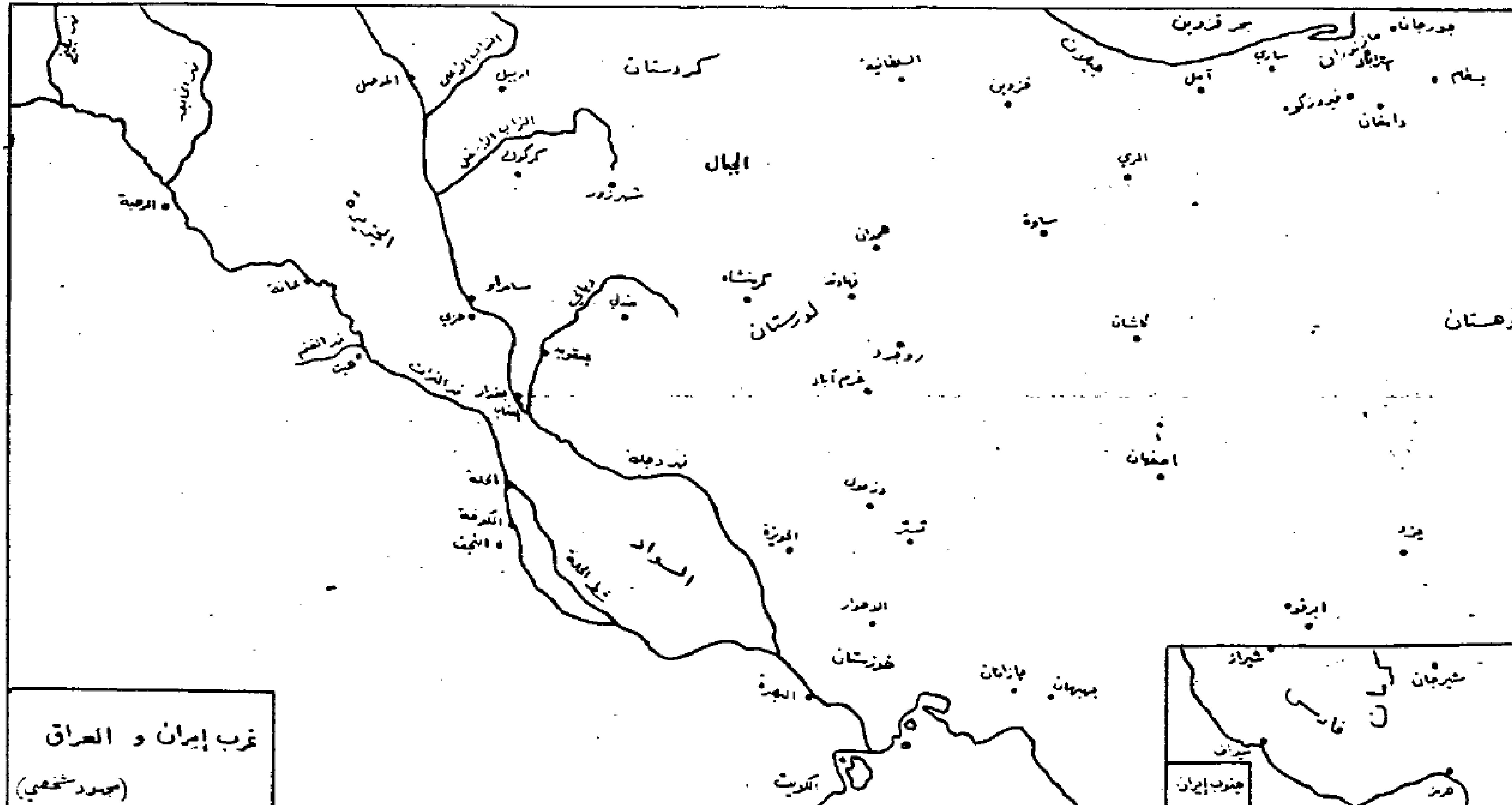
من خراسان لتقديم التهنئة بالشفاء إلى والده . واستؤنفت حركة الجيش في ١٥ صفر ٧٩٣ هـ (٢٣ كانون الثاني ١٣٩١ م) . والتقى تيمور في "قراسمان" على الطريق بين طاشقند وياسي بالوفد الذي أرسله توقتميش لوقف تقدمه . وقد حمل الرسل معهم الهدايا . وتقول المصادر التيمورية إن رسل خان القبجاق تلوا الرسالة التي كانوا يحملونها من سيدهم بلهجة الاستكانة والانكسار . وقدّم توقتميش في رسالته اعتذاره لما بدر منه في السابق . واستعرض تيمور في رده على أعضاء الوفد علاقاته مع توقتميش . وبيّن لهم أنه يعتبر نفسه والداً لسيدهم ووليّاً لنعمته ، لما له عليه من سوابق وحقوق ، بسبب المساعدات التي قدمها له خلال حروبه ضد أروس خان ، والتي جعلته في النهاية يجلس على عرش الوس جوجي . ثم أشار إلى نكران توقتميش لجميله وسلوكه طريق العصيان ، عندما أغار على ممالك تيمور لنهبها وتخريبها بدافع الغرور . وختم تيمور قوله : "ولذلك قررنا أن نأتي إليه بفرساننا لنقضه العهود ، معتمدين على صدق عزيمتنا" . وعلى الرغم من أن تيمور خلع على رسل خان القبجاق ، فإنه لم يعطهم أي شيء يشير إلى موافقته على طلب توقتميش بعقد الصلح بين الفريقين .

وفد توقتميش

واستأنفت قوات تيمور السير بعد انسحاب وفد القبجاق . وانطلقت بتاريخ ١٦ ربيع الأول ٧٩٣ هـ (٢٢ شباط ١٧٩١ م) ، ومن ياسي وصايران عبر "صحراء الجوع" متوغلة في بلاد القبجاق ، في مغامرة صحراوية استمرت ستة أسابيع ، فبلغت (في أول جمادى الأولى / ٦ نيسان) موقع "سارق اوزن"[1] ، (حوض ساري ـ صو Sari-Sou الحالي)[2] ، حيث جادت الطبيعة بوابل من المطر جعلت السيل يسير في هذا الوادي عدة أيام[3] . وتابعت الحملة تقدمها في صحراء القبجاق ، خلال الأسابيع الثلاثة التالية وبلغت في ٢٣ جمادى الأولى ٧٩٣ هـ (٢٩ نيسان ١٣٩١ م) جبال "الغ ـ طاق (اولوخ ـ طاخ Oulukh-Takh الحالية)[4] . وأقام تيمور مخيمه على إحدى قمم هذه الجبال . ويقول يزدي إن تيمور لما أخذ يجول بناظريه في كافة الاتجاهات ، فكان لا يرى إلا الصحراء غير المتناهية المفروشة بالأعشاب الخضراء ، دون أن يعثر على أثر ينبئه عن مكان وجود عدوه. وأمر تيمور قبل أن تواصل الحملة تقدمها ، أن يبني في المكان نصب تذكاري ، ولاتزال بقاياه ماثلة إلى اليوم . وعبرت القوات في تقدمها باتجاه الشمال الغربي نهر "بيلاق جوق" (جيلانتشيك Djilantchik الحالي) . ولما بلغت شواطيء نهر "انا قرغوي" (تورغاي Tourgai[5] الحالي كان قد مضى عليها منذ خروجها من سمرقند أربعة أشهر ، دون أن توفق بالعثور على أثر لقوات توقتميش . وعلى الرغم مما يذكره المؤرخون التيموريون عن كثرة الحيوانات والغلال التي كان الجيش يسوقها ويحملها معه ، فقد أصدر تيمور الذي كان لا يعرف كسم

الطريق

(١) : شامي : ص ١١٧ ـ ١١٨ وحافظ آبرو : ص ٩٢ ويزدي : ج ١ ص ٣٥٥ ـ ٣٦٠
(٢) : Grousset: op.cit. P. 518 (٣) : حافظ آبرو: ص ٩٣
(٤) : Prawdin : op. cit. P. 213, Grousset: op. cit. P. 518
(٥) : Grousset ; ibid


غرب إيران و العراق
(مجهود شخصي)
كردستان
الجبال
لورستان
السواد
خوزستان
الجزيرة
الموصل
اربيل
كركوك
شهرزور
سامراء
بعقوبة
بغداد
الحلة
الكوفة
النجف
البصرة
الكويت
نهر دجلة
الزاب الأعلى
الزاب الأسفل
الرحبة
عانة
همدان
كرمنشاه
نهاوند
خرم آباد
الأهواز
تستر
قزوين
الري
ساوة
كاشان
اصفهان
يزد
ابرقوه
آمل
ساري
دامغان
بسطام
بحر قزوين
قهستان
جنوب إيران
فارس
شيراز
سيراف
هرمز

سيمضي من الوقت حتى يصل إلى عدوه ، الأوامر بتطبيق إجراءات التقنين في الطعام بشكل دقيق . وشدد على أمراء الجيش لأن يكونوا قدوة لجنودهم بالاكتفاء بالحساء المصنوع من الطحين ، والامتناع عن صنع الخبز . وهدد بفرض عقوبة الموت على من يخالف هذه الأوامر. وأخذ بعض الجنود يبحثون في هذه الصحراء عن بيوض الطيور الصحراوية . وسمح تيمور في الأول من جمادى الآخرة لجنده باصطياد حيوانات الصحراء وطيورها كالظباء والعصافير[١]. وقد أشار تيمور في مذكراته إلى الحالة التي وصل إليها الجند فقال : "إن قواتي التي كانت منذ ستة أشهر منهمكة بملاحقة هذا الأمير [توقتميش] في صحاري بلاد القبجاق ، أخذت الآن تشعر بألم الجوع بشكل مضن . وكانت لا تقتات خلال عدة أيام من الغذاء إلا ما تحصل عليه من الصيد ، ومن بيوض الطيور الصحراوية "[٢]. وبدأ بعض القواد يُظهر شيئاً من التقاعس على إثر الحالة المعنوية السيئة التي وصل إليها الجند . ولكن هؤلاء المتقاعسين لم يلبثوا أن استردوا نشاطهم وحماسهم ، عندما شاهدوا التصميم ومضاء العزم لمواصلة التقدم عند أبناء تيمور وأحفاده الذين كانوا يشتركون في هذه الحملة[٣].

وأمر تيمور في هذه الآونة (مطلع جمادى الثانية ٧٩٣ هـ) بالقيام باستعراض عام لقواته ، في محاولة لرفع روح الجند المعنوية ، وسارت فرق الجيش المختلفة من أمام تيمور الذي وقف على ظهر جواده ، وعلى رأسه تاج مرصع بالياقوت . واستغرق العرض مدة يومين ، ومرت فيه قوات كل من ميرانشاه وعمر شيخ ومحمد سلطان ، ثم قوات السلطان محمود بن سيورغتمش[٤]. ووافق تيمور على التماس حفيده محمد سلطان وسمح له القيام بحملة استكشاف لأحوال العدو ، فانطلق في ٧ جمادى الآخرة ٧٩٣هـ (١٢ أيار ١٣٩١ م) بالاتجاه نفسه ، حتى بلغ منابع " توبل " (توبول Tobol) الحالي ، وهو الرافد الثاني لنهر " اوب " (Ob) من ضفته اليسرى . ولما عبر النهر إلى الضفة الغربية عثر في المنطقة التي تدعى اليوم "كوستاناي" (Koustanai)[٥] على آثار تدل على إيقاد النار في مواقع عديدة في هذه المنطقة . فأرسل يخبر جده على الفور . وأمر تيمور قواته بالتقدم بسرعة باتجاه النهر . وبعد حملة تفتيش واسعة قام بها الكشافون في كوستاناي ، اقتاد هؤلاء بعد عدة أيام صياداً أفاد أنه شاهد منذ عدة أيام عشرة فرسان يتجولون في المنطقة ، وأنهم الآن يختبئون في أحد الأحراش المجاورة . وأرسل تيمور على جناح السرعة ثلة من الجند أسرت بعض هؤلاء الفرسان ، بينما قتل الآخرون في أثناء الاشتباك . واستطاع تيمور أن يعلم من الأسرى أنهم جنود في جيش القبجاق الذي يرابط عند الضفة الثانية للمجرى الأعلى لنهر " يايبق "[٦] (نهر الأورال الحالي)[٧] . وأمر تيمور قواته إن تتقدم باتجاه النهر (نهر يايبق) . ومنعها من

(١) : شامي : ص١١٨ ـ ١١٩ وحافظ آبرو : ص٩٤ ويزدي : ج ١ص٣٦٠ ـ ٣٦١

(٢) Langles: op. cit. P. 240-241

(٣) : Langlès: op. cit. P. 242

(٤) : شامي ص١١٩ ويزدي :ج ١ص٣٧٠

(٥) : Grousset: op. cit. P. 519

(٦) : شامي : ص١٢٠ ويزدي :ج ١ص٣٧٢

(٧) : Saundres: op. cit. P. 167 , Grousset : op. cit. P. 519

أن تستخدم الجسور الثلاثة التي كانت مقامة على النهر ، خوفاً من الكمائن التي يحتمل أن يكون الأعداء قد أقاموها عند هذه الجسور . وعبرت هذه القوات من نقاط بعيدة عن الجسور سباحة أو على ظهور الخيل . واستطاع جيش تيمور الضخم ـ كما تقول المصادر التيمورية ـ أن يجتاز النهر بسلام على هذه الطريقة [١]. ويرى غروسيه أن القوات التيمورية عبرت نهر يابيق (الاورال) من نقطة تقع في مقاطعة "اورسك" (Orsk) الحالية [٢]. واندفعت إلى الشمال الغربي لتصل بعد ستة أيام إلى شواطئ نهر "سمور" [٣] (سامارا Samara الحالي) ، أحد روافد نهر الفولغا الذي ينزل إليه من السفوح الجنوبية الغربية لجبال اورال . وسمعت إحدى فرق الاستطلاع أصوات الأعداء من مكان قريب . ولذلك أمر تيمور بمضاعفة إجراءات اليقظة والحذر ، وبعدم السماح للجند بالتجول منفردين ، وطلب أن تحاط المخيمات بالخنادق ونقاط الحراسة ليلاً . ومنذ أن عبرت قوات تيمور نهر سمور أخذت تسير في مناطق مستنقعات ووحول ، مما زاد ما تعانيه من إجهاد . وكانت هذه القوات تقف في نقطة قريبة من نهر "ابيك" [٤]، رافد الفولغا الآخر الذي يدعى اليوم نهر "سوك" Sok [٥] بتاريخ الاثنين الأول من رجب ٧٩٣هـ (٤ حزيران ١٣٩١ م) . وأخذت طلائع قوات تيمور تصطدم بطلائع القوات المعادية وتأسر منها. وأفاد الأسرى أن خان القبجاق قد جمع جيشاً كبيرا من مختلف أنحاء امبراطوريته الواسعة ، وأضحى الآن على أقصى درجات الاستعداد للقتال ، وأن خطة توقتميش تقوم على عدم الاشتباك مع القوات المغيرة، وتركها تتوغل في هذه البلاد الواسعة، والتراجع أمامها لاستنزاف قوتها [٦]. وهي الآن في مكان قريب من النقطة التي وصلتها القوات التيمورية .

كان تيمور في هذه الآونة على اتصال مباشر بأمرائه وقواده ، يجتمع بهم من وقت لآخر، ويطلعهم على ما يحصل عليه من معلومات عن أحوال العدو . ويحاول رفع روحهم المعنوية ويطري شجاعتهم . وتشير المصادر التيمورية إلى أن التعب والقلق قد أخذ من القوات كل مأخذ . وقد لوحظ أن الليل في هذه المنطقة قصير جداً ، (لأن الوقت كان صيفاً) ، ويعقب حلول الفجر بعد مدة وجيزة من غروب الشمس ، ولذلك أفتى رجال الدين المرافقون للحملة بإسقاط صلاة العشاء [٧] .

وتقرر أن يتقدم عمر شيخ على رأس عشرين ألف مقاتل عبر نهر سوك (ابيك عند يزدي) ، لاستطلاع أحوال العدو . ولم يمض يوم واحد حتى وجد نفسه أمام قوات القبجاق ، وأسرع تيمور عند سماعه الخبر إلى حيث وصل عمر شيخ وأضحى الجيشان وجهاً إلى وجه ، يوم الاثنين في (١٥) رجب (١٩) حزيران ، في موضع "قندورجة" [٨]، حيث لاتزال إلى اليوم تقوم مدينة بالاسم نفسه "كوندورتشا" (Kondourtcha) الواقعة على نهر "كاندورتشا"

معركة قندورجة

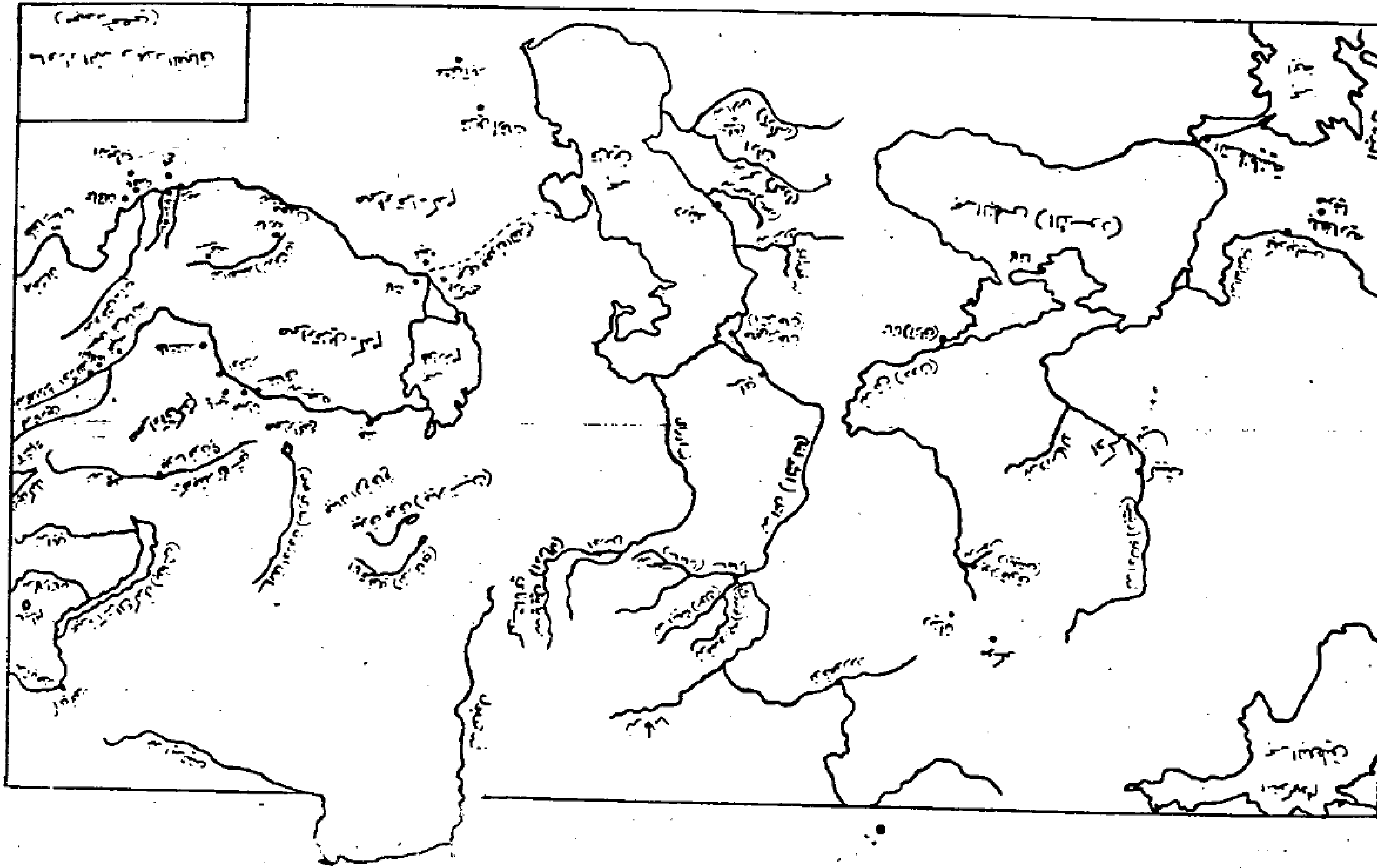
(١) : شامي : ص ١٢٠ ويزدي : ج ١ ص ٣٧٢_٣٧٣ (٢) : Grousset: op.cit. P. 520

(٣) : يزدي : ج ١ ص ٣٧٣ (٤) : يزدي : ج ١ ص ٣٧٣ (٥) Grousset: op. cit. P.519

(٦) : شامي : ص ١٢١ ويزدي : ج ١ ص ٣٧٤

(٧) : شامي : ص ١٢١_١٢٢ ويزدي : ج ١ ص ٣٧٤_٣٨٠

(٨) : شامي : ص ١٢٢_١٢٣ وحافظ أبرو : ص ٩٧ ويزدي : ج ١ ص ٣٧٤ _ ٣٨١



(Kandourtcha)[1] الصغير رافد سوك من ضفته الشمالية .

واتخذ تيمور قرار خوض المعركة على الفور ، على الرغم مما كان يشعر به جنده من التعب والجوع ، وفي الوقت الذي كان فيه أعداؤه في أحسن حالات الاستعداد والراحة ، إضافة إلى أنهم يقاتلون في بلادهم . ولم يكن أمام تيمور مجال للاختيار بين القتال وبين الانسحاب والتراجع . وكانت قطعان الماشية التي يمتلكها الأعداء ، ضرورية لاطعام رجاله الجائعين ، بعد سير في الصحراء لمدة أربعة اشهر . وكان من المؤكد أن لا يمكن خان القبجاق تيمور من الانسحاب مع قواته بسلام ، وسيحاول القضاء على غزاة بلاده ، خلال تراجعهم عبر هذه الصحارى الممتدة . وكذلك فإن سيد ماوراء النهر سوف يفقد احترام أتباعه وإخلاصهم وثقتهم بقيادته[2] ، إذا أنهى غزوته على هذه الصورة .

وتورد المصادر التيمورية تفصيلات عن الاستعدادات قبل بدء القتال ... ثم عن سير المعركة ، فتقول إن تيمور قسم قواته إلى سبعة أقسام ، وتولى قيادة كل قسم واحدٌ من أبنائه أو أحفاده أو قواده . وكان السلطان محمود بن سيورغتمش على رأس أحد هذه الأقسام . وتضرع الفاتح التركي إلى الله قبل بدء القتال طالباً النصر ، ثم صلى ركعتين . وابتهل السيد بركة الترمذي ، الذي رافق الحملة إلى الله لينصر جيش تيمور ، ثم استدار إلى سيد ماوراء النهر وخاطبه قائلاً : " توجه حيث شئت فإنك منصور "[3] .

ولما بدأت المعركة أخذ الجند يقاتلون وهم يصيحون " الله أكبر ، الله أكبر " . وكانت هجمات جند القبجاق متلاحقة على القوات التيمورية ، وأخذت بعض الفرق تشعر بضغط متزايد من الأعداء . ولكن تيمورا استطاع أن يحرك قواته بسرعة ومهارة كبيرتين ، حسب متطلبات المعركة وتطوراتها ، وكانت النجدات العسكرية تسارع لتقديم الدعم للفرق التي كانت تشعر بازدياد ضغط العدو عليها ، ولتقضي على أي نجاح استطاع أن يحققه خلال القتال . وتؤكد المصادر أن وصول القوات التيمورية إلى النصر كان بفضل ماأظهرته من ثبات وشجاعة في ميدان المعركة ، حتى أجبرت العدو على الفرار .[4]

ويتحدث تيمور نفسه عن معركة قندورجه في مذكراته[5] ، ويقول إنه استطاع بواسطة أحد أتباعه أن يصل إلى حامل اللواء في جيش توقتميش ، وأن يغريه بمبلغ ضخم من المال . ولما كان القتال مستعراً على أشده ، أمر تيمور قسماً من قواته يُعدّ ثمانية آلاف رجل ، أن يتوقف عن القتال وأن ينصب خيامه ، وينصرف لإعداد الطعام ، لإيهام الأعداء بأن القتال قد انتهى . وقام حامل اللواء المنحاز في تلك اللحظة بإلقاء اللواء على الأرض ، مما أوقع الذعر والاضطراب في صفوف جيش القبجاق ، لأن إلقاء اللواء على الأرض خلال المعركة ، هو اصطلاح — كما يقول " لانكله " Langlès — عسكري لدى الشعوب الآسيوية ، يعني مقتل الخان وإيعاز لقوات

---

(١) : Grousset : ibid ; (٢) : Prawdin: op. cit. P. 219

(٣) : يزدي : ج ا ص ٣٨١

(٤) : شامي : ص ١٢٣ — ١٢٥ وحافظ آبرو : ص ٩٧ — ٩٨ ويزدي : ج ا ص ٣٨١ — ٣٩١

(٥) : Lan glès : op. cit. P. 24

الجيش كي يلوذ كل فرد بالفرار للنجاة بنفسه. وساعدت على ازدياد البلبلة في صفوف قوات القبجاق رؤيتها لقوات الاعداء وقد انصرفت عن القتال وأخذت بإعداد الطعام . وأسقط في يد توقتميش. وعلم أنه وقع في حبائل حيلة دبرها له أعداؤه . ولم تنفع جهوده للحيلولة دون تفرق قواته . وآثر هو نفسه الفرار أيضاً[١] . ولذلك فإن لانكله يعارض ما ذهب إليه المؤرخون التيموريون ، بأن ما استطاعت القوات التيمورية أن تحققه من النصر على أعدائها ، كان بفضل شجاعتهـــا وثباتها في القتال ، ويؤكد أن إنتهاء المعركة لصالح تيمور كان نتيجة لهذه الحيلة فقط[٢]. ويعزو ابن عربشاه هزيمة توقتميش في المعركة إلى خلاف وقع بين قواده خلال القتال . وأدى الخلاف إلى خروج أحد هؤلاء القواد بقسم كبير من العساكر من المعركة ، فتقدم إلى بلاد الروم حيث نزل في ضواحي أدرنة .[٣]

احتفالات النصر

واستطاعت قوات تيمور القضاء على أعداد كبيرة من جند القبجاق ، عندما كان هـؤلاء يحاولون الفرار خوفاً من الوقوع في الأسر . وهرب توقتميش نفسه عن طريق نهر "اتل" (الفولغا) إلى الجنوب ، في الوقت الذي كان فيه جنده يقتلون بالآلاف ويلقى بجثثهم بالمستنقعات حـول النهر. ويقدر براقدان عدد القتلى من جند القبجاق في هذه المعركة بمائة ألف[٤]. وظلـت جثث القتلى منتشرة هنا وهناك على ضفاف النهر مدة طويلة بعد انتهاء القتال . وانتقى تيمور منطقة ذات جمال طبيعي على ضفة النهر ، هي مقاطعة "اورتوبة" (حاليـــاً Ourtoupa) لقضاء حقبة استجمام بعد العناء الذي عاناه ، خلال الأشهر الماضية . وانقلب الحال فجأة في الجيش من الحرمان المدقع إلى حال أضحت فيه الثروات والكنوز والعبيد والجواري والحيوانات بأعداد لاتحصى بين أيدي الغزاة. وأقيم للفاتح التركي مخيم كبير في وسط السهل. واستمرت الاحتفالات والأفراح بالنصر ، في وسط بلاد الاعداء مدة عشرين يوماً[٥].

محاولات تنظيم الادا

ولا يشير يزدي بشكل صريح إلى دخول تيمور عاصمة توقتميش (سراي) . ويكتفي بالقول إن سيد ماوراء النهر قد استقر على سرير سلطنة جوجي بن جنكيز خان وأبنائه[٦]. وتشـير المصادر التيمورية إلى اتخاذ تيمور عقب نصر قندورجة عدد من القرارات ، لتنظيم أحــوال الإدارة في بلاد القبجاق ، باعتبار أنها أضحت الآن من أملاكه ، فمنع التعرض للنـاس الأبرياء وأمر بضبط الأموال ، ووزع الحكم على عدد من الأمراء الضعاف من أحفاد جوجي بن جنكيز خان ، كان من أبرزهم "قتلق تيمور" و "ايدكو" . ولكنه لم يلبث أن يئس من إمكانيـة التعاون مع هذا الأمير ، فتركه يعمل لحسابه ، وسكت عن انفصاله في الحكم عن حكومة سراي. وكان ايدكو القبقاجي قد فر اليه خلال الزحف على تلك البلاد ، وطلب مساعدته ضد توقتميش[٧]. ووجد تيموران توحيد خانية القبجاق تحت سلطة حاكم قوي ، قد يجدد المأساة التي انتهت إليها سياسة التعاون مع توقتميش . ويرى بعض الباحثين في الوقت الحاضر ، أن ما اتخذه تيمور مـن

(١) : شامي : ص١٢٥ وحافظ آبرو : ص٩٨ ويزدي ج ١ص ٣٩٣
(٢) : M.1 Langlès: op. cit. P.241 (٣) : ابن عربشاه : ص٥٨
(٤) : Prawdin: op. cit. P. 220 (٥) : شامي : ص١٢٥ ويزدي : ج ١ص ٣٩٤ — ٣٩٧ (٦) : يزدي : ج ١ص٣٩٦
(٧) : شامي : ص١٢٥ ويزدي : ج ١ص ٣٩٤ و ٣٧٤ وحافظ آبرو : ص٩٩

إجراءات لبقاء بلاد القبجاق تحت حكمه المباشر، لم يكن كافياً لاستمرار النفوذ التيموري هناك.(١) وكان جلّ همه منصرفاً إلى حمل الغنائم الضخمة التي وقعت بيده والتوجه بها إلى بلاده.(٢)

الانسحاب

ولا يذكر يزدي تاريخ مبارحة تيمور بلاد القبجاق. ويبدو أن الفاتح التركي لم يمض وقتاً طويلاً في تلك البلاد، لأنه كان يقف مع قواته على ضفاف نهر سيحون عند مدينة اوترار في ذي القعدة من ذلك العام (٧٩٣ هـ تشرين الأول ١٣٩١م)، بعد أن سلك الطريق الصحراوي نفسه عائداً إلى بلاد ماوراء النهر(٣) لمتابعة أعماله الحربية في إيران.

إعادة توقتميش تنظيم دولته

وساعد انسحاب تيمور السريع توقتميش على استعادة نفوذه وسلطته بعد مدة قصيرة، وبعد أن نجح في تجميع قواته المبعثرة هنا وهناك في أنحاء دولته الواسعة. وأجبر الأمراء الروس بعد سلسلة من الحروب وغارات السلب والنهب، على القدوم إلى بلاطه حاملين الأموال والهدايا لتجديد ولائهم وتبعيتهم له. وكان على رأس هؤلاء "ڤاسيلي" أمير موسكو، الذي ساعد توقتميش بما أمده به من جيوش، على بسط نفوذه على مناطق جديدة، على حساب الأمراء الروس الآخرين، وبالمقابل فإن ڤاسيلي قدّم لخان القبجاق كميات من الذهب، ساعدته دون شك على تحسين وضعه السيء، واستعادة مكانته كسيد على بلاد القبجاق، أمام الخانات الصغار الذين أقامهم تيمور قبل جلائه عن البلاد(٤). ويقول ابن عربشاه إن توقتميش اضطر في سبيل ذلك أن يخوض خمس عشرة حرباً،(٥) خلال العامين التاليين وظهر من رسالة مؤرخة في ٢٠ أيار ١٣٩٣ م وجهها توقتميش من مدينة "تانا" (Tana) على بحر آزوف، إلى ملك بولونيا "ياغللو" (Yagllo) الذي كان يعتبر في ذلك الوقت واحداً من أتباع خان القبجاق، أن الأوضاع في البلاد قد عادت إلى الهدوء، وعاد الجميع إلى النظام والطاعة، ولذلك فإن على الملك البولوني — كما جاء في الرسالة — أن يسدد كل ماترتب عليه من الضرائب خلال المدة الماضية. ويعرض توقتميش في هذه الرسالة أيضاً تفسيراً للأحداث التي وقعت من وجهة نظره، فيقول إن أعداءه هم الذين استدعوا تيمور، وأنه أُخذ بالهجوم على حين غرة. ولم يعلم بالغارة التيمورية إلا في وقت متأخر. كما تخلى عنه أتباعه خلال القتال(٦).

وتوقفت الحروب بين سيد ماوراء النهر وخان القبجاق مدة أربعة أعوام. كان تيمور خلالها منهمكاً في الحروب في إيران والعراق. وكانت فيها فكرة الانتقام لاتفارق تفكير خان القبجاق(٧) ولذلك وجد تيمور نفسه مضطراً مرة ثانية للقيام بغزوة اجتياح كبيرة لبلاد القبجاق في عام ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م).

(١): Saunders: ibid, Grousset: ibid, et Prawdin: op.cit. P. 221
(٢): حافظ آبرو: ص٩٩ (٣): يزدي ج ١ ص٣٩٧ — ٣٩٩
(٤): Prawdin: op. cit. P. 225 (٥): ابن عربشاه: ص ٦١
(٦): Barthold: Tuktamish (E.I.T. IV P.P.850-852) P. 851
(٧): Prawdin: ibid .

الفصــــل الثالـــث

تيمــور فــي إيـرا ن والعـــرا ق
٧٩٤ - ٧٩٨ هـ / ١٣٩٢ - ١٣٩٦ م

الميزات العامة لأعمال تيمور في إيران - إيران بعد عودة تيمور - شاه منصور - ثورة طوس - استجمام تيمور بعد غزوه القبجاق - القدوم إلى إيران ، في استراباد - قتال الحروفية - نحو إيران الغربية - أعمال شاه منصور ومقتله - احتلال شيراز - القضاء على آل المظفر - أسباب الصراع مع أحمد جلاير - سياسة أحمد في بغداد - الاحتكاكات الأولى - بعثة الشيخ نور الدين - الإغارة على بغداد - فرار أحمد - أعمال تيمور في بغداد - ميرانشاه في جنوب العراق - ضد الأكراد - احتلال تكريت - خضوع الموصل وأربيل - ماردين - مقتل عمر شيخ - تركمان الغنمـة السوداء - اجتياح الكرج - إيران والعراق في غياب تيمور - عوامل اعتدال سياسة تيمور - عودته إلى بلاده .

الميزات العامة لأعمال تيمور في إيران

كانت أعمال تيمور في إيران والعراق والمناطق المجاورة ، في هذه الحقبة علـى مرحلتين، امتدت المرحلة الأولى بين عامي ٧٩٤هـ (١٣٩٢م) و ٧٩٧هـ (١٣٩٥م)، ووقعت بين غزوتيه الكبيرتين إلى بلاد القبجاق . وجاءت المرحلة الثانية عقب عودته من غزوته الثانية . ويطلق المؤرخ التيموري يزدي تعبير "حروب السنوات الخمس" (يورش بنج ساله)[1] على أعمال تيمور في إيران والمناطق المجاورة، بمرحلتيها وعلى غزوته الثانية لبلاد القبجاق . لأن تيمور قد تغيب بسبب هذه الحروب عن عاصمته سمرقند مدة تقارب خمس سنوات بين رجب ٧٩٤ وأواخر عام ٧٩٨ هـ . واتصفت حروب الفاتح التركي في إيران في هذه الحقبة بأنها كانت أبعد مدى من ناحية الغرب، حيث تجاوزت هذه البلاد إلى العراق . ودخلت جيوش تيمور بغـــداد وكربلاء ، وجاست في ديار بكر، وأغارت مرة ثانية على ارمينية والقوقاز وبلاد الكرج (جيورجيــا) . وظهر فــي هذه الحروب اعتماد تيمور بدرجة أكبر على أولاده وأحفاده في إنجاز الكثير مـــن العمليات العسكرية . وربما كان السبب في ذلك يرجع إلى تقدم الفاتح التركي بالسن مـــن ناحية ، ولأن العمليات الحربية من ناحية ثانية كانت عمليات صغيرة ومحدودة ، وضد دول صغيرة لا تتطلب من تيمور الإشراف المباشر على كل تفصيلات هذه الأعمال .

إيران بعد عودة تيمور

كان تيمور عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) قد اضطر إلى العودة من أبواب شيراز إلـــى ماوراء النهر، تاركاً الكثير من الأعمال التي كان عليه أن يقوم بها هناك ، عندما سمع بالغارة التي قام توقتميش على ماوراء النهر[2] . ولم تمكنه هذه العودة السريعة المفاجئة من القضاء على آخر قوة سياسية في إيران أو إجبارها على الانضواء تحت لوائه والاعتراف بسلطته . وهي قوة المظفريين الذين لا تزال بعض المدن في فارس وكرمان تحت حكم عدد من الأمراء مـــن البيت المظفري . وقد اعتقد بعض حكام إيران بسبب عودة تيمور عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) ، على تلك الصورة إلى ماوراء النهر ، أنه قد أضحى بإمكانهم التخلص من نير الخضوع للفاتح التركي .

(١) : يزدي : ج ١ ص ٤٠٣ (٢) : انظر الفصل الأول من الباب الخامس .

ولا سيما عندما أخذت تتوارد إلى ايران في تلك الآونة ، مادعاه حافظ آبرو بالأراجيف ، التي تزعم بانهزام جيوش تيمور أمام قوات القبجاق المغيرة ، وأن سيد ماوراء النهر هو الآن محاصر في عاصمته سمرقند [١] . ولذلك تناسى هؤلاء الحكام قسم الإخلاص الذي أدوه أمام تيمور .

شاه منصور

وبرز الحاكم المظفري شاه منصور ، على أنه الثائر الأول على تثبيت السلطة التيمورية في إيران [٢] ، ونزل من معقله الجبلي في خوزستان ، وعمل على بسط نفوذه على الأمراء المظفريين الآخرين .

ثورة طوس

واندلعت في الآونة ذاتها ثورة في طوس ، أشعلها "حاجي بيك جاوني قرباني" الذي عينه تيمور حاكماً على المدينة ، بعد أن اعتقل جده "علي بيك جاوني قرباني" عام ٧٨٢ هجري (١٣٨٠ م) ، عند قدومه الأول إلى إيران ، ونقله إلى ماوراء النهر ثم قتله هناك . ويقول حافظ آبرو ــ الذي انفرد من دون بقية المؤرخين التيموريين بالحديث عن هذه الثورة ــ إن تيمور خطب ابنة حاجي بيك لابنه عمر شيخ . ولكن حاكم طوس لم يلبث أن شق عصا الطاعة ، وأمل أن تصله المساعدات من خان القبجاق ، الذي كانت قواته في ذلك الوقت تجتاح ماوراء النهر . وتداولت المنطقة التي كان يحكمها نقوداً ضرب عليها اسم توقتميش ، كما تليت الخطبة باسمه . ولم تتمكن القوات التيمورية الموجودة في خراسان ، والتي هرعت لحصار طوس من هيرات وسيستان وكوهستان ، من القضاء على الثورة في أول الأمر . ولما سمع الثوار بنجاح تيمور في رد القبجاق عن بلاده عند نهر سيحون ، أسقط في يدهم ، ونجح ميرانشاه في اقتحام طوس في جمادى الثانية ٧٩١ هـ (حزيران ١٣٨٩ م) ، فنهب المدينة وقتل عشرة آلاف من سكانها ، وألقى القبض على حاجي بيك ، ثم عاد إلى هيرات حيث أرسل يعلم أباه ، الذي آب حديثاً من غزوته لبلاد الجتا ، بما حدث [٣] .

ولم تمكن الأوضاع على حدود ماوراء النهر مع بلاد القبجاق ، والتهديدات المستمرة التي كانت تتالى من تلك الناحية ، تيمور من العودة إلى ايران إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ، قضاها في مراقبة حدود بلاد الجتا وملاحقة خان القبجاق في عمق بلاده [٤] .

الاستجمام بعد غزوة القبجاق

ولم يفكر تيمور بالعودة إلى إيران عقب الانتهاء من غزوته الأولى إلى بلاد القبجاق وعودته إلى سمرقند في آخر عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) مباشرة . بل أمضى مدة استجمام طويلة امتدت ست أشهر ، في صحراء "بارسين" بجوار طاشقند في الشمال ، قضاها في الصيد . وعين في تلك الآونة حفيده بير محمد بن محمد جهانكير على ممالك كابل وغزنه حتى حدود الهند ، التي كان يطلق عليها "مملكة السلطان محمود الغازي (الغزنوي)" [٥] . ولما آب إلى سمرقند في مطلع عام ٧٩٤ هـ (تشرين الأول ١٣٩١ م) ، دأب على إقامة الحفلات والمآدب بمناسبة زواج اثنين من أحفاده .

القدوم إلى إيران

ويعلل يزدي خروج تيمور من جديد في منتصف رجب ٧٩٤ هـ (٨ حزيران ١٣٩٢ م) من سمرقند ، بأن نفس تيمور التي اعتادت مشاق السفر ومعاناة الأهوال ، قد عافت حياة الدعة

---

(١) : حافظ آبرو : ص٦٦
(٢) : Prawdin : op. cit. P. 221
(٣) : حافظ آبرو : ص٧٧ ــ ٩١
(٤) : انظر الفصل السابق .
(٥) : يزدي ج ١ ص ٤٠١

والاسترخاء ، ثم بالاخبار التي كانت تأتيه عن اضطراب الأحوال في إيران خلال غيابه في بلاد القبجاق [١] . وأصيب تيمور وهو يمر ببخاري بالمرض بسبب اشتداد حرارة الصيف (حزيران_ تموز) ، واضطر بسبب ذلك لأن يتوقف ثلاثة أسابيع استدعى خلالها إليه بعض زوجاته ، وأشرف على علاجه أطباء من الأتراك والتاجيك [٢] . وشعر تيمور خلال مرضه الذي أيقن فيه بأنه قد أشرف على الهلاك ، بضرورة الاسراع في إنجاز ما كان يرغب في إنجازه من أعمال الفتح والتوسع والاندفاع إلى أبعد مدى ممكن ، قبل أن يوافيه أجله بعد أن بلغ السابعة والخمسين من العمر . [٣]

في استراباد

ولما عبر تيمور جيحون في رمضان ٧٩٤ هـ (آب ١٣٩٢ م) ، كان أول عمل قام به هو تثبيت بير باديشاه بن لقمان الذي يرجع نسبه إلى البيت الايلخاني الذي كان يحكم في إيران ، حاكماً على استراباد ، بعد فشل حاكمها السابق شاه ولي في مقاومة تيمور [٤] ، واضطراره إلى الفرار من وجهه نحو الغرب . وأمضى تيمور وقتاً في قتال إحدى الطوائف الدينية الشيعية تدعى "الحروفية". وكانت تنزل في عدد من المواقع الحصينة في "آمل" و "ساري" بالقرب من استراباد . [٥] واعتصم الحروفيون لما شعروا باقتراب جيوش تيمور من مدنهم بحصونهم ، وقرروا المقاومة . ويقول كل من شامي ويزدي إن تيمور اندفع بحماس لقتال هؤلاء غيرة منه على الإسلام ، فقد كان هؤلاء لا يقيمون المساجد ولا تقام عندهم جمعة ولا جماعة . ولما عجزوا عن المقاومة استسلموا وقبلوا بشروط تيمور ، بدفع الأموال وتسليم أولادهم لتعليمهم مبادىء أهل السنة والجماعة ، كما قتل بعض زعمائهم ونفي بعضهم الآخر إلى طاشقند [٦] .

قتال الحروفيين

نحو إيران الغربية

وبعد أن أمضى تيمور قسماً من فصل الشتاء في منطقة مازندران ، استأنف التقدم مع قواته في صفر ٧٩٥هـ (كانون الأول ١٣٩٢ م) نحو الغرب ، ماراً بمدن خراسان وإيران الشمالية . وبينما كان موكب الفاتح التركي يتقدم ببطء إلى جنوب إيران عن طريق الري و "روجرد" و "خرم آباد" فتستر ، خلال الشهرين التاليين ، كان أولاده وأحفاده يجوبون مناطق إيران المختلفة ، لإعادة تثبيت السلطة التيمورية فيها . فأخضع محمد سلطان منطقة كردستان ، ووصلت قوات عمر شيخ إلى الحويزة في خوزستان . ومر ميرانشاه بـ "كاشان" وهو في طريقه للالتحاق بقوات أبيه الذي بلغ "دزفول" في طريقه إلى تستر ، وكانت تقع بجوارها بقايا المرصد الذي كان قد أقامه أحد ملوك الفرس القدماء "شابور ذو الأكتاف". وزار تيمور أطلال المرصد قبل أن يتابع تقدمه إلى شيراز . [٧]

أعمال شاه منصور ومقتله

كانت الخلافات بين أفراد الأسرة المظفرية قد اشتدت ، خلال السنوات الماضية التي ترك فيها تيمور إيران . وبدا أن "شاه منصور" حاكم "تستر" قد نجح بفرض هيمنته على أغلب

---

(١) : يزدي : ج ١ص ٤٠٣ _ ٤٠٥ (٢) : شامي : ص١٢٦ ويزدي ج ١ص ٤٠٦
(٣) : (٤) : شامي : ص١٢٧ ويزدي : ج ١ص ٤٠٩
(٥) : انظر ما ورد بشأن هذه الطائفة الدينية فصل "ثقافة تيمور وعقيدته الدينية".
(٦) : شامي : ص ١٢٧ _ ١٢٨ ويزدي : ج ١ص ٤٠٨ _ ٤١٤ (٧) : شامي : ص١٢٩ _ ١٣٠ ويزدي : ج ١ص ٤١٧ _ ٤٢٢ أما "شابور ذو الأكتاف" فهو سابور الثاني أحد الملوك الفرس من الأسرة الساسانية حكم بين ٣١٠ _ ٣٧٩م . وحارب الرومان واضطهد المسيحيين في بلاده . انظر جورج حداد : المدخل إلى تاريخ الحضارة دمشق ١٩٥٣ ج ٢ص ١٨٥

أفراد الأسرة ، فاعتقل ابن عمه "زين العابدين" — الوارث الشرعي لملك المظفريين — في إحدى القلاع القريبة من تستر . وضم إليه أملاك أقربائه في شيراز واصفهان و "ابرقوه" . وعلى الرغم من فرار زين العابدين من سجنه ومحاولته الانتقام من ابن عمه ، فإنه هزم في القتال الذي دار بالقرب من الري ، وأسر للمرة الثانية ، وسملت عيناه وأعيد إلى السجن . واستقر الحكم لشاه منصور الذي اتخذ من شيراز عاصمة له مدة أربع سنوات ، إلى أن ظهرت قوات تيمور من جديد في إيران عام ٧٩٤هـ (١٣٩٢م)(١).

احتلال شيراز

واجتمع تيمور بأبنائه واحفاده في ظاهر تستر (أواخر ربيع الآخر ٧٩٥هـ/ شباط ١٣٩٣م). وأجرى تعبئة جديدة لقواته ، وأرسل إلى عمر شيخ الذي ظل يقاتل في غرب خوزستان بالامدادات ، ثم تقدم نحو الجنوب فمر بالمدن الواقعة في سفوح جبال زغروس الجنوبية الغربية كـ "رام هرمز" و "بهبهان" . واجتاز مجموعة الأنهار التي تنزل من هذه الجبال وتصب في الخليج . وحاصرت قوات تيمور وهي في طريقها إلى العاصمة المظفرية شيراز ، قلعة "سفيد" الحصينة حيث كان "زين العابدين" معتقلاً . وتمكن المغيرون من اقتحام القلعة بعد أن ضربوها بالمنجنيقات . ولما مثل زين العابدين أمام الفاتح التركي ، وعده باعادته إلى عرشه وبالانتقام له .(٢) وبث تيمور جنده في كافة الاتجاهات بحثاً عن قوات لعدوه وهو في طريقه بحصار شيراز . ووقع الاشتباك الأول بين الفريقين بجوار مدينة "باغستان" التي قال عنها يزدي إنها قريبة من شيراز .(٣) ولما كانت قواه شاه منصور قليلة العدد بالنسبة للقوات المغيرة ، فقد اعتمد الملك المظفري كما يقول ابن عربشاه على المباغتة . وكان الهجوم ليلياً . وعمد شاه منصور إلى فرس فربط في ذيلها قدراً نحاسياً ، وأطلقها بين صفوف أعدائه ، فاوقعت فيهم الخوف والارتباك . واستطاعت قواته التي يقدرها ابن عربشاه بألفي رجل ، أن تقتل عشرة آلاف من الأعداء الذين كان عددهم حسب تقدير يزدي ثلاثين ألفاً .(٤) ويتابع ابن عربشاه وصف تطورات القتال ، فيقول إن تيمور نفسه خاف من جرأة عدوه ، فهرب واندس بين نسائه ولبس ثيابهن(٥). وتعترف المصادر التيمورية بخطورة الهجوم المفاجئ الذي تعرض له تيمور بشخصه ، على يد شاه منصور الذي حمل على تيمور وحاول أن يصوب إليه رمحاً . عندما لم يكن عدد الحراس الملتفين حول الفاتح التركي يزيد عن الخمسة عشر نفراً . ولكن الرمح أخطأ تيمور ولم يصب بأي أذى . وتلاحقت النجدات إلى ميدان القتال على وجه السرعة . واستطاع أحد رجال شاه رخ بن تيمور أن يصيب شاه منصور إصابة قاتلة ، ولما وقع على الأرض قطع شاه رخ رأسه وأسرع ليضعه بين يدي والده(٦) . وأشار تيمور إلى الحادثة في مذاكراته في موضعين — في الملفوظات وفي التنظيمات — واعترف بأنه كاد أن يلقى مصرعه على يد شاه منصور ، الذي نال أخيراً الجزاء الذي يستحقه .(٧) وبما أن الخطر الذي تعرض له الفاتح التركي كان

(١) : يزدي : ج ١ص ٤٢٧ وابن عربشاه : ص ٢٣ (٢) : شامي : ص ١٣٢ ويزدي : ج ١ص ٤٢٧— ٤٣٣ (٣) : يزدي : ج ١ص ٤٣٤ (٤) : يزدي : ج ١ص ٤٣٥ (٥) : ابن عربشاه : ص ٢٨—٢٩ (٦) : شامي : ص ١٣٣ ويزدي : ج ١ص ٤٣٥—٤٣٧

(٧): Stewart: op. cit. P. 110 , Langlès: op. cit. P. 240

وينتحل العسقلاني عذراً لمصرع شاه منصور ويقول : إن الكثرة غلبت الشجاعة " انظر العسقلاني ج ١ ص ٤٤٠

جداً ، فقد أسرع من كان حول تيمور إلى تقديم التهاني له وشكروا الله عندما رأوا رأس شاه منصور ملقى على الأرض [(١)].

وتقدمت قوات تيمور في إثر المنهزمين حتى ضربت الحصار على شيراز ، وكان للمدينة تسعة أبواب ، ولم تقو شيراز على المقاومة وفضل أهلها دفع أموال الأمان والدخول في طاعة تيمور . وصودرت مخلفات شاه منصور من الخزائن والأموال والأقمشة ، ووزعت على الجند . واعتقل " غضنفر بن شاه منصور " وقدم الحكام المظفريون الآخرون لتقديم فروض الطاعة والولاء محملين بالهدايا ، فجاء " شاه يحيى " مع أولاده من " يزد " ، وحضر " سلطان أحمد " من " كرمان " ، وقدم السلطان أبو اسحق " من " شيرجان " . وأرسل تيمور يزف خبر النصر إلى سمرقند وانقلب ليقضي مدة استجمام وراحة ، استغرقت شهراً واحداً بجوار شيراز [(٢)].

القضاء على آل المظفر

ويقول يزدي إن تيمور عمل على رفع ألوية العدل وضبط أمور البلاد وإلغاء الرسوم والضرائب الجائرة التي فرضها آل المظفر على الرعية خلال حكمهم واستئثارهم بالسلطة ، عندما رفع كل أمير منهم لواء الاستقلال في ناحية معينة من بلاد فارس . واستمع تيمور إلى مطالب العلماء وأهالي البلاد وشكاواهم ، عن أعمال آل المظفر القبيحة . ولذلك أصدر تيمور في ٢٣ جمادى الآخرة ٧٩٥هـ (٧ آيار ١٣٩٣م) أوامره باعتقال جميع أفراد الأسرة الحاكمة المظفرية حتى الذين جاؤوا إليه مقدمين خضوعهم . فصودرت أملاك سلطان أحمد حاكم كرمان وأرسلت قوات إلى شيرجان قتلت حاكمها أبو اسحاق المظفري ، وأرسل بعض الأمراء منهم إلى سمرقند من أمثال السلطان زين العابدين وشقيقه " سلطان شبلي " [(٣)]. ويقول ابن عربشاه إن تيمور رأف بحال زين العابدين لأنه كان وصياً عليه . كما نصت على ذلك وصية شاه شجاع والد زين العابدين قبل وفاته [(٤)] وأسرع تيمور إلى إرسال حكام من أتباعه إلى المناطق التي كانت تحت حكم آل المظفر [(٥)]. وكان تيمور يشعر — كما يقول هذا المؤرخ الدمشقي — أن حكم بلاد فارس لن يصفو له ، إلا بالقضاء على هذا البيت المالك العريق . ويقدر عدد من شملتهم حركة التطهير التيمورية بسبعة عشر أميراً [(٦)]. ولما بارح تيمور شيراز بعد خمسة أيام من اتخاذه قرار ملاحقة أمراء آل المظفر ، أصدر وهو في الطريق إلى أصفهان بتاريخ ٨ رجب ٧٩٥هـ (٢١ أيار ١٣٩٣م) أمراً بقتل جميع أفراد الأسرة الكبار والصغار منهم ، وتتبع ذراريهم من الذكور ممن كان لا يزال مقيماً في يزد وكرمان [(٧)]. ويستشهد يزدي بالآيتين القرآنيتين : " تلك أمة قد خلت ... " و "وتلك الأيام نداولها بين الناس ... " للدلالة على أن ملاحقة تيمور لآل المظفر ملاحقة جدية ، وانتهت إلى تصفيتهم تصفية تامة والقضاء على نفوذهم بصورة كاملة [(٨)].

وبلغ تيمور أصفهان بعد يومين من قراره القضاء على آل المظفر . وكان حفيده محمد سلطان قد سبقه إليها لجمع أموال الأمان من السكان [(٩)]. ولم يمكث تيمور في المدينة أكثر من خمسة أيام ، كان خلالها في هذه المرة ، موضع ترحيب السكان " وأضحى غبار موكب سعادة

(١) : يزدي : ج ١ ص ٤٣٧ (٢) : ابن عربشاه : ص ٣٢ ويزدي : ج ١ ص ٤٣٨ — ٤٤٠

(٣) : يزدي : ج ١ ص ٤٤١ (٤) : ابن عربشاه : ص ٣٢ (٥) : ابن عربشاه : ص ٣٦

(٦) : ابن عربشاه : ص ٣٧ (٧) : ابن عربشاه : ص ٣٧ ويزدي : ج ١ ص ٤٤٣

(٨) : يزدي : ج ١ ص ٤٤٣ (٩) : يزدي : ج ١ ص ٤٣٨ .

الصديق المحبوب ، كحل عيون افتخار واستظهار أهالي تلك الديار"[1]. على حد قول يزد

وتابع تيمور تقدمه إلى الشمال ، ونزل في ضواحي همذان في سهل فسيح جميل ال مدة تزيد عن الشهرين والنصف واجتمعت لديه قوات أبنائه وأحفاده التي كانت تقاتل في مختلفة من إيران ، كما أنفذ من منتجعه حملات إلى بلاد الكرد والتركمان بعد أن علم أن كانوا يتعرضون للقوافل والمسافرين عبر الطرق الجبلية التي تمر ببلادهم[2].

ـاب الصراع مع أحمد جلاير

هذا ، وكان حاكم بغداد أحمد جلايرذو الأصل المغولي ، الذي أثر فيه المحيـ الحضاري التاجيكي[3]، يشكل القوة الثانية التي كان من المتوقع أن تقف في وجه تيمور الذي كان يمثل من الناحية المقابلة الطابع التركي البدوي ، بعد القضاء على قوة المظفريين في بلاد فارس وتجاوز أملاك الدولة التيمورية مع أملاك أحمد جلاير في العراق[4]. وكان تيمور يرى نفسه وريث الدولة الايلخانية التي كانت تحكم إيران والعراق ، حيث يحكم الجلايريون الآن . وقد أشار تيمور إلى ذلك ، بصورة صريحة ، في إحدى رسائله إلى السلطان بايزيـــد الأول العثماني[5]. واعتقد الفاتح التركي في الوقت نفسه ، أن السيطرة على العراق هي أمر ضروري لأنه الطريق المؤدي إلى بلاد الشام ومصر والحجاز — حيث الأماكن المقدسة الإسلامية — فضلا عن أهميته التجارية لوقوعه على طريق التجارة الآتي من الخليج العربي والمتجه إلى ماوراء النهر عبر إيران[6]. ولم يدرك أحمد جلاير قيمة العرض الذي كان قد قدمه حاكم مازندران ، الحسن شاه ولي ، عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م للتحالف والوقوف في وجه تيمور[7]. كما أهمل عرضاً آخر للتحالف تقدم به توقتميش خان القبجاق ضد الفاتح التركي عام ٧٨٧هـ(١٣٨٥م) ، عندما أرسل إلى حاكم بغداد وفداً برئاسة قاضي العاصمة سراي ، وأيد عرضه بتوجيه خمسين ألــف محارب عسكروا أمام دربند في شمال اذربيجان[8].

وازداد تيمور جرأة عندما اكتفى أحمد جلاير بالسكوت عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) ، لمـا نجح الفاتح التركي بالاستيلاء على تبريز إحدى المدينتين الرئيسيتين في أملاك الجلايريين وقبل الانسحاب إلى المدينة الثانية بغداد . ويقول مؤرخ معاصر هو ابن الفرات إن الحاكم الجلايري قد عزم في سره على الانتقام والسعي لاسترجاع تبريز ، وأضاف فأنه قد بلغـه عام ٧٨٩هـ ، وهو العام الذي استولى فيه تيمور على تبريز ، من أحد تجار بغداد قدم إلى القاهرة أن احمد جلاير قد تحالف مع قرا محمد زعيم قبيلة " القرةقيونلو " التركمانية ، ومع جماعة مـن الأعراب على قتال تيمور واسترجاع المدينة منه[9]. ولكنه فضل مصانعة تيمور في بادئ الأمر فقبل

(١) : يزدي : ج اص ٤٤٣ (٢) : يزدي : ج اص ٤٤٤—٤٤٨ .
(٣) : Grousset :op. cit. P. 508 (٤) : ابن عربشاه : ص ٤٠
(٥) : فريدون بيك : مجموعة منشآت السلاطين . القسطنطينية ١٢٦٤هـ ج١ص ١٢٥
(٦) : Aubin :Tamerlan à Bagdad (Arabica v.special 1962 P.P.305-309) P. 303 (٧) : ابن عربشاه ٢٤—٢٥
(٨) : نوري عبد الحميد خليل : حملات تيمور على بغداد (مجلة المورد م ٨ عدد ٤ عام ١٩٧٩م ص ٦٥—٧٢) ص ٦٦ (٩) : ابن الفرات م٩ ج ١ ص ٧

الخلعة التي أرسلها إليه وضرب السكة باسمه [١] ، عندما أرسل إليه يطلب ذلك عام ٧٩٥ هـ.

ويفهم من أقوال المؤرخين المعاصرين أن أحمد جلاير فضلاً عن سوء أخلاقه الشخصية ومجاهرته بالفساد والفجور ، فقد أساء الحكم في بغداد ، فنكّل بإخوته وأساء معاملة قواده وامرائه ، وبالغ في ظلم الرعية [٢] . ويضيف ابن عربشاه على ذلك فيقول إن أحد قواد حاكم بغداد ويدعى " سنتاني " الذي انهزم أمام قوات تيمور ، في المعركة التي دارت قرب السلطانية عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) ، والتي كان من نتائجها دخول تيمور إلى تبريز ، قد تعرض للتوبيخ والضرب عند عودته إلى بغداد [٣] . وقد دفعت هذه الأعمال سكان بغداد إلى مكاتبة تيمور والاستنجاد به . عندما احتل تبريز وأضحى قريباً من بغداد . وأخذوا يحرضونه على القدوم إليهم [٤] .

سياسة أحمد في بغداد

وباشر تيمور أولى اتصالاته مع حاكم بغداد بمخادعته والتظاهر بالود له . ويقول ابن أياس إن تيمور أرسل عام ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) إلى أحمد جلاير يقول له : " أنا ماجئتك محارباً وإنما خاطباً ، أتزوج بأختك وأزوجك بنتي " وكان هذا سبباً في سرور حاكم بغداد الذي ظن أن هذا الكلام كلامٌ صحيح [٥] . وقد أشار تيمور في مذكراته أن الغرض الحقيقي من اتصالاته بأحمد ، كان يقصد الحصول على معلومات عن أحوال حاكم بغداد وعدد جيوشه ومدى استعداده للقتال . وقد أخبره أحد أعضاء الوفد الذي قابل أحمد جلاير ، بأن حاكم بغداد ليس إلا كتلة من لحم لها عينان [٦] . ولم يلبث الفاتح التركي بعد ذلك أن قام بعمل ينطوي على الاستخفاف بأحمد ، ورغبته في تهديده والقاء الرعب في قلبه ، عندما أرسل إليه في بغداد رأس شاه منصور بعد احتلال شيراز [٧] . ويبدو أن هذا التهديد قد أعطى نتائجه ، فأسرع أحمد كما تقول المصادر التيمورية بإرسال الشيخ نور الدين عبد الرحمن الاسفرايني سفيراً إلى تيمور ، الذي أحسن استقبال المبعوث وخلع عليه وأعلمه أنه إنما يفعل ذلك تكريماً لشخص المبعوث وتقديراً لتقاه وورعه وعلمه . ورفض قبول طاعة أحمد على الرغم من إقراره بالتبعية له. وامتنع عن قبول الهدايا التي أرسلها إليه . وذكر تيمور لمبعوث حاكم بغداد بأنه كان يأمل أن يحضر أحمد جلاير بنفسه إليه ، لتقديم خضوعه، ولكن حاكم بغداد فضّل المكوث في عاصمته ، كما أنه لم يلتزم التزاما تامًا ، بأن تكون السكة والخطبة في بغداد باسم تيمور [٨] .

الاحتكاكات الأولى

بعثة الشيخ نور الدين

وسمح تيمور للشيخ نور الدين بالعودة إلى سيده ، وأعلمه بأنه سيمتنع عن الاغارة على بغداد إكراماً له ، وخاطبه قائلا : " أنا أتركها لأجلك " . وعلى الرغم من إرسال المبعوث وهو في طريق العودة إشارة إلى بغداد ، تحمل ماتمّ عليه الاتفاق مع تيمور ، فإن أحمد جلاير كان يتوقع الغدر من سيد ماوراء النهر [٩] ، ولذلك فقد اتخذ بعض الاستعدادات ،

الاغارة على بغداد

---

(١) : ابن الفرات : م٩ ج ٢ص ٣٤٣ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق٢ص ٧٨٨
(٢) : ابن الفرات : م٩ج ٢ص٣٤٤ والمقريزي : السلوك ج ٣ق٢ص٧٨٨ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٢ص ٤٣ وابن صصري : كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية تحقيق بريز لوس انجلوس ١٩٦٣ ص ١٤ (٣) : ابن عربشاه : ص ٤
(٤) : ابن الفرات : نفسه والمقريزي : نفسه وابن عربشاه : ص ٤٧ والعسقلاني : ج ١ص ٤٥٣
(٥) : ابن أياس : ج ١ص ٣٠٠ (٦) : Langlès : op. cit. P. 244
(٧) : العسقلاني : ج ١ص ٤٦٥ وابن الفرات : م٩ج ٢ص ٣٤٣ (٨) : شامي : ص١٣٨ ويزدي : ج ١ص ٤٤٩ (٩) المقريزي : السلوك : ج ٣ق٢ص ٧٨٩ والعسقلاني : ج ١ص ٤٥٢ وابن تغري بردي : ج ١٢ص ٤٤

وقام بنقل أهله وكل ماكان يخاف عليه من المال والمتاع إلى إحدى القلاع بجوار "نخشيفان"[١] الحالية في شمال اذربيجان ، هي قلعة "النجاء" (النجق عند يزدي) . وربما كان سوء معاملة أحمد جلاير لأتباعه سبباً في انضمام الكشافة الذين أرسلهم لاستطلاع أحوال القوات المغيرة إلى الأعداء . وأصبح حاكم بغداد — كما يقول ابن خلدون — في جهل تام بأخبار عدوه "وعميت عليه الأخبار"[٢] في الوقت الذي كان فيه جواسيس تيمور في بغداد ينقلون له أخبار أحمد بواسطة الحمام الزاجل .[٣]

ويقول فريق من مؤرخي الشام ومصر ، إن تيمور بدأ زحفه على بغداد بعد مسيرة الشيخ نورالدين عائداً إلى بغداد بمدة وجيزة . وقد سلك بعد مغادرته مكان إقامته بجوار همذان ، طريقاً جديدة غير معروفة ، ولذلك وصل إلى بغداد قبل أن يرجع إليها الشيخ نورالدين[٤] ويتفق هذا القول مع ما ذكره المؤرخون التيموريون ، الذين أشاروا إلى أن تيمور نهض في ١٣ شوال ٧٩٥هـ (١٣ آب ١٣٩٣م) بعد أن أرسل من كانت ترافقه من زوجاته إلى السلطانية ، وبدلاً من أن يتجه من همذان إلى بغداد بشكل مباشر ، فقد اتجه إلى الشمال ثم نفذ إلى أرض العراق من خلال معابر جبلية ضيقة ووعرة تفضي إلى منطقة "شهرزور"[٥] التي ذكر مستوفي أنها تقع قرب المجرى الأعلى لنهر الزاب الأسفل[٦] . ولما كان الفاتح التركي على عجلة من أمره لبلوغ بغداد ، قبل أن يسبقه إليها خبر سيره نحوها . ولذلك فقد أمر الجند بالإسراع في سيرهم حتى اضطر هؤلاء إلى السير ليلاً على ضوء المشاعل[٧] . واتجهت القوات المغيرة من شهرزور جنوباً إلى بغداد . وكان ظهورها أمام الأسوار مفاجئاً للمدافعين وعلى رأسهم أحمد جلاير[٨] . ولا نجد في أقوال المؤرخين المعاصرين وصفاً مستفيضاً للقتال الذي وقع في بغداد . ويكتفي المقريزي بالقول إن جند تيمور عبروا دجلة وحاصروا المدينة من جهتها الغربية[٩] . وأضاف ابن الفرات أن الجند الأتراك كانوا يشاهدون وهم ينفخون القرب ، ثم يركبونها ليعبروا الماء إلى الضفة الثانية . وكان حصان كل جندي يسبح إلى جانبه .[١٠] وتحدث المؤرخ نظام الدين شامي الذي كان يقيم في بغداد في ذلك الوقت، عن القوات المغيرة ، فأشار إلى كثرة عددها وإلى أنها كانت تتجلى بالشجاعة والجلادة وهي تعبر النهر من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية .[١١]

فرار أحمد

ولم يستطع حاكم بغداد الاستمرار في المقاومة إلا لمدة قصيرة وفضّل الفرار ، فأمر بقطع الجسر المقام على دجلة ، ونقل بعض السفن الموجودة فيه إلى الطرف الغربي وإغراق البعض الآخر . ولكن بعض جند تيمور الذين تمكنوا من بلوغ الضفة الغربية للنهر، انقذ واخمس

---

(١) : Grousset : op. cit. P. 512 (٢) : ابن خلدون : م٥ص ١١٧٤
(٣) : ابن عربشاه : ص١٤و٤٣ وابن الفرات : م٩ج ٢ص ٣٤٥ ويزدي : ج ١ص ٤٥٠ والعسقلاني : نفسه . (٤) : المقريزي : نفسه والعسقلاني : نفسه وابن تغري بردي : نفسه .
(٥) : شامي : ص١٣٨ــ١٣٩ ويزدي : ج ١ص ٤٤٩ــ٤٥١ (٦) : مستوفي قزويني : ص٢٠٧ــ٢٠٨
(٧) : يزدي : ج ١ص ٤٥٠ (٨) : ابن خلدون : م٥ص ١١٧٤
(٩) : المقريزي : السلوك ج ٣ق ٢ص ٧٨٩ وكرر القول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٤٤ (١٠) : ابن الفرات : م٩ج ٢ص ٣٤٦ (١١) : شامي : ص١٣٩

سفن من الغرق وسحبوها . ولما تمّ اصلاحها استخدمت في نقل القوات إلى الضفة الغربية أيضاً [١]. وعبر أحمد شط الحلة في اليوم ذاته (٢١ شوال / ١٢آب) الذي بدأت فيه القوات الغازية حصار بغداد [٢]. ويذهب العسقلاني إلى القول إن أهل بغداد أنفسهم ، قد فتحوا أبواب مدينتهم للقوات الغازية [٣]. ولعل هذه الحال هي التي دفعت أحمد إلى عدم الاستمرار في المقاومة . ولم تتمكن القوات التي أمرها تيمور بملاحقته من إدراكه ومنعه من الهرب. فقد ألقى بنفسه إلى ماء الفرات لما بلغ الحلة (المدينة) ، سابحاً إلى الطرف الآخر [٤]. ولما وصل إلى النجف تابع السير في قلة من أتباعه إلى أن بلغوا الثغر المملوكي "الرحبة" القريب من الفرات ـ بالقرب من بلدة الميادين الحالية "حفاة عراة" [٥]. وتشير المصادر التيمورية إلى أن حصار بغداد وملاحقة أحمد بعد فراره من المدينة ، قد تمت في ظروف صعبة.وكانت الحرارة شديدة،وقد إشتدّ العطش على الفريقين . وهلك عدد من جند تيمور بسبب ذلك [٦]. وتقدمت القوات التي كانت تتولى مطاردة أحمد جلاير ـ وهي بقيادة ميرانشاه ـ إلى كربلاء،وأسرت هناك عدداً من أبنائه ونسائه [٧].

أعمال تيمور في بغداد

وتتضارب أقوال المؤرخين في الحديث عن الأعمال التي قام بها تيمور في بغداد ، خلال الشهرين اللذين قضاهما فيها ، بين ٢١ شوال إلى ٢٤ ذي الحجة ٧٩٥هـ(بين ٢١ آب الى ٢٢ تشرين الاول ١٣٩٣م) .ويتحدث بعض مؤرخي الشام ومصر عن القتل وهتك الأعراض ومصادرة أموال السكان ، الأغنياء منهم والفقراء ، حتى عمّ الفقر الجميع وحتى لم يبق لهؤلاء ما يسترعوراتهم ، وصار بعضهم يخرج لالتقاط الخرق البالية من الطرقات . ويقول هؤلاء المؤرخون إن تيمور صادر أموال سكان بغداد ثلاث مرات ، وجبي في كل مرة(١٥٠٠) تومان . وأنزل الجند في بعض الناس عقوبات جسدية كالشيّ على النار أو المشي عليها ، وعصر الأعضاء والإجبار على تجرع الماء المالح ، والتعليق من الأرجل ، وغم الأنف بصرة من التراب الناعم . وقتل تيمور من أعيان بغداد وعلمائها وكبار تجارها (٧٠٠) نفس [٨]. أما المؤرخون التيموريون ، فيقولون إن تيمور لم يصادر إلا أموال أحمد وذخائره ونفائسه . ولم يفرض على عامة سكان بغداد سوى أموال الأمان التي دفعها الأهالي عن طيب خاطر ، مقابل المحافظة على أنفسهم وأعراضهم ومدينتهم . ولما كان تعاطي الخمر في بغداد شائعاً ، فقد أمر تيمور بمصادرة الخمور الموجودة في المدينة وإلقائها في دجلة ، كما أمر أيضاً بإغلاق بيوت الدعارة التي كانت منتشرة فيها .وصدرت الأوامر بنقل أرباب الحرف والفنون والموسيقيين إلى سمرقند ،

(١) : شامي : نفسه وابن الفرات: م٩ج ٢ص ٣٤٤ (٢) : ابن عربشاه: ص٤٩وشامي :نفسه ويزدي : ج ١ص ٤٥١ (٣) : العسقلاني : ج ١ص٤٥٢ (٤) : ابن عربشاه: ص٤٥ وابن الفرات: م٩ج ٢ص ٣٤٤ والعسقلاني : ج ١ص ٤٥٠ (٥) : المقريزي: نفسه ويزدي: ج ١ص٤٥٦

(٦) : شامي : ص١٤٠ يزدي ج ١ص٤٥٤ (٧) : شامي : ص١٤٠ ويزدي: ج ١ص٤٥٥

(٨) : ابن خلدون: م٥ص١١٧٥ والمقريزي : السلوك ج ٣ق٢ص ٧٩٠ والعسقلاني: ج ١ص ٤٥٠ وابن الفرات : م٩ج ٢ص٣٦٢ .هذا وقد ورد في رسائل السلطان المملوكي الظاهر برقوق إلى تيمور تقدير لعدد الضحايا من خاصة سكان بغداد ، قريبٌ من تقرير بقية مؤرخي الشام ومصر.وجاء في هذه الرسالة قول برقوق " فأهل بغداد كانوا حرامية [كذا] قطاع طرق حتى فعلت بهم ما فعلت وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس" انظر : القلقشندي صبح الأعشى ج ٧ ص٣١٤

ونفي بعض سكان بغداد إلى مدن في آسية الوسطى وخوارزم واذربيجان [١]. ويحكم المؤرخ الدمشقي ابن عربشاه على أعمال تيمور في بغداد فيقول ، إن تيمور سلب المدينة ولكنه لم يخربها [٢]. وتؤكد ذلك الأرقام التي يوردها المؤرخون المعاصرون لتيمور ، عن عدد القتلى من سكان المدينة خلال إقامته الطويلة فيها ، وهي ثلاثة آلاف قتيل [٣] . ويبدو هذا الرقم ضئيلاً جداً إذا قورن بعدد ضحايا الغارات التيمورية على المدن الأخرى . ولذلك يرى غروسيه أن تيمور دخل بغداد دون قتال [٤] .

ميرانشاه في جنوب العراق

وأقام تيمور خلال وجوده في بغداد ، في أحد القصور المطلة على دجلة يستجم، وأصدر أمره إلى ميرانشاه الذي كان يقف في كربلاء ، أن يرسل إليه من استطاع أسره من أسرة أحمد جلاير ، وأن يمضي لاحتلال البصرة . وقد استعان والي هذه المدينة وهو " صالح بن حولان " للدفاع عنها ، بعشائر الأعراب التي كانت تقيم مضاربها قرب البصرة [٥]. وتختلف هنا أيضاً أقوال المؤرخين في النتائج التي استطاع ميرانشاه أن يحققها خلال عملياته الحربية في جنوب العراق . ويذهب مؤرخو الشام ومصر إلى أن والي البصرة أنزل بميرانشاه هزيمة منكرة. وقتل السلطان محمود بن سيورغتمش الذي كان يرافق ميرانشاه ، وأن ميرانشاه نفسه قد وقع بالأسر . ولذلك أرسل تيمور يطلب من صالح بن حولان أن يطلق له سراح ولده . واشترط والي البصرة لذلك أن يدفع تيمور مبلغاً من المال . ولم يتمكن الأسطول النهري الذي أرسله تيمور لانقاذ ابنه بالقوة من أن ينجح في تحقيق غايته لأن والي البصرة استطاع إغراقه [٦] .

وأما المصادر التيمورية فتشير إلى أن ميرانشاه استطاع أن ينزل ضربة قاصمة بعشائر عبد والنازلة في البادية المجاورة لمدينة البصرة ، لأنها كانت تتعرض للقوافل العابرة من مناطقهم إلى الحجاز ، وأجبرها على الانقياد والطاعة ودفع الأموال . وحال ابن تيمور بين إحدى الفرق العسكرية في جيشه ، وهي فرقة السربداريين الخراسانية وبين رغبتها في الاستيلاء على البصرة والتنكيل بسكانها . وعبر شط العرب للاجتماع بالقواد التيموريين الآخرين الذين أطلقهم الفاتح التركي إلى مختلف المناطق في جنوب العراق ، لملاحقة مادعاهم يزدي بالمتمردين والمفسدين . وكان بعض هؤلاء القواد قد عبر الفرات إلى الضفة الغربية في إثر أعدائهم الفارين من وجههم [٧] . وعاد ميرانشاه مع هؤلاء شمالاً حيث وافى والده إلى موقع " حربي " في شمال بغداد ، وكان تيمور في الوقت الذي كان ابنه وقواده يجتاحون جنوب العراق ، قد خرج من بغداد في ٢٤ ذي الحجة ٧٩٥هـ (٢٢ تشرين الأول ١٣٩٢م) ، في جولة في ضواحي المدينة ، فمرّ على " عانة " الواقعة على نهر الفرات في شمال غرب بغداد ، ثم توقف في حربي على نهر دجلة جنوب سامراء . وأمضى هنالك مدة في اصطياد الأسود .

(١) : شامي : ص١٤١ وحافظ آبرو : ص١٠٨ ويزدي : ج ١ص٤٥٤ـــ ٤٥٨

(٢) : ابن عربشاه : ص٤٣ (٣) : المقريزي : السلوك ج ٣ق٢ ص٧٩٠ والعسقلاني ج ٢ ص٤٦٥ (٤) : Grousset : op.-cit. P. 513

(٥) : العسقلاني : ج ١ص٤٥٣ وابن الفرات : م٩ج ٢ص٣٤٨ وابن صصري : ص١٤٠ السلوك للمقريزي ج ٣ق٢ ص٧٩٠ (٦) : العسقلاني : نفسه وابن الفرات : م٩ ج ٢ ص٣٤٨ المقريزي : السلوك : ج٣ق٢ص٧٩٠ ــ ٧٩١ .

(٧) : يزدي : ج ١ص٤٦٧ـــ٤٦٨

ضد الأكراد

وكان تيمور بعد احتلال بغداد ، غير مرتاح من الحالة السائدة في شمال العراق ومناطق كردستان ودياربكر ، حيث كان يحكم عدد من الحكام الأكراد والتركمان . وكان بعض هؤلاء الحكام يقر بتبعية اسمية لسلاطين المماليك الحاكمين في القاهرة . وكان أبرز هؤلاء الملك الظاهر مجد الدين عيسى الأرتقي حاكم ماردين ،[1] وقرا يوسف حاكم تركمان الغنمة السوداء (القره قيونلو) ، الذي كان حكمه يمتد على مناطق من اذربيجان الغربية وارمينية الشرقية .[2] وكان من نتائج قدوم تيمور إلى ايران ، أن تناسى كل من أحمد جلاير وقرا يوسف عداءهما ومنازعاتهما ، وأصبحا حليفين في وجه العدو والعدو المشترك (تيمور)،[3] الذي دأب على اتهام تركمان الغنمة السوداء بأنهم كانوا يمارسون أعمال السلب والنهب والاعتداء على القوافل التجارية ، ولذلك نعتهم يزدي باللصوص[4] . وأرسل تيمور قبل مبارحته همذان للإغارة على العراق قوات لمهاجمة معاقل التركمان والأكراد الجبلية فعادت إليه محملة بالغنائم الوافرة . وكان محمد سلطان حفيد تيمور من بين الذين قاتلوا في تلك المناطق ، ولما عاد إلى جده بعد أن احتل بغداد كان معهم سبعمائة (٧٠٠) من أعيان المنطقة ، وقد جاؤوا إلى الفاتح التركي لتقديم خضوعهم وولائهم .[5]

احتلال تكريت

ولما لم يكن تيمور مطمئناً إلى إخلاص الأكراد ، ولذلك انطلق في الأول من المحرم ٧٩٦ هـ (٦ تشرين الثاني ١٣٩٣م) شمالاً إلى تكريت ، محتجاً بأن بعض التجار والمسافرين قد اشتكى إليه من غارات السلب والنهب التي كان يقوم بها حكام المدينة . وكانت لتكريت قلعة حصينة تقوم على تلة بجوارها .وكان جزء من القوات التيمورية يقوم بحصار المدينة والقلعة قبل احتلال بغداد[6] وانضم تيمور إلى قواته هناك . وحوصرت المدينة مدة خمس وعشرين يوماً .[7] وقام الجند خلال الحصار بنقب الأسوار . واشترك معهم في هذه العمليات الخطيرة قوادهم . وكان شاه رخ بن تيمور من بين الذين ساهموا بعمليات النقب . وحاول حاكم المدينة الذي تدعوه المصادر التيمورية " بالأمير حسن " وتصفه بأنه قاطع طريق ، أن يسترضي تيمور فأرسل له شقيقه الصغير يطلب الأمان . ولكن تيمور رفض الطلب . واستمر في القتال إلى أن احتل المدينة وقلعتها عنوة .وهدم أسوارها وأحرقها بمن كان فيها (٢٥ المحرم ٧٩٦هـ/١ كانون الاول ١٣٩٣)،متذرعا بأعمال السلب والنهب والإفساد التي ادعى أن السكان كانوا يمارسونها.[8] ثم عاد إلى معسكراته في موقع حربي ، بعد أن أقام عدداً من الأبراج من رؤوس القتلى من سكان المدينة .

---

(١) : العسقلاني : ج ٢ص٤٠٤ هذا وقد حكم الظاهر عيسى بين ٧٧٨ـ٨٠٩هـ (١٣٧٥ — ١٤٠٦ م) وينتسب الارأتقة إلى " أرتق " أحد قواد حاكم دمشق السلجوقي تتش الذي اسس لنفسه حكماً في ماردين عام ٤٧٧هـ انظر: Honigmann: Ortokids.(E.I.T.III) P.P.1070-1072 (٢) : أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة.القاهرة ١٩٧٢ ص٥٣٥ (٣) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ص ١٦٣ (٤) : يزدي : ج ١ص٤٤٦ـ٤٤٨ (٥) : يزدي : ج ١ص٤٥٦ وشامي : ص١٤١ (٦) : شامي : ص١٤٢ ويزدي : ج ١ص٤٥٨ (٧) : يزدي : ج ١ص ٤٦٠ ويجعل ابن خلدون مدة الحصار أربعين يوماً انظر: ابن خلدون : م ٥ص ١١٧٥ (٨) : شامي : ص ١٤٤ ويزدي : ج ١ص٤٥٨ و ٤٦١ وابن الفرات : م ٩ج ٢ص ٣٦٦ وابن خلدون : نفسه والعسقلاني : ج ١ص ٤٥٠ و ٤٦٧ ؛ وقد ذكر أن الاحتلال كان في شهر صفر ٧٩٦هـ وابن عربشاه : ص ٤٧ وقد ذكر أن تيمور أعطى الأمان لسكان تكريت ثم غدر بهم .

خضوع الموصل واربيل

وتلقى تيمور خلال حصار تكريت خضوع كل من حاكم الموصل " يارعلي " وحاكم اربيل[1] "علي اوبرات" . ولما اطمئن إلى أن جميع نواحي العراق قد أضحت تحت سيطرته ،عين على بغداد أحد أتباعه الفرس هو الخواجا مسعود السبزاوري وهو أحد أفراد الأسرة السربدارية، التي كانت تحكم في سبزوار ،قبل الاحتلال التيموري . وأمر تيمور كما يقول يزدي الخواجا مسعود ، بأن يسهر على مصالح أهالي بغداد . وترك له قسم من القوات ثم تابع التقدم شمالا مارا بكركوك وأربيل .[2] ويشير بعض المصادر السريانية الذي نعتت تيمور باللعين والأعرج[3]، إلى أن بعض الجند التيموريين عندما حضروا إلى ضواحي الموصل ،إلى حيث كان يقوم قبر أحد الأنبياء ويدعى النبي يونس،من أجل اجتياح المنطقة والقيام بأعمال القتل والهدم والحرق ،جرى بينهم وبين سكان القرية حوار،حاول السكان فيه ثني الجند عن القيام بهذه الأعمال ،فقالوا لهم إذا لم يكن عندكم رحمة بنا من أجلنا،فارحمونا إكراماً للنبي الذي يحمي قريتنا . ودهش الجند عندما دخلوا إلى المكان وشاهدوا صاحب الضريح لا يزال بحالة سليمة ،فتركوا سكان القرية وشأنهم وانسحبوا بسلام ليلتحقوا بقوات سيدهم[4] .

وربما كان ماذكره يزدي عن أن تيمور قد زار ضريح النبي يونس وضريح النبي جورجيس الذي يرقد إلى جواره في ضواحي الموصل،عند مروره بالمنطقة عام ٧٩٦هـ (١٣٩٤م)،واستمداده الهمة من هذين المزارين،وتصدقه بمبلغ عشرة آلاف دينار للمشرفين على المكان[5] ، كان بعد أن نقل له جنده رواية تتعلق بقدسية المكان ومن كان يرقد فيه .

ماردين

وكان حاكم ماردين الأرتقي الظاهر مجد الدين عيسى ، قد أرسل منذ وقت مبكر يعلم القاهرة بتحركات الفاتح التركي . ويقول ابن الفرات إن كتاب الظاهر عيسى وصل القاهرة في ١٩ شوال ٧٩٥ (٢٩ آب ١٣٩٣م) ،ليعلم السلطان المملوكي برقوق باستيلاء تيمور على تبريز ،وبأنه أرسل إلى الظاهر عيسى في ماردين بكتاب يطالبه بالخطبة والسكة باسمه . وحمل رسول الظاهر عيسى معه إلى القاهرة كتاب تيمور والخلعة التي أرسلها إليه . ولم تبد سلطات القاهرة في ذلك الوقت ،ما يدل على رغبتها في مقاومة تيمور . وأرسل برقوق إلى الظاهر عيسى يطالبه بالاستمرار بالخطبة له . وختم رسالته بقوله : "إلى أن نرى مانختاره"[6] . ولما لمس الظاهر عيسى عدم حماس سلطات القاهرة لمد يد المساعدة له،ووجد أن قوات تيمور قد أضحت على مقربة من ماردين،في أواخر صفر ٧٩٦هـ (أواخر تشرين الأول ١٣٩٣م) ،اضطر لأن يرسل إلى الفاتح التركي رسولاً يحمل له الخضوع والولاء . ولكن تيمور لم يعر الظاهر عيسى أي اهتمام ،لعلمه ــ كما يقول يزدي ــ بحقيقة نواياه ،وانصرف إلى متابعة حروبه ضد تركمان الخضمة السوداء في المنطقة ،ومرت جيوش تيمور من ضواحي ماردين إلى رأس العين ،

(١) : يزدي:ج ١ص ٤٦٠ (٢) : يزدي:ج ١ص ٤٦٩ـ٤٧٠

(٣) : Budge : Chronography of Abu-L-Farage Barhebraeus P. 37

(٤) : Fiey: Assyrie Chretiènne II P. 510 (٥) : يزدي:ج ١ص ٤٧٥

(٦) : ابن الفرات : م ٩ج ٢ص ٣٤٣

وأرسل له حاكم "ارزن" ولاء . ولما أتم السيطرة على المنطقة التفت إلى ماردين ، حيث أقام معسكراته بجوارها بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ٧٩٦هـ (٣٠ كانون الثاني ١٣٩٤م) [١]. وأسرع الظاهر عيسى من جديد لتقديم الخضوع والولاء . وقدم إلى معسكر تيمور يحمل الهدايا . وقبل بدفع ما فرض عليه من أموال [٢] ، يقدرها ابن عربشاه بمائة تومان [٣] . ويقول يزدي إن الغوغاء من سكان المدينة اعتدوا على جند تيمور أثناء عملية جمع الأموال . وتظاهر الفاتح التركي بقبول اعتذار الظاهر عيسى ، فقد بلغه في تلك البرهة نبأ مقتل ثاني أبنائه ، عمر شيخ على يد جماعة من الأكراد عندما كان يخترق جبال كردستان ، عائداً من حروبه في بلاد فارس للالتحاق بقوات ابيه [٤] . وبعد أن هدأت نفسه وخفت أحزانه ، استأنف عملياته العسكرية في منطقة الجزيرة. وتقبل خضوع حكامها ، ثم ظهر فجأة للمرة الثانية في الأول من جمادى الثانية أمام أسوار ماردين [٥]. وفي الوقت الذي يشير فيه ابن عربشاه إلى شدة المقاومة التي أبداها المدافعون عن ماردين ، بشكل عجز معه تيمور عن احتلالها واقتحام قلعتها ، وجعله يعرض الصلح على السكان، فهو يقول إنه شاهد كتاب تيمور الذي وجهه إلى سكان ماردين يمنحهم الأمان إذا قبلوا بالصلح [٦] ، فإن يزدي يقول إن السكان هم الذين التمسوا من القوات المغيرة ذلك ، ولم يقبل تيمور العفو عنهم ورفع الحصار عن المدينة إلا عندما جاءه الخبر السار من السلطانية بولادة حفيده "الغ بك" بن شاه رخ، فقبل أن يحل الصالح شقيق الظاهر عيسى محل شقيقه في حكم ماردين [٧] ، وسيق الظاهر عيسى نفسه أسيرا إلى السلطانية وأودع السجن هناك ، مكبلاً بقيود يزيد وزنها عن خمسين رطلاً . ومنع من مراسلة أهله . وبقي الظاهر عيسى سجيناً مدة ، إلى أن تغير موقف تيمور منه من جديد [٨].

مقتل عمر شيخ

واندفع تيمور خلال الأشهر الثلاثة التالية مع أبنائه وقواده ، في حملة واسعة ضد عشائر الغنمة السوداء النازلة في المنطقة . وربما كان وصول أخبار تحركات قوات القبجاق على حدود اذربيجان الشمالية في تلك الآونة إلى مسامع تيمور ، سبباً في تغيير الفاتح التركي لخط سيره والامتناع عن الإغارة على بلاد الشام ومصر ، كما كان يرغب في الأصل ، وكما أشار إلى ذلك يزدي بشكل صريح [٩] . واكتفى تيمور بالتجول في منطقة الجزيرة فاستولى على "آمد" و "ميافارقين" ، وبلغ حفيده محمد سلطان السهول المحيطة بمدينة "موش" في شمال غرب بحيرة وان . وتقدم الجميع بعد ذلك لحصار حصن "اونيك" الذي يقوم على رأس جبل ، في منطقة قريبة من "ارزن الروم" [١٠] ، الذي استطاع تركمان الغنمة السوداء استرجاعه من ميرانشاه، وكان يدافع عنه شقيق قرا يوسف وهو "مصر بن قرا محمد". وتم احتلال الحصن بعد حصار دام شهراً في رمضان ٧٩٦هـ (تموز ١٣٩٤م)، وحمل مصر أسيراً إلى سمرقند [١١].

تركمان الغنمة السوداء

(١) : يزدي: ج ١ص ٤٧٤ (٢) : يزدي: ج ١ص ٤٧٦ (٣) : ابن عربشاه: ص٤٨
(٤) : يزدي: ج ١ص ٤٧٤ (٥) : ابن عربشاه: ص٤٩ (٦) : ابن عربشاه: ص٥٠
(٧) : يزدي : ج ١ص٤٧٩_٤٨٣ (٨) : ابن عربشاه : ص٥١ _ ٥٢ والعسقلاني: ج ٢ ص١٣ (٩) : يزدي ج ١ص ٤٧٣ (١٠) : أشار إلى موقع الحصن ياقوت الحموي: ج ١ص٢٨٣ (١١) : يزدي : ج ١ص ٤٩٤_٤٩٦ وابن عربشاه : ص ٥٠

اجتياح الكرج

واتجه تيمور بعد ذلك إلى بلاد الكرج ، في حملة اجتياح ثانية بعد حملته الأولى عليها قبل ثماني سنوات (٧٨٨هـ / ١٣٨٦م) ، فمر على قارص وأقام مدة بجوار المدينة ، ثم تقدم بعد ذلك إلى العاصمة تفليس ، وأقام مخيمه إلى جوارها أيضاً . وأطلق قواده للإغارة على أطراف المنطقة . وبلغته في تلك الآونة وهو بجوار تفليس (تشرين الثاني ١٣٩٤م في أواخر عام ٧٩٦هـ) أنباء الغارة التي قام بها توقتميش خان القبجاق ، على شروان في شمال اذربيجان [1] فامتنع عن متابعة غارته على بلاد الكرج ، وعاد إلى اذربيجان حيث أمضى شتاء ١٣٩٤ ـ ١٣٩٥م ، يستعد لغارته الكبيرة الثانية على بلاد القبجاق وهي الغارة التي بدأت في جمادى الأولى عام ٧٩٧هـ (آذار ١٣٩٥م) .

إيران والعراق في غياب تيمور

وابتعد تيمور عن مسرح الأحداث في إيران وما حولها ، زهاء عام ونيف (بين جمادى الأولى ٧٩٧هـ ورجب ٧٩٨/ آذار ١٣٩٥ إلى آذار ١٣٩٦) ، قضاه في الاجتياح الثاني لبلاد القبجاق . ولكنه عاد إلى الظهور في شمال اذربيجان عابراً بوابة دربند في فصل ربيع ١٣٩٦م ، ليستأنف عملياته في إيران . وكان غياب الفاتح التركي عن هذه البلاد دافعاً لظهور بعض أعمال المقاومة ، كرد فعل على أعماله وأعمال ابنائه وقواده فيها . فقد استعاد أحمد جلاير عرشه في بغداد ، بسبب المساعدات التي قدمها له السلطان المملوكي برقوق .
ولم ينجح الخواجا مسعود السبزواري نائب تيمور في بغداد ، في أن يقاوم تقدم أحمد الذي كان يقود حلفاً سارت بموجبه قوات الغنمة السوداء وأعراب بادية العراق في ركابه . وتمكن حاكم بغداد السابق من دخول عاصمته في شعبان ٧٩٦هـ (حزيران ١٣٩٥م) ، أي بعد عشرة أشهر من مغادرته لها فاراً من تيمور . وكان الفاتح التركي لا يزال يلاحق التركمان في بعض مناطق ارمينية الشرقية [2] ولحق الخواجا مسعود بتيمور . وعادت قلعة النجق بجوار نخشيفان إلى العصيان . واندلعت الثورات على الحكم التيموري عام ٧٩٨هـ(١٣٩٦م) في مدن يزد ونهاوند وتستر . وتمكن الثوار في يزد وكانوا بقيادة عناصر من بقايا المظفريين ، من قتل الحاكم التيموري فيها . ووصلت أخبار هذه الثورات إلى مسامع تيمور وهو يمر بمدينة " اردبيل " شمالي اذربيجان ، في طريق عودته من بلاد القبجاق . ولذلك وجه ثلاثة من أحفاده من هناك للقضاء على هذه الحركات ، ونجح سلطان حسين بالقضاء على ثورة نهاوند ، وأحرق زعيم الثوار ويدعى " بهلول " ، وتقدم بعد ذلك إلى الجنوب إلى تستر ماراً ببلاد لورستان ، حتى وصل إلى هرمز على ساحل البحر . كما نجح بير محمد بن جهانگير ومحمد بن عمر شيخ بالقضاء على ثورة يزد . أما تيمور فقد تابع التقدم إلى السلطانية فهمذان ، في طريق العودة إلى ماوراء النهر . [3]

عوامل اعتدال سياسة تيمور

وأمر تيمور في السلطانية باطلاق سراح الظاهر عيسى الارتقي من سجنه ، وسمح له بالعودة إلى حكم ماردين . وكانت زوجة تيمور الرئيسية سراى ملك خانوم ، قد توسطت للظاهر

(١) : يزدي : ج اص ٥٢٠ (٢) : حافظ آبرو: ص ١٤٨ ـ ١٤١ وابن الفرات : م ٩ ج ٢ ص ٣٨٦ والعسقلاني : ج ٢ ص ٤٦٦ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٨١٧
(٣) : يزدي : ج اص ٥٥٩ ـ ٥٦٢

عيسى عند زوجها . وأستقبل تيمور أسيره السابق في همذان في ١٥ رمضان ٧٩٨هـ (٢٣حزيران ١٣٩٦م) ، واعتذر له لما حلّ به من المحن،وأنعم عليه وزاد في سلطاته ، ومنحه حكم المناطق الممتدة بين اذربيجان وبين ديار بكر ،وكانت تشتمل على ست وخمسين بلداً ، بعد أن أخذ منه عهداً بالاخلاص طيلة الحياة ويميناً بالطلاق[1]، على أن يقيم الخطبة ويضرب السكة باسم الفاتح التركي .

واتصفت أعمال تيمور في هذه الآونة بالاعتدال ، سواء في معاملته للحكام أو في تصرفه مع السكان في العراق وايران ومناطق الجزيرة ، فسكت عن طرد حاكمه مسعود السبزاوري من بغداد ، وعن عودة أحمد جلاير لحكمها . واكتفى بارسال أحفاده للقضاء على الثورات في بعض المدن الإيرانية ، ولم يرافق أعمال القضاء على هذه الثورات أية اعمال للانتقام والتنكيل بشكل جماعي،كما كان يفعل في السابق ، بل منع جنده — كما يقول يزدي — من التعرض للأهالي او مصادرة أملاكهم [2] ، وعفا تيمور عن الظاهر عيسى وأعاده لحكم ماردين وزاد في سلطاته . ولعل تيمور كان يهدف من وراء مظاهر الرأفة والتسامح هذه ، كسب تأييد حكام تلك المناطق وسكانها ، تمهيداً لما ينوى القيام به في المستقبل،وهو غزو بلاد الشام . فقد كان من المهم له أن يكون هؤلاء الحكام مع رعاياهم من الموالين له ، خلال عبور قواته هذه البلاد في طريقها إلى بلاد الشام .

عودته إلى بلاده

وأمضى تيمور شهر رمضان في همذان . وبارح المدينة في ١١ شوال ٧٩٨هـ (١٩تموز ١٣٩٦م) يريد ماوراء النهر ، ومرّ في طريقه على مدن شمال إيران وخراسان ، (ورامين — بسطام — هيرات) . وكان يقابل بالاحتفالات والاستقبالات على طول الطريق ، في المدن التي كان موكبه يمر بها . ولما عبر جيحون كان ابنه شاه رخ في استقباله . ومرّ تيمور في طريقه إلى سمرقند على كيش حيث تفقد قصره فيها "آق سراي" ، وزار قبر ابنه محمد جهانگير ثم تابع تقدمه إلى العاصمة [3] ، بعد غياب زاد عن أربعة أعوام .

---

(١) : ابن عربشاه : ص١ ٥— ٥٢ والعسقلاني ج ١ص ٥١٢ وج ٢ ص١٣ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق٢ ص٨٦٩ ويزدي : ج ١ص ٥٦١

(٢) : يزدي : ج ١ص ٥٣٦ (٣) : يزدي : ج ١ص ٥٦٣ — ٥٦٩

الفصل الرابع

الجولة الثانية في بلاد القبجاق
٧٩٧ — ٧٩٨ هـ (١٣٩٥ — ١٣٩٦ م)

أهمية هذه الحروب — أسباب الحملة — معركة نهر ترك — ملاحقة توقتميش — الزحف شمالاً — الوصول إلى ضواحي موسكو — حجج ليفيك — الغارة على القرم — استراخان — تهديم سراي — الانسحاب — القبجاق بعد الحرب — نهاية توقتميش — نتائج حروب تيمور في القبجاق .

أهمية هذه الحروب

لا تقل الغزوة الثانية التي قام بها الفاتح التركي لبلاد القبجاق في مطلع عام ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) في أهميتها، وبما اتصفت به من مخاطرة عن الغزوة السابقة قبل ثلاث سنوات . فقد وصل تيمور في الغزوة الثانية حتى ضواحي موسكو . وأحدثت حركة جيوشه في هذه البلاد تغييراً واضحاً في التوزع البشري بسبب ما ألقته من الرعب في نفوس السكان ، واضطرار بعض القبائل إلى الفرار من وجه القوات المغيرة والنزوح إلى مناطق بعيدة عن مسار الجيوش الغازية. ولم يكن الفاتح التركي في أي من غزواته السابقة لبلاد القبجاق وغيرها أقرب ما يكون إلى الهزيمة والقتل كما كان في غزوته القبجاقية الثانية .

أسباب الحملة

لقد أخذ خان القبجاق يستعد لجولة ثانية مع تيمور، منذ انسحاب القوات الغازية من بلاده عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١م) . وطفق يعمل — من أجل ذلك — على تقوية صلاته بدولة المماليك لإقامة تحالف معادي لتيمور بين الدولتين. وأوفد من أجل هذه الغاية رسله إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق، الذي قابل الرسل في دمشق في جمادى الثانية عام ٧٩٦هـ (أيار ١٣٩٤ م) .[(١)] وكان برقوق قد قدم من القاهرة لمد أحمد جلاير بالمساعدات ليتمكن من استعادة عرشه في بغداد ، بعد أن طرده الفاتح التركي منها قبل أقل من عام . ويعكس هذا الوضع مدى اضطراب العلاقات الدولية في غرب العالم الإسلامي بسبب أعمال تيمور الحربية في هذه المنطقة .

ويبدو أن تيمور كان على علم بالتقارب الحاصل بين الحكام المماليك وخان القبجاق. ولذلك فقد قام بتعديل خططه العسكرية ، وصرف النظر عن الإغارة على بلاد الشام — كما ينوي ذلك من قبل كما روى يزدي —[(٢)] بعد خروجه من بغداد واقترابه من حدود دولة المماليك في بلاد الشام . وتحاشى توسيع نطاق الاشتباك الذى وقع بين طلائع من قواته ودوريات مملوكية في ضواحي الرها، إحدى نقاط الحدود في الجزيرة العليا[(٣)] ، وفضل أن ينقل عملياته الحربية إلى الشمال حيث كان يتوقع أن يقوم توقتميش بعملية عسكرية مباغتة ، كما كان دأبه سابقاً . ومضى تيمور يقاتل في بلاد الكرج القريبة من بلاد القبجاق ،[(٤)] بانتظار ما سوف ينجلي عنه الموقف .

(١) : المقريزي: السلوك ج ٣ ق٢ ص ٨١٣ والعسقلاني : غ ١ص ٤٧١ (٢) : يزدي: ج ١ص ٤٧٣
(٣) : انظر الفصل الرابع من الباب الخامس . (٤) : السخاوي : ج ٢ص ٤٦

ويبدو من ناحية ثانية أن توقتميش قد ظل على اعتقاده السابق ، بأن منطقة اذربيجان التي ألحقها تيمور حديثاً بأملاكه ، هي من الأملاك السابقة لحكام القبجاق . وظنّ أن غارة يقوم بها على هذه المنطقة، وجيوش تيمور على هذه الحال من التعب والإنهاك بعد الحروب التي خاضتها في إيران والعراق وبلاد الكرج، سوف يمكنه من الانتصار عليها، ومن تحقيق أمنيته بالاستيلاء على اذربيجان ، وتمنع تيمور من سرعة التحرك والانتقال إلى ماوراء النهر، كما فعل عام ٧١٩ هـ (١٣٨٧م) . وستظل هذه البلاد (ماوراء النهر) في هذه الحالة تحت رحمة خان القبجاق .(١)

ولذلك ولما حاولت قوات توقتميش خان الاقتراب من اذربيجان عبر بوابة دربند في أواخر عام ٧٩٦هـ (تشرين الثاني ١٣٩٤م) ، فإن القوات التي أرسلها تيمور عندما كان يقف في ضواحي تفليس في بلاد الكرج، قد نجحت في شمال اذربيجان في التصدي للقوات المغيرة، ولما بلغ تيمور في إثر طلائعه ضفاف نهر كر في شروان ، كان توقتميش قد لاذ بالفرار مع قواته عائداً من حيث أتى عبر بوابة دربند (٢) نفسها .

معركة نهر ترك

ووجد تيمور أنه أضحى من الضروري أن يرد على تحرش خان القبجاق، بضربة تستهدف العاصمة نفسها (سراي) ، مستفيداً من وجوده في منطقة قريبة منها (شمال اذربيجان)، وتمكنه من الوصول إليها دون أن يكون مضطراً لعبور الصحارى الواسعة التي عبرها في حملته السابقة ، والتي استنفذت منه ومن قواته جهداً كبيراً (٣) . وفضّل تيمور الانتظار حتى ينقضي فصل شتاء عامي ١٣٩٤ _ ١٣٩٥ م ، في سبيل المزيد من الراحة والاستجمام والاستعداد في منطقة شروان نفسها . وأرسل في الوقت نفسه يطلب قوات جديدة من ماوراء النهر . واستدعى إليه إلى هذا المنتجع عدد كبير من زوجاته من مدينة سلطانية . وبدأ حركته إلى الشمال نحو بلاد القبجاق مع قدوم الربيع (٢١ آذار ١٣٩٥ م / ٨ جمادى الأولى ٧٩٧هـ) . وحاول توقتميش _ كما فعل المرة الماضية _ ثني تيمور عن عزمه على غزو البلاد، بتوجيه رسالة إليه ، وصفتها المراجع التيمورية بأنها منمقة العبارة ، أعلن فيها خان القبجاق عن ندمه كما فعل سابقاً عمّا بدر منه من أعمال عدائية ، ونسب ذلك إلى عناد أمرائه وإفسادهم ، واستقبل تيمور الوفد القبجاقي الذي جاء يحمل الرسالة ، على ضفاف نهر " سمور " (سامور Samûr) الحالي) ، وهو نهر ينبع من جبال القفقاس ويصب في قزوين جنوب دربند، وأظهر لأعضاء الوفد عدم اقتناعه بالحجج التي قدمها سيدهم (٤) . ولما أنجز الفاتح التركي آخر استعداداته العسكرية ، تابع زحفه إلى الشمال عبر بوابة دربند . والتقى بتوقتميش الذي كان يقف بانتظاره على رأس جيوشه على ضفاف نهر ترك . ودارت هنالك معركة جديدة فاصلة بين الفريقين، بتاريخ ٢٣ جمادى الثانية ٧٩٧هـ (١٦ نيسان ١٣٩٥م) (٥) . لتقرير _ كما يظهر _ من سيتولى حكم العالم

---

(١) : Prawdin : op. cit. P. 226 (٢) : شامي : ص١٥٨ ويزدي : ج ١ص ٥٢٠ _ ٥٢١

(٣) : Grousset : op. cit. P. 521 (٤) : يزدي : ج ١ص ٥٢٢ _ ٥٢٦

(٥) : يزدي : ج ١ص ٥٣١

والسيطرة على مقدرات الشعوب بين الفاتح التركي وخان القبجاق الذي كان يستوحي أعماله من أعمال جده الأعلى جنكيز خان . ولم يكن تيمور في أية معركة سابقة معرضاً للهزيمة والقتل، كما كان في هذه المعركة.(١) فقد استطاع توقتميش مع عدد من قواده أن يستغل فرصة سعي تيمور لنجدة ميسرة جيوشه ، التي كانت تتلقى ضغطاً متزايداً من الأعداء ، فأمر عدداً من الفرق العسكرية التي كانت تتولى حراسته بالتقدم، لتخفيف الضغط على ذلك الجناح . وظهر توقتميش ومن معه من الأمراء في تلك اللحظات وراء خطوط القوات التيمورية ، وحاول الوصول إلى تيمور للقضاء عليه ، في غفلة من حراسه المشغولين بالقتال . وكان تيمور في ذلك التاريخ في الثانية والستين من عمره ، واضطر وهو في هذا السن المتقدم، أن يدافع عن نفسه . ولكن الرمح الذي كان يمسكه بيده انقصف وكسر سيفه أيضاً . ولكن أحد قواد الحرس التيموري وهو الامير شيخ نور الدين " أسرع إلى مكان الاشتباك لصد القوات المغيرة . ولم يلبث أن لحق به خمسون آخرون من أفراد الحرس، أحاطوا بسيدهم وحالوا بينه وبين توقتميش وأمرائه . واستطاع المدافعون الملتفون حول تيمور من أفراد الحرس، أن يستولوا على ثلاث من عربات الأعداء التي استعملها في هذا الهجوم الصاعق ، فأحاطوا بها سيدهم تيمور، كحاجز يحول دون وصول الأعداء إليه . واستطاع المدافعون مع من تلاحق بهم من التوشونات (الفرق العسكرية) الأخرى ، من صد الهجوم ورد المغيرين على أعقابهم ، في الوقت الذي كان القتال على أشده في كل جزء من ساحة المعركة . ويقول المؤرخون التيموريون إن القسواد والجند من كلا الجانبين اشتبكوا مع بعضهم في قتال ضار . وصمم تيمور على المضي في القتال حتى يدرك النصر أو يموت . واستحال ميدان القتال إلى بحر من الدماء . ووجد توقتميش أمام ثبات أعدائه وتكاتفهم جنداً إلى جانب جند ، وبسبب كثرة الخسائر التي أنزلت بقواته، وليأسه من إحراز النصر بعد فشل محاولته للوصول إلى تيمور وقتله ، أن الفرار هو خير مخرج للخلاص مما هو فيه . وكان فراره إيذاناً لجيشه أن يحذو حذوه ويتفرق .(٢)

ملاحقة توقتميش

وتقدم تيمور في إثر أعدائه حتى ضفاف نهر " قوراي" ، أحد روافد ترك ويدعى اليوم نهر كورا (Kura) أيضاً ، حيث كان يقع معسكر توقتميش، فوضع يده على ما كان فيه من الغنائم ، اضطر خان القبجاق أن يتركها عند فراره . وتابعت فرق تيمورية ملاحقة توقتميش عبر وادي الفولغا إلى الشمال ، ولكنها لم تتمكن من إدراكه .(٣) ووجد الخان الفار في غابات البلغار القائمة على ضفاف نهر " كاما " (Kama)(٤) ، أحد روافد الفولغا في مقاطعة قازان الحالية ، مخبأً أميناً يحميه من تعقب أعدائه الذين اكتفوا باجتياح المناطق التي وصلوا إليها ، ثم عادوا أدراجهم إلى الجنوب ، حيث كانت قوات تيمورية أخرى تواصل القضاء على جند توقتميش في المكان الذي وقعت فيه المعركة .(٥)

---

(١) : Prawdin : op. cit. P. 226 (٢) : شامي: ص١٥٩ ويزدي: ج ١ص٥٢٨ـ٥٣٤
(٣) : يزدي: ج ١ص٥٣٨ـ٥٣٩ (٤) : Grousset: op. cit. P. 521 et
(٥) : Prawdin : ibid . يزدي: ج ١ص٥٣٩

وعقب استراحة قضاها تيمور على ضفاف نهر "قوراي" بالجزء الأكبر من قواته ، ليجتاح بلاد القبجاق مرة ثانية من الجنوب إلى الشمال. وتقدم حتى بلغ موقع "يولزقلوق"[1] حيث تقع اليوم مدينة بالاسم نفسه في الحوض الأعلى لنهر الدون (نهر تن عند يزدي) ، وهي مدينة "اليتس" (Yelets) . ويشير يزدي إلى أن بلاد القبجاق الواسعة والتي كانت تبدو وكأنها لا نهاية لها ، قد أصبحت تحت حكم سيد ماوراء النهر حتى نهر "اوزي"[2] (نهر دنيبر Dineper اليوم) . وكانت القوات التيمورية خلال اندفاعها نحو الشمال ، قد ألقت الرعب في قلوب قبائل مغول القبجاق التي صادفتها في طريقها ، وأخذت هذه القبائل تندافع للفرار من وجه القوات الغازية . وأكمل تيمور حملة الملاحقة من موقع يولزقلوق ، وأرسل فصائله من هناك إلى كافة الاتجاهات . وتجاوزت بعض هذه الفصائل نهر اوزى إلى ضفته الثانية .

وفي الوقت الذى كان فيه تيمور يتأهب لمتابعة الزحف على ماتسميه المصادر التيمورية "بلاد الروس" ، كان ميرانشاه يتابع اجتياح الجناح الغربي لبلاد القبجاق ، فأغار على ماتدعوه هذه المصادر بمنطقة "قراسو"[3] ، والتي يرى براقدان أنها منطقة "اوكرانيا" الحالية[4] ، بسبب التشابه القائم بين صورة اللفظة كما وردت في المصادر التيمورية وصورتها الحديثة. واجتاح ميرانشاه أيضاً عاصمة المنطقة "مدينة سراي" (شهر سراي كما دعاها يزدي)[5] ، والتي دعاها "مارغا" (Margat) مدينة "كورسش" (Corsch) ، وقال عنها إنها تقع على حدود البلاد البولونية[6] . ويبدو أن لفظة "كورسش" ليست الا تحريفاً لـ "قراسو" التي ذكرتها المصادر التيمورية مرة ثانية على أنها مدينة تعرضت لهجوم ميرانشاه . وتدفع إشارة مارغا إلى موقع المدينة على أنه بالقرب من الحدود البولونية، إلى الاعتقاد أن كوريسش هذه ليست إلا مدينة كييف (Kiéve) الحالية. ولما أتم ميرانشاه اجتياح المنطقة ، التحق بقوات أبيه التي كانت على مقربة من موسكو ، مثقلاً بأحمال الغنائم، وهو يجر معه قوافل الأسرى والسبايا[7] .

وبينما يشير كل من يزدي وشامي بشكل صريح ، إلى أن قوات الفاتح التركي قد بلغت مدينة موسكو، وأغارت عليها وعلى الضواحي المحيطة بها ، وأجبرت حكام تلك المناطق

(١) : شامي : ص١٦١ ويزدي: ج اص٥٤٠ (٢) : يزدى: ج اص٥٤١ هذا وكان مارغا في مؤلفه التالي : Margat: Historie de Tamerlan Empereur des Mongols et Conquerant de L'Asie (Première Partie)P.282 ، وقد ذكر أن تعبير "اوزي" هو الاسم الذى اطلقه المغول (وربما قصد بذلك الأتراك الجغتائيين أتباع تيمور) على ذلك النهر، الذي ينبع بالقرب من موسكو ويصب في خليج "ايلميانت" (Ilimient) في البحر الأسود، بعد أن تروي مياهه جزءاً من بلاد روسيا وبلاد ليتوانيا وبولونيا . ويدعو مارغا الذي ألف كتابه في مطلع الثلث الثاني من القرن الثامن عشر ذلك النهر بنهر "نيبر" (Nieper) وهي تسمية قريبة من تسمية "دنيبر" (Dinieper) الحالية، التي تطلق على نهر تنطبق صفاته على الصفات التي أوردها مارغا لنهر "اوزى — نيبير" .

(٣) : شامي ص١٦١ ويزدى ج ١ ص٥٤١ (٤) Prawdin: op. cit. P. 227

(٥) : يزدى ج ١ ص٥٤٢ (٦) Margat: op. cit. P. 287

(٧) : يزدى ج ١ ص٥٤٢

على الخضوع والانقياد [(١)]، فإن غالبية الباحثين الأوربيين في الوقت الحاضر ، ينفون وصول تيمور إلى موسكو ، استناداً إلى ماذكرته المصادر الروسية المعاصرة [(٢)]. ولايقول بذلك إلا قلة منهم ، من هؤلاء سايكس الذي يشير إلى أن تيمور قد نهب موسكو [(٣)] ، ثم كاتب مقالة تيمور في الموسوعة البريطانية الذي يشير إلى أن تيمور بعد أن نهب موسكو اضطر إلى مغادرتها ، لرغبته في الوصول إلى إيران للقضاء على الثورات التي قامت عليه هناك [(٤)] .

ويورد لانكله ماكتبه أحد المؤرخين الروس المعاصرين ، بأن الذعر قد أخذ من سكان موسكو كل مأخذ، عندما وصلت جيوش الفاتح التركي إلى مدينة "ايليتس" وتقدمت بعد ذلك إلى مدينة "ريزان" (Rézan) [(٥)] ، حيث أضحت موسكو على مسيرة عدة أيام . ويعزو هذا المؤرخ الروسي استدارة الفاتح التركي مع قواته وعودته إلى الجنوب بعد أن أضحى على مقربة من المدينة الروسية الأولى ، إلى "معجزة" . فيقول إن سكان موسكو أخذوا في تلك الأثناء ، يصلون ويبتهلون ويستجيرون بالقديسين، ويتضرعون لصورة العذراء التي كانوا يعتقدون أنها من رسم "القديس لوقا" ، ولذلك عادت قوات الأعداء ولم تقترب من المدينة [(٦)] .

وينقل لانكله في هذا الصدد أيضاً رأي مؤرخ فرنسي يدعى "السيد ليفيك" (M. Levêque) [(٧)] ، كان قد تصدى لمعالجة هذه المسألة، وأورد حججاً ينفي بها وصول الفاتح التركي إلى موسكو . وتقوم هذه الحجج على أن تيمور بعد أن هزم عدوه توقتميش ، واندفع في أراضي روسيا نحو الشمال ، أخذ يشعر بصعوبة تأمين مايحتاجه جيشه الذي كان يعدّ أربعمائة ألف رجل مع خيولهم ، في هذه البلاد الفقيرة . ولما وصل إلى مدينة ايليتس أحرقها، وألقى القبض على حاكم المنطقة، معتقداً أنها مدينة موسكو . وقد ذكر المؤرخون التيموريون وصول تيمور إلى موسكو ، لأنه قيل لهم ذلك ، ولكن أحداً منهم لم يكن يرافق القوات المغيرة في ذلك الوقت . وهذا الخطأ الذي وقع فيه تيمور لم يكن الخطأ الأول من نوعه ، فقد وقع فيه سابقاً الكتاب البولونيون مرات عديدة عندما كان يقع في أيدي القوات البولونية أمراء روس صغار ، فيعتقدون أن من بين هؤلاء أمير موسكو . ويتابع ليفيك حججه فيقول إن الأحداث الكبرى في التاريخ الروسي قد دونت من قبل المؤرخين الروس بكل دقة وعناية ، وليس من المعقول أن لا يشير هؤلاء إلى وصول تيمور إلى موسكو إذا كان قد وصل إليها بالفعل . وهم الذين ذكروا أن موسكو قد احتلتها قوات توقتميش قبل ذلك التاريخ بثلاثة عشر عاماً . إن المؤرخين الفرس الذين ذكروا بأن تيمور قد حول موسكو إلى رماد ، فقد ذكروا ذلك دون جدوى . لأن هنالك عدداً من الأبنية التي تم بناؤها قبل تاريخ حروب تيمور في بلاد القبجاق وبلاد الروس، لم يصبها أي مكروه . ويتساءل ليفيك عن موقف المؤرخين الروس من

حجج ليفيك

---

(١) : شامي: ص١٦١ ويزدي: ج ٢ص٥٤٢ ، (٢) : Grousset: op. cit. P. 521

Barthold :op.cit.P.851, Saunders:op.cit.P.227,Prawdin : p. 227

(٣) : Sykes op. cit.T.II P. 128 (٤) H.A.R.G.:op.cit.V.22P. 4

(٥) : Rézan كما رسمها لانكله وتظهر على مصور Riazan(Atlas Classequie)

(٦) : Langlès : Vie de Timour P. 64 (٧) : Langlès: ibid .

M. 1

مواطنيهم إذا تجاهلوا احتلال تيمور لموسكو ،في الوقت الذي استطاع فيه أن يحتلها فعلاً ، وكيف يتجاسر هؤلاء المؤرخون أن يؤكدوا عدم وصول تيمور وقواته إلى العاصمة الروسية لمن يطالعون كتبهم،في الوقت الذي شاهد فيه هؤلاء القراء قوات تيمور تحرق موسكو وتحيل كل شيء فيها إلى رماد ،حسب ما أوردته المصادر الفارسية . ويعلق لانكله على ما أورده ليفيك من حجج بعد أن يعلن إقتناعه بها ،بأن شرف الدين يزدي الذي أورد خبر احتلال تيمور لموسكو،يشبه غيره من غالبية المؤلفين الشرقيين ،بأن معلوماته عن جغرافية أوربا وتاريخها هي معلومات قليلة ويشوبها بعض الخطأ .(١)

ويعلل براندان – وهو أحد الذين رفضوا التسليم بوصول تيمور إلى موسكو – سبب عودته عن المدينة،بأن المناطق العشبية الشمالية التي كانت تنمو فيها أيضاً الغابات الكثيفة، وتكثر فيها المستنقعات ،كانت تعرقل حركة الجيوش الغازية ،وبدت خالية من السكان تقريباً ، إلا من بعض المدن المتناثرة هنا وهناك،التي كانت تشكو من الفقر الشديد بسبب ما تعرضت له من النهب والسلب مرات عديدة في الماضي ،خلال حوادث الصراع بين خانات القبجاق والأمراء الروس، ولذلك فضل تيمور الاتجاه بقواته إلى الجنوب ،نحو المستعمرات التجارية الإيطالية الغنية في القرم ، قبل أن يقترب برد الشمال القاسي .(٢)

وكانت المذكرات قد أشارت إلى هذه المسألة بشكل مبهم ،ولكنه يوحي في الوقت نفسه بعدم وصول تيمور إلى موسكو . فقد جاء فيها قول تيمور : "في عام ٧٩٧هـ [تقابل ١٣٩٥م] دخلت بلاد القبجاق ،ونفذت حتى حدود الأراضي الشمالية . وقد تجاسر سكان هذه المناطق على محاربتي ،ولذلك فقد تم تبديدهم والقضاء عليهم ،وأضحت المناطق والقبائل والقلاع في الإقليم الخامس والاقليم السادس محتلة (٣)". وعلى الرغم من أنه من المفروغ منه أن موسكو تقع في الإقليم السادس(٤) بنظر جغرافيي العصر الوسيط فإن تيمور لو تمكن من احتلالها ،لأشار في المذكرات إلى ذلك إشارة أكثر وضوحاً ،وسمّاها باسمها .

ويقول الذين ينقلون عن المصادر الروسية(٥) ،إن تيمورا استدار بتاريخ ٢٦ آب ١٣٩٥ (٨ ذي العقدة ٧٩٧هـ)،من مدينة ايليتس باتجاه المستعمرة الجنوبية "تانا" ،الواقعة على ساحل بحر آزوف بالقرب من مصب الدون . ويدعو يزدي هذه المدينة "آزاق" .(٦) وكان الجنويون قد جعلوا من مستعمرة تانا مستودعاً للبضائع الآتية من مصر وبلاد فارس وإيطاليا واسبانيا . وعلى الرغم من المفاوضات التي دارت بين الفاتح التركي وبين وفد أرسله إليه حكام المدينة، وكان محملاً بالهدايا ،وحصول الوفد على وعد بالأمان(٧) ، فإن تيمور عاد عن وعده ،وأغار على تانا ،وقتل سكانها غير المسلمين تحت شعار الجهاد ،ثم ترك المدينة طعمة

الغارة على القرم

(١) : Prawdin : ibid. (٢) : Langlès : ibid .

(٣) : Langlès : Les Instits.. P. 246 (٤) : القزويني آثار البلاد ص٥٠٧ و ٥٨٦

(٥) : Grousset: op.cit. P. 522, Prawdin: ibid.

(٦) : يزدي: ج ١ ص ٥٤٣ الذي ذكر أن آزاق تقع على نهر "تن" (الدون)، مما يؤكد أنها تانا .

(٧) : Grousset: ibid .

للنيران.[1] وتقدم تيمور بعد ذلك عبر سفوح جبال القوقاز الشمالية، فاخترق شعابها وغاباتها. ويقول يزدي إن حروب تيمور في تلك المناطق قد انتهت إلى فرض سيطرته على "الوس جركس"، بعد أن استطاع احتلال مجموعة القلاع التي كانت تقوم في تلك المناطق.

وعاد تيمور إلى الاتجاه نحو الشمال من جديد. وتقدم لحصار مدينة "حاجي ترخان" الواقعة على مصب نهر "اتل" (الفولغا) في بحر الخزر، وهي استرخان الحالية. وتم حصار المدينة من البر والبحر إلى أن سقطت، ثم اجتاحتها الجيوش الغازية وساقت جميع سكانها بعيداً عن المدينة التي كانت تحترق على مرأى من هؤلاء السكان.[2] وسار تيمور بعد ذلك على ضفاف الفولغا إلى العاصمة سراى. ويشير كل من المقريزي والعسقلاني المعاصرين، إلى وجود قوات مملوكية في العاصمة القبجاقية، ساهمت مع جيوش توقتميش في الدفاع ضد القوات الغازية، في ذي الحجة من ذلك العام (٧٩٧هـ/تشرين الاول ١٣٩٥م).[3] ويبدو أن وجود هذه القوات المملوكية هناك كان تنفيذاً لمعاهدة التحالف التي تم عقدها بين سلطات المماليك في القاهرة ودولة القبجاق قبل عام من ذلك التاريخ. ولكن تيمور بعد أن تمكن من احتلال سراي أمر بهدمها وإحراقها، وعلل عمله بالانتقام من غارة توقتميش على ماوراء النهر قبل سبعة أعوام واعتداءاته على مدينة زنجير سراي فيها.[4] واضطر قائد القوات المملوكية التي شاركت في الدفاع عن المدينة ويدعى "الأمير طولو" إلى الفرار إلى مدينة كافا" (Caffa) وهي (الكفا عند المقريزي)، ولكن حاكم المدينة الجنوي حاول تسليمه لتيمور. واستطاع الأمير المملوكي التخلص بأن افتدى نفسه بمبلغ خمسين ألف درهم.[5] ويقول ابن الفرات إن الأمير طولو ذكر عند عودته إلى القاهرة، أن فشل توقتميش في الدفاع عن عاصمته كان بسبب انضمام قسم من قواته أثناء القتال إلى تيمور.[6] ويعتقد بارتولد أن الهياكل العظمية البشرية الكثيرة العدد، التي عثر عليها في مكان قريب من سراي، وكانت هذه الهياكل مقطوعة الرؤوس والأيدي والأقدام، هي من آثار الاجتياح والتنكيل اللذين أنزلهما جند تيمور بالمدينة[7].

ويعترف يزدي بأن التعب والإعياء قد حلا بجند تيمور بعد هذه العمليات الكبيرة في بلاد القبجاق الواسعة. وحلّ فصل الشتاء البارد ولذلك قرر تيمور العودة جنوباً، عن طريق استراخان وبوابة دربند إلى ايران. وبلغ اذربيجان في فصل ربيع ١٣٩٦م (حوالي رجب ٧٩٨هـ).[8] واستقبل حاكم شروان وتابع تيمور الأمين "شيخ ابراهيم" الفاتح التركي عندما مر ببلاده بالترحيب.[9] ولما عبر تيمور نهر كر أصدر أمره بتعيين ابنه ميرانشاه الذي كان

(1): شامي: ص١٦٢ وابن عربشاه: ص٥٩ ويزدي ج ١ص ٥٤٤ ويقول كل من المقريزي والعسقلاني وابن الفرات، إن تيمور قد أغار على الكفا (كافا)، وهي المركز التجاري الجنوي الثاني في ذلك الوقت في القرم شمالي الأسود. وتمكن من احتلالها بعد حصار استمر ثمانية عشر يوماً. ثم أعقب ذلك باجتياح القرم كلها. انظر: المقريزي: ج ٣ ق٢ ص٨٤٢ والعسقلاني: ج ١ص ٤٩٥ وابن الفرات: م٩ ج ٢ص ٤١٦ (٢): شامي: ص١٦٤ ويزدي ج ١ص ٥٥٣

(٣): المقريزي: نفسه والعسقلاني: ج ١ص ٤٨٩ (٤): ابن عربشاه: ص٥٩ ويزدي: ج ١ص ٥٤٤–٥٥٢ (٥): المقريزي: نفسه (٦): إبن الفرات: م٩ ج ٢ ص٤١٦

(٧): Barthold : Sarf (E.I.T. IV P.P.163 - 164) P. 164

(٨): يزدي: ج ١ص ٥٥٣ (٩): شامي: ص١٦٥

استراخان

تهدم سراي

الانسحاب

حتى ذلك الوقت حاكماً على خراسان ـ حاكماً على الأراضي الممتدة من دربند إلى بغداد ومن همذان إلى بلاد الروم [(١)]، مما يفيد أن تيمور لم يتخذ أي إجراء جدي لإلحاق بلاد القبجاق بامبراطوريته . ويشير قرار تيمور بهذا التعيين إلى أن قراره السابق الذي اتخذه عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م، في همذان وهو يستعد للإغارة على العراق، بتعيين ميرانشاه والياً على المواقع ذاتها [(٢)] لم يكتب له أن ينفذ فعلاً ، لأن ميرانشاه كان يرافق والده في الهجوم على العراق وفي غارته الثانية على بلاد القبجاق . ولذلك فإن ميرانشاه ، في هذه المرة ، قد انتقل بحاشيته وأمواله للاستقرار في تبريز مركز حكمه الجديد . وودع تيمور ابنه بعد أن أوصاه أن يحسن الإدارة، ويضبط أمور الولاية . ثم تابع تقدمه في إيران ، ليعيد تنظيم أحوالها بعد أن انتشرت فيها الثورات في أماكن متعددة خلال غيبته الثانية في بلاد القبجاق .

القبجاق بعد الحرب .

ولم تتمكن سراي ـ عاصمة القبجاق ـ أن تسترجع مكانتها كمركز من مراكز الحضارة الآسيوية في أرض أوربية ، استمر إشعاعه خلال القرن ونصف القرن الماضيين ، على الرغم من عودة توقتميش إليها ومساعيه لإعادة تكوين دولته من جديد [(٣)]. ويورد العسقلاني في هذا المجال أخباراً عن غزوة قام بها خان القبجاق ، ضد المستعمرات التجارية في القرم في حوادث عام ٧٩٩ هـ [(٤)] (١٣٩٧ م) أي في الآونة التالية لانسحاب تيمور من بلاد القبجاق مباشرة . ويستفاد من بعض ما يورده ابن عربشاه من الأخبار عن بلاد القبجاق، أن أمر هذه الخانية لم يلبث أن أخذ يسير نحو الاضمحلال ، بسبب الحروب التي وقعت بين توقتميش ومنافسيه، من أفراد البيت المالك ، من أحفاد جوجي بن جنكيز خان ، وممن أقامهم تيمور حكاماً في تلك البلاد قبل انسحابه . وكان أبرز هؤلاء المنافسين الأمير ايدكو ، وقتلغ تيمور الذي كان قد أقامه خاناً على بلاد القبجاق مكان توقتميش . ويصور ابن عربشاه الحالة في تلك البلاد فيقول : « .. وتخربت بلاد القبجاق وسارت بعض قبائلها إلى تيمور والأخرى إلى الروس .. » [(٥)].

ولا شك في أن الحالة التي وصلت إليها خانية بلاد القبجاق ، كانت مشجعة للأمراء الروس الذين كانوا خاضعين لحكمها ، على التحرك ونبذ الطاعة . ولكن أميراً قويا من ليتوانيا يدعى "فيتورسك" (Vitoursk)، انتهز فرصة الفوضى التي حلت بالبلاد بسبب غزوات تيمور ، فاستطاع أن يفرض نفوذه على بقية الأمراء الروس . ولما لجأ إليه الخان توقتميش فاراً من منافسه قتلغ تيمور، عاد فحلت به الهزيمة مرة ثانية أمام صنيعة تيمور (قتلغ تيمور) ، في المعركة التي دارت على ضفاف . ورسكلا (Worskla) رافد (دنيبر)، في ١٣ آب ١٣٩٩ (٨ ذي الحجة ٨٠١ هـ) [(٦)]. وعاش بعدها توقتميش حياة التشرد والمغامرة .

نهاية توقتميش

وعلى الرغم من تأكيد قتلغ تيمور لتبعيته للفاتح التركي ، برسالة بعث بها إليه في آب ١٣٩٨ م (ذي الحجة عام ٨٠٠ هـ) [(٧)]، فإن تيمور ظل يميل إلى ربيب نعمته القديم توقتميش

(١) : يزدي : ج ١ ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩ (٢) : يزدي : ج ١ ص ٤٤٥ (٣) : Grousset: ibid
(٤) : العسقلاني : ج ١ ص ٥٢٦ (٥) : ابن عربشاه : ص ٦١
(٦) : Prawdin: op. cit. P. 228, Grousset: ibid .
(٧) : Grousset: ibid .

الفصـــل الخامـــس

حملـــة تيمـــور على الهـــند

٨٠٠ ـ ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ م

أعمال تيمور في حقبة الاستجمام ـ حملة بير محمد الاستطلاعية ـ أسباب الحملة ـ حالة الهند قبل الغزو ـ موقف قواد تيمور ـ ملاحقة كفيبار كافرستان ـ عبور شمال الهند ـ حول دلهي ـ المذبحة ـ معركة دلهي ـ دخول المدينة ـ المذبحة الثانية ـ التقدم إلى ضفاف الغانج ـ في طريق العودة ـ أهمية الحملة ـ النتائج ـ الهند بعد انسحاب الغزوة .

أعمال تيمور في حقبة الاستجمام

سبقت غارة تيمور على الهند حقبة استجمام وراحة ، كانت أطول مدة قضاها في ماوراء النهر بعد وصوله إلى حكم تلك البلاد . فقد امتدت زهاء عام وتصف من أواخر عام ٧٩٨ هـ إلى رجب عام ٨٠٠ هـ (ايلول ١٣٩٦ ـ نيسان ١٣٩٨ م) ، وبعد أن أمضى تيمور جزءاً من هذا الوقت في سمرقند أشرف خلال ذلك على بناء قصر "باغ" في شمال العاصمة ، أمضى شهر رمضان ٧٩٩ هـ في قصر "آق سراي" في كيش (شهري سبز) ، وارتحل إلى الشمال وعبر سيحون حيث أقام مدة من الزمن بجوار مدينة طاشقند ، ثم زار مدينة ياسي وأمر ببناء قبة على قبر الشيخ أحمد يسوى المدفون في المدينة ، ثم عاد إلى سمرقند . وعقد تيمور خلال استجمامه قرانه على اثنتين من النساء في مناسبتين متتاليتين . وعين ابنه شاه رخ حاكماً على خراسان، وجعل سلطاته تمتد من سيستان في الجنوب إلى مازندران في الغرب . وانتقل شاه رخ مع حاشية كبيرة من القواد العسكريين والخبراء للإقامة في هيرات مركز الولاية [1] .

حملة بير محمد الاستطلاعية

كان بير محمد بن محمد جهانگير يتولى في هذه الآونة من قبل جده حكم مدن قندوز وبقلان وكابل وغزنين الواقعة في أقصى الشرق من خراسان ، على مقربة من حدود الهند . وقد شجعت حالة الفوضى والمنازعات بين حكام الهند التي كانت في ذلك الوقت على أشدها، بير محمد على عبور "جبال سليمان" في مطلع عام ٧٩٩ هـ (أواخر ١٣٩٦ م) على رأس ثلاثين ألفاً من قواته ، لحصار أكبر المدن الهندية في حوض نهر السند ، هي مدينة "ملتان" [2] . ولما تمكن من احتلالها أرسل إلى جده يصف له حالة البلاد واضطراب الأوضاع فيها [3] ، وكثرة ثرواتها، وختم رسالته بقوله : « وعندما تحتل الهند ، فإن ذهب هذه البلاد سوف يجعلنا سادة العالم .. » [4] .

أسباب الحملة

ويبدو أن تيمور قد ملّ الإخلاد إلى الهدوء والاسترخاء ، وتاق من جديد إلى المغامرة والفتح والاستيلاء ، على الرغم من تقدمه في السن ـ وهو الآن في الرابعة والستين من العمر ـ وزادت رغبة تيمور بالاتجاه جنوباً إلى الهند ، بعد حديث حفيده له ، فقد وجد أن غنى

(١) : يزدي : ج ١ ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤

(٢) : Langlès op. cit. P. 250

(٣) : يزدي : ج ٢ ص ١٨ ـ ١٩

(٤) : Langlès op. cit. P. 247

على الرغم من كل ما بدر منه من نكران الجميل . ولما عاف الخان المتشرد حياة المغامرة ، حاول أن يصلح علاقاته بتيمور . فأرسل إليه ببعثة استقبلها الفاتح التركي في اوترار ، في كانون الثاني عام ١٤٠٥ م (رجب عام ٨٠٧ هـ) ، عند ما كان يتهيأ لغزو الصين . وكان رد تيمور على توقتميش ودياً ، ووعده بالعمل لإعادته إلى الحكم . وحالت وفاة الفاتح التركي بعد هذا التاريخ بمدة وجيزة (شعبان ٨٠٧ هـ / شباط ١٤٠٥م) في اوترار ذاتها ، دون أن يَبَرّ له بوعده . وتقول المصادر الروسية إن توقتميش قتل في العام التالي (١٤٠٦م) في " تيومن " (Tumen) بإحدى مدن سيبيريا ، حيث كان يلجأ إلى هناك فاراً من " شادي بيك " شقيق قتلغ تيمور وخليفته .(١)

نتائج حروب تيمور في بلاد القبجاق .

ولعل أهم شيء تمخضت عنه غزوات تيمور لتلك البلاد ، بالاضافة إلى تقويض سلطات خانات القبجاق على أتباعهم من الأمراء الروس ، وإتاحة الفرصة أمام هؤلاء الأمراء للعمل على التخلص من نفوذ مغول القبيلة الذهبية عليهم ، والبدء ببناء الدولة الروسية ، فإن غارات تيمور أحدثت تغييراً في التوزع البشري في أوربة الشرقية وآسيا الصغرى ، وذلك بسبب الاضطراب والفزع الذي أحدثته هذه الحروب عند القبائل المغولية ، التي كانت تفرّ من أمام جيوش تيمور . فنزل بعض هذه القبائل على سواحل بحر الخزر الشرقية ، وتقدم بعضها الآخر إلى دبرودجة ومولدافيا (وهي مناطق في رومانيا اليوم) . وتقدمت بعض هذه القبائل إلى ليتوانيا على شواطيء البلطيق ، حيث لا يزال أحفادهم هناك حتى الوقت الحاضر. وحيث لا تزال أسماء كثير من المواقع الجغرافية هناك من أصل مغولي . واستقرت بسبب غزوات تيمور لبلاد القبجاق ، بعض القبائل المغولية في منطقة تراكية ، وعلى سواحل بحر ايجة حول إزمير في آسية الصغرى .(٢)

---

(١): Cahun: op. cit. P. 954, Saunders: op. cit. P. 167 et Grousset: op. cit. P. 523

ويجعل ابن عربشاه مقتل توقتميش على يد الأمير ايدكو. انظره : ص ٦٢ . هذا ويلاحظ اختلاف فيما أورده كل من يزدي وابن عربشاه ، عن دور ايدكو في حروب تيمور في بلاد القبجاق . ففي الوقت الذي يذكر فيه يزدي أن الدور الذي لعبه هذا الأمير كان خلال غزوة تيمور الأولى لبلاد القبجاق عام ٧٩٣ هـ (انظر ما سبق (الفصل الثاني من هذا الباب) ، فإن ابن عربشاه يورد أخبار هذا الدور خلال غزوة تيمور الثانية وما بعدها .

(٢): Prawdin: op. cit. P. 227

الفصـــل الخامـــس

حملـــة تيمـــورعلـى الهـــند

٨٠٠ _ ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ _ ١٣٩٩ م

أعمال تيمور في حقبة الاستجمام _ حملة بير محمد الاستطلاعية _ أسباب الحملة _ حالة الهند قبل الغزو _ موقف قواد تيمور _ ملاحقة كفـار كافرستان _ عبور شمال الهند _ حول دلهي _ المذبحة _ معركة دلهي _ دخول المدينة _ المذبحة الثانية _ التقدم إلى ضفاف الغانج _ في طريق العودة _ أهمية الحملة _ النتائج _ الهند بعد انسحاب الغزوة .

أعمال تيمور في حقبة الاستجمام

سبقت غارة تيمور على الهند حقبة استجمام وراحة ، كانت أطول مدة قضاها في ماوراء النهر ، بعد وصوله إلى حكم تلك البلاد . فقد امتدت زهاء عام ونصف من أواخر عام ٧٩٨ هـ إلى رجب عام ٨٠٠ هـ (ايلول ١٣٩٦ _ نيسان ١٣٩٨ م). وبعد أن أمضى تيمور جزءاً من هذا الوقت في سمرقند، أشرف خلال ذلك على بناء قصر " باغ " في شمال العاصمة ، أمضى شهر رمضان ٧٩٩ هـ في قصر " آق سراي " في كيش (شهري سبز) ، وارتحل إلى الشمال وعبر سيحون حيث أقام مدة من الزمن بجوار مدينة طاشقند ، ثم زار مدينة ياسي وأمر ببناء قبة على قبر الشيخ أحمد يسوى المدفون في المدينة ، ثم عاد إلى سمرقند . وعقد تيمور خلال استجمامه قرانه على ابنتين من النساء في مناسبتين متتاليتين . وعين ابنه شاه رخ حاكماً على خراسان ، وجعل سلطاته تمتد من سيستان في الجنوب إلى مازندران في الغرب . وانتقل شاه رخ مع حاشية كبيرة من القواد العسكريين والخبراء للإقامة في هيرات مركز الولاية (١) .

حملة بير محمد الاستطلاعية

كان بير محمد بن محمد جهانكير يتولى في هذه الآونة من قبل جده حكم مدن قندوز وبقلان وكابل وغزنين الواقعة في أقصى الشرق من خراسان ، على مقربة من حدود الهنـد . وقد شجعت حالة الفوضى والمنازعات بين حكام الهند التي كانت في ذلك الوقت على أشدها، بير محمد على عبور " جبال سليمان " في مطلع عام ٧٩٩ هـ (أواخر ١٣٩٦ م) على رأس ثلاثين ألفاً من قواته ، لحصار أكبر المدن الهندية في حوض نهر السند ، هي مدينة " ملتان " (٢) . ولما تمكن من احتلالها أرسل إلى جده يصف له حالة البلاد واضطراب الأوضاع فيها (٣) ، وكثرة ثرواتها. وختم رسالته بقوله : « وعندما تحتل الهند ، فإن ذهب هذه البلاد سوف يجعلنا سادة العالم .. » (٤)

أسباب الحملة

ويبدو أن تيمور قد مل الإخلاد إلى الهدوء والاسترخاء ، وتاق من جديد إلى المغامرة والفتح والاستيلاء ، على الرغم من تقدمه في السن _ وهو الآن في الرابعة والستين من العمر _ وزادت رغبة تيمور بالاتجاه جنوباً إلى الهند ، بعد حديث حفيده له ، فقد وجد أن غنى

(١) : يزدى : ج ١ ص ٥٧٣ _ ٥٧٤ (٢) : Langlès op. cit. P. 250

(٣) : يزدى : ج ٢ ص ١٨ _ ١٩ (٤) : Langlès op. cit. P. 247

تلك البلاد وكنوزها تساعده على تأمين متطلبات الحياة التي اعتادها فرسانه ، والقائمة على توزيع الغنائم والجوائز عليهم من وقت لآخر ، ولا سيما وأنه لم يعد يجد شيئاً يغريه بالاتجاه شمالاً ، إلى بلاد الجتا أو بلاد القبجاق . [١] ولا تخفي المصادر التيمورية الإشارة إلى أن حملة الهند كانت لطلب الغنائم ولابتغاء فضل الله في هذه الدنيا ، في وقت كان الهدوء والاستقرار يسيطران على الدولة التيمورية ، بعد الحملات العسكرية الناجحة على بلاد الجتا والقبجاق ، والتي امتدت غربا إلى إيران والعراق وبلاد الكرج . [٢]

ويبدو أيضاً أن الفاتح التركي وجد في احتلال الهند، تلك البلاد الواسعة الغنية ، خطوة هامة تقربه من هدفه الكبير وهو السيطرة على العالم . فقد أشار ابن عربشاه وغيره من مؤرخي الشام ومصر ، إلى أن مطامع تيمور في الهند تعدّت الرغبة بالغنائم إلى العمل على ضمّ هذه البلاد إلى أملاكه [٣]. واتضح من المذكرات أن تيمور كان يتابع التعرف على أخبار الهند بواسطة الجواسيس الذين أرسلهم إلى هناك ، قبل أن يسير إليها بوقت طويل . وأوحت كتابات هؤلاء الجواسيس التي وصفت اضطراب الأحوال في الهند وكثرة المنازعات فيها للفاتح التركي أن الاستيلاء على هذه البلاد سيكون عملاً سهلاً . [٤]

وكانت الهند من ناحية ثانية ، تشكل عند تيمور نوعاً من التحدي الخاص . فهو ليس أقل شأناً من الاسكندر المكدوني الذي نجح بغزو الهند . كما أنه إذا نجح في إمتلاك هذه البلاد ، فإنه سيقوم بعمل عجز عنه الفاتح المغولي (جنكيز خان) ، الذي اكتفى بالوقوف على شواطيء نهر السند ، ولم يغامر باجتياز النهر إلى داخل البلاد . [٥] ووجد الفاتح التركي أن القتال في الهند سوف يساعده على التخلص من الشعور بالذنب ، بسبب حروبه السابقة في بلاد الجتا وبلاد القبجاق ، حيث قاتل هنالك شعوباً هي أقرب ماتكون إلى غالبية سكان ماوراء النهر (الأتراك الجغتائيين) عرقاً وحضارةً . وشعر أن حروبه في الهند وهي بلاد جديدة غريبة ، تختلف بشعبها وأرضها عن الأتراك الجغتائيين وبلادهم ، ستكون نوعاً من التكفير عن الخطأ الذي ارتكبه في حملاته السابقة . [٦]

واستطاع الفاتح التركي أن يغلف تلك الرغبات والعواطف ، بغلاف من الدوافع الدينية. [٧] فادعى في المذكرات بأنه جاء إلى الهند لنشر الإسلام بين غالبية سكان هذه البلاد ، الذين لا يزالون يدينون بعقائد وثنية . [٨] وهو مدفوع إلى ذلك بدوافع علوية من أجل تحطيم معابد الكفار ، في الوقت الذي قصّر فيه حكام البلاد المسلمون ، بسبب خمولهم وتهاونهم وانشغالهم بمنازعاتهم ، عن الاهتمام بنشر الإسلام بين رعاياهم الكفار ، واكتفوا من هؤلاء بدفع الجزية والخراج . وكانت دنانيرهم ودراهمهم التي يضربونها خير مثال على تقاعسهم وتهاونهم ، لأنها كانت خالية من عبارات التوحيد التي كان من المعتاد أن تضرب على النقود الإسلامية على حد قول المصادر التيمورية . [٩]

(١) : Prawdin : op. cit. P. 234 (٢) : شامي : ص٧٠ ويزدي ج ٢ ص٧٥
(٣) : ابن عربشاه : ص٦٨ والعسقلاني : ج ٢ ص٩ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق٢ ص١٠٢٤
(٤) : Langlès: op. cit. P. 126 (٥) : Prawdin: op. cit. P. 234
(٦) : Cahun : op. cit. P. 955 (٧) : Grousset: op. cit. P. 523
(٨) : Stewart: op. cit. P.14-15 (٩) : شامي : ص٧٠١ ويزدي : ج ٢ ص١٩

ولعبت على ما يظهر في هذا المجال ، أعمال السلطان محمود الغزنوي في الهند ، والهالة التي أحيطت بها دوراً في إلهام تيمور كي يلعب الدور ذاته . فمذكرات الفاتح التركي تبدي إعجاباً بالسلطان الغزنوي ، وتُشيد بأعماله المجيدة وحكمته (١)، وينعته يزدي دائماً بالسلطان الغازي . (٢)

وهنالك من يرى أن قدوم تيمور إلى الهند في آخر القرن الرابع عشر الميلادي (آخر القرن الثامن الهجري) ، إنما هو تكرار لما دأبت ماوراء النهر على القيام به ، منذ مطلع هذا القرن ، عندما اندفع منها عدد من حملات السلب والنهب خلال حكم الخانات الجغتائيين المغول نحو الهند . وكانت آخر هذه الحملات تلك التي قادها الخان تارما شيرين عام ١٣٢٩م (٧٢٩ هـ) . (٣)

حالة الهند قبل الغزو

وكانت الهند منذ عام ٧٢٠هـ (١٣٢١م) تحكم من قبل "أسرة تغلق " ذات الأصل التركي الجغتائي . (٤) وقد استطاع الأوائل من سلاطين هذه الأسرة ، أن يفرضوا سلطتهم على أكثر أجزاء الهند . ولم يلبث أن دبّ الانحطاط السريع بالبلاد ، في عهد المتأخرين من حكام هذه الأسرة . ومال أغلب حكام المقاطعات إلى الانفصال بحكم مناطقهم عن الحكومة المركزية في العاصمة "دلهي" . كما كثرت ثورات الهنادكة (سكان البلاد من غير المسلمين) (٥) وقد حاول السلطان "فيروز شاه "آل تغلق الذي يصفه المقريزى بأنه من عظماء ملوك الإسلام (٦) عند وصوله إلى الحكم عام ٧٥٢هـ (١٣٥١م) إصلاح الحال . ولكنه اصطدم بمؤامرات أقربائه من أمراء البيت المالك التغلقي وثورات الهنادكة ، واضطر أن يترك الحكم لوزرائه في آخر أيامه بسبب المرض . واشتد التنازع بين هؤلاء الوزراء ، وشاهدت شوارع دلهي اشتباكات دامية بين انصار المتنافسين . ولما توفي السلطان الشيخ (فيروز شاه) عام ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) ، كان ذلك إيذاناً بازدياد حالة الفوضى ، وتتالى على عرش البلاد بعد ذلك عدد من السلاطين الضعاف ، كان آخرهم السلطان محمود الذي استبد به وزيره "ملو إقبال خان "، في الوقت الذي كانت فيه قوات بير محمد حفيد تيمور ، تتدفق على الهند وتحاصر "ملتان " التي كان يحكمها شقيق الوزير المتسلط ويدعى " سارنك خان ". (٧)

موقف قواد تيمور

وعارض بعض قواد تيمور مشروع الحملة متذرعين بالصعوبات التي سوف يواجهونها فيها ، في بلاد عرفت بجبالها العالية وغاباتها الكثيفة ، وأنهارها الغزيرة المياه . وذكر المعارضون أن مناخ الهند الحار يدعو إلى الخمول ، وسوف يجد الأتراك أنفسهم في هذه البلاد الكثيرة السكان قلةً ، وسوف يكون من شأن ذلك أن ينسى أبناؤهم وأحفادهم في المستقبل أصولهم وعاداتهم ولغتهم . (٨) وأصرّ تيمور على موقفه ، واضطر — كما أشارت المذكرات — إلى تهديد بعض قواده الذين أبدوا شيئاً من التقاعس . ومضى في استعداداته وتجمّع له في فصل

(١) : Langles: op. cit. P. 44 (٢) : يزدي: ج ا ص ٤٠١ على سبيل المثال .

(٣) : Grousset: ibid. (٤) : الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية . القاهرة ١٩٥٧م ج ا ص ١٦٩ (٥) : الساداتي : ج ا ص ١٨٤ و :
Prasd(Ishawari):L'Inde du VII^e au XIV^e siècle P. 335-336

(٦) : Grousset: op.cit. P. 524 : المقريزي: السلوك ج ٣ ق ٢ ص ١٠٢٤

(٧) : الساداتي : ج ا ص ١٨٢ — ١٩٦ و
Prawdin : ibid

(٨) : Langlès: op. cit. P. 247 - 248

ربيع ٨٠٠ هـ (١٣٩٨م) اثنان وتسعون ألف مقاتل . وفي رجب من ذلك العام (نيسان ١٣٩٨م) عبر بهم جيحون ، بعد أن ترك حفيده عمر بن ميرانشاه نائباً عنه في سمرقند .[١]

ملاحقة كفّار كافرستان

ولما مرّ تيمور على "اند يراب" في جنوب جيحون ، اشتكى له سكان المنطقة من المظالم التي كان ينزلها بهم سكان الجبال الوثنيون . وقد أشارت المصادر التيمورية إلى وجود جماعات لاتزال تعبد الأوثان في تلك المنطقة ودعت بلادهم "كافرستان" (بلاد الكفار) ، حيث لاتزال هذه التسمية تطلق إلى اليوم ، على جزء من السفوح الجنوبية لجبال "هندوكوش" يقع إلى الشمال الشرقي من كابل . وأضاف يزدي أن هؤلاء قد دأبوا على القيام بغارات على سكان المناطق المجاورة المسلمين ، من مناطقهم الجبلية الحصينة ، فكانوا يختطفون الأطفال ويسبون النساء ، ويجبرون السكان على دفع الأتاوات . وتحركت حمية تيمور ــ كما يقول يزدي ــ وأرسل قواده لتطهير شعاب تلك المرتفعات التي كان يعتصم بها هؤلاء الوثنيون . وشارك تيمور نفسه في عمليات ملاحقة هؤلاء ، وتجشم مع فرسانه مشقة الصعود إلى قمم الجبال المكللة بالثلوج . واضطر الجند إلى الباس خيولهم البسط واللباد لوقايتها من البرد . ولم يقبل تيمور من سكان هذه الجبال إلاّ الإسلام أو القتل . ثم تابع تيمور سيره إلى وادي السند ماراً بمدينة كابل ،[٢] بعد أن أمضى ستة أشهر في قتال كفار هذه الجبال .

عبور شمال الهند

عبر تيمور السند في ١٢ المحرم ٨٠١ هـ (٢٤ أيلول ١٣٩٨م) ، من المكان الذي عبره السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي عام ٦١٧ هـ (١٢٢١م) ، فاراً من جيوش المغول التي كانت في إثره بقيادة جنكيز خان . واستولى على حصن "تلمبي" في صفر ٨٠١هـ (تشرين الاول ١٣٩٨م) .[٣] ويقع هذا الحصن عند إلتقاء نهر "جين آب" برافده نهر "راوي" .[٤] وقتل من سكانه ألفين . والتقى عند الحصن بقوات حفيده بير محمد التي كانت قادمة من ملتان . ثم تقدم إلى قريتي "جهوال" و "ديالبور" اللتين لاتزالان الى اليوم تحملان الاسمين نفسيهما . وقد فزع سكان ديبالبور عند اقتراب قوات تيمور من قريتهم ، لانهم ثاروا على الحاكم التيموري الذي عينه بير محمد عند مامرّ بالقرية سابقاً وقتلوه ، فاعتصموا بأسوار حصن "بهاتنير" المجاور . ولكن القوات الغازية اقتحمت الحصن وقتلت سكانه ومن لجأ إليهم من المناطق المجاورة ،[٥] دون أن تفرق بين المسلمين والهنادكة[٦] (الهنود غير المسلمين) . وانطلقت القوات الغازية بعد ذلك إلى سرسوتي (سرسطي) ، فقتلت جميع سكانها بحجة أنهم من الهنادكة . وتقدمت منها إلى "فتح آباد" ،[٧] وهي المدينة التي كان قد بناها السلطان فيروز شاه[٨] في شمال غرب العاصمة دلهي .

أمضى تيمور طيلة شهر ربيع الاول ٨٠١ هـ (تشرين الثاني ١٣٩٨م) باحتلال المناطق

---

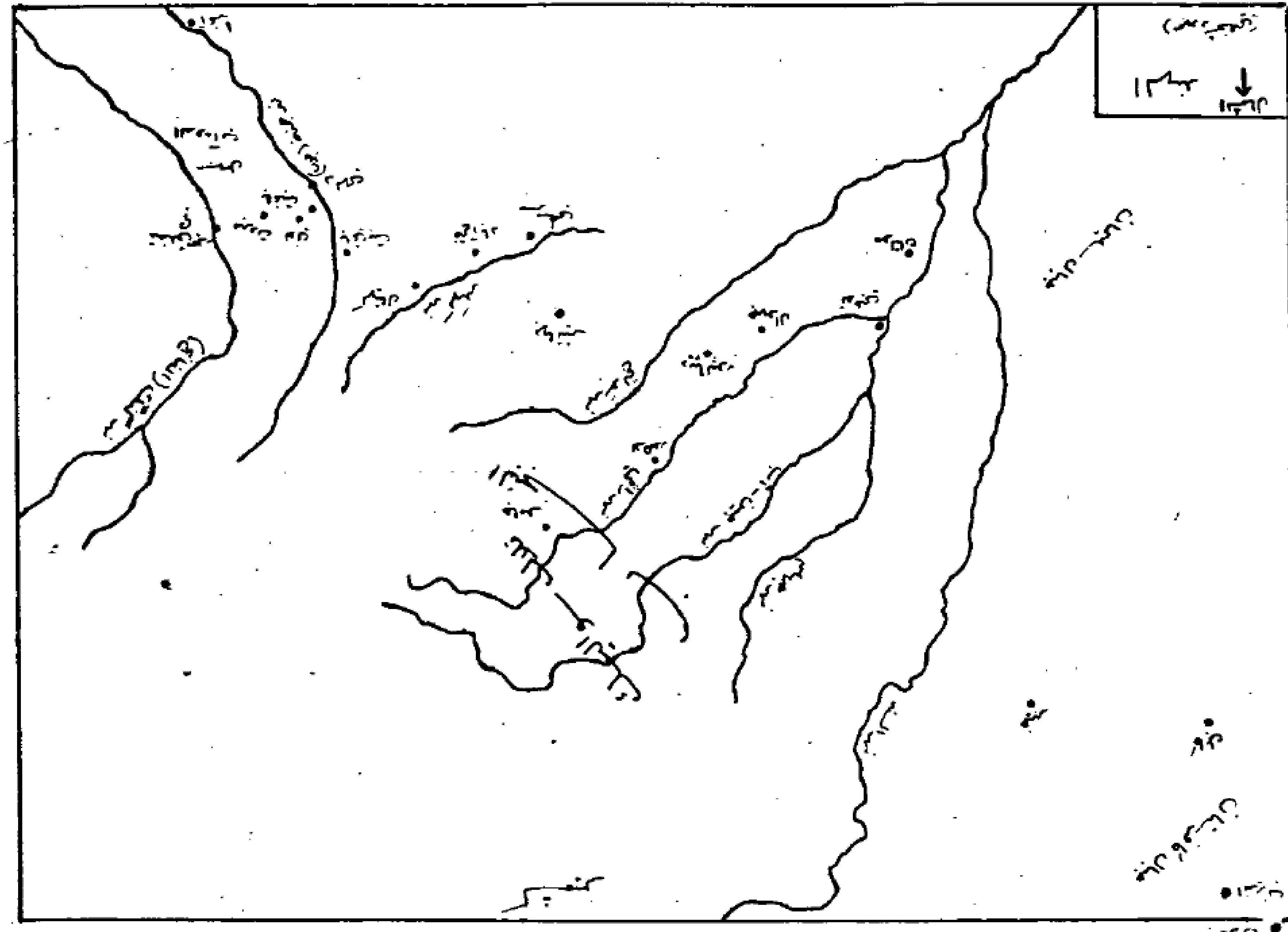
(١): Langlès: op. cit. P. 250 هذا وقد رفع القس الباڤاري شيلتبرجر عدد الجيش إلى ٤٠٠ ألف انظر: Terfer : op. cit. P. 25

(٢): شامي: ص١٧٢ـ١٧٣ ويزدي: ج٢ ص٢٠ـ٣٠ . (٣): يزدي: ج ٢ ص٥٩

(٤): الساداتي: ج ١ ص١٩٨ (٥): شامي: ص١٨١ ـ ١٨٣ ويزدي: ج ٢ ص٥٠ـ٦١

(٦): الساداتي: نفسه (٧): شامي: ص١٨٤ ويزدي: ج ٢ ص٦٤

(٨): الساداتي: ج ٢ ص١٨٨



المحيطة بحاضرة البلاد دلهي ، قبل الاغارة عليها ، ثم في قتال جماعات الجت (الزط) التي حول دلهي كانت تقيم في المنطقة نفسها حول دلهي . واتهم يزدي هؤلاء بأنهم مفسدون ، يغيرون على المسلمين ويتعرضون للمسافرين ، ويقطعون الطرق على التجار والحجاج . وانتدب لهذا العمل عدداً من قواده . ولما تمّ لهم القضاء على هؤلاء ، وافوا الفاتح التركي إلى قرية "كتيل" (اكهيتال الحالية Khaital) في شمال غرب دلهي ، حيث قام تيمور بإعادة تنظيم قواته من جديد ، لمتابعة القتال ولاحتلال بقية المواقع المحيطة بالعاصمة ، والتي كانت غالبية السكان فيها من المجوس الذين يعتنقون ـ كما يقول يزدي ـ بالثنوية .(١) فتقدم على الطريق إلى دلهي إلى موقع "باني بت" الذى قال عنه "مارغا Margat " إنه كان مكاناً مقدساً عند الهنادكسة ، يحجون إليه ويقوم فيه عدد كبير من المعابد .(٢) وكان سكان المدينة قد بارحوها ، خوفاً من القوات الغازية التي نجحت في احتلالها . وحلّ الفاتح التركي في إحدى منشآتها العمرانية التي أقامها السلطان فيروز شاه ، وهي قصر "جهان نماي" (الدنيا الواضحة) . ثم عبر المغيرون نهر "جون" ـ (جمنة أو يمنة الحالي) رافد الغانج الذي كانت العاصمة دلهي تقع على ضفته ـ من نقطة شمالي المدينة . واستولى عن حصن "لوني" الذي كان يقع وسط سهل الـ "دوآب" (سهل النهرين) ، شمال شرق دلهي .(٣) واستسلم المسلمون من سكان الحصن للقوات المغيرة . وأما المجوس الذين كانوا جنداً في قوات الوزير المتسلط "ملوخان" ، فلم يقبل منهم إلّا الإسلام أو القتل ،(٤) (في ٢٩ ربيع الأول ٨٠١هـ/ العاشر من كانون الأول ١٣٩٨م) .

اتخذ تيمور من قلعة لوني مقراً جديداً لقيادته . وانصرف مع قواده يتدارسون خطط الإغارة على حاضرة البلاد دلهي ، التي أضحت القوات الغازية تحيط بها من الغرب والشمال . وتقرر القيام بحملة سريعة لجمع الأقوات والمؤن والأعلاف اللازمة والتي كانت ضرورية لتتمكن القوات الغازية من الاستمرار في أداء مهامها . وقام تيمور في الثالث من ربيع الثاني ٨٠١هـ (١٤ كانون الأول ١٣٩٨م) بحملة استطلاع مع سبعمائة من الفرسان . فعبروا نهر جمنة إلى ضفته الغربية للقيام بدراسة ميدانية وتحديد المكان المناسب للإغارة منه على العاصمة . ولما كان تيمور وقواته الصغيرة يستمتعون بمشاهدة روائع "جهان نماي" فاجأهم العدو بقوات كبيرة كانت تعد أربعة آلاف من الفرسان وألفاً من المشاة ومعهم سبعة وعشرون فيلاً . وتمكن تيمور من النجاة بالفرار والعودة إلى الضفة الثانية من النهر ، بينما تلاحقت قوات تيمورية من هنا وهناك ، وتمكنت من التصدي للقوة المغيرة . وعقد تيمور على إثر ذلك مجلساً حربياً (قوريلتاي) ، تمّ فيه استعراض الخطط النهائية لاحتلال العاصمة ، وتحديد مهمة كل قسم من أقسام الجيش خلال سير المعركة.(٥)

وبلغت مسامع تيمور في هذه الأثناء أنباء فرح الأسرى الهنادكة الذين كانوا يسيرون المذبحة

---

(١) : يزدي : ج ٢ص ٦٢ـ ٦٧ ، وأضاف يزدي فقال عن هؤلاء الثنوية غير الموحدين إنهم يعتقدون بأن الحوادث والكائنات ترجع إلى مبدأين هما : النور والظلمة اللذين يمثلهما "يزدان" و "اهرمن" .

(٢) : Margat: op.cit. Part II P. 111

(٣) : Grousset: op. cit. P. 524 ، الذي حدد موقع لوني بأنه يقع بين الشمال والشمال الشرقي من العاصمة دلهي .

(٤) : يزدي: ج ٢ص ٦٨ـ ٦٩

(٥) : يزدي : ج ٢ص ٧٠ـ ٧٢ و شامي : ص ١٨٩

في ركاب القوات الغازية ، بسبب الكمين الذى تعرض له تيمور في جهان نماي ويقدر يزدي عدد هؤلاء الأسرى بمائة ألف . وخشي الفاتح التركي أن يقوم هؤلاء الأسرى بإرباك مؤخرة قواتــه خلال الاشتباك المقبل مع الاعداء ، ولذلك أصدر أوامره بقتل الذكور ممن تجاوز الخامسة عشرة من العمر من هؤلاء . وهدد من يخالف هذه الأوامر ، أو يتهاون بتنفيذها ، بالقتل مع زوجته وأولاده . ولذلك اضطر من كان تحت تصرفه عدد من هؤلاء العبيد الأسرى لقتلهم ، وكان بين هؤلاء المشرفين على الأسرى — كما يقول يزدي — من رجال الدين ممن لم يذبح خروفاً فــي حياته ، ولكنه كان مضطراً لقتل أسراه حفاظا على حياته وحياة أسرته . ويعلق بعض الباحثيــن على هذه المذبحة بأنه لم يكن لها مثيل في التاريخ ، وقد تمت في وقت قصير جداً لا يتجاوز الساعة الواحدة .(١) ولكن يزدي الذى يقدر عدد ضحايا هذه المذبحة بمائة ألف يرى في هذا العمل نوع من الجهاد ضد هؤلاء الهنادكة الكفرة ،(٢) وأن تيمور ضمن بهذا العمل — كإجراء عسكري — احتلال العاصمة .(٣)

معركة دلهي

وكان تيمور يقود قوات القلب في جيشه صباح السابع من ربيع الثاني ٨٠١هـ (١٨ كانون الاول ١٣٩٨م) ، استعداداً لخوض المعركة الفاصلة لاحتلال دلهي ، بينما كان يقود الجناحين حفيداه بير محمد وسلطان حسين . وبرز جيش دلهي يقوده السلطان الصغير محمود خان ومعه الوزير ملوخان ، وكان يعد أربعين ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة ، ومائة وخمسة وعشرين فيلاً مدربين على القتال . ولما بدأ القتال استطاعت قوات الجناحين أن تشتت شمل القوات المعادية المقابلة لها ، في الوقت الذى كان فيه القلب يعاني من ضغط قوات الأعداء لاعتمادها علــى الفيلة . واستطاعت إحدى الفرق التيمورية في القلب أن تفاجيء الأعداء وتقتل منهم ٦٠٠ جندي. كما استطاع الفرسان الأتراك اقتناص بعض الأفيال ، فوقعت جريحة على الأرض ، في الوقت الــذي لاذ فيه البعض الآخر منها بالفرار هائماً على وجهه . ويقول يزدي إنه لما انتهى القتال كانت أشلاء الفيلة وخراطيمها مبعثرة في أرض المعركة مع أجسام القتلى من الأعداء ورؤوسهم . واضطر السلطان ووزيره إلى الفرار إلى داخل المدينة . ولم يلبثا أن افترقا ، وركن كل منهما إلى الفرار إلى خارج دلهي ، عبر اثنين من أبواب المدينة . واستطاعت القوات التي أرسلها تيمور في إثــر الهاربين ، أن تأسر اثنين من أبناء الوزير ، في الوقت الذى أطبقت فيه قوات أخرى على المدينــة ، لمنع أي محاولة أخرى للهرب منها .(٤) ويصر أحد المصادر الهندية على القول إن فرار قوات دلهي كان بعد قتال ضار أظهرت فيه هذه القوات شجاعة فائقة .(٥)

ويورد مؤرخو الشام ومصر تفصيلات أخرى عن المعركة ، ويتحدثون عن الطريقة الــتي استطاع تيمور بها أن يتفادى خطر الفيلة الموجودة في جيش دلهي . ويقول هؤلاء إنه على الرغم من الأجراس الكبيرة التي علّقت في أعناق الفيلة ، والتي كانت تصدر منها أصوات مزعجة ، ومــن

---

(١) : Langlès: Vie de Timour P. 74, Prawdin: op. cit. P. 235
أما مارغا فقد جعل مدتها ثلاث ساعات انظر : Margat: op. cit. II P. 116.

(٢) : يزدي : ج ٢ص ٧٢ (٣) : يزدي : ج ٢ص ٧٣ وشامي : ص ١٨٩

(٤) : يزدي ج ٢ص ٧٢ — ٩٠ (٥) : Prawdin: op. cit. P. 347,349.

أبراج القتال التي ركبت على ظهور هذه الحيوانات التي كانت تحمل السيوف في خراطيمها ، فقد أمر تيمور أن تنثر آلاف من القطع المعدنية الحادة التي يدعوها ابن عربشاه " الشوكات المثلثة " في الطريق التي ستغير منها الأفيال المقاتلة، وتظاهر الفرسان التيموريون بالهزيمة بسبب خوف الخيول من الأفيال التي اضطر بعضها إلى أن يبرك على الأرض، من الألم عندما داست بأقدامها على هذه القطع الحادة . ولما رأى البعض الآخر من هذه الحيوانات ما حلّ برفيقاتها، هاج وعاد من حيث أتى . وتدفقت دماء الفيلة في أرض المعركة كالأنهار . وكان المغيرون قد هيأوا أعداداً من الإبل ، حملوا على ظهورها فتائل من القطن المغموس بالدهن. فلما هاجت الفيلة عائدةً إلى صفوف الأعداء ، أشعل الجند التيموريون النار في الفتائل ثم نخزوا الإبل في أدبارها ، فانطلقت تطلق أصواتاً هائلة من ألم الاحتراق ، نحو الفيلة الهائجة ، مما زاد في خوفها وهياجها . وخرج في هذه الأثناء كمين من القوات التيمورية من جانبي ساحة المعركة ، ليقضي على ما تبقى من جيش الهند . ولاذ بعدها سلطان دلهي ووزيره بالفرار[1]. ولم تجد الأسلحة الجديدة التي استخدمها جيش دلهي، كالسهام التي تنفجر عندما تلامس الأرض ، ولا قدور النفط المشتعل ، ولم تَحُلْ دون هزيمته .[2]

دخول المدينة

ورفعت الأعلام التيمورية على أسوار دلهي في اليوم التالي للمعركة (٨ ربيع الثاني / ١٩ كانون الاول) ، ووقف تحت هذه الأعلام وجهاء المدينة وعلماؤها والقضاة والسادات وأعضاء الديوان لاستقبال الفاتح التركي والتماس الرحمة والأمان . فأجيب الجميع إلى طلبهم . ودخل تيمور حاضرة الهند في (٩ ربيع الثاني / ٢٠ كانون الاول) ، وكان يوم جمعة . وصلّى في المسجد الكبير ، واستمع إلى الخطبة التي دعى فيها الخطيب للفاتح التركي ، بالألقاب التي كانت تعرف له " صاحب القران ملك الأقاليم السبعة ذو الاسم المبارك " وشبهه الخطيب بالاسكندر ، وقال إن الله قد استخلفه في الأرض لأن أخبار غزواته قد انتشرت في أكناف الدنيا براً وبحراً .[3]

وكانت أول أعمال تيمور في دلهي، فرض أموال الأمان على السكان ، لقاء المحافظة على أرواحهم وأموالهم . وبدأ المحصلون جمع الأموال على الفور . وأقيم بعد ذلك احتفال كبير ابتهاجاً بالنصر ، جلس فيه تيمور بشكل رسمي على عرش سلاطين الهند. وقامت الفيلة بهذه المناسبة باستعراض أداء التحية أمامه . ثم إقيمت موائد الطعام وحفلات الغناء. وكان تيمور خلالها يطوف بنفسه ليتفقد أحوال أمرائه وقواده وأحفاده ، ويسعى لإدخال السرور على قلوبهم ، بعد ما عانوه من مشاق السفر وعناء الحرب .

المذبحة الثانية

وظهر أن الحياة في العاصمة الهندية أخذت تعود إلى مسارها الطبيعي ، تحت إشراف حكامها الجدد . ولكن وقوع مجموعة من الحوادث بشكل مترافق بعد أسبوع من احتلال المدينة ، (١٦ ربيع الثاني / ٢٧ كانون الأول) أدى إلى انفجار الموقف من جديد . فقد تصادف القيام بأعمال لجمع أموال الأمان مع جمع المؤن اللازمة للجيش ، وفي الوقت نفسه ، فقد دخلت دلهي فرقة من القوات المغيرة كانت تعسكر في الخارج ، وأخذت بنهب بضائع التجار

(١) : ابن عربشاه : ص٦٨ — ٧١ والعسقلاني : ج ٢ص٤٧ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص٢٦٢ — ٢٦٤ (٢) : Prawdin : ibid (٣) : شامي : ص١٩١—١٩٢ ويزدي: ج ٢ص٩١ — ٩٢

ومعروضاتهم . واشتبك الجند في قتال عنيف مع أصحاب البضائع ، وزاد في تفاقم حالة الفوضى دخول عدد كبير من الهنادكة إلى المدينة وقيامهم بأعمال الشغب والمعارضة . واتفق وقوع كل ذلك مع رغبة عدد من نساء تيمور ، بالنزول إلى المدينة والقيام بجولة فيها للتعرف على معالمها . ولذلك فقد أصدر الفاتح التركي أوامره بمنع الجند من القيام بأعمال السلب والنهب، وبإلقاء القبض على المشاغبين من الهنادكة . واضطرت السلطات التيمورية إلى إغلاق أبواب المدينة للسيطرة على الموقف ومنع تدفق المزيد من الجند من الخارج . فما كان من الهنادكة إلا أن قاموا إلى زوجاتهم وأولادهم فقتلوهم بأيديهم ، خوفاً من الوقوع في أسر القوات الغازية . وشعرت السلطات التيمورية أن عمل الهنادكة ينطوي — حسب تعبير المصادر التيمورية — على قلة أدب وتحد للسلطة ، مما دفع خمسة عشر ألفاً من غوغاء الجند — كما يقول يزدي — الموجودين داخل المدينة ، للإغارة على أحياء العاصمة خلال ليلة ١٧ ربيع الثاني / ٢٨ كانون الأول ، بحجة الانتقام من أعمال الهنادكة الكفار . وارتكب الجند في هذه الغارات من أعمال القتل والسرقة والإحراق ، ما يوحي بأن زمام الأمر قد خرج من أيدي الأمراء والقواد إلى أيدي هؤلاء الغوغاء من الجند . ولم يعد ينفع سكان دلهي للخلاص من القتل التجاؤهم إلى المساجد . فقد لاحقهم الغزاة إلى داخل هذه المساجد، محتجين بأن المحتمين بها هم من الهنادكة الكفار.(١) واتضح من الأعمال التي ارتكبها المغيرون في دلهي ، أنه قد اضحى من الصعب على السلطات التيمورية ، أن تكبح جماح جندها عند وصولهم إلى هذه المدينة الغنية ، بعد أن قطعوا الجبال العالية والصحارى القاحلة، منذ خروجهم من ماوراء النهر .(٢)

وبعد أن أقيمت الأبراج من رؤوس القتلى ، استعرضت السلطات التيمورية من بقي على قيد الحياة من سكان المدينة ، ونقلت أعداداً منهم من أرباب الصناعات والفنون إلى سمرقند . وكثرت الغنائم في أيدي الجند من الذهب والجواهر والأقمشة والأسرى من الرجال والنساء والأطفال . ويقول يزدي إن الجندي الواحد من القوات المغيرة ، كان يجر أحياناً مائة وخمسين من الأسرى المكبلين بالقيود ، في الوقت الذي كان فيه أصغر جندي في هذه القوات يقود عشرين أسيراً .(٣) ويصف أحد المصادر الهندية ماحدث في دلهي بأنه من أكبر حوادث التاريخ الفاجعة والدامية (٤). كما تقدر بعض الابحاث الحديثة عدد ضحايا المذبحة في تلك الليلة بمائة ألف إنسان .(٥)

وصمم تيمور على الانسحاب من دلهي بعد خمسة عشر يوماً من احتلالها ، في ٢٢ ربيع الثاني / ٢ كانون الثاني ١٣٩٩م ، وربما كانت الحال المحزنة التي وصلت إليها المدينة وانتشار الخراب والقتل في مختلف أنحائها ، سبباً في سرعة انسحاب القوات الغازية. وبعد أن توقف تيمور خارج دلهي برهة قصيرة ، عبر نهر جمنة إلى ضفته الشرقية لمتابعة القتال في هذه الناحية . فاستولى على مدينة " باغبت " (وهي لاتزال بالاسم نفسه إلى اليوم) . ثم عبر سهل " الدوآب " يريد الوصول إلى نهر " گنگ " (الغانج) ، ولكنه سمع بتحصن عدد من الهنادكة والمسلمين الهنود

التقدم إلى ضفاف الغانج

(١) : شامي : ١٩٢ — ١٩٣ ويزدي : ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥ (٢) : Prawdin: op. cit. P. 237

(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٩٥ (٤) Prawdin: op. cit. P. 349 (٥) : الساداتي : ج ٢ ص ٢٠٣

في قلعة "ميروت" (Meerut إلى اليوم) المنيعة، الواقعة في منتصف المسافة بين نهري جمنة والغانج. وكان الخان الجغتائي ترماشيرين قد عجز أمام أسوار هذه القلعة عند الاغارة عليها عندما غزا الهند عام ٧٢٠هـ (١٣٢٠م). ولكن القوات التي أرسلها تيمور لاحتلالها، تمكنت من ذلك في يوم واحد، في الأول من جمادى الأولى (١٠ كانون الثاني ١٣٩٩م) (١). وتابع الفاتح التركي تقدمه شرقاً حتى بلغ "تغلق بور" على ضفة الغانج. واضطر للتوقف للاستراحة لمرض ألمّ به، في الوقت الذي تابع فيه قواده ملاحقة الهنادكة. ولما استرد تيمور عافيته تابع القتال حتى أنه اضطر أن يخوض في يوم ٤ جمادى الأولى / ١٣ كانون الثاني ثلاث معارك. وعبر تيمور الغانج إلى ضفته الشرقية. وكانت هذه آخر نقطة بلغها في توغله في هذه البلاد نحو الشرق، حيث أدى صلاة الظهر وبدأ من هناك رحلة العودة إلى الوطن. (٢)

وكان الدافع لتيمور لأن يوقف تقدمه في هذه البلاد، هو شعوره بأنه قد حقق غايته من الحروب التي جاء من أجلها إلى الهند. (٣) فقد احتل عاصمة البلاد، وأنزل ضربة قاصمة في طريق العودة بحكامها، وقاتل الهنادكة ولاحقهم حتى ضفاف نهر الغانج، فأدى بذلك - كما يقول يزدي - فريضة الجهاد. وسمع من ناحية ثانية، أن بعض الهنادكة أخذوا يتجمعون في تلال "سواليك" (٤) في سفوح هيمالايا في منطقة البنجاب العليا. (٥) ويعملون على تنظيم قواتهم استعداداً لمتابعة القتال. (٦) وقد يترتب على ذلك قطع طريق العودة على تيمور وقواته.

كان سير القوات التيمورية بطيئاً وهي تتحرك على طريق العودة إلى ماوراء النهر، بسبب ماكانت تحمله هذه القوات أو تجره من الغنائم. وكان الجند لا يستطيعون أن يقطعوا في اليوم الواحد أكثر من أربعة "كروه". (٧) ويصور أحد الباحثين في الوقت الحاضر خروج القوات التيمورية من الهند، مع من كان يرافقها من الأسرى من الرجال والنساء والأطفال الهنود، على أنه هجرة شعب كامل، (٨) ترافقه قطعان الماشية والأفيال وقوافل العربات.

قضى تيمور شهراً كاملاً يخترق شعاب جبال سواليك، وهو يلاحق الهنادكة ويقتحم معاقلهم، الواحد تلو الآخر في هذه الجبال. ويبرر تيمور هذه الموجة الجديدة من هذه الحروب، بأن حكام هذه القلاع قد امتنعوا عن دفع الجزية التي كانوا يدفعونها لسلاطين الهند. وبما أن حكم الشرع - كما يرى يزدي - هو هدر دم من يتخلف عن دفع هذه الضريبة، ولذلك فإن قتال هؤلاء كان أيضاً ضرباً من الجهاد، بالإضافة إلى ضرورة معاقبة حكام هذه القلاع

(١): شامي: ص١٩٤-١٩٥ ويزدي: ج ٢ص٩٩-١٠١ (٢): شامي: ص١٩٦ ويزدي: ج ٢ص ١٠٢-١٠٣ و١١٢ (٣): Grousset: op. cit. P. 525

(٤): شامي: ص١٩٦ ويزدي: ج ٢ص١١٢-١١٧ (٥): Grousset: op. cit.P.526

(٦): يزدي: ج ٢ص١١٢-١١٧ (٧): يزدي: ج ٢ص١١٦ والـ "كروه" هو وحدة قياس قدّرها يزدي بثلث الفرسخ (انظر يزدي: ج ٢ص٥٥) وكان ستيوارت قد قدر الفرسخ بأنه يساوي ثلاثة أميال (انظر Stewart : P. 14) أي مايعادل ٦ كم تقريباً. ورأى برافدان أن الجيش التيموري كان يقطع يومياً ٧ كم فقط (انظر Prawdin : p. 238)

(٨): Prawdin : ibid

بسبب إعتداءاتهم على السكان المسلمين القاطنين في مناطقهم .[١] وكان أهم هذه القلاع حصن "جامو"، (والمكان يحمل الاسم نفسه في الوقت الحاضر)، في حوض نهر "جيناب" الأعلى. واضطر حاكم كشمير المسلم "شاه اسكندر" أن يوفد للفاتح التركي وهو يمر بجوار المناطق الخاضعة لحكمه، وفداً يعلن له الولاء والإذعان . وحمل الوفد معه الهدايا ورسالة تعلن أن حاكم كشمير هو ممتثل لأوامر الفاتح التركي، ويلتمس منه أن يكون مشمولاً بعطفه .[٢] وانتقم تيمور من حاكم لاهور "شيخ كوكر". وقد سبق لهذا الحاكم أن أعلن ولاءه للحكم التيموري، ودفع ما فرض عليه من أموال الأمان، واستجاب تيمور لتوسلاته وعفى عن أتباعه من الهنادكة . ولكن شيخ كوكر لم يلبث أن بدرت منه مظاهر المخالفة، وتعرضت قواته لبعض المسافرين القادمين من ماوراء النهر، ولذلك فقد قرر تيمور معاقبته على أعماله . فأرسل إليه بعض قواده جاؤوا به أسيراً، ففرضت عليه العبودية[٣] طيلة حياته .

وتابع تيمور وقواته رحلة العودة فعبر نهر جين آب . وكانت قد بلغته وهو في ضواحي حصن جامو أخبار جعلته يوقف ملاحقاته للهنادكة في تلال سواليك، وأن يغز السير للعودة إلى ماوراء النهر. فقد بلغته أنباء انحراف صحة ميرانشاه انحرافاً خطيراً، وأن تهديدات جديدة أخذت تظهر من جديد من ناحية القبجاق ومن السلطان العثماني بايزيد الأول ومن سلطنة المماليك.[٤] ولذلك وعلى الرغم من أن تيمور لم يعين حاكماً من قبله على دلهي، فقد أصدر أوامره الآن، من ضواحي حصن جامو بتعيين "خضر خان" حاكم ملتان السابق حاكماً على لاهور وملتان. وكان خضر خان أحد معارضي الوزير المتسلط ملّو خان وشقيقه سارنك خان الذي كان قد اغتصب من خضر خان حكم ملتان وأودعه السجن .[٥]

وعبر تيمور السند في الثاني من رجب عام ٨٠١ هـ (١١ آذار ١٣٩٩م) . ومر في طريقه على كابل وباقلان. وعبر جيحون من ترمذ . واستراح مدة قصيرة في قصره آق سراي في كيش (شهري سبز) . ثم دخل سمرقند في ٢١ شعبان من ذلك العام (٨٠١هـ/ ٢٩ نيسان ١٣٩٩م) .[٦] وكان الأسرى الذين جيء بهم من الهند من كثرة العدد، ما جعل أسعار العبيد في أسواق العاصمة تنخفض انخفاضا شديداً . وأمر تيمور بإرسال بعض الأفيال إلى عدد من مدن إيران وماوراء النهر.[٧] وأما أرباب الحرف والفنون فقد ساهموا ببناء عدد من المساجد والقصور التي شيدت في تلك الآونة .[٨]

(١) : يزدي: ج ٢ص ١٢٠ـ١٢١ وكان يزدي في مكان آخر قد تحدث بالتفصيل عن معتقدات الهنادكة (الهنود غير المسلمين) وطقوسهم. فذكر أن هؤلاء الضالين يأتون إلى موضع يقع على نهر كنك (الغانج)، في سفح أحد التلال ـ وهو صخرة على شكل رأس ثور تنبجس منها المياه. في وقت معين من كل عام ـ ويأتي الهنادكة إلى هذا المكان ـ من كافة أنحاء الهند ويحمل هؤلاء رماد أمواتهم بعد إحراقهم، وينثرونها في ماء النهر . ويعتقدون أن هذا العمل يسبب نجاة هؤلاء الأموات من العذاب . ويقدم الناس عباداتهم إلى إله يدعى "ميترا". والقدوم إلى ضفاف الغانج هو بمثابة الحج عند المسلمين . وصرح يزدي أنه استقى هذه المعلومات من كتاب "يميني" لمؤلفه أبي النصر العتبي (انظر يزدي: ج ٢ص ١١٠ـ١١١). أما ابو النصر العتبي المتوفى عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م، فهو مؤرخ من خراسان عاش في كنف الحكام الغزنويين غزاة الهند السابقين. (٢) : يزدي: ج ٢ص ١٢٢ـ١٢٣ (٣) : يزدي: ج ٢ص ١٢٦ـ١٢٨

(٤) : يزدي: ج ٢ص ١٢٨ (٥) : يزدي: ج ٢ص ١٣٠ (٦) : يزدي: ج ٢ص ١٣٩ـ١٤٢

(٧) : العسقلاني: ج ٢ص ٣٧ ويزدي: ج ٢ص ٩٢ (٨) : يزدي: ج ٢ص ٩٦

هذا وكانت حملة تيمور الهندية من الأعمال العسكرية البارزة في تاريخ الفاتح التركي، وقد أثارت اهتمام المؤرخين المعاصرين في الشام ومصر إليها ، على الرغم من بعد المسافتين ميدان هذه الحروب وبين بلادهم . فقال العسقلاني يصور هول هذه الحملة «إن رجيف جيوش تيمور الزاحفة على الهند قد بلغ اليمن».[1] وتعكس بعض المصادر الهندية عنف الغزوة التيمورية وأثرها على تطور تاريخ الهند في الحقبة اللاحقة ، وتقول إن البلاد أضحت ممزقة وحكومتها المركزية مشلولة السلطة ، وعمّ البلاد الفقر والخراب والمرض ، وكانت فاتحة لسلسلة من المغامرات العسكرية والاضطرابات السياسية[2] . لحقبة طويلة ، على يد بعض حكام الأقاليم الهندية .

أهمية الحملة

وعلى الرغم من دوافع الجهاد التي ادعاها تيمور لتبرير غزو الهند ، فقد اتضح مما قام به من أعمال النهب والتدمير والمذابح ، في المناطق التي مرت بها قواته ، هذه الأعمال التي بلغت ذروتها في دلهي ، أن المسلمين الهنود قد تعرضوا للتنكيل على قدم المساواة مع الهنود غير المسلمين . وكان من نتيجة أعمال تيمور في الهند أن أنزلت ضربة قاصمة من الخلف لأحد الثغور الإسلامية الأمامية التي كانت تناضل ضد الوثنية في هذه البلاد .[3] لقد جاء تيمور وقاتل حكام الهند المسلمين الذين كانوا على درجة أعلى في الإسلام منه نفسه . وكان الهنود المسلمون الذين أجرى فيهم الفاتح التركي مذابحه ، أفضل إسلاماً من جند تيمور الذين قاتلوهم بحجة هدايتهم إلى الإسلام . واتضح أن هؤلاء فضلوا التخريب ونهب كنوز المعابد الهندية على مهمة الدعوة إلى الإسلام .[4] وفي الوقت الذي يلتمس فيه بعض الباحثين العذر لتيمور للمذابح التي ارتكبها جنده في دلهي ، ويبررون هذه الأعمال مع إقرارهم بهولها بالضرورات العسكرية ، ويشبهون مذبحة دلهي بما ارتكبه نابليون بونابرت في يافا عام ١٧٩٩م ،[5] فإن البعض الآخر من الباحثين يرون في نسبة يزدي للأعمال التي ارتكبها تيمور في دلهي وغيرها من مدن الهند إلى القضاء والقدر ،[6] على أنه شعور الخجل الذي أحسّ به فأشفق على نفسه من أن يتحمل مسؤولية هذه الأعمال أمام التاريخ .[7]

النتائج

ومهما يكن من أمر ، فإن تيمور — كالعادة — وعلى الرغم من تعيينه حاكماً على ملتان ولاهور من قبله، فإنه لم يحتفظ بنتائج انتصاراته في الهند[8] . فقد غادر دلهي وهي خراب، وقد هلك معظم سكانها ، وكانت المجاعات والأوبئة تفتك بمن بقي على قيد الحياة . ولما لم يعين تيمور على العاصمة حاكماً ، فقد استرجع ملوخان وسلطانه المستضعف محمود خان آل تغلق السلطة ، في وقت كانت الفوضى والاضطرابات تعم الأقاليم التي اجتاحتها جحافل الغزاة .[9] وحافظ خضر خان نائب تيمور في ملتان على ولاء اسمي لتيمور ، استمر إلى عهد خلفائه ، ونجح فيما بعد عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م بالاستيلاء على دلهي نفسها ، حيث أسس فيها سلالة حاكمة جديدة .[10] وعلى الرغم من استمرار خضر خان في إجراء الخطبة وضرب النقود باسم الحكام

الهند بعد انسحاب الغزو

(١) : العسقلاني : ج ٢ص٩ ٠

(٢) : Prasad: op. cit. P. 352

(٣) : Grousset: op. cit. P. 526

(٤) : Cahun: op. cit. P. 956

(٥) : Sykes: op.cit. T. II P. 134

(٦) : يزدي : ج ٢ص١٦

(٧) : Prawdin: op. cit. P. 237

(٨) : Bouvat: op. cit. P. 53

(٩) : الساداتي : ج ١ص٢٠٦ و Grousset: ibid

(١٠) : Grousset: ibid

التيموريين ، وإرساله الأموال والهدايا إليهم ، فإن أبناء، وأحفاده من بعده لم يفلحوا في القضاء على حالة التجزئة والفوضى التى سيطرت على البلاد، منذ الاجتياح التيموري لها .(١)

ولم تظفر الهند بحكومة مركزية قوية ، إلا في عهد دولة " سلاطين المغول المسلمين " التي أسسها أحد احفاد الفاتح التركي — بابر — عام ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) .

(١) : الساداتي : ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣٤

الفصـــل الســادس

فـي اذربيجـان وبـــلاد الكرج والجولة الاولى مع العثمانيين

٨٠٢ـ٨٠٣هـ / ١٣٩٩ـ١٤٠٠م

ميزات الحروب العامة ــ مرض ميرانشاه والأسباب الأخرى ــ خروج تيمور الى اذربيجـان ــ اجتياح جورجيا الثالث ــ غارة رستم على بغداد ــ فرار أحمد وفرار يوسف الى حلب ــ لجوؤهما الى الاناضول ــ رفع الحصار عن بغداد ــ الدولة العثمانية ــ أسباب الاصطدام البعيدة ــ سياسة بايزيد مع حكام الامارات التركية ــ مراحل الصراع ــ القاضي برهان الدين في سيواس ــ تهديد طاهرتن ــ مطامع تيمور في املاك العثمانيين ــ الخوف من تحالف عثماني جلايري تركماني ــ بايزيد في نظر تيمور ــ تيمور في نظر بايزيد ــ شعور عدم الثقة المتبادل ــ العلاقات في نظر المصادر التركية والفارسية والاوربية ــ رسالة تيمور الأولـــى والرد عليها ــ اسباب الغارة على سيواس ــ اجتياح المدينة .

ميزات الحروب العامة

شملت أعمال تيمور العسكرية التي بدأت في مطلع ٨٠٢هـ (ايلول ١٣٩٩م) ، وامتدت الى عام ٨٠٧هـ (١٤٠٥م) كلا من اذربيجان وبلاد الكرج . وتم فيها أيضاً اكتساح بلاد الشام وغزو العراق مرة ثانية . وكان أهم مراحلها ذلك النصر الذى حققه الفاتح التركي على السلطان العثماني بايزيد الأول عام ٨٠٤هـ (١٤٠٢م) في أنقرة . وعلى الرغم من امتداد هـــذه الحروب على خمس سنوات ، فان يزدى يدعوها بـ "حروب السنوات السبع" (يورش هفت سالة) ، دون أن يبدى سببا لذلك [١]. ويعتقد بعض المؤرخين في الوقت الحاضر ، أن هذه الحـــروب كانت من ألمع أعمال الفاتح التركي [٢]. ولا ترجع أهمية حروب تيمور في هذه الحقبة الى طـــول مدتها ، واضطرار الفاتح التركي الى أن يتغيب عن عاصمته أطول مدة خلال حياتـــه ، بل لأن هذه الحروب كانت في هذه المرة ضد دولتين قويتين ، تختلف عن الدول البدوية والحكومات الصغيرة التي قاتلها تيمور في وسط آسية (مغولستان) وبلاد القيجاق وايـــران والعراق ، باستثناء الهند . وهاتان الدولتان هما الدولة العثمانية ودولة المماليك الحاكمة في مصر والشــــام .

مرض ميرانشاه والاسباب الاخرى

وكان تيمور عقب عودته من الحملة الهندية ، قد أمضى قبل أن يخرج في حملته الجديدة مدة أربعة أشهر ونصف تقريبا ، من ٢١ شعبان عام ٨٠١ـ٨ المحرم ٨٠٢هـ (٢٩ نيســـان ـ ١٠ أيلول ١٣٩٩م) ، في سمرقند بالاشراف على بناء أحد المساجد فيها . ويشـــير المؤرخون التيموريون الى أن السبب الباعث على خروج تيمور الى اذربيجان في ذلك التاريـخ هو سوء التصرف الذى بدر من ابنه ميرانشاه حاكم تبريز في ادارته لشؤون ولايته بعد سقوطه عن ظهر حصانه في أواخر عام ٧٩٨هـ (حوالي أيلول ١٣٩٦م) ، خلال حملة صيد كان يقوم بها غرب تبريز ، مما أدى الى اصابته بخلل في ذهنه ، فأخذت تصدر منه أقوال وأفعال تدل على انحرافه عن جادة الصواب ــ حسب تعبير هذه المصادر ــ فأخذ يبدد الأموال ويأمر بتخريب الأبنية وانغمس في حياة اللهو ويشرب الخمر واللعب بالنرد . ودفعه الهوس الى أن يتهـــم زوجته خان زاده (أرملة أخيه المتوفى محمد جهانگير في عنفوانها) مما اضطرها الى الهـــرب واللجوء الى سمرقند [٣].

(١) : يزدى : ج ٢ ص ١٥١ Toynbee: op. cit. V. IV P. 494 and Sykes: op. cit. T. II P. 129

(٢) : حافظ آبرو: ص ٤٧ ويزدى: ج ٢ ص ١٤٧ ـ ١٥١ (٣)

ويورد ابن عربشاه الذي لا يذكر شيئاً عن حالة ميرانشاه العقلية ، سبباً آخر لخروج تيمور إلى اذربيجان وإيران . ويزعم أن خلافاً صورياً أُدعي أنه وقع بين الفاتح التركي وابنه. فأرسل ميرانشاه بناء على طلب أبيه رسالة مطولة يتهمه فيها بالظلم ، ويطالبه بالتنحي عن الحكم لأولاده وأحفاده ، بسبب تقدمه بالسن وظهور عجزه . ويهدده بأنه سوف يسير إليه ليطيح به بالقوة .[(1)] ويعلل ابن عربشاه افتعال تيمور وميرانشاه هذا الخلاف الصوري برغبة الفاتح التركي في إيجاد مبرر لزحفه باتجاه الغرب ، لقتال العثمانيين والمماليك[(2)] دون أن يثير مخاوفهما ويدفعهما للتحالف والاستعداد للوقوف في وجهه .

ومهما يكن من أمر الحجة التي أوردها ابن عربشاه، فإن الأوضاع كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، في المناطق التي كان ميرانشاه يتولى إدارتها ، بسبب سوء تصرفه .[(3)] وقد حاول أحمد جلاير الذي استطاع العودة إلى حكم بغداد، أن يسترجع تبريز مستغلاً حالة الفوضى التي عمت المنطقة التي كان ميرانشاه يشرف عليها . فتقدم عام ٨٠٠هـ (١٣٩٨م) ، وكان تيمور لا يزال في الهند ، على رأس جيش تدعمه السلطات المملوكية في مصر لاستعادة المدينة . ولكنه لم يُوفق في المعركة التي دارت بجوارها ، واضطر إلى النكوص إلى بغداد، تلاحقه قوات ميرانشاه، إلى أن حاصرته هناك . واعتصم أحمد جلاير بأسوار المدينة . واعتمد على حرارة فصل الصيف لتجبر قوات أعدائه على الانسحاب ، في الوقت الذي كان فيه ميرانشاه يتوقع من أحمد جلاير أن يركن إلى الفرار ، كما فعل قبل خمس سنوات عندما أغار تيمور على المدينة لأول مرة .

وكان ابتعاد ميرانشاه عن تبريز مناسبة استغلتها العناصر المستاءة من سكان المدينة لتتحرك، مما اضطر ابن تيمور للرجوع عن بغداد بعد حصار دام يومين ، والعودة إلى تبريز ، حيث انتقم من المتمردين انتقاماً مراً . وكان من بين الضحايا أحد قضاة المدينة[(4)] . وقد حركت أعمال البطش التي قام بها ميرانشاه عواطف السكان، وزادت في النقمة العامة . وفر بعض من اشترك في حركة التمرد إلى بلاد الكرج القريبة . وكان هؤلاء (الكرج) يتحينون الفرصة المناسبة لإعلان العصيان . فاستغلوا سحب الحاميات التيمورية من بلادهم للاغارة على بغداد، فرفعوا لواء الثورة بقيادة ملكهم "جيورجي" الذي كان تيمور ، قد أجبر والده بقراط على

(1) : ابن عربشاه ص٧٢ و ٧٥ وقد أورد المؤرخ الدمشقي الرسالة بكاملها بأسلوبه المسجع ومما جاء فيها قوله : " فانظر إلى من نهى وأمر ثم مضى وغبر، ولا تكن ممن طغى وفجر وتولى وكفر. .. واقنع بهذا الخطاب واعط القوس باريها ، وتولى الله ورسوله والذين آمنوا وإلا، فإنت إذا [كذا] ممن تولى في الارض ليفسد فيها، فإني إذ ذاك أمشي إليك وأضرب على يديك، وأمنعك من السعي في الفساد .." انظر بقية الرسالة في ابن عربشاه ص٧٢ــ٧٥ .

(2) : ابن عربشاه : ص٧٢ (3) : نسبت إلى ميرانشاه عمليات هدم الأبنية لأنه لم يجد طريقة أفضل تخلد ذكره . وكان يشاهد وهو يرمي للناس قطع الذهب والفضة بملء يديه من شرفات قصره . انظر: Prawdin : op. cit. P. 24o

Grousset: op. cit. P. 539, Barthold: Ulugh Beg P. 34

(4) : حافظ آبرو: ص١٤٧ ويزدي: ج ٢ص ١٤٨ــ ١٤٩ والعسقلاني : ج ٢ص١٩ الذي ذكر أن ميرانشاه عاد من بغداد مهزوماً .

اعتناق الإسلام عند الاجتياح الأول لهذه البلاد عام ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) . وتحالف الكرج مع حاكم ولاية "شكي" التي تقع إلى الشرق من بلادهم، وهو "سيدي علي شكي". [1] وأغار فرسان الطرفين على حصن "النجق" المجاور لمدينة نخشيفان، حيث كان طاهر بن أحمد جلايـــر يحتمي فيه من القوات التيمورية التي كانت تحاصره. وكان طاهر قد تمكن من استرجاع الحصن من قوات ميرانشاه خلال غيبة تيمور في الهند. [2] واستطاع المغيرون من الكرج وخلفائهـــم إنقاذ طاهر من حصار القوات المعادية. وحاول ميرانشاه تدارك الأمر فأرسل ابنه "أبابكر" على رأس جيش قتل حاكم شكي. ولكنه استمر في الوقت نفسه منغمساً في حياة اللهو في تبريز. [3]

خروج تيمور إلى أذربيجان

واتضحت الأمور لتيمور عقب عودته من الهند، عندما وصلت إلى سمرقند خانزاده وأطلعته على واقع الحال في أذربيجان وبلاد الكرج، نتيجة سوء تصرف زوجها. وكان قد رافق الأميرة وفد كبير من الرجال والنساء، شهدوا لها أمام تيمور بسمو الخلق وبالعفاف. وأيدوا أقوالها فيما نسبته إلى ميرانشاه من أعمال. وأسرع تيمور لتلافي الوضع قبل تفاقمه، وأقام في سمرقنـــد حفيده محمد سلطان نائباً عنه، وبعث بإمدادات عسكرية إلى الشمال لدعم القوات المرابطـــة هناك، تحسباً من غارة يقوم بها الجتا. وغادر العاصمة في ٨ المحرم ٨٠٢هـ (١٠ ايلول ١٣٩٩م) وكان الوقت خريفاً . ولما عبر جيحون إلى خراسان أرسل إلى حفيده الآخر رستم بن عمر شيـخ حاكم شيراز، أن يتقدم إلى بغداد للانتقام من أحمد على غارته على تبريز ومنعه من مد يـد العون إلى الكرج ./وسار هو إلى الري حيث وافاه إلى جوارها ابنه شاه رخ على رأس قواتـــه قادماً من هيرات . وحاول ميرانشاه الذي وصل إلى معسكر أبيه مقابلته، ولكن تيمور لم يسمح له بذلك إلا في اليوم التالي . وركع الابن أمام والده على ركبتيه مستسلما لما سيصدر عليه مـن الحكم . وطلب تيمور من جماعة من الأمراء الانطلاق إلى تبريز، للتحقيق في الأعمال المنسوبة إلى ميرانشاه، وتقدير كمية الأموال التي تمّ تبديدها . ووجد المحققون أن السبب في ســوء التصرف الصادر عن الأمير يرجع إلى الحاشية المحيطة به، وكانت تضم عدداً من الشـــعراء والموسيقيين والمهرجين، فأمر تيمور بإعدامهم جميعاً . [4] ثم تقدم دون أن يمر بتبريز إلـى منتجع قراباغ. [5] ويقول ابن عربشاه إن انتقاء تيمور لهذا الموقع كان بسبب مركزه المتوسط بين بلاد الترك والروم والعرب [6]، استعداداً لتحقيق الأهداف الأصلية التي خرج من أجلهـا، وهي قتال العثمانيين والمماليك . وقد حملت له الأخبار إلى هذا المنتجع أحوال الـــدول المحيطة بدولته من الشرق والغرب، فعلم أن المنية وافت كل من خضر خواجا الخان الجغتائي في جغتاي الشرقية، والسلطان المملوكي برقوق، كما توفي امبراطور الصين وحاكم القبجـاق تغلق تيمور . وعلم أيضا أن الفتن والاختلافات تعم هذه الممالك . كما علم من ناحية أخـرى،

---

(١) : شكي (Shekki): ولاية تقع في سفوح جبال القوقاز الجنوبية غرب شروان وشمال نهر كر (كورا حالياً). كان يحكمها في تلك الآونة رجل من قبيلة "أولات" المغولية المشتركة (الجغتائية) هو، سيدي علي شكي. وكان مسلماً صالحاً تعاون مع الكرج ضد قـــوات تيمور . انظر : Minorsky: Shekki (E.I.T.IV P.358-360) P. 359

(٢) : يزدي: ج ٢ص ١٥١ (٣) : حافظ آبرو: ص ١٤٩ ويزدي: ج ٢ص ١٤٩ ـ ١٥١

(٤) : حافظ آبرو: ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ويزدي : ج ٢ص ١٥٥ ـ ١٥٧

(٥) : ابن عربشاه : ص ٧٥ (٦) : ابن عربشاه: ص ١٢٠

أن احفاده الذين أقامهم في انداكان لحماية البلاد من هجمات الجتا ، استطاعوا استغلال حالة الفوضى التي وقعت في جغتاي الشرقية إثر وفاة الخان ، فتقدموا في تلك البلاد حتى بلغوا خوتان وكشغر، وأسروا أرملة الخان الراحل وابنته . وتستنتج المصادر التيمورية من هذه الأخبار دليلاً على سعد الدولة التيمورية، وتقول إن هذه الحال كانت مبعث سرور للفاتح التركي[(١)]، لأنها تصور حالة دولية ملائمة لأن يستكمل تيمور مخططه التوسعي في الغرب بقلب مطمئن .

إجتياح جورجيا الثالث

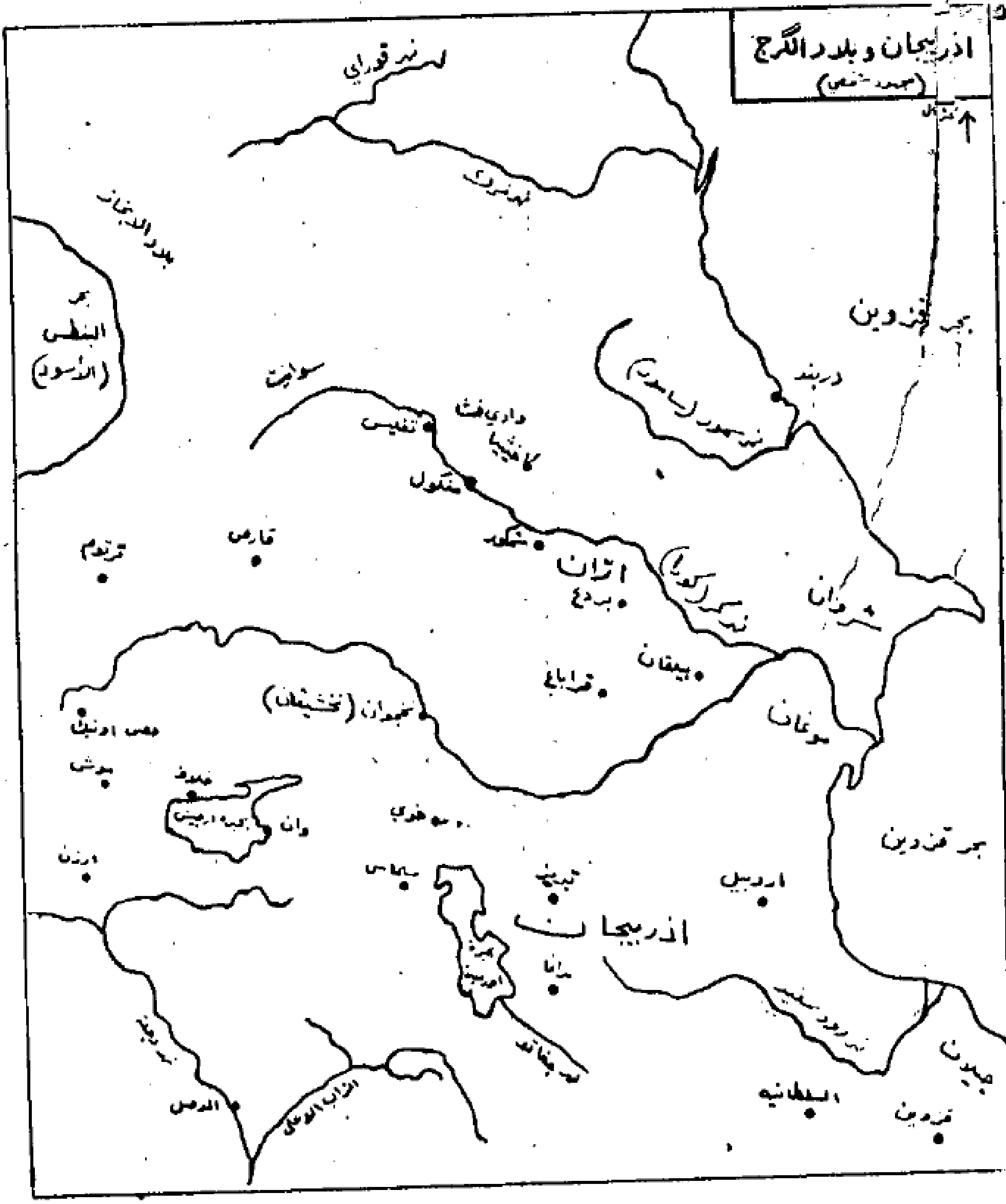
وكان أول مابدأ به هو بلاد الكرج . وكانت المبررات التي ادعاها للإغارة عليها متعددة ، يأتي في أولها الجهاد ضد الكفار والحصول على مزيد من الغنائم ، ثم الانتقام من الأعمال التي قام بها هؤلاء بالتعاون مع آل شكي .[(٢)] وكانت هذه البلاد كما أشارت المذكرات قد لفتت نظر الفاتح التركي منذ غارته الأولى عليها عام ٧٨٨هـ (١٣٨٧م) ، بكثرة غاباتها وصلاحها لحملات الصيد-إحدى هوايات تيمور المفضلة -.[(٣)] ونجح حاكم شروان الموالي لتيمور (الشيخ ابراهيم) في الحصول على عفو الفاتح التركي عن سيدى أحمد بن علي شكي ، الذى كان والده قد انضم إلى الثوار فكان مصيره القتل . أما الابن فقد انحاز مع قواته إلى تيمور في أوسع اجتياح لبلاد الكرج .

واستهل تيمور غارته الجديدة بالهجوم على وادي "خمشا" الخصيب الكثير الغابات ، والذى يقع إلى الشرق من العاصمة تفليس في الجزء الشمالي من مقاطعة "كاخيثيا Kakhithia" الحالية .[(٤)] وقد استغرقت الغارة شهراً كاملاً خلال شتاء عام ١٣٩٩م (٨٠٢هـ) ، تم فيها تخريب الوادى ووضع اليد على أعداد كبيرة من المواشي . ويستفاد من أقوال المؤرخين التيموريين ، إن تيمور قام بتوزيع الأراضي الزراعية في ذلك الوادي على أفراد الجيش ، أن الفاتح التركي كان ينوي ضم هذه المنطقة إلى دولته وإخضاعها إلى حكمه المباشر .[(٥)] وآب تيمور إلى منتجعه في قراباغ للاستراحة . ثم نهد في غزوة ثانية مع حلول فصل الربيع إلى العاصمة "تفليس". وقصد أن يعاقب "كرگين" (جيورجي) لحمايته ابن أحمد جلاير ، وبعد أن تلقى من الملك الكرجي رداً غير مقبول على طلبه بتسليم طاهر . وكانت النتيجة أن اجتياح تيمور تفليس واضطر جيورجي إلى الاعتصام بالجبال ، في الوقت الذي أقام فيه تيمور في العاصمة الكرجية فرقة من الفرسان الخراسانية . ولما استأنف الفاتح التركي ملاحقة الملك ، فرّ جيورجي مع ولد يحته شمالاً إلى بلاد "الأبخاز" على ساحل البحر الأسود الشمالي الشرقي ، حيث أرسل من هناك من أوصل طاهر إلى والده أحمد جلاير الذي كان في ذلك الوقت لاجئاً إلى السلطان العثماني بايزيد الأول . ونهب تيمور وهو يتعقب جيورجي منطقة "سوانيت" (سوانيثيا Swanethia الحالية) . ولكنه مال إلى مصالحة الملك الكرجي عندما علم بوصول طاهر إلى أبيه في بلاد الروم . وقبل اعتذار جيورجي وقفل عائداً إلى قراباغ ،[(٦)] وتعكس المصادر الأرمنية شعور الخوف عندما تتحدث عن الغزوات تيمور لبلاد الكرج . وتشير إلى أعمال القتل

(١) : شامي : ص٢١٢ — ٢١٣ ويزدى: ج ٢ص١٥٨ — ١٦٠ (٢) : حافظ آبرو: ص٥٣ اويزدي: ج ٢ص١٦٢ و ١٧٥ (٣) : Langlès: op. cit. P. 257

(٤) : Minorsky: Tiflis(E.I.T.IV P.P.791-802)P. 796

(٥) : شامي : ص٢١٥ ويزدي: ج ٢ص١٦٢ —١٦٣ (٦) : شامي: ص٢١٥ —٢١٧ ويزدي: ج ٢ص ١٧٠ — ١٨٠



اذربيجان وبلاد الكرج
(مجهود شخصي)
بحر قزوين
دربند
شروان
اران
بردع
شمكور
تفليس
بيلقان
موقان
نخجوان
قارص
خلاط
وان
موش
ارزن
سلماس
تبريز
اردبيل
اذربيجان
مراغة
الموصل
الزاب الاعلى
نهر دجلة
السلطانية
قزوين
بحر النطس (الأسود)

والتخريب التي ارتكبتها جيوشه في تلك البلاد . وتتكلم عن ذبح الأطفال أو قتلهم تحت حوافر الخيول . وتقول هذه المصادر إن إسم تيمور ظل مصدر خوف وهلع للسكان في بلاد الكرج وارمينيا حتى وفاته .(١)

وكانت القوات التي أمرها تيمور بالتوجه من شيراز إلى بغداد بقيادة حفيده رستم، قد قد بلغت موقع "مندلي" بجوار بغداد في جمادى الآخرة ٨٠٢هـ (كانون الثاني ١٤٠٠م) عن طريق تستر . ويقول العسقلاني إن من أسباب زحف الحملة التيمورية على بغداد في هذه المرة أيضاً مظالم السلطان أحمد ، ولذلك كاتب سكان بغداد رستم حاكم شيراز يستدعونه إليهم(٢) ولم تنجح القوة التي أرسلها أحمد لدفع رستم عن بغداد في المعركة التي دارت عند مندلي.

غارة رستم على بغداد

وكان حاكم بغداد قد تمكن في هذه الآونة من اكتشاف مؤامرة حاكها ضده تيمور ، الذي أوعز إلى أحد أتباعه ويدعى " شروان " ، بأن يتظاهر بأنه قد ترك جانب تيمور وانحاز إلى أحمد . ولكنه أخذ يعمل في السر على تأليب أتباع حاكم بغداد عليه، لقاء مبالغ من المال دفعها لهم. ووقعت قائمة بأسماء المرتشين وبالمبالغ التي استلموها من عميل تيمور (شروان) في يد أحد خدم السلطان أحمد. فقام على الفور بحملة تطهير واسعة بين أتباعه ، قتل فيها ألفين من قواده وأمرائه خلال أسبوع واحد ، كان شروان من بينهم . وكان من بين الضحايا أيضاً عدد من نساء البلاط من قريبات حاكم بغداد ، أبرزهن " وفا خاتون " مربية السلطان. وألقيت جثث القتلى في نهر دجلة . واستطاع أحمد أن يخترق حصار قوات رستم لبغداد سراً ، في زيارة سريعة إلى ديار بكر حيث اجتمع بقرا يوسف زعيم الغنمة السوداء ، ليطلب مساعدته لحماية بغداد. ومنحه كميات كبيرة من الأموال والأقمشة والأسلحة والخيول العربية، وتعهد أن يقدم له المزيد . واستجاب قرا يوسف لطلب حاكم بغداد . وتقدمت قواته حتى نزلت في طرف بغداد الغربي المطل على نهر دجلة . ولكن الأخبار التي وصلت في هذه الآونة للحليفين، تفيد بأن تيمور يعتزم السير الآن لغزو سيواس، وأن قسماً من القوات التيمورية قد اتجه نحو حدود بلاد الشام . وانتهت المشاورات التي دارت من جديد بين المتحالفين على ضوء هذه المعلومات الجديدة إلى الإقرار بعدم استطاعة قواتهما أن تصمد أمام القوات المغيرة . وقد فتّ في عضدهما أن ينجح تيمور بتقدمه نحو الغرب ، وأن يقطع عليهما طريق الفرار إلى بلاد الروم أو إلى الأراضي الواقعة تحت حكم سلطنة المماليك، مما يؤدي إلى حصرهما في أرض العراق(٣) ، ووقوعهما في الأسر.

ولذلك فقد أوكل أحمد جلاير أمر الدفاع عن بغداد لأحد معاونيه ويدعى " فرج " واتجه مع أسرته وأمواله إلى حلب. ورافقه في رحلة الفرار الثانية حليفه قرا يوسف . ولم يبد حاكم حلب المملوكي " تيمور تاش " ترحيباً بأحمد وحليفه ، ولم يسمح لهما بدخول المدينة . وأرسل يسأل إلى سلطات القاهرة عن الموقف الذي يجب أن يتخذه من سلطان بغداد وحليفه ، ويفهم من كلام العسقلاني الذي أورد هذه الأخبار أن جواب السلطان المملوكي الناصر فرج

فرار أحمد وقرا يوسف إلى حلب

(١) : Pasdermadjian: Histoire de L'Armenie P. 238-239
Morgan: histoire du Peuple Armenien P. 244-245

(٢) : العسقلاني : ج ٢ ص ١٠٩ (٣) : حافظ آبرو : ص ١٥٥ ويزدي : ج ٢ ص ١٦٨ - ١٦٩ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٠٩

كان غامضاً وغير محدد القصد، إذ أرسل إلى حاكم حلب يقول " بتفويض الامر إلى حسن رأيه ".[(١)] وعلى الرغم من أن الحرب التي دارت بين قوات حاكم حلب وبين قوات المتحالفين بظاهر المدينة، قد انتهت إلى هزيمة قوات المماليك ، فقد فضّل الهاربان متابعة السير إلى الأناضول للدخول في حماية السلطان العثماني بايزيد .[(٢)] ويعكس هذا التصرف عدم اطمئنان أحمد جلاير إلى جدارة دولة المماليك للوقوف في وجه تيمور ، بسبب ما كانت تعانيه في ذلك الوقت من مشاكل داخلية ، بعد وفاة السلطان برقوق وتولي ابنه فرج مقاليد الأمور . ولمّا بلغ الهاربان " ملطية " دبّ الخلاف بينهما . واعتقد أحمد أن قرا يوسف يعمل للغدر به ، فركن إلى الفرار باتجاه سيواس.

لجوءهما إلى الأناضول

ويظهر أن السلطان بايزيد كان على علم بما يجرى على الحدود الجنوبية الشرقية لدولته وما يليها في داخل ايران، من الرسائل التي كان يتبادلها مع قرا يوسف والسلطان أحمد . ويورد المؤلف التركي فريدون نص إحدى هذه الرسائل التى بعث بها قرا يوسف إلى السلطان العثماني وكانت محررة باللغة الفارسية ولكنها مغفلة التاريخ ، يعلم فيها حاكم الغنمة السوداء بايزيد بقدوم تيمور إلى إيران ، ويشكو له أعماله ويطلب مساعدة السلطان العثماني ضد " هذا المشرك الشرير ".[(٣)] وظهر في رد بايزيد ـ الذي كان يسعى لأن يقيم جبهة معادية لتيمور تضم حكام اذربيجان وفارس وديار بكر والعراق ـ مدى حرصه على تحقيق هذا الهدف وإلحاحه لإقامة مثل هذه الجبهة المتحدة .[(٤)] ومما لاشك فيه أن أخبار هذا الخلاف بين أحمد جلاير وقرا يوسف كانت ضد ما يرمي إليه السلطان العثماني . ولذلك فقد أرسل إلى المتخاصمين يلزمهما بالصلح. مما اضطر أحمد جلاير إلى التريث قبل أن يبلغ سيواس حتى أدركه قرا يوسف حيث تمت المصالحة . ثم أرسل إلى بايزيد يعلمه بما تمّ من عودة العلاقات إلى طبيعتها بينه وبين قرا يوسف . ويفهم من هذه الرسالة أن لجوء أحمد إلى الأناضول، إنما كان بناء على موافقة مسبقة من السلطان العثماني .[(٥)] ولما وصل اللاجئان إلى بلاط السلطان بايزيد في " برصة " (بروسا) ، أحسن استقبالهما ، وأقطع أحمد كوتاهية ، وأنعم على قرا يوسف بـ " آقسرا ".[(٦)] أما موقف السلطات المملوكية من هذه الأحداث ، فتعكسه إشارة ابن حجر العسقلاني إلى أن اخبار الهزيمة التي أنزلها عرب بادية الشام بالسلطان أحمد جلاير عقب انتصاره على حاكم حلب المملوكي تيمور تاش بظاهر المدينة ، كان موضع ارتياح سلطات القاهرة[(٧)] المملوكية .

أما رستم حفيد تيمور الذي كان يقف مع قواته أمام أسوار بغداد ، فقد اضطر لرفع الحصار والرجوع إلى فارس بعد تسعة وخمسين يوماً ،[(٨)] وذلك لورود أخبار التمرد الذى قاده شقيقه الكبير " بير محمد " بن عمر شيخ في شيراز ، وأيده فيه سكان المدينة المستاؤون من الحكم التيموري.

رفع الحصار عن بغداد

(١) : العسقلاني: ج ٢ص١٠٨ (٢) : حافظ آبرو: ص ٥٥ ويزدي: ج ٢ص ١٧٠ والعسقلاني: ج ٢ص١٤٨

(٣) : فريدون: ج ١ص١١٦ـ١١٧

(٤) : فريدون: ج ١ص١١٧ وقد أشار براون إلى كلا الرسالتين انظر: Browne: op.cit. T. III P. 204

(٥) : فريدون : ج ١ص ١٢٣

(٦) : حافظ آبرو: ص ١٥٥ـ١٥٦ والعسقلاني ج ٢ص١٤٨ (٧) : العسقلاني : ج ٢ص١٠٩

(٨) : ابن قاضي شهبة: الإعلام بتاريخ أهل الإسلام "مخطوط بمكتبة أسعد أفندي استامبول رقم ٢٣٤٥: ورقة ٢١١/ آ

"الادرياتيك" حتى هضبة ارمينية ، (١) التي كانت تفصل بين أملاكه وأملاك تيمور . وأرسل السلطان العثماني الذي أخذ يعرف بالسلطان بايزيد "يلدرم" (الصاعقة) ،لسرعته في التحرك والانقضاض إلى القاهرة منذ عام ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) ، يطالب الخليفة العباسي ، أن يمنحه لقب "سلطان الروم" ،كي يسبغ – كما قال ابن الشحنة – طابعاً شرعياً على أعماله،مما يزيد في هيبته في العالم الإسلامي . (٢) وأخذ يلدرم بايزيد يتدخل في شؤون الدولة البيزنطية الداخلية . (٣) وأخذ يستعد للاستيلاء على عاصمتها "القسطنطينية" ،فحاصرها سبع سنوات متواصلة بين ١٣٩٦–١٤٠٢م (٧٩٨–٨٠٤هـ) . (٤) وكان على وشك الاستيلاء عليها عندما ظهر تيمور على رأس قواته على حدود الدولة العثمانية (٥) الشرقية .

أسباب الاصطدام البعيدة

سياسة بايزيد مع حكام الامارات التركية

وتأتي أهم دواعي الاصطدام بين الفاتح التركي ويلدرم بايزيد ،من السياسة التي اتبعها كل منهما مع حكام الإمارات الصغيرة التي كانت قائمة بين أملاكهما . وكان بايزيد خلال صراعه مع بعض حكام هذه الإمارات قد اضطر عدداً منهم ممن اقتلعهم من إماراتهم لأنهم لم يشاؤوا الانضواء تحت سلطته ،إلى الفرار واللجوء إلى تيمور . وشكى هؤلاء أمرهم إلى الفاتح التركي، وحضوّه على التدخل لإعادتهم إلى إماراتهم . (٦) وقد ضم بلاط ماوراء النهر عدداً من هؤلاء اللاجئين السياسيين . (٧) وكانت أهم هذه الإمارات إمارة "آل قرمان" التركمان الذين كانوا يحكمون مدن "ارمناك" و "لارندة" و "قونية" و "آقسراي" (آقسرا) . وكانت هذه الإمارة أهم الإمارات التركية التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم في آسية الصغرى . ولم يكن يفوقها قوة إلا الدولة العثمانية . (٨) وعلى الرغم من أن مراد الأول والد بايزيد قد زوّج ابنته من "علاء الدين" حاكم الإمارة القرمانية ،فإن يلدرم بايزيد قتل زوج شقيقته (علاء الدين) عام ١٣٩١م (٧٩٣هـ) .وألقى بولديه "علي" و "محمد" في السجن . واضطر أحد أفراد الأسرة وهو "يعقوب بن علي شاه قرمان" إلى الفرار إلى تيمور . وظل الأخوان القرمانيان (محمد وعلي) في الاعتقال مدة اثنتي عشرة سنة،إلى أن أطلق تيمور سراحهما بعد معركة

(١) : ابن عربشاه: ص١٢١ الذي ذكر أن حدود الدولة العثمانية تمتد من البلقان إلى ازرنجان .
(٢) : ابن الشحنة : ص٢٠٧ . (٣) : H. Inalcik : ibid وقد أشار اينالسيك إلى أن السلطان العثماني قد نصب في عام ١٣٩١ الامبراطور يوحنا السابع أحد ابناء الامبراطور اندرونيك الرابع (١٣٧٦–١٣٧٩م) بعد أن عزل عن العرش شقيقه الامبراطور يوحنا الخامس بالبولوغ (١٣٩٠–١٣٩١م) . ولكنه لم يلبث أن رفع إلى العرش مانويل الثاني (١٣٩١–١٤٢٥م) ابن يوحنا الخامس المعزول،وأخذ في الوقت نفسه يدعم مطالب طامع آخر بالعرش هو يوحنا الثامن بن يوحنا السابع انظر أيضاً : Le Strange : op. cit. Introd. P. 3
(٤) : Sykes : op. cit. T. P. 129 and (٥) Le Strange : ibid
(٦) : القرماني (أحمد بن يوسف) : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ.بغداد ١٢٨٢هـ ص ٣٠٥ وعلي (رشاد) تاريخ عومي : (ايكنجي جلد) استامبول ١٣٤١هـ ص٣٥١ Grousset: ibid.
(٧) : Rambaud : Fin de L'Empire Grec-Fondation de L'Empire Ottoman (Histoire générale du IVe siècle à Nos jours . T. III Publiée sous la direction du E. Lavisse et A. Rambaud) P. 841 .
(٨) : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج ١٥ ص١٦ هـ ٤

ويدعو يزدي العناصر التي أيدت حركة بير محمد بالتاجيك المفسدين، الذين يتقنون فن الاغواء وبث السموم القاتلة . وقد لازم هؤلاء الأمير الثائر وحشوا رأسه بالخيالات الفاسدة والتصورات الباطلة، وحرضوه على مخالفة تعاليم الياسا فاستولى على السلطة في شيراز . ولما وصلت أخبار هذا العصيان إلى تيمور وهو في قراباغ يستعد للإغارة على سيواس أرسل جزءاً من قواته إلى شيراز، وأمر رستم بالرجوع عن بغداد والعودة إلى فارس للقضاء على حركة بير محمد .(١)

ومر الفاتح التركي قبل الوصول إلى سيواس على ماردين ، ولكن حاكمها الظاهر عيسى الأرتقي الذي أفرج عنه تيمور بعد أسره له مدة طويلة ، امتنع وراء أسوار المدينة ورفض الإذعان لتيمور ، بسبب مالقيه من سوء المعاملة خلال أسره ، وعلى الرغم من العهود والمواثيق التي أخذها تيمور عليه . واضطر الفاتح التركي إلى ترك ماردين وفضل متابعة التقدم إلى سيواس .(٢) حيث وقع الاحتكاك الأول المباشر بين تيمور والأتراك العثمانيين .

الدولـــة العثمانية

وكانت الدولة العثمانية ــ التي أخذت القوات التيمورية الآن تتقدم في أراضيها ــ قد قطعت في تلك الآونة شوطاً بعيداً في التوسع والامتداد في البر الاوربي ، بفضل جيشها الانكشاري القوي ، ولا سيما في عهد حفيد عثمان الأول مؤسس الدولة ، السلطان مراد الأول ١٣٦٢ــ١٣٦٩م (٧٦٤ــ٧٧١هـ) ، وابنه السلطان بايزيد الأول ١٣٨٩ــ١٤٠٣م (٧٧١ ــ ٨٠٥هـ) . فقد نجحت حروب هذين السلطانين في أن تلحق بالدولة العثمانية أجزاء هامة من شبه جزيرة البلقان . ولم تسفر صيحات الاستغاثة التي أطلقتها الدولة البيزنطية ــ التي كانت تمر في مراحل حياتها الأخيرة ــ باتجاه القارة الأوربية إلا عن توجيه حملة من الفرسان الأوربين من فرانسا وجنوب المانيا ، لنجدة الملك الهونغاري " سيجيسموند " (Sigismond) الذي ظل صامداً أمام الضغط العثماني، وكانت الحملة بمساعي البابا " بونيفاس التاسع" (١٣٨٩ ــ ١٤٠٤م/ ٧٧١ــ٨٠٧ هـ) الذي كان يعمل على إحياء فكرة الحروب الصليبية . ولكن القتال الذي دار بين الجيوش الأوربية وسيجيسموند ملك هونغاريا ، وبين الجيش العثماني بقيادة بايزيد الأول في " نيكوبوليس" (Nicopolice) على ضفاف الدانوب ، عام ١٣٩٦م (٧٩٨هـ) ، انتهى إلى نصر ساحق حققه بايزيد على الجنوش الأوربية، وإلى ضم العثمانيين المزيد من أراضي هونغاريا إلى سلطتهم .(٣) وبعد أن وفق بايزيد إلى فرض النفوذ العثماني في أوربا الشرقية (شبه جزيرة البلقان) ، فقد سعى بعد ذلك لبسط سلطته على الإمارات التركية في الأناضول ،(٤) واستطاع أن يدفع بحدود أملاكه من الشرق ، إلى ماوراء " ملطية " و " كماخ " و " دوريكي " و " بهسنا " .(٥) وأصبح نتيجة لهذه الأعمال يحكم دولة كبيرة تمتد من ساحل بحر

(١) : يزدي: ج ٢ص ١٦٧ــ١٦٨ (٢) : ابن عربشاه : ص ٨٢ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٦٤

(٣) : Grousset: op. cit. P. 529, Prawdin: op. cit. P. 243

(٤) H. Inalcik: Bayazid (E.I.T.I P.P.1151-1153) P.1152 وقد أشار اينالسيك إلى بعض هذه الامارات وهي " القرمانيون " حكام " ايسوريا (Issorie) و " ليكونيا " (Lyconie) والكرميانيون في كوتاهية و " الحميديون " في " ميسيا " (Mysie) و " الصاروخان " في " مغنيسيا " Magnesie وآل " منتشا " في " كاريا " (Carie) وآل ايدين " في شمال كاريا . ثم آل اسفنديار في إقليم " قسطموني " انظر أيضاً : بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية " بيروت ١٩٤٩ ج ٣ ص ١٢

(٥) : H. Inalcik : op. cit. P. 1152

"الادرياتيك" حتى هضبة ارمينية ، [1] التي كانت تفصل بين أملاكه وأملاك تيمور . وأرسل السلطان العثماني الذي أخذ يعرف بالسلطان بايزيد "يلدرم" (الصاعقة) ،لسرعته في التحرك والانقضاض إلى القاهرة منذ عام ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) ، يطالب الخليفة العباسي ، أن يمنحه لقب "سلطان الروم" كي يسبغ _ كما قال ابن الشحنة _ طابعاً شرعياً على أعماله مما يزيد في هيبته في العالم الإسلامي . [2] وأخذ يلدرم بايزيد يتدخل في شؤون الدولة البيزنطية الداخلية . [3] وأخذ يستعد للاستيلاء على عاصمتها "القسطنطينية" فحاصرها سبع سنوات متواصلة بين ١٣٩٦_١٤٠٢م (٧٩٨_٨٠٤هـ) . [4] وكان على وشك الاستيلاء عليها عندما ظهر تيمور على رأس قواته على حدود الدولة العثمانية [5] الشرقية .

أسباب الاصطدام البعيدة

وتأتي أهم دواعي الاصطدام بين الفاتح التركي ويلدرم بايزيد ،من السياسة التي اتبعها كل منهما مع حكام الإمارات الصغيرة التي كانت قائمة بين أملاكهما . وكان بايزيد خلال صراعه مع بعض حكام هذه الإمارات قد اضطر عدداً منهم ممن اقتلعهم من إماراتهم لأنهم لم يشاؤوا الانضواء تحت سلطته ،إلى الفرار واللجوء إلى تيمور . وشكى هؤلاء أمرهم إلى الفاتح التركي، وحضوه على التدخل لإعادتهم إلى إماراتهم . [6] وقد ضم بلاط ماوراء النهر عدداً من هؤلاء اللاجئين السياسيين . [7] وكانت أهم هذه الامارات إمارة "آل قرمان" التركمان الذين كانوا يحكمون مدن "ارمناك" و "لارندة" و "قونية" و "آقسراي" (آقسرا) . وكانت هذه الإمارة أهم الإمارات التركية التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم في آسية الصغرى . ولم يكن يفوقها قوة إلا الدولة العثمانية . [8] وعلى الرغم من أن مراد الأول والد بايزيد قد زوّج ابنته من "علاء الدين" حاكم الإمارة القرمانية ،فإن يلدرم بايزيد قتل زوج شقيقته (علاء الدين) عام ١٣٩١م (٧٩٣هـ). وألقى بولديه "علي" و "محمد" في السجن . واضطر أحد أفراد الأسرة وهو "يعقوب بن علي شاه قرمان" إلى الفرار إلى تيمور . وظل الأخوان القرمانيان (محمد وعلي) في الاعتقال مدة اثنتي عشرة سنة،إلى أن أطلق تيمور سراحهما بعد معركة

سياسة بايزيد مع حكام الامارات التركية

(١) : ابن عربشاه: ص ١٢ الذي ذكر أن حدود الدولة العثمانية تمتد من البلقان إلى ازرنجان .

(٢) : ابن الشحنة : ص ٢٠٧ . (٣) : H.Inalcik : ibid . وقد أشار اينالسيك إلى أن السلطان العثماني قد نصب في عام ١٣٩١ الامبراطور يوحنا السابع أحد ابناء الامبراطور اندرونيك الرابع (١٣٧٦_١٣٧٩م) بعد أن عزل عن العرش شقيقه الامبراطور يوحنا الخامس بالبولوغ (١٣٩٠_١٣٩١م) . ولكنه لم يلبث أن رفع إلى العرش مانويل الثاني (١٣٩١_١٤٢٥م) ابن يوحنا الخامس المعزول، وأخذ في الوقت نفسه يدعم مطالب طامع آخر بالعرش هو يوحنا الثامن بن يوحنا السابع انظر أيضاً : Le Strange : op. cit. Introd. P. 3

(٤) : Le Strange : ibid (٥) : Sykes : op. cit. T, P. 129 and Grousset: ibid.

(٦) : القرماني (أحمد بن يوسف) : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، بغداد ١٢٨٢هـ ص ٣٠٥ وعلي (رشاد): تاريخ عمومي: (ايكنجي جلد) استامبول ١٣٤١هـ ص ٣٥١

(٧) : Rambaud : Fin de L'Empire Grec-Fondation de L'Empire Ottoman (Histoire générale du IVe siècle à nos jours . T. III Publiées sous la direction du E. Lavisse et A. Rambaud) P. 841 .

(٨) : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج ١٥ ص ١٦هـ .

أنقرة[1] . ولما اتبع بايزيد السياسة نفسها مع بقية حكام الإمارات التركية ، فقد أرسل تيمور ، حسب ما تذكره بعض المصادر التركية جواسيسه إلى سكان تلك الإمارات ليعلموهم بأن الفاتح التركي يسعى لإعادة حكامهم السابقين إلى بلادهم ،[2] عندما ستصل قواته إلى تلك البلاد .

وقد مرّ الصراع بين تيمور وبايزيد بمرحلتين تفصل بينهما أعمال الفاتح التركي الحربية في بلاد الشام والعراق وبلاد الكرج في بحر عامي ٨٠٣ و ٨٠٤ هـ (١٤٠١ـ١٤٠٢م). وعلى الرغم من أن استيلاء تيمور على سيواس كان أهم وقائع المرحلة الأولى من الصراع بين الطرفين ، فإن الاحتكاكات بين بايزيد وتيمور كانت في بادئ الأمر غير مباشرة ، وترجع إلى عام ٧٩٦ هـ (١٣٩٤م) ، عندما كان الفاتح التركي في طريقه إلى بلاد القبجاق ، قادماً من غزوته الأولى لبغداد . فقد انتهز فرصة مروره بالقرب من مدينة سيواس في شرق الاناضول ، فأرسل إلى حاكمها القاضي "برهان الدين أحمد بن شمس الدين" ، يطالبه بأن يضرب النقود على غرار النقود المتداولة في البلاد الخاضعة لحكم تيمور ، وأن يجري الخطبة باسم السلطان الجغتائي "محمود بن سيورغتمش" صنيعة تيمور .[3] وكان القاضي برهان الدين أحمد قد وصل إلى حكم سيواس بعد وفاة حاكمها الايلخاني "أرتنا بن جعفر" ، عام ٧٥٣هـ (١٣٥٢م) ، وعجز أبناء هذا الحاكم عن الاحتفاظ بالحكم في أسرتهم .[4] ولكن القاضي برهان الدين بعد أن قطع رؤوس رسل تيمور الذين حملوا إليه هذا الطلب ، أرسل يعلم كل من يلدرم بايزيد والسلطان المملوكي برقوق بما أقدم عليه . وبعث السلطان العثماني إلى حاكم سيواس يعلمه بموافقته على تصرفه ، ويعده بتقديم المساعدة . ويرجح ابن عربشاه الذي أورد هذا الخبر ، أن يكون السلطان المملوكي قد أجاب الجواب نفسه ، وعبّر للقاضي عن تأييده واستعداده لتقديم المساعدة له[5] ، مما أحنق تيمور الذي أخذ يحرض على حاكم سيواس زعيم قبيلة الغنمة البيضاء "الآق قيونلو" الموالية له . وقام هذا الزعيم وهو "عثمان قرايلك" من عاصمته "آمد" بالهجوم على سيواس ـ فيما بعد ـ عام (٨٠٠هـ)، فقتل القاضي وفرض نفسه حاكماً على المدينة . ولما رفض سكان سيواس الإقرار بالطاعة لعثمان قرايلك ، فقد اضطر إلى الفرار وإلى الالتحاق بتيمور ، وأخذ يحثه على التدخل ، في الوقت الذي استدعى فيه سكان المدينة بايزيد لحكم مدينتهم . فسار إليهم عام ٨٠١هـ (١٣٩٩م) ، وأقام أحد ابنائه حاكماً هناك . وترك له قوة كبيرة وحاشية تضم عدداً من القواد العسكريين .[6] وتقدم بيازيد بعد ذلك إلى ملطية ، فانتزعها من سلطة الحكام المماليك في العام التالي (٨٠٢هـ) ، مستغلاً الأوضاع الداخلية المضطربة في بلاد الشام ، نتيجة ثورة الحاكم المملوكي فيها على السلطة المركزية في القاهرة ،[7] وفي الوقت الذي يقول فيه ابن عربشاه إن السلطان العثماني تقدم على إثر ذلك إلى ارزنجان حيث يحكم طهارتن تابع تيمور الأمين[8]

مراحل الصراع

القاضي برهان الدين في سيواس

(١) : ابن عربشاه : ص ١٢١ (٢) : علي (رشاد) : ص ٣٠٦ (٣) : ابن عربشاه : ص ٥٦
(٤) : ابن خلدون : م ٥ ص ١١٨٧ (٥) : ابن عربشاه : ص ٦٥
(٦) : يزدي : ج ٢ ص ١٨٥ وابن عربشاه : ص ٨٠ ـ ٨٢ و Terfer :op.cit.P.20
وقد زعم القس الباقاري أن بايزيد قد أغار على عاصمة عثمان قرايلك وطرده منها وأجبره على الفرار إلى تيمور حيث أخذ يحرضه على قتال تيمور (٧) : ابن الشحنه : ص ٢٠٩
(٨) : ابن عربشاه : ص ٨٢

فإن يزدي يشير إلى أن بايزيد اكتفى بعد الاستيلاء على ملطية التي كانت تابعة لولاية حلب المملوكية بالعودة إلى حاضرة ملكه ، ووجه من هناك رسولاً إلى طهارتن يطالبه بنبذ طاعة تيمور والإقرار بالتبعية له ، وبدفع الأموال المترتبة على هذه التبعية .(١) وأسرع طهارتن يعرض هذا الطلب على تيمور ، الذي كان يرى في هذا التابع حارساً أميناً على التخوم الغربية لأملاكه . ولذلك ظل يحرص دائماً على إظهار الود له والعطف عليه في كل مناسبة . فقد خصه بقسم من الهدايا من الغنائم التي حصل عليها من حملته على الهند ، كان منها فيلٌ مدرب على القتال . وكان طهارتن من جانبه لا يفتأ أيضاً يظهر للفاتح التركي الانقياد والطاعة في كل مناسبة . ولذلك فقد نظر تيمور إلى تدخل السلطان العثماني في شؤون إمارة ارزنجان على أنه عمل عدائي صريح موجه ضده .(٢)

تهديد طهارتن

ومما لا شك فيه أن تيمور كان يخفي وراء ادعاءاته باعتداء بايزيد على تابعه حاكم ارزنجان واضطرار حليفه الآخر عثمان قرايلك حاكم آمد إلى الفرار من وجه السلطان العثماني ،(٣) مخاوف من أن يتابع يلدرم بايزيد التقدم نحو الشرق . وكان السلطان العثماني قد استطاع خلال غياب تيمور في الهند ، أن يدفع بحدود الدولة العثمانية من هذه الناحية ، حتى أضحت في ذلك الوقت تحاذي المجرى الأعلى للفرات . وقد ترتب على ذلك اشتراكٌ بالحدود على مسافات واسعة بين أملاك العاهلين .(٤) وجعل إمكانيات الاصطدام بينهما أكبر من أي وقت مضى . وأضحى من الأمور الملحة للفاتح التركي ، أن يوقف تقدم السلطان العثماني ، لأنه من المشكوك فيه أن يكتفي بايزيد بالحاق إمارة ارزنجان . وكانت مخاوف تيمور تنبعث من أن اذربيجان التي تلي إمارة طهارتن من ناحية الشرق ، والتي دخلت حديثاً في طاعة الفاتح التركي ، وكان يسكنها العديد من القبائل التركية ، سوف يكون إلحاقها بأملاك الدولة العثمانية الهدف التالي ليلدرم بايزيد .(٥) وستلقى هذه البلاد (اذربيجان) مصيراً شبيهاً بمصير الإمارات التركية التي قضى عليها السلطان العثماني في الأناضول .

مطامع تيمور في أملاك

وكان الفاتح التركي في الوقت نفسه يطمع إلى احتلال بلاد الروم كوارث للسلطة التي انحدرت إليه من جنكيز خان .(٦) وأشارت المذكرات أيضاً إلى أن المنجمين في ماوراء النهر قد تنبأوا لتيمور منذ زمن بعيد بأنه سيخضع هذه البلاد لحكمه في حوالي عام ٨٠٠هـ(٧). وتفصح الرسالة التي بعث بها إلى السلطان بايزيد عن هذه المطامع . فقد حاول الفاتح التركي أن يقنع بايزيد أن يهتم بالتوسع من ناحية الغرب ، مع الروم البيزنطيين ، ويتخلى عن المناطق التي استولى عليها من ناحية الشرق لتيمور . فأرسل يقول له: "إنك رجل مجاهد غازي [كذا] في سبيل الله . وليس غرضي قتالك . ولكن أريد منك أن تقنع بالبلاد التي كانت مع أبيك وجدك، وآخذ أنا بلاد الامير أرطنا (أرتنا) أمير الروم أيام السلطان أبي سعيد [الايلخاني]".(٨)

---

(١) : يزدي: ج ٢ص ١٨٥ــ١٨٦ (٢) : Grousset: op. cit. P. 529

(٣) : Terfer: ibid. (٤) : Rambaud: op. cit. P. 243

(٥) : Cahun: op. cit. P.958 (٦) : Inalcik: op. cit. P. 115

(٧) : Stewart: op. cit. P. 34

(٨) : المقريزي: السلوك ج ٣ق ٢ص ١٠٩١ والعسقلاني: ج ٢ص ٢٥٢ والقرماني: ص ٣٠١

ويورد المؤلف التركي فريدون صيغة أخرى لتلك الرسالة ، تكشف بشكل أوضح عن مطامع تيمور في أملاك العثمانيين ، وتحدد المناطق التي كان الفاتح التركي يرغب بضمها إلى املاكه ، باعتبارها أجزاءً من ولاية ارزنجان التي يحكمها تابعه الأمير طهارتن . وجاء في هذه الرسالة أن هذه المناطق هي مدن سيواس وملطية والبستان (البلستين) وكماخ .(١) وهي المواقع التي قام بايزيد بضمها إلى املاكه في الآونة الأخيرة. وتقع جميعها في شرق الأناضول .

الخوف من تحالف عثماني جلايري تركماني

وأخذ تيمور يشعر في تلك الأثناء أنه أمام تحالف عثماني ــ جلايرى ــ تركماني ، عندما قبل بايزيد لجوء أحمد جلاير وقرا يوسف الفارين من ملاحقة تيمور إليه . وظهر أن هناك من الاحتمالات ما يشير إلى قرب انضمام المماليك إلى هذا التحالف.(٢) وترى المذكرات أن قرا يوسف التركماني كان حجر الزاوية في هذا التحالف وتنسب إليه سبب التصلب الذي أبداه بايزيد في موقفه من تيمور .(٣) وكان السلطان العثماني الذي عمل لإقامة حلف بين حكام إيران منذ أن بدأ تيمور زحفه على هذه البلاد ، قد بعث برسائل إلى كل من آل المظفر وأحمد جلاير وقرا يوسف يحثهم على نبذ الخلافات فيما بينهم والاتحاد في وجه العدو المشترك تيمور.(٤) وقد أشار في إحدى هذه الرسائل كان قد أرسلها إلى شاه شجاع المظفري ، إلى أنه يصدر في دعوته إلى التحالف والاتحاد ، من اتفاق تم بينه وبين السلطان المملوكي برقوق.(٥) وقد حاول بايزيد أن يقيم مثل هذا التحالف مع المماليك بصورة فعلية منذ عام ٧٩٣هـ (١٣٩١م) ، فأرسل في السادس من شوال من ذلك العام (٧أيلول) إلى القاهرة ، يقول للسلطان برقوق: « إن المملكتين كروحين في جسد وساعدين في عضد » ، ويعلمه بتوسطه لدى حاكم ثغر كافا الجنوي حتى أطلق من عنده من التجار من رعايا دولة المماليك ، كانوا أسرى في سجونه .(٦) وينم هذا التودد الذي أبداه بايزيد عن شعوره باقتراب خطر الفاتح التركي ، وبضرورة قيام تحالف بينه وبين دولة المماليك . وقد بات قيام هذا التحالف وشيكاً ، بعد أن وافقت سلطات القاهرة عام ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) ، على أن يمنح الخليفة العباسي المقيم في القاهرة في كنف سلاطين المماليك السلطان بايزيد ــ كما كان يشتهي ــ لقب سلطان بلاد الروم .(٧)

بايزيد في نظر تيمور

هذا ولا يمكن رد الخلاف بين بايزيد وتيمور إلى أسباب مادية فقط . بل لقد كان للاعتبارات المعنوية والمواقف النفسية دور كبير في هذا الخلاف . وعلى الرغم من أن كلاً من بايزيد وتيمور ينحدر من أصول متقاربة ، ويدينان بدين واحد ، فإن كلاً منهما كان يعكس نوعاً من الحضارة يختلف عما يعكسه الآخر . ويصدر عن تفكير مغاير لما يصدر عنه الطرف الآخر. فلم يكن بايزيد في نظر تيمور إلا ذلك التركي الخلاسي المنحط المطعون في أصله(٨) ، والذي

---

(١) : فريدون : ج ١ص ١٣٢ وقد أشار براون إلى الرسالة انظر Browne op.cit.III P.206

(٢) : Prawdin: op. cit. P. 244 (٣) : Langles: op. cit.P. 259

(٤) : فريدون : ج ١ص ١١٧ و ١٢٣ و ١٢٤ أو Broune:op.cit.T.III P.204,205, 206, .

(٥) : فريدون : ج ١ص ١٢٣ و Browne;op.cit.T.III P.205

(٦) : فريدون : ج ١ص ١١٥ (٧) : ابن الشحنة : ص ٢٠٧

(٨) : يزدي : ج ٢ص ٨٧

أفسده الوسط الحضاري التاجيكي الغريب عن تقاليد الأتراك الأُصلاء وعاداتهم ، التي تتمثل بالأتراك الجغتائيين .[(١)] ولذلك كانت المصادر التيمورية تنعته بالقيصر بايزيد .[(٢)] وهو لقب لا يطلق إلا على ملك كافر .[(٣)] وفي الوقت نفسه فإن تيمور يرى أنه في ذاته يمثل شخصية التركي الأصيل الصافي الذي تنحصر فيه شمائل التورانيين .[(٤)] وأنه الحاكم الفرد المؤهل للدفاع عن الإسلام وعن التراث المنحدر من الآباء والأجداد ، في وجه محاولات التبديل والتحريف التي تتمثل في تصرفات القيصر بايزيد . وهو في الوقت نفسه يتطلع إلى إقامة دولة عالمية،[(٥)] وقد دأب على مخاطبة بايزيد في رسائله من موقع السيد الحقيقي والحاكم الشرعي لعموم الأتراك والمسلمين والعالم .[(٦)] فأرسل يقول له : "فجملة الخلايق [كذا] لنا عبيد" ،[(٧)] وأنه منذ أربعين عاماً مشغول بفتح البلاد والقلاع واستخلاص الحصون ، وبمساعدة أهل الغزو وحماية المسلمين ودفع الشر عنهم. وأنه هو ولي الأمر الذي تجب طاعته ،[(٨)] وكان غضب الفاتح التركي شديداً ، لما رد عليه بايزيد في إحدى رسائله وقد كتب اسمه (بايزيد) بخط كبير بماء الذهب ، وكتب اسم تيمور بحروف سوداء صغيرة تحت اسم تابعه طهارتن .[(٩)]

ومن ناحية ثانية فلم يكن تيمور في نظر بايزيد إلا سيد توران المتوحش الذي قدم من أعماق الداخل الآسيوي ، تحت إغراء المدينة، لسفك الدماء وهتك الحرمات . وكان يرى أن وقوفه في وجه هذا الفاتح الغاشم ، إنما هو دفاع عن الحضارة. وكان السلطان العثماني يؤمن أن الأتراك الذين يتزعمهم البيت المالك العثماني ، والذين جاؤوا في الأصل من بلاد توران، وقطعوا شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة في مواطنهم الجديدة في الغرب ، هم معرضون دائماً بين وقت وآخر ، لضربات أبناء عمومتهم التورانيين ، وغيرهم من شعوب قلب آسية الذين لا يزالون على الفطرة ، والزاحفين عليهم من الشرق . وشأن الأتراك العثمانيين في هذا الصراع الحضاري ، شأن بقية الأتراك عبر مراحل التاريخ . والصراع الذي يرى يلدرم أنه مقدم عليه مع تيمور ، إنما خاض شاهات خوارزم الأتراك صراعاً شبيهاً به ، قبل أقل من قرنين من الزمن ، عندما وقف هؤلاء في وجه جحافل المغول التي كان يقودها جنكيز خان (الفاتح المغولي) وأبناؤه .[(١٠)] فقد صوّر السلطان العثماني تيمور في رسائله إلى حلفائه حكام الدويلات الإيرانية بأنه "سفاك الدم هتاك الحرم" ،[(١١)] شر الأشرار ونار الفتنة ، مدع الإسلام ، معتد على البلاد الاسلامية.[(١٢)] في الوقت الذي يرى فيه بايزيد نفسه أنه بطل الإسلام ابن الشهيد الذي قضى وهو يقاتل أعداء الدين .[(١٣)]

تيمور في نظر بايزيد

(١) : Rambaud: op. cit. P. 841, Grousset: op. cit. P. 530

(٢) : يزدي: ج ٢ص٤٨ او٨٦ او Stewart: op. cit. P. 17

(٣) : Cahun: op. cit. P. 958 (٤) : Rambaud: ibid .

(٥) : Cahun: op. cit. P. 957 (٦) : Grousset: ibid .

(٧) : فريدون :ج ١ص١١٨ من رسالة تيمور الأولى لبايزيد (٨) : فريدون :ج ١ص ١٢٤ — ١٢٥ من رسالة تيمور الثانية لبايزيد (٩) : ابن عربشاه : ص١٢٥

(١٠) : Prawdin: op. cit. P. 242-246 (١١) : فريدون ج ١ص١١٩ من رسالة بايزيد الجوابية الأولى (١٢) : فريدون: ج ١ص١١٧ من رسالة بايزيد إلى قرا يوسف و ١٢٦ من رسالة بايزيد الجوابية الثانية . (١٣) : فريدون: ج ١ص١٢٦ وإشارة بايزيد هنا إلى مقتل والده مراد الأول في معركة قوصوه عام ١٣٨٩ في بلاد الصرب انظر: بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٣ص٢٠٦.

شعور عدم الثقة المتبادل

وتعكس الرسائل المتبادلة بين الطرفين شعوراً متقابلاً بالتخوف والتهيب . وقد أحسّ بهذا الشعور القس شيلتبرجر الذي حضر معركة انقرة ، فكتب يعلق على موقف تيمور وبايزيد قائلاً : " وكان كل من الطرفين يتهيب الطرف الآخر " .(١) وشعر تيمور أن بايزيد منافس يعدله في القيمة والوزن ،(٢) وهو يختلف عن بقية الحكام الذين استطاع الفاتح التركي اكتساح ممتلكاتهم . ولذلك فإن تحقيق الانتصار على بايزيد الصاعقة هو أمر جدير بأن يحظى باهتمام تيمور .(٣) ولذلك أيضاً فإنه كانت تلحظ في رسائل الفاتح التركي إلى يلدرم بايزيد ، إلى جانب عبارات التعالي والتهديد ، عبارات أخرى تفيد بأن تيمور مستعد أن يترك لبايزيد حرية العمل ضد الفرنج والبيزنطيين .(٤) ووصفه بأنه "رجل مجاهد " وأنه لا يجب قتاله .. " وينعته بأنه " ملاذ الغزاة المجاهدين " ، ويعترف بأن أجداده السلاطين العثمانيين قد كابدوا المشاق في قتال أعداء الدين ، وهو يدعو الله أن يفتح أبواب المخالصة والمصادقة ، ويرى أنه من الضروري أن تتردد الرسل بين الطرفين، لأن في ذلك منفعة لهما ، ويمكّن الحكام المسلمين من الانصراف لقتال الكفار .(٥) ويعتقد أن من شأن الاختلاف بين الحكام المسلمين وانقسام كلمتهم ، أن يستدعي شماتة الاعداء (٦).

وترى المصادر التيمورية أن النزاع الذي نشب بين العاهلين والذي انتهى إلى الاصطدام والحرب ، فضلاً عن أنه كان بقضاء الله وقدره ، فقد كان أيضاً بسبب تعنت بايزيد وسوء تصرفه واغتراره بسعة أملاكه وغناها ، واعتداده بكثرة أبنائه ، فأقدم على احتلال سيواس وألحق بها ملطية. ثم انكفأ إلى حاضرة ملكه وقد أخذ منه الغرور كل مأخذ .(٧) ويظهر من هذه الأقوال ، إحساس الحقد والقلق وعدم الارتياح الذي كان يحتدم في نفس تيمور من الأعمال التي كان يقوم بها السلطان العثماني .

العلاقات في نظر المصادر التركية والفارسية والأوربية

وفي الوقت نفسه فإن المصادر التركية التي تصور يلدرم ، بأنه الحاكم الذي أخذ على عاتقه الدفاع عن المسلمين ضد أعدائهم في المشرق والمغرب ، تعلل تشدده في موقفه من تيمور ورفضه لعروضه بالمصالحة والمخالصة ، بإساءته من المظالم التي أوقعها تيمور بالمسلمين في إيران وغيرها من بقاع العالم الاسلامي .(٨) وتلح هذه المصادر على أن د الهم تيمور الوحيد من غارته على أملاك العثمانيين، كان النهب والسلب ، وإشباع نهم الحشرات التي كانت ترافقه ـ على حد تعبير هذه المصادر ـ ولتحقيق حلم الاستيلاء على العالم .(٩) وإذا لم تنجح المراسلات التي دارت بين العاهلين قبل نشوب القتال ، في تبديد شعور عدم الثقة المتبادل بينهما ، فإن ذلك يرجع إلى أن لهجة المراسلات كانت لهجة آمرة ، لم يتعود السلاطين العثمانيون على سماعها من أحد من قبل .(١٠)

---

(١) : Terfer: op. cit. P. 21 (٢) Grousset: op. cit. P. 529

(٣) : Barthold: Ulugh Beg P. 34 (٤) : يزدي: ج ٢ص١٨٨ الرسالة التيمورية الأولى كما أوردها يزدي . (٥) : فريدون : ج ١ص١٢٦ من الرسالة التيمورية الثالثة . (٦) : يزدي: ج ٢ص ٢٨٠ و ٢٨٦ من رسالة تيمور الثالثة .

(٧) : شامي : ص٢٤٨ ويزدي: ج ٢ص١٨٥ (٨) : الصدر الاعظم كامل باشا : تاريخ سياسي دولة علية عثمانية (مغفل زمان الطبع ومكانه) ص٤٧ . (٩) : أثر كمال : اوراق بريشان دوري استيلا برخصة معارف نظارة جليلة ١٣٠١هـ ص١٦ـ١٧

(١٠) : علي(رشاد): تاريخ عمومي ايكنجي جلد ص٣٠٥ .

وأما المصادر الأوربية ، فترى أن السلطان العثماني الذي قضى الثلاثين عاماً الماضية موجهاً اهتمامه نحو التوسع في الحدود الغربية لدولته على حساب القارة الأوربية ، لم يدرك الخطر الذي ظهر على الحدود الشرقية لهذه الدولة مع قدوم جحافل الفاتح التركي إلا متأخراً .[1] ولم تكن حقبة المراسلات إلّا وسيلة ليدرس كل طرف أحوال الطرف الآخر ، ويتخذ من الاستعدادات ما يكفل له النصر .[2] ولذلك فإن لهجة الرسائل المتبادلة أخذت تزداد عنفاً وعداء على مرّ الأيام. وبعد أن كانت أول الأمر مقتصرة على العتاب أضحت تهديداً باغتصاب الأعراض .[3]

رسالة تيمور الأولى والرد

وبدأ تيمور هذه المراسلات عندما بعث للسلطان العثماني رسالته الأولى في إثر علمه بتهديد بايزيد لطهارتن ومطالبته له بالخضوع . وكان تيمور لا يزال في منتجع قراباغ . وقد حررت الرسالة باللغة العربية . وكانت مغفلة التاريخ . ولكنه من المؤكد أن يكون تاريخها عليها . في أواخر عام ٨٠٢هـ (١٤٠٠م) ، وهو الوقت الذي كان فيه تيمور مقيماً في ذلك المنتجع. وأورد المؤلف التركي فريدون نص الرسالة ، وجاءت المصادر التيمورية بنصها بشيء من التصرف عما أورده فريدون ، كما أورد ابن عربشاه مقتطفات منها . واستهل تيمور الرسالة بحمد الله والصلاة على نبيه ، ثم خاطب السلطان العثماني قائلاً : " بعد التحية التامة ، أيها الملك في الروم يلدرم بايزيد ، اعلم فنحن في بلاد الله سلطان جديد ومظفر ومنصور على جميع الأمراء ... " ، وطالبه بتسليم كل من السلطان أحمد جلاير وحليفه قرا يوسف ، ووصفهما بأنهما " مادة الفساد وبوار البلاد ودمار العباد ... وحاشا أن يكون مثلهما تحت جناح ملك الروم ... " ، وختم الرسالة بالتهديد قائلاً : " وإياكم مخالفة أمرنا فتحل عليكم دابرة قهرنا " .[4] وتضيف المصادر الفارسية على النص كما أورده فريدون ، فقرة أشار فيها تيمور إلى شكه في أصول بايزيد الغامضة وادعاءاته بكرم محتده ، ويقول إن هذه الأصول تحتاج إلى إنارة وإيضاح .[5] ويظهر من نص الرسالة أنها صيغت بعبارة حازمة ، ومزجت بين التهديد والترغيب . ولكنها في الوقت نفسه لا تحمل حقداً شخصياً على السلطان العثماني .[6] وتخاطبه بلقبه " يلدرم " ، وتصفه بأنه ملك الروم .

وكتب بايزيد رده باللغة العربية وكان أيضاً مغفل التاريخ . وقد بدأه بعد حمد الله والصلاة على رسوله ، بمخاطبة الفاتح التركي بقوله : " أيها الكلب العقور الموسوم بالتيمور " ثم يصفه بالكفر . وأخذ بايزيد بعد ذلك يفتخر بكثرة عساكره ونبل غاياته من الحروب التي يخوضها. ويوازن بين ما يقوم به تيمور وبين ما يقوم به هو قائلاً : " كم فرق بين من تكفل بأمر البغاة والطغاة ، وبين من تحمل أمر الكماة والغزاة " ورد على تهديد الفاتح التركي بالتحدي وحثه على الإسراع لملاقاته في ساحة المعركة : " فإن لم تأت فزوجاتك طوالق ثلاثاً ، وإن قصدت بلادي وأنا أفرّ عنك [كذا] ، ولم أقاتلك البتة فزوجاتي إذ ذاك طوالق ثلثة [كذا] " .[7] وتضيف

(1) Brenier: Le Monde Byzantin, vie et mort de Byzance P.472

(2) Prawdin: op. cit. P. 246 : (3) Prawdin: op. cit., P. 247

(4) : فريدون : ج ١ ص ١١٨ - ١١٩ حيث ورد نص الرسالة الكامل وأورد ابن عربشاه ص ١٢٠ مقتطفات منها . (5) : شامي : ص ٢١٧ وحافظ آبرو : ص ٥٧ ويزدي : ج ٢ ص ١٨٧

(6) Browne: op.cit.T.III P. 204 (7) : فريدون : ج ١ ص ١١٩ وابن عربشاه : ص ١٢٢

المصادر التيمورية على رد بايزيد فقرة تقول إنه على استعداد لملاحقة تيمور إلى تبريز والسلطانية.[1] ويشير يزدي إلى أن شعلة الغضب الملكية قد اشتعلت بشدة "في إثر اطلاع الفاتح التركي على رد يلدرم بايزيد عند عودة وفده من بلاد الروم".[2]

أسباب الغارة على سيواس

وكان تيمور قد اندفع على رأس قواته من قراباغ ، إلى حصن "اونيك" شرق ارمينية ،حيث أقام معسكراته هناك ، قبل أن يرجع الوفد التيموري الذي حمل الرسالة إلى السلطان العثماني من مهمته ، مما يؤكد ما ذهب إليه ابن عربشاه والقس شيلتبرجر ، من أن السبب المباشر لحركة تيمور وتوغله في أملاك العثمانيين تمهيداً للاغارة على سيواس ، إنما كان بناء على استغاثة طهارتن به وتحريض عثمان قريلك الذي لم يتمكن من الاحتفاظ بحكم سيواس ، بعد معارضة سكانها له[3] ، وقد برر تيمور فيما بعد غارته على المدينة في رسالته الرابعة لبايزيد ، بأن سكانها قد أرسلوا بعض الهدايا إلى سلطان مصر ، ولذلك وجبت معاقبتهم فوقع ما وقع .[4] ويورد المقريزي سبباً آخر ذكر أن الفاتح التركي قد أشار إليه في رسالة بعث بها بعد احتلال سيواس إلى رجال الدين في دمشق ، وجاء فيها قوله "إنه قد اتجه إلى سيواس عندما بلغه قلة أدب الصبي سليمان ابن أبي يزيد (بايزيد) فأراد أن يعرك له أذنه".[5] ويقصد حاكم سيواس .

اجتياح المدينة

وبدأ تيمور حصاره لسيواس في ١٧ ذي الحجة عام ٨٠٢هـ (٩ آب ١٤٠٠م) ، وتم له احتلالها بعد ثمانية عشر يوماً في الخامس من المحرم ٨٠٣هـ (٢٦ آب ١٤٠٠م) .[6] وعلى الرغم من أن السلطان بايزيد قد أرسل — على ما يذكر شيلتبرجر — خمسة آلاف فارس نجدة لابنه حاكم سيواس ،[7] قبل أن يبدأ تيمور حصاره للمدينة ، فإن ابن السلطان فرّ منذ اليوم الأول للحصار .[8] واستخدمت القوات المغيرة آلات الحصار ، ونقبت أسوار المدينة التي كان يقطنها مائة ألف ساكن .[9] وتجمع مصادر مؤرخي الشام ومصر على ذكر أعمال التخريب والتنكيل التي أنزلها المغيرون بالمدينة والسكان ، وتصف هذه المصادر الجند التيموريين بأنهم من "المفسدين النهابة" . وتحدثت عن دفن ثلاثة آلاف من حامية المدينة أحياء في حفرة كبيرة واحدة ، حفرها جنده لهذا الغرض ، لأنه كان قد أقسم لسكان المدينة في أثناء الحصار ، بأنه لن يريق دماء الجند المدافعين عنها .[10] وبينما تشير المصادر الأرمنية إلى أن القوات المغيرة قتلت بعد احتلال سيواس حاميتها من الجند الأتراك والأرمن على السواء ، وتقدر عدد القتلى بأربعة آلاف ،[11] فإن المصادر التركية تقول إن التنكيل لحق بالعناصر الإسلامية فقط من

---

(١) : شامي : ٢١٨ وحافظ آبرو: ص١٥٧ ويزدي: ج ٢ص١٩١ (٢) : يزدي: ج ٢ص ١٩١

(٣) : ابن عربشاه: ص٨٢ و Terfer: op.cit.P. 20 (٤) : فريدون: ج ١ص ١٣١

(٥) : المقريزي : السلوك ج ٣ق٣ص١٠٣١ (٦) : يزدي: ج ٢ص١٩٢ والمقريزي: السلوك ج ٣ق٣ص ١٠٢٣ وابن عربشاه: ص٨٣ والعسقلاني: ج ٢ص١٠٨ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ص٢٦٥ (٧) : Terfer: ibid

(٨) : المقريزي: السلوك ج ٣ق٣ص١٠٢٢ الذي ذكر أن اسم ابن السلطان الحاكم في سيواس هو سليمان بينما يذكر يزدي أن ابن السلطان كان مصطفى (انظر يزدي: ج ٢ص١٨٥) .

(٩) : Rambaud: op.cit. P. 84o (١٠) : ابن عربشاه: ص٨٣-٨٤ والعسقلاني: ج ٢ص١٠٨ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص٢٦٥

(١١) : Pasdermadjian: op.cit.P.238, Morgan: op. cit. P. 244-245

دون العناصر الأرمنية التي حظيت بعفو الفاتح التركي .[١] وتورد المصادر التيمورية معلومات أوفى عن عمليات المغيرين في سيواس . وتشير إلى أنه بعد أن دكت المجانيق والعرادات أسوار المدينة الحصينة ، والتي كانت ترتفع إلى عشرين ذراعاً ، انهارت المقاومة وخرج أكابر المدينة وعلماؤها وقضاتها إلى معسكر تيمور لتقديم خضوعهم . وأصدر الفاتح التركي أمره بأن المسلمين من سكان المدينة آمنون إذا دفعوا ما فرض عليهم من أموال الأمان . وأما الأرمن الكفرة والنصارى فقد فرض عليهم الأسر . وأما عساكر الأتراك الذين تجاسروا على مقاومة الجيوش الغازية ، وكان عددهم أربعة آلاف من الفرسان ، فإنهم وزعوا على فرق الجيش وأبيدوا عن آخرهم ، ليكونوا عبرة للمخالفين الآخرين .[٢] وتقول المذكرات إنه قد تم القضاء على كل من وجد بالمدينة من السكان بحد السيف ، ثم وزعت الأموال التي وجدت فيها كغنائم على أفراد الجيش .[٣] ويشير شيلبترجر الذي كان في ذلك الوقت في حاشية السلطان بايزيد إلى أنه قد تم أسر تسعة آلاف عذراء من بنات المدينة . فأمر تيمور بحملهن إلى بلاده .[٤] واستطاعت القوات الغازية بعد الانتهاء من احتلال سيواس السيطرة على كل من ابلستين (البستان) وملطية . ودفع السكان هناك أموال الأمان للنجاة من تنكيل المغيرين . وعين الفاتح التركي تابعه عثمان قرايلك على حكم المدن الثلاث .[٥]

وكان السلطان بايزيد مقيماً على حصار القسطنطينية عندما بدأ حصار تيمور لسيواس،[٦] وقد حاول رغم ذلك نجدة المدينة بقوات جديدة . ولكن جزءاً من القوات الغازية تصدت في الطريق لهذه النجدة وردتها على أعقابها .[٧] واضطر بايزيد في نهاية الأمر إلى رفع الحصار والعودة مسرعاً إلى البر الآسيوي ، للتصدي للقوات الغازية ولكنه لم يعثر لها على أثر[٨] ، وكان الغضب يأخذ منه كل مأخذ .

ويبدو أن تيمور كان على علم بتوتر العلاقات بين المماليك والعثمانيين إثر وصول السلطان الناصر فرج إلى الحكم عام ٨٠١هـ (١٣٩٩م) ، بعد وفاة والده الظاهر برقوق وإقدام السلطان العثماني على ضم مدينة ملطية ، التي كانت تابعة لولاية حلب المملوكية إلى سلطته . وأحب الفاتح التركي أن يستغل سوء العلاقات بين الدولتين المعاديتين له ، لتوجيه ضربة للمماليك ليكون آمناً على مؤخرة جيوشه في الصراع الحاسم المقبل ، الذي ينوي خوضه مع يلدرم بايزيد . ولذلك يمم تيمور شطر بلاد الشام ، على الرغم من معارضة قواده ، ليدخل النزاع مع المماليك الذي كان قد بدأ قبل مدة من الزمن في مرحلة جديدة .

---

(١) : الصدر الاعظم كامل باشا : ص٤٦ ولاندري عن المصدر الذي استند اليه غروسيه عندما ذكر ان التنكيل قد لحق بالأرمن من دون الأتراك انظر، Grousset: P. 530

(٢) : شامي : ص٢١٩ وحافظ آبرو : ص١٥٩ ويزدي : ج ٢ص ١٩٥ – ١٩٦

(٣) : Langlès: op. cit. P. 257 (٤) : Terfer: ibid (٥) : شامي : ص٢٢٠ ويزدي : ج ٢ص ١٩٦ و١٩٨

(٦) : ابن عربشاه : ص٨٣ (٧) : يزدي : ج ٢ص ١٩٣

(٨) : Rambaud: op. cit. P. 840

الفصل السابع

الاحتكاكات والاتصالات مع الظاهر برقوق

٧٨٩ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٧ - ١٣٩٩ م

قيام دولة المماليك الشراكسة - الفوضى والفتن - الاكتفاء بتتبع أخبار تيمور - عداء تيمور للمماليك - التجسس - طمعه بمصر - طمعه بالخلافة - احتكاك عام ٧٨٩هـ - فرار أحمد جلاير إلى دمشق - وفد تيمور عام ٧٩٦هـ - الغارة على الرحبة - اصطدام الرها - رسالة تيمور الأولى - رسالة تيمور الثانية - رد برقوق - رسالة تيمور الثالثة - رد برقوق الثاني - محاولة برقوق إقامة جبهة معادية لتيمور : مع أحمد جلاير ، مع العثمانيين ، مع تركمان الغنمة السوداء ، مع حكام ماردين ، مع قاضي سيواس - أسر اتلاميش - مطالبة تيمور به - أعمال ميرانشاه - أسباب الإغارة على الشام عند مؤرخي العصر الوسيط المسلمين - السبب الفعلي .

سبقت غارة تيمور على بلاد الشام في مطلع عام ٨٠٣ هـ (أواسط ١٤٠٠م) مرحلة طويلة من الاحتكاكات والاتصالات الديبلوماسية بين الفاتح التركي ودولة المماليك ، بدأت في عهد السلطان الظاهر برقوق واستمرت إلى عهد ابنه الناصر فرج . وبقيت هذه الاتصالات مستمرةً بين الدولتين إلى مابعد عودة تيمور من حملة اجتياح بلاد الشام .

ولا تقل أعمال الفاتح التركي السياسية والعسكرية في بلاد الشام مع المماليك ، في أهميتها عن أعماله في آسية الصغرى مع العثمانيين . فقد كانت دولة المماليك أيضاً تتميز بنظامها العسكري . واستطاعت جيوشها المدربة تدريباً عالياً أن توقف قبل مائة وخمسين عاماً الغزو المغولي ، الذي انطلق من قلب آسية ، وأن تنتصر على المغول في المعركة الشهيرة في "عين جالوت" عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) . ونجحت منذ ذلك التاريخ وعلى مدى قرن من الزمن - بين منتصف القرن السابع إلى منتصف القرن الثامن الهجريين (من منتصف القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلاديين) - في رد حملات الايلخانيين المتكررة على بلاد الشام ، في الوقت الذي تمكنت فيه من القضاء على آخر معاقل الصليبيين في عكا ، عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) .(1)

قيام دولة المماليك الشراكسة

ولكن دولة المماليك في الآونة التي بدأ فيها تيمور أعماله العسكرية في إيران ، كانت تعاني من فتن واضطرابات داخلية كان لها أثر سيء على مقدرتها العسكرية من الناحية الخارجية . فقد اشتد النزاع والتنافس بعد وفاة السلطان محمد الناصر بن قلاوون عام ٧٤١هـ (١٣٤١م) ، بين أبنائه ثم بين أحفاده على الحكم ، إلى أن استطاع أحد الأمراء الشراكسة وهو برقوق أن يحسم النزاع عام ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) لصالحه ، فجلس على العرش. وأنهى عمله هذا حكم سلاطين المماليك الأتراك . وبدأ به حكم السلاطين الشراكسة الذي استمر إلى قدوم الاحتلال العثماني لمصر عام ٩٢٢هـ (١٥١٧م) .

---

(1) : Grousset : op. cit. P. 527

المصدر السابق ، ص ٥٢٧

الفوضى والفتن

ولكن السلطان الجديد الذي حكم بين عامي ٧٨٤ و ٨٠١ هـ (١٣٨٢ - ١٤٠٠م) ، لم يوفق في القضاء على المشاكل التي كانت تعاني الدولة منها ، على الرغم من قوة شخصيته وسعة حيلته وقدرته على تحمل المشاق والمصاعب . فقد طفح عهده بالفتن والثورات (١). وكانت المؤامرات والفوضى أقوى من السلطان نفسه ، فخُلع عن عرشه بعد سبع سنوات من جلوسه عليه (في جمادى الآخرة ٧٩١هـ/ حزيران ١٣٨٩م). وزُجّ به في السجن. ولكنه استطاع أن يعود إلى الحكم في صفر من العام التالي (كانون الثاني ١٣٩٠م) ، ليستقر فيه إلى وفاته (٢).

وصور ابن تغري بردي حالة الفوضى وعدم المبالاة التي كانت تعاني منها البلاد ، عندما بدأ الفاتح التركي زحفه نحو الغرب ، فقال : "لم يتأهب أحد من المصريين لقتال تيمور ولا التفت إلى ذلك ، بل كان جُلّ قصد كل واحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها (٣).

الاكتفاء بتتبع أخبار تيمور

وعلى الرغم من حالة التفكك والفوضى التي كانت تعاني منها الدولة ، فإن السلطات المملوكية كانت حريصة على تتبع حركات تيمور ، منذ أن بدأ أعماله في إيران والعراق . ويشير ابن الفرات إلى تجريدة عسكرية أُرسلت "لكشف أخبار تيمور لنك" بقيادة أحد الأمراء المماليك ، قد عادت إلى القاهرة في رجب عام ٧٨٩هـ (تموز ١٣٨٧م) ، حاملة أخبار انتصار تيمور على تركمان الغنمة السوداء في منطقة الفرات العليا (٤) في ذلك العام . وكان حكام إيران والعراق في الوقت نفسه يرسلون بأخبار تيمور العسكرية إلى القاهرة في بعض الأحيان . فقد بعث

(١) : ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥

(٢) : جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء تحقيق محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) ص ٥٠٤ - ٥٠٥ . وقد ثار على السلطان برقوق عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) ، نائبه على ملطية ويدعى منطاش . ولما سار إليه نائب حلب يلبغا الناصري فرّ إلى سيواس . ولم يلبث يلبغا نفسه أن ثار بعد عامين (٧٩١هـ / ١٣٨٩م) ، واتفق مع منطاش . وجمع يلبغا تحت إمرته أغلب قوات الشام ، وأخذ دمشق واحتل قلعتها بعد أن هزم قوات السلطان برقوق في معركة "برزة" شمال شرق دمشق . واضطر السلطان إثر الهزيمة للتواري عن الأنظار . ولما زحف الثوار إلى القاهرة اهتدوا إلى مخبئه فاعتقل . ونفي إلى الكرك في شرق نهر الاردن . وأعيد إلى العرش أحد أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . ولم يلبث منطاش أن ثار على يلبغا ، وتمكن من اعتقاله ، ونفاه إلى سجن في الاسكندرية . وأرسل إلى الكرك من يقتل برقوق في سجنه . ولكن أهل الكرك قتلوا رسول منطاش وسرحوا برقوق من سجنه . فسار بقوة صغيرة إلى دمشق عام ٧٩٢هـ (١٣٩٠م) ، فاحتلها ونكل بأعوان منطاش . ولما خرج إليه هذا من مصر دارت المعركة بين الفريقين في "شقحب" في حوران . ولم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة . وسار برقوق بعدها إلى مصر وجلس على العرش من جديد ، في الوقت الذي استقر فيه خصمه منطاش في دمشق ، وضم إليه حكم حلب . وقدم السلطان برقوق من جديد إلى الشام في العام التالي (٧٩٣ هـ/ ١٣٩١م) . وفر منطاش إلى حلب ومنها إلى ملطية . ولما أغار على دمشق من جديد على إثر انسحاب السلطان وعودته إلى مصر ، دافع عن المدينة يلبغا الناصري الذي أطلق سراحه من منفاه بالاسكندرية . واضطر السلطان برقوق للقدوم إلى دمشق للمرة الثالثة ، وفر منطاش في هذه المرة إلى أحد أمراء البادية هو الأمير "نعير" . وكان برقوق قد أغرى الأمير بالمال فاعتقل منطاش وسلمه للسلطات المملوكية ، وقتل في قلعة حلب عام ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) . انظر لذلك كل من : ابن الشحنة : ص ١٩٧ - ٢٠٩ وابن صصرى : كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية تحقيق وليم برينر كاليفورنيا - لوس إنجلوس وبركلي ١٩٦٣ ص ٣ - ١٣ و ٣٩ - ١٤٩) .
هذا وقد خاض السلطان برقوق صراعاً آخر مع الخلفاء العباسيين المقيمين في القاهرة ، فخلع أحد هؤلاء عام ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) ويدعى المتوكل على الله ، وحوّل الخلافة لآخر هو الواثق بالله . ولما توفي الواثق بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات رفع برقوق إلى منصب الخلافة رجل جديد من آل العباس يدعى المستعصم بالله . وظل المتوكل على الله معتقلاً إلى أن أعيد إلى منصبه ثانية بوفاة المستعصم عام ٧٩١هـ (انظر القلقشندي : الإنافة ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٧)

(٣) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ (٤) : ابن الفرات : م ٩ ج ١ ص ١٠

حاكم مدينة " بسطام " في خراسان ، بأخبار انتصار تيمور على شاه منصور المظفري وقتله له عام ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) . ومع ذلك فإنه يظهر أن السلطات المملوكية لم يكن لديها في تلك الآونة خطة معينة في مقاومة توسع الفاتح التركي ، أو التدخل لتقديم المساعدة لحكام إيران والعراق ، إذ لمّا أرسل حاكم ماردين الظاهر مجد الدين عيسى إلى القاهرة بخلعة تيمور وبكتابه لـــه ، الذي يطالبه فيه أن يخطب ويضرب النقود باسمه ، كان جواب القاهرة فاتراً ، ولم تطلب منه سوى الانتظار .[1] ويظهر عدم اكتراث السلطات المملوكية لاتخاذ موقف واضح من عمليات تيمور فـــي إيران من الأخبار المشوشة التي كانت تصل إلى القاهرة عن عملياته في تلك البلاد . فقد ذكر ابن الفرات أنه قد أشيع في العاصمة المملوكية عام ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) ، أن تيمور قد عاد من تبريز إلى بلاده لكثرة من توفي من عساكره ، وبسبب الغلاء في تلك المدينة .[2]

وكان تيمور بدوره يكن للمماليك العداء . ويسعى لإظهار الاحتقار والازدراء لحكامهـــا في كل مناسبة . فيتهمهم في رسالته إلى برقوق عام ٧٩٦هـ (١٣٩٤م) بالرشوة وأكل مـــال الأيتام .[3] ولا يعتبر يزدي مؤرخ العصر التيموري السلطان الظاهر برقوق إلا والياً على مصر ، ويرى أن الحكام المماليك قد حادوا عن الصراط المستقيم ، وساروا في طريق الغرور والطغيان .[4] ويتضح كره الفاتح التركي للمماليك من معاداته لأصدقائهم وحلفائهم ، وفي اقتناص الفـــرص للانتقام من هؤلاء الحلفاء . فكان من الأسباب التي دفعت تيمور لاحتلال سيواس والتنكيـــل بسكانها - كما أشار إلى ذلك في إحدى رسائله إلى بيازيد - أرسال سكان المدينة بعـــض الهدايا إلى سلطان مصر " ولذلك وجبت معاقبتهم " .[5]

عداء تيمور للمماليـــك

ودفعت سياسة العداء تيمور ، لأن يحرص على أن يظلّ على اطلاع على أحوال دولـــة المماليك ، عن طريق شبكات التجسس التي دأب على بثّها في بلاد الشام ، والتي وصل بعضها لممارسة نشاطه في القاهرة نفسها . وذلك قبل بدء الصراع المسلح بين الفريقين بوقت طويل . ويتحدث ابن الفرات عن اكتشاف إحدى هذه الشبكات عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) في حلب . ويقول إنه في شعبان (آب - أيلول) من ذلك العام أرسلت السلطات المملوكية في الشام إلـــى القاهرة رجلاً تركياً ، أقرّ بعد معاقبته بأنه يشكل في تلك المدينة مع اثنين آخرين يقيمان فـــي دمشق ، شبكة تجسس لحساب سلطات ماوراء النهر ، ولذلك أودع السجن ، وأرسل في طلـــب مساعديه من دمشق .[6] وتمّ بعد ذلك التاريخ بسبع سنوات ، اكتشاف شبكة تجسس أخـــرى أكبر من الأولى . كانت تمارس عملها بين حلب والقاهرة . فقد أشار كل من المقريزي والعسقلاني وابن قاضي شهبة ، إلى أنه في ربيع الأول عام ٧٩٦هـ (كانون الثاني ١٣٩٤م) ، أرسلت سلطات الشام المملوكية إلى القاهرة ، رجلاً تركياً مكبلاً بالحديد يدعى " دولات خجا " ، أقر بعد ضربـــه بوجود عدد من الجواسيس في القاهرة يساعدونه في عمله . فألقي القبض على سبعة منهـــم ، وكانوا في ثياب التجار .[7] ويبدو أن اكتشاف هذه الشبكة قد أثار دهشة وفضول حكام القاهرة ،

التجســس

(١) : ابن الفرات : م ٩ ج ٢ ص ٣٤٣ (٢) : ابن الفرات م ٩ ج ١ ص ٢٤

(٣) : العسقلاني : ج ١ ص ٤٧٤ (٤) : يزدي : ج ١ ص ٤٥٨ وج ٢ ص ١٨٤

(٥) : فريدون : ج ١ ص ١٣١ (٦) : ابن الفرات : م ٩ ج ١ ص ١٢ - ١٤

(٧) : المقريزي : السلوك : ج ٣ ق ٢ ص ٨٠٢ والعسقلاني : ج ١ ص ٤٧٤ وابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة الجزء الأول القسم الثالث ص ٥٠٦

حتى أن السلطان برقوق قد حضر بنفسه لمشاهدة دولات خجا في معتقله . ويبدو أيضاً أن المؤرخ ناصرالدين محمد بن الفرات الذي كان يعيش في تلك الحقبة في القاهرة ، قد شاهد الجاسوس التيموري ، فوصفه فقال إنه كان كبير الوجه ضيق العيون أجرد ليس له في ذقنه شعر البتة ، وذكر دولات خجا عن نفسه بأنه مسلم يقرأ القرآن ،وقدم معلومات عسكرية عن قوات تيمور وأعداد جنده ، وأقر بأن له ثلاثة مساعدين يقيمون في حلب .(١) وكان الجواسيس الذين ترسلهم سلطات ماوراء النهر إلى الشام أو مصر ، يشكلون مصدر إزعاج للسلطات المملوكية ، دفع برقوق إلى الاشارة إلى ذلك في إحدى رسائله إلى تيمور عام (٧٩٦هـ) ، وأرسل يبرر سبب قتل أحد المبعوثين التيموريين فقال : "إن الرسول المذكور كان يكتب المنازل منزلة منزلة إلى بلادنا المحروسة ، واطلع عليه جماعة من جهتنا" .(٢)

وتفصح أعمال تيمور هذه عن نية عدوانية ضد دولة المماليك ، ومطامع في أراضيها . ولا يخفي يزدي أنه كان في نية تيمور القدوم لاحتلال بلاد الشام عام ٧٩٥هـ(١٣٩٣م) بعد نجاحه باحتلال بغداد في ذلك العام .(٣) ويجعل شامي المؤرخ التيموري الآخر مطامع الفاتح التركي في تلك الآونة تتجاوز بلاد الشام لاحتلال مصر .(٤) وقد أكد هذا العزم السخاوي الذي أفاد بأن تيمور قد قصد بعد احتلال بغداد إلى الثغر المملوكي "الرحبة" الواقعة على نهر الفرات ، يريد الإغارة على بلاد الشام ولكن حركة توقتميش خان القبجاق وحليف المماليك في شمال اذربيجان ، اجبرته على التراجع .(٥) طمعه بمصر

وظل تيمور يظهر رغبته باحتلال مصر في كثير من المناسبات . وجاء في إحدى رسائله إلى أحد أمراء عرب بادية الشام ، والتي يحرضه فيها للخروج على سلطة المماليك والانضمام إليه عام ٧٩٦هـ(١٣٩٤م) ، قوله "فنحن واصلون إليكم في طريقنا إلى مصر" .(٦) وأرسل في مناسبة أخرى بعد عودته من غزوة بلاد الشام عام ٨٠٣هـ إلى السلطان العثماني يقول : إن غزوته لبلاد الشام وعودته منها لن تحول دون غزو مصر، لأنه ينوي العودة لإحتلال ذلك البلد (٧) وبعث في مناسبة ثالثة عام ٨٠٥ هـ (١٤٠٣م) ، إلى الناصر فرج يهدده بالزحف على مصر بعد أن يفرغ من الحروب في بلاد الروم .(٨)

ويظهر أن تيمور الذي كان يهدف للسيطرة على العالم، كان يهدف أيضاً من وراء إظهار رغبته باحتلال مصر ، أن يصل إلى منصب الخلافة ،(٩) لأن القاهرة كانت مقر الخليفة العباسي وعاصمة سلاطين المماليك الذين كانوا يشكلون عقبة كبيرة في وجه الفاتح التركي ، لبلوغ هذه الغاية . ويبدو تطلع تيمور إلى منصب الخلافة من إلحاحه على أن يخص نفسه بعلامتين كان قد اصطلح على أنهما من علامات الخلافة ، وهما الخطبة والسكة . وكان دأبه أن يطالب حكام البلاد التي ينوي احتلالها أن تكون الخطبة والسكة في هذه البلاد باسمه . وقد جاء طمعه بالخلافة

(١) : ابن الفرات : م٩ج ٢ص ٣٦٩ (٢) : القلقشندي : ج ٧ ص ٣١٦
(٣) : يزدي : ج ١ص ٤٧٢ (٤) : شامي : ص ١٤٦
(٥) : السخاوي : الضوء اللامع ٢ص ٤٦ (٦) : القلقشندي : صبح الاعشى ج ٧ص ٣١١
(٧) : فريدون : ج ١ص ١٢٨ الرسالة التيمورية الثالثة إلى بايزيد .
(٨) : يزدي : ج ٢ص ٣٣١ (٩) : Cahun : op. cit. P. 958

في رسالته إلى رجال الدين في دمشق عام ٨٠٣هـ بأنه ينوي "قصد بلاد مصر ليضرب السكة ويذكر اسمه في الخطبة".(١) وذهب به الأمر إلى القول في رسالته التي وجهها إلى فرج عام ٨٠٥هـ، أنه لا يكتفي أن تكون الخطبة والسكة في مصر والشام باسمه، بل يجب أن يرافق ذلك إقرار من فرج على أن هذا هو حق خالص للفاتح التركي(٢). ولعل صرف تيمور لذلك الرجل الذي خرج من قلعة دمشق أثناء حصار القوات التيمورية لها عام ٨٠٣هـ (١٤٠١م) مدعياً النسب العباسي، ومطالبته له بإنصافه وإيصاله إلى منصب الخلافة الذي يعتقد أنه يستحقه وراثة عن آبائه من دون الخليفة الذي أقامه المماليك في حمايتهم في القاهرة،(٣) إنما هو إزاحة لمنافس آخر على هذا المنصب الذي كان يتطلع إليه تيمور. ويقول المقريزي إن تيمور حاول أن يرسل عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٥م) عشرة آلاف فارس مع المحمل العراقي وبعثة لكشف الطريق إلى الحجاز. وقرر أن يرسل كسوة للكعبة في العام التالي.(٤) وحالت وفاة تيمور التي كانت قبل موسم الحج في ذلك العام دون أن يحقق هذه الرغبة.

احتكاك عام ٧٨٩ هـ

كانت الاحتكاكات الأولى بين تيمور والمماليك في الغالب غير مباشرة قبل عام ٧٩٦ هـ (١٣٩٤م). واقتصرت على بعض الإجراءات التي يتخذها السلطان المملوكي أو نوابه في بلاد الشام، رداً على الأعمال التي كانت قوات الفاتح التركي تقوم بها في المناطق القريبة من ثغور بلادهم، في العراق أو بلاد الروم من باب الاحتياط للطوارئ. فقد وجه برقوق كما يقول ابن الفرات بعض أمرائه إلى بلاد الشام، لاتخاذ بعض الإجراءات الدفاعية، على أثر وصول أخبار تقدم جحافل تيمور إلى إيران عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م).(٥) ويضيف المقريزي على ذلك، أن العساكر التي وجهت إلى بلاد الشام في ذلك التاريخ، قد اشتبكت بطلائع قوات تيمور في ضواحي ملطية وسيواس.(٦) وعقد السلطان إثر عودة القوة المملوكية إلى القاهرة مجلساً للتشاور حضره الخليفة العباسي والقضاة وشيخ الإسلام. وقد تمّ فيه بعد جدال عنيف جمع الأموال لتجهيز الجيوش. ويبدو من سلسلة التغييرات وبعض أعمال الاعتقالات التي قام بها السلطان برقوق في المناصب الرئيسية في بلاد الشام والتي أشار إليها ابن أياس، أن السلطان كان لا يطمئن إلى كفاءة وإخلاص نوابه في تلك البلاد.(٧)

فرار أحمد إلى دمشق

وتدخل العلاقات بين تيمور والمماليك عام ٧٩٦هـ (١٣٩٤م) مرحلة جديدة تمتاز بالاحتدام والتأزم، عندما لجأ سلطان بغداد أحمد جلاير الفارّ من وجه تيمور، إلى السلطان المملوكي الذي أحاط ضيفه بمظاهر الترحيب، عندما وصل إليه في القاهرة، ووعده بتقديم

(١) : المقريزي: السلوك: ج ٣ق ٣ص ١٠٣١ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج ٢ص ٢٢١ وقد أورد ابن قاضي شهبة نص العبارة السابقة الواردة في رسالة تيمور بعد أن ترجمها من الفارسية إلى العربية على الشكل التالي: "ثم قصدنا بلاد مصر ليضرب بها السكة [كذا] ويذكر اسمنا في الخطبة ثم ترجم بعد أن نغر سلطان مصر بها". انظر ابن قاضي شهبة ص ٢٠
(٢) : يزدي: ج ٢ص ٣٢١ (٣) : المقريزي: السلوك: ج ٣ق ٣ص ١١٦٦
(٤) : ابن خلدون: التعريف: ص ٣٧٤–٣٧٦ (٥) : ابن الفرات: م٩ج ١ص ١٢
(٦) : ابن أياس: ج ٣ق ٢ ص ٥٦٣ (٧) : ابن أياس: ج ٣ص ٢٦٧–٢٦٩

المساعدة لاسترجاع بغداد . وخرج معه على رأس قواته إلى دمشق . وأمر نائبه في حلب بالتقدم لرصد قوات تيمور حتى ضفاف نهر الفرات ، وأُستُنفرت قوات الأعراب والتركمان الضاربة في تلك المنطقة لهذه الغاية .[١] واجتمع السلطان المملوكي خلال وجوده في دمشق برسل توقتميش خان القبجاق وبوفد السلطان العثماني بايزيد ، وقد جاؤوا يعرضون المساعدة للوقوف معاً في وجه الفاتح التركي .[٢] وظل برقوق في دمشق مدة طويلة تزيد عن خمسة أشهر ، إلى أن تحقق من ابتعاد قوات تيمور عن حدود أملاكه ، ونجاح أحمد جلاير بدخول بغداد واسترجاع عرشه فيها وإقامته الخطبة باسم السلطان برقوق . وتقدم بعد ذلك إلى حلب .[٣] ويقول ابن تغري بردي إن السلطان المملوكي قد أبدى أسفه عندما علم بابتعاد تيمور عن الحدود المملوكية وعدم إتاحة الفرصة للسلطان لمواجهة الفاتح التركي .[٤]

وكان أحمد جلاير إثر وصوله إلى دمشق فاراً من بغداد ، قد أعلم السلطات المملوكية في المدينة أن رسلاً للفاتح التركي في إثره على الطريق . ووصل الوفد التيموري إلى الثغر المملوكي " الرحبة " يرأسه رجل فارسي من مدينة " ساوة "[٥] في أول احتكاك مباشر بين الفريقين ، لحل المسائل المختلف عليها والناجمة عن اجتياح تيمور العراق وموقف المماليك من سلطان بغداد أحمد جلاير .[٦] ويفهم من أقوال يزدي أن سفر الوفد كان في آخر ذلك العام (٧٩٥هـ) ، وأن نائب الرحبة المملوكي قد قتل أعضاء الوفد جميعهم ، بناء على أوامر جاءته من القاهرة ، التي كانت تتصرف في ذلك الوقت بوحي من أحمد جلاير اللاجئ إليها .[٧] وفد تيمور عام ٧٩٦هـ

وتشير مصادر مؤرخي الشام ومصر إلى وصول الوفد التيموري إلى الرحبة في ذلك التاريخ .[٨] وتضيف هذه المصادر أن مشادة جرت بين اعضاء الوفد وبين نائب الرحبة ، وأغلظوا الكلام فيها له ، وطلبوا منه ان يضرب السكة وان تكون الخطبة باسم تيمور . وحمل الوفد معه الهدايا . وابلغت القاهرة بقدوم الوفد التيموري في المحرم ٧٩٦هـ (تشرين الثاني ١٣٩٣م) وجاءت الاوامر لنائب الرحبة بعدم تمكين أعضاء الوفد من الوصول إلى غايتهم ، وعدم السماح لهم بالعودة إلى بلادهم ، وبالعمل على قتلهم سراً ، وإرسال ما معهم من هدايا إلى العاصمة المملوكية .[٩] وقتل أعضاء الوفد التيموري وكان عددهم كما ذكر ابن قاضي شهبة أربعين شخصاً .[١٠] وقد تم قتلهم وهم نيام ، إلا واحداً أُرسل مع الهدايا إلى القاهرة عن طريق دمشق .[١١] واتضح أن هدية تيمور التي كانت تتألف من تسعة عبيد وتسع جوار ، أنهم جميعاً كانوا من أحرار بغداد رقعوا في أسر تيمور عند احتلاله لها . وكان فيهم ابن وزير بغداد وابن قاضيها وابن

(١) : ابن الفرات: م٩ ج ٣٦٦ وابن خلدون : م٥ ص ١١٧٥ ـ ١١٧٦ وابن أياس: ج ١ ص ٣٠٣
(٢) : ابن صصرى: ص ١٤٥ والعسقلاني: ج ١ ص ٤٧١ والسخاوي: ج ٢ ص ٤٦ (٣) : العسقلاني: ج ١ ص ٤٧٦ وابن الشحنة : ص ٢٠٧ وابن خلدون : التعريف: ص ٣٦٤ الذي ذكر أن برقوق تقدم حتى نهر الفرات . (٤) : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٦١
(٥) : يزدي: ج ٢ ص ١٩٩ أما ساوة : فهي مدينة في إيران تقع على الطريق بين قم واصفهان انظر : القزويني: آثار البلاد : ص ٢٤٢ (٦) : أشار المقريزي إلى حدوث اتصال سابق عام ٧٨٧هـ (١٣٨٥م) فذكر انه وصل القاهرة في ذلك التاريخ وفد تيموري يحمل رسالة ، وعاد وهو يحمل الجواب دون أن يشير إلى مضمون المراسلات انظر السلوك: ج ٣ ق ٢ ص ٥٣٨
(٧) : يزدي: ج ٢ ص ١٩٩ (٨) : ابن صصري: ص ١٤٥ وابن الشحنة: ص ٢٠٦ والعسقلاني: ج ١ ص ١٠٤ وابن خلدون : التعريف ٣٦٤ (٩) : ابن الفرات: م٩ ج ٢ ص ٣٦٢ وابن الشحنة : ص ٢٠٦ والعسقلاني ج ١ ص ٤٧٣ وابن قاضي شهبة : ص ٤٧٢ (١٠) : ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ص ٤٧٢ (١١) : ابن صصري: ص ١٤٥ وابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤

محتسبها ،فأمر برقوق بإطلاق سراحهم والإحسان إليهم .[(١)]

الغارة على الرحبة

وينفرد السخاوي الذي كتب كتابه "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" في تاريخ لاحق لتاريخ هذه الإحداث بمدة وجيزة ، من دون المؤرخين الفرس التيموريين ومؤرخي مصر والشام ، بالقول إن تيمور بعد أن احتل بغداد في ذلك العام (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م)، فإنه لم يقف عند مدينة "عانة "على نهر الفرات — كما أشارت إلى ذلك هذه المصادر — بل تقدم غرباً حتى بلغ الرحبة القريبة من دير الزور الحالية ،فنهبها ،ثم انسحب عند سماعه بحركة توقتميش خان في شمال اذربيجان.[(٢)]

اصطدام الرها

وتتحدث مصادر مؤرخي الشام ومصر عن مواجهة أخرى بين قوات تيمور وقوات برقوق في منطقة ديار بكر،وقعت في تاريخ لاحق من عام ٧٩٦هـ(١٣٩٤م) ، بعد مبارحة تيمور العراق في طريقه إلى الشمال . ويشير ابن الشحنة الذي كان في ذلك التاريخ يتولى قضاء حلب ، إلى أن تيمور بعد أن غادر بغداد نحو الشمال ،وبعد أن علم بمقتل رسله في الرحبة،قد أغار على الرها" فسلبها وسباها [(٣)] وأضاف ابن عربشاه أن الفاتح التركي لم يمكث في الرها إلا يومين بين ١٠ — ١٢ ربيع الأول (١٤ — ١٦ كانون الثاني).ثم انسحب منها باتجاه ماردين .[(٤)] وتتحدث بقية المصادر عن الحادث وتصوره على أنه اصطدام بين طليعة من قوات تيمور وقوة مملوكية يقدر عددها بألف رجل ،كانت قد انطلقت من حلب ، ولما بلغت القوة الرها وجدت القوات المعادية قد احتلتها . واضطر نائبها المملوكي إلى مبارحتها فاراً إلى "البيرة" القريبة منها . ودار القتال بين الطرفين بالسهام.وأطلق التيموريون خلال المعركة مائة ألف نشاب . ولما فرغ ماعندهم من النبال أغار عليهم عساكر حلب بالرماح ،فقتلوا وأسروا عدداً منهم . وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى إلى حلب . وكان الحادث بالنهاية التي انتهى بها مبعث سرور للسلطان برقوق [(٥)] ولكن تيمور الذي خشي من أن يتطور الاشتباك بين طلائع الفريقين إلى حرب واسعة ،فضل الانسحاب نحو الشمال للتصدي لتوقتميش خان الذي كان يتوقع منه غارة مفاجئة عبر عتبة دربند .[(٦)]

وتشير المصادر الفارسية إلى هذا الاصطدام المبكر بين قوات الطرفين . ولكنها تذكر أن تيمور في أواخر عام ٧٩٥هـ بعد انسحابه من بغداد ، مرّ في طريق زحفه نحو الشمال في صفر ٧٩٦هـ(كانون الأول ١٣٩٣م)،على الموصل ورأس العين ، وأطلق من هناك قواته في منطقة ديار بكر في حملات ضد تركمان الغنمة السوداء (القره قيونلو) . ولما آبت قواته إليه في "روحا" (الرها) ،حيث أقام هنالك مأدبة ومجلساً للأنس . وحاول بعض سكان المدينة المقاومة ولكنهم لم يفلحوا .[(٧)] ولذلك فإنه من المحتمل أن تكون إحدى فصائل

---

(١) : ابن الفرات: م٩ج ٢ص ٣٦٢ والعسقلاني: ج ١ص ٤٧٢ والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٢ص ٧٩٢

(٢) : السخاوي: الضوء اللامع ج ٢ص ٤٦ ، (٣) : ابن الشحنة : ص ٢٠٧ وقد ذكر المقريزي أن ابن الشحنة قد استقر في قضاء حلب منذ عام ٧٨٧هـ . انظر: السلوك ج ٣ق ٢ص ٥٣٧

(٤) : ابن عربشاه: ص ٤٧ — ٤٨ (٥) : ابن الفرات: م٩ج ٢ص ٣٧٠ والعسقلاني: ج ١ ص ٤٧٣ ابن قاضي شهبة : ص ٥٠٤ و ٥٠٦ و ٥٠٧

(٦) : ابن خلدون: التعريف ص ٣٦٤ (٧) : شامي: ص ١٤٦ ويزدي: ج ١ص ٤٧١ — ٤٧٢

القوات المغيرة التي كانت تتجول في المنطقة ، قد اشتبكت في إحدى الأنحاء مع قوة من المماليك . ولكن رغبة تيمور في التقدم إلى بلاد القبجاق أملت عليه أن لا يعلق أهمية على الحادث ، وفضل الانسحاب .[1]

رسالة تيمور الأولى

وأرسل تيمور في حقبة الاتصالات التي سبقت نشوب الصراع المسلح بين الفريقين، أربع رسائل . وتلقى من السلطان المملوكي ثلاثة ردود على هذه الرسائل . ولا تشير إلى الرسالة الأولى إلا المصادر الفارسية ، وتقول عنها إنها الرسالة التي حملها الوفد التيموري الأول الذي قتل أعضاؤه في الرحبة . وقد اكتفى يزدي بإيراد مجمل عن الرسالة، دون أن يشير إلى اللغة التي حررت بها ولا إلى تاريخها .[2] ولكنه من المستطاع تحديد ذلك التاريخ على وجه التقريب ، وهو أواخر عام ٧٩٥هـ عندما وصل الوفد حامل الرسالة إلى حدود دولة المماليك . ويشير يزدي إلى أن دوافع إرسال الرسالة كانت اهتمام تيمور بأمن الطرق وتأمين رفاهية المسافرين .[3] وقد أشار في مطلع الرسالة إلى المنازعات التي اشتدت في الماضي بين المماليك والايلخانيين، وما نجم عنها من أضرار بالغة لسكان بلاد الشام والبلاد المتاخمة لها . وقد استتب الأمن بعد ذلك عندما ترددت الرسل وتبودلت الرسائل . ثم توقفت جهود المحافظة على السلام بعد وفاة السلطان أبي سعيد الايلخاني . ولم تقم بعد ذلك قائمة لهذا الفرع من بيت جنكيز خان في إيران ، وانتقل الحكم في تلك المناطق إلى ملوك الطوائف، وساد الهرج والمرج ، ثم شاءت عناية الله أن تصبح ممالك إيران والعراق العربي المجاورة لدولة المماليك تحت حكم تيمور ، ولذلك فإن حقوق الجوار تقتضي أن تكون المراسلة والمكاتبة مفتوحة بين الطرفين ، ليتمكن تجار الدولتين من الانتقال بأمن وسلام .[4]

ويظهر أن تيمور لم يتلق رداً على هذه الرسالة على الرغم مما يبدو من لهجتها المعتدلة. ولعل الهدية التي رافقتها والتي كانت تحمل معنى التهديد والازدراء ، (وكانت تتألف — كما سبق ذكره — من تسعة عبيد وتسع جوار كانوا أحراراً من وجهاء سكان بغداد) ، كانت من الأسباب التي دفعت برقوق لأن يهمل الرد على هذه الرسالة .

رسالة تيمور الثانية

وكان الموقف الحازم الذي وقفه السلطان المملوكي من الوفد التيموري الأول ، وإقدامه على قتل معظم أفراده ، دافعاً ليرسل تيمور رسالته الثانية ، التي أشارت إليها مصادر مؤرخي الشام ومصر . وقد أفاد هؤلاء أن الرسالة التي حررت باللغة العربية قد بلغت القاهرة في الثالث من ربيع الآخر عام ٧٩٦هـ (٦ شباط ١٣٩٤م) .[5] وكان تيمور في تلك الآونة يقاتل في الجزيرة العليا تركمان القره قيونلو ، وكانت الرسالة الجديدة على عكس الرسالة الأولى —

(١) : يضيف ابن أياس الذي عاش بعد تلك الحقبة (متوفى نحو عام ١٥٢٤م) أن قوات تيمور بلغت البيرة بعد أن مرت على الرها ، ولكن فرسان المماليك عبروا النهر بخيولهم ليلاً وصدوهم وعادوا بالغنائم . ابن أياس : ج ١ص ٣٠٢، (٢) : يزدي : ج ١ص ٤٥٨
(٣) : يزدي : ج ١ص ٤٥٧ـ ٤٥٨ (٤) : يزدي : ج ١ص ٤٥٨
(٥) : أنظر النص الكامل للرسالة في المقريزي السلوك ج ٣ ق ٢ص ٨٠٢ـ ٨٠٥ وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٤٩ـ ٥٠ وابن عربشاه : ص ٦٥ـ ٦٦ وابن صصرى : ص ١٤٧ وابن الفرات : م ٩ ج ٢ ص ٣٧٠ـ ٣٧٢ ، أما العسقلاني فأورد مقتطفات منها في : ج ١ص ٤٧٤ .

مشحونة بالتهديد والوعيد والإرعاد — على حد تعبير العسقلاني — [1] وجاء فيها قول تيمور : " ... قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا ... وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا ... " وطالب الفاتح التركي برقوق بأن يعلن طاعته لمو يحمله مسؤولية الرفض والعصيان " ... وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا ، فلكم مالنا وعليكم ماعلينا . وإن خالفتم وعلى بغيكم وتماديتم ، فلاتلوموا إلا أنفسكم ... " ، ويرد تيمور بعد ذلك على من يتهمه بالكفر فيقول : " ... وقد غلب عندكم أننا كفرة . وثبت عندنا والله أنكم الكفرة الفجرة ... " ويختم الرسالة بالمطالبة برد الجواب مشيراً إلى إقدام السلطات المملوكية على قتل أعضاء الوفد السابق قائلاً : " ... فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين . " وقد لاحظ كل من ابن عربشاه والعسقلاني منذ ذلك الوقت ، أن فقرات مطولة من مقدمة الخطاب قد انتزعت من الخطاب الذي كان قد أرسله القائد المغولي هولاكو إلى السلطان المملوكي قطز (عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) قبيل معركة عين جالوت ، وكان الخطاب من إنشاء أحد الكتاب الفرس ويدعى " نصير الدين الطوسي " . وكان من أبرز شخصيات حاشية القائد المغولي (هولاكو) . [2]

وأرسل برقوق رده على رسالة تيمور بعد ثلاثة أيام من تسلمه تلك الرسالة . في السادس من ربيع الآخر (٩ شباط ١٣٩٤م) [3] . وقد بعث به مع حامل رسالة تيمور . [4] وكان الرد ردا برقوق مشحوناً بالتوبيخ العنيف لتيمور ، وجاء فيه قوله : " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون . ففي كل كتاب ذكرتم ، وبكل قبيح وصفتم ، ألا لعنة الله على الكافرين ... إنما النار لكم قد خلقت ، ولجلودكم قد أضرمت ... ومن العجب العجاب تهديد الليوث باللبوث والسباع بالضباع والكماة بالكراع " ، ثم يعلن رفضه الإقرار بالطاعة لتيمور ، واستعداده للقتال في سبيل ذلك ثم يقول : " إن قتلناكم نعم البضاعة ، وإن قتلتمونا بيننا وبين الجنة ساعة ... أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة ، لا سمع لكم ولا طاعة . " .

وينفرد القلقشندي في صبح الأعشى ، بإيراد خطاب ثالث أرسله برقوق في جمادى الأولى من ذلك العام (٧٩٦هـ نيسان ١٣٩٤م) ، أي بعد شهر واحد من إرساله الرد السابق ، رسالة تيمور الثالثة

وكان برقوق في طريقه من القاهرة إلى دمشق للعمل على إعادة أحمد جلاير إلى بغداد . [5]

(١) : العسقلاني : نفسه (٢) : ابن عربشاه : ص٦٧ والعسقلاني : نفسه انظر : نص خطاب هولاكو كاملاً في المقريزي : السلوك ج ١ ق٢ ص٤٢٧ — ٤٢٨ ، أما الفقرات المقتبسة من هذا الخطاب في قوله : " قل اللهم مالك الملك فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ... قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، إنا جند الله مخلوقون من سخطه ومسلطون على من يحل عليه غضبه . لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة : باك ... الخ " قابل نص خطاب هولاكو الوارد في السلوك للمقريزي في المكان المشار اليه في هذه الحاشية مع نص خطاب تيمور المشار إليه في الأمكنة المشار اليها في الحاشية رقم (٥) من الصفحة السابقة . (٣) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق٢ ص٨٠٥ — ٨٠٧ وابن الفرات : م٩ ج ٢ ص٣٧٢ — ٣٧٤ وابن عربشاه : ص٦٦ — ٦٧ وابن صصرى : ص١٤٧ — ١٤٨ (٤) : ابن صصرى : ص١٤٨ (٥) : القلقشندي : صبح الاعشى ص٨ : ٣ — ٣١٩ من ج ٧ .

ويرد في الخطاب الجديد من الدلائل ما يفهم منه بشكل صريح ، أنه كان رداً على عدد من الرسائل وصلت للسلطان المملوكي من تيمور سابقاً ، من ذلك قوله " فقد وصل إلى أبوابنا الشريفة العالية كل ما جهزته أول [كذا] وآخراً من كتاب " ، ثم قوله: في الخطاب نفسه في مكان آخر "... فأما ما ذكرته في أول كتبك ..." وقوله : "... لأنك لم تزل في كتبك كلها تستشهد بتاريخ جنكيز خان ..." ووردت في خطاب برقوق الجديد ، ردود على ما ورد في خطابي تيمور السابقين المشار إليهما ، كما وردت فيه ردود أخرى على أمور لم ترد في ذينك الخطابين ، مما يوحي بالاعتقاد بأن تيمور قد أرسل في خلال هذا الشهر ، خطاباً ثالثاً جديداً على الأقل. وتمكن الأمور التي أشار إليها خطاب برقوق الجديد ، من استنتاج أغلب محتويات رسالة تيمور الثالثة، التي لم ترد الإشارة إليها في أحد من المصادر العربية والفارسية التي بين أيدينا . ويبدو من إشارات رد برقوق أن رسالة تيمور كانت مطولة كما أنها تناولت مواضيع عديدة. وأرفقت أيضاً بهدية رمزية ، هي سيف وتركاش، [1] كنوع من التهديد المبطن . وقد شبه تيمور نفسه في رسالته بجنكيز خان ، وأعلن أنه يقتدي به في أقواله وأعماله . ثم طلب أن تقوم بين الفريقين علاقات الصداقة ، وأن يسلّم له المماليك السلطان أحمد جلاير ، تطبيقاً لاتفاق سابق تم عقده بين دولة المماليك والدولة الايلخانية ، نص على تبادل تسليم الثائرين الفارين من أحد البلدين إلى البلد الآخر . واستشهد على ذلك بحادثة دمرداش بن جوبان الذي ثار على الايلخانيين وفرّ إلى القاهرة عام ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) . وزعم أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون قام بتسليم دمرداش إلى وفد ايلخاني حضر إلى القاهرة في طلبه . [2] ثم دافع تيمور عن احتلاله تكريت وتنكيله بسكانها بحجة أن حاكمها كان سارقاً وقاطع طريق . وهدد الفاتح التركي بالإغارة على مصر في فصل الربيع القادم، إذا لم يلبّ طلبه ، ويوجه إليه أحمد جلاير . واحتج لقتل رسله الذين حملوا أول رسائله إلى السلطان برقوق ، وذكر بأنه سيزحف على بلاد الشام بقوات أكبر من التي زحف بها هولاكو على هذه البلاد . ثم ندد بقرا يوسف حليف أحمد جلاير ، ووصفه بأنه رجل مفسد . وختم رسالته بلفت انتباه برقوق إلى مؤامرة قال إنه علم بها ، وزعم أن اتفاقاً سرياً قد تمّ بين أحمد جلاير اللاجئ إلى القاهرة وبين "نعير" أحد أمراء عرب بادية الشام ضد المماليك . وقال إن المؤامرة إذا نُفّذت فسوف تؤدي إلى خراب دولة المماليك .

وقد مكنت إشارة تيمور في رسالته هذه إلى احتلاله تكريت من تحديد تاريخ تقريبي للرسالة . ولابد أن يكون هذا بعد ٢٥ محرم ٧٩٦هـ (الأول من كانون الأول ١٣٩٣م) ، وهو التاريخ الذي اجتاح به الفاتح التركي هذه المدينة ، على ما يذكره يزدي، [3] وقبل وقبل جمادى الأولى من ذلك العام الذي ذكره القلقشندي على أنه تاريخ رد برقوق على رسالة

(١) : التركاش: من المصطلحات العسكرية المملوكية ويعني جعبة السهام ، انظر المقريزي السلوك : ج ٣ق ٢ ص ٨١١ (٢) : انظر قصة دمرداش في بحث الدولة الايلخانية ص: ١٢٢—١٢٣ و ١٧٩—١٨٠ (٣) : يزدي: ج ١ص ٤٦٦

تيمور هذه . وبما أن رسالة برقوق الجوابية الأولى التي جاءت رسالة تيمور الأخيرة بعدها ، بعدها كانت بتاريخ السادس من ربيع الآخر ، ولذلك فانه يصبح من المؤكد أن تاريخ الرسالة التيمورية الجديدة ، كان بعد السادس من ربيع الآخر وقبل جمادى الأولى من ذلك العام ، وكان تيمور لا يزال يقاتل في الجزيرة. وكان رد برقوق على تلك الرسالة (وهو الرد الثاني له) رداً مطولاً ، أورده القلقشندي في إحدى عشرة صفحة[1] ، أظهر فيه السلطان المملوكي قدراً كبيراً من التعالي والترفع على تيمور، وتهكم عليه وسخر من ادعاءاته ، فكان يدعوه بالأمير ، ويخاطبه بصيغة المفرد ، في الوقت الذي يشير فيه إلى نفسه بصيغة جمع المتكلم ، وعيّره باقتدائـه بجنكيزخان ولم يصدق ادعاءه برغبته في تحسين العلاقات بين الدولتين ، فخاطبه قائلاً :

رد برقوق الثاني

" وأما ماذكرته من قولك : إنك فتحت معنا باب المحبة والوداد والصحبة والاتحاد . . والذي نعرفك به أن الذي وقع منك بخلاف ما قلت . " ثم انتقده لقبول لجوء اثنين من أمراء المماليك كانا قد فرّا من السلطان برقوق،[2] ولتحريضه أعراب بادية الشام للثورة على السلطات المملوكية، ووعْده نعيراً أمير هؤلاء الأعراب بتعيينه قائداً لجيوش تيمور ، ثم غدره بالسلطان أحمد جلاير بعد أن اقسم بأن لا يتعرض له . وبيّن له أن أحمد جلاير هو ضيف السلطان ، وحاله لا ينطبق على حال الثائر دمرداش في أيام السلطان أبي سعيد الايلخاني ، ليقوم المماليك بتسليم أحمد لتيمور . ثم يذكّر السلطان المملوكي الفاتح التركي بأعماله التي ارتكبها في بغداد قائلاً: " أفأهل بغداد كانوا حرامية وقطاع طريق حتى فعلت بهم مافعلت . . . وقد تعجبنا ياأمير تيمور إلى الغاية كيف تدعي أنك عادل . " وبيّن له كيف كان مصير حملات المغول والايلخانيين التي قصدت بلاد الشام ، أيام هولاكو وغازان ، ثم يقترح عليه أن يجتمعا في مكان يعينه تيمور " إما من ذاك الجانب من الفرات أو من هذا الجانب " لتسوية الامور المختلف عليها ، بما فيها موضوع السلطان أحمد . ويرد عليه لاحتجاجه على قتل أحد الرسل التيموريين بأن هذا المبعوث كان يقوم بأعمال التجسس . ويسخر من اتهام تيمور لقرا يوسف بأنه رجل مفسد ويقول له ساخراً : " والناس كلهم مناحيس وأنت الصالح " ، ويعلمه بأنه لا يرهب من ادعاء تيمور بأن البلاد سوف تتعرض للدمار إذا تم الاتفاق بين أمير العرب نعير وسلطان بغداد أحمد جلاير. ويرد عليه قائلاً " وستعلم دار من تخرب وعمر من يذهب . . . وها نحن واصلون بجيوش وجنود وعساكر مؤيدة من السباع أسبع ، لاتروى أسلحتهم من دم البغاة ولا تشبع ، والجواب ماترى لا ماتسمع " .

ويظهر أن موقف برقوق المتشدد كما ظهر من لهجة هذا الرد كان من جملة العوامل التي دفعت تيمور لأن ينبذ فكرة الإغارة على بلاد الشام في ذلك التاريخ نهائياً ، وأن يندفع نحو الشمال مبتعداً عن حدود دولة المماليك، بهدف رصد تحركات توقتميش خان القبجاق ، حليف السلطان برقوق . ولذلك لم يرَ تيمور ما يستوجب أن يرد على رسالة السلطان المملوكي ،

(١) : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ص٣٠٨ــ٣١٩ .
(٢) : كان أحد هؤلاء الأمراء المقصود بإشارة برقوق الأمير شكر أحمد الذي فرّ إلى تيمور عام ٧٩٦هـ انظر : ابن الفرات: م٩ج ٢ص٣٦٩.

ولم يكتب لاقتراح برقوق الاجتماع بتيمور عند نهر الفرات لحل المشاكل المعلقة بينهما حــلاً سلمياً أن ينفذ .

وكان برقوق من جهته لا يطمئن إلى نوايا تيمور ، ولا يثق بما كان يدعيه من رغبة في الصلح والتفاهم [١] ولا سيما بعد كشف السلطات المملوكية للعديد من شبكات التجسس التي بثها تيمور في حلب ودمشق والقاهرة ، وبعد أن تحقق السلطان المملوكي من إصرار الفاتح التركي على انتهاج سياسة التوسع وضم الأراضي في المناطق القريبة من الحدود الشرقية لدولة المماليك ، وعلى حساب حلفاء هذه الدولة ، كتركمان الغنمة السوداء والظاهر عيسى حاكم ماردين.[٢]
ولذلك فقد وجد برقوق أنه من الأسلم له أن يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً ومتشدداً من تيمور من أن يتمسك بسلام لا يركن إليه [٣] ، فمضى قدماً لإنشاء جبهة متحدة من الدول المعادية لتيمور ، وأظهر تصلباً كبيراً في موضوع الأسير التيموري المدعو " اتلاميش " الذي كان بعث به إلى القاهرة حليفه التركماني قرا يوسف الذي تمكن من أسره في أحد الاشتباكات مع القوات التيمورية في ضواحي تبريز عام ٧٩٨هـ(١٣٩٦م) ، ولما كان السلطان برقوق يسعى من أجل إقامة جبهة معادية لتيمور ، فقد أحاط حاكم بغداد أحمد جلاير ، عندما وصل إليه إلى القاهرة بكل مظاهر الاحترام والتأييد [٤] ولما نجح أحمد في استرجاع بغداد أقام الخطبة فيها باسم السلطاني المملوكي ، كدليل على أنه تابع له . وكان قد تلقى الخلعة وكتاب التولية على بغداد من السلطان برقوق [٥] عندما كان في دمشق .

محاولة برقوق إقامة جبهة معادية لتيمور مع أحمد جلاير

ومن ناحية أخرى فقد كانت ظروف السلطان العثماني بايزيد خلال حروبه ، ضد البيزنطيين وفي البر الأوربي ، قد أملت عليه التقرب من دولة المماليك والعمل على محالفتهم . فأرسل منذ عام ٧٩٣هـ(١٣٩١م) يحدث السلطان برقوق عن شدة الترابط القائم بين الدولتين ورغبته في قيام تحالف بينهما .[٦] ويبدو أن الظروف الداخلية التي كانت تمر بها دولة المماليك في تلك الآونة ، لم تسمح لبرقوق من أن يستجيب لطلب السلطان العثماني وعاد بايزيد لمراسلة المماليك في الموضوع نفسه في آخر عام ٧٩٦هـ(١٣٩٤م) . وأعلم برقوق

مع العثمانيين

(١) : طرخان : ص٢٤
(٢) : Grousset: op. cit. P.527
(٣) : Sobernheim: Barkuk (E.I.T.I P, 679-680) P. 680
(٤) : صور المقريزي الاستقبال الودي الذي أبداه برقوق لأحمد جلاير بظاهر القاهرة ، فذكر أنه بتاريخ ١٧ صفر ٧٩٦هـ خرج السلطان مع حاشية كبيرة إلى الريدانية ، حيث أقيمت هناك مصطبة جلس السلطان عليها . ولما قدم موكب أحمد نزل السلطان عن المصطبة وحاول أحمد تقبيل يد السلطان ، ولكن برقوق لم يمكنه من ذلك . ويتابع المقريزي حديثه فيقول : " وعانقه وبكيا ساعة ثم مشيا ، والسلطان يطيب خاطره ويعده بعودة ملكه ويده في يده حتى صعدوا [كذا] المصطبة وجلسا على البساط من غير كرسي ، وتحادثا طويلاً ، انظر السلوك للمقريزي : ج ٣ ق٢ ص ٨٠٠ ونقل ابن قاضي شهبة صورة أخرى للعبارات التي خاطب بها السلطان برقوق أحمد جلاير " طيب خاطرك فأنا إن شاء الله تعالى أجلسك على كرسي مملكتك " . انظر ابن قاضي شهبة : ص ٥٠٤ وكان هذا المؤرخ الدمشقي المعاصر قد شاهد أحمد جلاير عندما مر من دمشق في طريقه إلى القاهرة فقال عنه إنه دميم الشكل ذو لحية خفيفة . وقد تدافع سكان دمشق لرؤيته . انظر أيضا ابن قاضي شهبة : ص ٥٠٣ .
(٥) : ابن قاضي شهبة : ص٥١٥
(٦) : فريدون : ج ١ ص ١١٥ اقرأ في الفصل السابق بعض فقرات هذه الرسالة .

بأنه يقف على رأس مائتي ألف فارس بانتظار أوامر السلطان المملوكي . وكان الوفد العثماني الذي حمل الرسالة قد جلب معه بعض الهدايا، وصفها المقريزي بأنها هدايا سنية، كان من جملتها باز أبيض.[1] وعلى الرغم من أن المصادر المملوكية المعاصرة لم تشر إلى الموقف المباشر الذي اتخذه برقوق من عرض التحالف الذي قدمه بايزيد، إلا أن سلطات القاهرة على الرغم من المخاوف التي كانت تبديها من ازدياد قوة العثمانيين، أرسلت في العام التالي (٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م)، تعلم بايزيد بموافقة الخليفة العباسي على طلبه بمنحه لقب سلطان الروم.[2] ويظهر أن هذا التقارب العثماني ـ المملوكي قد آتى ثماره على الفور، ودفع الفاتح التركي الذي شعر بخطورة مواجهة العثمانيين والمماليك معاً، لأن يستمر على قراره في الابتعاد بعملياته العسكرية عن المناطق المتاخمة لحدود الدولتين، وأن يتابع السير إلى الشمال بحجة الرغبة في قتال القبجاق، ليستفيد من ضعف التحالف بين المماليك والقبجاق من الناحية العملية لبعد المسافة بين الدولتين .

وكان السلطان برقوق من ناحية ثالثة قد عمل على تقوية علاقاته بدولة القبجاق . فاستقبل في دمشق عام ٧٩٦هـ وفداً بعث به توقتميش خان،[3] جاء ليقول للسلطان المملوكي على لسان خان القبجاق : "أن يكون وإياه يداً واحدة على الطاغي الباغي تمرلنك".[4] ويقول كل من القلقشندي والسخاوي إن المباحثات بين الجانبين أسفرت عن توقيع معاهدة تحالف بينهما ضد تيمور.[5] وظهرت نتائج هذا التحالف أيضاً على الفور ـ بالنسبة لكلا الطرفين المتحالفين . فقد تقدم توقتميش على رأس قواته إلى عتبة دربند، في ذلك العام (٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م) مهدداً اذربيجان التي أصبحت الآن من أملاك تيمور، وكان ذلك أيضاً من جملة الأسباب التي جعلت الفاتح التركي يصرف النظر عن الإغارة على بلاد الشام، ويمتنع عن توسيع نطاق الاشتباك الذي وقع بين طلائع من قواته وقوات المماليك في مدينة الرها . وبسبب هذا التحالف أيضاً فقد تحركت قوات مملوكية إلى بلاد القبجاق . وكانت هذه القوات موجودة في العاصمة سراي عند غارة تيمور عليها في أواخر عام ٧٩٧هـ (تشرين الاول ١٣٩٥م).[6]

وكان من الطبيعي أيضاً أن يبدي السلطان برقوق ترحيباً برغبة الدويلات الصغيرة القائمة في إيران والجزيرة العليا وآسية الصغرى للتقرب من دولة المماليك، عندما أضحى خطر القوات التيمورية العاملة بالقرب من حدود بلاده الشرقية أمراً لا يمكن تجاهله، بعد أن كان يبدي في السابق كثيراً من اللامبالاة حيال رغبة هذه الدول . وكانت هذه الدويلات القائمة بين أملاك تيمور وبين دولة المماليك تنشد التحالف مع برقوق للحصول على مساعدته لدرء الخطر التيموري الزاحف عليها من الشرق . وتنطبق هذه الحال على تركمان الغنمة السوداء والإمارة الأرتقية في ماردين، وإمارة القاضي أحمد برهان الدين في سيواس.

---

(١) : المقريزي: السلوك ج ٣ ق٢ ص ٧٩٠ والعسقلاني: ج ١ص ٤٧١ وابن الفرات م٩ ج ٢ص ٤٧٦

(٢) : ابن الشحنة : ص ٢٠٧ والعسقلاني: نفسه .

(٣) : المقريزي : السلوك ج ٣ق ٢ص ٨١٣

(٤) : ابن قاضي شهبة : ص ٥١٢

(٥) : القلقشندي: الإنافة ج ٣ ص ١٩٠ والسخاوي : ج ٢ص ٤٦

(٦) : المقريزي: السلوك ج ٣ق ٢ص ٨١٣ والعسقلاني : ج ١ص ٤٧١ وابن قاضي شهبة: ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ انظر تفصيلات أخرى عن هذه النقطة في الفصل الثاني من الباب الخامس من هذا البحث .

وكان قرا محمد والد قرا يوسف قد أرسل إلى القاهرة منذ عام ٧٨٧هـ (١٣٨٥م) يلتمس السماح له في حال الضرورة أن يلجأ إلى بلاد الشام . (١) وقد قرب الخطر التيموري بين دولة الغنمة السوداء والدولة الجلايرية في بغداد ، واضطرهما إلى نسيان المنازعات الإقليمية للوقوف معاً في وجه تيمور . وتم الاتفاق ، على ما يذكر ابن الفرات ، بهذا الشأن بين قرا محمد وأحمد جلاير عام ٧٨٩هـ(١٣٨٧م) ، في إثر نجاح تيمور بانتزاع تبريز من أحمد جلاير. ونقل أخبار هذا الاتفاق إلى مصر أحد التجار كان قد قدم من المشرق . (٢)

مع تركمان الغنمة السود

وعلى الرغم من أن تيمور لم يطلق سراح الظاهر مجد الدين عيسى الأرتقي من معتقله في السلطانية ، ويعيده إلى حكم إمارة ماردين ، إلا بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق بالبقاء على الولاء له . فإن الظاهر عيسى قد ندم على إظهاره الولاء للفاتح التركي عند اطلاق سراحه في رمضان عام ٧٩٨هـ(تموز ١٣٩٦م) ، فأرسل بعد عامين (٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م) إلى القاهرة يعتذر عن تصرفه السابق حيال الفاتح التركي ، ويبرر هذا التصرف بالمعاملة القاسية التي لقيها في سجنه الذي امتد عاماً ونيف ، حيث كان يوسف خلال هذه المدة بقيود من الحديد تزن خمسين رطلاً . (٣) وكان قد سبقه إلى القاهرة قبل عام نائبه الأمير علاء الدين الطنبغا ليشرح للسلطات المملوكية فيها رغبته في إبقاء رباط الولاء بدولة المماليك . (٤) ويذهب ابن عربشاه إلى حد القول إن عودة الظاهر عيسى بولائه عام ٨٠٠هـ(١٣٩٨م) لسلطات القاهرة اتخذ في الوقت نفسه صفة العصيان والثورة على تيمور . (٥)

مع حكام ماردين

وكذلك فقد سبقت الإشارة إلى أن إقدام القاضي برهان الدين أحمد حاكم سيواس عام ٧٩٦هـ(١٣٩٤م) على قتل أعضاء الوفد التيموري الذي جاء يطلب منه أن يعلن ولاءه للفاتح التركي ، قد لقي استحسان السلطان المملوكي (٦) . وأرسل القاضي يعلم السلطان برقوق عن استعداده للسير على رأس قواته إلى أية جهة لقتال تيمور . (٧)

مع قاضي سيواس

ولا يعثر على أي احتكاك بين تيمور وبرقوق خلال عام ٧٩٧هـ(١٣٩٥م) ، بسبب ابتعاد الفاتح التركي عن المنطقة وانشغاله بقتال توقتميش خان . ولما آب في العام التالي إلى ماوراء النهر في نهاية "حروب السنوات الخمس" ، انتقلت مسؤولية المواجهة في تلك المرحلة مع دولة المماليك وحلفائها إلى ميرانشاه ، الذي عينه والده حاكما على تبريز وعلى المناطق الغربية من أملاكه . وقاتل ميرانشاه أحمد جلاير ورده عن تبريز ثم لاحقه حتى حاصره في بغداد . وقامت على ميرانشاه في هذه الأثناء حركة عصيان في حصن النجق . (٨)

وتشير مصادر مؤرخي الشام ومصر إلى أن أهم ماوقع من حوادث الصراع ، ذلك الذي

(١) : المقريزي : السلوك : ج ٣ق٢ ص٥٣٦ (٢) : ابن الفرات : م٩ج ١ص٧
(٣) : ابن حجر العسقلاني : ج ٢ص١٢ والمقريزي : السلوك ج ٣ق٢ص٨٩٨
: السلوك للمقريزي: ج٣ق٢ص٨٦٩ . (٥) : ابن عربشاه: ص٨٢.
ين عربشاه: ص٦٥ (انظر الفصل السابق لمزيد من التفصيل)
ربشاه : ص٦٥ وابن تغري بردي: ج ١٢ص٥٩
و : ص٤٠٧ ويزدي : ج ٢ص١٤٨-١٤٩ والعسقلاني : ج ٢ص١٩ (انظر أيضاً
بق) .

خاصه ميرانشاه مع تركمان الغنمة السوداء خلال عامي ٧٩٨هـ (١٣٩٦ و ١٣٩٧م) ·وكان قرايوسف قد نجح في أسر أحد قواد تيمور المقربين يدعى "اتلاميش قاوجين"، الذي كان يحكم إحدى القلاع بجوار تبريز [١]. ويقول يزدي إنها كانت قلعة اونيك [٢]. وذكر مؤرخو مصر والشام أن اتلاميش كان أحد أصفياء تيمور، وقد نزل من حصنه للصيد عندما وقع أسيراً في يد قرا يوسف في صفر من عام ٧٩٨هـ (تشرين الثاني ١٣٩٥م) · وأرسل الزعيم التركماني أسيره إلى القاهرة، حيث زُجَّ به في السجن بأمر من السلطان برقوق [٣].

أسر اتلاميش

وكان أسر اتلاميش وسجنه في القاهرة، مناسبة لاستئناف المراسلات بين الجانبين بعد توقف دام ثلاث سنوات. فأرسل تيمور من سمرقند عام ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) رسالته الرابعة إلى الظاهر برقوق، يطالبه بإطلاق سراح اتلاميش · ولم تسمح السلطات المملوكية للوفد التيموري الذي كان يحمل الرسالة، عندما بلغ دمشق، بمتابعة السير إلى القاهرة · بل طلب إلى أعضائه تسليم الرسالة التي كانت معهم والانتظار · وجاء رد السلطان برقوق (وهو الـرد الثالث) كما أورده ابن حجر العسقلاني : "إنك إذا أطلقت من عندك من جهتي، أطلقت من عندي من جهتك والسلام." [٤] وكان برقوق قد طلب من اتلاميش أن يكتب إلى تيمور، ويصف له ماعليه من حسن المعاملة · وأرفقت رسالة اتلاميش التي حررت "بالمغلي" (التركية الجغتائية) برسالة السلطان المملوكي. وسُلِّمت الرسالتان إلى الوفد التيموري الذي كان ينتظر في دمشق، ثم عاد الوفد إلى بلاده ·

مطالبة تيمور بـ

وفي الوقت الذي كان فيه تيمور، وهو يقيم في ماوراء النهر، يكاتب برقوق (عام ٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م)، من أجل إطلاق سراح اتلاميش، كانت المناوشات ماتزال مستمرة بين ميرانشاه وقرا يوسف، في منطقة ديار بكر وارمينية الشرقية · فقد أغار ابن تيمور على الموصل وانتقم من أهلها، ونكل بعشائر تركمان الغنمة السوداء (القرهقيونلو) النازلين في المنطقة، مما اضطر قرا يوسف نفسه إلى الفرار إلى بلاد الشام [٥]

أعمال ميرانشاه

وتتحدث المصادر السريانية عن الأعمال التي قامت بها القوات التيمورية في ذلك الوقت، في أحد جبال المنطقة (منطقة ديار بكر) ويدعى "طورعبدين" [٦]، الذي كانت غالبية سكانه من العناصر السريانية. ويقول أحد هذه المصادر [٧] إن هذه القوات أغارت على أحد الأديرة في المنطقة وقتلت الأسقف مع أربعين من رهبان الدير وخمسمائة من سكان المنطقة خنقاً بالدخان، وذلك عندما أوقد الجند النيران أمام باب المغارة التي كانوا يحتمون بها [٨]. وتشير هذه المصادر إلى أن أسقف أحد الأديرة الأخرى استطاع بما أظهره من خضوع أمام

(١) : المقريزي: السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٨٥١ وابن الفرات: م ٩ ج ٢ ص ٤٣٠ والعسقلاني : ج ٢ ص ٢٣ وابن الشحنة ص ٢٣٨ وحافظ آبرو : ص ١٥٩ (٢) : يزدي: ج ٢ ص ٢٠٠

(٣) : ابن الفرات: م ٩ ج ٢ ص ٤٣٠ وابن قاضي شهبة : ص ٥٧٤ وأفاد ابن أياس (ج ١ ص ٣٠٦) أن اتلاميش كان مخموراً عند أسره · (٤) : العسقلاني: ج ١ ص ٥٢٢ وقد أورد ابن الفرات صورة أخرى لهذه الرسالة شبيهة بها هي: "أصحابك عندي وعندك جماعة من أصحابي فأرسل لي أصحابي حتى أرسل لك اصحابك" انظر ابن الفرات: م ٩ ج ٢ ص ٤٥٣.

(٥) : العسقلاني : ج ١ ص ٤٥٣ (٦) : طورعبدين جبل يتوسط مدن جزيرة ابن عمر وماردين ونصيبين وآمد (انظر تاريخ طورعبدين تأليف مار اغناطيوس أفرام الاول برصوم ص ١٩٨)

(٧) . Budge : op. cit. P. 37 (٨) : Budge: ibid .

ميرانشاه أن يحصل على عفو منه.وكان ابن الفاتح التركي قد استجاب لتوسلات الأسقف ولم يتعرض بأذى لسكان القرية التي كان يقوم هذا الدير بجوارها،ومنحه لذلك سنديلاً كدليل على حصوله على هذا العفو [١]. وجرت في تلك الآونة استعدادات عسكرية في مصر وتقدمت قوات مملوكية منها إلى بلاد الشام باتجاه سيواس،عندما علم المماليك بتوجه ميرانشاه إلى ملطية . ولكن هذه القوات سرعان ما انسحبت عائدة إلى بلاد الشام ،عندما عادت القوات المغيرة عنها [٢].

أسباب الإغارة على الشام عند عند مؤرخي العصر الوسيط المسلمين .

ويتفق مؤرخو مصر والشام مع المؤرخين التيموريين في القول بوجود مجموعة من المسائل اختلفت فيها مواقف كل من تيمور وبرقوق ، وكان هذا الاختلاف في المواقف من الأسباب التي أدت إلى سير تيمور لاجتياح بلاد الشام عام ٨٠٣هـ (١٤٠١م) . ويلح يزدي بشكل خاص على إقدام السلطات المملوكية في الرحبة على قتل أعضاء الوفد التيموري في عام ٧٩٦هجرى / (١٣٩٤م). ويقول إنه قد نجم عن هذا الحادث عواقب وخيمة ،ويوازن بينه وبين إقدام السلطان الخوارزمي محمد علاء الدين خوارزم شاه على قتل رسل جنكيز خان عام ٦١٦هـ(١٢١٨م) في اوترار ،هذا الحادث الذي كان السبب المباشر لحركة الفاتح المغولي على رأس جحافله التي اجتاحت شرق العالم الإسلامي في ذلك الوقت [٣]. ويرى العسقلاني في حادثة أسر اتلاميش وامتناع برقوق عن تسليمه سبباً آخر هاماً لزحف تيمور على بلاد الشام.ويعلق على ذلك: " وكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب في حركة تيمور إلى البلاد الشامية " [٤]. وأشار ابن عربشاه إلى هذين الأمرين فقال إنه عند مروره فيما بعد بمدينة حماه عام ٨٣٩هـ (١٣٤٥م)،وهو في طريقه إلى بلاد الروم قد اطلع على نقش في أحد مساجد المدينة يدعى " الجامع النوري "كتب باللغة الفارسية يرجع تاريخه إلى عام ٨٠٣هـ (١٤٠١م) ،وهو التاريخ الذي قدم به الفاتح التركي إلى بلاد الشام . وأورد ابن عربشاه ترجمة النص المكتوب على ذلك النقش في مؤلفه على الشكل التالي : " وسبب تصوير هذا التسطير هو أن الله تعالى يسر لنا فتح البلاد حتى انتهى استخلاصنا الممالك إلى العراق وبغداد ،فجاورنا سلطان مصر ثم أرسلناه [كذا! ويقصد راسلناه] وبعثنا إليه قصادنا بأنواع التحف والهدايا،فقتل قصادنا من غير موجب لذلك. وكان قصدنا بذلك أن تنعقد المودة بين الجانبين ،وتتأكد الصداقة بين الطرفين . ثم بعد ذلك بمدة قبض بعض التراكمة على أناس من جهتنا.وأرسلهم إلى سلطان مصر برقوق فسجنهم وضيق عليهم ،فلزم من هذا أنا توجهنا لاستخلاص متعلقينا من أيدي مخالفينا ،واتفق لذلك نزولنا بحماه في العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ" [٥]. ويضيف ابن الشحنة على ما قرأه ابن عربشاه في ذلك النقش من الأسباب التي دفعت تيمور للإغارة على بلاد الشام ، سبباً آخر هو حقد تيمور على برقوق لمساعدته أحمد جلاير على استعادة عرشه في بغداد [٦].

(١) : Budge: ibid . (٢) : العسقلاني: ج ٢ص١٨ وابن قاضي شهبة: ص ٦٢٠ والمقريزي : السلوك: ج ٣ق ٢ ص ٨٢٠ . (٣) : يزدي: ج ٢ص ١٩٩ .

(٤) : العسقلاني : ج ١ص ٥٠٩ . (٥) : ابن عربشاه ص ٩٦ وقد أورد العسقلاني نتفاً من النص انظر له: ج ٢ص ١٣٩ — ١٤٠

(٦) : ابن الشحنة : ص ٢١٠

ومهما يكن من أمر الحجج والمبررات التي رآها هؤلاء المؤرخون والتي كان لها دور في جعل الفاتح التركي يفكر بغزو بلاد الشام ، فإن أيّ منها لم يكن العامل الحاسم الذي دفع تيمور للقدوم إلى هذه البلاد. لأن الفاتح التركي قد انتظر طويلا بعد وقوع هذه الأحداث ولم يتخذ أي إجراء يدل على رغبته القيام بهذا الغزو ، بل على العكس من ذلك ، فقد اتجه شرقاً وقام بحملته على الهند عام ٨٠٠هـ(١٣٩٨م) ، متجاوزاً كل مطامعه في هذه البلاد ، ومتجاهلا كل ما قام به برقوق من أعمال التحدي والاستفزاز. وظهر أن تيمور في تلك الآونة قد وقع ضحية الحرب النفسية التي جابهه بها السلطان المملوكي ، عندما لم يقبل برقوق أن يعامل تيمور معاملة الند للند ، فأمعن بالاستعلاء عليه ، وقابل كل عمل قام به تيمور بعمل آخر يدل على تصميم تام على الحرب والمقاومة ، مما أثر في ثقة الفاتح التركي بنفسه ، ودفعه خوفه من السلطان لأن يتراجع عن عزمه على الإغارة على بلاد الشام ، وفضّل أن يتمالك نفسه ويكظم غيظه . وبعد أن أتم غارته على بلاد القبجاق ، ذهب ليقاتل في الهند ، ولكنه لما آب إلى بلاده كان سماعه لخبر وفاة برقوق في شوال ٨٠١هـ (تموز ١٣٩٩م) مبعث سرور وارتياح على حد قول يزدي [1] وأمر لمن حمل له هذا الخبر بجائزة سنية [2]. وكانت وفاة برقوق من جملة الأسباب التي دفعت تيمور للعودة إلى القتال في الميدان الغربي والاغارة على بلاد الشام [3]، إن لم تكن أهم هذه الاسباب . فقد تحركت الجيوش التيمورية بعد أقل من شهرين من وفاة برقوق . ويقول ابن عربشاه إن تيمور جهد لإخفاء الأهداف الحقيقية لخروجه الجديد في مطلع عام ٨٠٢هـ(أيلول ١٣٩٩م) _ وهي قتال العثمانيين والمماليك _ بادعاء وقوع خلاف بينه وبين ابنه ميرانشاه حاكم الجزء الغربي من امبراطورية تيمور ، وهو الجزء المتاخم لأملاك العثمانيين والمماليك .

السبب الفعلي

...ي: ج ٢ص١٥٨ (٢) :ابن الشحنة : ص٢١٠

Sykes: op. cit. T. II P.129 , Grousset: op. cit. P.

...شاه: ص٧٢

الفصـــل الثامـــن

اجتيـاح شـمال الشــام

٨٠٣ هـ (بين ١٤٠٠ـ١٤٠١م)

صفات السلطان فرج ـ وضع الشام ـ أعمال بايزيد ـ رسالتا تيمور إلى فرج وأهالي دمشق ـ رد الفعل المملوكي ـ تجمع قوات المماليك في حلب ـ الجيش المهاجم ـ طريق تيمور إلى حلب ـ موقف تيمور تاش ـ خطة الدفاع ـ انخفاض الروح المعنوية ـ المعركة ـ أعمال التنكيل ـ استسلام القلعة ـ مناظرة العلماء ـ انسحاب تيمور ـ احتلال حماه ـ المرور بحمص ـ فسي بعلبك ـ فرقة في بيروت وصيدا ـ نحو دمشق .

صفات السلطان فرج

كان السلطان الناصر فرج بن فرقوق في العاشرة من العمر عند اعتلائه العرش ، خلفاً لأبيه في شوال عام ٨٠١هـ (آب ١٣٩٩م) . وكان بالإضافة إلى صغر سنه يفتقر إلى تلك الشخصية القوية النشيطة التي كانت لأبيه والتي مكّنته على الرغم مما حفل به عهده من الثورات والفتن الداخلية من أن يصمد أمام تهديدات الفاتح التركي وتحدياته . وتتفق آراء المؤرخين على اختلاف مشاربهم في تصوير فرج ، على أنه حاكم قليل الخبرة ضعيف الإرادة مستسلم بحكم صغر سنه لمن هم أكبر منه من الأمراء الذين اختلفت أهواؤهم وتضاربت مطامعهم . ولذلك فقد وجد السلطان الصغير في الاستسلام للملذات ولا سيما تجرع الخمر مجالاً للتغافل عما يحيق بالبلاد من مشاكل في الداخل والخارج . ولذلك كان من الطبيعي أن تتفاقم حالة الفوضى وتزداد الفتن والمنازعات بين كبار الأمراء الملتفين حول السلطان الصغير [(١)] ، في وقت كثرت فيه الأخبار عما كانت جيوش تيمور تقوم به من أعمال في البلاد القريبة من بلاد الشام ، وعن قرب غزو هذه الجيوش لبلاد الشام نفسها . [(٢)]

وضع الشام

وكانت أهم الفتن التي ظهرت في مطلع عهد فرج ، الثورة التي قام بها نائب الشام الامير " تنم " عام ٨٠٢ هـ (١٤٠٠م) في دمشق . ووقف معه نواب طرابلس وحماه وحلب . مما اضطر السلطان الخروج من القاهرة إلى الشام ، حيث انتصر على الثوار في غزة ، وقتل زعيمهم " تنم " مع بعض أعوانه [(٣)] ، في الوقت الذي كان الخلاف فيه على أشدّه بين عشائر العرب والتركمان في بادية الشام [(٤)] .

---

(١) : العسقلاني : ج ٢ص ١٤٣ ويزدي : ج ٢ص ٢٠٠ وابن أياس : ج ١ص ٣٢٨ ويورد عدد من المؤرخين بعض الصور عن مدى ضعف شخصية السلطان واستكانته، فيقول ابن أياس (ج ١ص ٣٣٠) إن بعض مماليك السلطان عام ٨٠٣هـ لما كان في دمشق للدفاع عنها ضد تيمور ، قاموا إليه [إلى السلطان] وأركبوه غصباً وخرجوا به عند الفجر إلى مصر . ويشير ابن عربشاه إلى أن تيمور خاطب مرة وفداً مملوكياً قائلا لأحد أفراد هذا الوفد : " إن مُرسِلك أقلّ من أن أجاملَه وأذلّ من أن أراسله " (انظر ابن عربشاه : ص ١١١) . وكان فرج كما يقول العسقلاني " يتقبل هذا التجريح ولا تسعه المخالفة " (انظر العسقلاني : ج ٢ص ١٤٣) .

(٢) : العسقلاني : ج ١ص ٤٥٤ وج ٢ص ١١٠ الذي ذكر أن الإرجاف كثُر في دمشق عام ٨٠٢ و ٨٠٣ بمسيرة تيمور إليها .

(٣) : ابن الشحنة : ص ٢٠٩ وابن خلدون : التعريف . . ص ٣٤٧ـ٣٤٨ والقلقشندي : الإناقة ج ٣ ص ١٩١ وابن أياس : ج ١ص ٣١٩ـ٣٢٤ .

(٤) : ابن حجر العسقلاني : ج ٢ص ١٣٦

وانتهز السلطان العثماني بايزيد فرصة هذه الاضطرابات ، فأقدم على احتلال ملطية التي كانت تابعة لدولة المماليك في العام نفسه (٨٠٢هـ / ١٤٠٠م) ، على الرغم مما كان يدعيه في أيام برقوق من الرغبة في مخالفة المماليك .[١] وقد تذرع بايزيد لاحتلاله ملطية بحالة الفوضى وانتشار الخلافات بين الأمراء في الدولة المملوكية ، بعد وفاة السلطان برقوق[٢] .

أعمال بايزيد

ومهد تيمور لغزو بلاد الشام بتوجيه رسالة إلى السلطان فرج ، عندما كان يهم بالإغارة على ملطية في مطلع عام ٨٠٣هـ (١٤٠١م). وقد اشترط في هذه الرسالة ليعود عن بلاد دمشق الشام أن يطلق سراح الأسير اتلميش ، الذي كان برقوق قد رفض إطلاق سراحه . ويبدو أن تيمور لم يكن صادقاً في موقفه ، عندما اشترط اطلاق اتلمش ليمتنع عن مهاجمة بلاد الشام . لأنه لم ينتظر في ضواحي ملطية حيث حرر رسالته ، حتى يأتيه جواب القاهرة بالرفض أو بالموافقة . بل أوغل مسافات كبيرة في بلاد الشام حتى بلغ دمشق ، حيث جاءه الجواب بالموافقة على طلبه .

رسالتا تيمور إلى فرج وأهالي دمشق

ويتأكد عدم صدق تيمور في تعامله مع السلطان فرج من رسالة ثانية وجهها إلى القضاة ورجال الدين في دمشق . وقد أشار إلى تلك الرسالة كل من ابن قاضي شهبة والمقريزي المعاصرين[٣] وكان حامل الرسالة قد بلغ دمشق في أوائل صفر ٨٠٣هـ (أيلول ١٤٠٠م) ، في الوقت الذي بلغ فيه تيمور في زحفه على بلاد الشام قريباً من حلب ، وأشار تيمور في هذه الرسالة إلى الأسباب الحقيقية التي دفعته للقدوم مرة ثانية إلى حدود دولة المماليك ، وهي رغبته في الوصول إلى مصر ليضرب بها السكة ويذكر اسمه في الخطبة ، ويقر سلطان مصر على عرشه فيها . وهو وإن طالب — في هذه الرسالة — بتسليم اتلاميش ، إلا أنه لا يجعل من هذا الأمر شرطاً لعودته عن بلاد الشام ، بل اكتفى بالتهديد والوعيد إذا لم يلبّ طلبه بإطلاق اتلاميش من معتقله .

واكتفى السلطان فرج إثر ورود خبر استيلاء تيمور على ملطية ، وطلب النجدة "ادركوا المسلمين وإلا هلكوا " بإيفاد أحد أمرائه إلى بلاد الشام ، للحصول على المزيد من المعلومات وتجهيز القوات الموجودة فيها للقتال . وتلا رسول السلطان على الناس في مسجد بني أمية بدمشق كتاب فرج الذي يأمرهم فيه بالتوجه لقتال تيمور . وعُقد لواء القيادة العامة في بلاد الشام لنائب دمشق الجديد الأمير " سودون " الذي نهض بقواته إلى حلب . وقد وصلت إليها أيضاً قوات نواب حماه وطرابلس وبعلبك وصفد وغزة ، في صفر من ذلك العام[٤] (أيلول ١٤٠٠م) حلب

رد الفعل المملوكي

تجمع قوات المماليك في حلب

(١) : ابن الشحنة : نفسه . (٢) : ابن عربشاه : ص ١٢١

(٣) : المقريزي : السلوك : ج ٣ق ٣ص ١٠٣١ وابن قاضي شهبة : ص ٢٠٠ الذي أورد صورة الكتاب على الشكل الآتي : " تعلمون أنا قصدنا عام أول [كذا] المجيء لأجل القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ، فلما وصلنا العراق بلغنا موته [موت الظاهر برقوق] . فرجعنا وقصدنا الهند ، لما بلغنا عنهم ما ارتكبوه من الفساد ، فأظفرنا الله بهم . ثم قصدنا الكرج ففعلنا بهم مثل ذلك ، ثم قصدنا لمّا بلغنا قلة أدب هذا الصبي أبي يزيد [بايزيد] — يعني ابن عثمان — أن نعرك له أذنه ، ففعلنا بسيواس وبلاده ما بلغكم ، ثم قصدنا بلاد مصر ليضرب بها السكة [كذا] ويذكر اسمنا بالخطبة ، ثم نرجع بعد أن نقر سلطان مصر بها . " ويتابع ابن قاضي شهبة كلامه " ثم طلب أن يرسل إليه اطلميش (اتلاميش) والمسجونون بالقاهرة ، وقال إن لم يجب إلى ذلك فتصير دماء أهل الشام وغيرهم في ذمتكم .

(٤) : ابن عرب شاه : ص ٨٥ والمقريزي : السلوك : ج ٣ق ٣ ص ١٣١ وابن تغري بردي : النجوم ... ج ١٢ ص ٢١٩ وشامي ض ٢٢٤

وتبدي المصادر التيمورية شيئاً من التهيب من قرار تيمور غزو بلاد الشام . فتشير المذكرات إلى أن قواد الفاتح التركي قد خاطبوه بلهجة قاسية عندما أعلمهم بعزمه على الإغارة على هذه البلاد ، وأعلموه بأنهم بحاجة إلى قوات كبيرة لمواجهة جيوش دولة المماليك .[1] ويتحدث يزدي عن صعوبة العمليات الحربية في بلاد الشام ذات القلاع المنيعة والمدن الزاخرة بالسكان،[2] في الوقت الذي كان فيه الجيش التيموري يضم أخلاطاً من شعوب متعددة ، فكان فيهم الترك والفرس والمغول والخطا ، كما ضم أعداداً ممن لا يزالون على الوثنية ، وكان فيه عدد من الأفيال التي جيء بها من الهند .[3] ويقدر ابن الشحنة عدد القوات المغيرة بثمانمائة ألف مقاتل ، ويوصل ابن خلدون هذا العدد إلى ألف ألف[4] (مليون) .

الجيش المهاجم

استطاعت القوات المغيرة أن تستولي على سلسلة المواقع إلى الجنوب من ملطية ، خلال أقل من شهرين ، قبل أن تظهر أمام أسوار حلب . وكان أهم هذه المواقع قلعة "بهسنا" الواقعة إلى الشرق من مرعش . وقد استولى عليها المغيرون بعد حصار استمر ثلاثة وعشرين يوماً ، وبعد ضربها بالمنجنيقات . وكان تيمور خلال عمليات الحصار يقيم معسكره على تل مجاور . وقد تعرضت حياته للخطر عندما سقط أحد حجارة المنجنيق تقذف به المدافعون عن القلعة في مكان قريب من خيمة تيمور . ولما يئس المدافعون من إمكانية النجاح ، أوفدوا إلى تيمور وفداً من قضاتهم وعلمائهم ، وتشفع لهم شاه رخ فعفي عنهم .[5] وبينما يقول يزدي إن تيمور اتجه بعد ذلك إلى "عين تاب" مباشرة ،[6] فإن ابن عربشاه يذكر أن تيمور قد مرّ قبل ذلك على حصن آخر يقع على الفرات يدعى "قلعة الروم" .[7] وكان استبسال الأمير المملوكي في الدفاع عن هذا الموقع المنيع ، دافعاً الفاتح التركي إلى تركه والاتجاه إلى عين تاب التي لم تقو على المقاومة إلا لمدة وجيزة ، فاستسلمت وفرّ سكانها إلى حلب .[8] ونفذ المغيرون بعد ذلك إلى "الباب" و "بزاغة"[9] في شمال شرق حلب .

طريق تيمور إلى حلب

وأرسل تيمور عندما كان في عين تاب رسالة إلى سودون — نائب دمشق والقائد العام للقوات المملوكية التي تجمعت في حلب — يطالبه بالامتثال لأمره ، مدعياً أن الخليفة العباسي قد أقره على ما بيده .[10] ويقول ابن أياس إن الرسالة كانت خشنة العبارة[11] . ولذلك أمر سودون بقتل الرسول حامل الرسالة ، ولم يلتفت إلى ما جاء فيها .[12] ويشير فريق

موقف تيمورتاش

(١) : Stewart: op. cit. P. 17 (٢) : يزدي: ج ٢ص ٢٠٣

(٣) : ابن عربشاه ص ٨٥ (٤) : ابن الشحنة : ص ٢١٠ وابن خلدون: التعريف . ص ٣٨٢ وقد ذكر السخاوي أن عددهم . (انظر الضوء اللامع ج ٢ص ٤٨) لا يعلمه إلا الله . (٥) : يزدي: ج ٢ص ٢٠٤—٢٠٦

(٦) : يزدي: ج ٢ص ٢٠٧ (٧) : ابن عربشاه : ص ٩٠ وأظهر محمد بن موسى حاكم القلعة شجاعة في الدفاع وقتل من جند تيمور أعداداً كبيرة كان يرسل رؤوسهم إلى حلب ، وعرض عليه تيمور الصلح وأرسل إليه يقول "فاحضر إلينا لترى الرحمة والشفقة ما لا مزيد عليه" ولكنه لم يقبل ، وا ستمر في المقاومة (ابن عربشاه ص ٩٠) .

(٨) : ابن الشحنة : ص ٢٠٧ (٩) : ابن أياس : ج ١ص ٣٢٦

(١٠) : ابن عربشاه: ص ٨٥ والعسقلاني ج ٢ص ١٣٣ (١١) : ابن أياس نفسه

(١٢) : المقريزي: السلوك : ج ٣ق ٣ص ١٠٣١ وابن عربشاه ص ٨٦

ويشير فريق من مؤرخي الشام ومصر إلى أن تيمورتاش حاكم حلب قد تسلم سراً من مبعوث تيمور رسالة أخرى تدعوه إلى الانحياز إليه،وتعده بإبقائه في منصبه في مقابل أن يعتقل سودون.(١) ولكن تيمورتاش رفض هذا العرض واطلع سودون على الرسالة ، ولذلك فقد أمر سودون بقتل موفد تيمور الذي أفاد قبل قتله ، أن تيمورتاش هو الذي كاتب تيمور وأطمعه بحلب.(٢) ويقول ابن قاضي شهبة إنه قد اطلع بنفسه على كتابة بخط أحد سكان حلب تفيد بأن رسالة بعث بها تيمور إلى تيمورتاش ، طالبه فيها بالانتقاض على سودون واعتقاله.(٣) ويورد بعض هؤلاء المؤرخين شكوكاً حول إخلاص تيمورتاش نحو سادته الحكام المماليك.فيقول ابن تغري بردي الذي ألف كتابه " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ، بعد تاريخ هذه المرحلة بوقت طويل نسبياً " ومن الحلبيين جماعة يقولون إلى الآن إنه كاتب تيمور وتقاعد عن القتال ".(٤) وتبدو هذه المسألة عند ابن عربشاه قضية مؤكدة لا تقبل الشك ، عندما يقرر " وكان دمرداش [تيمورتاش] قد باطن تيمور ".(٥) ويقدم ابن قاضي شهبة ذريعة يفسر بها تصرف حاكم حلب ، وهي أن نائب حلب كان تركي الأصل مبغضاً للسلاطين الشراكسة الذين استولوا على السلطة منذ مدة وجيزة.(٦) وتتحدث المصادر الفارسية بالمقابل عن تيمورتاش وتصفه بأنه كان يمتاز عن غيره من القواد المماليك الذين كانوا مجتمعين في ذلك الوقت في حلب ، بالكياسة والتعقل . وتقول هذه المصادر إن تيمورتاش تحدث أمام القواد الآخرين عن قوة جيوش الفاتح التركي واتساع أملاكه. ووصف التفكير في مقاومته بأنه ضرب من الحماقة ، ونصح المجتمعين لوضع خطة للدفاع عن حلب ومقاومة تيمور ، أن يعملوا على خطب وده ، لأنه مؤيد من الله ، وأن عليهم أن يقبلوا بضرب السكة وإجراء الخطبة باسمه.(٧) وعلى الرغم من أقوال المراجع الفارسية التي تفتح مجالاً كبيرا للشك في إخلاص تيمورتاش ، فإن ابن الشحنة الذي كان في ذلك الوقت يتولى منصب القضاء في حلب ، ووقع في النهاية في أسر الفاتح التركي ، عند احتلال المدينة ، وكان يحكم منصبه على اطلاع على كثير من خفايا الأمور ، فإنه لا يورد شيئاً في كتابه " روضة المناظر " عن مسألة الرسالة التي زعم أن تيمور أرسلها إليه سراً ، يحرضه بها على سودون ، بل إنه على العكس فهو يثني على تيمورتاش ، وينعته بصواب الرأي ، ويشير بشكل صريح إلى أن سودون أمر بقتل مبعوث تيمور قبل أن يستمع إلى كلامه.(٨) وقد ذهب المقريزي إلى القول إن الشبهات التي حامت حول إخلاص تيمورتاش بعد الذي ذكره رسول تيمور ، أمام الأمراء عن تيمورتاش قبل قتله — قتل الرسول — إنما كان من " تنميق تيمورلنك ودهائه ليفرق بذلك بين العساكر ".(٩) وعلى ذلك يكون رأي

(١) : العسقلاني: ج ٢ص ١٣٤ والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ص ١٠٣٢
(٢) : المقريزي نفسه . (٣) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠١ آ (٤) : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج ١٢ص ٢٢١ (٥) : ابن عربشاه: ص ٨٧
(٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢ ب
(٧) : شامي: ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ويزدي : ج ٢ص ٢٠٨ — ٢٠٩
(٨) : ابن الشحنة : ص ٢١٢ (٩) : المقريزي: السلوك ج ٣ق ٣ص ١٠٣٢

المقريزي هو ما يجب أن يعول عليه في هذا الموضوع .

خطة الدفاع

وتم في اجتماعات الأمراء التداول في إجراءات الدفاع . واختلفت الآراء كما يقول ابن الشحنة ـ وربما كان ممن حضروا تلك الاجتماعات ـ حول خطة الدفاع ، بين الدفاع من الداخل وبين الخروج إلى خارج الأسوار لملاقاة القوات المغيرة . ولما لم تنته المناقشات إلى رأي واحد، فقد اقترح تيمورتاش إخلاء المدينة وترك الأهالي ليتجه كل منهم إلى حيث يشاء ، ولكن بقية الحاضرين لم يوافقوه على هذا الرأي .[1] واقترح بعض الأمراء الاعتصام بأسوار المدينة حتى يصل جيش السلطان من مصر .[2] ولكن الاتفاق تم أخيراً على الخروج للتصدي للقوات المغيرة وحفر الخنادق ، والطلب إلى العشائر التركمانية والأعراب لمناجزة القوات الغازية ، اعتماداً على جهلها بأحوال البلاد وطبيعة أرضها .[3] ويعلق ابن الشحنة على هذه الخطة بأنها رأي صائب .[4] وعارض تيمورتاش هذه الخطة بحجة أنها تعطي الأعداء فكرة عن ضعف القوات المدافعة عن المدينة ، ولابد . كما كان يرى ـ من القيام بهجوم عام لرد القوات الغازية على أعقابها .[5] وتقرر أيضاً في هذه الاجتماعات أن يُدعى سكان حلب للاشتراك مع العساكر في عمليات المقاومة .[6] ونصبت المنجنيقات والمكاحل على الأسوار ،[7] وأوصدت الأبواب وتولى أبناء كل حي من أحياء المدينة مهمة الدفاع عن حيهم .[8] وقُدِّر عدد القوات التي اجتمعت في المدينة بثلاثة آلاف فارس[9] فقط .

انخفاض الروح المعنوية

وعلى الرغم مما اتخذ من تدابير للاستعداد والدفاع ، فإن المؤرخين في تلك الآونة، يعكسون صورة قاتمة عن الروح المعنوية السائدة بين الحكام وعامة الناس ، ويقول المقريزي عن ذلك " إلا أن الأهواء مختلفة والآراء مغلولة والعزائم محلولة والأمر مدبر " .[10] وقام بعض السكان بحمل أمتعتهم إلى القلعة .[11] وفر البعض الآخر منهم من المدينة إلى القرى المجاورة . وارتفعت لذلك أسعار حيوانات النقل (الحمير والبغال)[12]، لأن أخبار الأعمال التي قامت بها جيوش الفاتح التركي في البلاد الأخرى ، قد سبقت وصول هذه الجيوش إلى بلاد الشام[13]

المعركة

وتتفق المصادر الفارسية مع مصادر مؤرخي الشام ومصر في مراحل المعركة التي انتهت باحتلال تيمور حلب وفي تواريخ هذه المعركة. وكانت العساكر قد خرجت من المدينة إلى ظاهرها حيث ضربت الخيام بانتظار قدوم القوات المغيرة .[14] ويقول ابن أياس إن تقدم

(١) : ابن الشحنة : نفسه والعسقلاني : ج ٢ص ١٣٤ (٢) : العسقلاني : نفسه .
(٣) : ابن عربشاه : ص٨٦ (٤) : ابن الشحنة : نفسه . (٥) : ابن عربشاه : ص٨٧
(٦) : السخاوي : ج ٢ص٤٧ (٧) : ابن أياس : ج ١ص٣٢٦ (٨) : ابن عربشاه : ص ٨٨
(٩) : شامي : ص٢٢٤ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠١ آ والعسقلاني : نفسه .
(١٠) : المقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ ص١٠٣٢ ولابن قاضي شهبة (ورقة ٢٠١ آ) وابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ج ١٢ ص٢٢١) رأيان مماثلان .
(١١) : ابن الشحنة : ص٢١٢ والعسقلاني : ج ٢ص١٣٤ والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ ص ١٠٣٣
(١٢) : العسقلاني : ج ٢ ص١٣٤
(١٣) : العسقلاني : ج ١ص٤٥٢
(١٤) : العسقلاني : ج ٢ص١٣٤

تيمور من بزاعة إلى أسوار حلب كان عقب سماعه بمقتل رسوله ،[(١)] على يد السلطات المملوكية في حلب . وقامت القوات الغازية بالإلتفاف حول المدينة . وبدأت المناوشات بين الفريقين خلال اليومين الأول والثاني من بدء الحصار ، الخميس والجمعة ، التاسع والعاشر من ربيع الأول ٨٠٣ هجري (٢٩ و ٣٠ تشرين الأول ١٤٠٠ م) . ثم عاد كل منهما إلى معسكراته ، وخسرت القوات المغيرة بعض القتلى باعتراف المصادر الفارسية . وعادت قوات المماليك بأربعة من الأسرى فقتلوا في حلب .[(٢)] ووقعت المعركة الرئيسية في اليوم الثالث السبت ١١ ربيع الأول (٣١ تشرين الاول) . وأشرف تيمور بنفسه على تنظيم قواته في ليلة المعركة (ليلة الجمعة — السبت) ، فأعطى قيادة الجناح الأيمن إلى ميرانشاه وشاه رخ ، وسلم قيادة الجناح الأيسر للسلطان محمود بن سيورغتمش ، وكان يعاونه عدد من القواد . ووضع القلب تحت قيادته المباشرة . وتقدم القوات عدد من الأفيال قُدر بثمانية وعشرين فيلاً .[(٣)] ونظمت قوات المماليك بطريقة مشابهة ، فقاد نائب الشام سودون الميمنة ، ووقف تيمور تاش على رأس قواته في الميسرة ، وتجمعت قوات باقي النواب في القلب .[(٤)] وتجمع من خرج من أهالي حلب للقتال وكانوا مشاةً في المقدمة . واستطاعت قوات المماليك أن تثبت في القتال في المراحل الأولى منه ، وكان أثبت هذه الأقسام الميمنة التي يقودها سودون ، على الرغم من تطويق القوات الغازية لها ، ثم لم تلبث أقسام الجيش المملوكي أن أخذت تلوذ بالفرار . وكانت أول هذه الأجزاء الميسرة التي كانت بقيادة تيمور تاش . وانهارت أخيراً مقاومة المماليك خلال ساعة واحدة ، أمام شدة وطأة الهجوم الذي قامت به القوات المغيرة ، التي كانت تستخدم الأفيال ، فاستطاعت أن تصدم بها صفوف المماليك وتلقي الرعب في قلوب المقاتلين منهم ، فضلاً عن تفوق القوات الغازية العددي . وكانت تسير خلف الأفيال فتبدو كأمواج البحر "[(٥)] على حد قول ابن عربشاه .

وفرت أعدادٌ من جند المماليك باتجاه دمشق ، حاملةً معها أخبار الهزيمة إلى هناك . ولكن القسم الأعظم من المنهزمين عاد إلى حلب ، وكان جند الأعداء يجرون في إثرهم ، ويمشون عليهم " مشي الموسى على الشعر " . وحدث خلال هذه المطاردة أن داس الفرسان من جيش المماليك المشاة من ذلك الجيش . وألقى بعض المقاتلين ما كان معهم من أسلحة ولباس ، تخفيفاً وتسهيلاً لسرعة الجري . وحدث ازدحام عند أبواب المدينة ، ومات كثير من الناس بسبب هذا الازدحام . وتكدست جثث القتلى أمام بعض الابواب حتى قاربت أن تسدها بشكل كامل ، ولم تتمكن حاميات المماليك أمام الفوضى التي وصلت إليها الحال عند الأبواب من إغلاقها . ولذلك فقد تمكنت القوات المغيرة من دخول المدينة في إثر الفارين ، تقتل

(١) : ابن اياس : ج ١ ص ٣٢٦ (٢) : شامي : ص ٢٢٦ ويزدي : ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ وابن عربشاه : ص ٨٨ وابن الشحنة ص ٢١٢ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٠ ب و ٢٠٢ آ ، والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٠

(٣) : شامي : ٢٢٦ ويزدي : ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٣ والسخاوي : ج ٢ ص ٤٧

(٤) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢ آ والمقريزي : السلوك : ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢

(٥) : ابن عربشاه : ص ٨٩ ابن قاضي شهبة ورقة ٢٠٠ ب و ٢٠٢ آ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٣٥ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ وشامي : ص ٢٢٦ ويزدي : ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٦

وتأسر . واحتمى الأمراء المماليك بالقلعة ، ودخلت معهم إليها أعداد كبيرة من السكان . ثم أغلقت أبوابها على عجل . وسحب من بقي من الأمراء خارج القلعة بالحبال . واضطر بعضهم لالقاء أنفسهم في الخندق المحيط بها . (١) لإدراك الحبال قد سحبها .

ويعتبر يزدي أن جلب قد أضحت بيد الفاتح التركي منذ اليوم التالي للمعركة (الأحد ١٢ ربيع الأول / الأول من تشرين الثاني ١٤٠٠م) . (٢) ولكن أعمال التنكيل بالأهالي استمرت خلال اليومين التاليين (الإثنين والثلاثاء) ، إلى أن استسلمت القلعة . (٣) فأغارت القوات الغازية على المساجد للتنكيل بمن احتمى بها ، وكانوا في غالبيتهم من النساء والأطفال. ويقدم المؤرخون بعض صور التنكيل التي أنزلها المغيرون بهؤلاء ، فيقولون إن النساء قد ربطت بالحبال ، وأعمل السيف بالأطفال ، فضلاً عمن مات منهم تحت حوافر الخيول . وأضرمت النيران بعد ذلك في أرجاء المدينة . (٤) وقطعت الأشجار وهدمت البيوت ، وتكدست جثث القتلى في قارعة الطرقات ، حتى " صارت الأرجل لا تطأ إلا على جثة إنسان لكثرة القتلى " (٥) وحتى صار المسجد الجامع كالمجزرة " . (٦) ويقول غروسية إن سوق حلب التجاري الذي كان أحد الأسواق التجارية الهامة التي كانت تصل عن طريقه بضائع الشرق إلى أوربة ، قد قضت عليه أعمال تيمور عند اجتياح المدينة . (٧) وأقيمت أبراج من رؤوس القتلى . (٨) وأطلق يزدي على عمليات السلب والنهب التي يعترف بأنها استمرت خمسة عشر يوماً ، أعمال ضبط الأموال (٩) . ولكن المؤرخ الفارسي الآخر حافظ آبرو يعترف بأنها عمليات نهب على نطاق واسع ، لدور المدينة وقصورها ، ويشير إلى أنها استمرت المدة نفسها . (١٠)

أعمال التنكيل

ويشير أغلب مؤرخي تلك الآونة إلى أعمال هتك الأعراض . ويتحدثون عن عمليات الاغتصاب التي كانت تحدث علناً في المساجد ، وعلى مرأى من أقرباء الضحايا من أب أو أخ . وتتشابه في ذلك أقوال المؤرخ الدمشقي المعاصر لتلك الأحداث ابن قاضي شهبة والتي يقول إنه نقلها عن شهود العيان من سكان المدينة ، مع أقوال ابن حجر العسقلاني

---

(١) : ابن الشحنة : ص٢١٢ ابن عربشاه : ص٨٩ ابن قاضي شهبة ورقة ٢٠٠ب الذي ذكر أنه ينقل عن شاهد عيان من سكان حلب والمقريزي : السلوك ج ٣ق٢ص١٠٢٣ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص٢٢٣ والسخاوي : ج ٢ص٤٧ وشامي : ص٢٢٧ ويزدي : ج ٢ص٢١٦ — ٢١٧ (٢) : يزدي : ج ٢ص٢١٧

(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ والمقريزي : السلوك ج ٣ق٣ ص ١٠٣٤

(٤) : قدّر القس شيلتبرغر وهو معاصر عدد بيوت حلب بـ ٤٠٠ ألف منزل انظر : Terfer: op. cit. P. 22 (٥) : المقريزي : السلوك ج ٣ق٣ص١٠٣٢ وابن عربشاه : ص٨٩ والعسقلاني : ج ٢ص١٣٥ ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٠ب وابن أياس ج ١ص٣٢٦ — ٣٢٧ (٦) : العسقلاني : ج ٢ص١٣٥ (٧) : Grousset: ibid .

(٨) : ابن عربشاه : ص٨٩ ، وقد أفاد ابن عربشاه أن سبب إقامة مآذن من رؤوس القتلى من سكان حلب ، كانت رغبة أحد أقرباء رسول تيمور إلى حلب الذي قتلته السلطات المملوكية قبل الإغارة على المدينة . فقد طلب هذا القريب من تيمور أن يمكّنه من الانتقام لقريبه ، ولذلك اختار من أهالي حلب عدداً ليفعل بهم ما يراه مناسباً . فقتل طائفة منهم وأقام من رؤوسهم أبراجاً .

(٩) : يزدي : ج ٢ص٢٢٢ (١٠) : حافظ آبرو : ص١٦٠

وأقوال تقي الدين المقريزي المعاصرين أيضاً .[(١)] وينفرد المؤرخ الفارسي حافظ آبرو الذي رافق الحملة وشاهد ما فعله جند تيمور في حلب ، من دون بقية المؤرخين الفرس ، بالإشارة[(٢)] إلى حدوث مثل هذه الأعمال . ولا يعلم سبب عدم إشارة ابن عربشاه إلى مثل هذه الأعمال فيما كتبه عن تيمور ، ولعل السبب يرجع إلى عدم رغبته في الإشارة إلى مثل هذه المواضيع الجارحة والمحرجة ، ولا سيما بعد مرور وقت طويل على حدوثها .[(٣)] وكذلك فإن ابن الشحنة قاضي حلب لا يتعرض لذكر مثل هذه الوقائع بشكل صريح . واتصف كلامه عن أحداث حلب خلال غارة تيمور عليها ، بطابع العمومية وعدم الدخول في التفصيلات على الأغلب ، فلم يشر إلى حوادث السبي والقتل وهدم المساجد والمدارس والدور إلا بشكل سريع.[(٤)] واكتفى بالقول " وأخذ تيمورلنك حلب عنوة بالسيف ".[(٥)] ولا ينفي عدم إشارة ابن الشحنة إلى وقوع هذه الأعمال بشكل صريح ومفصل حدوث هذه الوقائع ، على الرغم من كونه في حلب ، عند دخول تيمور إليها . فقد ذكرها مؤرخون آخرون معاصرون . ويعلل سكوت ابن الشحنة عن إيراد تفصيلات هذه الوقائع ، برغبته في المحافظة على كرامة أبناء بلده .

وفي الوقت الذي انصرف فيه قسم من القوات المغيرة لمهاجمة المساجد والتنكيل بمن احتمى بها ، فإن قسماً آخر من هذه القوات قام بتطويق القلعة التي احتمى وراء أسوارها أمراء الجيش المملوكي وعدد كبير من خاصة السكان . وتتفق أقوال المؤرخين الفرس مع أقوال مؤرخي الشام ومصر إلى حد كبير في تصوير الحادثة ، فقد استمر الحصار ثلاثة أيام (السبت والأحد والاثنين) . وكان تيمور قد دخل حلب في اليوم التالي لاحتلالها ، الأحد ١٢ ربيع الأول ٨٠٣هـ (الأول من تشرين الثاني عام ١٤٠٠م) . ويصف المؤرخ التيموري نظام الدين شامي ـ وكان في حلب عند غارة الفاتح التركي عليها ـ مناعة القلعة فقال إنها تقوم على تلة عالية ، يحيط بها خندق يبلغ عرضه ستين ذراعاً ، مما يجعل الوصول إلى بوابتها أمراً صعباً .[(٦)] وكانت خطة تيمور لاقتحام القلعة ردم الخندق للوصول إلى الأسوار ونقبها . ونجح الجند في نقب السور من عدة أماكن .[(٧)] وأرسل تيمور خلال عمليات الحصار إلى الأمراء المماليك في داخل استسلام القلعة

(١) : ابن قاضي شهبة : فقد ذكر عن هذه الأعمال التي قام بها جند تيمور نقلاً عن احمد الغارين من أسر تيمور من أهالي حلب " وانتهكت الحرمات حتى صار المسجد الجامع كالمجزرة لكثرة ما فيه من القتلى ، ومثل الحانات في شرب الخمور والزنا [كذا] بالعفائف " انظر ابن قاضي شهبة ورقة ٢٠٢آ ، وقال في مكان آخر نقلا عن المصدر نفسه : " إنهم يطؤون البنت البكر في محراب المسجد الجامع ، ولا يحتشمون من الوطء بحضرة الناس " (الورقة ٢٠١ب) . وأما المقريزي فقال : " وصارت الأبكار تفتض من غير تستر ولا احتشام ، بل يأخذ الواحد الواحدة ويعلوها في المسجد الجامع بحضرة الجم الغفير من أصحابه ومن أهل حلب فيراها أبوها وأخوها ولا يقدر أن يدفع عنها " (السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣) ، ويقول العسقلاني : " وأفحشوا في النساء أمام أهليهن " العسقلاني : ج ٢ ص ١٣٥) وقال أقوالاً مشابهة كل من ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٢٣ وابن أياس : ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ١٦٠ آ .

(٣) : كتب ابن عربشاه كتابه عن تيمور (عجائب المقدور في نوائب تيمور) عام ٨٤٠هـ (١٤٣٥م) أي بعد مرور سبع وثلاثين سنة على وقوع هذه الأحداث . انظر عبد الله عنان : مصر الإسلامية القاهرة ١٩٣١م ص ١٢٥ .

(٤) : ابن الشحنة : ص ٢٢١

(٥) : ابن الشحنة : ص ٢١٢

(٦) : شامي : ص ٢٢٧ وورد القول نفسه يزدي : ج ٢ ص ٢١٨ـ٢١٩

(٧) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٣٥ .

القلعة يهددهم بقدرته ، وبأنه سوف ينتقم من أهليهم الذين أضحوا الآن تحت رحمته ، وأن المسؤولية في كل ذلك تقع عليهم بسبب عنادهم .[(١)] وشعر المحاصرون يوم الثلاثاء (١٤ ربيع الأول ٣ تشرين الثاني) ، أنه لم يعد بإمكانهم أن يستمروا في المقاومة . فأرسلوا مفاتيح بوابة القلعة إلى تيمور، وطلبوا منه الأمان ، فأجابهم إلى طلبهم " وأخذ القلعة بالأمان والأيمان التي ليس معها أيمان ".[(٢)] وكان أول من نزل إليه من القلعة نائب حلب تيمورتاش على رأس جماعة من أتباعه ، فاستقبل استقبالاً حسناً وخلع عليه وعلى مرافقيه أقبية وتيجاناً . وسلم الفاتح التركي تيمورتاش كتاباً بالأمان وخلعاً لبقية الأمراء الذين ظلوا في القلعة ، كما أرسل إليهم بهدايا أخرى ، وبعث تيمور تماشاً قوة لاستلام القلعة . وقُيِّد الأمراء قبل نزولهم كل اثنين بقيد واحد ، ثم أُنزلوا لمقابلة تيمور وهم على هذه الصورة . وقد بلغ عددهم مع أتباعهم زهاء الألف رجل .[(٣)] واستقبل الفاتح التركي الأمراء بالتوبيخ والتعنيف وخص سودون بمزيد من التهديد والوعيد .[(٤)] ثم أمر بالتحفظ على كل واحد منهم . وبدأ المغيرون على الفور بمصادرة الأموال والأمتعة التي كان أهالي حلب قد كدّسوها هناك . ويقول ابن الشحنة إن تيمور قد غدر بكل من كان في القلعة ، ولم يبق أحد فيها لم يلحق به أذىً من تيمور ، كتحديد الإقامة أو السجن أو التكبيل بالقيود أو دفع الغرامة . وقد ذكر أحد من أُوكل إليهم ضبط ما هو موجود في القلعة لقاضي حلب " أنه ما أخذ من مدينة قط ما أخذه من قلعة حلب ".[(٥)] واضطر الكثير ممن فرضت عليه الغرامات إلى الكتابة إلى من يعرفونه في دمشق ليدفعوا المبالغ التي فرضت على أصحابهم في حلب إلى خزائن تيمور عندما يصل إليهم هناك .[(٦)] ولما اطلع تيمور على مقدار ما أُخذ من القلعة قال متعجباً : " ما كنت أظن أن في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر ".[(٧)] ويعلق يزدي الذي أشار إلى كثرة ما وجد في القلعة من الغنائم ، بأن هذه الأموال كانت مكدسة من أيام السلاطين القدماء (ربما قصد السلاطين الأيوبيين) .[(٨)] وقُدِّمت إلى تيمور بعض النساء كن يحتمين بالقلعة فأمر بتفريقهن على أمرائه .[(٩)]

وصعد تيمور إلى القلعة في اليوم التالي لاحتلالها - الأربعاء ١٥ ربيع الاول (٤ تشرين الثاني) - وطلب العلماء (رجال الدين) لمقابلته . ويتحدث " محب الدين محمد بن الشحنة " قاضي حلب عن هذه المقابلة وما دار فيها من أحاديث ، لأنه كان أحد الذين أُحضروا لمقابلة الفاتح التركي ، وكان من أبرز الذين جادلوا تيمور في المسائل التي طُرحت للمناقشة . وقال إنه لما أُحضر مع غيره من رجال الدين : " فأُوقفنا ساعة ثم أمر بجلوسنا " ، وطلب من بين حاشيته الفقيه عبد الجبار بن النعمان الحنفي ليقوم بالترجمة بينه وبين العلماء ، لأن عبد الجبار كان يتقن اللغة العربية . وافتتح تيمور المناقشة بقوله إنه ينوي أن يطرح على الحاضرين سؤالاً

مناظرة العلماء

(١) : يزدي : ج ٢ص ٢٢٠ـ٢٢١ (٢) : ابن الشحنة : ص٢١٢ وأيد ذلك أيضاً : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ، والعسقلاني : نفسه، والمقريزي : نفسه وشامي : ص٢٢٨

(٣) : يزدي : ج ٢ص ٢٢١ (٤) : ابن عربشاه : ص٨٩ والعسقلاني : ج ٢ص١٣٥ ويزدي : نفسه .

(٥) : ابن الشحنة : ص٢١٩ (٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ .

(٧) : العسقلاني : ج ٢ص١٣٥ (٨) : يزدي : ج ٢ص ٢٢١

(٩) : المقريزي : السلوك ج ٣ق٣ص ١٠٢٤ والعسقلاني : ج ٢ص١٣٥ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ ـ

هاماً ، كان قد طرحه على كثير من رجال الدين في سمرقند وبخارى وهرات وغيرها من المدن ، ولم يتلق منهم جواباً شافياً . وعلى العلماء أن يترووا قبل إعطاء الجواب ، ويجب أن يتولى الرد أعلم الحاضرين وأفضلهم لأن عليه أن يعرف بماذا يجيب ، لأن لتيمور ولع بمجالسة العلماء لطلب العلم. ويتابع ابن الشحنة كلامه بأنه كان يتعنت مع العلماء بتوجيه الأسئلة الشائكة إليهم ، ويجعل ذلك سبباً لقتلهم أو التنكيل بهم. وانبرى في تلك اللحظة أحد الحاضرين وأشار إلى ابن الشحنة على أنه أعلم الحاضرين ، فسأله عبد الجبار : " سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم فمن الشهيد ؟ . قتيلنا أم قتيلكم " وسكت الحاضرون وتكلم ابن الشحنة فقال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا السؤال . وأجاب ، وأنا مجيب بجوابه" فوجه تيمور انتباهه إلى ما سيقوله المؤرخ ، بينما ارتسمت علامات السخرية على وجه المترجم عبد الجبار ، الذي قال : " وكيف ذلك ؟ " . فقال ابن الشحنة : " جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يارسول الله إن الرجل ليقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه ، فأينا في سبيل الله ؟ . فقال عليه السلام : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " ثم تابع قاضي حلب قوله : " ومن قاتل منا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد " فقال تيمور لما ترجم له الجواب : " خوب " (وهي كلمة فارسية تعني جيد) . واستحسن عبد الجبار الجواب . وزال الجفاء والتهيب من الجلسة بعد جواب ابن الشحنة ، " وانفتح باب المؤانسة " ولما أخذ تيمور يفتخر بامتداد دولته واتساع مساحتها وكثرة البلاد التي دانت له بالطاعة ، سأله ابن الشحنة قائلاً : " اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة ، ولا تقتل أحداً " . فأجاب تيمور على الفور : " إنما قتلتم أنفسكم على الأبواب ، والله لاأقتل أحداً وأنتم آمنون " وتكررت أسئلة تيمور وتنافس الحاضرون على الإجابة كأنهم أطفال في كتّاب . وكان آخر سؤال للفاتح التركي : " ماتقولون في معاوية ويزيد ؟ " فأسرّ أحد الحاضرين في أذن ابن الشحنة : " اعرف كيف تجاوبه فإنه شيعي ". ولكن أحد الحاضرين وهو القاضي المالكي أسرع وأجاب : " الكل مجتهدون ". فغضب تيمور وصاح قائلاً : " علي على حق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق. وأنتم حلبيون تبّع لأهل دمشق. وهم يزيديون قتلوا الحسين " وأسرع ابن الشحنة يحاول ملاطفته وتهدئة غضبه بحجة أن القاضي المالكي رجل جاهل ، فعاد تيمور إلى هدوئه وبسطه ولكن إلى مادون ماكان عليه . وسأل الفاتح التركي قاضي حلب عن عمره فأجابه إنه الآن في الخامسة والأربعين ، ثم أخذ يسأل بقية الحاضرين عن أعمارهم . ثم قال : " أنتم في عمر أولادي، إن عمري اليوم هو خمس وسبعون عاماً " . ولما حان وقت صلاة المغرب أداها تيمور إلى جانب ابن الشحنة وكان الإمام الفقيه عبد الجبار بن النعمان (المترجم) .(1)

وامتدت إقامة تيمور في حلب حتى الثالث من ربيع الآخر ٨٠٣هـ (٢١ تشرين الثاني ١٤٠٠م). وخصصت دار النيابة (مقر تيمورتاش) لإقامته . وتكلم ابن الشحنة عن مأدبة أقامها تيمور للقوادة في تلك الدار ، وقف فيها الأمراء والقواد في خدمة الفاتح التركي ، ودارت فيها كؤوس الخمر . وتم الاحتفال – كما يقول ابن الشحنة – وفق مراسم وتقاليد متوارثة منذ أيام المغول .(٢)

(1) : ابن الشحنة : ص٢١٣–٢١٩ (٢) : ابن الشحنة : ص٢٢٠–٢٢١

وتكررت لقاءات تيمور بالعلماء ومحاولاته معهم . وأعاد في أحد هذه اللقاءات السؤال عن معاوية وعلي ، فأجابه ابن الشحنة : " بأن علياً على حق وأن معاوية ليس من الخلفاء ، لأنه صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الخلافة من بعدي ثلاثون عاماً " ، وقد تمت بعلي " ولم تعجب إجابة القاضي المؤرخ الفاتح التركي ، ولذلك طلب إليه أن يقول : "علي على حق ومعاوية ظالم "فاضطر ابن الشحنة أن يردد قول تيمور، وأضاف " أنه يجوز حسب بعض الآراء تقلد القضاء من ولاة الجور " — وذلك ليدفع المسؤولية عن نفسه — ثم تابع " لأن كثيراً من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية، مع أن الحق كان مع علي " . فسُرّ تيمور لدى سماعه هذا الجواب ، فنادى على أحد قواده وأوصاه بابن الشحنة ومن معه خيراً ، وأمره بتقديم بعض المساعدات لهم . وظل ابن الشحنة يقيم في القلعة .(1)

انسحاب تيمور

وتجاوزت أعمال التنكيل التي كان جند تيمور يقومون بها حلب إلى ضواحيها خلال تلك الآونة (٢) . وكان من نتيجة ذلك أن تعطل الآذان وإقامة الصلاة في كثير من المساجد في المدينة .(٣) وعلى الرغم من أن تيمور — كما يقول ابن الشحنة — قد غادر حلب في الأول من الشهر ليقوم في ظاهر المدينة ، فقد ظل العذاب وقطع الرؤوس " مستمرين في السكان". وقام المؤرخ بزيارة تيمور في مكان إقامته الجديد ، وذكّره بالأمان الذي منحه للسكان في حلب . ورد تيمور على ابن الشحنة بأن الجند قد أُمروا بجلب رؤوس القتلى لإقامة أبراج منها ، إظهاراً لعظمته على جري عادته في البلاد الأخرى . وقد حدث خطأ في فهم أوامر تيمور من قبل جنده ، لأنه لم يطلب قتل الأحياء وجلب رؤوسهم ، وإنما طلب أن يؤتى برؤوس القتلى فقط ، فاعتذر عن ذلك . ثم ركب ليتوجه إلى دمشق ،(٤) بعد أن ترك قسماً من قواته في حلب لتقوم على حراسة أكداس الغنائم التي استولى عليها في القلعة .(٥) واصطحب تيمور معه كلاً من تيمور تاش نائب حلب وسودون نائب دمشق أسيرين مصفدين بالأغلال مع غيرهم من الأسرى .

وأرسل الفاتح التركي إلى القاهرة يعلم السلطان فرج بأن سودون وتيمور تاش، هما أسيران عنده ، حتى يتم إطلاق سراح اتلاميش .(٦) وقد تمكن أغلب الأسرى من الفرار خلال الطريق ، وكان من بين الفارين تيمورتاش نفسه الذي تمكن من الهرب عندما كانت القوات المغيرة تمر من حماه ، وعاد فالتحق بقوات المماليك التي أعادته إلى منصبه السابق ، كنائب عن السلطان في حلب ، بعد انسحاب الغزاة من بلاد الشام . وقد عمل جاهداً لإصلاح ما حلّ بالمدينة من خراب بسبب غارة تيمور .(٧)

احتلال حماه

وكان تيمور قد أرسل ابنه ميرانشاه على رأس طليعة من قواته إلى حماه ، بعد دخول حلب مباشرة . واستطاعت القوة التيمورية أن تحتل الضواحي ثم المدينة نفسها بعد حصار قصير. واستعصت عليها القلعة . ولما قدم تيمور إلى حماة في طريقه إلى دمشق ، مرّ على سلمية — شرقي حماه — أولا ، ثم تمكن من اجتياح قلعة حماه .(٨) وأوقع في المدينة " حتى صارت

(١) : ابن الشحنة : ص٢٢٣ — ٢٢٤ (٢) : العسقلاني : ج ٢ص ١٣٥ وابن أياس : ج ١ص ٣٢٧
(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ وابن أياس نفسه . (٤) : ابن الشحنة : ٢٢٦ — ٢٢٨
(٥) : ابن عربشاه : ص٩٦ والسخاوي : ج ٢ص ٤٨ . (٦) : يزدي : ج ٢ص ٢٢١
(٧) : ابن الشحنة : ص ٢٣٤ — ٢٣٥ (٨) : يزدي : ج ٢ص ٢٢٢ وشامي : ص ٢٢٨

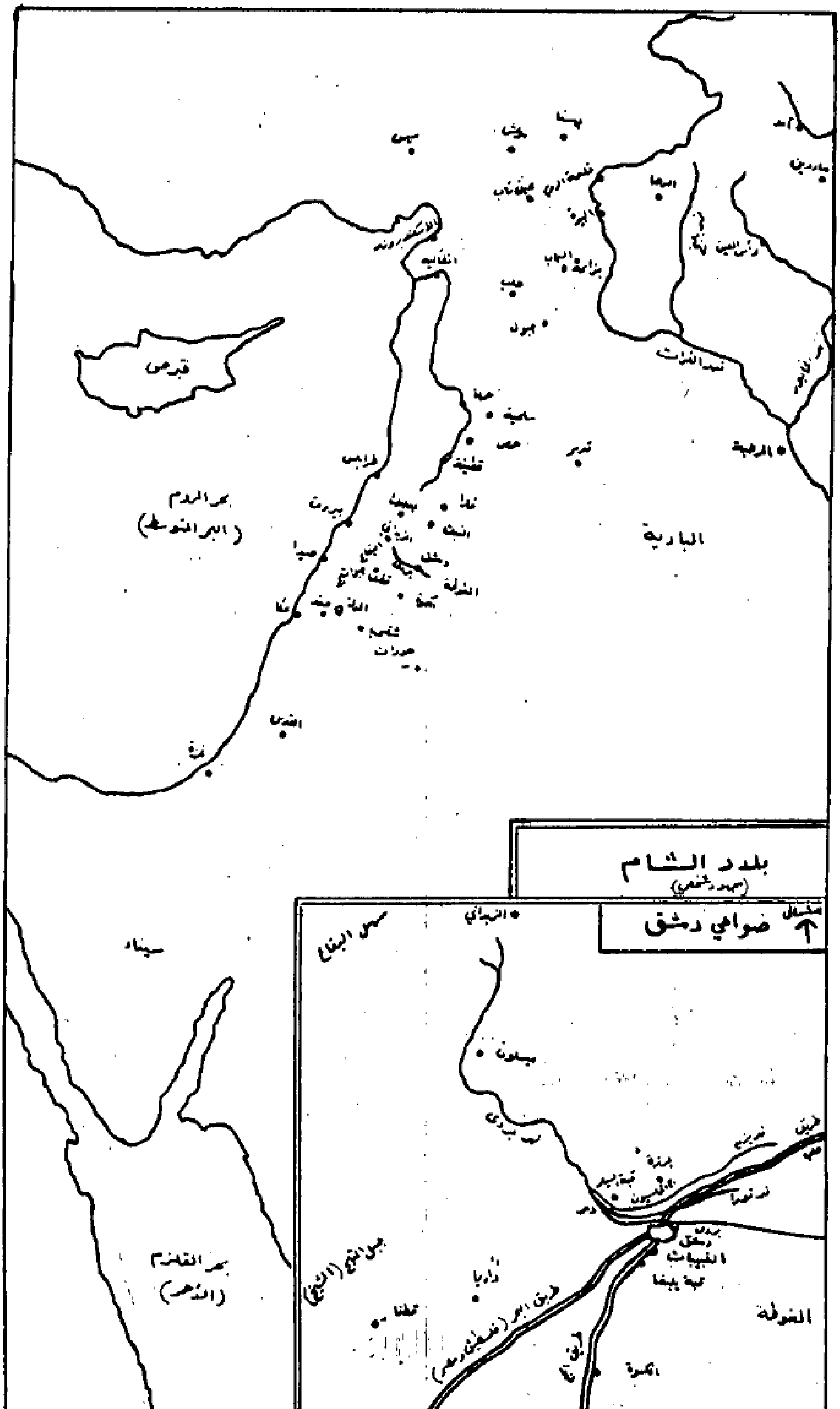
كمدينة حلب سوداء مغبرة خالية من الانيس" (١) فقد خرب الفاتح التركي أجزاء من سور المدينة ،وأسر عدداً من سكانها . (٢) واستراح تيمور مع قواته في حماه مدة عشرين يوماً . (٣)

واقترح عليه بعض قواده أن يتجه من حماة إلى طرابلس ،بسبب اقتراب فصل الشتاء،وذلك للاستراحة هناك على ساحل البحر ،على أن يتابع التقدم نحو الجنوب مع حلول فصل الربيع . ولكن تيمور رفض الاقتراح وأمر بالتقدم إلى حمص التي سلّمت له دون مقاومة . (٤) وتقول مصادر مؤرخي الشام ومصر أن سبب عدم إساءة تيمور للمدينة وسكانها ،كان إكراماً منه لخالد ابن الوليد المدفون بها ،وعين على المدينة قبل أن يرحل عنها ،واحداً من أبنائها ونادى بالامان. (٥) المرور بحمص

واتجه تيمور بعد ذلك إلى بعلبك . وقبل أن يصل إليها أمر فرقة من قواته للتقدم إلى بيروت وصيدا . وأثارت آثار بعلبك الرومانية دهشة وإعجاب الفاتح التركي ،الذي لم يمض وقتاً طويلا في المدينة بسبب شدة البرد فيها ،وكان الفصل شتاء . فتقدم منها باتجاه دمشق ولم تلبث القوة التي أرسلها إلى بيروت وصيدا أن عادت والتحقت بالجيش ،وكانت قد استولت كما يقول يزدي على أعداد كبيرة من السبي وكميات وافرة من الغنائم . (٦) في بعلبك فرقة في بيروت وصيدا نحو دمشق

---

(١) : المقريزي: السلوك ج ٣ق٣ص١٠٣٦ (٢) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠١ آ .
(٣) : يزدي: ص٢٢٢ ج ٢ (٤) : يزدي،ج ٢ص ٢٢٣-٢٢٤ .
(٥) : ابن عربشاه : ٩٦ والعسقلاني :ج ٢ص ١٤٠ والمقريزي: السلوك ج ٣ق٣ص١٠٣٨
(٦) : يزدي: ج ٢ص٢٢٤-٢٢٥



بلاد الشام
ضواحي دمشق
قبرص
بحر الروم
(البحر المتوسط)
البادية
سيناء
بحر القلزم
(الأحمر)
حلب
حمص
تدمر
دمشق
الاسكندرونة
طرابلس
بيروت
صيدا
عكا
غزة
الرحبة
نهر الفرات
سهل البقاع
جبل الثلج (الشيخ)
داريا
الغوطة

الفصـــل التاســع

احـــتلال دمشـــق

٨٠٣ هـ (بين ١٤٠٠ ــ ١٤٠١ م)

تتبع دمشق لأخبار تيمور ــ إجراءات دفاعية ــ التردد بين الدفاع والاستسلام ــ توافد سكان المدن على دمشق ــ رسائل تيمور التهديدية ــ تحصين القلعة ــ موقف القاهرة ــ حركة السلطان فرج ــ خطة تغري بردي ــ وصول قوات المماليك ــ بلوغ قوات تيمور ضواحي دمشق ــ الاحتكاكات الأولى ــ لجوء حسين سلطان ــ مراسلة بين تيمور وفرج ــ معركة الكسوة ــ انسحاب السلطان ــ الأسباب ــ معركة الأسوار ــ المفاوضات ــ دور ابن خلدون ــ شروط الاتفاق.

كانت أخبار ما يقوم به تيمور من أعمال تصل إلى مسامع سكان دمشق ، منذ وصول الفاتح التركي إلى بغداد عام ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) . وكانت هذه الأخبار تُحْدِث عند هؤلاء السكان شيئاً من الذعر . ويقول المؤرخ الدمشقي "محمد بن محمد بن صصري" الذي كان يقيم في دمشق ، في الحقبة التي سبقت وصول الفاتح التركي اليها ، أن الناس في تلك الايام كانوا يتوقعون أن يغير الفاتح التركي على دمشق بين وقت وآخر ، وكانوا يسترجعون ذكريات الغارات التي شنها الايلخانيون على المدينة ، قبل نيف وقرن من الزمن .(١) ويقول المؤرخ الدمشقي المعاصر الآخر ابن قاضي شهبة :(٢) " إن أخبار سقوط حلب بيد القوات الغازية قد بلغت دمشق بعد دخول تيمور حلب بأربعة أيام ، فاختبط البلد وحدث البكاء ... وأمرت السلطات في المدينة سكان الضواحي بالانتقال إلى المدينة للاحتماء بأسوارها . وبدأت منذ السابع عشر من ربيع الأول ٨٠٣هـ (٦ تشرين الثاني ١٤٠٠م) جماعات من سكان حماه بالوصول إلى دمشق ، وهي الجماعات التي اضطرت إلى ترك حماة في إثر سماعها بسقوط حلب . وكانت تتردد في الوقت نفسه بعض الشائعات عن قرب وصول السلطان المملوكي على رأس قواته من مصر ، للعمل على صد المغيرين . ولذلك مُنع السفر من المدينة ، ونودي إنه "من سافر نهب" واتخذت بعض إجراءات الدفاع ، فوزعت القوات على أبواب المدينة ، وحملت الأطعمة والتجهيزات إلى القلعة ، ونصبت المنجنيقات على الأسوار. وأقبل الناس على التطوع للاشتراك في الدفاع عن البلد . ولبس بعض القضاة السلاح ، وصعدوا إلى الأسوار .(٣)

تتبع دمشق لأخبار تيمور

إجراءات دفاعية

وكانت آراء المشرفين على الأمور في دمشق منقسمة بين الإقامة والدفاع وبين الرحيل

---

(١) : ابن صصرى : ص ١٤٠ و ١٤٥ . وكانت آخر هذه الغارات الايلخانية على المدينة غارة السلطان محمود غازان عام ٦٩٩ هـ / ١٢٩٨ م . ونقل ابن صصرى قول أحد الشعراء الدمشقيين يصور حالة اليأس العامة التي كانت سائدة :

وما مرّ يوم أرتجي فيه راحة ... وأعتبه إلا بكيت على أمس

(٢) : ابن قاضي شهبة : (٧٧٩ــ٨٥١هـ / ١٣٧٧ــ١٤٤٨م) وكتابه كما ذكره السخاوي "الإعلام بتاريخ أهل الإسلام "كان فقيه الشام ومؤرخها كتب حوادث زمانه (السخاوي : ج ١١ ص ٢٢). وقد عرف من سياق كلامه عن فترة قدوم تيمور إلى دمشق وحتى مبارحته لها ، أنه كان ينقل مما كتبه الشيخ شهاب الدين ابن حجي الذي ربما كان أستاذ ابن قاضي شهبة ، وذلك حتى تاريخ ٢٣ ربيع الآخر ٨٠٣هـ عندما غادر ابن حجي دمشق (وربما فراراً من تيمور). ثم ذكر ابن قاضي شهبة أنه اعتمد في الكتابة بعد هذا التاريخ في "أمر هذه المحنة "على ما كتبه الشهود العدول من أصحابه (مخطوطة تاريخية : ورقة ٢٠٢ب و ٢٠٣ب)

(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ

والفرار ، ولا سيما بعد انتشار خبر وقوع سودون نائب دمشق في الأسر ، ووصول اثنين من أمراء المماليك تمكنا من الفرار من أسر القوات المغيرة في حلب ، وطلبهما من السكان مبارحة المدينة : (١) وأخذ بعض السكان يغادر المدينة خفية ، فاتجه بعضهم إلى الجبال أو إلى المناطق الوعرة في جنوب دمشق . ومن السكان من وصل إلى القدس ، كما تابع بعضهم التقدم حتى بلغ مصر . واطمئن من بقي من سكان المدينة ، إلى ما كان يُشاع عن قرب وصول السلطان وجيشه الذي بدأ حركته من مصر نحو بلاد الشام . (٢) ولم يلبث أن اتضح لهؤلاء بعد قليل أن السلطان لا يزال في القاهرة ، واتضح أيضاً أنه كانت في المدينة سلطتان تعملان بشكل متعارض ، السلطة الإدارية المتمثلة بنائب الغيبة والحاجب ، والتي كانت تؤمن بعدم جدوى المقاومة ، فأخذت تروج لفكرة عدم شهر السلاح "لاننا سوف نسلم البلد بالأمان"، وبين السلطة العسكرية المتمثلة بنائب القلعة ، الذي بعث من ينادي بالاستعداد للقتال ، وأن من كان بحاجة إلى السلاح ، فليأت إلى القلعة لاستلام سلاحه . (٣)

التردد بين الدفاع والاستسلام

وازدادت الروح المعنوية سوءاً ، عندما وصلت في ١٢ ربيع الآخر (الأول من كانون الأول ١٤٠٠م) بطاقة من نائب حمص ، بعث بها من "قارا" (٤)، وفهم منها أنه اضطر لمغادرتها نتيجة بسبب تقدم القوات المغيرة . ولم يلبث النائب نفسه أن وصل إلى دمشق بعد ثلاثة أيام . وأبلغ عن وصول تيمور إلى حماة ، وأنه على وشك التقدم منها إلى حمص التي وفق أهلها بالحصول على الأمان لأنفسهم . وبلغ المدينة في الرابع والعشرين من الشهر (١٣ كانون الأول) جماعة من أتباع تيمورتاش نائب حلب ، وأخبروا بأن سيدهم الذي استطاع الفرار من أسر تيمور ، هو في طريقه إلى دمشق . ولكن نائب حلب لم يتوقف في المدينة عند وصوله إليها ، بل تابع التقدم للالتحاق بالسلطان في مصر . (٥) وتوافد على دمشق في هذه الأثناء أيضاً سكان بعلبك والزبداني ووادي بردى الذين أخافهم تقدم القوات الغازية . وأعلن القادمون أن طلائع الأعداء قد بلغت سهل البقاع . ومما زاد في سوء الحال أن الوافدين على دمشق قد اصطحبوا معهم دوابهم ، كما اشتد البرد وسقطت الثلوج الغزيرة على المدينة والمناطق المحيطة بها .

توافد سكان المدن على دمشق

هذا وكان تيمور يسعى بدوره إلى بلبلة الأوضاع في دمشق والتشويش على السكان برسائل التهديد التي أخذ يرسلها إلى هناك ، وبالأخبار التي عمل ترويجها في المدينة ، وهو في طريقه من حلب . ومن المحتمل أن يكون له في دمشق عملاء وجواسيس يعملون على إضعاف الروح المعنوية لدى سكان المدينة والمشرفين على الأمور فيها . فقد ذكر ابن تغري بردي أنه قد كثر في تلك الأيام انضمام الجند من جيوش تيمور إلى قوات المماليك . (٦) وكان تيمور كما يذكر ابن قاضي شهبة ، قد أرسل في ١٥ صفر عام ٨٠٣هـ (٦ تشرين الاول ١٤٠٠م) ، قبل أن يصل إلى حلب ، رسالة تهديد وجهها إلى القضاة والائمة في دمشق ، جاء فيها قوله : " فعلنا بسيواس ما بلغكم .." وطالب بإرسال اتلاميش ، وبأن تكون الخطبة والسكة

رسائل تيمور التهديدية

(١) : ابن عربشاه : ص ٩٥ وشامي : ص ٢٣٠ (٢) : ابن عربشاه : ص ٩٥ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ . (٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢آ .

(٤) : قارا : قارة كما رسمها ياقوت قرية كبيرة وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق (ياقوت الحموي ج ٤ ص ٢٩٥) (٥) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٣آ و ٢٠٣ ب

(٦) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٣٢ .

باسمه ، ثم تابع كلامه : " وإن لم نجب إلى ذلك ، فتصير دماء أهل الشام وغيرهم في ذمتكم " (١) وحدد مدة أربعين يوماً ليصل رد القضاة والائمة إليه . وبعث تيمور رسالة أخرى حملها أحد الأمراء المماليك كان في أسر الفاتح التركي ، ووصلت الرسالة الجديدة دمشق في ٢١ ربيع الأول - وكان تيمور لا يزال في حلب - (١٠ تشرين الثاني ١٤٠٠ م) ، وكان يستعجل فيها جواب رسالته الاولى ، ويذكر بقرب انقضاء مدة الانذار ، مما زاد في مخاوف الناس. (٢) وهم بعض كبار رجال الإدارة المملوكية وعلى رأسهم نائب الغيبة والحاجب بالفرار ، فلحق بهم العوام وأدركوهم عند قرية "القبيبات" في جنوب دمشق ، وردوهما بالسيوف والمقاليع ، واشتركت النساء مع الرجال في ذلك . ولما هرب الجند المكلفون بحراسة باب الجابية ، لحق بهم الناس ولكنهم لم يتمكنوا من إدراكهم. (٣) ويتضح من هذه الحوادث ، أن فكرة الثبات والدفاع هي التي نجحت أخيراً بضغط من العامة من سكان دمشق .

وكان القضاة في دمشق ، منذ أن وصلت أخبار اقتراب تيمور من حدود بلاد الشام ، قد أخذوا يبذلون المساعي لتعبئة الشعور العام فيها ، وإعداد الناس للمقاومة . فخرج هؤلاء من "دار العدل" في ٤ صفر (٢٥ أيلول) ، ووقفوا عند أحد أبواب دمشق - باب النصر - حيث تليت فتوى قاضي القضاة ، بوجوب قتال تيمور وجماعته والحض على ذلك . وانتقل الموكب بعد ذلك وجموع الناس خلفه إلى باب الجابية ، (٤) ثم تجولوا في أحياء المدينة المختلفة وهم يعيدون بين الحين والآخر قراءة تلك الفتوى . (٥) ومضى نائب القلعة في الوقت نفسه في اتخاذ المزيد من إجراءات الدفاع ، فطلب من أصحاب المنازل القائمة حول أسوار القلعة ، إخلاء دورهم لأنه سوف يعمل على إحراق تلك الدور ، حتى لا يتخذها المغيرون مخابىء للاحتماء بها والإغارة منها على الأسوار . (٦)

تحصين القلعة

ولم تصدق القاهرة لأول وهلة نبأ سقوط حلب . وكذب حامل الخبر وسجن . وأرسل اثنان من الأمراء على الهجين للتحقق من صحة الخبر. ثم نودي بالجهاد واضطربت القاهرة . وأرسل فرج إلى السلطات المملوكية في دمشق يأمرها بالدفاع عن البلد ، حتى يصل إليها على رأس قواته. ووصلت الرسالة دمشق في ٢٨ ربيع الأول (١٧ تشرين الثاني) - وكان تيمور لا يزال أيضاً في حلب - (٧) ثم طلب السلطان في رسالة ثانية مؤرخة في ٧ صفر (٢٨ أيلول ١٤٠٠ م) ، بتأهب عساكر دمشق لتشترك في قتال الأعداء مع القوات القادمة من مصر ، وحث الناس على الجهاد . وتلي كتاب السلطان على جموع المصلين في المسجد الأموي . وجاء فيه قوله : "إنه بلغنا ما فعل بالمسلمين من القتل والأسر ودفن الأحياء ، وإنا واصلون عقيب ذلك." (٨) ويعلق يزدي على رسالة فرج لسكان دمشق ، فيصفها بأنها ليست إلا دفعاً لهؤلاء السكان

موقف القاهرة

(١) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٢ ب (٢) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٣ ب

(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢ آ والمقريزي: السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٥ وابن تغري بردي: "النجوم الزاهرة" ج ١٢ ص ٢٢٧ ، أما "القبيبات" فهي قرية كانت تقع إلى الجنوب من دمشق وهي الآن إحدى الحارات الملحقة بحي الميدان الدمشقي (في الميدان الفوقاني) .

(٤) : حدد ابن تغري بردي: مكان دار العدل بباب الجابية (النجوم الزاهرة . . ج ١٤ ص ١٣) هذا ولا تزال معظم الأمكنة التي ورد ذكرها خلال وجود تيمور في دمشق تعرف بالأسماء نفسها حالياً كباب الجابية. وأما باب النصر فقد كان موقعه عند مدخل سوق الحميدية اليوم .

(٥) : ابن قاضي شهبة: ورقة ١٩٩ ب (٦) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٣ ب

(٧) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٢ ب (٨) : ابن قاضي شهبة : ص ٢٠٠ آ

للتنحي عن جادة الصواب .[١] والتفكير السليم .

وبارح فرج بقواته القاهرة في ٨ ربيع الثاني (٢٦ تشرين الثاني ١٤٠٠م) . وكان تيمور في ذلك التاريخ على الطريق بين حلب وحماة . ولما بلغ السلطان المملوكي "غزة" في العشرين من الشهر (٨ كانون الأول) ، أصدر أوامره بتعيين نواب جدد على نيابات الشام بعد أن وقع النواب السابقون في أسر تيمور . وكانت نيابة دمشق من نصيب الأمير "تغري بردي" والد المؤرخ "ابي المحاسن جمال الدين بن تغري بردي" ، الذي أفاد أن والده قد اقترح على السلطان خطة عامة لقتال تيمور ، تقوم على أن يتريث السلطان بقواته في غزة ، وعلى أن يتوجه الأمير تغري بردي إلى دمشق ليتولى تحصينها وحضّ أهلها على القتال . وعندما يصل تيمور إلى حدود المدينة ، فإنه سيقع بين قوتين تحيط به ، من الشمال (من دمشق) ومن الجنوب (من غزة) ، ولذلك فإنه سيضطر للعودة من حيث أتى لجهل قواده طبيعة البلاد ومسالكها ، وبسبب قلة الإمدادات . وعند تراجعه يقوم عساكر السلطان بمطاردة فلوله حتى ضفاف الفرات . ويضيف المؤرخ (ابن القائد الأمير) إن يتمور قد اطلع ـ فيما بعد ـ بعد احتلال دمشق على خطة الأمير تغري بردي فاستحسنها . ولكن الأمراء الآخرين الذين كانوا يحيطون بالسلطان فرج عند الزحف على دمشق ، رفضوا الخطة واحتجوا لذلك بعدم ثقتهم بإخلاص الأمير تغري بردي للسلطان المملوكي .[٢] وظل الجيش المملوكي يتقدم كتلة واحدة ، وأخذت طلائعه بالدخول إلى دمشق في السادس من جمادى الأولى[٣] (٢٤ كانون الأول) ، وقد استقبلها السكان بالصراخ والبكاء والابتهال إلى الله أن يحقق النصر . ونقل المؤرخ الدمشقي أحمد بن عربشاه ، وكان في ذلك الوقت طفلاً في الثانية عشرة من عمره في دمشق ، بعض هتافات العامة من سكان المدينة "يالله يارحمن انصر مولانا السلطان".[٤] أما السلطان نفسه ومعه الجزء الرئيسي من الجيش ، فقد بلغ قبة "يلبغا"[٥] في جنوب دمشق ، بعد يومين (٨ جمادى الاولى / ٢٦ كانون الأول ١٤٠٠م) حيث أقيم له مخيم هناك .[٦] ويقدر شيلتبرجر عدد قوات المماليك التي جاءت مع السلطان من القاهرة باثنين وأربعين ألفاً .[٧]

وكانت القوات المغيرة قد واصلت تقدمها من سهل البقاع باتجاه دمشق . وكانت تسرع

حركة السلطان فرج

خطة تغري بردي

وصول قوات المماليك

(١) : يزدي: ج ٢ص ٢٢٥ (٢) : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٢ ص٢٢٨ـ٢٣٢

(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤آ والعسقلاني : ج ٢ص١٣٦ (٤) : ابن عربشاه: ص٩٨

(٥) : قبة يلبغا ، وكانت تقع جنوب سور دمشق الجنوبي على مسافة ٢/١ ٣كم عند مسجد القدم . وكان قد بناها الأمير "يلبغا اليحياوي" نائب دمشق عام ٧٤٧هـ وسماها "قبة النصر" (انظر محمد بن طولون الصالحي : إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى . ص ٤٤ وفيشيل : ص ١٠٠) .

(٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤آ والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ص١٠٤١ ويقدم ابن أياس تاريخ وصول السلطان إلى ضواحي دمشق يومين ويجعله في السادس من جمادى الأولى (٢٤ كانون الأول) . وقال إنه نزل أولاً في القصر الأبلق غرب دمشق خارج السور (مكان التكية السليمانية حالياً) . وكان اليوم هو الخميس وصلى الجمعة في مسجد بني أمية في اليوم التالي . وانتقل من هناك إلى مخيمه في قبة يلبغا (انظر ابن أياس ج ١ص٣١٩) . اما ابن عربشاه فيجعل وصول السلطان فرج في ١٠ ربيع الآخر (ابن عربشاه : ص٩٨) . ولكن هذا التاريخ لا يتسق مع تسلسل الأحداث كما وردت عند ابن عربشاه نفسه وعند غيره من المؤرخين .

(٧) : Terfer: op. cit. P. 23

في زحفها لتبلغ دمشق ، قبل أن تصل إليها القوات المملوكية القادمة من مصر، وتنضم إلى حامية المدينة . وجاء في المذكرات أن تيمور الذي كان يعلم وهو في حلب باستعدادات القاهرة لإرسال قوات إلى بلاد الشام ، كان يحرص على ملاقاة قوتي المماليك منفردتين .[١] ولما بلغ دمشق المغيرون " قطنا " أرسلوا من هناك طليعة أطلّت على مدينة دمشق في الرابع من جمادى الأولى (٢٢ كانون الاول) من ناحية جبل الثلج [٢]، عند "قبة السيّار" [٣]. وأحدث ظهور هذه الطليعة المعادية خوفاً وذعراً عند بعض سكان دمشق من الذين ظلوا خارج الأسوار . وقد تدافع هؤلاء لدخول المدينة ، ووقع الازدحام عند باب النصر [٤] وكان الباب الوحيد المفتوح — ومات عند الباب من الازدحام عدد من الناس .[٥] وتمكنت دورية مملوكية من رصد مكان نزول المغيرين في قطنا ، فشاهدت أن هذه القوات قد حفرت حول معسكراتها خندقاً واحاطته بسور يصل ارتفاعه إلى قامة ونصف .[٦]

بلوغ قوات تيمور ضواحي دمشق

ويشير بعض مؤرخي مصر والشام إلى أن أول احتكاك حربي بين الفريقين كان في ٨ جمادى الأولى (٢٦ كانون الأول)، في يوم وصول السلطان فرج إلى مخيمه في قبة يلبغا ، فقد تقدم ألف فارس من القوات المغيرة يريدون الإغارة على معسكر السلطان ، فتصدى لهم مائة من فرسان المماليك فردوهم على أعقابهم ، بعد أن أسروا أفراداً منهم .[٧] وأما المؤرخون التيموريون فيقولون إن بادرة العداء قد صدرت من جانب المماليك ، عندما أرسل السلطان فرج اثنين من أتباعه بحجة تسليم رسالة إلى تيمور الذي كان ينزل قرب دمشق (ربما في قطنا). وعثر مع أحدهما على خنجر مسموم أعدّ لاغتيال الفاتح التركي . ولذلك فقد قُتلا وأمر تيمور على إثر اكتشاف الحادث ، باتخاذ الاحتياطات ، وتمّ حفر الخنادق وأقيمت الحواجز حول المعسكرات . وتحركت على إثر ذلك قوات تيمورية لرد طليعة من قوات المماليك كانت تتقدم باتجاه مناطق نزول القوات المغيرة ، فاشتبكت معها ، وأجبرتها على الفرار .[٨] وعادت بعدد من الأسرى فقتلوا وقتل معهم نائب الشام السابق سودون وكان في أسر الفاتح التركي منذ احتلال حلب[٩] ثم دفن بقيوده .

الاحتكاكات الأولى

ولا تتوفر معلومات واضحة عن القتال في المرحلة الممتدة بين تاريخ أول اشتباك بين الطرفين في ٨ جمادى الأولى وتاريخ انسحاب السلطان فرج في العشرين منه (٧ كانون الثاني ١٤٠١م) عائداً إلى مصر ، عند أغلب مؤرخي الشام ومصر . ويتحدث هؤلاء المؤرخون

---

(١) : Langlès : op. cit. P. 261

(٢) : جبل الثلج : جبل حرمون انظر فيشيل : ص ١٠٤ احيث تقع قطنا اليوم في سفوحها الغربية .

(٣) : قبة السيار : لاتزال قائمة إلى اليوم وتاريخ بنائها مجهول وتنسب إلى الأمير سيّار الشجاعي ربما من العصر الأيوبي) وتقع في سفوح قاسيون في حي المهاجرين آخر الخط ، انظر: عبد القادر ريحاوي : العمارة العربية الاسلامية خصائصها وآثارها في سورية دمشق ١٩٧٩ ص ١٣٤

(٤) : باب النصر في سور دمشق الغربي مدخل سوق الحميدية الحالي بدمشق .

(٥) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤ آ

(٦) : ابن قاضي شهبة : نفسه ويزدي: ج ٢ص ٢٢٧ .

(٧) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤ آ والعسقلاني: ج ٢ص ١٣٦

(٨) : يزدي: ج ٢ص ٢٢٦—٢٢٨

(٩) : ابن تغري بردي: النجوم ج ١٣ ص ٢٠

بين هذه المرحلة حديثا عاماً دون أن يتعرضوا للتفصيلات . فيشير ابن عربشاه والعسقلاني أن كلا الطرفين أخذ يستعد ويحفر الخنادق ويسد على الآخر.[١] أما ابن خلدون الذي قدم مع السلطان من القاهرة . وكان يقيم في ذلك الوقت في المدرسة العادلية[٢] بدمشق، فيقول إن العسكرين قد اشتبكا خلال تلك الآونة بين ثلاث إلى أربع مرات ، وكانت الحرب سجالاً بينهما .[٣] ويشير آخرون إلى حدوث تبادل في الرسائل بين الجانبين كرر فيها تيمور طلبه باطلاق سراح اتلاميش، على أن يطلق هو ما عنده من أسرى المماليك .[٤]

وترد عند المؤرخ الدمشقي المعاصر ابن قاضي شهبة والمؤرخين التيموريين تفصيلات أكثر عن تلك المرحلة . فيتحدث ابن قاضي شهبة عن اشتباك وقع في العاشر من جمادى الأولى (٢٨ كانون الأول) في موضع يقال له "جب" ، بين قوات مملوكية تعاونها جماعات من الأعراب من "بني الغزاوي" وبين القوات المغيرة التي كانت تتقدم نحو هذا الموقع . واستطاعت قوة المماليك التي تصدت لها من ردها . ولكن المغيرين عادوا يؤيدهم مدد جديد أرسله إليهم تيمور . واستطاعوا — كما يقول يزدي — قتل وأسر عدد من قوات أعدائهم، وجاسوا في المنطقة ثم عادوا محملين بالغنائم .[٥] وكان من أهم أحداث تلك المرحلة أيضاً لجوء أحد أحفاد تيمور إلى المماليك فقد قدم إلى دمشق في ١٣ جمادى الأولى (٣١ كانون الأول ١٤٠١م) ، شاب لجوء سلطان أمرد حسن الشكل كان يضع تاجاً على رأسه . واتضح لابن قاضي شهبة فيما بعد أنه ابن بنت حسين تيمور ويدعى حسين بهادور .[٦] وأحسنت سلطات المدينة استقباله مع الحاشية الكبيرة التي كانت ترافقه ، ونزل بدار الضيافة بدمشق .[٧] ولما كان يختلف في شكل شعره المسترسل وثيابه عما كان يألفه سكان المدينة "فقد أسرعوا في إزالة جمة شعره وألبسوه ثيابا كثيابهم" . ويصف ابن عربشاه سلطان حسين (وهو الاسم الذي دعته به أيضا بقية المصادر) بأنه كان شاباً شجاعاً .[٨] وتحمل المصادر التيمورية مسؤولية لجوء سلطان حسين للحاشية الفاسدة التي كانت تحيط به ، والتي كانت من التاجيك الماكرين. وتدعي بأن الأمير كان في حالة سكر . وتضيف هذه المصادر أن أهالي دمشق الذين سرهم لجوء سلطان حسين إليهم ، قد عاملوه بالتعظيم والإكرام . واستقبله السلطان المملوكي نفسه الذي اعتقد بأن الفرج قد أتاه بعد الشدة . وقد رُفع خبر فرار سلطان حسين إلى تيمور على الفور.[٩] وتردد في دمشق أن الشاب اللاجئ كان قائد الميسرة في جيش الفاتح التركي . وقد قدم معلومات مفيدة عن قوات الأعداء .[١٠]

---

(١) : ابن عربشاه: ص٩٨ والعسقلاني : ج ٢ص١٣٧

(٢) : المدرسة العادلية : بناها الملك العادل الأيوبي ٦١٢هـ أتمها ابنه الملك المعظم. لاتزال قائمة إلى اليوم وهي مقر مجمع اللغة العربية بدمشق القديم . انظر صلاح المنجد خطط الشام ص ٨٠

(٣) : ابن خلدون التعريف: ص٣٦٧

(٤) : المقريزي: السلوك ج ٣ق ٣ص ١٠٤٤ والعسقلاني : ج ٢ص١٣٧

(٥) : يزدي: ج ٢ص٢٢٧ وابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٤ب . وربما كان موقع جب في السهول الممتدة شمال غرب دمشق بينها وبين قطنا .

(٦) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٤ب

(٧) : المقريزي: السلوك : ج ٣ق ٣ص ١٠٤٢

(٨) : ابن عربشاه: ص ١٠٠

(٩) : شامي: ص ٢٣١ ويزدي: ج ٢ص٢٢٨

(١٠) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤ب ، والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ص ١٠٤٢

ويقول يزدي إن لجوء سلطان حسين إلى دمشق كان سبباً في تقدم تيمور بقواته من مواقعها الأولى إلى قرية تبعد عن جنوب دمشق بمقدار فرسخ واحد، وأقام مخيماته هناك.[١] وقد تكون هذه القرية التي لم يورد يزدي اسمها هي "داريا"، التي تبعد عن دمشق هذا المقدار تقريباً من ناحية الجنوب الغربي، والتي ذكر ابن عربشاه أن تيمور في زحفه نحو دمشق عبر قبة السيّار قد وصل إليها.[٢] وقد مكّن احتلال داريا الفاتح التركي من تطويق دمشق من الجنوب، بعد أن كانت قواته تطوقها من ناحية الغرب، منذ نزولها في قبة السيّار. كما أن القوات المعادية في مواقعها الجديدة قد ازدادت قرباً من مكان نزول السلطان المملوكي في قبة يلبغا.

مراسلة بين تيمور وفرج

ويشير المؤرخون التيموريون إلى أن الفاتح التركي عاد من موقعه الجديد إلى مراسلة السلطان فرج. وبعث إليه رسالة افتخر فيها بعلو همته وحزمه وعزمه، وسعيه لتحصيل المآرب وتحقيق المطالب، وأنه لا يبغي فتح البلاد جمع الأموال وتوسيع الأملاك وحسب، وإنما لطلب المجد وتخليد الذكر. وعاد يطالب بتسليم اتلاميش، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه، ويجعل ذلك سبباً في حسم النزاع وتلافي القتال. وختم الرسالة بالتهديد بقوة جيشه وعزمه على احتلال دمشق إذا لم تلبَّ مطالبه.[٣] ويؤرخ فيشيل هذه الرسالة في السابع عشر من جمادى الأولى (٤ كانون الثاني ١٤٠١م)[٤]. ويقول بعض مؤرخي الشام ومصر إن السلطان رفض مطالب تيمور، ويبررون ذلك بانقسام كلمة الأمراء المماليك وتشاحنهم على المناصب، وعدم اتفاقهم على موقف موحد، فمنهم من كان يعتقد أن تيمور كان يستتر ضعفه وصعوبة موقفه وراء هذه المطالب.[٥] وقد أشار ابن عربشاه إلى أن تيمور كان يسعى في تلك الأثناء لإشاعة أخبار عن سوء وضعه وضعف قواته، وأنه من أجل ذلك فهو على وشك الرحيل.[٦] ويقول المقريزي الذي كان في ذلك الوقت في القاهرة، إن الأخبار التي كانت تصل إلى هناك، تفيد بأن تيمور قد أرسل يطلب الصلح مراراً من السلطان الذي رفض طلبه، لأن الفاتح التركي مع قواته قد أضحى في قبضة قوات السلطان.[٧] ولا شك في أن تيمور — كما يقول ابن عربشاه — الذي كان على علم بحالة النزاع السائدة بين أمراء المماليك الملتفين حول السلطان الصغير السن فرج، إنما كان يهدف من وراء ترويج هذه الأخبار، إفساح المجال لظهور المزيد من هذه الخلافات، وإغراء هؤلاء الأمراء بالانسحاب والعودة إلى مصر، بعدم جدية الخطر الآتي من ناحية تيمور. ولم يكن لجوء سلطان حسين حفيد تيمور إلى السلطان المملوكي — حسب رأي ابن عربشاه — إلا مؤامرة أخرى[٨]، لخفض الروح المعنوية في الجيش المملوكي

(١): يزدي: ج ٢ص٢٢٨ (٢): ابن عربشاه: ص٩٧–٩٨ وذكر أيضاً داريا ابن العماد الحنبلي في الشذرات ج ٧ ص٦٤ (٣): شامي: ص٢٣١ ويزدي: ج ٢ص٢٢٨–٢٢٩

(٤): فيشيل: ص١٩٥ (٥): العسقلاني: ج ٢ص١٣٧ وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة: ج ١٢ ص٢٣٦ (٦): ابن عربشاه: ص١٠٠ (٧): المقريزي: السلوك ج ٣ق ٢ص ١٠٤٢ وقد ذهب فيما بعد ابن أياس إلى القول إن شائعات وصلت تقول إن تيمور قد هزم تماماً وقتل ابنه ومات من أتباعه ٥٠٠٠ (ابن أياس ج ١ص٣٢٩)

(٨): ابن عربشاه: ص٩٩ — ١٠٠

بطريقة مبتكرة . فقد نقل الشاب اللاجئ إلى السلطان فرج أخباراً عن قوة الجيوش الغازية أثارت قلقه ومخاوفه ، على عكس ما أشيع بين عامة الناس في دمشق .[١] ويزعم يزدي أن السلطان المملوكي قد رد على رسالة تيمور برسالة أخرى ، أعلن فيها موافقته على إطلاق سراح اتلاميش. ووعد بأنه سيكون عنده بعد خمسة أيام . وتابع يزدي بأن فرج قد اعترف في هذه الرسالة بما بدر منه من سوء الأفعال ، التي يجب على تيمور أن يتجاوزعنها الآن ، بعد إذعان فرج وإقراره بالطاعة . وهو يطلب رضا وعفو الجانب الشريف (تيمور) على ما ارتكبه من تقصير وإهمال. وحظي المبعوثون الذين حملوا رسالة فرج إلى تيمور بالقبول والرضا . وتعلق المصادر التيمورية على رسالة فرج وطلبه الصلح ، بأن المماليك لم يكونوا صادقين في هذا الطلب.[٢] ويتحدث مصدر سرياني عن رسالة أرسلها الناصر فرج إلى تيمور في هذه الأثناء . وقد سأل السلطان المملوكي تيمور عن حقيقة عقيدته ، فجاء في هذه الرسالة قوله : "إذا كنت مسيحياً فإنك لم ترحم المسيحيين ، وإذا كنت يهودياً فقد بطشت باليهود ، وإذا كنت عربياً [ويقصد مسلماً] فقد نكلت بالعرب وهدمت المساجد" .[٣]

ومهما يكن من أمر فقد نشطت في تلك الآونة دوريات المراقبة التي كان يرسلها كل فريق لاستطلاع أحوال الفريق الآخر . وكثيراً ما كانت تحدث الاشتباكات من وقت لآخر بين هذه الدوريات . وكان أهم هذه الاشتباكات ذلك الاشتباك الذي وقع في يوم الثلاثاء ١٨ جمادى الأولى (٥ كانون الثاني ١٤٠١م) ، والذي تمكن فيه جند المماليك وكان معهم أحد قضاة دمشق ، من هزيمة الأعداء بعد أن قتلوا منهم عدداً وأسروا عدداً آخر . ولما ظهر المغيرون في اليوم التالي (الأربعاء ١٩ منه / ٦ كانون الثاني) في موقع الكسوة (جنوب قبة يلبغا) ، تصدى لهم جيش المماليك[٤] ، مستغلاً حركة القوات المغيرة ونقلها لبعض مواقعها من داريا إلى الكسوة ، لمنع هذه القوات من إحكام تطويقها لدمشق وقبة يلبغا — حيث معسكر السلطان — من الناحية الجنوبية ، وسوف تجد القوات المملوكية بنفسها إذا نجحت في هذا التصدي ، مجالاً أوسع للعمل ضد القوات المغيرة في معركة حاسمة مقبلة .[٥] ولكن المعركة التي دارت في الكسوة في ذلك اليوم كانت المعركة الحاسمة ، التي فرضها المغيرون على المماليك. ويقول ابن قاضي شهبة إن المماليك قد اضطروا في النهاية إلى التراجع أمام أعدائهم إلى قبة يلبغا في آخر النهار ، بعد أن تكبد الطرفان خسائر كبيرة . وحال الظلام دون أن يتابع الفريقان القتال . ولكن الاشتباكات أستؤنفت في صباح اليوم التالي (الخميس ٢٠ جمادى الأولى / ٧ كانون الثاني) ، وأغار جند تيمور على قبة يلبغا نفسها . واضطر السلطان فرج إلى التراجع باتجاه دمشق إلى موقع "بئر الاعمى" .[٦] وظلت القبة بين الطرفين

معركة الكسوة

(١) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤ ب (٢) : شامي : ص٢٣٣ ويزدي : ج ٢ص ٢٣٠
(٣) : Budge: op. cit. P. XXXIII(33) (٤) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤ آ
(٥) : Grousset: op. cit. P. 527
(٦) : بئر الاعمى : يتضح من حديث ابن قاضي شهبة عنه أنه موقع في جنوب قبة يلبغا التي تقع بدورها في جنوب دمشق (ابن قاضي شهبة ورقة ٢٠٤ ب)

ولم يتمكن المغيرون من الاقتراب منها . وبقي الفريقان يراقبان بعضهما طيلة ذلك النهار ، ولما جنّ الليل دخل السلطان القلعة . وظلت قواته تواجه الأعداء .[1]

ويشير المؤرخون التيموريون إلى هذه المعركة ، ويحددون تاريخها بـ ١٩ جمادى الأولى أيضاً ويقولون إن الحركة التي قامت بها القوات التيمورية كانت تريد بها الوصول إلى الغوطة لجمع الأعلاف ، فاعتقد سكان دمشق أن هذه القوات كانت تعتزم تحاشي الاصطدام بقوات المماليك ، وأنها تنوي الانسحاب . ويشير المصدر السرياني الآنف الذكر إلى أن تيمور وهو في ضواحي دمشق ، قد قام في تلك الآونة بما يشير إلى عزمه على الانسحاب فعلاً ، فاقتلعت الخيام واستعدت القطعات العسكرية للرحيل .[2] ولذلك فقد تقدمت جماعات من فرسان المماليك وسار من ورائها الغوغاء وأراذل الناس ـ حسب تعبير يزدي ـ تريد الانقضاض على هذه القوات ، فدارت معركة في شرق الغوطة ـ كما تقول هذه المصادر ـ انتهت بانتصار القوات المغيرة ، وقُتل عدد كبير من سكان دمشق وجند المماليك واضطر الباقي إلى الفرار إلى دمشق، وكانت القوات المغيرة تطاردهم. ولحقت بهم حتى أبواب المدينة .[3] وكان ممن أبرز نتائج هذه المعركة بالنسبة للمغيرين ، أسْر سلطان حسين الذي كان يقاتل في صف الأعداء . وتوسط له عند تيمور شاه رخ فاكتُفي بتقييده وسجنه عدة أيام ، ثم أُطلق سراحه، وأُعيد إليه اعتباره .[4] ولكن الفاتح التركي لم يقبل مقابلة حفيده العاصي إلا بعد مدة طويلة ، وعندما استطاع سلطان حسين أن يقنع جده من خلال الحروب والمعارك التي خاضها ضد الأعداء بإخلاصه. وتمت المقابلة على ضفاف نهر الفرات، عندما كان تيمور يهم بالانسحاب من بلاد الشام .[5]

انسحاب السلطان

وأما السلطان المملوكي ، فإنه في ثلث الليل الأخير من فجر يوم الجمعة (٢١ جمادى الأولى / ٨ كانون الثاني) ، خرج ومعه جماعة من الأمراء، وتفرقوا في دروب دمشق . ولما علمت القوات الغازية بهذه الحركة ، احكمت حصارها على المدينة، وانتشرت في المناطق المحيطة بها ، لمنع السلطان المملوكي من الإفلات . ولكن فرج استطاع الجواز عبر قبة السيار نفسها إلى ذُمَّر .[6] ويقول ابن عربشاه إن انسحاب السلطان قد حدث في غفلة عن سكان دمشق ، الذين لما نهضوا في صباح ذلك اليوم (الجمعة ٢١ جمادى الأولى) ، وأخذوا ينظرون إلى معسكر السلطان في قبة يلبغا من أسوار المدينة ، لم يشاهدوا أثراً للقوات المملوكية سوى بعض النيران . ولم تلبث قوات المغيرين أن تقدمت إلى القبة واحتلتها . ونزل تيمور في مخيم السلطان ، وانهمك الجند بحفر الخنادق وبث السرايا لملاحقة السلطان المملوكي المنسحب ،

---

(١) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٤ب (٢) : Budge : ibid (٣) : شامي: ص٢٣١ـ٢٣٢ ويزدي: ج ٢ص ٢٣٠ـ ٢٣٤ (٤) : شامي: ص٢٣٣ ويزدي : ج ٢ص ٢٣٤
(٥) : يزدي: ج ٢ص ٢٥٢ (٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٤ب و ٢٠٥آ والمقريزي: السلوك : ج ٣ق٣ص ١٠٤٥ ، أما ذُمَّر فهي موقع يشرف على غوطة دمشق من ناحية بعلبك (مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع للبغدادي ج ٢ص ٥٣٣).

وأمرائه الذين أخذوا باللحاق به .(١)

ومن الواضح أن انسحاب السلطان فرج ،قد تمّ بصورة سرية ومفاجئة . ويقدم مؤرخو مصر والشام ،أسباباً عديدة لهذا الانسحاب ،منها الخلافات التي اشتدت في تلك الأثناء بين الأمراء المماليك ، وانسحاب بعضهم عائداً إلى مصر ،مما دعى من بقي حول السلطان في دمشق إلى الظن بأن المنسحبين كانوا يعملون سراً على خلع هذا السلطان الصغير الضعيف، وتحويل العرش إلى أحد الأمراء المماليك (وهو الأمير "لاجين" الشركسي)(٢) في محاولة منهم لتعيين رجل كفء يستطيع أن يقف في وجه الغزاة ، ويتمكن من صدهم .(٣) ولما علم بقية الأمراء بعودة هؤلاء إلى القاهرة ، وقع الاضطراب والفوضى بين قوات المماليك . وقام الأمراء إلى السلطان وأجبروه على الانسحاب عند الفجر.(٤) ويرى كل من ابن عربشاه وابن قاضي شهبة أن عودة السلطان إلى مصر كانت نتيجة لتلك "الحرب النفسية" (حرب الشائعات) التي كان تيمور يسعى لترويجها بين قوات المماليك ،والتي كان من شأنها أن ساعدت على ازدياد الخلافات بين الأمراء والمماليك . وكان من أهم هذه الشائعات إدعاء الفاتح التركي العزم على الرحيل .وقد أدى ازدياد الاختلاف بين الأمراء والمماليك إلى يأس السلطان من إدراك النصر في مثل هذه الحال .(٥) ويصرّ ابن قاضي شهبة على القول ،إنه مقتنع تمام الاقتناع من أن ما لمسه السلطان من تفرّق كلمة أتباعه ،في الوقت الذي تبددت فيه الشائعات القائلة بقرب انسحاب الأعداء ، وظهور ما يدل على تصميم القوات المغيرة وإصرارها على متابعة القتال ،كان الدافع وراء انسحاب السلطان المملوكي،بعد اثني عشر يوماً قضاها في مواجهة قوات العدو ، في دمشق وما حولها . ويشير هذا المؤرخ الدمشقي إلى أن تيمور أمر قواته في إحدى الليالي أن توقد النيران ليلاً أمام الخيام ،وهذا العمل يعني عندهم الإصرار على متابعة الحرب(٦) . وكانت الهزيمة التي حاقت بقواته في معركة الكسوة واضطراره بعدها إلى التراجع إلى دمشق ،هي السبب المباشر لهذا الانسحاب .(٧) وفضل - كما تقول المصادر الفارسية - الفرار خوفاً من مواجهة قوات تيمور .(٨)

ويعلل يزدي نجاح فرج بمغادرة دمشق دون أن تتمكن قوات تيمور من اعتراض سبيله ، بأن فرج أرسل عقب معركة ١٩ جمادى الأولى إلى تيمور هدية ورسالة ، يعتذر فيها عن القتال الذي وقع ليلة أمس، دون رغبة منه ،بل بفعل بعض الأوباش والجهال الذين تلقوا جزاءهم . ويصرح فرج في هذه الرسالة - على حد قول يزدي - بأنه باق على العهد . ويتابع هذا المؤرخ التيموري قوله إن تيمور عندما تلقى هذه الرسالة أمر بوقف القتال ،وعادت

(١) : ابن عربشاه: ص ١٠٠ - ١٠١ (٢) : العسقلاني: ج ٢ص ١٢٧ والمقريزي: السلوك ج ٣ ق٣ ص ١٠٤٥ وابن أياس: ج ١ص ٣٣

(٣) : Prawdin: op. cit. P. 244 (٤) : العسقلاني: ج ٢ص ١٢٧ والمقريزي: السلوك ج ٣ ق٣ص ١٠٤٥ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي : ج ٢ص ٢٣٦

(٥) : ابن عربشاه: ص ١٠٠ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ آ

(٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ آ (٧) : السخاوي: ج ٢ص ٤٨

(٨) : شامي: ص ٢٣٤ ويزدي : ج ٢ص ٢٣٦ و Langlès: op. cit. P. 261

القوات إلى معسكراتها . فانتهز فرج الفرصة ، واختفى في حجب الظلام فاراً مع أمرائه وأركان دولته عائداً إلى مصر .(١) ويعرض ابن عربشاه موقفاً معاكساً لما أورده يزدي ، فيقول إن السلطان المملوكي عندما استطاع أن يتخطى نطاق الحصار الذي ضربه الأعداء حول دمشق ، أرسل إلى تيمور يقول إن انسحابه ليس عجزاً أو فراراً ، ولكنه لتأديب بعض مماليك السلطان ، لأن " الكريم إذا بدا في جسمه مرضان داوى الأخطر ، ورأيناك أهون الخطبين وأحقر ".(٢) وأعلمه بأنه راجع إليه .

وعلى الرغم من إصدار تيمور أوامره لقواته بتعقب فرج ومنعه من العودة إلى مصر ، فإن السلطان المنسحب استطاع الوصول من دمر إلى صفد ومنها إلى مصر ، ولكن أعداداً من جند المماليك أدركتها القوات المغيرة وقضت عليها ،(٣) أو عادت بها لتلقى مصرعها تحت أقدام الفيلة في جيش الغزاة .(٤)

معركة الأسوار

وأضحى سكان دمشق صباح ذلك اليوم "مائجين في بعضهم ،(٥) متحيرين قد عميت عليهم الأنباء ".(٦) ولذلك فقد أغلقت أبواب المدينة ، وتداعى الأهالي للقتال . وصعدت أعدادٌ منهم إلى الأسوار ، وأخذوا يتراشقون بالسهام مع القوات المعادية ، التي استطاعت الآن إحكام تطويق المدينة من كافة الجهات . وشبه ابن قاضي شهبة القوات الغازية بالجراد لكثرة أعدادها .(٧) ولما وقف الناس فيما بعد على انسحاب السلطان فرج ، فإنه لم ينقطع رجاؤهم بعودته إليهم مرة ثانية على رأس قواته .(٨) ويظهر أنه كان لسكان دمشق بعض المقاتلين خارج الأسوار في ذلك اليوم ، وقد استطاع هؤلاء - كما يقول المقريزي وابن تغري بردي - أن يقاتلوا الأعداء ، وأن يقتلوا منهم زهاء ألف رجل ، فقطعوا رؤوسهم وأدخلوها معهم إلى المدينة ، مع عدد من الأسرى وبعض الغنائم والخيول .(٩)

وفي الوقت الذي تتحدث فيه مصادر الشام ومصر عن أحوال دمشق من داخل الأسوار فإن المصادر الفارسية تتحدث عن الحالة التي كانت سائدة خارج هذه الأسوار . ويفهم من كلام يزدي أن العمليات الحربية لاحتلال دمشق قد بدأت في اليوم الذي غادر فيه فرج المدينة (الجمعة ٢١ جمادى الأولى / ٨ كانون الثاني ١٤٠١م) . وكان سكان المدينة ومن بقي فيها من العساكر لم يعلموا بعد بانسحاب السلطان ويظهر من وصف هذا المؤرخ التيموري ، أن القوات المغيرة بدأت هجومها على دمشق من المناطق الجبلية القريبة من المدينة (سفوح قاسيون) وكان الهجوم على شكل صف واحد امتد طوله إلى ثلاثة أو أربعة فراسخ . وكانت بعض أعداد من الفيلة تتقدم صفوف الجند التي كانت تزحف من سفوح قاسيون باتجاه أسوار المدينة الشمالية . ويظهر أن الهجوم كان سريعاً ومباغتاً ، لم ينتبه إليه المدافعون على الفور ، ولم يشعروا إلا والجند المغيرون قد اقتربوا من الأسوار لا يفصلهم عنها إلا نهر بردى ،

(١) : يزدي : ج ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧
(٢) : ابن عربشاه : ص ١١٠
(٣) : شامي : ص ٢٣٤ ويزدي : ج ٢ ص ٢٣٧
(٤) : ابن عربشاه : ص ١٠١
(٥) : ابن أياس : ج ١ ص ٣٣١
(٦) : ابن خلدون : التعريف : ص ٣٦٧
(٧) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ آ
(٨) : ابن عربشاه : ١٠١
(٩) : المقريزي : السلوك : ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٣٨

في الوقت الذي كانت تف... ه علو... عة النهر المقابلة ، أعداد كبيرة من قوات المماليك من المشاة والفرسان بكامل عا... لحتها . واشتبكت هذه القوات مع المغيرين في القتال الذي امتد إلى اليوم التالي (ا... ٢٢ جمادى الأولى / ٩ كانون الثاني) ، بعد توقف خلال الليل . واستؤنف القتال في ذلك اليوم منذ شروق الشمس عبر البساتين المحيطة بالمدينة . ووجد تيمور في أثناء القتال متسعاً من الوقت لزيارة قبري اثنتين من زوجات الرسول "أم سلمة" و "أم حبيبة" وقبر الصحابي "بلال الحبشي" التي تقع بالقرب من دمشق ،[1] واتخذ الفاتح التركي منذ ذلك اليوم "القصر الأبلق" مقراً له .[2]

وأعقبت المعارك التي دارت بين القوات المغيرة وسكان المدينة وبعض القوات المملوكية مرحلة المفاوضات . ويتفق ابن قاضي شهبة وابن عربشاه مع المصادر الفارسية في أن طلب المفاوضة جاء من جانب سكان دمشق . وذلك عند فقد الأمل بعودة السلطان ، وبعد أن أدرك السكان أنه لا طاقة لهم على المقاومة . وعقد كبراء المدينة اجتماعاً — ربما كان في المسجد الأموي — تم فيه الاتفاق على خروج "السادات والأئمة والعلماء والصلحاء"[3] للتضرع والابتهال — كما يقول يزدي — ومعهم الهدايا .[4] ولكن المقريزي والعسقلاني يصرحان بأن طلب المفاوضة جاء من جانب تيمور ، الذي أرسل أحد أتباعه فنادى على من كان على الأسوار من السكان : "إن الأمير يريد الصلح فابعثوا رجلاً عاقلاً يحدثه في ذلك".[5]

ويؤرخ ابن عربشاه ويزدي بدء المفاوضات بعد يومين من انسحاب السلطان .[6] وأما ابن قاضي شهبة فيقول : إن المفاوضات قد بدأت صباح يوم الجمعة ، وهو اليوم الذي اكتشف فيه — في وقت متأخر — سكان المدينة انسحاب السلطان ، وكان بعض الناس لا يزالون على الأسوار يقاتلون المغيرين .[7] ولما منع نائب القلعة المعارض لفكرة التفاوض ، الوفد من الخروج من باب النصر المجاور للقلعة ، وهو أقرب الأبواب إلى القصر الأبلق حيث كان ينزل تيمور ، وهدد بإحراق البلد ،[8] فقد تحول الوفد إلى الباب الصغير ، وأرخوا من هناك بالحبال ، واستقبلهم عند السور أحد قواد تيمور ويدعى "شاه ملك" . وكان عدد أعضاء الوفد ثمانية ذكرهم ابن عربشاه بأسمائهم .[9] وكان على رأس الوفد القاضي "إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي" ، وكان يتقن الحديث باللغة الفارسية . وحمل أعضاء الوفد المصاحف معهم . ولكنهم لم يوفقوا إلى مقابلة تيمور ، بل اجتمعوا بابنه ميرانشاه الذي رحب بهم قائلاً : "الحمد لله الذي حقن دم أهل دمشق" وطلب من أعضاء الوفد العودة في اليوم التالي مع ضيافة

(١) : ولا تزال هذه القبور معروفة إلى اليوم وتقع في مقبرة الباب الصغير .
(٢) : يزدي : ج ٢ص ٢٣٦—٢٣٨ (٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ آ وابن عربشاه ص ١٠١ ، أما القصر الأبلق فهو القصر الذي بناه الظاهر بيبرس ودعي "الأبلق" لأنه بني بحجارة سوداء وبيضاء . ولما هدمه تيمور ظل كذلك إلى أن أنشأ السلطان العثماني سليمان القانوني في مكانه التكية السليمانية (النعيمي : ج ٢ص ٤٣٤ و ٤٣٩ الذي أشار إلى موقع القصر الأبلق) . (٤) : يزدي : ج ٢ص ٢٣٨
(٥) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ والعسقلاني : ج ٢ص ١٢٧ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٨ (٦) : ابن عربشاه : ص ١٠١ ويزدي : ج ٢ص ٢٣٨
(٧) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ آ (٨) : ابن أياس : ج ١ص ٣٣١— ٣٣٢
(٩) : ابن عربشاه : ص ١٠٢ ولم يذكر ابن قاضي شهبة إلا اسم اثنين منهم هما : رئيس الوفد ابن مفلح ورجل آخر يدعى أبو يزيد البسطامي .

مناسبة لاسترضاء الفاتح التركي . واضطر أعضاء الوفد للعودة إلى دمشق ولم يمكثوا في معسكر تيمور أكثر من ساعة واحدة .(١)

دور ابن خلدون

وانقسم الرأي العام في دمشق بين مؤيد ومعارض، للخطوة التي أقدم عليها ابن مفلح الحنبلي وصحبه .(٢) ويقول ابن خلدون الذي كان يقيم في المدرسة العادلية القريبة من المسجد الأموي في تلك البرهة «إن جدالاً وشجاراً وقعا في المسجد، حيث أنكر بعض الناس ما وقع من الاستنامة لقول تيمور .(٣) ولكن ابن مفلح أخذ يثني على تيمور ويخذل الناس عن القتال . وأصر بعضهم على الاستمرار في المقاومة وقالوا : " لا نرجع عن القتال " .(٤) ولكن رأي دعاة السلم والمفاوضة هو الذي انتصر أخيراً .(٥) ولما خرج الوفد لمقابلة تيمور صباح السبت احملوا معهم أقمشة وفراء وشواء من كل صنف تسعة – حسب عادة الطقزات –(٦) ولما بلغ أعضاء الوفد السور للخروج لمقابلة تيمور ، وجدوا عنده ابن خلدون ينتظرهم ، وطلب من أعضاء الوفد اصطحابه معهم . وبعد جدال قصير أجيب إلى طلبه وأدلي مع بقية أعضاء الوفد من السور عند الباب الصغير .(٧) وتلقاهم عند أسفل السور القائد التيموري شاه ملك ، المكلف بتأمين نقلهم راكبين إلى القصر الأبلق .

وأدخل الوفد الدمشقي على تيمور وكان متكئاً على مرفقه ، فرفع رأسه إليهم – كما يتحدث ابن خلدون – ومد يده فقبلها المؤرخ التونسي .(٨) وظل أعضاء الوفد وقوفاً برهة من الزمن . وقد أخذ منهم الخوف، ثم سمح لهم بالجلوس . وجعل تيمور يجول بناظريه بين وجوههم، وهو يبتسم ، " يراقب أحوالهم ويسبر بمسبار عقله أقوالهم وأفعالهم " . ثم مدت موائد الطعام وكان لحماً مسلوقاً ، فأكل بعضهم وامتنع البعض الآخر عن الطعام .(٩) ويبدو من كلام ابن عربشاه أنه لم يكن لابن مفلح الحنبلي رئيس الوفد أي دور بارز في الحديث الذي دار بين تمور وبين المفاوضين كما كان لابن خلدون . وكان أعضاء الوفد بعد المجادلة التي دارت بينهم وبين المؤرخ التونسي عند السور ، قد وافقوا على أن يتكلم باسمهم " ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم " .(١٠) وكان ابن خلدون ممن أكل من الطعام . وكان خلال ذلك يسترق النظر إلى تيمور ، ثم يعود ليطرق إلى الارض إذا وجد الفاتح التركي ينظر إليه . وكان المؤرخ التونسي قد لفت النظر إليه بلباسه الذي كان يختلف عن لباس بقية أعضاء الوفد . فكان يرتدي البرنس المغربي ويضع على رأسه عمامة خفيفة ، مما دفع تيمور إلى الاعتقاد بأنه رجل غريب عن دمشق ، وظهر أن ابن خلدون في الجزء الأول من الحديث الذي دار بعد الطعام ، قد

---

(١) : ابن أياس ج ١ ص ٣٣١ (٢) : العسقلاني : ج ٢ ص ١٣٧ وابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٤٠ (النجوم الزاهرة) (٣) : ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٨

(٤) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ (٥) : العسقلاني : ج ٢ ص ١٣٧ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ (٦) : انظر الفصل الأول من الباب الخامس .

(٧) : ابن عربشاه : ص ١٠٢ (٨) : ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٩ ويُعتقد أن ابن خلدون هو الذي أكب على يد تيمور يقبلها . فقد ذكر السفير الاسباني كلافيجو أنه عند مقابلته لتيمور لم يمد له هذا يده ليقبلها لأن عادة تقبيل اليد في البلاط التيموري لم تكن شائعة بل على العكس فإنه ينظر إلى هذا العمل باستهجان لأنه عمل غير لائق (انظر: Le Strange: op. cit. P. 221 (٩) : ابن عربشاه : ص ١٠٢

(١٠) : ابن عربشاه : ص ١٠٣

حاول أن يتملق تيمور ، عندما قال بصوت عالٍ إنه قد كَتَبَ كُتُبَ التاريخ وتحدث فيها عن أخبار الملوك وشاهد كثيراً من الحكام والسلاطين ، ولكنه يحمد الله الذي مَنَّ عليه بطول الحياة ، حتى رأى " من هو الملك على الحقيقة "(١). وأعجب الفاتح التركي بإطراء ابن خلدون الذي كان يترجمه له إلى الفارسية ، الفقيه عبد الجبار بن النعمان ، أحد رجال الحاشية الذي كان قد تولى الترجمة سابقاً بين تيمور وبين علماء حلب . وسأل الفاتح التركي المؤرخ التونسي عن سبب قدومه إلى المشرق ، فأجاب : من أجل الحج . ثم أخذ تيمور يستعلم منه عن أحوال المغرب وأخبار حكامه ومدنه . وطلب منه في نهاية الحديث أن يكتب له نبذة عن تلك البلاد .(٢)

وأُدخل خلال الاجتماع على تيمور أحد القضاة الأسرى هو القاضي " صدر الدين المناوي " وكان ممن فروا من دمشق في إثر انسحاب السلطان المملوكي . ولكن ملاحقيه تمكنوا من أسره عند ميسلون .(٣) وقد أُدخل على الفاتح التركي وهو مصفد بالحديد ، ولكنه تخطى الناس وجلس دون أن يؤذن له ، مما أغضب تيمور فأمر به فضُرب وسُحب من ثيابه فتمزقت ثم أُخرج .(٤) وربما قصد تيمور من إدخال القاضي الأسير ومعاملته بهذه الطريقة الخشنة ، التأثير في نفوس أعضاء الوفد .

شروط الاتفاق

وكانت شروط تيمور أن يُحمل إليه كل ما تركه السلطان المملوكي وأمراؤه ، قبل انسحابهم من دمشق ، من أموال ومماليك ودواب ، وأن يدفع أهل دمشق أموال الأمان .(٥) وكان لابن خلدون دور كبير في إقناع بقية أعضاء الوفد للتسليم بهذه الشروط(٦) ، وخاطب تيمور أعضاء الوفد قائلاً : " إن دمشق مدينة الأنبياء وإني أعتقها لرسول الله صدقةً عني وعن أولادي ".(٧) وبسط لهم سبب قدومه إلى دمشق ، وهو أن سودون نائب المدينة قد قتل رسوله إليه . وأورد ابن قاضي شهبة نص الأمان الذي منحه الفاتح التركي لسكان المدينة . وكان يقع في تسعة أسطر . وجاء فيه قول تيمور : " يعلموا السكان بدمشق [كذا] إن الله تعالى بفضله العميم ملكنا بلاد الشام ، ولما يعلم في قلوبنا من الرحمة للرعية . فيعلم الأشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم " ويتابع ابن قاضي شهبة الحديث عن هذا الأمان ، معلقاً عليه بقوله : " ونحو ذلك من الكلام ".(٨) ويشير إلى هذا الأمان أيضاً القس شيلتبرجر ، ويقول إن تيمور قد تعهد فيه بأن لا يظلم دمشق وأن لا يتعرض للمساجد فيها(٩) .

ويتابع القس البافاري الكلام عن تعهد تيمور لأهالي دمشق فيقول : وهكذا فقد تمكن

---

(١) : ابن عربشاه : نفسه (٢) : ابن خلدون : التعريف : ص ٣٧٠

(٣) : ميسلون : موقع على طريق السيارات اليوم بين دمشق وبيروت .

(٤) : ويقول السخاوي إن تيمور لما انسحب من دمشق كان القاضي المناوي ممن أجبر على السفر في ركاب القوات الغازية . وفي الطريق سقط في الفرات بقيوده فمات غريقاً بسبب إهمال آسريه وينتقده السخاوي بأنه كان لا يحسن مداراة الأعداء (الضوء اللامع ٦ ص ٢٤٩) ويقول ابن قاضي شهبة إن المناوي قبل أن يأتي مع السلطان فرج من القاهرة إلى دمشق كان يلح على ضرورة تسليم الأسير اتلامش إلى تيمور لتفادي الهجوم على الشام (ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٨ آ) . (٥) : ابن عربشاه : ص ١٠٤

(٦) : عبد الله عنان : ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري : ص ٨٢ — ٨٣

(٧) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٣٩

(٨) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ آ و ٢٠٧ آ (٩) : Terfer: op. cit. P. 22

تيمور من دخول دمشق بطريقة الاحتيال .(١)

وأصدر تيمور على إثر ذلك أمراً بتعيين شاه ملك حاكماً عسكرياً على دمشق ، وعين بعد أن تمّ الاتفاق مع الوفد الدمشقي ، بعض أعضاء الوفد في عدد من الوظائف في المدينة ، كالقضاء والحجابة والدواوين واستخراج الأموال .(٢) وأمضى أعضاء الوفد بقية يوم السبت (٢٢ جمادى الأولى / ٩ كانون الثاني ١٤٠١م) في ضيافة الفاتح التركي في القصر الأبلق ، وناموا عنده ليلة الأحد وعادوا إلى دمشق في ضحى ذلك اليوم (الأحد ٢٣ منه/ ١٠ كانون الثاني)، وهم يرتدون الخلع التي أنعم بها عليهم تيمور " وردهم منشرحي الصدر وعلى أحسن الآمال "(٣) لما توصلوا إليه من الاتفاق معه .(٤)

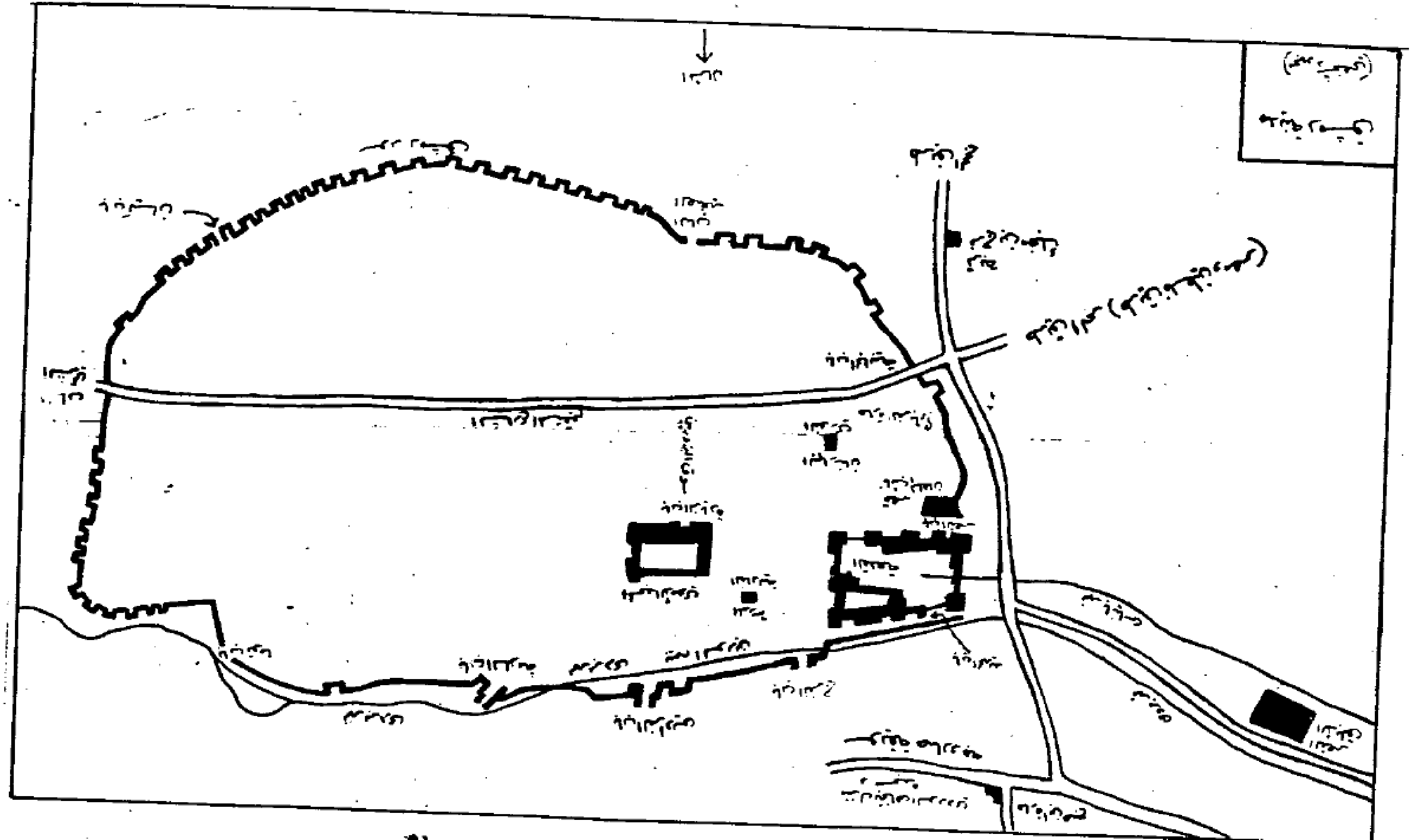
---

(١) : Terfer: ibid ..

(٢) : ابن خلدون : التعريف : ص ٢٦٨

(٣) : ابن خلدون : التعريف : ص ٢٦٧

(٤) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ آ وابن عربشاه : ص ١٠٣


مدينة دمشق
(تخطيطي)

الفصـــــل العاشـر

أعمـــال تيمـــور فـــي دمشــق

٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م

عودة الوفد الدمشقي _أعمال الإدارة الجديدة _ دخول تيمور _ نزوله في منزل بتخاص _انتقاله إلى تربة منجك _أعماله الأولى _ مناظراتـه للعلماء _حصار القلعة _المصادرات والغرامات _الجمع المباشر _التنكيل بالسكان _المجاعة وتعطل الحياة العامة _النهب العام _حريق دمشق _الانسحاب وأسبابه _الترحيل _صدى احتلال عند المؤرخين _النزوح عن دمشق _أسباب نجاح تيمور .

عودة الوفد الدمشقي

رافق أعضاء الوفد الدمشقي لدى عودته من مقابلة تيمور ،عدد من موظفـــي الإدارة الجديدة ،من أتباع الفاتح التركي من كتبة ومحصلين . ويقول يزدي إن عودة الوفد كانـــت عن طريق "باب الفراديس"[1] القائم في السور الشمالي للمدينة ،لأنه كان الباب الوحيد المفتوح، بينما كانت بقية أبواب المدينة مغلقة بقطع الحجارة الكبيرة التي صب عليها الكلس .[2] ويُجمع مؤرخو الشام ومصر على أن عودة الوفد كانت عبر الباب الصغير[3] ،القائم في السور الجنوبي (في مقابل باب الفراديس تقريباً) .

أعمال الإدارة الجديدة .

وأقيمت إلى جوار الباب الصغير نقطة حراسة للمحافظة على الباب . كما بدأت أعمال الدوريات في حارات المدينة ودروبها ،للإشراف على جمع الأموال المفروضة .[4] وحاولـــت الإدارة الجديدة أن تتألف قلوب الأهالي ،فتلي نص الأمان على الناس في المسجد الأموي . ولما اعتدى بعض الجند من أتباع تيمور على الناس ،أمر القائد التيموري "الله داد" (عطـاء الله) الذي اسندت إليه مهمة الإشراف على جمع الأموال ،بصلبهم في "سوق البزوريين" .[5] ويقول ابن قاضي شهبة إن عمليات شنق أتباع تيمور أو صلبهم بحجة الاعتداء على الأهالـــي ، تكررت في مناطق أخرى من المدينة . وكانت أحياناً عمليات صورية غير حقيقية .[6] واستطاعت الإدارة الجديدة أن تجد لها من خلال اختلاف سكان المدينة ،مجالاً لزيادة تدخلها فـــي شؤونهم ،فقد أخذ بعضهم يشكو البعض الآخر إلى الحكام الجدد .[7]

دخول تيمور

ويفهم من كلام ابن خلدون أن تيمور قد ترك القصر الأبلق إلى دمشق مباشـــرة، بعد عودة الوفد الدمشقي إلى المدينة ،وعند وصول الخبر بفتح الباب الصغير ،[8] تنفيــــذاً لما تمّ عليه الاتفاق . وكان ذلك في يوم الأحد ٢٣ جمادى الأولى (١٠ كانون الثاني ١٤٠١م).

(١) : باب الفراديس: أحد أبواب دمشق الأربعة الواقعة في السور الشمالي ولا يزال قائماً إلى اليوم في أحد أحياء دمشق القديمة ويدعى "حي العمارة" . (٢) : يزدي: ج ٢ص ٢٣٩ ولا يزال الباب الصغير قائماً إلى اليوم في أحد احياء دمشق،ويدعى حي الشاغور .

(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ آ والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ص ١٠٤٧ والعسقلانـــي: ج ٢ص ١٢٧ (٤) : ابن عربشاه: ص ١٠٦ والمقريزي نفسه والعسقلاني : نفسه

(٥) : ابن عربشاه : ص ١٠٤ وابن العماد الحنبلي : ج ٢ص ٦٤ ويعرف السوق اليوم باســم قريب لما كان يعرف به آنذاك "سوق البزورية" ،ويقع جنوب مسجد بني أمية .

(٦) ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٦ آ . (٧) : ابن عربشاه : ص ١٠٧

(٨) : ابن خلدون: التعريف ص ٣٧٢ .

ودخل تيمور المدينة من الباب نفسه . ويعلل ابن عربشاه سرعة انتقال تيمور إلى دمشق بحلول فصل الشتاء واشتداد البرد .(١) وتقدم الفاتح التركي حتى نزل في منزل أحد الأمراء المماليك هو الامير بتخاص السودوني .(٢) ويرى يزدي أن اختيار تيمور لهذا المنزل لأنه كان نزوله في منزل منزلاً نزهاً ، (٣) يشرح الصدر . وكان بتخاص السودوني – صاحب المنزل – من الذين ساهموا في عمليات الدورية إلى البادية لتقصي أخبار تيمور منذ عام ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) (٤) . ولكنه وقع أسيراً بيد القوات الغازية عند اجتياح المدينة – عام ٨٠٣هـ (١٤٠١م) – وكان ممن أجبر على السير في ركاب الغزاة ، ومات في الأسر عند وصوله إلى نهر الفرات .(٥) وأما منزله الذى حلّ به تيمور، فهو يلاصق المسجد الذي أنشأه هذا الأمير ، والذي لاتزال بقاياه تقوم إلى الوقت الحاضر في أحد أحياء دمشق ، وهو حيّ ظل إلى اليوم أيضاً يحمل الاسم نفسه الذي عرف به منذ بدء نشوئه في العهد المملوكي – خارج السور – وهو " سويقة صاروجة " ، في شمال المدينة . ويقع المسجد والمنزل في ناصية إحدى الحارات المتفرعة عن سويقة صاروجة كانت تعرف بحارة " ابن صبح ".(٦) وتحمل بقايا المسجد والمنزل المتلاصقين اليوم على طول جبهتيهما الجنوبية والغربية كتابة تفيد – على الرغم من التآكل الشديد الذى حلّ بها – أن بانيهما هو الأمير بتخاص السودوني .(٧) ويظهر أن المكان الذى أقيم فيه المسجد والمنزل كان كثير الأشجار ، فقد أشار العلموي المتوفي في عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م)، إلى أنه كان يقوم بجوار المسجد والمنزل في أيامه (أيام العلموي) حديقة تدعى بـ " جنينة ابن العنبرى ".(٨)

(١) : ابن عربشاه : ص ١٠٧ (٢) : يزدى : ج ٢ص ٢٤٢ وابن عربشاه : ص ١٠٤ (٣) : يزدي : نفسه . (٤) : ابن قاضي شهبة : ص ٦٥ . (٥) : ابن عربشاه : ص ١١٤ . (٦) : محمد احمد دهمان : ولاة دمشق في عهد المماليك دمشق ١٩٨١ ص ١٦٦ الذي ذكر أن حارة ابن صبح هي " حارة قولي " المعروفة اليوم ، وتقع في سوق ساروجة . (٧) : أشار إلى هذه الكتابة على واجهة المسجد والمنزل " أسعد طلس " في أحد تعليقاته على كتاب " ثمار المقاصد في ذكر المساجد " الذي ألفه " يوسف بن عبد الهادي " المتوفي عام ٩٠٩ هـ (١٥٠٢ م) ص ١٩٨ – ١٩٩ . وأما العبارة كما قرأها أسعد طلس فهي " عمارة الاسفهنسلار الكفيلي الزعيمي المجاهدي السيفي الملكي بتخاص السودوني الظاهري أعزه الله " . والبناء اليوم مسجل كبناء أثري في سجلات " المديرية العامة للآثار والمتاحف " بدمشق باسم " مسجد بلبان ". وبلبان هذا هو أتابك العسكر في دمشق ، قام – على مايظهر – بعد وفاة بتخاص السودوني وهو أسير في ركاب تيمور عند نهر الفرات ، بالاستيلاء على المنزل والمسجد عام ٨١٩هـ (١٤١٦م) ، وهو العام الذي ذكره عبد الباسط العلموى " المتوفي عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م) ، في كتابه " مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث ، على أنه التاريخ الذي قام فيه بلبان ببناء المسجد الذى دفن فيه عند وفاته فيما بعد عام ٨٣٦هـ (١٤٣٢م)، وببناء المنزل الملتصق به ، الذي وصفه العلموى بأنه كان منزلاً حسناً (العلموى المصدر السابق ص ١٨٥) . وقد يكون من المحتمل أنه قد شاهده على هيئته الكاملة . وقد ذكر النعيمي المتوفي عام ٩٢٧هـ (١٥١٩م)، وهو أقرب عهداً إلى هذه الأحداث ، في مؤلفه " الدارس في تاريخ المدارس " أن أعمال بلبان لم تكن إلا ترميماً وتجديداً للمسجد والمنزل (النعيمي : ج ٢ص ٣٣٢)، مما يوحي بالاعتقاد أن هذا الترميم والتجديد كان على المسجد والمنزل اللذين بناهما بتخاص السودوني . ومهما يكن من أمر فإن وجود العبارة التي تحمل اسم بتخاص السودوني على واجهة البناء، يقطع أي شك في أن هذه العمارة من إنشاء هذا الأمير ، ولا سيما وأن يزدي المؤرخ الفارسي الذي لم يزر دمشق، ولا يعرف خططها وأحياءها، قد أشار إلى نزول تيمور في هذا المنزل (يزدى : ج ٢ص ٢٤٢). ولابد أن يكون قد اطلع عندما كتب مؤلفه على وثائق تؤكد ذلك . ولم يبق من بناء المسجد والمنزل في الوقت الحاضر سوى الواجهتين الجنوبية والغربية . وتتألفان من مداميك من الحجارة السوداء ، تتلوها مداميك من الحجارة ذات اللون الزهري . ويقوم في المسجد قبر بلبان الذي استولى على المسجد ، وإلى جواره قبر ابنه . ولم يبق من المنزل الذى يقع في الطرف الشمالي من الواجهة الغربية، سوى المدخل الذي يتألف من قوس مرتفع مدبب مغلق . وتوجد في وسط القوس كوة مستديرة ، تقع تحتها فرجة منخفضة مستطيلة الشكل ، يدخل منها إلى داخل المنزل الذي لم يبق منه إلا بقايا الجدران التي بُنيت عليها جدران الأبنية التي تقوم حالياً على أنقاض المنزل . (٨) : العلموي : ص ١٨٥ .

ولذلك فانه يبدو من المقبول به أن تيمور قد انتقى هذا المنزل للنزول فيه بسبب كثرة أشجاره وقلة الأبنية القائمة حوله بعد انتقاله من القصر الأبلق في إثر احتلال دمشق .

انتقاله إلى تربة منجك

ويبدو من عدم إشارة ابن خلدون — الذي كان في دمشق في ذلك الوقت — إلى نزول تيمور في منزل بتخاص، وذكره أن الفاتح التركي انتقل بعد تركه القصر الأبلق للإقامة في " تربة منجك " بباب الجابية ،[1] أن إقامة تيمور في منزل بتخاص كانت لمدة قصيرة جداً، فلم تلفت انتباه ابن خلدون . وتُعلل سرعة انتقال تيمور من منزل بتخاص إلى تربة منجك بعدم اطمئنانه على سلامة نفسه بسبب قرب المنزل من قلعة دمشق، التي أبت حاميها أن تستسلم له عند استسلام المدينة، ووقوع المنزل في مرمى منجنيقات القلعة . ولذلك فقد فضّل الانتقال إلى مكان أكثر بعداً عن القلعة، ويقع أيضاً خارج الأسوار ، هو " تربة منجك " التي يذكر عنها ابن خلدون أن مقابلة قد تمّت له فيها مع تيمور .[2] ويعتقد ڤيشيل أن ابن خلدون كان يعني بتربة منجك تربة ابنه " فرج بن منجك " التي كانت تقوم في المنطقة التي أشار إليها هذا المؤرخ في باب الجابية، خارج أسوار[3] المدينة . ويكاد يكون من المؤكد أن تيمور قد حلّ في هذه التربة قبل أن يدفن بها صاحبها ، لأن إشارات المؤرخين تفيد أن باني التربة كان حياً عام ٨٠٢هـ وهو العام السابق لوجود تيمور في دمشق[4] . ويبدو مما يقوله ابن خلدون أن تيمور كان بعد نزوله في تربة منجك ، كان يتردد في إقامته بين هذا المكان وبين القصر الأبلق ، الذى تمت فيه بينه وبين المؤرخ مقابلة أخرى فيما بعد ، قدّم خلالها ابن خلدون للفاتح التركي بعض الهدايا[5]. ولذلك فإن ما يذكره ابن عربشاه وغيره من المؤرخين[6]، عن إحراق تيمور لهذا القصر ، فقد تمّ على ما يظهر عند حريق دمشق العام الذي وقع قبيل انسحاب الغزاة من المدينة .

أعماله الأولى

وانصرف تيمور بعد دخول دمشق إلى التقرب من العلماء، وكسب ثقة الناس ، فأكثر من عقد جلسات المناظرات ، في الوقت الذى كان فيه قواده وموظفوه جادّين في جمع الأموال، وبدأت

(١) : ابن خلدون : التعريف ص ٣٧٢ (٢) : ابن خلدون : التعريف ص ٣٧٣

(٣) : ڤيشيل : ص ١٤٥ أما منجك فهو أحد الأمراء المماليك تولى نيابة دمشق للمرة الثانية بين عامي ٧٧٠ — ٧٧٥هـ (١٣٦٩ — ١٣٧٤ م). وتوفي بالقاهرة عام ٧٧٦ هـ (١٣٧٥ م). أما ابنه فرج فقد بنى لنفسه تربة في المنطقة التي أشار إليها ابن خلدون في باب الجابية، وحدد النعيمي موقعها إلى الجنوب الغربي من سور دمشق جنوب " التربة الأفريدونية " وهي لا تزال قائمة إلى اليوم — وغرب تربة " بهادر آص " — ولا تزال لها بعض الأطلال في الوقت الحاضر — (النعيمي : ج ٢ص ٢٢٧) . والتربة بهذا التحديد هي دارسة حالياً تقريباً، ولم يبق منها إلا أجزاء من جدرانها تظهر في جدران المحال التجارية التي تقوم عليها في الوقت الحاضر، وقد أشار إلى ذلك أيضاً محمد أحمد دهمان في كتابه : " ولاة دمشق في عهد المماليك " ص ٢١٦ .

(٤) : المقريزي : السلوك : ج ٣ق ٣ ص ١٠٠٧ وابن تغري بردي ج ١٢ ص ١٩٩ اللذان يذكران أن فرج منجك قد اشترك في هذا العام (٨٠٢ هـ) في ثورة أحد الأمراء المماليك يدعى "تنم" ضد السلطان فرج بن برقوق . وخرج من أجل ذلك من دمشق إلى غزة، ولكنه عقب الهزيمة التي حلت بالثوار في هذه المعركة (معركة غزة) آثر العودة والدخول في طاعة السلطان .

(٥) : ابن خلدون : التعريف ص ٣٧٧، وهذه الهدايا كانت نسخة من المصحف اشتراها ابن خلدون من سوق الكتب بدمشق، وسجادة أنيقة (ربما للصلاة) ونسخة من قصيدة البردة التي نظمها شرف الدين البوصيري المتوفي ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) في مدح الرسول، وأربع علب من حلوى مصر القاهرة .

(٦) : ابن عربشاه : ص ١٠٤ والحنبلي : ج ٧ ص ٦٤

في الوقت نفسه أيضاً عمليات حصار القلعة ، لأن نائبها ويدعى "ازدار" رفض الموافقة على ما تم عليه الاتفاق بين الوفد الدمشقي والفاتح التركي . وأدى تيمور صلاة الجمعة في المسجد الأموي بتاريخ السادس من جمادى الثانية (٢٣ كانون الثاني ١٤٠١م)[١]. واستمع إلى الخطبة التي ألقاها الشيخ "محمود محي الدين بن العز الحنفي"[٢]. وكانت الخطبة باسم السلطان "محمود بن سيورغتمش" (صنيعة تيمور) وباسم تيمور[٣]. وجاء فيها قول الخطيب: "اللهم افتح لهم على العبادة وانصرهم على أعدائك وأعدائهم"[٤]. وأمر تيمور في هذه الأثناء أيضاً بإقامة قبتين على قبري زوجتي الرسول ، في مقابر الباب الصغير[٥]، جنوب دمشق .

مناظرة العلماء واهتم تيمور خلال المرحلة الأولى من إقامته في دمشق ، بمناظرة العلماء . وكان رجل الحاشية الفقيه عبد الجبار بن النعمان - كالعادة - يقوم بالترجمة بينه وبينهم . ودارت أغلب المناقشات حول علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وولديهما الحسين ويزيد ، وكان تيمور يرى أن قتل يزيد للحسين هو ظلم وأن من استحله فقد وقع في الكفر، وأن يزيد قد أقدم على فعلته هذه بمظاهرة أهل الشام له، وأن الحاضرين من أهل الشام على مذهب الغابرين[٦] وأضاف يزدي الذي أشار إلى موضوعات المناقشة نفسها ، أن عدالة تيمور قد رأت أن حكم الأصل يسري على الفرع ، وأن أهل دمشق إن وافقوا يزيد على أعماله فهم كفار ، وإن لم يوافقوه فهم عصاة .[٧] ولكن أحد علماء الشام رد على تيمور بأن هذه الأمور قد ولت ، ونحن اليوم على مذهب أهل السنة والجماعة . وطرح تيمور في إحدى الجلسات على الحاضرين سؤالاً آخر . فطلب منهم أن يبدوا آراءهم في التفضيل بين العلم والنسب . ويقول ابن عربشاه إن الحاضرين أدركوا على الفورغاية تيمور من هذا السؤال ، وهي الموازنة بين أبي بكر الذي قصد تيمور أنه يمثل العلم ، وبين علي بن أبي طالب الذي يمثل النسب لقرابته من الرسول . ولذلك وجموا واحجموا عن الجواب، ولكن أحدهم انبرى قائلاً : العلم أعلى درجة من النسب بدليل إجماع الصحابة على أبي بكر دون علي ، وهذا تفضيل للعلم على النسب حسب مبدأ الاجماع ، وقد قال الرسول : "لا تجتمع أمتي على ضلالة" فأعجب تيمور بالجواب[٨] .

(١) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٥ ب وقد ذكر أن تاريخ الصلاة كان في السادس من رجب . ولكنه كان يقصد حتماً السادس من جمادى الثانية ، وذلك مراعاة للاتساق التاريخي أولاً ، ولأن السادس من رجب يصادف يوم الأحد ثانياً . أما السادس من جمادى الثانية فهو يوم جمعة . والخطأ الوارد عند ابن قاضي شهبة مرده إلى التصحيف .

(٢) : القاضي محمود بن العز الحنفي : قاضي القضاة كان في عداد الوفد الدمشقي الذي ذهب إلى تيمور لمفاوضته . وتقلد منه بعد ذلك خمس وظائف في آن واحد : ١- قاضي القضاة . ٢- خطيب المسجد الأموي . ٣- شيخ الشيوخ . ٤- نظارة الجامع . ٥- نظارة الأنظار المضافة إلى القضاء . ومع ذلك فإنه لم يسلم من الأذى . فقد أسر بعد ذلك وعوقب بشرب الماء المالح والكلس وشوي على النار ثم اقتيد أسيراً مع ابنه إلى تبريز . ثم تمكن مع ابنه فيما بعد من الهرب والعودة إلى دمشق. (ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ ب) .

(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٢٣٩ وابن عربشاه : ص ١٠٤ والحنبلي : ج ٧ ص ٦٤ .

(٤) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٥ ب .

(٥) : ابن عربشاه : ص ١٠٧ ، أما القباب القائمة حالياً على هذه القبور فهي من بناء السلطان العثماني عبد الحميد الثاني كما يتضح من الكتابات الموجودة عليها .

(٦) : ابن عربشاه : ص ١٠٥

(٧) : يزدي : ج ٢ : ص ٢٤٤

(٨) : ابن عربشاه : ص ١٠٦

هذا وكانت الاستعدادات الدفاعية مستمرة في قلعة دمشق ، منذ انسحاب السلطان فرج وعودته إلى مصر.(١) وسعى نائب القلعة لتقوية الروح المعنوية لدى سكان المدينة ، فطلب إليهم الصمود أمام الأعداء . وأعلن عن استعداده لإعطاء السلاح لمن يرغب من الأهالي بقتال الغزاة . وطلب من السكان الذين كانوا يقطنون بجوار القلعة إخلاء منازلهم . ثم تمّ حرق هذه المنازل شرقاً حتى المدرسة العادلية (حيث كان ينزل ابن خلدون)، وشمالاً حتى درب "مابين السورين "(٢) وجنوباً حتى "المارستان "(٣) و "حارة الغرباء ".(٤) ويقول يزدي إن تيمور قد أعجب بمناعة القلعة وضخامتها وارتفاع أسوارها .(٥) وذكر شامي الذي كان يرافق الحملة أنه كان للقلعة خندق يحيط بها ، ويبلغ عرضه عشرين ذراعاً وعمقه ثلاثون ، وأن القلعة كانت مشحونة بالأسلحة والذخائر ، ولها مجانيق تلقي السهام والقار والنفط .(٦) ويستنتج من أقوال بعض مؤرخي الشام ومصر ، أن حصار القلعة بدأ منذ اليوم الأول لدخول القوات المغيرة دمشق . (٢٣ جمادى الأولى) .(٧) كما يفهم مما يقوله ابن عربشاه أن الغزاة لم يكونوا جادين في عملية الحصار خلال المرحلة الأولى، لأن تيمور انصرف بعد دخوله إلى دمشق إلى المناظرات وإلى استرضاء السكان .(٨) وقد بدأ الحصار الفعلي منذ السادس من جمادى الثانية – على مايذكره ابن قاضي شهبة – بعد أن أتيح للقيادة العسكرية للقوات المغيرة ، أن تدخل أعداداً من قواتها إلى المدينة بالتدريج . وكان هدفها من ذلك عدم إثارة مخاوف الأهالي . وقد لاحظ ابن قاضي شهبة أن العساكر الخراسانية قد كثر ترددهم على المدينة منذ مطلع جمادى الثانية (١٨ كانون الثاني ١٤٠١ م)، بحجة شراء مايحتاجون إليه . ثم لم يلبث عدد العساكر أن ازداد زيادة كبيرة بعد أسبوع .(٩) وقد أورد مثل هذه الملاحظة ابن أياس عندما قال ، إن جند تيمور أخذوا يدخلون دمشق "قليلاً قليلاً " حتى امتلأت المدينة بهم ثم حاصروا القلعة .(١٠) واستطاعت القوات المغيرة أن تصل في مساء اليوم الذي بدأ فيه

(١) : ابن عربشاه : ص١٠٤ (٢) : بين السورين : ويلفظها العامة من سكان دمشق اليوم " بين الصورين "، وهو الزقاق الممتد بين محلتي المناخلية والحارة الحاليتين. وقد دعي بهذا الاسم لوقوعه بين السور الروماني والسور الأيوبي في شمال دمشق. (صلاح المنجد : خطط دمشق . ص١٠٩) (٣) : المارستان : جنوب غرب المسجد الأموي بدأ ببنائه نورالدين الزنكي عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م). ولايزال بحالة سليمة إلى اليوم (انظر : ريحاوي : العمارة العربية . ص١٠٨ – ١٠٩). وقد حول حالياً إلى متحف .

(٤) : حارة الغرباء : يفهم من تعليقات أسعد طلس على كتاب ثمار المقاصد أنها كانت بجوار باب الجابية من داخل السور. (انظر: "ثمار المقاصد في ذكر المساجد " ليوسف بن عبد الهادي تحقيق أسعد طلس ص٩٨ هـ ٢ و ص١٣١ هـ ٢. هذا وقد أورد ابن قاضي شهبة أن نائب القلعة هو الذى أمر بإحراق ماحولها (ورقة ٢٠٦ آ). أما المقريزى (ج ٣ق ٣ص١٠٤٦) فيقول إن تيمور هو الذي أمر بذلك . (٥) : يزدي: ج ٢ص ٢٣٩ (٦) : شامي : ص ٢٣٤

(٧) : ذكر كل من المقريزى وابن تغري بردي: أن حصار القلعة استمر تسعة وعشرين يوماً ، كما أفاد ابن قاضي شهبة أن استسلام القلعة لتيمور كان يوم ٢٢ جمادى الآخرة. (انظر المقريزى: السلوك : ج ٣ق ٣ص ١٠٤٩ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ص ٢٤٣ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٨ آ). فاذا أرجع حساب الأيام إلى الوراء من تاريخ ٢٢ جمادى الآخرة تسعة وعشرين يوماً ، كان أول أيام الحصار يصادف ٢٣ جمادى الأولى وهو يوم دخول تيمور المدينة . ولا يُعلم لماذا ذكر فيشيل أن الحصار قد بدأ في ١٤ كانون الثاني ١٤٠١ (٢٧ جمادى الأولى) (انظر : فيشيل : ص١٩٦) . (٨) : ابن عربشاه : ص ١٠٤

(٩) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ ب (١٠) : ابن أياس: ج ١ص ٣٣٢ .

الحصار الفعلي ،حتى حدود الخندق المحيط بها ، على الرغم من كثرة الرمي عليها من الأسوار، وعلى الرغم من كثرة الخسائر في الأرواح التي تكبدتها خلال عمليات الهجوم . وكان إذا سقط الجندي المتقدم من "الشقطية" (الجغتاي كما دعاهم ابن قاضي شهبة) ، فإن الذي يليه يدوس عليه ويتخطاه ويتقدم .[1] ويشير ابن خلدون إلى انه في احدى زياراته لتيمور في مكان اقامته في تربة منجك قد شاهد اجتماعا عقده الفاتح التركي مع اركان حربه ، ومع عرفاء البنيان والمهندسين ، تدارسوا فيه طريقة قطع الماء عن القلعة المحاصرة .[2] واستدعى تيمور إليه العلماء (رجال الدين) وسألهم عن حقيقة وجود ممر تحت الأرض يؤدي إلى القلعة . ولما نفى هؤلاء علمهم بذلك هددهم باجتياح المدينة وتخريبها ، محتجاً بعدم استطاعته كبح جماح قواته.وأمهلهم مدة ثلاثة أيام كي يقدموا معلومات عن ذلك الممر ، أو تستسلم القلعة .[3] ودفعت تهديدات تيمور العلماء للسعي لثني نائب القلعة عن موقفه . فأرسلوا إليه اثنين منهم رُفعا بالحبال من باب القلعة في داخل المدينة . ولكن نائب القلعة "ازدار" رفض عرض الاستسلام . واعتقل أحد المبعوثَيْن ثم أطلق سراحه بعد أن ضربه .[4] وأقامت القوات الغازية برجين من الحجارة والخشب في الجهتين الشمالية والغربية من القلعة ، (أي في خارج أسوار مدينة دمشق) ، وكانا أعلى من أسوار القلعة .[5] وأخذوا يقذفون عليها حجارة المجانيق وقوارير النفط . واستخدموا لذلك ستين منجنيقاً .[6] ولكن المدافعين تمكنوا من إحراق البرجين ، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من المغيرين بالحريق .[7] وصمدت القوات المغيرة رغم ما تكبدته من خسائر . واستمرت على القذف من تحت القلعة إلى أن جعلت من المستحيل على المدافعين البقاء على الأسوار للاستمرار في عمليات الدفاع ، وبعد أن تهدمت بعض الأبراج نتيجة كثافة قذف القوات المغيرة .[8] وعند ذلك أضحى باستطاعة هذه القوات أن تجتاز الخندق ، وأن تبدأ بنقب الأسوار .[9] واستدعى تيمور إليه العلماء للمرة الثانية ، وسألهم عما فعلوه في البحث عن الممر السري إلى القلعة،فأعلموه بما وقع لهم مع نائب القلعة . وأبلغوه رفضه الاستسلام وإصراره على المقاومة . وجرّب الفاتح التركي الهجوم على القلعة من ناحية باب الجابية . وأجبر سكان المناطق المجاورة للباب على مغادرة منازلهم .[10] واضطر المدافعون أخيراً أمام شدة هجوم الغزاة ، وبسبب قلة عددهم إلى الاستسلام وطلب الأمان.

(١) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٦آ وتحدث عن ضراوة الهجوم شامي في ص٢٣٥
(٢) : ابن خلدون : التعريف ص٣٧٢ـ ٣٧٤ . (٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٦آ ، وقد اورد صيغة تهديد تيمور للعلماء بلغته،فقال على لسان تيمور لما أنكر العلماء معرفتهم بالممر السري : "تكذبوا أنتم وآباؤكم وأجدادكم ! . عمرهم في دمشق ما تعرفون طريقاً إلى القلعة؟! أنا ما أعرف ، إلى ثلاثة أيام إن لم تبصروا طريقا أعبر إلى القلعة أو ينزل نائب القلعة، وإلا عبرت وحاصرت من داخل . وما اقدر أن أرد العسكر عما يفعلوا وتخرب البلد".
(٤) : ابن قاضي شهبة : نفسه . (٥) : ابن عربشاه: ص١٠٧ . (٦) : يزدي: ج ٢ص ٢٤٠ وابن خلدون التعريف .ص٣٧٤ (٧) : ابن عربشاه : نفسه والحنبلي : ج ٧ص٦٥
(٨) : ابن قاضي شهبة : نفسه وابن خلدون : نفسه . (٩) : يزدي: ج ٢ص٢٣٩ وابن قاضي شهبة : نفسه . (١٠) : ابن قاضي شهبة : نفسه .

وأرسل نائب القلعة المفاتيح إلى القوات المغيرة .(١) ووضع تيمور يده على ماوجد في القلعة من أموال وذخائر قيل أنها كانت مكدسة منذ قرون ، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الغلال كانت قد جمعت من أموال أوقاف الحرمين المكي والمدني . فأمر ببيع هذه الغلال على الفور وأرسل أثمانها إلى خدام الأماكن المقدسة . كما أرسل بعض الهدايا إلى مدينة القدس .(٢) وتتابع المصادر الفارسية حديثها عن أعمال تيمور بعد احتلال القلعة ، فتقول إن تيمور وزّع ماوجده منها من المماليك والغلمان على أمرائه . وأمر بنقل الأطباء وأرباب الحرف الذين كانوا في داخلها إلى سمرقند .(٣)

المصادرات والغرامات

وكانت الغرامات المالية التي فرضها تيمور على المدينة بسيطة في أول الأمر ، و لا تتعدى الطُقُزات ، وهي هدايا يرى تيمور أنه من الواجب على المدن التي يمر بها أن تقدمها له .(٤) ولكن الفاتح التركي لم يلبث عندما قابل الوفد الدمشقي أن طالب بدفع مبلغ ألف ألف دينار ، كأموال أمان ، وهي الأموال التي كانت تجبى من المدن حتى تسلم من التنكيل .(٥) وتمّ الاتفاق مع الوفد أيضاً ، على أن يستلم تيمور ماتركه السلطان فرج وأمراؤه قبل انسحابهم من أموال وغلمان ودواب .(٦) وبدأت عمليات الجمع مباشرة بعد عودة الوفد إلى المدينة . وأقام رئيس الجباية القائد التيموري "الله داد" مركزاً له داخل المدينة بالقرب من الباب الصغير . وبدأت عمليات الجمع بإشراف ابن مفلح الحنبلي والعلماء . كما أستعين بعدد من الجباة من أبناء المدينة ، وكانوا ممن اشتهروا بالظلم والتعسف ، فأخذوا يتبارون في ظلم الناس وحمل الأكثر من المال .(٧) ووزعت الأموال المفروضة على مختلف أحياء المدينة وحاراتها.(٨) واستطاع الجباة جمع المال المطلوب بوقت قصير ، بسبب كثرة أموال السكان .(٩) ولما حمل المال إلى تيمور استقله ، وقال إن المطلوب هو جمع ألف تومان وليس ألف ألف (والتومان عدد يساوي عشرة آلاف) .(١٠) فعاد ابن مفلح الحنبلي ورهطه إلى الجباية من جديد . واضطروا لاستخدام وسائل القسر .(١١) فجبوا أجور مساكن الأوقاف عن ثلاثة أشهر مقدماً . وفرضوا على كل ساكن في دمشق مبلغ عشرة دراهم ، دون التفريق بين ذكر وأنثى أو بين كبير وصغير أو بين حر وعبد ، واضطر ابن مفلح لتأمين كامل المبلغ المطلوب ، أن يأخذ بعض المبالغ من أوقاف المساجد وأوقاف المسجد الأموي بالذات .(١٢) ولما حُمل المبلغ المطلوب إلى تيمور ، أعلن أن المبلغ لايساوي بحسابه إلا ثلاثة آلاف دينار ، ولابد من الاستمرار في الجباية لتأمين بقية المبلغ المفروض . واضطر الجباة من جديد إلى التشدد في عمليات الجمع من السكان ولجؤوا إلى ضرب الناس وشتمهم ، وشملت هذه الأعمال العلماء . وأدى تباري

(١) : ابن عربشاه: ص١٠٧ وابن خلدون: نفسه والمقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص١٠٤٩ ويزدي : ج٢ ص٢٤١ وابن تغري بردي : النجوم ج١٢ ص٢٤٣ .وقد رعدد المدافعين بأربعين نفراً وابن أياس ج١ ص٣٣٣ . (٢) : يزدي : ج٢ ص٢٤٢

(٣) : شامي : ص٢٣٦ ويزدي : ج٢ ص٢٤٢ وقد أجمل ابن أياس أعمال تيمور وأعوانه في القلعة بقوله : "واحتاطوا على كل مافيها من صامت وناطق " (ج١ ص٣٣٣)

(٤) : ابن تغري بردي : ج١٢ ص٢٣٩ (٥) : المقريزي : السلوك ج٣ ق٣ ص١٠٤٧

(٦) : ابن عربشاه : ص١٠٤ . (٧) : ابن قاضي شهبة ورقة ٢٠٦ ب وابن عربشاه : ص١٠٦

(٨) : ابن عربشاه : ص١٠٤ (٩) : المقريزي : نفسه وابن تغري بردي : ج١٢ ص٢٤٢

(١٠) : المقريزي : السلوك نفسه والعسقلاني : ج٢ ص١٣٨ وابن تغري بردي : ج١٢ ص١٣٨ وذهب ابن أياس إلى أن تيمور طلب ألف ألف تومان وليس ألف ألف دينار . (ج١ ص٣٣٢)

(١١) : العسقلاني : ج٢ ص١٣٨ (١٢) : المقريزي : السلوك ج٣ ق٣ ص١٠٤٨ وابن أياس : ج١ ص٣٣٢

الجباة فيما بينهم على جمع المبالغ الأكثر، إلى الإضرار بالناس وإلى خلافات فيما بين الجباة أنفسهم، ولذلك فقد أمروا أن يسلموا ما يجمعونه من أموال يومياً، إلى رئيس الجباية التيمورية "الله داد".(١)

وطالبت الإدارة التيمورية فوق ذلك بتسليم ما تركه التجار الغائبون من أموال في المدينة ولا سيما التجار الفرنجة،(٢) وكان لهؤلاء التجار كما يقول ابن قاضي شهبة أموال كثيرة في دمشق.(٣) كما وضعت هذه الإدارة يدها على كل ما وجد في المدينة من جمال وبغال وخيول، وبلغ عدد الدواب المصادرة مائة وخمسة وعشرين ألف دابة.(٤) وتبرر المصادر الفارسية شطط الإدارة التيمورية في المطالبة بالمزيد من الأموال، بالإدعاء بأن عيارات الدنانير الذهبية والدراهم الفضية، كانت مغشوشة وكانت أوزانها خفيفة.(٥)

الجمع المباشر

ولجأت الإدارة التيمورية إلى أسلوب جديد في الجباية بدأ في العاشر من رجب (٢٥ شباط ١٤٠١م)، عندما ألقت القبض على ابن مفلح الحنبلي وأعوانه والزمتهم بتقديم بيانات عن خطط دمشق وأحيائها وحاراتها. ثم وزعت هذه البيانات على عدد من الأمراء التيموريين وطلب من كل أمير أن يقوم بالجباية المباشرة من السكان.(٦) واستمرت أعمال الجباية المباشرة تسعة عشر يوماً، وانتهت في ٢٨ رجب (١٤ آذار ١٤٠١م). واستعمل الأمراء خلال تلك المرحلة الشدة القصوى لإجبار الناس على الدفع. ففرضوا على كل إنسان من جديد، ثلاثة أمثال ما كان قد جُبي منه في السابق. وهددوا من أخفى من السكان شيئاً من مال السلطان وأموال التجار الغائبين بالشنق. وجمعوا من بقي من تجار المدينة وطالبوهم بدفع المزيد. وإذا تباطأ أحدهم بدفع ما فُرض عليه سيق إلى الشنق، ولا ينجو من الموت إلا إذا كفله أحد لمدة قصيرة، ليخرج ويحضر ما فُرض عليه على وجه السرعة.

التنكيل بالسكان

وينقل المؤرخون صوراً أخرى للتنكيل الذي حلّ بالسكان. فكان يؤتى بصاحب البيت ويوقف على باب داره. ويطالب بالمال الثقيل الذي لا يقدر على دفع بعضه، وإذا لم يدفع عوقب بالتعليق من إبهامي قدميه بالسقف وأُوقدت النار تحته. أو تربط يديه إلى ظهره ويغم أنفه بالرماد الساخن. وقد يربط بحبل من تحت إبطيه ويعلق بالسقف، ثم يرم بشدة ليدور على نفسه بسرعة كبيرة. ويجبر أحياناً على المشي على النار، أو تُعصر أعضاؤه. ثم يصادر ما يوجد في بيته من متاع وأقمشة ونحاس (أواني)، وتُخرج نساؤه وأولاده وبناته

---

(١) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٦ ب (٢) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ١٠٤٩،
(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٦ آ (٤) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ١٠٥٠
(٥) : حافظ آبرو : ص ١٦٢ ويزدي : ج ٢ ص ٢٤٣
(٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ آ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٢٨ والسلوك للمقريزي : ج ٣ ق ٣ ١٠٤٩ ـ ١٠٥٠، أما ابن مفلح فقد توفي بعد ذلك بمدة وجيزة في ١٧ شعبان بسبب تشويش في بدنه (على ما ذكره ابن طولون في الثغر البسّام ص ٢٢٨). أما ابن عربشاه فيقدم وفاته إلى أواخر رجب أو أوائل شعبان، خلال أحداث النهب العام. ويقول عن ابن مفلح إنه حاول أن يلعب دور أحمد بن تيمية عندما قدم السلطان الايلخاني غازان إلى دمشق عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م. ويتابع السخاوي الحديث بأن أستاذه ابن حجر العسقلاني قد شاهد ابن مفلح الذي كانت وفاته في أرض البقاع في أواخر شعبان (الضوء اللامع ج ١ ص ١٦٨).

ويعتدي على الجميع أمامه .[1] ويشير شيلتبرجر إلى وقوع أعمال التنكيل بسكان دمشق ، ويقول إن جند تيمور قاموا ببناء ثلاثة أبراج من رؤوس القتلى من أهالي المدينة التي تعرضت أيضاً للنهب .[2]

المجاعة وتعطل الحياة العامة

وكان من الطبيعي أن تتأثر الحياة العامة في المدينة بسبب هذه الأعمال . فشحّت المواد التموينية لتعطل حركة البيع والشراء في الأسواق وارتفاع الأسعار ، ثم المصادرات التي كانت تقوم بها السلطات .وظهرت بوادر المجاعة . ويقول ابن قاضي شهبة إن هذه السلطات قد وضعت يدها على ما يوجد من أقوات في مخازن التجار الغائبين ، وختمت "حواصل" (مستودعات) هؤلاء التجار . "ومن يوم هرب السلطان لم يرا [كذا] أحد خبز [كذا] في فرن إلا إذا كان بيتي [كذا] " .[3] وتحدث مؤرخ آخر عن ندرة القمح والشعير في دمشق في تلك المرحلة وارتفاع أسعارهما .[4]

وكان من مظاهر اضطراب الحياة العامة في المدينة تعطل الأذان والصلاة في أغلب المساجد ، بما فيها المسجد الأموي الذي اتخذه شاه ملك حاكم دمشق العسكري مسكناً له . فقام بجمع ما على أرض المسجد من بسط وحصر وستر بها الأبواب والنوافذ . وقد أقيمت صلاة الجمعة في الجزء الشمالي من المسجد ، خلال الحقبة الأولى من دخول الغزاة المدينة . ولكن الجند كانوا خلال الصلاة يلعبون بالكعاب ويشربون الخمر ويقرعون الطبول . ثم توقفت الصلاة بالمسجد بعد ذلك تماماً . وأغلقت أبوابه كلها إلا باباً واحداً هو "باب الزيادة" .[5] وهو الباب الجنوبي الذي يفضي إلى الحرم مباشرة .

النهب العام

وبعد أن أنهى أمراء تيمور وقواده عمليات جمع الأموال من سكان دمشق ، طلب تيمور من جنده القيام بغارة عامة على المدينة . وأحب كما يقول المقريزي ، أن ينعم على الجند بنهب ما يمكن أن يكون قد بقي فيها .[6] وكان ذلك قبل أن يغادر المدينة بأقل من أسبوع . ويطلق ابن عربشاه على ما قام به جند تيمور "النهب العام" .[7] وقد بدأ على ما أجمع عليه أغلب مؤرخي الشام ومصر يوم الأربعاء ٣٠ رجب (١٦ آذار ١٤٠١ م) ، بعد أن أنهى الأمراء أعمالهم (جمع الأموال) بيومين .[8] وقد اندفع الجند المشاة بأعداد كبيرة وفي أيديهم السيوف المصلطة ، على شكل غارة عامة للنهب والسلب . واستمرت هذه الأعمال ثلاثة أيام ، هي الأربعاء والخميس والجمعة (٣٠ رجب و ١ و ٢ شعبان / ١٦ و ١٧ و ١٨ آذار ١٤٠١ م) .[9] وقام الجند في هذه الأيام الثلاثة بنهب ما تبقى بالمدينة من مال ومتاع . وأسروا

(١) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٠ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٢ ص ٢٤٤ وابن أياس : ج ١ ص ٣٢٤ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ ب وقد ذكر أنه في حالة امتناع صاحب البيت عن الدفع "يخرج من في داره من نسائه وأولاده فتوطأ إمرأته وهو يشاهد .وتفتض أبكار بناته ويلاط أبنائه .. [كذا] ، وإذا قضوا من الوطئ أوطارهم أوجعوهم ضرباً " . (٢) Terfer : op. cit. P.23 : (٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ آ (٤) : ابن أياس : ج ١ ص ٣٢٢

(٥) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ ب والعسقلاني : ج ٢ ص ١٣٨ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٨ انظر من أجل "باب الزيادة" ريحاوي : ص ٤٩ (٦) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١

(٧) : ابن عربشاه : ص ١١١ (٨) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ آ و ٢٠٧ ب والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٢٨ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٤٥ أما يزدي فيجعل تاريخ النهب العام الأول من شعبان ولكنه يقول إنه كان يوم الأربعاء ، وربما كان هذا الاختلاف يرجع إلى أن يزدي قد حسب شهر رجب ٢٩ يوماً ، وينتهي يوم الثلاثاء ، وعليه يكون يوم الأربعاء هو الأول من شعبان (يزدي : ج ٢ ص ٢٤٤) . (٩) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ ب وابن عربشاه : ص ١١٢ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٢٨

أو قتلوا أغلب من بقي من سكانها حياً . وأفحشوا علناً بالنساء والأطفال .[١] وسيق الأحياء من سكان المدينة رجالاً ونساءً مربوطين بالحبال . ولم يُترك في المدينة إلا الأطفال ممن هم دون الخامسة من العمر . وكان عدد هؤلاء لا يتجاوز بضعة آلاف . ولم ينجُ من سكان المدينة إلا من احتمى بكبراء الجغتاي .[٢] ثم أُضرمت النيران في البلد . وكانت أغلب بيوت المدينة مبنية من الخشب والطين . فأتت النيران - التي ظلت مشتعلة ثلاثة أيام بسبب اشتداد الريح - على داخل المدينة بأسره تقريباً ، حتى أضحت كما قال المقريزي "أطلالاً بالية ورسوماً خالية قد أقفرت من الساكن، وامتلأت أرضها بجثث القتلى . ولم يبق بها دابة تدب إلا الأطفال لا يتجاوز عددهم عدة آلاف ".[٣] وتتوافق أقوال المصادر التيمورية مع أقوال مؤرخي مصر والشام ، في وصف أعمال المغيرين في دمشق . وتعلل هذه المصادر تلك الأعمال بعدالة تيمور التي رأت محاسبة سكان دمشق ، لوقوف أسلافهم إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ويزيد ضد علي بن أبي طالب وولده الحسين . ولذلك فقد أضحى أهالي دمشق ذكوراً وإناثاً ، مع أموالهم ونفائسهم أسرى وغنائم لعساكر تيمور .[٤] وتتابع هذه المصادر قولها إن المغيرين أخرجوا من دمشق أنواعاً من الأقمشة والأمتعة التي جاء بها تجار دمشق من قبرص ومصر وبلاد الروس وأثارت هذه المنهوبات إعجاب الغزاة لجودتها ووفرتها . وأشاروا إلى الأسرى من الغلمان الأزوام والسبايا من السراري التركيات ، وإلى الكميات الكبيرة من الجواهر والنفائس التي عثر عليها في قلعة دمشق وفي دور الأغنياء والتجار .[٥]

حريق دمشق

وينقل يزدي ما رآه شاهد عيان كان في دمشق في تلك المرحلة ، فقال إن بعض عمارات المدينة كانت ترتفع إلى أربعة طوابق . وكان الطابق الأرضي منها يُبنى من الحجارة ، وأما الطوابق الأخرى فتبنى من الخشب . وقد تفنن سكان دمشق بتزيين منازلهم وزخرفتها . وأتت النيران على هذه المنازل ، وفشلت جميع محاولات الإطفاء التي جرت بإشراف بعض القضاة والأعيان ، وساعدهم فيها بعض العامة ممن لم تصل إليهم يد التنكيل .[٦] ووصلت النار إلى المسجد الأموي . فسقط سقفه على الأرض وسال رصاصه وزالت أبوابه ، ولم يبق منه إلا جدران قائمة وقد تفطّر منها الرخام الذي كان يغطيها .[٧] ويقول يزدي إن تيمور حاول

---

(١) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ آ وابن خلدون : التعريف ٣٧٤ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٣٨

(٢) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ ب وابن عربشاه : ص ١١٢ والعسقلاني : ج ٢ ص ١٣٨ والمقريزي السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١

(٣) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ وذكر ما يشبه ذلك العسقلاني : ج ٢ ص ١٣٨ وابن خلدون : التعريف ص ٣٧٤

(٤) : شامي : ص ٢٣٥ ويزدي : ج ٢ ص ٢٤٤

(٥) : شامي : ص ٢٣٧ وحافظ آبرو : ص ١٦٢ ويزدي : ج ٢ ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٦) : يزدي ج ٢ ص ٢٤٤-٢٤٥

(٧) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٧ ب وابن عربشاه : ص ١١٢ والمقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ وابن حجر العسقلاني : ج ٢ ص ١٣٨ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٤٦ وكذلك ابن خلدون : التعريف ص ٣٧٤ الذي كان ولابد قد سمع بحريق المسجد دون أن يراه، لأنه غادر دمشق في العاشر من رجب إلى مصر أي قبل حريق المسجد باثنين وعشرين يوماً (انظر فيشيل : ص ١٩٧) . وكان القس شيلتبرجر قد وصف المسجد الأموي بعد أن أشار إلى دمشق على أنها المدينة الرئيسية في سوريا (بلاد الشام) . وقال عن المسجد إنه كان له أبواب عديدة، ويوجد بداخله اثنى عشر ألف مصباح يوقد منها يومياً تسعة آلاف، أما في أيام الجمع فتوقد جميعها. وذكر أن بعض المصابيح من الذهب والبعض الآخر من الفضة . انظر: Terfer: op. cit. P. 23-24

إنقاذ المسجد من الحريق ، فأرسل قائده شاه ملك من أجل هذه الغاية، ولكن سقف المسجد كان قد إنهار قبل وصوله . ويشير المؤرخ الفارسي متعجباً إلى أن النيران قد حولت الحجارة إلى رماد في ذلك المسجد ، ولكنها لم تصل إلى مئذنة عيسى التي يقال بأن المسيح سوف ينزل من السماء إليها ، على الرغم من أنها كانت مبنية من الخشب .[١] وكان من نتائج الحريق أيضاً أن اختلطت معالم المدينة . ولم يعد بالمستطاع التمييز بين أحيائها وحاراتها وطرقها .[٢] وأشار القلقشندي الذى ألف كتابه "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" كما يفهم من كلامه بعد حريق دمشق عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) ، بمدة قد تصل إلى عشر سنوات وقد تزيد عن ذلك (توفي القلقشندى عام ٨٢٣هـ / ١٤١٨م) ، بأن حال دمشق " بعد الحريق " بقي على ذلك إلى الآن إلا القليل مما جُدد .[٣] وكان آخر ما قام به تيمور من أعمال التنكيل قبل أن ينسحب من دمشق ، إصداره الأمر بجمع من بقي حياً من الأطفال . فأُخرجوا إلى ظاهر المدينة . وقدر بعضهم عدد هؤلاء بعشرة آلاف . وجلس الفاتح التركي يراقب الأطفال مدة ساعة . ثم أمر أن يغير عليهم الفرسان بخيولهم . ولما سأله أتباعه الرحمة بهؤلاء الأبرياء ، أجاب : "ما نزل على قلبي فيهم رحمة".[٤]

ويقول ابن عربشاه إن تيمور أخذ يستعد للانسحاب من دمشق ، منذ أن تمكن من احتلال قلعة دمشق في مطلع العشر الثالث من رجب ، وبعد أن قطع أمراؤه شوطاً واسعاً في جمع الأموال المفروضة على المدينة .[٥] ويفهم مما قاله يزدى أيضاً أن تيمور قرر الرحيل عن دمشق منذ ذلك الوقت ، عندما أمر بإرسال عدد ممن تم أسرهم في القلعة إلى سمرقند[٦]! ويتابع المؤرخ الفارسي قوله إن انسحاب الفاتح التركي من دمشق جاء بعد أن حقق غاياته من الاحتلال ، فقد أُخضع بلاد الشام وأُحرق دمشق وكان عليه أن يرجع .[٧] ويعزو ابن عربشاه رحيل الغزاة عن المدينة إلى ما كانوا يشعرون به من نقص في المواد التموينية لإطعام الجند ، وقلة الاعلاف اللازمة لخيولهم وأفيالهم ،[٨] ولا سيما بعد ما حلّ بدمشق وغوطتها من خراب بسبب الغزو . وكان يزدي قد أشار إلى أن تيمور الذي لمس قلة الأعلاف والأقوات في المدينة وضواحيها ، قد أرسل خلال حصار القلعة قسماً من قواته إلى ارض كنعان (فلسطين) لجمع الأعلاف من هناك .[٩] وشوهدت هذه القوات كما يقول ابن قاضي شهبة تجمع العليق في بلاد حوران .[١٠] وظهرت في جهات الحولة .[١١]

الانسحاب وأسبابه

وكان تيمور من ناحية ثانية يشعر بأن السلطان المملوكي الذى انسحب فجأة من دمشق وعاد إلى القاهرة، لن يلبث أن يعود على رأس قوات جديدة إلى بلاد الشام . ولا شك

ولا شك في أن أخبار الاستعدادات العسكرية التي أشار إليها ابن أياس والتي كانت تقوم

(١) : يزدي: ج ٢ ص ٢٤٦ (٢) : ابن اياس ج ١ ص ٣٣٤
(٣) : القلقشندي: (أحمد ابن عبدالله) ، "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" ٣ أجزاء تحقيق عبد الستار أحمد فراج الكويت ١٩٦٤م ج ٢ ص ١٩٣
(٤) : العسقلاني : نفسه وابن أياس: ج ١ ص ٣٣٥ (٥) : ابن عربشاه: ص ١١٠
(٦) : يزدي : ج ٢ ص ٢٤٢ (٧) : يزدي: ج ٢ ص ٢٤٦ (٨) : ابن عربشاه : ص ٢١٥
(٩) : يزدي: ج ٢ ص ٢٤١ (١٠) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٨آ (١١) : ابن عربشاه: ص ٩٨

بها السلطات المملوكية في القاهرة في تلك الآونة [١]، كانت تصل إلى مسامع تيمور . وكان الفاتح التركي يخشى أن يقع هو وقواته بين فكي كماشة : من قوات السلطان المملوكي من الجنوب وقوات حلفائه الجلايريين حكام بغداد من الشرق . ولذلك فضل أن يسارع بالانسحاب من دمشق . ويطلق ابن عربشاه على هذا الانسحاب تعبير "تأخر إلى الوراء" [٢]، ولا سيما وأن السلطان العثماني في الشمال ، كان في الوقت نفسه يسعى لعقد تحالف عسكري مع المماليك ضد العدو المشترك تيمور .

وغادر الفاتح التركي دمشق السبت ٣ شعبان (٢٠ آذار ١٤٠١) . [٣] واستمر انسحاب القوات من بعده إلى اليوم التالي الأحد ٤ شعبان (٢١ آذار ١٤٠١م) . ويشير ابن قاضي شهبة إلى أن الجندي من القوات المنسحبة كان يمر بجماعات الناس من سكان دمشق ، فينتقي منهم من يعجبه من النساء والصبيان ، "ولا يقدر أحد منهم [من سكان دمشق] على دفعه مما حصل عندهم من الخوف والجبن والضعف الحسي والمعنوي" . [٤] ويورد ابن عربشاه قائمة بأسماء عدد من الأطباء والقضاة وغيرهم من أرباب الصنائع والفنون ، الذين أجبروا على مرافقة الغزاة عند انسحابهم . [٥] وكان يُسمح في بعض الحالات للمفروض عليهم السفر ، أن يصطحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم . [٦] وكانت دمشق قد اتخذت - كما أشار يزدي - مركزاً لتجميع الأسرى الذين وقعوا في قبضة القوات الغازية في المدن الأخرى ، والذين تقرر ترحيلهم مع هذه القوات . [٧]

التوحيل

وكان الغزاة قد استقدموا أعداداً كبيرة من الخيول والجمال من حدود سيواس ، لتحميل الغنائم التي استولوا عليها في دمشق . [٨] ومع ذلك فإن هذه الغنائم التي خرج بها هؤلاء من المدينة ، كانت فوق قدرتهم وقدرة حيواناتهم على الحمل ، فأخذوا يلقون ببعضها على الطريق . [٩]

واتجه الفاتح التركي بقواته جنوباً فمر بقرية القبيبات ، (جنوب دمشق) ، وتوقف برهة قصيرة في الغوطة . ثم تابع التقدم شمالاً ماراً بالنبك وقارا إلى حمص . وسلمت المدينة (حمص) مرة ثانية من تنكيل تيمور ، حرمة لقبر خالد بن الوليد ، في الوقت الذي نهبت فيه ضواحيها . وأرسل تيمور من هناك فرقة من الفرسان إلى تدمر فعادوا يسوقون أعداداً كبرى من الأغنام ، قدرها يزدي بمائتي ألف رأس . [١٠] وتقدمت فرقة أخرى إلى انطاكية ، وفرقة ثالثة

(١) : ابن أياس: ج ١ص ٣٣٠ (٢) : ابن عربشاه: ص ٢١٥ (٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٩آ ، والعسقلاني : ج ٢ص ١٣٨ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: ج ١٢ ص ٢٤٥ والمقريزي : السلوك : ج ٣ق ٣ص ١٠٥١ ، وقد أوردها ٣ رجب والتصحيف هنا واضح . (٤) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٩آ . (٥) : ابن عربشاه: ص ١١٢ـ١١٤ وقد أشار إلى أن الغزاة اصطحبوا معهم من أرباب الصنائع : نساجي الحرير والنجارين والنقاشين والحجارين والبيطرية والخيمية والقواسين والبازدارية (مربي البزاة) ، وعدد من حفظة القرآن. ويتحدث كل من ابن عربشاه وابن قاضي شهبة عن قصة "شهاب الدين الزردكاش" (صانع الزرد) ، الذي وقع في الأسر عند استسلام القلعة . وكان خلال عمليات المقاومة ، قد أوقع في القوات المغيرة خسائر كبيرة . ولذلك قُيِّد بقيد يزن سبعة أرطال ، وكتب عليه مخلد ، وحُمل إلى سمرقند. وظل سجيناً إلى وفاة تيمور فأطلق سراحه . وظل في سمرقند إلى أن شاخ وكبر وبلغ التسعين عاماً . (انظر: ابن عربشاه: ص ١١٤ـ١١٥ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٩آ) . (٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٩آ ، (٧) : يزدي: ج ٢ص ٢٤٦ (٨) : يزدي : ج ٢ص ٢٤٥ (٩) : ابن عربشاه : ص ١١٢ الذي أضاف أنه على الرغم من كل ما حملوه معهم فقد ظل في دمشق الكثير ولكن النار أتت على كل ذلك (ص ١١٣) .
(١٠) : يزدي : ج ٢ص ٢٥٠ .

إلى وادي الفرات ، بلغت قلعة الروم وقاتلت العشائر التركمانية النازلة حولها . وأما تيمور على رأس قواته الرئيسية فقد تقدم من حمص إلى حماه التي أظهرت له بعض المقاومة ، فأحرق بعض مساكنها واستاق بعض أهلها أسرى . ووقف تيمور في "الجبول" في ضواحي حلب الشرقية . في ١٧ شعبان (٣ نيسان ١٤٠١ م). ولم يشأ أن يدخل المدينة (حلب) مرة ثانية .(١)

ويعكس حديث ابن الشحنة قاضي حلب في ذلك الوقت ، حالة القلق والاضطراب التي سيطرت على بلاد الشام خلال وجود القوات التيمورية فيها . فيقول إن أخبار أعمال تيمور قد انقطعت عن أهالي حلب منذ مغادرته المدينة . وكانت تصلها بين وقت وآخر شائعات متضاربة، عن هزائم لحقت بالقوات المغيرة على يد قوات السلطان فرج ، وانتصارات حققتها تلك القوات على السلطان المملوكي الذي انسحب إلى القاهرة ، بعد أن قاتل المغيرين قتالاً شديداً . وظلت حقيقة الحال في دمشق خافية عن سكان حلب إلى أن انجلى الموقف بظهور تيمور على رأس قواته في الجبول .(٢) وأرسل الفاتح التركي من هناك ، يستدعي إليه الحامية التي أبقاها في قلعة حلب ، لحراسة أكداس الغنائم التي حصل عليها خلال اجتياح المدينة .(٣) وأمر تيمور من الجبول بإحراق حلب وتخريب ما تبقى من دورها . كما شنع بأهلها مرة أخرى . واضطر سكان المدينة إلى مغادرتها وهم يشاهدون ألسنة النيران تلتهم مدينتهم .(٤) ويتابع ابن الشحنة حديثه فيقول إنه بعد تاريخ ١٧ شعبان (٣ نيسان) بثلاثة أيام ، لم يعد يُعثر على أثر للقوات المغيرة . ولم يتمكن سكان المدينة من العودة إليها إلا بعد مرور مدة من الزمن بسبب انتشار الروائح الكريهة منها .(٥)

وتابع المغيرون انسحابهم عبر نهر الفرات ، على زوارق كبيرة عند البيرة إلى الرها . وتقدموا منها إلى ماردين ، استعداداً للاغارة على العراق مرة ثانية .(٦)

صدى احتلال الشام عند المؤرخين

ويبدو من تعليقات المؤرخين المعاصرين على أعمال جيوش تيمور في بلاد الشام ، أن هذه الأعمال قد أثارت حزن هؤلاء المؤرخين وإشفاقهم ، للمصير الذي انتهت إليه دمشق وغيرها من المدن في تلك الغارة . وتتوافق أقوال المؤرخ الدمشقي أحمد بن عربشاه مع المؤرخ التيموري شرف الدين يزدي ، في تشبيه ما وقع في دمشق على أنه من علامات يوم القيامة .(٧) ويعكس القسم الذي أقسمه ابن عربشاه لما قال : "وأقسم بالله لقد كانت تلك الأيام علامة من علامات يوم القيامة"،(٨) شعور الحزن الذي كان يكتسح نفس هذا المؤرخ ، عندما اضطر وهو فتى في الثانية عشرة من العمر إلى مغادرة دمشق مع أسرته عام ٨٠٣هـ ، هرباً إلى الاناضول من جيوش الغزاة .(٩) ويقدر المقريزي عدد من هلك من أهالي البلاد في حلب

(١) : ابن عربشاه : ص١١٦ وابن الشحنة : ص٢٣٩ — ٢٤٠ ويزدي : ج ٢ص ٢٥٠ — ٢٥٢
(٢) : ابن الشحنة : ص٢٢٩ وأيده ابن عربشاه : ص١١٦ (٣) : يزدي : ج ٢ص ٢٥٢
(٤) : ابن الشحنة : ص٢٣٢ والعسقلاني : ج ٢ص ١٤٠ (٥) : ابن الشحنة : ص ٢٣٣
(٦) : يزدي : ج ٢ص ٢٥٢ وابن عربشاه : ص١١٦ (٧) : يزدي : ج ٢ص ٢٤٤ وابن عربشاه : ص١١٦
(٨) : ابن عربشاه : ص١١٢ (٩) : السخاوي : ج ١ص ١٢٨

[مشق] وغيرها من [مد]ن الشام في "محنة تيمورلنك" من الجوع والقتل والحريق بعشرات [آ]لاف، عدا عمن فرض عليه الأسر، وسيق مع الجيوش الغازية إلى ما وراء النهر.[1] ويرى [...]ون أن ما حل بمسجد بني أمية "كان أمر بلغ مبالغةً في الشناعة والقبح".[2] ويصور [ابن] شهبة الحالة في دمشق خلال محنتها على أيدي الغزاة قائلاً: "وهلك خلال [هذه] المدة من العقوبة والجوع من لا يمكن حصره وحلّ من العذاب ما لا يمكن وصفه".[3] وقال العسقلاني قولا مشابهاً لذلك.[4] ويرى آخرون أن محنة بلاد الشام على أيدي جيوش تيمور تفوق المحنة التي حلت في هذه البلاد في أيام غارة المغول الايلخانيين بقيادة هولاكو.[5]

وقد صور أحد الشعراء المعاصرين ذلك فقال:

لقد عظّموا فعل التتار ولوراوا فعال تمرلنك لعدوه أعظما

لقد خرّب الدنيا وأهلك أهلها وطائره في جلّق كان أشأما.[6]

لقد تهيب تيمور نفسه من أفعال جيوشه – فيما بعد – وبكى أمام وفد مملوكي حضر لمقابلته عام ٨٠٥ هـ (١٤٠٣م)، وكان لا يزال في آسية الصغرى، واعتذر عما وقع وقال: "هذا كان مقدراً".[7]

النزوح عن دمشق

واضطر أغلب من بقي على قيد الحياة من سكان دمشق إلى النزوح عنها أيضاً، حتى بعد رحيل القوات الغازية، بسبب تعطل أسباب الحياة فيها. واتجه أغلب النازحين إلى مصر عن طريق البر أو عن طريق البحر. وكان بعض من سلك طريق البر يتعرض أحياناً لغارات الأعراب على الطريق.[8]

أسباب نجاح تيمور

ولابد من الإشارة إلى أنه أمام إلحاح تيمور قبل غارته على بلاد الشام، على ضرورة إطلاق سراح أسيره في القاهرة اتلاميش، ثم ارتحاله عن البلاد دون أن يحقق هذا الهدف، ودون أن يقيم فيها سلطة رسمية لتحكمها باسمه، يجعل من غارة الفاتح التركي، ليست إلا غارة تهدف إلى السلب والنهب والتدمير وفرض الغرامات الباهظة، كما كان دأبه في المناطق الأخرى التي وصل إليها مع جيوشه.[9] وكانت ذريعته فيما ارتكبه من أعمال القتل والسلب وهتك الأعراض في بلاد الشام، أن أجداد سكان هذه البلاد، كانوا قد أيدوا بني أمية ضد علي بن أبي طالب وأولاده.

ويرى محمد كردعلي الذي يقدر عدد الأسرى الذين ساقتهم جيوش الفاتح التركي في ركابها، بثلاثمائة وستين ألف أسير، بين رجل وامرأة وطفل، أن أول أسباب هذه الكارثة التي حلت ببلاد الشام، يتمثل في سوء الإدارة المملوكية التي كان على رأسها سلطان صغير السن قليل الخبرة. ويعتبر هذا المؤرخ الدمشقي الحديث، أن وصول السلطان

(١) : المقريزي: السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٧٣ (٢) : ابن خلدون : التعريف ٠ ص ٣٧٤

(٣) : ابن قاضي شهبة: ورقة ٢٠٧ ب (٤) : العسقلاني : ج ٢ص ١٢٨ الذي قال: "وهلك تحت الضرب والعقوبة ما لا يحصى". (٥) : السخاوي : ج ٣ص ٤٨

(٦) : عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد ١٩٣٦ ج ٢ص ٢٧٤

(٧) : ابن أياس: ج اص ٣٣٦ (٨) : ابن أياس: ج اص ٣٣٥

(٩) : Prawdin: op. cit. P. 212 , Bréhier: op. cit. P. 473

فرج إلى الحكم كان نذير شؤم على هذه البلاد . ويضيف كردعلي إلى ذلك أسبابا أخرى ، منها تفوق الجيوش الغازية تفوقاً عدديًا كبيراً على جيوش المماليك ، وجهل القيادة المملوكية بحقيقة العدو الذي كانت تقاتله ، فضلاً عما كانت تتصف به من قلة الإخلاص .[1] كما شهدت بذلك كتابات المعاصرين .[2] وعلى كل حال فقد اتضح من سير الأحداث في بلاد الشام خلال غارة تيمور ، أن زمام المبادرة من الناحية السياسية ومن الناحية العسكرية ، ظل في يد الفاتح التركي . ولم تكن أعمال السلطات المملوكية والزعامات الشعبية المتمثلة برجال الدين في ذلك الوقت ، إلا ردود أفعال تتصف إلى حد كبير بطابع السذاجة والارتجال والعشوائية أحياناً . ويظهر ذلك في كثير من المناسبات ، منها ركون الإدارة المملوكية في حلب إلى الأمان الذي منحه للمدينة ثم في استمراره بالتنكيل بالسكان . كما ظهر أيضاً في نجاح الفاتح التركي في فرض مكان المعركة الفاصلة وزمانها مع القوات المملوكية في ضواحي دمشق . ثم في الطريقة التي انسل بها السلطان عائداً إلى مصر ، وأخيراً في مخادعة الإدارة التيمورية لسكان دمشق في كمية الأموال التي فرضت عليهم ، وانتهى الأمر إلى نهب المدينة وإحراقها ، وقتل أغلب سكانها .

---

(١) : محمد كردعلي : خطط الشام ، بيروت ١٩٦٩ ، ج ٢ص ١٥٥ — ١٦٧
(٢) : انظر الفصل الثامن من هذا الباب .

الفصل الحادي عشر

الاتصالات السياسية بين تيمور والسلطان فرج
٨٠٣ — ٨٠٧هـ / ١٤٠٠ — ١٤٠٥م

رسالة تيمور الأولى عام ٨٠٣ هـ — بعثة بيسق الشيخي — رسالة تيمور الثانية عام ٨٠٤هـ — رسالة تيمور الثالثة ٨٠٥ — رسالة تيمور الرابعة ربيع الأول ٨٠٥ هـ — بعثة سعود الكججاني الأولى — اتفاق ٨٠٥ هـ — إطلاق اتلاميش — البعثة المملوكية الثانية — رد فرج الأول — الوفد التيموري الثاني ٨٠٦ هـ — بعثة منكلي بغا (البعثة المملوكية الثالثة) — رد فرج الثاني — محاولة تيمور التدخل في شؤون الحجاز — منكلي بغا في سمرقند — بعثة عبدالله الكشي — الرسالة التي كان يحملها .

استمرت الاتصالات السياسية بين تيمور ودولة المماليك على الرغم من إقدام الفاتح التركي عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) على اجتياح بلاد الشام . وكانت هذه الاتصالات قد بدأت في عهد السلطان برقوق — والد فرج — .(١) وبقيت هذه الاتصالات مستمرة بعد رحيل تيمور عن بلاد الشام . وحتى استقراره في عاصمته سمرقند . واستطاع الفاتح التركي أن يحقق من طريق هذه الاتصالات السلمية مالم تحققه له الحروب . وأدت المراسلات التي حدثت بين الطرفين بين ٨٠٣ — ٨٠٧هـ (١٤٠١ — ١٤٠٥م) ، إلى تبدل في طبيعة العلاقات بين الدولتين ، وتحولها من علاقات عدائية إلى صلات ودية ظهرت في تبادل الوفود والهدايا ، بقصد المجاملات السياسية . وقد ساعدت هذه الاتصالات على إدخال العلاقات بين الجانبين في طور جديد ، ولا سيما بعد وفاة تيمور وتضاؤل نزعة الفتح والتوسع عند خلفائه .

رسالة تيمور الأولى ٨٠٣هـ

وتمت أول اتصالات الفاتح التركي السياسية بالسلطان المملوكي فرج في مطلع عام ٨٠٣ هـ عندما أرسل إليه ، وهو في ضواحي ملطية يهم بالإغارة على بلاد الشام ، رسالة بلغت القاهرة ، كما تشير إلى ذلك مصادر مؤرخي الشام ومصر والمصادر الفارسية ،(٢) في وقت متأخر جداً عن تاريخ تحريرها وهو ٢١ جمادى الآخرة من ذلك العام (٨٠٣هـ / ٦ شباط ١٤٠١م) أي بعد ستة أشهر من تاريخ إرسالها . وكانت القوات المغيرة خلال هذه المدة قد تقدمت في بلاد الشام حتى بلغت دمشق . ويظهر من تاريخ وصول الرسالة إلى القاهرة أن السلطان المملوكي قد تسلمها بعد شهر ونيف من عودته من دمشق إلى العاصمة ، بعد فشل محاولته في دفع الفاتح التركي عن دخول هذه المدينة (دمشق) . وجاء في رسالة تيمور هذه مطالبته بإطلاق سراح أسيره "اتلمش"،(٣) الذي كان لا يزال سجيناً في القاهرة ، مقابل أن يطلق هو ما عنده من أسرى من أمراء المماليك . ويشير يزدي إلى تفصيلات في هذه الرسالة أكثر مما أوردته مصادر مؤرخي الشام مصر . ويحاول أن ينقل نصها الحرفي تقريباً ، وكان قد صيغ

(١) : انظر الفصل السابع من هذا الباب (الباب الخامس) .
(٢) : المقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ص ١٠٥٤ والعسقلاني : ج ٢ص ١٤٣ ويزدي : ج ٢ص ٢٠٠ وقد ذكر أن الرسالة وصلت القاهرة في رجب .
(٣) : ورد رسم هذا الاسم على أشكال مختلفة "اتلاميش ، اتِلْمِش ، اتلميش ، اطلاميش ، اطلندي .

بأسلوب متعال ، جاء فيه قول تيمور للسلطان فرج : "لقد ظهرت من والدك حركات غير مقبولة، من جملتها إصداره الأمر بقتل رسلنا دون سبب . ومازال اتلمش، وهو أحد عبيد عتبتنا محبوساً، ولم يرسل إلينا حتى الآن". ويتابع تيمور تهديداته فيقول : إن برقوق قد توفي الآن، وأصبحت مسألة حسابه وعقابه عند ربه "، وعلى فرج الآن أن يرعى مصالح رعاياه ، بإطلاق سراح اتلمش حتى لا تتعرض سلامة هؤلاء الرعايا ، في بلاد الشام ومصر إلى القهر والانتقام . وعلى فرج أن يتحمل وزر ووبال ما سيقع على أموال المسلمين ودمائهم . ويقول يزدي إن سلطات حلب المملوكية اعتقلت أعضاء الوفد الذي كان يحمل الرسالة ، بأمر من فرج نفسه . وبعثت الرسالة إلى مصر (١)! وربما كان هذا الإجراء الذي قامت به السلطات المملوكية في حلب، من جملة أسباب تأخر وصول الرسالة إلى القاهرة .

بعثة بيسق الشيخي

ويقول يزدي إن اعتقال سلطات حلب للوفد التيموري كان السبب المباشر لحركة تيمور على بلاد الشام ، إذ لم يعد هناك مبرر لانتظار جواب سلطات القاهرة . (٢) واعتبر اعتقال الوفد رفضاً لما جاء في الرسالة من مطالب . وتفيد مصادر مؤرخي الشام ومصر أن فرج قد وافق على طلب تيمور . واتخذ من الإجراءات ما يشير إلى هذه الموافقة ، فقد أوعز للعمل على تجهيز اتلمش لإرساله مع بعثة مملوكية إلى تيمور وأنعم عليه بمبلغ خمسة آلاف درهم . وبادر إلى إرسال بعثة برئاسة أحد أمرائه وهو الأمير "بيسق الشيخي" إلى تيمور ، لإعلامه بما اتخذ من إجراءات لإيصال اتلمش إليه . (٣) ويبدو واضحاً أن فرج قد اضطر للموافقة على طلب تيمور بإطلاق سراح اتلميش (اتلاميش) هذا الطلب الذي ظل والده برقوق يرفضه دائماً - بعد عودته من بلاد الشام ، حيث وقف هناك على قوة جيوش الفاتح التركي وكثرة أعدادها . واعتقد أن إطلاق سراح اتلمش سوف يجعل تيمور كما ذكر في رسالته ، يتوقف عن الإمعان في التنكيل بمدينة دمشق ، ويشجعه على الرجوع من هناك إلى بلاده ويثنيه عن متابعة التقدم إلى مصر كما كان قد أعلن عن رغبته هذه في السابق .

ويستنتج من أقوال ابن عربشاه أن بعثة بيسق الشيخي التي أرسلها فرج ، قد قابلت تيمور في دمشق في وقت لاحق لنجاح القوات المغيرة في اكتساح قلعة المدينة . لأن تيمور دعا المبعوث المملوكي لمشاهدة تلك القلعة وقد "دكت وسيم حرامها". (٤) ولقي بيسق من تيمور معاملة خشنة . وهدد بالقتل، لأن الفاتح التركي كان لا يزال حانقاً لاعتقال رسله في حلب . وشتم تيمور السلطان فرج أمام مسامع أعضاء الوفد المملوكي، ونعته بالذليل والحقير ، ثم خاطب بيسق : "قل له [لفرج] إني واصل إليه عقبك وما أنا منشب مخاليب أسودي بذنبك" - على حد تعبير ابن عربشاه - ثم أمر بإخراج أعضاء الوفد من أمامه ، بعد أن بلغ الخوف منهم مبلغاً عظيماً . (٥)

---

(١) : يزدي : ج ٢ص ٢٠٠ (٢) : يزدي : ج ٢ص ٢٠٢

(٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٨ آ والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ ص ١٠٥٤

(٤) : ابن عربشاه : ص ١١١ (٥) : ابن عربشاه : نفسه .

وتوقفت الاتصالات السياسية بين الجانبين مدة عامين تقريباً، كان تيمور خلال هـذه المرحلة منهمكاً بالحروب في آسية الصغرى وبلاد الكرج . وظل فيها اتلمش معتقلاً في القاهرة ثم استأنف تيمور المراسلات عندما أرسل عن طريق الظاهر مجد الدين عيسى الأرتقي – حاكم ماردين – رسالة حملها إلى القاهرة أحد أتباع الظاهر عيسى .(١) وقد أمكن تحديد تاريخ هذه الرسالة ومناسبة إرسالها ، من رد السلطان فرج عليها . واتضح من هذا الرد الذي أورده القلقشندي بنصه الكامل ،(٢) أن التاريخ هو ١٢ ذي القعدة عام ٨٠٤ هـ (١٤ حزيران ١٤٠٢م) . وكانت مناسبة إرسالها رغبة تيمور في إعلام فرج بما حققه من انتصارات في حروبه مع العثمانيين في آسية الصغرى (قبيل معركة انقرة) ، وهي استرجاعه ارزنجان واحتلاله "كماخ".(٣) ويتفق التاريخ الوارد في رد فرج مع ما أورده ابن عربشاه عن تاريخ استيلاء تيمور على كماخ وهو شوال ٨٠٤ هـ (أيار ١٤٠٢م) ،(٤) أي أن تيمور حرر رسالته بعد شهر من انتصاره في كماخ . وأما مضمون الرسالة فإنه من الممكن التعرف عليه أيضاً من رد فرج ومما أورده يزدي عن هذه الرسالة ، ثم من الإشارة العابرة التي أوردها العسقلاني عن الموضوع نفسه ، وهو المطالبة بإطلاق سراح الأسير اتلمش . ويبدو طابع التهديد والتحدي واضحاً فيما جاء به يزدي أكثر مما جاء في المصدرين الآخرين . وكذلك فإن المطالب كانت أكثر، إذ بعد أن يعلم الفاتح التركي السلطان فرج بانتصاراته التي أحرزها في بلاد الروم ، وبأن سلطته الآن تمتد من بلاد توران إلى ايران وبلاد الروم، فإنه يطالبه بأن تكون السكة والخطبة باسمه في بلاد الشام ومصر ، مع الإقرار بأن هذا الأمر هو حق له ويحذره من مغبة التأخر في إطلاق سراح اتلمش، ويهدده بأنه سوف يزحف على مصر عندما ينتهي من حروبه في بلاد الروم . وختم الرسالة بعبارة "وقد أعذر من أنذر".(٥) وأما ما ورد بشأن هذه الرسالة في رد فرج كما جاء بنص القلقشندي – على العكس من ذلك – فإنه قد صيغ بلهجة مقبولة . وتعرض بالإضافة إلى المطالبة باطلاق اتلمش ، إلى البيان بأن تيمور مستعد الآن "يفتح باب المصالحة" وأنه قد "أقسم بالله ... أن يكون في هذه الحياة محباً لمن يحبنا ومبغضاً لمن يبغضنا" – على حد تعبير فرج (٦).

رسالة تيمور الثانية عام ٨٠٤ هـ

ويشير رد فرج الآنف الذكر إلى إرسال تيمور رسالة ثانية تاريخها ١٢ صفر ٨٠٥ هجري (١٢ أيلول ١٤٠٢م) إلى القاهرة حملها شخص من سكان ازمير . وقد حملت الرسالة الجديدة أنباء انتصار تيمور على السلطان العثماني في معركة انقرة ، التي وقعت قبل شهر ونصف من تحرير هذه الرسالة ، ويعود تيمور في هذه الرسالة إلى المطالبة من جديد بإطلاق سراح اتلمش .(٧) ويشير يزدي بشكل مقتضب إلى وصول وفد تيموري إلى القاهرة لإبلاغ فرج أنباء نصر انقرة ، وانضواء بلاد الروم تحت سلطة الفاتح التركي ، دون أن يحدد تاريخاً لذلك .(٨)

رسالة تيمور الثالثة صفر ٨٠٥

(١) : العسقلاني : ج ٢ص ٢٢٨ والقلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ص ٣٢٢ ويزدي : ج ٢ص ٣٣٠
(٢) : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ص ٣٢٠ – ٣٢٤ (٣) : القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٧ص ٣٢٢
(٤) : ابن عربشاه : ص ١٢٤ (٥) : يزدي : ج ٢ص ٣٣٠ والعسقلاني ج ٢ص ٢٢٨
(٦) : القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٧ص ٣٢٢ (٧) : القلقشندي : ج ٧ص ٣٢٢ (صبح الأعشى)
(٨) : يزدي : ج ٢ص ٢٥٦

وفي رد فرج إشارة أخرى لرسالة رابعةبعث بها تيمور إلى القاهرة بتاريخ الأول من ربيع الأول من ذلك العام (٨٠٥ هـ/ ٢٩ أيلول ١٤٠٢ م) . حملها وفد من أتباع تيمور على رأسهم شخص يدعى "الخواجا نظام الدين مسعود الكجحاني ".(١) وكان مضمون الرسالة الجديد يدعو لتجهيز اطلمش لتحصل طمأنينة "والإشارة إلى أن المبعوث التيموري مسعوداً الكجحاني يحمل رسالة شفوية تطالب فرج بأن يعترف بالفاتح التركي أباً له ".(٢) وقد ورد ذكر هذه الرسالة عند العسقلاني الذي أفاده بأن البعثة الجديدة التي انطلقت من بلاد الروم - حيث كان تيمور لا يزال هناك - عن طريق البحر إلى مصر.(٣) وأضاف المقريزي على ذلك أن البعثة قد بلغت القاهرة في الأول من جمادى الأولى وأنه - كما ورد في الرسالة - إذا أطلق سراح اطلمش عاد الفاتح التركي إلى سمرقند .(٤) وقد أشار كل من هذين المؤرخين المعاصرين إلى أن رئاسة البعثة كانت للكجحاني ، وأن الرسالة حوت أموراً أخرى ، ذكرها العسقلاني وهي أن تيمور يعتبر مسعوداً الكجحاني ممثلاً له ومفوضاً عنه و "أنه مهما يقول مسعود ويقع عليها الاتفاق معه ، فهو بإذني [بإذن تيمور] ومهما حلف عليه [كذا] فهو لازم لي ".(٥) ويتابع العسقلاني القول إن الكجحاني حمل معه إلى القاهرة لواء مذهباً عليه اسم "تمرلنك". وبعد المفاوضات التي دارت في العاصمة بين السلطات المملوكية وبعثة الكجحاني ، تم الاتفاق على إطلاق سراح اتلمش وتجهيزه والإنعام عليه بمال وقماش .(٦) والتزم الجانبان بموجب هذا الاتفاق بأن يرد كل جانب من يرد عليه من رعايا الجانب الآخر ، إذا لم يوافق الجانب الآخر على لجوئه إليه .(٧) (تبادل المجرمين أو نحوه) . وأشار رد فرج إلى بنود أخرى في هذا الاتفاق ، منها نزوله عند رغبة تيمور والاعتراف بـ "المقام الشريف [تيمور] والدنا عوضاً عمن قدس الله تربه [والده برقوق] . فقابلنا ذلك بالقبول والاستبشار .. وقبلنا أبوته الكريمة على مدى الأزمان وتوالي الأعصار ". واستقبل فرج المبعوث التيموري وأقسم أمامه وأمام الخليفة العباسي وعدد من القضاة وأركان الدولة ، وبحضور اتلمش نفسه على الإخلاص لما جاء في هذا الاتفاق . وأقسم الخواجا مسعود الكجحاني قسماً مماثلاً باعتباره ممثلاً لتيمور ، ووقع جميع الحاضرين على نص المعاهدة كشهود . وقد حررت المعاهدة على نسختين وتم الاتفاق مع الكجحاني على حمل النسختين معه إلى تيمور ليوقع عليهما ، ثم تعاد إحدى النسختين إلى القاهرة .(٨) ويورد يزدي في صدد هذا الاتفاق بنوداً أخرى ، تضمنت قبول فرج أن يجري الخطبة ويضرب السكة بألقاب صاحب القران (تيمور) .(٩) ومما لا شك فيه أن إقرار السلطان فرج بأبوة تيمور ، يتضمن موافقته على إجراء الخطبة وضرب السكة باسم الفاتح التركي ، وأن لم يشر إليهما مؤرخو مصر والشام بشكل صريح . وغادر الوفد التيموري القاهرة يصحبه اتلمش ووفد مملوكي ، في الأول من جمادى الآخرة (٢٧ كانون الأول ١٤٠٢) ، بعد أن مكث فيها شهراً . ومر الوفد على دمشق

رسالة تيمور الرابعة ربيع الاول ٨٠٥ هـ

بعثة الكجحاني الأولى

اتفاق ٨٠٥ هـ

إطلاق اتلاميش

(١) : القلقشندي : نفسه . (٢) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٢٨ (٣) : المقريزي : السلوك : ج ٣ ق ٣ ص ١٠٩٨ ، (٤) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٢٩ (٥) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٢٩

(٦) : المقريزي : ج ٣ ق ٣ ص ١٠٩٩ من (السلوك) . (٧) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٦٤

(٨) : القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٧ ص ٣٢٣ (٩) : يزدي : ج ٢ ص ٣٥٦

فحلب . ثم تقدم من هناك لمقابلة تيمور في بلاد الروم .[١] ويفهم من أقوال يزدي أن المقابلة قد تمت بعد أن غادر تيمور مدينة آق شهر في طريق انسحابه من البلاد .[٢] وكان اتلمش قد أمضى في الأسر نيف وثماني سنوات .[٣]

ويقول يزدي إن السلطان فرج طلب من اتلمش قبل سفره ، أن يكون شفيعاً له عند تيمور ، وأن ينقل إليه ندمه على ما بدر منه في الماضي من تقصير ، ويوقفه على صدق فرج في الطاعة والانقياد ، واستعداده لأداء الأموال والخراج المفروض عليه سنة بسنة ، واستعداده لحمل الهدايا من الجواهر والأقمشة والخيول وغيرها من طرائف مصر . ويتابع يزدي الحديث بأن الأسير التيموري السابق ، قد أعلم الفاتح التركي عند التقائه به بمدى خوف وانقياد حاكم تلك البلاد وأهاليها . وعرض الوفد المملوكي على تيمور ما أرسله فرج معهم من الهدايا والتحف . ونزلت أقوال السلطان المملوكي على مسامع تيمور منزلاً حسناً ، فشمله بعطفه ورحمته . ووجد أن ما بدر من فرج من أعمال سابقة كان مرده إلى صغر سن السلطان المملوكي . ولذلك فإنه من واجب الأب أن يراقب أحوال هذا الابن ، ليتمكن من ضبط أمور الملك والدين في تلك البلاد ، وخدمة الحرمين الشريفين .[٤] ويقول ابن أياس إن تأثر تيمور بما أبداه فرج من الطاعة والانقياد ، دفعه إلى البكاء أمام أعضاء الوفد المملوكي ، والاعتذار لهم لما وقع في دمشق وغيرها من المدن في بلاد الشام ، وعزا ذلك كله إلى القضاء والقدر .[٥]

البعثة التيمو[رية] الثاني[ة]

ولعل أهم ما حمله الوفد المملوكي المصاحب لاتلمش عندما ذهب لمقابلة تيمور ، ذلك الرد المطول الذي استعرض فيه فرج العلاقات بينه وبين تيمور خلال مرحلة طويلة امتدت عامين ونصف . وجاء في هذا الرد — بالإضافة إلى ما سبق ذكره من الإشارات إلى رسائل وصلت إلى فرج من تيمور ، مع ذكر تواريخها ومضموناتها — ذكر موضوعات أخرى تحدد المستوى الذي بلغته العلاقات بين الجانبين ، عند إرسال هذا الرد في منتصف عام ٨٠٥هـ (كانون الثاني ١٤٠٣م). وقد استهل فرج هذا الرد بحمد الله الذي أحلّ الصلح بين الدولتين ، ثم أغدق فرج طائفة من ألقاب العظمة والرفعة على الفاتح التركي "المقام الشريف الكبيري العالمي العادلي المؤيدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي ، نصرة الدين ملجأ القاصدين ملاذ العائذين قطب الإسلام والمسلمين تيمور كوركان ..".[٦] وانتقل بعد ذلك لشرح دواعي تأخر إطلاق سراح الأسير اتلمش ، وألقى المسؤولية في ذلك بشكل لبق على تيمور . وقال في هذا الصدد إن رئيس البعثة المملوكية عام ٨٠٣هـ الذي قابل تيمور في دمشق (ويدعى بيسق الشيخي) ، قد نقل إلى فرج عند عودته من مقابلة الفاتح التركي ، أن تيمور قد أقسم له "بالله الطالب الغالب أنه إن جُهز اطلمش المشار إليه مرجع المقام الشريف إلى بلاده . فأخذنا بتجهيزه إلى حضرته الشريفة على أجمل ما يكون ". ولكنه لما وردت الأخبار على السلطان المملوكي

رد فرج الأول

(١) : المقريزي: السلوك : ج ٣ق ٣ص ١٠٩٩ والعسقلاني : ج ٢ص ٢٢٩

(٢) : يزدي: ج ٢ص ٣٥٦ (٣) : المقريزي: السلوك : ج ٣ق ٣ ص ١٠٩٩ الذي ذكر أنه سجن ١٠ سنوات ولكن أسره كان في صفر عام ٧٩٨هـ وإطلاقه في جمادى الثانية عام ٨٠٥ انظر الفصل السادس من هذا الباب .

(٤) : يزدي : ج ٢ص ٣٥٦ — ٣٥٧

(٥) : ابن أياس: ج ٣ص ٣٣٦ (٦) : القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٢٠

" بما اتفق لدمشق وأهلها من أنواع العذاب ، وتخريب قلعتها ودبارها وإحراق جامعها وغيره من المساجد والمدارس والمعاهد والمعابد ..." دفع فرج إلى الاعتقاد بنقض تيمور ما تم عليه الاتفاق مع بيسق ، وعدم اهتمامه بأن يطلق سراح اتلمش ، بدليل عدم انسحابه من دمشق. ولما تحقق فرج من إصرار تيمور على أن يصل إليه اتلمش ، من سلسلة الرسائل التي بعث بها إلى القاهرة ، جُهز الأسير ليرسل مع الوفد التيموري (الكجحاني) ، الذي تم الاتفاق معه على عقد الصلح .(١)

ولما عاد الوفد المملوكي إلى مصر ، زوده تيمور بخلعة ونطاق مرصع وتاج لتسلم إلى فرج . كما خلع أيضاً على أعضاء الوفد . ورافق الوفد المملوكي إلى القاهرة وفد تيموري جديد يرأسه الخواجا مسعود الكجحاني نفسه . وحمل الوفد التيموري هدايا أخرى للسلطان فرج ، فيها فيل وعلى ظهره هودج يتسع لعشرة أشخاص، وفهدٌ وصقران ثم ثياب مزركشة مبطنة من داخلها بالفرو ، قيل عنها إنها الخلعة التي أمر بها تيمور لفرج ، على أنه حاكم تابع له في حكم مصر .(٢) وعاد مع الوفد الجديد عدد من الأسرى من أمراء المماليك .(٣) وبلغ الجميع القاهرة في ٣ المحرم ٨٠٦ هـ (٢٣ تموز ١٤٠٣م) . الوفد التيموري الثاني ٨٠٦

وعلى الرغم مما يذكره العسقلاني أن الوفد قد حضر لتقديم الشكر على إطلاق سراح اتلمش، فإن سلطات القاهرة لم تبد لأعضائه ترحيباً كبيراً في بادىء الأمر . فقد أنزلوا في دار خاصة ، ولم يسمح لهم خلال الآونة الأولى من إقامتهم في القاهرة التي امتدت مدة تزيد عن ستة أشهر بالاختلاط بالناس .(٤) واستلم السلطان فرج من الوفد رسالة بعث بها إليه تيمور. وأشار العسقلاني إلى بعض محتويات هذه الرسالة . وكان منها اقتراح الفاتح التركي أن يتزوج فرج من إحدى بنات ملوك المشرق ، دون أن يحدد من المقصودة بهذا التعبير . وعلى كل حال فإن الاقتراح لم يلق ترحيباً من السلطان المملوكي .(٥) ومن المستطاع التعرف على المواضيع الأخرى التي اشتملت عليها هذه الرسالة ، من رد فرج عليها (وهو رد آخر جديد)(٦) أورده القلقشندي أيضاً . فقد تضمنت رسالة تيمور الإعلام بوصول اتلمش . وقد تم بوصوله ما كان تيمور يطالب به منذ أيام برقوق ، كما أن التأخر في تلبية هذا الطلب ، كان السبب لتقدم الفاتح التركي بجيوشه إلى بلاد الشام ، حيث وقع للأهالي هناك حسب ما قدره الله . ولكنه منذ الآن وبعد أن أطلق فرج سراح اتلمش فقد صفت القلوب وانعقد الصلح . وأقسم تيمور على أن يتمسك بمبادئ هذا الصلح ، وأن يكون صديقاً لمن يصادق السلطان فرج ، وعدواً لمن يعاديه . وأنه على استعداد لأن يمده بما شاء من القوات ، إذا ما تعرض لعدوان من قبل أعدائه أو مخالفيه.

ثم يبدي تيمور ملاحظة شكلية حول القسم الذي أقسمه فرج على الود والمصالحة ، وقال إنه كان من الأوضح لو أن فرج قد أدرج نص القسم في نص الرد الذي بعث به إلى تيمور . لأن السلطان المملوكي — كما يبدو من هذا الرد الذي لم يكن يحتوي على نص القسم — قد أرسل القسم الذي أقسمه على رقعة منفصلة عن الرسالة . ثم يتابع تيمور رسالته بإظهار سروره بموافقة فرج

(١) : القلقشندي: صبح الأعشى : ج ٧ص ٣١١ (٢) : العسقلاني : ج ٢ص ٢٣٠ و ٢٥٦ والمقريزي: السلوك : ج ٣ق ٢ص ١١١١ وابن الشحنة ص ٢٣٩ (٣) : ابن اياس ج ١ص ٣٣٦
(٤) العسقلاني : ج ٢ص ٢٣٠ والمقريزي: السلوك : ج ٣ق ٢ص ١١١١ (٥) : العسقلاني : ج ٢ص ٢٥٧
(٦) : أورد القلقشندي في صبح الأعشى ج ٧ نص الرد كاملا ص ٣٢٥ — ٣٣١

على الدخول في طاعته . ويتعهد بأنه سوف يكون له أشفق من والده وأصحابه . ويشير الفاتح التركي في هذه الرسالة إلى أنه قد اعتمد الخواجا مسعود الكججاني في المفاوضات التي ستدور بشأن الاتفاق على تعديل الحدود، وضم بعض المواقع الواقعة على حدود الدولة المملوكية إلى المناطق التي أضحت الآن تحت حكم تيمور ، بحجة أن هذه المواقع كانت قبل أن تصبح تحت سلطة الدولة المملوكية تابعة لأملاك من يدعي الفاتح التركي أنهم الآن قد أضحوا تحت سلطته . وحددت الرسالة بعض هذه المواقع بأسمائها كـ "ابلستين" و "ملطية" وقلعة الروم" ، و"البيرة" . وختم تيمور رسالته ببيان أنه من الضروري الامتثال إلى هذه المطالب ، لعودة العلاقات بين الطرفين إلى الحالة الطبيعية .(١)

وبقي الوفد التيموري في القاهرة حتى سُمح له بالسفر في ٢٢ رجب ٨٠٦هـ (٦ شباط ١٤٠٤م)، وبعد أن تقرر أن يسافر معه وفد مملوكي برئاسة أحد الأمراء المماليك ، هو الأمير "منكلي بغا". وحمل الوفد المملوكي معه بعض الهدايا منها زرافة ونعامة .(٢) ويرى ابن عربشاه أن السبب المباشر لتسيير البعثة المملوكية الجديدة ، هو حضور الاحتفالات التي ستقام في سمرقند بمناسبة زواج الغ بك وعدد آخر من أحفاد تيمور .(٣) ويبدو أن هنالك دافع آخر وراء إرسال بعثة منكلي بغا إلى سمرقند ، أشار إليه فرج في الرد الذي حمله معه الوفد المملوكي إلى هناك . وهو أن المبعوث التيموري مسعود الكججاني عند عودته إلى القاهرة على رأس البعثة التيمورية الثانية ، في مطلع ٨٠٦ هـ (تموز ١٤٠٣) ، لم يحضر معه نسخة المعاهدة التي تمّ التوصل إليها في العام الماضي . وكان الاتفاق قد تمّ في حينه — كما سبق ذكره — ، على أن تُرسل نسختا المعاهدة الموقعتان من قبل فرج ، ليوقع عليهما تيمور ثم تُرسل إحدى النسختين إلى القاهرة ، ليحتفظ بها السلطان المملوكي في خزائنه . وربما كان عدم إرسال تيمور نسخة المعاهدة لاعتراضه الشكلي ، على عدم إدخال نص القسم الذي أقسمه فرج ، في نص الرد الأول الذي بعثه السلطان المملوكي . ولذلك وجد فرج أنه من المناسب أن يرسل بعثته إلى سمرقند لإحضار نسخة المعاهدة الممهورة بتوقيع تيمور ،(٤) بمناسبة المشاركة في احتفالات زواج بعض أحفاد الفاتح التركي .

بعثة منكلي بغا

---

(١) : ورد في رد فرج الثاني على رسالة تيمور لعام ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) محتويات الرسالة هذه في سياق هذا الرد على النحو التالي : "لزم المقام الشريف بوصول الأمير جلال الدين اطلمش . شاكراً لانعاماتنا .. وأن الذي اتفق الآن هو المطلوب والمكتوب به إلى والدنا الشهيد الطاهر أولا ، [و] هو المرغوب ، وخلافه كان موجباً لنقل الحركات الشريفة [غارة تيمور] إلى جهة البلاد [بلاد الشام] ، واتفق فيه للعباد . ولكن كل بقضاء وقدر . وكما حصل قبول الإشارة بتجهيز الرسل والأمير اطلمش صارت القلوب متفقة .. وأن المقام الشريف كان أقسم في كتبه قسماً وأعاده ... وهو والله الطالب الغالب المدرك المهلك الحي الذي لا ينام ولا يموت ، من يومه هذا لا يخالف ما صدر من عقد الصلح المسطور ولا يرجع عن حكمه للعهد المزبور ، ويحب من يحبنا ويبغض من يبغضنا ويكون سلماً لمسالمينا وحرباً لمحاربينا ، ومتى استنصرنا به على أحد مخالفينا أمدنا بما شئنا من العسكر . وأنه لو كان القسم على الوجه الذي ذكره مصرحاً مذكورا في لفظ الكتاب وعبارة الخطاب لكان أوضح . وأننا سنرى ما يصنعه المقام الشريف من الفضل المنيف ، لانه لنا أكفى كفيل وأشفق من الوالد والصاحب والخليل . وأما ما أشار إليه من أمر القرى التي قصد تسليمها النوابه ، وانها داخلة في حدود مملكته .." انظر نص الرد كاملاً في القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٢٥ — ٣٣١ (٢) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١١٢٠ وابن عربشاه : ص ١٥٦ والعسقلاني : ج ٢ ص ٢٦٢ (٣) : ابن عربشاه : ص ١٥٦ (٤) : انظر إشارة القلقشندي فيما أورده من نص المعاهدة في صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٢٩ .

رد فرج الثاني

واشتمل رد فرج (وهو الرد الثاني الجديد) الذي حمله منكلي بغا على موضوعات أخرى عديدة ، منها إظهار السلطان اغتباطه لاستقرار الصلح بين الدولتين ، وإعلانه النزول عند رغبة تيمور ، وإرساله نص القسم في هذه المرة مُتضمّناً في نص الرسالة . وتطرق بعد ذلك إلى مسألة مطالبة تيمور بالتنازل له عن بعض المواقع والثغور الواقعة على الحدود ، فيدعو هذه المواقع "قُرى" حتى لايزيد من مطامع تيمور فيها . ويقول إنه لايتحصل منها من الخراج مايكافيء ماتنفقه السلطة المركزية في القاهرة لمد النواب -حكام هذه المواقع- بالرجال والعتاد والخيول ، ليتمكنوا من الوقوف في وجه السُراق التركمان وقُطّاع الطرق من البدو . وتابع فرج القول إنه كان على استعداد لتلبية طلب تيمور بارتياح ، لوطلب موقعاً أكبر مثل دمشق أو حلب . لأن تسليم هذه المواقع الحدودية سوف يضعف الدولة المملوكية ، وهذا ينافي ماأعلنه تيمور عن رغبته في تقوية هذه الدولة واستقرار أحوالها .(1) ويشير السلطان المملوكي بعد ذلك إلى سبب تأخر الوفد التيموري في القاهرة ، وهو لجوء السلطان أحمد جلاير الذي فرّ من بغداد ولجأ إلى حلب ، في إثر خلاف وقع بينه وبين حليفه السابق قرا يوسف الذي أغار على بغداد. ولم يلبث قرا يوسف نفسه أن اضطر إلى الفرار أيضاً أمام هجوم القوات التيمورية لاجئاً إلى دمشق ، في ربيع الأول من ذلك العام (٨٠٦ هـ/ ايلول - تشرين الأول ١٤٠٣م) ،(2) وكان الوفد التيموري لايزال موجوداً في القاهرة . واعتقلت السلطات المملوكية -كما ذكر فرج في رده- السلطان أحمد ونقلته إلى دمشق ، وأودعته مع قرا يوسف سجن القلعة ، وذلك تنفيذاً لمعاهدة الصداقة المعقودة بين تيمور ودولة المماليك .(3) وورد في رد فرج أخيراً مايفهم منه أنه محاولة للتنصل من دفع الاموال التي كان من المفروض ان يدفعها لتيمور ، لكونه حاكماً تابعاً له . فيشير الى ان الاحوال الزراعية في مصر كانت سيئة في ذلك العام لعدم طلوع النيل .(4)

محاولة تيمور التدخل في الحجاز

ولا شك في أن الوضع الذي استقرت عليه العلاقات بين السلطان المملوكي والفاتح التركي ، وإقرار فرج لتيمور بالتبعية ، قد جعلت الظرف ملائماً ليسعى الفاتح التركي إلى مد نفوذه إلى الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز ، التي كانت تعتبر تحت نفوذ وحماية السلاطين المماليك . وكان يزدي قد أشار إلى أنه كان من جملة أهداف الحملة التي أرسلها تيمور في ذلك العام (٨٠٦ هـ) إلى بغداد -والتي كان من نتائجها طرد قرا يوسف منها ولجوءه إلى دمشق واعتقاله فيها- الإعداد لإرسال كسوة للكعبة في موسم الحج التالي .(5) ويؤيد المقريزي ماذهب إليه يزدي ، ويذكر أن أخبار هذه الكسوة قد وصلت إلى مسامع سكان بغداد أنفسهم ، فقد ذكر أحد حجاج العراق لشريف مكة في ذي الحجة من عام ٨٠٧ هـ (تموز ١٤٠٤ م) ، أن تيمور كان على وشك أن يرسل محملاً إلى الحجاز يحرسه عشرة آلاف فارس.

(1) : جاءت إشارة فرج لهذا الموضوع في رده كما ورد في القلقشندي (صبح الاعشى ج ٧ ص ٣٢٩ - ٣٣٠) بالشكل التالي : «ونحن نبدي إلى علومه الشريفة أن هذه البلاد لايحصل لنا منها خراج ، ولا ينال ملكنا ونوابنا منها في كل وقت إلا الانزعاج. وإذا جهزنا إليها احداً من النواب فنتكفل له غالبا بالخيل والرجل والركاب . وبها ضواحيها سراق التركمان وقطاع الطرق من العربان مالايخفى على مقامه. ولوكانت دمشق أو حلب أو أكبر من ذلك .. ماتوقفنا فيها عن قبول إشارته لتأكيد محبته . غير أن لتسليمها [مواقع الحدود] من الوهن لمملكتنا منافاة لما تفضل به المقام الشريف من سؤال الله تعالى في زيادة سلطتنا ، ونحن نترقب بيمن حركاته وسديد إشاراته زيادة الخير في النفس والملك والمال ..» (2) : سيأتي الكلام عن هذه الاحداث بالتفصيل في الفصل التالي . (3) : القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٧ ص ٣٣٠.
(4) : القلقشندي: صبح الأعشى : ج ٧ ص ٣٣٠ (5) : يزدي: ج ٢ ص ٣٦٩

ولكنه خاف من مخاطر الطريق فأرجأ ذلك إلى العام القادم (عام ٨٠٨ هـ) . واكتفى في هذا العام بإرسال بعثة لكشف الطريق .(١) وقد حالت وفاة تيمور في شعبان من عام ٨٠٧ هـ / شباط ١٤٠٥م) دون إنجاز هذه المهمة . وسوف يسعى شاه رخ فيما بعد ليسمح لـه المماليك بإرسال هذه الكسوة .

واجتمعت البعثة المملوكية في طريقها إلى سمرقند ، عندما كانت تمر من مدينة "خوّي" في شمال اذربيجان بالوفد الإسباني برئاسة السفير كلافيجو . وترافقت البعثتان في مراحل الطريق الباقية حتى سمرقند (٢) . ويشير يزدي إلى أن بعثة منكلي بغا قد لفتت الأنظار إليها في البلاط التيموري خلال احتفالات الزواج، بسبب ماكان يتمتع به رئيسا البعثة من لباقة وفصاحة وسعة اطلاع على أنواع من العلوم والفنون . وذكر يزدي أن البعثة المملوكية كانت تحمل رسالة من "الملك الناصر فرج صاحب تخت مصر" ، وأن البعثة كانت تحمل معها هدايا من جملتها زرافة وتسع جمال . ولكن المؤرخ الفارسي لم يشر إلى مضمون الرسالة .(٣)

منكلي بغا في سمرقند

ولما أجيز للبعثة المملوكية الانصراف للعودة إلى مصر ، بعد أن أنعم على أفرادها ، رافق البعثة أيضاً وفد تيموري آخر برئاسة أحد رجال الدين ، يدعى "مولانا عبدالله الكشي" وقد زود الوفد برسالة كتبت بماء الذهب وبخط أحسن خطاطي البلاط . وأشار يزدي إلى ان بعض ما ورد في هذه الرسالة كان يتعلق بمسألة السلطان أحمد جلاير وحليفه السابق قرايوسف المعتقلين في دمشق . ويقول يزدي إن رسالة تيمور قد أثنت على إخلاص فرج وصدقه، وطلبت من السلطان المملوكي إطلاق سراح المعتَقَلَيْن وتوجيههما للقدوم إلى سمرقند ، لأن المناطق التي كانت تحت حكمهما في السابق قد أضحت الآن من أملاك الفاتح التركي ، والأمن فيها مستتب والطاعة مستقرة . وحمل الوفد التيموري الجديد خلعة أخرى للسلطان المملوكي هدية من تيمور .(٤)

بعثة عبدالله الكشي

الرسالة التي كانت تحملها

ويقول كلافيجو إن البعثة المملوكية والبعثة الإسبانية قد ترافقتا أيضاً في بعض مراحل طريق العودة(٥) . وسجل العسقلاني تاريخ وصول الوفد إلى القاهرة في حدود رمضان عام ٨٠٨ هـ (نيسان ١٤٠٦ م) .(٦) ولاشك في أن وفاة تيمور في إثر مغادرة البعثة المملوكية لسمرقند ببرهة وجيزة ، قد أدخل العلاقات بين الدولتين في طور جديد .

---

(١) : المقريزي: السلوك : ج ٣ ق ٣ ص ١١١٦

(٢) Sykes: op. cit. T. II P.131

(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٤٢٥

(٤) : يزدي: ج ٢ ص ٤٤٨ـ٤٤٩

(٥) : Le Strange : op. cit. P. Introd. P. 14

(٦) : العسقلاني : ج ٢ ص ٣٠٢

الفصـل الثانـي عشـر

العـراق والحكـم التيمـوري

٨٠٣ ـ ٨٠٧هـ / ١٤٠١ ـ ١٤٠٥ م

أسباب غارة تيمور الثانية على العراق ـ الطريق ـ حصار بغداد ـ الاحتلال والأعمال ـ الانسحاب إلى تبريز وقراباغ ـ عودة أحمد جلاير ـ تواري قرا يوسف ـ الخلاف بين الحلفين ـ اعتقالهما في دمشق ـ العراق تحت حكم أبي بكر بن ميرانشاه ـ عودة أحمد إلى بغداد ـ اختلافه مع قرا يوسف ومقتله ٠

أسباب غارة تيمور الثانية

كان الدافع الرئيسي لتحول تيمور من بلاد الشام إلى العراق ، هو رغبته في القضاء على القوة الثانية التي يمكن أن تهدد مؤخرة جيوشه في الصدام الذي كان يتوقع حدوثه مع السلطان العثماني يلدرم بايزيد ٠ (١) وقد قويت احتمالات هذا الصدام بعد نجاح الفاتح على العراق التركي بإبعاد خطر التهديد المملوكي ، خلال أعماله في بلاد الشام ٠ ومما لا شك فيه أيضاً أن عودة تيمور إلى بغداد عام ٨٠٣ هـ تتعلق بغزوته الأولى لها عام ٧٩٥ هـ (١٣٩٢م) ٠ فقد اطلع آنذاك على مقدار ما تتمتع به المدينة من ثروات ٠ ولكن اعتقاد تيمور في ذلك الوقت باحتمال نشوب القتال بينه وبين السلطان المملوكي برقوق ، حال بينه وبين أن يطيل مدة إقامته في بغداد ليتمكن من استقصاء أموالها وثرواتها ، كما فعل في دمشق ٠ ولذلك لم تجر في بغداد خلال الغزوة الأولى أعمال سلب ونهب على نطاق واسع ، كما كانت تفعل القوات التيمورية في المناطق الأخرى ٠ وقد يكون لتغيب حاكم بغداد أحمد جلاير عن عاصمته لاجئاً إلى بلاد الروم ـ منذ أن أغارت قوات تيمورية على بغداد قبل عام (أي ٨٠٢ هـ/ ١٤٠٠م) ، كان قد وجهها الفاتح التركي إليها بقيادة حفيده رستم بن عمر شيخ (٢) ـ دور في أن يتجول تيمور بعد انسحابه من بلاد الشام إلى هناك ٠

الطريق

وكان تيمور بعد أن بارح الرها قادماً من بلاد الشام ، قد قام بجولة في منطقة الجزيرة العليا مما اضطر حكام تلك المنطقة لأن يجددوا له ولاءهم ٠ وشذ عن ذلك الحاكم الارتقي في ماردين الظاهر عيسى الذي سبق له أن قاسى من معاملة تيمور السيئة ٠ ولذلك فقد كان يحقد عليه ويخشى منه ٠ فاعتصم في قلعة المدينة الحصينة القائمة على تل مرتفع ، واعتصم معه عدد من السكان ، وأرسل في الوقت نفسه ببعض الهدايا للفاتح التركي الذي أغضبه هذا التصرف من أسيره السابق ، (٣) عندما ظهر أمام أسوار ماردين في ١٠ رمضان ٨٠٣هـ (٢٥ نيسان ١٤٠١م) ، ويظهر أنه لم يكن عند تيمور وقت كاف ليقضيه في اجتياح القلعة ، فتركها بعد حصار استمر عشرة أيام بعد أن هدم مسجد المدينة وسوقها ٠ (٤) وبرر يزدي عمل تيمور بأن الظاهر عيسى لم يكن مخلصاً في ولائه لتيمور ، ولا سيما خلال انهماك الفاتح التركي في حروبه في بلاد الشام ٠ وفسر تيمور وقوف الظاهر عيسى على الحياد خلال ذلك الوقت

(١) : Prawdin: op. cit. P. 245 (٢) : انظر الفصل السادس من هذا الباب ٠
(٣) : انظر الفصل الثالث من هذا الباب ٠ (٤) : ابن عربشاه: ص١١٦ ـ ١١٧ و يزدي: ج ٢ص ٢٥٥ والعسقلاني : ج ٢ص٢٠٨ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٩آ ٠

بأنه عمل ينم عن الخبث .(١) ولم ينس تيمور أن يمنح تابعه الأمير عثمان قرايلك زعيم تركمان الغنمة البيضاء ،عطفه وتأييده.وكان يحكم من عاصمته آمد .(٢) وخرّب الفاتح التركي وهو في طريقه إلى الموصل مدينة "نصيبين".وعبرت الجيوش التيمورية دجلة بالقرب من الموصل على جسور أُقيمت خصيصاً لذلك.ويقول يزدي إن عبور القوات الجسور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية استمر أسبوعاً كاملاً .(٣)

حصار بغداد

وأمر تيمور وهو في ضواحي ماردين قسماً من قواته عدده عشرون ألفاً ،أن يتقدم إلى بغداد بقيادة رستم بن عمر شيخ الذي حاصر المدينة في العام الماضي .(٤) وعسكرت قوات رستم جنوب بغداد . واتخذ "فرج" الذي أنابه أحمد جلاير — قبل فراره إلى آسية الصغرى لاجئاً إلى بايزيد .في حكم بغداد—إجراءات الدفاع على الرغم من وصية أحمد له بعدم قتال تيمور . واستصرخ فرج حكام المدن المجاورة لبغداد، "مندلي" بعقوبة الحلة".وتدفقت على المدينة النجدات التي قدّر عددها بثلاثة آلاف فارس . ووقعت الاشتباكات بين المدافعين عن بغداد وقوات رستم فانهزم فيها الحلفاء ،واعتصموا بأسوار المدينة .(٥) وأرسل رستم يعلم جده الذي كان ينزل في ذلك الوقت حول ماردين ،بعزم حاكم بغداد على المقاومة . ولذلك رفع تيمور الحصار عن ماردين وتقدم على وجه السرعة نحو الجنوب ،تاركاً زوجته "جُلْبان ملك آغا" التي كانت ترافقه عند ابنه شاه رخ (بسبب السرعة) . ونزل بجوار قرية العُقاب في ١٦ شوال ٨٠٣هـ (٢١ آيار ١٤٠١ م).وبدأ بحصار بغداد . وأخذ النقابون يحاولون فتح ثغرات في الأسوار ،كما مُدّ جسر جنوب بغداد عند قرية العقاب ،ونصبت المنجنيقات . وأعلم فرج القوات المغيرة —وكان لا يدري أن تيمور قد وصل من الشمال للإشراف على حصار بغداد — أنه لن يسلم المدينة إلا أن الفاتح التركي نفسه . واستقبل تيمور في معسكره قرب قرية العقاب وفداً أرسله حاكم المدينة ،للتأكد من وصوله . وعومل الوفد خلال مكوثه في ضيافة تيمور بالتكريم . ثم أعيد إلى بغداد . ولكن فرج لم يشأ أن يصدق وفده الذي أعلمه بوصول الفاتح التركي ، وأمر بسجن رئيس الوفد . ولم يتراجع عن موقفه على الرغم من ظهور تيمور أمام أسوار المدينة .(٦) ويقول ابن قاضي شهبة إن تيمور هو الذي تعمد إخفاء وصوله للاشتراك بحصار بغداد،بسبب قلة القوات التي كانت لديه في ذلك الوقت،لأن معظم قواته كان قد أرسلها في حملات صغيرة في مختلف الاتجاهات . وكان بعض القوات التيمورية قد اتجه إلى تبريز . وظل تيمور يخفي حقيقة وجوده قرب بغداد حتى أصدر أوامره لتلك القوات بالتلاحق به إلى بغداد،لحصار المدينة .(٧) وشددت القوات المغيرة حصارها وكان الوقت صيفاً . وأخذت أشعة الشمس المحرقة تفتك حتى بالطيور والدجاج الذي كان يتساقط ميتاً من شدة الحرارة . واستمر الحصار

---

(١): يزدي: ج ٢ص٢٥٥ ولما عاد تيمور من حروبه في بلاد الكرج في العام نفسه ندم الظاهر عيسى على تصرفه السابق — وربما ليأسه من مساعدة المماليك — وتوسط له شاه رخ فعُفي عنه وقابل تيمور وجثى أمامه على ركبتيه،وتعهد بدفع ما يترتب عليه من خراج سنوياً.وتزوج حفيد تيمور أبو بكر بن ميرانشاه من إحدى بنات الظاهر عيسى (يزدي ج ٢ص٢٦٦) .

(٢) :ابن عربشاه : ص١١٨ ويزدي : ج ٢ص٢٥٣ (٣) : يزدي: ج ٢ص٢٥٩

(٤) : يزدي: ج ٢ص٢٥٧ والعسقلاني : ج ٢ص٢٠٨ (٥) : يزدي : ج ٢ص٢٥٨ وابن عربشاه: ص١١٩ وميرخوند : ج ٦ص٢٨٢ — ٢٨٣ (٦) : شامي : ص٢٢٩ ويزدي: ج ٢ص ٢٥٩ — ٢٦١

(٧) :ابن قاضي شهبة : ورقة ٢١٠ ب

أربعين يوماً من ١٦ شوال إلى ٢٧ ذي القعدة (٣١ آيار — ١٠ تموز ١٤٠١ م) ، دون أن يحظى المحاصرون بطائل من المدينة ،على الرغم من إحداثهم ثغرة في السور ، لأن أهالي بغداد تمكنوا من سد الثغرة بصورة سريعة . واستمر الحصار كما يقول يزدي إلى أن حل القضاء يوم ٢٧ ذي القعدة [(١)] (١٠ تموز ١٤٠١ م) ،عندما ترك المدافعون عن أحد الابراج (وهو برج العجمي) مواقعهم وذهبوا إلى بيوتهم لتناول الطعام ، بعد أن أعيتهم شدة الحرارة،وبعد أن تركوا خوذهم على عصي أسندوها إلى السور ، لإيهام الأعداء بأنهم لايزالون في أماكنهم .وسرعان ما اكتشفت القوات المحاصرة الحيلة ، فتسلق الجند السور عند هذا البرج ، وتمكنوا من السيطرة عليه ، ومن احتلال بقية الأسوار وفتح أبواب المدينة . [(٢)]

ولم يشعر سكان بغداد إلا والأعداء قد اضحوا داخل المدينة . فحاول بعضهم الفرار عن طريق نهر دجلة ، ومنهم من ألقى بنفسه في ماء النهر لينجو سباحة ، ولكن قوات الأعداء الاحتلال والاعمال صدتهم عند الجسر الذي كانت قد أقامته في جنوب المدينة . وتمكنت من أسر الكثيرين منهم ، كما غرقت أعداد من السكان في النهر . ولما حاول حاكم المدينة فرج الفرار بهذه الطريقة ، رماه الأعداء بوابل من السهام فانقلب زورقه ومات غرقاً . [(٣)] وتقول المصادر الفارسية إن تيمور غضب لكثرة القتلى من جنده الذين سقطوا خلال عملية احتلال المدينة . فأصدر أوامره للقيام بمجزرة عامة لسكان المدينة ، دون تفريق بين كبير وصغير أو غني وفقير . [(٤)] فهدمت المدينة واستثني من الهدم المساجد والمدارس،حتى أضحت المدينة خاوية على عروشها . [(٥)] وأبقاها عش البوم والغراب [(٦)]. وتعترف المذكرات بأن الانتقام كان عاماً . وتقول على لسان تيمور عن بغداد "فقد عملت على هدم جميع البيوت وقلاع تلك المدينة " [(٧)] . ولم يسلم من التنكيل سوى العلماء الذين احتموا بمعسكر الفاتح التيموري . [(٨)] فأمنهم وأنعم عليهم . وصدرت الأوامر للجند كي يحضر كل منهم عدداً معيناً من الرؤوس البشرية . ولذلك فقد اشتد الطلب بين هؤلاء الجند على الرؤوس . ويقول ابن قاضي شهبة إن بعض الجند كانوا يقتلون النساء ويقصون شعورهن لتبدو رؤوسهن كأنها رؤوس رجال . وقتل بعضهم من كان معهم من أسرى الشام ، ومنهم من كان يقتل أصحابه للحصول على رؤوسهم . [(٩)] وتضاربت أقوال المؤرخين في عدد الضحايا الذين سقطوا خلال "مدة القتل العام ". ويقدر ابن عربشاه والعسقلاني هذا العدد بتسعين ألفاً . [(١٠)] ويرتفع عند ابن قاضي شهبة إلى ثمانمائة ألف ، قضي عليهم خلال

(١) : يزدي: ج ٢ص ٢٦٣ وشامي : ٢٤١ (٢) : شامي : ص ٢٤١ ويزدي: ج ٢ص ٢٦٣ — ٢٦٤ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢١١ آ (٣) : يزدي : ج ٢ص ٢٦٤ وابن عربشاه : ص ١١٩ الذي ذكر أن احتلال بغداد كان أول أيام عيد الأضحى ١٠ ذي الحجة وكذلك المصادر التي أخذت عنه مثل ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٦٦ وكذلك فعل العسقلاني : ج ٢ص ٢٠٨ (٤) : شامي : ص ٢٤١ ويزدي : ج ٢ص ٢٦٤

(٥) : شامي : ص ٢٤١ ويزدي: ج ٢ص ٢٦٤ وابن عربشاه : ص ١١٩ والعسقلاني : ج ٢ص ٢٠٨

(٦) : القرماني (أحمد بن يوسف بن أحمد) :أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ص ٢٨٢ ١ ص ٢٩٠ (٧) : Langlès: op. cit.P.263

(٨) : يزدي : ج ٢ص ٢٦٥ (٩) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢١٠ ب

(١٠) : ابن عربشاه: ص ١١٩ والعسقلاني : ج ٢ص ٢٠٨

ثلاثة أيام .[1] ويقول ابن تغري بردي إنه يضاف إلى هذا العدد من قتل على الأسوار من سكان المدينة خلال عمليات الحصار، أو مات غرقاً وهو يحاول الفرار عبر نهر دجلة .[2] ولا شك في أن هذا العدد كان كبيراً جداً. فقد أقيم من الرؤوس البشرية التي جمعها الجند مائة وعشرين برجاً .[3] وكان القصد من هذا العمل ـ كما ذكر يزدي ـ العبرة لمن ينوي المخالفة .[4] ويتابع ابن قاضي شهبة وصف هذه المجزرة، فيقول إنه قد أستخدمت الحجارة والآجر مع الرؤوس لإقامة هذه الأبراج . وروى شهود العيان ـ من أسرى الشام الذين كانوا في ركاب القوات المغيرة ممن كانوا يتقنون الكلام بالفارسية ـ لهذا المؤرخ الدمشقي، أن الفاتح التركي ركب حتى قدم إلى هذه الأبراج، فهزه المنظر المؤلم فألقى التحية على هذه الرؤوس ونعت أصحابها بالشهداء .[5]

ويطلق أحد الباحثين في الوقت الحاضر على أعمال تيمور في بغداد "حمام الدم" .[6] وقد أدى انسياب دماء الضحايا إلى دجلة عفونة في الهواء ـ كما يقول يزدي ـ مما اضطر تيمور إلى الانسحاب من المدينة إلى ظاهرها على بعد فرسخ منها . وكان الانسحاب في ٦ ذي الحجة (١٩ تموز ١٤٠١م) ، بعد أقل من عشرة أيام من الاحتلال ،[7] وبعد ما حمل معه ما بقي من أموال ومتاع في المدينة، وساق أغلب من بقي من سكانها أسرى .[8] وأمر من موقعه الجديد خارج بغداد مجموعات من قواته بالتوجه إلى الحلة والنجف، في غارات لملاحقة من استطاع النجاة من مذبحة بغداد .

الانسحاب إلى تبريز وقراباغ

وتقدم موكب الفاتح التركي شمالاً بشرق إلى شهرزور، ومنها إلى منتجع نهر "جغاتو" في جنوب بحيرة أورمية، حيث كان عدد من زوجاته في استقباله هناك . وجرى له في هذا المنتجع استقبال حافل. وأمضى فيه عشرين يوماً، قضاها ـ كما ذكر يزدي ـ في عقد حلقات البحث والمناظرات في المسائل الشرعية .[9] وبلغته في موقع جغاتو استغاثة تابعه طهارتن حاكم ارزنجان، يشكو إليه تهديدات السلطان العثماني بايزيد . ثم تابع وتقدم من هناك إلى تبريز . وانطلق منها في جولة استجمام في ربوع بلاد الكرج . واستقر به المقام أخيراً في آخر ربيع الثاني عام ٨٠٤ هـ (٢٢ منه ٣٠ تشرين الثاني ١٤٠١م) في منتجعه المفضل قراباغ ،[10] حيث وافته أنباء سير حفيده محمد سلطان من سمرقند على رأس مدد من القوات، تمهيداً للغارة التي ينوي القيام بها على بلاد العثمانيين .[11]

عودة أحمد جلاير

لما انسحب تيمور من بغداد في هذه المرة، فإنه لم يعين على المدينة حاكماً ليتولى ادارتها باسمه، كما فعل في المرة الماضية، عام ٧٩٥ هـ (١٣٩٣م) .[12] وساعد انسحاب

(١) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢١٠ ب (٢) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢، ص ٢٦٦ (٣) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢١٠ ب وابن عربشاه : ص ١١٩ وقد ذكر أن قاضي بغداد أحمد النعمان الحنفي هو الذي حدد له هذا الرقم .

(٤) : يزدي : ج ٢ ص ٢٦٥ (٥) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢١١ آ

(٦) : Prawdin: op. cit. p. 245 (٧) : ابن عربشاه : ص ١٢٠ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢١١ آ ويزدي : ج ٢ ص ٢٦٦ (٨) : ابن عربشاه : ص ١٢٠

(٩) : يزدي : ج ٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ (١٠) : يزدي : ج ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ وشامي : ص ٢٤٣ (١١) : شامي : ص ٢٤٤ ويزدي : ج ٢ ص ٢٧٤

(١٢) : Aubin: op. cit. P. 309

تيمور السريع من بغداد على عودة السلطان أحمد جلاير إليها من بلاد الروم ،حيث كان لاجئاً عند السلطان بايزيد ، وعندما علم بعزم الفاتح التركي غزو تلك البلاد .[1] ومرّ أحمد في طريق عودته إلى حاضرة ملكه ،على قلعة الروم على نهر الفرات ،ليتحاشى أن يصادفه تيمور وهو في الطريق .[2] وسير تيمور من قراباغ حملة بقيادة حفيده أبي بكر بن ميرانشاه إلى بغداد لطرد أحمد جلاير منها ،لأنه عاد إلى سياسة الظلم والطغيان وملاحقته المخالفين له . ويعزو يزدي عدم نجاح الحملة في تنفيذ المهمة التي كلفت بها إلى المصاعب التي صادفتها وهي في الطريق إلى بغداد ، بسبب فصل الشتاء البارد . وعلى الرغم من تمكن أبي بكر من مباغتة أحمد جلاير في بغداد ،إلا أن هذا استطاع ـ كما كان شأنه في المرات السابقة ـ الافلات والفرار ،والالتجاء مع ابنه طاهر إلى الحلة ،والاحتماء وراء مياه الفرات التي تفصل بينه وبين أعدائه ،الذين اكتفوا بسوق بعض الأسرى والانسحاب .[3] واستمر أحمد في حكم بغداد خلال العامين التاليين .

وأما قرا يوسف حليف أحمد جلاير،فقد بقي في بلاد الروم إلى مابعد معركة انقرة . واضطر بعدها إلي التوارى عن الأنظار ،عندما كانت قوات تيمور تجتاح أملاك العثمانيين في إثر الظفر الذي حققته في تلك المعركة . وبقي قرا يوسف مختبئاً عند بعض العشائر العربية في منطقة الحلة في العراق .[4] تواري قرا يوسف

وتأزمت العلاقات من جديد بين حاكم بغداد وحليفه قرا يوسف عند ابتعاد الخطر التيموري عن العراق وديار بكر . ويقول مؤرخو الشام ومصر إن الخلاف تجدد عام ٨٠٦ هجري (١٤٠٤م).واضطر أحمد الى مغادرة بغداد مرة أخرى فاراً من قرا يوسف الذى استطاع انتزاع عاصمته منه . ولجأ سلطان بغداد إلى حلب،وقد بلغها وهو في ثياب رجل فقير .وعلى الرغم من أن هذه المصادر لاتعطى سبباً للخلاف الذي شجر بين الحليفين ،[5] فإنه من الواضح أن ابتعاد تيمور وقواته عن المنطقة قد أثر في إحياء المنازعات الاقليمية بين الفريقين . الخلاف بين الحليفين

ويظهر أن احمد جلاير كان على علم بالوضع الذي كانت عليه العلاقات بين تيمور والسلطان فرج في ذلك الوقت ، وبإذعان السلطان المملوكي لمشيئة الفاتح التركي ،ولذلك فقد أرسل أحمد من حلب إلى القاهرة يعتذر عما بدر منه قبل أربع سنوات (عام ٨٠٢ هـ/مطلع ١٤٠٠ م) عند مروره بالمدينة إلى بلاد الروم .[6] ويقول إنه على استعداد للمضي إلى تلك البلاد ،إذا لم تقبل السلطات المملوكية لجوءه إلى أراضيها .[7] ويبدو أنه مكث في حلب ينتظر جواب السلطان المملوكي . ولم يلبث قرا يوسف أن وصل إلى دمشق بعد شهر من وصول أحمد جلاير إلى حلب،وقد أجبر أمير القنمة السوداء على الفرار بسبب غارة أبي بكر من جديد على بغداد .[8] وجاء جواب سلطات القاهرة باعتقال اللاجئين في دمشق اعتقالهما في دمشق

(١) : يزدي: ج ٢ص ٢٧٥ والعسقلاني : ج ٢ص ٤٦٧ (٢) : يزدي: ج ٢ص ٢٧٥
(٣) : يزدي: ج ٢ص ٢٧٦ ــ ٢٧٨ (٤) : يزدي: ج ٢ ص ٣٢٥
(٥) : ابن الشحنة : ص ٢٤٠ والعسقلاني : ج ٢ص ٤٦٧ والمقريزي : السلوك : ج ٣ق ٣ ص ١١١٦ و ١١١٨ (٦) : انظر الفصل السادس من هذا الباب .
(٧) : المقريزي: السلوك : ج ٣ق ٣ ص ١١١٦ . (٨) : المقريزي: السلوك ج ٣ق ٣ ص ١١١٨

تنفيذاً للاتفاق الذي تمّ إبرامه مع تيمور في ذلك العام ، والذي يقضي بعدم قبول اللاجئين من إحدى الدولتين إلى الدولة الثانية ، إلا بعد أخذ موافقة الدولة التي قدموا منها .[١] واستقر كل من أحمد جلاير وقرا يوسف في برجين منفصلين من أبراج قلعة دمشق .[٢]

ويقدم يزدي تفصيلات أوفى عن هذه القضية . ويقول إن قرا يوسف الذي فرّ من بلاد الروم واختفى عند بعض الأعراب في منطقة الحلة .[٣] لم يلبث أن انتقل إلى هيت الواقعة الى الشمال الغربي من بغداد على نهر الفرات . وأخذ يجمع أتباعه من التركمان وينزلهم في المناطق المحيطة بالمدينة . ولما وقع الخلاف بين حاكم بغداد وابنه طاهر حاكم الحلة ، استنجد أحمد بقرا يوسف لمساعدته على طاهر ، الذي دارت الدائرة عليه ، وقضى غريقاً في نهر الفرات . وظهرت مطامع قرا يوسف في بغداد نفسها في إثر القضاء على عصيان طاهر . واضطر أحمد إلى الفرار إلى حلب من وجه زعيم الغنمة السوداء . ويتابع يزدي القول ان تيمور لم يرق له أن يقع العراق في يد قرا يوسف. وكان يرى أن بغداد هي من " أمهات مدن الإسلام " . وكان قد مضى على الضربة التي أنزلها بها ثلاث سنوات . وظلت المدينة تعاني خلالها من آثار تلك الضربة. ولذلك أصدر أمره وهو في إحدى مدن بلاد الكرج " منكول " (موغانلي الحالية) الواقعة إلى الجنوب الشرقي من تفليس إلى حفيده أبي بكر بتعيينه حاكما على العراق من البصرة إلى دياربكر .[٤] وتحركت قوات أبي بكر إلى العراق تساعدها قوات ابن عمه رستم بن عمر شيخ من شيراز . فاستطاعت هزيمة قرا يوسف في المعركة التي دارت عند " نهر الغنم " بالقرب من هيت . واضطر أمير الغنمة السوداء في إثر الهزيمة إلى الفرار إلى دمشق. وتفرغ أبو بكر للعمل على إصلاح أحوال البلاد. واهتم بالزراعة وبإعادة إعمار بغداد . وعفا تيمور عن " نور الورد " ابن السلطان أحمد ، الذي كان قد قصد معسكره في قراباغ في فصل ربيع عام ٨٠٦ هـ . وكان شاباً في الثامنة عشر من العمر . ولم يطل حكم أبي بكر للعراق مدة طويلة. واضطر إلى مغادرة بغداد في شعبان ٨٠٧ هـ (شباط ١٤٠٥م) على إثر ورود نبأ وفاة تيمور ، فأوكل الحكم إلى أحد مساعديه ويدعى إيتاق .[٥]

العراق تحت حكم أبي بكر بن ميرانشاه

وتغير موقف القاهرة بعد وفاة تيمور من أحمد وقرا يوسف المعتقلين في دمشق. وأمرت بالافراج عنهما . وبلغ أحمد عاصمته بغداد في مطلع عام ٨٠٨هـ (حزيران ١٤٠٥م) . أما قرا يوسف فقد زار القاهرة حيث حظي بعطف السلطان المملوكي .[٦] وتجدد التحالف بين أحمد وقرا يوسف لملاحقة فلول القوات التيمورية المنسحبة من العراق . وتمكنا من الانتصار عليها في معركة بالقرب من نخشيفان في بلاد الكرج . واستطاع قرا يوسف دخول تبريز عقب ذلك النصر .[٧] ولم يلبث الخلاف أن دبّ مجدداً بين أحمد وقرا يوسف الذي تمكن عام ٨١٣ هـ (١٤١٠م) ، من اعتقال أحمد وقتله. وألحق أمير الغنمة السوداء بغداد بسلطته في ذلك التاريخ بالاضافة إلى تبريز التي كانت قد دخلت تحت حكمه[٨] قبل قليل .

عودة أحمد إلى بغداد

اختلافه مع قرا يوسف ومقتله

(١) : إنظر الفصل السابق . (٢) : العسقلاني : ج ٢ص ٢٦٤ وقد ذكر أن جواب القاهرة في أول الأمر بقتل اللاجئين. ولكن نائب دمشق راجع القاهرة بالأمر فعُدّل القرار من القتل إلى الاعتقال. فاعتقل أحمد في برج السلسلة وحبس قرا يوسف في برج الحمام . إنظر أيضاً ابن الشحنة : ص ٢٤٠ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج ١٤ ص ١٦٤

(٣) : يزدي: ج ٢ص ٣٢٥ (٤) : يزدي: ج ٢ص٣٦٨ ـ ٣٦٩ (٥) : يزدي ج ٢ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ و ٣٩٦ والمقريزي: السلوك : ج ٣ق ٣ ص١١١٩ (٦) : العسقلاني : ج٢ص ٤٦٧

(٧) : Grousset: op. cit. P. 539 (٨) : العسقلاني: ج ٢ص٤٦٧ـ٤٦٨ وابن تغري بردي: ج ١٤ص ١٦٤

الفصل الثالث عشر

الجولة الثانية مع الأتراك العثمانيين
٨٠٤ _ ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ _ ١٤٠٣م

رغبة تيمور بالعودة إلى بلاد الروم _ سوء العلاقة بين العثمانيين والمماليك في مطلع عهد فرج _ محاولة بايزيد إصلاح الحال _ أعمال بايزيد في بلاد الروم في غياب تيمور _ أسباب عودة تيمور _ المراسلات _ احتلال كماخ _ استعراض القوات التيمورية _ قبيل معركة انقرة _ معركة انقرة _ أسباب هزيمة العثمانيين _ أسر بايزيد _ نتائج المعركة _ مسألة القفص الحديدي _ معاملة تيمور لبايزيد _ وفاة بايزيد في كوتاهية _ حملة محمد سلطان نحو الغرب _ حملة سلطان حسين نحو الجنوب _ تيمور وأبناء بايزيد _ إحياء الإمارات التركية _ مسيرة تيمور في الاناضول _ إجبار المغول على الانسحاب من بلاد الروم _ اتجاه تيمور إلى بلاد الكرج .

لم يغادر الفاتح التركي بلاد الروم في مطلع عام ٨٠٣ هـ (آب ١٤٠٠م) ، إلا بنية العودة إليها مرة ثانية ، لمتابعة القتال ضد حاكم هذه البلاد السلطان العثماني بايزيد . وعلى الرغم من خوف تيمور من قيام تحالف عثماني _ مملوكي موجه ضده في تلك البرهة ، فقد أحب استغلال سوء العلاقات بين الدولتين المعادتين له ، والذي ظهر فجأة عقب وفاة السلطان المملوكي برقوق ، ورغبة السلطان العثماني في استغلال اضطراب الأوضاع الداخلية في مطلع عهد خليفة برقوق وابنه السلطان فرج ، بإقدامه على احتلال ملطية التي كانت تابعة لنيابة حلب المملوكية . ولذلك فقد وجه الفاتح التركي قواته إلى بلاد الشام ، قبل أن يحقق نصراً حاسماً على السلطان العثماني .

رغبة تيمور بالعودة إلى بلاد الروم

واستغرقت عمليات تيمور في تلك البلاد (بلاد الشام) ، والعمليات التي تلتها في العراق واذربيجان وبلاد الكرج ،[1] مدة تزيد عن عام ونصف ، بين المحرم ٨٠٣ إلى رمضان ٨٠٤ هـ (آب ١٤٠٠ _ آيار ١٤٠٢ م) ، وعاد الفاتح التركي بعد ذلك إلى الظهور على رأس قواته في شرق آسية الصغرى من جديد ، عند حصن اونيك قادماً من بلاد الكرج .

ولم تستطع ديلوماسية السلطان العثماني أن تجعل السلطان المملوكي يتجاوز عن إساءته له عندما احتل ملطية . وكانت المصادر التاريخية التي تعبر عن وجهة نظر الدولة المملوكية ، قد دأبت على اعتبار الدولة العثمانية من الدول المعادية ، منذ وصول السلطان فرج إلى الحكم عام ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) ، نتيجة لوضوح المطامع العثمانية في أملاك الدولة المملوكية . فينقل العسقلاني رأياً لابن خلدون يقول : "ما يُخشى على مُلك مصر إلا من ابن عثمان ".[2] كما أشار ابن تغري بردي إلى أن الأخبار التي وصلت إلى القاهرة ، في شوال من عام ٨٠٣ هـ (حزيران ١٤٠١م) _ وهو التاريخ الذي توفي فيه برقوق وانتقلت فيه السلطنة إلى فرج _ تفيد بتحرك القوات العثمانية نحو بلاد الشام .[3] ولذلك فلما أوفد السلطان

سوء العلاقة بين العثمانيين والمماليك في مطلع عهد فرج

(1) : انظر الفصل بعد القادم (الفصل الرابع عشر من الباب الخامس) من أجل عملياته في بلاد الكرج . (2) : ابن حجر العسقلاني : ج ١ ص ٤٩٢ (3) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ١٧٦ .

العثماني أحد وزرائه إلى القاهرة بهدف إقامة تحالف بين الدولتين — وكان تيمور يزحف على حلب — فقد رُفض الطلب كما يشير إلى ذلك ابن قاضي شهبة في حوادث عام ٨٠٣ هـ . وكان بايزيد قد عرض أن يتقدم بقواته إلى سيواس ليغير على مؤخرة قوات تيمور ، في الوقت الذي يتصدى فيه نواب السلطان المملوكي في بلاد الشام له من الأمام (١).

محاولة بايزيد إصلاح الحال

وعلى كل حال فقد كان ابتعاد تيمور عن بلاد الروم ، خلال هذه المرحلة ، مجالاً استغله يلدرم بايزيد لتوسيع نفوذه في آسية الصغرى ، ولا سيما في المناطق الشرقية . فأغار على ارزنجان وتمكن من احتلالها ، ومن إجبار حاكمها طهارتن صنيعة تيمور على الفرار ، بعد أن وقعت أسرته في قبضة السلطان العثماني . (٢) وكانت المذكرات قد ذكرت أن تيمور قد تعمد بعد انسحابه من بلاد الشام منتصراً ، الابتعاد عن بلاد الروم ، فاتجه إلى العراق ومنها إلى اذربيجان وبلاد الكرج في سبيل افساح المجال أمام بايزيد ، لمزيد من التفكير في عواقب السير على سياسة العداء التي كان لا يزال يصرّ على انتهاجها . (٣)

أعمال بايزيد في بلاد الروم في غياب تيمور

وتتابع المذكرات حديثها فتقول إن السبب المباشر لعودة تيمور إلى بلاد الروم لقتال بايزيد ، كان تلك الغارة التي قام بها قرا يوسف اللاجئ إلى السلطان بايزيد ، على إحدى قوافل الحجاج التي كانت تقصد الحجاز ، والتجاء بعض من نالهم الأذى من أفراد القافلة إلى تيمور ، وإلحاحهم عليه للتدخل والانتقام لهم . ولذلك فقد شعر الفاتح التركي بضرورة معاقبة قرا يوسف ، وتنبيه حامية السلطان بايزيد من غفلته . (٤) ويضيف يزدي إلى ذلك أن تيمور عندما كان يقيم في إحدى ضواحي تبريز بعد انسحابه من العراق . فقد جاءته أخبار تحرك بايزيد على رأس عشرة آلاف فارس ، للقيام بغارة مفاجئة على هذا المكان ، للايقاع بتيمور . ولذلك فقد تحركت قوات تيمورية على الفور بقيادة شاه رخ للتصدي لهذه الغارة . وانسحب تيمور إلى تبريز . ويتابع يزدي الحديث إن شاه رخ تقدم حتى حصن اونيك ، حيث بلغته هناك رسالة من طهارتن تفيد بأن السلطان العثماني اضطر إلى التراجع خائفاً ، عندما علم باكتشاف أمر هذا الهجوم ، فأرسل إلى طهارتن يرجوه أن يبلغ الفاتح التركي اعتذاره على جرأته غير الحميدة . ولما اطلع تيمور على عروض بايزيد للصلح ، من أجل أن يتمتع المسلمون بالأمن ، وتحقن دماؤهم وتصان مصالحهم . وعلم أن السلطان العثماني قد أطلق سراح أسرة طهارتن التي كانت أسيرة عنده ، فقد فترت همته عن متابعة القتال . ولذلك أرسل في طلب بعض زوجاته من سمرقند ، للقيام بجولة استجمام في ربوع اذربيجان وبلاد الكرج . (٥) وتبادل تيمور وهو يقوم بجولته في بلاد الكرج مع بايزيد سلسلة من الرسائل ، ظهر من خلالها أن الطرفين يريدان الصلح والسلم وتلافي الحرب . وكانت هذه الرسائل مغفلة التاريخ . وقد صنفها المؤلف التركي فريدون على الأغلب حسب تسلسلها التاريخي ، وأوردها يزدي مرتبة وفق هذا التسلسل أيضاً ، مع خلافات بسيطة ولاسيما في مضمون بعض الرسائل .

أسباب عودة تيمور

المراسلات

(١) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٠ ب وقد أشار إلى أن الوفد العثماني قد مرّ بدمشق خلال ذهابه إلى القاهرة وعودته منها . ويشير المقريزي إلى وصول وفد عثماني إلى القاهرة في ذلك التاريخ (٩ المحرم ٨٠٣ هـ) يحمل رسالة دون أن يشير إلى مضمونها انظر له : السلوك : ج ٣ق ٣ ص ١٠٢٧ (٢) : يزدي : ج ٢ص ٢٦٨ وعلي رشاد : ص ٣٠٧ و Terfer :P. 1

(٣) : Langlès: op. cit. P. 261-282 (٤) Langlès:op.cit. P. 263-264.

(٥) : يزدي : ج ٢ص ٢٦٨ — ٢٦٩

واستهل بايزيد مرحلة المراسلات بتوجيه رسالة حملها إلى معسكر تيمور في قراباغ، أحد القضاة العثمانيين برفقة أحد الأمراء من البيت المالك العثماني . ويقول يزدي إن الرسالة تضمنت استعداد بايزيد لإظهار الطاعة والانقياد .(١) وربما كان ذلك سبباً في عدم إشارة المؤلف فريدون إليها . ولكن الرد الذي تلقاه بايزيد على رسالته يتشابه في بعض الموضوعات ـ كما أوردها شامي ويزدي ـ مع الصورة التي أوردها فريدون للرسالة التي أرسلها تيمور لبايزيد ، والتي دعاها المؤلف التركي الرسالة الثالثة . فقد أشار تيمور إلى أن اختلاف كلمة المسلمين يستدعي شماتة الكفار . وقال عن قرا يوسف الذي تقع ممتلكاته بين ممالك المسلمين ، إنه لص وقاطع طريق ومفسد . وقد ألحقت أعماله الضرر بالمسلمين ، وفرّ من ملاحقة تيمور إلى بايزيد الذي قدم له الحماية . ولذلك فهو يطالب بمحاسبته على أعماله ، أو تسليمه إليه لتتم مجازاته. وعند ذلك تتوطد الصداقة بين الطرفين ، ويصبح تبادل المساعدات لقتال الكفار أمراً ممكناً .(٢) واشتملت الرسالة كما أوردها فريدون على موضوعات أكثر مما أورده شامي ويزدي عن تلك الرسالة. فهي تطالب بإصلاح ذات البين بين المسلمين ، وتعترف بما قام به أجداد بايزيد من السلاطين العثمانيين من جهاد في قتال أعداء الدين ، ولكن تيمور في مقابل ذلك كان يقابل كفار المشرق. وتهاجم الرسالة دولة المماليك التي لاتزال تحتفظ بأتلاميش أسيراً في القاهرة . ولذلك فهو يصرح بأنه عازم على التوجه إلى مصر لاحتلالها ، وتخليص أسيره هناك . ويصف كلاً من أحمد جلاير وحليفه قرا يوسف بأنهما قاطعا طريق ، ولذلك فإذا أراد بايزيد تجنب القتال فعليه أن يتخلى عنهما، مقابل قيام تحالف بين الدولتين ضد أعداء المسلمين ، في بلاد الكرج ومنطقة طرابزون. ويختم تيمور الرسالة بالإشارة إلى ضرورة تبادل الوفود والرسائل بصورة دائمة .(٣) وكان الوفد العثماني قد أمضى في معسكر تيمور فصل الشتاء. وعاد بعد ذلك إلى بلاده يحمل رد تيمور هذا في أول فصل الربيع .(٤)

وجاء رد بايزيد على رسالة تيمور كما أورده يزدي مختصراً . قال فيه إنه إذا كان تيمور صادقاً ، فإن قرا يوسف سوف ينزل على طاعته . ثم يعلمه بموافقته على اقتراحه بقيام تحالف بين الجانبين ، ولذلك فقد أرسل إليه أحد كبار الأمراء ، ليؤكد أمامه رغبته بالصلح ، ويقسم على ذلك . ويتابع بايزيد كلامه قائلاً وعند ذلك فإن العلاقات بين الطرفين سوف تتحسن وينحسم النزاع وتصان مصالح المسلمين .(٥)

ويتضمن رد السلطان العثماني ـ كما جاء عند فريدون ـ دفاعاً عن السلطان المملوكي الذي يلقبه بايزيد بـ "عالي الجاه عزيز مصر" ، ويصفه بأنه حامي المسلمين قطّان الحرمين الشريفين، ويقول عن أحمد جلاير وقرا يوسف ، بأنهما قد عوملا على مبدأ إكرام الضيف ، حسب ما اعتاد عليه السلاطين العثمانيون ، في معاملة من يطلب حمايتهم ، وليس كما فعل هولاكو

(١) : يزدي : ج ٢ص ٢٧٩
(٢) : يزدي ج ٢ص ٢٨٠ وشامي : ص ٢٤٨
(٣) : فريدون : ج ١ص ١٢٦ ـ ١٢٩
(٤) : يزدي : ج ٢ص ٢٨١
(٥) : يزدي : ج ٢ص ٢٨١

لما قتل الخليفة الشهيد المستعصم بالله . ويطالب الرد أخيراً بأن يتراجع الفاتح التركي عن سيواس، وأن يعيدها إلى السلطان العثماني ، ويجعل ذلك شرطاً للصلح والتفاهم[١]. وتوقفت المراسلات بين الجانبين مدة قصيرة من الزمن — بين رجب ورمضان ٨٠٤ هـ (شباط ونيسان ١٤٠٢م) — وكان تيمور يتابع خلال هذه المدة جولته في بلاد الكرج . وعندما بلغ مدينة منكول استأنف المراسلات وبعث للسلطان العثماني رسالة جديدة ، طالب فيها — كما يقول يزدي — التراجع عن كماخ " ، لأنها في نظره من أملاك تابعه طهارتن .[٢] وربما كان هذا الطلب رداً على مطالبة بايزيد باسترجاع سيواس، وجاء في هذه الرسالة في الصورة التي وردت عند فريدون تبريرٌ لغارة تيمور في آخر عام ٨٠٢ هـ على سيواس، وهو أن أهل المدينة قد أرسلوا الهدايا لسلطان مصر ، فوجبت معاقبتهم ووقع ما وقع . ودافع تيمور في هذه الرسالة عن نفسه ضد من يتهمه بالكفر، وطلب من السلطان العثماني أن يسأل رجال الدين عنده عن عقاب من يكفّر مسلماً . وأكد له أنه يسير على مذهب أهل السنة والجماعة . وأن هذا واضح في مسلكه وضوح الشمس . وحاول أن يبدد شكوك بايزيد في إخلاصه بطلب الصلح ، بالتمويه عليه بأن القوات التي أرسل يستدعيها من ماوراء النهر ، هي للقيام بغارة على بلاد القرم ومدينة كافا التي كانت في ذلك الوقت تحت النفوذ الجنوي . وختم رسالته بالتأكيد على أن كلاً من ملطية وابلستين هي من أملاك تابعه طهارتن ، وأن حصن كماخ هو مدخل هذه الأملاك فيجب على يزيد أن يتخلى[٣] عن كل هذه المناطق . ولم يلبث تيمور أن غادر منكول وبلاد الكرج في شعبان (نيسان)، وظهر على رأس قواته في اونيك شرق الأناضول في رمضان ٨٠٤ هـ (أيار ١٤٠٢م) .[٤] وتوغلت بعض فرق الفرسان نحو الغرب بحجة البحث عن أعلاف لخيولها . وطفق تيمور في اونيك مدة شهرين ينتظر عودة رسله بجواب بايزيد من بلاد الروم . وتذرع بتأخر عودة الرسل ولذلك فقد قرر القيام بغارة على مدينة كماخ[٥]، الواقعة عند المجرى الأعلى للفرات . وهي أقرب المواقع العثمانية إلى اونيك ، حيث كانت تقوم معسكراته . وقد أشار كل من يزدي وشامي وابن عربشاه إلى حصانة كماخ ومناعة قلعتها .[٦] وذكر المؤرخ الدمشقي (ابن عربشاه) أن المدينة التي كانت تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، كانت تطل من ناحية الجنوب على واد عريض، ويحيط بها من الشرق والغرب تلال وهضاب، تجعل الوصول إلى المدينة لاحتلالها أمراً صعباً . وقد عانت القوات المغيرة الكثير من الصعوبات حتى تمكنت من ملء الوادي الجنوبي بالأحطاب ، لتصل من فوق هذه الأحطاب إلى أسوار المدينة. ولكن المدافعين عن كماخ استطاعوا إشعال النار في هذه الأحطاب ، فأمر تيمور بحمل الأحجار وإعادة طم الوادي . ونجح المغيرون أخيراً في الوصول إلى الأسوار ، واستعملوا السلالم للتسلق عليها .[٧] وأشارت المصادر التيمورية إلى أن الغزاة قد ضربوا الأسوار بالمنجنيقات، وشبهت المعركة التي دارت عند هذه الأسوار بيوم الحشر .[٨] ووفق تيمور أخيراً باحتلال المدينة في شوال من ذلك العام (٨٠٤

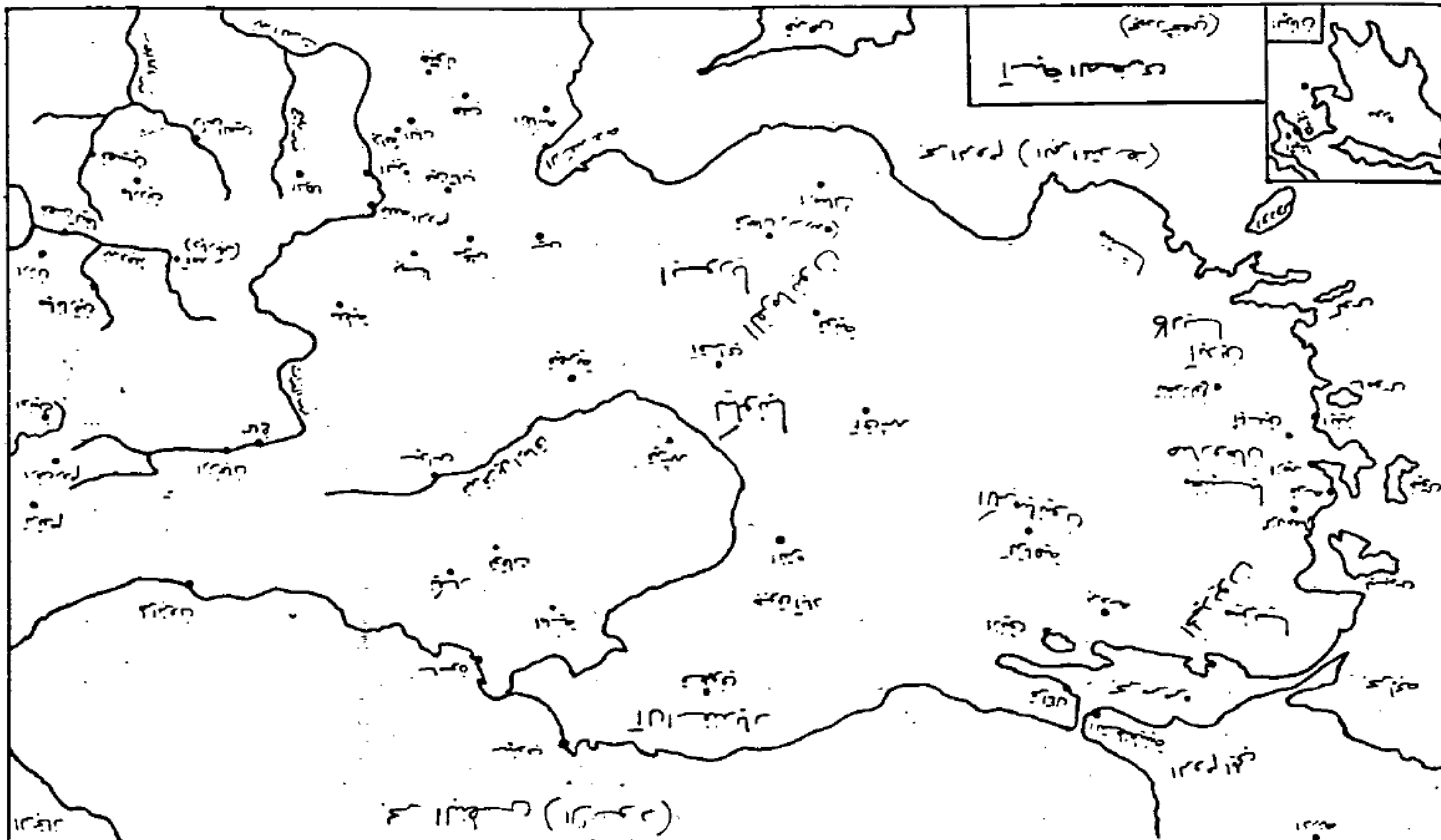
احتلال كماخ

(١) : فريدون : ج ١ص ١٢٩ — ١٣٠ (٢) : يزدي : ج ٢ص ٢٨٦ (٣) : فريدون : ج ١ص ١٣٠ — ١٣٢

(٤) : شامي : ص ٢٤٩ (٥) : يزدي : ج ٢ ص ٢٨٧

(٦) : ابن عربشاه : ص ١٢٣ ويزدي : ج ٢ص ٢٨٨ وشامي : ص ٢٥٠

(٧) : ابن عربشاه : ص ١٢٢ — ١٢٤ (٨) : يزدي : ج ٢ص ٢٩٠ وشامي : ص ٢٥٠



هجرى / حزيران ١٤٠٢م)، فأمر بالحاقها بأملاك طهارتن . وتقدم منها غرباً إلى سيواس.(١)

ووافى الفاتح التركي إلى هناك (سيواس) وفده الذي تأخر عند بايزيد ، وعاد معه وفد عثماني يحمل رد السلطان العثماني ، الذي كان يقيم في ذلك الوقت على حصار العاصمة البيزنطية (القسطنطينية) . وأشار يزدي إلى رسالة السلطان العثماني دون أن يتحدث عن محتوياتها . ولكنه وصفها بأنها تنم عن غرور بايزيد، وتتعدى حدود الأدب وسداد الرأى، وأن الحجج التي أوردها عن مدينة كماخ لم تقنع تيمور .(٢) ويعلل "لامب" (Lamb) امتناع المؤرخ الفارسي عن الإشارة إلى مضمون هذه الرسالة ، بأنها قد أغاظت تيمور غيظاً شديداً، جعل أي مؤرخ تيموري لا يتجرأ على إيرادها بنصها .(٣) ويظهر من نص الرسالة كما أورده فريدون ، أنه يتصف بالشدة والحزم ، فيتهم تيمور بالمكر والخداع وعدم الصدق في طلب الصلح . ويقول إن الحرب بين الدولتين أضحت أمراً لا مفر منه ، ولذلك فقد اتخذ السلطان العثماني استعداداته لها ، وسوف تدور على الباغي الدوائر .(٤)

هذا وقد ذهب بعض مؤرخي الشام ومصر إلى القول إن عروض تيمور التي تكررت في رسائله للصلح والتفاهم قد أثرت على السلطان العثماني في أول الأمر ، فجنح إلى السلم . ولكن غارة الفاتح التركي على كماخ ، جعلته يتحقق من أن "تمر [تيمور] لا يحب الصلح ولا يذكره إلا تخذيلاً ".(٥)

استعراض القوات التيمورية

وأقام تيمور في سهول سيواس عرضاً عسكرياً لقواته ، أمام أنظار الوفد العثماني الذي حمل إليه الرسالة الأخيرة . ويصف يزدي هذا العرض فيقول إنه قد بدأ منذ أول النهار ، واستمر حتى العصر ، ولم يتوقف إلا عند أذان الظهر لاقامة الصلاة . ومرت الفرق العسكرية أمام الفاتح التركي وهي مدججة بكامل أسلحتها . وكان لكل فرقة لون خاص مميز لها ، لونت به راياتها وأسلحتها وثياب الجند وسروج الخيل فيها . وكلما مرت فرقة من الجيش أمام تيمور ، كان مقدم الفرقة يجثوا على ركبتيه تحية للفاتح التركي . وسُمح للوفد العثماني بعد انتهاء العرض بالانصراف ، بعد أن زوّد برسالة جاء فيها قول تيمور ، إن مملكة بايزيد هي مملكة غزو وجهاد ولذلك فهي عزيزة علينا ، وإن قواتنا التي تشكو الآن من التعب ، تريد العبور من هذه البلاد للجهاد . ولذلك فإن من واجب بايزيد أن يتساهل ويسلك مع هذه القوات العابرة طريق المجاملة ، مما سيؤدي إلى انطفاء نار العداوة .(٦) وربما كان قصد تيمور من وراء لين عبارة رسالته ، وتودده للسلطان العثماني ، إخفاء عزمه على القتال . ووصلت الأخبار إلى تيمور بأن

قبيل معركة انقرة

بايزيد الذى اضطر لرفع الحصار عن القسطنطينية ، يتقدم الآن على رأس قواته نحو الشرق لصد المغيرين ، وأنه بلغ "توقات"،(٧) على مسيرة خمسة عشر يوماً من سيواس – حسب تقدير المقريزي –.(٨) وكانت خطط يلدرم بايزيد تقوم على التصدي للقوات الغازية في ضواحي سيواس

(١) : ابن عربشاه : ص١٢٣ ويزدي : ج ٢ص ٢٩٣ (٢) : يزدي : ج ٢ ص ٢٩١
(٣) : Lamb: La vie de Tamerlan P. 205 وقد ذكر أن الذي أغاظ تيمور في الرسالة نعت بايزيد له بالاعرج وكتب السلطان العثماني في هذه الرسالة اسمه بحروف كبيرة وبماء الذهب وكتب اسم تيمور بحروف صغيرة وبالحبر الاسود .
(٤) : فريدون : ج ١ص ١٣٢ – ١٣٣ (٥) : العسقلاني : ج ٢ص ٢٢٥ وقال مثل ذلك المقريزي: السلوك ج ٣ق ٣ ص ١٠٨١ (٦) : يزدي ج ٢ص ٢٩٦
(٧) : ابن عربشاه ... : ص٣٠٨ ويزدي: ج ٢ص ٢٩٨ (٨) : المقريزي السلوك ج ٣ق ٣ص ١٠٨١

حتى لايمكنها من التوغل فى أملاكه والعمل على تخريبها . ولاسيما وأنه قد حلّ الآن موسم الحصاد ونضج الفواكه .(١) وكانت خطة تيمور على العكس من ذلك ، تقتضي أن تتوغل القوات المغيرة مسافات بعيدة في أملاك العثمانيين ، في سبيل تحقيق المزيد من الارباك للسلطان العثماني . ولذلك وبدلاً من أن تتحرك هذه القوات من سيواس إلى الشمال الغربي باتجاه توقات ، حيث يقف يلدرم بايزيد على رأس قواته . فقد اتجهت إلى الجنوب الغربي - إلى جهة اليسار حسب تعبير يزدي - (٢) جاعلة نهر "قزيل ارماق" حداً فاصلاً بينها وبين القوات العثمانية . ويقول حافظ آبرو إن تيمور تعمد أن يخفي قواته وهي تتحرك عن أعين العثمانيين ، وحاول أن يجعل الجبال تفصل دائماً بين القوتين .(٣) وعملت القوات الغازية خلال سيرها على تدمير البلاد وإتلاف المزروعات التي كانت تمر بها ، بحجة جمع الأعلاف اللازمة لخيولها .(٤) ولما بلغت هذه القوات "قيصرية" أرسل تيمور طلائع من قواته إلى انقرة للوقوف على أخبار العثمانيين .(٥) ثم تقدم بالجزء الرئيسي من الجيش إلى ضفاف نهر قزيل ارماق ، وعبره باتجاه مدينة "قير شهر" الواقعة جنوب شرق انقرة . ووصلت إلى تيمور وهو في قير شهر إشارة من طلائعه التي كانت بقيادة أبي بكر بن ميرانشاه ، تفيد بأن قوات بايزيد قد شوهدت تنزل بضواحي انقرة .(٦) وكان العثمانيون قد تقدموا من "توقات" إلى حيث أقاموا لهم مواقع جديدة تغطي السهول الواقعة إلى الشمال الشرقي من المدينة (٧) . وقام تيمور على إثر وصول هذا الخبر بتحريك قوة أخرى تتألف من ألف فارس ، يقودها "شاه ملك" (أحد اتباعه) فاندفعت خلال الليل إلى نقطة قريبة من معسكرات العثمانيين ، واقترب قائد القوة ، شاه ملك ، من مكان نزول السلطان العثماني نفسه للترصد وجمع المعلومات . ولما أحس الحراس العثمانيون بوجود القوة المعادية ، اشتبكوا معها فى معركة ليلية . وفي الصباح التالي صدرت أوامر بايزيد الذي أدهشته المفاجئة ، فصب جام غضبه على قواده وحراسه ، بالزحف على قير شهر . وأسرعت القوة التيمورية التي استطاعت الانسحاب من أمام الأعداء بنجاح ، تحمل نبأ تعقب الأعداء لها إلى تيمور .(٨) وظهر أن تيمور نجح في إغراء أعدائه بترك مواقعهم في ضواحي انقرة ، واستطاع استدراجهم إلى الضفة الشرقية لنهر قزيل ارماق . وفي الوقت الذي أصدر فيه تيمور أوامره إلى قواته فى قير شهر بوجوب الحذر والانتباه لإخفاء تحركاتها عن الأعداء ، فقد دعى مجلساً لقواده ، وقوات العثمانيين تزحف نحوهم ، لدراسة الموقف بصورة عاجلة . وانقسمت آراء المجتمعين حول خطتين ، تقتضي الأولى الانتظار حتى وصول الأعداء إليهم والاشتباك معهم ، وتقوم الخطة الثانية على التوغل فى أراضي العثمانيين وإجبارهم على تعقب القوات المعادية فى اتجاهات متعددة . وقد اعتمدت الخطة الثانية على أن قسماً كبيراً من الجيش العثماني كان من المشاة . ولما رفع الأمر بعد المداولة إلى تيمور ، فضل الخطة الثانية بعد أن أدخل عليها تعديلات طفيفة .(٩) وصدرت الأوامر للعمل على وجه

(١) : ابن عربشاه : ص ١٢٨ (٢) : يزدي : ج ٢ ص ٢٩٨ (٣) : حافظ آبرو : ص ١٧٧
(٤) : ابن عربشاه : ص ١٢٩ (٥) : علي رشاد : ص ٣٠٨ ويزدي : ج ٢ ص ٢٩٨
(٦) : يزدي : ج ٢ ص ٢٩٨ (٧) : علي رشاد : ص ٣٠٨ (٨) : يزدي : ج ٢ ص ٢٩٩
(٩) : يزدي : ج ٢ ص ٢٩٩ .

السرعة . وفي الوقت الذى يذكر فيه يزدي ، أن طليعة جديدة من القوات المغيرة قد أمرت بالتقدم إلى انقرة مباشرة ، حيث المكان الذى قرر فيه الفاتح التركي أن يخوض المعركة الفاصلة فيه ضد السلطان العثماني ، لتقوم ببعض الأعمال التمهيدية ، كردم بعض الآبار ودس السم في البعض الآخر منها ، وتحويل مجرى النهر الصغير الذى يروى انقرة ، بطريقة تمنع العثمانيين من الاستفادة من مياهه ،[1] فإن هذا المؤرخ التيموري (يزدى) لايحدد الجهة التي سار إليها الجزء الرئيسي من قوات تيمور ،[2] مما يؤكد ماذكره مؤرخو الشام ومصر من أن تيمور تعمد إخفاء جهة سيره عن أعدائه ، وأنه سار في طريق فرعية متعرجة وغير مطروقة تحقيقاً لهذه الغاية .[3] ولذلك فإنه يبدو واضحاً أيضاً أن تيمور الذي اجتاز مع جيشه نهر قزيل ارماق بالقرب من قيصرية ، من ضفته الجنوبية (اليسرى) إلى ضفته الشمالية (اليمنى) للوصول إلى قير شهر قبل عدة أيام ، قد اضطر الآن لعبوره بالاتجاه المعاكس ، وسار بعد ذلك على ضفة النهر اليسرى محاذياً منعطفه الكبير حتى بلغ انقرة ، خلال مدة ثمانية أيام ،[4] في الوقت الذي كان فيه كشافو الجيش العثماني يخبطون في الهضاب والسهول في منطقة قير شهر ، بحثاً عن الأعداء دون أن يعثروا لهم على أثر .

ووصلت الأخبار إلى العثمانيين أخيراً ، وهم على الضفة اليمنى للنهر في منطقة وعرة قفراء ،[5] في وسط المنعطف الكبير لهذا النهر ، بأن قوات العدو ظهرت وراءهم في ضواحي انقرة. ولذلك كان على بايزيد أن يغذ السير راجعاً بقواته مرة ثانية ، باتجاه الغرب . فقطع النهر من جديد باتجاه انقرة ، خوفاً من أن يترك القوات المغيرة تجتاح بلاده من وراء ظهره ، وتقطع عليه خطوط تموينه ونقاط استناده .[6] وظلت القوات العثمانية تسير مسرعة ثمانية أيام تحت أشعة فصل الصيف في شهر تموز ،[7] حتى أضحى "عسكر ابن عثمان كالموتى من التعب".[8] بالإضافة إلى ماكانوا يشعرون به من العطش . وحالت القوات المغيرة التي وصلت إلى مكان المعركة قبل وصول العثمانيين ، بين هؤلاء وبين الوصول إلى الماء .[9] وشاهد العثمانيون أعداءهم وقد حلوا في معسكراتهم التي كانوا قد تركوها قبل وقت قصير . وكان عليهم أن يخوضوا القتال على هذه الحال من التعب والعطش . وكان جيش الغزاة قد بدأ منذ وصوله إلى انقرة بحصار المدينة ، لاحتلالها قبل وصول الجيش العثماني . ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى السهل الذي يقع شمال غرب المدينة ،[10] ويدعى سهل "تشبوق آباد" ، واتخذ مواقع في هذا السهل لمنع العثمانيين من الاقتراب من النهر .

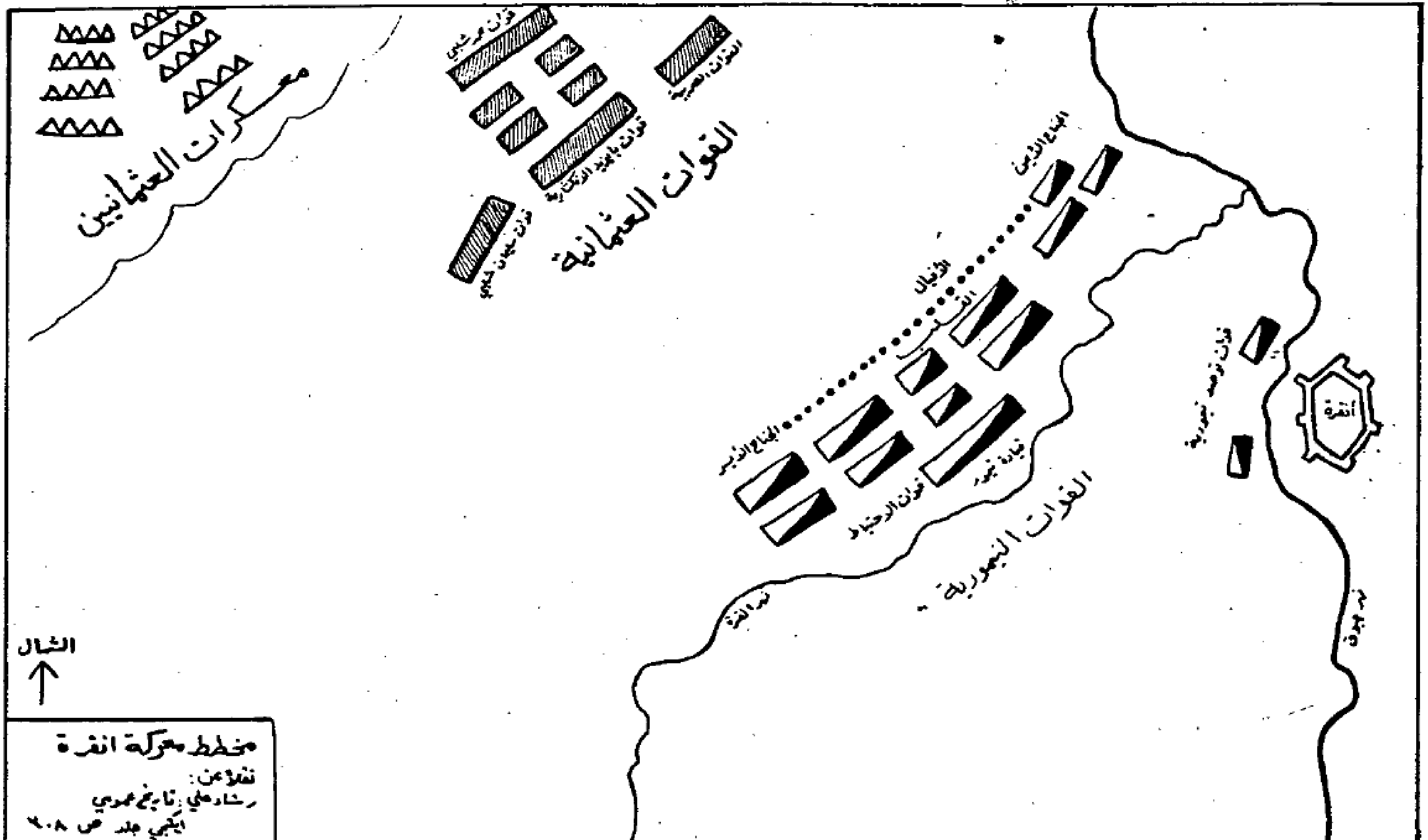
ويقول يزدى إن تيمور كان يتهيب من المعركة مع بايزيد ، ولذلك قضى ليلة المعركة بكاملها في الصلاة والتضرع إلى الله .[11] وأشرف في صباح اليوم التالي منذ الصباح الباكر معركة أنقرة

(١) : يزدي: ج ٢ص ٣٠٠ (٢) : يزدي: ج ٢ص ٢٩٩ (٣) : ابن عربشاه : ص ١٢٨ والعسقلاني : ج ٢ص ٢٢٨ والمقريزي : السلوك : ج ٣ق ٣ ص ١٠٩٢ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٦٧ (٤) : المقريزى : السلوك نفسه . (٥) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٢٨ (٦) : Prawdin: op. cit. P.228, Lamb:op.cit.P. 225

(٧) : ابن عربشاه: ص ١٢٠ والمقريزي: نفسه . (٨) : العسقلاني : ج ٢ص ٢٢٦

(٩) : ابن عربشاه : ص ١٢٩ (١٠) : يزدي : ج ٢ص ٣٠١

(١١) : يزدي : ج ٢ص ٣٠٢


معسكرات العثمانيين
قوات قرشبي
القوات الصربية
قوات بايزيد الاحتياطية
قوات سليمان شلبي
القوات العثمانية
الجناح الأيمن
الأفيال
القلب
الجناح الأيسر
قوات الاحتياط
قيادة تيمور
القوات التيمورية
قوات ترصد تيمورية
أنقرة
نهر أنقرة
نهر جبوق
الشمال
مخطط معركة انقرة
نقلاً عن:
رشاد علي: تاريخ عمومي
ايكنجي جلد ص ٦٠٨

على ترتيب العساكر بنفسه : وكان يقود الجناح الأيمن للجيش ميرانشاه ، ويعاونه ابنه أبوبكر والأمير طهارتن حاكم ازرنجان ، ووقف على قيادة الجناح الأيسر شاه رخ بن تيمور ويعاونه خليل سلطان . وحُشد في القلب عدد كبير من القواد يقود هم حفيد تيمور محمد سلطان ، ووقفت في المؤخرة بعض الفرق العسكرية كقوات احتياطية ، وكانت تحت قيادة تيمور المباشرة . وتقدم الجيش اثنان وثلاثون فيلاً مدرباً على القتال من الأفيال التي جيء بها من الهند . وأضحى الجيش على أقصى درجات الاستعداد للقتال في وقت قصير .(١) وتعترف المصادر التركية (العثمانية) بكفاية التنظيم في جيش تيمور ، وبمهارة القواد الذين كانوا يتولون قيادته .(٢)

ورتب الجيش العثماني ترتيباً مشابهاً لما كان عليه الحال في جيش تيمور . فقاد القلب السلطان بايزيد نفسه ، حيث كانت تقف الفرق الانكشارية تحت قيادة السلطان المباشرة . وكان يساعد السلطان العثماني في قيادة بقية عناصر القلب ، اثنان من أولاده هما موسى ومصطفى . وكان الجناح الأيمن الذي يتألف من الفرق الآسيوية (المجموعة من الأناضول) وعددها عشرة آلاف ، تحت قيادة سليمان أكبر أبناء السلطان ، ومعه الصدر الأعظم علي باشا . ووقف في الجناح الأيسر شقيق زوجة السلطان الملك الصربي "لازار فيلكوفيتج" (Lazar Vilkovitch) يقود عشرين ألفاً من القوات الصربية المسيحية . وقاد قوة الاحتياط في المؤخرة ابن آخر السلطان هو محمد چلبي .(٣) ويقول يزدي إن الجيش العثماني كان يضم بعض العناصر من سكان حلب .(٤) وكذلك فقد كان في هذا الجيش عدد من أفيال الحرب لا يتجاوز العشرة .(٥)

وهنالك شبه اجماع بين مؤرخي تلك المرحلة ، على أن المعركة التي دارت بجوار انقرة بين قوات تيمور وبايزيد ، كانت في آخر أشهر عام ٨٠٤ هـ (وهو شهر ذي الحجة ويقابل تموز ١٤٠٢ م)(٦). ولكن هؤلاء المؤرخين اختلفوا في تحديد اليوم من ذلك الشهر. وذهب ابن عربشاه إلى أن المعركة وقعت في ٢٧ ذي الحجة (٢٩ تموز ١٤٠٢ م). وقال مثل ذلك ابن تغري بردي .(٧) ويظهر مما ذكره يزدي أن معركة انقرة وقعت بتاريخ سابق لـ ١٩ ذي الحجة من ذلك العام (٨٠٤ هـ). فهو يقول إنه في يوم الجمعة الواقع في ١٩ ذي الحجة الذي تلا المعركة وهزيمة بايزيد وقواده ، قام القواد والأمراء في جيش تيمور بتقديم التهنئة له على هذا النصر، وتلا الخطيب في صلاة ظهر ذلك اليوم الخطبة باسم

(١) : يزدي : ج ٢ ص ٣٠٥ وشامي : ص ٢٥٥ (٢) : رشاد (علي) : ص ٣٠٨

(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٣٠٦ ورشاد (علي): ص ٣٠٨ — ٣٠٩ (٤) : يزدي : ج ٢ ص ٣٠٦

(٥) : Delaville Le Roulx : La France en Orient au XIV Siècle T. I.P. 393 .

(٦) : خرج عن اجماع المؤرخين المقريزي فقال : إن المعركة وقعت بتاريخ (٥) المحرم ٨٠٥ هجري (السلوك : ج ٣ ق ٣ ص ١٠٩٢). وربما ذهب اليه العسقلاني في (ج ٢ ص ٢٢٨) من أن التاريخ كان في ذي الحجة ٨٠٥ هـ كان تصحيفا من النساخ . أما حافظ ابرو فاكتفى بتحديد التاريخ بشكل عام فذكر أنه كان في آخر شهر من عام ٨٠٤ (زبدة التواريخ ص ١٧٧) . (٧) : ابن عربشاه : ص ١٣٠ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٦٨ وقد ذكر ابن عربشاه أن ٢٧ ذي الحجة = ١٨ تموز وهذا خطأ . وحساب المقابلة بين التاريخين الهجري والميلادي يؤكد أن ٢٧ ذي الحجة عام ٨٠٤ هـ يقابله ٢٩ تموز ١٤٠٢ م انظر لاجراء المقابلة :

Haig : Comparative Tables of Muhammadan and Chrisian Dates . London 1932

تيمور .[١] وأما المؤرخ التيموري الآخر شامي فلا يشير إلى تاريخ المعركة وإن كان من المرجح أنه كان من شهودها .

وتميل المصادر العثمانية إلى الأخذ بما ذكره يزدي ، ويحدد كامل باشا ذلك التاريخ بـ ١٩ ذي الحجة أيضاً .[٢]

أسباب العثمان

ومهما يكن من أمر فإن القتال بدأ في ذلك اليوم منذ أول النهار ،[٣] منذ الساعة السادسة صباحاً - كما ذكر ذلك أحد المصادر الأوربية - .[٤] وتعزو المصادر التركية سير المعركة لغير صالح العثمانيين ، بعد النجاح الذي حققوه في المرحلة الأولى من القتال ، إلى انضمام قوات الإمارات التركية ، التي انضوت قبل برهة وجيزة تحت لواء الحكم العثماني ، عندما شاهدت هذه القوات أمراءها السابقين يقاتلون في جيش تيمور ، ثم إلى فرار القوات الصربية أيضاً .[٥] وزاد انسحاب التتر (المغول) من صفوف العثمانيين في حرج موقف هؤلاء . وكانت جماعات من التتر تستقر في بعض مناطق آسية الصغرى منذ أيام الغزو المغولي.[٦] وتتابع المصادر التركية حديثها بأن بايزيد الذي أخذ منه الغضب من هذه الحال ، قد استمر في الحرب بتهور دون تقدير للنتائج . ولم يلتفت إلى طلب الصدر الأعظم علي باشا وطلب أكبر أبنائه سليمان بالفرار . ولذلك انسحب سليمان والصدر الأعظم بالقوات التي كانت تحت إمرتهما باتجاه "بورصة" ، كما انسحبت القوات الصربية إلى "آماسية" ، تاركين بقية فرق الجيش العثماني لتحصدها سيوف القوات التيمورية . وظل السلطان مع الفرق الانكشارية يقاتل في ظروف صعبة .[٧] وتحاول المصادر الأوربية أن تبرز الدور الذي لعبته فرق الفرسان الصربية في القتال . وتشير إلى ثباتهم محتمين وراء تروسهم الكبيرة ، مما لفت نظر أعدائهم[٨] . ويعزو بعض هذه المصادر فشل العثمانيين في معركة انقرة إلى الخطة التي اتبعها بايزيد ، وهي امتناعه أن يأمر قوات القلب أن تدعم حركة الجناحين اللذين استطاعا أن يحققا النجاح على القوات المعادية في أول مراحل القتال . وكأن تشبث القلب بمواقعه في نظر هؤلاء هو بداية الهزيمة .[٩]

أما يزدي فإنه يشير إلى شجاعة القوات العثمانية وإلى الجلادة والثبات اللذين أبداهما السلطان العثماني وأبناؤه ، ويشير أيضاً إلى دور المقاتلين الافرنج (الصرب) .[١٠] وكان تيمور يقود المعركة ويوجه تعليماته إلى مختلف الفرق ، حسبما يقتضيه سير القتال . ولما ظهرت علائم الضعف والكلل على الفرسان العثمانيين ، أصدر تيمور تعليماته لسائر قطعات الجيش للقيام بهجوم عام ..[١١] وقد أشار مؤرخو الشام ومصر إلى كمين أعدّه تيمور

(١) : يزدي : ج ٢ص ٣١٤ (٢) : كامل باشا : ص ٥١ (٣) : رشاد : ص ٣٠٩
(٤) : Rambaud : op.cit. P. 841 (٥) : كامل باشا ص ٥٠ ورشاد (علي) : ص ٣٠٩ (٦) : ابن عربشاه : ص ١٢٩ وقد رعددهم بثلثي الجيش العثماني (!) والعسقلاني : ج ٢ص ٢٢٨ الذي افاد بأن تيمور "مناهم ووعدهم فوعدوه بالمعاونة".
(٧) : كامل باشا : ص ٥٠ ورشاد (علي) : ص ٣٠٩ (٨) : Sykes: op.cit. II P.130
(٩) Grousset: op.cit. P. 531 : Delaville Le Roulx: op. cit. P. 394
(١٠) : يزدي : ج ٢ص ٣٠٨ و ٣١٠ | (١١) : يزدي : ج ٢ص ٣١٠

لبايزيد في آخر النهار . ومع ذلك فقد ثبت السلطان العثماني في القتال ، وظل يقاتـــل بشجاعة بعد أن فقد نصف جنده الانكشارية ،[١] في الوقت الذي أضحت فيه قوات الجناحين في جيشه ممزقة . ولما حاول بايزيد في النهاية الفرار والاعتصام بأحد التلال المجـــاورة لساحة المعركة، فقد طوقت القوات المغيرة ذلك التل من كل طرف ، وأخذت تمطر المكان بوابل من سهامها ، فقضت على الكثير ممن كانوا مع السلطان الذي وقع أخيراً في الأسر مع ابنه موسى.[٢] أسر بايزيد

وتعلق المصادر التركية على النهاية التي انتهى إليها السلطان العثماني فتقول : إن قـرار بايزيد بالفرار جاء متأخراً ، لأنه ظل يقاتل حتى آخر لحظة ، ولأنه لم يكن على استعداد لأن يصدق بأنه قد هُزم.[٣]

وبينما تشير بعض مصادر مؤرخي الشام ومصر إلى أن تيمور أساء معاملة أسيره فعنفه وأمر بحبسه.[٤] فإن يزدي يقول إن بايزيد لما وقع أسيراً بيد السلطان الجغتائي محمود بـن سيورغتمش ، ولما تعرف عليه كبار رجال الدولة ، حُمل مكبلاً اليدين إلى تيمور الذي شمله بعطفه، فأمر بفك قيوده ، وقربه منه في مجلسه ، وفاتحه على سبيل المعاتبة الرقيقة بأنه قد نصحه أن يلتفت إلى غزو الكفار ، ولكنه أبى واستعلى ورفض أن يعيد قلعة كماخ التابعة إلى حاكـم ارزنجان ، وآوى إليه قرا يوسف الذي أظهر العناد والمضايقة . وختم تيمور معاتبته لبايزيـــد بالقول إن كل ماحدث كان مقدراً حسب إرادة الله . ولما سمع بايزيد كلام الفاتح التركـي شعر بالخجل والمذلة ، واعترف بأخطائه ، وعرض على تيمور أن يدخل في طاعته مع أولاده طيلة حياته . وأمر تيمور لأسيره بثياب جديدة . ولما لمس بايزيد مكارم تيمور دعى له واثنى عليــه، ثم أخذ يسأل عما حل بأولاده خلال الحرب ، ولذلك صدرت الأوامر بالبحث عن أولاد بايزيد . وأحضر له بعد عدة أيام ابنه موسى ، ليقيم إلى جانبه ، وأقيمت لهما خيمة خاصة إلى جوار خيمة تيمور . ويشبه كل من شامي ويزدي معاملة تيمور لأسيره بما فعله الرسول بأهل مكـــة بعد فتحه لها .[٥]

وأما ماتبقى من فلول الجيش العثماني ، فقد انسحب بها سليمان بن بايزيد إلـــى بورصة ، لانقاذ الأموال والحريم والأولاد (الأسرة المالكة) من القوات المعادية ، الـــتي كانت تتعقبه .[٦] وانطلق من هناك إلى ادرنه في البر الأوربي . واضطر سليمان أن يعقـد صلحاً مع الامبراطور البيزنطي في الـ طنطينية ، تنازل بموجبه عن بعض المواقع الهامة التي كانت بيد العثمانيين بالقرب من العاصمة البيزنطية ، مثل "قرتال" و بندك " ، ووضع أخاه

(١) : المقريزي : السلوك : ج ٣ق ٣ ص١٠٩٢ والعسقلاني : ج ٢ص٢٢٥

(٢) : يزدي : ج ٢ص٣١٢ — ٣١٣ وكامل باشا ص ٥٠ ورشاد : ص٣٠٩ و Terfer:op. cit. P. 21

(٣) : كامل باشا : ص ٥٠ ورشاد : ص٣٠٩ ويقول القرماني إن بايزيد أبى الفرار في الوقت المناسب بسبب يمين الطلاق الذي أقسمه في أول رسائلـه إلى تيمور أن لا يفر من القتال (القرماني : ص٣٠٢) . وجاء في تلك الرسالة قول بايزيد " وإن قصدت بلادي وأنا أفرعنك ولم أقاتلك البتة فزوجاتي إذ ذاك طوالق ثلثة [كذا] (فريدون : ص١١٩) .

(٤) : العسقلاني : ج ٢ص٢٢٨ وابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٦٨

(٥) : شامي : ص ٢٦٠ ويزدي : ج ٢ص٣١٦

(٦) : ابن عربشاه : ص١٢٩ والعسقلاني : ج ٢ص٢٢٦ والمقريزي : السلوك ج ٣ق ٣ص١٠٩٢ والقرماني : ص٣٠٢

الصغير "قاسم شلبي" رهينة بين يديه ، مقابل الحصول على السفن لنقل الفارين من الأتراك من الاناضول إلى "الروم ايلي" ، هرباً من الجيوش الغازية .(١)

وترجع هزيمة العثمانيين في معركة انقرة إلى أمور عديدة ، يأتي في أولها تفوق القوات المغيرة العددي على القوات العثمانية .(٢) وعلى الرغم من الاختلاف في تحديد أعداد قوات الطرفين الذي يشاهد في مختلف المصادر والمراجع ، فإن هذه المصادر والمراجع متفقة في أن قوات الفاتح التركي تفوق قوات السلطان العثماني ، ويصل الفرق في تقدير بعض المراجع إلى الضعف ويزيد . ويقدر القس شيلتبرجر الذي حضر المعركة مع الجانب العثماني ثم وقع في أسر القوات المغيرة ، عدد الجيش العثماني بأربعمائة ألف جندي ، في الوقت الذى يقدر فيه عدد القوات الغازية بستمائة ألف جندى .(٣)

نتائج المعركة

وتحاول بعض المصادر التركية أن ترجع الهزيمة إلى ماكانت تعاني منه القيادة العثمانية من التفكك وعدم الانسجام في التخطيط للمعركة . وتعطي انسحاب سليمان والصدر الأعظم خلال القتال صورة عصيان على السلطان ، لانه رفض الأخذ بنصائحهما بالامتناع عن القتال والركون إلى الفرار ، عندما بدأت بعض القوات التابعة للجيش العثماني بالانسحاب والانضمام إلى الاعداء .(٤) وكان لهذا الانسحاب أثره السيء على تعبئة قوات بايزيد ، نجم عنه كما قال المقريزى انكشاف "ميمنة ابن عثمان" ، وتوجيه ضغط القوات المعادية إلى قلب الجيش العثماني .(٥) ويقدر المقريزى عدد القوات التي انسحبت مع سليمان بمائة الف جندى .

وكان الجيش العثماني يعاني إلى جانب ذلك ، من عدم الانسجام بين فصائل قواته .(٦) فقد وجد في هذا الجيش إلى جانب الفرق التركية الأناضولية ، الانكشارية والمحاربون الصربيون والتتر . وكانت هذه العناصر تختلف عن بعضها في أساليب القتال والأسلحة والقيادة . وأشار صاحب النجوم الزاهرة إلى هذا التنافر في الجيش العثماني فقال : "إن بايزيد جمع جيشه من المسلمين والنصارى والتتر".(٧) واستغل تيمور هذا الحال في الجيش العثماني استغلالا جيداً لصالحه ، فأرسل قبيل المعركة يستميل التتر إليه قائلاً "نحن [الأتراك الجغتائيون والتتر] من جنس واحد ، وهؤلاء تركمان ، ندفعهم من بيننا ويكون لكم الروم عوضاً عنهم".(٨) ويصف القرماني التتر الذين انسحبوا أثناء القتال بأنهم "صلب العسكر".(٩) ويقدر شيلتبرجر عددهم بثلاثين ألفاً .(١٠) ويقول إنهم كانوا يقفون في المقدمة . وكان من نتائج عدم الانسجام في فصائل الجيش العثماني أيضاً ، انسحاب قوات الإمارات التركية (إمارات صاروخان ، ومنتشا ، وآيدين وغيرها) ، التي ألحقها العثمانيون

(١) : رشاد : ص ٣١٠ وابن عربشاه : ص ١٣١ وابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٦٩

(٢) : Sykes:op,cit.T II P. 130 (٣) : Terfer : ibid .

ويقدر رشاد (ص ٣٠٨) العدد بمائة الف عثماني مقابل مائتي الف تيموري ، اما رامبو (ص ٨٤١) فالتقدير عنده بمائة وعشرين الف عثماني مقابل ثلاثمائة الف تيموري . ولا تقدم المصادر الفارسية تقديراً وأما مؤرخو الشام ومصر فالمقريزي : يقدم تقديراً لقوات بايزيد فقط وهو ٧٠٠ الف فارس و ٣٠٠ ألف راجل (السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٨١) وقدر ابن الشحنة قوات تيمور التي أغارت على الشام بـ ٨٠٠ ألف (ابن الشحنة ص ٢١٠) .

(٤) : كامل باشا : ص ٥٠ ورشاد : ص ٣٠٩ (٥) : المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٩٢ وابن عربشاه ص ١٢٩

(٦) : Grousset:ibid, Delaville Le Roulx: ibid.

(٧) : ابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٦٧ (٨) : ابن تغري بردي : نفسه (٩) : القرماني : ص ٣٠٢

(١٠) : Terfer ;ibid.

بدولتهم حديثاً . وكان جند هذه الإمارات كارهين للحكم العثماني . وقد سيقوا إلى القتال دون رغبة منهم .[1] وأدى انسحاب هؤلاء من الجيش العثماني حسب تقدير بعض المصادر التركية لأن يفقد هذا الجيش قواته، وجعله في وضع حرج بالغ الخطورة .[2]

ويُنسب إلى السلطان العثماني بايزيد الإهمال والتقصير في شأن تحصين حدود أملاكه من الناحية الشرقية . وكان همه منذ وصوله إلى الحكم وخلال الثلاثين عاماً التي سبقت ظهور الخطر التيموري من الشرق — متجهاً في الغالب إلى الحروب على الحدود الغربية لأملاكه — في أوربا — ولم يقدر تقديراً صحيحاً قدرة القوة الجديدة التي ظهرت في الشرق، والتي أخذت بالتزايد المستمر خلال الأعوام الثلاثين التي سبقت معركة أنقرة .[3] واتصف اهتمامه بالأطراف الشرقية لأملاكه بالتراخي والبخل، بعد سلسلة الانتصارات التي حققها في ميادين القتال في الغرب، في الوقت الذي لم يكن هناك من الأخطار ما يقلق، قبل ظهور تيمور .[4]

وبالمقابل، ففي الوقت الذي كان فيه الجيش العثماني يشكو من تلك المساوئ في قيادته وفي فصائله، فقد كان الجيش الذي يقوده تيمور، على أفضل ما يكون من حسن التعبئة والتماسك ومهارة القيادة وإخلاص الاتباع.[5] وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا يقاتلون في بلادهم . وأظهرت حروبهم التي خاضوها في أوربا أيضاً مقدرة وشجاعة فائقة، شهدت بها المراجع الأوربية،[6] فإن تيمور سعى لدراسة الوضع الجغرافي لبلاد عدوه والوقوف على ما يوجد فيها من مسالك،[7] واستطاع أن يستغل هذه الدراسة لصالحه، ونجح إلى حد بعيد — هنا كما فعل مع المماليك في بلاد الشام — أن يفرض على عدوه مكان المعركة وزمانها وظروفها، وأجبر عدوه على خوض الحرب وهو (أي العدو) في أحوال بالغة السوء من التعب والعطش والذهول .[8] وأورد مؤرخو الشام ومصر إشارات يستفاد منها مدى دقة معرفة تيمور للوضع الجغرافي، في آسية الصغرى في ذلك الوقت، هذه المعرفة التي مكنته من سلوك مسالك غير معروفة، ودفع عدوه الذي كان ينزل في مناطق حصينة حول انقرة إلى ترك هذه المناطق، والسير في مناطق قفراء حيث ضاع فيها وهو يبحث عن عدوه في بلاده.[9] وكذلك فقد مكنت معرفة تيمور الجيدة لجغرافية الاناضول، أن يستغل الجبال للاحتجاب عن عدوه، والأنهار لإجبار هذا العدو على اجتيازها جيئة وذهاباً، وهو يبحث عنه . كما مكنته هذه المعرفة الجغرافية أخيراً من تحويل النهر الذي كان يجرى في ميدان المعركة بشكل حرّم على عدوه الاستفادة منه . وقد اعترف أحد الكتاب الاتراك بمهارة تيمور الحربية بالمقارنة مع بايزيد فقال : "إذا كان بايزيد صاعقة فإن تيمور هو ضد الصاعقة" . ويتابع هذا

(١) : Prawdin: op. cit. P. 248 (٢) : كامل باشا : ص ٥٠ ورشاد : ٣٠٩
(٣) : Bréhier: op. cit. P. 472 (٤) : Sykes: op. cit. T. II P. 130
(٥) : Delaville Le Roulx: P. 393 (٦) : Rambaud: op. cit. P. 842,
Sykes: op. cit. II P. 129 Prawdin: ibid. (٧) : يزدي: ج ٢ ص ٢٩٨
(٨) : Lamb: op. cit. P. 225 (٩) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٢٨ والمقريزي: السلوك : ج ٣ ق ٢ ص ١٠٩٢ وابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٦٧ وابن عربشاه : ص ١٢٨

الكاتب قوله ملتمساً العذر لبايزيد بعد هزيمته في معركة أنقرة ، مشيراً إلى الظروف التي ظهرت في أول المعركة ، إنه من الواجب أن لاتعتبر معركة أنقرة نقطة سوداء في تاريخ بايزيد ، لأنه من الأمور الطبيعية أن يظهر في زمان واحد عدد كبير من العظماء ، ولأنه في كثير من الأحيان تقرر بعض العوارض الجانبية مصير المعركة . وقد شهد التاريخ للأتراك العثمانيين بالشجاعة وعلو الهمة ، وانتصاراتهم المستمرة على أعدائهم وطريقتهم في إعداد الجيوش خير دليل على ذلك .(١)

إن انتصار تيمور في معركة انقرة يعني في نظر بعض المؤرخين سقوط الامبراطورية التركية الغربية على يد الامبراطورية التركية الشرقية .(٢) وكان من المتوقع أن تلفظ الدولة العثمانية أنفاسها عقب معركة أنقرة وأسر السلطان بايزيد ، ثم لاشتداد الصراع بين أولاده الذين لم يقعوا في أسر تيمور - على السلطة ، وقد تشبث كل واحد منهم عقب المعركة بناحية من نواحي الدولة ، وأخيراً بسبب سياسة التمزيق التي سار عليها الفاتح التركي (الجغتائي) بإحيائه الإمارات التركية التي قضى عليها العثمانيون في الماضي .(٣)

وأتاح نصر أنقرة على يد تيمور من ناحية ثانية ، للإمبراطورية البيزنطية التي كانت في تلك الآونة في أيامها الأخيرة ،(٤) مدة اضافية من الحياة امتدت زهاء خمسين عاماً آخر.(٥) لأن بايزيد اضطر عام ١٤٠٢ م أن يرفع الحصار عن العاصمة البيزنطية بعد أن كان - حسب ماتذكره المصادر التركية (العثمانية) وبعض المصادر الاوربية -(٦) سقوطها بيد السلطان يلدرم بايزيد متوقعاً خلال بضعة أشهر . ولم يكن الامبراطور البيزنطي "مانويل باليولوغ (Manuel Paleologue) (١٣٩١ - ١٤٢٥ م) - الذي كان في ذلك الوقت في رحلة إلى أوربة ليستدر عطف الدول فيها لمساعدته ضد العثمانيين - يتجاسر على أن يتصور خلاصاً من الخطر العثماني خيراً مما حققه له انتصار تيمور في أنقرة .(٧) ووجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها المستفيدة الأولى إن لم تكن المستفيدة الوحيدة من انتصار تيمور ،(٨) ولذلك أسرع الامبراطور البيزنطي في العودة إلى بلاده ، بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات ، وهو يطرق أبواب قصور الملوك الأوربيين دون أن يحظى منهم بما كان يأمل به من مساعدات .(٩)

هذا وكان لهزيمة العثمانيين في انقرة صداها الواسع في القارة الأوربية . وعمت أخبار هذه الهزيمة في أرجاء القارة الأوربية بعد شهرين ونصف من وقوعها .(١٠) وأسرعت الدول الاوربية التي كانت تخشى من عواقب التوسع العثماني في هذه القارة ، إلى تنشيط علاقاتها مع الفاتح التركي . وأرسل له كل من ملك فرنسا وملك انكلترة بهذه المناسبة رسالتي

(١) : اثر كمال : ص١٦ - ١٧ (٢) : Prawdin : op.cit. P. 248

(٣) : كامل باشا : ص٥٢ ورشاد : ص٢١١ (٤) : Prawdin : op. cit. P.249

(٥) : Grousset : op. cit. P. 532, Bréhier: op. cit. P. 474

(٦) : جودت : تاريخ جودت ، طبع دار الطباعة العامرة ١٢٥٧ هـ مجلد اول ص: ٧٠ و : Delaville Le Roulx : op. cit. P.395

(٧) Grousset : ibid.

(٨) : Grousset: ibid .

(٩) : Le Strange: op. cit. Introd. P.3et Bréhier: op. cit. P. 472

(١٠) : Grousset et ses Compangnons : L'Asie Orientale de l'origine au xve siècle P. 353

تهنئة .[١] وكان لملك اسبانيا مراقبان حضرا المعركة (معركة أنقرة) في صفوف الجيش التيموري. وأعقب ذلك إرسال الملك الاسباني بعثته الشهيرة إلى البلاط التيموري في سمرقند .

ومع ذلك فقد كان لانتصار تيمور — من ناحية أخرى — نتائج سلبية على العلاقات بين الفاتح التركي والمراكز الصليبية ، التي كانت لاتزال قائمة على سواحل آسية الصغرى المطلة على بحر ايجة . فقد حاول تيمور أن يبدد النقمة التي أثارها في نفوس المسلمين بعد الضربة التي أنزلها بالسلطان الغازي بايزيد وبالدولة العثمانية المسلمة ، بإنزال ضربات قاسية أخرى ، بعد معركة انقرة بوقت قصير بالمواقع الصليبية هذه .[٢]

ولاشك في أن انتصار أنقرة كان خطوة حاسمة في مخطط الفاتح التركي الهادف إلى السيطرة على العالم ، عن طريق الوصول إلى منصب الخلافة .[٣] فقد ألقى هذا الانتصار الرعب في قلب السلطان المملوكي فرج بن برقوق — وكان السلاطين المماليك يعتبرون أنفسهم زعماء العالم الإسلامي لحمايتهم الخلفاء العباسيين القائمين في كنفهم في القاهرة وخضوع الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز لنفوذهم — ولذلك فقد أرسل فرج عقب معركة انقرة ، رسالة إلى الفاتح التركي ، خلع عليه فيها الكثير من ألقاب التمجيد والشرف . وجاء في إحدى فقرات تلك الرسالة إقرار ضمني بتخلي دولة المماليك عن زعامتها للعالم الإسلامي والتسليم بهذه الزعامة للفاتح التركي . فقد أقرّ فرج في هذه الرسالة قائلاً : " وقبلنا أبوته [أبوة تيمور] على مدى الأزمان وتوالي الأعصار .. "[٤] وبذلك يكون الفاتح التركي قد وصل إلى أوج نجاحه العسكري والسياسي عقب تلك المعركة .

مسألة القفص الحديدي

وعلى الرغم مما أشارت إليه المصادر التيمورية من أن بايزيد لقي من تيمور معاملة طيبة بعد وقوعه في الأسر ، فإن ابن عربشاه يفيد بأن تيمور كان يضع أسيره بصورة دائمة في قفص من حديد . وكان ينقله في هذا القفص أينما ذهب .[٥] وكانت العبارة التي أوردها ابن عربشاه عن حالة بايزيد عقب أسره ، مثار بحث وجدال بين بعض الباحثين ، بينما لم يعرها الآخرون أي اهتمام . وكانت عبارة هذا المؤرخ الدمشقي قد ذكرت عن بايزيد بعد أسره: " ووقع ابن عثمان في قفص وصار مقيد اكالطير في قفص ."[٦] ولذلك مال بعض الباحثين إلى القول إن تيمور قد سجن بايزيد في قفص من حديد فعلاً . وقد اعتمد هؤلاء على تأييد رواية ابن عربشاه على سعة إطلاع هذا المؤرخ الذي انفرد دون غيره من المؤرخين المعاصرين بذكر ذلك ، وعلى إتقانه عدة لغات هي الفارسية والتركية والعربية ، وهي اللغات التي حررت بها المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ تيمور والأتراك العثمانيين ، فضلاً عن أن المؤرخ قد أقام مدة طويلة في خدمة الدولة العثمانية نفسها .[٧]

ويميل بارتولد إلى الاعتقاد بأن نوعاً من الإقامة الجبرية قد فرضت على السلطان

---

(١): Cahun : op. cit. P. 961, Lamb : op. cit. P. 234

(٢): Griusset : ibid. وانظر الفصل القادم لمزيد من التفصيل .

(٣): Cahun: op. cit. P. 969 (٤): القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٢٢ وانظر الفصل الحادي عشر . (٥): ابن عربشاه : ص ١٣٩ — ١٤٠

(٦): ابن عربشاه : ص ١٣٠ (٧): عبدالله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية القاهرة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م ص ١٢٢

الأسير،[1] وكان قد ألمح إلى ذلك المؤرخ التيموري نظام الدين شامي،عندما ذكر أن بايزيد لما وقع في الأسر فقد قيد وسجن .[2] وذهب كاتب مقدمة الترجمة الانكليزية لرحلة السفير الاسباني كلافيجو إلى بلاط تيمور إلى تأييد رواية ابن عربشاه .[3] وقبلت بهذه الرواية بعض المصادر الأرمنية .[4]

ويرى فريق من الباحثين أن قضية القفص الذي زعم أن بايزيد سجن به ، ليست إلا أسطورة ليس لها أساس من الصحة .[5] وأن ابن عربشاه قد أوردها بدافع الكره الشديد الذي كان يكنه لتيمور .[6] ووجد " هيوار " (Huart) أن عبارة المؤرخ ابن عربشاه هي عبارة غامضة ،[7] وقد لا تسمح باستنتاج ما ذهب إليه بعض الباحثين في هذه المسألة ، ولذلك فإن براون يرى أن لا تؤخذ العبارة على حرفيتها وحسب معناها الظاهر ، بل قد يكون من الممكن أن ابن عربشاه قد قصد استعمالها بشكل مجازي ، لتأتي موافقة لضرورة السجع الذي التزمه المؤرخ في مؤلفه (قنص — قفص) .[8] ويقول " ترفر " (Terfer) مترجم كتاب رحلة القس الباڤاري شيلتبرجر إلى الانكليزية ، في مقدمة الطبعة الانكليزية إن هذه القصة التي يسميها " أسطورة " لا تستحق أن ينوه بها البتة .[9] ثم ينقل تعليقاً لأحد الكتاب يدعى " برون " (Bruun) ، على سكوت شيلتبرجر عن الإشارة إلى قصة حجز بايزيد في قفص حديدي. وكان هذا القس الباڤاري قد حضر معركة انقرة بصفته ملازماً شخصياً للسلطان بايزيد . وانتهى الأمر به إلى أن وقع في الأسر وظل ملازماً لتيمور حتى وفاته (وفاة تيمور) . ويقول تعليق برون إن شائعة وضع بايزيد في قفص جاءت من اختراع أعداء تيمور . وأشار إلى أقوال مؤرخ روسي معاصر لمعركة انقرة يدعى " نيكتين " (Nikitin) ، تحدث عن كارثة وقوع بايزيد في الأسر بعد المعركة . ولكنه لم يتكلم عن قصة القفص الذي زعم أن بايزيد قد وضع فيه . ويتابع برون تعليقه فيقول إن تعبير " قفص " يعني بالتركية أيضاً " محفة " ، وهي شيء أحسن من القفص . ولفظة محفة هي لفظة عربية أيضاً . ولذلك فإن برون يستنتج من كل ذلك أن السلطان العثماني قد حمل على شيء يشبه القفص ، وقد يكون محفة ذات شكل خاص غير مألوف .[10] وربما كان لهذه المحفة كما يقول غروسية أسياخ حديدية ، مما أفسح المجال لنشوء القصة التي بولغ فيها ، فأصبحت قفصاً حديدياً كاملاً .[11] وللساداتي رأي مماثل . فهو يقول إن الاعتقاد بأن تيمور قد وضع بايزيد في قفص هو خطأ تاريخي ، نتج عن سوء فهم بعض الكتّاب في الوقت الحاضر لمدلول هذا اللفظ في اللغة التركية ، ويقصد لفظ " قفص " وهو يرى أنه يطلق في هذه اللغة أيضاً ، على الهوادج والأكشاك التي لها نوافذ تتخللها

---

(1): شامي : ص٢٥٨ (2) Barthold : Ulugh Beg P. 25

(3): La Strange :op.cit.Introd.P.4 (4) Pasdermadjian: op. cit.: P. 239

(5): كامل باشا : ص١٥و Sykes:op. cit.T.II P.130

(6): Bouvat: L'Empire Mongol. P. 61

(7) Huart ; Bayazid(E.I.T.I) P. 703 (1ere edi.)

(8): Browne:op.cit.T.III P.198 (9): Terfer:op.cit.Preface P. 22

(10): Terfer : op. cit. P. 126 - 127

(11) Grousset: op. cit. P. 530

أحيانا أسياخ من حديد .[١] وعلى ذلك قد يكون منشأ الخطأ من سوء فهم ابن عربشاه نفسه، للمقصود من لفظة "قفص" التي كان قد قرأها في أحد المراجع التركية التي يفترض أن المؤرخ قد اطلع عليها عندما كتب تلك العبارة .

معاملة تيمور لبايزيد

ومهما يكن من أمر، فإن المعاملة السيئة التي يذكر مؤرخو الشام ومصر أن بايزيد قد تلقاها من تيمور،[٢] ربما قد حدثت بعد فشل محاولة إنقاذ السلطان وتخليصه من معتقله . فقد حاول أحد أبناء السلطان، هو محمد چلبي، في إحدى الليالي حفر نفق تحت الأرض للوصول إلى خيمة السلطان الأسير . ولما فشلت المحاولة وعلم بها تيمور، أمر بتقييد بايزيد خلال الليل بالسلاسل، وشددت عليه المراقبة نهاراً .[٣] ويتفق ابن عربشاه مع يزدي في أن معاملة تيمور لأسيره لم تكن خلال مدة الأسر على منوال واحد . فكان أحيانا يلاطف بايزيد ويباسطه ويترفق له في الكلام، وأحياناً يسخر منه ويضحك عليه . وكان يهدف من ذلك أن يظل بايزيد معلقاً بين الرجاء والخوف، يقسو عليه حيناً ويُطَيِّب خاطره حيناً آخر، ويمنيه بأنه سوف يعيده إلى حكم سلطنة الروم .[٤] وحاول بايزيد خلال أسره أن يقدم لتيمور بعض النصائح في إدارة البلاد، فأوصاه أن لا يهدم القلاع والحصون، وأن لا يُنكِّل بالأتراك العثمانيين، لأنه لن يستفيد من هذا العمل إلا البيزنطيون وحلفاؤهم .[٥]

وفاة بايزيد

ولا شك في أن الحال التي آل اليها السلطان بايزيد، على الرغم مما كان يلقاه من تيمور من حسن المعاملة أحياناً، كانت مصدر ألم نفسي له. فأخذت صحته بالتدهور، وأُصيب بمرض الخناق وضيق التنفس . وربما كانت حالته النفسية وما كان يعانيه من الحزن والقهر والشعور بالمهانة والخجل — وكانت تصل إليه وهو في الأسر أنباء المنازعات التي اشتدت بين أولاده على ما تبقى من أشلاء الدولة —[٦] سبباً في إصابته بالمرض الذى أورده حتفه في ١٤ شعبان ٨٠٥ هـ (٩ آذار ١٤٠٣م) في مدينة "آق شهر"[٧] في الاناضول . وكان تيمور في ذلك الوقت في ضواحي "ازمير" . ولما سمع بنبأ وفاته حزن وبكى — على حد قول يزدي — ولما قدم عليه موسى ابن السلطان المتوفي سمح له بنقل جثمان والده الذي كان قد تقرر دفنه في آق شهر، إلى حيث دُفن أخيراً في بورصه .[٨]

في كوتاهية

وكان الفاتح التركي عقب معركة أنقرة، وبعد أن احتل المدينة نفسها، قد انتقل منها إلى "كوتاهية" حيث أقام لِه معسكراً هناك . وأطلق من هذا المكان قواته غرباً وجنوباً في نزهة عسكرية،[٩] بعد انهيار مقاومة العثمانيين . وكان الهدف من هذه الأعمال بالإضافة إلى القيام بأعمال التخريب والسلب والنهب، منع قيام الدولة العثمانية مرة ثانية، والعمل على إقامة حكم يدينُ للفاتح التركي بالولاء والطاعة .[١٠]

---

(١) : السلداتي : ج ٢ص ٣٥١ (٢) : ابن تغري بردي : ج ٢ص ٢٦٨ والسخاوي : ج ٢ص ٤٨
(٣) : كامل باشا : ص ٥١ (٤) : ابن عربشاه : ص ١٣٣ ويزدي : ج ٢ص ٣٣٠
(٥) : ابن عربشاه : ص ١٤٢ والعسقلاني : ج ٢ص ٢٦٨ والقرماني : ص ٢٩١
(٦) : رشاد : ص ٣٠٩ والعسقلاني : ج ٢ص ٢٢٦ ويزدي : ج ٢ص ٣٤٩
(٧) : يزدي : ج ٢ص ٣٤٨ وكامل باشا : ص ٥٤ و Terfer : op. cit. P. 21
(٨) : يزدي : ج ٢ص ٣٤٩ـ ٣٥٠ وكامل باشا : ص ٥٤ والقرماني : ص ٣٠٢
(٩) : Grousset: op. cit. P. 531 (١٠) Grousset : op. cit. P.532

حملة محمد سلطان نحو الغرب

وكانت القوات التي انطلقت غرباً بقيادة حفيدي تيمور محمد سلطان وأبي بكر،وكان الهدف بلوغ بورصة ،قبل أن يتمكن سليمان بن بايزيد من مبارحتها مع خزائن الدولة . وكانت هذه القوات تسير بسرعة كبيرة ،ولذلك لم يتمكن من أن يصل من أفراد هذه القوات التي كانت تعد ثلاثين ألفاً إلا أربعة آلاف ،بسبب الإجهاد الذي حل بهؤلاء من السير السريع(١) . ولم تتمكن هذه القوات من إدراك سليمان الذي استطاع الوصول إلى "ازنيق" على الساحل، وعبر من هناك البحر إلى الروم ايلي . وتتحدث المصادر التركية والعربية عن أعمال التخريب والتنكيل والإحراق التي أنزلتها قوات محمد سلطان في المدينة.وذهب شيلتبرجر إلى القول إن القوات الغازية قد أخرجت من بورصة ألف جمل محمل بالذهب والفضة .(٢) ووقع في أسر هذه القوات عدد من نساء العائلة المالكة العثمانية ،ممن لم يستطعن الفرار . وكان من بين الأسيرات كما يقول يزدي زوجة بايزيد واثنتان من بناته . كما وقعت في الأسر إحدى بنات أحمد جلاير ،وكان بايزيد قد خطبها لابنه مصطفى .(٣) وفي الوقت الذي كانت فيه قوات محمد سلطان تحرق بورصة وتنهبها ،كانت قوات مساعده أبي بكر تغذ السير إلى ازنيق في إثر سليمان . ويقول يزدي إن سواحل تلك المنطقة التي عبر منها سليمان جلبي إلى الروم ايلي (ويدعوها اسريقة) قد سالت فيها دماء الأعداء أنهاراً . وبعد نهب ازنيق عادت قوات محمد سلطان وأبي بكر إلى كوتاهية ،حيث تمّ عقد قران أبي بكر في معسكر تيمور على إحدى بنات بايزيد .(٤)

حملة سلطان حسين نحو الجنوب

وأما القوات التي انطلقت نحو الجنوب فكانت بقيادة حفيدين آخرين هما حسين سلطان واسكندر بن عمر شيخ . واجتاحت هذه القوات مناطق آق شهر وقونية وآيدين ، وكانت ترسل ما تحصل عليه من غنائم ومن يقع في أيديها من أسرى ،قافلة بعد قافلة ، إلى معسكر تيمور بالقرب من كوتاهية . وكان من بين من أسر في تلك النواحي ،زوجة بايزيد الصربية وتدعى "دسبينة" شقيقة ملك الصرب . وأسر معها ابنها . فأرسلت إلى بايزيد الذي كان لايزال أسيراً عند تيمور في كوتاهية . ولكن تيمور أجبرها على اعتناق الإسلام(٥)!

تيمور وأبناء بايزيد

وأرسل الفاتح التركي إلى سليمان بن بايزيد الذي استقر في حكم الروم ايلي ، يطالبه بدفع ما ترتب عليه من أموال باعتباره تابعاً له . وحضر سليمان إلى معسكر تيمور محملاً بالهدايا ،وقدم له الخضوع والطاعة ،ورجاه أن يعفو عن والده ،وأن يعامله معاملة حسنة. وسلم الفاتح التركي لسليمان كتاباً بتوليته على بلاد الروم ايلي .(٦) وتفرق بقية أبناء بايزيد عقب معركة انقرة ،فاعتصم محمد بعد فشل محاولته لتخليص والده من الأسر ،في إحدى القلاع الجبلية في "أماسية" (شمال شرق الاناضول) ،وانقطعت أخبار مصطفى في إثر المعركة .(٧)

(١) : يزدي: ج ٢ص ٢٢٥ ورشاد : ص ٢١٠ (٢) Terfer : op. cit. P.21; والمقريزي: السلوك : ج ٣ق ٢ ص ١٠٩٢ وابن غريشاه : ص ١٣٣ والقرماني : ص ٢٩١ ورشاد : ص ٢١١

(٣) : يزدي: ج ٢ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ . (٤) : يزدي : ج ٢ص ٢٢٥ و ٢٢٧ .

(٥) : يزدي : ج ٢ص ٢٢٨ وكامل باشا : ص ٢ م.وقد يكون ما ذكره ابن عربشاه أن تيمور في أحد مجالس الانس التي كان يحضرها بايزيد ،لما طاف السقاة على الحاضرين وجد الاسير من بين السقاة عدداً من جواريه وزوجاته ،قد حدث عند إحضار زوجة السلطان العثماني الصربية إليه وأحب تيمور أن يفاجئه بهذه العملية (انظر ابن عربشاه : ص ١٢٣) .

(٦) : يزدي : ج ٢ص ٢٤٢ وكامل باشا : ص ٥٣ (٧) : ابن عربشاه : ص ١٣٢ ورشاد : ص ٢١٠

وأما عيسى فقد احتمى أيضاً في إحدى القلاع إلى أن دبّ الخلاف ـ فيما بعد ـ بينه وبين شقيقه الأكبر سليمان .[1] وأطلق تيمور سراح موسى بعد وفاة والده بايزيد ، وكان قد أسر معه . وفوض إليه حكم ما تبقى من الدولة العثمانية في بورصة وما حولها .[2] وساعدت هذه السياسة التي اتبعها تيمور مع أبناء السلطان بايزيد ، على تحقيق ما كان يهدف إليه من تمزيق الدولة ، عن طريق إثارة الخلافات بين أبناء السلطان العثماني .[3]

إحياء الإمارات التركية

وسعى تيمور في الوقت نفسه لإعادة الإمارات التركية التي كان العثمانيون قد قضوا على استقلالها ، إلى الوجود . وأطلق من سجون العثمانيين من كان فيها من أمراء وحكام تلك الإمارات ، وأعادهم إلى مناصبهم السابقة . وكان بعض هؤلاء الأمراء كأبناء علاء الدين بن قرمان قد قضوا في السجن مدة اثنتي عشرة سنة .[4] وهكذا كان الحال مع أمراء منتشا وآيدين وكرميان وصاروخان . وثبّت تيمور تابعه المخلص طهارتن على حكم ارزنجان ، وزاد في أملاكه . وفعل مثل ذلك مع تابعه الآخر عثمان قرايلك ، حاكم ديار بكر وزعيم تركمان الغنمة البيضاء (آق قيونلو) .[5] وتقبل خضوع حاكم "سينوب" الأمير مبارز الدين اسفنديار" الذي كان قد رفض الخضوع لسلطة بايزيد ، ثم قدم على معسكر تيمور محملاً بالهدايا ، فثبته تيمور في حكم إمارته التي كانت تضم "قسطموني" و "سمسون" بالاضافة إلى سينوب .[6] ويفهم من أقوال ابن عربشاه والقرماني أن تيمور حاول أن تكون سلطته في بلاد الروم على درجة أقوى مما كانت عليه الحال في بلاد القبجاق . فكان يطلب من الحكام الذين أقامهم أن يضربوا السكة باسم سلطانه محمود بن سيورغتمش وباسمه ، وأن تكون الخطبة لهما أيضاً .[7] ويذكر يزدي أن القواد ـ أحفاد تيمور ـ الذين كانوا يزحفون في طول البلاد وعرضها ، كانوا يقيمون على كل موضع يمرون به حاكماً لإدارة المنطقة والاهتمام بمصالح الأهالي فيها .[8]

مسيرة تيمور في الاناضول

وتقدم تيمور من معسكره في كوتاهية بعد أن مكث هناك شهراً ، ليتنقل في ربوع الأناضول : فأمضى مدة استجمام في "تنغوزلغ" ، وكان يرافقه السلطان الأسير بايزيد (قبل وفاته) ، وسار بعد ذلك إلى "كرل حصار" و "آيا سليق" ، وانطلق من هناك للاغارة على "ازمير" التي كانت تحت حكم "فرسان القديس يوحنا" .[9] ولما كان تيمور في طريقه إلى آق شهر عائداً من غزو أزمير ، علم بإصابة حفيده الأثير عنده محمد سلطان بن محمد جهانگير (أكبر أبناء تيمور) ، بمرض خطير لم ينفع فيه طب ولا دواء . وكانت إصابته كما يقول يزدي بمرض الصرع . ولم يلبث أن اشتد عليه المرض وتوفي في ١٧ شعبان ٨٠٥ هـ (١٢ آذار ١٤٠٣ م)

(١) : ابن عربشاه : ص ١٣٢   (٢) : يزدي : يزدي : ج ٢ ص ٣٥٠

(٣) : Grousset: op. cit, P. 533 وقد استطاع محمد ـ فيما بعد بعد سلسلة من الحروب خاضها مع اخويه سليمان وموسى ، وامتدت إلى عام ١٤١٣ م ان يستأثر بالحكم بمفرده . انظر بروكلمان : ج ٣ ص ٣٣ ـ ٣٥   (٤) : يزدي : ج ٢ ص ٣٢٨ و ٣٢٤ وابن عربشاه : ص ١٢٤ والعسقلاني : ج ٢ ص ٢٦٩ وابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٦٩ والقرماني : ص ٢٩٣ وكامل باشا : ص ٥٣ ورشاد : ص ٤١١   (٥) : ابن عربشاه : ص ١٤٠

(٦) : ابن عربشاه : ص ١٢٤ ـ ١٢٥ والعسقلاني ج ١ ص ٢٦٦

(٧) : ابن عربشاه : ص ١٢٥ والقرماني : ص ٢٩١   (٨) : يزدي : ج ٢ ص ٣٢٧

(٩) : يزدي : ج ٢ ص ٣٢٦ ـ ٣٣٥ وانظر الفصل القادم .

بعد وفاة بايزيد بثلاثة أيام . وكان في التاسعة والعشرين من العمر . فأمر تيمور بحمل جثته إلى سمرقند .[١]

هذا وكان تواتر اندفاع الغزوات المغولية نحو آسية الصغرى في عهد الدولة الايلخانية قد نجم عنه استقرار أعداد من هؤلاء التتر (المغول) في تلك البلاد .[٢] وكانت المنطقة المحيطة بسيواس أكثر المناطق التي حل بها المغول ، حيث قامت لهم في المدينة حكومة أسسها واحد منهم يدعى "ارتنا بن جعفر". وقد انتقل الحكم بعد وفاته إلى أحد أتباعه ، هو القاضي برهان الدين أحمد . ولما أ[...]ق بايزيد المدينة بحكمه عام ٨٠١ هـ بعد مقتل برهان الدين على يد أحد أتباع تيمور .[٣] عمد إلى إدخال أعداد كبيرة من المغول النازلين في تلك المنطقة في جيوشه .[٤] ولكن الفاتح التركي استطاع أن يؤلبهم على بايزيد قبيل معركة انقرة، فانضموا إليه خلال القتال .[٥] وكان السلطان العثماني بعد وقوعه في الأسر قد أشار على تيمور في جملة النصائح التي قدمها إليه أن يحذر المغول وأن لا يأمن لهم .[٦] ولذلك قام الفاتح التركي وهو في طريق عودته من بلاد الروم ، وأثناء مروره بسيواس ، بجمعهم بحجة الانعام عليهم ، لما قدموه من خدمات . ولكنه أمر باعتقالهم .[٧] ويتابع العسقلاني القول إن تيمورا استطاع بهذه الحيلة أن يقتل غالبية هؤلاء .[٨] وأما يزدي فيشير إلى أن تيمور كان يرغب في نقلهم إلى حدود ماوراء النهر مع بلاد الجتا ، بحجة أن تلك المناطق كانت مناطقهم الأصلية التي نشأ بها آباؤهم وأجدادهم ، بعد أن خضعت بلاد الروم لسلطة الفاتح التركي ، ولم يعد هنالك مبرر لبقائهم في تلك البلاد . واستطاع الفاتح التركي إقناع هؤلاء بالانتقال مع نسائهم وأطفالهم إلى مناطقهم الأولى في أواسط آسية عن طيب خاطر .[٩] ويتابع العسقلاني حديثه فيقول : إن من لم يُقتل من التتر أُجبر على العودة مع جيش تيمور إلى سمرقند وهنالك تم تفريقهم في بلاده "ولم يجعل لهم رأساً فتمزقوا ".[١٠]

وأخذت جحافل تيمور بالجلاء عن بلاد الروم، فمرت في طريق انسحابها بقيصرية ، وسيواس وارزنجان وأرضروم .[١١] واتجه تيمور من هناك للقيام باجتياح بلاد الكرج للمرة السابعة .

ويقدر القرماني الذي كتب عن أعمال تيمور في بلاد الروم ، بعد وقوعها بمائتي عام (توفي عام ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م) ولكنه انهى مؤلفه عام ١٠٠٨ هـ / ١٥٩٩ م) ، أنه لم يبق من سكان تلك البلاد بعد انسحاب القوات الغازية إلا ربعهم أو ثلثهم .[١٢] وعلى الرغم من المبالغة التي تنطوي عليها عبارة القرماني هذه إلا أنها تصور مقدار ما لحق ببلاد الروم وسكانها من الأذى خلال اجتياح تيمور وقواته لهذه البلاد .

(١) : يزدي : ج ٢ ص ٣٤٩ و ٣٥١ و ٣٥٦ (٢) : يزدي : ج ٢ ص ٣٥٧ (٣) : انظر الفصل السادس من هذا الباب . (٤) : يزدي : ج ٢ ص ٣٥٨ وابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٦٨
(٥) : انظر ما سبق من هذا الفصل (٦) : ابن عربشاه : ص ١٤٢ والعسقلاني : ج ٢ ص ٢٦٨ ، والقرماني : ص ٢٩١ (٧) : ابن عربشاه : ص ١٤١ — ١٤٢ (٨) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٦٩
(٩) : يزدي : ج ٢ ص ٣٥٨ (١٠) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٩٨ حوادث عام ٨٠٧ هـ .
(١١) : يزدي : ج ٢ ص ٣٦٠ — ٣٦١ (١٢) : القرماني : ص ٢٩١

إجبار المغ... من بلاد ال...

اتجاه تيمور ... بلاد الكـ...

هذا وكان بعض الدول الأوربية في ذلك الوقت ، يرى أن من مصلحته إبقاء علاقات طيبة مع الدول المعادية لتيمور . فقد حدث بحكم التنافس التجاري بين جنوة والبندقية أن مال الجنويون إلى توطيد علاقاتهم بالفاتح التركي مما اضطر منافسيهم البنادقة إلى تفضيل التعامل مع المماليك أعداء تيمور .[١] وهكذا كان حال دولة قبرص الصليبية التي اشتهرت بشدة عدائها للدولة المملوكية ، إلا أنها فضلت أن تعرض مساعداتها العسكرية والبحرية على المماليك ، عندما كانت جحافل الفاتح التركي تجتاح بلاد الشام ، وتتقدم من حلب إلى دمشق ،[٢] وذلك بسبب ميل جنوة منافستها في المجال التجاري إلى تيمور ، وعلى ذلك فقد اتصفت علاقات تيمور بأوربة بأنها علاقات عابرة ،[٣] أملتها ظروف العداء المشترك للأتراك العثمانيين والمماليك ، كما أملتها رغبة بعض الدول الأوربية بتسهيل انتقال التجارة بين الشرق والغرب ، عبر الطريق القادم من الصين وقلب آسية والمتجه إلى أوربة ، هذا الطريق الذي كان قسم كبير منه يمر في الأراضي الخاضعة لسلطة تيمور .[٤]

مع البابوية

ولم يكن للأغراض التبشيرية شأن يذكر ، على الرغم من رغبة الكنيسة — بسبب الظروف التي كانت تمر بها — في قصر جهودها على هذه الأغراض كبديل عن الحروب الصليبية .[٥] ولم تقم الكنيسة الكاثوليكية في تلك الآونة بجهد يذكر ، إلا ما كان من نقل اسقف "نخجوان" (وهي نخشيڤان الحالية) جان الثالث الى رئاسة أسقفية السلطانية عام ١٣٩٩م (٧٨٠ هـ) . ويقول دولافيل لورول إنه لم يرد في رسالة التقليد البابوية التي صدرت للأسقف جان الثالث الانكليزي الأصل ، أي شيء يبرر هذا النقل .[٦] ومما لا شك فيه أن اعتبار أسقفية السلطانية المركز الرئيسي للتبشير في الشرق ، خلال الربع الأخير للقرن الرابع عشر ، في عهد أسقفها الجديد جان الثالث[٧] ، إنما يستند إلى النشاط التبشيري الذي كانت هذه المدينة مركزاً له ، خلال العهد الايلخاني ، في الحقبة الأولى من هذا القرن ، ونتيجة الاتصالات التي تمت بين السلطان أبي سعيد الايلخاني (١٣١٦—١٣٣٦م / ٧١٦ — ٧٣٦ هـ) والبابا "يوحنا الثاني والعشرين" ١٣١٦ — ١٣٣٤م / ٧١٦—٧٣٤ هـ) .[٨]

مع فرنسا

وكانت فرنسا أسبق الدول الاوربية إلى الاتصال بتيمور . وكانت دوافعها تكمن في مخاوفها من ازدياد ضغط الأتراك العثمانيين على الدول المسيحية في البلقان ، في إثر الهزيمة التي حلت بالقوات الأوربية في معركة نيكوبوليس على نهر الدانوب عام ١٣٩٦م (٧٩٨هـ) . وكان بين القوات التي هزمها السلطان العثماني بايزيد في تلك المعركة ، فرسان فرنسيون أرسلهم ملك فرنسا شارل السادس (١٣٨٠ — ١٤٢٢م / ٧٨٢—٨٢٧ هـ) لشد أزر ملك المجر المدعو "سيجيسموند" .[٩] وكذلك فإنه منذ أن ألحق الملك الفرنسي جمهورية جنوة الإيطالية بأملاكه في العام نفسه (١٣٩٦م / ٧٩٨هـ) ، أعتبر الجنويون منذ ذلك التاريخ

(١) : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٦٣ ج ٢ ص ١٢٠٥

(٢) : ابن تغري بردي : ج ١٢ ص ٢٣٤ .

(٣) : Cahun: op. cit. P.961 et

(٤) : Lamb : op. cit. P. 160 — Brehier : op. cit. P. 474

(٥) : Bréhier: Les Croisades P.279

(٦) : Delaville Le Roulx: op. cit. P.391 M 1

(٧) : Delaville Le Roulx: ibid

(٨) : Bréhier: ibid., Loenertz : La Société des Frères Peregrinants P. 138

(٩) : Inalcik: op. cit. P. 11??

مواطنون فرنسيون ، واعتبر الملك الفرنسي نفسه مسؤولاً عن حماية أملاك رعاياه الجنويين ومصالحهم في الشرق .(١)

ويرى كاهون أن الاتصالات والمراسلات التي تمت بين شارل السادس وتيمور ، ليست إلا استمراراً للسياسة التي سارت عليها فرنسا خلال الحروب الصليبية مع المغول والايلخانيين، في السعي لإقامة تحالف ضد المماليك .(٢) ولكن هدف السياسة الفرنسية من الاتصال بالفاتح التركي كان مزدوجاً ، وهو إقامة تحالف ضد المماليك والأتراك العثمانيين . ولذلك أرسل الملك الفرنسي عقب انتصار بايزيد في معركة نيكوبوليس، سفارة برئاسة أحد الرهبان الدومينيك يدعى "فرانسوا ايزاترو" (Francois Isathru)، في محاولة لإقامة تحالف بين الجانبين، وليطلع تيمور على مشاريع شارل السادس فيما يتعلق بالسياسة الفرنسية في الشرق .(٣) وقابل المبعوث الفرنسي الفاتح التركي في منتجع قراباغ عام ١٤٠١م (٨٠٤ هـ) . وكان تيمور يستجم في هذا المنتجع بعد عودته من حملته على بلاد الشام والعراق .(٤) ويستعد للاغارة على أملاك العثمانيين الاناضول .

وانتهز تيمور مناسبة انتصاره في أنقرة، ليرد على بعثة الملك الفرنسي . وكانت المذكرات قد أشارت إلى فرنسا ، على أنها من الدول التي يرغب الفاتح التركي في أن تكون له معها علاقات طيبة .(٥) وحمل رسالة تيمور إلى شارل السادس اسقف السلطانية "جان الثالث دوجاييفونتين = Jean III De Gaillefont aine" الذي حمل معه رسائل أخرى إلى عدد من الملوك الأوربيين . ومر الأسقف وهو في طريقه إلى فرنسا التي بلغها في آب ١٤٠٢م(٦) (المحرم ٨٠٥ هـ) - بعد معركة انقرة بشهر واحد - على البندقية وجنوة . وأعلم تيمور في الرسالة التي حملها مبعوثه الملك الفرنسي بوصول بعثة الأسقف فرانسوا ايزاترو . وكان يرافق تلك البعثة الفرنسية بعض التجار الفرنسيين : ولذلك أكد تيمور بأن هؤلاء التجار قد استقبلوا بكل احترام ، لأن العالم يزدهر بالتجارة . ودعى تيمور الملك الفرنسي للعمل على تشجيع التجارة وتنشيط العلاقات بين الدولتين .(٧) ومثّل الاسقف جان الثالث الفاتح التركي في المفاوضات التي دارت في باريز ، لعقد معاهدة تجارية على أساس الحرية المتبادلة والمعاملة بالمثل ، وفق الأسس التي أشار إليها تيمور في رسالته .(٨) ولما انجز الاسقف مهمته لدى البلاط الفرنسي ، انتقل إلى لندن لتسليم رسالة مماثلة . ولما آب إلى الشرق حمل معه بعض الهدايا التي بعث بها الملك الفرنسي إلى تيمور .

(١) Bréhier: Le Monde bizantin. P. 474 , Delaville Le Roulx: Cahun: op. cit. P.960-961 : (٢) op. cit. P. 389 - 390

(٣) Richard : La Papauté et les Mission d'Oeirnt au Moyen Age P. 193,255, Cahun: op. cit. P.691, Delaville Le Roulx : op. cit. P. 389

(٤) Prawdin: op.cit. 247 et Lamb: op. cit. P. 247

(٥) Langles: op. cit. P. 39

(٦) Delaville Le Roulx : op. cit, P. 391

(٧) Bouvat : op. cit. P. 39, Cahun : op. cit. P. 961

(٨) Delaville Le Roulx: ibid. وهذا وزعم برافدان ان تيمور تعهد للملك الفرنسي أن يرسل له رأس بايزيد ولكن ذلك لا يتفق مع كون الرسالة قد ارسلت عقب نصر أنقرة وأسر بايزيد انظر : Prawdin: op. cit. P. 247

حمل جان الثالث لتيمور رد الملك الفرنسي ، وهو رسالة مؤرخة في ١٥ حزيران ١٤٠٣م (٢٣ ذي القعدة ٨٠٥ هـ) . وقد تضمنت الرسالة الجديدة آراء حول المعاهدة التجارية المقترح عقدها ومشروعاً لمعاهدة أخرى للتحالف بين الدولتين .(١) وقد اتصفت رسالة الملك الفرنسي برقة العبارة وعذوبتها ، وكانت تفيض بالود والمحبة ، وجاء قول شارل السادس فيها يخاطب تيمور : "الأمير الكثير الصفاء الذي لا يقهر ، إنه ليس ضد القانون ولا ضد الدين ولا ضد الحق ، أن يكون حكام زمنيون متباعدين بالعقائد واللغات ، ولكنهم يتحدون برباط الإلفة والصداقة ." ثم هنأ الملك الفرنسي تيمور على النصر الذي منحه الله على عدوه بايزيد وشكره على حسن استقباله التجار الفرنسيين . وأكد له أن المعاملة بالمثل سوف يلقاها أيضاً التجار الذين سوف يرسلهم تيمور إلى فرانسا .(٢) ويعلق دولافيل لورول على رسالة شارل السادس بأن الهدف منها ليس إقامة علاقات دبلوماسية فقط مع الدولة التيمورية، وإنما تعكس أيضاً اهتمام الملك الفرنسي ورغبته بالمحافظة على المصالح الفرنسية في الشرق .(٣)

مع انكلترة

ولما وصل الأسقف جان الثالث إلى انكلترة قادماً من باريز ، عام ١٤٠٢م (٨٠٥هـ)، سلَّم الملك الانكليزي هنري الرابع (١٣٩٩ – ١٤١٣م) رسالة أخرى من تيمور ، عرض فيها الفاتح التركي أن يتمتع التجار الانكليز في بلاده بالحرية التجارية .(٤) ورد هنري الرابع على تيمور برسالة حملها معه جان الثالث عندما عاد إلى الشرق . وبعد أن قدم الملك الانكليزي تهانيه – كرجل نبيل – لتيمور على انتصاره في أنقرة على السلطان العثماني ، اقترح عليه مخططاً للمحافظة على حرية التبادل التجاري بين البلدين .(٥) ويقول دولافيل لورول إن مفاوضات جان الثالث في لندن قد انتهت إلى عقد معاهدة تجارية ، باسم تيمور مع هنري الرابع . ويَعتقد أن رسالة الملك الانكليزي التي كانت مغفلة التاريخ ، قد حررت في تاريخ لاحق وقريب من تحرير رسالة الملك الفرنسي ، في ١٥ حزيران ١٤٠٣م(٦) (٢٣ ذي القعدة ٨٠٥ هـ) . وكان من أبرز نتائج جولة الاسقف جان الثالث في الدول الاوربية أن لفتت أنظار الحكام الأوربيين إلى الفاتح التركي، وإلى أعماله التي قام بها في الشرق .(٧)

مع اسبانيا

وكانت الدويلات الاسبانية في ذلك التاريخ تعمل على انتزاع ما بقي في أيدي العرب المسلمين من نفوذ وأراضٍ في الجنوب الشرقي من البلاد . وقد ساهمت مملكة قشتالة واراغون التي كانت تمتد على الربع الشمالي الغربي من شبه جزيرة ايبرية ، أكثر من غيرها من الدويلات الاسبانية الأخرى في قتال العرب. وأكسبها صراعها معهم نوعاً من العداء الشديد المشوب بالغطرسة ، دفع ملوكها للبحث عن حليف لهم ضد العرب والمسلمين فيما وراء حدود بلادهم ، والعمل على وضع سياسة عامة معادية للعرب والمسلمين أينما وجدوا. واتصف ملوك الدويلات الاسبانية بشدة الحماس للتحالف مع المغول والايلخانيين خلال القرن

Cahun: op. cit. P. 961: (٢) Delaville Le Roulx:op.cit.P.389(١)
Sykes:op.cit.T.II.P.130 (٤) Delaville Le Roulx:op.cit.P.390(٣)
Richard:ibid., Lamb:op.cit. P. 243 et Sykes: ibid. :(٥)
Delaville Le Roulx : [illegible] cit. P. 391 :(٦)
Richard: ibid. (٧)

الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر[1] بالمقارنة مع ما كان عليه الحال في الدول الاوربية الأخرى كفرانسا وانكلترة . وبدا من المفيد لهنري الثالث ملك قشتالة وارغون (١٣٧٩ـ ١٤٠٦م/ ٧٨١ ـ ٨٠٩ هـ) -الذي بلغ فيه العداء للمسلمين مبلغاً جعله يخاف، كما يقول لانكلـــه من كل من يحمل اسم مسلم -[2]- أن يعمل على وضع سياسة عامة وثابتة معادية للمسلمين يسعى لتنفيذها . وظهر له أن من ضرورات هذه السياسة ، جمع المعلومات الموثوقة عن بـــلاد المسلمين الأخرى تمهيداً لمد النفوذ الاسباني إليها ، ثم تقوية الروابط وعقد معاهدات التحالف مع الدول المعادية للأتراك العثمانيين والدول الإسلامية الاخرى .[3]

البعثة الاسبانية الأولـــى .

ولذلك وتحقيقاً لهذه الأهداف فقد أوفد هانري الثالث في صيف عام ١٤٠٢ ، مبعوثين إلى الشرق هما "بيلايو د و سوتومايور" (Pelayo de Sotomayor) وفرناند و د و بالازولوس" (Fernando de Palazuelos) ، للتعرف على الطرق المؤدية إلى الشرق ، ولوضع تقرير عن قوة الأتراك العثمانيين . ويظهر أن المبعوثين الاسبانيين قد انتقلا من اسبانيا إلى آسية الصغرى بحراً عبر المتوسط وبحر ايجة . وتاها مدة من الزمن خــــلال سيرهما في بلاد الاناضول، ولكنهما تمكنا من الوصول إلى معسكر تيمور قبيل معركة أنقرة .[4] واستقبل الفاتح التركي المبعوثين الاسبانيين استقبالا حسناً، وسمح لهما بحضور المعركة وأذن لهما بالانصراف عقب انتهاء القتال مباشرة .[5]

بعثة تيمور

رافق الموفدين الاسبانيين في عودتهما إلى بلادهما ، مبعوث من قبل تيمور يحمل بعض الهدايا ورسالة تعريف به. ورافق المبعوث التيموري أيضاً عدد من الأميرات الاسبانيات كنّ أسيرات عند السلطان العثماني بايزيد . وسلك الجميع الطريق السابق نفسه ، في العودة إلى اسبانيا .[6] وليس لدينا الآن معلومات عما قام به المبعوث التيموري في بلاط ملك قشتالة وارغون .

البعثة الثانية

وقام هنري الثالث فأعاد المبعوث التيموري مع ثلاثة موفدين اسبان لمرافقته. وكانت البعثة الاسبانية الثانية أهم بعثة تصل من أوربة إلى بلاط تيمور . وكانت برئاسة حاجـــب الملك ويدعى "غوانزاليس كلافيجو" (Gonzalis Clavijo) ، وعضوية كل من الراهـــب

---

(١) : أرسل أحد ملوك اراغون في اسبانيا في مطلع القرن الرابع عشر هو جيمس الثاني إلـــى السلطان الايلخاني غازان (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣م) رسالة عام ١٤٠٠م، اعرب له فيها عـــن استعداده لأن يرسل إليه قوات عسكرية لمساعدة غازان على اجتياح الشام ، عندما غـــزا السلطان الايلخاني هذه البلاد في العام نفسه . وذكر جيمس في رسالته أنه قد ســـمح لمن يقيم من رعاياه في تلك البلاد أن يلتحق بجيوش الايلخانيين ويقاتل معهم . وفي مقابـــل ذلك يُعطى الملك الاسباني خمس الأراضي المقدسة وغيرها من الاراضي التي يتم انتزاعها من المماليك في بلاد الشام . انظر: D'Ohsson:op.cit.T.III P. 322 - 323

(٢) : Langlès:Vie de Timur.P.95Ml

(٣) : Sykes:ibid.,Le Strange: op.cit.Introd.P.15

(٤) : Le Strange:ibid., Lamb: op. cit. P. 235

(٥) : Lamb:ibid., Le Strange: ibid, Langlès : op. cit. P. 95

ويقول لامب إن تيمور منح المبعوثين الاسبانيين فتاتين مسيحيتين ، كانتا قد وقعتا في أسـر السلطان العثماني في السابق ، وكانت الفتاة الأولى وتدعى انجيلينا ، ابنة كونت هونغاريـــا (ولعله ملك المجر سيجيسموند). وكانت ذات شهرة بجمالها . وأما الثانية فكانت فتاة يونانية تدعى ماري . انظر: Lamb: op. cit. P. 235-236

Sykes : ibid.,Le Strange: op. cit.Introd.P.5,Langlès:ibid.

"الفونسو باز" (Alphonsso Paez) والضابط في الحرس الملكي "غوميز د و سالازار" (Gomez de Salazar) ويرافقهم بعض الخدم . ويرجع الفضل في وفرة المعلومات عن هـذه السفارة وعن ما شاهده أعضاؤها في طريقهم إلى سمرقند ، وإقامتهم في ضيافة تيمور في بلاطه في العاصمة ، ثم عودتهم إلى اسبانيا، إلى المؤلف الهام الذي وضعه رئيس البعثة كلافيجو ، عن رحلته التي استغرقت ثلاث سنوات بين ١٤٠٣ـ ١٤٠٦م (٨٠٥ ـ ٨٠٨ هـ) .[١]

انطلق كلافيجو وصحبه من ميناء "سانتاماريا" (قادس) على المحيط الأطلسي في جنوب أسبانيا ، في أيار ١٤٠٣م (ذو القعدة ٨٠٥ هـ) .[٢] وقضت البعثة في الطريق حتى بلغت سمرقند خمسة عشر شهراً ، بسبب التأخير الذي تعرضت له خلال سيرها . فاضطرت إلى التوقف في القسطنطينية التي بلغتها عن طريق البحر ، مدة خمسة أشهر ، بسبب تعرض السفينة التي كانت تحمل البعثة لعاصفة بحرية أشرفت خلالها على الغرق . وقابل كلافيجو قبل أن يتابع السفر في تشرين الثاني من ذلك العام (١٤٠٣م/ ٨٠٦ هـ جمادى الأولى) الامبراطور البيزنطي في قصره . وكانت مقابلة رسمية . واتجه المبعوث الاسباني عبر البحر الأسود إلى ميناء طرابزون ، وتقدم من هناك إلى قراباغ ، معتقداً بأن تيمور لا يزال يقيم في ذلك المنتجع . ولما لم يجد الفاتح التركي هناك ، تابع السير مع رفاقه عبر اذربيجان باتجاه ماوراء النهر . والتقت البعثة الاسبانية في مدينة "خوي" بالبعثة المملوكية التي كانت تقصد البلاط التيموري في سمرقند أيضاً . وترافقت البعثتان فيما تبقى من الطريق . ومرتا على تبريز والسلطانية ونيسابور ، حيث توفي غوميز د وسالازار أحد أفراد البعثة الاسبانية . وتقدم الجميع إلى مدينة مرو. وعبروا نهر "المرغب" ثم تابعوا السير شمالاً حتى عبروا نهر جيحون .[٣]

ولما بلغت البعثة الاسبانية سمرقند ، اضطرت إلى الانتظار ثمانية أيام ،[٤] بسبب إجراءات الاتيكيت على حد قول سايكس ،[٥] حتى سُمح لها المثول أمام الفاتح التركي .[٦] ويتحدث كلافيجو في كتابه عن المقابلة فيقول إن أفراد الحاشية التيمورية قد أعادوا إليه الرسالة التي كان يحملها إلى تيمور ليقوم بتسليمها إليه بيده . وطُلب من السفير الاسباني وممن كان معه عندما دخلوا على تيمور أن يجثوا على ركبهم . وظلوا كذلك حتى طلب منهم تيمور نفسه النهوض . وسمح لهم بالجلوس في مكان قريب من مجلسه . ومما لفت نظر كلافيجو أن تيمور لم يقدم لأعضاء الوفد يده لتقبيلها ، كما كان يتوقع وكما هي الحال في أوربا . وقد فهم فيما بعد أن تيمور لم يعتد هذه العادة . وكان الشائع في البلاط التيموري أن عادة تقبيل اليد هي عمل غير لائق . وابتدر تيمور أعضاء البعثة بالسؤال عن صحة ملك اسبانيا : "كيف حال صحة ابني ملكك . هل صحته جيدة " وتابع المبعوث الاسباني وصف المقابلة وما تم فيها

(١) : وضع كلافيجو مؤلفه بالاسبانية " Embajad a Tmerlan " (سفارة إلى تيمور) وقد طبع في مدريد عام ١٩٤٣ . ولكن الترجمة الانكليزية لمؤلف كلافيجو ظهرت قبل وقت طويل من طبع المؤلف بالاسبانية . وقام بالترجمة الانكليزية عام ١٩٢٨م "لوسترينج (Le Strange)" ونشرت في لندن بالعنوان التالي :

ed. Guy Le Strange: Narrative of The Spanish Embassy to The Court of Timour Samarkand in The Year 1403-1406

:(٢) Lamb : op. cit. P. 236 ٣) Le Strange: op. cit. Int

٤) P.P. 6-12 ؛ Le Strange: op. cit

:(٥) Sykes: op.cit. II P. 132 ٦) Le Strange; op. cit

فقال إنه قد أجاب الفاتح التركي جواباً مناسبا ،ثم تقدم ليسلمه الرسالة التي كان يحملها معه . وأشار إلى أن تيمور استمع بانتباه ،إلى كل ماذكره المبعوث الاسباني أمامه . ثم استدار إلى الأمراء الذين كانوا يقفون إلى جواره . وشرع يحدثهم بثقة واعتزاز : "انظروا إلى هؤلاء السفراء الذين أرسلهم ابني ملك اسبانيا . إنه في الواقع أعظم من كل ملوك الفرنجة. وهو يحكم في ذلك المكان البعيد من الأرض . وشعبه أمة عظيمة ومشهورة. وسوف أرسل رسالة طيبة إلى ابني ملك اسبانيا . في الواقع إنه كاف أن يرسل إلي سفراءه ومعهم رسالة فقط دون تقدمات أو عروض أو هدايا، إنه كاف بالنسبة لي أن أعرف أنه كان ولا يزال حسن الصحة . وأنا لا أطلب منه أية منح ".(1)

ويشير يزدي إلى بعثة كلافيجو بشكل عابر ،فيقول إنه وصلت في عام ٨٠٧هـ إلى سمرقند سفارة من حاكم مملكة فرنجي . وقد أحضرت السفارة معها العديد من الهدايا اللطيفة ،من بينها بعض الأقمشة المزينة بالرسوم .(2) وأضاف لانكله أن الوفد الاسباني كان يحمل معه أيضاً مجموعة من الصقور التي كانت اسبانيا مشهورة بها .(3)

وتمتع كلافيجو ومرافقوه بكرم الضيافة خلال الأشهر الثلاثة التي قضوها في سمرقند بين إيلول ـ تشرين الثاني من عام ١٤٠٤م (ربيع الأول ـ جمادى الأولى ٨٠٧ هـ) . وكانوا من المدعوين لحضور الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة زواج أحفاد تيمور في سمرقند ،خلال إقامتهم .(4) ويشير تعليق يزدي على حضور الوفد الاسباني لإحدى الولائم الكبيرة التي أقيمت بهذه المناسبة ـ وقد جاء في هذا التعليق قوله : "حتى الأشخاص الحقراء فقد عبروا إلى هذا البحر "ـ(5) إلى موقف التعالي الذى قوبلت به البعثة في البلاط التيموري .

وحظي الوفد الاسباني بمقابلة تيمور مرات أخرى ،ثم امتنع الفاتح التركي عن مقابلته وعن مقابلة غيره من وفود الدول الأخرى . ويعلل براون ذلك باشتداد المرض في تلك الآونة على تيمور، فاضطر إلى ملازمة خيمته الخاصة .(6) ولذلك فقد طلب الأمراء من أعضاء الحاشية المحيطة بتيمور إلى أعضاء الوفد الاسباني الرحيل . وامتنع كلافيجو في أول الأمر وأصر على أن يحصل على إذن بذلك من تيمور نفسه . ومكث مع أعضاء الوفد الاسباني ثلاثة أيام في البستان الذى أقيم فيه مخيم تيمور . ولكنه لما ملّ الانتظار ،اضطر إلى الإذعان وغادر الوفد سمرقند في ٢١ تشرين الثاني ١٤٠٤م (٥ جمادى الأولى ٨٠٤ هـ) .(7) ووصل إلى تبريز في آخر شباط من العام التالي . ودعى حاكم اذربيجان عمر بن ميرانشاه الوفد الاسباني لزيارته حيث كان يقيم في مشتى قراباغ . ولكن أنباء وفاة تيمور التي كانت في ١٨ شباط من ذلك العام (١٤٠٥م ١٦ شعبان ٨٠٧ هـ) ،والتي وصلت إلى ايران بُعيد وصول الوفد الاسباني إلى تبريز ،قد أوقعت البلاد في اضطراب كبير، وشبت الحروب بين أولاد تيمور وأحفاده على وراثة أملاكه . واضطر لذلك أعضاء الوفد الاسباني إلى البقاء في تبريز ستة أشهر أخرى . ولم يتمكنوا من مغادرة المدينة قبل ٢٧ آب (٢٩ صفر ٨٠٨ هـ) ،متجهين إلى طرابزون ، ومنها

(1): Le Strange: op. cit. P. 221 (2): يزدي: ج ٢ص ٤٢١
(3): Langlès: Vie de Timur. P.103 (4) Le Strange: op.cit. Introd. P.14-15
(5): يزدي: ج ٢ص ٤٢٢ (6) Browne: op.cit. T. III P.201
(7): Le Strange : ibid..

إلى القسطنطينية التي بلغوها في ٢٢ تشرين الأول (٢٦ ربيع الثاني هـ)، وتابعوا سفرهم من هناك إلى اسبانيا مارين بجنوة . ووصلوا إلى بلادهم في الأول من آذار عام ١٤٠٦م (٩ رمضان ٨٠٨ هـ) بعد غياب قارب ثلاث سنوات .(١)

ويقول لانكله إن النجاح الذي حققته بعثة كلافيجو ، شجع الملك هانري الثالث على التفكير بتوجيه بعثة جديدة إلى سمرقند أهم من البعثتين السابقتين .(٢) ويبدو أن وفاة تيمور وما حل بين أبنائه وأحفاده من نزاع ، قد حال دون سير هذه البعثة .

الاتصال مع جنوة

ومنذ أن نجحت جنوة عام ١٢٦١م (٦٥٩ هـ) بالقضاء على الامبراطورية اللاتينية، التي أقامتها الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية ، بمساعدة البندقية منافسة جنوة عام ١٢٠٤م (٦٠١ هـ)، وعودة الأباطرة البيزنطيين من أسرة باليولوغ إلى العرش . فقد ترتب على ذلك توسع كبير لنفوذ جنوة التجاري في أراضي الامبراطورية البيزنطية ، والمناطق الأخرى من البحر الأسود .(٣) فأضحى لهم في العاصمة البيزنطية حي تجاري خاص بهم هو حي "غالاتا" (Galata) ويعرف اليوم بحي غلطة) . وسيطروا بواسطة هذا الحي على كل الطرق التجارية التي تمر بالقسطنطينية . وأقاموا لأنفسهم مستعمرات تجارية ، منها مستعمرة "كافا" (Caffa) في سواحل القرم الشرقية ، ومركزا تجارياً في ميناء "بيرا" (Pera) اليوناني بالقرب من آثينا .(٤) وفرضوا على قبرص معاهدة تجارية قاسية .(٥) وعلى الرغم من أنه كان لمنافسيهم البنادقة مركز تجاري هام في شبه جزيرة القرم هو ميناء "تانا" (Tana)، فقد ظل النفوذ التجاري الأقوى في هذه المناطق للجنويين.(٦) وقد أشار كل من برا فدان وفروسية إلى أن هذا الميناء البندقي كان عند غارة تيمور عليه عام ١٣٩٦م (٧٩٨ هـ) تحت حكم الجنويين .(٧)

وقد دفع حرص الجنويين على مصالحهم التجارية الواسعة في المنطقة (منطقة البحر الأسود وفروعه) ، وظروف المنافسة مع البنادقة ، إلى الاتصال بالفاتح التركي . وكانوا يعتبرون مسألة توطيد العلاقات مع دولة تيمور أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لهم ، على الرغم من الضربة التي أنزلها تيمور بمينائي تانا وكافا عند غارته عليهما عام ١٣٩٦م (٧٩٨هـ) . وأراد تيمور من ناحيته أن يستغل قوة الأسطول الجنوي عندما كان يفكر في قتال بايزيد ، لمنع القوات العثمانية من عبور البوسفور من أملاك العثمانيين الأوربية ، لإمداد جيوشهم التي ستقف في وجه القوات المغيرة في آسية الصغرى .(٨)

وبدأ تيمور هذه الاتصالات عندما أرسل عام ١٤٠١م (٨٠٤ هـ)، وهو في قرابا غ

---

(١): Langlès: Vie de Timur P.102 M1 (٢) Browne : op.cit. T.III P.201

(٣): Diehl: Histoire de L'Empire Byzantin P. 260 - 261

(٤): Grousset et ses Compagnons : L'Asie Orientale P.584-585

(٥) Bouvat: op. cit. P. 37 et Saunders: op.cit. P. 164

(٦): Grousset et ses Compagnons : ibid.

(٧) Prawdin : op.cit. P.227, Grousset: L'Empire des Steppes P.521

(٨) Delaville Le Roulx : op. cit. P. 390 .

رسالة إلى السلطات الجنوية في مستعمرة بيرا ،حملها وفد جلب معه بعض الهدايا . وطلب تيمور في رسالته مساعدة الاسطول الجنوي في الحرب المقبلة التي ينوي القيام بها ضد الأتراك العثمانيين . وتحرك على إثر ذلك وفد جنوي بيزنطي إلى قراباغ في مهمة سرية .(١) وفي اللقاء الذي تمّ بين تيمور والوفد الجنوي البيزنطي ،قدم الوفد الزائر مايعرفه من معلومات عن امتداد أملاك العثمانيين في القارة الأوربية .(٢) وشرح الجنويون للفاتح التركي ظروف علاقاتهم وصراعهم مع البنادقة ،ووعدوه بتقديم مايحتاجه من دعم الاسطول الجنوي في حربه المقبلة مع السلطان العثماني .(٣) ووعدوه بأن يدفعوا له عندما ينتصر على العثمانيين مايدفعونه الآن من أموال للسلطان العثماني .(٤) ولما تحقق الجنويون ـ فيما بعد ـ من انتصار تيمور في أنقرة أرسلوا يعلمونه بخضوعهم له وقاموا برفع الأعلام التيمورية على جميع مراكزهم التجارية في سواحل آسية الصغرى المطلة على بحر ايجة ،(٥) وفي غالاتا وبيرا .(٦) ولكنه وعلى الرغم من الوعود التي قطعها الجنويون على أنفسهم أمام تيمور في قراباغ ،بالوقوف إلى جانبه في حربه ضد الأتراك العثمانيين ،فإنهم لم يفعلوا شيئاً لاعتراض انسحاب العثمانيين المنهزمين بعد معركة انقرة ،عبر البوسفور إلى أملاكهم في البر الأوربي ، بل على العكس فإن الاسطول الجنوي عمد إلى مساعدة فلول الأتراك دون أن يتقاضى منهم أي أجر على ذلك .(٧) وقد يكون للإعمال التي قام بها تيمور ضد بعض المراكز الصليبية في سواحل بحر ايجة ،ولا سيما في ازمير في تلك البرهة ، دور في أن يرى الجنويون في العثمانيين جيراناً أقل بطشاً وعداءً لهم من قوات تيمور . وأما البندقية فعلى الرغم مما عُرفت به من معاداة لتيمور وميل لأعدائه المماليك ،فإن أساطيلها لم تنجد بعد معركة انقرة وأعمال تيمور ضد المراكز الصليبية في ساحل آسيا الصغرى المطل على بحر ايجة ، إلا المسيحيين فقط .(٨)

مع الامبراطورية البيزنطية

وكان يحتل العرش البيزنطي منذ بدأ تيمور يتوسع نحو الغرب ،الامبراطور "مانويل باليولوغ" الثاني منذ عام ١٣٩١م (٧٩٣ هـ) . وكان السلطان العثماني عقب انتصاره في معركة نيكوبوليس عام ١٣٩٦م (٧٩٨هـ) ،قد دأب على حصار القسطنطينية من وقت لآخر. وكانت الدول الاوربية تتوقع سقوط العاصمة البيزنطية في أي وقت . وقد أجبرت عودة الحصار العثماني للقسطنطينية الامبراطور البيزنطي عام ١٤٠٠م (٨٠٢ هـ) على القيام بجولة في اوربا لينشد مساعدة دولها ،(٩) بعد أن أقام أحد أقربائه نائباً عنه على العرش في غيابه. واستمرت جولة مانويل الثاني باليولوغ في أوربا ثلاث سنوات ونصف . وقد بدأ بزيارة البندقية ثم جنوة . ولم يحصل من الدولتين الايطاليتين إلّا على تعهد بالدفاع عن العاصمة . ولما انتقل إلى باريز حيث قابل الملك شارل السادس بعد برهة انتظار في العاصمة الفرنسية

(١): Lamb :op. cit. P. 214 (٢) Prawdin: op. cit. P. 247

(٣): Lamb : op. cit. P. 233 (٤): Delaville Le Roulx : 389

(٥): Bréhier :ibid.,Rambaud:op.cit.842, Grousset:op.cit.P.532

(٦): Lamb: op. cit. P.235

(٧) Delaville Le Roulx:op.cit.P.390 (٨): Delaville Le Roulx:ibid.

(٩): Le Strange: op. cit. Intrød, P. 2 - 3

M3

استمرت أربعة أشهر، لم يتعهد له الملك الفرنسي الذي كان يعاني من بعض مظاهر الجنون، إلا بتقديم ألف ومائتي جندي. ولما انتقل إلى انكلترة لم يتعهد له الملك الانكليزي هانري الرابع بأي شيء.[1] واضطر الامبراطور البيزنطي أن يتوقف في اليونان وهو في طريق العودة مدة من الزمن، يراقب الأحداث التي كانت تتوالى على العاصمة، وقوات الأتراك العثمانيين تحاصرها، وقد باتت على وشك أن تقتحمها.[2]

وظهر في تلك الأثناء الفاتح التركي على رأس قواته على التخوم الشرقية من آسية الصغرى، قادماً من بلاد الكرج، مما اضطر السلطان العثماني بايزيد إلى رفع الحصار والتوجه شرقاً لدفع القوات الغازية. وكان نائب الامبراطور البيزنطي الأمير حنا باليولوغ، خلال غياب الامبراطور في أوربة، قد مضى بعيداً للاستفادة من ظهور قوات الفاتح التركي في شرق آسية الصغرى، تمهيداً للمعركة الفاصلة مع الأتراك العثمانيين. وأسرع إلى الاشتراك مع محافظ حي غالاتا الجنوي، بإرسال ذلك الوفد إلى تيمور في معسكره في قراباغ، بعد وصول رسالة من الفاتح التركي تقترح قيام تحالف بين الجانبين ضد العثمانيين.[3] وقد تمّ الاتفاق — كما سبق ذكره في هذا الفصل — بين الطرفين على حساب العثمانيين.

وطالب تيمور في إثر انتصاره في انقرة البيزنطيين أن ينجزوا ما تعهدوا به من دفع الأموال التي كانوا يؤدونها إلى السلطان العثماني له. واضطر الامبراطور البيزنطي إلى الإذعان لذلك.[4] وأرسل على الفور مبعوثاً خاصاً لمقابلة تيمور والاقرار له بالتبعية.[5] ويقول كلافيجو إن البيزنطيين على الرغم من كل ذلك، فقد قدموا سفنهم لمساعدة الأتراك المنهزمين على الانتقال إلى الأملاك العثمانية في البر الاوربي.[6] ويقول مؤرخ تركي إن البيزنطيين قد قبضوا ثمن هذه المساعدة سلفاً، فقد اضطر سليمان بن بايزيد الذي استلم زمام المبادرة بعد هزيمة انقرة للانسحاب من وجه المغيرين، إلى التنازل عن منطقتي قرتال وبنسدك ذات الموقع الاستراتيجي والقريبتين من العاصمة البيزنطية.[7] ويذكر ابن عربشاه إن البيزنطيين لم يكونوا مخلصين في اتفاقهم مع العثمانيين: فلم يخفوا شعور الفرح الذي غمرهم لدى سماعهم بما حلّ بالسلطان العثماني في انقرة. وكانت سفنهم التي تتولى نقل الأتراك إلى البر الاوربي تغدر بهم، فتقتل بعضهم وتفرض الأسر على البعض الآخر.[8]

ولعل ما لمسه البيزنطيون من عنف الاجتياح التيموري للأملاك العثمانية في آسية الصغرى، هو الذي دفع الامبراطور البيزنطي للسير على هذه السياسة المزدوجة، والتظاهر من ناحية بالرضوخ لمشيئة الفاتح التركي والتنكيل بالأتراك العثمانيين أثناء انسحابهم إلى البر الاوربي، ثم بمد يد المساعدة لهم من ناحية ثانية. وكان هدفه من هذه السياسة

(1): Bréhier: op. cit. P.472, Grousset et ses Compagnons: L'Asie Orientale..P. 331

(2): Le Strange: op.cit. Introd P. 3

(3): Delville Le Roulx: op.cit. P.389

(4): Bréhier: op. cit. P. 474

(5): Grousset: op.cit. P. 5?2

(6): Le Strange: op.cit. P.136

(7): رشاد: ص ٣١٠

(8): ابن عربشاه: ص ١٣١ — ١٣٢

المزدوجة إرضاء الدول الاوربية التي كانت تخشى من أن يسترجع الأتراك العثمانيون قوتهم، ودفع هذه الدول لتقديم المساعدة له ، ثم الأخذ بيد العثمانيين خلال محنتهم ، لأنه وجد أنهم أقل خطراً على الدولة البيزنطية من الفاتح التركي ، إذا أحب أن يضم أملاك العثمانيين إليه ، ويصبح جاراً للبيزنطيين .

مع طرابزون

ولم ينس تيمور قبل أن يشتبك مع العثمانيين أن يوطد علاقاته مع الامبراطور البيزنطي مانويل الثالث (١٣٩٠ — ١٤١٧ م) الحاكم في طرابزون ، والذي وجد أن الفرصة سانحة له ليتخلص من التبعية للعثمانيين بالانضمام إلى أعدائهم . كما أنه يستطيع في الوقت نفسه أن يقي أملاكه من أخطار الاجتياح .(١) ولذلك فقد لبى طلب تيمور وتم الاتفاق بين الجانبين على أن يقدم امبراطور طرابزون عشرين سفينة حربية وبعض الفرق العسكرية ، وقد حاربت هذه القوات إلى جانب قوات تيمور في معركة انقرة .(٢) والتزمت قوات تيمور بالاتفاق وامتنعت عن اجتياح أراضي هذه الدولة .(٣)

ونجم عن أعمال تيمور في آسية الصغرى نتائج إيجابية بالنسبة للامبراطورية البيزنطية وشعوب البلقان . وقد اتضح أنه بسبب سياسة تيمور التي كانت ترمي إلى القضاء على وحدة الدولة العثمانية ، وإعادة الأمراء الذين ألحق العثمانيون إماراتهم بدولتهم ، إلى مناصبهم السابقة ، وبالتالي إضعاف الدولة العثمانية ، أن امتد عمر الدولة البيزنطية التي كانت أملاك العثمانيين تطوقها من كل جانب ، نصف قرن آخر ولم تسقط إلا في عام ١٤٥٣م بعد أن كان سقوطها عام ١٤٠٢م أمراً وشيكاً . وقد خف بالتالي ضغط العثمانيين العسكري على شعوب البلقان خلال تلك المرحلة .(٤)

تيمور وفرسان القديس يوحنا

وخلافاً لسياسة الامبراطورية البيزنطية وجنوة فقد أبت إحدى الجماعات الصليبية ، وهي فرسان القديس يوحنا التي كانت تحكم جزيرة "رودوس" (Rhodos) الرضوخ لمشيئة تيمور ، وكان هؤلاء قد نزلوا في الجزيرة في مطلع الرابع عشر (١٣١٠م / ٧١٠ هـ) ، بعد انسحابهم من عكا عقب استيلاء المماليك عليها عام ١٢٩١م (٦٩٠ هـ) . ولم يلبث فرسان القديس يوحنا أن مدوا نفوذهم إلى عدد من الجزر الأخرى في بحر ايجة ثم ضموا إليهم مدينة سميرن (Smyrne) وهي ازمير الحالية عام ١٣٤٥م (٧٤٦ هـ).(٥) ومنح رفض سلطات المدينة الاستسلام للفاتح التركي فرصة لإضفاء صفة الحرب المقدسة على غارته على ازمير.(٦) ويشير كل من حافظ آبرو ، ويزدي إلى أن تيمور قد وجه رسولاً إلى المدينة ، يحمل طلباً بأن يعتنق السكان الإسلام أو يدفعوا الجزية ، أو يتعرضوا إلى "الإفناء" نظراً لسابق شقاوتهم .(٧) وعلى الرغم من اطمئنان

(١): Grousset et ses Compagnons: L'Asie Orientale-P. 428

(٢): Bréhier: op. cit. P.474, Delaville Le Roulx: op.cit. P. 390

(٣): Grousset et ses Compagnons : ibid.

(٤): Prawdin: op. cit. P.249, Le Strange: op. cit. Introd. P.3 et

(٥): Rambaud: op. cit. p.42 Grousset: L'Empire des Steppes P.533

(٦): Grousset: op. cit. P. 539

(٧) : حافظ آبرو : ص١٧٩ ويزدي : ج ٢ ص٣٣٦ .

المدافعين عن ازمير في رفض طلب الفاتح التركي إلى قوتهم التي استطاعت أن تقاوم محاولات العثمانيين لاحتلال المدينة ، خلال السنوات السنوات الماضية ،[1] فقد أرسلوا يستنجدون بقواتهم في جزيرة رودوس .[2] وكان على القوات المغيرة التي علمت بأنباء هذه الاستغاثة ، أن تهاجم المدينة قبل وصول النجدات العسكرية إليها . وبدأ الحصار في الأول من كانون الأول عام ١٤٠٢ م (٦ جمادى الأولى ٨٠٥ هـ) . وأقام جند تيمور ثلاثة سدود عالية من الخشب وسط المياه من ناحية البحر وبنوا على هذه السدود جسراً لحصار المدينة وقلعتها من تلك الناحية ، ومنع وصول النجدات إليها من الخارج . وعلى الرغم مما أبداه المدافعون من مقاومة عنيفة ، فإن القوات المغيرة نجحت باجتياح المدينة بعد قصف بالمنجنيقات استمر أسبوعين بالليل والنهار ، كما رمتها العرادات بقوارير النفط المشتعل . ونجح النقابون في فتح ثغرة في السور ، نفذوا منها إلى داخل المدينة . ولم تتمكن السفن التي قدمت من رودوس لنجدة المدينة ، وهي محملة بالمقاتلين والأسلحة ، من الاقتراب واضطرت إلى العودة من حيث جاءت .[3] ولم تنجح إلا بانتشال ثلاثة آلاف من محاربي المدينة من المياه ، بعد أن ألقوا بأنفسهم إلى البحر فراراً من القوات المغيرة التي استطاعت السيطرة على المدينة .[4] وقام المصور الفارسي الشهير بهزاد (١٤٥٠ — ١٥٣٧ م / ٨٥٤ — ٩٤٢ هـ) فيما بعد ، عام ١٤٩٠ م / ٨٩٥ هـ بتصوير أحد مناظر المعركة في أحد مخطوطات ظفرنامة ليزدى . ويظهر في هذه الصورة المقاتلون التيموريون وهم يتسلقون أسوار ازمير مستعينين بآلات حادة معقوفة ، يغرسونها في الجدران ، في الوقت الذي يقوم فيه الفرسان برشق من يقف على الأسوار بالسهام . ويظهر تيمور في زاوية الصورة وهو يمتطي جواده ، ويعطي تعليماته لأحد قواده .[5] ولاقت مدينة "ايفيز Éphèse " الواقعة إلى الجنوب من ازمير المصير نفسه .[6] ولم تبارح قوات الفاتح التركي ازمير إلا بعد أن هدمتها وأقامت فيها أبراجاً من رؤوس القتلى .[7]

---

(١) : Grousset: ibid., Lamb: op. cit. P. 243

(٢) : Bouvat : op. cit. P. 62 . Lamb: ibid.

(٣) : يزدى : ج ٢ ص ٣٣٨ — ٣٤٠ ؛ (٤) : Lamb: ibid .

(٥) : D. T. Rice: Islamic Art P. 227

أما بهزاد فهو برأي ولبر أكبر رسام فارسي ، حياته بين ٨٥٤ — ٩٤٢ هـ (١٤٥٠ — ١٥٣٧ م). ولد في هيرات ودخل في خدمة آخر السلاطين التيموريين حسين بيقرا ، ثم في خدمة الأوزبك. واستقر المقام به في تبريز في بلاط الشاه اسماعيل الصفوى، حيث أسس مدرسة للرسم. وضع عدداً كبيراً من رسوم المخطوطات انظر: Wilber: op.cit.P. 65-66.

(٦) : Bouvat: ibid . (٧) : ابن عربشاه : ص ١٢٦

الفصل الخامس عشر

غزو بلاد الكرج والعودة الى سمرقند

تمهيد — حملة ٨٠٢هـ — حملة ٨٠٤ هـ الأولى — حملة ٨٠٤ هـ الثانية — حملة ٨٠٥هـ — حملة ٨٠٦ هـ — إعمار بيلقان — تعيين بعض أحفاده حكاماً في العراق وإيران — في طريق العودة — بلوغ سمرقند — أعماله فيها .

تمهيد

تعرضت بلاد الكرج لعدد من الغزوات التيمورية ، أكثر من أية منطقة أخرى وصلت إليها قوات الفاتح التركي . وبلغ عدد الغارات التي تعرضت لها هذه البلاد سبع غارات ، ثلاث منها كانت غارات اجتياح على نطاق واسع، وصلت بها بها القوات المغيرة إلى مسافات بعيدة داخل البلاد . وبلغت في إحدى هذه الغزوات في شتاء عام ١٣٩٩ م (٨٠٢ هـ) حتى سواحل البحر الأسود الشمالية الشرقية. أما بقية الغزوات فلم تتعد أن تكون دوريات بقيادة بعض أحفاد تيمور ، لتأكيد خضوع ملوك بلاد الكرج لسلطة الفاتح التركي، أو نزهات عسكرية للاستجمام والسياحة والصيد ، كان يقوم بها تيمور نفسه مصطحباً عدداً من زوجاته[1] . وقد أشارت المذكرات إلى اعجاب تيمور بجمال بلاد الكرج لكثرة غاباتها وصلاحها لحملات الصيد .[2] كما أشارت مصادر تيمورية أخرى إلى اسباب جديدة لغزو هذه البلاد ، هي الجهاد لنشر الإسلام والحصول على مزيد من الغنائم [3] . ومما لا شك فيه أيضاً أن وقوع بلاد الكرج إلى جوار إيران وآسية الصغرى، حيث كثر تردد الجيوش التيمورية إليهما ، وقيام الفاتح التركي بمعظم عملياته الحربية فيهما ، جعل هذه البلاد (بلاد الكرج) عرضة لهجمات الجيوش التيمورية ، ولا سيما وأن تيمور ظلّ يشك في إخلاص ملوك هذه البلاد له . وكان يلمس منهم في كثير من الأحيان ميلاً لأعدائه والثائرين عليه في اذربيجان والعراق، كأحمد جلاير وقرا يوسف وسيدي علي شكّي ، ثم السلطان العثماني بايزيد، كما ظهر ذلك واضحاً عند الحديث عن غزوات تيمور السابقة لهذه البلاد .[4]

حملة ٨٠٢ هـ

وقام الفاتح التركي قبل أن يؤوب الأوبة النهائية إلى سمرقند بثلاث عمليات حربية في بلاد الكرج، قبيل معركة انقرة وبعدها، بالاضافة إلى حملة رابعة كانت بقيادة عدد من أحفاده . وكانت أول هذه العمليات في رمضان عام ٨٠٢ هـ (أيار ١٤٠١ م) ، بعد العودة من بلاد الشام وقبل أن يقوم بالغارة الثانية على بغداد . وكانت حملة صغيرة قادها ثلاثة من أحفاد تيمور (سلطان حسين ، وبير محمد بن عمر شيخ ، وأبي بكر)، وانطلقت الحملة من معسكرات تيمور بجوار ماردين، ومرت على حصن اونيك . وانطلقت من هناك نحو بلاد الكرج . وكان اقتراب القوات التيمورية من هذه البلاد ، سبباً في إزعاج الملك

---

(١) : انظر الفصول الأول والرابع والسادس من هذا الباب (الباب الخامس) .
(٢) : Langlès: op. cit. P. 257 (٣): حافظ آبرو ص١٥٣ ويزدي: ج ٢ص ١٦٢ و ١٧٥ .
(٤) : المقصود هنا غزوات أعوام ١٣٨٦ و ١٣٩٤ و ١٣٩٩ م (٧٨٨و ٧٩٦ و ٨٠٢ هـ) .

"جورجين" (گرگين) واضطراره لأن يرسل مجدداً بطاعته وإذعانه إلى القوات المغيرة، التي كانت قد بلغت مدينة منگول القريبة من العاصمة تفليس.(١)

حملة ٤٠٨ الاولى

وعادت القوات الغازية إلى الظهور مرة ثانية بالقرب من حدود بلاد الكرج في مطلع عام (٨٠٤ هـ) (آب ١٤٠١ م)، أي بعد ثلاثة أشهر من الحملة السابقة، بعد انسحاب تيمور من العراق، وبعد أن أمضى برهة من الوقت في تبريز، وقد انطلق من هناك (من تبريز) إلى الشمال، حيث عبر نهر الرس ونزل في نخجوان. وقد رافقه في هذه النزهة العسكرية بعض زوجاته وأولاده. وزار تيمور ومن معه حصن النجق القائم بجوار نخشيفان (نخجوان)، ثم أرسل إلى گرگين (جورجين)، في تفليس يطالبه بدفع ما يترتب عليه من أموال الخراج والجزية. وطفق ينتظر رد الملك الكرجي على رسالته بالقيام بحملات الصيد، حتى بلغ مدينة "شمكور" الواقعة إلى الجنوب من ضفة نهر "كر" (كورا الحالي) اليمنى. وعاد رسله من تفليس يحملون الهدايا. ورافقهم قسطنطين (كوستانديل كما رسمها يزدي) شقيق الملك، ومعه رسالة يجدد فيها گورگين إقراره بالتبعية، ويتعهد بدفع الأموال المفروضة عليه عاماً بعد عام. ولما اقتنع الفاتح التركي بما أظهره الملك الكرجي من الطاعة والانقياد، خلع عليه وعلى أخيه ومنحه الأمان، على أن "يراعي طريق الأدب مع المسلمين" وعلى أن يمده بالعساكر عندما يطلب منه ذلك. وكان تيمور يقصد بذلك أن يرسل إليه ملك الكرج ببعض العساكر لتشترك مع القوات التيمورية في قتال العثمانيين الذين أضحى الاصطدام بهم أمراً لا مفر منه. وقفل تيمور عائداً إلى قراباغ، في ربيع الثاني من ذلك العام (٨٠٤ هـ / تشرين الثاني ١٤٠١ م) لقضاء فصل الشتاء.(٢)

حملة ٨٠٤ الثانية

وظهر أن تيمور لم يطمئن إلى ما أخذه من گرگين من العهود، فعاد إلى الظهور على رأس قواته من جديد في بلاد الكرج، في رجب من ذلك العام (٨٠٤ هـ / آذار ١٤٠٢ م).(٣) وقد أشار يزدي بشكل صريح إلى سبب هذه الحملة الجديدة، وهو رغبة تيمور في كسر شوكة الكرج قبل أن يتقدم لقتال السلطان العثماني بايزيد.(٤) ووصلت القوات التيمورية في هذه المرة أيضاً إلى شمكور في شعبان (نيسان). وعبر بعض هذه القوات نهر كر. وبعد توقف لعدة أيام، سار تيمور على ضفاف ذلك النهر، كأنه يريد العاصمة تفليس. ولكن أخبار تحركات بايزيد العسكرية أجبرته على تغيير خط سيره، والاتجاه من هناك إلى بلاد الروم وتمكنت قواته التي عبرت منطقة "بيك گول" في طريقها إلى بلاد الروم،(٥) من احتلال حصن "ترتوم" (Tortum) الكرجي المنيع بحجة أن حكام الحصن كانوا يعتدون على المسلمين المقيمين إلى جواره. وتقدم بعد ذلك إلى حصن اونيك مفتتحاً غارته الثانية على بلاد الروم.(٦)

حملة ٨٠٥ هـ

وعاد تيمور إلى بلاد الكرج بعد أقل من عامين، بعد الانتهاء من اجتياح بلاد

(١) : يزدي : ج ٢ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ (٢) : شامي ص: ٢٤٣ ويزدي : ج ٢ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

(٣) : Langles: op. cit. P. 264 (٤) : يزدي ج ٢ ص ٢٨٣

(٥) : Minorsky: Tiflis (E.I.T. P.P. 791-802) P. 796

(٦) : يزدي : ج ٢ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٨

الروم عام ٨٠٥ هـ (١٤٠٣ م) . ويعود يزدي إلى ترديد دوافع الجهاد ضد "الكفار زمرة الضلال وعبدة الأصنام" كسبب للغارة الجديدة .(١) ويضيف مينورسكي إلى ذلك بأن عدم حضور الملك الكرجي جورجين بنفسه لتقديم التهنئة لتيمور، عقب انتصاره في معركة انقرة، كان الدافع المباشر للحملة الجديدة .(٢) ولعل تيمور لم ينس ما سبق للملك الكرجي فعله عام ٨٠٢ هـ (١٣٩٩ م) ، عندما تجرأ على مخالفة طلبه، وأبى تسليمه طاهر بن أحمد جلاير الذي كان يلجأ اليه . وأصرّ على إرساله إلى والده (أحمد جلاير) الذي كان فارًا إلى بلاد الروم في ذلك الوقت . وقد أصبح بإمكان الفاتح التركي الآن ، - بعد انهيار المقاومة العثمانية وتوارى قرايوسف (زعيم عشائر الغنمة السوداء) عن الأنظار ، وعودة أحمد جلاير إلى بغداد ، وهما ممن كان كرگين يأمل في التعاون معهما ضد تيمور - أن يتقدم إلى بلاد الكرج دون أن يخشى أية مفاجأة . ويعزو كلافيجو غزوة تيمور الجديدة إلى حقد الفاتح التركي على جميع المسيحيين، منذ إقدام البيزنطيين على مساعدة الأتراك العثمانيين على الانتقال إلى أملاكهم في أوربا ،(٣) بعد هزيمتهم في انقرة . كما أحسب أن يستغل الخلاف الذي وقع في ذلك الوقت بين الملك جورجين وشقيقه قسطنطين . وكان تيمور قد شعر أن قسطنطين كان غاضباً على أخيه عندما قدم عليه، ليقدم له التهنئة على انتصاره في انقرة .(٤)

وقف تيمور عند مدينة قارص . وأرسل من هناك أحد أتباعه وهو الشيخ إبراهيم حاكم منطقة شروان ، للقيام بدراسة جديدة لأحوال بلاد الكرج ، والتعرف على مسالكها ، وتقدير ثرواتها تمهيداً لغزوها . وأسرع جورجين لارضاء تيمور، وأرسل إليه وفداً محملاً بالهدايا ، ورسالة يعلن فيها ولاءه وخضوعه . ولكن الفاتح التركي صرف الوفد خائباً .(٥)

وبدأت العمليات الحربية بحصار "كورتين"(٦) (Kurtin) - الذي أشار مينورسكي إلى موقعه على ضفة نهر "آلجت" (Alget)(٧) - في المحرم عام ٨٠٦ هـ (تموز - آب ١٤٠٣ م) . حملة ٨٠٦ هـ وتحدث كل من ابن عربشاه ويزدي عن مناعة الحصن(٨) الذي كان يقع على قمة جبل عالٍ ذي سفوح شديدة الانحدار ، تشرف على وادٍ عميق . ويطل على الوادي من ارتفاع مائة وخمسين ذراعاً . ولا يوصل إلى الحصن إلا من طريق واحد . وبُني فيه مستودع كبير لتخزين المياه ، لتمكين المدافعين عنه من المقاومة لمدة طويلة . وكان حاكم الحصن قد كدّس فيه أيضاً كميات كبيرة من الأسلحة والمؤن. واعتقد تيمور في بادئ الأمر بعجزه عن اقتحام حصن كورتين ، وهمّ بالرحيل عنه . وكانت الحجارة التي تقذفها المنجنيقات لاتصل إلى داخل الحصن لارتفاع أسواره . ولم يلبث المغيرون أن اهتدوا إلى خطة لاقتحام البوابة . فقام جند تيمور ببناء برج من الحجارة والخشب في مكان قريب من الحصن . وأُصبح

(١) : يزدي : ج ٢ ص ٣٦٥ (٢) : Minorsky : ibid.
(٣) : Le Strange :op.cit.P.136 (٤) : يزدي: ج ٢ ص ٣٦٦
(٥) : يزدي : ج ٢ ص ٣٧١ - ٣٧٢ (٦) : ذكر يزدي اسم الحصن "كرتين" (ج ٢ ص ٣٧٣) ورسمه ابن عربشاه مصحفا "كوركيت" (ص ١٤٥)
(٧) : Minorsky:op.cit.P.797 (٨) : ابن عربشاه: ص ١٤٥ ويزدي: ج ٢ ص ٣٧٢

بالإمكان بمساعدة هذا البرج أن يقذف المغيرون أبراج الحصن بحجارة المنجنيقات . واستمر القصف لمدة أسبوع ، إلى أن تمكن الغزاة من فتح ثغرة في السور الجنوبي ، تسلل الجند التيموريون منها بعد أن تسلقوا سفوح الجبل الشديدة الانحدار ، باستعمال السلالم والحبال . واستعملوا أيضاً شرفة خشبية صعد إليها عدد من المقاتلين ، ثم رفعت بالحبال وتم الدخول إلى داخل القلعة ليلاً عندما كان المدافعون عنها يغطون في النوم . وتمكنت القوات المغيرة من اكتساح القلعة بعد تسعة أيام من الحصار .(١)

واستطاعت القوات الغازية بعد سقوط حصن كورتين التقدم بسرعة نحو الشمال بسبب انهيار المقاومة . واجتاحت حوالي سبعمائة مابين قرية ومزرعة ودير إلى أن وصلت إلى بلاد الابخاز ، في سواحل البحر الأسود الشمالية الشرقية . ويبدو أن القوات الغازية قد ملّت القتل والتخريب ، ولذلك أفتى رجال الدين الذين كانوا يرافقون الحملة ، بجواز منح السكان المسيحيين الأمان أسوة بمافعل الرسول مع نصارى نجران . وكان گرگين قد أرسل يعلم الفاتح التركي مجدداً ، باستعداده لدفع الجزية المفروضة عليه بشكل منتظم كل عام . ولذلك قرر تيمور الرجوع . ومر وهو في طريق العودة إلى العاصمة تفليس . وضرب الأديرة القائمة حول المدينة .(٢) ولعب الشيخ إبراهيم (حاكم شروان) دور الوسيط .(٣) وتم عقد الصلح وأرسل الملك الكرجي ألف قطعة ذهبية نقدية ، وقد ضرب عليها اسم تيمور بألقابه ، وألف حصان مع كميات كبيرة من الأقمشة ، وعدد من الأواني الذهبية والفضية . وأرسل إليه أيضاً قطعة من الياقوت فريدة ، بلغ وزنها ثمانية عشر مثقالاً .(٤) ولم ينس تيمور وهو ينسحب من بلاد الكرج القيام بالعديد من حملات الصيد .

وهرع إليه وهو ينسحب من هذه البلاد - كما يقول يزدي - عدد كبير من رجالات إيران لتجديد خضوعهم .(٥) وكان من بين هؤلاء الشيخ صدر الدين بن الشيخ اسحق صفي الدين الذي تنتسب إليه الأسرة الصفوية التي حكمت إيران فيما بعد منذ مطلع القرن السادس عشر . وذكر يزدي أن الشيخ صدر الدين كان يتولى في ذلك الوقت منصب القضاء ،(٦) وتضيف بعض الأبحاث الحديثة أن تيمور قد قبل رجاء صدر الدين فأطلق له سراح بعض الأسرى التركمان الذى شكلوا فيما بعد فرق القزيل باش التي اعتمدت عليها الدولة الصفوية في تقوية نفوذها في مراحل قيامها الأولى . كما اقطع تيمور الشيخ صدر الدين منطقة أربيل .(٧)

ولما عبر تيمور نهر كر إلى ضفته الجنوبية ، انهمك في إعادة إعمار مدينة "بيلقان" التي كانت مهجورة منذ زمن بعيد (٨) . وكانت المدينة كما ذكر القزويني والحميري تقع في إعمار بيلقا

(١) : يزدي : ج ٢ص ٣٧٥ - ٣٧٧ .

(٢) : يزدي : ج ٢ص ٣٨٢-٣٨٣ (٣) : ابن عربشاه : ص ١٤٧ والعسقلاني : ج ٢ص ٢٦٢ ويزدي : ج ٢ص ٣٨٤ (٤) : يزدي : ج ٢ص ٣٨١ و٣٨٤ (٥) : يزدي : ج ٢ص ٣٧٨

(٦) : يزدي : ج ٢ص ٣٧٩ (٧) : بروكلمان : ج ٣ص ١١٨ وطرخان : ص ١٧٤ و Sykes : op. cit. T.II P.150,160 (٨) : لم يذكر يزدي سبب هجر المدينة وهدمها ولعله الغزو المغولي .

منطقة "آران" جنوب برذع على طريق العراق[١] ويرى لانكله أن دافع تيمور لإعادة إعمار هذا الموقع ، هو شعور الخجل الذي أخذ يجتاح نفسه بعد الأعمال التي قام بها في بلاد الكرج . وأراد أن يقابل أعمال الهدم والتخريب التي انزلتها جيوشه في تلك البلاد ، فأقدم على إعادة إعمار هذه المدينة .[٢] ومن الممكن أن يكون الفاتح التركي قد قصد من عمارة بيلقان إقامة حصن في مكان قريب من بلاد الكرج للمراقبة . ولاسيما وأن إعمار المدينة كان على مايظهر يهدف لجعلها مدينة عسكرية . فقد أحيطت بسور بلغ ارتفاعه خمسة عشر ذراعاً . ويلتف حول السور خندق يبلغ عرضه الستون ذراعاً ، ويصل عمقه إلى العشرين ذراعاً . كما بلغت سماكة الجدران أحد عشر ذراعاً . وجُعل للمدينة بوابتان كبيرتان . وسيق الماء إليها من عدة أماكن مجاورة .[٣] وبعد أن فرغ تيمور من بناء المدينة الذي استغرق شهراً -كما يذكر يزدي - انتقل إلى قراباغ ، حيث أمضى الشتاء ، وحيث كان لا يمضي أسبوع واحد دون أن تقام فيه الاحتفالات والمهرجانات .

وتحرك موكب تيمور على رأس قواته من قراباغ مع قدوم فصل الربيع . وعبر نهر الرس في ١٤ رمضان ٨٠٦ هـ (٢٨ آذار ١٤٠٤ م) ، قاصداً ماوراء النهر . ويعلل يزدي أوبة تيمور إلى بلاده بعد غياب استمر خمس سنوات ، بأن البلاد التي قاتلها تيمور خلال المرحلة الماضية ، وهي العراق والشام والكرج والروم قد اذعنت لحكمه ودفعت الجزية .[٤]

تعيين بعض أحفاده حكاماً في العراق وأيران .

وأحب تيمور قبل أن يغادر الجناح الغربي لإمبراطوريته ، أن يعمل على تنظيم الأوضاع الإدارية فيها . فصدرت عنه في تلك الآونة سلسلة من القرارات عيّن بموجبها عدداً من أحفاده على بعض المناطق في هذا الجناح ، بما فيها المناطق التي تم اجتياحها حديثاً . فأوكل وهو في منكول في بلاد الكرج عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) ، إلى حفيده بير محمد بن عمر شيخ حكم شيراز . وفوض أخاه رستم بحكم اصفهان . وعيّن حفيده الآخر أبا بكر بن ميرانشاه على العراق .[٥] ومنح حكم اذربيجان إلى عمر شقيق أبي بكر . وكان عمر يقيم في سمرقند نائباً عن جده هناك . وتقلد حاكم اذربيجان الجديد منصبه في معسكر جده بجوار بيلقان ، عندما قدم من ماوراء النهر في جمادى الآخرة عام ٨٠٦ هـ (كانون الثاني ١٤٠٤ م) .[٦] وأضاف تيمور قبل أن يبارح قراباغ إلى حفيده عمر حكم بلاد الروم وبلاد الشام ، وسلمه قيادة القوات التي كانت تحت إمرة والده ميرانشاه ، ثم أمره بالانصراف إلى مركز عمله . وعين على كرمان أحد قواده ويدعى "ايدكو" بعد أن زوجه إحدى بناته .[٧] وأمر حكام بقية المناطق ممن كان لايطمئن إلى إخلاصهم ، أن يرسلوا أبناءهم وإخوتهم إلى سمرقند ، كرهائن على استمرار ولائهم . وكان ممن شملهم هذا الإجراء الظاهر عيسى حاكم ماردين .[٨]

(١) : القزويني : آثار البلاد : ص ٤٩٣ و ٥١٣ والحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص ١١٩ .

(٢) : Langlès: Vie de Timur P.100

(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٣٨٥ - ٣٨٦

(٤) : يزدي : ج ٢ ص ٤٠٠ - ٤٠٢

(٥) : يزدي : ج ٢ ص ٣٦٧

(٦) : يزدي : ج ٢ ص ٣٩٣

(٧) : يزدي : ج ٢ ص ٣٩٧ و ٤٠٢

(٨) : يزدي : ج ٢ ص ٣٩٩

وتابع موكب تيمور التقدم باتجاه الشرق فمرّ على اردبيل .(١) وسار من هناك عبر مدن شمالي إيران وخراسان (السلطانية وقزوين وفيروزكوه وبسطام ونيسابور) نحو ماوراء النهر . واستغرقت رحلته عبر هذه المدن زهاء ثلاثة أشهر . وازعجته وهو في الطريق ثورة أحد قواده ، وهو اسكندر شيخي عليه . فترك أمر ملاحقته إلى ابنه شاه رخ وعدد من القواد ، فاستمروا على مطاردته من مدينة إلى أخرى إلى أن اجبروه على أن يتوارى عن الانظار .(٢) ولعل أهم ماوقع للفاتح التركي وهو في طريق عودته إلى بلاده ، ثورة التتر عليه . وكان تيمور قد أجبرهم على ترك المناطق التي حلّوا بها في بلاد الروم .(٣) ليرجعوا إلى مواطن أجدادهم في وسط آسية . وقد ثار هؤلاء في مدينة "دامغان" في خراسان . وتمكنت قوات تيمور من القضاء على الثورة بعد أن قتلت منهم زهاء الألف(٤) . ولما وصل تيمور إلى سمرقند أمر بتفريق من وصل معه من التتر ، على حدود بلاده وثغورها مع بلاد المغول (الجتا) وبلاد القبجاق .(٥)

وسمح تيمور قبل أن يعبر جيحون في مطلع عام ٨٠٧ هـ (تموز ١٤٠٤ م) لابنه شاه رخ ، بالانصراف إلى مركز عمله في هيرات كحاكم على خراسان .(٦) وجاز الفاتح التركي النهر (جيحون) عند مدينة ترمز . واخترق ممر باب الحديد الجبلي وجبال جكداليك إلى كيش - مرتع صباه - وزار في المدينة قبر ولده محمد جهانكير ، ثم تابع التقدم إلى العاصمة سمرقند . وكانت بعض زوجاته في استقباله بظاهر المدينة في أحد أيام المحرم ٨٠٧ هـ(٧) (تموز - آب ١٤٠٤ م) ، بعد أن غاب عن سمرقند أطول مدة خلال حكمه . وأمر بتسريح الجيوش ليعود كل جندي إلى بلده وأهله .(٨)

وانصرف تيمور في الحقبة القصيرة التي قضاها في سمرقند ، إلى تفقد العمائر التي أمر بإنشائها ، وكان أهمها المسجد الجامع في سمرقند ، ثم مقبرته التي أعدها ليدفن بها ، والتي دفن بها قبله حفيده محمد سلطان ، الذي مات في بلاد الروم . ونقلت جثته بأمر من جده إلى سمرقند .(٩) واستقبل في هذه الآونة سفارة ملك اسبانيا التي كان يرأسها كلافيجو ، وبعثة السلطان المملوكي فرج وكانت بقيادة الأمير منكلي بغا . وقد شاركت السفارتان في الاحتفالات التي اقيمت في العاصمة ، بمناسبة عقد قران عدد من أحفاد تيمور خلال فصل الربيع عام ٨٠٧ هـ(١٠) ، والتي استمرت مدة شهرين . وأقيمت الاحتفالات في إحدى ضواحي سمرقند التي اشتهرت بجمالها الطبيعي ، لكثرة أشجارها وامتداد مروجها . ويشير ابن عربشاه إلى أن تيمور أمر لهذه المناسبة بتزيين العاصمة سمرقند ، وأصدر عفواً عاما عن المسجونين .(١١)

---

(١) : يزدي : ج ٢ ص ٤٠٥ (٢) : يزدي : ج ٢ ص ٤٠٧ - ٤١٢
(٣) : انظر الفصل الثالث عشر من الباب الخامس . (٤) : يزدي : ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٠ .
(٥) : ابن عربشاه : ص ١٥٠ (٦) : ابن عربشاه : ص ١٥٠ ويزدي : ج ٢ ص ٤١٨
(٧) : يزدي : ج ٢ ص ٤١٩ (٨) : ابن عربشاه : ص ١٥٠
(٩) : يزدي : ج ٢ ص ٤٢١ (١٠) : يزدي : ج ٢ ص ٤٢٢ و ٤٢٥ و ٤٢٤ و ٤٣٥ و ٤٤٣
(١١) : ابن عربشاه : ص ١٥١ - ١٥٣

الفصل السادس عشر

مشروع حملة الصين ووفاة تيمور
٨٠٧ هـ (١٤٠٥م)

وصول أسرة مينغ إلى الحكم ـ اعتراف تيمور بالتبعية للصين ـ السفارة الأولى عام ٧٩٠ هـ ـ السفارة الثانية ٧٩٢ هـ ـ السفارة الثالثة عام ٧٩٧هـ ـ تأزم العلاقات ـ محنة السفارة الرابعة ٨٠٧ هـ ـ عوامل غزو الصين ـ الاهتمام بتحصين الحدود الشمالية ـ الاستعدادات للحملة ـ الزحف إلى ضفاف سيحون ـ تغير الأحوال الجوية ـ مرض تيمور ـ وصيته ـ كلامه الأخير ـ وفاته ـ نقله إلى سمرقند ودفنه .

وصول أسرة مينغ إلى الحكم

وصلت أسرة "مينغ" (Ming) إلى حكم الصين عام ١٣٦٨ م (٧٧٠هـ)، بعد سقوط أسرة "يوان" (Yuan) المغولية التي أسسها "قوبيلاي خان" بن "تولوي" بن جنكيز خان عام ١٢٨٦م [١] (٦٨٥ هـ) . وحاول أباطرة الصين الجدد الذين وصلوا إلى الحكم قبل أقل من عامين من استقرار تيمور حاكماً على ماوراء النهر، السير على السياسة الخارجية ذاتها التي كانت تسير عليها الأسرة السابقة، والتي تقضي بأن يمارس أباطرة الصين نوعاً من السيادة، على جميع المناطق التي كانت تحكمها الفروع الأخرى التي انقسم إليها بيت الفاتح المغولي، بحكم أن امبراطورية الصين هي وريثة الامبراطورية المغولية التي أسسها جنكيز خان . ولما كانت بلاد ماوراء النهر هي في الأصل جزءاً من حصة جغتاي بن جنكيز خان، توارث الحكم فيها من بعده أولاده وأحفاده، فقد كان على حاكم ماوراء النهر الجديد أن يقر بهذه التبعية لأباطرة أسرة مينغ، في وقت كانت لاتسمح فيه ظروفه كحاكم جديد مناصبة العداء لحكام الصين الجدد الاقوياء [٢] .

اعتراف تيمور بالتبعية للصين

واضطر تيمور للمحافظة على تلك العلاقة مع أباطرة الصين، طيلة مرحلة طويلة من حكمه . وهي المرحلة التي قضاها في الحروب المستمرة في إيران والعراق وبلاد الكرج والشام والروم . وفي الوقت الذي تعتصم فيه المصادر التيمورية بالصمت تقريباً في تصوير العلاقات بين تيمور وبين أباطرة الصين من أسرة مينغ على حقيقتها، [٣] فإن المصادر الصينية أشارت إلى تلك العلاقات، وصورتها على أنها علاقة التابع بسيده . وذكر أحد هذه المصادر الذي استمد منه بلوشيه معلومات هامة عن علاقات تيمور بحكام الصين، أن تبادل السفارات بين حاكم ماوراء النهر وبين أباطرة الصين قد استمر مدة طويلة، أرسل خلالها الصينيون ثلاث سفارات في أقل من عشر سنوات . [٤] ويعلل "برافدان" صمت المصادر التيمورية عن

(١) : Grousset et ses compagnons: L'Asie Orientale P. 339

(٢) : Prawdin: op.cit.P.250 (٣) : Prawdin : ibid.

(٤) : Blochet: op. cit. P. 243 وقد ذكر بلوشيه أن المؤلف يدعى بالصينية : "هوانغ ـ مينغ ـ توسه ـ كي" (Houng-Ming-To-Ssé-K.) وتعني ترجمته: "تاريخ الأباطرة الصينيين من أسرة مينغ" وعثر بلوشيه على هذه المعلومات في أحد فصول الكتاب وهو بعنوان: "الفصل المخصص للعلاقات الديبلوماسية". انظر:
Blochet: op. cit. P. 330 .

الاشارة إلى هذه العلاقات ، برغبة تيمور بعدم إطلاع الأجيال القادمة على حقيقة تلك العلاقات وطبيعتها . ثم يتابع قوله إنه قد اطلع على وثيقة تحدد العلاقات مع الصين بالشكل الذي تصورها المصادر الصينية، وتقول هذه الوثيقة: « لتعلم أن تيمور سيد العالم قد اعترف بأنه تابع لامبراطورية الوسط ». ولكن برافدان لا يشير إلى مصدر هذه الوثيقة[1]، ولا إلى السبب الذي جعله يفسر المقصود بتعبيره امبراطورية الوسط على أنه امبراطورية الصين. وإذا قوبلت تواريخ إرسال السفارات الصينية إلى تيمور بتواريخ سير السفارات التي بعث بها سيد ماوراء النهر إلى البلاط الصيني ، اتضح من تقارب تواريخ هذه السفارات ، نشاط العلاقات الديبلوماسية بين الجانبين ، واتضح أيضاً أن الاباطرة الصينيين هم الذين بادروا إلى الاتصال بتيمور ، وأن السفارات التي سيرها تيمور كانت دائماً رداً على ما يصل إليه من الامبراطور الصيني .

السفارة الأولى عام ٧٩٠ هـ

وتشير المصادر الصينية إلى أن السفارة الصينية الأولى قد سارت بتاريخ يقابل عام ١٣٨٨ م (٧٩٠ هـ) . وكان هدف الامبراطور الصيني منها توطيد سلطته في المناطق الغربية التي يدعي السيادة عليها ، وإجبار حكام تلك المناطق على الاقرار بذلك.[2] وبلغت السفارة ماوراء النهر في العام التالي ١٣٨٩م (٧٩١هـ) .[3] وكان تيمور في ذلك الوقت يقاتل الجتا في مغولستان ، ويستعد للإغارة على بلاد القبجاق . ولذلك فإنه لم يكن بمقدوره إلا أن يوافق على إدعاءات الامبراطور الصيني ، ويقر له بالتبعية ويرسل إليه من الأموال ما يترتب على هذا الاقرار .[4]

السفارة الثانية عام ٧٩٧ هـ

وأرسلت الصين بعثة جديدة عام ١٣٩١ م (٧٩٣ هـ) .[5] ويبدو أنها كانت تهدف أيضاً إلى التأكيد على أولوية سلطة الامبراطور الصيني ، وإبلاغ تيمور على أنه ليس إلا أحد أتباع هذا الامبراطور .[6] وكان تيمور عند وصول البعثة الجديدة مشغولاً في حملته الواسعة الأولى على بلاد القبجاق، ولذلك فقد تأخر رده حتى رمضان عام ٧٩٦ هـ (تموز ١٣٩٤ م). وكان تيمور في ذلك التاريخ لا يزال يقاتل في غرب إيران . وحملت البعثة التي كلفت بإيصال الرسالة إلى الصين، الأموال المفروضة على تيمور مع إقرار جديد بالتبعية .[7] ويستخلص برافدان — من إشارة يزدي إلى أن الفاتح التركي في قتاله لشاه منصور عام ٧٩٥ هـ ، قد نشر راية جديدة تحمل صورة الحيوان الخرافي "التنين" وهو يبسط ذراعيه —[8] على أنه التزام من تيمور بالتبعية للامبراطور الصيني ، وأن الراية الجديدة التي رفعت في تلك المعركة ، كانت راية الامبراطورية الصينية ، وعليها صورة ذلك الحيوان (التنين) الذي كانت تتخذ صورته شعاراً لها .[9]

---

(١) : Prawdin. ibid .
(٢) : Blochet : op. cit. 243
(٣) : Bouvat: op. cit. P. 47
(٤) : Prawdin : ibid.
(٥) : Blochet: op. cit. P. 243
(٦) : Prawdin . ibid.
(٧) : Brawdin:op. cit. P. 250
(٨) : يزدي : ج ١ ص ٤٣٦
(٩) : Prawdin : ibid.

وعادت الصين إلى الاتصال بتيمور عام ١٣٩٤م (٧٩٧هـ) . وكان تيمور في ذلك الوقت قد عاد حديثاً من حرب السنوات الخمس في بلاد القبجاق وإيران والعراق ، ليقضي أطول مدة استجمام واستراحة في ماوراء النهر امتدت إلى ما يقارب العامين ، قبل أن يغير على الهند . وقد أشار شامي إلى وصول البعثة الصينية إلى سمرقند في ذلك التاريخ .(١) ولكن يزدي يتحدث عن وصول بعثة صينية جديدة عام ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) ، ويقول عنها إنها كانت تحمل تحف وهدايا كثيرة . وكانت مقابلة تيمور لأعضاء البعثة مقابلة ودية . وسمح لهؤلاء بعد أن سلموا الرسالة التي كانوا يحملونها بالانصراف والعودة إلى بلادهم .(٢) ويقول المرجع الصيني الذي أشار إليه بلوشيه إن تيمور رد على السفارة الصينية لعام ١٤٩٤م بسفارة أخرى ، وأورد عن هذه السفارة معلومات مفصلة أكثر مما ذكر عن السفارات السابقة . وجاء في إشارته إلى هذه السفارة قوله : (أرسل "فوما" (Fou-Ma) [وهو الشكل الصيني لاسم تيمور] سمرقند سفارة تتألف من رئيس البرابرة ... وأشخاص آخرين .... وقد حظي هؤلاء بمقابلة ، وقدموا ضرائب ٢٠٠ حصان وكانت الرسالة تقول [ربما قصد تظهر] الاحترام .(٣)

السفارة الثالثة ٧٩٧هـ

ويشير ركود الاتصالات بين تيمور والامبراطور الصيني بعد ذلك التاريخ ، إلى تحول في طبيعة العلاقات بين الجانبين ، لأن علاقة التبعية التي اعترف بها تيمور للامبراطور ، بسبب التهديدات التي كانت تأتيه من ناحية بلاد الجتا والقبجاق ، وظروف التوسع في إيران والعراق قد تلاشت منذ ذلك التاريخ تقريباً . وأضحى من الصعب على الفاتح التركي المتعجرف ، أن يسمح بها عندما أخذ يشعر بتضاؤل تهديدات أعدائه له .(٤) ويشير يزدي إلى مبلغ الفرح والغبطة التي شعر بها تيمور عندما بلغته أنباء وفاة الامبراطور الصيني عام ٨٠٢هـ ، وهو في طريقه إلى ايران . ووصف يزدي هذا الامبراطور بأنه ملك كافر ضال .(٥)

تأزم العلاقات

ولاشك في أن الامبراطور الصيني قد أحيط علماً بالسياسة الجديدة التي بدأ ينتهجها تيمور منذ ذلك الوقت . وانتظر الامبراطور طويلاً – على مايبدو – وهو يأمل أن يعدل تيمور عن انتهاج سياسة العداء . ولم يُسمع عن تبادل البعثات بين الطرفين حتى عام ١٤٠٥م (٨٠٧هـ) ، عقب عودة الفاتح التركي من حروبه في بلاد الكرج والشام والروم. وأشار السفير الاسباني كلافيجو إلى وجود بعثة صينية في سمرقند ، خلال إقامته في هذه العاصمة . وذكر أن هذه البعثة قد تعرضت للإهانة من قبل تيمور ، عندما جاءت تطالبه بالأموال التي كان من المفروض أن يدفعها للامبراطور . ويقول كلافيجو إن الفاتح التركي لما شاهد أعضاء الوفد الاسباني وهم يجلسون في موضع أدنى من مكان جلوس الوفد الصيني ، في إحدى الحفلات ، فقد أمر على الفور أن يحدث تبادل في أماكن جلوس الوفدين بشكل

محنة السفارة الرابعة ٨٠٧هـ

(١) : شامي : ص١٧٢
(٢) : يزدي : ج ٢ص ١٧
(٣) : (٤) Blochet: op. cit. P. 243 Prawdin: ibid .
(٥) : يزدي: ج ٢ص١٥٨

يتقدم فيه الوفد الاسباني على الوفد الصيني . وبرر سيد ماوراء النهر هذا التصرف بأن الوفد الصيني إنما يمثل لصاً معادياً .[١] وأشار إلى مثل هذا السلوك الذى سلكه تيمور مع الوفد الصيني ، القس الباڤاري شيلتبرجر ، وكان يقيم في سمرقند في حاشية تيمور ، فقال إن تيمور قد أفهم المبعوث الصيني أنه لن يدفع أية ضرائب ، وأن على الامبراطور الصيني أن يحضر لمقابلة الفاتح التركي في سمرقند .[٢] ويتحدث يزدي عن أن تيمور قد أعلن أمام وفود الدول التي كانت مجتمعة في سمرقند ، بمناسبة احتفالات أعراس بعض أحفاده ، بأن النية قد انعقدت على شن الحرب على الصينيين الكفار .[٣]

ومن الواضح أن امتناع تيمور عن دفع الأموال للامبراطور الصيني ، عقب عودته منتصراً من حروبه ضد المماليك والعثمانيين في ذلك التاريخ ، ينم عن شعور الارتياح الذي كان يشعر به لعدم وجود من يهدده في الناحية الغربية من أملاكه ، عندما سيقرر القيام بغارة على الصين ، كما أشار إلى ذلك يزدي عندما قال إن شيوع الأمان والاطمئنان في الممالك الخاضعة لحكم تيمور ، كان من أهم الدوافع التي جعلته يفكر بإعداد مشروع لغزو تلك البلاد .[٤] ولكن ابن عربشاه يذهب إلى القول إن فكرة غزو الصين كانت تراود تفكير الفاتح التركي منذ أن كان لايزال يقاتل في بلاد الروم ، وأنه أرسل إلى سمرقند منذ ذلك الوقت ، يطلب اتخاذ إجراءات التعبئة والاستعداد ، كما أمر أن يقوم بعض قواده بجمع المعلومات عن الصين والمناطق المجاورة لها .[٥] ويظهر من ناحية ثانية على الرغم من تقدم تيمور بالسن في ذلك التاريخ ، فقد كان يحلم بالانتقام من أباطرة الصين لقاء المعاملة السيئة التي كان يلقاها منهم خلال السنين الماضية . وزاد في شغفه بتوجيه ضربة للصين إدراكه لحقيقة تقدم سنه ، وخوفه من أن يموت قبل أن يحقق هذا الهدف الذي استطاع جنكيز خان إدراكه من قبل .[٦] ولاشك في أن إخضاع الصين لحكم سيد ماوراء النهر ، هو خطوة هامة في مخططه الطموح للسيطرة على العالم كله ، إذ يجعله الحاكم القوي الوحيد في قارة آسية .[٧] ومن المؤكد أيضاً أن تيمور قد اعتاد على هذا النوع من الحياة ، حياة المحارب الذي لا يؤوب إلى مستقره إلا ليفرغ مايحمله من أسلاب وغنائم ، وينعم بوقت قصير من الراحة والاستجمام ، يضع خلاله الخطط لغزوات جديدة ، من أجل الحصول على مزيد من الغنائم له ولأفراد جيشه الذين اعتادوا على تلك الحياة أيضاً . وكانت أخبار الصين تلك البلاد الواسعة المشهورة بثرواتها ، قد أثارت اهتمام الفاتح التركي ، فجعلها هدفه الجديد التالي الذي قرر أن يسير لتحقيقه ، بعد انقضاء أمد الاستجمام المعتاد في ربوع الوطن ، وهرباً من الضجر والسأم من حياة خالية من المغامرة والتجديد .[٨] ولم ينس تيمور أن يعطي حربه ضد الصين — شأنه في ذلك كما فعل في بقية المناطق التي أغار عليها — صفة الجهاد والفتح ضد بلاد الكفر والفساد .[٩] وتذرع أيضا بأن أسرة مينغ الحاكمة قد اغتصبت الحكم من

(١) : Le Strang:op. cit.P.222-223 (٢) : Terfer:op. cit. P. 28

(٣) : يزدي : ج ٢ص٢٢٣ (٤) : يزدي: ج ٢ص٤٤٦

(٥) : ابن عربشاه ص١٥٩ (٦) : Prawdin:op.cit.P. 251

(٧) : Bouvat:op. cit. P. 65 (٨) : Browne:op. cit.T.III P.202

(٩) : يزدي : ج ٢ ص ٤٥٠

الاباطرة الشرعيين من أسرة "يوان" المغولية، التي ترجع أصولها إلى جنكيزخان . ولذلك فإن تيمور في قتاله لأباطرة أسرة مينغ، فإنه يدافع عن حقوق أسرة الفاتح المغولي بوصفه ممثلاً لأحد فروع هذه الأسرة، وهو بيت جغتاي بن جنكيزخان .(١)

الاهتمام بتحصين الحدود الشمالية

وكان تيمور قد أناط مهمة الإشراف على حماية المناطق الشمالية الشرقية من ماوراء النهر، إلى بعض أحفاده عقب عودته من آخر غزواته إلى بلاد الجتا عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) وعمل عام ٧٩٤ هـ (١٣٩٢ م) على إعادة إعمار مدينة "بناكت" التي تقع على ضفة سيحون، في منتصف منعطفه الكبير نحو الشمال . وكانت المدينة قد هدمتها الغزوة المغولية التي مرت بها عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م)، خلال اكتساح المغول ماوراء النهر بقيادة جنكيزخان . وأطلق تيمور على المدينة بعد إعادة إعمارها اسماً جديداً هو "شاهرخية"، نسبة إلى ابنه شاه رخ . وحمل إليها السكان من المناطق المجاورة للإقامة فيها .(٢) وعين الفاتح التركي عام ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) حفيده محمد سلطان حاكماً على المنطقة وزوده بأربعين ألف جندي وعدد من القواد، وأوصاه أن يهتم بزراعة المنطقة وإعمارها(٣)، ليتمكن من توطين جماعات زراعية مستقرة، تستطيع أن تقف في وجه غارات البدو، وتمنعهم من التوغل في ماوراء النهر . وتتمكن بمالها من إمكانيات زراعية، أن تقدم المؤونة والغذاء للقوات التيمورية(٤) التي ستعبرها لغزو الصين . ولكن المنطقة تعرضت لبعض الاضطرابات عام ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م)، عند وفاة الخان الجغتائي الشرقي "خضر خواجا" الذي سعى في السابق للاحتفاظ بعلاقات ودية مع تيمور . ولكن النزاع اشتد بين أولاده على وراثته، مما أفسح المجال للقوات التيمورية العاملة في المنطقة للتدخل . وكانت هذه القوات بقيادة اسكندر بن عمر شيخ الذي عينه جده حاكماً على انداكان، في ذلك العام (٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م)، ونقل ابن عمه محمد سلطان إلى سمرقند نائباً عنه هناك(٥) . وكان تيمور قد عزم على الخروج في ذلك التاريخ إلى إيران وبلاد الروم والشام .(٦) وانطلق اسكندر من عاصمته انداكان ونجح في إعادة الهدوء للمنطقة الممتدة في قلب آسية حتى الماليغ وآقسو وخوتان وقشغر .(٧) ويشير ابن عربشاه إلى أن اهتمام تيمور بالمنطقة قد ازداد منذ أواخر عام ٨٠٦ هـ ومطلع عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ و ١٤٠٥ م)، وعندما وجه إليها قوات إضافية، وطالب أحفاده هناك بالاستمرار في تحقيق المنطقة وتشجيع الزراعة فيها . وبنيت في ذلك الوقت قلعة دعاها ابن عربشاه بقلعة "باش خمرة"، وقال عنها إنها قد بنيت في مقاطعة "اشباره" .(٨) التي تقع كما ذكر بارتولد بين منطقة سميرتشه وحوض نهر سيرداريا الأعلى .(٩) وكانت آخر أعمال تيمور قبل بدء زحف قواته لغزو الصين، تعيينه حفيده المحبب إليه ألغ بيك، حاكماً للمنطقة الممتدة من طاشقند وسيرام حتى حدود الصين .(١٠)

(١) : Sykes: op. cit. T. II P. 134

(٢) : يزدي: ج ٢ص ١٥٤ ولاتزال أطلال المدينة قائمة إلى اليوم وتعرف باسم شاراكيا انظر: Barthold: Four Studies: P. 61

(٣) : يزدي: ج ٢ص ١٧

(٤) : Barthold : ibid.

(٥) : حافظ آبرو: ص ١٥٢

(٦) : "انظر الفصل السادس من الباب الخامس"

(٧) : حافظ آبرو: ص ١٥٦ — ١٥٨ ويزدي: ج ٢ص ٢٥٩

(٨) : ابن عربشاه: ص ١٥٩

(٩) : Barthold: ibid.

(١٠) : يزدي: ج ٢ص ٤٤٩

الاستعدادات للحملـــــة

ولما استقر رأي الفاتح التركي على غزو الصين، دعى أحفاده وأمراءه إلى اجتماع (قوريلتاي) لدراسة مشروع الحملة. وتحدث تيمور في هذا الاجتماع، وأشار إلى سيطرته على كثير من ممالك العالم، وخضوع حكام الأرض في المشرق والمغرب لسلطته. ثم تكلم عن كثرة قواته وجنده، وبيّن للحاضرين ما بدر من جانب حكام الصين "المشركين" من جرائم وزلّات، وعرض عليهم آخر ما استقرت عليه العلاقات بينه وبين امبراطور الصين. وأيد جميع الحاضرين اقتراح تيمور. وبُديء باتخاذ الاستعدادات لقيام الحملة على الفور.[1] وانصرف القواد إلى جمع المقاتلين وإعداد العربات وجمع المؤن والأعتدة. وتمّ في مدة قصيرة جمع مائتي ألف جندي من ماوراء النهر وخوارزم وبلخ وبدخشان. وانخرط في عداد هذه القوات التتر الذين جيء بهم من بلاد الروم.[2] وأُعدت خمسمائة عربة مصبية بالحديد، وأُلحق بالحملة عددٌ كبير من الحيوانات، لتؤكل لحومها خلال الطريق. وذهب ابن عربشاه إلى حد القول إن أوامر تيمور كانت أن يُعطى لكل جندي مؤونة تكفيه لأربع سنوات.[3] وأخذت هذه القوات تحتشد على ضفاف سيحون في الشمال، في منطقة طويلة تمتد من ياسي وصبران في الغرب، حيث كان يقود الجناح الأيسر الأمير سلطان حسين، إلى طاشقند في الشرق، حيث كانت تحتشد قوات الجناح الأيمن تحت إمرة خليل سلطان، (ابن ميرانشاه بن تيمور)[4]، في الوقت الذي كان فيه القلب تحت قيادة تيمور نفسه. وتقول المصادر الصينية إن أخبار الاستعدادات العسكرية والحشود التي كان يقوم بها تيمور على حدود المناطق التي تقع بين بلاده وبين الصين، قد بلغت مسامع حكام هذه البلاد. وبدأ هؤلاء أيضاً يتخذون بعض الإجراءات العسكرية ويستعدون لدفع هذا الهجوم عن بلادهم.[5]

الزحف إلى ضفاف سيحون

وبدأ موكب تيمور حركته من سمرقند في ٢٣ جمادى الأولى عام ٨٠٧ (٢٨ تشرين الثاني ١٤٠٤م) بعد أمد من الاستراحة قضاه في العاصمة، لم يتجاوز الأربعة أشهر إلا بأيام. وكان الفصل خريفاً. ولم يكن قد بلغ سيحون حيث تحتشد قواته على طول النهر عندما بدأت درجة الحرارة بالانخفاض، وبدأ هبوب الرياح الشديدة، وتلبدت السماء بالغيوم.

تغير الأحوال الجويـــة

ولم يكد يصل إلى ضفة النهر في ١٢ رجب (١٥ كانون الثاني ١٤٠٥م) حتى انخفضت الحرارة إلى حد كبير جداً، وتساقطت الثلوج بغزارة، وتجمد ماء النهر وبلغ سمك الجليد الذي يغطيه ثلاثة أذرع.[6] ويعتقد براون أن انخفاض الحرارة الشديد وما رافقه من سقوط الثلوج على هذه الصورة، في الوقت الذي كان فيه تيمور يقف على رأس قواته على ضفاف سيحون، كان أمراً غير مألوف.[7] وتوقفت الطواحين عن طحن الحبوب لتجمد المياه، وتعطلت صناعة الخبز[8]، وكلما حطم الجند الجليد لإسالة المياه وتشغيل الطواحين، كانت العواصف الثلجية

(١) : يزدي: ج ٢ص ٤٤٧ (٢) : يزدي: ج ٢ص ٤٥٠ وانظر: من أجل التتر الذين جيء بهم من بلاد الروم الفصل الثالث عشر من الباب الخامس.

(٣) : ابن عربشاه: ص ١٦٠ــ١٦١ أما العسقلاني: (ج ٢ص٢٩٨) فقد ذكر أن عدد العربات هو مائة وخمسين. (٤) : يزدي: ج ٢ص٤٥٦ (٥) : بارتولد: تاريخ الترك: ص٢٢٨

(٦) : ابن عربشاه: ص ١٦١ ويزدي: ج ٢ ص٤٥٢

(٧) : Browne: op.cit. T. III P.202 (٨) : ابن عربشاه: ص ١٦٤

تهب من جديد ويعود الماء إلى التجمد . وعبر تيمور سيحون إلى مدينة اوترار علـــى الجليـد .(١)

وحل الفاتح التركي في اوترار في قصر أحد اتباعه ويدعى الامير بردي بيك وتصادف حلول تيمور في القصر مع وصول النار إلى سقف المكان الذي كان ينزل فيه واحتراقه، مما دفع بعضهم –كما يقول يزدي– إلى اعتبار ذلك نذير شؤم، فتحسبوا من نتائجه .(٢)

مرض تيمور

اضطر الفاتح التركي إلى التريث في اوترار، بانتظار إنتهاء موجة البرد والصقيع ، ولكن تيمور سقط مريضاً بصورة مفاجئة في العاشر من شعبان وبدت أعراض الحمى وانحراف المزاج واضحةً عليه .(٣) وفي الوقت الذي لا تتحدث فيه المصادر التيمورية عن أسباب اعتلال صحة تيمور، فإنه يبدو أن ضعف الجسم الناجم عن التقدم في السن أضحى لا يمكن تيمور من تحمل مشقة السفر والارتحال في سبيل القيام بالحروب، ولا سيما في ظروف مناخية سيئة كالتي صادفها في سيره نحو الشمال لغزو الصين .(٤) وكان كلافيجو قد أشار إلى أن الفاتح التركي قد امتنع عن مقابلة السفراء الأجانب، في الآونة الأخيرة من إقامة المبعوث الاسباني فـــي سمرقند ، بسبب مرضه الذي أقعده عن امتطاء جواده . ولذلك فقد كان أحيانا يُحمل على محفة إلى خارج سمرقند ، ليتابع الإشراف على مشاريع الأبنية التي كان يتم تنفيذها في ذلك الوقت .(٥) ويفيد ابن عربشاه وغيره من مؤرخي الشام ومصر أن السبب المباشر الذي أدى إلى وقوع تيمور مريضاً في اوترار، هو إكثاره من تجرع الخمر المقطر كعلاج مضاد للبرد ، بكثرة بعد مزجه بالبهارات والتوابل ، وكانت النتيجة أن أُصيب كبده وأمعاؤه بالتلهب .(٦) وبذل طبيبه الذي كان يرافقه ويدعى فضل الله التبريزي جهوده لمعالجته . وأخذ يضع أكياس الجليد على رأسه وبطنه ، ولكن المرض كانت يشتد ، حتى أخذ في النهاية يتقيأ الدم . ولكن قواه العقلية ظلت بحالة سليمة .(٧)

وصيته

وأدرك تيمور –كما يقول يزدي– أن ساعته قد أزفت . ولذلك فقد أمر أن تجتمع إليه زوجاته وأمراؤه . وطلب من الجميع عدم البكاء وإظهار الفزع والحزن عند وفاته .(٨) ويورد ستيوارت أربع فقرات من المذكرات التي تنسب كتابتها إلى تيمور، تصور حاله في أيامـــه الأخيرة . تناولت الفقرتان الأولى والثانية وصيته لأحفاده، فطالبهم بالاتحاد ونبذ الاختـلاف. وطالب أمراءه بالإخلاص، وأشارت الفقرة الثالثة إلى رغبته بأن يخلفه على حكم سمرقند حفيده بير محمد ابن أكبر أبنائه محمد جهانگير .(٩) ويقول يزدي إن تيمور قد أعلن رغبته هذه فـــي

(١) : يزدي: ج ٢ص ٤٥٨ (٢) : يزدي: ج ٢ص ٤٥٨–٤٥٩ (٣) : يزدي: ج ٢ص ٤٦٣

(٤) : Le Strange: op. cit. Introd. P.13-15: (٥) Cahun: op.cit. P.961

(٦) : ابن عربشاه: ص١٦٥ وابن تغري بردي : ج ١٢ ص ١٦١ والسخاوي: ج ٢ص ٤٩ والقرماني : ص ٢٩١. هذا ويقول القس شيلتبرجر إن اكتشاف تيمور لعلاقة كانت قائمة بين إحدى زوجاته وأحد قواده ثم فرار هذا القائد ومعه مبالغ من المال، سرقها من خزائن الدولة وأمـــر تيمور بقتل هذه الزوجة قد أصاب الفاتح التركي بالحنق مما أدى إلى وفاته انظــــر: Terfer: op.cit.P. 29 (٧) : ابن عربشاه : ص١٦٥ ويزدي: ج ٢ص ٤٦٤ – ٤٦٥ وخوند مير : ج ٦ ص١٤٦ . (٨) : يزدي : ج ٢ص ٤٦٥

(٩) : Stewart: op. cit. The Addenda. P.11

في ذلك الاجتماع الذي عقده قبيل وفاته على الحاضرين من زوجاته وأحفاده وأمرائه .[١] وأورد لانكله نص هذه الوصية فيما كتبه عن تيمور . وجاء فيها على لسان الفاتح التركي قوله وهو يقصد بير محمد : «وأريد أن يمارس السلطة العليا في سمرقند ، وآمركم أن تطيعوه كما أطعتموني . وإنني أطالبكم بأداء اليمين الشرعي » .[٢] وقام الحاضرون بالامتثال إلى ما طلبه تيمور منهم وهم يجهشون بالبكاء . ثم تابع كلامه وهو يرفع عينيه إلى السماء : «إن حسرتي الوحيدة هي أني أموت الآن دون أن أشاهد ولدي شاه رخ . ولكن الله هو الذي أراد ذلك » .[٣] كلامه الأخير

وأما الفقرة الرابعة من المذكرات التي أوردها ستيوارت ، فقد استعطف فيها تيمور أحفاده ليعملوا على تنفيذ القواعد والتنظيمات التي سار عليها خلال حكمه .[٤] وأوردها لانكله بنصها أيضاً : «يا ابنائي لا تنسوا القواعد التي وضعتها لكم من أجل سعادة الرعية . كونوا أمناء ومهتمين بقواعد الإدارة التي وضعتها لكم، لتظل التيجان فوق رؤوسكم وتذكروا في النهاية دائماً الكلمات الأخيرة لرجل محتضر» .[٥] ويقول المؤرخون التيموريون إن الفاتح التركي تحدث لمن حوله بضرورة التحلي بالشجاعة والاهتمام بمصالح الممالك ورفاهية الخلائق وبالقضاء على المخالفين والمفسدين. ويقولون إن ذلك كان آخر كلماته ، ثم غطّ بعدها في سكرة الموت . ولكن لسانه ظل يردد عبارات التوحيد .[٦] ولفظ تيمور أنفاسه الأخيرة ليلة الأربعاء ١٧ شعبان ٨٠٧ هـ (١٨ شباط ١٤٠٥ م) .[٧] وكان بعض رجال الدين حوله يقومون بتلاوة بعض آيات القرآن . وفاته

اهتم أحفاد تيمور وأمراؤه الذين كانوا حوله عند وفاته بتجهيزه وتكفينه . ثم وضع في صندوق خشبي في مساء اليوم التالي ١٨ شعبان (١٩ شباط) . وصلي عليه بعد صلاة العشاء ، وحمل على محفة وخرجت به من اوترار مباشرة وعلى عجل متجهة إلى سمرقند فبلغتها بعد أربعة أيام فقط . ودفن في مقبرته التي أقامها لنفسه في جوار قبر حفيده محمد سلطان ، وقبر الشيخ بركة أحد رجال الدين وكان مقرباً من تيمور في حياته .[٨] وتحرك بعد آونة قصيرة موكب زوجات تيمور اللاتي كن برفقته من اوترار نحو سمرقند ، بعد أن نبذت فكرة متابعة الحملة على الصين أخيراً . نقله إلى سمرقند ودفنه

(١) : يزدي: ج ٢ص ٤٦٥ (٢) : Langlès: Vie de Timur P. 108

(٣) : Langlès: op.cit. P. 108-109 (٤) : Stewart: ibid.

(٥) : Langlès: op. cit. P. 109 (٦) : يزدي: ج ٢ص ٤٦٧ـ٤٦٨ وميرخوند: ج ٦ص ١٤٦

(٧) : ابن عربشاه: ص ١٧ ويزدي: ج ٢ص ٤٦٨ـ٤٦٩ وجعل حافظ آبرو وفاته قبل يوم واحد أي في ١٦ شعبان (زبدة التواريخ ص ٢٠٤) .

(٨) : يزدي: ج ٢ص ٤٧٦ـ٤٧٨ وميرخوند ج ٦ ص ١٤٧ .

الفصل السابع عشر

بعد وفاة تيمور

إعلان نبأ وفاة تيمور - عوامل انقسام الكلمة - حركة سلطان حسين - مبايعة خليل - مزايا خليل - أعماله في سمرقند - ثورات الشمال - شاه رخ وخليل - خليل وبير محمد - غارة القبجاق - تراجع بير محمد عن ما وراء النهر - نهاية بير محمد - نهاية خليل - دور شاه رخ - ميرانشاه وولديه - انتصارات قرا يوسف - عهد شاه رخ : سياسته ، حروبه مع التركمان ، علاقاته مع العثمانيين ، مع الجتا والصين والهند ، مع المماليك ، تقويمه ووفاته - الغ بيك - عبد اللطيف - عبد الله بن ابراهيم - أبو سعيد - التنافس بين أولاده - حسين بايقرا وولده - بابر - الاوزبك .

إعلان نبأ وفاة تيمور

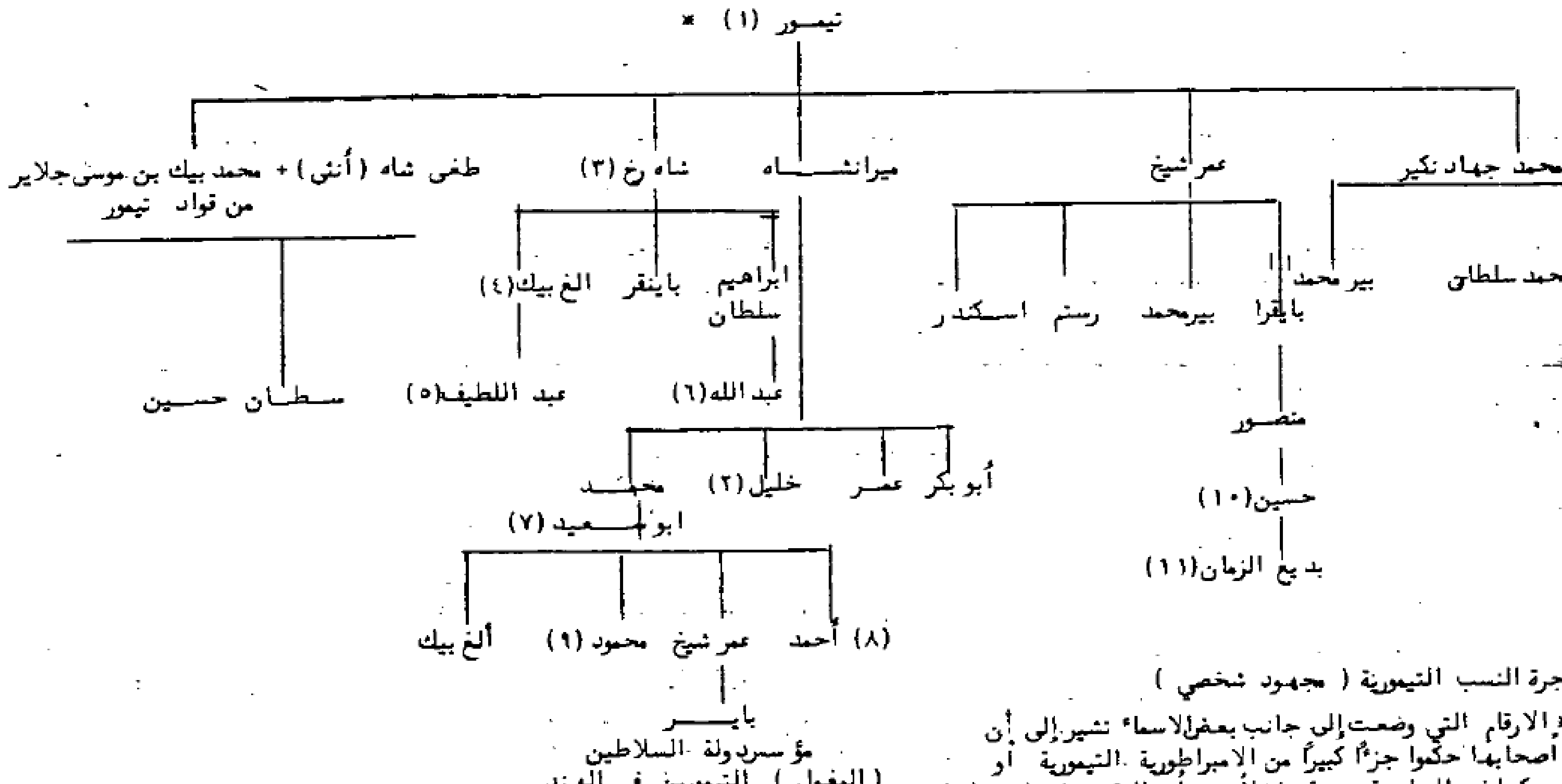
على الرغم من أن وفاة تيمور - كما يقول ابن عربشاه - قد أحدثت اضطراباً في صفوف القوات التي كانت تحتشد على ضفاف سيحون ، (١) فإن الفكرة التي كانت سائدة للوهلة الأولى عند زوجات تيمور وأمرائه الذين كانوا حوله عند وفاته هي استغلال هذا الحشد الكبير من الجيوش لمتابعة الزحف على الصين . (٢) وأرسل هؤلاء إلى أبناء تيمور وأحفاده وغيرهم من حكام أقاليم الدولة المختلفة رسلاً لإعلامهم بنبأ الوفاة ، وبتفاصيل وصية الفاتح التركي التي تقضي بتسليم مقاليد الحكم إلى الأمير بير محمد بن جهانكير . (٣)

عوامل انقسام الكلمة

ولكن كثرة الأمراء من أبناء وأحفاد الفاتح التركي الذين وصل عددهم إلى المائة عند وفاته ، (٤) ساعد عقب هذه الوفاة وغياب سلطة تيمور القوية التي كانت تهيمن على الجميع ، على ظهور المطامع والطموحات الشخصية عند بعض هؤلاء الأمراء . وكان لكل أمير منهم حاشية كبيرة تدعي الدفاع عن مصالحه . وبينما كان لبعض هؤلاء الأمراء إقطاعه الخاص الذي يتولى حكمه منذ أن عينه تيمور عليه ، فإن البعض الآخر منهم كالأمير خليل سلطان بن ميرانشاه والأمير حسين سلطان بن طغى شاه بنت تيمور ، لم تكن لهم مثل هذه الإقطاعات . ولكن كانت تحت إمرة هذين الحفيدين عند وفاة تيمور ، قوات عسكرية كبيرة هي جزء من الحملة العسكرية التي كان تيمور قد عزم على المسير بها إلى الصين . وكانت قوات خليل سلطان تتجمع حول مدينة طاشقند ، بينما كانت قوات حسين سلطان تقف بالقرب من ياسي وصبران قريباً من سيحون . ولذلك فقد ظهرت بوادر الانقسام والرغبة في الخروج على وصية تيمور عند هذين الحفيدين. وكان تيمور يحقد على حفيده خليل لإقدامه على الزواج من إمرأة فارسية ، (٥) وصفت بأنها من عامة الشعب تدعى "شاد ملك" ولذلك لم يخصص له جده منطقة معينة كما فعل مع

(١) : ابن عربشاه : ص ١٧٠ (٢) : يزدي : ج ٢ ص ٤٧٦ - ٤٧٧
(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٤٧٣ وقد أشار إلى رسائل بهذا المعنى قد أرسلت إلى كل من شاه رخ بن تيمور في هيرات وإلى عمر بن ميرانشاه في تبريز وأخيه أبي بكر في بغداد ، وكذلك إلى خليل سلطان في طاشقند وحسين سلطان في ياسي ثم إلى بير محمد في غزنة التي كان يتولى حكمها من جده منذ عام ٧٩٤ هـ ١٣٩٢ م" (يزدي : ج ١ ص ٤٠١ وج ٢ ص ٤٧٣) .
(٤) : حافظ آبرو : ص ٢٠٠ (٥) : يزدي ج ٢ ص ٤٥٤

شجرة النسب التيمورية



شجرة النسب التيمورية (مجهود شخصي)

* الارقام التي وضعت إلى جانب بعض الاسماء تشير إلى أن أصحابها حكموا جزءاً كبيراً من الامبراطورية التيمورية أو حكموا في العاصمة سمرقند فضلاً عن أن الرقم يدل على تسلسل الحكام التيموريين زمنياً .

بقية أحفاده ليتولى حكمها .[1] وربما كان حرمان سلطان حسين من منطقة خاصة به أيضاً ، لخروجه على جده تيمور عند حصار دمشق عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١م)، وانضمامه إلى الأعداء، مما أغضب جده عليه وجعله يأمر بمعاقبته عندما ألقي القبض عليه . وظل تيمور معرضاً عن مخاطبته مدة من الزمن .[2]

وبدت أول مظاهر المعارضة من جانب سلطان حسين الذي وصفه يزدي بالخبث وحب الفتنة ،[3] عندما أرسل بعض أتباعه إلى سمرقند لدراسة الأوضاع فيها، وليهيئوا له الجو المناسب ، منذ أن علم بمرض جده ، وأنه يحتضر على فراش الموت . ولم يلبث أن أخذ يتقدم بقواته من مواقع نزولها حول ياسي وصبران باتجاه اوترار . وكان قد بلغ صحراء جوكلك في ضواحي تلك المدينة (اوترار) ، عندما لفظ تيمور أنفاسه الأخيرة . ولما علم بوفاة جده وبعزم زوجاته على العودة إلى سمرقند ، بعد طرح فكرة متابعة الحملة على الصين جانباً ، أسرع بالتحرك من هناك نحو العاصمة .[4]

وكانت حركة سلطان حسين سبباً لأن يرسل الأمراء والقواد الموجودون في اوترار إلى خليل سلطان في طاشقند ، يخبرونه بما أقدم عليه حسين، كما بعثوا إلى حاكم سمرقند الذي كان تيمور قد عينه عليها قبل خروجه ، يوصونه بالحذر والاحتراز . ويقول بعض المؤرخين الفرس إن محاولة حسين الاستئثار بالسلطة في سمرقند لنفسه ، دفعت القواد الملتفين في طاشقند حول خليل إلى مبايعته كخليفة لجده في رمضان من ذلك العام (٨٠٧ / آذار ١٤٠٥م).[5]

وعلى الرغم من إعلان خليل بأنه سوف يحكم نائباً عن ابن عمه بير محمد حاكم غزنة ، وصاحب الحق بخلافة تيمور حسب وصيته ، فإن خطوة خليل باستيلائه على الحكم لم تلق موافقة زوجات تيمور وأحفاده الآخرين كألغ بيك وأخيه ابراهيم ابني شاه رخ ، واللذين كانا قد خرجا مع الجيش للاشتراك في حملة الصين . وكان موكب هؤلاء قد تحرك يريد العودة إلى العاصمة عندما وصلتهم رسالة من خليل الذي ظل في طاشقند ، يبرر لهم ما أقدم عليه ، ويعلمهم أن ما فعله لم يكن إلا من أجل استقرار الحكم والقضاء على الفتن ، ويبين لهم أن المصلحة تقتضي منهم موافقته على ما فعل . وعقد الأحفاد والخواتين (زوجات تيمور) ومن معهم من القواد، اجتماعاً في مكان قريب من سمرقند ، درسوا فيه رسالة خليل ، وبعد التشاور تم الاتفاق على ضرورة التمسك بوصية تيمور ، ورفض أي تغيير فيها مهما كانت المبررات ، وأن على خليل أن يعلن إذعانه لما جاء في هذه الوصية ، بالتراجع عما أقدم عليه . وارسلوا يعلمونه بما اتفقوا عليه .[6] ولم يفلح تبادل الرسائل بين الجانبين في حل الخلافات بينهما . وأخذ بعض القوات التي كانت محتشدة على ضفاف سيحون ، يعبر النهر عائداً إلى ما وراء النهر، ليلتحق بموكب الأحفاد والخواتين . وعمد بعض القواد إلى تحطيم الجسور المقامة على النهر لمنع

(١) : ابن عربشاه : ص ١٨٥ (٢) : انظر الفصل التاسع من الباب الخامس "احتلال دمشق"
(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٤٨٢ (٤) : ميرخوند : ج ٦ ص ١٤٧
(٥) : يزدي : ج ٢ ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ وميرخوند : ج ٢ ص ١٤٨
(٦) : يزدي : ج ٢ ص ٤٨٦ ـ ٤٨٨

قوات خليل من استخدامها لعبور سيحون والوصول إلى سمرقند .[١] ولما حاول موكب الأحفاد والخواتين الدخول إلى سمرقند ، وجد أبوابها موصدة في وجهه ، لأن حاكم العاصمة قد أعلن انضمامه إلى خليل ، مما اضطر الموكب إلى متابعة السير إلى بخارى ، حيث استقبلهم حاكمها استقبالا طيباً في رمضان ٨٠٧ هـ (آذار ١٤٠٥ م) . وعمد حاكم بخارى إلى اتخاذ إجراءات الدفاع والتحصين استعداداً للقتال[٢] المنتظر مع قوات خليل .

مزايا خليل

وكان خليل في الحادية والعشرين من العمر عند وفاة تيمور . وقد ساعده قربه من جده عند وفاته على سرعة التصرف في الوقت الذي كان فيه بقية أبناء تيمور وأحفاده يحكمون في مناطقهم البعيدة .[٣] وكانت له شخصية محببة . وقد دفعت أخلاقه الحميدة وطلعته الجميلة عدداً من أمراء تيمور وقواده إلى التحمس له ، فضلاً عن تأييد الرعية — كما أشار إلى ذلك كل من ابن عربشاه وميرخوند وغيرهما —[٤] ويصفه بوفا بأنه كان رجلاً كريماً انسانياً ، وأن الأمراء الملتفين حوله كانوا يعاملونه خلال الزحف شمالاً للإغارة على الصين قبيل وفاة تيمور باحترام زائد على أنه الحاكم المرشح لخلافة جده .[٥]

أعماله في سمرقند

وتمكن خليل من الوصول إلى سمرقند بسهولة . واستقبله حاكم المدينة ارغون شاه وكبراء الدولة في ظاهر العاصمة ، وكانوا يلبسون الثياب السوداء حداداً على تيمور . وتسلم خليل من ارغون شاه مفاتيح العاصمة . وجلس على العرش في ١٦ رمضان (١٨ آذار) . وباشر تصريف أمور الدولة على أنه نائب عن ابن عمه بير محمد ، الذي كانت مناشير الدولة تصدر باسمه . وزار خليل قبر جده . وتقبل أمام القبر العزاء من الأمراء والقواد وأعيان الدولة . وتليت أمام القبر أيضاً قصائد الرثاء ، ووزعت الصدقات على الفقراء ، كما أجزلت الجوائز للأمراء تألفاً لقلوبهم .[٦] وأدرك خليل أن إقبال الناس على تأييده مرهون بمقدار ما يبذله من مال . فأكب على ثروات جده وكنوزه التي جمعها خلال حروبه الماضية . وأخذ يغدق منها بسخاء بلغ حد الإسراف .[٧] ومع ذلك فإن الأوضاع لم تستقر ، وسرعان ما ثار اثنان من قواد المناطق الشمالية فيما وراء سيحون هما (خدايداد) و (الله داد) ، وتقدما بقواتهما جنوباً حتى ضواحي سمرقند ، في شوال (نيسان) فنهبوها .[٨] وعلى الرغم من نجاح خليل في الايقاع بين القائدين ، مما اضطرهما إلى الانسحاب ثانية إلى سيحون ، فإن هذه المنطقة استمرت — فيما بعد — منطلقاً للثوار للقيام بغارات على ماوراء النهر من وقت لآخر . وأضحت معظم المدن الواقعة على سيحون بين سغناق وطاشقند في قبضة الثوار .[٩]

ثورات الشمال

شاه رخ وخليل

وكان شاه رخ بن تيمور في هيرات قد أرسل إلى سمرقند بعض أتباعه لدراسة الموقف عن كثب ، عندما بلغه نبأ وفاة أبيه . وأعلن له حكام خراسان الغربية وسيستان ومازندران خضوعهم . وقام باتخاذ بعض إجراءات الدفاع في عاصمته هيرات ، عندما علم بجلوس خليل

(١) : ابن عربشاه : ص ١٧٣ ويزدي : ج ٢ ص ٤٩٣ (٢) : يزدي : ج ٢ ص ٤٩٠ وميرخوند : ج ٦ ص ١٤٩ — ١٥٠ . (٣) : ابن عربشاه : ص ١٧٤
(٤) : ابن عربشاه : ص ١٧٢ وميرخوند ج ٦ ص ١٤٨ والسخاوي : ج ٣ ص ١٩٤
(٥) : Bouvat: op. cit. P. 95,100 (٦) : ابن عربشاه : ص ١٧٥ وميرخوند : ج ٦ ص ١٥٠ (٧) : ابن عربشاه : ص ١٧٥ ويزدي : ج ٢ ص ٥١٣ (٨) : ابن عربشاه : ص ١٧٩
(٩) : ابن عربشاه : ص ١٨٣

على العرش في سمرقند ، وبحصار قواته لولدي شاه رخ ألغ بيك وإبراهيم في بخارى . وتقدم في الوقت نفسه (رمضان / آذار) إلى الشمال حتى ضفاف جيحون . وأرسل من هناك إلى خليل في سمرقند رسالة ودية يقترح عليه الاتفاق وحل الاختلاف بصورة سلمية. واستجاب خليل لطلب عمه ، وسمح لالغ بيك وإبراهيم بالخروج من بخارى مع أتباعهما وأموالهما سالمين[1]. وأما الخواتين فقد عدن إلى سمرقند . وتم الاتفاق أيضاً على أن يرسل خليل لابن عمه بير محمد بعض مبالغ من الأموال ، وعلى أن يكتفي خليل بحكم ماوراء النهر حتى نهر جيحون ، على أن يترك ماتبقى من امبراطورية تيمور إلى عمه شاه رخ ، الذي عاد بعد ذلك إلى هيرات ، في آخر ذي الحجة ٨٠٧ هـ (آخر حزيران ١٤٠٥ م)[2]. وينظر إلى تصرف شاه رخ وإقراره لخليل بالاحتفاظ بعرش سمرقند له ، على أنه مخالفة منه لوصية أبيه تيمور، وموافقة على إبعاد بير محمد الموصى له بعرش سمرقند عن الوصول إلى حقه . ومهما يكن من أمر فإن كلاً من خليل وشاه رخ ظل يمارس مع الآخر سياسة الحذر ، فقام خليل بعد ثلاث سنوات (في صفر ٨١٠ هـ/ تموز ١٤٠٧ م) بتحصين ترمذ الواقعة على نهر جيحون، فاضطر عمه إلى بناء حصن جديد مقابل هذه المدينة ،[3] التي تقع على خط الحدود الفاصل بين أملاك الجانبين .

خليل وبي

وفي الوقت الذي كان فيه خليل منهمكاً بتوجيه الحملات ضد الثوار في شمال ما وراء النهر ، تحرك من الجنوب من مدينة " قندهار " بير محمد بن محمد جهانكير ، صاحب الحق الأصلي في وراثة تيمور . ويبدو أن اتفاق شاه رخ مع خليل لم يعجبه ، فقدم على رأس قواته من قندهار يريد عرش سمرقند . ودارت بينه وهو في الطريق وبين خليل مراسلات حاول كل منهما أن يثبت حقه للآخر بوراثة عرش جده .[4] ولما لم ينته الجدال بالمراسلة الذي استمر زهاء عام إلى حسم الخلاف، فقد عبرت قوات خليل جيحون إلى بلخ وكانت بقيادة سلطان حسين — وكان حسين قد عاد عن عصيانه ومطالبته بالعرش لنفسه وانضم إلى خليل — لاعتراض تقدم بير محمد . وحلا لسلطان حسين أن يعود للعصيان على خليل، فترك القتال وعبر النهر بقواته إلى الشمال . ولما هزمته قوات خليل بالقرب من كيش (شهري سبز) أجبر على الفرار إلى خاله شاه رخ في هيرات .[5]

غارة القب

واستغل ايدكو — أحد قواد القبجاق — الحالة المضطربة التي سادت ماوراء النهر في تلك الآونة في إثر وفاة تيمور ، فأغار بقوات كبيرة على منطقة خوارزم لإعادتها مرة ثانية إلى حكام القبجاق .[6] ولم يقو حاكمها التيموري على الصمود أمام الهجوم ، ولاذ بالفرار . ونجح ايدكو — كما يقول ابن عربشاه — بانتزاع خوارزم من حكم التيموريين . وعين عليها أحد أتباعه . ووصلت قواته في رجب عام ٨٠٨ (كانون الثاني ١٤٠٥ م) إلى ضواحي بخارى ونهبتها .[7]

(١) : ميرخوند : ج ٦ ص ١٥٠ — ١٥٢ (٢) : ميرخوند : ج ٦ ص ١٥٢
(٣) : ابن عربشاه : ص ١٩٨ — ١٩٩ (٤) : ابن عربشاه : ص ١٨٤ — ١٨٦ ، أرسل خليل يسأل بير محمد عن كيفية الوصول إلى الملك بالانتساب أم بالاكتساب فإن كان بالانتساب فإن ميرانشاه وشاه رخ أولى به لأنهما من أبناء تيمور . وإن كان بالاكتساب وهو الأصح لأن الملك عقيم لا يورث والدليل على ذلك أن تيمور نفسه قد وصل إلى الملك بالتغلب والاغتصاب وهذا ماقام به خليل الآن .
(٥) : ا[illegible] عربشاه : ص ١٨٨ — ١٨٩
(٦) : انظر الفصل الثاني من الباب الرابع . (٧) : ا[illegible] [illegible]ربشاه : ص ١٨٤

وكانت غارة القبجاق هذه أول انتقام لهم من الأتراك الجغتائيين ، رداً على الغارات السابقة التي قام بها تيمور على بلادهم .(١)

ولم تلبث قوات بير محمد أن عبرت جيحون إلى ماوراء النهر في رمضان ٨٠٨ هـ (آذار ١٤٠٥ م) . ودارت بينها وبين قوات خليل معركة بالقرب من قرشي انتهت إلى اندحار بير محمد وفراره .(٢) ولم تكن مغامرة بير محمد الثانية للقدوم إلى ماوراء النهر في العام التالي اكثر نجاحاً من المغامرة الأولى . فقد حاصرته قوات ابن عمه في "شادمان" شمال جيحـــون . واضطر إلى التعهد لخليل بعدم الاغارة مرة ثانية على ماوراء النهر لقاء خلاصه من الحصار . كما تعهد أيضاً بأن يكتفي بما تحت يده من البلاد في منطقة غزنه وقندهار .(٣) وهكذا فقد اتضح من سير الأحداث أن بير محمد لم يكن جديراً بالآمال الكبيرة التي كان يعلقها عليه جده تيمور في وراثته لعرش سمرقند ، والسير على سياسته فيما يتعلق بالامبراطورية التي أسسها . فقد أقر على نفسه - على العكس من ذلك - بالتنازل عن حقه بوراثة جده ، وقبل أن يتحول إلى حاكم من الدرجة الثانية ، لإحدى المناطق النائية التابعة للامبراطورية التيمورية . وقد أطمع ضعفه وإدمانه على الخمر والمجون وزيره ويدعى "علي تاز" فأقدم على قتله في محاولة منـــه الحلول محله في حكم تلك المناطق . ولكن شاه رخ لم يلبث أن أغار على قندهار وألحقهـــا بمملكته في هيرات .(٤)

تراجع بير محمد عن ماوراء النهر

نهاية بير محمد

فشل خليل في الإمساك بزمام الأمور بعد جلوسه على العرش في سمرقند ، بسبب تتالي ثورات قواد جده السابقين عليه ، ومحاولة بير محمد الإغارة على ماوراء النهر للوصول إلى العرش ، في الوقت الذي لم يرزق فيه من الحاشية المحيطة به ، مساعدين مخلصـين يعينونه على تخطي المصاعب التي كانت تواجهه . ونجح أحد الثائرين عليه باعتقاله في مكان قريب من العاصمة في آخر عام ٨١١ هـ (ايار ١٤٠٩) ، بتحريض من أحد مساعدي خليـل نفسه . واستطاع الثوار على إثر ذلك اجتياح سمرقند نفسها ، وسيق خليل أسيراً (٥) إلـــى انداكان . وانتقل زمام المبادرة بعد ذلك إلى شاه رخ حاكم هيرات .

نهاية خليل

وكان شاه رخ ، ابن تيمور الرابع في ذلك الوقت ، في الثانية والثلاثين من العمر .(٦) وقد أسرع في عبور جيحون والتقدم إلى سمرقند عند سماعه بأنباء أسر خليل . واستقبل سكان العاصمة ابن الفاتح التركي بالترحاب . وكان أول عمل قام به شاه رخ هو الانتقام من الحاشية التي كانت حول خليل . وكان سكان سمرقند قد نجحوا في حجز أغلب أفراد هذه الحاشـية ، ومنعوهم من الفرار في إثر رحيل خليل عن المدينة . وزار شاه رخ بعد ذلك قبر والده لأول مرة ، وأقام مراسم العزاء عليه من جديد . ولكنه وضع يده على كل ماكان على القبر من أسلحـة ونفائس . واعتقلت زوجة خليل شاد ملك ، وفرضت عليها غرامة باهظة . وشهر بها في أسواق المدينة .(٧) ولم ينس خليل في منفاه في انداكان زوجته الحبيبة الأسيرة في سمرقند . فأرسل

دور شاه رخ

(١) : انظر الفصل الثاني والفصل الرابع من الباب الخامس . (٢) : ابن عربشاه : ص ١٩١
(٣) : ابن عربشاه : ص ١٩٤-١٩٥ (٤) : ابن عربشاه : ص ١٩٥
(٥) : ابن عربشاه ص ٢٠٢ و ٢٠٧ (٦) : يزدي : ج ١ ص ٢١٠ الذي ذكر ان مولد شاه رخ كان بتاريخ ١٤ ربيع الآخر عام ٧٧٩ هـ (٧) : ابن عربشاه : ص ٢٠٥-٢٠٧

وكانت غارة القبجاق هذه أول انتقام لهم من الأتراك الجغتائيين ، رداً على الغارات السابقة التي قام بها تيمور على بلادهم .[١]

تراجع بير محمد عن ماوراء النهر

ولم تلبث قوات بير محمد أن عبرت جيحون إلى ماوراء النهر في رمضان ٨٠٨ هـ (آذار ١٤٠٥ م). ودارت بينها وبين قوات خليل معركة بالقرب من قرشي انتهت إلى اندحار بير محمد وفراره .[٢] ولم تكن مغامرة بير محمد الثانية للقدوم إلى ماوراء النهر في العام التالي اكثر نجاحاً من المغامرة الأولى . فقد حاصرته قوات ابن عمه في "شادمان" شمال جيحون. واضطر إلى التعهد لخليل بعدم الاغارة مرة ثانية على ماوراء النهر لقاء خلاصه من الحصار. كما تعهد أيضاً بأن يكتفي بما تحت يده من البلاد في منطقة غزنه وقندهار .[٣] وهكذا فقد

نهاية بير محمد

اتضح من سير الأحداث أن بير محمد لم يكن جديراً بالآمال الكبيرة التي كان يعلقها عليه جده تيمور في وراثته لعرش سمرقند ، والسير على سياسته فيما يتعلق بالامبراطورية التي أسسها . فقد أقر على نفسه — على العكس من ذلك — بالتنازل عن حقه بوراثة جده ، وقبل أن يتحول إلى حاكم من الدرجة الثانية ، لإحدى المناطق الثانية التابعة للامبراطورية التيمورية . وقد أطمع ضعفه وإدمانه على الخمر والمجون وزيره ويدعى "علي تاز" فأقدم على قتله في محاولة منه الحلول محله في حكم تلك المناطق . ولكن شاه رخ لم يلبث أن أغار على قندهار وألحقها بمملكته في هيرات .[٤]

نهاية خليل

فشل خليل في الإمساك بزمام الأمور بعد جلوسه على العرش في سمرقند ، بسبب تتالي ثورات قواد جده السابقين عليه ، ومحاولة بير محمد الإغارة على ماوراء النهر للوصول إلى العرش ، في الوقت الذي لم يرزق فيه من الحاشية المحيطة به ، مساعدين مخلصين يعينونه على تخطي المصاعب التي كانت تواجهه . ونجح أحد الثائرين عليه باعتقاله في مكان قريب من العاصمة في آخر عام ٨١١ هـ (ايار ١٤٠٩) ، بتحريض من أحد مساعدي خليل نفسه . واستطاع الثوار على إثر ذلك اجتياح سمرقند نفسها ، وسيق خليل أسيراً[٥] إلى انداكان . وانتقل زمام المبادرة بعد ذلك إلى شاه رخ حاكم هيرات .

دور شاه رخ

وكان شاه رخ ، ابن تيمور الرابع في ذلك الوقت ، في الثانية والثلاثين من العمر .[٦] وقد أسرع في عبور جيحون والتقدم إلى سمرقند عند سماعه بأنباء أسر خليل . واستقبل سكان العاصمة ابن الفاتح التركي بالترحاب . وكان أول عمل قام به شاه رخ هو الانتقام من الحاشية التي كانت حول خليل . وكان سكان سمرقند قد نجحوا في حجز أغلب أفراد هذه الحاشية ، ومنعوهم من الفرار في إثر رحيل خليل عن المدينة . وزار شاه رخ بعد ذلك قبر والده لأول مرة ، وأقام مراسم العزاء عليه من جديد . ولكنه وضع يده على كل ماكان على القبر من أسلحة ونفائس . واعتقلت زوجة خليل شاد ملك ، وفرضت عليها غرامة باهظة . وشهر بها في أسواق المدينة .[٧] ولم ينس خليل في منفاه في انداكان زوجته الحبيبة الأسيرة في سمرقند . فأرسل

(١) : انظر الفصل الثاني والفصل الرابع من الباب الخامس . (٢) : ابن عربشاه : ص ١٩١
(٣) : ابن عربشاه : ص ١٩٤ — ١٩٥ (٤) : ابن عربشاه : ص ١٩٥
(٥) : ابن عربشاه ص ٢٠٣ و ٢٠٧ (٦) : يزدي : ج ١ ص ٢١٠ الذي ذكر أن مولد شاه رخ كان بتاريخ ١٤ ربيع الآخر عام ٧٧٩ هـ (٧) : ابن عربشاه : ص ٢٠٥ — ٢٠٧

يستعطف عمه بشأنها . ولكنه لم يلبث أن تمكن من الفرار والعودة إلى سمرقند ، بعد مقتل آسره خدايداد في إحدى غزواته لبلاد الجتا . ولم يمكّن شاه رخ خليلاً من أن يعود إلى الحكم ، ونقله بعد أن جمعه بزوجته حاكماً للري في إيران . ولكنه لم يلبث أن توفي بعد مدة وجيزة عام ٨١٤ هـ (١٤١١ م) هناك ، وانتحرت زوجته حزناً عليه .[١]

ميرانشاه وولديه

وفي الوقت الذى كانت الأحداث تسير فيه لتركيز السلطة بيد شاه رخ ، في الجزء الشرقي من امبراطورية تيمور ، فقد بدا أن الجناح الغربي من هذه الامبراطورية قد أضحى مستقلاً تحت حكم ولدي ميرانشاه (الابن الثاني لتيمور) ، عمر الحاكم في تبريز وأبي بكر الحاكم في بغداد . وكان تيمور قد عينهما في منصبيهما قبل عودته الأخيرة إلى ماوراء النهر عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٤ م) .[٢] ومارس عمر على أخيه أبي بكر ووالده ميرانشاه الذي كان يقيم في بغداد أيضاً ، نوعاً من الأولوية والرقابة .[٣] وعلى الرغم من ميرانشاه كان يشبه أباه في كثير من أعماله ،[٤] فإن مكانته عند والده قد انحطت منذ سقوطه عن ظهر حصانه عام (٧٩٨ هجري) (١٣٩٦ م) ، وما نجم عن هذه الحادثة من خلل في قوى ميرانشاه العقلية ، مما جعل تيمور يقرر وضعه تحت رقابة ولديه عمر وأبي بكر .[٥] وعلى الرغم من حالة ميرانشاه العقلية فقد حاول التصدي لمحاولات أخيه شاه رخ لتركيز السلطات فى يده ، ولكنه لم يوفق واضطر إلى التراجع أمامه عام ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، بسبب اشتداد التنافس بين ولديه عمر وأبي بكر في ذلك الوقت .[٦] وقد تمكن أبو بكر في النهاية من قتل شقيقه عمر عام ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م)[٧] والانفراد بالسلطة في الجناح الغربي من الامبراطورية التيمورية . وكانت الحروب الأهليةبين

انتصارات قرا يوسف

أفراد الفرع الغربي من أسرة تيمور قد أفسحت المجال أمام العدو القديم قرا يوسف زعيم تركمان الغنمة السوداء ، ليسترجع منهم حكم اذربيجان .[٨] وكان قرا يوسف قد عاد من القاهرة حيث كان يقيم لاجئاً إلى دولة المماليك ،[٩] في إثر سماعه بوفاة تيمور . واستطاع الانتصار على أبي بكر في المعركة التي دارت بالقرب من نخشيڤان في بلاد الكرج ، وأن يسترجع منه عقب ذلك تبريز في العام نفسه (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) . ولما حاول أبوبكر في العام التالي استعادة المدينة ، أنزل قرا يوسف بقواته هزيمة ساحقة ، كان من نتائجها مقتل أبي بكر نفسه .[١٠] ولقي ميرانشاه المصير نفسه عام ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) على يد قرا يوسف ، وهو يحاول الانتقام لمقتل ابنه .[١١] وكان من أهم نتائج حروب ميرانشاه وولديه في الغرب ، خروج العراق وشمال غرب إيران من دائرة النفوذ التيموري ،[١٢] فضلاً عن إبادة الفرع الغربي من أسرة تيمور إبادة كاملة ، بعد أربع سنوات فقط من وفاته .

(١) : ابن عربشاه : ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(٢) : انظر الفصل الخامس عشر من الباب الخامس .

(٣) : Bouvat: Timurides (E.I. T.V P.P.820-822) P. 820

(٤) : Barthold: Ulgh Beg.P.34

(٥) : Bouvat: op.cit.P. 820

(٦) Grousset: L'Empire des Strppes P.535

(٧) : ابن عربشاه : ص ١٧١

(٨) : Wilber: op.cit. P. 60

(٩) : Huart: Kara-Koyun-Lu (E.I.T.II P.P.785-786) P. 785
وانظر أيضاً الفصل الثاني عشر من الباب الخامس .

(١٠) : Grousset: op. cit. P. 539

(١١) : العسقلاني : ج ٢ ص ٤٦٧

(١٢) : Grousset: ibid.

وينهي مقتل ميرانشاه عام ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) الدور الأول من حياة الدولة التيمورية بعد وفاة تيمور . وكانت هذه الدولة فيه قد قاربت من أن تنقسم إلى دولتين كبيرتين ، حكم القسم الغربي ميرانشاه وولداه . وهيمن على القسم الشرقي شاه رخ من عاصمته هيرات.

عهد شاه رخ

ويبدأ الآن الدور الثاني من حياة هذه الدولة ، بحكم شاه رخ الذي امتد مدة طويلة نسبياً، بين ٨١١ ــ ٨٥٠ هـ (١٤٠٨ ــ ١٤٤٧ م) . وقد خضعت خراسان لحكم شاه رخ المباشر. وتُركت ماوراء النهر تحت حكم ابنه ألغ بيك الذي اتخذ من سمرقند عاصمةً له . وابتعد شاه رخ (١) عن سياسة التشدد التي سار عليها والده . وحاول تلافي نتائج الأعمال التي وقعت في عهده . (٢) وترك ولدي شقيقه عمر شيخ (الابن الثاني لتيمور) يحكمان في اصفهان وشيراز، (٣) بعد أن اعترفا له بسلطة اسمية عليهما . ولكنه كان يتدخل من وقت لآخر لحل الخلافات التي كانت تنشب بينهما . (٤) ويشير ابن عربشاه إلى أنه عندما كتب كتابه عن تيمور حوالي عام ٨٤٠ هـ (١٤٣٦) ، كانت ممالك خراسان وماوراء النهر وخوارزم وعراق العجم واذربيجان والهند تعترف بسلطته ، (٥) في الوقت الذي كانت فيه حدود الدولة الشمالية تقف عند مدينة شاه رخية على نهر سيحون ، بعد أن فقدت نفوذها في مناطق اشبارة وايسيق ــ كول حيث تمكن الجتا من استرجاعها . (٦)

سياسته

حروبه مع التركمان

حاول شاه رخ الانتقام لمقتل أخيه ميرانشاه على يد قرايوسف ، فاندفع نحو ايران الغربية في غزوتين عام ٨٢٣ و ٨٣٢ هـ (١٤٢١ و ١٤٢٩ م) ، في سبيل ردع التركمان من التقدم شرقاً إلى خراسان أيضاً، ولإعادة النفوذ التيموري إلى اذربيجان . وعلى الرغم من النجاح الذي حققه في هاتين الغزوتين ، واضطرار اسكندر بن قرا يوسف ــ الذي خلف أباه عند وفاته عام ٨٢٣ هـ (١٤٢١ م) على زعامة عشائر الغنمة السوداء ــ إلى الفرار من وجهه، فإن اسكندر كان ينجح في استعادة نفوذه على المنطقة ، في إثر كل من هاتين الغزوتين . وعمد شاه رخ إلى إرسال حملة ثالثة عام ٨٣٧ هـ (١٤٣٤ م) إلى اذربيجان . وحاول اتباع سياسة جديدة في المنطقة بتولية " شاه جهان " شقيق اسكندر الحكم هناك ، على أن يعترف بالتبعية للدولة التيمورية . (٧) ولم يكد تركمان الغنمة السوداء يحصلون على اعتراف شاه رخ لهم بحكم اذربيجان ، حتى تعرضوا لتهديد أبناء جنسهم تركمان الغنمة البيضاء ، بزعامة "اوزون حسن " الذي استطاع القضاء على حكم شاه جهان وقتله والسيطرة على اذربيجان عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) ، وظل للغنمة السوداء بعض النفوذ في أجزاء من العراق العجمي وفارس وكرمان . (٨)

---

(١) : ولد شاه رخ في ١٤ ربيع الآخر عام ٧٧٩ هـ (٢٥ تموز ١٣٧٧ م) (يزدي : ج ١ ص ٢١٠). عينه والده على حكم خراسان وهو ابن عشرين عاماً خلفاً لأخيه ميرانشاه الذي عين حاكماً على اذربيجان (يزدي ج ١ ص ٥٧٣) . رافق شاه رخ والده في كثير من حروبه فكان معه في إيران والعراق وبلاد الشام وآسية الصغرى . اشتهر من أولاده اربعة : ألغ بيك وباي سنقر وإبراهيم وأحمد (Barthold:op.cit.P.37) قامت زوجته والدة الغ بيك وباي سنقر بأعمال عمرانية عظيمة منها مسجد "كوهرشاد " (وهو اسمها) في مدينة مشهد على قبر الإمام على الرضا

(٢) : Wilber:op.cit.P. Blochet:op.cit.P.244, Bouvat:op.cit. 119

(٣) : انظر الفصل الخامس عشر من الباب الخامس (٤) : Grousset:op.cit.P.538

(٥) : ابن عربشاه : ص ٢٠٨ (٦) Barthold:Four St--ies P.61

(٧) : Grousset: ibid. (٨) : Grousset:op. cit.P.540

وفي الوقت الذي فقد فيه شاه رخ نفوذه الفعلي في إيران ، فقد حاول أن يستعيض عنه بعد نفوذ التيموريين من جديد على الدولة العثمانية التي استطاعت أن تتماسك وتتحامل على نفسها و تنهض ، بعد الضربة التي حلت بها في معركة انقرة على يد تيمور . ويقول أبو المحاسن بن تغري بردي المعاصر إن السلطان العثماني مراد الثاني حفيد بايزيد الأول ٨٢٢ ـ ٨٥٤ هـ (١٤٢١ ـ ١٤٥١ م) ، لم يستطع إلا أن يرد رداً طيباً ، على رسالة شاه رخ التي أرسلها له عام ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) ، وأن يقبل بالاقرار له بالتبعية ، كما قبل أن يلبس الخلعة التي بعث بها إليه . ولبس خلعة شاه رخ كل من ابن قرمان وأمير دولة ذي القدر في جنوب الاناضول . وقد سبب ذلك انزعاج سلطات القاهرة المملوكية .(١)

علاقاته مع العثمانيين

ولم تفلح الغزوة التي أنفذها شاه رخ بقيادة الغ بيك ـ حاكم سمرقند ـ عام ٨٢٨هـ (١٤٢٥ م) ، لاسترجاع نفوذ التيموريين في المناطق التي تلي سيحون من الشمال وحتى بحيرة ايسيقكول . كما أنه لم يفلح في السير على سياسة التشدد التي سار عليها والده مع أباطرة الصين من أسرة مينغ في آخر حياته . فأرسل ، كما تؤكد المصادر الصينية ، سفارتين إلى الصين عام ١٤٠٨ و ١٤٠٩ م (٨١١ و ٨١٢ هـ) . وتلقى على سفارتيه رداً من الامبراطور ، "داي ـ مينغ" (Dai-Ming) عام ١٤١٢ م (٨١٥ هـ) ، حمله وفد كبير يتجاوز عدد أفراده ألف رجل . واثنى الامبراطور الصيني في رده على شاه رخ ، لأنه يسعى لرفاهية شعبه ، وأعلمه بوصول سفرائه إليه ومعهم الهدايا التي بعث بها . وتابع الامبراطور قوله مخاطباً شاه رخ "إن والدك تيمور قد أقر بالتبعية لنا ، وكان يرسل إلينا الهدايا والسفراء . ووجدنا أنك تسير على هداه . ولقد أرسلنا لك سفيرنا ... ومعه الهدايا والخلعة لنبرهن لك عن محبتنا وإخلاصنا . ونحن نرى أن تستمر العلاقة بيننا ، حتى نتمكن من التفاوض والتجارة . ويجب أيضاً أن تعتبرنا على أننا أسيادك ".(٢) وأرسل حاكم دلهي بدوره إلى شاه رخ في عام ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) يعترف له بسيادته عليه .(٣)

وصادفت علاقات شاه رخ بدولة المماليك بعض الصعوبات في المرحلة الأولى من حكمه ، وفي عهد السلطان المملوكي برسباي (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ ـ ١٤٣٧ م) . فقد أرسل إلى القاهرة عام ٨٣٣ رسالة طلب فيها أن ترسل إليه نسخة من كتاب "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" الذي ألفه المؤرخ وعالم الحديث المعاصر "ابن حجر العسقلاني" ، ونسخة من تاريخ "تقي الدين أحمد بن علي المقريزي" ، وهو كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" ـ والمقريزي هو مؤرخ معاصر أيضاً ـ وأعلن شاه رخ في رسالته عن رغبته بتقديم كسوة للكعبة في مكة . وبينما يشير ابن تغري بردي إلى أن سلطات القاهرة ، رفضت تلبية أي طلب في رسالة شاه رخ "وكتب إليه بالمنع في كل ما طلب".(٤) فإن ابن حجر العسقلاني مؤلف كتاب يقول إنه قد أرسل إلى شاه رخ الأجزاء الثلاثة الأولى من هذا المؤلف(٥) مما يفيد بأن

مع المماليك

(١) : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج ١٥ ص ١٦٢
(٢) : Blochet : op. cit. P. 246 - 247
(٣) : Bouvat : L'Empire Mongol , 116 - 117
(٤) : ابن تغري بردي: ج ١٤ ص ٣٣٦ (٥) العـ... : ج ٣ ص ٤٣٤

ذلك كان بمبادرة شخصية من المؤلف نفسه .

وعاد شاه رخ إلى مكاتبة المماليك عام ٨٣٦ هـ (١٤٣٣ م)، ومطالبتهم مرة ثانية بالسماح له بكسوة الكعبة . وكانت عبارته شديدة اللهجة وتوعد في رسالته السلطان برسباي إذا لم يوافق على طلبه، وخاطبه فيها بلقب أمير . ولكن السلطان المملوكي امتنع عن الرد عليه .(١) وأرسل شاه رخ للمرة الثالثة عام ٨٣٨ هـ (١٤٣٥ م) وفداً إلى القاهرة ، وأفاد بأنه قد نذر على نفسه أن يقوم بكسوة الكعبة . وطلب من السلطات المملوكية أن ترسل إليه من يستلم هذه الكسوة . وحمل الوفد التيموري في هذه المرة بعض الهدايا للسلطان المملوكي . وعقد القضاة في القاهرة بناء على طلب السلطان مجلساً للنظر في حق شاه رخ بكسوة الكعبة . وكان ممن حضر هذا الاجتماع ابن حجر العسقلاني . وتقرر بعد المناقشة رفض طلب شاه رخ، خوفاً من أن يطلب غيره من الملوك مثل ذلك ، وأفهم رسول ابن تيمور الذي حضر الاجتماع سبب هذا الرفض ، فوافق عليه ووجده سبباً وجيهاً . وأعيد الوفد التيموري محملاً بالهدايا إلى بلاده .(٢) وعاد شاه رخ إلى التهديد والوعيد في الرسالة الرابعة التي بعث بها إلى القاهرة في العام نفسه (٨٣٨ هـ/ ١٤٣٥ م) . وأشار إلى أنه يرغب في زيارة القدس . واتهم السلطان المملوكي بأنه يقبل الرشوة ويتعاطى التجارة . فلم يلتفت برسباي إلى الرسالة.(٣) وحاول شاه رخ في العام التالي (٨٣٩ هـ/ ١٤٣٦ م) تحريض أحد الأمراء المماليك - هو جانبك الصوفي - على الثورة والانفصال ببلاد الشام ، ووعده بأن يرسل إليه مساعدات عسكرية وقوات بقيادة ابنه أحمد جوكي . ولكن ثورة جانبك الصوفي انتهت إلى الفشل. وأرسل أمير إمارة ذي القدر الذي ألقى القبض على الأمير المملوكي الثائر ، يعلم القاهرة بما فعل .(٤)

ووصلت القاهرة في تلك الأثناء (٨٣٩/ ١٤٣٦ م)، بعثة جديدة (البعثة الخامسة) من قبل شاه رخ . وجاء في الرسالة التي حملتها معها ، مطالبة ابن تيمور للسلطان المملوكي بما كان يطالب به الفاتح التركي في السابق ، وهو ضرب السكة باسمه . وتجرأ المبعوث التيموري وأخرج في حضرة السلطان المملوكي خلعة أرسلها شاه رخ إلى بارسباي ، ليخلع بها عليه . وخاطب المبعوث التيموري السلطان بعبارات غير لائقة . وغضب برسباي وأمر بتمزيق الخلعة وإهانة المبعوث . وشاهد المؤرخ أبو المحاسن - الذي كان يحضر مقابلة المبعوث للسلطان - السفير التيموري وهو يضرب بالعصا " ضرباً مبرحاً خارجاً عن الحد " ، ثم سحب إلى بركة ماء فألقي فيها حتى أشرف على الهلاك . ثم طلب منه الرحيل على الفور. وعلق برسباي على جرأة شاه رخ قائلاً : " ولاني نيابة مصر إلا أنا [كذا] لا أرتضيه شحنة لي على بعض قرى أقل أعمالي . وإن لم يعجبه فليمش بقواته للقتال في العام القادم . وإلا فإنه ضعيف مدع ".(٥)

وتحسنت العلاقات بين شاه رخ والمماليك في عهد السلطان المملوكي جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ/ ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م) ، الذي وصل إلى العرش بعد وفاة السلطان برسباي،

(١) : ابن تغري بردي: ج ٣ص ٤٣٤ (٢) : العسقلاني: ج ٣ص ٥٢٥ وابن تغري: ج ١٥ ص ٤٩
(٣) : ابن تغري بردي: ج ١٥ ص ٥٩ (٤) : ابن تغري بردي : ج ١٥ ص ٦٧
(٥) : ابن تغري بردي: ج ١٥ ص ٧٣

وحلول ابنه يوسف في عرش السلطنة لمدة عام تقريباً . وأخذت سلطات القاهرة في عهد جقمق تستقبل وفود شاه رخ بالترحيب . وكان هذا الحال مع الوفد الأول الذي وصل القاهرة عام ٨٤٣ هـ (١٤٣٩م) ليسأل عن سبب موت برسباي ، ومع الوفد الثاني الذي وصل في العام التالي لتقديم التهنئة بجلوس جقمق ، وهو يحمل هدايا عديدة [(١)]. وأشار ابن تغري بردي إلى الخلعة التي خلعها السلطان المملوكي على رسول شاه رخ قبيل عودته إلى بلاده ، فقال عنها إنه لم يسبق أن خُلع مثلها على رسول قبله [(٢)].

وقصد القاهرة في عام ٨٤٨ هـ (١٤٤٤م) وفد تيموري كبير ، يزيد عدد أعضائه عن مائة رجل . وقد مر الوفد قبل وصوله إلى القاهرة على دمشق ، حيث توقفت هناك إحدى أرامل تيمور ، وكانت إمرأة عجوزاً ، قدمت لاداء فريضة الحج بمرافقة الحجيج الشامي . ووصلت إلى القاهرة مع الوفد التيموري كسوة الكعبة التي أرسلها شاه رخ . وكانت سلطات القاهرة قد أذنت للعاهل التيموري في العام الماضي ، بتقديم هذه الكسوة ، وسمح للسلطان جقمق بذلك دون الرجوع إلى القضاة ، وبرر ذلك بقوله : "إن هذه قربة ، ويجوز أن يكسو الكعبة كائناً من كان" . ولكن هذا التصرف لم يلق قبولاً عند الأمراء المماليك وعامة سكان القاهرة ، الذين قاموا بالاغارة على مكان نزول الوفد التيموري في العاصمة ، ورجموه بالحجارة ونهبوا ما وجدوه فيه. وأسرعت سلطات الأمن بالتدخل ، بناء على أمر من السلطان جقمق نفسه الذي أغضبه هذا العمل ، فأصر على معاقبة الفاعلين . ولم تسفر أعمال سلطات الأمن إلا عن إرجاع بعض المنهوبات [(٣)].

تقويمه ووفاته

كان شاه رخ من أبرز الشخصيات التي أنجبتها أسرة تيمور . ووصف بأنه محارب شجاع لا يخشى القتال ولكنه يميل إلى السلم [(٤)]. جعل من عاصمته هيرات المركز الفكري والفني للدولة التيمورية التي بلغت في عهده عصر الازدهار الحضاري ، [(٥)] كما بلغت في عهد أبيه عصر الازدهار السياسي والعسكري . وكان بلاطه يعج بالمهندسين والمعماريين والرسامين والعلماء والموسيقيين والشعراء ، وكان هو نفسه شاعراً [(٦)]. وهكذا تحول أحد أبناء المقوض الكبير للحضارة الإسلامية في إيران ليضحي من أكبر حماة هذه الحضارة [(٧)]. وتعني وفاته في ٢٥ ذي الحجة عام ٨٥٠ هـ (١٤ آذار ١٤٤٧م) ، إيذاناً بفتح باب الصراع من جديد بين أفراد الأسرة التيمورية على السلطة [(٨)].

ألغ بيك

ولم يحكم ألغ بيك بن شاه رخ بعد أبيه إلا مدة عامين ، وإن كان قد أمضى مدة طويلة في حكم ماوراء النهر كنائب عن العاهل التيموري هناك . اهتم ألغ بيك بالعمران في سمرقند التي أعادها عاصمة للدولة مرة ثانية . وفاقت الأبنية التي أقامها فيها ، تلك الأبنية التي شادها جده من قبل . ورعى العاهل الجديد أيضاً الحركة الفكرية . وبنى مدرستين

(١) : ابن تغري بردي: ج ١٥ ص ٢٢٧ و ٢٤٣ (٢) : ابن تغري بردي: ج ١٥ ص ٣٤٤
(٣) : ابن تغري بردي : ج ١٥ ص ٣٦٤ — ٣٦٥
(٤) : Bouvat : op. cit. P. 119 , Grousset:op. cit. P. 536.
(٥) : Prawdin: op. cit. P. 254, Grousset: op. cit. P. 538
(٦) : Grousset: ibid. (٧) : Wilber:op. cit. P. 61
(٨) : Bouvat: op. cit. P. 120

جامعتين في كل من بخارى وسمرقند ، ولكنه أولع بعلم الفلك بشكل خاص . وقام بنفسه بوضع ملاحظات وآراء في هذا العلم ، كانت نتيجة مشاهداته وأبحاثه[١] الخاصة التي انتشرت فيما بعد في أوربا. وقد طبعت في انكلترا عام ١٦٦٥ م بعض الجداول الفلكية التي قام الغ بيك بوضعها . ولاتزال آثار المرصد الفلكي الذي أقامه في سمرقند ماثلة إلى اليوم .[٢]

حاول الغ بيك أن ينتصر للعادات والتقاليد التركية ، مقلداً بذلك جده تيمور . ولكنه لم يستطع أيضاً أن يتخلص من تأثير الثقافة الفارسية التاجيكية . ولم يتمكن عندما سعى للسير على خطوات جده أن يصل إلى ما وصل إليه جده ، لأنه لم تكن له المواهب العسكرية والسياسية ذاتها . ولم تكلل غزوته عام ٨٢٨هـ (١٤٢٥ م) -في حياة أبيه- إلى مناطق بحيرة ايسيق -كول لإعادة نفوذ التيموريين إليها بالنجاح . وكان الأتراك الجغتائيون قد انسحبوا من تلك المناطق منذ أيام حكم خليل ، وتقدم الجتا لاحتلالها .[٣] وأما في المجال الداخلي فعلى الرغم من أن عامة الناس لم يكونوا يخشون ألغ بيك كما كانوا يخشون جده ، إلا أن حبهم له كان أقل من حبهم لتيمور . واستطاع أحد الزعماء الروحيين المتنسكين ، ويدعى الخواجة "عبد الله احرار" ، أن يحرك على الغ بيك ثورة شعبية ، تمثلت فيها بعض مظاهر حقد الطبقات الفقيرة على رفاه الطبقات العليا في المجتمع التيموري ، وتنعكس فيها أيضاً روح الجهاد القومي الإيراني ضد النفوذ التركي .[٤] وقد اتهم اولغ بيك ومن حوله من الحاشية التي كانت تضم العلماء والفنانين وبعض رجال الدين ، بعدم رعاية أحكام الدين، وبالانغماس في المحرمات .[٥] وكانت الطريقة غير الموفقة التي عالج بها أولغ بيك حركات المعارضين ، وتساهله معهم ، بسبب ما جبل عليه من طيبة القلب ، ثم افتقاره إلى الحزم ، مشجعاً لابنه عبد اللطيف الذي أعلن عليه الثورة في بلخ عام ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) ، ونجح في تقديمه إلى محاكمة صورية حكمت بقتله بعد ذلك بعدة أشهر .[٦]

إلا أن ردة الفعل الدينية التي استغلها عبد اللطيف ضد والده ، لم تدم طويلاً[٧] وجعله إقدامه على قتل أبيه مقيتاً من بعض أعوان جده شاه رخ . واستطاع أحد هؤلاء اغتياله عبد اللطيف بعد ستة أشهر من إعتلائه العرش في أحد البساتين بجوار العاصمة سمرقند ثم قطع رأسه وحمل إلى هيرات ، حيث وضع أمام باب المدرسة التي بناها شاه رخ هناك .[٨] وهنالك من يعتقد أن الهيكل العظمي الذي عثر عليه حديثاً في قصر آق سراي في كيش ، وكان بدون رأس ، هو البقية الباقية من جثة عبد اللطيف بن ألغ بيك .[٩]

---

(١) : Grousset : op. cit. P. 541

(٢) : Prawdin : op. cit. P. 255, Wilber op. cit. P. 62

(٣) : Barthold: Four Studies P. 61 - 62

(٤) : بارتولد : تاريخ الترك : ص٢٢٩ (٥) : بارتولد : تاريخ الترك : ص٢٢٨

(٦) : Barthold: ibid. Grousset: ibid. Prawdin: ibid.

(٧) : Bouvat: op. cit. P. 130 (٨) : Barthold: op. cit. P. 63

(٩) : Oumniakoo et Aleskerou : op. cit. P. 13

حكام خانية القبجاق ، بين ١٢١٢ ـ ١٣٤٠م (٧٤١)[1]. وأطلق اسم اوزبك في القرن الخامس عشر الميلادي ، على سائر أجزاء القسم الذي خصص لجوجي بن جنكيز خان من امبراطورية أبيه ، وعلى الشعوب التي تحلّ فيه ، كما أطلق اسم جغتاي (شقيق جوجي) على القسم الذي خصص لجغتاي بن جنكيز خان من امبراطورية الفاتح المغولي ، وعلى الشعوب القاطنة فيه .[2] واشتهر الاوزبك بتسمية أخرى هي "الشيبانيون" نسبة إلى شيباني خان وهو الابن الأصغر لجوجي بن جنكيز خان الذي كانت حصته من أملاك أبيه أيضاً الأراضي الواقعة بين نهري ايلي وسيحون .[3] وهي مناطق قريبة من ماوراء النهر ، كانت تسكنها الشعوب التي كتب لها أن تلعب دوراً بارزاً على مسرح الأحداث في ماوراء النهر وخوارزم ، لعل أهمها القضاء على الدولة التيمورية . وقطع الاوزبك ـ كفرع من فروع المغول ـ شوطاً في مضمار التترك كالجغتائيين ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ الجغتائيين في مجال الاقتباس والتأثر بالمدنية الايرانية (التاجيكية) . وظلوا أكثر احتفاظاً من هؤلاء بالعادات والتقاليد البدوية ، التي كان أبرزها الخصائص العسكرية ، والظهور بمظهر الغزاة الفاتحين ، في الوقت الذي بدا فيه الجغتائيون أكثر ليونة وحضارة من الاوزبك .[4] ومن مظاهر تترك الاوزبك تكلمهم باللغة التركية فقط ، واضحت مدينة "ياسي" التي اتخذوها عاصمة لدولتهم تعرف منذ مطلع القرن الخامس عشر باسم "تركستان" (أرض الترك) . واعتبر الاوزبك "أحمد يسوي (نسبة إلى ياسي) وهو أحد رجال الدين الأتراك الذي توفي ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) والمدفون في المدينة ، بطلاً قومياً لهم[5]. ولذلك فقد اعتبرهم برافدان من الشعوب الطورانية .[6] وعثر في المبنى الذي كان قد أقامه تيمور على قبر أحمد يسوي على قبور لعدد من خانات وخواتين الاوزبك .[7]

وليس من المستطاع الآن تحديد الوقت الذي بدأ فيه الاوزبك هجرتهم نحو الحوض الأدنى لنهر سيحون ، حيث أقاموا دولتهم ، وجعلوا ياسي "تركستان" عاصمة لهم .[8]

(١) : بارتولد : تاريخ الترك : ص ١٨٠ ولعل السبب في إطلاق اسم اوزبك خان على شعبة من شعب الوس جوجي يرجع كما يقول ارنولد إلى رغبة قبائل هذه الشعبة التي اعتنقت الاسلام في عهده أن تنسب نفسها إلى الخان الذي ترتبط به ارتباطاً دينياً . فقد اعتنق الاوزبك خان الإسلام أيضاً (ارنولد ص٢٠٦) ، وحكم بعد عدد من الحكام غير المسلمين . ولذلك فإن عهده يعتبر العصر الذهبي لخانية القبجاق من وجهة نظر المؤرخين المسلمين لأنه اتخذ الاسلام لأول مرة في تاريخ القبجاق ديناً رسمياً للدولة. وتحسنت لذلك علاقاته بدولة المماليك في مصر فأرسل إحدى قريباته إلى القاهرة كزوجة للسلطان محمد الناصر . وكانت تربطه في الوقت نفسه علاقات حسنة مع الامبراطور البيزنطي اندرونيك الثالث باليولوغ (١٣٢٨ـ١٣٤١م) . وتزوج ابنة الامبراطور وسمح للجنويين بتجديد أسوار مستعمرتهم التجارية "كافا" في القرم ، كما سمح للبنادقة بانشاء مستعمرة "تانا" على بحر آزوف وتلقى شكر البابا يوحنا الثاني والعشرين لتقديمه الحماية للبعثة الكاثوليكية التي مرت بعاصمته سراي عام ١٣٣٩ . وكانت البعثة تحمل له هدية من البابا وهي حصان جيء به من آقينيون بفرانسا " (Saunders op.cit.P.164) ونعته القرماني (ص٣٣٦) بأنه مسلم حسن الاسلام .

(٢) : بارتولد : تاريخ الترك : ص ١٨٠ (٣) : بارتولد : تاريخ الترك : ص١٦٨

(٤) : بارتولد : تاريخ الترك : ص ٢٤٠ و Bouvat:op. cit. P. 87

(٥) : بارتولد : تاريخ الترك : ص٢٤٣ و ٢٤٦ . (٦) : Prawdin:op.cit.P. 255

(٧) : انظر الفصل الثالث من الباب السادس : (٨) : بارتولد : تاريخ الترك : الذي قال عن مدينة تركستان إنها : "كانت قد أصبحت في وقت ما عاصمة الاوزبك" ص ٢٤١ .

البـــاب السـادس

اعمـال تيمـور الحضـاريـة

الفصـــل الأول

الإدارة والقضـــاء والجيـش

التنازع بين الشريعة الاسلامية والياسا ـ مبادئ تيمور الادارية : نظرته الى الحكم ، الاستبداد ، الفردية ، استشارته الآخرين ، الحذر ، الكتمان ـ المؤسسات الادارية المركزية ـ الوزراء ـ المالية ـ إدارة الولايات ـ الحسبة ـ القضاء ـ جنسيات الجيش ـ الفرق والمراتب العسكرية ـ الرواتب والمكافآت ـ التموين والامداد ـ اللباس والسلاح ـ الروح المعنوية ـ الانضباط ـ التعبئة ـ الاستطلاع والتجسس ـ الخطط والعمليات ـ عبقرية تيمور العسكرية ـ الحرب النفسية ـ المعسكرات ٠

التنازع بين الشريعة الإسلامية والياسا

فى الوقت الذى يصرح فيه تيمور أنه قد اتخذ الشريعة الإسلامية ، التي كانت تسود فى ماوراء النهر قبل قدوم المغول أساساً للدولة ،(١) فإن هذه الشريعة ظلت في الغالب منطلقاً نظرياً ، وظلت شريعة الياسا " التي وضعها جنكيز خان مقدمة في التطبيق على الشريعة الإسلامية فى كثير من المجالات ٠(٢) وظل تيمور فى مجال الإدارة والحكم بشكل خاص يطبق إلى حد كبير الشريعة المغولية ٠(٣) وكان الخروج على تعاليم هذه الشريعة يستدعي غضبه ٠ وقد أشار يزدى إلى أنه كان من جملة أسباب نقمته على ميرانشاه حاكم اذربيجان عام ٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م ، عدم تطبيقه لأحكام هذه الشريعة ٠(٤) ولم تكن مجموعة التنظيمات الإدارية التي تدعى " توزوكات " (Tuzukat) والتي ينسب وضعها إلى تيمور نفسه ، إلا إضافات على الشريعة المغولية ، وتنطلق من المبادئ نفسها التي انطلقت منها تلك الشريعة ،(٥) ويذهب بعضهم إلى القول ، أن تيمور لم يكن ليتجاسر على إلغاء شريعة الياسا ليحل محلها الشريعة الإسلامية ، ولذلك فقد وُصف بأنه " مسلم سيء الإسلام " ٠(٦) ولذلك أيضاً فقد ظل العمل لإلغاء الياسا وإحلال الشريعة الإسلامية محلها ، هدف كثير من الناس حتى إلى ما بعد وفاة تيمور ٠(٧)

---

(١) : جاء فى مذكرات تيمور قوله : " واعتبر الخضوع لله وطاعة رسوله وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية واحترام آل البيت أمراً ضرورياً " انظر : Stewart: P. 5 وجاءت في مقدمة إحدى نسخ المذكرات وتدعى النسخة الامبراطورية فقرة ـ أوردها ستيوارت بنصها الفارسي الملحق الحادي عشر لترجمته للمذكرات إلى الانكليزية ـ وتقول هذه الفقرة : إن هدف تيمور كان تقوية الدين والملة المحمدية وترويج مذهب أهل السنة والجماعة ، والقضاء على المذاهب الباطلة ٠٠ انظر أيضاً Stewart: The Appendix P.XI

(٢) : ابن عربشاه : ص١٥ وقد أشار إلى ذلك بريبه انظر Bréhier: Le Monde Byzantin P. 473

(٣) : Barthold: Ulugh Beg P. 25

(٤) : يزدي ج٢ ص١ (٥) Bouvat: Essai sur ..(J.A.1926 T. CCVIII P.196

(٦) : Grousset: op.cit. P. 494

(٧) : يقول ابن عربشاه : إن شاه رخ بن تيمور ظل متمسكاً بتطبيق الياسا انظر ابن عربشاه ص٢١٢ ، وقد طالب بير محمد حفيد تيمور عمه شاه رخ بإلغائها

إن منشأ التنازع بين الشريعة الإسلامية وبين الياسا ، يرجع إلى أن مجتمع ما وراء النهر في عهد تيمور ، كان ينقسم إلى عنصرين مختلفين إلى حد كبير من الناحية العرقية والحضارية .[١] هما الأتراك الجغتائيون الحاكمون ، حديثو العهد بالإسلام ، الذين كان تيمور يستند إلى قوتهم العسكرية في دعم سلطته وإضفاء صفة الشرعية عليها ، من وجهة نظرهم ، كورثة للتقاليد المغولية القديمة ، والتاجيك الفرس المسلمون المحكومون ، الذين كان تيمور يستغل تفوقهم الحضاري ونشاطهم[٢] . وكان أغلب رجال الدين - بمن فيهم من كان يدعي الانتماء إلى آل البيت - الذين كان لهم دور كبير في دعم سلطة تيمور أيضاً ، ينتمون إلى هؤلاء التاجيك . وكانوا بدورهم يسعون من جانبهم لتطبيق الشريعة الإسلامية[٣] وكانت نتيجة التنازع بين الشريعتين أن أعطيت الشريعة الإسلامية - كما يقول بارتولد - المكانة الثانية .[٤] وقد أشار إلى ذلك من قبل العسقلاني فقال عن تيمور إنه " يطبق قواعد جنكيز خان ويجعلها أصلاً ".[٥] ، لأن تيمور لم يشعر بالحاجة إلى الإسلام إلا لإضفاء الشرعية على سلطته من وجهة نظر رعاياه التاجيك، وليبرر أعماله ، ويحيط عرشه بمظاهر السمو والتبجيل .[٦] فقد ورد في كلام أحد الخطباء في الاجتماع الذي عُقد في بلخ عام ٧٧١ هـ (١٣٧٠ م)، لتنصيب تيمور قوله : "إنني أنا المنحدر من الحسين حفيد الرسول، بالاتفاق مع جميع سادة مكة والمدينة ، نُعيّن الأمير تيمور ونعتبره على أنه وكيل الخليفة في منطقة توران ".[٧] ووردت في المذكرات إشارات عديدة يفهم منها أن تيمور كان يرى في رجال الدين عاملاً لاستقرار الحكم ، فهم دعامة الملك الذي سينهار بسرعة إذا حُرم من دعمهم المعنوي ، ولأن أحداً من الناس لن يطيع أوامر الحاكم ونواهيه إذا لم يكن يتمتع بثقة رجال الدين وتأييدهم .[٨]

ولم يعد موقف تيمور من الشريعة الإسلامية أكثر من إظهار النوايا الحسنة ، كإظهار الاحترام لآل البيت ورجال الدين ، واعتبار مهمة نشر الإسلام من مهام الدولة الرئيسية ،[٩] ثم التسليم لرجال الدين ببعض الامتيازات: كالإعفاء من الضرائب وإدارة أملاك الأوقاف والإشراف على المساجد، وممارسة الافتاء والقضاء في الأمور الدينية ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أسواق المدن والقرى .[١٠] وأُستثني من شمول الشريعة الإسلامية كل ما يتعلق بحياة البدو وأمور الجيش[١١] ، وأنواع من العقوبات على بعض الجرائم . فقد استند كاهون إلى قول تيمور في التزوكات - التنظيمات - " لقد عينت قاضياً في الجيش وأقمت قاضياً آخر للرعية "[١٢]، ليستنتج أن ذلك يعني إبعاد تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عن القضايا المتعلقة بالجيش.[١٣]

ولعل تيمور كان يحاول في بعض الأحيان التوفيق بين الشريعتين من وجهة نظره ، فقد

(١) : انظر الفصل الثالث من الباب الثاني . (٢) : Prawdin: op. cit. P. 193
(٣) : (٤) : Barthold: Four Studis p.54
(٥) : العسقلاني : ج ٢ ص ٣٠٢ (٦) : Barthold:op. cit. P. 58
(٧) : Stewart: op. cit. P. 134 (٨) : Stewart: op. cit. P. 5,8
(٩) : Langlès:op. cit. P. 30-31, Stewart: op. cit. P. 5
(١٠) : Langlès: op. cit. P. 13-14 (١١) : Prawdin: op. cit. P. 194
(١٢) : Langlès: op. cit. P. 14 (١٣) : Cahun: op. cit. P. 946

ويحاول تيمور من ناحية ثانية أن يجد للسلطة مصدرًا آخر يدعم به فكرة الإستيلاء والقوة والوصول إلى الحكم ، فهو يقول في مكان آخر من المذكرات : "إن الله هو الذي يعطي السلطة لبعض الأشخاص ويضعها في أيديهم ، فإذا أحسنوا استعمال هذه السلطة وحققوا الأمن فإن ممالكهم تعمر، ولكنهم إذا أساؤوا وظلموا وطغوا وارتكبوا الموبقات ، فإن ريح هؤلاء تذهب وتؤول أملاكهم إلى غيرهم " (١) ويبدو أن تيمور في هذا القول يسعى ليدعم سلطته من ناحية أولى بتأييد سماوي ، وليبرر من ناحية ثانية وصوله إلى الحكم ، على أنه رد على طغيان الحكام السابقين الذين سيطروا على البلاد وظلموا العباد . وقد انتهى الأمر ليصبح مبدأ الوصول إلى الحكم عن طريق القوة والإستيلاء ، تقليدًا متبعًا بين أحفاد تيمور ، فضلاً عن تبرير لوصول تيمور كواحد من عامة الناس في ماوراء النهر إلى منصب السلطة العليا . فقد استند إلى هذا المبدأ خليل سلطان ليبرر مخالفته لوصية جده ، التي قضت بأن يخلفه في الحكم حفيده الآخر بير محمد . وكانت وجهة نظر خليل — كما نقلها ابن عربشاه — أن الملك يكون بالاكتساب وليس بالانتساب ، لأنه لوكان كذلك لكان كل من ميرانشاه وشاه رخ (ولدا تيمور) أولى به مني ومنك ، ومضى خليل في جداله لابن عمه قائلاً : إن جدك إنما توصل إلى الملك بالتغلب والاغتصاب بأن الملك عقيم لايورث وهو صيد والأولى به من حاز فيه قصب السبق " . (٢)

وتظهر في قواعد تيمور الإدارية روح الاستبداد والفردية ، الاستبداد والفردية والرغبة في إحاطة سلطته كحاكم أعلى بمظاهر السمو والرفعة . ويرجع نزوعه إلى التفرد بالسلطة إلى اعتقاده بأن من الأمور الطبيعية ، أن ينفرد حاكم واحد بحكم مملكته دون أي معارض ، كما يهيمن على العالم إله واحد يتحكم في مصيره . (٣) ولذلك كان من الضروري أن لايغفل الحاكم عن مصير الأوامر التي يصدرها ، وعليه أن يلاحق تنفيذها بنفسه حتى لايدع لأحد القدرة على تعطيل تنفيذ هذه الأوامر أو تعديلها ، تحت طائلة إيقاع العقوبة على من يتجاسر على القيام بذلك (المبدأ الثالث) . ولايجوز للحاكم في رأي تيمور ، إذا قضى أمرًا أن يتراجع عنه مهما كانت الأسباب (المبدأ العاشر) ؛ (٤) لأن كلام الأمراء وأوامرهم يجب أن تكون شريعةً على الأرض . (٥) وعلى الرغم من أنه من المهم للحاكم أن لايحقر آراء أتباعه ، ومن المفيد له أن يحفر هذه الآراء في قلبه ليستفيد منها عند الحاجة (المبدأ السابع) ، فإنه لايجوز أن يشارك الحاكم شريكٌ فيما يتخذه من قرارات (المبدأ الحادي عشر) . وتمضي مبادئ تيمور الإدارية في تكريس الفردية والاستبداد ، فتشير إلى أنه لايجوز لأحد أن يقف ضد إرادة الحاكم ، أو يقدم على تعديل الأوامر الصادرة عنه (المبدأ الخامس) ، وعلى الحاكم أن لايمنح أحداً سلطات واسعة ، بل يجب أن توزع السلطة دائمًا على عدد من الأتباع الأمناء الأذكياء ، ليقوم كل منهم بما أُوكل إليه من مهام ، دون أن يُفسَح له المجال للوثوب إلى منصب

---

(١) : Stewart: op. cit. P. 6 (٢) : ابن عربشاه : ص ١٨٥

(٣) : Stewart: op. cit. P. 84 (٤) : جاء في المذكرات قول تيمور : "إذا عزم الأمير على أي عمل فيجب عليه أن لاينحرف عن غايته" انظر Stewart: op. cit. P.149

(٥) : Stewart: op. cit. P. 138

جاء في المذكرات أن تيمور سأل أحد رجال الدين بعد وصوله إلى الحكم : "كيف سيعاقب الله الطغاة يوم القيامة، فأجابه العالم : إن عقاب الملك الكافر إن كان عادلاً سيكون أقل من عقاب الحاكم المسلم الظالم، وكذلك فإن عقاب الكفار الكرماء سيكون أقل من عقاب المؤمنين البخلاء".(١)

هذا وقد أوردت التنظيمات اثنى عشر مبدأ إدارياً وضعها تيمور، وقال عنها إنها كانت السبب في نجاحه في إقامة سلطته وإدارة الدولة إدارةً حسنةً، وهو لذلك يوصي أبناءه وأحفاده من بعده، باتباع هذه القواعد، إذا أرادوا استقرار سلطتهم .(٢) مبادئ الادارية

ويتضح من دراسة هذه القواعد أن تيمور ينظر إلى السلطة على أنها تكون بالاستيلاء والحيازة وليس بالوراثة . وهي الطريقة التي استطاع بها هو نفسه الوصول إلى الحكم . ولذلك نظرته إلى الحكم كان حريصاً على أن لا يمكن أحداً من أتباعه _كما نص على ذلك في المبدأ السادس _ لأن يجد نفسه في ظروف تساعده على الوثوب إلى السلطة العليا . وكان تيمور قد مرّ في ظروف مماثلة عندما كان تابعاً صغيراً في حاشية الأمير قازغن . وحاول كما أشار في المذكرات مدفوعاً برغبته للوصول إلى منصب السلطة العليا _عندما أرسله قازغن على رأس قوة عسكرية إلى هيرات عام ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦م وإلى خوارزم بعد ذلك بعامين (٣) _ أن ينفرد بحكم هاتين المنطقتين، في غفلة من قازغن، على الرغم من العطف والرعاية التي أحاطه الأمير بهما . وظهر إيمان تيمور بمبدأ القوة للوصول إلى الحكم عندما أشار في المذكرات أيضاً إلى خطاب أحد رجال الدين في حفل تنصيبه حاكماً ، وقد جاء في قول الخطيب : "إن جنكيزخان كان واحداً من سكان الصحراء . وقد حقق بقوة سيفه النصر على المسلمين سابقاً . واليوم فإن سيف الأمير تيمور ليس أقل قوة من سيف جنكيزخان".(٤)

---

(١) : Stewart: op. cit. P. 137 (٢) : وتتلخص هذه المبادئ بما يلي :

١_ أن يطبق الحاكم على نفسه أولاً كل ما يقوله ويطلب القيام به ٢_ أن ينتبه الحاكم إلى انتقاء مساعديه ووزرائه مراعياً شروط العدالة، لأن الوزير النزيه العادل يمكنه تلافي المظالم التي يقترفها الحاكم الطاغية . ولكن الوزير نفسه إذا كان ظالماً فإن العدالة تنهار ٣_ إن الأوامر التي يصدرها الأمير يجب أن يتولى ملاحقتها بنفسه، خوفاً من أن يعارضها أحد، وحتى لا تتعرض للتزوير ، ٤_ يجب أن لا يقوم الأمير باتخاذ أي إجراء مالم يكن ضامناً له النجاح، حتى لا يتعرض ما يصدره من أحكام إلى الاضطراب . ٥_ يجب أن تنفذ إرادة الأمير بدقة، وبشكل ينتفي معه أن يكون لأحد من أتباعه من القوة ما يمكنه من الحيلولة دون تنفيذها ، ٦_ من الحصافة أن لا تسلم مقاليد السلطة إلى أيدٍ غريبة، لأن للسلطة إغراءاتها . ويخشى من أن يصل إليها شخص قوي تجرفه الرغبة في السلطة فيستولي على العرش، ولذلك كان من الضروري أن تتوزع السلطة على عدد من الأتباع الأمناء الأذكياء، ليقوم كل منهم بأداء العمل الذي أوكل إليه، دون أن يتطلع إلى الوصول إلى السلطة العليا في الدولة . ٧_ على الحاكم أن لا يحتقر آراء أتباعه الذين اختارهم ليكونوا أنصاره، بل عليه أن يحفر هذه الآراء في قلبه، ليستعين بها عند الحاجة . ٨_ في قضايا الجيش أو الدولة أو الرعايا فإنه لا يجوز التعويل على كلام أي من الناس مهما كان شأنه ، ٩_ على الحاكم أن يطبع حبه في قلوب جنده ورعيته، حتى لا يفكر أحد منهم بعصيانه والخروج على طاعته . ١٠_ على الحاكم أن لا يتراجع عن أمر أصدره لأن الحزم والتصميم في الأوامر تشكل القوة الكبرى للحاكم، وتكون له كالكنز أو كالجيش . ١١_ على الحاكم أن يحترس من أن يكشف قراراته ومراسيمه لأحد قبل أن يقوم هو بنشرها . وعليه عندما يتخذ قراراته أن لا يتخذ له شريكاً أو زميلاً يشاركه في حكم دولته ١٢_ على الحاكم أن يعرف الناس الذين يحيطون به، وعليه أن يعمل ليراقب بعضهم بعضاً بصورة مستمرة . أنظر: Langles: Tuzukat P.42-47

(٣) : Stewart: op. cit. P.38,40 (٤) : Stewart: op. cit. P. 134

ويحاول تيمور من ناحية ثانية أن يجد للسلطة مصدرًا آخر يدعم به فكرة الإستيلاء والقوة والوصول إلى الحكم ، فهو يقول في مكان آخر من المذكرات : "إن الله هو الذي يعطي السلطة لبعض الأشخاص ويضعها في أيديهم ، فإذا أحسنوا استعمال هذه السلطة وحققوا الأمن فإن ممالكهم تعمر. ولكنهم إذا أساؤوا وظلموا وطغوا وارتكبوا الموبقات ، فإن ريح هؤلاء تذهب وتؤول أملاكهم إلى غيرهم".(١) ويبدو أن تيمور في هذا القول يسعى ليدعم سلطته من ناحية أولى بتأييد سماوي ، وليبرر من ناحية ثانية وصوله إلى الحكم ، على أنه رد على طغيان الحكام السابقين الذين سيطروا على البلاد وظلموا العباد . وقد انتهى الأمر ليصبح مبدأ الوصول إلى الحكم عن طريق القوة والإستيلاء ، تقليداً متبعاً بين أحفاد تيمور ، فضلاً عن تبريره لوصول تيمور كواحد من عامة الناس في ماوراء النهر إلى منصب السلطة العليا . فقد استند إلى هذا المبدأ خليل سلطان ليبرر مخالفته لوصية جده ، التي قضت بأن يخلفه في الحكم حفيده الآخر بير محمد. وكانت وجهة نظر خليل — كما نقلها ابن عربشاه — أن الملك يكون بالاكتساب وليس بالانتساب ، لأنه لو كان كذلك لكان كل من ميرانشاه وشاه رخ (ولدا تيمور) أولى به مني ومنك ، ومضى خليل في جداله لابن عمه قائلاً : إن جدك إنما توصل إلى الملك بالتغلب والاغتصاب بأن الملك عقيم لا يورث وهو "صيد والأولى به من حاز فيه قصب السبق".(٢)

الاستبداد والفردية

وتظهر في قواعد تيمور الإدارية روح الاستبداد والفردية ، والرغبة في إحاطة سلطته كحاكم أعلى بمظاهر السمو والرفعة . ويرجع نزوعه إلى التفرد بالسلطة إلى اعتقاده بأن من الأمور الطبيعية ، أن ينفرد حاكم واحد بحكم مملكته دون أي معارض ، كما يهيمن على العالم إله واحد يتحكم في مصيره .(٣) ولذلك كان من الضروري أن لا يغفل الحاكم عن مصير الأوامر التي يصدرها ، وعليه أن يلاحق تنفيذها بنفسه حتى لا يدع لأحد القدرة على تعطيل تنفيذ هذه الأوامر أو تعديلها ، تحت طائلة إيقاع العقوبة على من يتجاسر على القيام بذلك (المبدأ الثالث) . ولا يجوز للحاكم في رأي تيمور ، إذا قضى أمراً أن يتراجع عنه مهما كانت الأسباب (المبدأ العاشر)(٤) ، لأن كلام الأمراء وأوامرهم يجب أن تكون شريعةً على الأرض .(٥) وعلى الرغم من أنه من المهم للحاكم أن لا يحقر آراء أتباعه ، ومن المفيد له أن يحفر هذه الآراء في قلبه ليستفيد منها عند الحاجة (المبدأ السابع) ، فإنه لا يجوز أن يشارك الحاكم شريكٌ فيما يتخذه من قرارات (المبدأ الحادي عشر). وتمضي مبادئ تيمور الإدارية في تكريس الفردية والاستبداد ، فتشير إلى أنه لا يجوز لأحد أن يقف ضد إرادة الحاكم ، أو يقدم على تعديل الأوامر الصادرة عنه (المبدأ الخامس) ، وعلى الحاكم أن لا يمنح أحداً سلطات واسعة ، بل يجب أن توزع السلطة دائماً على عدد من الأتباع الأمناء الأذكياء ، ليقوم كل منهم بما أوكل إليه من مهام ، دون أن يُفسح له المجال للوثوب إلى منصب

(١) : Stewart: op. cit. P. 6 (٢) : ابن عربشاه: ص ١٨٥

(٣) : Stewart: op. cit. P. 84 (٤) : جاء في المذكرات قول تيمور: "إذا عزم الأمير على أي عمل فيجب عليه أن لا ينحرف عن غايته" انظر Stewart: op. cit. P. 149

(٥) : Stewart: op. cit. P. 138

السلطة العليا (المبدأ السادس). ويرى براقدان في إغراق قواعد تيمور وإلحاحها على مبدأ الاستبداد في الحكم، قد أدى لأن تفقد الأساليب الإدارية صفتها التنظيمية الشاملة، لتتحول إلى روابط شخصية غايتها تلبية طموح الحاكم ورغباته الشخصية.(١)

استشارة الآخرين

ولكن تيمور في الوقت الذي يلح فيه على ضرورة حصر السلطات في يده، فإنه في الوقت نفسه يلزم نفسه بعدم احتقار آراء الآخرين، ليكسب حبهم ويتفادى على الأقل سبباً هاماً من الأسباب التي تدفع أحد رعاياه للعصيان والثورة (المبدآن السابع والتاسع). وقد وردت إشارات كثيرة عند المؤرخين التيموريين، تفيد بأن تيمور كان من وقت لآخر، يطلب من أتباعه أن ينصحوه في قضية يعرضها عليهم.(٢) ويحاول في بعض الأحيان عندما تكون القضية على شيء من الأهمية أن يضفي على هذه النصائح صفة رسمية، ويحيطها بهالة من التقاليد الموروثة منذ العهد المغولي. فيدعو إلى اجتماع كبير للأمراء والقواد وأصحاب الرأي وحكام الولايات. ويسبق عقد هذا الاجتماع الذي كان يدعى بلفظه المغولي القديم "القوريلتاي"، كما يتخلله إقامة المآدب والحفلات. وتتبع فيه مراسيم وتقاليد ثابتة. ويعرض تيمور فيه القضية على بساط البحث والمناقشة،(٣) ويشجع أصحابه على إبداء آرائهم بكل صراحة وحرية. وبعد أن يستقر رأي الحاضرين على أمر فإن تيمور يفض الاجتماع، وقد يعمد إلى العمل على خلاف ما استقر عليه رأي الجميع.(٤)

الحذر والكتمان

ويعتمد تيمور الحذر والكتمان مبدأين هامين في منطلقاته الإدارية. ويلح على ضرورة بقاء ما يدور في مجلسه من مداولات سراً.(٥) ودفعه حذره إلى الإلحاح على ضرورة أن يقوم الحاكم بالاطلاع على أحوال وأوضاع من حوله، من رجال الإدارة الذين يتعاونون معه. وللحاكم من أجل ذلك أن يجعل بعض هؤلاء الأتباع يقوم بمراقبة البعض الآخر (المبدأ الثاني عشر). وكان من المبادئ الإدارية الثابتة لديه أن يترك رجال الإدارة معلقين دائماً بين الخوف والرجاء. وقد أشار إلى هذا المبدأ في مواقع كثيرة من المذكرات والتنظيمات.(٦) وكانت الحيطة والحذر تدفع تيمور في كثير من الأوقات إلى تغيير خططه التي أعدها، في آخر لحظة خوفاً من تسرب أنباء هذه الخطط.(٧) ويحلو له من وقت آخر، ولا سيما عندما يكون مريضاً، لأن يعلن نبأ موته ليتبين إخلاص أتباعه له، ويعرف العمل الذي سيقوم به كل منهم في حال إعتقاده بأن تيمور لن يتمكن من أن يحاسبه على عمله.(٨) وبلغ عدد العاملين في مؤسسات نقل الأخبار والتجسس في الدولة ثلاثة آلاف موظف.(٩) وكان هؤلاء المخبرون المنتشرون في مختلف أنحاء الامبراطورية يكتبون له بأخبار البلاد التي يقيمون فيها، وتتناول

(١): Prawdin: op. cit. P.253 (٢): حافظ آبرو: ص ٢٠١ ويزدي: ج ٢ ص ٦٩

(٣): يزدي: ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ الذي تحدث عن القوريلتاي الذي عقد عام ٧٩٢ هـ قبل الهجوم على بلاد الجتا. (٤): ابن عربشاه: ص ٢١٤

(٥): Langlès: Tuzukat; P. 96

(٦): Stewart: op. cit. P. 18, Langlès: op. cit. P. 27,129

(٧): ابن عربشاه: ص ٢١٤ (٨): Prawdin: op. cit. P. 254

(٩): Langlès: op. cit. P. 125

تقاريرهم الأحوال السياسية والاقتصادية وما يقع من أحداث،ويجمعون أخبار الأغنياء والشخصيات الهامة .[1] ويقول لامب إن جهاز مخابرات تيمور كان أكمل وأسرع جهاز من نوعه حتى عصر اختراع السكة الحديدية .[2]

ويعتبر "المجلس الخاص" أعلى المؤسسات الإدارية في الدولة،وعلى الرغم من أن التنظيمات لاتتحدث عن طريقة تكوين المجلس الخاص،ولا عن الشروط التي يجب أن تتوفر في أعضائه فإنه مما لاشك فيه أنه كان يعقد برئاسة تيمور ،ويضم عدداً من كبار الأمراء الذين كان سيد البلاد يطمئن إلى إخلاصهم وخبرتهم . ويتولى ضبط أعمال المجلس كاتب للسر يعهد إليه بتسجيل ما يجرى فيه من مداولات،والمحافظة على بقائه سرياً . ويتضح من حديث التنظيمات عن المجلس الخاص أنه كان يتمتع بصلاحيات إدارية وعسكرية تتناول إدارة الولايات وتنقل القطعات العسكرية ووضع الخطط الحربية،والإشراف على تنفيذ العمليات العسكرية.[3] وتتكلم التنظيمات عن مجلس آخر تدعوه "المجلس العام" أو "الديوان" وتقول إنه كان يتألف من عدد من كتاب السر الذين كانوا يقومون بكتابة محاضر دقيقة بالقضايا التي تم بحثها في المجلس الخاص،وبالحلول التي رآها تيمور لهذه القضايا ،مما يؤكد أن صلاحيات المجلس كانت صلاحيات تنفيذية . ويتولى الديوان أيضاً إضافة المسائل التي تبحث ،إلى السجل الخاص الذي كانت تدون فيه الأحداث التي تقع في عهد حكم تيمور أولاً بأول .[4]

واستخدمت في عهد تيمور المصطلحات الإدارية التي كانت تستعمل في العهد المغولي ،فلفظة "يرليغ" المغولية التي تعني مرسوم ملكي ،و"البيتكجي" وهي الكاتب و"الايلجي" وتعني المراسل ،ظل استعمالها شائعاً في دوائر الإدارة في العهد التيموري.[5] ويشير ابن عربشاه إلى أن الجهاز الاداري في الدولة كان يضم عدداً كبيراً من هؤلاء الكتبة والمراسلين ،وكان هؤلاء يتحلون بالخبرة والمهارة ،وينتمون إلى جنسيات مختلفة،وإن كانت غالبيتهم من العناصر الفارسية التاجيكية .[6]

الوزراء

ويأتي على رأس الإدارة المركزية في العاصمة ،عدد من كبار الموظفين يحمل كل منهم لقب وزير.وكان عددهم سبعة ،يتولى كل منهم ناحية من نواحي الإدارة . ويتضح من المهام التي أوكلت إليهم والسلطات التي كانوا يتمتعون بها ،أنهم وزراء تنفيذ لأوامر حاكم البلاد ، ونقل ما يقع من أحداث في أنحاء الدولة إليه . فوزير المقاطعات والرعية يبلغ عن أحوال الزراعة والتجارة والأمن ،ووزير الجيش يتولى تعبئة القوات للقتال ،ووزير المسافرين يشرف على إدارة أملاك الغائبين ،ويوكل إلى وزير البلاط الاشراف على تأمين ما يحتاجه البلاط من خدمات . ولم تفصل التنظيمات في مهام الوزراء الثلاثة الآخرين ،واكتفت بالإشارة إلى أن

(١) : ابن عربشاه: ص ٢٠٣ (٢) : Lamb: op. cit. P. 159

(٣) : Langlès: op. cit. P. 96. (٤) : يزدي: ج ٢ص ٢٤٢ و Langlès: ibid

(٥) : يزدي: ج ١ص ٥٥٦ وج ٢ص ٩٤ ـ ٩٩ (٦) : ابن عربشاه: ص ١٥٠ـ ١٥١ او ٢٧١ـ ٢٢١ وقد أورد أسماء عدد من هؤلاء الموظفين وأسماء البلاد التي جاؤوا منها،وكان اغلبها مدناً في إيران.كما جاء بعض هؤلاء من مدن في العراق والشام .

هؤلاء كانوا يتولون الاشراف على الثغور، وعلى الحالة الادارية الداخلية، والعلاقات بين الولايات.(١) ويبدو أن الوزراء كانوا لا يستطيعون الاتصال مباشرة بحاكم البلاد، وكانوا يرسلون ما عندهم من معلومات أو مشاكل إلى رئيس الديوان، الذي يتولى بدوره رفع هذه الأمور إلى تيمور.(٢)

وتشترط التنظيمات أن تتوفر في الوزير بعض الصفات الشخصية الممتازة، ككبت العواطف وعلو النفس والروح النفاذة، ثم سعة الخبرة العملية والتواضع، بالإضافة إلى الأمانة والقدرة على تنفيذ الأوامر.(٣) وأشارت إلى أن الخيانة ومخالفة الوزير لأوامر تيمور تؤدي إلى عقوبة الإعدام الفوري.(٤)

وتقوم السياسة المالية على مراعاة عدم إغضاب المكلفين عند فرض الضرائب عليهم، حتى لا يؤدي ذلك إلى إفقار البلاد وخرابها، الأمر الذي يسيء إلى مالية الدولة ويضعف قوتها العسكرية.(٥) وتحرّم التنظيمات جمع أية مبالغ غير الضرائب المقررة رسمياً.(٦) وتوصي بعدم إرهاق المكلفين أو تعذيبهم عند جباية الضرائب.(٧) وحظرت على الجباة الاعتداء على المنازل أو مصادرة الأثاث والحيوانات.(٨) وأقيم في كل ولاية مفتشون مهمتهم مراقبة أعمال الجباية، ومنع التجاوزات التي يمكن أن يرتكبها الجباة.(٩) وعلى الرغم من كل ذلك فقد ظلت ترافق جمع الضرائب –كما يقول بوفا– عمليات التعذيب والتنكيل.(١٠) وكان الجباة المنتشرون في مختلف الولايات يقومون بتسجيل واردات الولاية ونفقاتها في مناطقهم،(١١) في سجلات خاصة بذلك.

وتأتي الضريبة المفروضة على الأراضي الزراعية بالدرجة الأولى من الأهمية، وكانت تجبى من الفلاحين نقداً أو عيناً. وتصل نسبتها إلى ثلث المحصول في الأراضي المروية رياً دائماً من الأنهار والقنوات والينابيع، وتنخفض النسبة إلى الربع في الأراضي التي تروى بمياه الأمطار. ويحظر جباية هذه الضريبة قبل موسم الحصاد.(١٢) وتتقاضى السلطات ضريبة أخرى من التجار لقاء استخدامهم الطرق والجسور التي تقيمها الدولة، وتمتعهم بالحماية والأمن. وعلى الرغم من ضآلة نسبتها فقد كان ريعها عالياً بسبب نشاط القوافل التجارية على الطريق القادم من شرق آسية والمتجه إلى اوربا عبر أراضي الامبراطورية التيمورية.(١٣) ويتحدث بارتولد عن ضريبة ثالثة كان يدفعها سكان المدن المسلمون للبدو من الأتراك الجغتائيين الذين كانوا يعتنقون الاسلام أيضاً. ويشبه بارتولد هذه الضريبة بالجزية التي كانت تفرض عادة على غير المسلمين. ولذلك يصفها بأنها مخالفة لتعاليم الشريعة الاسلامية.(١٤)

(١): Langlès: op. cit. P. 93-95 — (٢): Langlès: op. cit. P. 95

(٣): Langlès: op. cit. P. 62-63 — (٤): Langlès: op. cit. P. 52

هذا وقد تحدث كلافيجو عن أن تيمورا استدعى إليه رئيس بلدية سمرقند عام ٨٠٧ هـ ووجهه إليه تهمة خيانة الثقة التي منحها له، وبعد محاكمة سريعة اقتيد إلى الخارج ونفذ به حكم الإعدام شنقاً. انظر: Le Strange: op. cit. P. 249

(٥): Langlès: op. cit. P. 132

(٦): Langlès: op. cit. p. 123 — (٧): Langlès: op. cit. P. 135

(٨): Langlès: op. cit. P. 123-125 — (٩): Langlès: op. cit. P. 53

(١٠): Bouvat: op. cit, P. 205 — (١١): Langlès: op. cit. P. 97

(١٢): Langlès: op. cit. P. 133-135 — (١٣): Lamb: op. cit. P.159-161

(١٤): بارتولد : تاريخ الترك : ص٢٢٨

ويستنتج كل من لانگله وبارتولد ، من عبارة التنظيمات التي تقول إن جباة الضرائب في مناطقهم يقومون باقتطاع حصة الجند من هذه الضرائب ،[1] أن الجند كانوا معفوين من دفع أية ضريبة .[2] ومهما يكن من أمر، فإن السلطات كانت تصدر في بعض المناسبات ولا سيما في مناسبات أفراح البيت المالك ، قرارات بإعفاء بعض المناطق من الضرائب. وتشير المذكرات إلى أن تيمور قد أمر بإعفاء سكان بخارى وسمرقند ، من التكاليف المالية عام ٧٧١ هـ بمناسبة اعتلائه العرش .[3]

إدارة الولايات

ويستعمل يزدي وغيره من المؤرخين الفرس لفظة " ولاية "، ويطلقها على كل واحدة من الوحدات الإدارية .[4] ويشير لانگله إلى أنه كان يطلق لفظ " والي " ، على من يتولى إدارة الولاية أحياناً .[5] كما عُرف في أحيان أخرى بألقاب فارسية مثل : سرور ، كلانتر ، داروغا ،[6] وتعني " السيد " أو " الرئيس " أو " الحاكم " . وظلت التقسيمات الإدارية في ماوراء النهر متأثرة بالوضع العشائري والاقطاعي ، الذي كان سائداً قبل العصر التيموري .[7] وأما خارج هذه البلاد فلم تكن هذه الإدارة تسير على أسلوب واحد ، وعلى الأغلب فقد تُرك الحكام السابقون الذين قبلوا الانضواء تحت لواء الدولة التيمورية في مناصبهم ،[8] تحت مراقبة أبناء تيمور وأحفاده ، بعد تقسيم الامبراطورية إلى اقسام كبيرة ، وتعيين واحد من هؤلاء الأبناء والأحفاد على كل قسم من هذه الأقسام. وكان عمر شيخ ثاني أبناء تيمور ، يتولى الإشراف على مناطق الحدود مع بلاد الجتا في الشمال الشرقي ، وكانت عاصمته في " انداكان " (انديجان الحالية) . وعُين شاه رخ رابع الأبناء حاكماً على خراسان والمناطق المجاورة لها ، وكانت عاصمته " هيرات " ، بعد أن نقل منها أخوه ميرانشاه ـ ثالث الأبناء ـ ليتولى الاشراف على ولايات غربي إيران ، من عاصمته تبريز . وكان تيمور لا يتدخل في إدارة الولايات إلا في حال العصيان والثورة ، أو عندما تكون الولاية مهددة بخطر خارجي أو داخلي ، نتيجة سوء إدارة الوالي ، أو عندما يقع الاختلاف بين اثنين من الولاة .[9] وقد لاحظ العسقلاني خطة تيمور التي صرح بها في التنظيمات في معاملة من يحاول الثورة من حكام الولايات ، فذكر أنه يصعب على تيمور أن يسكت إذا طلب من أحد الحكام أن يعلن الخضوع له ، وأبى الحاكم ذلك ، كما يصعب عليه إذا قدر عليه أن يعفو عنه .[10] وحددت التنظيمات عقوبات على الولاة العصاة والثائرين . فكان الحكم بالموت ينتظر من يحاول الانفصال أو الثورة أو يسيء التصرف من أبناء تيمور ، ويُكتفى بالسجن ومصادرة الأموال ، والتجريد من الامتيازات في حال ثورة أحفاده .[11]

(١) : Langlès: op. cit. P. 53

(٢) Barthold: Ulugh Beg P. 26 and Stewart: op. cit. P. 140

(٣) : Langlès: ibid.

(٤) : يزدي: ج ١ص ٢٥٢ وج ٢ص١٢٨

(٥) : Langlès: op. cit. P.85 M.2

(٦) : يزدي : ج ١ص ٢٥٢ و ٣٢١ و Stewart: op. cit. P. 66

(٧) : Barthold: op. cit. P. 32

(٨) Prawdin: op. cit. P. 228 et Barthold: ibid.

(٩) : Bouvat: op.cit.P.204, Barthold: ibid. كما فعل تيمور مع ابنه ميرانشاه عام ٨٠٢ هـ انظر الفصل السادس من الباب الخامس .

(١٠) : العسقلاني : ج ٢ ص ٢٠

(١١) Langlès: op. cit. P. 55-56

وتنقسم السلطات في الولاية الكبيرة إلى سلطات إدارية ومالية وعسكرية يتولى كل منها موظف يحمل لقب وزير : وزير الرعية ، ووزير أملاك الغائبين المسافرين ، ووزير الجند . كما يتولى القاضي الصلاحيات القضائية . ويترأس "الشحنة"(١) جهاز الأمن الذي يتألف من عدد كبير من المراقبين والمخبرين . ويتولى هذا الجهاز تزويد الإدارة المركزية على الدوام بالمعلومات عن كل ما يطرأ في الولاية من أحداث إدارية وعسكرية واقتصادية ، ومن يصل إليها من الأجانب والقوافل التجارية . وكان على موظفي الأمن أن يزودوا المركز بالأخبار الصحيحة فقط ، تحت طائلة قطع الأصابع أو القتل في حال الدس والكذب أو التقصير في أداء الواجب .(٢) وأما الولايات الصغيرة المساحة فكانت تدعى "تومان" ، ويغلب على إدارتها الطابع العسكري، وغالباً ما تكون في مناطق الحدود .(٣)

وتنقسم المدن الكبيرة والقرى إلى أحياء . ويدير شؤون الحي رئيس أو مختار يحمل لقب "كودخودا"(٤) تساعده قوة من الشرطة . ويتولى الكودخودا رعاية مصالح أبناء الحي ويقدم المساعدة للغرباء الوافدين على هذا الحي . وكانت تجوب الصحارى قوات خاصة من الشرطة لتشرف على الأمن وحركة القوافل عبر الطرق الصحراوية ، ويطلق على هذه القوة الخاصة "كورتشي" (Courtchi) أي الحراس .(٥)

وكان البريد من الأمور التي أولتها الإدارة قدراً كبيراً من الاهتمام ، بسبب رغبتها في معرفة الأحوال العامة في سائر أنحاء الامبراطورية . وقد نصت التنظيمات على أن يقوم موظف خاص، في كل ثغر أو مدينة ، وفي كل قطعة من قطعات الجيش، يتولى ضبط المراسلات بين منطقة عمله والإدارة المركزية.وينقل البريد موظفون يمتطون ظهور الجمال . وأما الأخبار الهامة التي لها صفة الاستعجال ، فيتولى نقلها فرسان سريعوا الحركة . ويشرف حراس الصحارى (الكورتشي) على المحافظة على الأمن في الطرقات،بتسيير دوريات منتظمة ليتمكن السعاة من حمل البريد بسرعة وأمان إلى مختلف الأنحاء .(٦)

وأولت الإدارة التيمورية عنايتها ، لمراقبة حركة البيع والشراء في الأسواق ، ولمنع الغش ومراقبة الأسعار والأوزان .(٧) وأنيط الإشراف على ذلك موظف يحمل لقب "المحتسب".(٨) الحسبة وفرضت عقوبات على من يقوم بمخالفة الأسعار المحددة ، وينقل براون عن كلافيجو أنه قد حكم على بعض بائعي الأطعمة وصانعي الاحذية بالإعدام ، لأنهم باعوا بضائعهم بأعلى من الأسعار المقررة .(٩)

هذا وقد انتهى التنازع بين الشريعة الإسلامية والياسا ، إلى اعتماد الإدارة على نوعين من القضاء : القضاء الشرعي ، والقضاء العسكري . ويتولى القضاء الأول الفصل في القضايا الدينية حسب أحكام الشريعة الإسلامية . ويتناول القضاء الثاني الفصل في القضايا التي تقوم بين الجند ، أو بين الجند وغيرهم من الناس حسب تعاليم الياسا .(١٠) وفي حال التنازع القضاء

(١) : Bouvat: op. cit. P. 207 — (٢) : Langlès:op. cit.P.123-124
(٣) : Bouvat: op. cit. P. 204 — (٤) : Stewart:op. cit. P. 114
(٥) : Langlès:op. cit. P. 122 — (٦) : Langlès:op. cit. P.122-125
(٧) : Parwdin: op. cit. P. 193 — (٨) : Langlès:op. cit. P.14 M 2
(٩) : Browne: op. cit. P. 200 — (١٠) : Cahun:op. cit. P. 946

بين الشريعتين يُرفع الموضوع إلى موظف يدعى برئيس العدالة ، ليحدد الجهة التي يجب أن تفصل في القضية .[(١)] ويشرف على شؤون القضاء الشرعي أحد أفراد "آل البيت" يحمل لقب "الصدر" ، وهو يتولى أيضاً إدارة الأوقاف ، ويعين الموظفين الذين يشرفون على إدارة أملاكها . ويدعى هؤلاء "المتولّون" .[(٢)] وكانت تعليمات تيمور إلى وزرائه وموظفيه ، تقضي بعدم التعرض إلى أموال الأوقاف .[(٣)] ويعين الصدر المفتين "(القضاة) لممارسة القضاء في مختلف المدن والقرى .[(٤)]

وتتحدث التنظيمات عن بعض أساليب القضاء ، فهي تطلب من القاضي أن يتثبت من صحة التهمة الموجهة إلى من يحاكمه ، وتلح على ضرورة أن لا يصغي القاضي إلى الوشايات وشهادة المطعون في ضمائرهم ، وتطالب بأربعة شهود لإدانة المتهم .[(٥)] وتقرر أن المتهم الذي يُدان لأول مرة يحظى بالعفو ولا يُعاقب إلا في حال تكراره الجريمة للمرة الثانية أو للمرة الثالثة في بعض الأحيان .[(٦)] ولا يجوز أن يُعاقب إنسان على جريمة واحدة بعقوبتين .[(٧)]

وعلى الرغم من سير التنظيمات في تحديد العقوبات على قاعدة المعاملة بالمثل ، فقد حُددت عقوبات خاصة لبعض الجرائم ، فكانت عقوبة السارق تطبيق أحكام شريعة الياسا ،[(٨)] التي تقضي بالجلد من ٧ ـ ٧٠٠ جلدة ، وأحياناً بالقتل .[(٩)] وأما جرائم الإيذاء كتحطيم الأسنان وفقأ العيون وجدع الأنوف وصلم الآذان ، ثم جرائم الاغتصاب والعربدة ، فقد نصت التنظيمات على أن يرفع أمرها إلى تيمور نفسه ، ليحدد لها العقوبة المناسبة .[(١٠)] وقد أصدر تيمور عام ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٥ م ـ بعد أن رفعت إليه قضية بعض الجند الذين تناولوا الخمر أثناء قيامهم بإحدى دوريات الاستطلاع ، مما حال دون قيامهم بواجبهم ـ قراراً يقضي بمعاقبة من يشرب الخمر خلال قيامه بعمله ، بصب الرصاص المصهور في حلقه .[(١١)] ويقول براقدان إن أغلب العقوبات التي يفرضها تيمور في الجرائم التي يرفع أمر الحكم فيها إليه ، هو الموت مع التنفيذ السريع .[(١٢)] وقد أشار كلافيجو إلى أن طريقة تنفيذ حكم الإعدام ، يختلف حسب منزلة المحكوم عليه الاجتماعية . فكان تنفيذ الإعدام بعامة الناس يتم بضرب العنق ، وأما الأعيان فيتم إعدامهم بالشنق .[(١٣)] ويظهر في هذه الناحية تأثير شريعة الياسا ، التي كانت تعتبر دماء الأعيان هي دماء مقدسة لا تجوز إراقتها على الأرض .[(١٤)]

جنسيات الجيش

هذا وقد تأثر التنظيم العسكري في دولة تيمور ـ كما كان حال الإدارة والقضاء ـ بالتقاليد التي انتقلت إلى الاتراك الجغتائيين من المغول . وظلت الجيوش التي قادها تيمور

(١): Bouvat: op. cit. P. 206 (٢) Langlès: op. cit. P. 13-14:

(٣): حافظ آبرو: ص ١٩٢ (٤): Langlès: ibid.

(٥): Langlès: op. cit. P. 122 (٦): Langlès: op. cit. P. 42

هذا وقد أورد المقريزي في الخطط بعض أحكام شريعة الياسا . وكان من بينها هذا المبدأ القائل بالعفو عن المجرم وعدم معاقبته إلا في حال التكرار في بعض الجرائم . انظر : المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٢ ـ ٢٢١ ، (٧): Langlès: op. cit. P. 60

(٨): Langlès: op. cit. P. 61,127 (٩) Bouvat: op. cit. P. 195

(١٠): Langlès: op. cit. P. 61 (١١) Stewart: op. cit. P. 90

(١٢): Prawdin: op. cit. P. 195

(١٣): Le Strange: op. cit. Introd. P. 14

(١٤): الصياد : المغول في التاريخ ص ١٧٥ .

إلى البلدان الأخرى تبدو في نظر سكان هذه البلدان ، جيوشاً مغولية أكثر منها جيوشاً إسلامية .[١] وكان تيمور نفسه يبدو نموذجاً للمحارب الجغتائي ، بما عرف عن الجغتائيين من فظاظة فطرية .[٢] ومع ذلك ، فإن الجيش التيموري كان يضم جنسيات عديدة . ولم تكن التنظيمات تحول دون من يشاء من أن ينخرط في الجيش بغض النظر عن قبيلته أو شعبه أو طبقته ، وأن يحصل على حقوق الترقية على قدر مؤهلاته ، وفق الأنظمة كبقية أفراد الجيش ،[٣] بل ذهبت إلى أبعد من ذلك ، ونصت على أنه يحق للأسرى إن يختاروا بين أن يطلق سراحهم أو الانخراط في القوات العسكرية التيمورية .[٤] وأضافت إلى ذلك أن قوات البلاد الأخرى تصبح بشكل آلي جزءاً من القوات التيمورية ، بعد وقوع هذه البلاد تحت سيطرة تيمور .[٥] وقد أشار يزدي إلى القسمين الرئيسيين المتميزين في الجيش ، وهما الأتراك والتاجيك ، وميز من بين فرق التاجيك "الخُراسانية" .[٦] وذكر كل من ابن عربشاه وابن قاضي شهبة أن جيوش تيمور التي أغارت على بلاد الشام ، كانت تضم جنسيات عديدة منها : الفرس والترك ، والمغول ، والقبجاق ، والخطا ، والتركمان . وكان فيهم المجوس وعباد الأوثان .[٧] ويذهب بوقا إلى القول : إن جيوش تيمور كانت تضم بعض العناصر الأوربية ، ويشير إلى أن القس الباڤاري "شيلتبرجر" كان ضابطاً في الجيش[٨] التيموري . ومهما يكن من أمر فمما لاشك فيه أن نواة جيوش تيمور كانت من الأتراك الجغتائيين الذين كانوا يُجمعون من عشائر ما وراء النهر ، التي كانت تخضع لنوع من التجنيد الإجباري . وكان المجندون من هذه العشائر يُساقون في مجموعات تتناسب مع أفراد كل عشيرة ،[٩] كما كان بعض القواد العسكريين يُرسلون إلى خراسان لجمع الجنود من هناك عند الحاجة في بعض الأحيان .[١٠]

وكان في استطاعة الجيوش التيمورية أن تجتمع بسرعة عندما تدعو الحاجة للقتال . وكانت غالبية هذه القوات تتفرق عقب انتهاء الحرب.[١١] ولم تتمكن الجيوش المعادية ـــ كجيوش القبجاق والجتا ـــ أن تظفر على جيوش تيمور ، في غاراتها المفاجئة على ما وراء النهر بسبب سرعة تلاحق النجدات العسكرية إلى ساحة القتال ، كما حدث عام ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م عندما اضطر عمر شيخ أمام غارة الجتا ، إلى التراجع من أمامهم والتخلي عن عاصمته اندكان ، إلى أن انجدته قوات أبيه التي قدمت اليه من سمرقند .[١٢] وتتحدث التنظيمات عن "النداء العسكري" الذي يجب أن يلبيه كل قادر على حمل السلاح .[١٣]

ويظهر أثر التقاليد المغولية أيضاً في التقسيم العشري للقطعات العسكرية في جيش تيمور .[١٤] وكانت أصغر هذه القطعات هي الزمرة التي تتألف من عشرة جنود ، ويقودها أحد الفرق والمراتب العسكرية
هؤلاء العشرة ويلقب "اون ـــ باشي" ويشترط بالاون باشي أن يتحلى برجاحة العقل وأن

(١) : Bartholod: op.cit. P. 26-27
(٢) : Prawdin: op. cit. P.237
(٣) : Langlès: op. cit. P. 41
(٤) : Langlès: op. cit. P. 77
(٥) : Langlès: op. cit. P. 128
(٦) : يزدي: ج ١ص ٢٧ و ٤٧
(٧) : ابن عربشاه : ص ٨٤ـــ٨٥ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٦ ب
(٨) Bouvat: L'Empire Mongol. P.70
(٩) : Langles: op. cit. P. 98
(١٠) : Barthold: op. cit. P.26, Bouvat: ibid.
(١١) : ابن عربشاه: ص ١٥٠
(١٢) : Stewart: op. cit. P. 151
(١٣) : Langlès: op. cit. P. 41
(١٤) : Bouvat: op. cit. P. 67

يكون توليه لمنصبه برضى التسعة الآخرين من زملائه . وتلي زمرة العشرة سرية المائة ، التي يتولى قيادتها ضابط بلقب "يوزباشي"، الذي يجب أن يتمتع بالذكاء والنشاط . ويقود كل عشر سرايا ضابط كبير ، مشهود له بالمهارة والتجربة الواسعة في أمور القتال ، بلقب "مينك ـ باشي" .[١] وغني عن البيان أن هذه الألفاظ هي تركية الأصل . وقد استعمل يزدي تسميات فارسية ومغولية للإشارة إلى تقسيمات القطع العسكرية ، فدعى سرية المائة بـ "صدجات" وفرقة الألف "هزارات" ، وهما لفظتان فارسيتان[٢] . واستعمل اللفظ المغولي "تومان" الذي يعني العدد عشرة آلاف ، للفرقة العسكرية التي يصل عدد جندها إلى هذا الرقم .[٣] وأما تعبير "قوشون" الذي استخدمته المصادر الفارسية أيضاً ، فهو ـ كما يقول بارتولد ـ مغولي ، وكان يطلق على الفرق العسكرية التي يتراوح عدد أفرادها ، بين ٥٠ ـ ١٠٠ من الجند الممتازين من الناحية الجسدية[٤] والكفاءة العسكرية .

وتشير التنظيمات إلى وجود سجل خاص لكل جندي ، يسجل فيه مقدار راتبه السنوي وتاريخ استحقاقه لهذا الراتب .[٥] ويسمى ابن عربشاه هذا السجل "ديوان الجند" .[٦] الرواتب والمكافآت
والعامل الأول المؤهل للترقي هو الشجاعة .[٧] وحُددت رواتب الجند بقيمة الخيول . ويتراوح راتب الجندي بين قيمة حصان واحد وقيمة أربعة خيول ، حسب كفاءته وإخلاصه وشجاعته . ويتقاضى عريف زمرة العشرة عشرة أضعاف راتب الجندي العادي ، ويتناول أمير سرية المائة ضعف راتب عريف العشرة ، أما أمير فرقة الألف فقد حُدد راتبه بثلاثة أمثال راتب أمير المائة .[٨]

وحُددت للمبرزين من أفراد القوات العسكرية المكافآت التي كانت على شكل جوائز رمزية أو تقديرات معنوية . فتوزع على هؤلاء رايات محلاة بذيول الخيول ، أو طبول ، أو يمنحون لقب "بهادر" (شجاع) .[٩] وشرح يزدي المقصود من هذه الانعامات وهو التقرب من قلوب الجند .[١٠]

واعتبرت التنظيمات عريف العشرة ـ الاون ـ باشي ـ مسؤولاً عن تلافي أي نقص في زمرته ، ولاسيما في حال نقص عدد أفرادها بالموت في القتال أو بالفرار .[١١] وألحت التموين والامداد
على ضرورة أن يُعطى كل جندي كفايته من الألبسة وما يحتاجه من الأسلحة ، حتى في أوقات السلم . وكان لأفراد الجيش لباس موحد ، يتألف من قلنسوة مخروطية ـ لباس الرأس التقليدي للأتراك الجغتائيين ـ[١٢] ومعاطف ذات قبات ، وأحذية بسوق طويلة .[١٣]
وكان الجندي يمتطي جواداً ويسحب آخر للاحتياط . ويحمل معه من الأسلحة سيفاً وقوساً اللباس والسلاح
وجعبة للسهام وفأساً . ويُعطى أدوات أخرى تفيده في القتال واجتياز الصعوبات التي

(١) Langlès: op.cit. P.49-50 (٢) : صد: وتعني العدد مائة وهزار: وتعني العدد ألف .
(٣) : يزدي: ج ١ ص ٣٥٢ (٤) : Barthold: op. cit. P. 27
(٥) : Langlès: op. cit. P. 52 (٦) : ابن عربشاه : ص ٢٣٦
(٧) : Langlès: op. cit. P. 74 (٨) : Langlès: op. cit. P. 50
(٩) : Langlès: op. cit. P. 80 (١٠) : يزدي: ج ٢ ص ١٣٠
(١١) : Langlès: op. cit. P. 48 (١٢) : ابن عربشاه : ص ١٤
(١٣) : Langlès: op cit. P. 90 انظر الصورة التي نشرها غري لجندي تيموري صورت في شيراز ١٤٠٠ م (عصر تيمور) . وتنطبق عليها الصفات التي أوردتها التنظيمات عن لباس الجند التيموريين . Gray: La Peinture Persane P. 66

تعترض تقدم الجيش، منها المناشير والمناقب وإبر الخياطة . وكان الجندي يضع هذه الأشياء في حقيبة جلدية يحملها على ظهره . ويؤوي كل ثمانية عشر جندي في خيمة واحدة.(١) وكانت ترافق الجيش فرق للإسعاف لتقديم المساعدات على وجه السرعة .(٢)

الروح المعنوية

اهتم تيمور بتقوية روح جنده المعنوية ، وبحثهم على بذل كل ما يستطيعونه لإدراك النصر . وعمل من أجل ذلك لأن يحبه الجميع .وكان يخاطب جنده — كما جاء في المذكرات — "سأعاملكم كأخ. إن أي شيء سأحصل عليه سأقتسمه معكم ."(٣) وذكر عن نفسه بأنه يعامل جنده على أنه واحد منهم، يرتبط بهم ارتباطا عائلياً، وأنه منذ أن كان أميراً في جيش الأمير قازغن ، فإنه لم يجلس إلى مائدة طعام دون أن يكون معه عدد من جنده .(٤) وقد نجح تيمور في جعل أتباعه يتعلقون بشخصه إلى حد كبير . وقد أشار بارتولد إلى أن تيمور كان يشعر بأنه أقرب إلى الجزء العسكري في دولته من الجزء الآخر المدني .(٥) ولم يفرق في الحروب من أجل إدراك النصر بين كبير وصغير ، في القيام بالأعمال المختلفة مهما بلغت خطورتها ، فكان أولاده يشتركون مع الجند في نقب أسوار القلاع واقتحامها .(٦)

وفي كثير من المناسبات كان تيمور يضرب المثل لجنده بنفسه في الشجاعة والإقدام ، فيتسلق الأسوار ويتقدم في بعض الأحيان بنفسه ليتصدى لهجمات الأعداء . وكان يشعر أن مثل هذه الأعمال تلهب حماس الجند ، وتزيد من إصرارهم على القتال وبلوغ النصر.(٧) وكان تيمور يحاول من ناحية ثانية أن يقنع جنده بأن المعارك التي يخوضونها هي دائماً سبيل لزيادة الغنائم ،(٨) وأن من يفر من المعركة فليس له نصيب في غنائمها .(٩) ويسعى لأن ينشر بين جنده قصصاً عن المآثر الشخصية للجندي المحارب (١٠)، وأن الجندي الشجاع يستطيع أن يصل إلى أعلى المراتب . وقد جاء في التنظيمات قوله : «إن التجارب علمتني أن الكفء الذي يجب أن يحل محل أمير أو قائد ، عليه أن يعرف أسرار الفن العسكري ، والطرائق التي يحطم بها قطعات العدو ، لا يضيع شجاعته في لحظة الحرب ، ولا يقف أمام الصعاب ، ويستمر على توجيه حركات قطعاته ، وإذا فاجأه بعض الفوضى عرف كيف يعالج الأمر في اللحظة ذاتها ... إن من يستطيع في الحرب أو السلم لأن يكون كفءاً في أن يحل محل أحد مساعديّ هو كفء لأن يكون أمير أمراء جيوشي ».(١١)

الانضباط

أخضع تيمور جيشه لانضباطية عالية ، فأوصت التنظيمات أن يطيع الأدنى الأعلى في أوقات السلم والحرب .(١٢) وحددت عقوبات لبعض الجرائم العسكرية ، كالتأخر عن الالتحاق بالقطعات العسكرية ، والعصيان والفرار والتجسس .(١٣) وكان بعض هذه العقوبات معنوياً

---

(١) : Langlès: op. cit. P. 88 وقد أورد ابن تغري بردي ما يفيد أن تيمور استعمل في حصار قلعة دمشق نوعاً من المتفجرات كسلاح لتحطيم الأسوار ، انظر له : النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ٢٣٦

(٢) : Stewart: op. cit. P. 109

(٣) : Stewart: op. cit. P. 96

(٤) : Langlès: op. cit. P. 33 et

(٥) Stewart: op. cit. P. 109

: بارتولد : تاريخ الترك .. ص ٢٣٠

(٦) : يزدي: ج ١ ص ٦٦٢ ، الذي أشار إلى أن شاه رخ بن تيمور اشترك مع الجند عام ٧٩٦هـ في نقب أسوار قلعة تكريت في العراق .

(٧) : Stewart: op. cit. P. 151

(٨) : Prawdin: op. cit, P. 208

(٩) : Langlès: op. cit. P. 75

(١٠) : Barthold: op. c[illegible] P. 28

(١١) : Langlès: op. cit. P. 72

(١٢) : Langlès: op. ci[illegible] 48

(١٣) : Bouvat: Essai sur. (J.A.T. CCVIII) P.97

كالشتم والتعزير ، وبعضها مادياً كالحرمان من غنائم المعارك، والبعض الاخر جسدياً يصل إلى الصلب وضرب العنق .(١)

التعبئة

وتحدثت التنظيمات (٢) عن أسلوبين من أساليب التعبئة ، وأشارت إلى أن اعتماد أحد الاسلوبين ، يتعلق بعدد قوات الأعداء التي سوف يواجهها الجيش التيموري . ويُتبع الأسلوب الأول عندما تكون القوات المعادية لاتتجاوز الاثنى عشر ألفاً، فيتصدى لهذه القوات جيش يماثلها في العدد ، تعطى قيادته لضابط يحمل لقب "قائد الجيش" ، الـذي يعرف بلقبه الفارسي "سباه سالار" .(٣) وينقسم الجيش —حسب نظام التعبئة الأول —إلى تسع فرق ، تشكل واحـدة منها "القلب" ويدعى "غول" .ويتألف كل من "الجناح الأيمن" "بورانغار" و "الجناح الأيسر" جورانغار" من ثلاث فرق . وتشكل فرقة واحـدة "المقدمة" "كيراغول" .وتتقدم المقدمة فرقة أخرى كطليعة لها . وتكوّن الفرق الثلاث لكل جناح ، مقدمة وميسرة وميمنة ، كأنها جيش مستقل . ويُلجأ إلى أسلوب التعبئة الثاني (٤) إذا كان الجيش المعادي يتجاوز الإثنى عشر ألفاً من المقاتلين، ولايتعدى الأربعين ألفاً . ويتولى قيادة هذا الجيش أحد أبناء تيمور ، ويساعده عدد كبير من القواد . ويجب أن لايقل عدد أفراد هذا الجيش عن أربعين ألفاً أيضاً ، وينقسمون إلى أربع عشر فرقة تشكل كل ستة فرق منها ، الجناح الأيمن والجناح الأيسر للجيش . وتُترك فرقة واحدة للقلب ، وفرقة أخرى للاستطلاع في المقدمة . وتنقسم فرق كل جناح بدورها إلى مقدمة وقلب ومؤخرة "تشاندافول" .(٥) .

وعلى الرغم من أن التنظيمات لم تتحدث عن تعبئة جيش يفوق عدد أفراده الأربعين ألفاً، فإن تيمور كان في كثير من الأحيان يجند جيوشاً تفوق هذا الرقم باعداد كبيرة. ويقول ابـن الشحنة إن ديوان الجند في الدولة التيمورية ، كان يضم أسماء ثمانمائة ألف جندي .(٦) ويقدر ابن خلدون قوات تيمور التي أغار بها على دمشق ، بألف ألف جندي (مليون). وهـم "إن خيموا في الأرض ملوا السلاح ، وإن سارت كتائبهم ضاق بهم الفضاء" .(٧)

الاستطلاع والتجسس

ويتضح من أساليب التعبئة هذه التي كانت تسير على طريقة الكراديس، الأهميـة التي كان يعلقها تيمور ، على عمل الجناحين في مشاغلة الأعداء ومحاولة تطويقهم . وتُبرز هذه التقسيمات في الوقت نفسه ، أهمية استطلاع أخبار العدو وكشف الطرق المؤدية إلى أماكن تجمعه ، ودراسة مداخل المعسكرات ومخارجها .(٨) ويقوم الكشافون الذين ينطلقون في مقدمة الجيش ، بتتبع الآثار التي يتركها العدو خلال سيره . ويحاولون تقدير حجم قواته

(١) : ابن عربشاه : ص٢٢٦ — ٢٢٧ الذي ذكر أن الجندي يعاقب ولو لم يتجاوز تأخره إلا مدة قصيرة لاتزيد عن الوقت الفاصل بين الظهر والعصر

(٢) : Langlès:op.cit. P. 139-140

(٣) : Stewart:op.cit.PrefaceP.XV

(٤) : Langlès:op. cit. P. 144-148

(٥) Stewart:op. cit.P.57,82,/104

(٦) : ابن الشحنة : ص١٢١

(٧) : ابن خلدون : التعريف : ص٣٨٢ ويقدر بوفا أن الثمانمائة ألف هو أعلى رقم استطاع تيمور جمعه انظر:

(٨) : Bouvat:op. cit. P. 293
Stewart: op. cit. P. 105

من دراسة هذه الآثار - كآثار مواقد النار وغيرها -[١]. وقد يضطرون في سبيل الحصول على المعلومات إلى استفراد أحد أفراد العدو وأسره، وكثيراً ما ينتهي الأمر بقتل الأسير بعد الحصول على ما يعرفه من المعلومات، على الرغم من معاملته معاملة حسنة في بادئ الأمر[٢]. وكانت المعلومات التي يحصل الكشافون عليها، ترسل على وجه السرعة إلى قيادة الجيش. وتتضمن هذه المعلومات المرسلة عرضاً للواقع الجغرافي، وتقديراً للمسافات والطرق، وما يعترضها من أنهار، وترسم من أجل زيادة الإيضاح المصورات، وتحدد عليها أسماء المواقع[٣]. ويسبق الكشافون الجواسيس، الذين يتجاوزون خطوط الأعداء ويتجولون في مدنه وقراه، على هيئة تجار أو متصوفين أو مهرجين، كما استخدمت النساء في أعمال التجسس، وكانت تقارير هؤلاء ترسل مشحونة بالمعلومات عن الحكام والأغنياء والأسعار[٤]. وقد يتمكن بعض الجواسيس من الوصول إلى منصب هام في دولة الطرف المعادي[٥].

ويتقدم الجيش قبل البدء بالاشتباك، فرق استطلاع جديدة لمسافة يوم واحد. وتقوم بدراسة المكان لاختيار أرض المعركة، على أن تتوفر في هذا المكان المياه، وتكون أشعة الشمس باتجاه وجوه الأعداء[٦].

الخطط والعمليات

وتوضع الخطط الحربية على أساس وضع احتمال للهزيمة، وتحديد التدابير التي يجب اتخاذها في هذه الحالة. وتحاول الخطط الحربية استبعاد المصادفات إلى أكبر حد ممكن، لأن من مظاهر الشجاعة - كما جاء في التنظيمات - الصبر وحسن التصرف في المواقف الحرجة[٧]. ويعلق تيمور أهمية خاصة على لحظة بدء الهجوم، ويعتبر ذلك قمة الفن والمهارة العسكرية. وهو يرى أن القائد الماهر هو الذي يحرك قطعاته في أثناء الاشتباك، كما يحرك يديه، حسب متطلبات القتال. وينظر إلى كل فرقة من قواته كأنها سلاح في يده، يستخدمها كما يستخدم خنجره وهراوته وحربته، في الوقت المناسب، وبشكل يجعل كامل الفرق تتعاون ويآزر بعضها بعضا، كأنها جميعاً، رجل مصارع واحد، يقاتل بكامل أجزاء جسمه[٨]. يتخلل المعارك صيحات التهليل والتكبير: الله أكبر، الله يار (الله المعين)[٩].

عبقرية تيمور العسكرية

وعلى الرغم من أن خطط القتال في عصر تيمور، كانت متأثرة إلى حد بعيد بما أخذه الاتراك الجغتائيون عن المغول، فإن تيمور - كما يقول بارتولد - قد ابتكر أساليب جديدة[١٠]. ولعل أهم هذه الأساليب الجديدة، العمليات الفجائية المباغتة، وظهوره على رأس قواته في أماكن لا يتوقع وجوده فيها. وكان تيمور يبالغ إلى حد كبير في إخفاء حركاته عن أعدائه

(١): يزدي: ج ١ ص ٢٧١ (٢): يزدي: ج ١ ص ٢٧٤ و ٢٧٦ و Stewart: ibid.

(٣): ابن عربشاه: ص ١٢٩ (٤): ابن عربشاه: ص ٢٠٣ وقد ذكر أن أحد سكان دمشق قد شاهد تيمور نفسه عام ٨٠٣ هـ خلال غارته على دمشق، وهو يتجول في ثياب متصوف في أحد أزقة المدينة. (٥): Stewart: op. cit. P. 124 وقد جاء في المذكرات أن أحد جواسيس تيمور تمكن خلال الصراع بينه وبين الأمير حسين أن يصبح أحد أعضاء المجلس الخاص لهذا الأمير.

(٦): Langlès: op. cit. P. 139-141

(٧): Langlès: op. cit. P. 142 (٨): Langlès: ibid.

(٩): يزدي: ج ٢ ص ٦ و Stewart: op. cit. P. 74, Langlès: op. cit: P.104

(١٠): Barthold: op. cit. P. 27

والتعمية عليهم . ويقول عنه ابن عربشاه إنه كان كثيراً ما يدعو إلى اجتماع لدراسة السير إلى ناحية ، ثم يأمر بالرحيل إليها فعلاً ، وفي الطريق ، يصدر أمره بالاتجاه إلى جهة أخرى غير التي تم الاتفاق عليها في الاجتماع ، وذلك تعمية على جواسيس أعدائه الذين قد شاهدوا من الأحداث والإجراءات ما أوصلوه إلى أصحابهم ، ولكن تيمور يقدم على تغيير خططه بعد ذلك .(١) وتمتاز الخطط العسكرية التيمورية بالسرعة الفائقة في الانتقال من مكان إلى آخر وتمكنه في كثير من الأحيان من قطع المسافات بين المناطق ، بأقل من نصف الوقت المعتاد. ويذكر يزدي أن تيمور قد استطاع أن يقطع المسافة بين قندهار وسمرقند عام ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣م، خلال أربعة عشر ليلة ، في حين أن الوقت اللازم لقطع هذه المسافة في الأحوال العادية هو ثلاثون ليلة .(٢) وكان من المناظر المألوفة التي أشار إليها كلافيجو كما أورد لامب ، أن تهلك الخيول تحت راكبيها من شدة التعب ، وترى نافقة على جانبي الطريق .(٣) ويشهد تاريخ تيمور الحربي في بلاد الجتا والقبجاق والروم (مع الأتراك العثمانيين) ، بحضور البديهة العسكرية وسرعة التصرف الجيد في المواقف الجديدة . وهذا مادعته التنظيمات بـ "أسرار الفن العسكري" .(٤) ثم في اعتبار الدقة في التوقيت والتنظيم، من أهم عوامل النجاح.

الحرب النفسية

ولعل أهم ما يلفت النظر في أساليب تيمور الحربية ، اعتماده على الحرب النفسية إلى حد كبير، من أجل تبديد قوة أعدائه المعنوية ، وتحطيم روح المقاومة عندهم . ويرد في المذكرات إشارة لأساليب عديدة للحرب النفسية التي كان تيمور يستخدمها لتحقيق هذا الهدف . فهو من ناحية أولى يقبل من الفارين من جيوش أعدائه الانضمام إلى قواته ، ويعمل من ناحية ثانية على تحريض أفراد العدو وإقناعهم بالانضمام إلى قواته .(٥) ويستعمل الحيلة لإيهام الأعداء بكثرة قواته .(٦) ويسعى لاستغلال المنافسات بين قواد العدو ، لإثارة الخلاف والفرقة بين صفوفه . ويستعين لذلك بجواسيس يعملون على نشر الشائعات بين أفراد القوات المعادية .(٧) ويعملون خلال احتدام القتال على بث الشائعات عن مقتل قائد الجيش المعادي ، وأنه لم يبق أمام بقية أفراد الجيش إلا الاستسلام أو الفرار .(٨)

المعسكرات

ويظهر أن الجيش لم يتخذ معسكرات دائمة ليرابط فيها ، إلا في المناطق المتاخمة لبلاد الجتا في شمال شرق ماوراء النهر، حيث شيدت في هذه المناطق حصون وقلاع شحنت بالذخائر والمؤن ، ويرابط فيها الجند ، وينطلقون منها للقيام بغاراتهم على بلاد الجتا ، ويلجأون إليها عند هجوم هؤلاء .(٩) أما في المناطق الأخرى فإن الجند كانوا يقيمون في معسكرات من الخيام ، تقام في الغالب بالقرب من المدن الكبرى . وقد شاهد كلافيجو أحد هذه

---

(١) : ابن عربشاه : ص ٢١٤

(٢) : يزدي : ج ١ ص ٢٧٥

(٣) : Langlès: op. cit. P. 156

(٤) : Langlès: op. cit. P. 142

(٥) : Stewart: op. cit. P. 73

(٦) : Stewart: op. cit. P. 101

وقد جاء في المذكرات أن تيمور لما اجتاح مدينة قرشي عام ٧٦٨ هـ لم يكن معه أكثر من ٣١٣ جندي ولما أغار أعداؤه عليه لاسترجاع المدينة كانوا ١٢ ألف مقاتل، ومع ذلك فقد أمر تيمور بإبقاء أبواب المدينة مفتوحة لإيهام العدو بكثرة أتباعه .

(٧) : Stewart: op. cit. P. 120 حيث تحدثت المذكرات أيضاً عن أن تيمور نجح عام ٧٦٩ هـ في إثارة النزاع بين اثنين من قواد الجتا مما أدى الى وقوع معارك طاحنة بينهما ، ومكن تيمور من الانتصار عليهما أخيراً .

(٨) : انظر : ...ل حروب تيمور في بلاد القبجاق

(٩) : ابن عربشاه : ص ١٦٠

المخيمات بالقرب من سمرقند ، وذكر أن عدد خيامه بلغ خمسين ألف خيمة .[١] وقد احتفظ الأتراك الجغتائيون بعادة مغولية بدوية قديمة ، وهي تبديل مواقع المعسكرات بين الصيف والشتاء ، وكانت مخيمات الصيف "كابيلاق" تقام في المرتفعات وسفوح الجبال ، حيث العشب لرعي الحيوانات . وأما مخيمات الشتاء "ايشلاق" فكانت تقوم بالقرب من شواطئ الأنهار وفي المناطق المنخفضة ، اتقاء لشدة البرد .[٢] وكان التعليمات تقضي بالاهتمام الكبير بحراسة المعسكرات وتحصينها ، وبناء الخنادق وإقامة الحواجز الخشبية حولها ، حتى لا يتمكن الأعداء من الوصول إليها .[٣] ويتولى حراسة المعسكرات ليلاً قوات خاصة يصل عددها إلى اثنى عشر ألفاً من الفرسان ، تقوم بالطواف الدائم حول المعسكر، وترسل الطلائع إلى كافة الجهات ، لنقل خبر أية تحركات مشبوهة إلى قيادة المعسكر .[٤]

---

(١) : Le Strange: op. cit. P. 13 (٢) : Cahun: op. cit. P. 949
(٣) : Stewart: op. cit. P. 65 (٤) : Langlès: op. cit. P. 92

الفصل الثاني

الاقتصاد والمجتمع

تنشيط اقتصاد ماوراء النهر - الري - الزراعة - قناتا كابل وقرلاغ - المحاصيل - أثر الجيوش - المستعمرات العمالية - الصناعات - الاستعراضات العمالية - التعدين - التجارة والأمن - الطريق الدولي عبر آسية - العلاقات الاقتصادية مع أوربة - الطريق الأخرى - مركز سمرقند التجاري - تبريز - التجارة مع الشام ومصر والجزيرة العربية - أوترار - عادات الأشراك الجغتائيين ومظهرهم - النظام القبلي والامتيازات - الطبقات الاجتماعية - الأسرة المالكة - الاستقبالات الرسمية - الحفلات والولائم وشرب الخمر - المخيمات - الحدائق والقصور - سمرقند وسكانها - مكافحة التسول - الملاهي والألعاب - الموسيقى والغناء - المرأة في المجال الاجتماعي - ساراي ملك خانوم - المرأة في المجال السياسي والحربي .

تنشيط اقتصاد ماوراء النهر

سعت الإدارة التيمورية لدفع الحركة الاقتصادية في بلاد ماوراء النهر إلى الأمام . وكان قسم كبير من نشاط تيمور في هذا المجال على حساب المناطق الأخرى من الامبراطورية التيمورية . ويبدو ذلك في أعمال التخريب التي ألحقتها جيوشه بالمرافق الاقتصادية في المناطق التي قاتلت فيها ، ثم في حرمان هذه المناطق من أبنائها المنتجين ، وحمل أرباب الحرف والفنون إلى ماوراء النهر ، وفرض الإقامة الجبرية عليهم في تلك البلاد ، كما أشار إلى ذلك عدد من مؤرخي العصر التيموري .(١)

وظهرت مساعي الإدارة التيمورية لانعاش الاقتصاد في المجال الزراعي ، في الحض على إحياء الموات ،(٢) وفي إعفاء الفلاحين - كما نصت على ذلك التنظيمات - من الضرائب خلال المرحلة الأولى من استثمار الأرض ، وتقديم الأدوات الزراعية لهم بالمجان في بعض الظروف ، وحماية صغار الفلاحين من تصرفات كبار الملاكين ، ثم في اعتبار تنفيذ مشاريع الري وتنظيف الأقنية والترع وبناء الجسور وإصلاحها ، واجباً من واجبات الدولة .(٣)

الري

وقام تيمور بتنفيذ عدد من مشاريع الري ، كان أهمها في منطقة الحدود الشمالية الشرقية المتاخمة لبلاد الجتا . وكان الدافع لذلك - كما قال يزدي - رغبة تيمور في إقامة مناطق استقرار وزراعة ، تمكن قواته من الإقامة هناك بصورة دائمة ، لصد أية غارة مفاجئة تأتي [من] هذه الناحية .(٤) وقد كشفت الحفريات الحديثة عن بقايا قناة مائية في تلك المنطقة ، [يع]تقد أنها شُقت في عهد تيمور ، في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي .(٥) ويضيف ابن [عرب]شاه أن تيمور أصدر عام ٨٠٧ هـ ، قبل بدء زحفه إلى الشمال الشرقي نحو الصين ، أوامر [مشد]دة من أجل الاهتمام بزراعة المناطق الممتدة من سمرقند إلى بلاد الجتا . وحذر من أن يهمل الفلاحون أراضيهم تحت طائلة العقوبة .(٦) وقد أثمرت الجهود - كما يقول شامي

الزراعة

(١) : حافظ آبرو : ص٢٠٣ وابن عربشاه : ص٢٢٥ وسمرقندي : ص ١١٨ ويزدي : ج ٢ص٢٤٢
(٢) : ابن عربشاه : ص ١٦٠ (٣) : Langlès: op. cit. P.41,136
(٤) : يزدي : ج ٤ص ٢٤٤ (٥) : H. Kouzmina: op. cit. P. 18
(٦) : ابن عربشاه : ص ١٦٠

ويزدي — إلى امتداد الزراعة حتى حوض اميل ، في وسط آسية .[١] ولكن معالم الازدهار الزراعي لم تلبث أن زالت بعد مدة قصيرة من وفاة تيمور . ولم يوفق خلفاؤه رغم جهودهم التي بذلوها ، للمحافظة على ازدهار المنطقة .[٢]

قناتا كابل وقرباغ

ونفذ تيمور أيضاً بعض مشاريع الري خارج ماوراء النهر . فشق قناة مائية بجوار مدينة كابل ، عام ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٨ م ، في إثناء مروره بالمنطقة في حمثله على الهند . ويقول يزدي إنها كانت بطول خمسة فراسخ . واشتغل الأمراء والجند بالحفر ، وتحولت المنطقة على إثر ذلك إلى جنان وحدائق .[٣] وقام تيمور بشق قناة أخرى بعد عامين في منطقة " قراباغ " (في شمال اذربيجان) ، عندما كان في طريقه إلى بلاد الروم . ويقول لامب إن عمل تيمور لم يتعدّ تجديد قناة يونانية قديمة ، كانت متفرعة من نهر آراكس الحالي .[٤] ودعيت القناة بعد إصلاحها " نهر برلاس " . وكانت بطول عشرة فراسخ ، وقد ساعدت على انتعاش الزراعة وانتشار القرى والطواحين على ضفاف القناة المستصلحة .[٥] وكان تيمور قد دأب على اتخاذ المنطقة منتجعاً له في كثير من الأحيان .

المحاصيل

وأدخلت إلى ماوراء النهر في عهد تيمور زراعة القنب والكتان . وحققت زراعة القطن في ذلك الوقت تقدماً كبيراً ،[٦] كما زرعت الحبوب المتنوعة كالقمح والشعير والارز والذرة .[٧] وأشار مستوفي إلى أن لماوراء النهر شهرة قديمة بأنواع الخضار والفواكه من الأصناف الجيدة ، ولاسيما البطيخ والعنب ،[٨] والتي كانت تجود بشكل خاص في السهول المحيطة بسمرقند . وبلغ من اتساع رقعة البساتين المحيطة بهذه المدينة ، أن فرساً فقدت لتيمور في هذه البساتين ولم يعثر عليها إلا بعد ستة أشهر .[٩]

أثر الجيوش

وكانت حركة الجيوش تسيء أحياناً إلى الزراعة ، فكان يحق للقوات المسلحة أن تخترق خلال تنقلها الأراضي المزروعة ، وأن تحصل على تحتاج إليه من المياه والحبوب وغيرها من المحاصيل .[١٠]

المستعمرات العمالية

أما في المجال الصناعي ، فقد نقل تيمور العمال وأرباب الحرف والفنون الصناعية ، كالنساجين والصياغ وصناع الزجاج المهرة ، من بلاد الشام وبلاد فارس والروم والكرج . وكان هؤلاء يقيمون في مستعمرات عمالية كبيرة ، أقيمت لهم حول سمرقند . وقد زاول هؤلاء أعمالهم في مجموعات تشبه النقابات ، وكانوا يتمتعون بكافة الحقوق والامتيازات ، ماعدا حق العودة إلى بلادهم .[١١] وازدهرت في سمرقند صناعة نسج الحرير الطبيعي والقطن والكتان والمخمل . وصنعت من هذه المنسوجات الثياب الحريرية والمخملية الملونة ذات الشهرة الكبيرة .[١٢] وتقدمت صناعة المرايا والأواني الخزفية والورق والأسلحة والحلي .[١٣]

الصناعات

(١) : شامي : ص ١١٦ ويزدي : ج ١ ص ٣٤٤ (٢) : بارتولد : تاريخ الترك ص ٢٣١
(٣) : يزدي : ج ٢ ص ٣١ (٤) : Lamb: op. cit. P. 204
(٥) : يزدي : ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ (٦) : Cahun: op. cit. P. 966
(٧) : Prawdin: op. cit. P. 230 (٨) : مستوفي قزويني : ص ٢٤٥ — ٢٤٦
(٩) : ابن عربشاه : ص ٢٢٠ (١٠) : Lamb: op. cit. P. 161
(١١) Bouvat: L'Empire Mongol P. 75 20 et Prawdin: op. cit. P. 230 (١٢) : Oumniakoo et..: op. cit. P..
(١٣) : Grousset: op. cit. P. 528

وقد ذكر ابن عربشاه أن الذهب والفضة كانا يحملان من كافة الأنحاء إلى سمرقند ، وجُلب إليها الفيروز من نيسابور ، والماس والياقوت من الهند ، واللؤلؤ من هرمز .[١] وأقيمت على ضفاف نهري جيحون وسيجون مصانع القوارب .[٢] وشاهد كلافيجو في شوارع سمرقند الصياغ وصانعي الأحذية والخياطين والخبازين واللحامين [٣] . ويظهر من أقوال السفير الاسباني أن الحرفيين كان لهم دور نشيط في حياة المجتمع العامة ، فيشير إلى أن الأوامر قد صدرت إلى هؤلاء عام ٨٠٧ هـ ، بمناسبة الاحتفال بزواج أحفاد تيمور ، إلى الخروج إلى ظاهر المدينة ، حيث كان يقوم مخيم تيمور . وقد حمل الصناع معهم أدوات عملهم وأخذوا بممارسة صناعاتهم وعرض فنونهم أمام الجمهور . وجُمع أفراد كل حرفة في مجموعة من الخيام في ناحية خاصة بها ، حيث أقيم لكل حرفة معرض خاص . ثم مرّ العمال بعد ذلك ، في مجموعات حرفية منظمة ، وهم يحملون أدوات عملهم ونماذج من مصنوعاتهم ، أمام السرادق الملكي حيث كان يجلس تيمور .[٤] وقد ذكر مستوفي أنه كانت تستخرج في تلك الآونة بعض المعادن من أرض ما وراء النهر ، فكان يؤتى بالزئبق من فرغانة والكبريت الملون من بخاري .[٥]

الاستعراضات العماليـــة

التعدين

وحرصت الإدارة التيمورية على تحقيق الأمن على الطرق التجارية .[٦] ونصت التنظيمات على وجوب سير دوريات من الحرس بشكل منتظم على تلك الطرق ، لتمكين التجار والمسافرين من السير بأمان وحرية ، ولتقديم المساعدة عند الضرورة لمن يطلبها .[٧] كما نصت التنظيمات أيضاً على إقامة محطات تجارية على الطرق ، يأوي إليها المسافرون ليلاً .[٨] وتشددت في إيقاع العقوبات على من يعترض حرية المرور أو يعتدي على القوافل التجارية . وكان الموت هو العقوبة المقررة على من يرتكب هذه الأعمال .[٩] وآتت هذه التدبيرات نتائجها فأشار سمرقندي إلى أنه أضحى بإمكان القوافل التجارية أن تسير بأمان ، مخترقة المفاوز والفيافي في مختلف أقطار الدولة ، من أقصى حدود تركستان إلى دلهي ، ومن حد باب الأبواب في أقصى شمال اذربيجان إلى حدود مصر .[١٠]

التجارة والأمن

واستمر الطريق الدولي للتجارة البرية الممتد من شرق آسية والمتجه إلى اوربة ، على نشاطه خلال عهد تيمور وعهود خلفائه الأوائل .[١١] وكانت القوافل التجارية القادمة من الصين تخترق صحراء غوبي إلى "الماليغ" ، ثم تتجه منها إلى "اوترار". وكانت القوافل تحتاج لقطع المسافة بين هاتين المدينتين إلى خمسة وأربعين يوماً .[١٢] ويتقدم الطريق بعد ذلك إلى العاصمة "سمرقند". ويتفرع من هناك إلى السلطانية وتبريز عبر مقاطعة

الطريق الدولي عبر آسيـــة

(١) : ابن عربشاه : ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ (٢) : Cahun: ibid.
(٣) : Le Strange: op. cit. P. 248 (٤) : Le Strange: op. cit. P. 248-249
(٥) : مستوفي قزويني : ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ (٦) : حافظ آبرو : ص ١٩٨
(٧) : Langlès: op. cit. P. 121 (٨) : Langlès: op. cit. P. 136
(٩) : Langlès: op. cit. P. 122 (١٠) : سمرقندي : ص ١١٢
(١١) : بارتولد : تاريخ الترك : ص ٢٤٥
(١٢) : Heyd: Histoire du commerce au Levant au Moyen Age T. II P. 233

خراسان ، ليتابع - عبر اذربيجان - التقدم إلى المراكز التجارية ، في شمال البحر الأسود التي كانت في ذلك الوقت تقع تحت نفوذ جمهورية جنوة الايطالية .(١) وقد يتجه الطريق من سمرقند إلى اورگنج في خوارزم ، وتتقدم بعد ذلك ، عبر سهوب روسية ، إلى مدينة "نوفغورود" (Novgorod) فالمدن الهانسية على بحر البلطيق.(٢) ولكن حروب تيمور في بلاد القبجاق ، وتهديم سراي على نهر الفولغا ، والأضرار التي لحقت بثغر كافا الجنوي على البحر الأسود بسبب هذه الحروب ، قد أدت إلى تضاؤل النشاط التجاري على هذا الجزء من هذا الطريق ،(٣) وإلى تحول التجارة إلى ميناء "طرابزون" أو "القسطنطينية".(٤)

وكانت القوافل التجارية القادمة من الشرق ، تميل إلى سلوك الطرق التي تمر عبر الامبراطورية التيمورية ، بسبب ضآلة الضرائب التي كانت تتقاضاها السلطات من هذه القوافل ، وتتحاشى الطرق التي تقع تحت نفوذ دولة المماليك ، لكثرة ما كانت تتقاضاه هذه السلطات من الضرائب .(٥)

العلاقات الاقتصادية

ورغب تيمور - كما ورد في التنظيمات - بتنشيط علاقاته التجارية مع الدول الأوربية.(٦) وأرسل الوفود إلى كل من فرنسا وانكلترة لعقد المعاهدات التجارية . وكتب إلى ملك فرنسا رسالة جاء قوله فيها : "إن العالم يزدهر بالتجارة" . ويعده بأن يقدم الحماية مع أوربة والرعاية لمن يفد عليه من التجار الفرنسيين .(٧) وقد شاهد كلافيجو تجاراً أوربيون من جنسيات مختلفة في سمرقند كالروس واليونانيين والاسبان .(٨)

الطرق الأخرى

وساعدت حروب تيمور من ناحية ثانية ، على تنشيط حركة التجارة على طرق جديدة تصل إلى الأقطار التي دخلت في الامبراطورية التيمورية ، كالطريق التي تصل سمرقند بالهند ، إما بشكل مباشر عن طريق كابول وممر خيبر ، أو بشكل غير مباشر بواسطة الطريق الذاهب إلى ايران ومنها إلى الموانيء الهندية . وقد مكن استيلاء تيمور على الموصل من فتح طريق التجارة إلى بلاد التركمان ،(٩) وبلاد القبجاق وآسية الصغرى .

مركز سمرقند التجاري

وأصبحت سمرقند في عهد تيمور مركزاً تجارياً عالمياً ومحطة رئيسية على طريق الاتصال بين الصين وأوربة .(١٠) وأضحت سوقاً كبيراً للبضائع القادمة إليها من مختلف الجهات. وتحدث يزدي عن نشاطها التجاري وكثرة وارداتها وصادراتها .(١١) وأشار كلافيجو إلى أن بضائع سمرقند ، منها ما كان مستورداً ، ومنها ما كان من الانتاج المحلي . وشاهد بالإضافة إلى التجار الاوربيين تجاراً من العرب والأتراك والأرمن .(١٢) وقد أمر تيمور ببناء سوق تجاري كبير في المدينة ، بعد أن أضحى سوقها القديم لا يستوعب حركة التجارة المتزايدة فيها ،(١٣) والتي كانت تدور بإشراف "المحتسبين" الذين كانوا يراقبون

(١) : Prawdin: op. cit. P. 229-230, Lamb: op. cit. P. 159
(٢) : Grousset: op. cit. P. 522 (٣) : Prawdin : ibid.
(٤) : Saunders: op. cit. P. 167 (٥) : Lamb: ibid.
(٦) : Langlès: op. cit. P. 39 (٧) : Bouvat: op. cit. P. 39
(٨) : Le Strange: op. cit. P. 170 (٩) : Lamb: P. 180
(١٠) : Heyd: op. cit. T. II P. 558 (١١) : يزدي : ج ١ ص ٦٦٢ .
(١٢) : Le Strange: ibid. (١٣) : Lamb: op. cit. P. 199

الأسعار والموازين والمكاييل . ويظهر أن الإدارة التيمورية كانت تهدف إلى إشاعة الاستقرار والثقة خلال التعامل التجاري ، إذ كانت التنظيمات تنص على أن تقوم الدولة بإقراض التجار الذين يتعرضون أحياناً للخسارة ، مبالغ من المال تساعدهم على استئناف أعمالهم .[1]

تبريز التجارة مع الشام ومصر والجزيرة العربية

وعلى الرغم من تعرض مدينة تبريز لمزاحمة سمرقند لها من الناحية التجارية ، فقد ظل للعاصمة الايلخانية القديمة شيئاً من مكانتها التجارية السابقة . وظلت تعتبر محطة تجارية رئيسية ، على الطريق التجاري المتقدم نحو بلاد الشام ومصر .[2] وقد دأب تيمور على إرسال التجار من وقت لآخر ، إلى عدد من مدن الشام ومصر والجزيرة العربية لجلب البضائع النادرة ، والتجسس وحمل الأخبار عن الأحوال العامة في هذه البلاد ،[3] كما أقرت بذلك التنظيمات .

اوترار

ولعبت في هذه الآونة مدينة "اوترار" الواقعة في المكان الذى يصب فيه نهر آريس بنهر سيحون، دوراً تجارياً نشيطاً كمحطة على طريق الصين . ولذلك كان التجار الخوارزميون والتجار القادمون من بلاد الشام ومصر يمرون بها في طريقهم إلى تلك البلاد .[4]

عادات الاتراك الجغتائيين

هذا واستمرت الفروق الاجتماعية واضحةً بين عنصري الأتراك الجغتائيين والتاجيك، في مجتمع ما وراء النهر في عهد تيمور . وظلت هذه الفروق تسترعي انتباه المؤرخين .[5] وفي الواقع فإن هذه الفروق الاجتماعية تنطلق في الأساس من الفروق العرقية والتاريخية ومظاهرهم والدينية بين الفريقين . (انظر فصل تكون مجتمع الأتراك الجغتائيين فيما سبق من هذا البحث) . وقد تجلت هذه الفروق في العادات والتقاليد والأزياء . واتضح مع مرور الزمن أن الأتراك لم يشاؤوا أن ينبذوا تقاليد الحياة البدوية . وظلوا يظهرون على أنهم مجتمع عشائري ، على الرغم من إقامتهم في مناطق الحياة المستقرة . واستمروا يحتفظون بمظهرهم كمحاربين أشداء بخطرستهم القاسية المشحونة بروح التعالي والثورة ، يحملون أسلحتهم بشكل دائم . وتتراص صفوفهم بشكل تلقائي في وضع عسكري كأنهم في ساحة القتال ، عندما يجلسون في الأحوال العادية .[6] وتعكس كتابات بعض مؤرخي بلاد الشام صوراً من تلك القسوة الفطرية التي ظلت للأتراك الجغتائيين . فقد شاهد سكان حلب هؤلاء وهم يلبسون دروع الزرد على أجسامهم دون ثياب .[7] وتحدث ابن عربشاه عن عمليات التعذيب التي كان ينزلونها بمن يقع في أيديهم من الأسرى ، وما يحدثه ذلك من السرور في نفوسهم . فذكر أن جماعة منهم قد أغاروا على أحد المنازل في دمشق عام ٨٠٣ هـ ، وبعد أن علقوا صاحب المنزل من قدميه بالسقف ، جلسوا يتناولون الطعام والشراب وهم يمرحون ، وكانوا يلتفتون من وقت إلى آخر إلى صاحب المنزل ، ينكلون به ويسقونه الماء المملح ، ثم يعودون

(١) : Langlès: op. cit. P. 41

(٢) : Langlès: op. cit. P. 38-39

(٣) : Langlès: ibid.

(٤) : Heyd: op. cit. T.II P. 233

(٥) : شامي : ص١٩٩ ويزدي: ج ١ص٤٠٦ et Barthold: Ulugh Beg P. 26

(٦) : Grousset: op. cit. P. 496

(٧) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠١ آ

إلى لهوهم وشرابهم .[١] وظل الجغتائيون يعتبرون أن تيمور قد ارتكب جرماً كبيراً ، بإقلاعه عن عادة الارتحال والتنقل البدوية ،عندما اتخذ لنفسه مدينة كبيرة (سمرقند) عاصمة له .[٢] واستمر هؤلاء — كما وصفهم كلافيجو — على حالة الترحل مع قطعانهم التي كانوا يتركونها ترعى أينما تشاء . ويمثل إعفاء الدولة لهم من دفع الضرائب نوعاً من الاستجابة للتمرد الكامن في نفوسهم على العادات والتقاليد الحضرية .

وتتعزز الفروق بين الأتراك الجغتائيين والتاجيك ، بالاختلاف القائم بين الفريقين في السحن واللباس ،كما يظهر ذلك من رسوم المخطوطات المصورة التي حررت في آسية الوسطى، والتي يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة .[٣] وقد نشر غروب (Grube) عدداً من الصور يرجع تاريخها إلى آخر القرن الرابع عشر الميلادي (عصر تيمور)، رسمت في بعض مناطق آسية الوسطى ،ويظهر في إحدى هذه الصور رجلان من عامة الناس بشعور طويلة شعثاء، كما يظهر في صورة أخرى أناس يضعون على رؤوسهم القلنسوة المخروطية التي كانت لباس الرأس المميز عند الأتراك الجغتائيين ، في الوقت الذي تُظهر فيه صور أخرى رُسمت في هيرات في مطلع القرن الخامس عشر الناس وهم يضعون العمائم على رؤوسهم .[٤]

وقد لفتت نظر ابن الفرات سحنة أحد الجواسيس التيموريين ، أُلقي القبض عليه في حلب، وجيء به إلى القاهرة ،فقال عنه إنه يبدو كبير الوجه ،ضيق العيون، أجرد ليس له في ذقنه شعر البتة .[٥] وكان أحد رجال الإدارة في عهد ألغ بيك — حفيد تيمور الذي زار القسطنطينية بعد وفاة سيده ، يلبس الثياب التركية الجغتائية ، مما يؤكد — كما يقول بارتولد — أن الاختلاف في المظهر الخارجي استمر بين الأتراك والتاجيك إلى ما بعد أيام تيمور .[٦] وكان هذا المظهر يثير دهشة سكان البلاد الإسلامية الأخرى، لأنه لا يتفق مع المألوف من المظاهر الإسلامية عندهم ، وكانوا يرون أن الأتراك الجغتائيين كانوا في مظهرهم هذا أقرب إلى المشركين . ولذلك فقد أسرع سكان دمشق إلى قص شعر " سلطان حسين " حفيد تيمور وتغيير ثيابه ، عندما لجأ إليهم عام ٨٠٣هـ .[٧]

وعلى الرغم من اعتناق الأتراك الجغتائيين الإسلام ، فإن بعض المصادر المعاصرة تشير إلى بقاء بعضهم على الديانة الوثنية .[٨] ولكنهم كانوا على اختلاف عقائدهم الدينية مستعدين لنبذ هذه العقائد جانباً ، والالتفاف حول مبدأ الأخوة العشائرية .[٩] وصورهم أحد الحكام المظفريين (وهو من التاجيك) ،في رسالة بعث بها إلى السلطان بايزيد الأول العثماني عام ٨٠٢ هـ : «إنهم جماعة ظلام وظلم وكدر وكفر وجور، ابتليت أطراف البلاد بهم ، وهم كظلمات بحر لجي، يغشاه الموج من فوق ومن تحته، يقطعون ما أمر الله أن يوصل ويفسدون في الأرض » .[١٠]

---

(١) : ابن عربشاه: ص ٢٣٢ — ٢٣٣ (٢) : بارتولد : تاريخ الترك ص ٢٢٤

(٣) : بارتولد : تاريخ الترك .. ص ٢٢١ (٤) : Grube: Persian Painting in Fourteenth Century Fig.47,74,75

(٥) : ابن الفرات : م ٩ ج ٢ ص ٣٦٩

(٦) : بارتولد : تاريخ الترك .. ص ٢٣٧ (٧) : ابن عربشاه : ص ١٠٠

(٨) : ابن عربشاه: ص ٢٣١ و Stewart: op. cit. P. 32

(٩) : Prawdin: op. cit. P. 192 (١٠) : فريدون : ص ١٢٤

النظام القبلي والامتيازات

وأفادت التنظيمات أن عدد عشائر الأتراك الجغتائيين في عهد تيمور كان أربعين عشيرة . وكانت كل منها تدعى "اويماق" . وقد خصّ تيمور من بين هذه الاويماقات الأربعين ، اثنى عشر اويماقاً ، بامتيازات معنوية ومادية ، لأن تيمور كان يطمئن إلى "خلاصها وولائها . ويأتي في رأس هذه الامتيازات ، حمل "التامغا" وهي شهادة ممهورة بالخاتم الرسمي ، وتفيد أن حاملها هو من أخلص المقربين إلى تيمور.[(١)] وخُصت الاويماقات الممتازة بعدد معين من المناصب العليا في الإدارة والجيش . وكانت عشيرة "برلاس" عشيرة تيمور الخاصة ، التي يوصف أفرادها بأنهم إخوة تيمور ، قد خصت بأربعة مناصب إدارية ، هي حكم ولاية بدخشان وثلاث ولايات أخرى من ولايات الحدود ،[(٢)] وبطاقة منصب "أمير ألف" في الجيش.[(٣)]

الطبقات الاجتماعية

كان المجتمع في عهد تيمور يقوم على فكرة التطبق والتمايز الاجتماعي .[(٤)] ولا يعطي ما أشارت إليه التنظيمات إلى تقسيم تيمور من حوله من الأتباع ، الذين كان يستفيد من خدماتهم المختلفة في مجالات الإدارة والجيش والمجتمع ، إلى اثنتا عشر طبقة ،[(٥)] فكرةً واضحةً عن الطبقات الاجتماعية في المجتمع التيموري . ولا يعدو هذا التقسيم أن يكون تصنيفاً لرجال الحاشية الملتفين بكفاءاتهم واختصاصاتهم حول سيد البلاد . ولابد من مقابلة هذا التصنيف مع ما ورد من إشارات حول هذه الناحية في المصادر الأخرى . ويفهم مما أشار إليه المؤرخون التيموريون أن المجتمع في ذلك العهد كان يخص رجال الدين بنوع من الأولوية في الحياة الاجتماعية ، ويحيطهم بهالة من الاحترام والتبجيل . وتأتي الاشارة إليهم دائماً قبل بقية الطبقات الأخرى .[(٦)] وترد الإشارة في هذه المصادر أيضاً إلى سكان المدن والريفيين والبدو ، كطبقات اجتماعية متميزة عن بعضها ، مع عطف ملحوظ على العشائر البدوية التي توصف بأنها قد تحملت أكثر من غيرها ظلم الحكام الجتا ، قبل أن يصل تيمور إلى الحكم .[(٧)] ويفهم مما أشارت إليه مصادر أخرى أن التمييز الاجتماعي

(١) : Langlès: op.cit. P. 98-99 وربما كانت التامغا التيمورية تقليداً للشارة المغولية المسماة "البايزه" ، التي كانت تُمنح من قبل خانات المغول لأتباعهم . وكانت من الخشب أو المعدن العادي أو الذهب حسب رتبة الممنوح له . وتخول البايزة لحاملها امتيازات الأمان على نفسه وعلى أمواله فضلاً عما يقابل به من الرعاية والاحترام من قبل موظفي الدولة في حال سفره . انظر رشيد الدين (الترجمة العربية) م٢ ج١ ص٢٤٧هـ١ .

(٢) : Langlès: op. cit. P. 99 (٣) : Langlès: ibid.

وقد ذكرت التنظيمات أسماء العشائر التي خصت بالامتيازات وهي : "برلاس ـ تارخان ـ ارغون ـ جلاير ـ تولكاتشي ـ دولدي ـ موغول ـ سلدوز ـ توغا ـ قبجاق ـ آرلات ـ تتار".

(٤) : يزدي ج٢ ص١٤٣ الذي أفاد أنه عقب عودة تيمور من الهند ، قام بتوزيع الهدايا والنفائس على كافة طبقات الأهالي كل على حسب رتبته . (٥) : Langlès: P. 30-39

أما هذه الطبقات فهي : ١ ـ آل البيت ورجال الدين ، ٢ ـ الأذكياء والشرفاء المخلصون في تقديم النصائح ، ٣ ـ الأتقياء الذين يفيدون تيمور بدعواتهم ، ٤ ـ الأمراء والقواد وضباط الجيش ، ٥ ـ الجيش وعامة الرعية ، ٦ ـ المؤتمنون على الأسرار ، ٧ ـ الوزراء والكتاب ، ٨ ـ الأطباء والمهندسون والمنجمون ، ٩ ـ المؤرخون وقراء القصص ، ١٠ ـ الزهاد والنساك ، ١١ ـ العمال الذين يعملون في بناء القصور ، ١٢ ـ السواح والجوالون الذين يحملون الطرائف النادرة والأخبار من البلاد الأخرى . (٦) : يزدي ج١ ص٤٤١ و ٥٦٩ و : Stewart: op. cit. P. 130, Langlès: op. cit. P. 30

(٧) : Stewart: op. cit. P. 58

كان يجري على أساس عرقي ، فهنالك الأتراك الجغتائيون ، ويقابلهم سكان ماوراء النهر الأصليون (قبل قدوم الغزو المغولي) والخراسانيون .(١)

الأسرة المالكة

وعلى الرغم من الأتراك الجغتائيين أنفسهم ، كانوا يعتبرون -بحكم التقاليد البدوية- في منزلة اجتماعية واحدة ، فإن الأسرة المالكة (أسرة تيمور) ، ومن كان يحيط بها من الأمراء والقواد ، كانت تتمتع بأولوية اجتماعية ، على بقية المجموعة التركية الجغتائية في البلاد . ويتأكد ذلك من اهتمام تيمور ليجعل من أسرته كتلة واحدة متماسكة ، ينزل جميع أفرادها عند رغبته ، وتوقع العقوبات الشديدة على من يتجاسر على معارضته . وقد تصل هذه العقوبات -كما نصت التنظيمات- إلى الإعدام في بعض الحالات .(٢) وسعى تيمور من ناحية ثانية ، إلى أن يتحلى أولاده وأحفاده بقدرات عسكرية وإدارية عالية ، تمكنهم من الظهور أمام الناس أمراء ناجحين . وقد دفعته رغبته لتحقيق ذلك ، إلى اعتبار مسألة تربية أفراد الأسرة المالكة وتدريبهم من مهام الدولة .(٣) ولم يكن لآباء هؤلاء وأمهاتهم دور يذكر في هذا الموضوع . وكان الطفل عندما يولد يعهد به إلى أحد الأمراء ، ليتولى الإشراف على تربية هذا الأمير الصغير ، وتأمين ما يحتاجه من طعام ولباس . ويعرف هذا الأمير المربي بـ "اتابك".(٤) وحاول تيمور أن يساهم بنفسه في عملية تدريب أولاده وأحفاده فكتب "مذكراته " وأمر بتسجيل "تنظيماته "وقد ضمن ذلك خبراته في مجال الإدارة والأمور العسكرية . وقد صدر تيمور هذه المذكرات بقوله : « إلى أبنائي السعداء فاتحي الممالك وإلى أحفادي العظماء حكام العالم ».(٥) وأشار إلى أنه قد أقدم على كتابة المذكرات والتنظيمات ، لأنه يعتقد أن عدداً من هؤلاء الأبناء والأحفاد سيجلسون على العرش من بعده ، ولذلك أحب أن يقدم لهم المبادئ والحكم التي تعينهم لأن يكونوا حكاماً صالحين . وقد قرن تيمور التوجيه النظري بالممارسة العملية ، عندما وزع هؤلاء الأبناء والأحفاد حكاماً على مختلف مناطق الامبراطورية التيمورية .

الاستقبالات الرسمية

وأوردت المذكرات وصفاً لمظاهر البرتوكول ، الذي كان متبعاً في بلاط تيمور في سمرقند ، في الحفلات والاستقبالات الرسمية . وأشارت إلى أن تيمور كان يجلس على عرش يحيط به عدد كبير من رجال الحاشية والحرس . وكان لكل فئة من الحاشية مكان معين تقف فيه ، فخصصت الجهة التي تقع على يمين تيمور لجلوس رجال الدين . وكان أبناء تيمور وأحفاده وكبار الأمراء يصطفون حول العرش على شكل نصف دائرة ، وهم قعود . ويجلس في الجهة المقابلة للعرش كبار موظفي الدولة والوزراء . وينتصب في كل جهة من جهات القاعة ، ثلاثة ضباط يتولون الحراسة .(٦) وقد أشار كلافيجو إلى الترتيب نفسه عندما قابله تيمور ، وأضاف أن الضباط الذين كانوا يتولون الحراسة ، كانوا يقفون وهم بكامل أسلحتهم . وقد طلب هؤلاء من أعضاء الوفد الاسباني ، الجثو على الركب ، أمام الفاتح التركي . وأشار إلى

(١) : حافظ آبرو: ص١٦ وسمرقندي: ص٢١٣ — ٢١٤ (٢) : Langlès: P. 55-56
(٣) : سمرقندي : ص١١٣ (٤) : حافظ آبرو: ص٢٠٠
(٥) : Langlès: op. cit. P. 1 (٦) : Stewart: op. cit. P. 135

أن عادة تقبيل يد الملك لم تكن شائعةً في البلاط ، بل كانت تعتبر عملاً غير لائق .(١)

الحفلات والولائم وشرب الخمر

وتحدث السفير الاسباني عن مظاهر الترف والبذخ في القصور الملكية ، وأشار إلى صحاف الذهب والفضة التي كان الطعام يقدم بها على الموائد الملكية . وأضاف أن هذه الموائد كانت عامرةً بكميات كبيرة من الطعام ، وهو من لحم الغنم والخيول المشوي ، والخمور التي كانت تُجلب بعض أنواع منها من بلاد القرم .(٢) وقال إن نساء البلاط كُنَّ يشاركن الرجال في الحفلات وفي احتساء الخمر . وقد دعت إحدى زوجات تيمور السفير في إحدى الحفلات للمشاركة في الشراب . وظهر أنها لم تكن مستعدة لتصدق أن هناك إنسان لا يشرب الخمر.(٣) وكان بعض الحاضرين يتابع احتساء الخمر حتى يصل إلى حالة السكر الشديد والارتماء على الأرض . وأشار إلى أن حفلات الولائم وشرب الخمر التي كانت تقام بحضور تيمور تستغرق وقتاً طويلاً ، وتمتد من أول النهار حتى حلول الظلام ، وقد تستمر حتى ساعة متقدمة من الليل . وقد تناول تيمور في إحدى هذه الحفلات كمية كبيرة من الطعام، وتجرع بعدها كثيراً من الخمر ، فأُصيب بالتخمة .(٤) وذهب بعضهم إلى القول أن جلسات شراب الخمر قد تستمر أحياناً عشرة أيام متوالية ، فينقطع فيها تيمور عن الظهور، ويجلس مع قواده للشراب .(٥) وكان شرب الخمر على هذا الشكل يحدث في مناسبات الأفراح وإحراز الانتصارات العسكرية.(٦)

المخيمات

وكان تيمور يميل من وقت لآخر لأن يقيم خارج سمرقند ، في مخيمات تقام في الهواء الطلق. وقد شاهد كلافيجو أحد هذه المخيمات ، وقد أُقيم بمناسبة الاحتفالات التي جرت عند زواج عدد من أحفاد تيمور عام ٨٠٧ هـ . وأشار ابن عربشاه إلى موقع هذا المخيم فقال إنه كان يقوم في ضاحية "كان گل" المشهورة بجمال مناظرها الطبيعية في ظاهر سمرقند.(٧) وادهشت كثرة الخيام السفير الاسباني . وقدَّر عددها بخمسين ألف خيمة ، وقال عنها إنها كانت منصوبة بشكل منتظم ، يترك بين صفوفها شوارع مستقيمة .(٨) ولفت نظر السفير المخيم الملكي الذي كان يقوم في وسط المكان ، وقال إنه كان محاطاً بسور من نسيج القنب لمنع دخول من لا يُرغب بدخوله . وقُسِّم المخيم الملكي من داخله ، بسياج من نسيج القنب أيضاً إلى اقسام ، كانت تقوم في وسط كل قسم خيمة ، تحل بها زوجة من زوجات تيمور . وكان داخل الخيام الملكية مبطنٌ بالفرو النفيس . ووصف كلافيجو السُرادق الكبير الذي كان يبدو كأنه قلعة لارتفاعه واتساع مساحته ، إذ كان يحمل على ست وثلاثين عموداً من الخشب . وكانت جدرانه مزينة بالرسوم، وأرضه مفروشة بالسجاد المتعدد الألوان .(٩) ولابن عربشاه وصف مشابه، فقد أشار إلى الخيام ذات الجدران المبطنة بالريش من الداخل والخارج . أو المغطاة بصفائح من الذهب والمرصعة باللآلئ . وذكر أن هذه الخيام كانت تُحوى بمراوح من نسيج القنب ، وأشار إلى إحدى ستائر هذه الخيام، فقال إنها كانت بطول عشرة أذرع ، وقد صورت عليها صور ملونة لبعض الحيوانات والنباتات . وكان تيمور قد حصل عليها من .

(١) Le Strang: op.cit. P. 220-221 (٢): Le Strange: op. cit. P. 224
(٣): Le strange: op.cit.P.132 (٤) Le Strange: op.cit.Introd.P.13-14
(٥): ابن قاضي شهبة : ورقة آ ٢٠١ (٦): يزدي: ج ١ ص ٤٤٠ وسمرقندي : ص ٤١٧
(٧): ابن عربشاه : ص ١٥٢ (٨): Le Strange: op.cit.Introd.P.13
(٩): Le Strange : ibid.

غنائم معركة انقرة . وقد أثارت هذه الستارة إعجاب ابن عربشاه، فقال عنها إنها من عجائب الدنيا .[1]

واهتم تيمور بإقامة عدد من الحدائق حول سمرقند ،غرسها بأشجار الفواكه[2].

الحدائق والقصور

ويورد ابن عربشاه أسماء خمس من هذه الحدائق .[3] وذكر أنه كان من المسموح به لعامة الناس ارتياد هذه الحدائق عندما يكون تيمور خارج العاصمة . ووصف يزدي إحدى هذه الحدائق وهي "بستان ارم" (باغ ارم)، فقال إنه كان يقع شمالي سمرقند ، في منطقة اشتهرت بمناظرها الطبيعية الخلابة وعذوبة مناخها . وقد أوكل تيمور إلى بعض المهندسين لتجميل الحديقة بالمروج والأزهار، التي كانت على شكل أحواض ذات أشكال هندسية ، كالمربعات والمثلثات والمسدسات .[4] وأضاف ابن عربشاه أنه قد بني في كل حديقة قصر بولغ في تزيينه وزخرفته . وأقام تيمور حول سمرقند قصبات تحمل أسماء مدن كبيرة في أقطار أخرى كدمشق ، وبغداد ، وسلطانية ، وشيراز ، وقال إن ضاحية دمشق كانت تقع إلى الغرب من سمرقند على مسيرة نصف يوم منها .[5]

سمرقند وسكانها

وأما سمرقند نفسها فقد أوكل إلى أحد أعوانه – كما يقول يزدي – مهمة إصلاح المدينة بعدما تعرضت له من محن في السابق بسبب غارات الجتا ولظروف الصراع بينه وبين الأمير حسين .[6] ويقول ابن عربشاه إن المدينة كانت محاطة بسور يبلغ طوله (١٢) فرسخاً .[7] وقدر كلافيجو – كما ذكر سايكس – حجمها بحجم مدينة اشبيلية في عهده ، وقال إن سكانها يناهزون مائة وخمسين ألفاً ،[8] معظمهم من العناصر الأجنبية التي أجبرها تيمور على القدوم معه من البلاد التي وصلت اليها جيوشه . وقد وصف هؤلاء بأنهم "أهل كل فن عجيب وأسلوب من الصنائع غريب".[9] وقد دفع حب المدينة تيمور التي كان يدعوها "عاصمتي"[10] ويراها زهرة على جبين الخلد ،[11] إلى الاهتمام بتزيينها بالأقواس والمشاعل في المناسبات والأعياد .[12]

مكافحة التسول

وعمد إلى مكافحة التسول فيها ، فأمر بجمع المتسولين وإجراء صدقات يومية عليهم ، تحت طائلة بيعهم كالعبيد إذا عادوا ثانية إلى ممارسة التسول .[13]

الملاهي والألعاب

وكانت من الملاهي الاجتماعية الشائعة ، مشاهدة مباريات المصارعة والملاكمة،[14] وكذلك اللعب بالنرد والشطرنج . وكان تيمور من المولعين والمبرزين فيه . ويشير ابن عربشاه

---

(١) : ابن عربشاه : ص ١٥٢ – ١٥٤ . (٢) : يزدي : ج ١ ص ١٦٢

(٣) : ابن عربشاه : ص ٢٢٠ وأسماء هذه الحدائق هي بستان ارم – زينة الدنيا – جنة الفردوس – الشمال – الجنة العليا . (٤) : يزدي : ج ١ ص ٥٧٧ وج ٢ ص ١٣ – ١٤

(٥) : ابن عربشاه : ص ٤١ وقد أشار يزدي إلى موقع آخر يحمل اسم دمشق إلى الجنوب من سمرقند بالقرب من مدينة شادمان ، وقال عنه إنه من مستحدثات تيمور . انظر : يزدي : ج ١ ص ٤١٦

(٦) : يزدي : ج ١ ص ١٦٢ (٧) : ابن عربشاه : ص ٤١ (٨) : Sykes: op.cit. II P.132

(٩) : ابن عربشاه : ص ٢٢٥ (١٠) : Stewart: op. cit. P. 141

(١١) : يزدي : ج ١ ص ٥٦٧ (١٢) : Bouvat: Essai sur la civilisation... P.289

(١٣) : Bouvat: L'Empire Mongol, P. 69

(١٤) : ابن عربشاه : ص ١٣ .

إلى وجود متخصصين في تعليم هاتين اللعبتين . وتحدث عن وجود أنواع من الشطرنج كانت
متداولة ، كالمدور والمستطيل والكبير الذي يصل عدد حجارته إلى ستة وثلاثين حجراً .(١)

الموسيقى

اهتم المجتمع التيموري بالموسيقى والغناء . وورد ذكر القانون والعود والربابـــة،
بالإضافة إلى آلات الايقاع والنفخ ، من بين الأدوات الموسيقية المستعملة . وكانت الحفلات
الموسيقية والغنائية تُقام في الغالب ، عقب عودة تيمور من حروبه إلى سمرقند .(٢) ومـــن
الحفلات التي أشار إليها المؤرخون ، تلك التي أقيمـــت خلال الاحتفالات بأعراس أحفـاد
تيمور عام ٨٠٧ هـ ، والتي تنافس فيها كما يقول يزدي ، مغنون من الترك والمغول والصينيين
والعرب والفرس .(٣) وقد ذكر ابن بطوطة الذي زار ماوراء النهر في مطلع القرن الثامـــن
الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، أنه قد استمع إلى الغناء الفارسي والتركي في مدينـــة
بخـارى .(٤)

المرأة في الـ... الاجتماعـ...

وعلى الرغم مما يقوله ابن عربشاه ، عن أن الإشارة إلى المرأة كان أمراً مستكرهاً عند
الأتراك الجغتائيين ، وأنهم كانوا يشيرون إلى النساء بألفاظ الكناية ، فيقولون عنهـــن
ربات الحجال أو المخدرات ،(٥) فإنه يشير إلى أن النساء كُنَّ لا يستترن من الرجال، ولا سيمـا
في الحفلات والاجتماعات .(٦) وأيد كلافيجو أقوال ابن عربشاه ، وذكر أن النساء كن يشاركن
الرجال في الحفلات التي كانت تُقام في القصور الملكية . وتحدث عن الأناقة التي كانت تبدو
بها سيدات البلاط في ارتداء الثياب الحريرية التي كانت بدون أكمام . وأشار إلى اهتمامهن
بالتزين بشرائط الذهب ، وبتصفيف الشعر بشكل عالٍ فوق الرأس الذي تتدلى منه ريشة بيضاء
تنزل حتى العيون .(٧)

قلق توركان

كان المجتمع التيموري يسير على قاعدة تعدد الزوجات ومع ذلك فقد كانت المرأة تمارس
دوراً نشيطاً في الحياة الاجتماعية . ويتحدث كل من شامي ويزدي عن شقيقة تيمور "قتلـــق
توركان " وعن أعمالها الخيرية ونشاطها في حقل العمران ، فذكرا أنها بَنَتْ عدداً من المدارس
والخوانق . ولما كانت أكبر من تيمور سناً ، فقد كانت تبذل له النصح في كثير من الأمور.(٨)
ووقفت إلى جانبه تشد أزره في صراعه ضد احتلال الجتا لبلاده . وظل تيمور مختبئاً في منزلها
مدة ثمانٍ وأربعين يوماً ، بانتظار الظروف الملائمة لمتابعة الثورة ضد هؤلاء .(٩)

ساراي ملك خانـوم

ومن شهيرات النساء في عصر تيمور ، زوجته الرئيسية "ساراي ملك خانوم" ، وهـي
ابنة الخان الجغتائي قازان . وكانت زوجة الأمير حسين في بادئ الأمر ، ولكن تيمور تزوجهـا
بعد ظفره بحسين وقتله له عام ٧٧١هـ/ ١٣٧٠ م . وكانت تلقب "ببلقيس الصغرى" .(١٠)

---

(١) : ابن عربشاه: ص٢٢٣ وقد أورد أسماء لعدد من مشاهير اللاعبين وقال إن أحد هؤلاء وأشار
يرجع سر براعته إلى أنه قد شاهد علي بن أبي طالب في الحلم ، وقد ناوله الشطرنج في كيس،
وكان يلعب على الغائب ودون تفكير ، ومع ذلك فلم يتمكن أحد من التغلب عليه .
(٢) : يزدي : ج ١ ص ٥٦٧ (٣) : يزدي: ج ٢ ص ٤٤٠ (٤) : ابن بطوطة : ص ٣٥٤
(٥) : ابن عربشاه: ص١٢٢ وقد أشار لانكله إلى الأمر نفسه بأنه كان يشار إلى النساء بتورية
كقولهم أهل بيتي أو بعبارة "الأرجل القصيرة" أو "سكان حرمي"
(٦) : ابن عربشاه: ص١٥٧ (٧) : Langlès: P. 33 M 1
(٨) : شامي : ص٩٠ ويزدي: ج ١ ص ٢٦٠ Le Strange: op. cit: P. 132
(٩) : يزدي: ج ١ ص ٥٤ و Stewart: P.65
(١٠) : شامي : ص٩٥ و Stewart: P. 144

إليها كلافيجو بتعبير "الخانم الكبيرة". (١) ووصفها عندما قابلها بأنها سيدة قوية الشخصية نشيطة، تحب الصيد وتجيد ركوب الخيل، وتحسن الاستفادة من مركزها كزوجة رئيسية للفاتح التركي. وكانت تتمتع بلباقة سياسية فائقة، تقابل السفراء وتحسن التصرف معهم. (٢) وأضحى تيمور بزواجه من سراي ملك خانوم على صلة – برباط المصاهرة – بأسرة الخانات الجغتائيين حكّام ماوراء النهر الشرعيين ولذلك حصل أيضا على لقب "گوركان". (٣)

(١): Le Strange: op. cit. P. 213

(٢): Le Strange : ibid. هذا وكان زواج تيمور بسراي ملك خانوم ثاني زواج هام له تحدث عنه المؤرخون بعد زواجه من الجاى توركان آغا حفيدة قازغن وشقيقة الأمير حسين. وكان ذلك عام ٧٥٧ﻫ (انظر الفصل الثاني من الباب الثالث). ويذكر يزدي: أن تيمور قد تزوج عقب مقتل حسين بثلاث أخريات من زوجاته هن: "الوس آغا بنت بيان سلدوز" و "إسلام آغا بنت خضر يسوري" و "طغى تركان خاتون" (يزدى: ج ١ ص ١٥٥). وعقد تيمور قرانه في إحدى غزواته لبلاد الجتا عام ٧٧٦ﻫ على "دلشاد آغا" ابنة عدوه قمر الدين. ويقول ابن عربشاه إن دلشاد آغا كانت تدعى الملكة الكبرى (ابن عربشاه: ص ٢٢) ولكنها لم تمكث مع تيمور إلا مدة قصيرة، فقد توفيت عام ٧٨٥ﻫ (شامي ص ٩٠ ويزدي: ج ١ ص ١٩٠ – ١٩١ و ٢٦٠ وابن عربشاه: ص ١٥). وعقد تيمور قرانه عام ٧٧٩ﻫ على "تومان آغا" ابنة عدوه السابق "موسى جلاير" الذي كان تيمور قد انتزع منه عام ٧٦٨ﻫ مدينة قارشي، وتمكن من أسر زوجته "آروز ملك" وكانت حاملة بابنتها تومان آغا (عروس تيمور) في الشهر التاسع، وبذلك تكون تومان آغا في الحادية عشرة من العمر عند اقترانها بتيمور. (يزدي: ج ١ ص ١٠٥ و ٢١٥ و Stewart: op. cit. P. 104). ويتكلم يزدي في أحداث عام ٧٩٢ﻫ عن أن تيمور في غزوته لبلاد القبجاق التي قام بها في ذلك التاريخ، قد اصطحب معه زوجته التي تدعى "جلبان آغا". ويبدو من هذه العبارة أن تيمور قد تزوجها في تاريخ سابق لعام ٧٩٢ﻫ. ويقول هذا المؤرخ التيموري إن جلبان آغا كانت بنت أحد الزعماء الجتا، ويدعى "حاجي بيك" (يزدي: ج ١ ص ٣٥٧ وانظر أيضاً شامي ص ١١٧). أما اسم جلبان فيعني "نجم الصباح" (Prawdin: op.cit.P. 210). ويروى ابن عربشاه أن تيمور شك في سلوك زوجته وعفافها، فأمر بها فقتلت مع أنها كانت بريئة مما نسب إليها، ولم يذكر هذا المؤرخ الدمشقي تاريخ هذه الحادثة (ابن عربشاه ص ٢٢). وربما كانت جلبان آغا هي المقصودة فيما ذكر "شيلتبرجر" من أن تيمور حنق في آخر أيامه على أصغر زوجاته لأنه اكتشف أن لها علاقة بأحد قواده. وقد نقلت له هذا الخبر كبرى زوجاته (لعلها سراي ملك خانوم). وضبط عندها خطاباً أرسله لها ذلك القائد. فأمر بقطع رأسها على الفور (انظر Terfer: P. 29). وتزوج تيمور مرة أخرى عام ٨٠٠ﻫ. وكانت العروس ابنة الخان الجغتائي الشرقي خضر خواجا بن تغلق تيمور خان. وتدعى العروس الجديدة "تكل خانوم" (يزدي: ج ٢ ص ١٦). وكان الدافع لهذا الزواج توطيد الصلح الذي تم التوصل إليه مع ذلك الخان، بعد سلسلة من الحروب والغزوات قام بها تيمور ثم قواده إلى بلاد الجتا، وبعد مفاوضات جرت مع وفد أرسله خضر خواجا إلى تيمور في سمرقند (يزدي: ج ٢ ص ٩). واحتفل بهذا الزواج في موقع "باغ دلگشاي" في شمال سمرقند (يزدي: ج ٢ ص ١٦). ويقول ابن عربشاه أن العروس الجديدة كانت تلقب بالملكة الصغرى. (ابن عربشاه ص ٢٥) ولذلك فإن بارتولد يعتقد أنه كان لتكل خانوم المقام الثاني ودعيت "كشك خانوم" (Barthold: op.cit.P. 25). ولا يشير ابن عربشاه الذي يذكر أن تيمور تزوج من أميرتين صينيتين، إلى تاريخ هذا الزواج (ابن عربشاه ص ٢٢١). وكانت إحدى هاتين الزوجتين تدعى بيبي خاتون وقد أطلق اسمها على المسجد الجامع في سمرقند الذي بناه تيمور (Wilber: op. cit.P.60). وكان لتيمور أيضا عدد كبير من الحظايا والسراري يفقن في عددهن حد الإحصاء كما يقول ابن عربشاه ص ٢٢١). ومن أبرز من بقي من زوجاته بعد وفاته سراي ملك خانوم وتومان آغا وتكل خانوم (يزدي: ج ٢ ص وميرخوند: ج ٦ ص ١٤٧). ويقول ابن عربشاه إن تومان آغا كانت تعتزم الحج عام ٨٤٠ﻫ، أي بعد خمس وثلاثين عاماً من وفاة زوجها. وربما كانت هي التي مرت بدمشق بعد ذلك التاريخ بثمان سنوات لأداء فريضة الحج في الديار المقدسة (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٣٦٤). هذا ويلاحظ أن تيمور كان يتزوج من زوجات أعدائه أو بناتهم لتحقيق مآرب سياسية أو شخصية (الانتقام). ولم يكن بين زوجاته من كانت فارسية الأصل (من التاجيك). بل كن من التركيات الجغتائيات أو المغوليات أو الصينيات.

(٣): Barthold: Ulugh Beg. P. 24

المرأة في المجالين السياسي والحربي

وكان للمرأة في العهد التيموري طموحها ونشاطها في المجالين السياسي والحربي أيضاً . فقد طمعت زوجة والد حاجي برلاس في زعامة القبيلة (قبيلة برلاس) . ونافست ابن زوجها على هذا المنصب ، ودبرت له مؤامرة للقضاء عليه . ولكن حاجي برلاس استطاع كشف المؤامرة في الوقت المناسب ، وحكم على المرأة المتآمرة بالموت . وتم تنفيذ الحكم بها .[1] وذكر ابن عربشاه أن نساء الأتراك الجغتائيين كن يشتركن في القتال مع الرجال . وتحذق المرأة استعمال مختلف أنواع السلاح .[2] وتوكل إليها في أغلب الأحيان عمليات التجسس على الأعداء .[3] وضرب هذا المؤرخ الدمشقي مثلاً على تقشف المرأة التركية الجغتائية ، بأن الواحدة منهن إذا كانت على سفر وأدركها المخاض ، فإنها تتنحى عن الناس لتلد ، ثم تحمل وليدها وتتابع سيرها .[4] وقاتلت إحدى زوجات تيمور معه عام ٧٦٢ هـ . واضطرت أن تعبر الصحراء مشياً على قدميها .[5]

(١) : Stewart: op. cit. P. 46. (٢) : ابن عربشاه: ص ٢٣٢

(٣) : ابن عربشاه: ص ٢٠٣ (٤) : ابن عربشاه: ص ٢٣٢

(٥) : شامي : ص ٢٠ ويزدي: ج ١ ص ٤٨

الفصل الثالث

الفكر والفن

السمات العامة للحركة الفكرية - اللغة التركية الجغتائية - الكتابة - الأدب - مقابلة تيمور للشاعر حافظ التاريخ : نظام الدين شامي ، حافظ آبرو - الطب - الفلك والتنجيم - غايات النشاط العمراني - الخصائص العامة - بناء القصور : آق سراي - قبة أحمد يسوي - المسجد الجامع بسمرقند - مقبرة تيمور - الأعمال الأخرى - التصوير .

السمات العامة للحركة الفكرية

لم تسمح ظروف الحياة العامة في عهد تيمور الحافل بالحروب ، بقيام حياة فكرية راقية . ولم تستطع الحركة الثقافية أن تحقق تقدماً إلا في عهد خلفائه (١) . ولم يظهر في عهد تيمور - كما يقول بارتولد - أحد ممن كان يهتم بالفلسفة أو المنطق ، (٢) على الرغم مما يذكره المؤرخون التيموريون عن شغف تيمور بمجالسة العلماء ومناقشتهم ، والأخذ بيدهم والترحيب بهم . (٣) وكان الاهتمام منصرفاً في المجال الفكري إلى النواحي العملية التطبيقية ، دون النظر إلى القيمة النظرية الحقيقية للعلوم بالنسبة لتقدم الإنسانية . (٤) وقد انصب جهد العلماء على دراسة تاريخ الأمم الغابرة ، ثم الطب والنجوم والشريعة أكثر من بقية العلوم ، بسبب الحاجة المادية لهذه العلوم ، في مجال الحكم والإدارة للاعتبار وزيادة الخبرة ، ثم للمحافظة على الصحة والتنبوء عن المستقبل ، ولإيجاد مبرر شرعي للأعمال التي كان يقوم بها تيمور . وقد أشار حافظ آبرو إلى أن تيمور كان في آخر أيامه ، يقضي جزءاً من الليل في مباحثة العلماء في المسائل الشرعية والأغذية والأشربة . وأضاف أن أكثر اهتمامه كان متجهاً إلى مسائل الطب والنجوم . (٥) وكان تيمور ، تطبيقاً للناحية العملية ، يطلب من العلماء أن يصنفوا كتباً يفهمها غير المثقفين ، ويحبها في الوقت نفسه المثقفون . (٦)

اللغة التركية الجغتائية

وكانت اللغة التركية التي تكلمها تيمور والأتراك الجغتائيون لهجة متطورة عن اللغة التركية الشرقية ، التي كانت منتشرة في تركستان قبل وصول الإسلام إلى هناك . (٧) وقد تفرع عدد من اللهجات التركية ، بما فيها التركية الجغتائية ، عن اللغة التركية الأم منذ مطلع القرن الرابع عشر الميلادي . (٨) وحلت منذ ذلك التاريخ في اللغة التركية الجغتائية تعبيرات وألفاظ من اللغات الحية التي كانت سائدة في تلك المناطق كالفارسية والعربية ، محل التعبيرات والألفاظ الصينية والصغدية والمغولية التي كانت قد غزت اللغة التركية الأم ، قبل انتشار الإسلام في تلك البلاد . ويقدر صموئيلوفتش عدد التعبيرات والألفاظ الفارسية والعربية التي استقرت أخيراً في التركية الجغتائية بنصف ألفاظ هذه اللغة تقريباً . (٩) ومع

(١) Barthold: Four Studies: P.60 : (٢) Barthold: Ulugh Beg P. 22

(٣) : حافظ آبرو : ص ١٩٢ - ١٩٣ وسمرقندي : ص ١٠٧ (٤) Spuler: op. cit. P. 106

(٥) : حافظ آبرو: ص ١٩٣ و ٢٠٠ (٦) : بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٤٥

(٧) : Barthold: Litterature Caghtai (E.I.T.IV P.963-965) P.965

(٨) : Samoloviche: Les Langues Turques (E.I.T.IV P.P.956-963) P.960

(٩) : Samoloviche: op. cit. P. 962

ذلك فهنالك من ينظر إلى وصول تيمور إلى حكم ماوراء النهر، على أنه انتصار للتركية الجغتائية على الفارسية، التي كانت سائدة هنالك كلغة للتخاطب بين السكان، في الوقت الذي احتفظت فيه هذه الفارسية بمركزها كلغة للبحث العلمي والإدارة.[1] وقد شهد عصر تيمور المحاولات الأولى للانتاج الأدبي بالتركية الجغتائية، التي لاتزال تستعمل إلى اليوم في نطاق ما كان يدعى ببلاد جغتاي.[2]

الكتابة

وقد استمر تأثير الاويغور الثقافي على الأتراك الجغتائيين في عهد تيمور، في مجال الكتابة. وقد أشار ابن عربشاه إلى أن الجغتائيين كانوا يكتبون بالقلم الاويغوري — الذى كتب به المغول سابقاً — لكتابة المراسيم الإدارية والأدب والتاريخ.[3] كان الاويغور يوصفون في عهد تيمور بأنهم العنصر الذى ينتمي إليه كتاب تيمور، ويطلق عليهم اسم "بخشي".[4] وقد استخدمت الكتابة الاويغورية في عهد خلفاء تيمور أيضاً. وظل حتى مطلع القرن السادس عشر من كان على خبرة في أمور هذه الكتابة.[5] ويقول بارتولد إن تحول كتابة اللغة التركية الجغتائية من الحروف الاويغورية إلى الحروف العربية، قد بدأ مع ذلك منذ وقت مبكر، وكان تحولاً تدريجياً مع ازدياد استعارة الألفاظ العربية والفارسية إلى التركية الجغتائية.[6] ولعله كان من دواعي هذا التحول كون الكتابة الاويغورية كتابة بدائية بالقياس إلى الكتابة العربية، فقد أشار ابن عربشاه إلى أن الحروف الاويغورية لم تكن تتجاوز أربعة عشر حرفاً، لأن حروف الحلق فيها كلها تعتبر حرفاً واحداً، وكذلك كان حال الحروف المتشابهة، كالباء والفاء، ثم السين والتاء والصاد، ثم التاء والظاء، ثم الدال والضاد.[7] وقد أيدت الأبحاث الحديثة آراء ابن عربشاه، فأشار صامولوفيتش إلى هذه الخصائص التي كانت عليها الكتابة الاويغورية.[8] ويفهم من حديث ابن عربشاه عن حال الكتابة الاويغورية في عهد تيمور، ومن حذق الكتابة كان له مورد رزق موفور،[9] أن عدد من كان يتقن هذه الكتابة كان قليلاً جداً لمزاحمة الكتابة العربية للحروف الاويغورية. وأضحى من الأمور اللافتة للانتباه في القرن السادس عشر أن يوجد من لايزال يعرف استعمال هذه الحروف، وقد اطلق صامولوفيتش على هؤلاء لقلة عددهم لقب "خبراء".[10] ويؤكد بارتولد أن انتصار الحروف

(١): السادات: تاريخ المسلمين: ج ٢ص ٣٦١ (٢) Cahun: op. cit. P. 968

(٣): ابن عربشاه: ص ٢٢٠. وقد ذكر بارتولد أن الخط الاويغوري هو كتابة صوتية هجائية وقد اشتق من الكتابة الصغدية المأخوذة بدورها من الكتابة البابلية السامية. انظر: بارتولد تاريخ الترك في آسية الوسطى ص ٩٤ و Samoloviche: op. cit. P. 959

(٤): يزدي: ج ١ص ١٩. وقد رسمها بارتولد (باخشي) انظر له: تاريخ الترك ص ١٠٨.

(٥): Samoloviche: op. cit. P. 962 وأما بارتولد فقد أشار إلى أن أحد الشعراء الأتراك الجغتائيين، وهو "مير محمد حيدر مجذوب" قد كتب مؤلفه "مخزن الأسرار" في مدح أحد أحفاد تيمور "إسكندر سلطان" بالكتابة الايغورية، وتوجد من هذا المؤلف نسخة محفوظة في برلين. وهنالك مصنفان مخطوطان بالاويغورية يرجع تاريخهما إلى القرن التاسع (بعد عصر تيمور) "بختيار نامة" تاريخه ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٥ م محفوظ في اكسفورد و "معراج نامة" تاريخه ٨٤٠ هـ/ ١٤٢٨ م محفوظ في باريز انظر: Barthold: op. cit. P. 964

(٦): Barthold: op. cit. P. 963 (٧): ابن عربشاه: ص ٢٢١

(٨): Samoloviche: op. cit. P. 961 (٩): إبن عربشاه: نفسه.

(١٠) Samoloviche: op. cit. P. 950

" العربية على الكتابة الاويغورية كان انتصاراً نهائياً في القرن الثامن عشر ." [١]

ولم يصل إلينا من الأعمال الأدبية بالتركية الجغتائية من عصر تيمور إلا القليل. ولعل أهمه هو المؤلف الذي ينسب إلى تيمور نفسه ، والذي اشتهر باسمه " ملفوظات تيمور". وقد تحدث فيه تيمور ، على شكل مذكرات ، عن أحداث عصره السياسية والعسكرية ، وفصل الكلام فيه في قسم خاص دعي " توزوكات " ، عن الأنظمة السياسية والإدارية والقضائية والعسكرية التي عمل على تطبيقها في دولته . وأشار إلى آرائه ونظرياته في كل هذه الامور .[٢] وترد إشارات إلى " سيف الدين برلاس" على أنه شاعر نظم شعره بالتركية الجغتائية. وكان رفيق تيمور في حروبه ومغامراته .[٣] كما ترد إشارات أخرى إلى الخان الجغتائي " كابل خان " الذي ولي العرش فيما وراء النهر ، كخان دمية من قبل تيمور والأمير حسين عام ١٣٦٦م على أنه شاعر نظم بالتركية الجغتائية .[٤] وعلى الرغم من انتعاش حال الأدب الذي كتب بالجغتائية ، وتزايد عدد المؤلفات التي كتبت بهذه اللغة ، ولاسيما في عهد خلفاء تيمور ، فقد ظل الأدب الجغتائي يدين للأدب الفارسي بالشيء الكثير . وظلت موضوعات هذا الأدب (الفارسي) تلهم في الغالب الشعراء الجغتائيين .[٥] وظل بعض الأدباء يكتبون أعمالهم بالتركية والفارسية معاً ، كما فعل سيف الدين برلاس .[٦] وكانت القضية الأدبية الأولى المطروحة أمام الأدباء الجغتائيين في عصر تيمور وعصر خلفائه ، هي الموازنة بين لغة الترك وثقافتهم وبين لغة الفرس وثقافتهم ، وبيان أن التركية الجغتائية لاتقل عن اللغة الفارسية ، في استعدادها لاستيعاب الأغراض الأدبية المختلفة .[٧]

الأدب

وتعكس المقابلة التي يُزعم أنها تمت بين تيمور والشاعر الإيراني " شمس الدين حافظ الشيرازي " ، عام ٧٩٥ هـ/ ١٢٩٣ م ، وما دار فيها من حوار بين الفاتح التركي والشاعر

مقابلة تيمور للشاعر حافظ

---

(١): Barthold: Les Turcs(E.I.T.IV P.P. 947-956) P. 955

(٢): Barthold: Litterature Caghthi P. 964 Browne: P. 202

(٤): Barthold: Ulugh beg P. 13 (٥) : بارتولد : تاريخ الترك ص٢٢٤

(٦) : بارتولد : تاريخ الترك ص٢٢٢ (٧) : Barthold:Litterature Cagh..P.964

من أبرز من تصدى لهذا الموضوع " ميرعلي شيرنوائي " (٨٤٤ ـ ٩٠٦ هـ/ ١٤٤٠أو ١٤٤١ ـ ١٥٠١ م) الذي ذاع صيته كشاعر تركي نظم مثنويات تركية تحاكي الأدب الفارسي بالشكل والموضوع . كان صديق السلطان التيموري حسين بايقرا (١٤٦٩ ـ ١٥٠٦ م). وكانت لغته واضحة بسيطة وافقت أذواق معاصريه ، ويتجلى في كتاباته الإبداع الخاص بأدب العهد التيموري . ويعتبره بعض الباحثين أهم شخصية في النهضة الأدبية التيمورية وفي اللغة الجغتائية بشكل عام . ويرون فيه المجدد الحقيقي للغة التركية الجغتائية ، لأنه حاول أن يُعلي قيمة هذه اللغة عن طريق محاولته بيان فضلها على اللغة الفارسية ، في كتاب ألفه في آخر أيامه ، ودعاه " محاكمة اللغتين " . أثر نوائي على من جاء بعده من الشعراء . وتجاوزت شهرته حدود الامبراطورية التيمورية. وكان إلى جانب كونه شاعراً ، مؤرخاً وضع كتاباً في تاريخ ملوك الفرس القدماء (!)، وموسيقياً ورساماً ، طبع ديوانه في باكو عام ١٩٢٦ انظر :

Barthold: ibid. et Cahun; op. cit. P. 967,969

الفارسي ، نوعاً من التحدي الأدبي التركي الجغتائي للأدب والخيال الأدبي الفارسي .(١)

ويتحدث المؤرخون الفرس الذين عاشوا في عصر تيمور ، عن ميل الفاتح التركي لسماع قصص التاريخ ، والاطلاع على أحوال الأمم الماضية وانسابها ، من ترك وعجم وعرب. وكانت تحيط به حاشية من المؤرخين والاخباريين ، من الاويغور والتاجيك .(٢) وقد تعدى اهتمام تيمور بالتاريخ سماع الأخبار إلى تسجيل الأخبار ، التي تقع في عصره . وتشير التنظيمات وغيرها من المصادر الفارسية المعاصرة إلى أن هؤلاء الكتاب الاويغور والتاجيك، كانوا يقومون بتسجيل الأحداث التي تقع ، والأوامر التي تصدر عن تيمور ، والحلول التي يراها للمسائل التي تعرض عليه . ويتحتم —كما يقول يزدي — أن يكون التسجيل صادقاً دون زيادة أو نقصان .(٣) وجاء في التنظيمات أن الجهاز الإداري في الدولة كان يضم دائرة تختص بتسجيل الأحداث أولاً بأول .(٤)

وظهرت في عهد تيمور مؤلفات تاريخية حررت بالفارسية ، تحدثت عن حياة الفاتح التركي وحروبه وأعماله المختلفة. وكان من أهم هذه المؤلفات ماكتبه المؤرخ نظام الدين شامي "الذي أرجع بعض الباحثين أصله إلى بلاد الشام ، كما يظهر ذلك من اسمه . فيقول عنه براون "إنه سوري الأصل أقام في بغداد. وكرر القول ذاته "بوقا" .(٥) ويظهر من كتابات شامي أنه كان يكن الاحترام للعرب فيصفهم بأنهم قد اشتهروا بالكرم والسماحة.(٦) وعلى الرغم مما يذكره محمد مشكور عن أصل المؤلف أنه من ضاحية شنب غازان قرب تبريز، وأن سبب الالتباس في نسبة "شامي" يرجع إلى أن حرف "الباء" إذا جاء بعد حرف النون "قلب الحرفان معاً الى "ميم" في اللغة الفارسية ، ولذلك فإن كلمة "شنب" تقرأ شم أو شام ،(٧) فإن "تاور" (Tauer) الذي حقق كتاب نظام الدين شامي ونشره عام ١٩٣٧ ، قد أشار في

نظام الدين شامي .

(١) : وكان تيمور قد استاء عند سماعه بيتين من الشعر قال فيهما حافظ:
لو أن ذلك التركي الشيرازي يأخذ بإشارة واحدة من يده قلوبنا
فإنني من أجل خاله الأسود أهبه سمرقند وبخارى
ولذلك يوبخه تيمور قائلاً : كيف تستطيع أن تلقي على أقدام مومس من شيراز ، تلك المدينتين اللتين أخذتهما بقوة سيفي ، ثم أجهدت نفسي بتجميلهما خلال سنين طويلة ، واستعنت لذلك بأكبر الفنانين ، لأجعلهما فوق سائر المدن الاخرى ، واتخذتهما مكاناً لإقامتي . كيف تتجاسر أيها الشخص التافه المتسرع أن تهب هاتين المدينتين لخال أسود على قسمات وجه جميل . ورد الشاعر باستكانة وذل معتذراً فقال : إنه الهوس المفرط الذي كان السبب في الشقاء الذي تراني فيه . وترد الشكوك حول وقوع هذه المقابلة لانه لم يرد لها ذكر عند أي من المؤرخين الذين عاشوا في عصر تيمور أو في عهد خلفائه المباشرين ، وانفرد بذكرها "دولتشاه السمرقندي" وهو من كتاب القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . وتضعف قيمة رواية دولتشاه هذه لأنه ذكر في موضع آخر من مؤلفه "تذكرة الشعراء" ، أن حافظ الشيرازي توفي عام ٧٨٩ هـ/ ١٣٨٧م ، أي في تاريخ أسبق للتاريخ الذي كان قد حدده لحدوث المقابلة بين تيمور والشاعر . انظر كلا
Browne: op.cit.T.III P.189, Sykes: op.cit.T.II P.129
Prawdin: op. cit. P. 250, et Wilber: op. cit. P. 63

(٢) : يزدي: ج ١ص١٩ وحافظ آبرو : ص١٩٢ .

(٣) : يزدي: ج ١ص١٩ و(٤) : Langlès: op. cit. P. 96 Langlès: ibid.

(٥) : Browne: op. cit. T. III P. 197, Bouvat: op. cit. P. 21

(٦) : شامي : ظفرنامه ص ١٤٠ (٧) : مشكور (دكتر محمد جواد) "تاريخ تبريز تا پايان قرن نهم هجرى" ١٣٥٣ ص٢٧٢ — ٢٧٣ وإبراهيم أمين الشواربي : القواعد الأساسية في دراسة الفارسية ص ١٠

الترجمة التي قد كتبها عن المؤرخ في مقدمة الجزء الثاني لعمله عام ١٩٥٦ ، أن نسبة نظام الدين شامي إلى ضاحية شنب غازان هي رأي افتراضي .[١] وتظل حياة المؤلف قبل اجتماعه بتيمور عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م في بغداد مجهولة _ كما يقول تاور _ وقد أشار نظام الدين في كتابه إلى أنه كان أول من قابل الفاتح التركي من سكان بغداد في ذلك التاريخ ، عند قدومه إليها للمرة الأولى ،[٢] الأمر الذي يدفع إلى الاعتقاد إلى أنه كان يعتبر نفسه من أبناء هذه المدينة . وكان اللقاء الثاني بين المؤرخ وتيمور في حلب عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م ، وكان نظام الدين كما ذكر عن نفسه في مؤلفه على وشك الانطلاق إلى الحجاز ، عندما أسرته سلطات المدينة المملوكية .[٣] وكان قدوم تيمور على رأس جيوشه إلى حلب سبباً في إطلاق سراحه . وأشار المؤرخ التيموري الآخر "حافظ آبرو" الذي رافق حملة تيمور إلى حلب ، إلى وجود نظام الدين في المدينة في ذلك الوقت .[٤] وكلف تيمور نظام الدين عام ٨٠٤ هـ/ ١٤٠٢م بكتابة تاريخ له ، يتناول حياة الفاتح التركي وأعماله ، ووضع أمامه عدداً من المراجع والوثائق ليعتمد عليها .[٥] وانتهى المؤرخ من عمله بعد عامين . وقدمه إلى تيمور في آخر عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٤م ، عندما كان تيمور عائداً من حروبه في بلاد الكرج إلى سمرقند ، في المرحلة الأخيرة من حروب السنوات السبع . وأُطلق على الكتاب _ بعد ذلك _ بأمر من تيمور اسم "ظفرنامه" (كتاب الظفر) . وأدخل المؤلف تعديلات على كتابه بعد ذلك ، وقدمه مرة ثانية ، إلى حفيد تيمور "عمر بن ميرانشاه" . ويُعتقد أن نظام الدين شامي قد أمضى آخر أيامه في تبريز . وكانت وفاته حوالي ٨١٤ هـ/ ١٤١١م .[٦] ومما لاشك فيه أن المؤرخ قد اطلع على كثير من المؤلفات والوثائق غير التي زوده بها تيمور ، ولكنه لم يشر إلى أي من هذه المصادر ، ولا إلى شخصيات أصحابها ، سوى ماكتبه احد الذين شاركوا في حملة الهند ، وهو القاضي "نظير الدين" .[٧] ويؤكد براون أن مذكرات تيمور وتنظيماته كانت من المصادر التي استعان بها "نظام الدين" في كتابة مؤلفه .[٨]

وقف شامي في تاريخه عند أحداث عام ٨٠٦ هـ ، ولم يكتب شيئاً عن أحداث العام الأخير من حياة تيمور (عام ٨٠٧ هـ) . وكان أسلوبه في الكتابة واضحاً بسيطاً ، ابتعد فيه عن الزخارف اللفظية وضروب البلاغة التي كانت شائعة في عصره .[٩]

حافظ آبرو

وأما المؤرخ الثاني الذي عاش في تلك الحقبة ، فهو "شهاب الدين عبدالله بن لطف الله بن عبد الرشيد الخوافي" . وقد اشتهر باسم مختصر هو "حافظ آبرو" . وُلد في هيرات حوالي عام ٧٦٣ هـ .[١٠] ونشأ في همذان . ولايُعرف شيء عن حياة المؤرخ قبل اتصاله بتيمور . ويصفه "بياني" في المدخل الذي وضعه لأحد مؤلفات حافظ آبرو ، عندما

---

(١) : Tauer : Zafarnama T. II Preface P. XIII (٢) : شامي : ص ١٣٩
(٣) : شامي : ص ٢٢٨ (٤) : حافظ آبرو : زبدة التواريخ ص ١٦٠ (٥) : حافظ آبرو : نفسه .
(٦) : Tauer : op. cit. Préface P. XIII-XIV (٧) : Tauer : ibid.
(٨) : Browne : op. cit. T. III P. 362 (٩) : Browne : ibid.
(١٠) : فؤاد الصياد : رشيد الدين مؤرخ المغول . ص ٣٢٥

ترجمها إلى اللغة الفرنسية "بأنه أشهر كتّاب العصر التيموري". ويعلل التعتيم الذي لحق بالجزء الأول من حياته بحسد الكتّاب المعاصرين له، لحظوته في البلاط التيموري.(١) عاش المؤرخ في كنف تيمور، وخدمه بإخلاص، وشهد أغلب حملاته،(٢) ويقول حافظ آبرو عن نفسه إنه رافق تيمور في حملته على الهند عام ٨٠٠ هـ، وعلى بغداد وحلب، ودمشق عام ٨٠٣ هـ.(٣) وانتقل بعد وفاة تيمور إلى كنف ابنه شاه رخ في هيراة حيث عمل كأمين على سجلات بايسنقر بن شاه رخ. وتوفي حافظ آبرو في مدينة "زنجان" في شوال ٨٣٤هـ / آب ١٤٣٠م.(٤)

وظهر نشاط المؤرخ في التأليف بعد وفاة تيمور، عندما كان في حاشية بايسنقر بن شاه رخ. فكتب ذيلاً لكتاب "جامع التواريخ" للمؤرخ رشيد الدين، ضمنه عهد الحاكمين الايلخانيين "اولجايتو" وابنه "أبي سعيد". والحقبة الأخيرة من حياة الدولة الايلخانية بين ٧٠٣ — ٧٥٧ هـ. وأنجز حافظ آبرو عمله عام ٨٢٠ هـ. وكتب في هذا العام نفسه ذيلاً آخر لكتاب "ظفرنامه" لنظام الدين شامي، ضمنه أحداث السنة الأخيرة من عهد تيمور (عام ٨٠٧ هـ) التي لم ترد في مؤلف شامي، ومطلع عهد شاه رخ حتى عام ٨١٠ هـ. وبدأ حافظ العمل في كتابه الموسوعي "مجمع التواريخ" عام ٨٢٢ هـ بناءً على طلب شاه رخ. وقد تناول فيه أحداث التاريخ منذ العصر الجاهلي إلى عصر شاه رخ. واعتمد في تأليفه على النسخة الفارسية من كتاب الطبرى وعلى "جامع التواريخ" لرشيد الدين وظفرنامه شامي.(٥) وقسّم حافظ آبرو كتابه إلى أربع أرباع، تناول فيها حقب التاريخ المختلفة. وتحدث في الربع الأخير الذي دعاه "زبدة التواريخ" عن تاريخ تيمور، وأدخل به الذيل الذي كتبه على ظفرنامه شامي، وقد ذكر فيه أنه قد استفاد كثيرا مما كتبه نظام الدين شامي.(٦) وقد نشر المستشرق التشيكوسلوفاكي "تاور" (Tauer) "زبدة التواريخ" عام ١٩٥٦م في براغ، في مجلد ثانٍ ملحق بالمجلد الأول الذي نشره عام ١٩٣٧ في بيروت، وضمنه "ظفرنامه" شامي".(٧)

وظلت الحركة العلمية محصورة في الغالب بالتاجيك، وباللغة الفارسية التي كانت تعتبر لغة البحث العلمي (٨) — على حد قول بارتولد —. ويؤكد ذلك قوائم الأسماء التي يوردها المؤرخون للمشتغلين بالطب والفلك. ويتضح من هذه القوائم أن أصحاب هذه الأسماء هم من أصل فارسي أو عربي، جاؤوا من مدن في إيران والعراق والشام.(٩) وقد أشير إلى الاطباء والمهندسين كفئة متميزة في حاشية تيمور. وهم يحتلون الرتبة الثامنة من

الطب

Bayani: Hafiz-i-Abru-Chronique des Rois Mongols en Iran :(١)

Bayani: op. cit. P. V :(٢) Introduction P. V

(٣): حافظ آبرو: ص١٤٣ و١٦٠.

Bayani: op. cit. P. IX-X :(٤)

(٥): Tauer: Hafiz-i-Abru(E.I.T. III) P. 60

(٦): فؤاد الصياد: رشيد الدين ص٣٢٥ — ٣٣٠

Tauer: Zafar-namaT. II Preface P.XV :(٧)

(٨): بارتولد: تاريخ الترك، ص٢٣٧

(٩): يزدي: ج ٢ص٢٤٢ وابن عربشاه: ص ٢٢١ — ٢٢٣ وقد ذكر ابن عربشاه اسم طبيبين جاءا من بلاد الشام، هما مولانا جمال الدين محمد رئيس الطب في بلاد الشام، ومولانا سليمان. وأورد حافظ آبرو اسم طبيب ثالث جاء من كرمان هو حسام الدين شاه كرماني. ووصفه بأنه ابقراط زمانه. (زبدة التواريخ ص٢٠٣). وأشار يزدي إلى طبيب رابع هو فضل الله التبريزى الذي أشرف على علاج تيمور في مرضه الأخير (يزدي: ج ٢ص ٤٦٤)

المراتب الاثنتا عشرة التي قسم تيمور حاشيته إليها.[١] وينسب حافظ آبرو إلى تيمور بعض المعرفة الطبية التي تتعلق بالمعالجة وخواص بعض الأطعمة والأشربة.[٢] كما يورد ابن عربشاه وصفاً لأساليب التداوي باستعمال معاجين مستخرجة من بعض المركبات الكيميائية التي يدعوها "أحجار"،[٣] بالإضافة إلى الرقي ودعاء الأتقياء من الناس، وقد كانت تعتبر من الأساليب الناجعة في المعالجة.[٤]

الفلك والتنجيم

وأورد ابن عربشاه في قائمته المطولة لأسماء العلماء الذين كانوا في حاشية تيمور، اسم "أحمد الطبيب النحاس" الذي استطاع عام ٨٠٨ هـ (بُعيد وفاة تيمور)، أن يضع جداول فلكية ورياضية لمئتي عام مقبلة. وتنبأ عن أحداث سوف تقع في هذه الحقبة.[٥] وعلى الرغم من اهتمام تيمور بالتنجيم فلم تتقدم الأبحاث الفلكية في عهده كما كان الحال في عهد حفيده "الغ بك"، الذي أنشأ مرصداً في سمرقند. وكانت النتائج التي توصل إليها في عهد الغ بك - برأي بارتولد - آخر كلمة قيلت في علم الفلك في العصر الوسيط، وآخر مرحلة بلغها هذا العلم قبل اختراع المنظار الفلكي.[٦] ويعلل هذا المستشرق الروسي عدم تطور علم الفلك في عهد تيمور، بعدم رغبة الفاتح التركي بالتنجيم الفلكي وبميله لاستفتاح القرآن كوسيلة للتنبوء.[٧] وقد أشارت المذكرات في أماكن عديدة لاستطلاع تيمور رأي الآيات القرآنية فيما سيقدم عليه من أعمال.[٨] ويفهم من أقوال ابن عربشاه أنه قد ظلت عند بعض أتباع تيمور الجغتائيين، ممن ظلوا على ديانتهم الوثنية، عادة التنبوء عن المستقبل من النظر في عظام الضأن.[٩] وظل تقويم الإثنى عشر حيواناً الذي كان شائعاً عند المغول والأتراك القدماء، متبعاً في عهد تيمور وأبنائه، إلى جانب استعمال التقويم الهجري في التأريخ.[١٠] وقد استعمل يزدي وغيره من المؤرخين الفرس التقويمين في مؤلفاتهم التاريخية.

غايات النشاط العمراني

أراد تيمور عن طريق المنشآت العمرانية التي أقامها، أن يدعم وحدة امبراطوريته التي أقامها بقوة جيوشه - بوحدة فنية، تحت تأثير الفكرة القائلة إن المنشآت العمرانية كعمل حضاري مدني، تستطيع كالحروب والانتصارات الباهرة تخليد مجده على مر السنين.[١١] وهدف تيمور من ناحية ثانية إلى دعم فكرة الرغبة في السيطرة على العالم وإظهار عظمة الدولة التي أقامها، عن طريق إقامة منشآت عمرانية ضخمة.[١٢] ولذلك فاقت هذه المنشآت

(١): Langlès: op. cit. P. 36 (٢): حافظ آبرو: ص ٢٠٢
(٣): ابن عربشاه: ص ٢٢١ (٤): يزدي: ج ٢ ص ١٣٩ وقد ذكر أن نساء تيمور قمن برقيه عندما مرض عام ٨٠١ هـ (٥): ابن عربشاه: ص ٢٢٢
(٦): بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٤١ (٧): Barthold: Ulugh Beg P. 23
(٨): Stewart: P. 127 حيث أشير إلى إحدى حوادث استفتاح القرآن.
(٩): ابن عربشاه: ص ٢٣٠ (١٠): ابن عربشاه: ص ٢٣٠ ويقوم هذا التقويم على تسمية كل عام باسم حيوان من إثنى عشر حيواناً. تقول الأسطورة التي أشارت إلى منشأ هذا التقويم، إن أحد ملوك الترك القدماء لما خرج إلى الصيد شاهد هذه الحيوانات تقفز إلى نهر ايلة (ايلي) هاربة منه بالترتيب الذي اتبعه التقويم فيما بعد انظر: بارتولد: تاريخ الترك ص ٩١
(١١): Perroy: op. cit. P. 522
(١٢): آثار الإسلام التاريخية في الاتحاد السوفييتي تقديم ضياء الدين ص ٧

مثيلاتها التي انشئت في البلاد الأخرى ضخامةً وارتفاعاً .[1] وقد حملت جيوش تيمور معها العمال والمهندسين ، من مختلف المناطق التي بلغتها ، كدمشق وبغداد وشيراز ودلهي ، للاشتغال في أعمال البناء في العاصمة سمرقند . وجلبت هذه الجيوش معها مواد البناء والأحجار والرخام والأعمدة . وقد لمس ابن عربشاه من هذه الأعمال أيضاً رغبة تيمور في دعم فكرة عالمية دولته عن طريق إظهار أن جميع الشعوب تقوم على خدمته .[2]

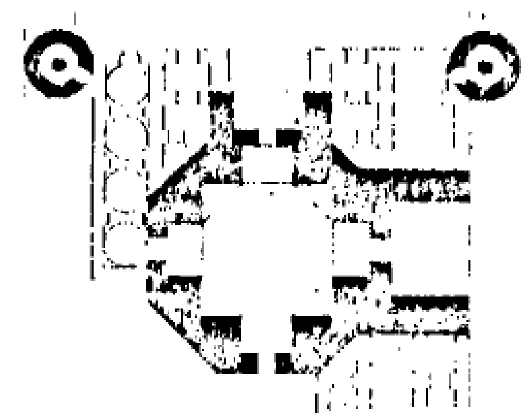
وقد بدت الرغبة في إظهار عالمية الدولة التيمورية أيضاً ، في تعدد الأساليب الفنية في الأبنية التي شيدت في عهد تيمور . فظهرت الأساليب الإسلامية الفارسية ، في شكل الأبنية ومخططاتها والأغراض التي شيدت من أجلها ، إلى جانب الأساليب الصينية التي بدت في الزخارف ، بالإضافة إلى الرغبة في محاكاة أشكال مخيمات الأتراك الجغتائيين عند بناء القصور ، واستخدام الألوان المتعددة والصارخة التي تستهوي الشعوب البدوية .[3] وقد أشرعن تيمور حبه الشديد للبناء والفنون بشكل عام . وكانت سرعته في إقامة المباني في سمرقند لافتة للنظر كسرعته في التدمير في المناطق الأخرى .[4] وقد أشار يزدي إلى أنه قد تمّ بناء أحد القصور خلال شهر ونصف .[5] وكانت أعمال البناء في كثير من الأحيان تراقب من قبل تيمور بالذات . وقد شاهد كلافيجو تيمور عام ٨٠٧ هـ في سمرقند وهو مريض ، وقد حُمل على محفة وخرج ليتفقد أعمال بناء أحد القصور خارج المدينة .[6] وقد تصل عقوبة التأخر في مواعيد انجاز الأبنية إلى الموت أحياناً . وكان تيمور يجتمع من وقت إلى آخر بالمهندسين لمناقشتهم في أعمالهم . ويعمل لأن يفرض عليهم آراءه التي كان بعضها صائباً يثير دهشة المهندسين ، وبعضها الآخر غير قابل للتحقيق .[7] وأضحت معظم المباني التي شيدت في عهد تيمور ، أطلالاً خربة في الوقت الحاضر أو عفا عليها الزمن . وكانت أغلب هذه المباني بحاجة إلى إصلاح ، بعد مدة وجيزة من الانتهاء من بنائها .[8] ويذكر ابن عربشاه أن المصلين في المسجد الجامع بسمرقند كانوا يخشون من خطر تساقط حجارة السقف على رؤوسهم أثناء الصلاة .[9] وربما كان السبب في ذلك ، السرعة التي تمّ بها تشييد هذه المباني ، ثم محاولات المهندسين تحقيق رغبات تيمور على حساب القواعد العلمية .

الخصائص ال

توقفت منذ عهد تيمور عادة البناء بالتراب والخشب التي كانت شائعة في الماضي . واستعملت الحجارة والآجر .[10] وشيد في تلك الحقبة عدد من القصور في سمرقند ومناطق أخرى في بلاد ماوراء النهر . ولانعرف في الوقت الحاضر عن أغلب هذه القصور إلا ماذكرته الروايات المعاصرة . فقد أشار يزدي إلى أن تيمور بنى قصراً في بخارى عام ٧٩١ هـ ،[11]

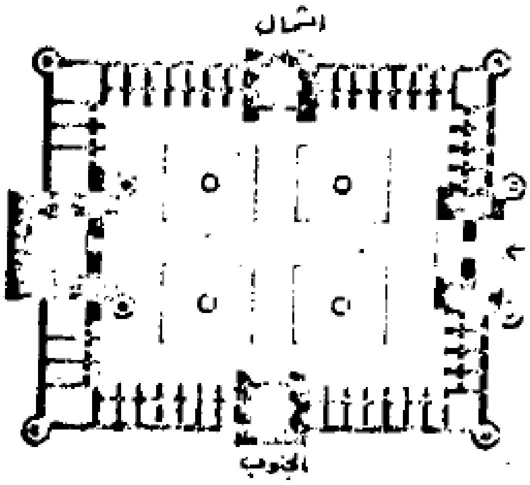
القصور

(١) : Prawdin: op. cit. P. 231
(٢) : ابن عربشاه : ص ١٥
(٣) : Pope (editor): A Survey of Persian Art. V. II P. 1119, 1151
(٤) : Cahun: op. cit. P. 964-965, Prawdin: op. cit. P. 231 Prawdin: ibid.
(٥) : يزدي : ج ١ ص ٥٧٢ (٦) : Le Strange: op. cit. Introd. P. 13
(٧) : Barthold: Four Studies P. 60
(٨) : Pope (ed.): op. cit. V. II P. 1151, Prawdin: op. cit. P. 232
(٩) : ابن عربشاه : ص ١٥٩ . (١٠) : Oumniakoo et..; op. cit. P. 20
(١١) : يزدي : ج ١ ص ٣٤٩ .



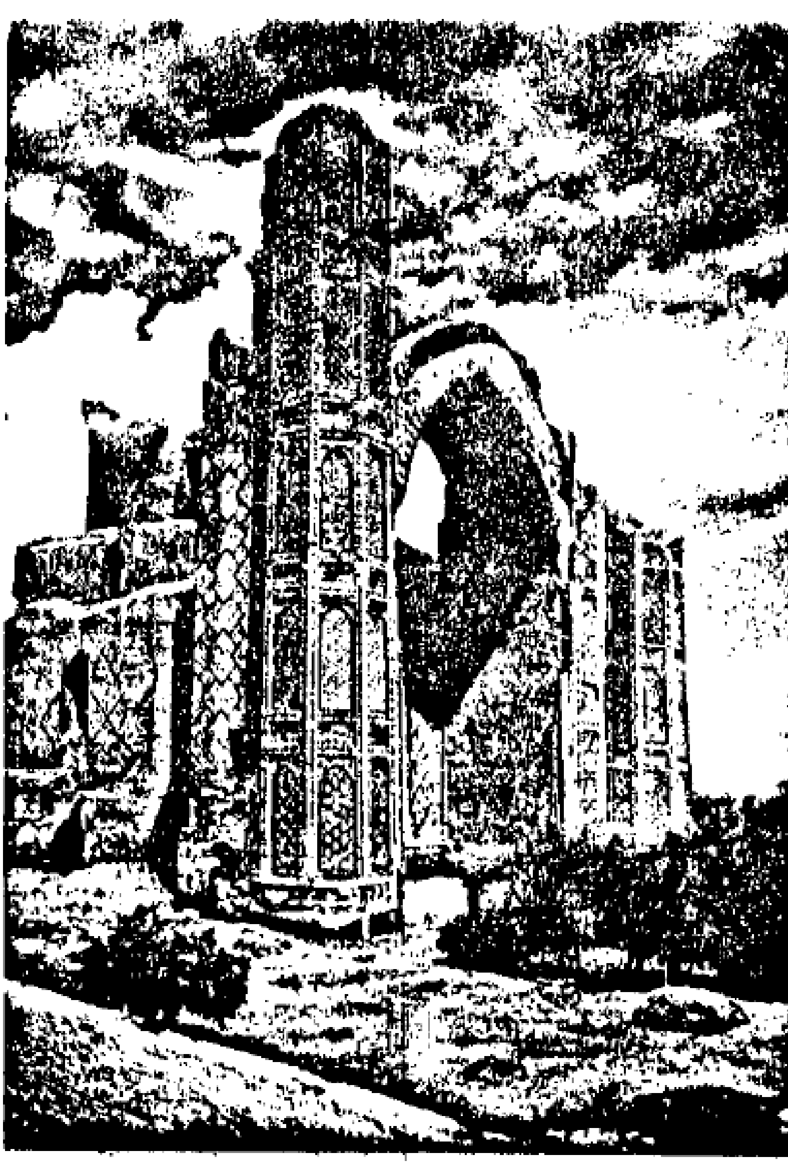
مخطط مقبرة تيمور نقلا عن :

Papadopoulo: op. cit. P. 527



مخطط المسجد الجامع في سمرقند (مسجد بي بي خانوم) نقلا عن :

Papadopoulo; op. cit. P. 528



البقية الباقية من واجهة المسجد الجامع في سمرقند

وترى بعض الأبحاث الحديثة أن مسجد بيبي خانم من أعظم المساجد التي شيدت في آسية الوسطى ، وهو لذلك من أعظم مساجد العالم الإسلامي . وتعزو هذه الأبحاث سبب تصدع البناء في السنوات الأولى للانتهاء من عمارته ـ كما أشار إلى ذلك ابن عربشاه ـ إلى السرعة والإهمال أثناء تشييده ، وكذلك لضخامة منشآته وقبابه وأقواسه .(١) ساهمت الهزات الأرضية بعد ذلك ، على مر الأيام ، بهدم أجزائه بالتدريج . وقد حول زلزال عام ١٨٩٨م مجموعة البوابة الرئيسية إلى انقاض ، ولم يبق من المسجد اليوم إلا جزء من المئذنة الشمالية الغربية يرتفع إلى ٢٠ر١٨ م .(٢)

مقبرة تيمور

وأشرف تيمور على بناء مقبرة له في سمرقند . وقد انتهى بناؤها قبيل وفاته بأمد قصير عام ٨٠٧هـ / ١٤٠٥ م ، باشراف مهندس تاجيكي من مدينة اصفهان. وتعرف المقبرة اليوم باسم "كورمير" (قبر الأمير) . وهي لاتزال بحالة جيدة . وتعتبر من مآثر فن العمارة في العصر الوسيط ، وينظر إليها مع المسجد الجامع على أنهما نموذجان كاملان لفن العمارة في عصر تيمور .(٣)

تتألف المقبرة من بناء مثمن الأضلاع من الخارج ، تعلوه قبة بصلية الشكل ، ذات عنق أسطواني عال . والقبة من الخارج مضلعة ومكسوة بالقرميد الأزرق القاتم والأزرق السماوي. وتلتف حول العنق كتابات قرآنية . وكان للبناء من جهة المدخل مئذنتان ، لم يبق منها اليوم إلا الأطلال . فقد انهارت الأولى عام ١٨٦٠ م وانهارت الثانية عام ١٩٠١ م .(٤)

وللقبة من الداخل شكل مربع ، له أقواس في جدرانه الأربعة ، وبوابات صغيرة في كل ضلع من أضلاعه . وداخل المقبرة غني بالزخارف . فالأجزاء السفلى من الجدران مغطاة بالرخام الأخضر المعرق ، يعلوه حزام من حجر اليشم المزخرف بزخارف نباتية وكتابات مذهبة، تسجل أعمال تيمور ، وأما الأجزاء العليا من الجدران فهي مغطاة بنقوش بارزة مذهبة على أرضية زرقاء . وتنفتح فيها نوافذ تسمح لأشعة الشمس بالنفاذ إلى الداخل . أما سقف القبة من الداخل فهو مزخرف أيضاً بزخارف من اللونين الذهبي والأزرق . ويقع ضريح تيمور في مستوى أخفض من أرض المكان .(٥) ويتألف من قطعتين من حجر اليشم مزينتين بزخارف نباتية ،(٦) جاء بهما الغ بيك حفيد تيمور ، من غزوته إلى بلاد الجتا عام ٨٢٨ هـ/ ١٤٢٥م .(٧) ووصفهما مارتان بأنهما من أشهر قطع اليشم في العالم .(٨)

الأعمال الأخرى

ولتيمور أعمال عمرانية أخرى . فقد رمم أسوار سمرقند، وبنى في الجزء الغربي من هذه الأسوار قلعة . ورمم قصر الخان الجغتائي كبك في قارشي ، وأقام مسجداً على قبر والده في مدينة كيش (شهري سبز) .(٩) وأعاد إعمار مدينة بيلقان في شمال اذربيجان .(١٠)

(١) : آثار الإسلام : نفسه و Oumnialoo et Aleskeroo: op. cit. P. 122

(٢) : Oumniakoo et..: op. cit. P.120:

(٣) : Martin: Miniatures from The Period of Timur. P. 22

(٤) : آثار الإسلام : ص٨ و Papadopoulo: op. cit. P. 527

(٥) : آثار الإسلام : ص٥٨ و Wilber: op.cit. P.60 (٦) : Martin: ibid.

(٧) : Barthold: Four Studies..P. 62 (٨) : Martin: ibid.

(٩) : Cahun: op. cit. P. 965 et Barthold: Ulugh Beg P. 26

(١٠) : يزدي: ج ٢ص ٣٩٢

وعلى الرغم من إشارة ابن عربشاه السابقة عن استعمال التصوير لتزيين القصور التي شيدها تيمور ، فإننا لانعلم شيئاً اليوم عن هذه الصور ، أو عمن قاموا برسمها . وكان التصوير تيمور قد نقل من بغداد إلى سمرقند بعض الرسامين . ويشير ديماند إلى ثلاث نسخ مصورة من الملحمة الفارسية الشهيرة "الشاهنامة" كتبت في عهد تيمور . تحتفظ مكتبة "طوبقابوسراي" في القسطنطينية بإحداها ، وقد كتبت عام ٧٧٢ هـ (١٣٧٠ م) . ويرجع تاريخ الثانية إلى عام ٧٩٦هـ (١٣٩٤ م) ، وهي محفوظة بدار الكتب في القاهرة ، وثالث هذه النسخ ترجع إلى عام ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) ، وهي موجودة في مكتبة المتحف البريطاني . وتظهر في الصور التي زودت بها هذه النسخ ، العناصر الفنية المميزة للمدرسة التيمورية في التصوير ، وهي التي شهدت عصرها الذهبي في هيرات وشيراز في عهد خلفاء تيمور .[1] وكان من أبرز هذه العناصر الاهتمام بتصوير هذه المناظر الطبيعية ، مع الإكثار من الزخرفة والتلوين .[2]

---

(١) : ديماند: الفنون الإسلامية : ترجمة أحمد محمد عيسى ص ٥٢ .

(٢) : Wilber: op. cit. P. 65

البـــاب الســـابع

تحليـــل شـــخصيـــة تيمـــور

الفصـــــل الاول

ملامـح تيمـور ومظهـره الخارجـي

مظهره فى الرسوم الفارسية - في الرسوم الهندية - وصف ابن عربشاه - هيئته - شيخوخته - علته وعرجه - شلل يده - لباسه .

قام عدد من الرسامين الفرس والهنود برسم صور لتيمور . وربما كانت هذه الصـور غير صادقة تماماً ، في تصوير ملامح الفاتح التركي ، ولكنها فى الوقت نفسه لاتخلو مـــن الحقيقة .[1] ويظهره أحد هذه الرسوم - وقد أعده أحد الرسامين الفرس ونشـــره سايكس - على هيئة محارب إيراني، ذي شاربين طويلين كثيفين ولحية وشعر أسود مسترسـل ؛ وكانت له بشرة بيضاء ووجنتين متوردتين ، ونظرات صارمة يمازجها شيء من الحزن .[2] ويظهره رسم ملون آخر أُعدّ في شيراز عام ١٤٣٣ م ، في إحدى نسخ كتاب " ظفرنامه " يزدي ، وهـــو يمتطي جواده . وكان ذا قامة طويلة وجسم نحيل ، أبيض البشرة وله عينان صغيرتان حذرتان، ووجنتان عاليتان ، وشاربان صغيران ولحية قصيرة ، وشعر طويل أسود يصل إلى أعلى ظهره.[3] وتظهر هذه الملامح للفاتح التركي فى صورة ثالثة ، رسمها بهزاد عام ١٤٩٠ م في إحـــدى مخطوطات ظفرنامة الأخرى .[4]

مظهره فى الرسوم الفارسية .

ووضع الرسامون الهنود صوراً عديدة لتيمور . يظهر في إحدى هذه الصور بملامـــح دقيقة وأجفان منتفخة مسترخية ونظرة وديعة .[5] ويشير لانگله إلى مجموعة أخرى من الصور عثر عليها في مدينة " سورات " (Surate) الهندية ، نقلت إلى بريطانيا عام ١٧٤٠ م ، واُحتفظ بها في مكتبة جامعة اكسفورد . وظهر تيمور في إحدى هذه الصور ذا وجه عريض ، وعيون صغيرة وتقاطيع صارمة .[6]

مظهره فى الرسوم الهنديـــة

وتتوافق هذه الملامح التي أظهرتها الصور الفارسية والهندية لتيمور مع بعضهـــا ، كما تتوافق مع ما أشار إليه ابن عربشاه من ملامح وصفات لتيمور . ويُرجح أن ابن عربشاه قد شاهد تيمور في دمشق عام ٨٠٣ هـ ، وقال عنه إنه كان طويل القامة لدرجة لافتة للنظـــر ، ضخم الرأس عريض الجبهة والأكتاف ، ذا بشرة بيضاء مشربة بالحمرة ، وعينين خزراوين (ضيقتين) كأنهما شمعتين ، مسترسل شعر اللحية جهير الصوت .[7]

وصف ابن عربشاه

هذا وقد أشار المؤرخون التيموريون إلى أن تيمور ، كان وقوراً مهيب الطلعة ، وصفه

هيئتـه

---

(١) : Sykes: op. cit. P. 120 (T.II) : (٢) Bouvat: op. cit. P. 27

وقد نشر هذه الصورة Prawdin: op.cit. P.194 (٣) : Gray: La Peinture

Rice : Islamic Art P.227 : (٤) Persane P. 79

(٥) : نشر لانگله هذه الصورة فى مقدمة ترجمته للتنظيمات إلى اللغة الفرنسية

(٦) : Langles: Preface P. 28,32 (٧) : ابن عربشاه: ص ١٠٢ و ٢٠٩ ويقـول

" ڤامبري " (Vambry) إن تيمور كان يقلد المغول بلبس قرطين طويلين في أذنيـه

(انظر ڤامبري : تاريخ بخارى : ص ٢٤٠)



صورة تيمور كما رسمها أحد المصورين الهنود نقلا عن

Langlès: op. cit. P. 1



صورة تيمور كما رسمها أحد المصورين الفرس

نقلا عن : Sykes: op. cit. II P. 121

شامي بأنه رجل مكتمل الرجولة .[١] وقال عنه يزدي إن هيبته كانت تلقي الرعب في قلوب أعدائه .[٢] وقد لاحظ غري" (Gray) في صورة تيمور المنشورة في مخطوطة شاهنامة يزدي علامات الخوف والفزع بادية على وجوه بعض عامة الناس الذين كانوا يسترقون النظر من النوافذ والشرفات إلى موكب الفاتح التركي ،[٣] وهو يخترق شوارع سمرقند .

وتظهر في ملامح تيمور – كما لوحظت في الصور التي رسمت له ، والوصف الذي أورده ابن عربشاه – الصفات السلالية التي لاحظ بعض كتّاب العصر الوسيط المسلمين ، أنها تميز الأتراك عن غيرهم من الشعوب .[٤] وتعتبر الأبحاث الحديثة هذه الصفات ، المميزات التي تميز المجموعات البشرية التي نشأت من امتزاج المغول بالأتراك ، والتي تدعوها "السلالة الطورانية" .[٥]

وعلى الرغم من أن تيمور كان يبدو محتفظاً بقوته ونشاطه حتى تاريخ متقدم من حياته .[٦] فإن الشيخوخة والعجز قد أدركاه بصورة سريعة بعد ذلك التاريخ . ويفهم من الرسالة التي وجهها ميرانشاه إلى ابيه عام ٨٠٢ هـ ، أن تيمور كان في رنظرابنه في نفي ذلك التاريخ من العجز وتقدم السن وشمول الضعف ، ما يحتم عليه أن يترك الحكم ويخلد إلى الراحة .[٧] وقد أفاد يزدي أن تيمور اضطر لأن يتحامل على نفسه ، في ذلك التاريخ (٨٠٢ هـ) ، عقب عودته من حملة الهند التي لم يتخلص بعد مما حل به من تعب منها ، عندما وجد نفسه مضطراً إلى الخروج إلى اذربيجان لتأديب ابنه .[٨] واخذت مظاهر الشيخوخة تزداد في تيمور بعد ذلك ، حتى أضحى ثقيل الحركة ، ويحتاج لمن يساعده على النهوض . فقد شاهده ابن خلدون عام (٨٠٣ هـ) في دمشق وجنده من حوله يحاولون رفعه إلى ظهر جواده .[٩] واضطر عام ٨٠٧ هـ لأن يستعين بمن حوله للوقوف عندما أراد أن يشارك في الرقص خلال الاحتفالات بزواج بعض أحفاده .[١٠] وشاهده كلافيجو محمولا على محفة في شوارع سمرقند ، وقد خرج لتفقد بعض أعمال الإنشاءات العمرانية في العام نفسه .[١١] وبدا له عندما قابله رجلاً مسناً عاجزاً ، ذا أجفان متهدلة تتدلى على عينيه ، وهو لا يتمكن من رفعها إلا بصعوبة . وقد اضطر أعضاء الوفد الاسباني الماثل أمام تيمور ، إلى الاقتراب كثيراً منه ليتمكن من رؤيتهم ، بسبب ما كان يعانيه من ضعف البصر .[١٢]

ولعل أهم شيء يلفت الانتباه في مظهر تيمور الخارجي ، هو العرج الذي كان يشكو منه أثناء المشي . وتختلف الروايات في تاريخ وقوع الحادث الذي أدى إلى عرجه ، وفي مدى الإصابة التي لحقت بتيمور ، وفي النتائج التي نجمت عنها . وبينما تؤرخ المذكرات

(١) : يزدي: ص ٩٤ (٢) : يزدي: ج ١ص ١٢٣ (٣) : Gray: op. cit. P. 95
هذا وأشارت المصادر التركية أيضاً إلى هيبة تيمور ووقاره انظر علي رشاد : تاريخ عمومي (ايكنجي جلد) ص ٣٠٢ الذي قال عن تيمور إنه كان رجلاً وقوراً مهيباً .
(٤) : المقدسي : البدء والتاريخ ج ٤ ص ٦٥ والمسعودي : ج ١ص ١٥٠ وياقوت ج ١ص ٢٣ والقزويني : آثار البلاد ص ٥١٤ وأما الصفات التي ذكروها للأتراك فهي بياض البشرة والوجوه العريضة والعيون الصغيرة والقامة الطويلة . (٥) : يسرى عبد الرزاق : السلالات البشرية القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٧٠ ومحمد السيد غلاب : تطور الجنس البشري القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٠٧ .
(٦) : ابن تغري بردي: ج ١٣ ص ١٦٢ الذي افاد أن تيمور قد بلغ الثمانين [كذا] وهو يتمتع بحواسه وقوته . (٧) : ابن عربشاه: ص ٧٢ (٨) : يزدي: ج ٢ص ١٥١ (٩) : ابن خلدون: التعريف ص ٣٧٣ . (١٠) : ابن عربشاه: ص ١٥٧ (١١) : Le Strange: op. cit. Introd. P.13
(١٢) : Le Strange: op. cit. P. 221

الحادث بعام ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) ، عندما كان تيمور في الثامنة والعشرين من عمره . (١) فان المؤرخين التيموريين يرون أن الحادث قد وقع قبل عامين (أي ٧٦٢ هـ) . (٢) وكان تيمور في تلك الآونة في غمرة ثورته على الحكّام الجتا . وقد اضطرته أحداث الثورة إلى مغادرة ماوراء النهر ، والفرار إلى خراسان على رأس مجموعة صغيرة من أتباعه ، ومعه الأمير حسين ، وأخذ هناك يمارس نوعاً من الارتزاق عن طريق القتال. وعرض عليه في تلك الأثناء حاكم منطقة "سيستان" أن يساعده للقضاء على ثورة شبت عليه في بلده . (٣) ويتفق ابن عربشاه وكلاڤيجو مع المصادر التيمورية في تحديد المكان الذي وقعت فيه الحادثة ، وهو "سيستان". ويختلفان مع هذه المصادر في الأسباب التي أدت إليه . وبينما يرى ابن عربشاه وكلاڤيجو ، أن تيمور أُصيب خلال محاولته السطو على قطيع للغنم في إحدى الليالي ، فلما أحس به الراعي رماه بالسهام ، فأصابه، (٤) فإن المراجع التيمورية تؤكد أن الإصابة كانت في ساحة القتال خلال إحدى المعارك . (٥) ويتابع ابن عربشاه فيقول إن سهماً أصاب كتف تيمور الأيمن وحل سهم آخر في فخذه اليمنى . (٦) وتقول المذكرات التى أشارت أيضا إلى أن تيمور أُصيب في موضعين من جسمه ـ هما اليد والقدم ، وليس الفخذ ـ إن تيمور لم ينتبه إلى جراحه لانهماكه في القتال. ولم يشعر بالألم إلا بعد انتهاء المعركة ، وعودته إلى المعسكر . (٧) وبينما تقتصر المصادر التيمورية الأخرى إصابة تيمور على يده فقط ، ولا تشير إلى أية إصابة في فخذه أو قدميه (٨) ، وتقول إن تيمور قد تماثل للشفاء بعد برهة وجيزة من وقوع الحادث ، فإن كلاڤيجو يؤكد أن إصابة تيمور كانت بليغة، فقد الوعي على إثرها ، وكاد أن يقضي نحبه ، ولكنه لم يلبث أن استرد أنفاسه وتحامل على نفسه ، وأخذ يزحف إلى أن وصل إلى خيام بعض البدو ، حيث تم تضميد جروحه . (٩) ويؤيد ابن عربشاه خطورة حالة تيمور بعد إصابته بتلك السهام . ويعلق على ذلك قائلاً : "ولا شك أن أجله قد اقترب" . (١٠) وتذهب التنظيمات إلى القول إن تيمور ظل يعالج جراحه طيلة الشهرين التاليين . (١١) ويفهم من قول المذكرات إن تيمور بعد هذه المدة استطاع أن يقف على قدميه بكل خفة ورشاقة، وأنه استطاع أن يمتطي جواده بشكل طبيعي ، وأن الجراح لم تترك أثراً دائماً في جسم تيمور. (١٢) ولكن كلا من ابن عربشاه وكلاڤيجو يؤكدان أن الحادث قد سبب لتيمور عرجاً وشللاً دائمين. (١٣)

(١): Stewart: op.cit. P. 66: (٢) شامي: ص٢٢ ويزدي: ج ١ص٤٤ و ٥٥ وجعل سمرقندي تاريخ الحادث ٧٦٢هـ ص٣١٤ (٣): شامي: نفسه ويزدي: ج ١ص٥٦ــ٥٧ وسمرقندي: ص٣١٨ و Stewart: op. cit. P. 68, Langlès: op. cit. P. 190

(٤): ابن عربشاه: ص٧ و ٢٠٩ و Le Strange: op. cit. P. 212

(٥): شامي: نفسه ويزدي: نفسه وسمرقندي نفسه و Stewart: ibid, Langlès: ibid

(٦): ابن عربشاه: نفسه

(٧): Stewart: ibid. (٨): شامي: نفسه ويزدي: ج ١ص٥٦ وسمرقندي ص٣١٨ (٩): Le Strange: ibid. (١٠): ابن عربشاه: ص٨

(١١): Langlès: op. cit. P. 190 (١٢) Stewart: op. cit. P.68, 71

(١٣): ابن عربشاه: ص٢٠٩ و Le Strange: ibid.

ويؤيد ابن خلدون هذه الأقوال عندما شاهد تيمور في دمشق ،فذكر إن ركبة تيمور اليمنى عاطلة،يعرج عليها عرجاً خفيفاً،ويجرها في قريب من المشي ،ولكنه يحتاج إلى مساعدة من حوله من الرجال عند طول المسافة .[(١)] ويقول إن تيمور قد ذكر له إن علته هذه كانت بسبب إصابته في إحدى الغارات في أيام صباه .[(٢)] ولقد لفت نظر قاضي حلب ابن الشحنة الذي صلى إلى جانب تيمور ،أن يتمكن من أن يصلي صلاة طبيعية ،فيقف ويركع ويسجد ،على الرغم مما كان يسمع به عن عرجه .[(٣)]

ويؤكد عدد كبير من الباحثين في الوقت الحاضر عرج تيمور بسبب ذلك السهم ، الذي جعل عصب فخذه اليمنى –كما يقول بارتولد –جافاً وقاسياً ،لا يُمكّن تيمور من أن يمشي مشياً طبيعياً ،وترك له علة العرج بقية حياته . ولذلك لقبه أعداؤه من الفرس"الأعرج" وهي كلمة "لنك" الفارسية التي تلحق عادة باسمه ،ليصبح "تيمورلنك"،كما دعاه أعداؤه من الأتراك "آقساق" التي تحمل المعنى نفسه في اللغة التركية .[(٤)]

ولا يقصر ابن عربشاه وكلافيجو إصابة تيمور بعلة دائمة على فخذه ،بل يذكران أن علة أخرى دائمة أصابت يده اليمنى . وبينما يذهب السفير الاسباني إلى أن السهم الثاني شلل يده الذي اصاب يد تيمور قد أفقدها إصبعين ،هما الخنصر والبنصر ،[(٥)] فإن المؤرخ الدمشقي (ابن عربشاه) يقول إن يد تيمور أضحت مشلولةً لا تمكنه من استخدامها في القبض علــى الأشياء .[(٦)] وينقل في هذا الصدد وصف حاكم بغداد ،أحمد جلاير ، لتيمور بأنه "الأشل الأعرج" .[(٧)]

وفي الوقت الذي تسكت فيه المصادر التيمورية عن الإشارة إلى أية علة دائمة فــي جسم تيمور،فإن بعض مؤرخي الشام ينقلون أقوالاً لتيمور ،فيها إشارات إلى العاهة الــتي أُصيب بها . ويورد ابن عربشاه بعض هذه الأقوال ،منها تصريحه بأن النقصان الذي حاق به من سهام "سجستان" (سيستان)كان ألمها سعيداً عليه،لأنه منذ إصابته بها ، وحالــه في ازدياد وتقدم ،[(٨)] وأن القضاء والقدر قد حكم بإفساد بنيته .[(٩)] وخاطب تيمور قاضي حلب ابن الشحنة مرة يصف نفسه : "إنني رجل نصف آدمي".[(١٠)]

---

(١) : ابن خلدون : التعريف ص٣٨٢ (٢) : ابن الشحنة : ص٢١٩

(٣) : Barthold: Ulugh Beg P.17, Sykes: op.cit. II. P.121, Lamb: P. 159, Spiler: op.cit. P.102, Cahun: op.cit. P.939 وقد أورد هذا الأخير رواية ابن عربشاه وكلافيجو بأن تيمور أصيب عندما كان يحاول سرقة رأس من الغنم .ورواية المصادر التيمورية عن إصابته في المعركة ولم يرجح رواية على أخرى .

(٤) : Barthold: ibid, Sykes: ibid, Lamb: ibid.

(٥) : Le Strange: ibid. (٦) : ابن عربشاه: ص٢٠٩ و ٢٢٧

(٧) : ابن عربشاه: ص٢٠٥ (٨) : ابن عربشاه: ص٧

(٩) : ابن عربشاه : ص٣٧ .

(١٠) : ابن الشحنه : ص٢١٥ .

وكان تيمور يلبس في المناسبات ثياباً حريرية خالية من كل طراز.وقد شاهده كلافيجو يرتدي مثل هذه الثياب في إحدى مقابلاته له ، وقال إنها كانت بلون وردي .[1] كما شوهد لباسه في بعض الاجتماعات العامة في خراسان يلبس ثياباً حمراء اللون .[2] ويضع الفاتح التركي على رأسه قلنسوة مخروطية الشكل . وقد وصف كلافيجو هذه القلنسوة فقال إنها بيضاء اللون عالية ، وتتدلى منها شريطة رُبط بها عدد من اللآلئ والحجارة الكريمة .[3] وتظهره بعض الرسوم وعلى رأسه هذه القلنسوة .

وللفاتح التركي ثياب خاصة للحرب ، وتتصف هذه الثياب كما تظهر على الصور التي رسمها المصورون الفرس والهنود ، بأنها ضيقة تلتف حول جسمه تقريباً ، وتصل لطولها إلى مافوق القدمين بقليل ،[4] ولها أكمام طويلة . ويرتدي تيمور فوق هذا الثوب الطويل رداء قصيراً يقف عند الركبتين ، وله أكمام قصيرة تظهر من تحتها أكمام الثوب الأول .[5] ويعتقد أن الرداء القصير هو من الزرد . ويلف تيمور حول وسطه نطاقاً جلدياً يعلق فيه خنجراً وسيفاً . ويحمل على وسطه قوساً وجعبة للسهام .[6] ويضع على رأسه خوذة معدنية ذات شكل بصلي ، لها حافة عريضة مغطاة بصفائح ذهبية مزخرفة ، وتزينها عند الجبهة ريشة عالية .[7]

---

(١) : Le Strange: op. cit. P. 220 (٢) : ابن عربشاه: ص٣٦

(٣) : Le StrangE : ibid. (٤) : Gray: op. cit. P. 97

(٥) : Sykes: op. cit. T. II P. 120 (٦) : Langlès: op. cit. P. 1

(٧) : Prawdin: op. cit. P. 194

الفصل الثاني

سمات تيمور النفسية

غنى حياة تيمور النفسية ــ الذكاء ــ الاعتداد بالنفس ــ جنون العظمة ــ ادعاء الصلة بالقوى العلوية ــ الكتمان ــ الجدية ــ قسوة الإرادة والشجاعة ــ عصبية المزاج ــ رقة العاطفة ــ هواياته : التاريخ ، الشطرنج ، الصيد ، النزهات الخلوية ــ الطعام والخمر ــ تأثيره بمن حوله : معاملته لهم ــ ازدواج الشخصية ــ الصراع الداخلي ــ عوامل هذا الصراع : البيئة ، الأسرة ، التقاليد ، التأثر بجنكيز خان ، التاجيك .

غنى حياة تيمور النفسية

انعكس نشاط تيمور الجسمي الذي لفت نظر المؤرخين المعاصرين ــ على الرغم من علته ــ على حياته النفسية . وساعدت حياته الزاخرة بالأحداث على أن تكون له حياة نفسية غنية . وقد ظهر ذلك من خلال احتكاكه بالآخرين ، ومما صدر عنه من أقوال . ووصفه ابن عربشاه بأنه "بعيد الغور عميق التفكير".(١) ويرد في مواضع كثيرة من المذكرات ، أن تيمور كان كثيراً ما يرجع إلى نفسه ، ليصغي إلى ما تمليه عليه ، لتحقيق رغباته وطموحاته ، للوثوب إلى حكم البلاد ، عندما كان لا يزال شاباً في خدمة الأمير قازغن ، وتدفعه لاستغلال الفرص التي تسنح لتحقيق هذا الطموح . وكانت رغبات تيمور وآماله ــ في تلك المرحلة من حياته ــ من السعة والبعد ، ما كان يجعله يشعر بالكآبة والحزن في بعض الأحيان ، ويملي عليه التخلي عن هذا الطموح ، نتيجة الصراع الداخلي الذي يحس به ، لتضارب هذا الطموح مع شعوره بالعرفان بالجميل ، للأمير قازغن الذي أولاه ثقته . وكان يخرج من هذا الصراع بالعبارة التي يقولها لنفسه : "إنه من الأفضل أن تكون صبوراً".(٢)

ومما يؤكد نشاط حياة تيمور النفسية ، ما دأبت المذكرات على الإشارة إليه ، من أنه كان في كل مرة يعزم على القيام بعمل من الأعمال ، أو حرب من الحروب ، فإن قواه النفسية تستنفر ، وينشط خياله ، ويأخذ عالم لا شعوره عن طريق الأحلام ــ التي يراها وهو نائم ــ ينير له الطريق ، ويفسر له ما سوف يقع له من أحداث ، عندما سيقدم على تنفيذ هذا العمل . وهذه الأحلام ــ إن دلت على شيء ــ فإنها تنم عما كانت نفس تيمور ، تختزنه من الرغبات المكبوتة . فقد أشارت المذكرات إلى أن تيمور قد شاهد أحلاماً من هذا النوع ، قبل أن يقابل الخان الجغتائي تغلق تيمور خان عام ٧٦١هـ ، وقبل أن يغير على بلاد القبجاق والعراق ، وكذلك قبل أن يجتاح الهند وبلاد الشام .(٣)

---

(١) : ابن عربشاه : ص ٢١٢ (٢) : Stewart: op. cit. P. 32-33

(٣) : Stewart: op. cit. P. 15,16,17 وقد أشار تيمور في هذه المواضع إلى الأحلام التي شاهدها ، ونورد هنا على سبيل المثال الحلم الذي قال إنه قد شاهده ، قبل أن يغير على بلاد الشام عام ٨٠٣ هـ ، وكان جدال قد دار بينه وبين قواده عندما علموا بعزمه على الإغارة على هذه البلاد . وأبدى هؤلاء مخاوفهم من جيش المماليك . ويقول تيمور إنه بعد أن أدى الصلاة استلقى نائماً ، فحلم أنه يصعد جبلاً ولما بلغ قمته ، وجد نفسه محاطاً بغيوم سوداء وبيضاء ، ثم لم تلبث أن هبت عاصفة من الغبار وتبعتها الأمطار ، فقضت على عواصف الغبار . ولما استيقظ فسر له الحلم على الشكل التالي : الجبل هو بلاد الشام والغيوم والغبار هي جيوش بلاد الشام ومصر ، والمطر هو جيش تيمور الذي سوف يدرك النصر في نهاية الأمر . انظر : Stewart :,op. cit. P. 16,17

الذكاء

ومما لاشك فيه أن نشاط حياة تيمور النفسية ، يعكس في جملة مايعكسه من قدرات تيمور العقلية وسماته النفسية ،حقيقة واضحة هي أنه كان على قدر كبير من الذكاء . وقد أفاض المعاصرون ،على اختلاف مواقفهم منه ومن أعماله ،في الحديث عن شدة الفطنة واتقاد الفكر وحب الاطلاع الموجودة لديه،كمظاهر مختلفة لهذا الذكاء . وأشاروا إلى صدق حدسه وفراسته وقدرته على إدراك الحقائق الدقيقة وكشف خفايا الأمور وحل المعضلات ، كما تكلموا عن حضور بديهته وميله إلى كثرة الجدل واللجاج . مما دفع بعضهم إلى الاعتقاد بأن له شيطاناً يوسوس له .(١)

الاعتداد بالنفس

وقد يكون ذكاء تيمور واعتقاده بتميزه عن غيره في هذه القدرة العقلية ،من العوامل التي ساهمت في إكسابه سمة الاعتداد الشديد بالنفس . وكان يبدو من أعماله أنه ينطلق من فكرة مؤداها أنه لانظير له ولاقرين .(٢) وكان دأبه في المذكرات أن يعلي من قدر نفسه ويشيد بمزاياه ومناقبه . فقد لمس في نفسه رجاحة العقل منذ أن كان في الخادية عشر من العمر .(٣) وبهرته مهارته عندما بلغ الثامنة عشرة ،وأضحى اعتقاده بعدم استطاعة أحد من الناس أن يتفوق عليه إيماناً راسخاً عنده .(٤) ويشعر قارئ المذكرات بمدى هذا الاعتداد بالنفس عند تيمور ،في كثير من المواضع .فلا تظهر في هذه المذكرات سوى آرائه وتقديراته . ولا تسمو فيها إلا إرادته وأفكاره التي غالباً ــ كما يرى هو ــ ماتكون صائبة بل فريدة في صحتها ودقتها في تقدير الأمور .(٥) وتحاول المذكرات أيضاً أن تشعر القارئ بأن تيمور بسبب مناقبه الشخصية العالية ،فهو معروف من الجميع، يحبه الناس جميعاً ويحترمونه ،منذ أن كان صغيراً ،ثم لما أضحى شاباً ثائراً على الجتا ،أو على الأمير حسين.وله في كل مكان من بلاد ماوراء النهر أصدقاء وأتباع يحبونه ويجلونه ،ويعرفون مزاياه . وهم مستعدون دائماً لتقديم المساعدة له ،والانضواء تحت لوائه ،إذا كان قاصداً أو ماراً بالمنطقة التي يقيمون فيها .(٦) ولا يتكلم تيمور عن نفسه في المذكرات غالباً ،إلا حين يريد إبراز مزاياه الشخصية وحسن معاملته للآخرين . وأما في الأحوال الأخرى ، فليس للآخرين ــ وإن تباسط معهم ــ أي اعتبار إلا فيما ندر . وقد صور ابن عربشاه نزعة الاعتداد والغطرسة عند تيمور فقال: "ماتكبر عليه رأس إلا شدخه ".(٧)

وقد دفعه الاعتداد بالنفس إلى الاعتقاد بأن له الأولوية على بقية حكام البلاد الإسلامية ،فكتب إلى السلطان العثماني بايزيد الأول يصف نفسه بأنه " ولي الأمر الذي تجب طاعته ".(٨) وأرسل إلى شاه شجاع المظفري يقول : "إن الله تعالى سلطني عليكم .. ورفعني على من باراني ".(٩) وذكر لابن خلدون في دمشق أنه يرى في نفسه أحق

(١) : يزدي: ج ١ص ١٤ وابن عربشاه : ص٢٠٩ و ٢١١ وابن خلدون : التعريف .ص ٣٨٣ وابن تغري بردي ج ١٣ ص ١٦٣

(٢) : Grousset: op. cit. P. 495 et

(٣) : Prawdin: op. cit. P. 250 Stewart: op. cit. P, 22

(٤) : Stewart: op. cit. P. 25

(٥) : يزعم مثلاً أن تغلق تيمور خان انتصر على أمراء ماوراء النهر لأنه أخذ بنصائحه انظر : Stewart: op. cit. P. 56

(٦) : Stewart: op. cit. P. 114 ويروى تيمور أنه في خلال حوادث الصراع بينه وبين الأمير حسين دخل إلى إحدى القرى في شمال البلاد، وكان الفصل شتاءً ولما علم به مختار القرية أخذ يرسل له كل يوم أربعين بيضة وكمية من الزبدة والحنطة ،طيلة مدة إقامته في تلك القرية . مما يفهم منه أن شهرة تيمور في ذلك الوقت قد عمت البلاد من جنوبها إلى شمالها ــ كما يرى هو ذلك . (٧) : ابن عربشاه: ص ١٥٨ . (٨) : فريدون : ص ١٢٥ . (٩) : ابن عربشاه: ص ٢١

من سلاطين المماليك ، لأن يكون نائب الخليفة في مصر .[١] ويذهب كاهون إلى القول إن من العوامل التي دفعت تيمور للتقدم نحو الغرب ، واجتياح آسية الصغرى وبلاد الشام ، إنما كانت رغبته في السيطرة على الأماكن المقدسة الإسلامية ، والوصول إلى منصب الخلافة.[٢] وكان الكتّاب التيموريون ينزعون دائماً إلى تصويره بأنه ظل الله في الأرض وخليفته فيها ، فيذكر شامي أن تيموراً استفتح القرآن مرة فخرجت له الآية : "إنّا جعلناك خليفة في الأرض".[٣] ويرى يزدي أنه في صراع تيمور ضد الأمير حسين على السلطة ، تطبيقاً لقوله تعالى كما جاء في الآية : "وجعلناكم خلائف في الإرض".[٤] وكذلك فقد أُطلق تيمور على أبنائه أسماء تعكس روح السمو والهيمنة ، فدعى أكبرهم "جهان گير" (فاتح العالم) ، وسمى الآخر "ميرانشاه" (ملك الامراء) ودعى الثالث "شاه رخ" (روح الملك).[٥]

جنون العظمة

ووصل شعور الاعتداد بالنفس عند تيمور – كما يرى توينبي – إلى حد مرضي ، وانقلب "جنون عظمة" ظهر في المجازر وأعمال التخريب التي قام بها الفاتح التركي ، بدافع الرغبة بالاساءة إلى الانسانية .[٦] فكانت آلام الآخرين تشعره بنوع من اللذة والمتعة ، وتساهم في إرواء غروره وميله إلى الغطرسة . ويقول ابن الشحنة إن من دواعي سرور تيمور واغتباطه – كما ذكر هو نفسه لهذا المؤرخ الحلبي – أن تقام أبراج الرؤوس البشرية ، إظهاراً لعظمته كقائد منتصر ،[٧] وكان شعوره بالمتعة غامراً بعد انتصاره في معركة أنقرة ، عندما سيق إليه السلطان بايزيد الذي وقع في أسره ، فأخذ يلاطفه ويترفق به تارة ثم يسخر منه ويضحك عليه.[٨]

ادعاء الصلة بالقوى العلوية

وتضخم هذا الشعور عند تيمور ليصبح اعتقاداً بأن قوة علوية تلهمه القيام بأعماله . فهو في نظر المؤرخين التيموريين ، "منظور بعين العناية الإلهية "،[٩] وأنه المقصود ممن أشارت إليه بعض الأحاديث النبوية ، بأن الله يبعث في رأس كل قرن من قرون التاريخ الهجري مصلحاً يدافع عن الدين ويصلح أحوال المسلمين ، وأن تيمور هو ذلك المصلح والمجدد المبعوث على رأس المائة الثامنة للهجرة .[١٠] وتروي المذكرات قصصاً تظهر مدى ما تحيط به العناية الإلهية تيمور ، من الرعاية والحماية ،[١١] وما توحيه إليه على شكل أحلام[١٢] وهو نائم ، أو أصوات يسمعها وهو في حالات بين النوم واليقظة .[١٣] ويورد المؤرخ الحلبي

(١) : ابن عربشاه : ص١٢١ (٢) : Cahun: op. cit. P. 958 (٣) : شامي : ص٦١
(٤) : يزدي : ج ١ص١١٤ (٥) : Cahun: ibid. (٦) : Toynbee: A Study... of History V. IV P. 500
(٧) : ابن الشحنه ص٢٢٧. (٨) : ابن عربشاه ص١٣٣
(٩) : يزدي : ج ١ص٥٧٢ وشامي : ص٢٢ (١٠) : يزدي : ج ١ص٤٠٣
(١١) : فقد ذكرت المذكرات أنه خلال إحدى المعارك مع شاه منصور المظفري شاهد رجلاً يلبس ثياباً عربية يقبل عليه، ثم ناوله رمحاً وصاح : يا إلهي انصر تيمور . وفي اللحظة التي استلم فيها تيمور ذلك الرمح من الرجل، فإن شاه منصور الذي كان يصول ويجول على صهوة بين صفوف قوات تيمور ، سقط عن ظهر جواده إلى الأرض. وتمكن شاه رخ من قتله. وبعد المعركة سأل تيمور عن ذلك الشخص فلم يعثر له على أثر انظر لذلك Stewart: op. cit. P. 14
(١٢) : وأشارت المذكرات أيضاً إلى أن تيمور في إحدى غزواته في بلاد الجتا، وكانت معه في إحدى المعارك قوات قليلة أمام قوات كبيرة من أعدائه. ولما جن الليل، ونام عشية المعركة سمع في الحلم شخصاً يناديه ويبشره بالنصر. واستيقظ على الفور فلم يجد أحداً قريباً منه من الحرس أو الخدم. ولذلك جزم أن هذا الصوت لم يكن إلا صوت أحد الملائكة انظر: Stewart: ibid.
(١٣) : تروي المذكرات القصة التالية التي تدّعي أنها جرت عام ٧٦٥هـ / ١٣٦٢م عندما كان ثائراً على الجتا. "وشعرت بالنعاس عند الفجر. ولم أكن مستيقظاً ولم أكن قطعاً نائماً ، عندما سمعت أحدهم يصيح : تيمور النصر والفتح مما لك. فانتبهت ونظرت إلى ما حولي. فلم أجد أحداً في الخيمة، ولا بالقرب منها في الخارج. وحتى أتأكد، فقد ناديت بصوت عالٍ على أي أحد هناك ، ولكني لم أتلق جواباً عندها اقتنعت أنه كان صوت هاتف الغيب" انظر Stewart: op. cit. P. 78
وقد أشار إلى القصة ذاتها يزدي : ج ١ص٦٨

"الغزي" قولاً لأحد رجال الدين في تركستان إن السكان في تلك البلاد لايزالون إلى اليوم يعتقدون بكرامة تيمور، ويترضون عنه كلما ورد ذكره،لأنه في اعتقادهم من أولياء اللهوأصفيائه.(١)

الكتمان

وربما كان لشعور الاعتداد بالنفس ومضاعفاته عند تيمور، أثر على سمة (الكتمان) التي عُرف بها أيضاً. لقد كانت كبرياء تيمور تمنعه من كشف مشاعره الحقيقية. ويصفه غروسيه بأنه رجل غامض.(٢) وكان دأبه — كما قال ابن عربشاه — إخفاء ما يريد، والتظاهر بأنه راغب بما يتفق ويقع من أحداث، وأنه رافض لأشياء لم يتمكن في الواقع من الحصول عليها.(٣) ولذلك كان يراقب نفسه مراقبة صارمة، ويسعى لأن يسأل الآخرين عن تصرفات وأعمال تسيء إلى شخصه كحاكم مُعْتَدٍّ بنفسه، في لحظة غفلة منه.(٤) ولاتشير المذكرات في أوقات احتدام المعارك واشتداد المخاطر وتكاثر الأعداء، إلا لمشاعر الخوف التي تظهر عند أتباع تيمور. وتحجم عن الاشارة إلى تلك المشاعر التي من المؤكد أنها كانت تحتدم بها نفس القائد العام(٥) أيضاً.

الجدية

ويترافق الكتمان مع سمة "الجدية" — وقلة الضحك وكره لكل أنواع اللهو والطرب(٦) — التي لوحظت على تيمور، فقد أمر عام ٨٠٢ هـ بقتل حاشية ابنه ميرانشاه لأنها كانت تفسده. وكان إلى جانب ذلك يحب الصدق ويكره الكذب. وكان شعاره الذي نقشه على خاتمه العبارة الفارسية "راستي رستي" (الصدق مُنجٍ).(٧) وكان يحرص على أن يتعامل أتباعه معه على أساس الصدق والبعد عن النفاق، وقول الحق ولو كان فيه ما يسيء.(٨)

قوة الإرادة والشجاعة

وتفسر جدية تيمور طبيعته العسكرية وقوة إرادته وعزمه الثابت، وإصراره على إدراك أهدافه وتحقيق خططه العسكرية مهما كلفته من خسائر وضحايا، ومهما تعرض من أجلهـا للمخاطر. ويصفه ابن عربشاه ويزدي بأنه كان يهوى ركوب الأهوال والتعرض للمخاطر.(٩) وكانت الشجاعة عند تيمور تصل أحياناً إلى حد التهور.(١٠) وكان كلفه بها يدفعه إلى الإعجاب بالشجعان حتى من أعدائه. فيقول ابن عربشاه إنه حزن لمقتل عدوه شاه منصور المظفرى، الذي أبدى شجاعة فائقة في قتاله لتيمور وقواته، حتى كاد أن ينجح في قتـل تيمور نفسه.(١١)

واتصف تيمور بمزاج عصبي وإرهاف في الشعور، جعلاه سريع الغضب، وهو عندمـا

---

(١) : الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب. طبع حلب مغفل التاريخ ج ٣ ص ٢٠٧
(٢) : Grousset: op. cit. P.492,494: (٣) : ابن عربشاه: ص ٢١٤
(٤) : ابن عربشاه: ص ١٥٨ وقد ذكر أن تيمور قد دفعه فرحه بزواج حفيده "الغ بيك" عام ٨٠٧، وكان قد شرب خمراً فثمل. فتحامل واقفاً ورقص، ولكنه، لما أفاق أخذ يسأل من حوله عمن كان قد شاهده ليعرف إذا بدر منه ما يسيء إلى وقاره ورزانته.
(٥) : Stewart: op. cit. P. 101 وقد أشارت المذكرات هنا إلى أن تيمور تمكن عام ٧٦٨ بقوات ضئيلة من احتلال قارشي (٢٤٠ جندي). ولما تحركت قوات الأمير موسى أحد قواد الأمير حسين منافس تيمور، وكان عددها (١٢ ألف جندي) ضده. ولما علم جند تيمور شعروا بالخوف ولم تشر المذكرات إلى حالة تيمور النفسية. (٦) : ابن عربشاه: ص ٧٥
(٧) : يزدي: ج ١ص ١٢٧ وابن عربشاه: ص ٢٠٩ (٨) : شامي: ص ٩٥ وابن عربشاه: نفسه.
(٩) : يزدي: ج ١ص ٥٥٠ وابن عربشاه: نفسه. (١٠) : يزدي: ج ٦ص ٢٣ — ٢٤ وقد ذكر يزدي أن تيمور في إحدى ملاحقاته لبعض العصاة في جبال الافغان عام ٨٠٠ هـ قد قبل بعد القضاء على العصاة عندما أراد النزول من هذه الجبال أن يربط إلى محفة خشبية تركت تنزلق على الثلج بسرعة كبيرة بشكل لا يستطيع أحد أن يسيطر عليها ليوقفها حتى يصل الحبل الذى ربط بها والذى ثبت طرفه الأول في الأرض إلى نهايته وكان بطول مائة وخمسين ذراعاً. (١١) : ابن عربشاه: ص ١٣

عصبية المزاج يغضب يقدم على اتخاذ إجراءات عنيفة على الفور . ووصفه ابن عربشاه بأنه " نمري الطبع"[1]. فقد استشاط غضباً ، وشخر ونخر لأن أحد رجال الدين قد جلس في حضرته قبل أن يأذن له بالجلوس ، فأمر بالتنكيل به .[2] ويقول القس شيلتبرجر إن تيمور أمر بقتل إحدى زوجاته بسبب وشاية وصلته من زوجة أخرى ، تطعن بسلوكها وعفافها . ويذهب القس الباقاري إلى القول إن حنق تيمور من هذا الحادث كان من الأسباب التي أدت إلى اعتلال صحته ومرضه الأخير الذي انتهى بوفاته .[3] وقد تدفعه شدة الحنق أحياناً إلى الصياح والإجهاش بالبكاء أو الاضراب عن الكلام لمدة طويلة .[4] وقد حاول الانتحار عندما وقع أسيراً في يد أعدائه عام ٧٦٢ ،[5] وفي مقابل ذلك فإن تيمور يبدو في أحيان أخرى إنساناً ضعيفاً رقيق العواطف ، ينفعل بالمواقف الإنسانية .[6] رقة العاطفة فيبكي تأثراً عندما يلمس مقدار إخلاص أتباعه له[7]. ويهتز طرباً عندما يسمع ابن خلدون ، يكيل له صفات المجد والامتياز على غيره من الملوك . ويحس بالخجل والحرج عندما يحترم مطالبة الأمير حسين بإنجاز وعده له بضمه إلى مجلسه ، عندما كان لايزال شاباً في مقتبل العمر .[8] ويشير يزدي إلى أن تيمور شعر بالخوف عندما كان يعبر أحد روافد نهر السند (نهر جناب) ، ورأى تدفق مياه النهر بقوة من تحته ، فتذكر عظمة الخالق .[9] وجزع إذ دهمه المرض مرة ، فتذكر ضعف بنيته وعلته فبكى .[10] وأسرع باستدعاء زوجاته وأولاده .[11] وظل الأسى يحز في قلبه لفقد ابنه الاكبر محمد جهانكير طيلة حياته . وكان يتردد على كيش لزيارة قبره حتى آخر عمره .[12] وقد تكون هذه السمات المتعارضة في نفسية تيمور هي التي جعلت الملامح الصارمة التي يشوبها الحزن ، تبدو في الصور التي رسمها الفنانون لتيمور .[13]

هواياته وكان لتيمور مجموعة من الهوايات التي تتفق مع طبيعته الجدية . وكان أول هذه الهوايات الكلف بسماع قصص التاريخ ، والاطلاع على أحوال الامم الغابرة . وكانت حاشية تيمور التاريخ الكبيرة تضم عدداً من قارئي التاريخ والإخباريين .[14] وأولع تيمور بلعبة الشطرنج لأنها الشطرنج في اعتقاده من الأمور التي تجلو الذهن وتنقح الفكر . ويعزو ابن عربشاه لتيمور إدخال تعديلات وتطورات على هذه اللعبة . فقد جعل رقعة الشطرنج عشرة مربعات عرضاً واحد عشر مربعاً طولاً . وأضاف إلى حجارتها حجرين جديدين دعاهما " زرافتين " . ودعي الشطرنج المعدل " الشطرنج الكبير " .[15]

---

(١) : ابن عربشاه : ص ١٧ (٢) : ابن عربشاه : ص ٣٠٢ (٣) : Terfer: op. cit. P. 29

(٤) : Barthold: Ulugh Beg P. 34 (٥) : Stewart: op. cit. P. 34

(٦) : Stewart: op. cit. P. 97 (٧) : ابن عربشاه : ص ٢١١

(٨) : Stewart: op. cit. P. 119 (٩) : يزدي : ج ٢ ص ٤٥

(١٠) : ابن عربشاه : ص ٢٢٧ (١١) : يزدي : ج ١ ص ٤٠٦

(١٢) : يزدي : ج ١ ص ٥٦٦ وج ٢ ص ١٤١ (١٣) : Wilber: op. cit. P. 59

(١٤) : Langlès: op. cit. P. 36

(١٥) : ابن عربشاه : ص ٢١٢ وأشار إلى هذه الهواية كل من العسقلاني (ج ٢ ص ٣٠٢) والسخاوي (ج ٣ ص ٤٩) . وذكر أن الحجارة الجديدة التي أضافها تيمور على الشطرنج منها ما يدعى جملاً ومنها ما يدعى بغلاً .

وكان الصيد من رياضيات تيمور المفضلة . وكان يقوم بحملات الصيد حتى في خلال الغزوات التي قام بها إلى البلاد الأخرى . ويصطحب تيمور في حملات الصيد أبناءه وأحفاده، ويقوم بنفسه بتدريبهم عليه . ويبدو خلال عمليات الصيد — صيد الحيوانات والطيور — على أشد ما يكون من المرح والضحك والانشراح والحماس .(١)

الصيد

وظل تيمور يتوق — على عادة البدو — إلى الحياة خارج المدن الصاخبة المكتظة، حيث الهواء الطلق . وكانت له حول سمرقند عدة منتجعات يخرج إليها عقب عودته من غزواته ، يقضي بها أوقاتاً قصيرة . وكانت له منتجعات أخرى بعيدة عن العاصمة يقضي بها أوقاتاً طويلة نسبياً ، في بلدته الأصلية كيش (شهري سبز)، أو في "قراباغ" شمالي اذربيجان. وقد استمرت اقامته في أطراف إحدى الصحراوات في جوار مدينة طاشكند عام ٧٩٣ هـ ستة أشهر .(٢)

النزهات الخلوية

وكان تيمور يتبع نظاماً معيناً في طعامه وشرابه . وكان من معالم هذا النظام تناول الطعام في أوقات محددة .(٣) أما شرب الخمر فإن المؤرخين التيموريين يشيرون إلى أن الشرب كان يجري في بعض الجلسات بحضور تيمور، دون أن يذكروا بشكل صريح أن تيمور نفسه كان يشارك فيه .(٤) ويفهم من أقوال ابن عربشاه أن تيمور كان يتعاطى شرب الخمر باعتدال(٥). وبذلك لا يمكن اعتباره مدمناً. وأنه إذا شرب فإنه يحاول أن لا يصل إلى درجة السكر الشديد. وهذا لا يعني أن تيمور كان لا يسمح لنفسه في بعض الأحيان أن يتجاوز حد الاعتدال . وقد أشار بعض المؤرخين إلى الجلسات الخمرية التي كانت تعقد بحضور تيمور وأتباعه وتستمر مدة طويلة تصل أحيانا إلى خمسة عشر يوماً .(٦)

الطعام والخمر

وعرف تيمور بقدرته الفائقة على التأثير فيمن حوله . وأشار ابن عربشاه في هذا الموضوع إلى أن أتباع تيمور كانوا يكنون لسيدهم حباً عظيماً لدرجة أنه لو ادعى النبوة أو الالوهية لوافقوه على ذلك .(٧) وليس من شك في أن سير الاتراك الجغتائيين وراء تيمور وانزالهم الضربات القاصمة بسكان البلاد التي حلوا بها ، تعطي دليلاً على مدى تأثير تيمور فيهم .(٨) ويعزو المؤرخون التيموريون هذا التأثير إلى مناقب تيمور الشخصية . وما يتمتع به من مكارم الأخلاق التي كان من أبرزها رعاية حقوق الصحبة والعرفان بالجميل .(٩) وفي الواقع فقد كانت لتيمور شخصية جذابة .(١٠) وكان دأبه أن يظهر الاهتمام بمصالح أتباعه وتلقف أحوالهم ، والعمل على مواساتهم في مصائبهم، والعمل على إسعاف الجرحى منهم خلال

تأثيره بمن حوله

(١) : يزدي: ج ١ص ٣٤٩ وابن عربشاه: ص ٢١٩ (٢) : يزدي: ج ١ص ٤٠٠ و ٥٧٦
(٣) : حافظ آبرو : ص ٢٠٠ (٤) : يزدي: ج ١ص ٤٤٠ وسمرقندي: ص ٤١٧
(٥) : ابن عربشاه : ص ١٥٧ — ١٥٨ (٦) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠١آ — وابن أياس ج ١ص ٣٢٧ (٧) : ابن عربشاه ص ٢٢٧ (٨) : Browne: op.cit. T. III P.183 and Barthold: Ulugh Beg P. 39 (٩) : شامي : ص ٦٠
(١٠) : Sykes: op. cit. II P. 134

المعارك .(١) وكان يبدو دائما أنه على استعداد لأن يقدم كل مايملك لمن يحتاج من أتباعه ،حتى ملابسه وقلنسوته ونطاقه .(٢) واعتبرت المذكرات أن من أهم العوامل التي أدت إلى أن يكره أتباع الأمير حسين سيدهم ، هو بخله وحرصه على تكديس الأموال وعدم القيام بما يجب نحو أمرائه وجنده .(٣)

ومما ساعد تيمور على أن يسلس أتباعه له القياد ، كون هؤلاء —وهم في غالبيتهم من الأتراك الجغتائيين — لايزالون في عهده على الفطرة . وكان الفاتح التركي دائماً قادراً بمعاملته لهم على إثارة حماسهم إلى القتال ، بالغنائم الوفيرة التي يوزعها عليهم عقب المعارك . ثم بتقديم الحجج الشرعية لتبرير الأعمال التي كان يأمرهم بالقيام بها ، وضرب الأمثلة على ذلك من التاريخ .(٤) وكان تيمور أيضاً يستغل تعلق أتباعه بشخصه،والاحترام الذي يقترب من التقديس الذي كانوا يحيطونه به ،ليصل إلى تحقيق أهدافه. وقد أشارت التنظيمات إلى أن ظهور تيمور في خطوط القتال الأمامية ،كان كافياً لإلهاب حماس جنده ،ودفعهم إلى الثبات في القتال والاستبسال لقهر الأعداء .(٥)

ولعل أهم عامل كان يمكن تيمور من الهيمنة على أتباعه ، هو قدرته على تحليل نفسيات هؤلاء ومعرفته مايجول بخواطرهم . ويبدي بارتولد دهشته من قدرة تيمور على التعرف على الحياة الداخلية لأتباعه .(٦) ويصفه ابن عربشاه بأنه "لايخفى عليه تلبيس ملبس" وأنه يستطيع أن يميز بين من ينصحه بإخلاص وبين من يغشه .(٧) و يظهر إدراك تيمور لبعض أسرار النفس البشرية وطموحها ، من إشارته في المذكرات بأنه لايقنع من أتباعه بما يظهرونه من حب وبشاشة وحسب، بل يرى أن من المفيد له أن يغوص في أعماق نفوسهم ، ليطلع على دوافعهم الحقيقية التي تملي عليهم تصرفاتهم وأعمالهم .(٨) وكان في سبيل الوصول إلى ذلك ، يعمد من وقت إلى آخر لأن يشيع نبأ موته ،ليعرف رد الفعل الذي يحدثه هذا النبأ في نفوس أتباعه .(٩) وتظهره المذكرات أنه كان قادراً على إدراك مايجول في نفوس الآخرين من عواطف الحسد والبغضاء والعداء ، من تصرفاتهم وما يظهر على قسمات وجوههم .(١٠) ولذلك كان ينطلق في تعامله مع أتباعه من فكرة أن هؤلاء الأتباع ليسوا أحسن ولا أسوأ من أتباع أعدائه .(١١) وكان عليه أن يحسن توجيههم واستغلال قدراتهم . فهو يرى أن من الخطر أن يسلم التابع منصباً أعلى مما تمكنه مؤهلاته ، لأن ذلك سيكون

(١): Stewart: op. cit. P. 109 وقد ذكر تيمور في مذكراته أنه أسرع في ارسال اسعافات طبية على الفور عندما شاهد أحد قواده في احد المعارك وقد كبا به الحصان . وترد في المذكرات ايضا مواقف أخرى ظهر فيها اهتمام تيمور بمواساة أصحابه في مصائبهم . انظر مثلا : Stewart: op. cit. P. 72,34

(٢): Barthold: op. cit. P. 38 (٣): Stewart: op. cit. P. 88

(٤): Barthold: op. cit. P. 39 (٥): Langles: Tuzukat P. 143.

(٦): Barthold: op. cit. P. 38 (٧): ابن عربشاه : ص ٢٠٩ وأشار إلى ذلك أيضاً ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج ١٣: ص ١٦٢ .

(٨): Stewart: op. cit. P. 107 وقد أشار تيمور في مذكراته في هذا الموضع إلى أنه لايستطيع فقط أن يعتمد على ما يبديه له ملك مهرات جسير كرت من مظاهر البشاشة والود ..

(٩): Barthold: ibid. (١٠): Stewart: op. cit. P. 117

(١١): Prawdin: op. cit. P. 222

سبباً في غروره وانحرافه.[1] كما أن الخادم الأناني يهمل القيام بواجباته ويتقاعس في وقت الحاجة إليه. ويجب على السيد في الوقت نفسه أن لا يبالغ في إهانة أتباعه، حتى لا يدفعهم ذلك إلى الحقد والرغبة في الانتقام.[2] وعليه أيضاً أن يقيم من كل واحد من أتباعه رقيباً على نفسه، ويجعله معلقاً دائماً بين الخوف والأمل.[3]

ازدواج الشخصية

وتُظهر سمات تيمور النفسية — كما لاحظ براقدان — تناقضاً في شخصيته،[4] فهو — أحياناً — مدمر قاس، وبناء متحمس أحياناً أخرى.[5] قرب إليه رجال الدين المسلمين وجعلهم تنظيماته الطبقة الاجتماعية الأولى، ولكنه في الوقت نفسه أبعد تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وقدّم عليها شريعة الياسا المغولية، في التطبيق في قطاعات هامة من المجتمع التيموري والدولة التيمورية كالبدو والجيش.[6] وقد أوحى هذا الحال بالاعتقاد بأن تيمور كان يعاني من "ازدواج الشخصية".[7] وتتوضح معالم شخصيته الأولى بارتباطها بالفئة العسكرية التركية الجغتائية، ذات العادات والتقاليد البدوية. فيظهر بصورة مدمر للحضارة وذابح للرجال، يتلذذ بآلام الانسانية، ويعتبر أن من مظاهر الاحترام التي يجب أن يقابل بها، إقامة أبراج من الرؤوس البشرية.[8] وتبرز معالم شخصيته الثانية، عندما يظهر على أنه أديب مثقف يرعى الفنون،[9] ويجالس العلماء والفقهاء، ويخاطبهم وينبسط لهم — كما وصفه ابن عربشاه — انبساط رحمة وهيبة.[10] ويتخذ لنفسه — كما ورد في مذكراته في أكثر من موضع — مذهباً أخلاقياً قائماً على كراهية الطغيان والظلم والإلحاد والرذيلة، وعلى اعتبار هذه الأمور من العوامل التي تؤدي إلى زوال الدول.[11]

الصراع الداخلي

ويظهر أن تيمور كان يحاول أن يخفي مظاهر هذا الازدواج في شخصيته، ويحبسه في صدره، ويمنعه من الظهور أمام الناس، ولذلك نشأ ميالاً إلى الكتمان،[12] الذي جعله يعيش حياة نفسية مضطربة، ويعاني من صراع داخلي عنيف،[13] وأعطاه عصبية المزاج التي عُرف بها.

وكان من مظاهر الاحتدام النفسي الذي كان يعاني منه تيمور ميله إلى مناقشة رجال الدين، ليتمكن من إيجاد ما يقنع نفسه المضطربة. ويقول ابن الشحنة إن تيمور لما سأل رجال الدين في حلب: "قتل منا ومنكم فمن الشهيد؟"، لوحظت على وجه الفاتح التركي علائم التحرق لمعرفة الجواب.[14] وكأنه كان يريد أن يجد لنفسه جواباً شافياً أكثر مما كان يهدف إلى إحراج مجالسيه من رجال الدين. ويبدو أن ما كان يعانيه تيمور من صراع نفسي، قد استطاع أن يتسرب إلى أحلامه التي كان يراها، فقد أشارت المذكرات

(1): Stewart: op.cit. P. 118 — (2) Langlès: op. cit. P. 102-103

(3): Langlès: op. cit. P. 27 — (4): Prawdin: op. cit. P. 253

(5): Barthold: op. cit. P. 40 — (6): Prawdin: op. cit. P. 193

(7): Grousset: op. cit. P. 527 — (8): ابن الشحنة : ص ٢٢٧

(9): Grousset: ibid. — (10): ابن عربشاه : ص ٢١١

(11) Stewart: op. cit. P. 5,119 — (12): Grousset: op. cit. P. 495

(13): Lamb: op. cit. P. 200 — (14): ابن الشحنة : ص ٢١٥

إلى أن تيمورجلس مرة يفكر في ماضيه وفيما أتاه من أقوال وأفعال، ثم أغفى بعد ذلك بوقت قصير، فحلم أنه يجلس في صحراء كثيرة الأشواك، تحيط به كلاب وخنازير وشياطين ورجال ونساء، لهم سحنات مخيفة . فاستيقظ مذعوراً وكان جواب من قام بتفسير هذا الحلم له : "إن الذي رأيته في الحلم إنما هو استحضار لرذائلك وأعمالك الفاسدة التي جعلت منك طاغية، وكذلك فهو أيضاً استحضار لعواطفك الظالمة لمخلوقات الله . إنما الجشم والشهوة والحسد والغرور، وهي صفاتك . لذلك فعليك أن تغيرعاداتك بعادات أخرى حسنة وأخلاق فاضلة".[1]

ويُرى تيمور، في سياق هذا الصراع القاسي، يُجتذب أحياناً باتجاه الشخصية الأولى، فيحاول أن يجد لنفسه المبررات للأعمال القاسية التي كان يرتكبها . وتشير المذكرات في هذا المجال، إلى أحد رجال الدين، وقد تجرأ على انتقاد تيمور مرة، فوصفه بأنه "قاتل متعطش للدماء"، ولكن الرسول محمد ظهر لهذا الرجل في الحلم، وخاطبه قائلاً: "إن تيمور على الرغم مما يسفكه من دماء الكثير من رعيتي، فإنه الصديق المؤيد الذي يتولى حماية الأجيال التالية من أعقابي". ولم يملك رجل الدين — كما قالت المذكرات — إلا أن يأتي إلى تيمور ويسأله العفو والصفح .[2]

ويُرى تيمور، في أحيان أخرى، يُجتذب باتجاه الشخصية الثانية، فيبكي على ما اقترفته يداه ويقول : "هذا كان مقدراً"،[3] ولما رأى أبراج الرؤوس البشرية في ظاهر بغداد — وقد أقيمت رعاية لحرمته، خاطب هذه الرؤوس قائلاً : "السلام عليكم معاشر الشهداء نحن كنا السبب في نيل الشهادة، فلاتنسونا من الشفاعة يوم القيامة".[4]

عوامل هذا الصراع : البيئة

ويبدو أن ماكان يحس به تيمورمن صراع داخلي في نفسه، يرجع إلى تلقي هذه النفس مؤثرات متعارضة من الوسط الطبيعي والاجتماعي الذي نشأ فيه تيمور، بالإضافة إلى التقاليد التي انتقلت إليه عن آبائه وأجداده . ويظهر أن تنوع البيئة الطبيعية في ماوراء النهر ساعد على أن يحتفظ كل من الطاجيك المستقرين والأتراك الجغتائيين البدو بعاداته وتقاليده، مما جعل مهمة تيمور في جمع الفريقين إلى بعضهما عملية تبدو مستحيلة . وقد انعكس تنافر هذين العالمين على نفسه فأورثها ذلك الصراع والقلق اللذين كانت تعاني منهما .

الأسرة

وتبرز في هذا المجال التأثيرات الأولى التي تلقاها تيمورعندما كان طفلاً صغيراً من والده المتقشف الورع،[5] والتي كانت توجهه نحو حياة روحية خالصة، كما أشارت إلى ذلك المذكرات . فقد نصح ترغاي ابنه تيمور أن يحترم الشريعة الإسلامية ويرعى حرمة رجال الدين، ويحرص على أداء واجباته الدينية، ويعطف على الفقراء والمساكين .[6]

التقاليد

وتقابل ذلك، التأثيرات المتوارثة عن المجتمع الجغتائي البدوي والقائمة على حب الحرب وشهوة التدمير،[7] والنظر إلى ماتأتي به الحضارة الطاجيكية بحذر شديد . ويبدو

(١): Stewart: op. cit. P. 18
(٢): Stewart: op. cit. P. 9
(٣): ابن أياس: ج ١ ص ٣٣٧
(٤): ابن قاضي شهبة : ورقة ٢١١ آ
(٥): Lamb: op. cit. P. 200
(٦): Stewart: op. cit. P. 23
(٧): Lamb: ibid.

أن من المعقول جداً أن يكون تيمور قد تأثر من النهاية التي انتهى إليها الخان الجغتائي تارما شيرين عام ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٤م (قبل مولد تيمور بعامين)، والتي سمع عنها بعد أن شبّ الشيء الكثير، وعلم أن هذا الخان قد قضى نحبه لتجاوزه على العادات والتقاليد الجغتائية، وسمح لنفسه أن ينغمس في جو الحضارة التاجيكية بدرجة كبيرة، مما أحقد عليه أتباعه، فثاروا عليه وقتلوه. وظل قبر تارما شيرين في مدينة قارشي القريبة من كيش — مدينة تيمور الأولى — والتي كان يمر بها تيمور، يذكره بالمصير الذي انتهى إليه صاحبه نتيجة تطاوله على العادات والتقاليد المتوارثة.(١)

ولا شك في أن النظرة الساذجة التي كان ينظر بها الجغتائيون إلى تيمور على أنه قائد فذ يقودهم إلى حيث النصر والغنائم، قد أجبرت تيمور أن يبادل رفاقه بالسلاح وفاءً بوفاء. وكان إخلاص الجغتائيين لتيمور بالغ الأهمية عنده، لأن تيمور ظل جندياً محارباً قبل كل شيء، وظل ينظر إلى التاجيك على أنهم عنصر خال من الفضائل العسكرية التي كانت تستهويه.(٢) ولذلك أيضاً فقد كان تيمور معجباً بشخص جنكيزخان أشد الإعجاب. ودفعه إعجابه به إلى تقليده وتقفي خطاه.(٣) فلم يعبر تيمور نهر السند عام ٨٠٠ هـ، إلا من النقطة التي وقف عندها جنكيزخان على ضفة ذلك النهر.(٤) وعفا مرة عن بعض العصاة لأنهم ينحدرون من عشيرة "قيات" التي كان جنكيزخان ينتمي إليها.(٥) وبلغ الإعجاب بجنكيزخان وأولاده وأحفاده حداً، دفع تيمور لأن يرسل إلى السلطان المملوكي برقوق" رسالة تهديد ووعيد كانت معظم فقراتها مقتبسة من الرسالة التي كتبها هولاكو حفيد جنكيزخان إلى السلطان المملوكي "قطز" عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م،(٦) والتي افتخر فيها بأنه قد خرب البلاد وأهلك العباد وأظهر في الأرض الفساد.(٧) وأدرك برقوق نزعة تيمور لتقليد جنكيزخان فرد عليه يقول: "إنك لم تزل في كتبك كلها تستشهد بتاريخ جنكيزخان وأخباره وأحواله وتقتدي به في أقواله وأفعاله".(٨)

التأثر بجنكيزخان

وفي الوقت نفسه فان الوسط التاجيكي كان يلقي بشباكه لاجتذاب تيمور إليه. ولا سيما وأن نظرة تيمور — الجندي المحارب — أخذت تتوسع بالتدريج عن التاجيك، فأعجبته حضارتهم وآمن بفائدة ثقافتهم.(٩) وحاول ممثلوا الثقافة التاجيكية الإسلامية في ماوراء النهر أن يقنعوا تيمور بأن الله قد اختاره ليخضع العالم لسيفه، وليعمل على حماية دينه ونشر تعاليمه.(١٠) وفي الوقت الذي كان فيه رجال الدين في ماوراء النهر يسعون إلى تصوير تيمور على أنه منقذ للإسلام، فقد انكر عليه أعداؤه هذه المهمة السامية، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فحكموا بكفره.(١١) ولا شك في أن تعارض مواقف هؤلاء وهؤلاء من تيمور قد ساهم إلى حد بعيد في عنف الصراع الداخلي الذي كان يحس به.

بالتاجيك

---

(١): انظر نهاية الفصل السابع من الباب الأول. (٢): Barthold: op. cit. P. 24

(٣): العزاوي: ج ٢ ص ٢٦٨ (٤): يزدي: ج ٢ ص ٦٤ (٥): يزدي: ج ٢ ص ٢٩

(٦): انظر نص خطاب هولاكو كاملاً في السلوك للمقريزي: ج ١ ق ٢ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ وقابل النص بنص رسالة تيمور إلى برقوق في ابن عربشاه ص ٦٥ ـ ٦٦. وقد لاحظ العسقلاني التشابه بين الرسالتين وقال إن خطاب تيمور منتزع من خطاب هولاكو انظر: العسقلاني ج ١ ص ٤٧٢

(٧): ابن عربشاه: ص ٦٦ (٨): القلقشندي: ج ٧ ص ٣٠٩ (٩): Barthold: op. cit. P. 38

(١٠): Browne: op. cit. T.III P. 182, Prawdin: op. cit. P. 193

(١١): ابن عربشاه: ص ٢٠٢

الفصل الثالث

ثقافة تيمور وعقيدته الدينية

إتقان تيمور القراءة والكتابة — اللغات التي تكلمها — معارفه في التاريخ — في التراث الشعبي — الشاهنامة — الجغرافيا — في الطب والفلك والهندسة — الملفوظات والتنظيمات : أهميتها ، أسلوبها ، طريقة كتابتها ، ترجمتها إلى الفارسية ، إلى الانكليزية ، إلى الفرنسية ، مدى أصالتهما — أبو طالب الحسيني ، جعفر باشا ، المذكرات وشامي ، انتحال أجزاء منها ، حجج داني ، موقف محمد حفظ البخاري — ثقافة تيمور الدينية — تظاهره بالتدين — أداؤه الواجبات الدينية — طعون بصحة تدينه — شواهد على تشيعه — شواهد على أنه ضد التشيع — دلائل على ميله للمذهب السني — ضعف تدينه ونتائجه ·

إتقانه القراءة والكتابة

تتضارب الأقوال حول إتقان تيمور القراءة والكتابة · وتذهب بعض الروايات إلى أن تيمور كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ·(١) ويصر بارتولد على ذلك فيما كتب عن تيمور في مؤلفاته العديدة ·(٢) ويرى ولبر أن تيمور كان ضعيف القراءة والكتابة ·(٣) ولكن المذكرات تشير إلى أن تيمور منذ السابعة من العمر ، أرسله والده إلى أحد الكتاتيب ، حيث تعلم كتابة الحروف العربية ·(٤) وكانت هذه الحروف تستخدم لكتابة اللغة التركية واللغة الفارسية · ويقول حافظ آبرو إن تيمور في طفولته درس الأدب والخطابة ·(٥) ويرد في مواضيع كثيرة من المذكرات إشارات إلى أن تيمور كان يحرر الرسائل إلى أتباعه وأصدقائه ، ويتلقى منهم رسائل يتولى قراءتها بنفسه ، دون أية إشارة تفيد أن كتابة هذه الرسائل أو قراءتها كانت تتم بمساعدة أحد ·(٦) ويظهر تيمور في أحد الرسوم التي رسمها أحد المصورين الهنود، وهو يقرأ من رقعة في يده ·(٧) ولعل اهتمام تيمور منذ طفولته بالتدرب على استعمال السلاح والفروسية، أكثر من ميله إلى متابعة الدراسة وتعلم القراءة والكتابة ، هو الذي دفع بعض الباحثين إلى القول إن تيمور كان أمياً ·

اللغات التي تكلمها

كان الفاتح التركي — حسب أقوال ابن عربشاه — يتقن الحديث في ثلاث لغات هي : التركية والفارسية والمغولية ·(٨) وربما كان تيمور يفضل استعمال اللغة الفارسية على لغته الأصلية : وهي التركية الجغتائية ، في مناقشاته مع العلماء · وذهب بعض الباحثين إلى

(١) : ابن عربشاه: ص٢١٢ والعسقلاني : ج ٢ص٢٠٢ والسخاوي: ج ٣ص٤٩

(٢) : بارتولد : تاريخ الترك ··ص٢٣٠و Barthold: Four Studies P. 60 و Barthold: Ulugh Beg P. 39 وأشار إلى أمية تيمور الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية في الملحق : المغول والترك ٣٥١

(٣) : Wilber: op. cit. P. 59 (٤) : Stewart: op. cit. P. 21

(٥) : حافظ آبرو : ص٢٠٥ (٦) : انظر إشارة المذكرات إلى تلقيه رسالة من الأمير حسين وكانت العلاقات بين الطرفين متوترة ولذلك قال : " لقد رفضت قراءة الرسالة (Stewart: op.cit.P.95) وأشير في مكان آخر إلى أنه قد تلقى رسالة من أحد أصدقائه وكانت مكتوبة بالتركية الجغتائية وقد قرأها وعلم أن الأمير حسين يتآمر عليه (Stewart: op.cit.P.122)

(٧) : علي رشاد : تاريخ عمومي ايكنجي جلد ص٣٠٦ (٨) : ابن عربشاه: ص٢١٢

القول إن تيمـــــــــور كان يتقن الفارسية أكثر من إتقانه التركية الجغتائية .[١] وقد سُمع وهــــــــو يتكلم بالفارسية ، خلال المناقشات التي دارت مع رجال الدين في حلب .[٢] وجعل شعاره الذى نقشه على خاتمة تلك العبارة الفارسية " راستي رستي ".[٣] ومع ذلك ، فإن تيمور كان يستعمل اللغة التركية الجغتائية في بعض الأحيان ، فقد كتب مذكراته بها . وأمر بترجمة النبذة الجغرافية التي طلب من ابن خلدون أن يكتبها له عن المغرب إليها .[٤]

معارفه : في التاريخ

وكان التاريخ أول أنواع المعرفة التي استهوت تيمور . وكانت حصيلة معلوماته فيه كبيرة جدًا . وكان يلذ له أن يجلس للاستماع إلى القُرّاء الذين كانوا يتلون عليه قصص الأمـــم الغابرة . وبلغ من سعة اطلاعاته التاريخية ، أنه كان يقوم في بعض الأحيان بتصحيـــــح أخطاء القراء .[٥] ويعزو ابن عربشاه وسمرقندي إلى تيمور سعة الاطلاع في الأنساب وأخبـــار الأنبياء وأحوال أمم الترك والعجم .[٦] وتعطي قراءة المذكرات فكرة أكثر وضوحاً عن ثقافـــة تيمور التاريخية. فيظهر من إرجاعه نسبه إلى يافث بن نوح ،[٧] أنه كان يعرف قصة الطوفان والتقسيمات التي كان قد اصطلح عليها كتّاب العصر الوسيط للسلالات البشرية . واتضح أيضاً أن لتيمور اطلاعات على تاريخ العباسيين والسلاجقة والغزنويين ، وأنه كان يكن الإعجاب للسلطان محمود الغزنوي .[٨] ودارت بينه وبين ابن خلدون في دمشق مناقشة تاريخيـــة حول الأصل الذي ينحدر منه الملك " بختنصر " ، ورجّح تيمور أن يكون منحدراً من أصـــل فارسي ، بينما أصر ابن خلدون على أن بختنصر هو من ملوك بابل المتأخرين .[٩] وطلـــب تيمور خلال هذه المناقشات أن يقص ابن خلدون عليه بعض الأخبار عن ملوك العرب ودولهم وآثارهم .[١٠] ويعتقد بارتولد أن تيمور ربما كان مطلعاً على تاريخ " الاسكندر المقدوني ". فقد نسبت إليه العبارة التي قالها الاسكندر : " إن العالم لا يستحق أن يمتلكه حاكمان ".[١١] وترد عند يزدي وفي المذكرات إشارات عديدة تفيد بأن تيمور كان على علم بتاريخ المغول منذ أيام أجداد جنكيزخان ، وعلى تاريخ الفاتح المغولي وتاريخ أبنائه وأحفاده .[١٢]

في التراث الأدبـــي الشـعبي

ويرى كاهون من ناحية أخرى أن لتيمور اطلاع على التراث الأدبي الشعبي التركـي، المتمثل ببعض قصص المغامرات لأبطال أسطوريين أتراك،[١٣] وعلى التراث الأدبـــي

(١) : Frye: Iran P. 57 (٢) : ابن الشحنة : ص٢١٥ وقد ذكر أن تيمور لما سمع جواب ابن الشحنة على سؤاله : من الشهيد. قتيلنا أم قتيلكم؟ أجاب قائلاً : " خوب " وهي لفظة فارسية تعني " حسن " . (٣) : يزدي : ج ٢ص١٢٧

(٤) : ابن خلدون : التعريف .. ص ٣٧٤ وكان ابن خلدون قد ذكر أن تيمور أمر بترجمـــة هذه النبذة إلى " اللسان المغلي ". ولكن فيشيل يعلق على عبارة ابن خلدون ويقول إن المقصود هنا هو اللغة التركية الجغتائية انظر : لقاء ابن خلدون لتيمور لنك، ترجمة محمـــد توفيق بيروت (مغفل تاريخ الطبع) ص١٤٧ (٥) : ابن عربشاه : ص٢١٢

(٦) : سمرقندى : ص١٠٧ وابن عربشاه : ص٢١٢ (٧) : Langlès: op.cit.P.44,46

(٨) : Stewart: op. cit. P. 22 (٩) : ابن خلدون : التعريف .. ص٣٧٤

(١٠) : ابن عربشاه : ص١٠٣ (١١) : بارتولد : تاريخ الترك .. ص٢٢٠

(١٢) : يزدي : ج ٢ص٢٩ و ٤١ و Stewart: op. cit. P. 27-28

(١٣) : Cahun: op. cit. P. 929

الشاهنامة

الفارسي المتمثل بالملحمة الفارسية "الشاهنامة"، ومناقشاته مع ابن خلدون عن أصول بختنصر واعتقاده بأن هذا الملك ينحدر من الملك الفارسي الخرافي "منوجهر" الوارد ذكره في هذه الملحمة، ثم تشبيهه القتال الذي دار مرة بينه وبين الأمير حسين بالقتال الدامي الذي دار بين اثنين من أبطال الشاهنامة، (1) هما "رستم واسفنديار" تؤكد اطلاع تيمور على هذه الملحمة، اطلاعاً على قدر كبير من العمق.

الجغرافية

ومما لاشك فيه أن معلومات تيمور في الجغرافية كانت جيدة أيضاً، بسبب ما حصل عليه في هذا المجال من خلال غزواته وحروبه في أواسط آسية والهند وبلاد القبجاق، ثم في إيران والعراق، وآسية الصغرى وبلاد الكرج وبلاد الشام. وتتعدى معلومات تيمور الجغرافية البلاد التي وصل إليها في حروبه إلى البلاد الأخرى. فقد اتضح من مناقشاته مع ابن خلدون، أنه كان على علم بجغرافية بلاد المغرب، فقد سأل ابن خلدون أن يحدد له مواقع كل من طنجة وسبتة وفاس وسجلماسة، قبل أن يطلب منه أن يكتب له تلك النبذة الجغرافية عن هذه البلاد. (2) وأشار إلى اسبانيا على أنها بلد بعيد، وأن شعبها شعب عظيم ومشهور، عندما أراد أن يجامل السفير كلافيجو. (3) وذكر في "التنظيمات" حرصه على توطيد العلاقات التجارية مع "بلاد الروم" ومع "جزيرة الفرنجة". ويقول لانكله إن تيمور ربما قصد من تعبير "بلاد الروم" بالإضافة إلى الدولة البيزنطية "كلاً من ايطاليه وجزيرتي كريت وصقلية، وأن تعبير "جزيرة الفرنجة" يعني عنده فرانسا والقارة الاوربية بشكل عام. (4) ولم يملك ابن خلدون إلا أن يظهر دهشته لسعة اطلاع تيمور وغزارة معلوماته الجغرافية، على الرغم من اعتداد هذا المؤرخ التونسي بنفسه، واعتقاده بكثرة معلوماته. ويعلق ابن عربشاه على مادار بين تيمور وابن خلدون بأن تيمور كان لا يقصد من سؤاله المؤرخ إلا امتحان معلوماته، لأنه لم يكن بحاجة إلى معلومات جديدة لأن "في خزائن تصوره صور جميع الممالك". (5)

في الطب والفلك والهندسة

وترد إشارات متفرقة عن اطلاعات تيمور في بعض العلوم، كالطب والفلك والهندسة. ويعزو له حافظ آبرو بعض المعارف عن النافع والضار من الأغذية والأشربة. (6) وكانت آراؤه في مجال الهندسة تثير إعجاب المهندسين في بعض الأحيان (7). ويبدو أنه ليس غريباً أن تكون معلومات تيمور عن الخيل وافرة جداً. (8)

الملفوظات والتنظيمات

وينسب إلى تيمور وضع مؤلف يشتمل على مذكراته وعلى الأنظمة والأساليب الإدارية والعسكرية التي طبقها في الدولة. وقد اشتهر القسم الأول الذي يتضمن المذكرات باسم "الملفوظات"، وعرف القسم الثاني المشتمل على الأنظمة ووصف المؤسسات الإدارية والعسكرية في الدولة التيمورية باسم "توزوكات". (9) وهي لفظة مغولية بصيغة جمع المؤنث السالم، وعرفها "بوفا" بأنها إضافات قام بها تيمور على القواعد والأعراف المغولية. (10)

(1): Stewart: op. cit. p. 102
(2): ابن خلدون: التعريف، ص ٢٧٠
(3): Le Strange: op. cit. P. 221
(4): Langlès: op. cit. P. 39
(5): ابن عربشاه: ص ٢١١ — ٢١٢
(6): حافظ آبرو: ص ٢٠٠
(7): Barthold: Four Studies P. 60
(8): ابن عربشاه: ص ٥ وابن تغري بردي: ج ١٢ ص ٢٥٦
(9): Bouvat: Essai sur ... P. 220
(10): Bouvat: op. cit. P. 106

ولما ترجمت الملفوظات فيما بعد من التركية الجغتائية التي كتبت بها لأول مرة إلى الفارسية، استعار المترجم اللفظتين العربيتين "دستور العمل" لاقتناعه بأنها تقابل كلمة "توزوكات"،(١) ووضع "ستيوارت" عندما نقل الملفوظات إلى الانكليزية، مقابل هذه الكلمة، اللفظتين الانكليزيتين (Rules) و (Regulations) معاً.(٢)

وجاء في هذه الملفوظات نفسها أن تيمور عقب اعتلائه العرش عام ٧٧١ هـ/ ١٣٧٠م، قام بإصدار "تنظيمات" جديدة للدولة، بعد أن تم استخلاصها من الأنظمة والأساليب التي كان استعمالها شائعاً في الماضي، وأمر بتدوين هذه "التنظيمات" ونشرها.(٣) وجاء في مقدمتها بيان الهدف الذي سعى تيمور لبلوغه، وهو تزويد أولاده وأحفاده بأساليب الإدارة والحكم، عندما سيستلمون السلطة في المستقبل. ولذلك صدّرها بقوله: "إلى أبنائي وأمرائي ..." وجاء في هذه المقدمة قوله: "لقد كتبت مذكراتي باللغة التركية الجغتائية بأمر سائر أجدادي، وقد تم ذلك بمساعدة الله وبحماية محمد عليه وعلى أعقابه السلام. لقد جلست على العرش، ونجحت في الوصول إلى حكم البلاد. وحصلت على ذلك بالشجاعة والكفاح والحروب ... لقد طبقت هذه المبادئ والتنظيمات .. إنني أعلم أن عدداً من أحفادي سوف يجلس على عرش السلطة، ولذلك جمعتلهم هذه الحكم التي وضعتها بنفسي، للاقتداء بها والسير على موجبها ... لقد تخطيت بهذه الحِكَم الأخطار والقلق والمتاعب بحماية السماء، وبفضل دين محمد وبفضل آل البيت".(٤)

وغني عن البيان الإشادة بأهمية الملفوظات والتنظيمات، التي تنعكس من خلالها سمات تيمور النفسية وشخصيته، وتصور أفكاره وتشير إلى الفلسفة السياسية التي سار عليها. أهميتها كما أنها تكشف عن الأسباب الحقيقية التي أثرت في سلوكه، في المجالات السياسية والعسكرية المختلفة.(٥) فضلاً عن إيرادها الكثير من التفصيلات عن حياته الشخصية وأعماله وحروبه، بشيء من الإفاضة وغزارة في المعلومات، وبشكل لا يصادف في بقية المصادر التي تحدثت عن تاريخ تيمور. وينطلق الفاتح التركي في هذه المذكرات من فكرة تقول إنه صاحب الحق الأول في ذكر الأحداث وتحليلها والكشف عن أسبابها الخفية. ويحاول أن يصور هذه الأحداث من وجهة نظره ليبين الأساليب الحكيمة السلمية التي استطاع بها أن يتغلب على المشاكل التي صادفها في حياته.(٦)

كُتبت المذكرات حسب طريقة الحوليات. وكان أسلوبها بسيطاً، ينطوي على نبل وغرور ساذج، مجرداً من الزخرفة اللفظية التي كانت سائدة لدى أغلب كتاب ذلك أسلوبها العصر.(٧) ويكفي لإبراز فكرة البساطة في أسلوب المذكرات أن تقارن بما كتبه يزدي الذي تناول الحديث عن تاريخ تيمور أيضاً، بأسلوب مرصع بالمحسنات اللفظية والقصائد الشعرية المطولة.

---

(١): Stewart: op. cit. App VI; (٢) Stewart: op. cit. App. IX

(٣): Langlès: op. cit. P.1, Stewart 3; (٤) Stewart: P.138-139

(٥): عزاوي: تاريخ العراق بين الاحتلالين ج ٢ ص ٢٧٣ و Browne: op.cit. T. III

Stewart: op.cit. Preface P IX; (٦) P.202 Sykes: op. cit. P. 12?

(٧): Stewart: op. cit. Preface P. XI

وأشارت الملفوظات (المذكرات) إلى أن التنظيمات (توزوكات) قد تمّ إصدارها عام ٧٧١ هـ، بعد وصول تيمور إلى الحكم.[١] أما كتابتها فقد تمت كما يظهر على مراحل متتالية طريقة كتابتها شأنها شأن أية مذكرات أخرى. وعلى الرغم من أنه ليس من المستطاع تحديد التاريخ الذي بدأ فيه تيمور بكتابة مذكراته بشكل قطعي، إلا أنه من المؤكد أن هذا التاريخ كان قبل أن يصل تيمور إلى الحكم بمدة طويلة. وربما كان هذا التاريخ عام ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) أو قبله بقليل. فقد جاء في هذه المذكرات قول تيمور، في أحداث ذلك العام، عن حاجي برلاس زعيم قبيلة برلاس الذي اشتد التنافس بينه وبين تيمور، وعمل للتآمر عليه واغتياله، "إنه الآن نادم على سلوكه نحوي".[٢] ولما كان من الثابت، كما جاء في المذكرات وفي غيرها من المصادر التيمورية، أن وفاة حاجي برلاس كانت في ذلك العام ٧٦٣،[٣] فإنه يصبح من المقبول به أن إشارة تيمور بقوله "الآن" أن هذه العبارة قد دونت حوالي ذلك التاريخ.

ويتعزز هذا الاستدلال بورود إشارات أخرى في المذكرات، لحوادث وقعت قبل عام ٧٦٣ هـ، ومعها ما يفيد أنها وقعت في وقت سابق لتاريخ تدوينها. فقد تحدث تيمور في أحداث عام ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) عما جال في خاطره عندما أرسله الأمير قازغن إلى هيرات لمساعدة الملك "حسين كرت"، على استرجاع عرشه فقال: "لقد خطر في فكري عندئذ أنه بإمكاني أن امتلك هيرات لنفسي، ولكنني بالمقابل فكرت بأنه من الممكن أن لا تؤيدني القوات، فتخليت عن الفكرة، ثم وجدت بالتجربة أن حكمي كان صحيحاً".[٤] ولا شك في أن التجربة التي اقنعت تيمور بخطأ تفكيره قد حدث في وقت لاحق لعام ٧٥٧هـ (١٣٥٦م). وكذلك فإن تيمور يشير في حوادث عام ٧٦١هـ (١٣٦٠ م)، إلى أنه قد بلغ في هذا العام الخامسة والعشرين من عمره ثم يتابع القول: "وفي ذلك الوقت كان والدي مريضاً جداً".[٥]

ويبدو أن تيمور أيضاً استمر على تسجيل الأحداث في تاريخ لاحق لتاريخ حدوثها بعد عام ٧٦٣ هـ المقترح لبدئه بكتابة مذكراته. فهو يقول في أحداث عام ٧٦٨هـ(١٣٦٧م)، أنه كان قد عين أحد أتباعه في ذلك العام حاكماً على مدينة قارشي. ثم يتابع الحديث عن ذلك التابع فيقول عنه "وهو الآن مهاجر في خراسان".[٦] مما يؤكد أن تسجيل هذه العبارة كان في وقت لاحق لتعيين هذا التابع، ويدعى "بيك شاه"، حاكماً على قارشي عام ٧٦٨ هـ، لأنه ليس من المعقول أن يكون "بيك شاه" حاكماً على قارشي ومهاجراً إلى خراسان في وقت واحد.

ويظهر من فقرات أخرى من المذكرات، أن تسجيل بعض الأحداث كان يحدث في بعض الأوقات — بعد وقت طويل من وقوعها يمتد إلى ما يقارب عشر سنوات. فقد ذكر تيمور أنه رفض عام ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) طلب السكان أن يتسلم السلطة العليا في البلاد، وأن تتلى الخطبة باسمه. وقد دفعه طلب السكان لأن ينص في "تنظيماته"، أن على الحاكم

(١): Stewart: op. cit. P. 136 (٢): Stewart: op. cit. P. 55
(٣): شامي: ص١٨ ويزدي: ج١ ص٤٤و Stewart; ibid.
(٤): Stewart: op. cit. P. 38 (٥): Stewart: op. cit. P. 47
(٦): Stewart: op. cit. P. 105

أن لا يطمئن إلى مايظهره أتباعه له من الإخلاص ، وإن لا يركن إلى كثرة عددهم ، بل عليه أن يتعرف على الدوافع الكامنة وراء مايظهرونه من إخلاص.[1] وكانت المذكرات قد ذكرت في مكان آخر أن صياغة التنظيمات قد حدثت عام ٧٧١ هـ [2] (١٣٧٠ م).

وترد في المذكرات قرائن تفيد أن صياغتها بالشكل الذي وصلت به كان من عمل عدد من المنشئين ، إذ يلاحظ بعض الاختلاف في الأسماء وفي أساليب التعبير التي تطلقها المذكرات ، على بعض المواقع الجغرافية وبعض الأعمال التي كان يقوم بها تيمور ، بين موضع وموضع آخر في هذه المذكرات . ومن هذه القرائن أن المذكرات كانت تدعو ، في الأقسام الأولى منها ، نهر آموداريا بنهر جيحون ، في المواضع الكثيرة التي ورد ذكر النهر فيها ، ثم عدلت بعد ذلك ، عن استعمال هذه التسمية إلى التسمية الثانية التي عرفت للنهر وهي نهر "آمو" ، خلال الأقسام الباقية منها ، وفي المواضع العديدة التي جاءت الإشارة فيها إلى النهر . وكان الحال نفسه مع تعبير "ماوراء النهر" الذي كان سائداً في الاستعمال في الأقسام الأولى ، ثم عُدل عنه إلى تعبير "بلاد توران" في الأقسام التالية . وكذلك فإن المذكرات التي كانت تشير إلى ركوب تيمور حصانه في الأجزاء الأولى منها بعبارة "واعتليت حصاني" ، عمدت إلى استعمال عبارة جديدة في الأجزاء التالية وهي : "ووضعت قدمي في الركاب" .

ويوحي ورود أفكار تنبذها تعاليم الإسلام في المذكرات ، بالاعتقاد أن كتابتها كانت من قبل عدد من الكتاب الاويغور (الباخشي) ، الذين كانوا يعملون في حاشية تيمور.[3] فقد أشير إلى الرسول مرة على أنه "وزير الله" ،[4] وورد اسمه "محمد" دون أن يرفق بعبارة "صلى الله عليه وسلم" أو بأية عبارة أخرى ، كما هو مألوف عند الكتّاب المسلمين ، في أغلب المواضع الذي ورد ذكره فيها . وكان بعض هؤلاء الايغور لا يزال يدين بالمانوية ، الديانة الأطية قبل وصول الإسلام إلى بلادهم . وكان ابن عربشاه قد أشار إلى وجود عدد كبير ممن لا يدينون بالإسلام من بين أتباع تيمور.[5] ويقوي احتمال ذلك أن لغة المذكرات الأصلية ، كانت اللغة التركية التي كان الكتّاب الاويغور يتقنونها كتابة وحديثاً . وقد كانت التنظيمات قد أشارت إلى أن من مهام "الديوان العام" في الدولة التيمورية ، الإشراف على تدوين الأحداث التي تقع أولا بأول ، ثم عرض مايسجل من هذه الأحداث على تيمور لأخذ رأيه فيه.[6] ومن الواضح أن هذا السجل قد أحدث بعد وصول تيمور إلى الحكم عام ٧٧١هـ . ويظهر أن تيمور منذ ذلك التاريخ ، كان يقوم في جلسات متتالية ، بإملاء ماحدث له في الماضي . ولعل هذا الإملاء كان السبب في تسمية المذكرات "ملفوظات" . وكان تيمور يعتمد على ذاكرته أو يرجع إلى ماكان قد كتبه سابقاً ، وكان "الباخشي" يكتبون مايملى عليهم. ويحدث أن يشير تيمور إلى أحداث ماضية ، ثم يوازن بين ماوقع في الماضي وبين ماهو عليه

---

(1) : Stewart: op. cit. P. 47
(2) : Stewart: op.cit.P.138-139
(3) : يزدي : ج ١ ص ١٩
(4) : Stewart: op. cit. P. 29
(5) : ابن عربشاه : ص ٨٥ و ٢٣٠
(6) : Langlès: op. cit. P. 96

الحال عند إملاء الأحداث . ويقوم الكتّاب "الباخشي" بعد ذلك بإعادة النظر فيما سمعوه وكتبوه ، ويعملون على تنقيحه . وكان كل واحد منهم - كما يبدو - يجري ذلك وفق ما يراه مناسباً لآرائه ومعتقداته وأسلوبه في الكتابة . ويحدث أن يتبدل الكتّاب الذين يتولون الاستماع إلى ملفوظات تيمور على مر الأيام . ويفسر ذلك الاختلافات الظاهرة في الأسلوب وفي الإشارة إلى المسميات وبعض الأعمال في سياق المذكرات .

هذا ولم تصل الملفوظات إلينا بلغتها الأصلية ، كما أملاها تيمور بالتركية الجغتائية . بل وصلتنا الترجمة الفارسية لها . وكان "الماجور داڤي" وهو أحد الضباط الانكليز الذين كانوا يقيمون في الهند ، قد اكتشف عام ١٧٧٩ م إحدى نسخ الترجمة الفارسية، وحملها معه إلى انكلترة .(١) وظهر من مقدمة هذه النسخة أن مترجمها هو "أبو طالب الحسيني". وقد جاء في هذه المقدمة قول المترجم "إما بعد المحتاج إلى رحمة ربه تعالى أبو طالب الحسيني يعتز بالسماح له بالوصول إلى كنف العرش في الحرمين الأشرفين . لقد رأيت في مكتبة جعفر باشا حاكم اليمن كتاباً تركياً قديماً ، من ملفوظات حضرة العالي ، ساكن الجنان المرحوم صاحب القران غفر الله له ، من سن السابعة إلى سن الحادية والسبعين ... وبما أن العبارات والألفاظ التركية والعربية بعيدة عن الفهم ، وهي عبارات مكسرة ومتناثرة ، فقد قمت بنقله إلى الفارسية . ليحفظ الله تعالى كامل الصفات حضرة الخاقان العالي صاحب القران الثاني من حوادث الدوران ، ويظهر ظل سلطنة هذا السلطان العادل وعدالته على مفارق العالمين(٢).

ترجمتها إلى الفارسية

وعلى الرغم من قول أبي طالب إن المذكرات التي ترجمها تتناول حياة تيمور بين سن السابعة والحادية والسبعين (أي حتى السنة الأخيرة من حياته) ، فإن المذكرات التي اكتشفها الماجور داڤي وقام بنقلها إلى انكلترة تتحدث عن حياة تيمور منذ ولادته عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م)، وتتقف عند بلوغه الحادية والأربعين من العمر عام ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) ، ولم تتحدث بشيء عن أحداث السنين الثلاثين الباقية من حياة الفاتح التركي .(٣)

وظلت المعلومات عن أبي طالب الحسيني مترجم الملفوظات إلى الفارسية وعن الظروف التي أحاطت بعملية الترجمة . والدوافع التي دعت إليها قليلة وغامضة ، حتى عُثر على نسختين أخريين للملفوظات من ترجمة أُخرى لها إلى اللغة الفارسية ، غير التي قام بها أبو طالب الحسيني . وقد حصل على النسخة الأولى أحد الضباط الانكليز من أحد أحفاد السلاطين المغول المسلمين في دلهي ، ولذلك عرفت بالنسخة الامبراطورية . كما عُثر على النسخة الثانية في دلهي أيضاً، ونقلها إلى بريطانيا أحد الجنرالات الانكليز . وتمتاز النسختان الجديدتان اللتان وصلتا إلى انكلترة عام ١٨٣٠ م ، بأنهما تحتويان على ملفوظات تيمور كاملة حتى العام الأخير من حياته .(٤)

وقد اطلع "تشارلز ستيوارت" ، وهو أحد اللذين ساهموا بترجمة عمل أبي طالب الحسيني من الفارسية إلى الانكليزية على النسختين الجديدتين، عند وصولهما إلى بريطانيا

(١) Stewart:op.cit.Preface P.III : (٢) Stewart:op.cit.App. II

(٣) Stewart:op.cit.Preface P.VI : (٤) Stewart:op.cit.App. P. 9

وأفاد بأنهما صورتان لترجمة واحدة قام بها أحد موظفي القصر الملكي في عهد السلطان " شاه جيهان " (١٠٣٧ـ ١٠٦٩ هـ/ ١٦٢٧ـ ١٦٥٨ م)، أحد حكام دولة السلاطين المغول (التيموريين) [(١)] المسلمين في الهند، وهو حفيد تيمور من الدرجة الثامنة . وكان الموظف الذي قام بالترجمة مؤدباً للسلطان نفسه ويدعى " محمد حفظ البخاري ". وقد وصف نفسه في المقدمة التي وضعها لعمله بأنه " أصغر خدام البلاط الملكي ". وقال إنه قد أنجز عمله عام ١٠٤٧ هـ (يقابل عام ١٦٣٧ م) ، بناء على أمر السلطان شاه جيهان . وأضاف بأنه لم يقم إلا بإعادة النظر في الترجمة التي قام بها أبو طالب الحسيني، والتي لم تنل إعجاب السلطان عندما اطلع عليها . ولذلك فقد سعى محمد حفظ البخاري لإجراء التنقيح المطلوب . وقابل ماجاء في المذكرات مع كتاب " ظفرنامة " الذي ألفه شرف الدين يزدي عن حياة تيمور ، فحذف ماعتقد أن أبا طالب قد أضافه ، وأضاف ماتصور أن المترجم السابق قد حذفه . وجعل الملفوظات تتطابق مع كتاب يزدي بشكل كامل .[(٢)]

وكان الماجور وليم داڤي الذي أحضر النسخة الأولى من المذكرات من الهند عام ١٧٧٩ م ـ وهي النسخة التي ترجمها ابو طالب الحسيني ـ قد قام بترجمة جزء منها إلى الانكليزية ، وهو الجزء الذي يتناول الأحكام والتنظيمات في دولة تيمور ، والذي عرف باسم " توزوكات " . وتمّ نشر هذا الجزء عام ١٧٨٣م باشراف " وايت " (White) أستاذ العربية في جامعة اكسفورد ، مع كامل النص الفارسي للمذكرات .[(٣)] وتمّ نقل باقي المذكرات (باقي عمل أبي طالب الحسيني) ، المتضمن القسم التاريخي الذي يشتمل على حياة تيمور منذ ولادته وحتى بلوغه الحادية والأربعين من العمر، من قبل الماجور " تشارلز ستيوارت " عام ١٨٣٠م، وهو التاريخ الذي وصلت فيه النسختان الجديدتان الكاملتان من المذكرات إلى انكلترة . ولما كان ستيوارت قد قطع شوطاً بعيداً في ترجمة نسخة أبي طالب الحسيني ، ولذلك فإنه اكتفى بإجراء مقابلة بين هاتين النسختين وبين ماكتبه يزدي في مؤلفه " ظفرنامه " .[(٤)] فتأكد .. د ماكان قد أشار إليه محمد حفظ البخاري من أن أغلب الزيادات في النسخة الجديدة (الامبراطورية) كانت منتزعة من تاريخ يزدي . كما وجد فيها شرحاً لبعض الجزئيات الخاصة من حياة الفاتح التركي، وبراهين وحجج تؤكد أنه كان يعتنق المذهب السني . ووجد ستيوارت أن ترجمة النسخة الامبراطورية هو عمل يفوق طاقته ، ولذلك كتب للجنة الترجمة الشرقية في لندن، لتقوم بتكليف غيره للقيام بذلك .[(٥)] واكتفى بإضافة أربع مقاطع صغيرة مترجمة من النسخة الامبراطورية على ترجمته لعمل أبي طالب ، على شكل ملحق تحت عنوان " إضافة " (Addenda) . وتصور هذه المقاطع الأربعة تيمور في أيامه الأخيرة . وتشير إلى وصيته لأولاده وأحفاده بالاتحاد ونبذ الاختلاف (المقطعان الأول والثاني) . كما يعلن تيمور في المقطع الثالث عن رغبته بتعيين حفيده " بير محمد " خلفاً له ، ويرجو أحفاده في المقطع الرابع، ليعملوا على

ترجمتها إلى اللغة الانكليزية

(١) : انظر الفصل السابع عشر من الباب الخامس ص ٣٩٤ هـ (٥) .

(٢) : Stewart:op.cit.Appendix P. 10 : (٣) Stewart:op.cit.preface

P.III, Browne:op.cit.T.III P.184 (٤) Stewart:op.cit.PrefaceP.XI

(٥) : Stewart:op. cit. Preface P. IX

تنفيذ الأحكام والتنظيمات التي كان قد كتبها خلال حياته ، وإدخال هذه الأحكام والتنظيمات كملحق على ملفوظاته . ويطلب منهم أن يضاف كل ما حدث من وقائع وأحداث حتى اللحظة الأخيرة من حياته إلى هذه المذكرات .(١)

ترجمتها إلى الفرنسية

وكان المستشرق الفرنسي "ل . لانگلس" (L. Langlès) قد قام بترجمة قسم التوزوكات من نسخة أبي طالب الحسيني من المذكرات إلى الفرنسية عام ١٧٨٧م . وأعطى هذا القسم عنواناً مطولا هو : "مؤسسات تيمورلنك السياسية والعسكرية ، والتي دعيت بالضبط تيمور يكتب بنفسه بالمغولية ، منقولة عن ترجمة أبي طالب الحسيني الفارسية إلى الفرنسية ، مع حياة هذا الفاتح التركي كما كتبها أفضل الكتاب الشرقيين ، ومع ملاحظات وجداول تاريخية وجغرافية الخ ... من قبل لانگله" .(٢) وكما يظهر من العنوان الذي أعطاه لانگله لعمله ، فإن هذا العمل لا يقتصر على الترجمة الفرنسية لقسم التوزوكات ، بل أضاف المترجم إلى ذلك تاريخاً لحياة الفاتح التركي ، وجدولاً تاريخياً وجدولاً آخر جغرافياً من إعداد لانگله نفسه . وأشار في المقدمة التي كتبها ، إلى أنه اعتمد في ترجمته على النص الفارسي الذي قام وايت بنشره في اكسفورد قبل أربع سنوات .(٣)

مدى أصالتها

ويبدي بعض الباحثين في الوقت الحاضر ، شكوكاً حول صحة نسبة المذكرات بقسميها الملفوظات والتنظيمات (التوزوكات) إلى تيمور .(٤) فيرى براون أن أبا طالب الحسيني الذي قيل عنه أنه مترجم المذكرات إلى الفارسية ، قد قام بتأليفها بنفسه ثم نسبها إلى تيمور .(٥) ويتابع الذين يطعنون في أصالة العمل قولهم : كيف يستطيع تيمور أن يتابع مذكراته حتى اللحظات الأخيرة من حياته ، وأن يكتب قصة موته بيده .(٦) وتقوى شكوك هؤلاء الباحثين لعدم ورود أية إشارة إلى وجود هذه المذكرات ، عند أي من المؤرخين التيموريين أو غيرهم ، إلا ما رواه أبو طالب الحسيني نفسه .(٧)

أبو طالب الحسيني

ويورد "العاملي" في كتابه "أعيان الشيعة" ترجمة لرجل يدعى "أبو طالب الحسيني" وجاء في هذه الترجمة ، أن المذكور كان معاصراً للشاه "عباس الكبير" الصفوي الذي حكم بين ٩٩٥ـ١٠٣٩ هـ (١٥٨٧ـ١٦٢٩م) ، وأنه كان مشرفاً على قبر الإمام "علي الرضا" في مشهد . وكانت وفاته في طهران عام ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥م) .(٨) ويتوافق ما ورد في هذه

---

(١) : Stewart: op. cit. Appendix P. 9

(٢) : Instituts Politiques et militaires de Tamerlan, Proprement appellé Timour écrits par lui même en Mongol, et traduits en Francois [ ] Sur la version Persane d'Aou-Taleb-Al-Hosseini, avec la vie de ce Conquérant, d'apres les Meillieurs Auteurs Orientaux, des Notes, et des Tables Historique [ ] geographique etc........ par Launglès " .

(٣) : Langlès: op. cit. Préface P. 5-6

(٤) : Bouvat: L'Empire Mongol P22 (E.A.V 22 P. 3-4) P. 4

(٥) : Sykes: op. cit. T. II P. 121, H.A.R.G.

(٦) : Browne: ibid.

(٧) : Stewart: op. cit. Appendix. P. 9 — Browne: ibid.

(٨) : السيد محسن الأمين الحسيني العاملي : أعيان الشيعة ج ٦ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤

الترجمة مع ما ذكره أبوطالب نفسه في مقدمة عمله عن الدافع الذي دفعه إلى ترجمة المذكرات إلى اللغة الفارسية . فقد نشأ وعاش في محيط ثقافي فارسي . وتمكن من الحصول على مذكرات تيمور ، كما أشار في هذه المقدمة ، خلال قدومه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . ولا يتوافق ما ذهب إليه داڤي من أن المقصود من عبارة " صاحب القران الثاني " التي وردت في المقدمة المشار إليها إنما هو السلطان شاه جهان .(١) لأن وفاة أبي طالب كانت عام (١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م) قبل عامين من وصول هذا السلطان إلى الحكم عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م . ولذلك فإن العمل الذي قام به أبوطالب الحسيني ، قد قدم إلى السلطان جهانگير (١٠١٤ — ١٠٣٧ هـ / ١٦٠٥ — ١٦٢٧ م) والد السلطان شاه جهان ، وأن عبارة " صاحب القران الثاني " كان يقصد بها السلطان الأب جهانگير ، وليس ابنه شاه جهان ، كما ذكر ستيوارت .(٢)

ويبدو من المقبول به أن يكون أبو طالب الحسيني قد زار الهند في طريق عودته من أداء فريضة الحج ، ليعرض على جهانگير اكتشافه لمذكرات جده الأعلى (تيمور) . فكلفه السلطان بنقلها إلى الفارسية ، لغة الثقافة في بلاط السلاطين المغول (التيموريين) في ذلك الوقت . ولما اطلع السلطان شاه جهان — فيما بعد — على عمل أبي طالب الحسيني ولم يعجبه ، فقد طلب إلى أحد رجال حاشيته وهو معلمه " محمد حفظ البخاري "(٣) أن يعيد النظر في الترجمة . وقد أنهى محمد حفظ البخاري عمله عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م ، كما ذكر هو نفسه في مقدمته التي كتبها لعمله الجديد .(٤)

ومن ناحية ثانية فإن جعفر باشا الذي وردت الإشارة إليه في مقدمة أبي طالب ، هو أحد الولاة العثمانيين في اليمن . وقد امتدت ولايته بين عامي (١٠١٦ — ١٠٢١ هـ / ١٦٠٧ — ١٦١١ م) . ويتفق هذا التاريخ مع التاريخ المحتمل الذي قام به أبو طالب الحسيني برحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . ووصف أحد المؤرخين اليمنيين المعاصرين ، وهو يحيى بن الحسين " (١٠٣٥ — ١١٠٠ هـ / ١٦٢٤ — ١٦٨٧ م) الوالي جعفر باشا ، بأنه على الرغم من كونه رجل إدارة وسياسة ، فقد كان من المولعين بأمور الثقافة . وكانت له بطانة من العلماء تحيط به . وتم على يده كشف أحد كتب التفسير ونشره . وقام أحد المؤرخين بتأليف كتاب في التاريخ بتشجيع منه .(٥) ولذلك تبدو رواية أبي طالب الحسيني عن مناسبة عثوره على النسخة الأصلية التركية للملفوظات في مكتبة والٍ عثماني له اهتمام بأمور الثقافة رواية مقبولة ، ولها من القرائن ما يبررها ، ولا سيما وأن ظروف التنافس على ولاية اليمن التي ساهم بها جعفر باشا بعد عزله عنها ، والتي استمرت حتى عام ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م ،(٦) قد تكون أجبرته على أن يحل أخيراً مع ما كان بحوزته من الكتب ، في إحدى المدينتين المقدستين مكة أو المدينة ، حيث عثر أبوطالب الحسيني على نسخة المذكرات الأصلية المكتوبة باللغة التركية .

جعفر باشا

(١) : Stewart: op.cit. Preface P. X (٢) Stewart: op.cit. Preface P VI:

(٣) : Stewart: ibid. (٤) Stewart: op.cit. Appedix P10:

(٥) : يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني . تحقيق سعيد عاشور ص ٧٩١ و ٧٩٦ ، ٧٩٧ . وذكر محقق الكتاب أن الكتاب الذي نشره جعفر باشا هو : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " لمؤلفه أبي السعود " . (٦) : يحيى بن الحسين : ص ٧٩٦ و ٨٠٠

المذكرات و... ويظهر أن إغفال المصادر التيمورية الإشارة إلى ملفوظات تيمور ، راجع إلى أن العادة لم تجر في أغلب مؤلفات العصور الوسطى ، أن يشار إلى المصادر التي يستند المؤلف إليها في كتابة مؤلفه إلا نادراً . وقد ينظر في حال الإكثار من الإشارة إلى المصادر على أنه إقلال من قيمة المؤلف . ويورد حافظ آبرو إشارة عابرة إلى أن تيمور لما كلف نظام الدين شامي — كاتب أول ترجمة مطولة عن حياة الفاتح التركي — قد وضع تحت تصرف المؤرخ ، بعض ما يستعين به على كتابة مؤلفه .[1] وليس من المستبعد أن تكون الملفوظات — كما كتبها الكتاب الاويغور بالتركية الجغتائية ، بعد إملائها عليهم من قبل تيمور ، من بين المراجع التي وضعها تيمور بين يدي نظام الدين شامي ، وربما كانت المصدر الوحيد . وقد لا يتعدى تكليف تيمور للمؤرخ شامي بكتابة مؤلف عن حياته ، أكثر من رغبته في أن يرى كتاباً آخر يتحدث عن حياته وأعماله ، محرراً باللغة الفارسية . ويبدو أيضاً ، من عدم اشتمال مؤلف شامي على حوادث العام الأخير من حياة تيمور وهو عام ٨٠٧ هـ ، على الرغم من أن المؤرخ قد أعاد النظر في كتابه أن الفاتح التركي قد انقطع عن كتابة أو إملاء مذكراته ، بسبب تقدمه بالسن وكثرة مشاغله . ولم يعد بإمكان نظام الدين شامي ، الحصول على معلومات لمتابعة الكتابة .

انتحال أجزاء منها

ويظهر مع ذلك ، أن إشارة النسخة الامبراطورية للملفوظات إلى أن تيمور قد تابع كتابة مذكراته ، أو أنه أمر بإضافة ما حدث في لحظات حياته الأخيرة إلى مذكراته ، هي أمر منتحل . وقد أشار المنقح محمد حفظ البخاري إلى أنه قد سمح لنفسه بإجراء تعديلات على نص الملفوظات التي ترجمها أبو طالب الحسيني ،[2] لأن تيمور إذا أفصح عن وجود مذكرات له وطلب إضافة ما حدث في اللحظات الأخيرة من حياته إلى هذه المذكرات لأشار إلى ذلك المؤرخون التيموريون الآخرون ، من أمثال يزدي الذي أورد كثيراً من التفصيلات عن حياة الفاتح التركي . ويبدو من غير المعقول أن يهمل الإشارة إلى مثل هذا الموضوع الهام .

حجج داڤي

ويدافع الماجور داڤي عن صحة نسبة الملفوظات إلى تيمور . ولا يقبل بالفكرة القائلة إن أبا طالب الحسيني قد قام بتأليفها بنفسه ، ثم نسبها إلى تيمور ، ووردت حججه واستدلالاته في الرسالة التي بعث بها إلى وايت ، بتاريخ الرابع والعشرين من تشرين الأول لعام ١٧٧٩م . وقام لانگله بترجمة هذه الرسالة إلى الفرنسية ، وأثبتها في مقدمته لترجمة التنظيمات التي نشرها عام ١٧٨٧ م .[3] واقتبس ستيوارت فقرات مطولة منها ، ضمن مقدمته لترجمة الملفوظات عام ١٨٣٠م .[4] ويقر داڤي في مطلع رسالته المطولة بأنه لا يملك برهاناً تاريخياً على صحة نسبة العمل إلى تيمور . ثم يعرض سلسلة من الاستدلالات التي استمدها من الملفوظات نفسها ، وجد أنها تكفي — في نظره — للتسليم بصحتها[5] . فهو يعلل عدم إشارة يزدي في مؤلفه الضخم إلى الملفوظات ، بعدم وجود إلا نسخة واحدة منها ، ولأن تيمور كان يحرص طيلة حياته على إبقاء أمر هذه الملفوظات سراً لأن الغاية من إعدادها هي أن يطلع عليها أولاده وأحفاده بعد وفاته . وكان هذا الحال سبباً في النسيان والغموض الموقتين اللذين

(١) : حافظ آبرو: ص: ١٦ (٢) Stewart: op. cit. Appendix . P. 10

(٣) Stewart:op.cit.Preface P1-X: (٤) Langlès: op.cit. Préface P. 13-25

(٥) : Langlès: op. cit. Préface P. 13

أحاطا بالمذكرات بعد وفاة تيمور ، ولاسيما في مرحلة الاضطرابات التى أعقبت وفاة الفاتح التركي ، والخلافات التي قامت بين أبنائه وأحفاده .(١) ويتابع داڤي عرض حججه ، فيقول إن الملفوظات على الرغم من أنها تعرض أحداث حياة تيمور كما وردت في المصادر الأخرى، إلا أن قارئ المذكرات يشعر أن كاتبها يمنحه شيئاً لا يجده في المراجع الأخرى ، ويشعر عندما يعرض تيمور الأحداث ويحللها ويبين العوامل الخفية والأسباب الأساسية والبواعث النفسية التي أثرت في عمله ومخططاته ، أنه هو صانع هذه الأحداث ، وهو الذي سجلها ، وعرض من خلال إيراده هذه الأحداث نفسه وعقله .(٢) وينتهي داڤي بعد ذلك إلى القول إننا لا نعرف طبيعة اليد التي وقعت النسخة الوحيدة من الملفوظات بها ، خلال مرحلة الاضطرابات التي أعقبت وفاة تيمور، وما إذا كانت هذه اليد أمينة مخلصة أم عدوة(٣)، حتى حاق بهذه المذكرات ما حاق من نسيان أو إهمال .

وينتقل داڤي بعد ذلك للحديث عن أبي طالب الحسيني . ويرى أن عدم إشارة هذا المترجم إلى أي شيء حول صحة الكتاب الذي عثر عليه في مكتبة جعفر باشا حاكم اليمن، وإن كان يبدو غريباً للوهلة الأولى ، ولكنه في الوقت نفسه عامل هام يدل على صحة الملفوظات. لقد اعتبر أبو طالب أن الملفوظات نفسها تحمل عوامل أصالتها بنفسها ، وأن أحداً من الناس لن يساوره الشك في هذه الناحية ، ولذلك لم يفكر أن يتحدث عن هذا الموضوع .(٤) ولا يقبل داڤي ، في الوقت نفسه ، الإدعاء القائل إن أبا طالب قد كتب المذكرات بنفسه ثم نسبها إلى تيمور ، لأن المؤلفين في الشرق ـ كما يرى ـ لا يعرضون كتبهم للبيع في المكتبات ، ولذلك فإن نجاح وانتشار مؤلفاتهم لا يعتمد على إقبال عامة الناس على شراء هذه المؤلفات ، بقدر اعتماده على كرم الحكام الذين يمنحون المؤلفين جوائز مالية تتناسب مع ما يستحقه جهدهم في إعداد مؤلفاتهم . ولا شك في أن أبا طالب الحسيني إذا كان قادراً على أن يكتب كتاباً عن حياة تيمور ، فإنه ليس من مصلحته أن يدعي أنه قد قام بترجمته . لأن هذا الإدعاء ينطوي على انتقاص لقيمة عمله ولمكانته العلمية ، بين أن يكون مؤلفاً وبين أن يقبل أن يُظهر نفسه بأنه ليس إلا مترجماً ، فضلاً عما يلحق به من خسارة مادية لأن الجائزة المالية التي سيحصل عليها ، ستكون أقل بنسبة العشر في حال كونه مترجماً لكتاب ، عما لو كان مؤلفاً له . كما أنه كان عليه أن يستخدم في الإشارة إلى تيمور صيغة المفرد الغائب، بينما دأب على استعمال صيغة المتكلم المفرد خلال الملفوظات .(٥)

ويرى داڤي أن إقدام محمد بابر ـ وهو أحد أحفاد تيمور من الدرجة الرابعة ـ على كتابة مذكراته "بابرنامه" بنفسه أمراً لافتاً للنظر . لأن تشابه ظروف الحياة والمغامرات ، التي صادفها كل من الحفيد والجد في حياتهما ، والتقلب بين الفرار والتشرد وبين الحكم والسلطان ، إلى أن انتهى الأمر ببابر إلى الجلوس على عرش دلهي ، مؤسس لدولة السلاطين المغول

(١) Stewart: op. cit. Preface P.X, Langles: op. cit. Preface P.16-19
(٢) Stewart: op. cit. Preface. P. IX, Langlès: op. cit. Préface P. 18
(٣) Stewart: op. cit Preface P. X , Langlès: op. cit. Perface P. 19
(٤) Langlès: op. cit. Préface P. 25 (٥) Stewart: ibid.

في الهند عام ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م . وقد ظل كتاب "بابرنامة" في ظلام النسيان والإهمال حتى منتصف عهد حفيده السلطان أكبر (٩٦٣ - ١٠١٣هـ / ١٥٥٦-١٦٠٥م)، عندما تمت ترجمته من التركية الجغتائية إلى الفارسية . ولا يتجاسر أحد من الناس في آسية أو أوربا على الطعن في صحة مذكرات بابر، ولذلك فإنه من غير المقبول به أن يُطعن بصحة مذكرات تيمور، لأنها مرت بظروف النسيان والإهمال نفسها .(١)

ويختم داڤي دفاعه عن أصالة الملفوظات بأنه خلال إقامته في الهند، فإنه قد اجتمع بعدد كبير من العلماء والباحثين الهنود والإيرانيين، وهم في هذا المجال أحق من الناقدين الأوربيين بالحكم في هذا الموضوع، ولم يجد عند أي من هؤلاء العلماء أي شك في صحة نسبة ما اكتشفه أبو طالب الحسيني إلى تيمور . وكانوا يقابلون ملاحظات داڤي وتساؤلاته(٢) حول صحة الملفوظات بشيء كثير من الاستغراب .

موقف محمد حفظ البخاري

ولما كان محمد حفظ البخاري أكثر من تعرض لمعالجة موضوع مذكرات تيمور أهلية للحديث عن أصالة هذه المذكرات، فهو الذي أعاد النظر في الترجمة التي قام بها أبو طالب الحسيني، بعد انجاز هذه الترجمة بوقت قصير . فإن عدم إشارته إلى أية بادرة شك في أن يكون أبو طالب الحسيني مؤلفاً للمذكرات وليس مترجماً لها، هو تسليم منه بصحة نسبة المذكرات إلى تيمور، ولا سيما وأن موقف محمد حفظ البخاري من عمل أبي طالب الحسيني كان موقفاً سلبياً، وادعى بأن أبا طالب لم يحسن الترجمة، وكان بإمكان البخاري أن ينتقد الحسيني، بأنه كان مؤلفاً للمذكرات وليس مترجماً لها . ويتضح أنه لو لم يكن البخاري على يقين من أصالة المذكرات ومن صحة نسبتها إلى تيمور، لما أتعب نفسه بإعادة النظر في مؤلف عادي عن حياة الفاتح التركي، ومقارنته بمؤلف آخر مشهور تحدث عن الموضوع نفسه، وهو تاريخ ظفرنامة الذي ألفه شرف الدين يزدي .

ثقافة تيمور الدينية

هذا، وقد نشأ تيمور في أسرة متمسكة بتعاليم الدين، وتصور الملفوظات ترغاي، والد تيمور، رجلاً زاهداً آثر الانقطاع عن مباهج الدنيا إلى العبادة .(٣) وكان يحض ابنه على أداء واجباته الدينية .(٤) وتذكر الملفوظات أن بعض مبادئ العلوم الدينية كانت من جملة المواد التي درسها تيمور، عندما كان تلميذاً في المدرسة . ويفهم من حوار دار بينه وبين معلمه أنه كان يحفظ بعض الأحاديث النبوية، ويعرف كيفية أداء الصلاة، منذ أن كان في السابعة من العمر .(٥) ويؤكد حافظ آبرو أن تيمور قد قرأ في أخريات أيامه القرآن، واستمع إلى شرح "صحيح البخاري" على يد أحد علماء الحديث في جلسات متتالية في قصره بسمرقند .(٦) ويظهر من الملفوظات أنه كان يحفظ العديد من آيات القرآن، ويستشهد بها من حين إلى آخر، خلال أحاديثه، وعندما يعترضه أمر من الأمور .

(١) Langlès:op.cit.Préface P. 22-24 (٢) Langlès:op.cit.Préface P.25

(٣): Stewart;op.cit. P. 29 (٤) Stewart:op.cit.P.32

(٥): Stewart:op. cit. P. 21، وكان المعلم قد سأل تلاميذه عن أفضل وضع في القعود. وبعد أن عجز التلاميذ عن إعطاء الجواب الصحيح، أجاب تيمور عند ما جاء دوره بالكلام: إن أفضل وضع في القعود هو القعود على الركبتين لأن الرسول قال: "إذا كنت في الصلاة فاجلس على ركبتيك" .

(٦): حافظ آبرو : ص ٢٠٠ و ٢٠٢

ويُلاحظ على تيمور من خلال ملفوظاته، أنه كان يحرص على أن يظهر بمظهر الرجل المتدين. فإذا واجهته صعوبة أوكل أمره إلى الله ليعينه على تخطيها،[١] وإذا ألمّ به مرض دعى الله أن يشفيه،[٢] وكان يحمل معه دائماً نسخة من المصحف للتبرك بها.[٣] (تظاهره بالتدين)
ويستفتح القرآن. ويتلو بعض الآيات والسور قبل أن يباشر العمليات العسكرية. وقال عنه ابن أياس إنه كان لا يُشاهد إلا والسبّحة في يده، ولا يفتأ في مجلسه يكثر من ذكر الله والاستغفار.[٤] وعفا عن أحد الأسرى الأتراك عقب معركة انقرة، لأنه كان يتقن قراءة القرآن.[٥] ويصفه يزدي بعمق الإيمان. ويشهد بأنه كان يحرص على أداء واجباته الدينية.[٦] ويشير في مواضع مختلفة إلى أن تيمور كان يؤدي الصلاة، ويقوم الليل ويصوم رمضان، ويحضر صلاة العيد ويدفع زكاة الفطر.[٧] (أداؤه الواجبات الدينية) وذكر ابن الشحنة أنه صلى المغرب وكتفه إلى كتف تيمور، عندما قدم إلى حلب عام ٨٠٣ هـ.[٨] كما أشار ابن عربشاه إلى أن أول عمل قام به تيمور بعد دخوله دمشق، كان أداؤه صلاة الجمعة في مسجد بني أمية.[٩] وكان دأبه زيارة أضرحة الأولياء والصالحين، ورجال الدين للتبرك وطلب المدد[١٠] والتوفيق. وبالمقابل فإن روايات أخرى تذهب إلى أعطاء تيمور في هذه الناحية، صورة مختلفة تماماً. فوصمه السلطان العثماني بايزيد الأول بالكفر،[١١] وقال عنه زعيم قبيلة الغنمة السوداء التركمانية قرا يوسف "إنه مشرك"[١٢] (طعون بصحة تدينه)
وكذلك فإن فريقاً من المؤرخين يستنتجون ضعف إيمان تيمور من تقديمه تطبيق شريعة الياسا على الشريعة الإسلامية، ثم لوجود جماعات من بين أتباعه يقومون بأعمال لا يقوم بها إلا الكفار والمجوس، لأنهم يأكلون الميتة ويشربون الدم المسفوح ولا يفرقون بين مخنوق ومذبوح.[١٣] ونضعف قيمة هذه الأقوال لكون أصحابها من أعداء تيمور،[١٤] أو من الذين اندفعوا مع عواطفهم على إثر ما قامت به جيوشه من أعمال في غاراتها على مدن بلاد الشام والعراق وغيرها.
وترد أقوال أخرى حول عقيدة تيمور الدينية، تفيد بأن تيمور كان ذا ميول شيعية. فقد صدر عنه من الأقوال والأعمال ما أكّد لبعض رجال الدين في بلاد الشام، أنه كان يعتنق هذا المذهب. (شواهد على تشيعه) فقد ظهر خلال المناقشات التي دارت بينه وبين علماء حلب انحيازه إلى علي بن أبي طالب، في النزاع الذي نشب بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، حتى قال عنه أحد الحاضرين إنه شيعي. وغضب تيمور على أحد رجال الدين في هذه المناقشات لأنه ساوى بين علي ومعاوية عندما قال بأن كليهما كان مجتهداً، وصاح قائلاً: "علي على حق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق".[١٥]

---

(١): Stewart: op. cit. P.108,128 (٢): Stewart: op.. cit. P. 71
(٣) Stewart: op.cit. P.135 (٤): ابن أياس ج ١ ص ٣٣١ (٥): العسقلاني: ج ٢ ص ٢٢٩
(٦): يزدي: ج ٢ ص ١٤٤ (٧): يزدي: ج ١ ص ٤٤٨ و ٥٦٢ و ٥٧٧ (٨): ابن الشحنة: ص ٢٠٨ — ٢٠٩. (٩): ابن عربشاه: ص ١٠٤ (١٠): يزدي: ج ١ ص ٥٠٤ و ٤٥٩ و ٤٧٠ حيث أشار إلى زيارة تيمور لضريح اثنين من الأنبياء في ضواحي الموصل عام ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م)، هما: النبي يونس والنبي جورجيس، كما أشار في مكان آخر (ج ٢ ص ٢٣٨) إلى زيارته لضريح زوجتي الرسول أم سلمة وأم حبيبة وضريح بلال الحبشي بظاهر دمشق عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م). وذكر ابن عربشاه أن تيمور أقام قباباً على هذه القبور (ابن عربشاه: ص ١٠٧).
(١١): فريدون: ص ١١٨ (١٢): فريدون: ص ١١١ (١٣): ابن عربشاه: ص ٢٠٢ و ٢٣٠ والعسقلاني: ج ٢ ص ٣٠٢ السخاوي: ج ٣ ص ٤٩ (١٤): Cahun: op. cit. P. 940
(١٥): ابن الشحنة: ٢١٦ — ٢١٧

وأعلن في دمشق نقمته على يزيد بن معاوية، لأنه أقدم على قتل الحسين، ووصف عمله بأنه كفر وحرام.(١) واتخذ من هذا العمل مبرراً للتنكيل بأهل المدينة على ماأبداه أجدادهم من تأييد لمعاوية وابنه ضد علي وابنه الحسين.(٢) وعفا في مناسبة أخرى عن أحد رجال الدين، وكان قد أظهر له روح العداء، لأن اسمه كان علياً.(٣) هذا وقد أظهر تيمور في عدة مواقع من ملفوظاته، احتراماً متميزاً لآل البيت. فهو يعتقد أن من بين الأسباب التي أدت إلى نجاحه في الوصول إلى حكم ماوراء النهر، بعد توفيق الله وبركة الإسلام، فضل آل البيت.(٤) ولذلك فقد اعتبر أن من واجباته الأولى بعد طاعة الله والرسول، إفاضة الاحترام لآل البيت.(٥) ويقول يزدي إن عدداً من أحفاد آل البيت كانوا يعيشون في عصر تيمور في مدينة "ترمذ"، ولذلك كان تيمور يتردد على هذه المدينة، ويجتمع إلى هؤلاء لطلب بركتهم.(٦) ومنحت تنظيمات تيمور آل البيت العديد من الامتيازات المعنوية والمادية، فكانوا يعتبرون على رأس الطبقة الاجتماعية الأولى، والعنصر المتميز في حاشية تيمور.(٧) وكانت لهم حصانتهم التي تحول دون أن يستطيع أحد من الناس أن يوجه إليهم الأذى أو يفرض عليهم ضريبة،(٨) إضافة إلى ماكان لهم من حق الإشراف على الإدارة الدينية في الدولة، وما يتبعها من قضاء وأوقاف.(٩)

ويبدو أن من أسباب تظاهر تيمور بالميل إلى مذهب التشيع، وإحاطته أحفاد آل البيت بهذه الهالة من الاحترام، ما يرجع إلى اعتقاده بأن نسبه يرقى إلى علي بن أبي طالب. وقد ظهر ذلك صريحاً على شاهدة قبره في سمرقند.(١٠) وأشار إلى ذلك عدد من المؤرخين التيموريين مثل سمرقندي ميرخوند.(١١) وماورد على شاهدة قبر تيمور يمثل أيضاً رأي الفاتح التركي قبل وفاته، فقد أشارت الملفوظات إلى أن تيمور استفتح القرآن مرة، فخرجت له الآية: "إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهّركم تطهيراً". وقد فُسر ذلك لتيمور بأنه يعني أنه ينتمي إلى آل البيت.(١٢) ويرد سبب آخر يدفع تيمور إلى إجلال آل البيت، وإظهار نوع من العطف نحو المذهب الشيعي. فقد ذكر المقريزي أن تعاليم شريعة الياسا – التي كان تيمور يجلها – تحتم أن يُعامل آل البيت من أبناء علي بن أبي طالب معاملة حسنة. ومنعت أن يُفرض على أي منهم مؤونة أو كلفة.(١٣)

(١): ابن عربشاه: ص ١٠٥ (٢): يزدي: ج ٢ ص ٤٤٢
(٣): Stewart;op. cit. P. 54 (٤): Langlès: op. cit. P. 1
(٥): Stewart: op. cit. P. 5 (٦): يزدي: ج ٢ ص ١٤٠
(٧): Langlès:op.cit. P. 30 (٨): Stewart: op. cit. P. 6
(٩): Langlès:op. cit. P. 13-14 (١٠): Blochet:op. cit. P. 61
(١١) سمرقندي: ص ١٢٠ وميرخوند: ج ٥ ص ٣–٤ (١٢): Stewart;op. cit. P. 127
ويذكر تيمور في مكان آخر من الملفوظات أن أحد رجال الدين قد ذكر له عندما كان لايزال في عداد جيش الأمير قازغن، ويريد الإغارة على هيرات عام ٧٥٧ هـ: "إنك مدعوم من أمير المؤمنين علي الذي أمر أحد أتباعه لينتظرك. إنك لن تعرفه أول الأمر، ولكن سوف تتعرف عليه في النهاية" انظر: Stewart:op.cit. P. 56
(١٣): المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٢٠

شواهد على أن... ضد التشيـ...

ومن ناحية أخرى، فقد بدر من تيمور أعمال تفصح عن معارضته مذهب التشيع إذ لمّا أغار على خراسان عام ٧٨٢ هـ (١٣٨٠م) . واستولى على "كيلات" التي كان يحكمها أحد الحكام المتشيعين هو "علي بيك سربداري" أخذ تيمور يحض هذا الحاكم على اعتناق المذهب السني ، فأورد له بعض الأحاديث النبوية التي تحرم الخروج على إجماع المسلمين. وبيّن له أن من يترك سنة الرسول لاينال شفاعته .[1] وكذلك فإن تيمور عندما ظفر بالقضاء على ثورة سكان مدينة سبزوار الشيعة عام ٧٨٥ هـ (١٣٨٣م) ، انتقم منهم انتقاماً قاسياً ، فأمر بخلط ألفين من سكان المدينة بكميات من الآجر والطين ، وصنع من الخليط برجاً .[2] وكان من أبرز أعماله في هذا المجال، قتاله في عام ٧٩٤ هـ (١٣٩٢) إحدى الجماعات الشيعية التي كانت تقيم في منطقة تقع جنوب شرق بحر قزوين ، وتتخذ مدينتي "ساري" و "آمل" مقرّاً لها . ويقول المؤرخون التيموريون إن تيمورقد شن على هؤلاء حرباً شديدة . وقتل زعيمهم مع أهله . وطلب إلى هذه الجماعة نبذ عقائدها الفاسدة والعودة إلى مذهب أهل السنة والجماعة. وأجبرهم على تعليم أبنائهم تعليماً شرعياً (سنياً) .[3]

دلائل على ميل... للمذهب السـ...

هذا ودافع تيمور في بعض المواقف عن اعتناقه المذهب السني . فأرسل عام ٨٠٢ هـ (١٤٠٠م) إلى السلطان العثماني بايزيد ، يرد على اتهامه له بالكفر . ويعلمه "بأنه على مذهب أهل السنة والجماعة . وأن ذلك واضح في مسلكه أكثر من وضوح الشمس".[4] ويعلق براون على عبارة تيمور هذه ، بأنها تحمل معنى الاعتزاز باعتناق المذهب السني .[5] وكان أحد فقهاء الشافعية ، وهو "عبدالجبار بن النعمان" أحد المقربين من تيمور . وقد رافقه في كثير من أسفاره وحملاته . وهو الذي تولى الترجمة في المناقشات التي دارت بين تيمور وبين رجال الدين في حلب ودمشق .[6] وليس من المعقول أن يقبل تيمور الذي عرف بحرصه على الإشراف المباشر ومداخلاته في كل كبيرة وصغيرة، في الشؤون التي تتعلق بأسرته الخاصة ، وأسر أولاده وأحفاده ، أن يقبل بتسمية اثنين من أحفاده "أبي بكر وعمر" وهما ولدا ميرانشاه — ، أو أن يسمي ثاني أولاده باسم "عمر شيخ" فيما إذا كان يعتنق مذهب التشيع .

ويشير بعض مؤرخي الشام، إلى أن تيمور قد بدا ميالاً إلى المذهب السني في بعض الأعمال ، التي قام بها في دمشق ، على الرغم من الرأي الذي كان سائداً في ذلك الوقت عن تشيعه . فيقول ابن عربشاه إن تيمور قد "قدم الأحناف على الشافعية".[7] وأيد هذا الموقف

(١) : شامي : ص٨٥ (٢) : يزدي : ج ١ص٢٦٢_٢٦٣ (٣) : شامي : ص١٢٨ ويزدي : ج ١ص ٤١٣ و ٤١٤ ويقول بعض الباحثين إن الجماعة التي قاتلها تيمور هي فرقة الحروفية وهي طائفة من الإسماعيلية وتقوم عقيدتهم على القول أن الكون أبدي الحركة، وحركته هي علة الظواهر والتغيرات الموجودة فيه، وأول هذه التغيرات ظهور آدم وآخرها يوم الحساب . والإنسان هو على صورة الإله، ويتميز بالكلام الذي يكتب بثمانية وعشرين حرفاً. وللحروف قوة سحرية وقيمة رياضية ، يقيمون عليها بعض الحسابات . انظر : Bouvat:op.cit.P.48, Browne: T.III P.190, Bausani: Huruffiyya(E.I.T.III P.620-622).P. 620

(٤) : فريدون : ص١٢١ (٥) : Browne:op. cit. T.III P.263

(٦) : ابن خلدون : التعريف ص ٣٧٠ . (٧) : ابن عربشاه : ص ١٠٤

مؤرخ دمشقي آخر معاصر لوجود تيمور في دمشق ، هو "ابن قاضي شهبة" فقال : إن تيمور قد أسند إلى قاضي المذهب الحنفي في دمشق ، وهو "محمود بن العز الحنفي" ، خمس وظائف في وقت واحد، لأنه كان "لا يعظم إلا الحنفية". [1] وقد سُرّ تيمور عندما علم من أحد رجال الدين في دمشق، بأن هذا الرجل يرجع في نسبه إلى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، فخاطبه قائلاً : "لولا أنني ظاهر العُذر لحملتك على عاتقي". [2] ولو كان تيمور يعتنق مذهب التشيع ، لما خاطبه أحد رجال الدين في دمشق خلال المناقشات بقوله : "إن من بين جنودك من ابتدع بدعاً في الدين ، وأن بعضهم شيعة". [3] ويفهم من هذه العبارة أن مذهب التشيع كان مذهب بعض جند تيمور ، لا مذهب تيمور نفسه . فقد أشير إلى وجود فرق خراسانية في جيش تيمور، وكانت هذه الفرق تعتنق المذهب الشيعي ، وكان رجال الدين في دمشق سيتحاشون التعرض لمثل هذا الموضوع أمام تيمور ، إذا كانوا يعتقدون أن تيمور كان شيعياً .

هذا ويشير بعض جغرافيي القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، إلى أن المذهب السائد في ماوراء النهر ، في ذلك الوقت ، كان المذهب السني ، وأن غالبية السكان في تلك البلاد هم من الأحناف ويليهم الشافعية . [4] وتذهب الأبحاث الحديثة إلى مثل ذلك . ويؤكد "كاهون" "أن عشائر ماوراء النهر في عصر تيمور كانت تعتنق الإسلام على المذهب السني". [5] وتأتي عبارة ابن خلدون الذي اجتمع بتيمور مرات عديدة في دمشق ، واستطاع أن يكوّن عن الفاتح التركي فكرة واضحة من خلال المناقشات والأحاديث التي دارت بينهما ، لتضع حكماً حاسماً في هذه المسألة . فقد ذكر هو المؤرخ التونسي عن تيمور "والناس ينسبونه إلى العلم وآخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرونه من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر ، وليس من ذلك كله في شيء". [6]

فإذا كان تيمور يدين بالإسلام على المذهب السني، شأنه في ذلك شأن غالبية الأتراك . فإن هذا لايمنع من أن يكون في قرارة نفسه رجلاً غير متدين ، على الرغم من حرصه على أن يظهر على العكس من ذلك، رجلاً متمسكا بالدين . ويظل إخلاصه لعقيدته الدينية موضع شك كبير . وقد أعلمه السلطان العثماني بايزيد الأول ، بعد أن وقع أسيراً في يده ، بأنه يشك في إيمانه . [7] وتدل مناقشاته التي أجراها مع رجال الدين في حلب ودمشق ، والتي

---

(1) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ ب ، أما الوظائف فهي قاضي القضاة ، وخطابة الجامع ، ومشيخة الشيوخ ، والأنظار المضافة إلى القضاء ، ونظر الجامع . (2) : ابن عربشاه : ص ١٠٥

(3) : ابن عربشاه : نفسه ، هذا وقد أشارت إحدى الفقرات التي ترجمها ستيوارت عن النسخة الإمبراطورية ، وألحقها بترجمته لملفوظات تيمور، إلى أن تيمور قد أمر أولاده وأحفاده وهو على فراش الموت بالعمل على نشر مذهب أهل السنة والجماعة ، ومحاربة المذاهب الفاسدة : انظر Stewart:op.cit.App.P. 11 . وإذا جاءت الاعتراضات على أنه من غير المعقول أن يأمر تيمور وهو في تلك الحال بتدوين هذا إلى ملفوظاته، ولكن هذا لايمنع أن يكون قد ذكر ذلك أمام الملتفين حوله آنذاك . (4) : زكريا القزويني : ٥٣٨ ومستوفي قزويني ص ٢٤٦

(5) : Cahun:op. cit. P. 928 (6) : ابن خلدون : التعريف ... ص ٣٨٢

(7) : ابن عربشاه : ص ١٤٢

اتخذ فيها موقفاً يدل على ميله إلى المذهب الشيعي ، على عدم احتفاله بعقيدته الدينية ، وتشير إلى رغبته في استغلال العقائد الدينية لتحقيق مآرب سياسية وعسكرية ، وتؤكد أن تيمور كان يفهم الإسلام على طريقته الخاصة ، وأن إيمانه كان مشوباً بالكثير من التراخي والتساهل واللامبالاة .(١)

ضعف تدينه ونتائجه

لقد أدى ضعف تدين تيمور وعدم احتفاله بعقيدته الدينية ، ونزعته لاستغلال الدين لتحقيق مآرب سياسية وعسكرية ،(٢) إلى ما نشاهد من تضارب في آراء الباحثين في الوقت الحاضر حول هذه المسألة . وتتفاوت هذه الآراء بين اعتبار تيمور تقياً مخلصاً ومسلماً صادقاً ،(٣) وبين اعتباره مسلماً سيء الإسلام ، ليس للدين عنده إلا الدرجة الثانية .(٤) وبينما يراه بعض الباحثين من غلاة الشيعة ،(٥) يراه بعضهم الآخر بسبب قتاله لفرقة الحروفيين في منطقة مازندران (جنوب شرق بحر قزوين) ، الموطد الصارم للمذهب السني .(٦)

(١): Prawdin: op. cit. P. 194, Sykes: op. cit. T. II P. 134

(٢): ابن الشحنة : ص٢١٢ وقد ذكر أن تيمور يتخذ من مناقشة رجال الدين سبيلاً لقتلهم أو تعذيبهم

(٣): Cahun: op. cit. P. 940

(٤): Grousset· op. cit. P. 495, Barthold: Four Studies P. 58

(٥): الغزي : ج٣ص٢٠٣

(٦): فيشيل المصدر السابق ص١٨٨

الفصـــل الرابـــع

منطلقـات تيمـور السيـاسـية ومقارنتـه بجنكـيز خان وتقويمـه

الولاء المحلي - الولاء لقبيلة برلاس ، للأتراك ، للتراث الجنكيزي ، لما وراء النهر - المكيافيللية : استغلال الدين في بغداد ، في الشام - القسوة : مبرراتها الغيبية ، الجهاد ، تقصير الحكام الآخرين ، دوافعها النفسية : العاهة ، الغرور ، محاولات التنصل ، المبالغة في تنفيذ الأوامر - عالمية السلطة - التفوق على الحكام الآخرين - أهمية المقارنة بجنكيز خان - تيمور أوسع شهرة - تيمور مقلد لجنكيز خان - التشابه في النشأة والحياة الأولى - الاختلاف في شكل السلطة - في التكوين النفسي والثقافة والدين - الموازنة في الإدارة ووراثة العرش - في التخطيط العسكري - في مدى الفتوح - في القتل العـام والتدمير الشامل - في استمرار الدولة - تقويم تيمور .

انطلق تيمور في سياسته الداخلية والخارجية من عدة مبادئ سياسية أساسية تتفق مع سماته النفسية ومع ثقافته ثم مع التقاليد المتوارثة التي كانت سائدة في مجتمع الأتـــراك الجغتائيين في عصره .

الولاء المحلي : الولاء لقبيلة

وكان الشعور بالولاء المحلي في أول هذه المنطلقات ، ويأتي حبه لقبيلته الخاصـة "قبيلة برلاس" أول أُطر هذا الولاء . ويظهر حبه لقبيلته في إعجابه بأبنائها ، وإشادتـه ببطولاتهم وشجاعتهم . فهو يشير في الملفوظات بمزيد من الاعتزاز والفخر ، إلى عمل أحـــد برلاس أفراد القبيلة ويدعى "تشوغام برلاس" ، عندما وقف يحمي بمفرده انسحاب قبيلة برلاس عام ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) عبر جيحون إلى خراسان ، حيث استطاع أن يوقف تقدم جيش الجـتا المندفع وراء القبيلة نحو النهر ، وصور عمله عندما خرّ قتيلاً على الأرض ، على أنه عمل من أعمال البطولة الفذة .(١) وعلى الرغم مما كان بين تيمور وحاجي برلاس زعيم القبيلة ، من عـــداء وتنافس ، فإن تيمور سعى فيما بعد ، بعد احتلال خراسان عام ٧٨٢هـ (١٣٨١م) وبدافع العصبية والولاء للقبيلة ، إلى تتبع قتلة حاجي برلاس الذي قُتل هناك عام ٧٦٣ هـ (١٣٦٢م) والانتقام منهم .(٢)

للأتراك

ويلي الولاء لقبيلة برلاس عند تيمور الولاء للأتراك من القبائل التركية الأخرى بشكل عام . ويظهر هذا الولاء بتمييزهم عن التاجيك ، فكان يرى أن الشجاعة والفضائل العسكرية الأخرى مقصورة على الأتراك وحدهم (٣) ، ولذلك جاء ترتيب القواد العسكريين وهم فـي غالبيتهم من العنصر التركي ، قبل الوزراء وبقية الموظفين لأن غالبيتهم من التاجيك فـي حاشية تيمور . فقد حل هؤلاء في المرتبة الرابعة ، وكان ترتيب أولئك في المرتبة السابعة .(٤) وقابل الأتراك حب تيمور لهم وإعجابه بهم بالاحترام والتقدير ، وقد بلغ ذلك بهم حــداً ،

(١) : Stewart: op. cit. P. 55
(٢) : Stewart: ibid.
(٣) : Barthold: Ulugh Beg P.24
(٤) : Langlès: op. cit. P. 33 - 35

لو ادعى فيه بالنبوة والألوهية لآمنوا به —على حد قول ابن عربشاه—.(١) ولا يزال الناس في تلك البلاد إلى اليوم ، يظهرون الاحترام لذكرى تيمور .(٢)

ولاشك في أن شعور تيمور بالولاء للعنصر التركي ، بالإضافة إلى أنه ينسجم مع خصائص الحياة البدوية ، فإنه يحمل في طياته شعور الإجلال والاحترام للعادات والتقاليد المتوارثة عن الأجداد . وقد ظهر ذلك عند تيمور في احترامه لشريعة الياسا ، هذا الاحترام الذي تجلى في تطبيقها في مجالات عديدة من حياة المجتمع التيموري ، ثم في إقدام تيمور خلال مرحلة طويلة من حكمه ، تلت وصوله إلى منصب السلطة العليا في ماوراء النهر، على تنصيب أحد أحفاد جنكيزخان خاناً . وعلى الرغم من أن الخان الجنكيزي لم يكن يتمتع بأية سلطة حقيقية ، فإن إقدام تيمور على هذا العمل يدل بشكل واضح على مدى مايكنه من الاحترام لما انحدر إليه من التراث الجنكيزي .

للتراث الجنكيزي

ومن مظاهر الولاء المحلي عند تيمور ، حبه الشديد لبلاده "ماوراء النهر" التي سماها كلافيجو "وطن تيمور" .(٣) وكان هدف تيمور عندما كان شاباً لايتعدى أن يحرر بلاده من حكم محتليها (الجتا) .(٤) وظهر أنه لايهمه في سبيل الوصول إلى تلك الغاية —عندما أغارت جيوش تغلق تيمور خان عام ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١م) على ماوراء النهر— أن تتقدم جيوش الأعداء لاحتلال خراسان ، وتترك ماوراء النهر ، لأن خراسان بلد غريب وليست لتيمور علاقة بها ولا بسكانها .(٥)

لما وراء النهر

وكان من أهداف تيمور الرئيسية بعد وصوله إلى الحكم أن يجعل بلاده مركزاً للعالم الإسلامي فكان يحلم بنقل مركز الخلافة إلى سمرقند .(٦) وقد اهتم تيمور بعاصمته ، وكان يسميها "دار الملك" .(٧) ويصفها بأنها زهرة على جبين الخلد .(٨) ودفعه حبه لها إلى نقل العلماء والفنانين وأرباب الحرف بالإكراه ، وحمل إليها الكنوز والنفائس التي استولى عليها من حملاته على بغداد ودمشق ، وشاد أبنية ضخمة استعمل فيها الأعمدة وبقايا الأبنية التي هدمها في دلهي . وأراد عن طريق تسمية ضواحي العاصمة بأسماء بعض المدن الرئيسية في العالم الإسلامي ، كدمشق وبغداد ومصر (القاهرة) ، أن يثبت تفوق العاصمة سمرقند على جميع هذه المدن .(٩)

ولتيمور منطلق سياسي آخر يلخصه القول القائل : "إن الغاية تبرر الوسيلة". وقد لفت ذلك المنطلق نظر عدد من الباحثين في الوقت الحاضر ، وعلق بعضهم على هذا بأن آسية بسبب أعمال تيمور قد سبقت أوربا في تطبيق هذا المبدأ .(١٠) ويتهم تيمور بأنه

المكيافيللية

(١) : ابن عربشاه : ص ١٣٢١ (٢) : الغزي : ص ٢٠٧ من ج ٣ (٣) : La Strange;op. cit
Introd. P. 12 (٤) Stewart: op. cit. P. 108 (٥) : Stewart: op.
(٦) : cit. P. 57,98 (٧) Cahun:op. cit. P. 959 : شامي : ص ٩٤
(٨) : يزدي : ج ١ ص ٥٦٧ (٩) : Barthold: Four Studies P. 60
(١٠) : العزاوي : تاريخ العراق ج ٢ ص ٢٦٧ و Grousset: op. cit. P. 492
و Cahun: op. cit.P. 933

لم يتورع عن استخدام الغش والخيانة والغدر ليحقق أغراضه .[1] فيشير في الملفوظات إلى عدد من هذه الحالات التي أقدم بها على ارتكاب مثل هذه الأعمال . فيقول إن نفسه حدثته عام ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) ليستغل الأحوال الصعبة التي كان يمر بها الملك حسين كرت "حاكم هيرات" ليستأثر بحكم المدينة لنفسه . وكان الملك حسين قد قدم إلى سمرقند لتقديم خضوعه للأمير قازغن حاكم ماوراء النهر في ذلك الوقت . وقامت على الملك حسين في عاصمته هيرات ثورة . ولذلك كلف تيمور ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، بمرافقة الملك للقضاء على الثورة وإعادته إلى العرش . ويقول تيمور إنه لم يمنعه من تحقيق مطامعه في ذلك الوقت ، سوى عدم اطمئنانه إلى إخلاص القوات التي كانت ترافقه .[2]

ولما طُلب من تيمور في مناسبة ثانية بعد عامين ، القضاء على ثورة نشبت في خوارزم ، زيّن تيمور للأمير قازغن ، عندما أدرك صعوبة المهمة ، أن يرسل ابنه عبدالله، متذرعا بأن هذا الأمير كان توّاقا لأن يقوم بعمل بطولي مجيد ، وكان تيمور قد قرر بينه وبين نفسه كما ذكر في ملفوظاته "بعد التروي وجدت أنه من الأفضل أن تُعطى القيادة لشخص آخر قد يهزمه الخوارزميون ، وبعد ذلك أقوم — أنا — بدخول المنطقة واحتلالها ".[3]

ويسمح تيمور لنفسه — تطبيقًا لقاعدة "الغاية تبرر الوسيلة" أن يستدعي في بعض الأوقات أعداء البلاد الخارجيين،[4] للتخلص من منافسيه السياسيين في الداخل، من أبناء بلده. فلم يتوان عن الكتابة إلى الخان الجغتائي الشرقي في مغولستان تغلق تيمورخان عام ٧٦٣هـ/١٣٦٢م، عندما لم يتمكن من التفاهم مع الأمير حسين على حكم البلاد . وطلب تيمور من تغلق تيمور خان القدوم إلى ماوراء النهر ، وسأله أن يعينه حاكمًا على تلك البلاد . ولبى الخان طلب تيمور ، وقدم على رأس جيش كبير من الجتا وعاث فسادًا في البلاد ، وأوقع الرعب في قلوب السكان ، ودفع العديد من قبائل الأتراك الجغتائيين الى الفرار إلى خراسان . وكانت قبيلة برلاس (قبيلة تيمور) من القبائل التي فرت إلى هناك .[5] ولم يكتف تيمور بذلك بل سار يرافق جيش المغول (الجتا) أعداء البلاد ، في اجتياحهم لها من الشمال إلى الجنوب، وهم ينزلون الضربات الموجعة في ظهور قبائل الأتراك المتراجعة من أمامهم . ويعلق تيمور على ماقام به قائلا : "وعدت إلى الله أشكره لأنه أرشدني إلى مايجب عمله .. إن جميع أعدائي قد نالوا عقابهم ".[6] وكتب تيمور في مناسبة أخرى في مذكراته في إثر تجدد الخلاف بينه وبين الأمير حسين عام ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م يقول : "وعندئذ قررت أن أترك جيش الجتا يدخل البلاد ".[7]

لقد دفعت "السياسة المكيافيللية" تيمور لأن يستغل الدين لتحقيق أهدافه السياسية والعسكرية . وأراد من وراء مظاهر التدين التي لف نفسه بها، التماس دافع

(1) : Prawdin: op. cit. P. 253
(2) : Stewart: op. cit. P. 38
(3) : Stewart: op. cit. P. 40
(4) : Langlès: op. cit. P. 196
(5) : Stewart: op. cit. P. 54
(6) : Stewart: op. cit. P. 57
(7) : Stewart: op. cit. P. 119

ديني لأعماله الداخلية وحروبه الخارجية .(١) فقد صوره يزدي بأنه الحاكم المهيأ لقتال الكفار على مختلف أنواعهم وأجناسهم .(٢) وظهر استغلاله العواطف الدينية بشكل وضيع — على حد تعبير بارتولد — عندما ظهر في بلاد الشام بمظهر المتشيع المنتقم لما أصاب علي بن أبي طالب وأولاده ، على يد معاوية وابنه يزيد ، كما اتخذ موقف السني المتحمس لأهل السنة والجماعة عندما قاتل فرقة الحروفية " الشيعية في مازندران .(٣) وخطة تيمور في هذا المجال ، تقوم على اتخاذ الموقف المعارض لموقف غالبية السكان . وكان هدفه من ذلك كما لاحظ ابن الشحنة تبرير أعمال التنكيل التي يعتزم إنزالها بالسكان .(٤)

استغلال الدين في بغداد

وقد استطاع أن يستغل الصراع بين السنة والشيعة في ذلك الوقت ، إلى أقصى درجات الاستغلال ، لتأمين مصالحه الخاصة العسكرية والسياسية والادارية . فلما قدم إلى بغداد عام ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) ، عيّن على حكم المدينة التي كانت غالبية سكانها من المذهب السني حاكماً شيعياً هو " الخواجا مسعود السبزواري " ، وكان هذا أحد أفراد الأسرة الحاكمة الشيعية في " دولة السربداريين " ، في مدينة " سبزوار " في خراسان .(٥) وكان تيمور عندما احتل سبزوار عام ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) قد عمل جاهداً لتحويل حاكم المدينة " علي المؤيد السربداري " ، (وهو عم الخواجا مسعود السبزواري) إلى المذهب السني .(٦) ويعلق " اوبان " (Aubin) على تعيين حاكم شيعي على بغداد في ذلك العام ، بأنه يجب الاحتراس من استنتاج أية دلالة ، فيما يتعلق بعقيدة تيمور الدينية من هذا التعيين ، لأنه من المؤكد أن تيمور كان يفضل المذهب السني على أي مذهب آخر . ولا يتعدى الأمر أكثر من رغبة الفاتح التركي بتعيين حاكم يطمئن إلى إخلاصه .(٧) لأنه سوف يكون من المتعذر ، في مثل هذه الحال ، أن ينجح حاكم في محاولة الانفصال عن السلطة المركزية التيمورية في مدينة يختلف مع أغلب سكانها بالمعتقد الديني . ولما قدم تيمور إلى دمشق عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) اتبع السياسة نفسها ، ووجد في الفرق الخراسانية في جيشه خير من يعتمد عليه في التنكيل بالمدينة وبسكانها . ويشير كل من يزدي وابن عربشاه وابن قاضي شهبة إلى أن ما حل بالمسجد الجامع في دمشق (مسجد بني أمية) من هدم وإحراق ، إنما كان بفعل هؤلاء الجند .(٨) وبلغ خوف بعض سكان دمشق من تنكيل الفرق الخراسانية حداً ، دفع أحد رجال الدين في المدينة إلى مخاطبة تيمور في هذا الأمر ، وختم الرجل التماسه بالقول ، إنه يخشى على نفسه أن يصل كلامه إلى أحد أتباع الفاتح التركي المتشيعين فيعملون على قتله .(٩) وانطلاقاً من المبادئ السياسية نفسها فقد رافق تيمور في حملته على آسية الصغرى — كما أشار إلى ذلك في الملفوظات — بعض رجال الدين من النجف وكربلاء .(١٠)

في دمشق

---

(١) : La Grande Encyclopedie. Paris 1976 T. 19 P. 57

هذا وقد فطن أحد الشعراء الدمشقيين إلى نزعة تيمور لاستغلال الدين لتحقيق مآربه فقال : (ابن اياس : ج ١ ص ٣٢١)

قد بُلينا بأمير ظلم الناس وسبّح | فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

(٢) : يزدي : ج ٢ ص ١٦٤ (٣) : Barthold: op. cit. P. 59 (٤) : ابن الشحنة : ص ٢١٢ (٥) : يزدي : ج ١ ص ٤٦٩ (٦) : شامي : ص ٨٥ (٧) : Aubin: Tamerlan à Bagdad (Arabic Revue d'Études Arabes 1962 P.P.303-309) P.

(٨) : يزدي : ج ٢ ص ٤٢١ وابن عربشاه : ص ١١٢ وابن قاضي شهبة : ورقة ٢٠٥ ب

(٩) : ابن عربشاه : ص ١٠٦ (١٠) : Stewart: op. cit. P. 9

ويعتبر اعتماد القسوة والقيام بأعمال التدمير والتخريب وقتل آلاف السكان ،أحد منطلقات تيمور السياسية . وهو يقرّ بذلك في ملفوظاته بشكل صريح أحياناً، فيسطّر في المذكرات أنه أصدر الأوامر عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) ،عقب مقتل أحد أتباعه في اصفهان ، بذبح جميع سكان المدينة .[١] ويشير تيمور إلى هذه الأعمال بشكل غير مباشر في أحيان أخرى . فقد ذكر أن أحد رجال الدين من منتقدي أعماله ،رأى حلماً شاهد فيه الرسول ، فسأله لماذا يسمح لتيمور أن يقتل مئات الآلاف من المسلمين ويهدم مساكنهم .[٢] وتشير المصادر التيمورية الأخرى إلى أعمال التخريب هذه وتقزما قامت به جيوش تيمور من قتل وذبح وتدمير وإقامة لأبراج الرؤوس البشرية .[٣]

القسوة

وكانت التبريرات التي يقدمها تيمور لهذه الأعمال متعددة ،منها تبريرات غيبية ، تزعم أنه يعمل بوحي تلك القوة العلوية التي تلهمه أعماله ،وتقدر له أن يقوم بما يقوم به من أعمال . فقد ذكر لأتباعه في أحد الأوقات أنه على الرغم من ضعف بنيته وقلة حيلته ، فإن الله ملأ قلوب الناس بالرعب منه .[٤] وتقول الملفوظات إنه على الرغم من أن الرسول قد أكد في الحلم لذلك الرجل الذي انتقد تيمور بأن سيد ماوراء النهر يريق دماء الكثير من الرعايا المسلمين ،فإنه الصديق المؤيد الذي يحمي آل البيت.[٥]

مبرراتها الغيبية

وترد تبريرات أخرى لأعمال القسوة ، بالجهاد ضد الشعوب غير المسلمة .[٦] وقد ورد ذلك قبل أن يقوم تيمور بغاراته على بلاد الكرج ،وضد فرسان القديس يوحنا في ازمير ، وفي بلاد الهند .[٧]

الجهاد

وأما في البلاد الأخرى ،فقد تذرع تيمور لقيامه بأعمال البطش في آسية الصغرى وبلاد الشام والعراق ،بأن حكام هذه البلاد قد فقدوا حماسهم للإسلام ،وبأنهم لايحسنون الدفاع عن البلاد الإسلامية .[٨] ويقرّ يزدي بأن أعمال القسوة كانت ترتكب أحياناً ،لمجرد التخويف وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء .[٩] ويرى هذا المؤرخ التيموري أنه في هذا العمل تطبيق للحديث النبوي القائل : "نُصرت بالرعب مسيرة شهر".[١٠]

تقصير الحكام

ويردّ ابن عربشاه نزعة القسوة التي عُرف بها تيمور ،إلى عامل نفسي ناجم عن العاهة الدائمة التي حلّت به، بعد إصابته "بسهام سجستان" ،مما زاد في نفسه "الرغبة في الفساد وحنقاً على العباد" .[١١] كما يمكن رد ذلك إلى دوافع الغرور والسعي لتحقيق الأمجاد في الحروب .[١٢] ويقول براون إن تيمور الذي لبس تعلق أتباعه به قد أضحى غير

دوافعها النفسية العاهة

---

(١) : Stewart: op. cit. P. 18 (٢) : Stewart: op. cit. P. 9

(٣) : شامي : ص ١٠٠ ويزدي: ج ١ص ٢١٤ و ٣٢٤ (٤) : ابن عربشاه: ص ٢٢٧ ويزدي: ج ٢ص ٤٦–٤٧ وابن أياس : ج ١ص ٣٣٧

(٥) : Stewart: ibid.

(٦) : Grousset: op. cit. P. 494, Prawdin: op. cit. P. 194

(٧) : يزدي: ج ٢ص ١١٠ و ١٧٠ و ٣٤٦ (٨) : شامي : ص ١٠٠

(٩) : يزدي: ج ١ص ٣٢٤ (١٠) : يزدي : ج ٢ص ٢٠٧ (١١) : ابن عربشاه: ص ٤

(١٢) : Sykes: op. cit. T. II P. 134

مبالغ بآراء الفئات الأخرى من الناس التي انتقدت أعماله ، وانصرف بكل قوته لإرضاء غروره وإشباع نهم أتباعه إلى الغنائم عن طريق إنزال الآلام بأعدائه .(١) ولا ينكر هنا ما أوحت به شريعة الياسا إلى تيمور ، وكانت تعاليم هذه الشريعة تنص على أنه لا يجوز إنهاء القتال مع الأعداء إلا بالإجهاز التام عليهم ، ولا يعتبر الجيش المقاتل قد أدرك النصر إلا عندما يقوم بإفناء أعدائه .(٢) وتبدو من تيمور في بعض الأحيان محاولات للتنصل من مسؤولية هذه الأعمال بإلقائها على غيره . فقد ذكر لابن الشحنة في حلب عندما سأله أن يعفو عن سكان المدينة وأن لا يقتل أحداً : "إنني لم أقتل أحداً قصداً، وإنما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب ".(٣) ويقول يزدي إن بعض أعمال القهر كان يقوم بها أتباع تيمور وأشياعه . وقد ذكر مثل هذا القول أحد علماء تركستان للمؤرخ الغزي، فأشار إلى : "أن ما يصدر عن جيشه من قتل وتدمير وهتك للأعراض لم يكن عن علم منه ولا رضى به ".(٤)

محاولات التنصل

ويظهر من ناحية ثانية ، أن كثيراً من الأوامر التي يصدرها تيمور في هذا المجال ، يبالغ فيها عند تنفيذ الأوامر أو يساء تنفيذها في كثير من الأحيان . ويظهر في أحيان أخرى أن تيمور كان يعجز عن كبح جماح العناصر الشديدة الاندفاع من جنده وأتباعه . وأبدى في بعض المواقف توجساً من شدة اندفاع هذه العناصر ، وعمل ليحول دون إثارتها إتقاء لشر اندفاعها . فيتكلم ابن الشحنة عن أن تيمور قد منح سكان حلب الأمان في الاجتماع الذي تم بينه وبين رجال الدين في المدينة ، وأقسم أمام الحاضرين على ذلك .(٥) واتضح للمؤرخ الحلبي فيما بعد ، أن أعمال التنكيل ما زالت متواصلة بسكان المدينة ، "وقطع الرؤوس مستمر " . ولذلك ذهب إلى تيمور ليذكره بوعده ، ولما علم تيمور بأعمال جنده صاح صيحة عالية " وحدثت زعجة "، وتراكض الجند من حول تيمور من هنا وهناك ، وأرسل تيمور أحد اتباعه لابن الشحنة ليعتذر له، وليعلمه أن الأوامر كانت قد صدرت أصلاً لإحضار رؤوس القتلى فقط لإقامة منها قبة رعاية لحرمته ، ولم تصدر لقتل الأحياء وجلب رؤوسهم ، هذا العمل الذي قام به بعض أتباعه دون علمه .(٦) وهكذا فإنه إذا جمعت أقوال ابن عربشاه ويزدي وابن قاضي شهبة ، عن وجود فرق خراسانية وجماعات وثنية في جيش تيمور، شاركت في عمليات التنكيل بسكان دمشق ، إلى اقوال ابن أياس إن تيمور لما علم بما فعله جنده في المدينة ، فإنه لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء ، فأمر بإطلاق من عنده من الأسرى ، وأرسل معهم إلى القاهرة هدية إلى السلطان المملوكي ،(٧) فإن ذلك يلقي ضوءاً على حقيقة موقف تيمور بما وقع في مدينة دمشق ، وأن ما وقع قد لا يكون كله بناء على أوامره . وظهر تخوف تيمور من اندفاع بعض أتباعه في رده على أحد رجال الدين في دمشق – وقد أعلن الرجل رأيه بشكل صريح عن اقتناعه باستحقاق أبي بكر الصديق التقدم

المبالغة في تنفيذ الأوامر

---

(١) : Browne: op. cit. T. III P. 182,202

(٢) : Bouyat: Essai sur La civilisation Timurides P. 194

(٣) : ابن الشحنة : ٢١٦ ويقصد تيمور في رده أن تدافع سكان حلب على الابواب هرباً من جيوشه والازدحام الذي حدث بسبب ذلك قد جعل بعض السكان يدوس على بعضهم الآخر ويقتله . (٤) : الغزي: ج ٣ ص ٢٠٧ (٥) : ابن الشحنة: ص ٢١٦

(٦) : ابن الشحنة : ص ٢٢٥ــ٢٢٧

(٧) : ابن أياس : ج ١ ص ٣٢٦ وقد أشار إلى أن الهدية كانت فيلاً وعليه هودج يتسع لعشرة أشخاص .

على علي بن أبي طالب بالخلافة — بقوله إنه قول جريء ، وطلب أن لا يدخل هذا الرجل عليه مرة أخرى .[١] وكذلك فإنه يصبح من المستطاع ، فهم حقيقة الدوافع التي جعلت تيمور يقول أمام أبراج الرؤوس البشرية التي أقامها جنده بالقرب من بغداد ، عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) : "السلام عليكم معاشر الشهداء نحن كنا السبب في نيل الشهادة ، فلا تنسونا من الشفاعة يوم القيامة ".[٢]

ينطلق تيمور في سياسته الخارجية أيضاً من رغبته في السيطرة على العالم . وقد أشار إلى ذلك في التنظيمات ، وذكر أن من بين الأهداف التي وضعت هذه التنظيمات لتحقيقها ، وضع القواعد لاحتلال الممالك وإخضاع العالم .[٣] ويرد في الملفوظات ما يؤكد تطلع تيمور لبسط هيمنته على الأرض كلها . فقد حلم مرة أنه كان يصطاد أسماكاً وتماسيح بأعداد كبيرة بواسطة شبكة كانت بيده . وقد فسر هذا الحلم لنفسه ، بأن الشبكة هي المملكة التي سوف يبسط عليها سلطته ، والتي سوف تمتد على وجه البسيطة كلها ، وأما الأسماك والتماسيح فهي سائر أبناء الجنس البشري الذي سيخضع لحكمه .[٤] وقد انتقل نزوع سيد ماوراء النهر للسيطرة على العالم إلى المؤرخين التيموريين . ويصور يزدي تيمور بأنه حاكم مكلف بأداء مهمة عالمية ، وأنه ينطلق في أعماله وفق الآية القرآنية : "وما أرسلناك إلا للناس كافة "،[٥] وأن من ابرز مقتضيات هذه المهمة العالمية قتال عامة الكفار والمعارضين للدين أينما وجدوا .[٦] ويظهر أن فكرة السيطرة على العالم ، تراود تيمور أحياناً منذ حداثة سنه ، وقبل أن يصل إلى حكم ماوراء النهر بأمد طويل . وينقل ابن تغري بردي لتيمور قولاً كان يردده عندما كان شاباً : "لابد أن أملك الأرض وأقتل ملوك الدنيا ".[٧]

عالمية السلطة

وامتزجت فكرة السيطرة على العالم في ذهن تيمور ، بفكرة أولوية سلطته على سلطة غيره من الحكام الآخرين . وظهرت في مراسلاته لهؤلاء الحكام ، وفي بعض تصرفاته معهم أو مع مبعوثيهم ، بعد وصوله إلى الحكم . فأرسل إلى الحاكم المظفري شاه شجاع يقول له ، إن الله رفعه على من يحاول التشبه به .[٨] وقال في رسالة أخرى إلى حاكم حلب المملوكي "إنه الأولى بسياسة الأنام "، وأن على سلاطين المماليك الدخول في طاعته . وأنه أحق منهم بحكم مصر .[٩] واعتبر تيمور الملك الاسباني "هنري الثالث" ابناً له ، في حديثه مع مبعوثه كلافيجو .[١٠] ويظهر في هذا التصرف أسلوب التعامل الذي اختطه خانات المغول لأنفسهم سابقاً في الاتصال مع ملوك العالم .[١١] ويرى ابن عربشاه أن في مساعي تيمور لنقل السكان من مكان لآخر ، واستخدام رجال من جنسيات مختلفة في جهازه ولتسمه الاداري ، وحشد العلماء وأرباب الصنائع والفنون في عاصمته سمرقند ، تأكيداً على أن جميع

التفوق على الحكام الآخرين

(١) : ابن عربشاه: ص ١٠٦ (٢) : ابن قاضي شهبة : ورقة ٢١١آ

(٣) : Langlès: op. cit. P. 161 (٤) : Stewart: op. cit. P. 13

(٥) : يزدي: ج ١ ص ٤٠٣ (٦) : يزدي: ج ١ ص ١٦٤ (٧) : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج ٢ ص ٢٥٦ (٨) : ابن عربشاه: ص ٢١ (٩) : ابن عربشاه: ص ٨٦ و ٢١١

(١٠) : Le Strange: op. cit. P. 221 (١١) : Cahun: op. cit. P. 956

الأمم تتسابق لخدمة حاكم العالم .[١] وإذا لوحظ أن حملات تيمور العسكرية كانت خالية من أساس جغرافي سليم ،[٢] فإن هذا يؤكد على وجود تلك الرغبة الهادفة للسيطرة على العالم كله ، وذلك لأن تيمور كان يعتقد أن أي حرب يشنها في أي اتجاه ، إنما تقربه من ذلك الهدف الكبير ، هدف السيطرة على العالم كله .

أهمية المقارنة بجنكيز خان

ويظهر أنه من المفيد في ختام هذا البحث عقد موازنة بين تيمورلنك" الفاتح التركي ، وبين "جنكيز خان "الفاتح المغولي ، بسبب الترابط الذى قام بين الشخصيتين في أذهان كثير من الناس ، ثم لرغبة بعض الباحثين في معرفة أي من الفاتحين بذ الآخر في مجالات الحكم والادارة والفتح والتدمير والقتل العام ... ومما لاشك فيه فإن كثيراً من أوجه التشابه هي قائمة بين الشخصيتين . وقد استطاع كل منهما أن يخط صفحة مخيفة في التاريخ ، استحق أن يلقب بسبب ذلك[٣] بلقب "بلاء الله" .

تيمور أوسع شهرة

وعلى الرغم من أن تيمور لنك استطاع أن يحقق شهرة أكبر مما استطاع أن يحققه جنكيز خان ، ونفذت أخبار أعماله إلى أوربة بشكل أوسع مما حدث لجنكيز خان ، فإن الفاتح المغولي كان ملهماً لتيمورلنك في أغلب أعماله .[٤] وقد لفت حرص تيمور لنك على تقليد جنكيز خان نظر المعاصرين ، فأرسل إليه السلطان المملوكي برقوق يقول له: "إنك لم تزل في كتبك كلها ، تستشهد بتاريخ جنكيز خان وأخباره وأحواله ، وتقتدي به في أقواله وأفعاله ..." .[٥] ووصف بعض الباحثين في الوقت الحاضر تيمور ، بأنه ليس إلا جنكيز خان ثانياً يعتنق الإسلام .[٦] وظهر إعجاب تيمورلنك بجنكيز خان واحترامه له ، في أن أحداث تاريخ الفاتح المغولي بتفاصيلها كانت ماثلة دائماً في ذهنه ، كما ظهر في تقديمه شريعة الياسا التي وضعها جنكيز خان ، على الشريعة الإسلامية في قطاع واسع من الدولة التيمورية ، ثم في غضبه على ابنه ميرانشاه لأنه تهاون في تطبيق هذه الشريعة .[٧]

تيمور مقلد لجنكيز خان

التشابه في النشأة الأولى والحياة الأولى

يشترك تيمور مع جنكيز خان في الأصول الغامضة التي انحدرا منها .[٨] وينسب إلى كليهما أن ولادتهما قد رافقها ظروف غير اعتيادية ، فترد روايات عن أن كلا الفاتحين لما ولد كانت يده تمسك قطعة متجمدة من الدم ،[٩] إشارة لما سوف يقع على يده من حروب ويسيل من دماء . ومر كل من جنكيز خان وتيمورلنك في ظروف صعبة في أيام نشأته الأولى . وكانا هدفين "لانتقام" بعض الحكام . ويشبه الصراع على السلطة الذى دار بين تيمور والأمير حسين وما لقي فيه تيمور من مصاعب ، المعاملة السيئة التي لقيها جنكيزخان من أحد الملوك المغول _ عندما كان لايزال في مرحلة الفتوة والصبا _ هو "وانغ خان" (Wang) زعيم قبيلة "الكرايت" (Craite) المغولية . وكما استطاع تيمور أن يتخطى التقاليد الرسمية

(١) : ابن عربشاه: ص ١٥١

(٢) : Grousset: op. cit. P. 497

(٣) : Howorth: op. cit. T.I.P. 49

(٤) : Frye: Iran P. 56

(٥) : القلقشندي: صبح الاعشى : ج ٧ ص ٣٠٩

(٦) : Grousset: ibid., Prawdin: op. cit. P. 195

(٧) : يزدي: ج ٢ص ١٥١

(٨) : Grousset: op. cit. P. 492

(٩) : ابن عربشاه: ص٩ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٢ص ٢٥٥ والصياد : المغول في التاريخ ص١٥

والشرعية في استئثاره بحكم ماوراء النهر، من دون الأمير حسين حفيد الحاكم السابق الأمير قازغن، فقد وقعت الحال نفسها لجنكيزخان مع الملك وانغ خان . وتتقابل في هـــذا الصدد دعوات رجال الدين المسلمين لتيمورلنك بالتوفيق مع صلوات الكهنة الشامانييــن المغول لجنكيزخان ليحرز النصر على أعدائه .[١] ولكن جنكيزخان بعد الصراع مع وانغ خان استطاع أن يحسم الأمر ويعلن نفسه بعد ذلك مباشرة "خاناً أعظم" وحيداً، هدفه السيطرة على العالم كله،[٢] ولم يخطر بباله أن يكون سيد دولة من الدرجة الثانية، كما فعل تيمور عندما أقام إلى جانبه خلال حقبة طويلة من حكمه خاناً من أحفاد جنكيزخان، فجعل بذلك شرعية سلطته مجال شك واشتباه، على الرغم من أن الخان الجنكيزي لم يكن يتمتع بأيـــة صلاحيات حقيقية .[٣]

الاختلاف في شكل السلطة

ويظهر بين الفاتحين اختلاف واضح آخر من ناحية التكوين النفسي والمعتقد الديني والثقافة. فلم يكن جنكيزخان إلا رجلاً بدوياً صنعته الصحراء، بما فيها من شظف ومعانـــاة وبساطة. وكان لا يتكلم إلا لغة واحدة هي لغته القومية .[٤] ويبدو من أقواله أنه كان قانعاً بهذه الحياة البسيطة، قناعة مطلقة قائمة على فلسفة ثابتة، تنسجم مع نفسه البسيطة . فقد أثر عنه قوله بعد أن اطلع على أنماط حياة أخرى في البلاد التي غزاها : "سأعود إلـــى البساطة وسأرجع إلى الاعتدال وسأحتفظ بردائي نفسه وبغذائي نفسه".[٥] وكان الفاتـــح المغولي يعتقد وهو يأمر بتهديم المدن وإبادة المزروعات، لإعادة حياة البداوة والرعـــي إلى هذه المناطق، أنه كان ينسجم مع الحياة الإنسانية الطبيعية .[٦] وأملت عليه فلسفته البسيطة، أن خير طريقة لردع البدو من إغارة بعضهم على بعضهم الآخر، وقتل بعضهـــم بعضهم الآخر هي توجيههم لقتال الآخرين.[٧] وكان بالإضافة إلى ذلك، وثنياً يديـــن بالشامانية (عقيدة سكان منغولية القائمة على عبادة الأجداد والأرواح) . وظهر في غزواته للبلاد الإسلامية بمظهر غاز وثني .[٨] ولكنه لم يتعصب لعقيدته الدينية، بل على العكس كان متساهلاً مع أتباع الديانات الأخرى .[٩]

الاختلاف في التكوين النفسي والثقافة والدين

وأما تيمورلنك فعلى الرغم من احتفاظه بكثير من عادات الحياة البدوية وتقاليدها، إلا أن الحياة المدنية ساهمت إلى حد بعيد في تكوين شخصيته . فكان يتكلم المغوليـــة والفارسية، بالاضافة إلى التركية لغته الأصلية . وكان على اطلاع كبير على ثقافة عصره. واستطاع أن يحصل على قدر واسع من المعلومات المتنوعة، جعله ذا قدرة على تحليل شخصيات الآخرين ومعرفة حياتهم الداخلية، بشكل لا مثيل له عند جنكيزخان .[١٠] وكان تيمورلنـــك

(١): Grousset: op. cit. P. 493 — (٢): Barthold: Ulugh Beg P. 1

(٣): Grousset: ibid. — (٤): Barthold: op.cit.P.39

(٥): Grousset: op. cit. P. 310 — (٦): Grousset: ibid.

(٧): لامب : جنكيزخان امبراطور الناس كلهم، ترجمة بهاء الدين نوري بغداد ١٩٤٦ ص٥٥

(٨) Browne: op. cit. T.III P. 180 — Howorth: op. cit. T.I P. 112

(١٠): Barthold: ibid.

يعتنق الإسلام، ولكنه استغل عقيدته وجعلها مبرراً لغاراته على أعدائه الذين كانوا يدينون بعقائد دينية أخرى، بدعوى الجهاد ونشر الإسلام، كما اتهم أعداءه الذين كانوا يدينون مثله بالإسلام، بالتقصير في واجباتهم الدينية .(١) وكذلك فإن صفات الحكمة والتدبير والعزم ورباطة الجأش التي عُرف بها جنكيزخان،(٢) كانت تبدو بدرجة أقل عند تيمورلنك الذي كان يقدم في بعض الأحيان على الصياح أو اتخاذ قرارات متسرعة .

الموازنة في ا... ووراثة العـ...

وظل جنكيزخان أستاذ تيمور في قيادة الجماعات البدوية وضبط تصرفاتها . وبقي ملهماً له في كثير من أعماله الإدارية، فلم تكن "التوزوكات" التي وضعها تيمور إلا استكمالاً لشريعة الياسا التي وضعها جنكيزخان، وسارت بوحيها وتقمصت روحها .(٣) ولكن تيمور في الوقت نفسه كان يسمح لنفسه بخرق التقاليد الجنكيزية ـ حسب ما يراه مؤمناً لمصلحة دولته ـ فلم يقلد جنكيزخان في إعطاء العرش من بعده لأحد أبنائه، وحصر حق وراثة العرش في أولاد أكبر أبنائه "جهانگير" الذي توفي منذ زمن بعيد، متخطيا بذلك ولديه ميرانشاه وشاه رخ .(٤)

في التخطيط العسكري

وكان طابع المغامرة والسعي وراء الأمجاد الشخصية والغنائم، طابعاً مميزاً لأكثر حروب تيمورلنك . وبدا أن الارتجال صفة بارزة في بعض هذه الحروب، مما دعى بعض الباحثين إلى القول إن حروب تيمور كانت خالية من أساس جغرافي واضح، ودفعهم إلى الاعتقاد بأن هذه الحروب ليست إلا غارات سلب ونهب لإشباع نهم أتباعه الذين ساروا وراءه للحصول على الغنائم،(٥) في الوقت الذي بدت فيه أعمال جنكيزخان في نظر هؤلاء مدروسة، وقد خطط لها بإحكام، وحددت أهدافها بدقة .(٦) وقد يكون لهذه الحال سبب في الوضع السياسي الذي وجده كل من الفاتحين، في البلاد التي قاتل فيها . فقد حارب جنكيزخان امبراطوريتين عظيمتين، الامبراطورية الصينية في الشرق والامبراطورية الخوارزمية في الغرب . وكان هذا الوضع يقتضي منه حسن الإعداد والتخطيط لبلوغ النصر . وأما تيمور فقد قاتل في إيران والعراق كيانات هزيلة وحكام صغار،(٧) كما قاتل في بلاد الجتا دولة بدوية تفتقر إلى النظام، ولم يكن حال دولة المماليك التي حاربها تيمور أحسن من حال بقية أعداء تيمور. فكانت تخفي وراء مظاهر القوة والعظمة عوامل الضعف والهرم . ولذلك فإن هذه الحال التي كان عليها أعداء تيمور لم تستدع منه أن يهتم كثيراً بأمور الإعداد والتخطيط . ولكنه لما كان يجد نفسه أمام قوى عسكرية كبيرة، كدولة القبجاق، ودولة الأتراك العثمانيين، فإنه استطاع أن يخطط بنجاح لمعارك ظهرت فيها عبقريته العسكرية التي فاق بها معلمه جنكيزخان،(٨) بما أظهره من حضور البديهة العسكرية وحسن استغلال للظروف الطارئة، والتكيف معها بسرعة

---

(١): Grousset: op. cit. P. 494 (٢): لامب: جنكيزخان، ص ١..

(٣): Bouvat: op. cit. P. 196 (٤): Prawdin: op. cit. P.254:

(٥): Grousset: op. cit.P.497, Prawdin: op. cit. P. 210, et Barthold: Four Studies P.66 Spuler: op. cit. P. 106, Brehier: op. cit. P.473,

(٦): Prawdin: op. cit. P. 212, Brehier: ibid.

(٧): Browne: op. cit. T. III P. 180

(٨): Barthold: Ulugh Beg P. 27

مذ هلــــة . ومهما يكن من أمر فقد كان كل من الفاتحين يقود جيوشاً طيعة مخلصة .(١) وكان مبعث إخلاص أتباع جنكيز خان له ، أنهم يؤلفون جيشاً قومياً متجانساً غالبيته من المغول ، يعمل فيه الجندي من شبابه إلى كهولته دون مقابل . أما جيوش تيمور وإن كانت نواتها من الأتراك الجغتائيين ، حديثي العهد بالإسلام ، فإنها ضمت عناصر عديدة أخرى أهمها الفرس ، مما جعل هذه الجيوش تشكو من قلة التجانس .(٢) وتكمن عبقرية تيمور في نجاحه في تحويل هذه الكتل المتناحرة إلى جيش منظم ، يكن له الإخلاص والطاعة ، عن طريق إغداق الأموال بسخاء وتوزيع الغنائم .(٣)

في مدى الفتوح

هذا وإن أعمال تيمور قد فاقت أعمال جنكيز خان من حيث امتدادها على المساحات الأرضية .(٤) وهو وإن لم يستطع أن يغزو الصين كما فعل جنكيز خان ، فإنه هلك وهو في الطريق إلى غزو هذه البلاد . وقد تجاوز تيمورلنك جنكيز خان في الفتوح في الجهات الأخرى . وبلغ مناطق لم يصل إليها الفاتح المغولي . فقد غزا روسية (بلاد القبجاق) إلى موسكو ، واجتاح شمال شبه القارة الهندية ، بينما وقف جنكيز خان فاغراً فمه من الدهشة على ضفاف نهر السند .(٥) ووصل تيمور على رأس قواته إلى العراق وبلاد الكرج وآسية الصغرى وبلاد الشام . وهي مناطق لم يصل إليها جنكيز خان .

في القتل العام والتدمير الشامل

ومما لا شك فيه أن نظام القتل العام والتدمير الشامل كان من ابتكار جنكيز خان . ولكن أعماله في هذا المجال تبدو باهتة أمام الأعمال التي قام بها تيمورلنك .(٦) وإذا كان جنكيز خان يهدم ، فإن تيمور يمحو ويبيد . ولم يُقم الفاتح المغولي أبراجاً من رؤوس القتلى ، ولم يرتكب جنده الموبقات ، ولم يهتكوا أعراض من وقع في أيديهم من سكان البلاد المغلوبة على أمرها . وقد يُلتمس العذر لجنكيز خان بأن أعمال التدمير التي قام بها في مدن ماوراء النهر وشرقي إيران ، وهي المناطق التي جاس بها جنكيز خان على رأس قواته ، كانت ناجمة عن قسوة فطرية جبلت نفسه عليها ، وهي النفس التي نشأت وظلت تعيش في بيئة طبيعية صعبة .(٧) بينما عاش تيمور في بيئة ماوراء النهر التي كانت أقل قسوة وتقشفاً من صحاري منغولية واستطاع أن يحصل على قدر أكبر من المعارف ، ولذلك فإن مسؤوليته عن أعمال التخريب وإساءته للحضارة الإنسانية تبدو أكبر من مسؤولية وإساءة جنكيز خان .(٨) وتجعله يستحق لقب "أكبر أستاذ عرفه تاريخ البشرية في فنون التخريب"(٩) الذي أطلقه عليه المؤرخ الانكليزي "فيشر" (Fisher) .

في استمرار الدولة

لقد استطاع أبناء جنكيز خان بعد وفاته أن يتابعوا الفتوح والحروب واستمرت الدول التي أقامتها فروع بيت جنكيز خان مدة طويلة بعد موت المؤسس الأول . وازدهرت الدول المغولية في الصين وبلاد القبجاق وماوراء النهر وإيران ، وحققت إنجازات عسكرية وحضارية هامة ، بينما لم تعمر الدولة التيمورية إلا حقبة قصيرة بعد موت تيمور . وبدا أن هذه الدولة أخذت

(١): Barthold: op. cit. P. 26 (٢): Prawdin: op. cit. P. 193

(٣): Barthold: ibid. (٤): Frye: ibid.

(٥): ابن العبري: ص ٢٣٦ (٦): Barthold: op. cit. P. 40.

(٧): Grousset: op. cit. P. 310 (٨): Grousset: La civilisation iranienne Paris 1952 P. 202

(٩): فيشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى . ق ٢ (تعريب محمد مصطفى زيادة وزملائه) ص ٤٥٠

تسير نحو الاضمحلال السريع عقب موت مؤسسها بوقت قصير،[1] على الرغم من التقدم الحضاري الذي استطاعت أن تحققه في تلك المرحلة . وقد ساهمت المنازعات والحروب التي قامت بين أولاد تيمورلنك وأحفاده، وانتفاضات شعوب البلاد التي خضعت لحكمه ، في التعجيل في نهاية الدويلات التيمورية . وإذا استطاع أحد أحفاد الفاتح التركي ، وهو محمد بابر أن يقيم دولة السلاطين المغول المسلمين في الهند التي استطاعت أن تعمر مدة أطول من حياة أية دولة تيمورية أخرى — فإن ذلك يرجع إلى ظروف خاصة ببلاد الهند نفسها ، ساعدت على استمرارها هناك .

وبعد فما هو حكم التاريخ على الفاتح التركي تيمورلنك ؟ . في الواقع فإنه من الصعب إصدار حكم محدد على تيمور ، لأن لهذه الشخصية — كما سبق ذكره — مظهرين متناقضين . ويبدو تقويم تيمور أن تيمور كان من الشخصيات النادرة التي جمعت بين الحب والإعجاب الشديد بها ، وبين الشتم والمقت والكراهية لها . ولعل أحداً من الحكام لم يكن باستطاعته أن ينجح في الجمع بين الهدم والاجتياح وبين النشاط في العمران ، وأن يوفق بين شخصية الفاتح الطاغية الذي يقيم الأبراج من الرؤوس البشرية ، وبين شخصية الحاكم اللامع مشجع الثقافة والفن ، الذي تكن له الأجيال المتعاقبة التقدير والاحترام ، كما استطاع تيمور .[2] فمن ناحية أولى فليست الملحمة التيمورية — كما يقول غروسية — إلا ملحمة الإكراه والمذابح .[3] وقد أساءت أعماله للإنسانية إساءات منكرة لا تغتفر .[4] وكانت حروبه قد سببت لبلاده — ماوراء النهر — ولشعبه الذي يسكن هذه البلاد ، إعياءاً شديداً، وبددت ثرواتها .[5] ولما استدار الفاتح التركي نحو الداخل الإيراني والعربي ووجه قواته إليهما ، وكانا مغمورين بالحضارة الإسلامية ، اندفع ليدمر كل شيء صادفه هناك . وقد عمل من ناحية ثانية على الإساءة البالغة لهذه الحضارة وللإسلام الذي يعتنقه . ويظهر ذلك جلياً بالموازنة بين ما آل عليه الحال في عصره ، وبين ما كان عليه هذا الحال في المرحلة التي سبقت ظهوره على مسرح الأحداث . لقد كان الاسلام والحضارة الاسلامية خلال القرون الأربعة التي انتهت بظهور تيمور، مطردّي التقدم بين سكان قلب آسية البداة ، مما دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن الدين الاسلامي سيصل في نهاية الأمر لأن يصبح دين الأكثرية الكاثرة من سكان آسية وأوربة الشرقية . ولقد توقف كل ذلك نتيجة لأعمال تيمور الحربية التدميرية التي اوقفت انتشار الإسلام وأفسحت المجال للعقائد الدينية الأخرى كالبوذية واللامية أن تستغل ذلك، ولتنتشر بين عدد من سكان وسط آسيا كالمغول وبعض قبائل الاتراك هناك ، كما حالت أعمال تيمور دون أن تتم الحضارة الإسلامية عملية ترويض البدو وتمدينهم في قلب آسية ، حيث قام بهذه المهمة فيما بعد كل من الروس والصينيين .[6] ويقول توينبي في هذا الصدد إن تيمور لم يوفق في تدمير إيران ،

(1): Howorth: op. cit. T.I P.49, Saunders: op. cit. P. 176 et Grousset: L'Empire des Steppes P. 495, 543
(2): Prawdin: op. cit. P. 252, Browne: op. cit. T. III P. 2o3
(3): Toynbee: op. cit. T. IV P.491: (4) Grousset: op. cit. P. 497
(5) Toynbee: op. cit. IV P.494-496 (6) Toynbee: op. cit. T. IV P. 491

لكان موقف ماوراء النهر من روسيا اليوم مختلفاً . فقد يبدو معقولا في تلك الحال أن نجد روسيا السوفييتية نفسها اليوم ، جزءاً من امبراطورية ذات طابع إيراني ، تُحكم فيها موسكو من العاصمة سمرقند .(١)

وفضلاً عن ذلك فقد ساهم تيمور في عملية إفقار العالم الإسلامي ، ليس بما قام به من عمليات السلب والنهب والهدم والمجازر وحسب ، وإنما بما دأب على القيام به من إجبار الفنانين وأرباب الحرف على ترك أوطانهم للإقامة في سمرقند . ولقد أجهد تيمور نفسه وشعبه أيضاً بالسير وراء فكرة السيطرة على العالم . ولذلك كانت حروبه في الغالب تفتقر إلى مخطط جغرافي مقبول ، وسارت أغلب عملياته الحربية وفق قانون المصادفة .(٢) وفوق ذلك فإن أكثر هذه الحروب لم يحقق نصراً حاسماً ، مما يقرب هذه الحروب من مفهوم غارات السلب والنهب .(٣) ويعزو توينبي نجاح تيمور في هذه الحروب على أعدائه ، بأن هؤلاء الأعداء كانوا مشغولين عن الدفاع ضد غارات تيمور بمشاغل محلية ، كانشغال القبجاق في حروبهم مع الروس ، وانشغال الصينيين في صراعهم مع الأسرة المغولية (أسرة يوان) ، والأتراك العثمانيين مع الدولة البيزنطية وبحروبهم في القارة الأوربية ، إضافة إلى أن دولة المماليك كانت تجتاحها الأزمات السياسية والاقتصادية الحادة .(٤) وكانت محصلة أعمال الفاتح التركي من هذه الحروب ، أن قضى على الامبراطورية المغولية القبجاقية ولم يوفق في إقامة امبراطورية أخرى مماثلة ، على الرغم من سعيه لاقامة مثل هذه الامبراطورية العالمية .

وإذا كان بعض الباحثين يعزو عدم استمرار الدولة التيمورية حقبة طويلة بعد وفاة مؤسسها إلى سوء حظ تيمور بأولاده ،(٥) إذ انهمك هؤلاء في الخصومات والحروب . فإن الامبراطورية التيمورية نفسها منذ أيام تيمور ، كانت تفتقر إلى الروابط التنظيمية التي تساعدها على الاستمرار ، لأن تيمور سعى دائماً بحكم طموحه ونزعته إلى الاستبداد ، لأن تكون هذه الروابط في امبراطوريته الواسعة روابط شخصية ،(٦) سرعان ما أخذت بالانهيار السريع بعد موت المؤسس . ويبدو ذلك الطابع الشخصي واضحاً في التنظيمات ولاسيما في المنطلقات الإدارية التي اتخذها تيمور أساساً لدولته . هذا ولكن المتحمسين لتيمور يقولون إن أعماله الباهرة التي كان بعضها لضرورات عسكرية ، والانتصارات التي حققها ، جعلته أعظم فاتح آسيوي في التاريخ ،(٧) ولذلك فقد خلقت هذه الانجازات العسكرية لتيمور كثيراً من الأعداء الذين سعوا للإشارة إلى الجانب الممقوت من هذه الأعمال ، وجعل لتيمور هذا الصيت المكروه . وفي الوقت نفسه فقد كان نشاط الفاتح التركي في الإعمار والبناء لا يقل عن نشاطه في الهدم والتدمير .(٨) وتركت أعماله الحضارية في نفوس معاصريه أثراً لا يقل عمقاً عن الأثر الذي تركته أعماله في التخريب والتدمير .(٩) واستطاع أن يحقق لبلاده ماوراء النهر

(١) Toynbee: op. cit. T.IV P.499 : (٢) Grousset: op.cit. P.497,504
(٣) : Prawdin: op. cit. P. 253 : (٤) Toynbee: op.cit. IV P.491
(٥) : بارتولد : تاريخ الترك . . ص ٢٣٠ : (٦) : Prawdin: ibid.
(٧) : Sykes: op. cit. T.II P. 134 : (٨) : بارتولد : الحضارة الإسلامية تعريب حمزة طاهر ص ١٢٩ .
(٩) : بارتولد: تاريخ الترك . . . ص ٢٢٦

ـعلى الرغم مما قيل عن إساءاته لها ـعهداً حضارياً وسياسياً مزدهراً يوصف بأنه "عصر تركستان الملالا ". [(١)] ويرى بعض هؤلاء الباحثين أن أعمال تيمور العسكرية ، في الغالب كانت أعمالاً خاطفة سريعة ، لم تتمكن على الرغم من قسوتها من أن توقف تقدم الحضارة ، واستأنف التقدم الحضاري سيره في البلاد التي غزاها تيمور بعد انسحاب جحافله من تلك البلاد . [(٢)] ولم تحُل أعمال تيمور دون أن تواصل الحضارة الإسلامية مهمتها التاريخية في آسية ، فقد قامت دولة سلاطين المغول المسلمين في الهند على يد أحد أحفاد تيمور ، وسعى حكام هذه الدولة إلى نشر الإسلام والمدنية الإسلامية على نطاق واسع ، لم يسبق له مثيل في العهود الإسلامية السابقة ، في شبه القارة الهندية . [(٣)] ولم تحل أعمال تيمور أيضاً من أن تحقق الحضارة الإسلامية في ماوراء النهر ، وفي غيرها من أجزاء الامبراطورية انجازات هامة ، حيث تم فتح الطرق وبناء الجسور وشق الترع النهرية والأقنية وإقامة السدود وإشادة القصور والمساجد ، بما اوحى بالقول أن تأثير تيمور في المجال الحضاري والثقافي ، كان أقوى بكثير من تأثيره في المجال العسكري والحربي الذي انهار أغلبه بعد وفاته بمدة قصيرة ، [(٤)] وبقيت الانجازات الحضارات الأخرى ماثلة للعيان من بعده .

ولذلك فإن شخصية تيمور التي كانت محط إعجاب بني جنسه من الأتراك الجغتائيين ، الذين كانوا يرون فيه مثال الفارس الشجاع . [(٥)] وامتزجت أخبار أعماله بالأساطير التي لاتزال شعوب سيبيريا وبامير إلى اليوم تتغنى بها بكل فخر واكبار ، [(٦)] فقد كان لهذه الشخصية أيضاً معجبون بين عدد من حكام أوربا في العصور الحديثة ، منهم بعض القياصرة الروس . وقام أحد الكتاب الانكليز وهو "مارلو" (Marlow) ، الذي عاش في عصر الملكة اليزابيث الأولى في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ، فنسج حول شخصية الفاتح التركي وحياته ، روايته الشهيرة التي دعاها "تامبورلين العظيم" (Tamborlane The Great)

ولا يزال الناس في ماوراء النهر في الوقت الحاضر ينظرون إلى تيمور نظرتهم إلى أحد الأولياء من أصحاب الكرامات ، ويترضون عليه كلما ورد ذكره ، على أنه من أولياء الله وأصفيائه . [(٧)] ولا يملك الفارس منهم إلا أن يترجل عندما يمر من أمام قبره بسمرقند .

لقد كان تيمور شخصية فذة غريبة ، وقريبة من أن تكون شخصية شاذة تنطوي على قدر كبير من القسوة ولكنها في الوقت نفسه لاتخلو من أن تكون شخصية طريفة .

---

(١) : بارتولد : الحضارة الاسلامية : ص ١٣٩ (٢) :
(٣) : الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، ج ٢ المقدمة صفحة هـ
(٤) : Cahun: op. cit. P. 938 (٥) : Prawdin: op. cit. P. 253
(٦) : Prawdin: op. cit. P. 183,252, Cahun: ibid.
(٧) : الغزى : ج ٣ ص ٢٠٧

ثبت بمصادر البحث ومـــراجـعــه

مرتب حسب الترتيب الهجائي لاسماء المؤلفين

أولا ـ باللـغـة العـربـيـة :

أ ـ المصادر المطبوعة :

١ ـ ابن الأثيـر (محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ـ) وفاته ٦٣٠ هـ
« الكامل في التاريخ » تسعة اجزاء تحقيق نخبة من العلماء ـ مطبعة الاستقامة ١٢٣١م
القاهرة مغفل تاريخ الطبع

٢ ـ ابن أياس (محمد بن احمد ـــ) وفاتــه نحو ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م
« بدائع الزهور في وقائـــع الدهـــور » ثلاثة أجزاء في مجلدين
القاهرة المطبعة الأميرية في بولاق مصر الحمية ١٣١١ هـ

٣ ـ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله ـــ) وفاته ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م
« رحـلة ابـــن بطـــوطـة »
بيروت دار التـــراث ١٩٦٨

٤ ـ ابن تغري بـردي (جمال الدين ابو المحاسن يوسف ـــ الاتـابـكي) وفاتـــــه ٨٧٤ هـ « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهـــرة » سبعة عشر جزءاً
١٤٦٩م تحقيق مجموعة من الباحثيـــن المصرييـــن
القاهـــرة مطبعة دار الكتـــب المصريـــة ١٩٢٩ ـ ١٩٧٢م

٥ ـ ابـــن حـوقل (أبو القاسم ـــ النصيبـي) وفـاته ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م
« كتاب صورة الأرض » بيروت منشورات مكتبة الحياة مغفل تاريخ الطبع

٦ ـ ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ـــ) وفاتة ٣١٠ هـ / ٩١٣م
« كتاب المسالك والممالك » باريز ١٨٦٥

٧ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن ـــ) وفاتـــه ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م
« التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً »
عارضة بأصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي
لجنة التأليف والنشر . القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١

٨ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن ـــ)
« كتاب العبر » سبع مجلدات بيروت مغفل تاريخ الطبع

٩ ـ ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر ـــ) القرن العاشر الميلادي
« كتاب الأعلاق النفيسة »
طبع مطبعة المثنى في بغداد عن طبعة مطبعة بريل في لندن ١٨٩١

١٠ ـ ابن الشحنة (أبو الوليد محمد ــــ الحلبي) وفاته ٨١٥ هـ ١٤١٢ م
" روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر "
على هامش الأجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ من الكامل لابن الأثير
مغفل مكان الطبع وزمانه

١١ ـ ابن صصرى (محمد بن محمد ــــ) القرن الخامس عشر الميلادى
" كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية "
تحقيق برينر لوس انجلوس ١٩٦٣

١٢ ـ ابن طولون (محمد ــــ الصالحي) وفاته ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ م
" إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى "
تحقيق محمد أحمد دهمان دمشق ١٩٦٤

١٣ ـ ابن طولون (محمد ــــ الصالحي)
" الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام "
تحقيق صلاح الدين المنجد ـ مطبوعات المجمع العلمي العربي دمشق ١٩٥٦

١٤ ـ ابن طولون (محمد ــــ الصالحي)
" مفاكهة الخلان في حوادث الزمان " قسمان
تحقيق محمد مصطفى وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م

١٥ ـ ابن العبري (غريغوريوس الملطي المعروف بـ ــــ) وفاته ١٢٨٦ م
" تاريخ مختصر الدول " وضع حواشية وأشرف على طبعه الأب انطون صالحاني اليسوعي . بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٨

١٦ ـ ابن عربشاه (أحمد بن محمد عبد الله الدمشقي الشهير بـ ــــ) وفاته ٨٥٢هـ / ١٤٤٨ م
" عجائب المقدور في أخبار تيمور " طبع المطبعة العامرة العثمانية القاهرة ١٣٠٥ هـ

١٧ ـ ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ــــ) وفاته حوالي ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م
" تاريخ ابن الفرات " المجلدات السابع والثامن والتاسع
تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين بيروت ١٩٣٨ ـ ١٩٤٢ م .

١٨ ـ ابن فضلان (أحمد ــــ بن العباس بن راشد بن حماد) وفاته ٣٠٩هـ / ٩٢١ م
" رسالة ابن فضلان " تحقيق سامي الدهان دمشق مطبوعات المجمع العلمي العربي ١٩٥٩ .

١٩ ـ ابن قاضي شهبة الدمشقي وفاته ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م
تاريخ ابن قاضي شهبة الجزء الأول القسم الثالث
تحقيق عدنان درويش دمشق ١٩٧٧

٢٠ ـ أبو الفداء (السلطان الملك عماد الدين إسماعيل صاحب حماة) وفاته ٧٣١هـ/ ١٣٣١م « كتاب تقويم البلدان »
صححه وطبعه رينووالبارون ماك كولين د يسلان باريس ١٨٤٠

٢١ ـ أبو الفداء (السلطان الملك عماد الدين إسماعيل صاحب حماة)
« المختصر في أخبار البشر » أربعة اجزاء
طبع المطبعة الحسينية على نفقة محمد عبد اللطيف وشركاه القاهرة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م .

٢٢ ـ الاصطخري (أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي ـــ) القرن العاشر الميلادي
« كتاب مسالك الممالك »
ليدن مطبعة بريل ١٨٢٧

٢٣ ـ الأصفهاني (الإمام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ـــ) وفاته ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م
« كتاب تاريخ دولة سلجوق »
اختصار الشيخ الإمام العالم الفتح بن علي محمد البنداري الأصفهاني
طبع على نفقة شركة طبع الكتب العربية القاهرة مطبعة الموسوعات ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م

٢٤ ـ البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ـــ) وفاته ٧٣٩هـ / ١٣٣٩م
« مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع » ثلاثة اجزاء
تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي . دار احياء الكتب العربية عيسى البابي وشركاه
القاهـــرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م

٢٥ ـ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر ـــ) وفاته ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م
« فتوح البلدان »
حققه وشرحه وعلق حواشيه وقدم له عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع
دار النشر للجامعيين بيـــروت ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م

٢٦ ـ الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس ـــ) وفاته ٣٣١هـ/ ٩٤٢م
« كتاب الوزراء والكتاب »
طبع القاهرة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م

٢٧ ـ الحموي (ياقوت ـــ) وفاته ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م
« معجم البلدان » خمسة مجلدات
بيروت ١٩٥٧

٢٨ ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم ـــ) وفاته ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٥م
« كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار »
حققه إحسان عباس مكتبة لبنان بيروت ١٩٧٥

٢٩ ـ الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد ـــ) وفاته ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م
« شذرات الذهب في اخبار من ذهب » ثمانية أجزاء
سلسلة ذخائر العرب. المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت مغفل تاريخ الطبع .
٣٠ ـ الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله محمد طالب الأنصارى الصوفي) وفاته ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر »
لايبزيغ بإشراف مهرن ١٩٢١ .
٣١ ـ الدينوري (أبو حنيفة أحمد ـــ) وفاته ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥م
« الأخبار الطوال »
تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة جمال الدين الشيال /القاهرة ١٩٦٠
٣٢ ـ السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ـــ) وفاته ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م
« الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » اثني عشر جزءا
منشورات دار مكتبة الحياة بيروت مغفل تاريخ الطبع
٣٣ ـ السيوطي (جلال الدين ـــ) وفاته ٩١١هـ / ١٥٠٥م
« تاريخ الخلفاء »
تحقيق محي الدين عبد الحميد .الطبعة الأولى مطبعة السعادة القاهرة ١٣١٨هـ/ ١٩٥٢م .
٣٤ ـ الطبرى (الإمام أبو جعفر محمد بن جرير ـــ) وفاته ٣١٠هـ/ ٩٢٢م
« تاريخ الأمم والملوك » ثمانية أجزاء
راجعه نخبة من العلماء الأجلاء . القاهرة مطبعة الاستقامة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م
٣٥ ـ العسقلاني (شيخ الإسلام الحافظ بن حجر ـــ) وفاته ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م
« إنباء الغمر في أنباء العمر » ثلاثة أجزاء
تحقيق حسن حبشي القاهرة ١٣٨٩ـ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩ـ١٩٧٢م
٣٦ ـ العلموي (عبد الباسط ـــ) وفاته ٩٨١ هـ / ١٥٧٣م
« مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدراسي إلى احوال دور القرآن والحديث »
تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٤٧
٣٧ ـ القرطبي (عريب بن سعد ـــ) وفاته في القرن العاشر الميلادى
« صلة تاريخ الطبرى »
القاهرة مطبعة الاستقامة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م
٣٨ ـ القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ـــ) ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م
« أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ »
بغداد ١٢٨٢ هـ

٣٩ - القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ـــ) وفاته ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م
" آثار البلاد وأخبار العباد "
بيروت ١٩٦٠

٤٠ - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ـــ) وفاته ٨٢١هـ/ ١٤١٨م
" صبح الأعشى في صناعة الانشا " أربعة عشر جزءاً
القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي . طبع المطبعة الأميرية ١٩١٢-١٩١٨

٤١ - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ـــ)
" مآثر الانافة في معالم الخلافة " ثلاثة أجزاء
تحقيق عبد الستار أحمد فراج الكويت ١٩٦٤

٤٢ - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ـــ) وفاته ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م
" مروج الذهب ومعادن الجوهر " أربعة أجزاء
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط٣ القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م

٤٣ - المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ـــ)
" التنبيه والإشراف "
بيروت دار التراث ١٩٦٨

٤٤ - المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ـــ) وفاته ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م
" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم "
بيروت مغفل تاريخ الطبع

٤٥ - المقدسي (مطهّر بن طاهر ـــ) وفاته ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م
" البدء والتاريخ " ستة أجزاء
نشرة كليمان هيوار طبع مدينة شالون ١٨٩٩ـ ١٩١٩م

٤٦ - المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ـــ) وفاته ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م
" كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك " أربعة أجزاء في إثنى عشر مجلداً
تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور القاهرة ١٩٣٩-١٩٧٢

٤٧ - المقريزي (تقي الدين احمد بن علي ـــ)
" كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية " جزءان
دار صادر للطباعة والنشر بيروت مغفل تاريخ الطبع

٤٨ - النسوي (محمد بن أحمد ـــ) وفاته ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١م
" سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي "
تحقيق ونشر حافظ أحمد حمدي القاهرة ١٩٥٣م

٤٩ - النعيمي (عبد القادر بن محمد ـــ الدمشقي) وفاته ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م

" الدارس في تاريخ المدارس " جزءان

مطبوعات المجمع العلمي العربي.عني بنشره وتحقيقه جعفر الحسني

مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨م

٥٠ _ الهمذاني (أبو بكر أحمد بن محمد ـــ المعروف بأبن الفقيه) . القرن العاشر الميلادى

" مختصر تاريخ البلدن "

ليدن مطبعة بريل ١٣٠٢هـ

٥١ _ الواقدي (ابو عبد الله محمد بن عمر ـــ) وفاته ٢٠٧ هـ / ٨٢٢م

" فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان "

طبع عزيز أفندي زند القاهرة غفل تاريخ الطبع

٥٢ _ يحيى بن الحسين وفاته ١١٠٠ هـ/ ١٦٨٧م

" غاية الأماني في أخبار القطراليماني " قسمان

تحقيق سعيد عاشور القاهرة ١٩٦٨

٥٣ _ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ـــ) وفاته ٨٩٧م / ٢٨٤ هـ " تاريخ اليعقوبي " مجلدان

دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٠م / ١٣٩٠هـ

٥٤ _ اليعقوبي (أحمد بن ... واضح ـــ)

" كتاب البلدان " في مجلد واحد مع كتاب ابن رستة

ليدن بريل ١٨٩١م

٥٥ _ يوسف بن عبد الهادي وفاته ٩٠٩هـ / ١٥٠٢م

" ثمار المقاصد في ذكر المساجد "

تحقيق وتعليقات أسعد طلس بيروت ١٩٤٣

ب _ المخطوطات

٥٦ _ ابن قاضي شهبة وفاته ٨٥١ هـ/ ١٤٤٨م

" مختصر ذيل على الذهبي _ الاعلام بتاريخ أهل الاسلام "

صور ميكرو فيلم بالقاهرة لمخطوط بخط المؤلف في مكتبة أسعد أفندي في استامبول رقم ٢٣٤٥

ج _ المصادر الأجنبية المعربة

٥٧ _ البيهقي (أبو الفضل ـــ)

" تاريخ البيهقي "

ترجمه من الفارسية يحيى الخشاب وصادق نشأة

القاهرة نشر مكتبة الانجلو مصرية ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦م

٥٨ _ الراوندى (محمد بن علي بن سليمان ـــ)

/ راحة الصدور وآية السرورفي تاريخ الدول السلجوقية

ترجمه عن الفارسية إبراهيم الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين وفؤاد عبد المعطي

الصيـــاد القاهـــرة ١٩٦٠ / ١٣٧٩

٥٩ _ النرشـــخي(أبو بكر محمد بن جعفر ـــ) وفاته ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م

" تاريخ بخارى "

عربّه عن الفارسيـــة أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرزى.القاهرة دار

المعارف بمصر مجموعة ذخائـــر العرب رقـــم ٤٠ عام ١٩٦٥ م

د _ المـــراجـــع العـــربيـــة

٦٠ _ بــــدر (مصطفى ـــ)

/ " مغول إيران بين المسيحية والإســـلام "

القـــاهرة مغفل تاريخ الطبـــع

٦١ _ الجـــوهـــرى (يسري عبد الرزاق ـــ)

" السلالات البشرية "

القاهرة ١٩٦٦

٦٢ _ حـــداد (جـــورج ـــ)

" المدخـــل إلـــى تاريـــخ الحضارة " ثلاثة أجزاء

دمـــشق ١٩٥١ _ ١٩٥٤

٦٣ _ حسن (زكي محمد ـــ)

" الرحالة المسلمون في العصور الوسطى "

القاهرة دار المعارف ١٩٤٥

٦٤ _ حسن (زكـــي محمد ـــ)

" الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي "

القـــاهـــرة ١٩٤٠

٦٥ _ حلمـــي (احمد كمال الدين ـــ)

" السلاجقة و الحضارة "

الكويت دار البحوث العلمية ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥ م

٦٦ _ حمدي (حافظ أحمد ـــ)

" الدولة الخوارزمية والمغول " القاهرة ١٩٤٩

٦٧ _ دهمان (محمد أحمد ـــ)

" ولاة دمشق في عهد المماليك " دمشق ١٩٨١

٦٨ ـ ريحاوي (عبد القادر ـــ)

« العمارة العربية الاسلامية خصائصها وآثارها في سورية »

دمشق ١٩٧٩

٦٩ ـ ريحاوي (عبد القادر ـــ)

« مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية » دمشق ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م

٧٠ ـ زيادة (محمد مصطفى ـــ)

« المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى القرن التاسع الهجرى »

ط ٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٤

٧١ ـ زيادة (نقولا ـــ)

« الرحالة العرب »

مجموعة الالف كتاب رقم ٩٧ القاهرة ١٩٥٦

٧٢ ـ الساداتي (أحمد محمود ـــ)

« تاريخ المسلمين في شبه القرة الهندية » جزءان مع ملحق بعنوان « الترك والمغول »

القاهرة ١٣٧٧ / ١٩٥٧

٧٣ ـ سليمان (أحمد السعيد ـــ)

« تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة » جزءان

القاهرة ١٩٦٧

٧٤ ـ الشابي ـ (علي ـــ)

« الأدب الفارسي في العصر الغزنوي » تونس دار النشر ١٩٦٥

٧٥ ـ الشواربي (إبراهيم أمين ـــ)

« أغاني شيراز وغزليات حافظ الشيرازي شاعر الغناء والغزل في إيران »

مطبعة لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤م

٧٦ ـ الصياد (فؤاد عبد المعطي)

« مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمزاني » القاهرة ١٩٦٧

٧٧ ـ الصياد (فؤاد عبد المعطي ـــ)

« المغول في التاريخ » القاهرة ١٩٦٠

٧٨ ـ ضياء الدين (المفتي ـــ) كاتب المقدمة

« آثار الإسلام التاريخية في الاتحاد السوفيتي »

أصدرتة الإدارة السياسية لمسلمي آسيا الوسطى وكازخستان في مدينة طشقند

١٩٦٦ .

٧٩ _ العاملي (السيد محسن الأمين الحسيني ـــ)
" أعيان الشيعة " ستة عشر جزءاً
ط١ دمشق ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧م
٨٠ _ العريني (السيد الباز ـــ)
" المغول " بيروت ١٩٦٧
٨١ _ العزاوي (عباس ـــ)
" التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان " بغداد ١٣٧٦ / ١٩٥٧
٨٢ _ العزاوي (عباس ـــ)
" تاريخ العراق بين احتلالين " ثمانية أجزاء
بغداد ١٩٣٥ _ ١٩٥٦
٨٣ _ عنان (عبد الله ـــ)
" ابن خلدون حياته وتراثه الفكري "
القاهرة ١٩٣٣
٨٤ _ عنان (محمد عبد الله ـــ)
" مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية " الطبعة الأولى
القاهرة ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١م
٨٥ _ الغزي (كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البابي الحلبي الشهير بـ ـــ)
" نهر الذهب في تاريخ حلب " ثلاثة أجزاء
حلب طبع المطبعة المارونية مغفل تاريخ الطبع
٨٦ _ غلاب (محمد السيد ـــ)
" تطور الجنس البشري " الطبعة الرابعة
القاهرة المكتبة الانكلومصرية ١٩٧٠
٨٧ _ كرد علي (محمد ـــ)
" خطط الشام " أربعة أجزاء
بيروت ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩م
٨٨ _ محمود (حسن احمد ـــ)
" الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي "
القاهرة ١٩٧٢
٨٩ _ المنجد (صلاح الدين ـــ)
" خطط دمشق "
بيروت ١٩٤٩

هـ ـ المراجع الأجنبية المعربة

٩٠ ـ ارنولد (توماس ـــ)
" الدعوة إلى الاسلام "
ترجمة حسن إبراهيم حسن ـ عبد المجيد عابدين ـ إسماعيل النحراوي
القاهرة ١٩٤١ .

٩١ ـ بارتولد (ڤلاديمير ـــ)
" تاريخ الترك في آسيا الوسطى "
ترجمة أحمد سعيد سليمان مراجعة ابراهيم صبري
القاهرة ١٩٥٨ .

٩٢ ـ بارتولد (ڤلاديمير ـــ)
" تاريخ الحضارة الاسلامية "
ترجمة حمزة طاهر
ط٤ القاهرة ١٩٦٦

٩٣ ـ برصوم (ماراغناطيوس افرام الأول ـــ)
" تاريخ طورعبدين "
ترجمه عن السريانية غريغوريوس بولس بهنام
مطبعة بيان وشركاه جونية الشير لبنان ١٩٦٣

٩٤ ـ يوكشيفشيفسكي
" جغرافية الاتحاد السوفييتي الطبيعية، السكان الاقتصادية "
ترجم باشراف دار التقدم موسكو ١٩٧٦

٩٥ ـ ديل (شارل ـــ)
" البندقية جمهورية ارستقراطية "
ترجمه أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق الاسكندر القاهرة ١٩٤٨

٩٦ ـ ديماند (م . س ـــ)
" الفنون الاسلامية "
ترجمة أحمد محمد عيسى تصدير أحمد فكري
القاهرة ١٩٥٣

٩٧ ـ رانسيمان (ستيفن ـــ)
" الحروب الصليبية " ثلاثة مجلدات
ترجمة السيد الباز العريني
بيروت ١٩٦٦

٩٨ - زامباور
" معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي " جزءان
ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرين
القاهـــــرة ١٩٥١
٩٩ - فامبـــرى (ارمينيوس ـــ)
" تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر "
ترجمة وتعليق أحمد محمود ساداتي ويحيى الخشاب
القـــاهـــرة مغفل تاريخ الطبع
١٠٠ - فيشـــر (هـ٠ا٠ل٠ ـــ)
" تاريخ أوربة في العصور الوسطى " قسمان
نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة - السيد الباز العريني - إبراهيم العدوى
القـــاهـــرة ١٩٥٤
١٠١ - فيشيل (والتر ٠ج ٠ ـــ)
" لقاء ابن خلدون لتيمورلنك "
ترجمة محمد توفيق مراجعة يوسف روشا قدم لـه مصطفى جواد مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر دار مكتبة الحياة بيروت مغفل تاريخ الطبع
١٠١ - كريستينيس (آرثـــر ـــ)
" إيران في عهد الساسانيين "
ترجمه عن الفرنسية يحيى الخشاب راجعه عبد الوهاب عزام
القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧
١٠٣ - لامب (هارولد ـــ)
" جنكيزخان امبراطور الناس كلهم "
ترجمة اللواء بهاء الدين نوري بغداد ١٩٤٦
١٠٤ - لسترانج (كي ـــ)
" بلدان الخلافة الشرقية "
نقله إلى العربية وأضاف عليه تعليقات بلدانية وأثرية ووضع فهارسه بشير فرنسيس وكوركيس عواد
مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤ الطبعة الرابعة
١٠٥ - لين - بول (ستانلي ـــ)
" الدول الاسلامية "
مع إضافات وتصحيحات بارتولد وخليل أدهم نقله من التركية إلى العربية محمد صبحي فرزت وأشرف على الترجمة محمد أحمد دهمان. دمشق مكتبة الدراسات الإسلامية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م .

١٠٦ ـ ويلز (هـ ج ـــ)
" معالم تاريخ الانسانية "   المجلد الثالث
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويـــد   القاهـــرة ١٩٥٠م

ثـــانيـــاً ـ مصادر ومراجع باللغة الفارسيـــة

١٠٧ ـ آبرو (حافظ ـــ عبد الله بن لطف الله بن عبد الرشيد)   وفاته ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م
" زبدة التواريـــخ بايسنقرى "   (ظفرنامة جلد دوم)
بسعى واهتمام فلكس تاور   براغ ١٩٥٦
١٠٨ ـ رشيد الدين (فضل الله الوزير عماد الدولة أبي الخيرين موفق الدولة) وفاته ٧١٨هـ/ ١٣١٨م " جامع التواريخ " جلد أول
بوكشش دكتر بهمي كريمي   تهران ١٣٣٨
١٠٩ ـ سمرقندي (كمال الدين عبد الرزاق ـــ) وفاتـــه ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م
" مطلع سعدين ومجمع بحرين "   قسمت أول
به اهتمام دكتر عبد الحسين نوائي   تهران ١٣٥٦ شمسي هجري
١١٠ ـ شامي (نظام الدين ـــ)   وفاتـــه ٨١٤هـ/ ١٤١١م
" ظفر نامة "
تحقيق فلكس تاور   بيروت ١٩٢٧
١١١ ـ قـــزوينـــي (عالم فاضل حمد الله مستوفي ـــ)   وفاته ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م
" كتاب نزهة القلوب "
بسعي واهتمام كاي ليسترانج انكليسي   ليدن ١٩١٩
١١٢ ـ مشكور (دكـــتر محمد جواد ـــ)
" تاريـــخ تبريزتا پايان قرن نهم هجري "
مقفل مكان الطبع   ١٣٥٣ هـ . ش
١١٣ ـ ميرخوند (محمد خاوند شاه ـــ)   وفاته ٨٥٨ هـ/ ١٤٩٨م
" روضة الصفا "   سبعة أجزاء
١٢٧٠ ـ ١٢٧١ هـ
١١٤ ـ يزدي (مولانا شرف الدين علـــي ـــ)   وفاته ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤
" ظفر نامه "   دو جلد
إشراف وتصحيح محمد عباسي   ١٣٣٥ شمسي هجرى

ثالثـــاً ـ مصادر ومراجع باللغة التركية

١١٥ ـ جودت بـــاشـــا   وفاتـــه ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م
" تاريـــخ جودت "   ١٢ مجلداً
دار الطباعة العامـــرة   ١٢٥٧ هـ

١١٦ _ رشـاد (علـي ـــ)
" تـاريـخ عـمـومي " أربع مجلدات
استامبول ١٣٤١ هـ

١١٧ _ فريدون بيك (محمد ـــ) وفاته ٩٩١هـ /١٥٨٣م
" مجموعة منشآت السلاطين " جزءان
القسطنطينية ١٢٦٤ هـ

١١٨ _ كامل بـاشـا الصدر الأعظم ـــ)
" تاريخ سياسي دولة علية عثمانية "
مغفل مكان الطبع وزمانه

١١٩ _ كمال (أثيـر ـــ)
" أوراق بريشان ، دور استيلا "
مغفل مكان الطبع ١٣٠١هـ

رابعـاً _ مصادر ومـراجـع باللغـة الفـرنسيـة

120 - Bayani (K.): Hafiz-i-Abru. Chromique des Rois Mongols en Iran . Paris 1936

121 - Beageron (P.): Voyages en Asie dans les XII - XIII - XIV - XV - siècles (deux tomes)

122 - Blochet (E.): Introduction a l'histoire des Mongols London 1910

123 - Boulenger(A): Histoire générale de L'Eglis tome II Le Moyen Age volume. VI Paris - Lyon 1936

124 - Bouvat (L.) L'Empire Mongol (2eme phase) Paris 1927

125 - Bréhier (L.) Le Monde Byzantin . Vie et mort de Byzance Paris, 1947

126 - Bréhier (L.) Les Croisades Paris 1928

127 - Cahun (M.L.) Formation territoriale de L'Asie.Timour et le second Empire Mongol (Histoire du IV siècle à nos jours) publiée sous la direction du Lavisse et Rambaud (tome III) Paris 1931

128 - Cordier (M.H.) Turcs et Byzance (Melanges offerts à M. Gustave Schlumberger) Paris 1924

Persane d'Abou-Taleb-Al-Hosseini, avec la vie de ce conquerant, d'apres les Meilleurs Auteurs Orientaux, des Notes, et des Tables historique[ ]Geographique[ ] Paris MDCCLXXXVII(1787)

144 - Langlès(L.): Vie de timour. Paris MDCCLXXXVII

145 - Lamb(H.): La vie de tamerlan (traduit de L'Anglais par Pieere Jean Robert).Paris 1931

146 - Loenertz(R.): La Société des Frères Peregrinants. Paris 1937

147 - Morgan(J.): Histoire du Peuple Armenien Nancy-Paris -Strasbourg. MCMXIX. (1919)

148 - Oumiakoo(I.) et Aleskerou(Y.): Samarkand.. Moscou 1973

149 - Papadopoulo(A.):L'Islam et l'art musulman. Paris 1976

150 - Pasdermadjian(P.): Histoire de L'Armenie. Paris 1964

151 - Pelliot(P.): Les Mongols et La Papauté. Paris 1924

152 - Percheron(M.): Sur les pas de Gengis-Khan. Paris 1956

153 - perroy(E.), Auboyer(J.), Cahun(C.), Duby(G.) et Mollat (N.): Histoire générale des civilisations T.III Paris 1961

154 - Prawdin(M.): L'Empire Mongol et Tamerlan. Paris 1937

155 - Prasad(M.I.): L'Inde du VII^e au XVI^e siècle. Paris 1930

156 - Rambaud(M.A.): Fin de L'Empire Grec-Fondation de L'Empire Ottoman (Histoire générale du IV^e siecle à nos jours T. III) publiée sous la direction de E. Lavisse et A.Ranbaud. Paris 1931

157 - Richard(J.): La Papauté les mission d'Orient au Moyen Age. Rome 1977

158 - Sauvaget(J.): Introduction a l'histoire de L'Orient Musulman. Paris 1961

159 - Spuler (B.): Les Mongols en histoire. Paris 1961

خامسا ـ مصادر ومراجع باللغة الانكليزية :

160 - Barthold(W.): Four studies on The History of Central Asia (translated from The Russian by

Persane d'Abou-Taleb-Al-Hosseini, avec la vie de ce conquerant, d'apres les Meilleurs Auteurs Orientaux, des Notes, et des Tables historique[ ]Geographique[ ] Paris MDCCLXXXVII(1787)

144 - Langlès(L.): Vie de timour. Paris MDCCLXXXVII

145 - Lamb(H.): La vie de tamerlan (traduit de L'Anglais par Pieere Jean Robert).Paris 1931

146 - Loenertz(R.): La Société des Frères Peregrinants. Paris 1937

147 - Morgan(J.): Histoire du Peuple Armenien Nancy-Paris -Strasbourg. MCMXIX. (1919)

148 - Oumiakoo(I.) et Aleskerou(Y.): Samarkand.. Moscou 1973

149 - Papadopoulo(A.):L'Islam et l'art musulman. Paris 1976

150 - Pasdermadjian(P.): Histoire de L'Armenie. Paris 1964

151 - Pelliot(P.): Les Mongols et La Papauté. Paris 1924

152 - Percheron(M.): Sur les pas de Gengis-Khan. Paris 1956

153 - perroy(E.), Auboyer(J.), Cahun(C.), Duby(G.) et Mollat (N.): Histoire génerale des civilisations T.III Paris 1961

154 - Prawdin(M.): L'Empire Mongol et Tamerlan. Paris 1937

155 - Prasad(M.I.): L'Inde du VII^{e} au XVI^{e} siècle. Paris 1930

156 - Rambaud(M.A.): Fin de L'Empire Grec-Fondation de L'Empire Ottoman (Histoire génerale du IV^{e} siecle à nos jours T. III) publiée sous la direction de E. Lavisse et A.Ranbaud. Paris 1931

157 - Richard(J.): La Papauté les mission d'Orient au Moyen Age. Rome 1977

158 - Sauvaget(J.): Introduction a l'histoire de L'Orient Musulman. Paris 1961

159 - Spuler(B.): Les Mongols en histoire. Paris 1961

خامسا ـ مصادر ومراجع باللغة الانكليزية :

160 - Barthold(W.): Four studies on The History of Central Asia (translated from The Russian by

V. and T.Minorsky) Volume I.Leiden 1962

161 - Barthold(W.): Turkestan down The Mongol Invastion (translated by T.Minorsky). London 1962

162 - Barthold(W.): Ulugh Beg (translated from The Russian by V. and T.Minorsky). Leiden 1963

163 - Brinner(W.M.)(editor):Chronicle of Damascus 1389 - 1397 Los Angeles 1963

164 - Browne(E.G.): A Literay History of Perisa (Four volumes) . Cambridge 1928

165 - Budge(E.): Chronography of Abu-l-Farage Bar Hebraeus. Oxford 1932

166 - Frye(R.N.): Iran. London 1954

167 - Frye(R.N.): The Heritage of Persia. london 1962

168 - Gibb(H.A.R.): The Arabe Conquests in Central Asia. New-york 1970

169 - Gregory(J.S.) and Shave(D.W.): The U.R.S.S. Geographical Survey. New-york

170 - Grube(E.J.): Persian Painting in Fourteenth Century. Napoli 1972

171 - Haig(W.): Comparative Tables of Muhammadan and Christian Dates London 1939

172 - Hooson(D.J.M.):The Soviet Union London 1968

173 - Howorth(H.H.): History of The Mongols from The 9th to The 19th century (three Parts) London 1876

174 - Le Strange (G.)(editor):Narrative of The Spanish Embassy To The Court of Timour at Samarkand in The Year 1403 - 1406 (Bradway Travellers Series) London 1927

175 - Le Strange(G.)(translator): The Geographical Part of Nuzhat-Al-Qulub. Composed by Hamd-Alah Mustawfi of Qazwin in 740 (1340) Leyden and London 1919

176 - Martin(F.R.): Miniatures From The Period of Timour. Vienne 1926

177 - Merges(K.H.): Peoples Languages and Migrations in Central Asia. New-york London 1967

178 - Pearson(J.): Index Islamicus London-Cambridge

179 - Phillips(E.D.): The Mongols London 1969

180 - Pope(A.): A Survey of Persian Art (tow volumes) London and New-york 1939

181 - Rice (D.T.): Islamic Art. London 1975

182 - Saunders(J.J.): The History of The Mongol Conquests. London 1971

183 - Shave (T.): Geography of The U.S.S.R. New-york 1961

184 - Stewart(CH.)(translator): The Mulfuzat Timury or Autobiographical Memoirs of The Mongol Emperor Timur Written in The Jactay Turky Language Turned into Persian by Abu Talib Hussyny and Translated into English by Major Charles Stewart. London 1830

185 - Sykes (P.): History of Perasi (tow volumes) London 1958

186 - Terfer(B.)(translator and editor): The Bondage and Travels of Johanne Schiltberger in Europe - Asia and Africa 1396 - 1427. London MDCCCLXXIX (1879)

187 - Toynbee(A.): A Study of History (X volumes) Oxford - New-york - Toronto 1963

188 - Wilber(N.D.): Iran Past and Present Princeton 1967

سادساً _ المقالات العلمية

أ _ باللغة العربية

١٨٩ _ باركر (ايرنست) : " الحروب الصليبية "
مع مجموعة مقالات أخرى في مجلد تحت عنوان " تراث الاسلام "
ج ١ القاهرة ١٩٦٣ ترجمه علي أحمد عيسى ص ٨١ _ ١٤٧

١٩٠ _ الخشاب (يحيى) : " الشاهنامة للفردوسي "
مجلة تراث الانسانية القاهرة م ٤ ع ٧ تموز (يوليو) ١٩٦٦ ص ٥٠٩ _ ٥٣٠

زيات (حبيب) : " الديارات النصرانية في الإسلام "
مجلة الشرق بيروت م ٣٦ ع ٣ (تموز _ ايلول) ١٩٣٨ ص ٢٨٩ _ ٤١٨

١٩٢ _ شيخو (الأب لويس) : " النصرانية بين قدماء الترك والمغول "

مجلة الشرق بيروت م ١٦ ع ١٠ تشرين الأول ١٩١٣ ص ٧٥٤ _ ٧٧٢

١٩٣ _ الكرملي (الأب انستانس ـــ البغدادي) : " الهياطلة "

مجلة الشرق بيروت السنة العاشرة ٤ ٣ شباط ١٩٠٧ ص ١٢٤ _ ١٢٧

١٩٤ _ خليل (توزي عبد الحميد ـــ) : حملات تيمور على بغداد ٧٩٥ _ ٨٠٧ /

١٣٩٣ _ ١٤٠٥ م

مجلة المورد " الصادرة عن وزارة الثقافة والإعلام بغداد الجمهورية العراقية

م ٨ ع ٤ عدد خاص بغداد ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م ص ٦٥ _ ٧٢ .

ب _ باللغة الانكليزية :

195 - Codrington(K.):A Geographical Introduction to The History og Central Asia.
(The Geographical Journal "104" 1944 P.P. 27-40)

196 - H. A. R. G.: Timur Encyclopedia Britannica
Chigaco - London 1970 V. 22 P.P. 3-4

ج _ باللغة الفرنسية :

197 - Aubin(J.): Tamerlan à Bagdad (Arabica: revue d'Études Arabes. volume special publié a l'occasion du Mille-deeuxcentienne anneversaire à la fondation de Bagdad 1962)
P.P. 303-309

198 - Barthold(W.): Ču (Encyclopedie de L'Islam)T.I 1913P.902

199 - Barthold(W.): Litterature Caghtaí .
(E.I.)T. III 1936 P.P. 963 - 965

200 - Barthold(W.): Saraí. (E.I.)T.IV 1934 P.P. 163-164

201 - Barthold(W.): Tadjik. (E.I.)T. IV 1934 P. 628

202 - Barthold(W.): Tokhtamish.
(E.I.) T. IV 1934 P.P. 850 - 852

203 - Barthold(W.): Turkestan.
(E.I.) T. IV 1934 P.P. 942 - 943

204 - Barthold(W.): Les Turcs.
(E.I.) T. IV 1934 P.P. 947 - 957

205 - Barthold(W.) et Boyle (J.A.): Balasaghun.
(E.I.) T. I 1960 P.P. 1138 - 1139

206 - Barthold(W.) et Boyle (J.A.): Batu.
(E.I.)T.I 1960 P.P. 1138 - 1139

207 - Barthold(W.) et Frye(N.): Bukhara.
(E.I.)T.I 1960 P.P. 1333 - 1336

208 - Barthold(W.) et Spuler(B.): Dughlat .
(E.I.)T.II 1965 P.P. 637 - 638

209 - Barthold(W.) et spuler(B.): Issik-Kul
(E.I.)T.II 1965 P.P. 637 - 638

210 - Barthold(W.): Soghed.. (E.I.)T.IV 1934 P.P. 493 - 494

211 - Bausani(A.): Hurufyya.(E.I.)T.III 1971 P.P. 620 - 622

212 - Boworth(C.E.):Ilek-Khans.
(E.I.)T.III 1971 P.P. 1140 - 1144

213 - Bouvat(L.): Essai sur la civilisation timuride (Journal Assiatique)(Avril-Juin 1926)
T. CCVIII P.P. 193 - 222

214 - Bouvat(L.): Timur-Lang.
(E.I.)T.IV 1934 P.P. 818 - 820

215 - Honigmann(E.):Ortokides. (E.I.)T.III 1936 P. 1070

216 - Huart(C.): Documents de L'Asie Centrale. (Mission de Pelliot). Trois acctes notariés arabes de Yarakand .
(J.A.) ser II 4 (1944) P.P. 607 - 627

217 - Inalcik(H.): Bayazid I[er].
(E.I.)T.I 1960 P.P. 1151 - 1153

218 - Khder(M.) et Cahen(C.):deux actes de Waqf d'un Qarakhanide d'Asie Centrale avec une Introduction par Claud Cahen.
(J.A.)T.CCLV 1967 Fascicule No 3-4 P.P. 305 - 334

219 - Kljastornyj(S.G.) et Livsu(A.): Une Inscription inédite turques et soghdiènne-La Style de Servey
(J.A.)T. CCLIX 1971 P.P. 11 - 20

220 - Kouzmina(Helena): Nouvelles decouvertes archèologiques en Asie Centrale (Revue Historique)(497 Janvier - Mars 1971) P.P. 6 - 18

221 - Minorsky(V.): Shakki. (E.I.)T.IV 1934 P.P. 358 - 360

222 - Minorsky(V.): Tiflis. (E.I.)T.IV 1934 P.P. 791 - 802

223 - Minorsky(V.): Tugha-Timur. (E.I.)T.IV 1934 P. 864

224 - Minorsky(V.): Turan. (E.I.)T.IV 1934 P.P. 924 - 930

225 - Samoloviche: Les langues turques (E.I.)T.IV 1934 P.P. 956 - 963

226 - Sobernheim(M.): Barkuk. (E.I.)T.I 1913 P.P. 679 - 680

227 - Spuler(B.): Amu-Daria. (E.I.)T.I 1960 P.P. 467 - 470

228 - Spuler(B.): Bish-Blaik.(E.I.)T.I 1960 P.P. 1277-1278

229 - Tauer(F.): Hafiz-i-Abru. (E.I.)T.III 1971 P.P. 59 - 60

- خطأ -

« تيمورلنك : سياسته عصره أعماله »

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ب	٢	السامانين	اساما نيين
هـ	١٠	القيباق	انقبجاق
هـ	٣١	٧٩٩	٧٩١
ل	١	بمصدر	بمصادر
IV	٣٣	Mongols Iran	Mongols en Iran
VI	٣٣	Perface	Préface
VIII	١٦	الحديث	بالحديث
IX		نواتي	نوائي
٣	١٤	استعملتها	استعملها
٨	٢٣	1844	1944
١٣	٢٢	قزوين	آرال
٢٢	١٤	فبنو السائر	فبنوا السائر
٢٥	٣٣	: (٨) هنا ويرى	(٨) Grousset: op. cit. P. 125 هنا و يرى
٤٢	٢٩	الطفزغز	الطغزغز
٤٤	١٣	الميث	الليث
٤٤	٢٨	: (٤)	(٤) : rthold: op. cit. P. 200
٤٩	٥	انتقاء	انتفاء
٥٢	٣	مسلحة	مسلمة
٥٢	٧	فانطاز	فأطار
٦٦	١٨	١٢٥٦	١٢٥٨
٦٧	٣٦	خوندمير	ميرخوند
٧٣	١٣	مطلع الرابع عشر	مطلع القرن الرابع عشر
٧٤	١٥	للاستافدة	للاستفادة
٨٠	٢٥	1l origineou	l' origine au
٨٢	٢٢	أرسل حليفه	أرسل لحليفه
٨٤	٢١	ولدت عليه نعمة	ولدت له نقمة
٨٨	٧	كحكام	كحاكم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٨	٢٤	(١) : يزدي ج١ ص ٣٠ و	(١): يزدي ج١ ص٣٠ و ...ewart: op.cit.P.43
٨٨	٢٥	(٢): نامي ص١٥ ويزدي ج١ص٣١ و	(٢): نامي ص١٥ و يزدي ج١ ص٣١ و ...art: P.48
٨٨	٣٣	علاقة سببهة	علاقة سببية
١٠١	٢٧	Le strangetedit	...Strange (edit.)
١٠٢	٢٤	bondge	Bondage
١٠٢	٢٧	Tadiik	Tadjik
١٠٤	الأخير	انظر	انظر: Blochet: ibid.
١١١	٢٩	Aliterary	A literary
١١٢	١	تبقى	بقي
١١٤	٥	الناسيم	المخيم
١١٧	٣	محنقة	ملاحقته
١١٧	٣٦	:(٣) :(٤)	:(٣) Stewart :op. cit40 :(٤)
١١٩	٢١	ويورد يزدي في هذه	ويورد يزدي هذه
١٢٢	٢٨	بدا تيمور في نظره	بدا تيمور في نظره شخصية سياسية
١٣٢	٢١	(٤): يلاحظ اختلاف	(٤): يلاحظ اختلاف بين
١٣٤	٢١	:(٣) :(٤)	:(٣) Stewart: op.cit.72&73 :(٤)
١٣٥	٥	الواقعة في أقصى شرق هذا	الواقعة في غرب هذا
١٣٩	٢٤	ص٨٤ و	ص٨٢ و Stewart: ibid.
١٤٧	١٥	الفضا.	للفضا.
١٥٣	١٥	ليتيمور	لتيمور
١٧٢	٢٣	ص٤٦ و	ص٤٦ ...uvat: Timur Lang(E.I.)T.IV P.18
١٧٤	٧	نهر قارون	نهر قارن
١٧٥	٢٢	صوفي عند عناده	صوفي عن عناده
١٧٧	٢٥	حين	حيث
١٨٢	٣٦	P.41 Stewart	P.41: (٤) Stewart
١٩٣	٢٦	أوينك	أونيك
٢٠٥	٣٦	ذونثارية	زونثارية
٢١١	٢٧	القبحاقي	القبجاقي
٢١٩	١٦	مذكراته أن	مذكراته [illegible] أن
٢٢١	٢٣	[illegible]	[illegible]

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٢	٢	كرديتان	كردستان
٢٢٣	١٠	الترذمان	الترزمان
٢٢٥	٢٦	ارزن الروم	أرضروم
٢٢٩	٦	٧١٩	٧٩١
٢٣٣	٣٠	instits	instituts
٢٤١	١٣	واسترلي	واسترلوا
٢٤١	٣٤	prawdin	Prasad
٢٤٤	٣٤	prawdim	prasad
٢٤٥	٣	٧٢٠هـ (١٣٢٠م)	٧٢٩هـ (١٣٢٩م)
٢٤٩	٣٦	494	(٢): 494
٢٤٩	٣١	Broun	browne
٢٦٠	١٤	المديئة	المدنية
٢٦٥	٣	١٣٩٩هـ	١٣٩٩م
٢٦٧	[illegible]	مخاقبته	معاقبته
٢٧٨	١٢	يوسف	يرسف
٢٧٩	١	٧٩٨هـ (١٣٩٦ و	٧٩٨ و ٧٩٩ هـ (١٣٩٦و
٢٨٦	[illegible]	اسنات	لمنازاة
٢٩٢	١	ومحاولاته	ومحاوراته
٢٩٤	٣٩	مخطوطة تاريخية	مخطوطة تاريخه
٢٩٦	٣٤	الممتدة شمال غرب	الممتدة جنوب غرب
٣٠١	٣٣	في جنوب تبة	في شمال تبة
٣٠٩	٣٣	احتلال هند	احتلال الشام عـ
٣١١	٣٨	انقاهرة	القاهرة
٣٢٥	٤	يرعى	يراعي
٣٢٩	٢٢	فقدت	فقد
٣٣١	١٨	يدفعها لتيمور، كونه	يدفعها لتيمور، بحكم كونه
٣٣٤	١٩	الآن	الآلى
٣٣٩	٢١	٨٠٣ هـ(حزيران ١٤٠١)	٨٠١هـ (آب ١٣٩٩)
٣٤٦	٢٢	وربما ذهب اليه	وربما ما ذهب اليه
٣٥٨	٢٤	كنيسة	كنسية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦٣	الأخير	Langlès:ibid.	Langlès:ibid. :(٦)
٣٦٤	٢٠	المشول	بالدخول
٣٧١	١١	وتام	وقيام
٣٧٤	٢٥	أربيل	أردبيل
٣٧٥	٧	الستون ذراعا	ستين ذراعا
٣٧٨	١٩	٧٩٧	٧٩٣
٣٨١	٢٥	تحتيق	تحصين
٣٨٣	١٩	كانت يعتقد	كان يعتقد
٣٨٣	٣٤	خوندمير	ميرخوند
٣٨٥	٢٤	٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م	٧٩٣هـ(١٣٩١م)
٣٩١	١٠	وعلى الرغم ميرانشاه	وعلى الرغم من أن ميرانشاه
٣٩٣	٢٩	موءلف كتاب	موءلف الكتاب
٤٠٣	١٩	ولم يمد	ولم يتصد
٤٠٥	١٤	بأن	لأن
٤١٠	١٩	سريحوا	سريحو
٤١٤	٣	يوءون	يأوى
٤١٩	٦	الطرين الأخرى	الطرق الأخرى
٤٣٤	٢١	P. 964 browne	P.964:(ج) browne
٤٥٠	٢٨	يرى نفسه	يرى في نفسه
٤٦٨	١٤	ممثلوا	ممثلو
٤٦٧	٣٤	(E.A.V.22P.3_4)	(E.B.V. P.3_4)
٤٧٠	٣٤	perface	Pre-
٤٧١	١	٩٣٤هـ/ ١٥٢٧ م	٩٣٢هـ/ ١٥٢٥ م
٤٧٩	١٨	أن يمبينه ا كما	أن يمينه ا كما
٤٨٠	٢٧	Arabic	Arabica
٤٨٥	٢٣	P.112 Browne	P.112: (٩) Browne
٤٨٨	٢٩	ان تيمور لم يوفق	ان تيمور لم يوفق
٤٩٣	٢	٠٣٣١ م	١٣٣١ م
٥٠٠	١٩	الاقتصادية	الاقتصاد
٥٠٢			

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٤	٤	compagnos	compagnons
٥٠٤	١٩	La Pinture	La Peinture
٥٠٥	١٣	Omiakoo	Omniakoo
٥٠٦	٢	Invastion	Invasion
٥٠٦	٨	Literay	Literary
٥٠٩	٢٠	Acctes	Actes

تصحيحات خاصة بالصفحة ٤٤٧

السطر	الخطأ	الصواب
٣	المسافة (١)	المسافة
٤	صباء (٢)	صباء (١)
٦	عرجه (٣)	عرجه (٢)
١١	التركية (٤)	التركية (٣)
١٤	البنصر (٥)	البنصر (٤)
١٦	الثيا • (٦)	الأثيا • (٥)
١٧	الأعرج (٧)	الأعرج (٦)
٢٢	وتقدم (٨)	وتقدم (٧)
٢٢	بنيته (٩)	بنيته (٨)
٢٣	آدمي (١٠)	آدمي (٩)
٢٧	Spiler	Spuler
٢٧	وقد أورد هذا الأخير	وقد أورد سبولر
٢٩	" يحذف انها من رقم (٤) بكامله "	
٣٠	"يحذف السطر بكامله "	
٣١	(٥): Le Strange:ibid.	(٤): Le Strange:ibid.
٣١	(٦): ابن عربشاه ص٢٠٩ و٢٢٧	(٥): ابن عربشاه ص٢٠٩ و٢٢٧
٣٢	(٧): ابن عربشاه ص٢٠٩ (٨): ابن عربشاه ص٧	(٦): ابن عربشاه ص٢٠٩ (٧): ابن عربشاه ص٧
٣٣	(٩): ابن عربشاه ص٣٧	(٨): ابن عربشاه ص٣٧
٣٤	(١٠) : ابن الشحنة ص٢١٥	(٩) : ابن الشحنة ص٢١٥

" تيمورلنك : حياته وعصره وأعماله "

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ب	٣	الساما نين	السامانيين
هـ	١٠	القيجاق	القبجاق
هـ	٢١	٧٩٩	٧٩١
ل	١	بمصدر	بمصادر
IV	٣٣	Mongols Iran	Mongols en Iran
VI	٣٣	Perface	Préface
VIII	١٦	الحديث	بالحديث
IX		نواتي	نوائي
٣	١٤	استعملتها	استعملها
٨	٣٣	1844	1944
١٣	٢٢	قزوين	آرال
٢٢	١٤	فبنو المآثر	فبنوا المآثر
٢٥	٣٣	(٨) : هنا ويرى	(٨) Grousset: op. cit. P. 125 هنا و يرى
٤٢	٢٩	الطفزغز	الطفزغز
٤٤	١٣	اليث	الليث
٤٤	٢٨	(٤) :	(٤) : Berthold: op. cit. P. 200
٤٩	٥	انتقا •	انتفاء
٥٢	٣	مسلحة	مسلمة
٥٢	٧	فانحاز	بأغار
٦٦	١٨	١٢٥٦	١٢٥٨
٦٧	٣٦	خوندمير	ميرخوند
٧٣	١٣	مطلع الرابع عشر	مطلع القرن الرابع عشر
٧٤	١٥	للاستافدة	للاستفادة
٨٠	٢٥	1' origineou	1' origine au
٨٢	٢٢	أرسل حليفه	أرسل لحليفه
٨٤	٢١	ولدت عليه نعمة	ولدت له نقمة
٨٨	٧	كحكام	كحاكم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٨	٢٤	(١) : يزدي ج١ ص٢٠ و	(١): يزدي ج١ ص٢٤ و Stewart: op.cit.P.43
٨٨	٢٥	(٢): شامي ص١٥ ويزدي ج١ص٣١ و	(٢): شامي ص١٥ و يزدي ج١ص٣١ و Stewart:P.48
٨٨	٣٣	علاقة شبيهة	علاقة سببية
١٠١	٢٧	Le strangetedit	Le Strange (edit.)
١٠٢	٢٤	bondge	Bondage
١٠٢	٢٧	Tadiik	Tadjik
١٠٤	قبل الأخير	انظر	انظر: Blochet: ibid.
١١١	٢٩	Aliterary	A literary
١١٢	١	تبقى	يتقى
١١٤	٥	الناصي	الحكيم
١١٧	٣	ملحقة	ملاحقته
١١٧	٢٦	(٣): (٤):	(٣): Stewart :op. cit40 (٤):
١١٩	٣١	ويورد يزدي في هذه	ويورد يزدي هذه
١٢٢	٢٨	بدا تيمور في نظره	بدا تيمور في نظره شخصية مناسبة
١٣٢	٣١	(٤): يلاحظ اختلاف	(٤): يلاحظ اختلاف بين
١٣٤	٣١	(٣): (٤):	(٣)Stewart:op.cit.72&73 (٤):
١٣٥	٥	الواقعة في أقصى شرق هذا	الواقعة في غرب هذا
١٣٩	٢٤	ص٨٤ و	ص٨٢ و Stewart:ibid.
١٤٧	١٥	التقطا.	نلتقطا.
١٥٣	١٥	ليتيمور	لتيمور
١٧٢	٣٣	ص٤٦ و	ص٤٦ uvat: Timur Lang(E.I.)T.IV&18
١٧٤	٢	نهر قارون	نهر قارن
١٧٥	٢٢	صوفي عند عناده	صوفي عن عناده
١٧٧	٢٥	حين	حيث
١٨٧	٢٦	Stewart P.41	(٤)Stewart P.41:
١٩٣	٢٦	اوينك	اونيك
٢٠٥	٢٦	ذونفارية	زوننارية
٢١١	٢٧	القبجاقي	القبجاقي
٢١٩	١٣	مذكراته أن	مذكراته الى أن
٢٢١	٢٣	تقرير	تقدير

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٢	٢	كرديتان	كردستان
٢٢٣	١٠	التركسان	التركمان
٢٢٥	٢٦	ارزن الروم	أرزن روم
٢٢٩	٦	٧١٩	٧٩١
٢٣٣	٣٠	instits	instituts
٢٤١	١٢	واستولى	واستولوا
٢٤٢	٣٤	prawdin	Prasad
٢٤٤	٣٤	prawdim	prasad
٢٤٥	٣	٧٢٠هـ (١٣٢٠م)	٧٢٩هـ (١٣٢٩م)
٢٤٩	٣٦	494	(٢): 494
٢٥٩	٣١	Broun	browne
٢٦٠	١٤	المدينة	المدنية
٢٦٥	٣	١٣٩٩هـ	١٣٩٩م
٢٦٧	٣٦	متاقبته	مما قبته
٢٧٨	١٢	يوسف	يرسف
٢٧٩	١	٧٩٨هـ (١٣٩٦ و	٧٩٨ و ٧٩٩ هـ (١٣٩٦و
٢٨٦	٤	امدقات	لملاقاة
٢٩٢	١	ومحا ولاته	ومحا وراته
٢٩٤	٢٩	مخطوطة تاريخية	مخطوطة تاريخه
٢٩٦	٣٤	الممتدة شمال غرب	الممتدة جنوب غرب
٣٠١	٣٣	في جنوب ثبة	في شمال ثبة
٣٠٩	٣٣	احتلال عند	احتلال الشام عند
٣١١	٣٨	القاهرة	الفاخرة
٣٢٥	٤	يرعى	يراعي
٣٢٩	٢٢	فقدت	فقد
٣٣١	١٨	يدفعها لتيمور، كونه	يدفعها لتيمور، بحكم لونه
٣٣٤	١٩	الآن	الا الى
٣٣٩	٣١	٨٠٣ هـ(حزيران ١٤٠١)	٨٠١هـ (آب ١٣٩٩)
٣٤٦	٣٢	وربما ذهب اليه	وربما ما ذهب اليه
٣٥٨	٢٤	كنيسة	كنيسة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦٣	الأخير	Langlès:ibid.	Langlès:ibid. :(٦)
٣٦٤	٢٠	الدشول	بالمثول
٣٧١	١٦	وقام	وقيام
٣٧٤	٢٥	أرنبيل	أردبيل
٣٧٥	٧	الستون ذراعا	ستين ذراعا
٣٧٨	١٩	٧٩٧	٧٩٣
٣٨١	٢٥	تحقيق	تحصين
٣٨٣	١٩	كانت يعتقد	كان يعتقد
٣٨٤	٣٤	خوندمير	ميرخوند
٣٨٥	٢٤	٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م	٧٩٣هـ(١٣٩١م)
٣٩١	١٠	وعلى الرغم ميرانشاه	وعلى الرغم من أن ميرانشاه
٣٩٣	٢٩	مؤلف كتاب	مؤلف الكتاب
٤٠٣	١٩	ولم يمد	ولم يتعد
٤٠٥	١٤	بأن	لأن
٤١٠	١٩	سريصوا	سريصو
٤١٤	٢	يؤوي	يأوي
٤١٩	٦	الطريق الأخرى	الطرق الأخرى
٤٣٤	٢١	P. 964 browne	P.964:(٤) browne
٤٥٠	٢٨	يرى نفسه	يرى في نفسه
٤٥[illegible]	١٤	ممثلوا	ممثلو
٤٦[illegible]	٣٤	(E.A.V.22P.3_4)	(E.B.V.22P.3_4)
٤٧[illegible]	٣٤	perface	Preface
٤٧[illegible]	١	٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م	٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م
٤٧٩	١٨	أن يميينه حاكما	أن يمينه حاكما
٤٨[illegible]	٣٧	Arabic	Arabica
٤٨٥	٣٣	P.112 Browne	P.112: (٩) Browne
٤٨٨	٢٩	أن تيمور لم يوفق	أن تيمور لم يوفق
٤٩٣	٢	٠٣٣١ م	١٣٣١ م
٥٠٠	١٩	الاقتصادية	الاقتصاد
٥٠٢	١٣	Chromique	Chronique

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٤	٤	compagnos	compagnons
٥٠٤	١٩	La Pinture	La Peinture
٥٠٥	١٣	Omiakoo	Omniakoo
٥٠٦	٢	Invastion	Invasion
٥٠٦	٨	Literay	Literary
٥٠٩	٢٠	Acctes	Actes

تصحيحات خاصة بالصفحة ٤٤٧

السطر	الخطأ	الصواب
٣	المسافة (١)	المسافة
٤	صباه (٢)	صباه (١)
٦	عرجه (٣)	عرجه (٢)
١١	التركية (٤)	التركية (٣)
١٤	البنصر (٥)	البنصر (٤)
١٦	الأنفياء (٦)	الأغنياء (٥)
١٧	الأعرج (٧)	الأعرج (٦)
٢٢	وتقدم (٨)	وتندم (٧)
٢٢	بنيته (٩)	بنيته (٨)
٢٣	آدمي (١٠)	آدمي (٩)
٢٧	Spiler	Spuler
٢٧	وقد أورد هذا الأخير	وقد أورد سبولر
٢٩	" يحذف الهامش رقم (٤) بكامله "	
٣٠	"يحذف السطر بكامله "	
٣١	(٥): Le Strange: ibid.	(٤): Le Strange: ibid.
٣١	(٦): ابن عربشاه ص٢٠٩ و٢٢٧	(٥): ابن عربشاه ص٢٠٩ و٢٢٧
٣٢	(٧): ابن عربشاه ص٢٠٥ (٨): ابن عربشاه ص٧	(٦): ابن عربشاه ص٢٠٥ (٧): ابن عربشاه ص٧
٣٣	(٩): ابن عربشاه ص ٣٧	(٨): ابن عربشاه ص ٣٧
٣٤	(١٠): ابن الشحنة ص ٢١٥	(٩): ابن الشحنة ص ٢١٥